



موسوعة



هذا الرجل من مصر



لعمري المطيعي



دار الشروق



موسوعة هذا الرجل من مصر

الغلاف للفنان حلمى التونى
الرسوم للفنان ياسر عيد



الأستاذ لمعى المطيعى

* وكيل وزارة الثقافة المصرية للنشر
(سابقاً).

* اختير عضواً لمجلس إدارة اتحاد
كتاب مصر ومجلس إدارة اتحاد
الناشرين ومجلس إدارة مركز جامعة
القاهرة للنشر.

* اختارته موسوعة (مؤلفون
معاصرون) - جامعة ميتشجان
الولايات المتحدة الأمريكية كأحد
ثلاثة مفكرين مصريين تخصصوا
في تقديم الرواد في مصر.

* اختارته (الموسوعة القومية) - مصر
كواحد من أبرز المثقفين في مصر .

* أسهم في عضوية لجان الترجمة
والتاريخ وثقافة الطفل وفحص
الجوائز التشجيعية ومنح التفرغ
بالمجلس الأعلى للثقافة .

* مثل مصر في المؤتمرات الثقافية
بباريس وبكين وجنيف والزباط
وفرانكفورت .

* أعاد إصدار ورأس تحرير مشروع
الآلف كتاب (الثانى) - يناير
١٩٨٨ .

لمعنى المطيعى

موسوعة
هذا الرجل من مصر

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

الطبعة الثانية
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيويه المصري - رابطة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوياما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الإهداء
إلى روح أستاذنا
عميد الناشرين المصريين والعرب
الأستاذ محمد المعلم
لمسة وفاء ..

لمعى المطبعي

الإهداء
إلى روح أستاذنا
عميد الناشرين المصريين والعرب
الأستاذ محمد المعلم
لمسة وفاء ..

لمعى المطبعي

تقديم

أما قبل . . .

فهذه موسوعة جديدة في شكل جديد ومضمون جديد تضم تسعين رجلاً من مصر أثروا الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية والثقافية خلال فترة يمكن أن نطلق عليها سنوات التكوين بالنسبة لمصر الحديثة .

وهذه الموسوعة جزء من الإثراء الحقيقي للذاكرة الأمة وعقل المجتمع ووعى المواطن بما تضمه من دراسات تحليلية . ولم يكن غريباً أن أعرف من أصدقاء مغتربين خارج مصر أن أولادهم الذين يقرءون حتى الآن باللغة العربية انبهروا وكان سؤالهم الدائم : هل كان في مصرنا مثل هذه الشخصيات الرائدة ؟ وهذا كله يكفيني ويعزيني عن وأد هذه السلسلة في عز شموخها ونموها .

لقد لمعت هذه النجوم الزاهرة في سماء مصر ، واختلفت درجات الإضاءة التي تبعث بها ، ولكنها أعطت بقدر ما أتيح لها من رؤية في حدود زمانها وموقعها . وتحول الماضي إلى دم يسرى في عرق الحاضر لتستقيم خطانا نحو غد مشرق بذاكرة قوية تعى الماضي وتتفهم الحاضر .

لقد حرصت على أن تكون الشخصيات من مجالات إبداع مختلفة ، سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وثقافية ، وعلى أن تكون من روافد حزبية متباينة ، وعلى أن تكون نتاج مراحل زمنية مختلفة قبل يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبعد ذلك من أيام . والإطار العام لهذا العمل الكبير هو أن مصر العزيزة هي مصرنا جميعاً . . مصر معبد الكرنك . . ومصر الكنيسة المرقسية . . ومصر الأزهر الشريف . . هي مصرنا جميعاً . والرجال الذين نقدمهم هنا - حسب الترتيب الهجائي - تركوا ميراثاً زاخراً لأجيال كثيرة من بعدهم . وكل رجل منهم يكاد أن يمثل

نموذجاً مستقلاً في حد ذاته ، وإن شئت فقل مدرسة مستقلة في العطاء لمصر أياً كانت درجة اختلاف أو اتفاق القراء . فالدراسة تحمل رؤية فكرية واجتماعية وتقدم تقيماً جديداً لهذه الشخصية أو تلك ، وتعطى معالم جديدة لهذه الصور القديمة ، وتحى ذكراهم وتبرز دورهم . والمردود لنا - من وراء النشر - غال وثمين وهو تأكيد انتائنا لهذا الوطن العزيز ، ورفع من درجة معنوياتنا ، وشحداً لهمتتنا في مزيد من العطاء .

واحتلت كل شخصية دراسة مستقلة متكاملة من حيث الظروف الاجتماعية ، والأدوار السياسية ، والأفكار والآراء ، والآثار والبصمات مع عدم إغفال التعريف المادى والزمنى من حيث تواريخ الميلاد والوفاة ، ومن حيث التعليم ودرجاته ، ومن حيث العلاقات الاجتماعية مع الحرص على الإشارة إلى عدد من الأسانيد التى توضح الصورة لو أراد الباحث مزيداً من الايضاح أكثر مما تحتمله المساحة الصحفية التى أتيت لكل شخصية عند نشرها في جريدة أسبوعية مرة كل أسبوع .

وإذا كنت قد أظهرت الإيجابيات لدى بعض الشخصيات فليس معنى هذا أننى تخليت عن الموضوعية في التقويم أو التقييم ، تماماً كما حرصت على تسجيل الأسانيد والاقتباسات عند الحديث عن السلبيات .

وأرجو أن تكون هذه المجموعة الأولى بداية لعمل موسوعى آخر يضم القمم المصرية من الرجال والنساء وما أكثرهم فإن مصر الولود التى أنبت هؤلاء الرجال قد أنبت غيرهم ونمتهم وأرضعتهم وعاشت بهم ولهم . والله من وراء القصد .

العجوزة في أول أكتوبر ١٩٩٣ .

لمعى الطيعى

الدكتور أحمد أمين



في باريس ، وفي صباح ٣ أكتوبر ١٩٢٠ ، كان محمد كامل سليم يعرض البريد والأخبار على سعد زغلول رئيس الوفد المصري ، التفت سعد إلى سكرتيه الخاص يسأله «من يكون الأستاذ الشيخ أحمد أمين ؟» .

وأجاب كامل : هو أستاذ في مدرسة القضاء الشرعي ، والأول في ترتيب الخريجين من أول دفعة لهذه المدرسة ، وأحب الطلبة إلى عاطف بركات ناظر المدرسة الذي أظهر إعجابه به وتقديره بأن عينه أستاذاً مساعداً له . وهو - أي أحمد أمين - في مطلع الثلاثين من عمره واسع العلم متين الأخلاق صادق الوطنية .

وتلأل وجه سعد وتهلل غبطة لأنه هو الذي أنشأ مدرسة القضاء الشرعي سنة ١٩٠٧ عندما كان ناظراً (وزيراً) للمعارف (١٩٠٦ - ١٩٠٨) وتنفيذاً لفكرة أستاذه وصديقه الشيخ محمد عبده ، عاطف بركات ناظر المدرسة هو ابن شقيقته وقريب إلى قلبه وفصله الإنجليز سنة ١٩١٩ لمواقفه الوطنية .

اطمأن سعد إلى صدق أحمد أمين ، وإلى تقاريره عن أحوال مصر التي يرأسها صديقه محمد كامل سليم . . وأوماً سعد برأسه ليقرأ كامل التقارير التي أرسلها أحمد أمين .

التقرير الأول

الخطاب الأول بتاريخ ١١ سبتمبر ، وفيه يصف استقبال الناس لبعض أعضاء الوفد الذين وفدوا إلى مصر . وإذا كان استقبال الناس لبعض أعضاء الوفد على هذه الصورة فكيف يكون الأمر عند عودة سعد باشا ؟ وفي الخطاب إشارة إلى مقال في جريدة « المقطم » تغير فيه سياستها

وتتقرب إلى الأمة وتبتعد عن الإنجليز . وجاء في الرسالة « الرأى فى مصر يا كامل أميل إلى قبول مشروع الاتفاق بتحفظات » .

والمشروع الذى يشير إليه أحمد أمين هنا فى رسالته إلى محمد كامل سليم ، هو مشروع كان « ملنر » قد قدمه إلى الوفد فى ١٧ يوليو رأى فيه سعد زغلول حماية وليس استقلالاً ، وعزم على قطع المفاوضات والعودة إلى مصر ، وأعد بياناً إلى الأمة . ولكن غالبية الوفد من المعتدلين كان رأيهم « أن مصر بما ستنااله بهذا المشروع ستتطور به وستقوى ، وستصبح أقدر على المطالبة بحقوقها الباقى يوماً من الأيام » . وتقرر أن يعود إلى مصر أحمد لطفى السيد ، ومحمد محمود ، وعلى ماهر ، وعبد اللطيف المكباتى لعرض المشروع على الأمة على أن يكون هؤلاء على الحياد . ولكنهم لم يكونوا كذلك ، وأرسل سعد إلى مصر أكثر من عشرين خطاباً تكشف عن استنكاره للمشروع . وأرسل بهذا المعنى إلى أعضاء الوفد الثلاثة الذين كانوا فى مصر من قبل ، وهم مصطفى النحاس ، وويصا واصف ، وحافظ عفيفى . ويعد الموقف من « مشروع ملنر » هو البداية الحقيقية للانقسام فى الوفد .

التقرير الثانى

أما الخطاب الثانى الذى قرأه محمد كامل سليم على سعد زغلول ، فقد أرسله أحمد أمين فى ٢١ سبتمبر ١٩٢٠ وفيه « أن حركة الاستثناس برأى الأمة قد تمت ، والأغلبية العظمى كانت مائلة إلى قبول المشروع بتحفظات عديدة » . وبالخطاب إشارة واضحة إلى أن بعض المصريين دهش من هذا المشروع وما كان يتوقع أن انجلترا تسمح بما سمحت به .

وأعجب سعد برصانة أحمد أمين ، وبطريقة عرضه للواقع والحوادث بالتحليل والتجليل . ولفت نظر سعد تركيز أحمد أمين على « التحفظات العديدة » وأن الخطاب إشارة واضحة إلى أن بعض المصريين دهش من هذا المشروع وما كان يتوقع أن انجلترا تسمح بما سمحت به .

وفى ٤ أكتوبر وصل المندوبون الأربعة (الذين كانوا قد سافروا إلى مصر لشرح مشروع ملنر وصلوا من مصر إلى باريس فاتهمهم سعد صراحة بأنهم لم يبينوا عيوب المشروع مطلقاً ، وبأنهم أثاروا فى نفوس المصريين آمالاً ليس إلى تحقيقها من سبيل وأن الواجب عليهم كان يقضى بأن يلتزموا جادة الحق والواقع حتى يرى الناس مخازى المشروع وأضراره .

على أية حال فإننا نعرف مما كتبه محمد كامل سليم أن سعد زغلول حتى أكتوبر ١٩٢٠ لم يكن يعرف أحمد أمين بشخصه وإن كان قد أعجب بالرسائل التى يرسلها إلى صديقه كامل فى باريس .

رواية أحمد أمين

أما الشيخ أحمد أمين فنعرف من كتابه « حياتي » أنه اتصل بجريدة حزب الأمة المسماة «بالجريدة» التي كان يرأس تحريرها أحمد لطفى السيد .

ثم تعرف سنة ١٩١٤ على « بضعة من خيار الطلبة تخرجوا من مدرسة المعلمين العليا » وهم : أحمد زكى ، وأحمد عبد السلام الكردانى ، ومحمد عبد الواحد خلاف ، ومحمد كامل سليم ، ومحمد الغمراوى . ثم انضم إلى جماعتهم ثلاثة من خريجي مدرسة الحقوق هم حسن مختار رسمى ، ويوسف الجندى ، وصبرى أبو علم . وشكلوا لجنة يدفع كل عضو فيها « عشرة قروش » فى كل شهر ، وإذا ألف أحدهم كتابا يقرؤه على الآخرين ويسهمون جميعا فى طباعته فكانت «لجنة التأليف والترجمة والنشر» سنة ١٩١٤ . وفى الوقت نفسه كانت مجموعة أخرى تتكون من الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، وعزيز ميرهم ومحمد كامل سليم ، وأحمد زكى ، وعبد الحميد حمدى تلتف حول جريدة أسبوعية أصدرها عبد الحميد حمدى ، وهى جريدة «السفور» . وكان من الطبيعى أن تلتقى الجماعتان .

وبعد أن تكون الوفد (١٩١٨) فكر هؤلاء فى أن يكون لهم ممثل فى الوفد . وذهب اثنان أحدهما أحمد أمين لمقابلة سعد زغلول الذى اختار لعضوية الوفد الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ولكن يبدو أن هذه المقابلة السريعة مع سعد لم تترك انطبعا لدى سعد عن أحمد أمين لا بالاسم ولا بالشكل ، وهذا يفسر سؤال سعد لمحمد كامل سليم : من هو صديقك الشيخ أحمد أمين ؟

ومهما يكن من أمر ، فلما اشتعلت نيران الثورة كان الشيخ أحمد أمين من المتصلين بعبد الرحمن فهمى سكرتير اللجنة المركزية للوفد . ويقول فى « حياتي » إنه كان يرسل إلى محمد كامل سليم فى باريس « تقارير إلى سكرتير سعد ليطلع عليه عليها ، وكانت هذه سببا فى معرفة سعد باشا بى ، وكان يرسل إلى الشفرة الجديدة إذا غابت لأوصلها إلى بعض الأعضاء فى مصر ، إذ كنت شيخا مدرسا فى مدرسة القضاء لا يظن أحد أن أمرا خطيرا كهذا يأتى إلى » .

«ولما انقسم الوفد كنت فى صف سعد باشا ومن مؤيديه والداعين له ، ومع ذلك لم يضع استقلالى فى التفكير» . وفى صراحة شريفة يقول فى موضع آخر « ظللت أساهم فى السياسة وأشارك بعض من صاروا من زعماء السياسيين مثل محمود فهمى النقراشى ويوسف الجندى وصبرى أبو علم ، ولكن لم اندفع اندفاعهم ولم أظهر فى السياسة ظهورهم لأسباب أهمها أنى لم أشجع شجاعتهم فكنت أخاف السجن وأخاف العقوبة » .

الفكر الإسلامى

أحمد أمين خاف السجن وخاف العقوبة فابتعد عن السياسة ، واكتفى فى شبابه بتأييد الثورة (١٩١٩) وخطب فى التجمعات مناديا بوحدة الشوار ووحدة الوطن ، ونراه سنة ١٩٤٥ وقد قارب الإحالة إلى المعاش (ولد فى أول أكتوبر سنة ١٨٨٦) يعتذر عن عدم رئاسة تحرير جريدة «الأساس» التى اعتزم السعديون إصدارها لسانا لحالهم . وكان فى ذلك الوقت منصرفا لأعماله فى لجنة التأليف والنشر ، وفى الجامعة الشعبية ، وفى دار الكتب ، وفى اللجان المختلفة التى هو عضو فيها .

وفى تقديرنا أن الكتب التى ألفها أحمد أمين (١٢ عملا) هى التى بقيت له . وإن كان « فيض الخاطر» فى ١٠ أجزاء ، و«النقد الأدبى» فى جزأين ، و«قصة الفلسفة الحديثة» فى جزأين . . فإن «فجر الإسلام وضحاه وظهره» هى أقدر أعمال أحمد أمين على البقاء ، على حد تعبير دكتور طه حسين ، وهى من أقوم وأروع ما وضع عن الحياة العقلية والفكرية للإسلام كما قال دكتور عبد الرزاق السنهورى . وحسبه أنه حلل الحياة العقلية للعرب والمسلمين تحليلا لم يتهيا مثله لأحد من قبله ، كما قال عنه أحمد حسن الزيات .

ولم يكن هذا العمل - فى تقديرنا - مصادفة وإنما هو نتاج حياة أحمد أمين ، ونتاج لتطوره العقلى ، ونتاج للبيئة التى عاشها وللظروف التى مر بها أو التى مرت به .

ولد فى الساعة الخامسة صباحا من أول أكتوبر سنة ١٨٨٦ ، وكان هذا التاريخ إرهابا بأنه سيكون مدرسا ، فأول أكتوبر عادة هو بدء افتتاح الدراسة «وشاء الله أن أكون كذلك . فكنيت مدرسا فى مدرسة ابتدائية ، ثم فى مدرسة ثانوية ، ثم فى عالية» . ووالده «يحفظ القرآن ويلتحق بالأزهر . ويبحث عن عمل يكسب منه بجانب دراسته فيكون مصححا بالمطبعة الأميرية» . وكان - أى والده - مولعا بالكتب فى الفقه والتفسير والحديث ، واللغة والأدب ، والنحو والصرف والبلاغة . ثم أصبح مدرسا فى الأزهر ، ومدرسا فى مسجد الإمام الشافعى وأمام مسجد «ويغمر البيت الشعور الدينى ، فأبى أكثر من قراءة القرآن صباحا ومساء» .

ودخل أحمد أمين الكتاب ، وتنقل فى أربعة كتاتيب ، ودخل المدرسة الابتدائية ، ثم التحق بالأزهر وحضر دروسا فى الفقه الحنفى لأنه هو الفقه الذى يعد للقضاء . ودخل سنة ١٩٠٧ مدرسة القضاء الشرعى واجتاز امتحانها النهائى سنة ١٩١١ . وعين مدرسا فى مدرسة القضاء وقاضيا فى الواحات الخارجة سنة ١٩١٣ . وتعرف سنة ١٩١٤ - كما أشرنا - إلى مجموعة تخرجت فى المعلمين العليا . وأخذ فى تعلم اللغة الإنجليزية ، وعرض عليه صديقه دكتور طه حسين أن

يكون مدرسا بكلية الآداب . وقد هيات له الجامعة رحلات خارج مصر . وخلع الزى الأزهرى وارتنى الزى الأفرنجى .

وفى تلك الفترة وضع الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين مشروعا لدراسة الحياة الإسلامية . . يختص الدكتور طه بالحياة الأدبية ، والعبادى بالحياة التاريخية ، وأحمد أمين بالحياة العقلية . . وهكذا صدر « فجر الإسلام » سنة ١٩٢٨ ، وقدر له أن يصدر بعد ذلك ضحى الإسلام « وظهر الإسلام » أما زميله فقد عاقتهما عوائق عن الإسهام فى المشروع .

الجامعتان

فى حياة مصر الثقافية فى الثلاثينات والأربعينات ظاهرة ثقافية لم تتكرر بعد ، تلك هى ظاهرة مجلتى « الرسالة » و« الثقافة » . صدر العدد الأول من مجلة « الرسالة » فى ١٥ يناير ١٩٣٣ ، وصدر العدد الأخير فى ٢٣ فبراير ١٩٥٣ . أصدرها ورأس تحريرها أحمد حسن الزيات وكانت نصف شهرية ثم أسبوعية . وكان شعارها « ربط القديم بالحديث ، ووصل الشرق بالغرب » .

وفى ٣ يناير ١٩٣٩ أصدرت « لجنة التأليف والترجمة والنشر » وهى اللجنة التى تأسست سنة ١٩١٤ ، واختير أحمد أمين رئيسا لها ، وكان هذا الاختيار يجدد كل عام إلى أن توفى عام ١٩٥٤ . ووضعت مجلة « الثقافة » اسم أحمد أمين كرئيس للجنة التأليف والترجمة وكصاحب امتياز للمجلة . وتولى رئاسة التحرير محمد عبد الواحد خلاف ، ومع ذلك كان يعهد لبعض أعضاء اللجنة بالإشراف على التحرير مثل محمد فريد أبو حديد ، وزكى نجيب محمود ، ولأسيما فى السنوات الأخيرة التى لم يتفرغ فيها أحمد أمين للمجلة . وإذا كان أحمد حسن الزيات قد تحدث فى مجلة « الرسالة » عن وصل الشرق بالغرب ، فإن أحمد أمين كان أكثر وضوحا فى عرض هذه الفكرة فى افتتاحية العدد الأول فتحدث عن ارتباطنا بهذا العلم والأدب ، وكيف أن المدنية الغربية طوعا أو كرها ، تدفعنا فى تيارها دفعا حتى أصبح الشرق مرتبطا بالغرب ارتباطا وثيقا فى كل مرفق من مرافق الحياة .

وكان موقف مجلة « الثقافة » من التيارات الفكرية والفنية موقفا يميزها عن « الرسالة » ، فقد عرفت بالمذاهب السياسية الحديثة فيما كتبه على أدهم وزكى نجيب محمود ومفيد الشوباشى ، وشجعت التيار الاجتماعى فى الأدب ولأسيما فيما كتبه فريد أبو حديد ، كما شجعت فن الرواية والمسرحية . كما كان نصيبها من العلوم الاجتماعية والنقد النظرى والتطبيقات نصيبا بارزا ، وكانت محاولات محمد خلف الله أحمد ، ومحمد مندور ، وزكى نجيب محمود ، وشوقى ضيف فى النقد جادة وجديدة معا . وإذا كانت « الرسالة » عنيت بالإبداع فى الأدب ، فإن « الثقافة » عنيت

بالتأصيل والتنظير . ومع ذلك كله - كما يقول د . على شلش - فكل منها تكمّل عمل الأخرى فيما يتعلق بكونها جامعتين حرتين .

وقد ناصرت « الرسالة » حركة الجيش ، وأعلنت عن تجديد أبوابها في أول يناير ١٩٥٣ لتساير « العهد الجديد » . ولكن في ٢٣ فبراير ١٩٥٣ صدر العدد الأخير منها ينعى « الرسالة » إلى القراء ، والافتتاحية الحزينة بعنوان « الرسالة تحتجب » . ولم يمد العهد الجديد يده لهذه الجامعة الحرة ، كما لم يمد يد المساعدة إلى الجامعة الحرة الأخرى ، ونعنى بها مجلة « الثقافة » التى صدر العدد الأخير منها في ٥ يناير ١٩٥٣ .

أكبر من عميد

وحياة أحمد أمين الشخصية ، وحياته العقلية ، وكلتاها نموذج يحتذى أو ينبغى أن يترك آثاره لدى أجيالنا الجديدة .

وقدر له أن يرى الغرب كما رأى الشرق ، فيكون له بدل العين عينان . واختير عضواً في مؤتمر المستشرقين الذى يعقد في هولندا وزار إنجلترا وفرنسا وإيطاليا . ويقول فى « حياتى » . . أنا رجل دخيل على الجامعة بحكم تربيتى الأزهرية ، وأنا رجل لم يتعلم فى مدرسة مصرية ولا أجنبية ، وأنا رجل لم أتعلم لغة أجنبية ، إلا ما تعلمته من اللغة الانجليزية بعناء . هذا الرجل بأعماله الموسوعية يرقى فى كلية الآداب إلى أستاذ مساعد . ومن غير الحصول على الدكتوراه يرقى إلى « الأستاذية » بفضل كتابيه « فجر الإسلام وضحاه » بعد أن فحصهما أستاذان مستشرقان . واختير ليكون ممثلاً لكلية الآداب فى مجلس الجامعة لعشر سنين .

وفى إبريل ١٩٣٩ اختير عميداً لكلية الآداب بعد أن حصل على أعلى الأصوات . وعلى صفحة ٢٩١ من الطبعة السادسة « لحياتى » يسجل « اختير ثلاثة وكنت أكثرهم أصواتاً فعيننى المرحوم محمود فهمى النقراشى باشا عميداً . . » والصحيح عندنا أن الذى عينه عميداً هو الدكتور محمد حسين هيكل الذى كان وزيراً للمعارف فى وزارة محمد محمود (٢٤ يونيو ١٩٣٨ - ١٨ أغسطس ١٩٣٩) . أما محمود فهمى النقراشى فقد أصبح وزيراً للمعارف فى وزارة على ماهر (١٨ أغسطس ١٩٣٩ - ٢٧ يونيو ١٩٤٠) ولعل صداقة أحمد أمين للنقراشى ، وتداخل الوظائف وتباعد الزمن هو السبب فى هذا الخطأ .

وبعد سنتين من العمادة ، وكان الدكتور محمد حسين هيكل وزيراً للمعارف وقام بنقل عدد من مدرسى كلية الآداب إلى الإسكندرية من غير أن يكون لأحمد أمين علم بشيء من ذلك ، فقدم استقالته من العمادة وصمم عليها إلى أن قبلت . وعاد إلى عمله كأستاذ وهو يردد قوله المشهور « أنا أصغر من أستاذ وأكبر من عميد » .

عاد أحمد أمين إلى عمله كأستاذ ، وعاد ليكمل سلسلة « فجر الإسلام » و« ضحى الإسلام » فأخرج « ظهر الإسلام » . وكان قد اختير عضواً بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٠ واشترك في كثير من لجانته مثل لجنة الأدب ، ولجنة ألفاظ الحضارة ، ولجنة المعجم الوسيط .

وكان رأيته أن المجمع ليست وظيفته الأساسية وضع المصطلحات ، وإنما عمله الأساسي هو وضع المعجم اللغوي التاريخي الأدبي الكبير . وهذا الإسهام الكبير في مجمع اللغة العربية يضاف إلى رصيد أحمد أمين في خدمة الثقافة . فقد أشرنا من قبل إلى تأسيس « لجنة التأليف والنشر » سنة ١٩١٤ ، وإلى إسهامه في مجلة « الرسالة » ثم إصدار مجلة « الثقافة » سنة ١٩٣٩ . وسنة ١٩٤٥ انتدب - وهو أستاذ بكلية الآداب - مديراً للإدارة الثقافية بوزارة المعارف . وكان الدكتور عبد الرزاق السنهوري وزيراً للمعارف . وإدارة الثقافة « إدارة ليس لها أول يعرف ، ولا آخر يوصف ، واختصاصها واسع سعة لا حد لها لمن شاء أن يعمل ، وضيق أشد الضيق لمن شاء ألا يعمل » .

ورحل أحمد أمين سنة ١٩٥٤ بعد أن قدم للثقافتين المصرية والعربية الكثير في هدوء بعيداً عن الصخب والضجيج ، وبعد أن أسهم في قضايا الوطن القومية دون دعاية أو بريق . وإن شئت وصفاً له فإنني أقدمه إليك بقلمه من صورة له ولصديق عزيز عليه فقدته بسبب عمادته لكلية الآداب . . أقدم الصورة التي رسمها لنفسه بعد أن حذفت صورة هذا الصديق العزيز عليه . . « أنا أقرب إلى الواقعية ، عالم يحكمه المنطق ، أحب الاختفاء وأحب الهدوء ، معتدل إذا أحببت أو كرهت ، هادئ إذا صادقت أو عاديت ، قلق مضطرب لست بغضوب ، تاجر إن كسبت كسبت قليلاً في بطن ، وإن خسرت خسرت قليلاً في بطن ، لا أحب السياسة ولا أحب المغامرة ، أريد أن أعمل لا أن أسيطر . . » .

هذه هي صفات أحمد أمين إن أردت أن تتشبه به ، وإن أردت أن تتشبه بصديقه العزيز الذي فقدته بسبب « العادة » فاقلب هذه الصورة تماماً . .

الأسانيد :

- ١ - أحمد أمين . . حياتي .
- ٢ - عبد العزيز مصطفى (مجلة الثقافة يناير ١٩٨٢) .
- ٣ - د . علي شلش - دليل المجلات الأدبية .
- ٤ - محمد كامل سليم - صراع سعد في أوروبا .
- ٥ - د . محمد مهدي حلام - المجمعون في ٥٠ عاماً .



الشيخ أحمد حسن الباقورى

أعرف أن بعض القراء الكرام من جماعة الإخوان المسلمين كان يود له ألا يشترك فى الوزارة رقم ٧١ من وزارات مصر التى شكلتها « الثورة » فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ برئاسة اللواء محمد نجيب . وقد رفض مكتب الإرشاد الاشتراك فى تلك الوزارة . وقد ظل جمال عبد الناصر فترة يظن أن حسن العشماوى هو صاحب فكرة قرار الإخوان ذلك ، وحاول أن ينال من حسن بسببه .

أعرف هذا ، وأعرف أن بعض القراء الكرام من الوفديين لم يزل يذكر أن حكومة « الوفد » قد اعتقلت الشيخ الباقورى فى ١٨ فبراير ١٩٤٣ لأنه حرض طلبة الأزهر على الإضراب والسير فى تظاهرة إلى عابدين لتتهنئة الملك فاروق بعيد ميلاده ، شأنه فى ذلك شأن قطاعات كثيرة من شباب الإخوان ومصر الفتاة والحزب الوطنى كانت فى تلك الفترة مخاصمة للوفد ولمصطفى النحاس وتأمل خيرا فى الملك .

أعرف هذا ، وأعرف غيره . . ولكننى أعرف أنه دخل التاريخ كعالم من علماء الأزهر الشريف ، وأحد الخطباء المعدودين فى العالم العربى ، وداعية من دعاة الإسلام والقومية العربية ، وعقل موسوعى المعرفة ، وزعيم لثورة الأزهر سنة ١٩٣٥ . ورئيس للمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين ، وعضو فى مجمع اللغة العربية . . . إلى آخر الصفات الطيبة التى عددها أستاذنا الدكتور محمد مهدى علام . ثم إنه « الرجل ، والعالم ، والأديب ، والإنسان ، ورجل العلم الغزير ، والأدب الجم ، والتواضع الودود ، والأسلوب الرصين المتمكن ، والحديث الحلو » على حد وصف الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ خالد محمد خالد . وهو « علم من أعلام الدعوة إلى الله على بصيرة وسماحة نادرة ، وفد على أروقة الأزهر المعمورة لينهل من موارد هذا البحر العتيق حيث المعهد ، صاحب العبق التاريخى التالذ » كما كتب الأستاذ الجليل الدكتور محمد شرف

الدين - جامعة الأزهر . ثم إنه كان يكفيه فخرا ما وصل إليه من مناصب علمية في الأزهر حتى منصب مدير جامعة الأزهر ، وتكفيه عضويته في الجمعيات العلمية في الداخل والخارج ، وتكفيه مظاهر التقدير العالمى ممثلا لمصر ، ويكفيه واحد من مؤلفاته المطبوعة والتي هي تحت الطبع ، فما بالنا وقد حاز ذلك كله - كما كتب عنه تلميذه وصديقه القريب إلى قلبه الصحفي الكبير الأستاذ عبد الوارث الدسوقي .

قرية صديقة

كان هكذا في عيون الواقع والحقيقة . . وبالنسبة لى - فهو ابن بلدى أسبوط ، قرىته تجاور قرىته بيوتا وحقولا ، هما قرية واحدة في واقع الحال وليستا قريتين . . نصف ساعة على الأقدام ويكون المرء في بيت له فيه نسب وقرابة هنا وهناك . . الأسرة الواحدة بعضها من هناك ، وبعضها من هنا ، فاتصلت الأنساب وتداخلت البيوت والحقول بالميراث ، وتشابكت الأصول والفروع فأصبحت القرستان قرية واحدة كبيرة .

في قرىته - كما قال وكتب وأذاع - نشأ في بيت يجاور بيتا مسيحيا . . وكان أبناء البيتين يلعبون في فناء واحد ، ويأكلون من خبز واحد ويشربون من ماء نيل واحد . وخرج أحمد حسن الباقورى إلى القاهرة يجعل بيته بيتا صديقا لكل من يطرق باب هذا البيت .

وسنة ١٩٥٣ في مدينة السويس ، وفي عز الحر جاء هو إلى هناك ومعه من قادة الثورة كمال الدين حسين وحسن إبراهيم ومن رجال الإذاعة سعيد أبو السعد ، ومن أبناء السويس أنور سلامة النقابى بشركة شل ، والوزير فيما بعد ، وابن خالة أحد أعوان جمال عبد الناصر فيما تروى الروايات ، المهم . . عقدوا مؤتمرا كبيرا يدعون فيه لما يريدون الدعوة إليه . . وكنت أنا هناك مبعدا عن العمل بالقاهرة بأمر السلطة الجديدة . وكنت ضمن شباب يخشى زحف الرجال الجدد ضد الديمقراطية . وكان صوتنا هتافا ضد الدكتاتورية ودفاعا عن الحريات يريك المتحدثين من الضباط ، ويريك رجال الإذاعة فيما يؤدون من أعمال ، وأشاروا إليه أن يسرع بالحديث . . وتكلم . . وسكت الجميع . . إن من البيان لسحرا . . ولم يجرؤ شاب أن يخرج هذا الصمت إعجابا به . وأدركنا لماذا اختاروا الباقورى وزيرا . وبعدها بأيام أمر « الفرعون » أن أذهب وراء الشمس لسنوات خمس . يوم ينطح يوما . بعدها بسنوات أمر « الفرعون » أن يبقى الباقورى في الظل لسنوات وسنوات .

ما عرفت أكثر منه ودا في اللقاء . . رأيته مرة في القاعة التى تسمى بقاعة اللجنة المركزية أثناء

اجتماع لنا ضم أعضاء لجان المجلس الأعلى للثقافة ومقرريها وأعضاء المجلس . كان المرض يناوشه . خدرت القدم ، وثقلت الخطوة ، وصاحب يستند إليه . واقتربت برفق وتجنبته اللهفة تجنباً للانفعال . . ويدى اليمنى على ذراعه ودعاء له بالصحة والعافية وبطول العمر إلى آخر مدى . وتهللت أسارير وجهه وابتسمت شفتاه . . وعبارات حاسمة . التحية هكذا لاتنفع . . وأخلى ذراعه من كتف صاحبه الذى يستند إليه وضمنى فى أخوة ، بل فى أبوة . . وكلمات تشجيع لما أكتب ، وتوصية حازمة أن أطرق بابه وقت أن أشاء . .

الساحر . . وثورة الأزهر

كانت تلك بعض كلماتى عنه بعد أن رحل . . التى كان لها شرف أن تجاور كلمات الكاتب الكبير خالد محمد خالد وجاء عنوانا الكلمتين كبيت من الشعر ، كتبت تحت عنوان « أيها الشيخ الجليل وداعا » ، وكتب الأستاذ خالد تحت عنوان « عزيز علينا أن نقول وداعا » .

وأستاذن فى أن أنقل بعض ما كتبه الأستاذ خالد محمد خالد ، لأن به تسجيلا للتاريخ لمن يهيمه التاريخ .

لقد رحل الشيخ الباقورى - يا كل أحبابه وأصحابه وتلاميذه ، ويا كل الذين أفادوا من علمه . . ويا كل المكرمات والمروءات !

رأيته أول مرة - الحديث للأستاذ خالد - مع عشرات الألوف من طلبة الأزهر عام ١٩٣٥ . كان الأزهر قد أشعل إحدى ثوراته الكبرى فارضا على الملك الفرعون « فؤاد » وعلى حكومته عودة الإمام المراغى شيخا للأزهر . وقاد الثورة أحمد حسن الباقورى . . حين أطل على الألوف الحاشدة فى الجامع الأزهر من فوق منبره العظيم لأول مرة . . كان مصير الثورة قد تقرر . . ووقر فى الروح للجموع المنصتة أن هذا « الساحر » مدرك غايته لاحالة . . وما أن يرتقى الباقورى ذروة المنبر حتى يستقبل بترحاب غير معهود . . ويتأييد ما مثله تأييد . . وفجأة . . وبتلقائية مهيمنة يسيطر صمت خاشع حتى لتكاد تسمع صوت الدم فى العروق ! !

ويبدأ « الساحر العظيم » خطبته بصوت خفيض ، يفرض على المكان والزمان والمناسبة مزيدا من الصمت المصفى ، ومن الخشوع الجليل . . ! !

ثم يعلو الصوت رويدا رويدا ، وتعلو معه خفقات القلوب ، وتزداد الأعين تحديقا فى وجه « الساحر » منتشية بملاحمه التى تتغير تباعا وفق انعكاسات كلماته عليها . . حيث العذوبة والقوة

والبهاء وكبرياء الروح والكلمة . . جمعها مع « الساحر » لقاء سعيد . .
ثم يدوى الصوت الساحر والأسر ، وتنطلق معه الكلمات كالرصا ص المقذوف . . شاذة
وهادرة ومنذرة .
ويقبض عليه ، وتستضيفه السجون ، ويصدر قضاؤنا العظيم أمره بالإفراج الفوري ، وهو
يعلم أنه بهذا الإفراج يتحدى القصر والملك . . !!
ويعود الباقورى إلى منبره ، وإلى جهاده ، حتى تنتصر به ثورة الأزهر ، ويوقع الملك مكرها
وظاعنا مرسومة الملكى بعودة المراغى العظيم . . !!

المسيرة الطيبة

أحمد حسن الباقورى ابن الشيخ أحمد عبد القادر بدوى ، ولد فى ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧ فى قرية
باقور مركز «أبوتيج» مديرية أسيوط ، التحق بكتّاب القرية ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم التحق
بمعهد أسيوط الدينى سنة ١٩٢٢ وحصل منه على الشهادة الثانوية سنة ١٩٢٨ ، ثم التحق
بالقسم العالى وحصل منه على شهادة العالمية النظامية فى سنة ١٩٣٢ . ثم حصل على شهادة
التخصص فى البلاغة والأدب سنة ١٩٣٦ . وبعد تخرجه عين مدرسا للغة العربية وعلوم البلاغة
فى معهد القاهرة الأزهرى . ثم نقل مدرسا بكلية اللغة العربية ، وبعدها نقل وكيلا لمعهد أسيوط
العلمى الدينى بأسيوط ، ولم يلبث أن نقل وكيلا لمعهد القاهرة الأزهرى عام ١٩٤٧ . وفى سنة
١٩٥٠ عين شيخا للمعهد العلمى الدينى بالمنيا .

وبدأت مسيرته مع ثورة يوليو فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ - كما أسلفنا فى السطور الأولى - وزيرا
للأوقاف فى الوزارة المركزية للجمهورية العربية المتحدة من سنة ١٩٥٨ . وكان قد اختير عضوا
بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٦ فى المكان الذى خلا بوفاة المرحوم الدكتور أحمد أمين .

وكانت تلك الفترة فى مجملها فترة ازدهار للشيخ الباقورى . . مثّل مصر لزيارة المناطق الشبالية
والجنوبية بالسودان عام ١٩٥٢ ، ومثّل حكومة مصر عام ١٩٥٣ فى الاحتفال بتتويج الملك
حسين ملكا للملكة الأردنية الهاشمية ، وحصل على كسوة التشريف من الملك عبد العزيز آل
سعود عام ١٩٥٣ ، وعلى وسام النهضة من الدرجة الأولى من الملك حسين فى العام نفسه . وفى
عام ١٩٥٤ حضر الاحتفال بافتتاح برلمان السودان نائبا عن الحكومة المصرية . ومثلها فى مؤتمر
مسلمى الشرق الأقصى الذى عقد فى الفلبين لاستطلاع أحوال المسلمين فى باكستان ، والهند ،

وبورما ، وأندونيسيا ، وهونج كونج ، والصين الشعبية . وحصل في تلك السنة على وشاح
الجلالة الشريفة من الملك محمد الخامس ملك المغرب . وفي الاحتفال بمرور ٢٥ عاما على دستور
إيران ، كان نائبا عن حكومة جمهورية مصر سنة ١٩٥٥ ، وفي السنة ذاتها رأس مؤتمر الخريجين
الذي عقد في القدس ومثل مصر أيضا في احتفال الحزب الحر الدستوري بتونس . وفي احتفال
المغرب بعودة الملك محمد الخامس من المنفى ، كان مندوبا عن حكومة مصر سنة ١٩٥٥ . وفي
إبريل سنة ١٩٥٥ كان عضوا وفد مصر في مؤتمر باندونج الشهير برئاسة جمال عبد الناصر ،
وحصل على وسام أمية من الجمهورية السورية عام ١٩٥٧ .

فترة الانحسار

وفي ظل الحكم الدكتاتوري لاشيء مضمون ، حيث لا يطبق الحاكم أى نقد حتى من أقرب
المقرين إليه ، وأترك قلم الأستاذ خالد محمد خالد يروى لنا . .

في أيامه الأخيرة في وزارة الأوقاف . . رأيته يطلق لسانه بنقد لافح لبعض إجراءات الثورة . .
متناولا بعض كبار مسؤوليها بأسمائهم . . وأذكر أنني في أحد تلك الأيام تعمدت أن أبقي حتى
يخلو المكتب من زواره ثم أسر له بنصيحة . . سألته : أليس هناك احتمال بأن يكون بين زوارك
هؤلاء واحد ، أو اثنان ، أو أكثر من عيون المخابرات . . ؟ ! قال : إن هذه المقاعد ، وجدرا
الغرفة هذه ملغمة جميعها بأدق أجهزة التنصت والاستماع . . قلت : إذن فأين مانعرفه عنك من
طول بال وسعة حيله . . قال : لم أعد أطيق . قلت : لقد ذكرت - فلانا - بالاسم أمام زوارك ،
وقلت إنه حرامى . . والرئيس يعلم أنه حرامى ، ويضعه في مناصب لا يستحقها . . أأست
تدرك بخبرتك على الأقل أن فقرة كهذه كافية لوضعك في موضع لاتريده لنفسك ولا تطبيقه . ؟
قال : أعلم . . ولكننى زهقت .

وذات مساء زار صديقا حميلا له . ووقف يصلى المغرب حيث دق جرس التلفون وبدأ صديقه
مكالمة مع الذى تلفن له وختمها بقوله : الشيخ الباقورى عندى الآن ، وبعد أن ينتهى من صلاة
المغرب سأناقشه فيما ينبغى أن تفعله مع عبد الناصر ابن . . ! ! وألقى كلمة تناهت في الإقذاع
والقحة ! وبعد ليال قليلة استدعى الشيخ الباقورى للقاء الرئيس الذى فاجأه بتسجيل المكالمة .
وفي الصباح نشرت الصحف نأ قبول استقالة الشيخ الباقورى وزير الأوقاف .

وتعرض الشيخ الباقورى بعدها لإشاعات كاذبة مغرضة إلى أن تبين « الحاكم بأمره » خطأه
الفادح في حق الشيخ فعاد مديرا لجامعة الأزهر عام ١٩٦٤م حتى سنة ١٩٦٨م .

بعد العنودة

ونادته أشواقه الحميمة إلى ماضى الأزهر العتيق ، فأعاده إلى الوجود فى صورة جلية . . الشيخ يقتعد كرسية ، والطلبة متحلقون حوله وبين يديه . . يستمعون ويتفقهون . . دراسات حرة لكل من يريد . . وشهادة عالية تمنح لكل من يستحقها من الطلاب . . بينا الأزهر الجديد المتطور يمضى قدما .

كذلك هيا فضيلته الفرصة التى يحصل بها طالب الدراسات العليا على إجازتى الماجستير والدكتوراه .

وشارك كعضو فى مؤتمر اتحاد الجامعات العربية عام ١٩٦٥ الذى عقد فى الأردن ، ومثل الجمهورية العربية المتحدة فى الاحتفال بعيد ثورة الجمهورية اليمنية عام ١٩٦٦ ، ومثل جامعة الأزهر فى الاحتفالات بتوزيع الدرجات العلمية على خريجي جامعة الخرطوم عام ١٩٦٦ . وسنة ١٩٦٨ كان رئيس وفد مصر فى المؤتمر الإسلامى المنعقد فى باكستان للاحتفال بمرور أربعة عشر قرنا من الهجرة ، ورأس وفد مصر فى المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى ليبيا عام ١٩٧٠ .

ورصيد الشيخ أحمد حسن الباقورى خلال حياته العلمية ، رصيد زاخر فهو عضو فى مجمع اللغة العربية ، ومجمع البحوث الإسلامية ، والمجلس الأعلى للأزهر ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ورئيس جمعية ومعهد الدراسات الإسلامية ورئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية ، وعضو الجمعية الصينية الإسلامية فى بكين والجمعية الخيرية الإسلامية ، ومقرر لجنة الشريعة والقانون فى المجلس الأعلى للثقافة ، وعضو رابطة خريجي الجامعات العربية .

هذا وقد ترك الشيخ الباقورى للمكتبتين العربية والإسلامية ١٥ عملا هاما ، وثلاثة أعمال كانت تحت الطبع .

وكان - رحمه الله - بعيد النظر فى اتخاذ أيسر السبل لتبسيط الأحكام الفقهية لعامة الناس . وتجد فى أعماله الفكرة الأصيلة والعبارة المتأنقة والرأى الراسخ . وتعمق بنشاطه الجاد فى أغوار النفس البشرية دون النظر إلى جنس أو لون أو دين .

وما وصل إليه الشيخ الباقورى فى سنواته الأخيرة كان بعد دأب ومثابرة ، فلم تكن أيامه فى بدايتها هكذا . . يقول الباقورى فيما نقله عنه دكتور محمد شرف الدين : « فور تخرجى حاولت أن التحق بمدرسة الصيارف حيث كانت الحالة المالية سيئة واحتمل الأزهر من سنة ١٩٣٠م أكثر مما احتمل غيره من أعباء تلك الحالة . . ولم تجد الحكومة أنفع من المساهمة فى تخفيف أعباء تلك

الحالة إلا على حساب مرتبات الخريجين من الأزهر ، وفصلت سبعين عالما كان بعضهم لا يجد القوت ، وفي مقدمة من فصلوا الشيخ عبد الجليل عيسى ، والشيخ عبد اللطيف دراز ، والشيخ محمود شلتوت . . وكان الالتحاق بمدرسة الصيارف أمنية غالية ، فتقدمت إلى تلك المدرسة بالأوراق المطلوبة ومن بينها شهادة العالمية . ولسوء الحظ أو لحسنه لا أدري ، أنكر شيخ الأزهر أن يلتحق عالم من علماء الأزهر بمدرسة الصيارف . فاتصل بوزير المالية وطلب إليه أن يعمل على عدم قبول من يحملون الشهادة العالمية صونا لكرامة العلماء » .

أقعده المرض في الفترة الأخيرة قبيل الرحيل ، وسافر إلى لندن لتفويض روحه إلى بارئها هناك يوم ٢٧ أغسطس من عام ١٩٨٥ .

وفي ذكرى الأربعين ، في ١٥ أكتوبر ١٩٨٥ كان الوفاء من عارفي فضله يتحرك بالقطار من القاهرة في الصباح إلى أسيوط بدعوة من اللواء زكى بدر محافظ أسيوط في ذلك الحين . كنا خمسة : الشيخ الدكتور عبد الجليل شلبى عضو مجلس البحوث الإسلامية ، والقمص بولس باسيلي عضو المجمع المقدس ، والشيخ محمد عبد الواحد وكيل وزارة الأوقاف ، والشاعر الأديب الغزالي حرب (رحمه الله) وكاتب هذه السطور ، ولم يتمكن من السفر الأستاذ خالد محمد خالد ، وفي أسيوط انضم إلينا في الاحتفال والحديث صاحب الدعوة وصاحب الفكرة اللواء زكى بدر ، والشيخ حسين رشدى شيخ المعهد الدينى ، والدكتور محمود فهمى عن الأزهر الشريف ، وعبد الرحمن السيد أمين عام جمعية الشبان المسلمين ، ومحمود عبد العال عضو مجلس الشعب وقت ذاك ، وصلاح شريت مدير الثقافة الجماهيرية بأسيوط .

وفي المساء . . في قصر الثقافة كانت هناك مصر . . وفد من رجال الدين المسيحيين بأسيوط بزيهم المعروف إلى جانب رجال المعهد الدينى . . أبناء القرى إلى جانب أبناء المدينة . . أبناء الجامعة والمدارس والتجار والموظفين . . وقطرات الدمع في كلمات المتحدثين . ورائحة تراب مصر تعبق في المكان . وروح الباقورى تشيع السباحة والصفاء والنقاء . ومن أجل هذا عاش الباقورى . . ومن أجل هذا مات . . رحم الله الباقورى وأكرم مثواه .

الأسانيد :

- ١- خالد محمد خالد . . جريدة الأخبار ٣/٩/١٩٨٥ .
- ٢- عبد الوارث الدسوقي . . جريدة الأخبار ٦/٩/١٩٨٥ .
- ٣- مجلس مجمع البحوث الإسلامية . . تقرير ترشيح الباقورى لجائزة الدولة التقديرية .
- ٤- د . محمد شرف الدين . . جريدة الأخبار ١٧/٥/١٩٨٧ .
- ٥- د . محمد مهدي علام . . المجمعيون في ٥٠ عاما .

أحمد حسن الزيات



يالها من مصادفة ! أن يكون المهندس أحمد الشرباصى والكاتب الكبير أحمد حسن الزيات من محافظة الدقهلية . . ويالها من مصادفة أن يجيء كلاهما إلى الحياة في شهر واحد هو « إبريل » ، وإن كان الزيات قد ولد عام ١٨٨٥ (بعض المصادر أوردته على أنه عام ١٨٨٢ ، ولكن التاريخ الذى أوردناه هنا هو التاريخ الذى حققه أستاذنا الدكتور محمد مهدى علام) وولد المهندس الشرباصى في إبريل ١٨٩٩ . ورحل الأستاذ الزيات عام ١٩٦٨ ، بينما رحل المهندس الشرباصى عام ١٩٨٤ .

وحتى اللقاء الذى تم بين الرجلين لم يكن خاليا من طرافة ، كتب عنه الكاتب الإسلامى الكبير محمد عبد الله السنان في مجلة أكتوبر (١٨ مارس ١٩٨٤) بعد رحيل الشرباصى . . كان الشيخ عبد الرحيم فوده قد ألح على الأستاذ الزيات مدير تحرير مجلة الأزهر أن يسعى للقاء المهندس الشرباصى وزير الأوقاف وشئون الأزهر يومئذ ، وبلا موعد مسبق ، فاسم الزيات ليس في حاجة إلى موعد حين يشاء أن يلقي وزيرا ، ولكن مدير مكتب الوزير - دون الرجوع إلى الوزير - اعتذر للزيات بأن الوزير مشغول في لجان وسوف يحدد له موعدا آخر . . وعاد الزيات منكسر النفس يلوم نفسه لأنه كان عليه أن يطلب تحديد موعد . ويواصل الأستاذ السنان الحديث . . وأخبرت الشيخ أحمد حسن الباقورى الذى كان مديرا لجامعة الأزهر يومئذ بالقصة ، وبعد يوم واحد قال الشيخ الباقورى إن الشرباصى أقسم له أنه لا علم له بما حدث ، وأنه أصر على زيارة « الأستاذ الزيات » في مقر المجلة ليعتذر له عن خطأ مدير مكتبه .

وقدر للأستاذ الكبير ألا يكون طوال حياته من موظفى الحكومة ، بل إنه لم يقبل ما عرض عليه من وظائفها . نشأ وتدرج وعمل وارتقى بين الأهالى بعيدا عن « الميرى » وطقوسه .

ولد الزيات في ٢ إبريل ١٨٨٥ ، في كفر دميهر القديم مركز طلخا بمحافظة الدقهلية . وفي الخامسة من عمره دخل الكتاب وحفظ القرآن الكريم وهو في الحادية عشرة ، ثم التحق بالأزهر . كانوا ثلاثة طه حسين ، ومحمود الزناتى ، وأحمد حسن الزيات (حوالى عام ١٨٩٨) وعكفوا على قراءة الأدب ، وعلى الإقبال المتقطع على دروس الأزهر ، ثم التردد على الجامعة المصرية الأهلية التى انشئت عام ١٩٠٧ . وعرفنا ما كان عليه شأن الدكتور طه حسين ، وانصراف محمود الزناتى إلى العمل في المكتبات القديمة . أما صاحبنا أحمد حسن الزيات فقد عمل مدرسا للغة العربية بمدرسة الفرير بالخرنفش نحو سبع سنوات ، يعلم التلاميذ اللغة العربية ويتعلم هو اللغة الفرنسية . وفي سنة ١٩١٤ انتقل الشيخ أحمد حسن الزيات إلى مدرسة بالظاهر ، مدرسة أهلية غير حكومية . وإذا كانت مدرسة الفرير من المدارس الأجنبية ، فإن مدرسة الظاهر كانت من المدارس التى أنشأها الشيخ عبد العزيز جاويش لمواجهة محاولات الاحتلال الإنجليزي في التعليم . ومكث في تلك المدرسة إلى عام ١٩٢٢ ، ويسجل أسماء الدين عملوا معه في تلك المدرسة وهم أحمد زكى ، والكردانى ، والعبادى ، والغمراوى ، وخلاف ، وبدران ، ومحمد كامل سليم ، وفريد أبو حديد ، وهذه الأسماء هى ذاتها التى تحدث عنها أحمد أمين وهو يروى سيرة حياته ووصفهم بأنهم « مدرسة الثقافة الانجليزية » ، وانضم إليهم ثلاثة هم حسن مختار رسمى ، ويوسف الجندى ، وصبرى أبو علم . . واجتمع هؤلاء جميعا سنة ١٩١٤ وشكلوا لجنة عرفت « بلجنة التأليف والترجمة والنشر » . وتشكيل هذه اللجنة درس ينبغي أن نضعه أمام أجيالنا الجديدة . . التزم كل عضو أن يدفع عشرة قروش في كل شهر ، وأن يجتمع مجلس إدارتها في بيت عضو من أعضائها . ويؤلف أحدهم كتابا يعرض على المجموعة فإذا أقرته دفعوا به إلى المطبعة ، وإذا لم يكف ما جمع من عشرات القروش أقرض اللجنة بعض الأغنياء من الأعضاء ليتم طبع الكتاب . وقد تولى شؤون اللجنة أحمد أمين إلى أن توفى . . واللجنة لم تنزل باقية ولكن دون عمل يذكر ، ولها مطبوعاتها وحساباتها ولكن دون نشاط له أثر . وكنت قد تحدثت في شأن إحيائها إلى أساتذتنا الأجلاء أعضائها . على أن أحمد أمين لم يشر إلى أحمد حسن الزيات كواحد من أعضاء اللجنة ، وإن كان أستاذنا الدكتور مهدى علام قد أشار إلى ذلك . ومهما يكن من أمر فإن أحمد حسن الزيات اختارته الجامعة الأمريكية عام ١٩٢٢ رئيسا للقسم العربى بها ، وفي العام نفسه التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة لعامين ، وأمضى عاما ثالثا بباريس . حيث أدى امتحان الليسانس .

ويبدو أن الزيات كان يعد نفسه لعمل أدبى كبير ، فأثر الابتعاد عن وظائف الحكومة وقنع بالوظائف المتواضعة في المدارس الحرة أو الأهلية ، وفي الوقت نفسه كان يحرص على التدريس

والتحصيل إلى أن حصل على ليسانس الحقوق الفرنسية سنة ١٩٢٥ وكان قد حصل على ليسانس الآداب ١٩١٢ أثناء عمله بالتدريس في مدرسة الفرير بالخرنفس .

وقلنا من قبل إنه عمل سنة ١٩١٤ بإحدى المدارس التي أنشأها الشيخ عبد العزيز جاويش وظل بها كما عرفنا إلى سنة ١٩٢٢ ، والتقى فيها بأسماء كان لها دور في الحركة الوطنية فيما بعد أمثال محمد كامل سليم الذي أصبح سكرتيراً لسعد زغلول وشارك الزيات بكتابة المنشورات السرية .

وعاد الزيات من باريس سنة ١٩٢٥ ، وعاد إلى عمله رئيساً للقسم العربي في الجامعة الأمريكية حتى سنة ١٩٢٩ ، وسافر إلى العراق أستاذاً بدار المعلمين العليا ببغداد حتى سنة ١٩٣٢ .

وفي السنوات الثلاث التي قضاها ببغداد نرجح أنه عني بأمرين . أولهما . . الحرص على ادخار بعض المال لمشروع مجلة «الرسالة» الذي نحسب أنه كان يراوده من قبل ، ودليلنا على ذلك هو أن العدد الأول من «الرسالة» صدر في ١٥ يناير ١٩٣٣ بعد عودته من بغداد في يوليو ١٩٣٢ ، والأرجح أنه أعد عدته لهذه المجلة وهو في بغداد . والزيات نشأ في بيئة متواضعة لأبوين فقيرين .

والأمر الثاني . . هو وقوفه على اتجاهات الفكر القومي العربي . . ومعروف أن جيله كله في مصر ، والجيل السابق عليه كانا متأثرين لحد كبير بفكرة القومية المصرية ، والنضال من أجل حرية مصر . . هذا على مستوى الأدباء والساسة معا . ولكنه يعود بعد ذلك يسأل المفكر العربي القومي ساطع الحصري . . هل الشقاق طبع في العرب ؟ فيجيبه الحصري على صفحات مجلة «الرسالة» بقوله . . صديقي . . لقد اطلعت على السؤال الذي وجهتموه إلى في مقالكم بعنوان : هل الشقاق طبع في العرب ؟ .

ياصديقي الأستاذ لا يوجد في طباع الأمة العربية ما يجعلها شاذة عن سائر الأمم في الاتفاق والانشقاق . . إن الماضي لا يقيّد الحاضر . . يجب أن نقلع عن الالتفات إلى الوراء . . فلا يجوز أن نحاول تبرير مساوينا الحالية بنقائص في أسلافنا الأقدمين .

مجلة «الرسالة»

عاد أحمد حسن الزيات من بغداد (يوليو ١٩٣٢) وفي ذهنه أن يصدر مجلة للأدب العربي الرفيع ، وفي نوفمبر ١٩٣٢ قصد زيارة زميله وصديقه الدكتور طه حسين في داره بالزمالك وعرض عليه فكرة إصدار مجلة أدبية أسبوعية . . وكان رد الدكتور طه ابتساماً عريضة انتهت بتهمة بققهه

طويلة . ولكن « الرسالة » صدرت في ١٥ يناير ١٩٣٣ نصف شهرية إلى العدد رقم (٢١) فأصبحت تصدر أسبوعية يوم الاثنين ، حتى أقفلت أبوابها بعددها الأخير في ٣- فبراير ١٩٥٣ . وتكون قد استمرت بذلك عشرين عاما وبرئاسة أحمد حسن الزيات . وهذه تجربة يجب أن ننبه بها أئرياءنا - أليس فيهم من يستثمر بعض أمواله في إصدار عدد من المجلات الفكرية والثقافية والأدبية ، يفتحون أبوابها لشبابنا الذي يطحنه اليأس ، ويقض مضاجعة الإحباط ، ويلقى بنفسه بعد ذلك فريسة للتطرف . . كل ألوان التطرف .

لست في مجال الإطناب عن رسالة « الرسالة » واتجاه « الرسالة » وأهداف « الرسالة » ولكن يكفي أن أقول إنه كتب في « الرسالة » من الرواد . . طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وعباس محمود العقاد ، البشري ، وعبد الوهاب عزام ، وأمين الخولي ، ومحمد عوض محمد ، ومحمود تيمور ، وإبراهيم عبد القادر المازني ، وتوفيق الحكيم ، وخليل مطران ، ومحمد فريد أبو حديد ، وعبد الرحمن شكرى ، وأحمد زكى أبو شادي ، ومحمد عبد الله عنان ، وأحمد رامى ، وأحمد زكى ، وإسماعيل مظهر . . وغيرهم .

هل تريدون المزيد ؟ . . كتب فيها من الجيل الوسيط . . محمود الخفيف ، وزكى نجيب محمود ، وزكى مبارك ، ومحمد مندور ، وسيد قطب ، وعلى محمود طه ، وعلى الجندي ، ومحمد سعيد العريان ، وزكى طليعات ، ومحمود شاكر ، ودريني خشبة ، وعزيز أباطه ، وكامل الشناوى ، وفتحى رضوان . . وغيرهم .

هل تريدون المزيد ؟ كتب فيها من جيل الشباب بموجاته المختلفة . . إبراهيم ناجى ، صالح جودت ، شهادى عطية الشافعى ، عبد الحميد يونس ، سهير القلماوى ، بنت الشاطى ، رشاد رشدى ، محمود حسن إسماعيل ، حسن كامل الصيرفى ، رمسيس يونان ، أحمد الشرباصى ، نجيب محفوظ ، عزيز فهمى ، عبد القادر القط ، زكريا إبراهيم ، كمال نشأت ، ثروت أباطة ، عبد الرحمن الخميسى ، محمد أحمد هيكل ، شكرى عياد ، أنور المعداوى ، فهمى عبد اللطيف ، عباس خضر ، عبد الرحمن الشرقاوى ، عبد الفتاح البارودى ، مصطفى محمود ، محمد الفيتورى ، رجاء النقاش ، كيلانى سند ، عبد الفتاح الديدى . . وغيرهم .

ومضى جيل الرواد العظام أو غالبية ، وجيل الكهول دخل مرحلة الشيخوخة وبدأت تتساقط أوراقه ، وجيل الشباب بموجاته المختلفة دخل مرحلة الكهولة . . هل تريدون المزيد ؟ كتب في الرسالة من البلاد العربية . . ساطع الحصرى ، ميشيل عفلق ، مصطفى الشهابى ، زكى المحاسنى ، عمر أبو ريشة ، نزار قبانى ، محمد على الحومانى ، ميخائيل نعيمة ، أمين نخله ، سهيل ادريس ، حسين مروة ، قدرى طوقان ، فدوى طوقان ، خيرى حماد ، ناصر

النشاشيبي، إبراهيم الفلالى، إبراهيم العريض، أحمد رفيق المدوى، محمد البشير الإبراهيمي، التيجاني يوسف بشير، محيي الدين صابر، محيي فارس، أيليا أبو ماضي، شفيق المعلوف... وغيرهم.

وفي ٣ يناير ١٩٣٣ صدر العدد الأول من مجلة عظيمة أخرى هي «الثقافة»، في ٥ يناير ١٩٥٣ أقفلت أبوابها بعددها الأخير... «الرسالة» و«الثقافة» انتهتا عام ١٩٥٣!

«الرسالة» أصدرها ورأس تحريرها أحمد حسن الزيات... و«الثقافة» أصدرتها لجنة التأليف والنشر، ورأس تحريرها أحمد أمين وآخرون... هؤلاء الرجال العظام أصدروا مجلات ثقافية أفضل مما أصدرته وزارة الثقافة، ألا يحرك هذا وجدان أثرياء النفط من أدبائنا لإصدار مجلات فكرية وثقافية وأدبية بدلا من المجلات ذات الاتجاهات السياسية المشبوهة ١٩

وفي ٢٥ يونية سنة ١٩٦٣ عادت «الرسالة» ثانية بمعاونة وزارة الثقافة وبإدارة من موظفيها... ولكن هذه المرة كانت «الرسالة» رسالة عدد من موظفي الوزارة الذين حولوا المجلة إلى صراع يشق الصف ويشرخ جدار الوطن، فاضطرت الدولة إلى التدخل ووقف إصدارها.

الجامعة الحرة

وإذا نحن نظرنا إلى الذين كتبوا في «الرسالة» على مدى عشرين سنة، من البلاد العربية، ومن الرواد والكهول والشباب في مصر لوجدنا من هؤلاء جميعا قادة الثقافة ورواد الفكر ونجوم الأدب في البلاد العربية كافة، ومن الاتجاهات والتيارات والمدارس المختلفة.

وعلى الرغم من أن «الرسالة» أيدت حركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكتب الزيات عن الثورة التي فيها ريح النبوة وأعلن عن استعداد «الرسالة» لتجديد شبابها في أول يناير ١٩٥٣ لمسيرة العهد الجديد الذي بدأته مصر في الثقافة والحضارة، رغم هذه كله فوجيء القراء بالأستاذ الزيات ينعي إليهم المجلة في افتتاحية حزينة بعنوان «الرسالة تحتجب»، ولكن لأن «الرسالة» كانت مدرسة حقيقية، أخرجت أجيالا من الكتاب والأدباء، ومنحت صفحاتها لمعارك التجديد الثقافي فقد كتب الزيات يقول:

لو أرادت «الرسالة» زهرة الحياة الدنيا لعرضت ضميرها للبيع، وقلمها للإيجار، ويومئذ تتحول أكداس الورق من أوراق طبع إلى أوراق نقد، ولكن الله الذي حجب في سبيله إلى المجاهد الأول الاستشهاد، وليس في مزودة إلا حفنة من دقيق، أو قبضة من تمر، حجب إلى «الرسالة»

الجهاد في الميدان المجذب الموحش ، ولأعدة لها ، إلا الصديق ، والصبر والزهد لتظفر بنصر المجاهد إذا فاز ، أو بأجر الشهيد إذا قتل .

وليس أبلغ من قول الدكتور محمد مهدي علام . . في تأييد الزيات - « لقد حدث أنه في خلال الخمسة عشر عاما الماضية أصيب الأدب العربي بخسارتين فادحتين : كانت أولاها احتجاج الرسالة (١٩٥٣) وكانت الثانية احتجاج الزيات (١٩٦٨) . . وحين احتجبت « الرسالة » كان عزائنا بقاء صاحبها بيتنا يواصل نشاطه الأدبي العظيم . واليوم وقد احتجب عنا الزيات نجد بعض عزائنا في بقاء « الرسالة » سجلا أدبيا وتاريخيا معاصرا لحركتنا الفكرية ، بل نجد تلاميذ « الرسالة » وقد أصبحوا اليوم من أعلام الفكر والقلم . . » .

وحى الرسالة

لقد بقيت « الرسالة » بعد أن احتجبت في تلاميذها على امتداد الوطن العربي ، وبعد أن احتجب الزيات عاد الناس يبحثون عن « الرسالة » . وقد أخذت بعض الدول العربية في إعادة طبع أعداد « الرسالة » الـ ١٠٢٥ عددا التي صدرت طوال عشرين عاما ، وأصبحت تباع بأسعار باهظة جدا . وكان الأجدر بالقاهرة أن تقوم بهذا العمل .

ظل الزيات قرابة عشرين عاما عضوا بمجمع اللغة العربية . . ولم يصدر عددا كبيرا من الكتب ، والعبرة ليست بالعدد . . ثمانية كتب . . خمسة مؤلفة . . وثلاثة مترجمة . . خامس الكتب المؤلفة « تاريخ الأدب العربي » طبع أكثر من عشرين طبعة وقد وضعه سنة ١٩١٦ . وكتابه « وحى الرسالة » في أربعة أجزاء ، تشتمل على مقالات الأستاذ الزيات في « الرسالة » . وأحد كتبه الثلاثة المترجمة « الأم فرتر » فقد طبع ثمانى طبعات . . ورواية « روفائيل » التي ترجمها في فرنسا سنة ١٩٢٥ فقد طبعت تسع مرات .

ولم ينضم الزيات لحزب من الأحزاب ، غير أن « وحى الرسالة » ملئ بمواقف قلمية للزيات ترقى إلى مستوى الجهاد السياسى ، وتكشف عن وطنية صادقة وانحياز لفئات الشعب الدنيا . ودافع عن دور « الدين » في الإصلاح الاجتماعى . . وحذر من استمرار الاغنياء في تجاهل مصالح الشعب الفقير . . « أقدامه تحفى من الضنك وهم في دعة ، وجسمه يضوى من الإقلال وهم في سعة ، ونفسه تضطرب من الأهوال وهم في أمن . إنهم إلا يفعلوا يندموا ، فإن من المشكوك فيه أن يتسع حلم الشعب طويلا . . » ولأن الأجيال الجديدة في الثقافة والأدب لم تسد فراغا ، ولم تصلح خللا عاد الناس يبحثون عن « الرسالة » وعن « الزيات » . . يبحثون عن « الثقافة » ويبحثون عن

« أحمد أمين » . ورحم الله أحمد حسن الزيات حين قال عن نفسه . . « مذهبي في الحياة يتميز في عملي بعيدا عن إرادة الغير ، فلم أضع يدي ولا عنقي في أغلال الوظائف الحكومية ، ولم أصعد على أكتاف الطوال من ذوى السلطان والحكم . . بذلك سلمت نفسي من ذل الوظيفة ، فلا جبن ولا رياء ولا ملق » . .

الأسانيد :

- ١- أحمد أمين . . حياتي .
- ٢- أحمد حسن الزيات . . وحى الرسالة .
- ٣- د . فرج الشرباصي . . مع المهندس أحمد الشرباصي .
- ٤- د . عبد الرحمن برج . . ساطع الحصرى .
- ٥- د . علي شلش . . دليل المجالات الأدبية .
- ٦- د . محمد مهدي علام . . المجمعيون .
- ٧- د . نعمة رحيم العزاوي . . أحمد حسن الزيات . (كاتباً وناقداً) .

أحمد حسنين



يوم الثلاثاء ١٩ فبراير من عام ١٩٤٦ ، كان أحمد حسنين رئيس ديوان الملك فاروق يطالع عددا من الملفات التى يحفظها الديوان الملكى للشخصيات وللأحداث التى كان لها دور فى السياسة المصرية . واستغرق أحمد حسنين فى القراءة التى صرفته عن موعد لتناول الغداء عند أسرة صديقه فى ضاحية المطرية . ومد يده إلى التليفون يعتذر عن عدم تلبية تلك الدعوة . وعاد يستغرق فى قراءة الملفات . .

والملفات كثيرة ولكننى اتصور أنه كان فى مقدمتها . . الملف الخاص باللورد كيلرن السفير البريطانى بالقاهرة ، وكان قد سحبته حكومة العمال الجديدة فى لندن قبل ذلك بأيام ، ثم ملف «مكرم عبيد والكتاب الأسود»

وطوى بسرعة الملف الخاص بالملكة الأم « نازلى » وملف « الأمير فاروق » قبل أن يصبح ملكا على مصر ، وتوقف عند ملف خاص يحمل اسم « أحمد حسنين باشا » وراح يطالع الخطابات المتبادلة بينه وبين الملك وأسماء المرشحين لتلك الوزارة ومراسيم تشكيلها التى لم تظهر إلى النور وقبعت فى ظلام الأضابير منذ ١٨ إبريل ١٩٤٤ .

وفى الساعة الثالثة غادر أحمد حسنين مكتبه واستقل سيارته عائدا إلى منزله القريب من ميداد عبد المنعم بالدقى ، وكان المطر غزيرا . وبينما سيارته تحتاز كوبرى قصر النيل كانت هناك سيار لورى من سيارات الجيش الانجليزى قادمة من الاتجاه المضاد وتنزلق عجلاهما وتلف نصف لف وتصطدم بسيارة حسنين ويسيل الدم من فمه . ويسرع من إحدى السيارات أحمد عبد الغضا باشا صديق أحمد حسنين منذ أيام الدراسة فى « أكسفورد » والذى كان وزيرا للزراعة فى وزاد محمود فهمى النقراشى المستقيلة قبل الحادث بأربعة أيام (ذكر محمد التابعى فى كتابه « أسرا

الساسة والسياسة « أحمد عبد الغفار باعتباره وزيراً للزراعة وقت الحادث ، وهذا غير صحيح فقد كان حسين عنان هو وزير الزراعة في وزارة إسماعيل صدقي الجديدة ، وكان أحمد عبد الغفار وزيراً للزراعة في وزارة النقراشي المستقلة) . وأسرع بالحضور إسماعيل صدقي رئيس الوزارة الجديدة ، وتم نقل حسين إلى مستشفى الأنجلو ولكن السر الإلهي كان قد خرج . وذهب الملك فاروق إلى منزل حسين بالدقي وألقى نظرة سريعة إلى « رائده ومرييه وأستاذه ورئيس ديوانه ومستشاره » وعاد إلى القصر وفي جيبه مفاتيح المكتب الخاص بأحمد حسين .

حسين رئيساً للوزارة

هو أول ملفات أحمد حسين التي نعرض لها هنا . . أحمد حسين باشا رئيس مجلس الوزراء . . أمنية صدرت بها المراسم ثم حفظت في ظلام الأدراج . . وهي أمنية كل رئيس للديوان الملكي . . فرئيس الديوان هو أقرب الناس إلى أذن الجالس على العرش ، وهو واسطة الملك لدى رؤساء الوزارات وكل الساسة وفي مصر كان من الأمور المألوفة أن يصبح رئيس الديوان رئيساً للوزراء أو أن يصبح رئيس الوزراء رئيساً للديوان الملكي . . هكذا كان توفيق نسيم ، وأحمد زيور ، وعلى ماهر ، وحسين سرى وإبراهيم عبد الهادي . . وأحمد حسين ليس أقل من هؤلاء في الدهاء والمكر والدس والمكائد ، وليس أقل منهم تأثيراً على الملك .

ورسم أحمد حسين خطته . . أوعز إلى الملك فاروق أن يضع قصر رأس التين تحت تصرف القوات الإنجليزية ، وأن يتبرع الملك بمبلغ كبير للترفيه عن جنود الحلفاء ، وأن يحسن الملك استقبال المسؤولين البريطانيين . ورسم خطته في تنظيم صفوف المعارضة لمواجهة « الوفد » . . وبدأت اجتماعات المعارضة باجتماع عقده إسماعيل صدقي . في داره وتوالت الاجتماعات . وفي ١٢ إبريل ١٩٤٤ استدعى الملك السفير البريطاني وشرح له أهمية إقالة وزارة النحاس لأن البلاد « لا تحتمل ملكين . . » على حد تعبير فاروق ، وشرح أهمية أن يعهد إلى أحمد حسين بتأليف وزارة جديدة . ووجه الملك رسالة التكليف إلى أحمد حسين ورد أحمد حسين بالقبول والشكر . ووقع الملك في ١٧ إبريل ١٩٤٤ أوامر تشكيل الوزارة على النحو التالي : أحمد حسين للرئاسة والخارجية ، وحسن فهمي رفعت للداخلية ، ومريت غالى للتجارة والصناعة ، وعبد الفتاح عمرو وزير دولة ، وطراف على للمواصلات ، وراضى أبو سيف راضى للشئون الاجتماعية ، وعلى عبد الرازق للأوقاف ، وعبد القوي أحمد للأشغال ، ومحمد كامل مرسى للمعارف ، ومحمد على نمازي للعدل ، وحسن صادق للدفاع ، ومحمود محمد محمود للمالية . . . وكان هذا كله كلاماً على الورق ولم يعلن بعد توقيعهم من الملك في يوم عطلة شم النسيم . وكان النحاس باشا في

«سمخراط» ، أما زعماء المعارضة فلم يكن من السهل عليهم أن يجتمعوا وينفضوا طوال الستينين السابقتين للإطاحة بحكومة النحاس باشا ثم يأخذها أحمد حسنين لقمة سائغة ويشكل وزارة جميع عناصرها من المستقلين . ولم يكن الموقف الحزبي بالنسبة للحلفاء يسمح بعد بحكومة لاسند لها من حزب الأغلبية أو من أحزاب المعارضة على السواء . وعلى هذا فقد ظلت هذه المراسيم بعد توقيعها حبيسة الأدراج يعود إليها أحمد حسنين بين الحين والآخر ثم يطويها داخل الأضابير دون أن يدخل اسمه تاريخ النظارات أو الوزارات .

إقالة وزارة النحاس

والملف الثانى الذى نعرض له من ملفات أحمد حسنين خاص بدوره فى إقالة وزارة النحاس باشا فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ . وهذه قصة تأمر متصل من جانب القصر نسج خيوطها وثابر على تنفيذها أحمد حسنين منذ اليوم الأول لتولى مصطفى النحاس رئاسة الوزارة فى ٤ فبراير ١٩٤٢ . وكان أحمد حسنين المحرك الرئيسى لأحزاب الأقلية السياسية من أجل مواجهة « الوفد » وحكومته ومن أجل إسقاط الحكومة وكان كل فريق يستغل الفريق الآخر للإطاحة بحكومة « الوفد » لصالحه الخاص . وفى صيف ١٩٤٣ عادت العلاقة طبيعية بين القصر والإنجليز ، وزادت نقاط الاشتعال بين القصر و« الوفد » . وبدأ القصر يؤجل توقيع المراسيم التى ترفعها الوزارة ، ويعترض على شغل المناصب القضائية رغم موافقة المجلس الأعلى للقضاء عليها . وفى ٦ أكتوبر ١٩٤٣ نشرت جريدة « المصرى » نبأ تعيين إبراهيم فرج مدير المستخدمين بوزارة الداخلية ، قاضيا بالمحاكم المختلطة ضمن حركة تعيينات واسعة . ووافق القصر على الحركة فيما عدا إبراهيم فرج ، وتمسك محمد صبرى أبو علم وزير العدل بالترشيح ووقع صدام حاد بينه وبين أحمد حسنين . ثم وقع حادث « القصاصيين » المشهور فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٣ الذى أصيب فيه الملك فاروق فى حادث سيارة ، وعندما ذهب النحاس باشا لزيارة الملك زعم أحمد حسنين أن الزيارة ممنوعة ، ولكنه فى اليوم التالى دعا زعماء أحزاب المعارضة لزيارة الملك . وفى ٢٢ - ٢٦ نوفمبر ١٩٤٣ انعقد بالقاهرة مؤتمر فى فندق « مينا هاوس » لتنسيق وسائل الحرب ضد اليابان حضره « روزفلت » ، وتشرشل ، وشيانج كاي شيك . وأشار الملك فاروق بنصيحة من أحمد حسنين على زعماء المعارضة أن يتقدموا بمطالب مصر القومية إلى ذلك المؤتمر . وبالفعل فى ٢٤ نوفمبر تقدمت المعارضة بمذكرة إلى المؤتمر وقعها «حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى ، ومحمد حسين هيكل رئيس حزب الأحرار» وأحمد ماهر رئيس الهيئة السعدية ، ومكرم عبيد رئيس الكتلة الوفدية » .

وفى إبريل ١٩٤٤ تمت كما أشرنا من قبل محاولة إقالة « وزارة الوفد » وتعيين أحمد حسنين رئيسا

لوزارة من المستقلين ، وهى محاولة لم تر النور ، وبعدها كثف أحمد حسنين مقابلاته مع المسؤولين فى السفارة البريطانية للتنسيق بين القصر والإنجليز وكانت تلك الاجتماعات تتم فى داره إمعانا فى السرية . وعرف أحمد حسنين من الإنجليز أن مصطفى النحاس يعد العدة لمواجهة الإنجليز والقصر معا ، وبالفعل ألقى النحاس فى ٢٦ أغسطس ١٩٤٤ خطابه المشهور الذى طالب فيه بتعديل معاهدة ١٩٣٦ . ولكن السفير البريطانى قابل الملك « فاروق » فى ٨ سبتمبر وحذره من اتجاه النحاس نحو تعديل المعاهدة . وفى ١٥ سبتمبر ١٩٤٤ وقع حادث « اللافئات » المعروف حين ذهب الملك لأداء صلاة الجمعة فى مسجد عمرو بن العاص وصحبه أحمد حسنين ولم توجه الدعوة إلى رئيس الوزراء مصطفى النحاس ، وشاهد الملك فى الطريق لافتات تحمى الملك مع النحاس ، فأمر محمود غزالى مدير الأمن بنزعها ونفذ غزالى تعليمات الملك . ومن الإسكندرية قرر فؤاد سراج الدين وزير الداخلية . وقف غزالى عن العمل ، وأذاع الخبر فى الصحف . وجن جنون أحمد حسنين وحاول إرجاع غزالى إلى عمله لأيام معدودة ولجأ إلى الإنجليز ، وإلى غير الإنجليز ورفض النحاس إعادة غزالى إلى عمله .

وهكذا وصل الأمر بمصطفى النحاس إلى أن يواجه فى وقت واحد الإنجليز والقصر وأحزاب المعارضة ، وتقرر تنفيذ مؤامرة الإقالة . ويقول حسن يوسف فى مذكراته صفحة ١٨٨ . . . « يوم الخميس ٥ أكتوبر قرر الملك عزل النحاس باشا . وأعد أحمد حسنين خطة محكمة أحيطت بالسرية والكتان الشديدين مع الاستعداد لجميع الاحتمالات بحيث لا يتمكن النحاس باشا من تقديم استقالته . وتم إعداد كتاب الإقالة وتوليت كتابته بخط يدى ضمانا للسرية » . وللتمويه سافر حسن يوسف إلى الإسكندرية يوم السبت ٧ أكتوبر وطلب من النحاس باشا موعداً للغد لبحث موضوعات معلقة بين القصر والوزارة ، فحدد له النحاس باشا الساعة الخامسة بعد ظهر الأحد ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، وفى الموعد المحدد فوجئ النحاس باشا بكتاب الإقالة .

الكتاب الأسود

وهذا ملف آخر يكشف من أوله إلى آخره عن دور حسنين فى تفجير أزمة الكتاب الأسود ، بل فى صنعه وتقديم الغطاء الأمنى للعملية بأسرها . يقول جلال الدين الحامصى أمين صندوق حزب الكتلة الوفدية فى كتابه « معركة نزاهة الحكم » إن قصة الكتاب الأسود بدأت فى أغسطس عام ١٩٤٢ حين اجتمع فى ليلة من ليالى هذا الصيف بأحمد حسنين رئيس الديوان الملكى واتفقا على تسجيل ما أسماه بفساد حكومة الوفد فى وثيقة ترفع إلى الملك . وذهب الحامصى إلى رأس البر وبحث الفكرة مع مكرم باشا الذى لم يتردد فى الموافقة عليها ، واقترح الحامصى طبع

العريضة في كتاب . ويعترف الحماصى بأن حسنين كان يتابع الكتاب أثناء تأليفه . وفي كتاب «حوار وراء الأسوار» يقول الحماصى «عندما أحسنا بشدة مراقبة البوليس ذهبت إلى أحمد حسنين وكان ذلك في أوائل مارس ١٩٤٣ . . وقال «لامانع عندى من تسلم النص المكتوب باليد للعريضة ومعه الوثائق للاحتفاظ بها في خزائن قصر عابدين . . وماعليك إلا أن تسلمها غدا في منزلى» .

ويوم ٣١ مارس ١٩٤٣ كما يقول الحماصى . . «وصل مكرم عبيد في الموعد المحدد واتجه مباشرة إلى مكتب أحمد حسنين حيث كانت العريضة رابضة على مكتبه بعد أن أخرجت من خزانة القصر» . ومما كتبه ونشره جلال الدين الحماصى في كتابين يتضح أن فكرة العريضة التي تحولت إلى كتاب أسود تم الاتفاق عليها بين أحمد حسنين والحماصى ، ثم وافق عليها مكرم عبيد وصاغ العريضة بأسلوبه الأدبى البليغ . وخوفا من رقابة البوليس سلم الحماصى العريضة والوثائق إلى أحمد حسنين في منزله بالدقى الذى أودعها خزائن قصر عابدين إلى أن أخرجت يوم ذهب مكرم عبيد ورفع العريضة إلى الملك فاروق .

دور أحمد حسنين واضح في الكتاب الأسود فكرة ومتابعة وحماية ، ودوره واضح أيضا قبل ذلك بعام في الواقعة بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد بتحديد موعد . . «يتشرف فيه معالى وزير المالية مكرم عبيد باشا بمقابلة جلالة الملك فاروق» ، ثم أوعز حسنين لندوب الأهرام أن يطلب من سكرتير الوفد تصرّحا عن المقابلة ، ووقع مكرم عبيد في الشباك وأدلى بالتصريح الذى نشرته الأهرام في ١٣ مارس ١٩٤٢ يشيد فيه بعطف الملك وتشجيعه وإطلاعه الواسع ، وإرشادة النافع ونظرته الدقيقة والعميقة ورجولته المبكرة وخبرته النادرة . . وكانت بداية الأزمة الشهيرة داخل الوفد .

ويؤكد دكتور يونان لبيب رزق في كتابه «الوفد والكتاب الأسود» أن السلطات البريطانية عرفت بأمر الكتاب الأسود ولم تبلغ حكومة النحاس باشا وهذا أمر له دلالة ، كما أن الملك أخذ يوثق علاقاته بالسفير البريطانى ويخرج الاثنان في رحلات للصيد . وعندما أثار نجيب الهلالى وزير المعارف ديون أحمد حسنين التى لم يسدها لمدرسة أسبوط الصناعية نظير أثاث اشتراه ولم يسدد ثمنه منذ عام ١٩٢٩ ، تدخل الانجليز لحماية أحمد حسنين ولعدم التشهير بذمته المالية . . ومهما يكن من أمر فإن الكتاب الأسود لم يشر من بعيد أو من قريب إلى موقف مصطفى النحاس في ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وهو أحد الملفات الهامة . .

٤ فبراير ١٩٤٢

وجد أحمد حسنين في أحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ فرصة في أن يثير الشكوك حول موقف مصطفى النحاس ، واتجه نشاطه في محاور كثيرة .

ويوضح عبد اللطيف البغدادي ص ٢٠ المذكرات ج ١ أن مناقشات الضباط بنادهم بالزمالك أسفرت عن التوجه للسراي لتسجيل أسمائهم في سجل التشريعات لإثباتا لولايتهم للملك ، وتعبيرا عن مساندتهم له . واتصل البغدادي بأحمد حسنين تليفونيا وطلب مقابلته ، وذهب يرافقه الملازم طيار « عبد الحميد الدغيدى » . ويقول البغدادي . . خرجنا من عنده ولم نعرف الحقيقة عن موقف النحاس ، ولو أننا أحسسنا من ثنايا الحديث أن النحاس لم يكن متواطئا مع الإنجليز كما كان يشاع ولكنه اتخذ هذا الموقف اعتقادا منه أنه أحسن الحلول لمواجهة هذا الموقف العصيب . .

كان أحمد حسنين هو الذى كان يعلم حقيقة موقف الإنجليز وقد أثر هذا الموقف سنة ١٩٤٨ عندما أدلى على ماهر بشهادته في قضية اغتيال أمين عثمان الذى قام به مجموعة من الشباب تعمل لحساب الملك فاروق . قال على ماهر : إن حسنين كان على علم بأن الدبابات ستحضر إلى قصر عابدين في الساعة التاسعة مساء . وعندما عرضت المسألة على الزعماء المجتمعين كانت توجد معلومات عند رئيس الديوان لم يدل بها إلينا ، كما أنه بعد أن ذهب إلى السفير بعد الساعة السادسة مساء عاد وكانت عنده معلومات أخرى وسئل فلم يقل شيئا . هذا ما قاله على ماهر ، وهو من الأعداء التقليديين للنحاس . وغموض موقف حسنين هذا يهدف ألا يقدر الزعماء المجتمعون في القصر بدعوة من الملك للنظر في الإنذار البريطاني . . ألا يقدروا الموقف تقديرا سليما . .

ورغم هذا فقد رفض مصطفى النحاس وسائر الزعماء الإنذار البريطاني ، وطلبوا من أحمد حسنين أن يحمل رفض الإنذار إلى السفير . ويقول محمد حسنين هيكل في مذكراته : « حمل رئيس الديوان قرار رفض الإنذار وذهب به إلى السفارة البريطانية بعد أن طلب إلينا أن ننتظر عودته . . وحاولنا - بعد عودته - أن نستشف ما يكون قد فهمه من اتجاه السفير ، لكن حسنين أكد أنه لم يستطع أن يتبين شيئا . ولم تكن هذه هى الحقيقة .

الملف الشخصي

والملفات كثيرة والموضوعات متشعبة . ويعتقد الذين يعرفونه أنه يجيد التمثيل للوصول إلى أغراضه ، ويتحدثون عن علاقاته بالملكة نازلي . ولكن يبقى ملفه هو الخاص بهويته وبالتعريف به ، ولكن يكون من عند ياتنابل من الملف رقم ٥٢ من الملفات الخاصة بالشخصيات المصرية في السفارة البريطانية ، وهذا نص ماجاء فيه :

« مولود عام ١٨٨٥ . ابن الشيخ محمد حسين من رجال الأزهر . تعلم في مصر ، التحق بأكسفورد . حاول الالتحاق بالجيش البريطاني عام ١٩١٤ ، عينه الجنرال مكسويل سكرتيرا عربيا له . عمل كضابط سياسي مع القوات الانجليزية المتجهة إلى الصعيد بعد اضطرابات ١٩١٩ . شغل سنة ١٩٢٠ منصب مساعد مفتش بوزارة الداخلية . عام ١٩٢٤ عين سكرتيرا أول للبعثة المصرية في واشنطن ، ثم نقل إلى المنصب نفسه في لندن عام ١٩٢٥ . عينه الملك فؤاد ياورا ثانيا ، ثم ياورا أول . تزوج عام ١٩٢٦ من لطفية ابنة الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد عام ١٩٢٩ . ترك الملك فؤاد لندن وبقي حسين لعدة شهور ومازالت أسباب ذلك غامضة . اصطحب الأمير «فاروق» في رحلته إلى إنجلترا بين أكتوبر ١٩٣٥ وإبريل ١٩٣٦ . ومنح الباشوية في أغسطس ١٩٣٦ . . وهنا نكتفي بهذه الملفات وبيعض ماجاء فيها .

الأسانيد :

- ١ - حسن يوسف . . المذكرات .
- ٢ - جلال الدين الخيامصي . . حوار وراء الأسوار .
- ٣ - عبد اللطيف البغدادي . . المذكرات جـ ١ .
- ٤ - محمد التابعي . . أسرار الساسة والسياسة .
- ٥ - د . يونان لبيب رزق . . الوفد والكتاب الأسود .

أحمد حسين



أستأذن في أن أعيد هنا فقرة أو فقرات مما نشرته عنه منذ حوالى تسع سنوات . . قلت : « لم أكن من أتباعه أو مريديه ، بل إننى قضيت الجانب العملى من حياتى السياسية فى موقع ينظر إليه بعين تبدى المساويا . فإذا وجد أتباعه ومريدوه ومحبيه فى هذا المقال ما يمكن أن يكون نقدا أو شبهة نقد لموقف من مواقف - أحمد حسين - فليعذرونى وليردوا ذلك إلى رواسب الماضى » .

لقيته فى حياتى مرتين . . الأولى عام ١٩٥١ ، وكنت إذ ذاك سكرتيرا لأحد الاتحادات التعليمية ، وقد سعى إلى بعض الزملاء لانضم إلى لجنة دعت إلى ما أسميناه « الجبهة الشعبية » . وجلسنا إليه فى مقر الحزب الاشتراكى ، ونشرت مجلة الاشتراكية بيانا جاء فيه : « الطريق الوحيد لتحرير بلادنا هو توحيد صفوف الشعب وتضامن أحزاب وهيئات الأحرار والوطنيين والديموقراطيين وجميع الهيئات الشعبية فى جبهة شعبية حول برنامج شعبى » . المرة الثانية عام ١٩٦٥ وكنت أشارك فى تحرير مجلة « صوت العروبة » وذهبنا إليه . . فؤاد نصحى من أبناء «مصر الفتاة » والمستشار بالجامعة العربية ، وأحد قادة حزب العمل فيما بعد - يرحمه الله ويحسن إليه والمرحوم صادق عزيز المحرر بالأهرام - وقتذاك - ، والزميل محمود مهدى المحرر بالأهرام وقتذاك وحاليا ، ثم كاتب هذه السطور .

كان أحمد حسين قد فرض على نفسه عزلة اختيارية ، وبدأت الأمراض تناوشه ، ولكنه أبى إلا أن يستضيفنا بنفسه ، ويقدم لنا الشاى بيديه ، وكلنا فى مقام الإخوة الصغار وتلاميذه . . ومضت الأيام واشتد المرض عليه . . وفشلت فى أن أقنع نفسى بأن أرى « التأثير الهادر » وقد استكان للمرض . . واكتفيت بأن أجاوره على صفحة « الرأى للشعب » بالزميلة « الأخبار » حين كنت أكتب فيها مقالا أسبوعيا . وكانت مقالاته فى تلك الفترة تحتل الاختلاف أكثر مما تحتل الاتفاق ، واكتفينا بأن ندعوه بالصحة والعافية .

وأترك أخاه عادل حسين رئيس تحرير الزميلة « الشعب » يوجز لنا حاله في تلك الفترة : « اعتزل المحاماة مع بداية سنة ١٩٦٠ وداهمه الاكتئاب مع كارثة يونيو ١٩٦٧ ، ولم ينفع علاجه في لندن ، وعاد وقد استشهد زوج ابنته « إيان » الرائد طيار سامح مرعى . . ودخل أحمد حسين في غيبوبة وأفاق منها وهو في حالة شلل كامل صاحبه حتى توفاه الله . . ومن فضل الله عليه أن بقى له عقله المتوهج ، ويده اليمنى تتعثر في الكتابة » .

وفي تقديرنا أن أحمد حسين هو أكثر رؤساء الأحزاب في مصر الذى يجوز له أن يتألم - إلى هذا الحد - لمصير حركة ٢٣ يوليو فقائدها جمال عبد الناصر كان عضوا بمصر الفتاة وعضوا بقمصانها الخضر حتى آخر عام ١٩٣٥ ، ثم انتقل عام ١٩٣٦ إلى القمصان الزرق . والصدى الحميم لجمال عبد الناصر « كمال الدين صلاح » الذى استشهد فيما بعد بالصومال هو أحد مؤسسى « مصر الفتاة » ، وهو شقيق السيدة الفاضلة زوجة « فتحى رضوان » ، وعدد من الضباط الأحرار أعضاء سابقون في مصر الفتاة أمثال حسن إبراهيم ، وإسماعيل فريد ، ومشهور أحمد مشهور ، ومصطفى بهجت بدوى ، ومحمود رياض ، ومحمد وجيه أباطه . إلا أن « السلطة الجديدة » لجأت للاستعانة بفتحى رضوان وهو المؤسس الثانى لمصر الفتاة . وكان قد انضم معه عدد من العناصر البارزة في الجماعة إلى « الحزب الوطنى » عام ١٩٤٤ وأصدروا « اللواء الجديد » . وفي مايو ١٩٤٩ شكل فتحى رضوان ومجموعته « اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى » واستمر في إصدار « اللواء » . لجأ عبد الناصر للاستعانة بفتحى رضوان ، ولم يلجأ للاستعانة بأحمد حسين في أى مرحلة من المراحل . . لماذا ؟ الزعامة الفردية جزء من شخصية عبد الناصر ، وهى أيضا جزء من شخصية الزعيم السابق لعبد الناصر . كان أحمد حسين منذ شبابه الباكر يتصل بزعماء الأحزاب ويراسل قادة الدول ، ويواجه الزعامات التقليدية ، وكانت لأحمد حسين ملاحظات على « الانقلاب » ، ووقعت جفوة باكرة بينه وبين فتحى رضوان بسبب هذه الملاحظات .

وعند أول خلاف حول سياسة « الحركة » اعتقل عبد الناصر زعيمه السابق أحمد حسين ، واعتقل عبد القادر عودة وعددا من زعماء الإخوان سنة ١٩٥٣ . وشهدت ساحة السجن الحربى أبشع اعتداء على أحمد حسين وعبد القادر عودة ، في « طريحة واحدة » وبأسلاك الكهرباء المجدولة !! ولعل أحمد حسين تأكد حين ذاك أن طريق الدكتاتورية الذى يسلكه عبد الناصر لا يمكن أن يسمح بأية مشاركة شعبية ولا بأية أساليب ديمقراطية ، ولا بأية معاملة إنسانية . ولعله أدرك أن عهد « الضباط الأحرار » يختلف جذريا عن عهود « الوفد » السابقة التى كان يعارضها ويحاربها أحمد حسين . ونراه من لندن عام ١٩٥٥ (كان قد سافر إلى لندن بعد الإفراج عنه) يبعث برسائل ثلاث إلى جمال عبد الناصر يركز فيها على عودة الدستور ، وسيادة القانون

وتعدد الأحزاب ، وحقوق الإنسان المصرى . وأشارت الرسائل أيضا إلى أن الحاكم العسكرى يضيق بالاختلاف فى رأى ولا يقبل المعارضة .

جيل القلق

ولا أظن أن « النزعة الزعامية » التى أشرنا إليها هنا عند أحمد حسين تنفيها أو تقلل من احتمالات وجودها عنده مواقف مختلفة لديه مع محمد محمود زعيم الأحرار الدستوريين ، وعلى ماهر الخصم العنيد للوفد ، ومحمد كامل البندارى أيام كان رجل القصر أو محاولة الاندماج مع الإخوان المسلمين . . أو شبه الاندماج الذى تم عام ١٩٤٠ بين لجان الحزب الوطنى ومصر الفتاة واشترك أحمد حسين فى « جماعة الشباب الحر أنصار المعاهدة » برئاسة حافظ محمود فى أغسطس ١٩٢٠ . والدفاع عن مشروع معاهدة « محمد محمود ، هندرسون » وهجومه على الوفد ، ومناداته بمحمد محمود زعيما لمصر (فى مواجهة زعامة مصطفى النحاس) . فقد كان فى هذا الموقف يعبر عن رغبته الكامنة فى أن يكون هو نفسه « زعيما لمصر » ، وليس محمد محمود أو مصطفى النحاس . ثم لا ننسى أنه كان فى ذلك الموقف فى الثامنة عشرة من عمره ، إذ أنه ولد فى ٨ مارس ١٩١١ لوالده محمود حسين كاتب الحسابات فى بعض الدوائر الزراعية ولوالدة من قرية « ميت النصارى » تمت بصلة القربى لمصطفى النحاس باشا . شاب عمره ١٨ سنة ، فى السنة الأولى بالحقوق ، مغرم بالتمثيل ، كان عضوا بفرقة التمثيل فى المدرسة الخديوية ، ورئيسا لفرقة تدعو إلى « مجد الفراعنة التليد » وكانت جريدة « السياسة » تفتح أبوابها لبيانات هذا الشاب ، ورئيس وزراء مصر ابن محمود سليمان يقبل عليه مما جعل الشاب أحمد حسين يفرق فى المناداة بزعامة محمد محمود ابن الصعيد ، سليل الفراعنة . ولكن لا محمد محمود استمر فى الدور ، ولا جريدة « السياسة » استمرت تفتح أبوابها له ، وكان الموقف كله من مقتضيات السياسة للإفادة من الشاب ومن زملائه . وفى الوقت ذاته محاولة من الزعيم الشاب أن يستند إلى « الأحرار الدستوريين » وأن يفيد من وزاراتهم سياسيا وماديا وصحفيا ويضمن نموا لجماعته وحزبه فى ظلهم ، ولكن بعد إقالة حكومة النحاس فى ديسمبر ١٩٣٧ ، ومجيء محمد محمود رئيسا للوزراء قام بحل التشكيلات العسكرية للوفد وللمصر الفتاة على السواء فى ٩ مارس ١٩٣٨ ، ووقعت الجفوة بين أحمد حسين ومحمد محمود وبين « مصر الفتاة » و« الأحرار الدستوريين » ، ووصلت الجفوة إلى الصدام والزج بعناصر جيل القلق إلى السجون .

التجربة الثانية مع على ماهر ، وهو معروف بأنه يعمل لصالحه الشخصى سواء فى خدمته للقصر أو فى تحالفاته المختلفة . ومن هذا المنطلق سعى على ماهر للتحالف مع أحمد حسين ضد

الوفد . . ويوضح أحمد حسين أسباب تحالف « مصر الفتاة » لفترة طويلة مع على ماهر . كتب في جريدة « مصر الفتاة » في ٢٢ نوفمبر ١٩٣٩ . « إننا قوم عمليون ، ولا تزال البلاد في حاجة إلى اسم ضخم ، ولما كان على ماهر هو آخر هذه الأسماء الطنانة ، وهو الرجل الذي لم يفتر عن تأييدنا تأييدا كاملا طوال ست سنوات ، فلا عجب إذا رأنا الناس نأخذ جانب على ماهر ليكون مقدمة لحكم الشباب ، ومقدمة لثورة الإصلاح الكبرى » . حكم الشباب إذن هو الهدف ، وحزب الشباب هو « حزب مصر الفتاة » . وزعيم الحزب هو أحمد حسين . الهدف واضح إذن في تحالفاته وهو إفساح الطريق للجيل الجديد ليأخذ مكان الجيل القديم ، وليحل الشباب محل الأسماء الطنانة . وأحسب أن أحمد حسين قد حدد هدفه من الجيل القديم منذ بداية مشروع القرش - فبراير ١٩٣٢ - وخاصة الجيل القديم من مدرسة سعد زغلول . وربما كان هذا النهج متبعا أيضا في علاقة أحمد حسين بعدد من الشخصيات البارزة أمثال عزيز المصري وصالح حرب ومحمد كامل البنداري ، ومحمد على علوبة والشيخ حسن البنا .

البحث عن هوية

لقى أحمد حسين هجوما شرسا عليه من جانب كتاب وباحثين ومفكرين عديدين بسبب اختلاف مواقفه من الهيئات والشخصيات والمؤسسات التي وصلت أحيانا من النقيض إلى النقيض . من أجل هذا وصفوه بالفاشية وبالزئبق وبمدرسة الصخب وبالديسيطة وبالرجل الذي باع الوطن لكل من دفع الثمن ! وساقوا أدلة على تلك التغيرات الحادة في مواقفه على مدى ثلاثين عاما . فهو قد بدأ نشاطه وهو في حوالى العشرين بولاء لا حدود له للجالس على العرش ، ولكن لو أجلنا البصر على تاريخ كل زعماء مصر عندما كانوا في العشرين من أعمارهم ما وجدنا مواقفهم تختلف كثيرا عن موقف أحمد حسين . وإذا كان قد استمر هذا الولاء معه لسنوات عديدة مما طبع « مصر الفتاة » وتشكيلاتها وصحفها بطابع الولاء للملك ، فإننا لانجد شخصية سياسية ولا جماعة سياسية مزقت هوية القصر وألقت باسم الملك في الوحل مثلما فعل أحمد حسين وأعضاء « الحزب الاشتراكي » في بداية الخمسينات . وإذا كانت دعوته الباكرة ضد الأجانب عامة فإنها تركزت ضد الانجليز عام ١٩٥١ .

وقد بدأ نشاطه الصحفى في مجلة « الصرخة » عام ١٩٣٠ بدعوته المصرية الفرعونية « يا شباب النيل ، ياسلالة الفراغة مصر مركز العالم ، أم الحضارات » . . . إلى آخر هذه الدعوة . ولكن المتأمل المدقق يجد أنه يقرن هذه الدعوة بصرخة أخرى لطرد المحتل الذى يعتدى على « مصر أم الدنيا » ثم يقرنها بشعار عاطفى « مصر فوق الجميع » . وإذا تحدث عن رمسيس فهو يتحدث

عن مجد الإمبراطورية القديمة الذى داسته أقدام المحتلين ، ويتحدث عن امئنتب مقرونا بالعدل الاجتماعى ، ويوقع مقالاته أحيانا باسم « أئمس » استلهاما للتحرير . والعناصر التى بدأ بها دعوته « الفرعونىة المصرىة » وظلت ثابتة لءىة سىاسة وأسلوبا نرى منها « المىلىشىا الفرعونىة » ، وربما ءحولت هءة إلى « القمصان الخضرء » التى أءىتها لءىة ءشكىلات إىطالىا الفاشىة والأمانىة النازىة ، والعدل الاجتماعى ظل لءىة فى حزب مصر الفتاة ، وفى الحزب الإسلامى ، وفى الحزب الاشتراكى (١٩٤٩) والذى حرص على أن يسجل أنه يأخذ باشتراكىة معارضة مع الماركسىة وىستمدها من الإسلام . وعندما خشى أن ءلئبس الأمور أعلن فى آخرىات أىامه أنها الإسلام وحسب .

سنة ١٩٣٠ صدرت مجلة « الصرخة » ورأس ءحريرها حافظ محمود حسب روىته ، وكانوا ءمسة: أءمد حسىن وفتحى رضوان وكىمال الءىن صلاح وحافظ محمود ، ومصطفى الوكىل . واتصل أءمد حسىن وحافظ محمود بجمعىة « المصرى للمصرى » التى أنشأها سلامة موسى ودعت إلى مقاطعة كل البضائع غير المصرىة ، ودعا أءمد حسىن « لمشروع القرش » الذى شجعه الشباف والقادة وأفسح له إسماعىل صدقى - وكان رؤىسا للوزراء - المجال ، وءبناه طلعت حرب ، ونأسس مصنع للطرابىش بأموال مصرىة سنة ١٩٣٣ . وأعفى أءمد حسىن من منصبه فى « جمعىة القرش » بعد أن كسب شهرة قومىة من وراء الدعوة للمشروع وأعلن عن ءكوين « جمعىة مصر الفتاة » فى ١٢ أءءوبر ١٩٣٣ ، ونشر برنامج الجمعىة على صفءات « الصرخة » فى ٢١ أءءوبر وهو البرنامج الذى قام « حزب مصر الفتاة » سنة ١٩٣٧ للدفاع عنه ، وسنة ١٩٣٨ بدأ « الاتجاه الإسلامى » يظهر واضءا فى نشاط الحزب ، وفى ١٨ مارس ١٩٤٠ وضع برنامجا لحزب إسلامى رفعه إلى الملك فاروق وءغير اسم الحزب إلى « الحزب الوطنى الإسلامى » . إلا أن الحزب الءدىء ىبدو أنه لم ىستطع أن ىنافس « الإخوان المسلمىن » فى مىءان هم فرسانه ، فبدأت العوءة إلى اسم الحزب القءىم « مصر الفتاة » فى العام نفسه . وعام ١٩٤٩ وءءت ءأىىر الوضىة الءدىءة فى المنطقة بعد حرب فلسطين (١٩٤٨) والءغىرات على النطاقىن العالمى والمصرى ، بدأ ءحول « حزب مصر الفتاة » إلى « حزب مصر الاشتراكى » ، وفى وءائق الحزب الاشتراكى التى ءقدم بها ءءءور فءرى أسعد عن الأعضاء المؤسسىن ءطبىقا لقانون الأحزاب لسنة ١٩٥٢ ، نءء أن المادة الأولى ءنص على أن الحزب الاشتراكى هو استمرار لحركة مصر الفتاة التى بدأت فى ١٢ أءءوبر ١٩٣٣ . ولكن لم بقءر للحزب أن يقوم من ءدىء لأن مصر ءءلت مرءلة ءدىءة لا أحزاب فىها ولا دستور ولا دىمقراطىة ، مما ءفع أءمد حسىن إلى الصءام مع السلطة الءدىءة كىا أسلفنا .

شهادة للتاريخ

وإذا كان أحمد حسين قد بدأ حياته السياسية العملية بحرب شعواء ضد « الوفد » ، فإنه قد ختمها أيضا عام ١٩٥١ بحملة شعواء ضده أسهمت - في تقديرنا - في إسقاط الحكومة وفتح الطريق لوزارة على ماهر بعد الحريق ، وبعدها استيلاء الضباط الأحرار على السلطة والحكم الدكتاتوري الذي اكتوى بتعذيبه أحمد حسين نفسه . ولم يكن من الغريب في سنوات العزلة الاختيارية والتأمل فيما مضى به من أحداث أن يكتب أحمد حسين مقالا بجريدة الجمهورية بعنوان « شهادة للتاريخ عن مصطفى النحاس » بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٩٧٥ يقول بالحرف الواحد : « إن الديمقراطية والحرية السياسية هي السر الحقيقي لقوة الشعوب ، ومن هنا فقد كان حق النحاس في حكم البلاد باعتباره زعيم الأغلبية الساحقة هو حق طبيعي ، والحق لا يتحول إلى باطل » . وفي مقال آخر في الشهر نفسه ، وفي الجريدة ذاتها يقول عبارات محددة . « إن سيادة القانون وسلطانه وأحكام الدستور وممارسة الديمقراطية لم تتوقف لحظة واحدة خلال حكم الوفد » . وفي ظل طموح أحمد حسين لزعامة الشباب والجيل الجديد الذي يدعوه إلى الإمساك بمقاييد الأمور بدلا من الجيل القديم ، وفي ظل دعوة « مصر الفتاة » لابتعاد الشباب عن العمل السياسي ، ودعوتها للميليشيا الفرعونية والتشكيلات شبه العسكرية وللقمصان الخضر ، وعدم الإيمان بالأساليب البرلمانية في إطار الليبرالية والدعوة لاستخدام القوة وللانقلاب والثورة . . كان من الطبيعي ألا تندمج « مصر الفتاة » في حزب الأغلبية الشعبية الذي يؤمن بالدستور والوسائل البرلمانية ، ومن الطبيعي أن يكون موقف الجمعية في الجانب المعادي للوفد وإن اختلف موقف الجمعية من فصائل الفريق المعادي للوفد .

وقد بدأت علاقة أحمد حسين بمحمد محمود والأحرار الدستوريين أكثر من طيبة ، إلا أن محمد محمود الذي كان يطمح يوما أن يكون رئيسا للوفد بعد سعد زغلول وسليل الفراغة ومن أحشاء الصعيد ، والذي دعاه أحمد حسين ذاته أن يكون « موسوليني مصر » لم يكن بالشخص الذي يمكن أن تحركه « جماعة مصر الفتاة » كما تهوى ، فكان يحدث الخلاف بين الحين والحين . وكانت « مصر الفتاة » تؤمن بكثير من تراث الحزب الوطني وبمواقفه وأساليبه وتشكيلاته ، ولكن لم تكن هناك فرصة لاتحاد الجيل الجديد مع الجيل القديم . وقد بادرت « مصر الفتاة » بتأييد انقسام « ماهر والنقراشي » عام ١٩٣٧ وذلك لإضعاف الوفد ، ودب الخلاف بسبب اتجاه أحمد ماهر لدخول مصر « شكليا » الحرب إلى جانب انجلترا مما أدى إلى اغتياله في فبراير ١٩٤٥ . وقد بذل عزيز المصري جهودا في محاولة اندماج « مصر الفتاة » في جمعية « الإخوان المسلمين » ورفض الشيخ حسن البنا الفكرة عام ١٩٣٩ ، واستطاعت الجماعة أن تستقطب عددا من أعضاء « مصر

الفتاة « لوضوح توجهاتها الدينية ، ولغلبة الاتجاه السياسى لدى مصر الفتاة . وبتأثير النشاط الماركسى تعاطف عدد من أعضاء « مصر الفتاة » مع العناصر اليسارية ، ولكن بعد وضوح موقف أحمد حسين من الماركسية ، وبعد الهجوم الضارى من الماركسيين على أحمد حسين و«مصر الفتاة» ، خرج عدد من أعضاء «مصر الفتاة» إلى المنظمات اليسارية أو إلى الوفد .

* * *

أحمد حسين سباق مع الزمن ، أفكار كالصاعقة ، عقلية متوهجة ، حالم بمجد رمسيس وبشخصية أحسن ، وميليشيا فرعونية ، ومصر فوق الجميع ، وجيل جديد يريد أن يحتل موقع الجيل القديم وداعية لولايات عربية متحدة ، ورئيس « مصر الفتاة » جماعة وحزبا ، والحزب الوطنى الإسلامى ، والحزب الاشتراكى ، والعدل الاجتماعى ، والأخوة العالمية . . مواقف ملتزمة من الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفيتى ، مواقف متغيرة من كل أحزاب وجماعات وشخصيات مصر إلا فيما ندر . . دخل السجن العادى أيام الديمقراطية . . والسجن الحربى أيام نظام تلاميذه القدامى . . و . . هل استطعت أن أقدم صورة كاملة عنه ؟ لا أظن . .

الأسانيد :

- ١ - د . رفعت السعيد . . « أحمد حسين » .
- ٢ - عادل حسين . . « الشعب » ١٥ / ٣ / ١٩٨٨ .
- ٣ - د . عبد العزيز الدسوقي . . « الحركات الجديدة » أحمد حسين .
- ٤ - د . عبد العظيم رمضان . . « تطور الحركة الوطنية فى مصر » .
- ٥ - د . على شلش . . « مصر الفتاة » .
- ٦ - د . لطيفة سالم . . « الصحافة والحركة الوطنية المصرية » .
- ٧ - لمعى المطيعى . . الأخبار ٢٩ / ١٠ / ١٩٧٩ .

أحمد حلمى



غريب أمر هذه الدنيا .. أحمد حلمى يشقى إلى جانب مصطفى كامل سبع سنوات كاملة ، ولكن على فهمى كامل شقيق مصطفى يحاربه ويهزأ به ويسعى إلى طرده من جريدة اللواء . يكتب فى « اللواء » و« الشعب » و« العلم » ، ويصدر « القطر المصرى » فيجوع ويأويه محمد فريد فى واحد من بيوته ، وعندما يترك الصحافة تقبل الدنيا عليه ويزرع ألف فدان ويبنى عمارة فى شبرا . وبعد أن ارتاح البال يعود إلى إصدار مجلة ليس فيها سياسة ومقصورة على « الزراعة » ، وتبدأ أحواله المالية فى التدهور ويصاب بالبول السكرى . فى ٢٤ إبريل ١٩٠٨ أصدر العدد الأول من المجلة الأسبوعية « القطر المصرى » . ويوم صدور العدد الأول كان يوما لم يشهد سكان القاهرة يوما ممطرا مثله فى أشد أيام الشتاء مطرا ، ظل المطر ينهمر طوال النهار وطرفا من الليل فلم يلتفت أحد لشراء هذا العدد واشتروه فى أيام تالية . رحبت صحف تلك الأيام « بالقطر المصرى » فيها عدا جريدة « اللواء » التى بذل فيها أحمد حلمى جهوده كلها .. يكتب فى الصفحة الأولى من « اللواء » ، ويصدر « القطر المصرى » ويكتب فى « الشعب » و« العلم » ، وعند أول صدام مع رفاقه فى الحزب الوطنى يقولون : « لم يبق سوى بتاع الهوانم » . و« الهوانم » تلك مجلة باللغة العامية اشترك أحمد حلمى مع أحد الأجانب فى إصدارها (١٥ إبريل ١٩٠٠) وهى مجلة نسائية ورد ذكرها فى كتب عن تلك الفترة ، ولكننا لم نجدها فى « دار الكتب القومية » ، حتى أحمد حلمى نفسه لم يشر إليها فى التحقيق الذى أجرى معه (١٥ مارس ١٩٠٩) وعندما سأله المحقق عن نشاطه الصحفى قبل « القطر المصرى » سجل أنه كان يعمل محررا فى « اللواء » ، ولم يشر من بعيد أو قريب إلى مجلة « الهوانم » . كتب المقالات الرئيسية فى « اللواء » ، وهاجم الاحتلال وأسرة محمد على ، ودافع عن الحزب الوطنى ، ولكنه لم يجد من رجال الحزب الوطنى سوى الفتور وعدم الاهتمام مما جعل الخديو وسلطات الاحتلال تشدد القبضه عليه ، ويقدم إلى المحاكمة بتهمة « التطاول على مسند الخديو » وهنا تعطف الحزب الوطنى عليه وطلب من إبراهيم الهلباوى الدفاع عنه .

مراسلات مصطفى كامل

ولكن يبدو أن مصطفى كامل كان مختلفا عن رجال الحزب الوطنى فى معاملة أحمد حلمى ، ستة خطابات محفوظة بمتحف مصطفى كامل بالقلعة من « مصطفى كامل إلى أحمد حلمى » خمسة منها صادرة من باريس ، وخطاب صادر من الإسكندرية وسوف نلقى نظرة إلى أهم هذه الخطابات وإلى أهم مافيها .

والدراسة التاريخية للخطابات لها مغزى خاص غير دراسة المقالات أو المذكرات أو الذكريات أو الخطب ، وهذه كلها تحيط بها ملابسات معينة لمراعاة نفسية الجماهير ، وعقلية القراء ، أو الرغبة فى تحسين صورة القائد أو الزعيم عند كتابة مذكراته وذكرياته وهو يعلم أنها سوف تكون محل دراسة فى مستقبل الأعوام . أما الخطابات فعلى الرغم مما يكون فيها من عناصر المجاملة فإنها محصورة بين الكاتب والقارئ ، والتعبير قد يكون مباشرا فى أغلب الحالات . . على أية حال نبدأ بالرسالة الأولى وإذا لزم الأمر فسوف نسجل ما نراه من شرح أو تعقيب .

باريس فى ٢ سبتمبر ١٩٠٣

عزيزى حلمى حفظه الله

سلاما واحتراما وشوقا جزيلا . وبعد ، فقد تشرفت بكتابك العزيز المؤرخ ٢٢ أغسطس الماضى وتأسفت جدا لما جاء به . مع أنى لما تناولته ورأيت إمضاءكم فى آخره سررت وقلت ، سنرى حلمى فى حوادث مصر ، وما كان يخطر لى على بال أن حلمى غاضب نافر يود ترك «اللواء» ويضحى بصاحبه لحادثة من أبسط الحوادث . وإنى مع إعجابى بها أنت عليه من الشمم والأخلاق الفاضلة التى تزيدنى حبا فىك يوما عن يوم أراك نسيت أنه لا إرادة لك مادمت أنا حيا ، لأننى أعتبرك أخا لى ولا وجود بيننا لرئيس ومروءوس وما أراه صالحا لك هو الصالح الحقيقى بلا نزاع . ولا معنى لمحو إرادتك هنا إلا اتحادها بإرادتى واشتراكها معها أو امتزاجها بها . وأنت لا تجهل قول الشاعر العربى : « ولأجل عين ألف عين تكرم ! » .

فلاجلى تحمل كل شىء فإننى أعرف أن أقابل هذه المروءة بأحسن منها ، وأعرف لك فضلك وهمتك ونشاطك ، وقد أتعبتك فى هذا العام عن رغبة فى جعلك أول صحافى فى مصر . وستكون كذلك رضيت أو لم ترض ، وسترى مرتبك فى قليل من الزمن فوق مرتب كل صحافى فلا تياس وتأكد أن على بك يجبك حبا شديدا ، ويذكرك فى كل خطاباتى لى بمزيد من الشناء والامتنان . وليس هذا الوقت الذى أحوج فيه لى القوة والاتحاد هو وقت الافتراق !

(.) تأتى هنا سطور لاتتصل بموضوعنا وهى من قبيل المجاملات والتحية . .)
العنوان :

مصطفى كامل

مصطفى كامل بك

٨ شارع بلزاك ، باريس ٨ ، فرنسا

(ملحوظة من عندنا . . العنوان فى الرسالة المحفوظة مكتوب بالفرنسية) .

تحقيق وتعليق

كان هذا هو الخطاب الأول من مصطفى كامل إلى أحمد حلمى ، من قبل . وأسلوب مصطفى كامل حتى فى خطاباته يتميز بالرصانة وسلامة اللغة وهذه ميزة تسجل له . ويتبين من الخطاب أنه رد على خطاب من أحمد حلمى يقرر فيه أنه فى سبيل أن يترك العمل بجريدة « اللواء » بسبب مضايقات من على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل . ويبدو أيضا اهتمام مصطفى كامل بالإبقاء على مشاعر أحمد حلمى فى « اللواء » ، ويحاول فى الخطاب أن يسترضيه بالبقاء فيداعب مشاعره بالعلاقة الحميمة بينهما فضلا عن صورة مشرقة يرسمها له من حيث المستقبل الصحفى وزيادة فى المرتب .

المهم هنا هو موقف على فهمى كامل من أحمد حلمى والعلاقة بينهما . .

واضح من الوثائق التاريخية أن « اللواء » صدر العدد الأول منها يوم الثلاثاء ٢ يناير ١٩٠٠ ، وكان مقرها المنزل رقم ١٣ شارع فهمى بجوار محطة باب اللوق حاليا . ومنذ الفترة الأولى نجد اسم أحمد حلمى بين الأسماء الكبيرة الكثيرة التى تظهر على صفحات « اللواء » أمثال : محمد فريد ، أحمد شوقي ، وإسماعيل صبرى ، وخليل مطران ، وويصا واصف ، ومحمد فريد وجدى ، وفؤاد سليم ، وعبد القادر حمزة ، ومحمد لطفى جمعة ، وعثمان صبرى ، والشيخ عبد العزيز جاويش .

هو إذن من أوائل الذين كتبوا فى « اللواء » ، ونجد مقالات له على الصفحة الأولى وكان يحور المقالات الهامة ، ويعاون مصطفى كامل فى أعمال كثيرة تتصل بالجريدة . وقد ذكر الأستاذ عباس محمود العقاد فى مجلة « المصور » (يونية ١٩٥٦) بصدد الحديث عن حادثة دنشواى (يونية ١٩٠٦) . . قال العقاد : « لاتعرف فرعا شمل القطر المصرى من أقصاء إلى أقصاء كالفرع الذى شمله يوم قرأ الناس أخبار هذه الفاجعة ، ونشرتها إحدى الصحف بعنوان يادافع البلاء » .

والأستاذ العقاد يشير هنا إلى التحقيق الصحفى الذى نشره أحمد حلمى فى صورة مقال بعنوان

« يادافع البلاء » يصف فيه أحداث دنشواى لحظة بلحظة . وقد كان لمقال أحمد حلمى الأساس الذى اعتمد عليه مصطفى كامل فى مقالاته ، وفى حملته ضد بشاعة الاحتلال البريطانى فى مصر . كان أحمد حلمى قريبا من مصطفى كامل ، ولكنه فى الوقت ذاته قريب من محمد فريد ، وما أن توفى مصطفى كامل فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ حتى أسفر على فهمى كامل فى العداء لمحمد فريد ، ولأنصار محمد فريد وفى مقدمتهم أحمد حلمى . وحاول أن يتولى رئاسة الحزب الوطنى بعد رحيل زعيمه ، وأسند رئاسة تحرير « اللواء » إلى الشيخ عبد العزيز جاويش بحجة أن الشيخ جاويش يحمل مؤهلا عاليا ، وأن أحمد حلمى - الذى كان يطمع فى رئاسة التحرير - لا يحمل أى مؤهل وإن كان قد ثقف نفسه بجهوده الذاتية .

شكوى أحمد حلمى من على فهمى كامل ثابتة ولها ما يبررها ، ومضايقات على فهمى كامل له كانت معروفة ولها دوافعها عنده وانتهت بخروج أحمد حلمى من اللواء عقب وفاة مصطفى كامل . وأما كلام مصطفى كامل إلى أحمد حلمى فى الخطاب المشار إليه حول ثناء على فهمى كامل على أحمد حلمى فهو من قبيل تهذية الأمور .

الخطابات الأخرى

وقبل أن نتابع مسيرة أحمد حلمى الصحفية والكفاحية ، نقدم موجزا سريعا للخطابات الأخرى من مصطفى كامل إلى أحمد حلمى .

الخطاب الثانى من باريس فى ١٧ سبتمبر ١٩٠٣ .

وهو رد على خطاب من أحمد حلمى (٩ سبتمبر) ويردد له أيضا أن على فهمى كامل يثنى عليه دائما ويشكره لرده على « المؤيد » ارتحت لكل ماكتبتموه ردا على المؤيد ومفترياته الصبيانية ، وينصحه ألا ينشغل اللواء « خادما الأمة » بجريدة « قوس قزح » . ثم يخبره أنه مسافر إلى الأستانة ويرجوه أن يكتب إليه هناك .

والخطاب الثالث من سان ستفانو فى ٧ يونية ١٩٠٤ .

كان مصطفى كامل قد عاد إلى الاسكندرية لإلقاء خطابه على مسرح زيزينيا فى ٧ يونيه ١٩٠٤ . وأرسل خطابه هذا لأحمد حلمى يرجوه أن يعتنى بتصحيح الخطبة .

والخطاب الرابع . . الخميس ٨ أغسطس ١٩٠٧ .

ليس مدونا عليه الجهة المرسل منها ولكنه يقول فيه « إنى قاصد جبال سان موريتس بعد ثلاثة أيام للإقامة بها أسبوعين وسأعود إلى باريس ثم أبحر فى ٥ سبتمبر لأكون عندكم إن شاء الله فى ٩ سبتمبر . . » .

والخطاب الخامس . . باريس في أول سبتمبر ١٩٠٧ .
يقول لأحمد حلمى فيه . . « صحتى على ما يرام وسأعود إن شاء الله إلى الوطن العزيز في آخر الشهر ، سلامى العاطر لكافة المحررين والعمال والجمعية وكل من يعاون في إظهار « اللواء » المنصور ودم بخير لمحبك . . مصطفى كامل » .
والخطاب السادس . . باريس في ٢٨ سبتمبر .
على المظروف جاء تاريخ مغاير « حضرة الماجد حلمى أفندى المحرر باللواء الغراء » وتاريخ البريد ١٨/٩/١٩٠٦ هذا في حين أن الخطاب السابق عليه كان بتاريخ « أول سبتمبر ١٩٠٧ » .

خان الخليلي

نعود إلى المسيرة من خان الخليلي . السنة ١٨٧٤ ميلادية . . ودكان صغير لبيع الملابس يملكه عبد الغنى سعودى وحسن على المهدي . حسن يتزوج ابنة عبد الغنى . ويتوفى حسن وطفل صغير في بطن زوجته ابنة عبد الغنى . وفي الأسبوع الأخير من فبراير ١٨٧٥ ، في حارة تواجه الباب الأخضر للمسجد الحسيني ، وفي بيت شقيق زوجة « المرحوم حسن » ولد طفل هو « أحمد حلمى » .

خرج أحمد حلمى إلى الحياة وأبوه قد رحل عن الدنيا ، ويرسله خاله إلى كتاب « خان جعفر » ، ويتلقى الصبى ثقافة محدودة . ويحدث نزاع بينه وبين خاله لضيق ذات اليد ، فيذهب حلمى إلى الإسكندرية سيرا على القدمين من القاهرة . ويعمل عملا متواضعا في شركة أجنبية ولكنه يتعلم فيها الفرنسية ، ويترك الشركة إلى العمل كاتبا صغيرا بمركز دمنهور ، ويذهب للعمل في مأمورية سيوة . ويعود إلى القاهرة ، وكانت تصدر في الإسكندرية جريدة تجارية سياسية يومية هي « السلام » وقد صدر العدد الأول منها في ٥ مايو ١٨٩٨ ميلادية . وأعلنت الجريدة سنة ١٩٠٠ أنها في حاجة إلى « مراسل » لها في القاهرة . . وفي ٨ مارس ١٩٠٠م يظهر مقال صغير في الجريدة لأحمد حلمى يتحدث فيه عن جهوده المقبلة كمراسل هذه الجريدة ، والمقال مصحوب ببعض أخبار العاصمة . ثم اشترك في ١٥ إبريل ١٩٠٠م مع أحد الأجانب في إصدار مجلة « الهوانم » التى أشرنا إليها . وفي تلك الفترة بدأ يرسل بموضوعات حماسية لجريدة « اللواء » . ويترك عمله في مصلحة المساحة ليتفرغ للعمل في جريدة « اللواء » من أول أكتوبر ١٩٠١ ميلادية ، ليعمل مصححا للرسائل التى ترد إلى الجريدة من الأقاليم ، ويعاون مأمون بيومى المستول عن الأخبار في الجريدة ، وأصبح بعدها يكتب المقالات الرئيسية ثم المقالات الافتتاحية . وقد أشرنا من قبل إلى مقاله الشهير (يادافع البلاء - ٢٩ يونيو ١٩٠٦) عن حادث دنشواى .

بعد رحيل الزعيم

واستمر أحمد حلمى قوة ضاربة على صفحات جريدة « اللواء » رغم الصراعات الداخلية إلى أن رحل مصطفى كامل فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ ، وتولى رئاسة الحزب الوطنى محمد فريد ليواجه مناورات على فهمى كامل الذى كان يطمع فى رئاسة الحزب والذى جاء بالشيخ عبد العزيز جاویش رئيساً للتحرير ، والذى سار بالجريدة فى سياستها التقليدية وهى سياسة مناوئة للاحتلال وتميل للخديو حسب الظروف ، وتعتمد على تأييد فرنسا ، ويبدأ الجاویش مثالاته فى ٣ مايو ١٩٠٨ . وكان أحمد حلمى قد ترك « اللواء » وبدأ يشن حملة ضد على فهمى كامل ، فینشر فى ٧ إبريل مقالا فى جريدة « الأخبار » (وهى جريدة أصدرها اللبناى يوسف الخازن سنة ١٨٩٦ - أى أنها غير الأخبار التى أصدرها فيما بعد أمين الرافعى) ، قال أحمد حلمى فى مقاله إن على فهمى بدأ يهالى الانجليز لينقذوه من ديونه بسبب إسراره ، وأشار إلى خلاف « على » مع محمد فريد . .

وعندما تولى محمد فريد مسئولية الحزب الوطنى بدأ على فهمى يستقطب المعارضين لمحمد فريد ، وأوعز إلى العمال بالإضراب عن العمل ، وأرسل الخديو إلى العمال المضربين ٦٠ جنيتها سرا ، فلجأ محمد فريد إلى طباعة « اللواء » فى مطبعة « الجريدة » بمساعدة أحمد لطفى السيد ، ولجأ على فهمى ومؤيدوه إلى إصدار صحيفة « مصر الفتاة » . أما أحمد حلمى فقد لمس أن محمد فريد عاجز أو غير راغب فى مناصرته لمواجهة على فهمى كامل فقدم استقالته ولزم داره . وأخذ يعد العدة لإصدار مجلته الأسبوعية « القطر المصرى » .

« القطر المصرى »

قدم أحمد حلمى استقالته كما أشرنا فى ٤ إبريل ١٩٠٨ م ولزم داره إلى أن أصدر « القطر المصرى » فى ذلك اليوم المطير يوم الجمعة ٢٤ إبريل ١٩٠٨ . بدأ تجربته الجديدة والحزب الوطنى لايهتم به ، ومحمد فريد رغم علاقته الطيبة به إلا أنه لا يستطيع أن يناصره فى وضعه الذى لايحسد عليه ، وعلى فهمى كاره له ويتآمر عليه ، وعبد العزيز جاویش رئيس تحرير « اللواء » حاقده عليه هازىء به . . وأحمد حلمى يعد نفسه واحدا من الأمناء على مبادئ الحزب الوطنى ، وواحدا من الأوفياء للزعيم بعد رحيله . وهكذا هاجم على فهمى واتهمه بمحالفة الإنجليز ، وهاجم الشيخ جاویش واتهمه بالعمل على التفرقة بين عنصرى الأمة . . وفى حماسة يهاجم أحمد حلمى الاحتلال وأسرته محمد على ، ويهاجم الحكومة ، وينبه العمال إلى حقوقهم ويستجيب عمال « الترام » ويقومون بإضراب كبير ، ويخاطب الجيش أن ينضم إلى صفوف الشعب ، وتحس سلطات

الاحتلال بخطر « القطر المصري » . وتنشر الأهرام في ٢١ سبتمبر ١٩٠٨ م أن القائم بأعمال المعتمد البريطاني تحدث إلى الخديو بأن كل أمر جائز إلا « التمحك » في الجيش ، وإلا بث روح التمرد فيه ، ويتفق المستول الإنجليزي والخديو على بعث قانون المطبوعات القديم الذي كان قد صدر سنة ١٨٨١ . ويخطب أحمد حلمي في تظاهرة احتجاجا على إعادة قانون المطبوعات ، ويسير على رأس التظاهرة مدافعا عن حرية الصحافة في ٣١ مارس ١٩٠٩ .

وفي صباح يوم الاثنين ٥ إبريل ١٩٠٩ انعقدت المحكمة الخصوصية بمحكمة السيدة زينب لمحاكمة أحمد حلمي « لأنه تناول على مسند الخديوية المصرية ، وطعن في حقوق الحضرة الخديوية ، وعاب في ذات ولي الأمر » . وتولى الدفاع عنه أحمد لطفى المحامى شقيق التعاونى عمر لطفى ، وحكمت المحكمة بحبسه عشرة شهور وتعطيل جريدة « القطر المصري » لمدة ستة أشهر وإعدام كل ماضبط ويضبط من العدد ٣٧ . وعدلت محكمة الاستئناف الحكم من عشرة شهور إلى سنة مع الشغل وكان عليه من قبل حكم بالحبس أربعة أشهر ، وهكذا صار مجموع ما حكم عليه سنة كاملة مع الشغل وأربعة أشهر حبسا بسيطا . ومضى الصحفى إلى سجن مصر ، ونقل في ١٩ إبريل ١٩١٠ إلى سجن الاستئناف ، ولم يفرج عنه بعد قضاء ثلاثة أرباع المدة . وأفرج عنه بعد قضاء مدة العقوبة كاملة في ١٤ أغسطس ١٩١٠ ، ويتقاضى عن اشتغاله بصناعة السجاجيد في السجن طوال مدة العقوبة مكافأة قدرها ٤٩٨ مليا فيرسلها إلى خزانة الحزب الوطنى .

وكانت « القطر المصري » قد عادت إلى الظهور في ٢٣ أكتوبر ١٩٠٩ ، وأخذ أحمد حلمي يكتب من السجن بتوقيع « أديب ناصح » . كتب مقالا بعنوان « إصلاح الرعية بصلاح ملوكها » « يا كل ملك غشوم ، أو حاكم ظلوم ماضرك لو تتروى قبل حلول الأجل فلا تحكم في عباد الله بحكم الجاهلين » ، وبعد أن أفرج عنه كتب مقالا في ٢٦ نوفمبر ١٩٠٩ بعنوان « فلتسقط حكومة الفرد » . فأنتهى الأمر بتعطيل الجريدة نهائيا في ٧ يناير ١٩١٠ م .

ما بعد السجن

أفرج عنه في ١٤ أغسطس ١٩١٠ ، وفي ١٨ أغسطس بدأ يكتب سلسلة من المقالات عن السجون المصرية في جريدة « العلم » وهى من جرائد الحزب الوطنى التى كانت قد صدرت أول مارس ١٩١٠ ، ومن الطريف أن الشيخ عبد العزيز جاويش كان رئيس تحريرها ورحب بمقالات أحمد حلمي التى جمعها بعد ذلك في كتاب بعنوان « السجون المصرية » ، ثم كتب في « الشعب » التى أوقفها أمين الرافعى في ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ ، وكانت مقالات حلمي في « الشعب » غالبيتها

بدون توقيع . ولفترة قصيرة أصدر في آخر سنة ١٩١٤ جريدة « المشرق » وكانت تحتوى على المقالات الاجتماعية والوطنية ، وفي كل عدد قصة مترجمة أو موضوعة .

وبعد أن أعلنت الحماية البريطانية على مصر في ديسمبر ١٩١٤ اتجه إلى العمل في الزراعة حتى أنه كان يزرع ألف فدان وكسب أموالا طائلة واشترى عمارة كبيرة في شبرا . وفي ٢٥ أغسطس ١٩١٩ عاوده الحنين إلى الصحافة فأصدر جريدة « الزراعة » أسبوعية ولم تستمر طويلا .

بقيت مسألة تسجيلها أمانة للسرد التاريخي ، وهي اتصال أحمد حلمي بالماسونية منذ عام ١٩٢٦ . كان يقضى وقتا طويلا في « المحفل » حتى وصل إلى درجة الخطيب الأعظم في الوقت الذي كان فيه على شوقي باشا أستاذا أعظم ، والدكتور أحمد ماهر نائبا للأستاذ الأعظم ، ومحمد حافظ رمضان باشا منبها أول أعظم ، ومحمد لطفي جمعة منبها ثانيا أعظم . . وكان الدكتور محمد مظهر سعيد السكرتير الأعظم للمحفل الأكبر الوطني المصري . ولهذا قصة أخرى .

وبعد الثراء العريض الذي أصابه أحمد حلمي حسن المهدي نزلت به خسائر مالية فادحة تأثر لها تأثرا بالغا ، وأصيب بمرض البول السكري .

وفي ١٨ يناير ١٩٣٦م توفي أحمد حلمي بعد رحلة شاقة في الحياة ، وشيعت جنازته من منزله بشارع جميل باشا خلف المدرسة التوفيقية بشبرا ، وكان حفيده محمد صلاح الدين بهجت في السادسة من عمره والذي عرفناه فيما بعد باسم صلاح جاهين ذى المواهب المتعددة ، والذي رحل هو أيضا منذ سنوات .

وفي أول شبرا ميدان فسيح هو « موقف أحمد حلمي » على السنة الناس . وفي ٢٠ يناير ١٩٥٧ أزيح الستار عن لوحتين تذكاريتين بنقابة الصحفيين واحدة لعبد الله النديم ، والثانية لصاحب هذه السيرة « أحمد حلمي بن حسن بن علي بن عامر ابن السيد بن جاهين بن المهدي » .

الأسانيد :

- ١- د . أحمد أحمد بدوي . . أحمد حلمي الصحفي المكافح .
- ٢- خلف عبد العظيم . . بحث تمهيدى موجز لم ينشر بعد .
- ٣- د . شوقي الجمل . . مراسلات مصطفى كامل .
- ٤- عبد العظيم رمضان . . مذكرات سعد زغلول ج ١ .
- ٥- د . يواقيم رزق . . صحافة الحزب الوطني (١٩٠٧-١٩١٢) .



المهندس أحمد عبده الشرباصى

ثائر هادى ، مفكر متواضع ، مثقف موسوعى ، عالم بالدين واللغة ، سياسى غير محترف ، إنسان حين تضير المواقف الإنسانية بأصحابها وحين يكون الوفاء متعارضا مع المنصب ، شجاع حين يمكن أن تطيح الشجاعة بأصحابها ، مخلص لدينه محب للإنسانية عاشق لبلاده ولنيل بلاده . . .

قدمته الحياة لنا فى بداية أمره ، على أنه أحمد عبده الشرباصى مهندس الرى ، وكان يكفيه هذا . . فمهندس الرى فى بلادنا كان فى مقدمة موظفى المؤهلات العليا مرتبا ووسائل انتقال ومسكنا قرب النيل ، كان مهندس الرى فى مصر محسودا من سائر الموظفين . وظل على هذه الحال منذ عام ١٩٢٤ عام تخرجه فى مدرسة الهندسة يجوب القطر المصرى من الإسكندرية إلى أسوان فعرف النيل نقطة نقطة ، وعرف قراه قرية قرية ، وأخشى أن أقول عرف عائلتها عائلة عائلة . وسافر للسودان منذ عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤١ للعمل فى إنشاء خزان جبل الأولياء . والذين عاشوا بالسودان يعرفون أن مهندس الرى هناك كانت لهم مكانة وتقدير ورخاء . وخلال تلك الفترة ، وفى النادى المصرى بالخرطوم تخلق حوله كثيرون يستمعون إلى آراء فى الدين غاية فى الأصالة ، ويستمعون إلى شعر وأدب وبلاغة غاية فى الرفعة ، ثم يقفون منه على أحوال النيل من منبعه إلى مصبه .

ولولا أنهم يعرفونه لقالوا . . إنه ثائر وداعية جاء إليهم متنكرا فى وظيفة مهندس كبير للرى ، تسانده ثقافة عميقة فى المجال الذى تنكر فيه . وسنة ١٩٤١ نزل من السودان ، على حد التعبير الدارج بين الموظفين ، وعادت به عجلة الحياة تنقله من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية ، ومن كفر إلى كفر ، حتى جاء إبريل ١٩٥٣ فعاد إلى السودان مساعدا للمفتش العام للرى وهى وظيفة مرموقة . نسيت أن أقول إنه عندما كان بالسودان (١٩٣٣ - ١٩٤١) رآه وجلس إليه محمد

نجيب وجمال عبد الناصر في النادي المصري ، بل إن محمد نجيب زاره في بيته بالسودان سنة ١٩٣٧ .

عاد الشرباصى كما قلنا إلى السودان في أبريل عام ١٩٥٣ ، وفي يوليو اتفق جمال عبد الناصر ومحمد نجيب على استدعاء الشرباصى ليشغل منصب وزير الأشغال . وحضر في ٩ يوليو ليتسلم وزارة الأشغال ، ويفاجأ بذاكرة حديدية كما يقولون لدى محمد نجيب وجمال عبد الناصر وعدد آخر من الضباط الذين تعرفوا عليه في النادي المصري بالسودان .

دخل الحكم سنة ١٩٥٣ وزيراً للأشغال ، وبعد الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٥٨ أصبح وزيراً مركزياً للأشغال ، وبعد انفصام الوحدة عين عضواً في مجلس الرئاسة ، ثم نائباً لرئيس الوزراء للأوقاف وشئون الأزهر (١٩٦٤) حتى ترك الحكم سنة ١٩٦٦ قبل هزيمة ١٩٦٧ ، ولم يعد للحكم مرة أخرى بعد أن رأى الصراع الرهيب داخل مجلس الرئاسة وغيره .

وخلال تلك المدة من الحكم وهى ١٣ سنة لم يكن الشرباصى مجرد وزير يؤمر فيأتمر ، ولم يكن مجرد موظف استدعى ليكون وزيراً فحرص على المنصب ، وكثيراً ما يذل الحرص أعناق الرجال ، وإنما كان وطنياً له منهجه وفيما له مواقفه ومفكراته له اتجاهاته .

كان وفيًا مخلصاً شجاعاً في وفائه لزملائه وأصدقائه حتى ولو اعترض السلطان على هذا الوفاء . . كان شجاعاً في علاقته بالشيخ أحمد حسن الباقورى ، وكان وفيًا في رثائه لحسين سرى وعثمان محرم ، ونجيب إبراهيم .

وكان وزيراً يحترم نفسه وهو يعترض على التجاوزات في قضايا الإقطاع ، ولم يخش الصدام بشخص كان الجميع يعملون له ألف حساب بمن فيهم جمال عبد الناصر نفسه والمشير عبد الحكيم عامر .

وبعد أن ترك الحكم بسنوات ست ، عندما شعر بأن الوطن في حاجة إلى كلمة مخلصه منه ؛ ومن بعض أصدقائه كتب تصوره الشامل بخط يده في عريضة إبريل ١٩٧٢ ، ووقف أنور السادات في مجلس الشعب يصف أصحاب العريضة بأنهم « يريدون أن يفرضوا وصاية على البلد » ، وأحسب أن هذه المواقف وغيرها في حاجة إلى تفصيل .

كان السلطان قد فرض عزلة على الشيخ أحمد حسن الباقورى نتيجة لوشاية أو وشايات . وانصرف عنه الصحاب والأصدقاء ومريدو الحاجات إلا أن الشرباصى في وفاء نادر حرص على أن يزور صديقه وبصفة متصلة ، وأبلغ ذلك للسلطان الذى تظاهر بالموافقة وأثنى على وفاء الشرباصى .

وعندما كان وزيرا مركزيا للأشغال توفى رئيس الوزراء الأسبق المهندس حسين سرى ، وعلى الرغم من موقف رجال ٢٣ يوليو منه ذهب الشرباصى وألقى كلمة رثاء هى قطعة أدبية رفيعة ويذكر له . . « أعز هذه الذكريات ذكرى ترجع إلى ثلاثين عاما خلت ، ونحن يومئذ مهندسون ناشئون وإذ به يدخل المكتب المتواضع ، ويفجؤنى بقوله . . يقولون بأنك امرؤ مغرور !؟ ويلمح انقباضى وازورارى ، فيلتفت إلى مخاطبا : إن ما يسمونه غرورا أسميه ثقة بالنفس ، فلا تبال بما يقولون وسر فى طريقك» .

وفى رثاء المهندس نجيب إبراهيم قال الشرباصى : « كلنا نعلم أن الإنجليز كانوا حريصين أشد الحرص على الاستئثار بوزارة الأشغال ، ولكن نجيب إبراهيم رد للمصريين ثقتهم بأنفسهم ، وأعلى من كرامة المواطن وشرفه ، وغسل الإهانة التى ألصقتها المستعمر بوطنه ، ومن حوله أنظار الانجليز تقدر الحقد . . »

وأحمد عبده الشرباصى من شباب ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول وكان عمره ٢٠ سنة (ولد فى إبريل ١٨٩٩) وهو فى ذلك الوقت فى مدرسة المعلمين ، وقبض عليه ولما أفرج عنه سافر لقريته « كفر أبو ذكرى » مركز منية النصر - مديرية الدقهلية يدعو للثورة . وامتنع هو وبعض زملائه عن الامتحان وفصل من مدرسة المعلمين العليا . وظل مخلصا لزعامة سعد إلا أنه كان يعتقد أن عبد اللطيف المكباتى ابن خاله « شخص لم يجد التاريخ بمثله » . والمكباتى هو أحد الأعضاء المؤسسين للوفد ، وأحد البارزين فى تأسيس حزب الأحرار الدستوريين . وقد مال أحمد عبده الشرباصى إلى الأحرار الدستوريين ، وكان يؤمن أنهم الذين أتوا بالدستور للبلاد (يقصد دستور ١٩٢٣) ولذلك كان الشرباصى فى شبابه على خلاف مع عثمان محرم لاختلاف الميول الحزبية لدى كل منهما . وتوفى عثمان محرم وزير الأشغال الأسبق عندما كان الشرباصى وزيرا للأشغال والرى ، فرثاه الشرباصى وأشاد به . وجاء له البعض وسألوه كيف وهو وزير فى ثورة حاكمت عثمان محرم ، وكيف وهو من أعضاء الأحرار الدستوريين يقوم برثاء عثمان محرم من قادة الوفد ؟ . . ويقول الشرباصى بهدوء وثقة . . هذا لا يمنع أن نذكر آثار الرجل على مصر . وكانت كلمة الشرباصى فى رثاء عثمان محرم من الكلمات المنصفة والتى أبانت بياض صفحة أحد كبار الوفديين ، وسجل أن عثمان محرم هو الذى بدأ الإسكان الشعبى قبل أن تبدأ وزارات ٢٣ يوليو .

أطلق عليه عبد الحكيم عامر لقب حامى حمى الإقطاع ، وقالوا لعبد الناصر إن الشرباصى يشنع على لجنة تصفية الإقطاع « فى قلب الوزارة » . كان عبد الحكيم هو رئيس لجنة تصفية الإقطاع ومعه عدد كبير من ذوى الجاه والسلطان . ورأى الشرباصى أن هذه اللجنة لا تسير

حسب القانون ، ولا حتى قانون الإصلاح الزراعى ، وأن إجراءاتها استثنائية ، فطالب بوقف «السلب والنهب» والالتزام بقانون الإصلاح الزراعى . كان الناس الذين تسلب أملاكهم وتنهب يذهبون إلى الشرباصى ويبحث الشكاوى والمستندات ، ويحدد جوانب الخروج على قانون الإصلاح الزراعى ويرسل نسخة إلى عبد الحكيم بصفته رئيسا للجنة تصفية الإقطاع ، وصورة لعبد الناصر بصفته رئيسا للدولة ، ولكنه لاحظ أن المشكلات قبل أن تصل إلى عبد الناصر تعبت بها أياد كثيرة ، فتصل الصورة مشوهة ، وتجيء أحكام عبد الناصر حسب آخر صورة وصلت إليه ، ولكن عبد الناصر أنصف حالات كثيرة وصلت إليه مما أثار اللجنة على المهندس الشرباصى .

وقد توثقت الصلة بين عبد الناصر والشرباصى ونشأ بينهما احترام متبادل ، لأن الشرباصى له منطق فى تفكيره وليست له مصالح شخصية أو خاصة وقوى الحجة . ويبدو أن عبد الناصر كان فى حاجة - فى تلك الفترة - إلى عناصر فى وزن الشرباصى لمواجهة عددا من العناصر المحيطة به . وهذا ما حدا بعبد الناصر إلى أن يحاول إعادة الشرباصى إلى الحكم بعد هزيمة ١٩٦٧ . كان الشرباصى قد اعتزل الحكم سنة ١٩٦٦ قبل الهزيمة . ولا نعرف لماذا اعتزل أو أصر على الاعتزال فهو لم يترك كتابا مؤلفا فيما عدا بحثه عن السد العالى ، كما أنه لم يترك مذكرات سوى بعض الخطرات وبعض الأفكار التى حفظها لنا - جزاء الله خيرا - الدكتور فرج الشرباصى ، والتى أودعها كتابه عنه « مع المهندس أحمد الشرباصى - قبل الرحيل » والذى صدر بعد رحيل الشرباصى بعامين (توفى فى فبراير ١٩٨٤) . بعد الهزيمة زاره عبد الناصر فى منزله بمصر الجديدة ، ولكنه كان قد آل على نفسه ألا يعمل فى الحكومة بعد خروجه منها ، ولكن إذا استنصحه وإلى الأمر فلا بد من إسداء النصيحة بإخلاص .

العريضة

ثم تأتى العريضة المشهورة أو المغمورة ، والتى قال عنها أنور السادات فى مجلس الشعب إن أصحابها « يريدون فرض وصاية على البلد » . وكى نفهم ظروف البلد التى جاءت بعدها العريضة (٤ إبريل ١٩٧٢) نعود إلى ما كتبه السادات فى « البحث عن الذات » . .

« جاء بودجورنى فى أواخر مايو سنة ١٩٧١ ، وفى اليوم التالى عقدنا المعاهدة . . وكنت قد أعلنت أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم فإما حل سلمى وإما معركة . وفى أول يناير ١٩٧٢ أعلن روجرز أن أمريكا ستحتفظ لإسرائيل بالتفوق على العرب مجتمعين وليس على مصر وحدها . وفى

أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ طلبت من موسكو توريد الأسلحة المتأخرة ولم يتم شىء .

وانتشرت لإضرابات الشباب طلبا لحل ويأسا من التصريحات العديدة . . والشرباصى يتلخص تفكيره في أن المخطط الصهيونى يهدف إلى أن تنطفئ أى جذوة مشتعلة ، فإذا خمدت الروح انعدمت الإرادة وضاع الهدف ، وإن أسباب هزيمة ١٩٦٧ هى غيبة القانون وصورىة الأجهزة ، وامتهان الإنسان في وطنه ، وتنبغى مراجعة سياسة الاعتماد الكامل على الاتحاد السوفيتى أو على الولايات المتحدة . .

وفي ٤ إبريل ١٩٧٢ كتب المهندس أحمد عبده الشرباصى عضو مجلس الرئاسة ونائب رئيس الوزراء الأسبق ، كتب عريضة بخط يده ووقع العريضة معه الدكتور مصطفى خليل ، وعبد اللطيف البغدادى ، وكمال الدين حسين ، وصالح الدسوقي ومدكور أبو العز ، وعصام الدين حسونة . ورفض . فتحى رضوان التوقيع معهم طبقا لرؤية موسى صبرى في كتابه « السادات . . الحقيقة والأسطورة » . وقد سلم المذكرة عبد اللطيف البغدادى إلى محمود أبو وافية في مطروفي مغلق أمام وزارة الزراعة بالدقى كى يقدمها إلى السادات .

وقد أوضحت العريضة أن مصر لم تعرف محنة كذلك المحنة التى تمر بها . والغزو الإسرائيلى يندس جزءا غالبا من أرض مصر والولايات المتحدة الأمريكية تقدم لإسرائيل من العون القدر الذى يغريها بالمزيد ، والاتحاد السوفيتى يقدم لنا من العون القدر الذى لا ياذن بتحرير الأرض . والدول العربية لم تستجمع بعد قواها ، وإن البناء الداخلى يوشك أن ينقض . وهزيمة يونيه ولدت في حضن استبداد الفرد بالسلطة . وإن الطريق إلى النصر لا يمكن بحال أن يكون طريق الهزيمة . . لقد آن الأوان لأن ترسم سياسة التحرير الوطنى على أساس أن قوى مصر الذاتية وحدها - روحية ومادية - هى الركيزة الأولى والأمانة لتلك السياسية . وانتهت العريضة بدعوة كل الشخصيات الوطنية ، التى عرفت بولائها لمصر ولثورة ٢٣ يوليو لمناقشة « شئون الوطن العامة » وتشكيل « جبهة وطنية » تتولى تخطيط سياسة النضال الوطنى من أجل التحرير .

القذوة الحسنة

هذا العقل الموسوعى ، صاحب التباسك الأخلاقى ، واستقامة الفكر والسلوك . . لم ينشأ من فراغ أو في فراغ . . لعل كلمة الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية في جلسة تأبين الشرباصى تلقى بعض الأضواء . . « لا غرابة فقد بدأ تعليمه في كتاب القرية ، وحفظ فيه نصف القرآن ولم يجاوز السابعة من عمره ، ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية والثانوية ، وتعلم لأمثال فريد

أبو حديد وأحمد رامى فحببا إليه الشعر والنثر ، وكان لإلهامه في ثورة ١٩١٩ ما دفعه إلى تجويد القول والخطابة . ويظهر أنه كان أميل إلى الدراسات الأدبية فالتحق بمدرسة المعلمين العليا ، ثم قطع الجهاد الوطنى عليه الطريق وسجن زمنا ، وما إن خرج من سجنه حتى اتجه نحو مدرسة المهندسخانة . وكانت له مجالس أدبية وعلمية جمعت بين شيوخ الأزهر وكبار العلماء المعاصرين . وفى عام ١٩٦٥ حظى بجمع اللغة العربية بعضويته ، وتشاء الصدف أن يشغل المقعد الذى كان يشغله أحمد لطفى السيد وطوال ١٩ سنة حاول ما استطاع أن يهتم في أعمال المجمع ، في لجانه ومجلسه ، ومؤتمره .

وكان له في بيته بمصر الجديدة ندوة أسبوعية يلتقى فيها برجال الفكر والثقافة الرفيعة ، فهو عالم جليل واسع الأفق يتحدث مع زملائه وأصدقائه وتلاميذه في الشريعة ، وفي الشعر وفي الأدب ، وجلساته حافلة بالحوار مع المتخصصين في الفقه والتفسير والبلاغة والنحو ، وكان من أصدقائه وجلساته المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى والمرحوم عبد الرحمن الجويلي .

ولأنه يتمتع بحس إنسانى رقيق فقد أثر في نفسه رحيل الشيخ عبد الجليل عيسى ، ورآه البعض يبكي كالأطفال عندما توفي عباس محمود العقاد . إذ إنه أحب العقاد في شبابه ثم انصرف عنه للملازمة العقاد للوفد ، وظل على عدائه للعقاد إلى أن قرأ له كتابه « مطالعات في الكتب » فعاد يحبه ويؤثره على الكتاب الآخرين .

وإلى جانب ندوته كانت له أحاديثه المعروفة لطلاب العالم الإسلامى طوال أربعة أعوام (١٩٦٣-١٩٦٦) وخاصة في معسكر أبى بكر الصديق .

هكذا يفكر

كان يعتقد بأن الوطنية موجودة في دم كل إنسان ، والذين يظنون أن الوطنية وقف عليهم إنما هم يعبثون . . وتصنيف الناس خاطئ ، ولا نستطيع بل لا يجب أن نتهم أحدا بأنه غير وطنى «فالوطنية ليست وقفا على فئة أو حكرا على طبقة ، وكم من وقت أضعناه في فكرة التصنيف هذه ومازلنا نتخبط فيها ، إن مثل هذا الأقوال لايجنى الشعب من ورائها شيئا إلا الفرقة والخوف ومعناها إما أن تكون وطنيا أى تهز رأسك دائما بالموافقة وإما أن تكون غير وطنى إذا ما حاولت أن تغاير» . .

وكانت له مواقف إزاء الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة . . فالاتحاد السوفيتى لم يرسل له أية دعوة لزيارته في حين أن كل الوزراء وصلتهم دعوات . أما الولايات المتحدة فكان يرسل وكلاء

الوزارة نيابة عنه ، وهو يرى « أن الولايات المتحدة وراء إسرائيل فيما كانت تفعله ، والاتحاد السوفيتي كان يساعدنا بتحفظ شديد ، أما الدول العربية فإن القدر الذي قدمته كان تعويضاً جزئياً عن خسارتنا في قناة السويس ولكنه لايفي بمطالبنا الأخذة في التزايد » .

أما رأيه في الوحدة العربية فهو يقدم العقيدة والدين على أية أسس أخرى كاللغة ووحدة التاريخ ووحدة الفكر . فالدين يبني الإنسان نفسه . . والبناء عنده هو « الناس » والأنظمة ينبغي أن تكون حافظة وراعية للبناء والأساس . ورأيه أن الدين هو الملاذ والأمان والطمأنينة .

وعن التصوف الحق فإن « الشرياصي يرى ما يراه العقاد ، فالملكات الإنسانية كثيرة ولأن ينالها إنسان واحد » فالتصوف مسألة يمكن نوالها بالتخصص مثل ملكات أخرى جسدية وروحية . . واستيحاء أصول التصوف الحقيقي هو من خلال القرآن الكريم . . وعلى ذلك فلا يمكن أن يصير الناس كلهم من الصوفيين » .

وفي سنة ١٩٦٦ ترك الحكم ولم يعد له ، وانصرف إلى نشاطه بمجمع اللغة العربية ، وإلى ندوته الأسبوعية ، وإلى أحاديثه مع مريديه . . وفتح بيته لأبناء السودان وأبناء مصر معا . وبدأ المرض يهاجمه منذ عام ١٩٨٣ ، وقرر الرئيس محمد حسني مبارك علاجه على نفقة الدولة بانجلترا ، وكان المرض أقوى من كل علاج فعاد إلى القاهرة حيث توفي في فبراير ١٩٨٤ عن ٨٥ عاما وعن ٤٠ وساما ، وعن محبين وأصدقاء وعارفين لفضله لايعرف لهم أحد عددا .

الأسانيد :

- ١- أحمد الشرياصي . . السد العالي وآثاره .
- ٢- أنور السادات . . البحث عن الذات .
- ٣- د . فريج الشرياصي . . مع المهندس أحمد الشرياصي .
- ٤- د . مهدي علام . . المجمعين في ٥٠ عاما .
- ٥- موسى صبرى . . السادات الحقيقة والأسطورة .

أحمد فتحي زغلول



اعترف أنني ترددت في الكتابة عن الرجل بعد أن وقفت على علاقته بأخيه سعد زغلول ، وبعد أن تحدث سعد عن هذه العلاقة في مذكراته (الكراستين السادسة والسابعة) . لقد كانت لديه « غيرة شديدة » منه ، ورأى أن وجود سعد يمنع عنه « الترقى » إلى الوزارة ، ويمنعه « من الاسترسال مع شهبواته » ، وكان يرى دائما أنه أحق من سعد بمنصب الوزارة ، وأنه أكفأ منه . باختصار لم تكن بينهما علاقة طيبة .

وكان « فتحي » قد شارك مع صديقه الحميم أحمد لطفى السيد في تأسيس « الجريدة » ، ولكنه أوصل للخديو - مدافعا عن نفسه أن سعدا ورفاقه أرادوا تأليف حزب سياسى على مبادئ الشيخ محمد عبده وأنه - أى فتحي - صرفهم عن فكرة تأليف الحزب بفكرة إصدار « الجريدة » . ويذكر سعد أنه رفض المشاركة في تأسيس « الجريدة » ، وأن العمل على إصدارها كان قد تم وهو بعيد عن مصر . ويسجل سعد أنه قال لفتحي . . إن كثيرا من الناس يقولون عليك أقوالا كثيرة ، يقولون إنك دساس تسيء إلى إخوانك إذا تمكنت ولا تبلى إلا بفائدتك ، فإن كنت تعمل من ذلك شيئا فاقطع عنه . والعلاقة بين الإخوة لا تدوم على حال واحد .

. . فيذكر سعد في موضع آخر ما يفيد أن أخاه فتحي شرح للخديو أن سعدا ليست له صلة بحزب « الأمة » وليست له صلة « بالجريدة » ، وأن « الجريدة » أنشأها فتحي وأنه لما وجدها تسير على غير أفكاره - أى أفكار فتحي - انصرف عنها . وكان الخديو يكره « كرومر » ويسمع أن فتحي قد ذهب يقدم الشكر لكرومر على نيشان منح له . وظن الخديو أن زيارة فتحي لكرومر قد تمت بإيعاز من سعد زغلول . وقد أكد فتحي للخديو أن سعدا رفض فكرة الزيارة ، وفكرة تقديم الشكر لكرومر ، وأن الذى شجعه على الزيارة وذهب معه عند كرومر هو الصديق الحميم لسعد

وفتحى ، بل والذي كان لهما في مقام الأستاذ . . وهو الشيخ محمد عبده .

هكذا كان موقف سعد زغلول من أخيه فتحى زغلول إنكارا لتصرفاته ، واستنكارا لمواقفه .
وصدمتنى رواية عنيفة عن أحمد فتحى زغلول رواها محمد فريد فى مذكراته بعد الهجرة . . يقول
محمد فريد :

« سمعت من زيور باشا محافظ الإسكندرية ، أن أحمد باشا عفيفى وكيل زوجة شواربى الغنى
الكبير الذى مات قريبا ، وجد ضمن أوراق المتوفى سنيين على أحمد باشا فتحى زغلول ، أحدهما
بألف ومائتى جنيه والثانى بأربعمائة جنيه مقسطين على أقساط شهرية كل منها بخمسة وعشرين
جنيها بلا فائدة ، وأن فتحى أراد إتلافهما وعدم درجهما فى المطلوب للشواربى . . أى أراد سرقة
السندات لضياح المبلغ فلم يوافق » .

والتعليق الأخير يبين موقف محمد فريد من « أحمد فتحى زغلول ، وقد حرص على تسجيل
رواية سمعها من أحمد زيور باشا والذي خلف سعد زغلول فى رئاسة الوزارة بعد اغتيال السيرى
استاك وسلم بجميع مطالب الانجليز . ثم يستطرد محمد فريد فى ذكر نبذة عن تاريخ أحمد فتحى
زغلول تفيدنا فى رواية تاريخ الرجل ، وإن كنا سوف نستكمل حلقاتها فى الطريق . مع ملحوظة
جانبية منا وهى أن محمد فريد كان يكره سعد زغلول ويكره سيرته . وليس هذا تبريرا لمواقف أحمد
فتحى زغلول ، فنحن هنا نسرد التاريخ الذى لاحتلة لنا فيه .

يقول محمد فريد ، أو تقول مذكراته : « فتحى باشا . . اسمه فى الأصل فتح الله صبرى ،
وكان تلميذا بالمدارس التجهيزية وابان الثورة العربية ، وكان من الخطباء الذين يحضون على الثورة
مع المرحوم عبد الله النديم ، ولما دخل الانكليز مصر وعينوا المرحوم أحمد خيرى باشا الكبير ،
ناظرا للمعارف ، رفت فتح الله صبرى من المدارس بسبب اشتراكه فى الثورة ، ولكن خيرى كان
يحب لنباهته وفصاحته فأراد مساعدته على إتمام دراسته فنصح به بتغيير اسمه حتى يتسنى إدخاله
المدرسة ثانية ، كأنه طالب جديد غير فتح الله المرفوت فتسمى بـ « أحمد فتحى » ودخل مدرسة
الألسن ، وكنت بها مع الدكتور صادق رمضان . . ونتوقف هنا قليلا . . لقد كان أحمد فتحى
زغلول واحدا من الخطباء الذين يحضون على الثورة مع عبد الله النديم ، وبعد هزيمة الثورة فصل
من المدارس ، وواضح أن السلطة التى فصلته أقوى من سلطة ناظر المعارف - أى وزير المعارف -
ولعلها سلطة الانجليز والحدود توفيق إلى درجة أن « وزير المعارف » أوعز لفتحى أن يغير اسمه
حتى يتسنى له دخول المدارس من جديد .

فتحى وذنشواى

فى سنة ١٨٨٣ سافر أحمد فتحى زغلولى إلى أوروبا لدراسة الحقوق ، وعاد فى سنة ١٨٨٧ وعين فى قلم قضايا الحكومة ، وعين فى المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٩ وترقى إلى أن أصبح رئيسا لمحكمة مصر . وازدادت علاقته باللورد إلى أن وقعت حادثة « دنشواى » فى ١٣ يونية ١٩٠٦ ، وزعمت السلطات البريطانية أن فلاحى قرية دنشواى قد اعتدوا على الضباط الانجليز مما تسبب فى وفاة أحدهم .

وقام الإنجليز بتشكيل المحكمة من بطرس باشا غالى بصفته قائما بعمل ناظر الحقانية رئيسا ، وعضوية اثنين من الانجليز وعضوية أحمد بك فتحى زغلولى رئيس محكمة القاهرة الابتدائية . وكان سكرتير المحكمة هو عثمان بك مرتضى ، وتولى الادعاء إبراهيم بك الهلباوى ، وقام بالدفاع عن الفلاحين المتهمين أحمد بك لطفى السيد ، وإسماعيل بك عاصم ، ومحمد بك يوسف .

واستمرت المحاكمة فى الفترة من ٢٤ إلى ٢٧ يونية ١٩٠٦ وصدرت أحكام غير قابلة للطعن فيها . . وتقضى بإعدام أربعة وبالأشغال الشاقة المؤبدة لاثنتين ، وبالسجن ١٥ سنة لواحد ، وبالسجن سبع سنوات لستة آخرين ، وبأحكام أخرى بالحبس والجلد . .

وكان المنظر رهيبا فى ٢٨ يونية حين تم تنفيذ الأحكام كلها أمام الفلاحين . ويلاحظ الباحثون أن ثلاثة من أصدقاء أو مريدى الشيخ محمد عبده شاركوا فى محكمة دنشواى : أحمد لطفى السيد وقد تولى الدفاع بطريقة لينة وطالب الرأفة للفلاحين المصريين من الجلادين الانجليز ، وإبراهيم بك الهلباوى الذى صال وجال وطالب بتوقيع أقصى العقوبات على الفلاحين المصريين ، ثم أحمد فتحى بك زغلولى الذى صاغ حيثيات الحكم وهى فى غير صالح أبناء بلده .

وعلى أية حال فقد كان لمشاركة أحمد فتحى زغلولى فى مأساة دنشواى ظلال قائمة على سيرته حتى وفاته وبعد رحيله فالكثيرون أهملوا سيرته ، وآخرون كانوا يذكرون اسمه مقرونا بدوره فى دنشواى ، والقليلون ركزوا على جانب مضىء مشرق للرجل وهو ماسوف نعرض له هنا ولكن بعد حين حتى يبين لنا الإطار التاريخى الذى سار فيه سابقوه ، وأدى إلى نشاط أقرانه ، وبالتالى نعرض لدوره المشرق داخل إطاره التاريخى السليم .

رحلة سريعة . .

رحلت الحملة الفرنسية عن مصر بعد أن أثارت انتباه المصريين إلى عنصر جديد من عناصر

التقدم وهو « العلم » . وما هي مصر في أوائل القرن التاسع عشر وعلى رأسها محمد علي الذى أخذ عن الحملة الفرنسية اهتمام « القيادة » بالعلم والتعليم ، فقام بإرسال البعثات إلى فرنسا ببلد الحملة الفرنسية التى بهرت علماءنا الأجلاء بعلمها الجديد . واقترب من محمد علي الشيخ حسن العطار وتلميذه رفاعه الطهطاوى . وقدر للطهطاوى أن يكون رائدا للنهضة الفكرية الحديثة في مصر ، وعندما رحل في عام ١٨٧٣ كان قد ألقى بذورا طيبة على أرض مصر تلقفها أحمد عرابى وعبد الله النديم وعلى مبارك ومحمد عبده . . . وقبل أن يرحل بعامين أى في عام ١٨٧١ كان قد جاء إلى بر مصر نائر عظيم هو السيد جمال الدين الأفغانى ، وجمع حوله محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الله النديم ، . . . وغيرهم من الطليعة الفكرية في مصر . ويغادر الأفغانى مصر سنة ١٨٧٩ وقد ترك بها بذرة ثورة وترك بها ثوريين ، وترك بها بذرة ثقافية وترك بها مثقفين .

حتى جاء الثلاثاء الأسود ، ١١ يوليو من عام ١٨٨٢ ، وقذائف الأسطول الانجليزى تساقط على مدينة الاسكندرية فإذا بالشباب النائر المثقف يلتف حول عرابى وحول ثورته ، وفي مقدمتهم للأمانة وللتاريخ عبد الله النديم وأحمد فتحى زغلول . والذى كان اسمه في الأصل فتح الله صبرى . . . وللاحق أيضا فإن الكتابات التاريخية عن كفاح النديم منذ وقفة عرابى في ميدان عابدين إلى ضرب الإسكندرية تسجل اسم فتح الله أفندى صبرى مقرونا باسم عبد الله النديم .

إذن كانت البداية وطنية وثورية ، وكانت الخطى ثابتة فيما الذى جرى يا ترى ؟

هزيمة روحية

سارت أمور الثورة العرابية كما نعرف ، وانتهت أيضا كما نعرف ، وتفشل الثورة كما نعرف . وينفى عرابى خارج البلاد وأصبح كل شىء في مصر يوحى بالمهادنة والاستسلام . الشيخ محمد عبده أستاذ أحمد فتحى زغلول قال إنها كانت « فتنة » ومال إلى إصلاح حال الأمة بالتعليم ، وقا قاسم أمين إن تحرير المرأة هو بداية للإصلاح ، وسعى خمسة من الأعيان إلى مصالحة المحتل . . . وهم : محمد سلطان ، ومحمد الشواربى ، وعبد الشهيد بطرس ، وعبد السلام المويلحى ، ومحمود سليمان . . . حتى الزعيم أحمد عرابى يعلن بعد عودته من المنفى حسب نشرته « المقطم » في ٣ أكتوبر سنة ١٩٠١ « . . . شاء الله أن ينعم على وطنى ولكن لحكمة له جلاله قضى أن ذلك على يد الذين نازلناهم في ساحة القتال وكانوا لنا أعداء فصاروا لمصر الية خير الأصدقاء ، وقد قضى الله أن أكون واسطة هذا التغيير ، فأنال وطنى ما كنت اتوخى واتح له من الخير . . . بحسن تدبير جناب اللورد كرومر الإدارى المصلح الكبير » .

الهنزيمة جعلت الكثيرين يتراجعون ويرفعون شعار الملاينة والمحاسنة فيما عدا أحد أبناء هذا الشعب ، ابن خباز في الإسكندرية الذي اختفى بين الفلاحين لمدة تسع سنوات ، وبعد أن قبض عليه حقق معه وكيل النيابة قاسم أمين الذي عامله في التحقيق برفق ، واشترى له الدخان من جيبه الخاص ، وأمر له بالقهوة ، وأصدر أوامره إلى إدارة سجن طنطا بتنظيف زنزانه النديم . وأعاد كرومر الشيخ محمد عبده من منفاه فانصرف إلى الحديث عن إصلاح التعليم . وكان فتح الله صبرى أو أحمد فتحى زغلول صديقا أو تلميذا كبيرا للشيخ محمد عبده كما أسلفنا ، وكان صديقا للنديم ولكن النديم قد توفى إلى رحمة الله . . وبقي الصديق الحميم أحمد لطفى السيد .

وأحمد لطفى السيد كان رائدا من رواد الفكر الإصلاحى بعد أن اعتذر أحمد عرابى عن الثورة ، وأشرنا فيما سبق إلى أن أحمد فتحى زغلول زعم أنه هو الذى أسس « الجريدة » وأنكر صلته بحزب الأمة . . على أية حال فإن أحمد لطفى السيد كان له دور كبير في تأسيس « الجريدة » وفي تأسيس حزب الأمة الذى كان التمهيد التاريخى لحزب الأحرار الدستوريين ، ولكل دعاة المهادنة والملاينة والمصالحة ولكل دعاة الفكر الإصلاحى . وكان فتحى وثيق الصلة بهؤلاء جميعا .

وتتضمن المسيرة حتى أحمد لطفى السيد الزميل والصديق لأحمد فتحى زغلول وقد تزاملا في الإعداد لإصدار « الجريدة » وفي تأسيس حزب الأمة ، وإن كان أحمد لطفى السيد قد قدر له أن يكون أطول عمرا ، وأكثر شهرة ، وأقرب إلى قلوب المثقفين والمستنيرين ، وقدر له أيضا ألا توجه إليه السهام الحادة كما وجهت إلى أحمد فتحى زغلول .

وليس الحديث هنا عن أحمد لطفى السيد ، وربما يكون له حديث مستقل . . وإلى هذا الحين نقول إنه اهتم بحركة الترجمة ورأى أن في الترجمة ما يسد حاجة الأمم إلى المعرفة المرجوة ، وأيقن أن حاجة الشرق في أيامه هي في ترجمة عيون ما كتب أهل الغرب . وكان من القائلين بأن حركة الترجمة تسبق حركة التأليف في نهضة الأمة وتمهد لها كما حدث في عصر النهضة الأوروبية . . وأظن أن أحمد فتحى زغلول قد رأى مثل هذا الرأى أيضا .

فتحى زغلول مترجما

٥١ عاما فقط قضاهَا أحمد فتحى زغلول على هذه الأرض ، ولم يقدر له إلا أن يصل إلى منصب وكيل وزارة الحقانية (وزارة العدل حاليا) ، ٥١ عاما بين عام مولده ١٨٦٣ ، وعام رحيله ١٩١٤ وكان يطعم في الكثير بالمقارنة مع أخيه زعيم الأمة سعد زغلول باشا .

على أية حال فقد درس في فرنسا وأتقن اللغة الفرنسية ، وعكف على نقل عدد من الأعمال الهامة من الفرنسية إلى العربية ومن الانجليزية أيضا .

ونسجل هنا أهم ما قام بترجمته . . وصدر فعلا :

- ١ - ادمون ديمولان « سر تقدم الانجليز السكسون » ١٨٩٩ .
- ٢ - جوستاف لوبون « سر تطور الأمم » ١٩١٣ .
- ٣ - جويستان لوبون « روح الاجتماع » ١٩٠٩ .
- ٤ - الدكتور هنري دي كونترى « خواطر في الإسلام » ١٨٩٧ .
- ٥ - جيرمي بنتام « أصول الشرائع » ١٨٩٢ .

وأهم ما في الأمر أن أحمد فتحى زغلول كان يملك ناصية اللغة العربية ، وكان دائما ينبه إلى الاهتمام بها ، ويوجه اهتمام المترجمين إلى مطابقة اللفظ للمعنى ، ويحذر من فساد اللغة .

وقال أحمد شوقي في ترجمات فتحى :

ومعربات كالمنار وإنما لزيادة في رأس مال الضاد

وقال فتحى في شأن الاهتمام باللغة العربية . . « عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتوحة أمامكم ، ولا تتأخروا فلا تقدم لكم إلا بلغتكم فاعتنوا بها وأصلحوها ، وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون ولا تشوهوا صورتها الجميلة ، ثم لاتقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة ، وهى لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة ، اقيموا في وجه هذا السيل الجارف سدا من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة » .

وهكذا كان اهتمام أحمد فتحى زغلول باللغة العربية وكأنه يتكلم في زمان مثل زماننا الحاضر الذى تكسرت فيه قواعد اللغة على ألسنة الإعلاميين والإعلاميات ، بل وعلى ألسنة كثيرين من المتعلمين والمثقفين أو الذين من المفروض أنهم كذلك . .

كان يهتم باللغة العربية بقدر اهتمامه باللغات الأخرى سبيلا إلى نقل معارف الآخرين لنقف على سر تقدم الشعوب الأخرى وكما قال عنه أحمد لطفى السيد إنه « دعا الناس إلى الاستمساك بشخصيتهم ، وقام بترجمة « الفرد ضد المملكة ، وروح الاجتماع وسر تطور الأمم » وذلك لينشر في الجمهور الأسس العلمية للرقى حتى يطبق الناس حولهم على هذه الأصول ، فينتفعوا بتجارب الأمم » .

الشقيق المفكر

درج الناس على منح الشهرة لفئات مختلفة ولكن بترتيب قد لا يكون منطقيا وقد لا يرضى عنه الكثيرون . وعلى سبيل المثال يأتى أهل الفن بمختلف فروعه في المقدمة شهرة وثروة ، ويليهما أهل

السياسة ، وبعدهم المفكرون والمثقفون والأدباء والكتاب وكل من أدركتهم حرفة الأدب . . هذا بشكل عام ولكل قاعدة استثناء فمن الأدباء من تصعد شهرته ويغطى بها على سائر أبناء الطوائف الثلاث . . ومن السياسيين من يصل إلى مرتبة الزعامة الشاملة فيكون دونه جميع أبناء الأمة بمختلف فئاتها . وفي هذا الصدد كان سعد زغلول زعيما للأمة ، وكان شقيقه الأصغر أحمد فتحى زغلول وكيلا لوزارة الحقانية أو العدل بلغة أهل زماننا في حين أنه قام بدور بارز في حياة الفكر المصرى الحديث ، ولكن هذه أقدار الناس .

وأحمد فتحى زغلول وإن لم تصبه شهرة شقيقة سياسى سعد زغلول ، فإن دوره في الفكر المصرى الحديث لا يقل عن أهمية الدور الذى قام به سعد زغلول .

كانت قضية « التمدن » قد طرحت نفسها على المجتمع المصرى بعد هزيمة عرابى وقبل البداية الجديدة لحركة الاستقلال مع مطلع القرن العشرين . . وكانت المعادلة الصعبة هنا هي كيف يمكن التخلص من السيطرة الغربية السياسية ، مع الاستفادة مما وصل إليه أهل هذه السيطرة السياسية من تقدم ورقى في بلادهم .

وإزاء هذه المعادلة الصعبة نشأت مواقف ثلاثة : « الأول » موقف الرفض والتعصب ضد هذه المدنية الجديدة وضد أصحابها الغربيين الذين يسيطرون على مقدرات الشعوب ، « والثانى » موقف الإعجاب بهذه المدنية وبأصحابها إلى حد الذوبان في هذه الحضارة والإنسياق في الدفاع عن أصحابها بدرجة أفقدت هذا الفريق شخصيته الأصلية ، والموقف « الثالث » كان في حاجة إلى فكر راجح ، ورأى ثاقب ، وشخصية متزنة متماسكة توازن بين الرطانة بلغة أهل الغرب مع العناية باللغة العربية ، وتوازن بين الاستفادة من مدنية الغرب مع صياغة حديثه لتقاليدنا ، وتوازن بين مظاهر حضارية وافدة مع الكشف عن الأصول الحضارية عندنا والوقوف على أرضها .

وتلك كانت مهمة شاقة في مجال الفكر والثقافة والأدب ربما كان رائدا لها رفاعة الطهطاوى ومن بعده الشيخ محمد عبده وبشكل أكثر تفصيلا أحمد فتحى زغلول وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين .

أحمد فتحى زغلول

والرجل الذى نتحدث عنه هو واحد من الذين حاولوا الإجابة عن سؤال هام . . وهو كيف السبيل لنهضة مصرية كتلك النهضة الموجودة في فرنسا أو الموجودة في إنجلترا ؟ ولماذا فرنسا ؟ ولماذا إنجلترا ؟ لأن فرنسا من خلال الحملة العسكرية سنة ١٧٩٨ واجهت المصريين بنموذج

حضارى أكثر تفوقا من النمط الحضارى الموجود فى مصر آنذاك ، ولأن انجلترا واجهت المصريين بنموذج سياسى وادارى وثقافى اخزمت أمامه مصر سنة ١٨٨٢ . كان لابد إذن من دراسة أسباب تفوق الغرب عامة وفرنسا وانجلترا خاصة ، وكان لابد من دراسة عناصر التقدم لدى الغرب ، ودراسة عناصر التخلف عندنا ، وبالتالي وضع منهاج تسير عليه الأمة لتلحق بركب الحضارة الغربية التى هزمت مصر مرتين خلال مائة عام أو أقل . ولعل هذه القضية لم تزل مطروحة حتى يومنا هذا بين دعاة العودة إلى الأصول ، ودعاة التغريب ، ودعاة التوفيق بين المدرستين .

وربما يظن البعض من العرض السابق أن أحمد فتحى زغلول كان مرفوضا أو معزولا عن بنى وطنه بسبب مشاركته فى محكمة دنشواى . . لم يكن الأمر إلى هذا الحد ، إذ كان عضوا مؤسسا فى الجمعية الخيرية الإسلامية مع محمد عبده وسعد زغلول وحسن عاصم سنة ١٨٩٢ ، وكان عضوا نشطا ويختار فى اللجان التى تشكلها الجمعية ، بل إن تقارير الجمعية تذكر فضله باعتباره أكثر الأعضاء نشاطا ، وقد ظل عضوا فى الجمعية حتى توفى سنة ١٩١٤ .

وقد كان لنشاطه الثقافى أثره الكبير لدى الصفوة المثقفة بخاصة ، ولدى المتعلمين بعامه ، ويتضح هذا من الحفل الذى أقاموه لتكريمه فى ٢٧ يونيه ١٩١٣ ، والذى أقيم فى الجامعة المصرية وحضره عدد كبير من الأدباء والعلماء ورجال القضاء الأهلى ، ورجال القضاء الشرعى . ويبدو هذا التقدير له أيضا فى حفل التأيين الذى أقيم فى دار الأوبرا الخديوية فى ١٨ مايو ١٩١٤ بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته واشترك فى رثائه الأمراء والوزراء .

وقد قام فتحى زغلول بدور هام فى وضع قوانين المحاكم الشرعية ، وفى وضع نظم المعاهد الدينية والأزهرية ، إذ كان رئيسا للجنة إصلاح هذه المعاهد والتى كانت تضم إسماعيل صدقى وعبد الخالق ثروت . . الذى نشر فى « الجريدة » فى ١٠ مايو ١٩١٤ ، يعترف بأن الفضل فى وضع نظم هذه المعاهد يعود إلى أحمد فتحى زغلول وحده ، كما أسهم فى وضع القوانين الحكومية لما له من دراية موثقة بالنظم والقوانين المختلفة فى مصر وفى دول أوربية كثيرة ، وعرف عنه الدقة فى صياغة القوانين وفى المؤلفات القانونية .

لم يكن من الغريب إذن أن يشيع جثمانه من منزل سعد باشا زغلول ، وأن تكون جنازته مهيبية سار فيها رجال العلم والأدب والقانون .

كان اهتمام فتحى زغلول الأساسى موجها إلى « تعليم الأمة » فهو شعاره المفضل لديه ، وقد أشرنا إلى بعض كتبه التى ترجمها ونضيف إليها هنا كتبه التى ألفها . .

١- المحاماة . . سنة ١٩٠٠ .

٢- شرح القانون المدنى . . سنة ١٩١٣ .

- ٣- الآثار الفتحية . نشر بعد وفاته سنة ١٩١٤ .
 - ٤- التزوير في الأوراق . . « رسالة قانونية نشرت بدون تاريخ » .
- وقد ذكر أحمد لطفى السيد الذى كان من أخلص أصدقائه أن فتحى بك ترجم عددا من الكتب الأخرى غير التى صدرت وأشرنا إليها ، وهذه الكتب لم تنشر وهى :
- ١- جان جاك روسو . . العقد الاجتماعى .
 - ٢- بورجار . . الاقتصاد السياسى .
 - ٣- جوستاف لوبون . . تمدن الغرب .
 - ٤- جمهورية أفلاطون .
 - ٥- هيربرت سبنسر . . الفرد ضد المملكة .
- وتكتمل الصورة إذا أضفنا إلى المترجمات والمؤلفات ، مقالات أحمد فتحى زغلول التى جمعها عبد العال حمدان تحت عنوان « الآثار الفتحية » ونشرت بالقاهرة سنة ١٩١٤ ، وأهم هذه المقالات والخطب « ماهية اللغة ، وعلموا الأمة ، والتمدن والحرية والتمدن والتقدم ، والتمدن والتغريب ، وإصلاح اللغة العربية » .

تعريف

والى الذين يهتمون بسرد الحياة نورد هنا مرتبة وقد أوردناها فى ثنايا الموضوع .

ولد فتح الله صبرى (أحمد فتحى زغلول) فى ٢٢ فبراير ١٨٦٣ بقرية ابيانه من أعمال مديرية الغربية ، وكان الابن الأصغر لآبراهيم زغلول ، وأمه من عائلة بركات بالمديرية نفسها ، وتلقى تعليمه فى كتاب القرية ، وتعلم فى رشيد حتى المرحلة التجهيزية ، ثم فى مدرسة الألسن عام ١٨٨٣ ، وحصل على ليسانسيه فى القانون سنة ١٨٨٧ ، وعين رئيسا للنيابة بأسىوط فى ٢٧ يونية ١٨٨٩ ثم رئيسا لنيابة الإسكندرية ، وفى ١٨ نوفمبر ١٨٩٣ عين رئيسا لمحكمة المنصورة الأهلية ، ونقل رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية فى ٢٦ فبراير ١٨٩٦ ، وعين وكيلا لنظارة الحفانية فى ٢٨ فبراير ١٩٠٧ ، وتوفى فى ٢٧ مارس ١٩١٤ .

الأسانيد :

- ١- د . أحمد زكريا الشلق . . رؤية فى تحديث الفكر المصرى (٢) (أحمد فتحى زغلول وقضية التغريب) .
- ٢- سعد زغلول . . المذكرات .
- ٣- صلاح عبد الصبور . . قصة الضمير المصرى الحديث .
- ٤- محمد فريد . . مذكراتى بعد الهجرة .



أحمد لطفى السيد

هل أصفه لكم ؟ أم أَدع سيدة مصرية تزوجت وعاشت في كاليفورنيا ، ابنة شقيقه ، الدكتورة « عفاف لطفى السيد مارسوه » أستاذ تاريخ الشرق الأوسط - لو أنجيس . . تقول الأستاذة الجامعية المعجبة بعمها « يصعب على المرء أن يحدد سر الجاذبية التي كانت تجذب إليه الرجال والنساء ، لم يكن ذلك يرجع بالتأكيد إلى جمال منظره ، إذ كان يفتقر إلى الجمال . كان نحيفا طويل القامة ، له عينان غائرتان تلتقيا فوق أنف متنفخ ، وشفتان ضيقتان وراء شارب كث . وكانت يدها هما المظهر الجميل الوحيد فيه - طويلتان دقيقتان الأطراف رشيقتان . كان أصدقاؤه يداعبونه لأن مائدته كانت تزخر بالنساء من كل الأعمار ، توافدن ليقدمن له واجب الاحترام ، وينعمن بمداعباته اللطيفة » . ويدها - المظهر الجميل الوحيد فيه - جذبتنا أنظار سيدة أخرى هي «الدكتورة نعامت أحمد فؤاد» وصفته ذات مرة فقالت : « . . كانت ملابسه حريصة عليه ، لاتظهر منه إلا كفين نحيلتين نبيلتي الحركة والإشارة ورقبة طويلة تحمل رأسا كبيرا . . كبير العقل . . كبير المعرفة . . كبير المقام . . إنه أحمد لطفى السيد . . الأستاذ . . » .

وأستاذ الجيل الذى ترجم بعض أعمال المعلم الأول « أرسطو » ورئيس تحرير « الجريدة » والداعية لإنشاء مجمع اللغة العربية ورئيس المجمع - فيما بعد - أستاذ الجيل مدير دار الكتب ومدير الجامعة المصرية ووزير المعارف . . هذا الرائد المفكر ، باعترافه عن نفسه لم يكن متفوقا فى دراسته . . كان متوسط المستوى ، وإن كان متفوقا فى اللغة العربية .

أحمد لطفى السيد ابن العمدة « السيد باشا أبو على » ابن العمدة « على أبو سيد أحمد » . . أصله من الفلاحين شأنه شأن سعد زغلول ، ولكن الفرق بينها هو أن سعد زغلول استمر يفكر كما يفكر الفلاح المصرى ، أما أحمد لطفى السيد فقد أبقى على روابط المشاركة الوجدانية مع

الريف المصرى ولكنه تخلى عن أهل الريف فكريا . ومن هنا التف الفلاحون في مصر حول سعد زغلول ، ولم يتجاوبوا - وهم الغالبية الساحقة - مع أفكار أحمد لطفى السيد . والقصة المعروفة سنة ١٩١٣ عندما رشع أحمد لطفى السيد نفسه على « مبادئ » الديمقراطية « ولم تكن عبارة « الديمقراطية » معروفة لدى الفلاحين ، فاشاع معارضوه أن الديمقراطية « تعنى « الاتحاد » فانصرف عنه النخبون إلى منافسه . . (هكذا ذكر هو في « قصة حياتى » ص ١٤٠) وهنا الفرق الدقيق بين السلوك الفكرى ومراعاة ظروف النشأة .

ونعود مع أحمد لطفى السيد إلى قرية « برقين » من قرى مديرية الدقهلية ، وإلى سنة ١٨٧٢ ، في ١٥ يناير ، وفي يوم قارس البرد جاء « أحمد لطفى السيد » . وفي الرابعة من عمره التحق بالكتاب سنوات تعلم أثناءها الكتابة والقراءة وحفظ القرآن الكريم ومن مدرسة المنصورة الابتدائية حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٨٨٥ ، ومن المدرسة الخديوية بالقاهرة حصل على التوجيهية عام ١٨٩٠ . وعام ١٨٩٤ حصل على ليسانسيه الحقوق وعين كاتباً في النيابة بالقاهرة ، وبعدها سكرتيراً للنائب العام . ثم انتدب للعمل بنبابة بنى سويف والتقى بصديقه عبد العزيز فهمى ، وكان وكيلاً للنيابة أيضاً هناك . ثم التقت كلمة أحمد لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، وأحمد طلعت رئيس النيابة وشكلوا جمعية سرية « لتحرير مصر » . ووصلت أخبار تلك الجمعية إلى الخديو عباس حلمى الثانى ، فتحدث إلى مصطفى كامل لضم تلك الجمعية إلى « الحزب الوطنى السرى » الذى اعتزم الخديو تشكيكه وتقابل أحمد لطفى السيد مع الخديو عباس الثانى بواسطة مصطفى كامل ، ، ثم اجتمع أحمد لطفى السيد ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، ولييب محرم ، ومحمد عثمان ، وسعيد الشيمى وقرروا تشكيل جمعية سرية باسم « الحزب الوطنى » برئاسة الخديو ، وكانت الاجتماعات تتم سرا في مسجد قرب سراى القبة . ومن الطريف أن محمد عثمان هو والد أمين عثمان باشا ، وأن لييب محرم هو شقيق المهندس عثمان محرم باشا . وطلب الخديو من أحمد لطفى السيد أن يسافر إلى سويسرا ليكتسب الجنسية السويسرية ، التى تكون بمثابة الحماية له عندما يصدر جريدة وطنية بعد عودته . وسافر أحمد لطفى السيد إلى سويسرا وهناك التقى بالشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول وقاسم أمين ، ويقال إن الأربعة تقاربت أفكارهم هناك ، وإن الأفكار التى نشرها قاسم أمين حول « تحرير المرأة » هى أفكار الشيخ محمد عبده وأحمد لطفى السيد ، وإن الصياغة لسعد زغلول . وعندما علم الخديو باتصال أحمد لطفى السيد بالشيخ محمد عبده وسعد زغلول ، غضب عليه لأنه لم يكن يرتاح لهما . وساءت العلاقات بين الخديو وأحمد لطفى السيد الذى انصرف إلى العمل بالنيابة ، ثم استقال عم ١٩٠٥ واشتغل بالمحاماة مع صديقه عبد العزيز فهمى وعزيز منسى . وعن عبد العزيز فهمى نذكر كيف أن على

شعراوى بإخلاص وبحسن نية ضغط على المحامين الثلاثة للدفاع في قضية خاسرة ، كانت سببا في أن يزهد أحمد لطفى السيد ويترك المكتب في ميدان العتبة لزميليه ويتجه إلى الصحافة والسياسة .

الجريدة وحزب الأمة

في مذكراته التى نشرتها « مجلة المصور - سبتمبر ١٩٥٠ » تحدث أحمد لطفى السيد عن اتفاقه مع محمد محمود بن محمود باشا سليمان حول « إنشاء جريدة مصرية حرة تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص إلى تركيا أو إلى الخديو أو إلى الانجليز » . واجتمع أحمد لطفى السيد في « الكونتنتال » مع محمد محمود وعمر سلطان ومحمود عبد الغفار ، وتحدثوا في الأمر وفي منزل محمود سليمان في ٢٣ يونية ١٩٠٦ تقرر تأسيس شركة خاصة للجريدة والمطبعة . وتم اختيار محمود سليمان ، وحسن عبد الرازق ، وإبراهيم سعيد ، وإسماعيل أباطه ، وباسيلي تادرس ، وأحمد يحيى ، وإبراهيم مراد ، وطلبة سعودى ، ومحمود عبد الغفار ، وعمر سلطان لتحديد اختصاصات الشركة ووضع لوائحها . واختير محمود سليمان رئيسا للشركة ، وحسن عبد الرازق باشا (والد الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومحمود عبد الرازق ، وحسن عبد الرازق) وكيلا للشركة ، واختير أحمد لطفى السيد مديرا للجريدة ورئيسا لتحريرها لعشر سنوات . وصدر العدد الأول من « الجريدة » في ٩ مارس ١٩٠٧ وحملت « الجريدة » لواء الدعوة إلى « المصرية » ومعارضة الاتجاه إلى تركيا ، وإلى « محاسنة » السلطة الفعلية وتقصد بها الانجليز .

وفي يوم السبت ٢١ سبتمبر عام ١٩٠٧ ، وفي اجتماع الجمعية العمومية لشركة الجريدة ، أعلن حسن باشا عبد الرزاق الكبير نيابة عن محمود باشا سليمان الذى لم يحضر لمرضه ، تحويل الجمعية العمومية إلى حزب هو « حزب الأمة » . . اختير محمود سليمان رئيسا للحزب ، وحسن عبد الرازق وعلى شعراوى وكيلين ، واختير أحمد لطفى السيد سكرتيرا عاما للحزب . وهكذا أصبح أحمد لطفى السيد عام ١٩٠٧ سكرتيرا عاما لحزب الأمة ورئيسا لتحرير صحيفته « الجريدة » . وكان من المعروف أن الشيخ محمد عبده الذى كان قد توفي عام ١٩٠٥ كان الأب الروحى لهذه المجموعة وتوقفت الجريدة في ٣٠ يوليو ١٩١٥ . وكان أحمد لطفى قد اعتكف في بلده « برقين » استياء من سياسة الاحتلال التى بدأت تشدد قبضتها على البلاد ، وخاصة بعد بداية الحرب العالمية الأولى وإعلان الحماية على مصر في ديسمبر ١٩١٤ . ومن المؤكد أن سعد زغلول لم يكن له دور في تأسيس « الجريدة » أو حزب الأمة ، وكان شقيقه أحمد فتحى زغلول هو الذى له دور ومن هنا جاء الخلط لدى بعض الباحثين . وقد جار الخلط لدى بعض الباحثين .

وقد حاول الخديو عباس حلمي الثاني أن ينطش بحزب الأمة بعد واقعه مع المعتد البريطاني
«يجوزست» ولكن لم يتمكن .

العودة إلى الجهاد

وبعد أن ألقى أحمد لطفى السيد كلمة «واكتشف في برقين» ما استجاب له إلا دعوة سعد
زغلول للتفكير في مستقبل الوطن . وقبيل إعلان الهدنة (١٩١٨) ، كان سعد يجتمع في عزيمته
بمسجد وصيف مع أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمي ، ومحمد محمود ، وداد الحوافر فيا يبين
عمله بعد إعلان الهدنة ، وفي ١١ نوفمبر أعلنت الهدنة ، وعقد اجتماع في بيت سعد (بيت الأمة)
تقرر فيه توجيه الدعوة إلى اجتماع موسع ، وتكتب أحمد لطفى السيد صحيفة الدعوة ، وفي هذا
الاجتماع الموسع تقرر أن يكون الوفد الأول «أول المجموعة الأولى» من الوفد من : سعد زغلول ،
وعلى شعراوي ، وعبد العزيز فهمي ، ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيد ، وعبد اللطيف
المكباتي وتقرر أن يذهب سعد زغلول ، وعلى شعراوي ، وعبد العزيز فهمي إلى القاهرة للمعتد
البريطاني في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ . ولبات الأهرام كما هو معروف من اعتقال سعد وإسما عيل
صطفى ومحمد محمود ومحمد الباشا ثم الثورة الشعبية الكبرى في ٩ مارس ١٩١٩ ، ثم إطلاق
سراحهم وسفر الوفد إلى أوروبا للتفاوض مع الإنجليز ، وعرض القضية على مؤتمر الطح .

وفي أوروبا ظهر أحمد لطفى السيد باعتبار العقلية المفكرة العالمية المجموعة المعارضة لسعد
زغلول المؤيدة لعديل يكن والواجبة في الوصول مع الإنجليز إلى حدود هي في رأي سعد مجرد حماية
مستترة . وكانت هذه المجموعة تتكون من أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمي ، ومحمد محمود ،
ومحمد الباشا ، ومحمد علي علقية وعبد اللطيف المكباتي وعادات العالمية من أوروبا وعاد عليل
يكن ليكنل وزاوتة الأولى في ١٦ مارس ١٩٢٢ ، وعاد سعد في ١٦ أبريل ١٩٢٢ ليكن خطة شعواء
على المفاوضات التي يجريها عليل مع الإنجليز . وأيدت جمعية مصر المشتقة «التي شهدت فيها
بعضه ككيون حزب الأحرار الدستوريين» ، وهي الجمعية التي اشتهرت بملها جريدة المباشرة ،
أيادت عليل يكن وزاوتة ومفاوضاته أحمد لطفى السيد خطوات عليل يكن وفشلت المفاوضات
عليل وعاد من لندن في ٥ ديسمبر ١٩٢٢ ، وقدم استقالته التي قبلها الملك فؤاد في ٢٤ ديسمبر .
وأعتمد سلطات الاحتلال سعد زغلول بأنه السبب في فشل المفاوضات ، واعتقلته ونفته إلى
«شيشل» في ٢٩ ديسمبر ١٩٢٢ ومعه عدد من مؤيديه .

وفي ٢٨ فبراير ١٩٢٢ أصدرت الحكومة البريطانية «تصريح» ٢٨ فبراير ١٩٢٢ في ١٥

مارس أعلن أحمد فؤاد نفسه ملكاً وأعلن استقلال مصر في ٢٥ إبريل وقد أيد أحمد لطفى السيد والغالبية المعارضة لسعد زغلول كل هذه الخطوات ، في الوقت الذي كانت فيه سلطات الاحتلال تعتقل الضميين الثاني والثالث من رجال الوفد .

وفي تلك الفترة كان أحمد لطفى السيد يحمل من وراء الستار في الإعداد لبرنامج ولائحة الحزب الجديد الذي أعلن عن نفسه في ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ تحت اسم « حزب الأحرار الدستوريين » ، ولم يظهر اسم لطفى السيد في جهازه القيادي ولا في مستوياته الأخرى لأنه كان يحمل « مديرا لدار الكتب » .

إستاد الجيل

وقد حرمت « السياسة البلاد من أن ينظم « أستاذ الجيل » في العمل الفكري والثقافي . فقد تولى أمر إدارة « دار الكتب » وتركها ويعود إليها . وهكذا نشاطه في الجامعة ، وفي مجمع اللغة العربية ونشاطه في الترجمة والصحافة .

في سنة ١٩١٥ عين مديرا لدار الكتب ، وتركها حين أراد أن يتفرغ للوفد المصري ، ثم عاد إليها فبيل تكوين « حزب الأحرار الدستوريين » الذي أسهم في تشكيله من وراء الستار ، وظل مديرا لدار الكتب حتى اختير مديرا للجامعة سنة ١٩٢٥ . وكان وراء إنشاء « المجمع اللغوي المصري » سنة ١٩١٦ الذي رأسه شيخ الجامع الأزهر ، وقد أقر لأعضائه قاعة من قاعات دار الكتب التي كان هو مديرا لها . واختير عام ١٩٤٠ عضوا بمجمع اللغة العربية ، وتولى رئاسته خلفا لرئيسه الدكتور محمد توفيق رفعت سنة ١٩٤٥ . وظل رئيسا للمجمع حتى توفي سنة ١٩٦٣ ، وخلفه في منصبه الدكتور طه حسين . وله مع طه حسين قصة فهو الذي فتح له أبواب الجامعة دراسة وتدرسا ، واستقال عام ١٩٣٣ عندما نقله إسماعيل صدقي إلى وزارة المعارف . وأنشئت الجامعة الأهلية (مارس ١٩٠٨) برئاسة الأمير أحمد فؤاد ، وكان أول مجلس لها عندما أصبحت « الجامعة المصرية » في مايو ١٩٢٥ برئاسة علي ماهر ، وأحمد لطفى السيد مديرا لها . وقد كان وكيلاً من قبل للجامعة الأهلية . وعاد مديرا للجامعة عام ١٩٣٥ وتركها ثم عاد إليها مرة أخرى حتى عام ١٩٤١ حين دخل عضوا بمجلس الشيوخ .

وكان « مجمع اللغة العربية » الذي أنشئ عام ١٩١٦ قد انقضى عام ١٩١٩ ، وسنة ١٩٢٦ كان قد اندثر المجمع الذي تكون عام ١٩٢٢ ، وقد تابع أحمد لطفى السيد إحياء المجمع حتى تكون من جديد عام ١٩٣٢ .

ورأى أحمد لطفى السيد أن حاجة الشرق هي في « ترجمة عيون ماكتب أهل الغرب » . وفي دار

الكتب عمد إلى ترجمة أعمال أرسطو . وكان يولى أهمية للترجمة على التأليف إذ يراها سابقة عليه . وقد عكفت سنوات طوالاً على ترجمة أعمال أرسطو . وقد قرأ الغالية مفكرى الغرب وتأثر بهم وقرأ المفكرى الغرب وتأثر بهم أيضاً أمثال ابن رشد وابن سينا .

أخطاء الأستاذ

إننا نشترك الدكتور عفاف ابنة شقيقه أ. « من سوء الحظ أن أصبح أحمد لطفى السيد وزيرا » . فإن مايقى منه للتاريخ ليس عمله في الوزارة وليس جولاته في المفاوضات ولا عضويته بمجلس التشيوخ ، وإنما أفكاره على الفكر المضرى ، في دعم الليبرالية وفي القومية المصرية ، وفي تعليم المرأة وفي النهضة الصحفية ، وفي الحياة الجامعية . .

ومهما يكن من أمر ، فقد أصبح « الأستاذ » وزيرا للمعارف في وزارة محمد محمود الأولى من ٢٧ يونية ١٩٢٨ - ١٢ أكتوبر ١٩٢٩ وهي الوزارة التي عرفت بوزارة « البلد الجديدة » ، والتي حاول القصر استغلالها لضرب « الوفد » وضرب الحياة الليبية . ومن ٣٠ ديسمبر ١٩٢٧ - ٢٧ إبريل ١٩٢٨ في وزارة محمد محمود الثانية وهي الوزارة التي تم في عهدها إحطل انتقسات الوفد « أحمد ماهر - النقراشي » واشترك فيها أحمد لطفى السيد وزيرا للدولة وفي الوزارة التالية لها من ٢٧ إبريل ١٩٣٨ - وهي الوزارة الثالثة لمحمد محمود - نجده أيضا وزيرا للدولة . أما من ١٨ مايو ١٩٣٨ - ٢٤ يونيو ١٩٣٨ فها هو « أرسطو » يتولى وزارة الداخلية في نطاق الوزارة ذاتها . وفي ١٧ فبراير ١٩٤٦ شكل إسماعيل صدقي وزارته الثالثة في مواجهة المد الشعبي المطالب بالتحجر والاستقلال والديموقراطية ، وفي مقدمة الوزراء كان اسم أحمد لطفى السيد وزيرا للدولة ويتولى وزارة الخارجية . وفي عهد تلك الوزارة ازداد الصدام اللدني بين العمال والطلبة وبين قوات الحكومة ، فشلت المفاوضات وخرج لطفى السيد من الوزارة في ١٠ نوفمبر . واستمرت وزارة صدقي إلى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ وخلفه محمود فهمي النقراشي ، وهي الوزارة التي قتل فيها النقراشي (٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) . .

وبعد . . . هل قدر على « الأستاذ » أن يقف دائما في مواجهة التيار الوطني ؟ أنشأ حزب الأمة في مواجهة الحزب الوطني ورسم خطا حزب الأحرار الدستوريين لمواجهة الوفد حزب الأغلبية الشعبية ، وها هو يشترك في حكومات محمد محمود وإسماعيل صدقي في مواجهة التيار الوطني الديموقراطي . . .

ولكنه في النجوة المقابل أطلق صحيفة عالمية على صفحات « الجديدة » من أجل

«الديمقراطية»، وأطلق شعار « مصر للمصريين » ، وطرح في فترة باكرة (١٩١٢) خطة لاستقلال مصر ذاتيا عن تركيا . وكان مفكر مجموعة « حزب الأمة » وعاون في تأسيس « الوفد » . وعمل وكيلا فمديرا للجامعة الأهلية والجامعة المصرية ، وأرسى القواعد العلمية . وله فضل في إنشاء مجمع اللغة العربية وكان مكتبه في « الجريدة » مدرسة للثقافة الجديدة ، ومدرسة للاستنارة الفكرية ، وله دور كبير في إرساء مفهوم «القومية المصرية » ، ورفع من شأن الصحافة وأعلى من مكانتها .

لقد ظن الكثيرون أن الناس قد نسوه بعد أن عاش ٩١ عاما ، ولكنه عندما توفي عام ١٩٦٣ كانت جنازته تؤكد أن مصر لا تنسى الذين يعملون من أجلها حتى ولو تعثرت بعض خطاهم . . وجل من لا يخطيء .

الأسانيد :

- ١ - أحمد عصام الدين . . حركة الترجمة في مصر .
- ٢ - أنور الجندي . . الصحافة السياسية .
- ٣ - د . عفاف لطفى السيد . . تجربة مصر الليبرالية . (ترجمة عبد الحميد سليم) .
- ٤ - شهدى عطية الشافعى . . تطور الحركة الوطنية المصرية .
- ٥ - صلاح عبد الصبور . . قصة الضمير المصرى الحديث .
- ٦ - د . محمد مهدي علام . . المجمعون في ٥٠ عاما .

أحمد ماهر



مع مساء يوم السبت ٢٤ فبراير ١٩٤٥ تقدم محمود العيسوى عضو الحزب الوطنى والمحامى فى مكتب سكرتير الحزب عبد الرحمن الرافعى ، تقدم من الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء ليصافحه ، فأقبل عليه الرجل وابتهامة خفيفة على شفثيه ، ولكن المحامى الشاب أفرغ رصاصات مسدسه فى صدر رئيس الوزراء فسقط قتيلًا فى البهو الفرعونى بين مجلس النواب ومجلس الشيوخ .

كان رئيس الوزراء الشجاع قد ذهب إلى مجلس النواب يعرض عليه قرارا بأن تعلن مصر الحرب على ألمانيا النازية التى كانت وقت ذاك فى سبيل إعلان هزيمتها أمام الحلفاء ، ومشاركة مصر مع الحلفاء كانت تتيح لها دخول المنظمات الدولية المزمع إنشاؤها ، ولكن رأى العام كان مشحونا ضد الانجليز . وكان عبد الرحمن الرافعى لا يرى مصلحة لمصر من وراء هذه المنظمات والمواثيق الدولية . بل إنه سبق له أن أذاع بيانا باسم الحزب الوطنى وعليه توقيعه يحذر من دخول الحرب . وعندما يعلق عبد الرحمن الرافعى على الحادث لا يذكر صلة العيسوى به من قريب أو بعيد ، ولا يذكر صلة العيسوى بالانحوان المسلمين ، وإنما يتحدث عنه على أنه « محام شاب متهموس يدعى محمود العيسوى » ، ثم يحاول الرافعى إلقاء المسئولية على الوفد والوفديين « ولكن الوفديين أثاروا النفوس على أحمد ماهر موهمين الناس أنه يسعى للزج بالبلاد فى أتون الحرب وإرسال المصريين إلى الخارج ليحاربوا فى ميادين القتال البعيدة » وكان من أثر هذه الفتنة وقوع تلك الجناية الفظيعة التى ذهب ضحيتها زعيم من خيرة رجالات مصر .

وليس الرافعى هو موضوع حديثنا هنا ، ولكن عندما يكتب البعض فى السياسة تحت رايه الكتابة التاريخية ينبغى على الباحث أن يتصدى لهذا اللون من الكتابة . وما حدث على وجه الدقة

هو ان عبد الرحمن الرافعى له مواقف ثابتة ضد اشتراك مصر فى المنظمات الدولية ، وله مواقف ثابتة ضد اشتراك مصر فى الحرب العالمية الثانية منذ بدايتها ، والحزب الوطنى عارض بشدة موقف أحمد ماهر من إعلان دخول مصر للحرب إلى درجة أن رئيس الحزب حافظ رمضان قدم استقالته ، وكان وزيرا للعدل فى وزارة أحمد ماهر الثانية والأخيرة ، وعاد وسحب الاستقالة بأمر من الملك . فالأقرب إلى المنطق هنا أن يتأثر العيسوى برأى أستاذه الرافعى . وهو يلزمه دائما لأنه يعمل معه فى مكتبه ، والأقرب إلى المنطق أن يتأثر بموقف الحزب الذى ينتمى إليه وبموقف رئيسه . ولكن لأن الرافعى يكره الوفد كراهية متوارثة من الحزب الوطنى أراد أن يلصق الاتهام بالوفد بطريقة ساذجة فلم يشر إلى معرفته بالعيسوى ، ولا بصلة العيسوى به وركز على دور الوفد فى تلك الفترة .

على أية حال من الضرورة أن تكون لنا كلمة هنا . . يوم الاغتيال هو ٢٤ فبراير ١٩٤٥ وألمانيا النازية تحتضر وفى طريقها لإعلان التسليم ، أى أنه لم تكن هناك مخاطر عسكرية من وراء اشتراك مصر فى الحرب . والفكرة قديمة من أيام وزارة على ماهر مع بداية الحرب فى أول سبتمبر ١٩٣٩ . وكان روزفلت وتشرشل وستالين قد قرروا أن تشارك فى مؤتمر فرانكيسكو لإنشاء الأمم المتحدة كل دولة تكون قد أعلنت الحرب على دول المحور قبل أول مارس ١٩٤٥ ، وتقرر أن يعقد مؤتمر سان فرانسيسكو فى ٢٥ إبريل ١٩٤٥ . الحرب انتهت فعلا والباقي أسبوع على آخر موعد لإعلان الحرب على المحور تمهيدا للاشتراك فى مؤتمر سان فرانسيسكو . . مسألة شكلية تماما ولم يكن أحمد ماهر فى هذا الموقف خائنا لبلاده ، وكيف يخون من تربى فى الجمعيات السرية بقيادة عبد الرحمن فهمى وبمعرفة كاملة من سعد زغلول . كان وطنيا شجاعا دفع حياته ثمنا لهذه الشجاعة نحن نختلف معه فى مواقف هامة ولكنه نموذج ينبغى أن يقرأ من سطره الأولى . .

تاريخنا لمولده . . الأول ١٨٨٥ أورده محمد السوادى فى كتابه « أقطاب مصر بين الثورتين » ، والثانى ١٨٨٨ أورده د/ يونان لبيب رزق فى كتابه « تاريخ الوزارات فى مصر » . وقد اتفقت المصادر المختلفة على أنه تخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٨ . ووالده محمد ماهر وكيل وزارة الحربية ومحافظ القاهرة . وعمل عامين بالمحاماة ، وفى سنة ١٩١٠ سافر إلى فرنسا حيث حصل على الدكتوراه فى القانون والاقتصاد من جامعة مونبيلييه . وعاد إلى مصر سنة ١٩١٣ ليعمل فى مدرسة التجارة ، ويلتقى هناك بزميل عمره محمود فهمى النقراشى فيتزاملان ويرتبطان ويسيران معا تحت راية سعد ، ويدخلان أجهزة عبد الرحمن فهمى السرية ويقبض عليهما معا فى قضية اغتيال حسن عبد الرازق واسماعيل زهدى ، أمام مبنى جريدة السياسة سنة ١٩٢٢ ، ويفرج عنهما معا لعدم ثبوت الاتهام ومرة أخرى يقبض عليهما معا فى مايو سنة ١٩٢٥ بتهمة تشكيل

جماعة سرية للاغتيالات ، ويشكل سعد هيئة للدفاع على رأسها سكرتير الوفد مصطفى النحاس الذى يستبسل فى الدفاع عنهما إلى أن صدر الحكم بالبراءة فى مايو ١٩٢٦ . وعلى الرغم من أن السياسة قد فرقت بعد ذلك بحوالى عشر سنوات بين مصطفى النحاس وأحمد ماهر ، حين انشق أحمد ماهر والنقراشى على الوفد ، إلا أن أحمد ماهر ظل طوال حياته لا ينطق ولا يسمح لأحد أن ينطق أمامه بكلمة جارحة لشخص مصطفى النحاس ، والطريف أن النهاية أيضا لماهر والنقراشى واحدة . . لقى كل منهما مصرعه اغتيالا وهو يؤدي واجبه . .

ماهر والنقراشى ومكرم

وإذا كان أحمد ماهر قد حفظ لمصطفى النحاس دوره فى الدفاع عنه ، فإن هذا لم يمنعه أن يطمح فى رئاسة الوفد بعد رحيل سعد فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . وإن كان دور مصطفى النحاس كسكرتير للوفد قد رجح كفته على أحمد ماهر ، فإن ماهر والنقراشى كانا يؤمنان عن يقين بأحقية أحدهما بمنصب سكرتير الوفد بدلا من مكرم عبيد وذلك لأسبقيتهما فى الارتباط بسعد زغلول ، ولدورهما فى الكفاح السرى الذى عرضهما أكثر من مرة للموت . .

وهذه المنافسة بين ماهر والنقراشى من جانب ، وبين النحاس ومكرم من جانب آخر لا يمكن إغفالها عندما ننظر إلى الانقسام الخطير الذى وقع خلال عامى ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ وخرج فيه ماهر وغالب والنقراشى وشكلوا مع غيرهم من شباب الوفد ما عرف بالهيئة السعدية .

ماهر والنقراشى دخلا الأجهزة السرية فى فترة مبكرة . وقد تحملت شبكة عبد الرحمن فهمى السرية وعناصره الإدارية عبء الكفاح السرى والعلنى قبل ٩ مارس ١٩١٩ ، ويوم ٩ مارس سنة الثورة القومية وطوال عامين عندما كان سعد زغلول والوفد فى باريس ولندن للمفاوضات مع الانجليز ، أى أن أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى تاريخيا من أبناء الثورة .

ويسجل فخرى عبد النور فى مذكراته فى مجال وصف عودة سعد باشا من أوروبا فى ٥ إبريل ١٩٢١ - ٢٥ رجب ١٣٣٩ هـ .

. . تحرك القطار إلى القاهرة فبلغها فى نحو سبع ساعات ، أى فى ضعف الزمن الذى يقطعه القطار السريع . كان الفلاحون على طول الطريق يقفون فى سبيل سيره ، ويأبون إلا أن يقف أمام قراهم ليؤدوا واجب الوفاء والشكر لزعيمهم المحبوب . . . وفى هذه الأثناء قدم له الأستاذ ويصا واصف عضو الوفد ، الأستاذ الشاب وليم مكرم عبيد ، وكان وقتئذ مدرسا بمدرسة الحقوق فحياه سعد باشا واثنى عليه وأعرب له عن إعجابه الكبير بمذكرته القيمة الجلية التى كتبها باللغة

الانجليزية ردا على مشروع المستشار القضائي الانجليزي . وكان وقت أن كتب هذه المذكرة سكرتير له . وقد ترجمها إلى اللغة العربية الأستاذ محمد لبيب مدير الإدارة القضائية) .
 أى أن أول لقاء بين سعد زغلول ومكرم عبيد كان في إبريل ١٩٢١ .

ما قبل الانقسام

ومع مسيرة أحمد ماهر نقرأ في مذكرات فخرى عبد النور أيضا في مجال حديثه عن محاكمة «السبعة أسود في قفص» ويقصد بهم حمد الباسل ، ومقصص حنا ، وواصف غالى ، وعلوى الجزار ، وويصا واصف ، وجورج خياط ، ومрад الشريعى ، الذين صدر عليهم حكم بالإعدام يوم ١١ أغسطس ١٩٢٢ . قال حمد الباسل للانجليز «لكم أن تحكموا علينا لا أن تحكمونا» .
 ويعد إعلان الحكم هتف واصف غالى «لتحى مصر» فردد الحاضرون الهتاف ، وقبض البوليس على واحد من هؤلاء وكان هو الدكتور أحمد ماهر ، وكان إذ ذلك مدرسا بمدرسة التجارة العليا .

وفي انتخابات ١٢ يناير ١٩٢٤ التى أجراها رئيس الوزراء النزيه يحيى إبراهيم وسقط هو في تلك الانتخابات ، كان أحمد ماهر عضوا في هذا المجلس . وشكل سعد زغلول الوزارة الشعبية (٢٨ يناير - ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤) وكان محمد سعيد باشا رئيس الوزراء الأسبق وزيرا للمعارف ، وفي ٢٥ أكتوبر خرج محمد سعيد وجاء أحمد ماهر وزيرا للمعارف ، وبعدها بشهر واحد استقالت الوزارة الشعبية على إثر حادث اغتيال السردار «السيرلى ستاك» في ٩ نوفمبر . وتربص الانجليز بالفدائى الكبير عبد الرحمن فهمى وبابن أخيه أحمد ماهر ، وبزميله محمود فهمى النقراشى الذى قبض عليه وأفرج عنه لعدم كفاية الأدلة .

ومهما يكن من أمر فإن عبد الفتاح عنایت ، وهو أحد المتهمين في حادث اغتيال «السردار» في كتابه «قصة كفاح» تحدث عن كفاح أعضاء أسرته وعن آخرين ، وعن حركة المقاومة من ١٩٢٢ - ١٩٢٥ . وتعرض لأحداث اغتيال كثيرة مثل اغتيال المستر براون مراقب عام وزارة المعارف ، واغتيال المستر كييف وكيل حكمدار القاهرة ، واغتيال المستر بيجوت مدير مالية الجيش الانجليزي ، ثم تحدث عن اغتيال حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدى من كبار الأحرار الدستوريين ، وعلى كثرة ما أورد من أسماء هذه المجموعة السرية فإنه لم يشر من بعيد أو قريب إلى أحمد ماهر أو النقراشى أو عبد الرحمن فهمى . ونحن نرجح أن أجهزة عبد الرحمن فهمى كانت موجهة من عقلية سياسية تهدف إلى الاستقلال الوطنى ولا تقامر في عمليات من شأنها أن تضر بالحركة الوطنية وفي تقديرنا أيضا أن مجموعة «عنایت» كانت ضمن مخطط موجه أساسا

لإجهاض ثورة ١٩١٩ ، وموجه إلى قيادتها الوطنية ، لذلك نستطيع أن نقول إن أجهزة عبد الرحمن فهمى كان وراءها سعد زغلول ، وأن مجموعة عنايت وبعده العيسوى كان وراءها الحزب الوطنى بتطرفه المعروف . ويكراهيته للوفد الذى سحب بساط التأييد الشعبى من تحته . .

رحيل الزعيم

فى ٢٢ مايو ١٩٢٦ جرت الانتخابات التى فاز فيها الوفد بالأغلبية ، وفاز فيها الدكتور أحمد ماهر أحد نواب الوفد اللامعين وأعلنت البراءة بالنسبة لماهر والنقراشى فى قضايا الاغتيالات السياسية ، وهدد الانجليز باتخاذ إجراءات ضارة بالاستقلال الوليد إذا رأس سعد زغلول الوزارة مرة أخرى فقام بتشكيلها ائتلافية عدلى يكن ، وأعقبته وزارة عبد الخالق ثروت من ٢٥ ابريل ١٩٢٧-١٦ مارس ١٩٢٨ ، وفى تلك الفترة ظهرت سيطرة النقراشى على الشباب الوفدى .

وفى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ توفى زعيم الأمة سعد زغلول دون أن يشير إلى من يخلفه . وكان مصطفى النحاس وأحمد ماهر خارج مصر ، وكان محمود فهمى النقراشى ومكرم عبيد داخل مصر . . النقراشى بقدراته التنظيمية الهائلة ، ومكرم بحماسة الدافقة وطاقته البلاغية . . وداخل الوفد صراع خطير . . البعض يرشحون فتح الله بركات ابن أخت الزعيم سعد زغلول ، وظهر اسم أحمد ماهر كرئيس للوفد واسم محمود فهمى النقراشى كسكرتير للوفد ، ثم ظهر على السطح تعديل للاقتراح : النحاس رئيسا والنقراشى سكرتيرا عاما . . وقام مكرم عبيد بنشاطه وبلاغته وقوة إقناعه بحسم الموقف لصالح مصطفى النحاس . وفى ١٤ سبتمبر ١٩٢٧ اجتمع الوفد المصرى واختار مصطفى النحاس رئيسا ، ثم اختار مكرم عبيد سكرتيرا بتأييد واضح من مصطفى النحاس الذى اختار مكرم عبيد وزيرا للمواصلات فى وزارته التى شكلها (١٦ مارس - ٢٥ يونيه ١٩٢٨) ولم يكن من أعضائها ماهر أو النقراشى .

وظل الرجلان يكتمان الجراح عشر سنوات كاملة .

المحاولة العنيفة

وصلنا إلى أن ماهر والنقراشى كانا يطمحان فى رئاسة الوفد وفى سكرتاريته ، أو على الأقل فى سكرتاريته إذا عز منال رئاسة الوفد ، لأن أحقية النحاس واضحة فهو سكرتير الوفد ، وهو عازف عن المناصب . وهما أقدم كفاحا من مكرم عبيد ، وتحملا عبء الكفاح المسلح إذا صح هذا التعبير على أية حال بعد اختيار النحاس ومكرم لمنصبى القيادة فى الوفد ، لم يحاول ماهر أو

النقراشى الخروج على تلك القيادة إلى أن واثت ظروف موضوعية أخرى تساعد على تحقيق الحلم القديم .

كانت معاهدة ١٩٣٦ قد أبرمت ولم تعد هناك أمام الأحزاب قضية وطنية ساخنة يمكن حشد الجماهير حولها ، وهنا ظهر رأى لأحمد ماهر ينادى بعودة الوحدة بين الأحزاب ، ومعنى هذا أن أحمد ماهر بدأ يميل إلى المهادنة مع أحزاب الأقلية السياسية . وفى الوقت ذاته كان الملك أحمد فؤاد قد رحل وجاء ملك شاب ومهادنته لاتعد خروجاً على تقاليد العمل الوطنى أمام الجماهير . . ودخل الأزهر وشيخه الإمام مصطفى المراغى الساحة مؤيدين للملك الشاب الجديد مما شكل تحدياً جديداً للوفد . إلى جانب ذلك كله وجود على ماهر ، العدو التقليدى للوفد وشقيق أحمد ماهر ، رئيساً للديوان الملكى . هذا بالإضافة إلى أن أحمد ماهر بشخصيته المرنة وحضوره السياسى كان يحتل موقعا هاما هو رئيس مجلس النواب . .

وقدم مصطفى النحاس استقالة وزارته الثالثة (٩ مايو ٣٦ - ٣١ يوليو ١٩٣٧) . وشكل وزارته الرابعة فى أول أغسطس ١٩٣٧ وقد خلت من محمد صفوت ، ومحمود فهمى النقراشى ، ومحمود غالب ، وعلى فهمى ، وهى كلها من مجموعة أحمد ماهر .

وانفجر الموقف داخل الوفد ، وفى الصحف ، وفى الجبهة المعادية لوحدة الوفد ، وتبادل الفريقان الاتهامات . وقامت التظاهرات تطالب بوحدة الوفد فى مواجهة المؤامرة الواسعة لإحداث الانقسام الكبير فى الوفد . وتبادل النحاس والنقراشى خطابين شديدى اللهجة فى ٧ ، ١٠ سبتمبر ١٩٣٧ . وأصد الوفد المصرى بالإجماع قراراً فى ١٣ سبتمبر ١٩٣٧ بفصل النقراشى لأنه وضع شروطاً لحضوره الاجتماع لمناقشة الموقف . أما الدكتور أحمد ماهر فقد بقى فى الوفد استمرازا لخطة الاستيلاء على الوفد من الداخل ، ولكن الوفد دعا إلى اجتماع تاريخى حضره مصطفى النحاس وأحمد ماهر وقدم كل منهما وجهة نظره وأوراقه ووضع أمام الاجتماع أن أحمد ماهر يسعى إلى رئاسة الوزارة باسم الوفد . ودافع عن حق الملك الدستورى ، وأقسم الجميع على الثقة بمصطفى النحاس وعلى تأييده فيما عدا ثلاثة هم أحمد ماهر ، والدكتور حامد محمود ، وإبراهيم عبد الهادى فصدر قرار بفصلهم فى ٣ يناير ١٩٣٨ وذلك بعد إقالة وزارة النحاس فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ .

بداية السقوط

ودخل في روع أحمد ماهر أن القصر سوف يعهد إليه بتأليف الوزارة عقب إقالة مصطفى النحاس في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ وشكل الوزارة محمد محمود ليعود بيده القوية ويحل البرلمان الوفدى. وفي وزارة محمد محمود الرابعة (٢٤ يولية ١٩٣٨ - ١٨ أغسطس ١٩٣٩) يدخل أحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشى ، ومحمود غالب ، والدكتور حامد محمود الوزارة ليشاركو في اليد القوية ، وكبت الحريات وضرب الشعب . . وكانت بداية السقوط .

وفي ٨ أكتوبر ١٩٤٤ وجه الملك فاروق بإيعاز من أحمد حسنين إلى مصطفى النحاس إقالة من الوزارة ، وتبين إلى أى مدى وصلت السراى وأحزاب الأقلية السياسية فى الاستهزاء بعقول الشعب . . قال فاروق واقروا الرسالة مرتين « لما كنت حريصا على أن تحكم بلادى وزارة ديمقراطية تعمل للوطن وتطبق أحكام الدستور نصا وروحا ، وتسوى بين المصريين جميعا فى الحقوق والواجبات ، وتقوم بتوفير الغذاء والكساء فقد رأينا أن نزيلكم من مناصبكم » . وكلف الملك أحمد ماهر بتشكيل وزارة من السعديين والأحرار الدستوريين ، والحزب الوطنى والكتلة الوفدية . . فشل أحمد ماهر فى أن يكون رئيسا للوفد ، وهاهو رئيس للوزراء بأمر الملك ! وفشل مكرم عبيد أن يكون زعيما للوفد وفشل أيضا أن يكون رئيسا للوزراء . . وبأمر الملك خرج من المعتقل ليعمل وزيرا تحت رئاسة خصمه القديم أحمد ماهر ، وزميلا لعدوه العتيذ محمود فهمى النقراشى . تجمعوا بأمر الملك لمحاكمة الوفد والإجهاز عليه وتقسيم الدوائر فيما بينهم وبعد الانتخابات شكل أحمد ماهر وزارته الثانية فى ١٥ فبراير ليواجه مسألة إعلان الحرب على المحور للاشتراك فى مؤتمر سان فرانسيسكو ، ويوم السبت ٢٤ فبراير ١٩٤٥ انتهى أحمد ماهر من إلقاء بيانه أمام مجلس النواب . . ثم بدأ ينتقل من مجلس النواب إلى مجلس الشيوخ . . وفى البهو الفرعونى تقدم منه محمود العيسوى والمحامى فى مكتب عبد الرحمن الرافعى ، وأطلق عليه رصاص مسدسه فأرداه قتيلًا . .

الأسانيد :

- ١- د . حمادة إسماعيل . . رسالة دكتوراه لم تنشر . بعد عن (عبد الرحمن الرافعى) .
- ٢- د . عبد العظيم رمضان . . تطور الحركة الوطنية فى مصر .
- ٣- عبد الفتاح عنایت . . قصة كفاح .
- ٤- فخرى عبد النور . . مذكرات .
- ٥- محمد التابعى . . أسرار الساسة والسياسة .
- ٦- محمد السوادى . . أقطاب مصر بين الثورتين .

أحمد نجيب الهلالي



شخصية مثيرة تشدك إلى أن تمنع النظر في تاريخها . . لا أدري لماذا هو عندى شبيه لمكرم عبيد؟ كلاهما صعيدي . . ترى عندهما بسهولة رغبة الأخذ بالثأر في المعارك مع الآخرين . . تصفية الحسابات تفرض نفسها ولو بعد حين . . وفي النهاية أضاع كل منهما رصيده أو الجزء الغالب من رصيده . وجد كل منهما حياته وتاريخه ومجده في الوفد . وحسب كل منهما أنه واصل لرئاسة حزب أو لرئاسة الوزارة . . وهمس أحمد حسنين ولعب على طموح مكرم عبيد فخرج على الوفد وأسس الكتلة الوفدية حزبا وجريدة ، وبعد سنوات قليلة لم يكن هناك حزب ولم تعد هناك جريدة ، وتنبأ توفيق نسيم بالزعامة والرئاسة في أذنى نجيب الهلالي فوصل إلى كرسي رئاسة الوزارة مرتين وسعى إلى تكوين حزب يطاول الوفد ، وبعد شهور قليلة لم تكن هناك رئاسة وزارة ولم يظهر له حزب .

مكرم عبيد خطيب ساحر تهتز له المنابر ، وأحمد نجيب الهلالي كاتب بليغ . . وويل للهلالي من لسان مكرم . . وويل لمكرم من « مخالف القط » . وقد لعب القدر بهما أو لعب معهما لعبته الساخرة . . كان مكرم رجل الجباهير وفتاها الفاتن ، وهو في سبيل أن ينتصر على مصطفى النحاس أو على محمد فؤاد سراج الدين أصبح رجل القصر أو كاد ، ثم أفاق بعد فوات الأوان . واعتذر أحمد نجيب الهلالي عن عدم اشتراكه في حكومة مصطفى النحاس السابعة (١٢ يناير ١٩٥٠) لأنه كما قال أقسم ألا يدخل قصر عابدين راكبا أو راجلا ، وذلك بسبب الإهانة التي لحقت بحكومته في خطاب الإقالة ١٩٤٤ . . واعتذر أيضا عن عدم تعيينه عضوا بمجلس الشيوخ (يونيو ١٩٥٠) لأنه يكون مضطرا في هذه الحالة أن يدخل قصر عابدين « راكبا وراجلا » ليشكر الملك على مرسوم تعيينه . . ثم هو في سبيل أن يتقم من الوفد ، وأن يصفى حساباته مع

مصطفى النحاس ، وأن يثار من محمد فؤاد سراج الدين دخل قصر عابدين راكبا وراجلا لينسق في تأسيس حزب جديد ، وليرأس الوزارة مرتين في أخريات أيام القصر ، ويأمر بتحديد إقامة محمد فؤاد سراج الدين سكرتير عام الوفد وعبد الفتاح حسن وزير الدولة في ١٨ مارس ١٩٥٢ بتوجيهات من السفارة البريطانية للخارجية المصرية لم ينفذها على ماهر وتم تنفيذها في وزارة الهلال الأولى (٢ مارس - ٢ يوليو ١٩٥٢) .

وتكمل المأساة فصولها عندما يدلى الرئيس السابق أحمد نجيب الهلالى باشا بشهادته أمام محكمة البغدادى وأنور السادات وحسن إبراهيم أطلق عليها « محكمة الثورة » في الجلسة الثالثة والجزء الأول من الجلسة الرابعة « ١٣ ديسمبر ١٩٥٣ » ، وعندما يدلى رئيس حزب الكتلة الوفدية والوزير السابق مكرم عبيد باشا أمام المحكمة ذاتها بشهادته . . وكان ذلك أثناء محاكمة فؤاد سراج الدين التى بدأت في ٩ ديسمبر ١٩٥٣ وانتهت في مارس ١٩٥٤ . وقد امتدت شهادة الهلالى لست ساعات وقريبا منها شهادة مكرم ، وكل منهما استخدم ذاكرته وبلاغته ورغبته في الانتقام من الوفد ومصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين والسيدة زينب الوكيل . والذي يعرف نفسية أهل الجنوب يدرك دون كبير مشقة بصمات الرغبة في الثأر على شهادة الرجلين .

القدرة والنبوءة

وكان القدر أكثر سخرية مع أحمد نجيب الهلالى . ففي صيف عام ١٩٣٤ شدد الوفد حملته من أجل إلغاء دستور ١٩٣٠ (دستور صدقي باشا) ومن أجل إعادة العمل بدستور ١٩٢٣ . ورد الملك المريض بتعيين أحمد زيور رئيسا للديوان الملكى . واستقالت وزارة عبد الفتاح يحيى في ٦ نوفمبر وجاءت وزارة توفيق نسيم (١٤ نوفمبر ١٩٣٤ - ٣٠ يناير ١٩٣٦) وتولى فيها أحمد نجيب الهلالى وزارة المعارف العمومية ، والرجل له ثقافته وله بصماته على وزارة المعارف . كان شعلة من النشاط والحركة . زار مدرسة « النهضة » بحى الظاهر بالقاهرة ، وكان فريق التمثيل يؤدي أحد أعماله ويقوم بدور بوليوس قيصر طالب طويل نحيل أسمر أنفه بارز ، طالب أصله من الصعيد من « بنى مر » بلديات الوزير من أسبوط ، الوزير يهتته ويتنبأ له بمستقبل باهر . ولم يكن الوزير يدري أن هذا الدور سوف يكون في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، في اليوم الثانى لوزارة الهلالى التى استمرت من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٤ يوليو ١٩٥٢ ، ويكون دور الطالب جمال عبد الناصر حسين وصحبه من الضباط الأحرار هو تنحية أحمد نجيب الهلالى ، وإسناد رئاسة الوزارة إلى على ماهر .

كان الضباط الأحرار قد استولوا على السلطة فجر يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وما أن أشرق

الصباح حتى تلقى اللواء محمد نجيب مكالمة تليفونية من أحمد نجيب الهلالي رئيس الوزراء يدعوه فيها للذهاب إلى الإسكندرية . وكان البيان الأول للثورة قد أذيع باسم لواء أركان حرب محمد نجيب ، ورفض محمد نجيب الذهاب إلى الإسكندرية ، وقدم الهلالي استقالة وزارته يوم ٢٣ يوليو وقد صدر الأمر الملكي بقبول الاستقالة يوم ٢٤ يوليو ، وفي اليوم نفسه صدر الأمر الملكي إلى على ماهر بتشكيل وزارته الرابعة .

ونظرة إلى وزارة الهلالي الثانية والأخيرة ندرك بوضوح أن الهدف الرئيسي لها كان الاستمرار في تنفيذ منهج الوزارة الأولى في ضرب الوفد وتطوير التذمر في القوات المسلحة . . بأيدي عدد من الوزراء رجال القصر والمعادين للوفد أمثال طه السباعي ، محمد زكي عبد المتعال ، أحمد مرتضى المراغي ، محمد فريد زعلوك ، إسماعيل شيرين .

الوفد «طريقاً» للوصول

عندما اختار توفيق نسيم في وزارة « ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ - ٣٠ يناير ١٩٣٦ » أحمد نجيب الهلالي وزيراً للمعارف العمومية عرف - أي الهلالي - بالكفاءة والنزاهة والاستقامة والذكاء فتوقع له توفيق نسيم مستقبلاً باهراً في السياسة المصرية . والرجل ذكي . . فيلزم لتحقيق هذا المستقبل حزب قادر على أن يصل به إلى تحقيق أمنياته . . اتجه إلى حزب الأغلبية الشعبية . . إلى «الوفد» . وإن هي إلا فترة قصيرة ، وبعد انشقاق على ماهر والنقراشي انتخب الوفد في أخريات عام ١٩٣٧ خمسة عشر عضواً جديداً هم : محمد سليمان الوكيل ، ومحمد المغازي عبد ربه ، وبشرى حنا ، ومحمد الحفنى الطرزي ، وكمال علما ، وفهمى ويصا ، وسيد بهنس ، ومحمد صبرى أبو علم ، وعبد الفتاح الطويل ، ويوسف الجندى ، وعلى زكى العربى ، وعلى حسين وأحمد نجيب الهلالي ، ومحمد محمود خليل ، وعثمان محرم .

وتولى « الرجل » وزارة المعارف ثلاث مرات في عهد حكومات الوفد : الأولى من ١٧ نوفمبر ١٩٣٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ في وزارة مصطفى النحاس الرابعة التى انتهت بإقالتها . والثانية من ٦ فبراير ١٩٤٢ - ٢٦ مايو ١٩٤٢ في وزارة مصطفى النحاس الخامسة . والثالثة من ٢٦ مايو ١٩٤٢ - ٨ أكتوبر ١٩٤٤ في وزارة مصطفى النحاس السادسة . وفي هذه الوزارات الثلاث كان أحمد نجيب الهلالي ملتزماً بخط الوفد ، معادياً للقصر ، حريصاً على وحدة الحزب التنظيمية . كتب مقالاته المشهورة في جريدة « المصرى » تحت عنوان « مخالف القط » منذ عام ١٩٣٨ وهى مقالات بأسلوب بليغ تأثرت بها الدوائر السياسية والاجتماعية في مصر ، وكلها تعبر عن

الاتجاهات الرئيسية للوفد . وتصدى في هذه المقالات للذين خرجوا على الوفد أمثال عباس محمود العقاد .

وفي جلسة ١٩ أبريل ١٩٤٣ استخدم أحمد نجيب الهلالي مخالب القط في المناقشات الخاصة بالكتاب الأسود ، واستهل كلامه بقوله : « زعم المفترى في كتابه الكاذب » . وفي جلسة ١٩ مايو ١٩٤٣ قال الهلالي باشا وزير المعارف في بيان طويل إن في ذمة أحمد حسنين مبلغ ٥٠٣ جنيهات ثمن أثاث منزلى منذ عام ١٩٢٩ وأنه لم يقم بسداده بالرغم من مطالبته به مرارا .

وهو هنا يحاول أن يبين للرأى العام صفات أحمد حسنين رئيس الديوان الملكى الذى وقف خلف مكرم عبيد وخلف جلال الدين الحمامصى وخلف الكتاب الأسود ، واستخدم خزائن القصر في حفظ « العريضة » حتى لا يصادرها بوليس حكومة الوفد وحتى تمكن مكرم عبيد من تقديمها إلى الملك فاروق وتوزيعها في صورة « الكتاب الأسود » .

وقد ظل الهلالي طوال الفترة منذ أن انضم إلى الوفد حتى إقالة الوزارة الوفدية في ٨ أكتوبر ١٩٤٤ يظهر من المواقف التى جعلت منه وفديا ملتزما .

إلا أن الوضع لم يسر هكذا . ففي عام ١٩٤٤ كان محاميا الخصم أحمد عبود باشا في وقت كان فيه عبود باشا صديقا للوفد . وقد تعرض أحد كبار الوفديين (أحمد الوكيل) لمشكلة قضائية ويرفض الهلالي الدفاع في تلك القضية ، ويتقدم فؤاد سراج الدين المحامى للدفاع وتقضى المحكمة بالبراءة مما كان له وقع طيب في الدوائر الوفدية ، ولدى رئيس الوفد مصطفى النحاس . ويتعرض النحاس باشا لقضية أخرى ويحجم الهلالي عن الدفاع في تلك القضية ، ويتقدم إبراهيم فرج المحامى للدفاع عن زعيم الوفد وتقضى المحكمة بسلامة موقف النحاس باشا وتحكم له بكل طلباته . وعلى الرغم من هذا كله ظل « الرجل طيب القلب » مصطفى النحاس يقرب منه أحمد نجيب الهلالي ويجعل منه موضع مشورته ، وهكذا أعضاء الوفد كافة . وجاء في شهادته أمام « محكمة الثورة » قال : « عقب وفاة صبرى أبو علم كنا في سرادق العزاء يوم الوفاة ، وإحنا منصرفين الرئيس السابق مصطفى النحاس أخذنى أنا وعبد الفتاح الطويل على جنب « يانجب إحنا عاوزين نعين سكرتير الوفد » وفي الشهادة ذاتها قال الهلالي : « لما خرج مكرم عبيد جاني صبرى أبو علم وقال لى لازم تبقى سكرتير الوفد قلت له ما انفعلش » . وفي موضع آخر من شهادته يقول : « وسنة ١٩٤٨ كنت أنا في الإسكندرية وذات مساء كلمنى النحاس بالتليفون « يانجب . عبد السلام مريض وطالع له دمامل في جسمه ومش حايقدر يلبس البدلة لبضعة شهور وعازين بكره اجتماع في الوفد » ، قلت له ما أقدرش ومع ذلك المسألة دايره بين فؤاد وعبد السلام ، وعبد السلام مادام عيان ادوها لفؤاد » .

وعلى الرغم من أن الهلالى فى تلك الفترة كان يتخذ من المواقف مايبعده عن الوفد ، فإن ما جاء بشهادته يعنى أن رئيس الوفد وأعضاء الوفد كانوا يدعونه للاجتماعات ويشاورونه فى الأمر : فمحمد صبرى أبو علم ، عقب خروج مكرم عبيد ، كان يؤثر الهلالى على نفسه ورشحه لمنصب سكرتير عام الوفد ، وعقب وفاة صبرى أبو علم بادر مصطفى النحاس بدعوته للاجتماع . ويمناسبة مرض عبد السلام جمعه اتصل النحاس باشا بالهلالى باشا يدعوه للاجتماع واعتذر هو عن عدم الحضور ورشح فؤاد سراج الدين .

الوزارة السابعة

وفى مباحثات تشكيل وزارة مصطفى النحاس السابعة (١٢ يناير ١٩٥٠) عرض مصطفى النحاس على أحمد نجيب الهلالى وزارة المعارف العمومية ، واعتذر الهلالى عن عدم الاشتراك فى الوزارة لأنه أقسم ألا يدخل قصر عابدين بسبب خطاب الملك بإقالة حكومة النحاس باشا فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ورشح الدكتور طه حسين . وأصر النحاس باشا على التمسك بالدكتور طه رغم معارضة الملك فاروق ، كما أن الوفد أشرك فى وزارته الدكتور حامد زكى الذى رشحه الهلالى باشا ، وأشرك الدكتور زكى عبد المتعال تلميذ الهلالى وزيرا للمالية على اعتبار أن إشراكه يرضى الهلالى باشا . ولكن زكى عبد المتعال سرعان ما قام بدور تخريبى داخل الوفد ، فأخرجته الوفدة من وزارته فى نوفمبر ١٩٥٠ . وتأكد أن الهلالى أستاذ الدكتور حامد زكى ، وزكى عبد المتعال ، وأن الأخير هو رجل القصر داخل وزارة الوفد الأخيرة . والذى يطالع شهادة محمد زكى عبد المتعال أمام «محكمة الثورة» أثناء محاكمة فؤاد سراج الدين يقف على مدى الكراهية الدفينة لدى الدكتور عبد المتعال ضد الوفد والنحاس باشا وفؤاد سراج الدين .

وفى وزارته الأولى (من أول مارس ١٩٥٢ - ٢ يوليو ١٩٥٢) أشرك الهلالى باشا معه فى الوزارة الدكتور محمد زكى عبد المتعال وأشركه معه أيضا فى وزارته الثانية (٢٢ - ٢٤ يوليو ١٩٥٢) .

لم يكن الوفد ولا رئيسه مصطفى النحاس ولا سكرتيه العام فؤاد سراج الدين ، ولا أعضاء الوفد يضمرون العداء لنجيب الهلالى ، بل إن اللجنة التى شكلت لإعداد خطاب العرش فى وزارة الوفد الأخيرة (١٢ يناير ١٩٥٠) كانت من أحمد نجيب الهلالى رغم عدم اشتراكه فى الوزارة ، ومن إبراهيم فرج ، والدكتور محمد صلاح الدين ، والدكتور طه حسين ، وعبد الفتاح الطويل . وعقدت اللجنة اجتماعاتها بمنزل الهلالى وبمشاركته وذلك تنفيذًا لتعليمات مصطفى النحاس .

كان الوفد وقياداته مبقيين إذن على أحمد نجيب الهلالى . واستنادا إلى كتاب « فاروق ملكا » لأحمد بهاء الدين فإن الهلالى عام ١٩٥١ قام باتصالات مع رجال القصر ، ومع بعض العناصر

المستولة الإنجليزية والأمريكية . وفى أواخر عام ١٩٥١ ركز هجومه على حكومة الوفد ، وعلى السكرتير العام للوفد فقرر فصله من عضوية الوفد فى ٧ نوفمبر ١٩٥١ .

الطريق إلى السلطة

كشف أحمد نجيب الهلالي فى أواخر ديسمبر ١٩٥١ عدائه لحكومة الوفد ، وأصبح القصر والإنجليز والأمريكان يرتبون أوراقهم تمهيدا لضرب الحركة الوطنية الشعبية المتصاعدة ضد الملك وضد الاحتلال الإنجليزي وضد السيطرة الأمريكية الزاحفة . وأصبح أمام هذه الجهات مجتمعة عناصر بذاتها يحصرها المراقبون فى على ماهر وحافظ عفيفى وأحمد نجيب الهلالي .

وأحمد نجيب الهلالي ينتمى إلى أسرة عريقة بمدينة أسيوط التى ولد بها فى أكتوبر ١٨٩١ . وحصل على شهادة التعليم الثانوى من المدرسة التوفيقية بالقاهرة ١٩٠٨ وتخرج فى الحقوق ١٩١٢ . وبدأ حياته محاميا ثم وكيلا للنائب العام ، وانتقل من النيابة إلى قسم القضايا بالخاصة الملكية وعين للتدريس فى كلية الحقوق عام ١٩٢٣ . وبعد أن عمل مستشارا اختير سكرتيرا عاما لوزارة المعارف العمومية حتى اختاره توفيق نسيم وزيرا للمعارف العمومية (١٤ نوفمبر ١٩٣٥) وهى الوزارة التى شغلها وأجاد العمل بها مرات ثلاث فى حكومات الوفد بعد ذلك .

وانتهت إليه الأنظار عقب حريق القاهرة ليتولى رئاسة الوزارة ، ولكنه ترك الفرصة لعل ماهر الذى تولاها فى ٢٧ يناير ١٩٥٢ واستقال أول مارس ١٩٥٢ . وتولى أحمد نجيب الهلالي رئاسة الوزارة ، وحدد إقامة فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن فى ١٨ مارس ١٩٥٢ ، واعتقل عددا من شباب الوفد والشباب الوطنى وشكل لجانا للتطهير ، ورفع شعار محاربة الفساد ، ووجهت الحكومة رأس الرمح ضد الوفد وخضعت لإرادة الملك ، وهادنت الأحزاب الموالية للقصر ، ودفعت بالقضية الوطنية إلى الخلف ونشط الهلالي لتكوين حزب جديد من العناصر الوفدية التى لها ملاحظات على حكومة الوفد الأخيرة ، ومن جمعية الفلاح المعروفة بارتباطاتها الأمريكية ، ومن العناصر المستقلة المقبولة من الجماهير . وفى سبيل ذلك أقام الهلالي علاقات طيبة مع جماعة الإخوان المسلمين . وتصدى « الوفد » للهلالي الذى استصدر من الملك مرسوما بحل مجلس النواب فى ٢٤ مارس ١٩٥٢ والدعوة لانتخابات جديدة فى ١٨ مايو . وتحدى « الوفد » هذا الإجراء بإعلان قوائم مرشحيه فى كل الدوائر . وارتبكت خطى الهلالي وقدم استقالته فى ٢ يوليو ، وعاد إلى رئاسة الوزارة مرة أخرى ليوم أو بعض يوم فى ٢٢ يوليو ١٩٥٢ .

وفى ٢٤ يوليو تبدد حلم رئاسة الوزارة على يدى الطالب الطويل النحيل الأسمر بلدياته من

« بنى مر » وكان قد تبدد من قبل حلم الحزب الجديد . وفى ١٣ ديسمبر ١٩٥٣ كان حاجب محكمة « الثورة » يصيح عند دخول قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى « محكمة ! » ، ويدخل أحمد نجيب الهلالى شاهدا أمام تلك المحكمة ليتفنى عن نفسه الاتهام بأنه اعتقل فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن تنفيذا لتعليمات السفارة البريطانية للخارجية المصرية ، فيواجهه عبد الفتاح حسن بصورة خطاب ويوضح أن على ماهر لم ينفذ تلك التعليمات وتم التنفيذ فى عهد الهلالى .

استمرت محاكمة « الوفد » فى شخص سكرتيه العام محمد فؤاد سراج الدين من ٩ ديسمبر ١٩٥٣ - مارس ١٩٥٤ . واستمعت المحكمة لشهادة زكى عبد المتعال ، وأحمد كامل ، وعلى علوبة ، ومكرم عبيد ، وعبد السلام الشاذلى ، ورشدى نعمان وعلى ماهر ، وعبد الفتاح الطويل ، ومحمد على رشدى ، وأحمد نجيب الهلالى الذى توفى فى ديسمبر ١٩٥٨ ، بعد رجيل السيدة زوجته بأسبوعين . وأمام المحكمة والشهود محمد فؤاد سراج الدين بذاكرة قوية تكشف مثالب الشهود ، وإلى جواره عبد الفتاح حسن يرد الاعتداءات بوثيقة تلو الوثيقة . وهذا تاريخ لاحيلة لأحد فيه .

الأسانيد :

- ١ - إبراهيم فوج . . حديث شخصى ١٥ / ١٠ / ١٩٨٨ .
- ٢ - أحمد بهاء الدين . . فاروق ملكا .
- ٣ - صلاح عيسى . . محاكمة فؤاد سراج الدين .
- ٤ - طارق البشرى . . الحركة السياسية فى مصر .
- ٥ - فؤاد أكرم . . النظارات والوزارات .
- ٦ - د . يونان لبيب رزق . . الوفد والكتاب الأسود .



إسماعيل صدقي

تاريخ الرجل يشدني فهو ملء ومتعرج ، أدكى سياسى عرفته مصر فى النصف الأول من القرن العشرين . . ليته انحاز إلى الشعب ، لكان أعظم الساسة الذين عرفتهم مصر ، لكن أحداث التاريخ لاتقع بالتمنى ولا بالمصادفة . ومن يصدق أن الرجل الذى كتب أول مذكرة باللغة الفرنسية عن مطالب مصر بعد الحرب العالمية الأولى ويقدمها إلى الوفد المصرى هو أول من يخرج على هذا الوفد ، أو أول من يخرج الوفد . من يصدق أن الرجل الذى أشار إلى أهمية الصناعة إلى جانب الزراعة يقع فى خصومة دامية مع العمال والفلاحين . ويتهمه هؤلاء بأنه انحاز إلى كبار رجال المال وكبار الاقطاعيين . من يصدق أن الذى انحاز إلى كبار رجال المال وإلى كبار الإقطاعيين يقف سنة ١٩٤٨ فى خندق واحد مع الشيوعيين العرب ضد دخول الجيوش العربية فى حرب فلسطين . . من يصدق! ولكن قبل أن يصدق القارئ أو يكذب أحذره من نفسه ومن قلمى . . فأنا واحد من جيل نشأ فكريا وعاطفيا على محاربة الرجل والتشكيك فى كل ما فعل . . فلينظر القارئ إلى ما كتبت نظرة متأنية ، وعلى أية حال سوف أعطى الرجل الفرصة ليقدم لنا نفسه .

«ولدت فى ١٥ يونيو سنة ١٨٧٥ بالإسكندرية فى عهد الخديو إسماعيل ، وكان إسماعيل صديق باشا المفتش وزير الخديو إسماعيل وقت ولادتي فى أوج مجده وسلطانه ، فسمانى والدى باسمه كما هى عادة الناس حين يسمون أبناءهم بأسماء العظماء والوزراء المشهورين ، وهو اسم يجمع بين اسمى الخديو ، ووزيره المعروف .

وحدث بعد ذلك بقليل أن غضب الخديوى على وزيره فخشى والدى أن يكون فى اسمى وقتئذ ما يشعر بولائه للوزير المنكوب فأسرع بتحويله من إسماعيل صديق إلى إسماعيل صدقي .

كان والدى أحمد شكرى باشا من كبار رجال الحكومة فى عهد الخديو إسماعيل ، والخديو توفيق . وكانت والدتى فاطمة هانم كريمة محمد سيد أحمد باشا رئيس ديوان الأمير محمد سعيد باشا بن الأمير محمد على باشا الكبير . والدى من بلدة « الغرب » ، التابعة لمركز زفتى ، وقد تقلد منصب مدير أسبوط ، وأحيل إلى المعاش وهو وكيل للداخلية . وأدركته الوفاة سنة ١٨٩٥ » .

نقل القوس على هذا الجزء من مذكرات إسماعيل صدقى لتأمل فيما ورد فيه . . فذكاء أحمد باشا شكرى والد إسماعيل صدقى من النوع البسيط والسريع ، فعندما أراد أن يغير اسم ابنه غير حرفا واحدا أو حرفين : « صديق » تحولت إلى « صدقى » . وهذا يذكرنى بما رواه الأستاذ العقاد عن ذكاء إسماعيل صدقى باشا عندما كان وزيرا للداخلية فى الثلاثينات واصطدم البوليس بالمتظاهرين مستخدما خراطيم المياه . . حدث أن أستولى المتظاهرون على خراطيم المياه وسلطوها ضد البوليس ، وفكر رئيس البوليس أن يطلق الرصاص ضد المتظاهرين ليسترد خراطيم المياه . . وكان من الضرورى أن يستأذن وزير الداخلية الذى كان هو صدقى باشا نفسه ، وسأل صدقى باشا قائد البوليس لماذا يريد أن يطلق الرصاص ، فقال له كى يسترد البوليس خراطيم المياه يروى الأستاذ العقاد أن إسماعيل صدقى باشا قال لقائد البوليس بهدوء : أقفل المحبس . وقفل هو التليفون .

ووالد فاطمة هانم والددة صدقى باشا وهو محمد سيد أحمد باشا يوحى اسمه بدرجة من القربة للكاتب محمد سيد أحمد المحرر بجريدة الأهرام ، ومدير تحرير جريدة « الأهالى » ، وقد أكد لى الزميل الكاتب الكبير كامل زهيرى صلة القربة هذه . ومن الطريف أن إسماعيل صدقى الذى اشتهر بالمفتش وتسمى صدقى باشا باسمه قبل أن تحذف « الياء » من « صديق » وتضاف آخر الكلمة ، من الطريف أنه كان وزيرا لمالية الخديو إسماعيل . . وقد روى مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « عصر إسماعيل - الجزء الثانى » مأساة إسماعيل صدقى الذى أمر الخديو إسماعيل بقتله حتى لا يكشف أسرار العجز فى الميزانية من جراء تصرفات الخديو ، وقيل إنه اغتيل بطريقة معينة فى إحدى السفن التى أبحرت جنوبا إلى السودان فى نوفمبر ١٨٧٦ ، ولا ندرى أيضا أثر نهاية إسماعيل صدقى على تفكير إسماعيل صدقى سميته والذى وقف على قصته بالتأكيد من أسرته .

الوزارة لأول مرة

. ونمضى مع إسماعيل صدقى فى مذكراته . . « دخلت مدرسة الحقوق ، وكان من زملاي محمد توفيق نسيم و أحمد لطفى السيد وكنت وتوفيق نسيم تتبادل الأولية فى الامتحانات ، وتخرجت من مدرسة الحقوق سنة ١٨٩٤ وعينت فى وظيفة كاتب نيابة بمرتب خمسة جنيها ، وكان صديقى وزميلي عبد الخالق ثروت قد عين سكرتيراً للمستشار القضائى بمرتب خمسة عشر جنيها .

وفى ليلة وفاة رئيس النظار - يقصد بطرس باشا غالى الذى اغتيل فى ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ - كنت مع محمد سعيد باشا فى منزله فقال لى . . والله طارت الوزارة يا إسماعيل ، فقلت له . . بالعكس فإننى أتنبأ بأنك رئيس النظار المقبل ، وقد حدث فى اليوم التالى ما تنبأت به فعهد إليه الخديو عباس بتأليف الوزارة الجديدة ، وعينت أنا - الحديث لإسماعيل صدقى - وكيلا للدخالية وأنعم على بالباشوية . وفى ٥ فبراير سنة ١٩١٤ سقطت وزارة محمد سعيد باشا وتولى النظارة بعده حسين رشدى باشا فاختارنى ناظرا للزراعة « قفلنا القوس لنقول إن هذه الوزارة كانت من ٥ إبريل سنة ١٩١٤ إلى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ ، وكان فيها إسماعيل صدقى وزيرا للزراعة فى وزارة حسين رشدى باشا الذى رأس الوزارة مرة أخرى من ١٩ ديسمبر ١٩١٤ إلى ٢٠ مايو ١٩١٥ واختار إسماعيل صدقى هذه المرة وزيرا للأوقاف . ونصل إلى الجانب الاقتصادى عند إسماعيل صدقى ونركز فيه على دوره كوزير للمالية .

« وزيرا » للمالية

نبدأ بالبيانات التاريخية ، وبعدها نتعرض لدور الرجل داخل تحليل للوضع الاقتصادية . تولى إسماعيل صدقى وزارة المالية للمرة الأولى فى وزارة عدلى يكن من ١٧ مارس ١٩٢١ إلى ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ ، والمرة الثانية فى وزارة عبد الخالق ثروت باشا من أول مارس ١٩٢٢ إلى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ . ونلاحظ ان عدلى يكن كان المنافس فى تلك الفترة لسعد زغلول زعيم الوفد . . وقد شكل عدلى هذه الوزارة بعد الانقسام الواضح الذى حدث فى « الوفد » فى أوروبا ، ولعل اختيار عدلى لإسماعيل صدقى وزيرا فى وزارته له دلالة إذ إنه أول من خرج أو أخرج من الوفد . ولهذا قصة سوف نأتى إليها فى حينها . وأما عبد الخالق ثروت فقد كان صديقا وزميلا له . وأما المرة الثالثة فقد كانت من ١٩ يونيو ١٩٣٠ إلى ٤ يناير ١٩٣٣ حين جمع إسماعيل صدقى بين رئاسة الوزارة ووزارة المالية ، والمرة الرابعة فى عهد رياسته الثانية للوزارة من ٤ يناير ١٩٣٣ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ والتى استمر فيها صدقى رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية . والمرة الخامسة وزيرا للمالية

فى عهد وزارة محمد محمود باشا من ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ إلى ٢٧ أبريل ١٩٣٨ ، والمرة السادسة وزيرا للمالية فى عهد وزارة محمد محمود باشا أيضا من ٢٧ أبريل ١٩٣٨ إلى ١٨ مايو ١٩٣٨ . وفى عهد رئاسة صدقى باشا للوزارة للمرة الثالثة فى ١٦ فبراير ١٩٤٦ ظل وزيرا للمالية للمرة السابعة . ولهذا الوزارة حديث وحديث طويل عن صدقى باشا رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية ووزيرا للداخلية .

هذه هى البيانات لمن تهمه البيانات ، أى أن الرجل كان له دور فى اقتصاد مصر .

الوجه الاقتصادى

قال عنه اللورد كيلرن السفير البريطانى « إنه السياسى المصرى الوحيد الذى إذا ترك العمل السياسى عاد للعمل فى المجال الاقتصادى » ، وهذه حقيقة إذ إنه اشترك فى عضوية الشركات التالية : الشركة الإنجليزية البلجيكية - شركة الغزل الأهلية - شركة الملح والصودا - الشركة العقارية المصرية - شركة قناة السويس - شركة وادى كوم أمبو - شركة الأشغال والمبانى - شركة سكة حديد الفيوم . . وهذه الشركات كلها كانت تشترك فيها رؤوس أموال أجنبية . ويلاحظ أن رؤوس الأموال الأجنبية لم توجه إلى الصناعة بصفة أساسية ، وإنما اتجهت فى الغالب إلى المشروعات ذات المنفعة العامة كالنور والمياه والترم والسكك الحديدية .

وعلى الرغم من أن الاحتلال لم يسبب أضرارا لكبار ملاك الأراضى ، فإن مشروعات الاحتلال التى كانت تهدف إلى جعل مصر بلدا زراعيا فقط قد عادت بالشراء على كبار ملاك الأرض . . إلا أن الحرب العالمية الثانية ألقت بأفكار جديدة حول أهمية الصناعة والتجارة إلى جانب الزراعة . وتألفت فى أثناء الحرب « لجنة التجارة والصناعة » كان من أعضائها إسماعيل صدقى وطلعت حرب بالإضافة إلى عدد من المصريين والأجانب ، ووضعت هذه اللجنة تقريرا جاء فيه . . « إن مصر فى حاجة إلى قيام الصناعة إلى جانب الزراعة » ، ثم أصبح إسماعيل صدقى رئيسا لهذه اللجنة وقد اختاره لها حسين رشدى باشا ، ثم أصبح بعد ذلك رئيسا للمجلس الاقتصادى وجمعية الصناعات بالقطر المصرى . وهذه الأشكال هى التى تطورت فيما بعد إلى « اتحاد الصناعات المصرية » الذى تولى صدقى باشا رئاسته ، وبعد فترة تخطى عن الرئاسة الفعلية وجاء حافظ عفيفى رئيسا واكتفى صدقى بأن يكون رئيسا فخريا .

ماذا يعنى الاستقلال ؟

وإذا عدنا إلى ثورة مصر القومية بقيادة الوفد ، عرفنا أن إسماعيل صدقى أول من خرج ، وبعده حدث الانقسام الكبير الذى وقف خلفه عدلى يكن ، وكان رجاله هم عبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد ومحمد محمود ومحمد على علوبة . . إلى آخر هذه القائمة ، وبقي سعد زغلول على رأس أقلية من الوفد . وفيما يتعلق بخروج إسماعيل صدقى . . هل خرج ؟ أم فصل ؟ هناك روايتان : الأولى تقول إن « الوفد » عندما كان فى أوروبا قدم أحمد لطفى السيد تقريراً إلى الوفد يقول فيه إن إسماعيل صدقى يعارض اتجاه الوفد فى المفاوضات ، وأنه يتصل بالانجليز للحصول على مطالب أقل مما يرى الوفد . وعلى هذا فصل إسماعيل صدقى من الوفد فى يوليو ١٩١٩ وعاد إلى مصر .

والرواية الثانية هى لإسماعيل صدقى نفسه يقول : « مكثت فى باريس أعمل فى الوفد المصرى برياسة سعد باشا ، إلى أن وجدت آرائى فى تصريح الأمور تخالف آراء بعض أعضائه ، لأننى كنت ومازلت لا أميل إلى تحكيم العواطف بل إن خطتى على الدوام تتجه نحو الواقع المفيد وترمى إلى الوصول إلى النتائج ، فانفصلت عن الوفد ، وعدت إلى مصر وبقي بعض أعضائه وقيل إننى فصلت من الوفد ولم استقل ، ونسبوا لى أننى ذهبت إلى لندن واتفقت مع بعض الساسة الانجليز ، والواقع أن ذلك لم يحصل » . المهم أنه أول من ترك الوفد وبعده تركته مجموعة أخرى هى التى شكلت حزب الأحرار الدستوريين ، وبقي الوفد بقيادة سعد .

والآن ماذا يعنى الاستقلال بالنسبة للفرقاء الثلاثة ؟ بالنسبة إلى الشعب وفيه الفقراء ومن أسموهم « الرعاى » كان الاستقلال يعنى الدستور والحريات ووضع اجتماعياً أفضل . وهؤلاء دون تردد اختاروا سعد زغلول قائداً لهم . وبالنسبة لكبار ملاك الأرض كان الاستقلال يعنى قدراً من الحكم الذاتى ، وكان يمثل هذا الفريق « حزب الأحرار الدستوريين » . وأما الجناح الرأسمالى بأقسامه المختلفة فكان يرى فى هذا القدر من الاستقلال أو الحكم الذاتى فرصة لإنشاء صناعات بسيطة وفقاً للتراكيم المالى الذى كان موجوداً لديهم . وليس معنى هذا التقسيم أنه جامع مانع . . كلا ليست هناك فواصل قاطعة بين هذه الطبقات والفئات . . هناك قدر من التداخل بينها ولكننا نتحدث عن الاتجاه الغالب لهذه الأقسام . فالجناح الرأسمالى عبر عنه إسماعيل صدقى وفى تطور الموقف أصبح الجناح الرأسمالى الوطنى يميل أكثر إلى الوفد ، وبقي رأس المال الاحتكارى المرتبط برأس المال الأجنبى يعبر عنه إسماعيل صدقى .

التوجهات الاقتصادية

ونحن لانفرك بالطبع بين المواقف السياسية والمواقف الاقتصادية ، والتلاحم بينهما واضح جدا عند اسماعيل صدقي ، ولكن مقتضيات البحث تجعلنا نفرّد لكل جانب حيزا . وسوف نتناول هنا عهدين لاسماعيل صدقي باشا كان فيهما رئيسا للوزراء .

* العهد الأول الذى اشتمل على وزارتين الأولى من (١٩ يونيو ١٩٣٠ - إلى ٤ يناير ١٩٣٣) والثانية من (٤ يناير ١٩٣٣ - ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣) . وفى بداية هذا العهد بلغت الأزمة الاقتصادية ذروتها وهبطت أسعار القطن وحدث خراب شامل لصغار المزارعين ومتوسطى المزارعين ، وكان الوفد فى وزارته التى أقيلت قد أعد مشروعا لإنشاء بنك التسليف الزراعى لحماية صغار المزارعين من أخطار الأزمة ، ولكن صدقي جعل رأسماله نصف مليون جنيه بدلا من ٢ مليون جنيه كانت قد رصدتها حكومة الوفد المقالة . وحول صدقي البنك لخدمة بنوك الرهن العقارى ، وتسهيلا لعمل البنوك أصدر قانونا تدفع الخزانة بموجبه المبالغ التى للبنوك فى ذمة الفلاحين ، ثم أصدر أوامره إلى الموظفين بتحصيل الضرائب والديون من الفلاحين بمتهمى القسوة ، وأجبر الفلاحين على بيع المواشى والمحاصيل بأبخس الأثمان حتى يسددوا ما عليهم من ضرائب وديون . وهنا تظهر « السلطة » فى عهد صدقي لخدمة مواقفه الاقتصادية ، وحطم عمال العنابر صناديق الانتخابات الزائفة واصطدمت فى عراك دام ثلاثة أيام ، وأغلق صدقي العنابر ثلاثة أشهر وفصل المئات من العمال ثم نقل العنابر إلى صحراء أبى زعبل .

* العهد الثانى وزارة إسماعيل صدقي من (١٦ فبراير ١٩٤٦ - ٢٨ سبتمبر ثم استمرارها حتى ٩ ديسمبر ١٩٤٦) وكانت الصناعة المصرية تتعرض لأزمة ، وصاحب أزمة الرأسالية المصرية تصاعد الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية ، وطرحت مشكلة الأرصدة الاسترلينية واقترحت بريطانيا تسديدها فى شكل سلع ، وكان هذا الحل يهدد الصناعة المصرية التى هى فى حاجة إلى أرصدة لتجديد الآلات بعد الحرب . ونجح صدقي فى أن تفرج بريطانيا عن جزء من الأرصدة الاسترلينية فى شكل نقود وليس فى شكل سلع . ودخل صدقي فى دوامة مواجهة الحركة الوطنية فى تلك الفترة . . وهذه قصة أخرى .

« وزيراً » للداخلية

تولى إسماعيل صدقي باشا وزارة الداخلية ٥ مرات . . الأولى فى وزارة أحمد زيور باشا من (٩ ديسمبر ١٩٢٤ - إلى ١٣ مارس ١٩٢٥) . دخل صدقي باشا الوزارة فى ٩ ديسمبر وكان زيور باشا قد شكل الوزارة فى ٢٤ نوفمبر عقب استقالة وزارة سعد باشا . والمرة الثانية فى وزارة زيور باشا

أيضا (من ١٣ مارس ١٩٢٥ إلى ١٢ سبتمبر ١٩٢٥) . أما المرة الثالثة فقد كانت في عهد وزارة صدقي باشا نفسه من (١٩ يونيو ١٩٣٠ - إلى ٤ يناير ١٩٣٣) ، والرابعة في عهد رئاسته للوزارة أيضا من (٢٤ يناير ١٩٣٣ - إلى ١٣ مارس ١٩٣٣) وإن كانت الوزارة قد استمرت إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ ، والمرة الخامسة عندما جمع صدقي باشا في يديه أيضا رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية ووزارة المالية واستمرت هذه الفترة من (١٦ فبراير ١٩٤٦ - ٩ ديسمبر ١٩٤٦) . . وللتاريخ ملاحظات :
* وزارتا زيور الأولى والثانية جاءتا في أعقاب مقتل « السير لي ستاك » والإنذار البريطاني لسعد زغلول الذي رفض غالبية عناصره وجاء زيور وأعطى الانجليز « الجمل بما حل » .

* وزارة إسماعيل صدقي في النصف الأول من الثلاثينات شهدت تزويرا فاضحا للانتخابات وصدامات دموية مع عمال العنابر وضحايا في الأرياف ، وأحداث البدارى والحصانية ، وتأجيل اجتماعات مجلس النواب ومحاوله اغتيال مصطفى النحاس باشا وصدور مرسوم ملكي بإلغاء دستور ١٩٢٣ ، ودستور جديد عرف « بدستور صدقي » وانتشار البطالة حتى بين الصحفيين بعد أن ألغى تراخيص صحف كثيرة بجرة قلم .

* وزارة إسماعيل صدقي عام ١٩٤٦ حاول فيها صدقي باشا أن يطبق مبدأ « بسمارك » إزاء المعارضة ، وهو أن يغيرها بالتدريج في تصرفاتها ثم يضر بها . تحالف مع الأحرار الدستوريين وهادان السعديين ، واتفق إلى حين مع الإخوان المسلمين . . وهؤلاء جميعا تصدوا للوفديين والشيوعيين والوطنيين الآخرين . وكان قادة الطلاب من الإخوان يواجهون تظاهرات الطلبة ضد مشروع «معاهدة صدقي بيغن» بترديد الآية القرآنية « وأذكر في الكتاب إسماعيل أنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » وذلك في مجال الدفاع عنه . وكانت قد تكونت جبهة تحت اسم « اللجنة الوطنية للطلبة والعمال » قادت إضرابات ٢١ فبراير و٤ مارس ، وخرج جنود الاحتلال من ثكنات قصر النيل (مكان النيل هيلتون ومبنى الجامعة العربية بميدان التحرير حاليا) يطلقون الرصاص على الطلبة والعمال . . وقد قررت اللجنة أن يكون يوم ١١ يوليو (ذكرى ضرب الإنجليز للإسكندرية سنة ١٨٨٢) يوما للحداد العام . وفي اليوم السابق عليه يوم ١٠ يوليو وجه صدقي ضربه الشهيرة للوطنيين والشيوعيين وقادة العمال والكتاب والمثقفين واعتقل أكثر من ٢٠٠ كان من بينهم محمد زكي عبد القادر ومحمد مندور وسلامة موسى ، وأغلق عددا من الصحف ودور النشر من بينها « جريدة الوفد المصري » وقدم استقالته في ٩ ديسمبر ١٩٤٦ . . وفشلت مفاوضاته مع انجلترا وكان يحلم أن يختم حياته باتفاقية مع بريطانيا تحقق قدرا أكبر من استقلال مصر . .

المسيرة السياسية

البداية مثيرة . . « كان الوفد المصرى فى دور التأليف - يقصد سنة ١٩١٨ - واتصلت بدولة محمد سعيد باشا واجتمعنا بسعد زغلول وتم الاتفاق على أن نتعاون معا فى الوفد المصرى . وأصبحت منذ ذلك الحين عضوا فى « الوفد » . .

وفى يوم ٨ مارس ١٩١٩ - اليوم السابق على الثورة - كنت أجلس إلى مكتبى فى غرفة مجاورة لمكتب سعد زغلول بمنزله فجاءنى خادم الدار ينبئنى بحضور ضابط انجليزى ، وكان الضابط قد طلب من سعد باشا أن يركب عربة عسكرية ثم دعانى إلى ركوب عربة أخرى وذهب بنا إلى ثكنة قصر النيل . . ثم سارت بنا الباخرة ووصلنا إلى مالطة فنقلنا إلى حصن عسكرى ، وتم الإفراج عنا فى ٧ إبريل سنة ١٩١٩ ثم سافرنا إلى باريس لعرض قضيتنا « . . بداية القضية المعروفة ، والسفر للاشتراك فى مؤتمر السلام ، ثم ما أشرنا إليه من فصل أو استقالة إسماعيل صدقى من « الوفد » .

كانت البداية مثيرة إذن ، استمرت حوالى سبعة أشهر . . وكان من الطبيعى له أن يشترك فى وزارة عدلى يكن بعد أزمة « الوفد » . . وأن يشترك فى وزارة عبد الحالى ثروت باشا التى أعلنت الاستقلال حسب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ والذى شارك صدقى باشا فى وضعه . وشارك فى « دعوة ذوى الكفايات من جميع الهيئات للاشتراك فى وضع الدستور فأبى فريق من المعارضة تلبية الدعوة . وعلى الرغم من مكانة أعضاء هذه اللجنة . فقد أسمتها المعارضة لجنة الأشقياء . وكانوا يرون أن يتولى وضع الدستور جمعية وطنية تنتخب لهذا الغرض . ونجحت مساعينا فى الوصول إلى إصدار الدستور سنة ١٩٢٣ . وفى انتخابات ١٩٢٤ رشحت نفسى لمجلس النواب . . « هكذا قال فى مذكراته ويقصد بالمعارضة « الوفد » . .

محاولة للتفسير

ندرك تماما أن الوضع الطبقي لإسماعيل صدقى هو الذى وضعه مبكرا خارج « الوفد » ، ولكن هذا الإمعان فى معاداة « الوفد طوال حياته وبإصرار شديد هل يمكن أن يكون باعثه الأسلوب الذى اتخذته معه « الوفد » فى فصله أو إبعاده ؟ مجرد محاولة للتفسير . . ونحن ندرك تماما أن ارتباطاته الاقتصادية وتوجهاته الفكرية هى التى أبعدته عن معسكر الشعب وأبعدت معسكر الشعب عنه ، ولكن هذا الفشل الذريع فى انتخابات دائرته أمام مواطن من غير دائرته هو باعثه للإمعان فى تغيير نتائج الانتخابات ، وفى اصطناع حزب يتسمى باسم « الشعب » ويفوز قسرا بأعلى نسبة من الأصوات ؟ مجرد محاولة للتفسير وليست كل عناصر التفسير . . ونسير مع الأحداث . .

* يقول هو . . « في انتخابات ١٩٢٤ رشحت نفسى لمجلس النواب في دائرة سترابط ، ورشح « الوفد » أمامى الأستاذ نجيب الغرابيل وعلى الرغم من كونه رجلا فاضلا إلا أنه لم يكن ابن الدائرة ، ولم يكن معروفا بها . ولكن شخصية سعد زغلول في ذلك الحين كانت شخصية جبارة ، وفي الوقت نفسه جذابة غمرت البلاد بقوتها وشدة تأثيرها واجتاحت أمامها كل شىء ، وأصبح الاعتقاد فيها يشبه الاعتقاد بالأنبياء فلم أفر في الانتخابات إلا بأقل من ثلث الأصوات وسقطت أمام منافسى . . » .

في ١٧ نوفمبر ١٩٣٠ . . وكان إسماعيل صدقى رئيسا للوزارة منذ ١٩ يونيو ١٩٣٠ أعلن قيام حزب الشعب وأصدر له جريدة باسم « الشعب » ، وأجرى انتخابات فاز فيها الحزب بالأغلبية الكبيرة وألغى دستور ١٩٢٣ وأعلن « دستور صدقى » . وبعد أن استقال صدقى من الوزارة استقال أيضا من رئاسة الحزب ومن عضويته ، وعاد إلى رئاسة الحزب مرة أخرى سنة ١٩٣٦ . . وضع مقلوب . . سياسى رئيس للحكومة ، يضرب حريات الشعب في ظل أزمة اقتصادية ثم يلغى الدستور ويضع دستورا جديدا ، ويشكل حزبا يستقيل منه بعد أن يستقيل من الحكومة . . والوضع الطبيعى هو الحزب ثم الدستور ثم الحكومة ، ولكنها مصر وهذا الرجل من مصر .

رأيه فى سعد

يقول إسماعيل صدقى فى مذكراته عن سعد زغلول باشا « كان سعد زعيمًا وطنيا بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معان ، ولو أن كلمة زعيم لا تمنع أنه كان سياسيا قديرا وقائدا ماهرا فى أوقات الشدائد ، وربانا بارعا صارخ الأنواء والأمواج وواجه الأخطار فلم تؤثر فى عزيمته ولم تززع من جبروت نفسه وإرادته ، وكان يخرج بسفيته قويا منتصرا جبارا .

وكانت شجاعته وبلاغته وسعة اطلاعه وكثرة تجاربه مما هيا له التأثير بين الجماهير فاشتد حبه له وإعجابها به ، وإنيادها لكل ما يديه من رأى وإصغاؤها لكل ما يهتف به من قول ، فامتلك الأئدة والنفوس ، وبقي طوال حياته الزعيم الأكبر » .

صدق يا « أبا السباع » ونسجل لك أنت أيضا الجهر بالرأى حتى ولو كان مخالفا لجمهور المواطنين . . ومن هذا رأيك فى حرب فلسطين . .

* سنة ١٩٤٧ كان مد الجماهير العربية فى اتجاه فلسطين العربية ووقف قيام دولة إسرائيل ، وتنادى القوم للحفاظ على عروبة فلسطين بالسلاح جيوشا وتطوعا ، ووقف الشيوعيون العرب ضد الحرب لأن الاتحاد السوفيتى كان ضد الحرب وضد التقسيم ، ورأوا أن الصدام المسلح على أرض فلسطين فى ذلك الحين لصالح الرجعية العربية والاستعمار العالمى . . ولكن رجلا وصفوه بالرجعية والعمالة للاستعمار وقف معهم ضد الحرب وحذر من نتائجها . . هو إسماعيل صدقى

باشا ، متحديا رأى الجماهير كل الجماهير (تراجع الشيوعيون العرب عن معارضة قرار التقسيم الذى صدر فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ بعد أن وافق الاتحاد السوفيتى واعترف بإسرائيل) وبقي هو على رأيه لم يغيره حتى رحل فى ٩ يوليو ١٩٥٠ وكان « الوفد » فى الحكم بعد انتخابات حاز فيها على الأغلبية دون تدخل من الإدارة أو غير الإدارة . . (توفى فى باريس على أثر أزمة قلبية) وتقترب المساحة المتاحة من نهايتها ، ومن يرغب فى المزيد أرجو منه أن يعود إلى الأسانيد .

الأسانيد :

- ١ - إبراهيم عامر . . ثورة مصر القديمة .
- ٢ - اسماعيل صدقى . . مذكرات . . مجلة المصور .
- ٣ - طارق البشرى . . الحركة السياسية فى مصر (١٩٤٥ - ١٩٥٢)
- ٤ - فوزى جرجس . . دراسات فى تاريخ مصر السياسى .
- ٥ - د . محمود متولى . . مجلة الكاتب ١٩٧٣ .



الدسوقي أباطة

حضرات أعضاء الجمعية التشريعية ومجلس المديرية بالجيزة . .

أنا إبراهيم دسوقي رشوان عمدة العزيرية أتشرف بأن أرفع لحضراتكم مايتى :

سمعت طرقا شديدا على باب منزلى ليلة الثلاثاء ٢٥ مارس ١٩١٩ الساعة الرابعة بعد منتصف الليل استيقظت مذعورا ووجدت على سلم بيتى نحو عشرة جنود من الانجليز مسلحين يقودهم اثنان من ضباطهم يرافقهم مترجم .

فقال لى المترجم :

« يأمرك الضابط بأن تقدم سلاحك حالا ، ثم تجمع أسلحة البلد فى خمس عشرة دقيقة » .
واندفع الجند فدخلوا حجرة النوم وكانت بها زوجتى وبناتى الثلاث ، وانهاى الجند على الصندوق والدولاب فكسروهما وأخذوا ماكان بهما من حلى ، وأخذوا محفظتى وبها خمسون جنيهها وساعتى وسلسلتها ، وفتشوا زوجتى شر تفتيش ، ووصلوا إلى الشقة الأخرى من المنزل وكانت بها زوجتى الثانية وولداها وأدركها أحد العساكر بضربه القتها صريعة ! ثم صعدوا للطابق الأعلى وأخذوا تسعمائة وخمسين جنيهها وباقى مصوغات زوجتى الثانية .

ثم أمروا المترجم فصاح فى الناس بأن الانجليز سيجعلون البلدة كلها طعمة للنار ، وعلى كل شخص أن يغادر البلد سريعا ، فبادر السكان إلى تنفيذ ذلك وخرجوا رجالا ونساء وأطفالا وكان البلد محاطا بصنوف من العساكر المسلحة بالبنادق فانقضوا على الناس عند خروجهم وسلبوهم .
وكانوا يفتشون النساء ويرفعون عنهن ملابسهن ، أو يمزقونها عليهن عاريات لا يستر اجسامهن شىء ويضعون أيديهم حيث شاءوا بحجة التفتيش . !

وبعد أن استولى رجال الجيش الإنكليزي على ما يملكه أهل البلد أشعلوا النار في البيوت .
وكانوا يطلقون النار على كل من رأوه يطفئ النار .

ووصلنا نقطة الحوامدية ونحن في حالة يرثى لها قرب الظهر فوجدنا بها أيضا عمدة البدرشين
وأحد مشايخها فأخبرنا بأن بلدهما نالت قسطها من العذاب . وبقينا مدة طويلة في الشمس
والتراب تحت أفواه المدافع في الحوامدية .

وقال الضابط الأكبر : « جريمة العززية أن بعض أهلها ضربوا أحد الضباط البريطانيين في
الطريق المؤدى لأهرام سقارة وأن الأهالي اشتركوا في إحراق محطتي الحوامدية والبدرشين » .

ولما عدت إلى البلد وجدت أن عدد البيوت المحروقة بلغ مائة وثمانين بيتا تقريبا ، وأن أكثر
الأهالي هاجروا .

وفي اليوم التالي أثبت حضرة مأمور ضبط مديرية الجيزة أقوالنا في محضر تحقيق واستدعى
الامباشي المصري الذي كان مرافقا للقوة التي هاجمت العززية وسمع شهادته بحضورى وهى
تطابق أقوالنا . ونضع خطا تحت عبارة «مأمور ضبط مديرية الجيزة» وسوف نعود إليه بعد أن نقرأ
موجزا لشكوى عمدة البدرشين .

شكوى عمدة البدرشين

حضرات أعضاء الجمعية التشريعية ومجلس مديرية الجيزة .

أنا محمد منظور الدالى عمدة البدرشين الموقع على هذا أرفع لحضراتكم مايتى :

في الساعة الرابعة والنصف بعد منتصف ليلة الثلاثاء من يوم ٢٥ مارس ١٩١٩ هجم على
منزلى أربعون عسكريا ، ودخل العسكر غرفة نومى وبها زوجتى وزوجات أولادى وبناتى
الصغيرات . وقد جذب أحدهم حلقة من أذن بنت لى صغيرة فجرحها . ووجدت السيدات
يرتعدن مفزوعات ويحكين لى ماصنعه العساكر من تفتيشهن تفتيشامعيا وسلب كل ما وجدوه من
نقود أو حلى . وأخذوا منى ومن أولادى نقودنا وساعاتنا وكنت أرى الحرائق مرتفعة يعلو هيبها في
الجو تلتهم المنازل . وبعد مدة صعدنا مع عمدة العززية ومشايخها إلى بناية حيث وجدنا مجلس
من ثلاثين ضابطا ذكر لنا رئيسهم تهما غريبة . إن حوادث البلد العديدة تبلغ من البشاعة
والشناعة والفظاعة ما لا قدرة لى على وصفه . وقد شكونا أمرنا للمديرية . وفتح حضرة مأمور

الضبط إبراهيم أفندى دسوقي أباطة تحقيقا سمع فيه أقوالنا وسمعت أنا شهادة الملاحظ أمامه تدل على صدقنا . . »

ونترقب هنا عند شكوى محمد منظور الدالى عمدة البدرشين ، إذ إننا وصلنا إلى اسم « حضرة مأمور الضبط » الذى وضعنا تحته خطأ عند سرد بعض ماجاء فى شكوى إبراهيم دسوقي رشوان عمدة العزيزية وحضرة مأمور الضبط فى مديرية الجيزة إبراهيم أفندى دسوقي أباطة هو نفسه « إبراهيم دسوقي أباطة باشا » الذى نتحدث عنه هنا فى هذه الحلقة .

وقد أردت أن أنقل لشبابنا هذه الأيام مختصرا لشكوى عمدة العزيزية ، ولشكوى عمدة البدرشين لأضع أمام شبابنا صورة لما فعله الإنجليز فى أعقاب الثورة الشعبية الكبرى (ثورة ١٩١٩) ببلادنا وبأهلنا . وقد نقلت هاتين الشكويين من « مذكرات عبد الرحمن فهمى » وهو مصدر وثيق ليوميات مصر السياسية فى تلك الفترة .

كان مدير الجيزة فى ذلك الوقت هو حمدى بك سيف النصر ، أحد أقطاب الوفد فيما بعد ، وكان مأمور الضبط هو إبراهيم أفندى دسوقي أباطة ، أحد أقطاب الأحرار الدستوريين فيما بعد ولما أحس المدير والمأمور أن هذا المحضر قد يكتفى بأمر السلطات الإنجليزية بادرا إلى عقد مجلس المديرية ، وعرضا عليه محضر التحقيق ، وسجلا ما به من الوقائع فى محضر المجلس . وقاما بطبع نص البلاغين فى كراسة صغيرة انتشرت بسرعة البرق فى مصر ، وكان لها أسوأ الأثر فى نفوس الشعب . وبعد أن اطمأن الرجلان « حمدى سيف النصر ، وإبراهيم دسوقي أباطة » إلى أن جرائم الإنجليز قد سجلتها وثائق الثورة ، وأنها أصبحت منشورا سياسيا بين أيدي الجماهير الثائرة بادرا بالاستقالة قبل أن يتلقيا قرارات سلطات الاحتلال بالفصل من الخدمة .

قبل الثورة

هذا هو إبراهيم أفندى دسوقي أباطة مأمور الضبط الذى لم ينجس على وظيفته المرموقة ، وأثر أن يكون أحد جنود الثورة القومية الكبرى بقيادة الزعيم العظيم سعد زغلول ، وحفظ لتاريخنا الحديث وثيقة من أهم وثائقه .

ولد إبراهيم بقرية « غزالة » بمديرية الشرقية سنة ١٨٨٩ ، وأتم الدراسة الثانوية سنة ١٩٠٨ بالمدرسة الابتدائية وحصل على شهادة الابتدائية سنة ١٩٠٣ ، وأتم الدراسة الثانوية سنة ١٩٠٨ بالمدرسة الخديوية . والتحق بمدرسة الحقوق التى تخرج فيها سنة ١٩١٢ . وقد شهدت فترة دراسته بالحقوق نشاطه السياسى المبكر شأنه فى ذلك شأن غالبية طلاب مصر الذين شاركوا فى الحركة

السياسية كطليعة لشعب مصر ، وسائرین خلف مصطفى كامل الذى كان له فضل إثارة الهمة التى كانت قد خبت بعد أن ألقى أحمد عرابى سيفه ، وبعد أن انكسرت حدة الثورة العرابية .

اتصل إبراهيم دسوقي أباطة بنادى المدارس العليا الذى رأسه عمر لطفى ، رائد التعاون فيما بعد . وكتب فى صحف الحزب الوطنى التى انتشرت فى ذلك الزمن ، ووقع مقالاته باسم « الغزالى أباطة » وذلك نسبة إلى قريته « غزالة » التى ولد فيها . وشارك فى التظاهرة الشهيرة التى قام بها طلبة مدرسة الحقوق فى ٩ نوفمبر ١٩٠٨ . ومع إرهابات الحركة القومية بقيادة سعد زغلول فى أواخر ١٩١٨ كان « الحزب الوطنى » قد دخل أزمته الكبرى ، واتجه عدد من شباب الحزب الوطنى للمشاركة فى جهود « الوفد » من أجل الاستقلال ، من هؤلاء مصطفى النحاس وحافظ عفيفى وقرر « الوفد » ضمهما إلى عضويته ، ومنهم أمين الرافعى وعبد الرحمن عفيفى اللذان انضما إلى عضوية اللجنة المركزية ، ومنهم أيضا إبراهيم دسوقي أباطة الذى استقال من « الحزب الوطنى » وانضم إلى « الوفد » . وظل إبراهيم دسوقي أباطة عضوا « بالوفد » حتى حدث الانقسام الكبير الذى تأسس على أثره حزب الأحرار الدستوريين فى أواخر عام ١٩٢٢ بعد أزمة كبرى داخل « الوفد » بسبب المفاوضات مع الانجليز . وهنا تقول وثائق تاريخنا الحديث إن إبراهيم دسوقي أباطة كان من المؤسسين للحزب الجديد « حزب الأحرار الدستوريين » .

الأحرار الدستوريون

وفى دراسة جديدة للدكتور « ماريوس ديب » عن « الوفد » وخصومه التى صدرت باللغة الانجليزية سنة ١٩٧٩ وصدرت لها ترجمة عربية سنة ١٩٨٧ ، يرى أن نشأة حزب الأحرار الدستوريين ترجع إلى الانشقاق الذى حدث داخل « الوفد » خلال المحادثات بين سعد وملنر . ومع حلول صيف ١٩٢١ أنشأ الخارجون على « الوفد » وعدد آخر من مؤيدى عدلى يكن تنظيما أطلق عليه اسم « جمعية مصر المستقلة » قدمت تأييدها لعدلى أثناء محادثاته مع « كيرزون » ، وفى ديسمبر ١٩٢١ كان عدلى قد عاد من إنجلترا دون نتيجة . ومع صيف عام ١٩٢٢ حصل حافظ عفيفى على امتياز إصدار جريدة « السياسة » التى رأس تحريرها د . محمد حسين هيكل فيما بعد . وتم التأسيس الفعلى للحزب فى ٣٠ من أكتوبر عام ١٩٢٢ . وانتخبت الجمعية العمومية الأولى للحزب ثلاثين عضوا كمجلس إدارة هم مدحت يكن - الشيخ محمد بخيت - السيد عبد الحميد البكرى - محمد محب - محمد حشمت - حسن عبد الرازق - محمد محمود - يوسف أصلان قطارى - إبراهيم الهلباوى - حافظ عفيفى - عبد اللطيف المكباتى - محمد على علويه - على إبراهيم - توفيق دوس - عبد المنعم رسلان - إسماعيل زهدى - صليب سامى - إبراهيم دسوقي أباطة - السيد على

الرفاعي - الياس عوض - رشيد عبد الله - حبيب خياط - أحمد عبد الغفار - سيد خشبة - حامد فهمي - محمد البدرأوى - صالح الموم - عبد العزيز رضوان - محمد محفوظ - محسن صالح . ومن بين هؤلاء كان عدد من أعضاء لجنة الدستور هم : بخيت - البكري - حشمت - عبد الرازق - قطاوى - المكباتى - محمد على - دوس - عوض - الموم . ومنهم عدد من أعضاء مجلس إدارة جمعية مصر المستقلة وهم : عبد الرازق - عفيفى - على إبراهيم - زهدى - صليب سامى - محمد صالح . وفى العاشر من نوفمبر ١٩٢٢ انتخب مجلس الإدارة مدحت يكن ، ومحمد محمود وكيلين ، ومحمد على سكرتيراً للحزب ، وإبراهيم دسوقى أباظه سكرتيراً مساعدا ، وعبد اللطيف المكباتى أميناً للصندوق ، وكان بعض الأعضاء الشبان الذين انضموا لحزب الأحرار الدستوريين أعضاء سابقين فى « الحزب الديمقراطي » ومنهم : محمد حسين هيكى - محمود عزمى - مصطفى عبد الرازق .

وقد كتب عبد العزيز فهمى فى سيرة حياته أنه (أى عبد العزيز) قام بدور هام فى تكوين حزب الأحرار ، إلا أنه لم يسجل نفسه فى بداية الأمر عضوا فيه وترك رئاسة الحزب لعدلى يكن « كما أن أحمد لطفى السيد لم ينضم رسمياً بسبب منصبه بدار الكتب » .

الوزارات العشر

ونعنى بها هنا الوزارات التى تولاهها إبراهيم دسوقى أباطة بصفة أصيلة . وقد بدأ يتولى وزارة الشؤون الاجتماعية فى ٢٦ يونية ١٩٤١ ، وذلك فى التعديل الذى طرأ على وزارة حسين سرى التى شكلها فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٠ ، واستقالت الوزارة فى ٣١ يوليو ١٩٤١ وبذلك يكون إبراهيم دسوقى أباظه قد تولى وزارة الشؤون لمدة شهر واحد . واختاره حسين سرى وزيرا للشؤون الاجتماعية فى وزارته الثانية (٣١ يوليو ١٩٤١ - ٤ فبراير ١٩٤٢) . أما وزارة المواصلات فقد تولاه مرات خمس : الأولى فى وزارة أحمد ماهر الأولى من (من أكتوبر ١٩٤٤ - ١٥ يناير ١٩٤٥) والمرة الثانية فى وزارة أحمد ماهر الثانية من (١٥ يناير ١٩٤٥ - ٢٤ فبراير) التى لم تقدم استقالتها نظرا لاحتلال أحمد ماهر . والمرة الثالثة من (٢٤ فبراير ١٩٤٥ - ١٥ فبراير ١٩٤٦) فى وزارة النقراشى باشا الأولى . والمرة الرابعة من (٩ ديسمبر ١٩٤٦ - ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) فى وزارة النقراشى باشا الثانية . ونجد هنا اسمه مقرونا بلقب « باشا » بعد أن كان مقرونا بلقب « الأستاذ » فى الوزارات السابقة أما المرة الخامسة التى يتولى فيها إبراهيم دسوقى باشا وزارة المواصلات فكانت من (٢٧ فبراير ١٩٤٩ - ٢٥ يوليو ١٩٤٩) وذلك فى التعديل الذى طرأ على وزارة إبراهيم عبد الهادى الأولى التى شكلها من (٢٨ ديسمبر ٤٨ - ٢٥ يوليو ١٩٤٩) .

وتولى وزارة الأوقاف بصفة أصيلة مرتين : الأولى من (١٧ فبراير ١٩٤٦ - ٩ ديسمبر ١٩٤٦) في وزارة إسماعيل صدقي الثالثة التي شكلها في التاريخ السابق . وكانت المرة الثانية من (٢٦ يوليو ١٩٤٩ - ٣ نوفمبر ١٩٤٩) وذلك في وزارة حسين سري الثالثة ، أما وزارة الخارجية فقد تولاها بالنيابة في وزارات سابقة ، وتولاها بصفة أصيلة من (٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ - ٢٧ فبراير ١٩٤٩) في وزارة إبراهيم عبد الهادي الأولى ، ثم تم تعديل وزارى تولى فيه أحمد خشة وزارة الخارجية وتولى إبراهيم دسوقي أباطة وزارة المواصلات . ويكون بذلك قد تولى المنصب الوزارى بصفة أصيلة عشر مرات ، وبالنيابة أربع مرات .

العريضة المشهورة

ولعل مشاركة إبراهيم دسوقي أباطة باشا في العريضة المشهورة التي رفعها عدد من ساسة مصر البارزين إلى الملك فاروق في ١٦ أكتوبر ١٩٥٠ ، هي أحد الأعمال الهامة التي شارك فيها قبل رحيله عام ١٩٥٣ .

وتتناول العريضة شكوى موقعيها من العناصر التي تحول بين البلاد وبين العرش « لالسبب إلا لأن الأقدار قد أفسحت مكانا في الحاشية الملكية ، منهم من حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشكوك والشبهات هي الآن مدار التحقيق الجنائى الخاص بأسلحة جيشنا الباسل » والعريضة هنا تشير إلى مسألة « الأسلحة الفاسدة » التي أثارها الصحف في صيف ١٩٥٠ وقيل إن الجيش المصرى حارب في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ بأسلحة فاسدة . ثم عرجت العريضة إلى ما عرف بمراسيم ١٧ يونية ١٩٥٠ والتي قضت بزوال عضوية مجلس الشيوخ عن هيكل باشا ، وإبطال عضوية آخرين . وفي الموضوع الذى نشرناه عن مصطفى مرعى ، أوضحنا أن تلك المراسيم جاءت لتصحيح أخطاء ارتكبتها حكومتا حسين سري في ١٧ مارس ١٩٤٦ وأحمد ماهر بعد ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، وكلها إجراءات للعبث بنسبة الأعضاء الوفديين بمجلس الشيوخ . أما مسألة « الأسلحة الفاسدة » فقد قامت حكومة النحاس باشا بإبلاغ النائب العام ، وأبعدت القائد العام للقوات المسلحة عن منصبه ، وأحالت ١٢ ضابطا كبيرا إلى المعاش . وفي ٢٨ مارس ١٩٥١ صدر قرار بحفظ التحقيق وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تم حفظ التحقيق مرة ثانية .

وأسجل هنا تصريحاً هاماً صرح به السفير الفريق محمد حافظ إسماعيل عند مناقشة كتابه « أمن مصر القومى » في ندوة « كاتب وكتاب » التي قمت بإدارتها وشارك في المناقشة السفير اللواء محمد فريد عبد القادر ، والسفير أحمد ماهر وذلك في معرض الكتاب بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٨٨ . . صرح السيد محمد حافظ إسماعيل بأنه كان في جبهة الحرب سنة ١٩٤٨ ويشهد بأنه لم تكن هناك بندقية فاسدة واحدة . وهذا يكفى لإغلاق مسألة « الأسلحة الفاسدة » التي أشارت إليها

العريضة المشهورة والتي وقعها إبراهيم عبد الهادي ، ولمحمد حسين هيكل ، ومكرم عبيد ، ومحمد حسن حافظ رمضان ، وعبد السلام الشاذلي ، وطه السباعي ، ومصطفى مرعي ، وعبد الرحمن الرافعي ، وإبراهيم دسوقي أباطة ، وأحمد عبد الغفارة ، ولطفي عبد الرازق ، ورشوان محفوظ ، وحامد محمود ونجيب اسكندر وزكي ميخائيل بشاره ، والسيد سليم .

أحداث

وأقول أن أمورا كثيرة لم أستجلبها وأنا أكتب **اعتذر** إبراهيم دسوقي أباطة باشا ، مثلا سنة ١٩٣١ وأقول أن أمورا كثيرة لم أستجلبها وأنا أكتب عن إبراهيم دسوقي أباطة باشا ، مثلا سنة ١٩٣١ .
عندما قاطع الوفد والأحرار الدستوريون الانتخابات « خذفي » رشح نفسه ونجح عن دائرة القاهرة سنة ١٩٣٨ . كان وكيلًا لمجلس النواب ، وأسس سنة ١٩٤٦ جامعة أدباء العرب ، وأنشأ لها فرعًا بالقاهرة ، بالأوقاف في كتاب الضمير الكبير عبد المنعم شميس « شخصيات مصرية » على معاونة المادية والأدبية للأدباء الكادحين . وكانت هناك أمور كثيرة كان يمكن أن أضيفها لو أنني سألت أو جلست إلى ابنه الكاتب الكبير الأستاذ محمد شروت أباطة رئيس اتحاد الكتاب وأنا على بلد . مقاطعة منه في مجلس إدارة الاتحاد الذي أنا عضو فيه أو لو أنني سألت أو جلست إلى سمية الأستاذ الدكتور إبراهيم دسوقي أباطة ، وأنا على بعد صفحات منه في جريدة الوفد . . على أية حال فإنني قد فتحت الباب ويمكنهما أن يضيفا الكثير إلى ما قدمت .

الأسانيد

حافظ محمود . أسرار الماضي .

- ١ - حافظ محمود . أسرار الماضي .
- ٢ - حسن يوسف . مذكرات .
- ٣ - عبد الرحمن فهمي . مذكرات .
- ٤ - عبد المنعم شميس . شخصيات مصرية .
- ٥ - فؤاد كرم . النظارات والوزارات المصرية .
- ٦ - مورييس ديب . الوفد وخصومه (ترجمة عبد السلام رضوان) .

أنور السادات



نبدأ من كارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ التى أصابت عبد الناصر فى نفسيته فظهر على حركته الإحباط بدلا من الشموخ ، وأصابته فى قيادته فبدأ المماليك الصغار يتحركون ويصدرون القرارات باسمه . ومنذ هذا التاريخ بدأ صراع خفى بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية على مصر . أيهما أولى بالنفوذ السافر ؟

الاتحاد السوفيتى الذى انحاز له رجال ناصر أنفسهم والذى أصبح له مستشارون بالآلاف فى جيش مصر ، ووصلت العناصر الموالية له إلى قيادة التنظيم الطليعى المحرك للاتحاد الاشتراكى ، . الاتحاد السوفيتى الذى أصبح له نفوذه السياسى ، فالمنظمات الماركسية أصبحت بالكامل داخل الاتحاد الاشتراكى ووسائل الاتصال الجماهيرى فى أيدي الماركسيين . . الاتحاد السوفيتى أصبح له نفوذه الاقتصادى أيضا فمعظم شركات القطاع العام تتعامل معه . . كان الجو ممهدا لنفوذ سوفيتى أكبر وأوضح .

ويبدو أن جمال عبد الناصر كان مدركا لهذا المصير فأراد فى آخريات أيامه أن يوقف زحف العناصر التى تحكم باسمه فى الظاهر ، وفى واقع الأمر كانت تمهد للسيطرة السوفيتية . وتردد أنه أصدر أوامره بعودة عبد اللطيف البغدادي وزكريا محبى الدين نائبين له إلى جانب نائبه أنور السادات وتردد أيضا أن مقر رئاسة الجمهورية فى مصر الجديدة كان يعد لاستقبالهما . وتمضى الأقاويل بأن عبد الناصر طلب إذاعة خبر تعيين البغدادي ومحبى الدين نائبين له وكان يستمع يوم وفاته لإذاعة القاهرة فى نشرة الخامسة مساء . . ولم يذع الخبر . . وقال وهو على فراش الرحيل . . غريبة لم يذع الخبر ! .

وعلى الجانب الأمريكى فمند مؤتمر باندونج فى أبريل ١٩٥٥ ، وصفقة الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا وتأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ وإصرار جمال عبد الناصر على خط وطنى مستقل ، والولايات المتحدة الأمريكية تريد العودة بنفوذها إلى مصر يقلقها النفوذ السوفيتى المتزايد وترى أنها أحق بالشفعة . فهى التى أسهمت بدور واضح فى الإطاحة بحكومة النحاس باشا فى يناير ١٩٥٢ ، وهى التى ساندت حكومات مابعد الحريق ، وهى التى لم تستجب لنداءات الملك فاروق لمساندته بل أيدت التخلص منه . . وهى التى كانت على صلة مباشرة بالمجموعة العسكرية الحاكمة يوم ٢٣ يوليو ، وكان مندوبو القيادة على اتصال مستمر بالسفارة الأمريكية يطمئنونها على موقفهم المعادى من « الوفد » ومن الشيوعيين ، ويؤكدون لها أن الانقلاب ليس له صلة بجماعة الإخوان المسلمين وأن الصحف اليسارية قد أغلقت وأن الدور قادم على جريدة « المصرى » . . أكثر من هذا فإن الوثائق الأمريكية التى نشرتها مجلة « المصور » المصرية تشير فى حلقة يوم ٧ أغسطس ١٩٨٧ إلى أن عبد المنعم النجار فى مقابلة له مع المحققين العسكريين الأمريكى والبريطانى والفرنسى فى ٣١ يوليو ١٩٥٢ نقل إليهم « إن العسكريين فى مصر يريدون تشكيل لجنة غير رسمية لمحاربة النشاط الشيوعى . . ويأمل العسكريون أن تضم اللجنة المقترحة ممثلين للسفارات الفرنسية والبريطانية والأمريكية ! » .

ويعلق الدكتور رضا شحاته الذى نشر هذه النصوص ضمن دراسته على حديث مندوب القيادة المصرية مع ايفانز الملحق العسكرى الأمريكى بأن يضع العلاقة بين حركة الجيش والسفارة الأمريكية على صعيد المشاركة فى السياسة المصرية الداخلية وليس مجرد صعيد تبادل المعلومات . والولايات المتحدة الأمريكية هى التى حمت الانقلاب من التدخل العسكرى البريطانى وتلقت بالارتياح قيام السلطة الجديدة بضرب الشيوعيين و« الوفد » وتحجيم الإخوان المسلمين ، ووقفت بإصدار الصحف اليسارية والوطنية وفتح المعتقلات وتصفية الحركة الشعبية ، وقفت الولايات المتحدة إلى جانب عبد الناصر ضد محمد نجيب الذى أخذ ينسق مع الإخوان المسلمين والشيوعيين والوفديين . وبعد أن انقلب ناصر على الولايات المتحدة الأمريكية ، كان لأمريكا دور فى حرب ١٩٦٧ حتى أن جونسون عندما أيقظه معاونوه يخبرونه أن إسرائيل تضرب عبد الناصر عاد إلى التناوم وهو يردد . . دعوها تؤدبه !!

كانت أمريكا حريصة إذن على إعادة نفوذها الذى كان لها فى مصر فى السنوات الأولى لانقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وسيطر عليها القلق من النفوذ الماركسى المتزايد ومن التحالف بين الاتحاد السوفيتى وعبد الناصر ، ب وفاة جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ نشطت الولايات

المتحدة الأمريكية لإعادة نفوذها في مصر ، وقام الرئيس الأمريكى نيكسون برحلته إلى البحر المتوسط وأوروبا والتي انتهت في ٥ أكتوبر ١٩٧٠ لاستعراض القوة .

الأهداف التقليدية

ومهما يكن من أمر فقد رحل جمال عبد الناصر وجاء بعده أنور السادات رئيسا للجمهورية ، ويشند الصراع بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية . ويمكن أن نلخص الأهداف الأمريكية في مصر ، وهى لم تزل كما كانت في الفترة الأولى من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . تصفية الحركة الشعبية منعا لقيام ثورة شعبية تشكل خطرا على المصالح الأمريكية ، ووجود أمريكى فعال يمنع الوجود السوفيتى الذى تصاعد في السنوات الأخيرة من حكم عبد الناصر . وإذا كانت الوزارات الأربع بعد الحريق قد سلكت في سبيل تنفيذ هذه الأهداف أسلوبا من التهذئة الشكلية لم يكن فعالا بما يرضى الولايات المتحدة الأمريكية ، وإذا كانت الفترة الأولى من سلطة ٢٣ يوليو قد باشرت القمع بأسلوب شرس وأعلنت الجمهورية الرئاسية وتحويل مسار الثورة الشعبية . . مما تلاقى عمليا مع أهداف الولايات المتحدة . . إذا كان ذلك كذلك فإننا نلاحظ أن الأحداث في عصر السادات تسير أيضا بما يتطابق مع أهداف الولايات المتحدة الأمريكية في مصر وفي المنطقة . ومرة ثانية نحن نسجل الوقائع ولا نتحدث من منطلق الاتفاق المسبق أو التآمر بين السادات وبين الدوائر الأمريكية ، وإنما نقول فقط إن ماحدث يتفق والمصالح الأمريكية في المنطقة .

الصراع على السلطة

وكان من الطبيعي تماما أن يترجم هذا الصراع بين العملاقين الدوليين على أرض مصر إلى صراع على السلطة بين رجال عبد الناصر الموالين للسوفيت وبين السادات الحاكم الجديد . . كان الذى حدث صراعا على السلطة بكل المعايير ولم يكن أبدا « ثورة تصحيح » كما أطلق عليها عبد الرحمن الشرقاوى والموالون للسادات ، ولم يكن أيضا « ثورة مضادة » كما أطلق عليها الموالون لعبد الناصر وإنما هو صراع على السلطة داخل الشريحة العسكرية الحاكمة من الطبقة الوسطى ، والصراع دائما له بقايلده . . كل فريق يقدم مبرراته . . الفريق الأول . . رجال عبد الناصر الموالون للسوفيت كشفوا عن اتجاه السادات نحو أمريكا ، وكشفوا تاريخه منذ ارتباطه بالحرس الحديدى : يوسف رشاد ومصطفى كمال صدقى ، ومجموعة الاغتيالات التى اغتالت أمين عثمان وحاولت اغتيال النحاس باشا لصالح الملك فاروق . . وكشفوا عن ارتباطه بجواسيس الألمان

وتقديم المعلومات العسكرية عن الانجليز للنازى ، وكشفوا عن قصة التهرب من المواجهة ليلة ٢٣ يوليو وذهابه إلى السينما وافتحاله مشاجرة مع أحد المشاهدين ليحرر محضرا في القسم يحتفى به إذا فشلت محاولة الانقلاب . والفريق الثانى . . فريق السادات تحدث عن دكتاتورية ناصر وفساد الاتحاد الاشتراكى ، والمعتقلات والتعذيب والحراسات ، وفساد القطاع العام والسيطرة السوفيتية . وكان لابد من شعارات جديدة تجذب الجماهير في هذه المعركة . . رفع السادات شعار الديمقراطية ! وتعدد المنابر التى تحولت إلى أحزاب « وشعار سيادة القانون ! والإفراج عن المسجونين . وكان هناك طرف ثالث يكسب من هذا الصراع هو الشعب الذى أيد بشكل واضح السادات وفريقه ليتخلص من مجموعة رجال عبد الناصر الذين حكموا بالحديد والنار ، ونهبوا الثروات وهربوها إلى الخارج . وكسب الشعب هامشا لا بأس به من الحريات ، وتشكلت منابر تحولت إلى أحزاب وصدرت صحف لهذه الأحزاب .

ثم أعقب ذلك طرد المستشارين السوفيت لدى الجيش المصرى وإلغاء المعاهدة المصرية السوفيتية في ١٨ يوليو ١٩٧٢ .

النفوذ الأمريكى واحد في الفترتين والحرب ضد « الوفد » والشيوعيين واحدة في الفترتين ، ومهادنة الإخوان المسلمين للإفادة منهم في مواجهة « الوفد » والشيوعيين واحدة في الفترتين ، يزيد عليها في فترة السادات الناصريون الذين عارضوا السادات . . والمواقف من الصحافة واحدة فإذا كانت الرقابة في عهد عبد الناصر الباكر بشكل مباشر ، فإنها في عهد السادات عن طريق مجموعة من رؤساء التحرير تدين له بالولاء .

عبد الناصر حل الأحزاب وأعلن هيئة التحرير وطارد كل من رفض الانضواء تحت لوائها ، والسادات بأسلوب آخر ألغى الاتحاد الاشتراكى لأنه تحول إلى أداة معارضة في يد الناصريين والشيوعيين ، وسمح بالأحزاب ولكنه حارب هذه الأحزاب عندما حاولت الخروج عن الدور المرسوم لها . ولم يكن عهد السادات سوى حلقة في سلسلة ٢٣ يوليو المعادية للديمقراطية ولكن بأسلوب مختلف ، وحلقة في سلسلة المواقف المشابهة لمواقف الولايات المتحدة الأمريكية والتى بدأت مع عبد الناصر نفسه . وفي كتابه « البحث عن الذات » صفحة ١٧٠ يفسر السادات اتجاه عبد الناصر ناحية السوفيت بقوله :

عبد الناصر كان يريد رقعة واسعة للمناورة وعندما يجدها فهو مناوئ ممتاز . . ولكن الذى حدث أنه قطع علاقاته بأمريكا والغرب والعرب وإيران ولم يبق إلا السوفيت . . وهذا لم يعطه حرية المناورة وخاصة أن السوفيت عاملوه معاملة أبعد ماتكون عن الكرم أو الكرامة . . ولعل هذا

يفسر اتجاه عبد الناصر في أخريات أيامه للاستعانة بأنور السادات ، والتفكير في الاستعانة بعبد اللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين وهم معادون للسوفيت . . وإن كان عبد الناصر لم يعين السادات نائبا لرئيس الجمهورية إلا في ديسمبر ١٩٦٩ . وقد قدر لعبد الناصر أن يتخلص من النفوذ الأمريكى ليقع في النفوذ السوفيتى ، والسادات تخلص من النفوذ السوفيتى ووقع في النفوذ الأمريكى .

الطبقة الجديدة

ويحلو للبعض أن يشير إلى ما يسمى بالطبقة الجديدة كأحد مظاهر حكم السادات . وفي واقع الأمر أن هذه الطبقة من إفراز فترة حكم عبد الناصر ، وتكونت أصلا من الشريحة العسكرية للطبقة الوسطى ومن مديرى القطاع العام ، ومن زعماء النقابات التى التفت حول النظام الجديد ، ومن القيادات العليا والوسطى للتنظيم السياسى الواحد ، ومن عناصر مختلفة الروافد الاجتماعية وجدت مصلحتها في تبنى شعارات السلطة الجديدة المعادية للديمقراطية والتعددية الحزبية . . ووجدت حماية لتصرفاتها المالية والإدارية في حساسية النظام إزاء النقد للسليبيات ، لدرجة أن من يعرض لأية سلبيات كان ينظر إليه على أنه معارض للنظام وعلى أنه من عناصر الثورة المضادة ، وبذلك اختفى الحديث عن هذه السلبيات والانحرافات في عهد عبد الناصر وانفجر الحديث عنها في عهد السادات ، وبتشجيع منه حتى امتدت الشائعات إلى عبد الناصر نفسه . وأورد جلال الدين الحزامى في كتابه « حوار وراء الأسوار » نموذجا لما تردد حول تهريب الأموال إلى سوسرا وإيداعها في البنوك بحسابات سرية .

وقد وجدت هذه الطبقة فرصتها بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ وبدأت تتقدم لتملأ الفراغ الذى تركه الجيش .

ولكن الخلل الاجتماعى العميق أصاب المجتمع المصرى في عهد السادات بفعل ظاهرة أخرى هى « الانفتاح الاستهلاكى » التى رحبت بها الطبقة الجديدة للمشاركة بأموالها في مشروعات الاستثمار مع رؤوس الأموال الأجنبية والعربية مما أفرز فئات من النشاط الطفيل الذى ساد المجتمع .

ولعل المقارنة السطحية بين الانحرافات المعلنة والظاهرة في عهد السادات ، والانحرافات الخفية بقوة القهر في عهد عبد الناصر هى التى أدت بمفكر ماركسى معروف هو الدكتور فؤاد مرسى أن يكتب في مقالة له بمجلة « الفكر المعاصر » نوفمبر ١٩٧٠ عن عبد الناصر « لقد كان أول معلم نقل الاشتراكية إلى وعى الملايين المصريين !! » .

وأماننا إحصائية تبين التركيب لهذه الطبقة الجديدة التى كانت عماد التنظيم السياسى الواحد وهو الاتحاد القومى بعد هيئة التحرير . ففى انتخابات مجلس الأمة الذى تكون من ٣٥٠ مقعدا كانت على النحو التالى : ٣٣٪ لرجال الأعمال والمحامين ٣٠٪ لوزراء وضباط جيش استقلالوا ليعملوا بالأمور العامة ، ١٢٪ ملاك الأرض ، ١٠٪ عمد فى القرى وكبار الفلاحين ، ٣٪ عمال ، ١٢٪ عناصر مختلفة النشاط ، وهذه الطبقة لا يمكن أن تدعو إلى اشتراكية حقيقية حتى ولو تغير اسم الاتحاد القومى .

٦ أكتوبر

ولم تكشف الوثائق بعد عن دور الولايات المتحدة الأمريكية فى عملية التخلص من رجال ناصر المناوئين للسادات ، تلك العملية التى اتخذت أمام الشعب شكل المفاجأة ، ولكن من المرجح أنها بدأت تدريجيا منذ أن تولى السلطة فى أكتوبر ١٩٧٠ إلى ١٥ مايو ١٩٧١ يوم الإعلان عن الإطاحة بمجموعة على صبرى الذين كانوا يعتزمون الإطاحة بالسادات ، ونجد فى أقوال هنرى كيسنجر ما يشير إلى هذا الموقف . . « خلال عام ١٩٧١ تفوق السادات تدريجيا فى مواجهة مناورات خصومه ، وفى شهر مايو انتهى من التخلص بصورة مذهلة من المنافسين المواليين للسوفيت الذين كانوا يتآمرون للقضاء عليه » . . وأيا كان الأمر فإن الغالبية الساحقة من الشعب أيدت هذه الخطوة ورحبت بها على أمل أن تكون خطوة جادة نحو انفراجة ديمقراطية .

أما الموقف الثانى الذى رحبت به قطاعات هامة من الشعب المصرى فهو قبلة الإعلان المفاجئ فى ١٨ يوليو عام ١٩٧٢ عن إنهاء مهمة أكثر من ١٥ ألف مستشار وخبير عسكري سوفيتى فى مصر . . ولم يكن الشعب يعرف حتى هذه اللحظة أن الوجود السوفيتى على هذا النحو من الخطورة ، واعتبر طرد هؤلاء الخبراء العسكريين موقفا يدعم الاستقلال الوطنى .

ثم كانت حرب العاشر من رمضان ، السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، التى أوجدت تغييرا عميقا من الناحية النفسية لدى الشعب المصرى والشعوب العربية ، وأوجدت وضعية جديدة كان يمكن استثمارها نحو ديمقراطية حقيقية ، ولكن السادات كان يريد ديمقراطية هشة ارتد عنها عندما وجد أن القوى السياسية المختلفة تريد ممارسة ديمقراطية تسهم فى إعادة البناء فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وخاصة أن الحرب بدأت والوضع الاقتصادى متدهور للغاية . ففى ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣ قبل الحرب بأسبوع اجتمع السادات ومجلس الأمن القومى وقال بالحرف الواحد « اقتصادنا النهارد فى مرحلة الصفر وعلينا التزامات إلى آخر السنة لن نستطيع الوفاء بها

للبنوك ، وعندما تأتى سنة ١٩٧٤ بعد شهرين لن يكون عندنا رغيف الخبز للمواطنين » .
 وكان النصر وتبارك السادس من أكتوبر بين الأيام ، ولكن الأمور لم تسر كما تريد غالبية
 الشعب . . سارت الأمور كما يريد السادات . وإذا كان جمال عبد الناصر قد انتهى وهو يحبى
 ملوك العرب ورؤساءهم ، فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، فقد انتهى أنور السادات وهو يحتفل مع
 جنوده بيوم النصر العظيم فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ وسبحان من له الدوام .

الأسانيد :

- ١ - إبراهيم سعدة . . سنوات الهوان .
- ٢ - أنور السادات . . البحث عن الذات .
- ٣ - الاستعلامات (مصلحة) . . خطب الرئيس جمال عبد الناصر .
- ٤ - جلال الدين الخيامسى . . حوار وراء الأسوار .
- ٥ - د . فؤاد موسى . . الفكر المعاصر نوفمبر ١٩٧٠ .
- ٦ - د . محمد أنيس . . الكاتب يوليو ١٩٧٤ .
- ٧ - موسى صبرى . . وثائق ١٥ مايو .

توفيق الحكيم



على ضفاف بحيرة الموت جلس ، وأطال الجلوس ، ويتحرك موج البحيرة ويقترب الموت من الحكيم ، وهو مستسلم لقضاء الله سبحانه وتعالى ، لأنه يعيش كما قال كثيرا في الوقت بدل الضائع . . ويقترب الموت ويربت على كتف الحكيم ويعود ليغوص في بحيرة الظلام من جديد . . لأن وقت الذهاب لم يكن قد حان بعد . . وها هو يرحل في يوم الأحد ٢٦ يوليو ١٩٨٧ .

ويا أيها الشاب الذي نسينا اسمه الآن ، والذي كتب في جراءة يحسد عليها يستعجل وفاة الحكيم لأن الحكيم في رأى ذلك الشاب ، وفي رأى عدد من زملائه يسد الطريق أمام الشباب . . ورد الحكيم عليه في الصحيفة نفسها يستمهل الشباب العجول إلى أن يحين قضاء الله .

ولم يكن الحكيم قد عاش ، ولم يعيش جيله العظيم . . طه حسين ، وعباس محمود العقاد . وسلامة موسى ، وإبراهيم عبد القادر المازني . . لم يعيش هذا الجيل العظيم أبدا في الوقت بدل الضائع . . ولم يسد الطريق أمام أحد أبدا . . بل كان المصاييح المضئنة على الطريق المظلمة . .

في رحلات كشفية كثيرة ذهب يبحث عن الحقيقة . . في باريس كتب عودة الروح . . وفي القاهرة كتب عودة الوعي . . وعلى الورق رحل إلى اليونان يفكر في مأساة (أوديب) الإنسان الذي ينهزم أمام القدر . ويفكر في مأساة (بيجماليون) الفنان المتردد بين الفن والحياة . . وفي التاريخ المصري القديم يلتقى بايزيس وأوزوريس . . وفي القرية في مسرحية الصفقة يلتقى بالفلاحين . . وفي مسرحية السلطان الحائر يبحث عن العدل في هذا العالم . . وفي (شمس النهار) يقول (أنت صعلوك ولكنك انتصرت . . أما أنا فقد فقدت كل شيء . .) .

الكاتب السياسى

لاياسيدى .. لم نفقد شيئا .. لقد انحزت إلى الشعب طوال حياتك ، ونزعم أن ذلك كان واضحا في كل ماكتبته أو في غالبية ماكتبته ..

ولم ينضم في حياته إلى حزب سياسى ولم يجهر بأى مذهب فكرى أو سياسى .. وكعادته في التمويه كتب تحت عناوين .. (من البرج العاجى ، وتحت المصباح الأخضر ، وقالت العصا ، وجمارى قال لى ..) فأوهم الناس أنه بعيد عن السياسة وما كان كذلك ابدا ..

سنة ١٩١٩ كتب مسرحية (الضيف الثقيل) يقصد بها الاحتلال الإنجليزى .. لم تنشر وضاعت أصولها .. وفى باريس سنة ١٩٢٧ كتب (عودة الروح) فى عمل فنى تأثر بالروح الوطنية التى أشعلتها ثورة ١٩١٩ .. وكان قد اعتقل فى سجن القلعة لأنه سار فى تظاهرة اثناء الثورة .. وكتب عدة مقالات عن حق مصر وسوريا ولبنان فى الاستقلال .. بل إنه فى (آخر ساعة) فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٦ دعا الشعب إلى المقاومة السرية المسلحة .. وسنة ١٩٤٧ قام برد وسام إلى فرنسا كان قد أهذى إليه من قبل .. وذلك احتجاجا على موقف فرنسا فى المغرب العربى ..

وأثناء المفاوضات المصرية البريطانية كتب فى أخبار اليوم فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٦ على لسان حمارة (نحن معشر الحمير لم نقبل أن نوقع بامضائنا على أن نضع القيود فى أرجلنا واللجم فى أفواهنا) ..

وسنة ١٩٤٠ وجه النداء إلى المفكرين ودعاهم إلى مناصرة الحلفاء ضد دول المحور .. هكذا صراحة دون أن يتحدث على لسان العصا أو على لسان الحمار ..

وفى أيام عبد الناصر لاينسى (تعذيب أستاذ جامعى فاضل هو الدكتور عبد المنعم الشراوى الذى عذب تعذبا جسائيا بلغ من بشاعته أن أنكر شكله أهله ومعارفه) فكتب توفيق الحكيم إلى عبد الناصر (هذه لطخة سوداء فى جبين الثورة لايمكن الدفاع عنها أمام التاريخ) ..

وفى يناير ١٩٧٣ جمع فى مكتبه عددا من الكتاب والأدباء ورجال الفكر وكتب « الحكيم » بخط يده البيان المشهور عن حقيقة الموقف ووقع عليه ، وبعده نجيب محفوظ ثم وقع عليه آخرون .. فغضب السادات وصدر قرار بالعزل السياسى لكل من وقع على البيان فيما عدا « توفيق الحكيم ونجيب محفوظ » ..

صانع الأقنعة

ولقد خدعنا الحكيم وأجاد الخداع . وأوهم الدنيا كلها أنه لا شأن له بالسياسة . . كانت له كتابات سياسية مباشرة ولكنه أوهم الناس جميعا بأنه (في حاله) يكتب للمسرح . . ومن خلال الأقنعة التي يصنعها في مسرحياته ، وفي أعماله الأخرى كتب في السياسة ، وفي المذاهب ، وفي المواقف الاجتماعية أكثر مما كتبه غيره من كتاب السياسة المباشرين . . ولكنه « توفيق الحكيم » الذى لم يمدح « الملك فاروق » مرة واحدة . . وكان « جمال عبد الناصر » حريصا على إرضائه ، واعتذر عن عدم اللقاء الذى حمله إليه « محمد حسنين هيكل » . . وكان « الأستاذ هيكل » كلما رأى « توفيق الحكيم » يقول أمام الحاضرين . . هذا هو الرجل الذى رفض مقابلة عبد الناصر فيبادر الحكيم بتخفيف الوضع فيقول (ليس شخص عبد الناصر بل الحاكم . . أنا لم أقابل فى حياتى رئيس حكومة وهو فى الحكم) فيقول « هيكل » ضاحكا . . (يعنى تريد منه أن يستقيل ليراك ؟) .

من قال إنه لم يكتب فى السياسة ، وفى المذاهب والأوضاع الاجتماعية ؟ وهو القائل فى كتابه سلطان الكلام (لا ريب فى أن الاشتراكية هى جوهر لابد أن يدخل فى تركيب كل نظام سياسى حديث . وكما استطاعت الدكتاتورية اختراع الوطنية الاشتراكية - يقصد النازية - فما أيسر على الديمقراطيات إنشاء الديمقراطية الاشتراكية .) .

وهو القائل فى كتابه « تأملات سياسية » إن أبسط ما اتناه لأهل بلدى إصلاح دون تقييد بمبدأ أو بمذهب ، فليس اخطر على أمة ناشئة من أن تلبسها مذهب أمة أخرى دون نظر إلى طبيعتها وحاجتها وروحها) .

وهو القائل فى كتابه تحت شمس الفكر : (إن المفروض فى ممثلى الشعب ان يتقدموا ببرامج ثابتة واضحة ، محدد فيها بالدقة الخطط ووسائل التنفيذ لمطالب الشعب المختلفة التى يمثلونها) . .

وهو القائل فى كتابه . . عصا الحكيم : (. . أرى أن تقوم مصلحة أو وزارة باسم منشآت العمال) باستقطاع جزء من أجر كل عامل ، وتجمع حصيلته فى صندوق خاص تغذية الحكومة وأصحاب العمل بمبلغ كاف . ويوجه هذا المال إلى انشاء المشروعات التى ترفع مستوى العمال مباشرة ، كبناء المساكن الصحية والحوانيت التعاونية والنوادرى العمالية) . .

وقال يوضح نفسه فى هذا الشأن . . (أنا لم أكن يوما من حملة الشعارات للوحدة العربية ولا غيرها إنى اتصرف دائما من وحي شعورى التلقائى ونظراتى الخاصة . . ولم يخطر فى بالى قط أن

أعزل الفكر عن أى نشاط سياسى أو اجتماعى . . والعزلة التى دعوت إليها هى العزلة عن السياسيين لا عن السياسة وعن الأحزاب لا عن المجتمع . . ولا أستطيع اليوم أن انضم إلى ماوتسى أو إلى سميث فكلاهما صادق وكلاهما كاذب ، ولا أستطيع أن انصوى تحت لواء الشيوعية أو الرأسمالية فكلاهما مصيب وكلاهما مخطئ . . .

خدعوه فقالوا

وفى الخامس من يونية ١٩٦٧ وقع صانع الأقنعة فريسة لخداع من هم أكثر مهارة فى صناعة الأقنعة . . الذين (هوشوا) بالحرب وهم لا يريدون الحرب . . الذين حشدوا الطائرات فى المطارات وأعطوا التعليمات أن تتلقى أول ضربة وبعدها تقاتل العدو، والذين أرسلوا الدبابات والمعدات تملأ أرض سيناء وساعة هجوم العدو كان « القائد العسكرى » فى سياحة جوية والتعليمات للمدفعية أن تقف مكتوفة لأن « القائد » فى الجو . . وأوهم المذيع ذو الصوت الجمهورى . . والأسلوب التمثيلى فى الأداء ، أوهم الحكيم صانع الأقنعة أننا على مشارف تل أبيب . . وصدق صانع الأقنعة . . وكتب فى جريدة الأهرام ٥ يونيه ١٩٦٧ نثرًا هو أجمل من شعر المحدثين . .

يامن تحملون سيوفا فعدو بلادى على بابيا

يامن ترفرف عليكم الأعلام حارسين لأعتابنا

خلفكم رابضة قلوب كل قلب هو قلب أسد

فبالله الذى نفسى بيده وبالتيل الذى يجرى فى العروق دما

وبالطفل الذى ينظر لغده لسوف ترون المقعد يقفز من مقعده

والشيخ الذى يفجر من شريانه نهرا والأخرس يطلق بلسانه شعرا

ولكنها كانت الهزيمة التى ألفت بظلالها الكثيفة على وجدان الكاتب والفنان والأديب « توفيق الحكيم » وبعد أن نطق شعرا أو ماهو أشبه بالشعر ، سكت الحكيم لم يتكلم لا جهارا ولا رمزا ولم يرسل خطابات للزعيم ولم يوجه النداء أو يكتب بيانا . . كانت الصدمة قاسية أصابت الكثيرين بالاكئاب وسار يدب بعصاه على أرض الواقع المصرى الذى أصبح وأمسى حزينا يبعث على الحزن ، وعلى التأمل المجرد بعيدا عن عواطفنا نحو الآخرين . .

الحكيم والحاكم

كانت الفكرة المسيطرة على توفيق الحكيم وهى فكرة صحيحة إلى حد كبير (إن الحاكم لا يريد من المفكر تفكيره الحر بل تفكيره الموالي ، إنه يريد أن يسمع منه تأييدا لا اعتراضا . .) .

ونجح الحكيم فى أن يبتعد عن « الملك فاروق » وتحت ستار مظهر الكاتب المسرحى الذى يمسك بالعصا ويجر حماره لم يمدح الملك «فاروق» كما فعل غيره من الكتاب والصحفيين . مرة واحدة وكان تصرفه لبقا وذكيا بمناسبة الاحتفال فى الأوبرا بزفاف الملك فاروق فى ٢٤ يناير ١٩٣٨ . وعلى الرغم من أن الملك وقتها لم يكن مكروها فقد اكتفى « الحكيم » بأن يكتب التمهيد المسرحى للشعراء والمتحدثين أمثال «بهي الدين بركات وعباس محمود العقاد ، و خليل مطران ، وأحمد أمين ، ومحمد الهراوى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعلى محمود طه . . وغيرهم » .

وبلداء شديد وفى تقديرا أنه مرسوم ومقصود كان موقفه إزاء جمال عبد الناصر ولو أراد الحكيم أن يكون جليس الحاكم الأول لاستطاع سيما وإن جفوة كانت بين العقاد والسلطة الجديدة ، والدكتور طه حسين كان قد زهد فى أمور كثيرة . . وسيما وإن « عبد الناصر » من جهته سلك السبيل التى تمهد للحكيم الاقتراب منه أكثر فأكثر . .

وقد استقبل « الحكيم » ٢٣ يوليو بالحفاضة وردد أنه بشر بالثورة وبالشوار ، وأبدى عبد الناصر إعجابه القديم بعودة الروح وتأثره بها . . ودعا « محمد حسنين هيكل » توفيق الحكيم إلى لقاء عبد الناصر وأغلب الظن أنه بطلب من عبد الناصر واعتذر الحكيم إلى آخر هذه الحدوته المعروفة . .

وبعيد ٢٣ يوليو كان الحكيم لم يزل مديرا عاما لدار الكتب المصرية ، ويبدو أن أحد « لابسى القباقيب » حدثته نفسه بأن يجلس على كرسى توفيق الحكيم ، والكرسى الذى جلس عليه من قبل أحمد لطفى السيد والدكتور محمد صبرى السربونى ومنصور فهمى باشا . . فأرسل شكوى كاذبة من أساسها ضد الحكيم وثبت كذبها .

(ومن الطريف أنه أيام كان الوزير الليبرالى المثقف منصور حسن وزيرا للثقافة ، تكررت ظاهرة الشكاوى الكيدية الكاذبة ضد المرحوم صلاح عبد الصبور وضد كاتب هذه السطور . . وكان مصيرها إلى سلة المهملات) . . المهم أن (لابسى القباقيب) ظلوا يتعقبون الحكيم ، وكتبوا للوزير المختص « إسماعيل القباني » إن « الحكيم » موظف غير منتج فى دار الكتب ، وفى مجلس الوزراء عرض الوزير اقتراح فصل الحكيم واعترض « جمال عبد الناصر » بأسلوبه المعروف الذى اضطر الوزير إلى الاستقالة . . وظل عبد الناصر يروى هذه الحكاية وكيف إنه طرد وزيرا من أجل كاتب . . ويقرر « توفيق الحكيم » فى (عودة الوعى صفحة ٩٤) أنه لم يقابله طوال حياته أكثر من دقائق معدودة . ونحن وقوف .

وفي عهد عبد الناصر يعين الحكيم عضواً بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بدرجة وكيل وزارة ولتيم اختياره سنة ١٩٥٩ مندوباً لمصر في هيئة اليونسكو بباريس ، ويحصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦١ .

والحكيم هنا ربح بالثورة وتحمس لقائدها واستقبلها استقبالا حسنا ، والثورة وقائدها قدما التقدير المعنوي والتقدير المادي للحكيم . . فعندما يكتب كتابه (عودة الوعي) يكون قد كتبه من منطلق سليم هو تناقضة مع إجراءات غير سليمة للثورة نفسها وتناقضة مع مواقف للقائد منافية لحقوق الإنسان . . وهذا كله يجعل من تصرف الحكيم تصرفا لا حقد فيه ولا تنكر فيه ولا تصفية لحسابات قديمة .

لم تكن هناك خصومة من جانب الحكيم أو من جانب عبد الناصر وهذا ما يجعل لما كتبه الحكيم في (عودة الوعي) قيمة خاصة . يتناول الحكيم أحداث يوليو في رقعة زمنية فسيحة من ٢٣ يوليو ٩٥٢ حتى رحيل عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ والمهمة الكبرى لحامل القلم هي الكشف عن الحقيقة .

اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ بنودها هي البنود نفسها التي سبق عرضها على مصر ورفضتها الأحزاب . . كان بالاتفاقية شرط يسمح للانجليز بالعودة إلى مصر إذا تعرضت المنطقة لأخطار الحرب . ولما كان بقاء السودان مرتبطا بمصر هو العقبة التي فشلت عندها كل مفاوضات سابقة خاصة بالجلاء فإن قادة يوليو تركوا نهائيا موضوع السودان ووقعوا اتفاقية الجلاء . وقد سمع «الحكيم» النحاس باشا يقول . . لولا قضية السودان لثم الجلاء عن مصر منذ العشرينات .

وقناة السويس ما كادت تستقر في أيدينا بأعجوبة في عام ١٩٥٦ ، ونرى ذهبها يلمع في أكفنا حتى مضينا نلقى به على تلال اليمن السعيد ، والقبائل حتى الموالية لنا كانت تأخذ ذهبنا بالنهار وترصد لضباطنا وجنودنا في الليل .

وفي ٥ يونيو ١٩٦٧ فإن دخول جيوشنا تل أبيب لن يتأخر عن التاسعة مساء من نفس يوم ٥ يونيو .

والاستفتاء الذي تطبل له جميع الصحف مقدما لكلمة « نعم » بالخط الأحمر العريض ، ثم يخرج بنتيجة ٩٩.٩٩٩ معناه أن هذا البلد ليس له وعى ولا حرية ولا كرامة إنسانية . .

لقد عرفت مصر في تاريخها القريب زعيما معبودا هو « سعد زغلول » قائد ثورة ١٩١٩ ذلك في نظر الفلاحين هذا الزعيم لم تمنع عبادة الشخص له من وجود معارضين يخالفونه الرأي ، بل إن صحيفة معارضة تناولته بالتجريح وهو زعيم الأغلبية ، ورئيس الحكومة واحتكم إلى القضاء .

ولكن القضاء المصرى العادل لم يعط الحق لرئيس الحكومة وحكم ببراءة المعارضة .
ومصطفى النحاس حدث أن جاء إلى الحكم . . . وكنت مديرا لإدارة الإرشاد بوزارة الشئون
الاجتماعية والوزير هو « عبد المجيد عبد الحق » ونشر « توفيق الحكيم » مقالا في جريدة الأهرام
يهاجم الوفد وزعيمه ولم يمس الحكيم بأذى .
والمؤتمر القومى ينعقد . . . مجرد كتل بشرية لا عقل لها ولا تفكير وأذرع تلوح وأياد تصفق وأفواه
تهتف . . . وأصبحت الحناجر هى العقول . . . وإبتسامة الرضى ترسم على شفتى الزعيم . . .
وهنا تكمن مسئوليتنا نحن المثقفين ويقع علينا اللوم بل المحاسبة أمام التاريخ لأبد من محاكمة
لنا جميعا . . .
أرجو من التاريخ ألا يبرىء شخصا يحسب فى المفكرين ، وقد أعمته العاطفة المحبة للثورة
عن الرؤية ففقد الوعى بما يحدث حوله . . .

هذا قدره

ولقد قدر له أن يبحر دائما فى مياه صعبة . ومنحه الله القدرة على الإبحار بين الأمواج المتلاطمة
ابتعد عن السياسيين ولم يبتعد عن السياسة ابتعد عن الأحزاب ولم يبتعد عن المجتمع ومشكلاته ،
مرت عليه حربان عالميتان فأنحاز إلى الإنسان وإلى الديمقراطية وإلى الأطفال . . . (ولعنة الله على
العلم الذى ينزع الطعام من أفواه البشر ليضعه فى أفواه المدافع . . .) وعاش أربع حروب بين العرب
وإسرائيل . . . وقال كلمته المشهورة فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ (عبرنا الهزيمة) وشهد فى حياته حرب
اليمن . عاش حياته فنانا وعاش السياسة فنانا ، وقضى فى باريس أربعة أعوام وقرأ المقرر ولم
يتقدم للأمتحان وعاد من أوروبا عام ١٩٢٨ ليعمل فى النيابة فى الإسكندرية ، ووكيلا للنائب
العام فى طنطا وغيرها لخمس سنوات إلى أن نقل مديرا للتحقيقات بوزارة المعارف سنة ١٩٣٤ .

وعاش عصر الملك فؤاد والملك فاروق ، وفترات جمهورية محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور
السادات . . . وأخيرا رحل فى عهد « محمد حسنى مبارك » شهد الأحزاب كلها أمامه . . . وهاجم
الأحزاب فى عهد « محمد محمود » فطالب بفصله ولم يتمكن وزير المعارف « الدكتور محمد حسين
هيكل » من ذلك فخصموا من مرتبه ١٥ يوما ، وهاجم الأحزاب فى عهد حكومة « مصطفى
النحاس » . . . (فلم يلحق بى أذى) .

عاش جسرا ممتدا بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ . . . سنة ١٩١٩ سار فى التظاهرات يهتف للثورة

ولقائدها سعد . وسنة ١٩٥٢ قال إنه نادى بالثورة من قبل ولكنه ظل سنين لا يكتب كلمة تأييد واحدة سواء في مقال مباشر أو في عمل فني حرص « جمال عبد الناصر » على أن يقترب « الحكيم » منه ومن نظامه ، ولكن الحكيم لم يشكره لا بالمقابلة ولا بالمراسلة لقد تأصلت في نفسه (عادة البعد عن رجال السياسة والحكم) .

بطاقة عائلية

وتاريخ ميلاد الحكيم هو ٩ أكتوبر ١٨٩٨ ، ومكان الميلاد حى محرم بك بالإسكندرية . . والأب هو إسماعيل من رجال القضاء والأُم « أسماء » تركية بنت « سليمان » بن « ميلاد السيامى » أما جده لأبيه فهو « أحمد الحكيم » واسمه هو « حسين توفيق » فيكون اسمه الكامل : « حسين توفيق إسماعيل أحمد الحكيم » واختار أن يعيش بين الناس باسم « توفيق الحكيم » وكانت أمنيته وهو طفل أن يصبح (محولجى قطارات) وقال عنه زميل دفعته يحبى حقى : (شاب نحيل أصفر الوجه ، بارز العينين صموت ، على رأسه أقصر طربوش فى الفصل . ولو قيل لى يومئذ إن جارك هذا سيصبح نجما فى سماء الأدب لاستهزأت بالقائل) . .

الأسانيد :

- ١ - رجاء النقاش مقعد صغير أمام الستار .
- ٢ - فؤاد دواره مسرح توفيق الحكيم (المسرحيات السياسية) .
- ٣ - توفيق الحكيم عودة الوعى .
- ٤ - محمد السيد شوشة حياة توفيق الحكيم (٨٥ شمعة) .
- ٥ - محمد مهدى علام المجمعون فى ٥٠ عاما .

جمال عبد الناصر



معذرة لست البرين . . ولكفر زرقان المجاورة لميت أبو الكوم ، وللعسل وصل ، وللعلاج بالعطارة ، ومعذرة للأفندى الذى هو أول من حصل على الشهادة الابتدائية في ميت أبو الكوم - حسب رواية « أنور السادات » عن (الأفندى) والده . . ومعذرة للسيدة « همت مصطفى » التى اعتادت أن تقدم لنا حلقة يوم ٢٥ ديسمبر من كل عام ، يوم ميلاد الرئيس الراحل « أنور السادات » .

عبد الناصر هو القائد والمنظم للضباط الأحرار والسادات هو أحد قادة الضباط الأحرار ، ربما كان له دور قديم ، ولكن تأخر انضمامه إلى اللجنة التأسيسية ، بل قامت حوله اعتراضات حادة ، وعبد الناصر حكم مصر قبله ، وقدر للسادات أن يعقبه في حكم مصر بعد رحيله في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، ولست أجد تشبيها للعلاقة بين جمال عبد الناصر وأنور السادات أكثر طرافة من حديث لأنور السادات عن (وابور الزلط) في طفولته بميت أبو الكوم أنقله عن كتاب (البحث عن الذات) صفحة ٢١ .

(وابور الزلط في كل مرة أصادفه كنت أراه يسير ورائى . . أسرع الخطى فيسر خطاه . . أجرى فيجرى خلفى . . ماقصده بالضبط ؟ واضح أنه يسعى ليدوسنى تحت عجلاته الضخمة . . كلما نظرت خلفى رأيت يلاحقنى فيزداد ذعري . . ولم يكن لينقذنى منه كل مرة إلا إذا انعطفت في حارة ضيقة لا تسمح بمروره . .) لقد كان « عبد الناصر » دائما هو وابور الزلط الذى يلاحق أنور السادات فيصاب بالذعر .

من الطبيعى إذن أن أعطى هذه الحلقة (لوابور الزلط) « جمال عبد الناصر حسين خليل سلطان » الذى دخل تاريخ مصر ، وتاريخ البلاد العربية ، وتاريخ العالم في العصر الحديث تحت اسم « جمال عبد الناصر » .

وتاريخ عبد الناصر كتبت عنه مقالات كثيرة ، وبحوث كثيرة ، وصدرت عنه كتب كثيرة ، من أجل هذا فإننا نقصر حديثنا هنا على نقطة واحدة هي (التطابق الكامل بين أهداف أمريكا وإزاء الثورة الشعبية المصرية التي تصاعدت عامي ١٩٥٠ ، ١٩٥١ والموقف العملى لجمال عبد الناصر طوال سنوات ٥٢ ، ٥٣ ، ١٩٥٤) معطيات التاريخ تقدم لنا تطابقا مذهلا بين التخطيط الأمريكى والتطبيق « الیولیوى » إزاء الحركة الشعبية المصرية .

ونحن هنا لانتحدث بمفهوم البعض عما يسمونه (بالاتفاق الخفى بين عبد الناصر والدوائر الأمريكية قبل یولیوى ١٩٥٢) ولانتحدث عن منطق وصف حركة ٢٣ یولیوى بأنها انقلاب أمريكى ، وإنما نقدم فقط أهداف الولايات المتحدة الأمريكية نقلا عن (الوثائق الأمريكية) ثم نعرض ما قامت به حركة ٢٣ یولیوى فى سنواتها من یولیوى ١٩٥٢ - یولیوى ١٩٥٤ من واقع ماجرى فعلا من أحداث ، فإذا بالتشابه غريب وإذا بالتطابق مدهل أترك تفسيره للباحثين وللدارسين ولن يملكون وثائق أكثر ويقتضى هذا التطابق المدهل - فى تقديرى - مفتاحا لمواقف عبد الناصر فيما بعد ، ويقدم تفسيراً لما حدث أثناء ولاية أنور السادات أيضا .

وقبل أن نغرق فى الوقائع وفى التفسيرات تلح علينا صورة إنسانية لطفولة عبد الناصر وصدر شبابه ، وصورة حزبية فى شبابه وصدر كهولته .

كان « عبد الناصر حسين خليل سلطان » قد غادر (بنى مر) فى محافظة أسيوط إلى الإسكندرية . وعندما كان « جمال » فى الثامنة من عمره انتقل ليعيش مع عمه (خليل) فى حى الموسكى بالقاهرة . وفى التاسعة من عمره توفيت والدته التى كان يحبها أعماق الحب . وعاد « جمال » من القاهرة إلى الإسكندرية بعد وفاة والدته ليعيش مع جديه لوالدته وتلحقه أسرة والدته بمدرسة العطارين الابتدائية ويعود مرة أخرى ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ليعيش مع عمه (خليل) فى القاهرة ثم ترك بيت عمه خليل الذى انتقل إلى المحلة الكبرى وعاش مع والده الذى كان قد نقل للعمل بالقاهرة . وعام ١٩٣٦ أجبهر والده على أن يعيش مع عمه خليل فى المحلة الكبرى . وعاد إلى القاهرة ليلتحق بالكلية الحربية . . فترة قاسية أسريا ووجدانيا وعاطفيا وماديا ، ثمانية عشر عاما منذ ميلاده فى ١٥ يناير ١٩١٨ لم يذق فيها حنانا أو راحة أو استقرارا .

عدم الاستقرار الحزبى

وعلى المستوى الحزبى ونشاط « جمال عبد الناصر » قبل ٢٣ یولیوى ١٩٥٢ يقول هو فى ١٨ نوفمبر ١٩٦٥ أمام الشباب فى حلوان :

(أنا قبل الثورة كنت على صلة بكل الحركات السياسية . . يعنى مثلا كنت أعرف الشيخ حسن البنا . . لكن ماكتش عضو في الإخوان . . وكنت أعرف ناس في الوفد ، وكنت أعرف ناس من الشيوعيين . أنا باشتغل في السياسة من أيام ماكنت في الثالثة ثانوى . وأول ما اشتريت . اشتريت في مصر الفتاة وبعدين حصل خلاف وسببت مصر الفتاة وانضمت للوفد . وبعدين نفس الشيء حصل في الوفد) .

ووثائق هذه القوى السياسية ، وشهود الأحداث ، والوقائع التاريخية تؤكد أن عضوية « جمال عبد الناصر » في هذه الجماعات كانت عضوية كاملة وليست مجرد معرفة (ناس) في هذه الجماعات .

كان عضوا في (مصر الفتاة) وقد كتب « محمد صبيح » عن هذه الفترة كتابة موثقة كان عضوا عاما وليس مجرد معرفة !

ومنذ مطلع عام ١٩٤٤ كان عضوا وليس مجرد معرفة . في الخلية السرية الأولى للضباط في (جماعة الإخوان المسلمين) ومعه « عبد المنعم عبد الرؤوف ، وخالد محيى الدين ، وحسين حمودة ، وصالح الدين خليفة » وفي أوائل عام ١٩٤٦ وفي منزل بحى الصليبية بجوار سبيل أم عباس ، منزل « عبد الرحمن السندى » رئيس التنظيم السرى . دخل جمال عبد الناصر هو وزملاؤه حجرة بها ضوء خافت ومفروشه بالحصيرة يجلس بها رجل مغطى بملاءة وأخذ البيعة على المصحف والسيف .

وكان عضوا - وليس مجرد معرفة - في تنظيم حدتو الشيوعى (الحركة الديمقراطية للتحريرو الوطنى) باسم حركى هو « موريس » .

أما انضمامه إلى (الوفد) فقد ذكره هو في كلمته التى أشرنا إليها وعلاقته مؤكدة بالمرحوم عزيز فهمى وبالأستاذين إبراهيم طلعت وأحمد أبو الفتوح وبالمهندس رفيق الطرزى .

لقد كانت له سباحة داخل هذه الجماعات السياسية ربما تفسر لنا مواقفه من هذه الجماعات في مجالى المهادنة أو القمع بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

مقدمات عن الطفولة والنشاط الحزبى لمن يريد أن يفسر مواقف « الفرد » بأيام الطفولة وأحداث الشباب .

الوثائق الأمريكية

والوثائق الأمريكية التى نقصدها هنا هى تلك التى وردت ضمن دراسة قام بها « الدكتور رضا شحاته » وهو مستشار بالخارجية المصرية ، والوزير المفوض الآن لسفارتنا فى باكستان أى أن الذى أعد الدراسة وترجم نصوص الوثائق دبلوماسى مصرى يعمل بوزارة الخارجية المصرية ، وقد عرض الدراسة ولخصها « غنيم عبده » وهو فيما يبدو من كتاباته ناصرى أو على الأقل غير معاد لعبد الناصر ، وقد قامت بنشر هذه الدراسة ونصوص الوثائق الأمريكية بمجلة المصور المصرية فى أعدادها من (٣١ يوليو - ٢١ أغسطس ١٩٨٧) .

فى تقرير أمريكى لأول مرة فى مطلع عام ١٩٤٩ . . (يبدو من تطور الأمور فى مصر من سيئ إلى أسوأ أن الثورة قد أصبحت أمرا محتوما) والثورة التى يشير إليها التقرير الأمريكى هنا هى الثورة الشعبية التى تخشاها الولايات المتحدة الأمريكية والتى حذرت منها فى وثائقها وليست هى (ثورة ٢٣ يوليو) كما قد يتبادر إلى الأذهان . . فالتقرير يشير أيضا إلى (أنه فى كل الظروف الراهنة فإن الصراع سيحتدم بين الملاك والمعدمين . . إن المستقبل فى مصر كئيب . .) ومع تطور الأمور خاصة بعد أن قام « مصطفى النحاس » بالغاء معاهدة ١٩٣٦ فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ تقول الوثائق . . « قدر كافرى فى أعقاب الغاء معاهدة ١٩٣٦ أنه ما لم يتم التوصل لحل حول القناة فإن انفجارا مدويا لن يكون أمرا مستبعدا وإنه سيكون له تداعيات تصل إلى الثورة والسيطرة الشيوعية » واضح هنا أن الثورة التى تتوقعها وتخشاها أمريكا هى ثورة تؤدى إلى السيطرة الشيوعية ! وتكشف التقارير عن قلق أمريكا من مقاطعة العمال المصريين للقواعد البريطانية وتصب جام غضبها على (الوفد) بسبب هذه الأحداث . (إن الولايات المتحدة تبنى الأسف لاستمرار حرب العصابات ضد البريطانيين الأمر الذى يزيد من تفاقم المشكلات الداخلية فى مصر . . إن القلاقل الناتجة عن مقاطعة العمال المصريين للقواعد البريطانية أمر يؤثر فى الوضع المضطرب فى الشرق الأوسط) ولهذا يصف التقرير الأمريكى الوفد (بأنه أفسد حزب سياسى فى تاريخ مصر الحديث) وبعد حريق القاهرة والإطاحة بحكومة الوفد يقول التقرير (وقد أبدى السفير الأمريكى فى القاهرة ارتياحا تاما لتغيير حكومة الوفد) .

الحركة الشعبية

ولكن ماذا حدث فى القاهرة طوال حكومة الوفد « ١٩٥٠ - ١٩٥٢ » وبفعل الحريات التى أتاحها حكومة الوفد مما أثار مخاوف أمريكا من ثورة شعبية قد تؤثر على النفوذ الغربى كله فى

المنطقة ؟ وجعل أمريكا تترتاح لتغيير حكومة الوفد ، وفي بعض التحليلات السياسية أنها عملت على الإطاحة بحكومة النحاس باشا .

على النطاق الوطنى قامت حكومة الوفد بإلغاء المعاهدة ، ودعت العمال المصريين إلى مقاطعة القواعد البريطانية ، وقام المرحوم « عبد الفتاح حسن » بتدبير العمل لآلاف العمال العائدين من المعسكرات البريطانية ، وأنتهت الحكومة المفاوضات وشجعت الكتائب المسلحة لضرب قوات الاحتلال وكون عزيز المصرى ومصر الفتاة وجماعة الإخوان المسلمين والشبان المسلمون كتائب مسلحة تضرب الإنجليز فى منطقة القناة ، وأطلقت الحكومة حرية حمل السلاح ، وتشكلت لجنة للكفاح المسلح فى القناة من « رفيق الطرزى ويس سراج الدين ورياض شمس ومحمد بلال وحنفى الشريف ومصطفى موسى » ، ودارت الأحداث كالأعاصير العالية وخرجت التظاهرات تمزق هيئة الملك على أرض الشارع ، وتصاعد الهجوم على كبار الملاك وأصحاب رؤوس الأموال المتعاونين مع الإنجليز . ووقف ضباط الجيش وضباط البوليس مع الجماهير . . ودخل الفلاحون والعمال المعركة وارتفع صوت « خالد محمد خالد » يطالب بإصلاح زراعى وبتحديد الملكية وبالقضاء على الخيانة والفساد . ونزل مصطفى النحاس إلى الشارع على رأس تظاهرة من مليون مواطن ، وتداخلت شعارات الاستقلال الوطنى والثورة السياسية والثورة الاجتماعية . وارتعدت فرائص الجالس على العرش ، وفزعته قوات الاحتلال ، وسيطر القلق على أمريكا . وكان لابد من الإطاحة بحكومة الوفد حتى يمكن وقف هذا المد الشعبى المتصاعد ، وفى كتابه « الإخوان والثورة » على صفحات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ يشير الصديق الحميم لجمال عبد الناصر وقطب الإخوان المسلمين « حسن العشماوى » إلى جمال عبد الناصر على أنه الذى أحرق القاهرة فى ٢٦ يناير .

على أية حال حدث حريق القاهرة ، وأطيح بحكومة الوفد ، وكتبت « التايم » الأمريكية « إن الولايات المتحدة الأمريكية تنظر إلى أحداث مصر نظرتها إلى أحداث اليونان سنة ١٩٤٧ عندما حاولت أن تحل محل بريطانيا هناك ، وجاءت أربع وزارات من ٢٧ يناير حتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . وعلى الجانب السياسى حملة سياسية للتشهير بالوفد ، وتصفية الحركة الشعبية وتنظيماتها ووقف أعمال الكتائب فى القناة واعتقال عدد كبير من العناصر الوطنية من الجماعات السياسية المختلفة .

أمريكا و٢٣ يوليو

وتشير الوثائق الأمريكية إلى أن الملك « فاروق » اتصل بالسفير الأمريكى « كافرى » أكثر من مرة ولكن « كافرى » أكد لفاروق أن الحركة ليست موجهة له شخصيا ، كما توضح الوثائق أيضا أن

«الخارجية الأمريكية ناقشت انقلاب الجيش في مصر مع ممثلى السفارة البريطانية ، وأكدت أن حركة الجيش مسألة داخلية » أى لا ضرورة لأى تدخل من جانب بريطانيا . وعلى هذا « أكد الملحق العسكرى البريطانى لمحمد نجيب فى ٢٤ يوليو أن بريطانيا لن تتدخل » .

وقابل « على صبرى » الملحق الجوى بالسفارة الأمريكية « ديفيد ايفانز » حسب ما جاء فى الوثائق الأمريكية - وطرح عليه «خاوف رجال ٢٣ يوليو من تطلع الوفد للحكم ، ومن مهاجمة الشيوعيين للانقلاب ، ونفى أية صلة للحركة بالإخوان المسلمين » وفى صباح ٢٤ يوليو أيضا اجتمع « البكباشى سليمان محمود ، والصاغ عبد النعم النجار » بديفيد ايفانز وأبلغاه « بطلب معونة عسكرية ومعدات من أمريكا والاشتراك فى قيادة مشتركة مع الحلفاء والقضاء على النفوذ الشيوعى » وتشير الوثائق إلى مسألة خطيرة عن لقاء نجيب مع كافر فى ٢٠ أغسطس « وتحدث كافر عن برامج الإصلاح الزراعى ، وخطورة التسرع فى إطلاق سراح الشيوعيين » .

ملحوظة : لم يتم إطلاق سراح الشيوعيين ، وأعلن عن الإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر . ويقول التقرير أيضا : « وقد نقل أباطه يقصد وجيه أباطه - أن الصحف الشيوعية المعارضة . . الملايين ، الاشتراكية ، الكاتب المصرى - يقصد مجلة الكاتب لأنصار السلام ، سوف يوقف صدورها ، وأنه من المنتظر إغلاق المصرى أفندى يقصد جريدة المصرى » وهذا ماحدث فعلا . . وإن كان قد تأخر إغلاق المصرى حسب خطة عبد الناصر إلى عام ١٩٥٤ ، وقد اقتضت الظروف ضرب الوفد والشيوعيين ومهادنة الإخوان إلى أن طاردهم عبد الناصر بشراسة عام ١٩٥٣ . وتم حل الأحزاب والغاء دستور ١٩٢٣ وفتح المعتقلات .

عود على بدء

والمؤرخ وهو يسجل لفترات حكومة الوفد من يناير ١٩٥٠ - يناير ١٩٥٢ ، وفترات ٤ وزارات من ٢٧ يناير - ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وفترات نظام يوليو من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - يوليو ١٩٥٤ يرى بوضوح أن الحركة الشعبية المصرية قد استخدمت السلاح لطرد المحتل ، وطالبت بإسقاط الملك من أجل جمهورية برلمانية ، ونددت بالنفوذ الأمريكى الذى يهدف إلى أن يحل محل النفوذ البريطانى ، ومارست حرية الصحافة وطالبت بحريات أوسع ، ووجدت الجماهير الشعبية فى الشارع هاتفة بمطالبها وأصبحت مصر على شفا ثورة شعبية من أجل ديمقراطية حقيقية وعدالة اجتماعية واستقلال وطنى .

ويرى المؤرخ بوضوح فى الفترة الثانية بداية للمعتقلات ومطاردة للقوى الشعبية ومهادنة النفوذ الأمريكى ومحاولات للتهدئة بإصلاحات شكلية . . أما فى الفترة الثالثة « القيادة الحقيقية فيها

لجمال عبد الناصر « فإن المؤرخ يرى بوضوح طردا للملك فاروق وإقامة لجمهورية دكتاتورية ، ويرى مطاردة القوى الشعبية بشراسة لم يكن لها مثيل في تاريخ مصر الحديث ، واتخذت الفئة العسكرية من الطبقة الوسطى موقفا معاديا للديمقراطية منذ اليوم الأول للاستيلاء على السلطة ، وضربت الأحزاب والمؤسسات السياسية والجامعة المصرية ومجلس الدولة والمؤسسات الصحفية ، وفتحت المعتقلات وباشرت أبشع ألوان التعذيب وصفت الحركة الشعبية .

وبعد أن تحققت هذه الأهداف التي كانت هي تماما أهداف أمريكا نشب الصراع داخل مؤسسة الفئة العسكرية من الطبقة الوسطى كأبشع مايكون الصراع ، خاصة عندما حاول أحد أجنحة هذه المؤسسة « محمد نجيب » أن ينسق مع القوى الشعبية التي حاولت أن تسترد مواقعها التي كانت لها قبل ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، ولإلإنصاف التاريخي فإن عبد الناصر بعد أن سيطر على مقدرات البلاد وفي مواجهة محاولات الولايات المتحدة الأمريكية . لزيادة نفوذها داخل مصر ، وحجب السلاح عن مصر ، واستخدام الضغط الاقتصادي حاول أن يشير في طريق مستقل ولم يكن أمامه غير الاتحاد السوفيتي في الخارج وغير الشيوعيين في الداخل . . ولم يكن أمام أمريكا إلا التآمر عليه ووضع نهاية له . وقد تم هذا- في تقديرنا - بهزيمة ١٩٦٧ التي أصابت عبد الناصر بجرح عميق في نفسه وفي زعامته وفي قيادته إلى أن رحل في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . . جمال عبد الناصر . . وطني نعم اشتراكي لا ، ديمقراطي لا ولا وألف رحمة عليك ياناصر .

الأسانيد :

- ١- د . إبراهيم دسوقي أباطه . الخطايا العشر .
- ٢- حسن العشماوى . الإخوان والثورة .
- ٣- حسين حمودة ، الضباط الأحرار والإخوان المسلمون .
- ٤- د . رضا شحاته ، أمريكا وثورة يوليو .
- ٥- روبرت سان جون « الرئيس » ترجمة سعد زغلول نصار .
- ٦- سيد مرعى . أوراق سياسية .
- ٧- صلاح عيسى ، الكاتب يوليو ١٩٧٤ .
- ٨- طارق البشرى . الحركة السياسية في مصر .
- ٩- موسى صبرى . قصة ملك و٤ وزارات .

حافظ عفيفى



طبيب الأطفال « حافظ عفيفى » عندما كان فى العشرين من عمره (ولد فى ٩ نوفمبر ١٨٨٦) هل كان يدري وهو يتزعم إضرابات طلاب المدارس العليا ضد سلطات الاحتلال بعد دنشواى (٣ يونية ١٩٠٦) هل كان يدري ؟ أو يتصور - مجرد تصور - أن يأتى يوم يؤلف فيه كتابا كله مديح للإنجليز (الإنجليز فى بلادهم) . وهل كان يدور بخاطره ان ينشر فى جريدة (الأهرام) فى ٢٥ أغسطس ١٩٥١ دفاعا عن معاهدة ١٩٣٦ ؟ . ودفاعا عن تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ؛ ويعلم تمسكه بالمعاهدة فى الوقت الذى أرتفع فيه المد الشعبى ضد الاحتلال . وفى الوقت الذى كان فيه « مصطفى النحاس » يعد فى تكتم شديد دون أن يعلم الملك والإنجليز قراره التاريخى بإلغاء المعاهدة ، والذى تم فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ .

« حافظ عفيفى » العضو النشط فى الحزب الوطنى ، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد هل كان يدري وهو يؤيد « الخديو عباس الثانى » وقت أن كان الخديو وجها مقبولا من المصريين . . هل كان يدري أو يتصور - مجرد أن يتصور - إن يأتى عليه يوم (٢٥ ديسمبر ١٩٥١) .

يتولى فيه رئاسة الديوان الملكى ؟ فيسمع بأذنيه هدير الجماهير بالموت له والمليكة فاروق ؟

« حافظ عفيفى » أحد اثنين اختارهما « سعد زغلول » ليمثلا شباب الحزب الوطنى (٢ ديسمبر ١٩١٨) لعضوية الوفد وأحد ثلاثة « مصطفى النحاس ، وويصا واصف ، وحافظ عفيفى » اعتمد عليهم « سعد زغلول » فى مصر عندما كان الوفد فى أوروبا اعتمادا شخصيا ، (ويلاحظ أن الثلاثة كانوا من أبناء الحزب الوطنى) . . حافظ عفيفى هذا ، هل كان يتصور - مجرد أن يتصور - أنه فى صيف ١٩٢١ يدعو إلى إنشاء (جمعية مصر المستقلة) بهدف مساندة « عدلى » فى مفاوضاته مع الإنجليز ، وذلك لأن « سعد زغلول » كان يعارض هذه المفاوضات ؟ ويبادر « حافظ عفيفى »

بارسال برقية تأييد لعدلى باسم الجمعية . وبعد فشل المفاوضات واصل « عفيفى » مساندته لعدلى ، ثم حصل على امتياز إصدار (جريدة السياسة) والآن من المقدمة إلى التفاصيل .

فى ديسمبر ١٩٠٥ تأسس (نادى المدارس العليا) وتم اختيار « عمر لطفى » أول رئيس له . وفى بلد كمصر كانت نسبة الأمية مرتفعة فيه كان من الطبيعى أن يقوم طلاب المدارس العليا بدور الطليعة التى تطالب بالاستقلال والتطور والتقدم . وعلى الرغم من أن طلاب (مدرسة الحقوق) كانوا عماد نادى المدارس العليا ، فإن عددا من طلاب المدارس العليا الأخرى كان له دور فى كل ما قام به هذا النادى ، ومن بين هؤلاء الطالب « حافظ عفيفى » .

وهذه المجموعة النشطة من طلاب المدارس العليا هى التى سارت واثارت خلف « مصطفى كامل » لأنه كان الصوت الجديده الذى يبعث الأمل فى الحركة الوطنية المصرية بعد انتكاسة الثورة العربية . وفى الوقت نفسه كان « محمد طلعت حرب » فى تلك الفترة الباكرا ينادى بالاستقلال الاقتصادى . ويدعو (سنة ١٩٠٦) إلى التعاون . وإلى إنشاء بنك وطنى .

وأصبح لحافظ عفيفى دور بارز داخل أعضاء الحزب الوطنى أيام مصطفى كامل ، وبعد رحيل مصطفى كامل اقترب من « محمد فريد » والقيادة الجديدة . ونرى له دورا واضحا فى الحرب التركية الإيطالية التى بدأت فى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ ، وذلك ضمن المجموعة الشعبية التى سافرت إلى (طرابلس الغرب) لمعاونة المجاهدين العرب فى ليبيا . ثم عادت القوى الشعبية والتضامنية فى يوليو ١٩١٣ بعد تخاذل السلطات التركية . فعندما انضم إلى الوفد المصرى نجده ينصرف إلى الجهاد تحت لوائه بكل طاقته إلى درجة أن « محمد فريد » زعيمه السابق يكتب فى مذكراته أن « حافظ عفيفى » لم يرد على رسالة من أحد زملائه السابقين فى الحزب الوطنى والذى كان معه فى طرابلس . مما جعل محمد فريد يغضب من هذا التصرف ويسجله فى مذكراته .

سنة ثانية وفد

إلا أن هذه الحماسة للوفد لم تدم فى الواقع أكثر من عامين من ديسمبر ١٩١٨ تاريخ انضمامه للوفد إلى ديسمبر ١٩٢٠ وهو الوقت الذى ظهرت عليه فيه أعراض الميل إلى المعارضين لسعد زغلول .

كانت غالبية الوفد قد سافرت من بورسعيد فى ١ أبريل ١٩١٩ متجهة إلى فرنسا ، وبعد فترة وجيزة يعود « ويصا واصف » إلى مصر وتتكون مجموعة ثلاثية من « مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى » نخلص لسعد أشد الإخلاص ، ويظل الاتصال بين سعد وبينهم بالشفرة التى يحفظ مفاتيحها « محمد كامل سليم » .

وفي ١٧ يوليو ١٩٢٠ يقدم « ملنر » مشروعه أو (مشروع المعاهدة) إلى الوفد . ورأى سعد أن المشروع حماية صريحة ، وأعلن ضرورة قطع المفاوضات ، والعودة من لندن إلى باريس ، ولكن أغلبية الوفد ومعهم « عدلى » رأوا ضرورة التريث . وانتهى الموقف إلى عرض المشروع على الأمة لأن فيه بعض الامتيازات وتقرر أن يعود إلى مصر « محمد محمود ، وعبد اللطيف المكباتى ، وأحمد لطفى السيد ، وعلى ماهر » ليشرحوا المشروع للأمة بأسلوب محايد . ورأى « سعد » أن ينضم إلى هؤلاء الأربعة كل من « مصطفى النحاس ، وويصا واصف ، وحافظ عفيفى » الموجودين أصلا في القاهرة . وسافر الأربعة من مارسيليا بالباخرة يوم ٣١ أغسطس ١٩٢٠ ليصلوا إلى الإسكندرية فجر يوم ٧ سبتمبر ، على أن ينجزوا مهمتهم خلال شهر وأن يعودوا إلى باريس يوم ٧ أكتوبر وأعد سعد زغلول خطابا خاصا إلى مصطفى النحاس جاء فيه .

(إننى لست من رأى المشروع الذى ستعرضونه على الأمة أنتم والقادمون إليكم من إخوانكم لأنه مشروع ظاهره الاستقلال وباطنه الحماية) . . وأرسل كذلك أكثر من عشرين خطابا لأعضاء الجمعية التشريعية البارزين بالمعنى نفسه . وقد حدد سعد تحفظاته على المشروع وقد بذل « مصطفى النحاس » جهودا مشكورة لتتمسك الأمة بهذه التحفظات ، بينما حاول المندوبون الأربعة أن يجعلوا منها عناصر ضغط عند المفاوضات . ولظروف عديدة اتجه رأى العام في مصر إلى أن المشروع يصح أن يكون أساسا للمفاوضات مع وضع التحفظات في الاعتبار . وفي أكتوبر ١٩٢٠ عاد المندوبون الأربعة ومعهم « حافظ عفيفى » و« مصطفى النحاس ، وويصا واصف » من مصر إلى باريس . وكان « سعد » قد لاحظ أن المندوبين الأربعة كانوا يرأسلون « عدلى يكن » بما يفيد إمكانية تقرير المشروع وغضب « سعد » من النتيجة التى وصل إليها المندوبون الأربعة واتهمهم بعدم الخيطة في مهمتهم . ثم عاد إلى مصر « مصطفى النحاس ، وحافظ عفيفى وويصا واصف ، في ٢٣ نوفمبر ١٩٢٠ ، وبعد ذلك عاد « عدلى يكن » وقد اعتزم أن يشكل وفدا مستقلا للمفاوضات تؤيده في ذلك غالبية أعضاء الوفد . وقد أفصح عن هذه الخطة الخفية « عبد اللطيف المكباتى » الذى أطلقوا عليه لصراحته البالغة « عبد اللطيف المدباتى » بقوله : (إنهم يريدون تنحية الرئيس سعد عن المفاوضات ، وأن يتولى أمرها عدلى ومن يختارهم . . ولقد حاولنا تهدئة سعد وزعمنا أننا على رأيه ولا نريد الدخول في المفاوضات الرسمية إلا بعد قبول التحفظات . . ولكن « سعد » ثعلب لم ينخدع بها قلناه .)

وشكل عدلى وزارته في ١٦ مارس ١٩٢١ - ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ . وهنا قام « حافظ عفيفى » بدور نشط في تأييد حكومة عدلى . وفي تأييد مفاوضاته مع الإنجليز وفي تكريس الانقسام عن الوفد . وحاول عدلى خداع سعد وطلب منه أن يشترك في وفد المفاوضات غير أن « سعد » رفض ونزل إلى الشارع يهاجم المفاوضات .

التحول والخروج

لم تعد المواقف تتحمل المحاور والمداورة . . سعد أو عدلى . . الاستقلال أو الحماية . . المشروع بتحفظات أو بدون تحفظات . . ونشط « حافظ عفيفى » فى تشكيل (جمعية مصر المستقلة) ومعه « حسن عبد الرازق ، وعلى إبراهيم ، وإسماعيل زهدى ، وصليب سامى ، ومحمد صالح » ، وآخرون . وأعلنوا أن هدف الجمعية مساندة وفد المفاوضات الذى يرأسه « عدلى يكن » . وأرسل « عفيفى » برقية تأييد باسم الجمعية . ولكن المفاوضات فشلت واستقال « عدلى » وتم اعتقال « سعد ومكرم عبيد وسينوت حنا وفتح الله بركات ومصطفى النحاس » ، وسار أنصار عدلى فى طريق تحويل (الجمعية) إلى حزب سياسى وحصل « حافظ عفيفى » على امتياز إصدار (جريدة السياسة) . ومارست وزارة « عبد الخالق ثروت » نفوذها من أجل إصدار الجريدة وإعلان الحزب الجديد . وأعلن حزب الأحرار الدستوريين فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ . وتم انتخاب ثلاثين عضوا لمجلس الإدارة من بينهم الأعضاء البارزون فى (جمعية مصر المستقلة) .

وداخل حزب الأحرار كان له دور ملحوظ فى اختيار « عدلى يكن » رئيسا للحزب سنة ١٩٢٢ ، وبعد أن استقال « عدلى » من رئاسة الحزب سنة ١٩٢٤ ، قام حافظ عفيفى ومحمد محمود بدور هام فى أن يتولى الرئاسة « عبد العزيز فهمى » وبعد أن أصر « عبد العزيز على الاستقالة سنة ١٩٢٦ ظل المنصب شاغرا إلى فبراير ١٩٣٠ ، حتى تولى « محمد محمود » رئاسة الحزب . وخطوة خطوة بدأ « حافظ عفيفى » عضو (نادى المدارس العليا) وابن الحزب الوطنى ، والذى شارك فى الحرب ضد الغزو الإيطالى فى طرابلس ، وأحد اثنين اختارهما سعد لعضوية الوفد ، وأحد ثلاثة كان سعد يضع أمله فيهم . . بدأ يبتعد عن هذا الطريق . وبدأ يتحدث عن (الإنجليز فى بلادهم) بشئ من المودة ، وأصبح وزيرا فى وزارة محمد محمود الأولى . وبدأ يتوق إلى أن يكون أحد العناصر الرأسمالية فى بلادنا .

وموقفه من الإنجليز أشرنا إليه فى البداية وسوف نعود إليه عندما يقترب الموضوع من نهايته . ووضع المالى سوف نعرض له بعد حين ، أما رغبته فى أن يكون وزيرا فقد حان أوانه .

سخر القدر من حافظ عفيفى إلى أبعد الحدود ، كان زميله فى النضال « مصطفى النحاس » قد أصبح زعيما وشكل وزارته الأولى (١٦ مارس - ٢٥ يونية ١٩٢٨) وكانت وزارة ائتلافية . وبالتزوير والتأمر صدر أول قرار فى تاريخ الوزارات (يبدأ تاريخ الوزارات فى مصر بإعلان الحماية فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤) بإقالة وزارة النحاس باشا الأولى . وتعقبها وزارة « محمد محمود » الأولى (٢٥ يونية ١٩٢٨ - ٢ أكتوبر ١٩٢٩) وجاء فيها « حافظ عفيفى بك » وزيرا للخارجية ، وهى الوزارة التى عرفت (بوزارة اليد الحديدية) وأوقفت الحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد ،

وأعادت العمل بقانون المطبوعات القديم ، وعطلت صحف المعارضة . وحرمت الاشتغال بالسياسة على الموظفين ، وبذلك يكون زميله الثانى « محمد محمود » قد أصبح رئيسا للوزارة ورئيسا للحزب . وبقي حافظ عفيفى وكيلًا للحزب ليضع في ذهنه أن يترك الحزب تدريجيا .

وتطل سخرية القدر مرة ثانية في ١٩ يونية ١٩٣٠ ، استقالت وزارة مصطفى النحاس الثانية (أول يناير - ١٩ يونية ١٩٣٠) وزارة التقاليد البرلمانية والصدام الحاد مع الملك فؤاد . وأعقبتهها وزارة إسماعيل صدقى المشهورة (٩ يونية ١٩٣٠ - ٤ يناير ١٩٣٣) وجاء فيها « حافظ عفيفى » باشا هذه المرة - وزيرا للخارجية . وهنا يتقدم « حافظ عفيفى » باشا باستقالته من عضوية حزب الأحرار الدستوريين . ويقرب من القصر أكثر فأكثر ، ويبحث عن المال أكثر فأكثر ، ويهادن الإنجليز أكثر فأكثر . ثم أراد أن تكون له حرية الحركة فاستقال من منصبه الوزارى كوزير للخارجية في ١٢ يوليو ١٩٣٠ ، بعد ٢٢ يوما قضاها في وزارة الخارجية . كان قد حدد طريقه .

نحو الثروة

عندما اختير حافظ عفيفى عضوا بمجلس إدارة حزب الأحرار الدستوريين كان ينتمى إلى مايمكن أن نسميه (الطبقة المتوسطة الحضرية) أى فئة الموظفين والمهنيين وقد تزايدت قوة هذه الفئات في المدن المصرية بانتشار التعليم ، واتساع الإدارة الحكومية . ونا دور قسم هائل منها في الحركة القومية ، ووقف قسم منها على الحياد ، واتجه قسم منها إلى مهادنة الاستعمار وهو القسم الذى اتجه إلى الإثراء الفاحش .

وفي مواجهة تصاعد التنظيمات العمالية وتنامى دورها ، قام اتحاد الصناعات سنة ١٩٢٢ ليضم الرأسماليين المصريين والأجانب والمتمصرين ، وكانت خلفه عقلية وجهود « إسماعيل صدقى » وهو أول من أخرجه الوفد أو أول من خرج على الوفد سنة ١٩١٩ . وحرص « صدقى » في وزارته ٢٠ يونية ١٩٣٠ - يناير ١٩٣٣ وامتدادها المعدل من يناير ١٩٣٣ - سبتمبر ١٩٣٣ على تنفيذ مطالب اتحاد الصناعات إلى أقصى حد ممكن ، وكانت فرصة للعناصر الرأسمالية للإثراء .

وأصبح « حافظ عفيفى » عضو مجلس إدارة البنك العقارى وشركة المكابس وشركة السكر . وشركة الملح والصودا ، والشركة العقارية المصرية ، وعضو البنك الأهلى منذ سنة ١٩٣١ . وقد جمع بين يديه رئاسة مجلس الإدارة ، أو عضوية مجلس الإدارة المتدب أو عضوية مجلس الإدارة لعدد ٤١ شركة ثلاث منها يزيد رأس مالها على المليون جنيه . وست لا يقل رأس مالها عن نصف مليون جنيه ووصل مجموع دخله من هذه الشركات في السنة حوالى (١٣٢) ألف جنيه بتقدير زمان .

وقبيل الحرب العالمية الثانية ، وعلى وجه التحديد في ١٨ أغسطس ١٩٣٩ كان « على ماهر » رئيسا لحكومة مصر ، وحسين سرى وزيرا للمالية ، وأوعز الإنجليز للحكومة بأن تسحب كل ودائعها لدى بنك مصر ، وأن تسحب كل أموال صندوق التوفير البريدى ، وحدث عجز في السيولة النقدية لدى بنك مصر . وتقدم « محمد طلعت حرب » رئيس مجلس إدارة بنك مصر إلى (البنك الأهلى) يطلب قرضا . ورفض البنك الأهلى . . وقال « حسين سرى » إن مطالب البنك الأهلى . . أن يترك طلعت حرب بنك مصر . . واستقال « طلعت حرب » في ١٤ سبتمبر ١٩٣٩ ، وحل محله « حافظ عفيفى » رئيسا لبنك مصر . .

نهاية طريق

استقر وضع حافظ عفيفى كواحد من كبار الرأسماليين في مصر ، وكريس لبنك مصر ، وكواحد من كبار رجال القصر ومؤيدى السياسة البريطانية . . ونحن الآن في ١٢ يناير ١٩٥٠ والوفديون يعودون إلى الحكم . وفي ظل الظروف الموضوعية في عهد حكومة الوفد أضرب العمال والفلاحون ، ووقفت الحكومة موقف الحياد في الحرب الكورية ، وكشفت الوثائق الأمريكية التى نشرت وترجمت إلى العربية أخيراً مدى كراهية أمريكا لحكومة الوفد ولرئيس الوفد « مصطفى النحاس » . وفي ٨ أكتوبر ١٩٥١ ألغت الحكومة معاهدة ١٩٣٦ .

وفي ١٣ أكتوبر رفض « النحاس » المشروع الرابع الذى تقدمت به أمريكا وإنجلترا وفرنسا وتركيا لضم مصر لحلف الشرق الأوسط . وبدأت المقاومة المسلحة في القناة بتشجيع الحكومة الوفدية وشاركت عناصر من البوليس والجيش في الكتائب الوطنية . وفي ١٣ نوفمبر ١٩٥١ نزل « مصطفى النحاس » على رأس مليون مواطن في تظاهرة شعبية كبرى . واشتعلت شوارع القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى بالتظاهرات الشعبية ضد الملك فاروق وأتباع فاروق وضد الاحتلال الإنجليزى وضد الولايات المتحدة الأمريكية . . وحددت الثورة الشعبية أهدافها في التخلص من الملك ، وفي الاستقلال الكامل . وفي العدل الاجتماعى . . وتحركت أمريكا وخلفها إنجلترا والملك . . تم تعيين حافظ عفيفى رئيسا لديوان الملك في ٢٥ ديسمبر ١٩٥١ . . وحدث الصدام الدامى بين القوات البريطانية ورجال البوليس في الإسمايلية في ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، وفي ٢٦ يناير ١٩٥٢ حريق القاهرة وفي الفجر أقالة حكومة الوفد . وفي الفجر التالى اعتقال الوطنيين وللتاريخ فإن « مصطفى النحاس » - لم يكن غافلا عن مؤامرة أمريكا ضد حكومته ، وكان يعلم أنها تدبر المؤامرة عن طريق « حافظ عفيفى ونجيب الهلالى وعلى ماهر » وهى العناصر التى مارست الدور المرسوم لها بعد الإطاحة بحكومة الوفد ، وفي الأسبوع الأخير من ديسمبر ١٩٥١ نشرت جريدتا

اخبار اليوم والكاآب أن وزارة الخارجية البريطانية واثقة من أن وزارة الؤفء سوف تستقيل آلال ثلاثة أسابيع قادمة وستلؤها وزارة مرشح لرئاستها آافظ عفيى . رها كانت هذه أمانة الانجليز لصديقهم آافظ عفيى ولكن أمريكا - كما كشفت الوثائق - كانت تدبر لتغيير أعمق فى المنطقة ، واستخدمت كل هذه الأساء من أجل هذه التغييرات .

كانت نهاية رجل من مصر ، وكانت نهاية لمرحلة تاريخية بأسرها ، وبداية لمرحلة تاريخية جديدة . . آفر الله لآافظ عفيى الذى رحل فى يونية ١٩٦١ .

الأسانيد :

- ١ - إبراهيم عامر ، ثورة مصر القومية .
- ٢ - طارق البشرى ، الحركة السياسية فى مصر .
- ٣ - ماريوس ديب ، الؤفء وخصومه ، ترجمة عبد السلام رضوان .
- ٤ - محمد زكى عبد القادر ، مذكرات وذكريات .
- ٥ - محمد فريد ، مذكراتى بعد الهجرة .
- ٦ - د . محمود متولى . تاريخ مصر الاقصادى والاجتماعى .

الشيخ حسن البنا



مكثت يومين أو أكثر ، أفكر كيف أبدأ . . إذا اخترت كلام واحد من مريديه ، ربما انطفت روح الحوار في المقال . . وإذا بدأت برأى واحد من أعدائه ، فهذا يسد طريق الفكر الحر ويغلق المنافذ إلى نظرة موضوعية محايدة .

وأخيرا ترك القلم قياده إلى مذكرات وذكريات « محمد زكى عبد القادر » فهى على الأقل تخلو من العبارات الجارحة . . يقول : - عرفت المرحوم الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين في وقت ما في الأربعينات . . عرفته معرفة أكيدة لا أقول إنها وثيقة ، فلم أكن أراه إلا في المناسبات العامة ومصادفة في أكثر الأحيان . . اذكر أننى لقيته في حفل جرى فيه الحديث عن المرأة والرجل ونظرة الدين إلى علاقة أحدهما بالآخر ، واذكر أننى قلت له : لماذا تنظر إلى المرأة والرجل كأنهما ضدان متنافران لكل منهما قضية تختلف من أحدهما إلى الآخر ، والأصح أنها متكاملان ، واذكر أن الشيخ أقرنى على رأى في ابتسامة ذات إحاء وإشراق وجه تحف به لحية مستديرة سوداء ، دقيقة منظمة جميلة . . لم أعرف وقتها هل كان إقراره وجهة نظرى مجاملة أو اقتناعا . . كل الذى أحسسته نوع من الود نحو الرجل . وذات يوم جرى الحديث بينى وبين الأستاذ مريت غالى بك حول الإخوان المسلمين ودعوتهم ، فلم أجد لديه نفورا منها أو منهم ، وفهمت أن بينه وبين الشيخ حسن شيئا من الود والتعاطف . . ثم سمعت فيما سمعت أن بعض الأقباط لا يجدون ضيرا في أن يكون بينهم وبين الدعوة والداعى مثل هذا الود والتعاطف ، وإن كنت قد لمحت في مجادلات ومحاورات أخرى بين عدد منهم أنهم يعترضون عليها ويجدون فيها بوادر تعصب من الجانب الآخر، وكلاهما لا يسيغه المجتمع المصرى ولا يقبله ، كما لا يسيغه الدين ولا يقبله .

زارنى الشيخ حسن البنا في مكتبى في (الأهرام) وكانت أول مقابلة خاصة بينى وبينه ،

وفجئت فيه رجلا رقيقا سمحا وديعا . . ربما أميل إلى القصر والامتلاء ، تضىء وجهه إشراقة فسرته بأنها طيبة في القلب وعمق في الرضا والإيمان والتسليم ، وفسرها أنصاره بأنها نورانية الهية . وأحسست أن الشيخ قلق يريد أن ينصرف . فأكدت له أن الحوار معه كنت أنتظره من وقت طويل فلماذا العجلة ؟ . . فقال لي في استحياء رقيق نم عن طيبة الرجل البالغة التهذيب : لي صديق في الخارج أخشى أن أبطىء عليه . . قلت له : ولماذا لم تدعه يدخل ؟ قال : خشيت أن يسيئك لو دخل بغير استئذان .

ودخل صديقه فإذا هو الفضيل الورتلاني ، رجل ضخم فيه بسطة في الطول والعرض وسماحة وبسمة تغطي وجهه . وأنست إليه ورحبت به ترحيبا كبيرا ، واستأنفت الحديث مع الشيخ حسن البنا استكمالا لما كنا قد بدأناه ، ولم يكن الفضيل الورتلاني مصريا على نحو ما حزرت وتحققت ولكنني لم أعرف بالذقة هويته . . ثم قتل الإمام يحيى إمام اليمن ، وذاعت الشائعات أن للفضيل الورتلاني يدا في قتله .

وكان أن اصدر الإخوان المسلمون جريدة يومية ، ورغب أحد الصحفيين أن يلتحق بالجريدة ، فاصطحبته إلى دار الإخوان المسلمين في الحلمية الجديدة ، ألفت الشيخ حسن البنا جالسا إلى مكتب صغير ، والغرفة مملوءة عن آخرها بأشتات من الناس ، وهم الشيخ بلقائي في حفاوة بالغة حمدتها له وأثرت في نفسي تأثيرا شديدا ، وعاد إلى مقعده وجلسته البسيطة العادية ، وطوى رجليه تحت جسمه . . وراقبته وهو يتحدث إلى أتباعه في حنان وعطف وأخوة ، يسأل عنهم وعن أولادهم وذويهم ومشكلاتهم .

وقلت للشيخ إن أنصارك يشتبكون مع الوفديين من وقت إلى آخر . . ولا أكتمك ان الناس يقولون أن القصر يؤيدك ويذيع أنك متعاطف معه ، فضحك الرجل في ثقة واطمئنان . . (وماذا تريدني أن أصنع لمن يقولون إنني معهم أو إنهم معي . . دعمهم يقولون مايشاءون . . أما أنا فأعرف طريقى ودعوتى . . ثم أدنى رأسه من رأسى وقال إنه لا خلاص ولا تقدم للبلاد العربية إلا إذا تخلصت من حكامها وأمرائها المسيطرين عليها . . أنا أعرف أنك لست من الإخوان المسلمين ولن تكون منهم ، ولكنني فيما أعرف عنك أنك أمين مستقيم ، ومن هنا أفضى إليك بدخيلة نفسي) . .

وإلى هنا أرجو أن أكون قد وفقت فيما اقتبسته من مذكرات وذكريات كاتب قادر مقتدر لا ناقة له أو جمل مع هذا أو ذاك . والفقرات السابقة زاخرة بالحديث عن الرجل وموقفه من الوفد والقصر والأقباط ورأيه في الحكماء العرب وجاذبيته المؤثرة في محدثيه وأتباعه ومريديه . ودأبه لكسب

المؤيدين والأنصار ، وتاريخ الرجل منذ نشأته إلى يوم مصرعه في يوم السبت ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ .

في مطلع هذا القرن ، مدينة الإسمايلية تنطوى على تناقض حاد . . فالحي الأوروبي شوارعه واسعة وتظللها الأشجار وبيوته أنيقة تحيط بكل بيت حديقة جميلة ، والحدائق هنا وهناك تفوح بروائح الزهور والفاكهة وبهذا الحي النوادي ووسائل الترف ومظاهر الرفاهية ، والوجوه البيضاء تلونها حمرة الغذاء الطيب والشراب المسكر ، وأصحاب هذه الوجوه لا يعرفون في الغالب لغة أهل البلاد وإنما هم يتكلمون اللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية بلدغة رائها التي تزيد من حسن النساء . . والأجور مرتفعة ، وأموال القناة تجري في بنوك وأيدي هؤلاء الأجانب . . . وعلى الجانب الآخر من المدينة كان هناك الحي البلدى ، الخواير ضيقة والشوارع تتسع قليلا ولكن الشوارع والخواير تطفح بالقذارة ، والفقر يأكل أجساد الناس ويغطي عليهم المرض وعدم التعليم . . وأهل البلاد الأصليون ينظرون إلى الأجانب الوافدين بعيون المقت والكراهية . .

وكان « حسن البنا » قد ولد عام ١٩٠٦ بالمحمودية محافظة البحيرة ، وإن كانت أسرته من إحدى قرى مركز (فوه) غربية . تلقى دروسه الأولى بدمهور . جاء إلى القاهرة سنة ١٩٢٣ حيث التحق بدار العلوم حيث تخرج فيها عام ١٩٢٧ وكان أول دفعته . وعين مدرسا بمدرسة الإسمايلية الابتدائية الأميرية للبنين وتسلم عمله في ٢٠ سبتمبر ١٩٢٧ . وظل يعمل مدرسا بالإسمايلية لمدة خمس سنوات إلى أن طلب نقله للعمل بالقاهرة فنقل إلى مدرسة عباس بالسبتية ، وقد ظل بالقاهرة مدرسا بالمدارس الابتدائية أربع عشرة سنة أخرى . وهكذا ظل تسع عشرة سنة ، لم ينل فيها الدرجة الخامسة إلا بحكم قانون الموظفين المنسيين . وفي مايو ١٩٤٦ استقال من عمله بالحكومة حتى يتفرغ لجريدة (الإخوان المسلمون) اليومية وبالقاهرة كان يسكن بشارع سنجر الحازن رقم ٥ بالحلمية الجديدة وبإيجار قدرة جنيها مصرى .

وكان « الشيخ طنطاوى جوهرى » قد اصدر جريدة الإخوان أسبوعية عام ١٩٣٣ ، ثم انتقل امتيازها بعد ذلك إلى الشيخ حسن البنا . وصدرت صحيفة (النذير) عام ١٩٣٨ سياسية أكثر منها دينية ، ثم اعتزلت الجريدة جماعة الإخوان المسلمين وانضمت إلى جماعة (شباب محمد) .

وبعد أن استقال « الشيخ حسن البنا » من العمل بالتدريس في مايو ١٩٤٦ جرت الأحداث بسرعة على أرض مصر إلى أن صدر قرار بحل جماعة (الإخوان المسلمون) في ٨ ديسمبر ١٩٤٨ ، وفي يوم ٢٨ من الشهر نفسه ، بعد عشرين يوما من قرار الحاكم العسكرى بحل الجماعة ، أطلق طالب بمدرسة الطب البيطرى هو « عبد المجيد أحمد حسن » وقد ارتدى ثياب ضابط شرطة ودخل إلى فناء وزارة الداخلية وأطلق الرصاص على « محمود فهمى النقراشى » رئيس الوزراء بينما

كان يتهدد لدخول المصعد . ويذكر « محمد زكى عبد القادر » أن آخر حديث له مع « الشيخ حسن البنا » كان اتصالا تليفونيا من « الشيخ » وكان « الشيخ » قد أعد بيانا باستنكار قتل المرحوم النقراشى ، وذلك لنشره بجريدة الأهرام . . وانقطعت الصلة بينهما إذ إن « الشيخ » اغتيل في ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ .

القصر والاغتيال

في مذكراته التى صدرت أخيرا ، وعلى صفحة ٦٢ سجل « عبد المنعم عبد الرؤوف » ، أحد الضباط الإخوان ، والذى قام بحصار قصر رأس التين إلى أن غادر « الملك فاروق » البلاد في الساعة السادسة من يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، كتب يقول : - في عام ١٩٤٩ كنت أقضى فترة نقاهة مرضية في القاهرة . وحضر الملازم سيد مرعى طالبا منى الاتصال بطبيب الملك الخاص (الدكتور يوسف رشاد) . . وفى بيت الطبيب التقيت بأنور السادات وبعض الضباط الشبان ، وكان من بينهم من اشتركوا معى في الحرب الفلسطينية ، ومنهم من اعتقل معى ، ومع المقدم أركان حرب محمد رشاد مهنا عام ١٩٤٦ في قضية توزيع منشورات ضد رئيس هيئة أركان حرب الجيش .

لم يتحدث معى الدكتور يوسف رشاد حديثا خاصة على انفراد . . وأثناء حديثه أشار إلى التخلص من رئيس الوفد المصرى المرحوم « مصطفى النحاس باشا » ومن المرشد العام للإخوان المسلمين الشهيد حسن البنا . . وقد أمن الحاضرون على حديث الدكتور يوسف رشاد ، بينما غمرنى الاضطراب وصعد الدم إلى رأسى وبادرت بالانصراف مستأذنا . وذهبت فورا إلى الصاغ محمود لبيب . . وبعد أسابيع قليلة من هذا اللقاء اغتيل الإمام حسن البنا في مساء ١٢/٢/١٩٤٩ . ويستطرد « عبد المنعم عبد الرؤوف » قائلا : (ومن قبل ذلك كانت قد انفجرت عبوة ناسفة عند منزل المرحوم مصطفى النحاس مساء يوم ٣٠/٤/١٩٤٨ فعرفت من هم المدبرون لهذه الأحداث) .

وهذا الكلام يشير بوضوح إلى أن (القصر) كان وراء محاولات اغتيال « النحاس باشا » و« الشيخ حسن البنا » . وهناك من يرى ان القصر ورئاسة الوزارة استدرجا « الشيخ البنا » إلى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة بحجة التفاهم معه على الإفراج عن الإخوان المعتقلين ، وعندما خرج وجد سيارة أجرة فى انتظاره ، وما كادت السيارة تتحرك حتى انطلقت الرصاصات إليه ، ولم تصب منه مقتلا فنزل من السيارة ، واتصل تليفونيا بالإسعاف ، ثم حمل إلى مستشفى قصر العينى حيث ترك بدون علاج حتى توفى تاركا ولدا واحدا هو « أحمد سيف الإسلام البنا » عضو مجلس الشعب حاليا ، وخمس بنات .

ويقول « عمر التلمساني » إن جثمان الإمام نقل وسط تظاهرة مسلحة من رجال البوليس ، ولم يسمح لأحد من الأسرة بالاقتراب من الجثمان ، ونقل الجثمان إلى مسجد (قيسون) القريب من المنزل ، ولم يسمح لأحد بتشيعه ، ولم يستطع أحد تقديم العزاء سوى « مكرم عبيد باشا » .

القومية والإخاء الوطني

تميز « الشيخ » بأفق واسع ، وبمنظرة شاملة ، وبأسلوب حضارى وأكد في (دعوتنا في طور جديد - ليس يضيرنا في هذا كله أن نعى بتاريخ مصر القديم ، وبها ترك قدماء المصريين من آثار الحضارة والعمران ، وبها سبقوا إليه الناس من المعارف والعلوم والفنون ، فنحن نرحب بمصر القديمة ، كتاريخ فيه مجد وفيه عزة وفيه علم ومعرفة) ولكنه رفض اتخاذ تلك المصرية القديمة كمنهاج عمل لمصر الإسلامية . على أية حال فقد كان « الشيخ » انضج فكرا من المسئول عن المعارف بعد الثورة والذي بعث بتعليقات سرية إلى الإدارات المختلفة بعدم ذكر أى شيء عن حضارة مصر القديمة .

وذكر في رسالته (إلى الشباب) . . يخطيء من يظن أن الإخوان المسلمين دعاة تفريق عنصري بين طبقات الأمة ، فنحن نعلم أن الإسلام عنى أدق العناية باحترام الرابطة الإنسانية العامة بين بنى الإنسان . .

وقد حرم الإسلام الاعتداء حتى في حالات الغضب والخصومة . . وأوصى بإنصاف الذميين وحسن معاملتهم ، فلهم مالنا وعليهم ما علينا وكتب في صحيفة الإخوان « إن سماحة الإسلام تجعل بره وصلته تتسع لأبناء قومنا وإن كانوا على غير ديننا . . بل إن تعاليم الإسلام تقضى علياًبنائه أن يكونوا مع أهل التعاقد سواسية لهم مالهم وعليهم ما عليهم) .

ولا أحد ينكر أن صحف الجماعة نشرت بعض مقالات مثيرة في مضمونها للأقباط ، ولكن لا أحد ينكر أيضا ما اتسم به موقف الإخوان المسلمين من الأقباط من اعتدال ، وحرص الشيخ البنا على عدم عودة الفتنة الطائفية وحرصه على نفى تهمتي التعصب الدينى وإشاعة الفرقة بين أبناء الأمة .

الزعامة الدينية

ما من أحد يتصل بالشيخ إلا وقد ترك لديه أبعد الأثر . . يقول « الرئيس أنور السادات » في كتابه (البحث عن الذات) ص ٣٥ (. . كان ممتازا في اختياره للموضوعات وفهمه للدين وشرحه وإلقائه . . من كل النواحي فعلا كان الرجل مؤهلا للزعامة الدينية . . هذا إلى جانب أنه

كان مصرياً صمياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من دماثة خلق وسباحة وبساطة في معاملة الناس . . أعجبت به كل الأعجاب . . فبعد أن انتهى من المحاضرة هنأته من كل قلبى . . وقبل أن يخرج دعائى لحضور درس الثلاثاء الذى كان يليه كل أسبوع . .) .

والأستاذ « عمر التلمسانى » يقول : - البداية كانت في مارس ١٩٢٨ في مدينة الإسمايلية ، وأول تشكيل للجماعة كان يضم ستة من الإخوان ، قدموا البيعة لمدرس الابتدائى « حسن البنا » . . ومن الإسمايلية تحركت الجماعة إلى القاهرة ، لتبدأ مرحلة جديدة . . ذهبت إلى بيت الأستاذ حسن البنا في القاهرة واستقبلنى في حجرة متواضعة . . ومضى الحديث قرابة الساعة واقتنعت بوجهة نظره ، ولكنه لم يرض أن يستغل هذا الاقتناع وقال لى ، نرجى هذا لأسبوعين . . فإذا اقتنعت فلنلتق ، فإذا قبلت فنحن إخوان ، وإذا رفضت فنحن أصدقاء) . .

وضابط الشرطة « صلاح شادى » يقول : - . . ذهبت إلى ايتاى البارود وسمعت الرجل يتحدث لا عن نواقض الوضوء وفرائض الصلاة ، وإنما عن جوهر الإسلام . . وكان يحضر الحفل معى الأستاذ محمد فريد عبد الخالق شقيق زوجتى . . وفي اليوم الثانى كان الرجل يتحدث إلى الناس في حفل آخر في نكلا العنب ووجدت أنى منساق إلى هناك . . إليه . . مع الأستاذ محمد فريد عبد الخالق الذى أدركه من الرجل ما أدركنى . . ثم كانت ليلتى الثالثة في كفر الزيات ، وذهبت إلى هناك أسمع الجديد من أمر الإسلام . . وفي نهاية المطاف عقدت مع الرجل بيعة . .)
أما « عبد المنعم عبد الرؤوف » فيقول : - (في أواخر شهر مايو عام ١٩٤٢ ذهبت إلى المركز العام وأدخلنى الأخ الطوبجى غرفة فضيلة المرشد فوجدته ومعه رجلان ، هما المرحوم الصاغ محمود لبيب ، والدكتور مهندس حسين كمال الدين . . استقبلنى الثلاثة بحرارة . . وقال المرشد : إن أخاك الصاغ محمود لبيب سيكون المشرف على تكوين المجموعة . .) وبدأ « عبد المنعم عبد الرؤوف » في ضم « النقيب جمال عبد الناصر حسين ، والملازم أول حسين حمودة ، والملازم أول سعد توفيق ، والملازم أول صلاح الدين خليفة ، والملازم أول خالد محمى الدين وتتفق رواية « حسين حمودة » في كتابه (الإخوان والضباط الأحرار » مع رواية « عبد المنعم عبد الرؤوف » ومضمون الرواية أن (الضباط الأحرار) هم في الأصل مجموعة من الإخوان المسلمين تكونت بمعرفة المرشد العام « حسن البنا » .

ولكن الداعية والمرشد العام والإمام قد رحل في ١٢ فبراير ١٩٤٩ وابتعد عبد الناصر بالمجموعة عن جماعة الإخوان المسلمين . . ماذا لو عاش المرشد العام ؟ هل كان في مقدور عبد الناصر أن ينسلخ بالمجموعة ؟ وهل كان من الممكن أن يعزل الإخوان عن السلطة بعد استيلاء الضباط الأحرار على الحكم ؟ رحل « المؤسس » فسرعان ما انقسمت الجماعة . رحل « المفكر » ففرض

الجهاز الخاص سطوته على أجهزة الجماعة بما فيها مكتب الارشاد . وفي النهاية . . هل أنا كتبت الكثير عن الجماعة ؟ . . لا . . وهل كتبت الكثير عن « الشيخ حسن البنا » ؟ . . لا . . وأنا أكتب في سطر واحد أن (الجماعة) بعلم أو دون علم « الشيخ حسن البنا » قد أخطأت ودفعت ثمننا باهظا . هو غياب « الشيخ حسن البنا » .

الأسانيد :

- ١- أنور السادات . . البحث عن اللات . .
- ٢- صلاح شادى . حصاد العمر .
- ٣- عبد المنعم عبد الرؤوف . . مذكرات .
- ٤- المستشار طارق البشري . . المسلمون والأقباط .
- ٥- محمد زكى عبد القادر . . ذكريات ومذكرات .
- ٦- محمد شلبى . . حسن البنا أمام وقائد .

الدكتور حسين فوزى



في مارس ١٩٦٧ كتب « الدكتور حسين فوزى » مقالا في مجلة (الطليعة) التي كانت تصدر في القاهرة تحت عنوان (الفن في المجتمع الاشتراكي) قال فيه : - بطيب لى أن أذكر يوما قضيتته ببلد صغير من بلاد الجمهورية الديمقراطية الشعبية للمجر ، بل قضيت أكثره على عمق مئاة الأمتار تحت سطح أرضه ، داخل منجم فحم ، فلما خرجنا من باطن الأرض قضيت ساعة في حمام ساخن لأعود بنى آدم . وقالت مرافقتى المجرية الحسنة : لقد رأيتنا في ظروف العمل القاسى ، تعال بنا لنشهد كيف يقضى العمال أوقات فراغهم . . ويممنا شطر (بيت الثقافة واستمعنا مع أعضائه إلى . . رباعيات بيتهوفن) وفي هذا المقال أراد (الدكتور حسين فوزى) أن يقول « إن الإنسان » عمل وفن . . أو عمل وثقافة . ورأيت « حسين فوزى » في هذا المقال بثقافته الواسعة ليؤكد رأيه . . ينتقل بنا من الكاتب السوفيتى « ايليا أهرنبرج » إلى مؤتمر الكتاب السوفيت الأول عام ١٩٣٤ ، إلى كتاب (الفن والمجتمع) للشاعر والناقد الفنى العظيم « هربرت ريد » إلى مطالعته أيام الشباب ، إلى أن يشير إلى أخطر ما يهدد مجتمعا المصرى ألا وهو التخنى والطراوة والاستسلام للمؤثرات الحسية ، والمخدرات الفنية إلى أن يختم مقاله ذاك بقوله . . (واجبنا دائما أن نطهر أدوات الاتصال بالجماهير من الفن الرخو والعبث ، وأن نطارد فى المسرح والسينما والمطابع كل آثار التقسيم وكما أن الشعب الجاد يتج الفن الجاد ، فإن الجدية فى الفن تخلق الشعب خلقا جديدا) .

وأحسب أن الجدية التى أشار إليها المثقف الراحل العظيم ، كانت هى طابع حياته كلها . . فى الثقافة ، والفن ، والسلوك . . وها نحن نصحبه فى مسيرته الطيبة من ١١ يوليو ١٩٠٠ إلى ٢٠ أغسطس ١٩٨٨ .

حى الحسين الذى يعبق بأريجيه الشعبى والدينى والوطنى ، كان قد مضى على ضرب الأسطول البريطانى للأسكندرية ١٨ عاماً كاملة ، فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٠ جاء إلى الدنيا « حسين فوزى » فى أسرة متوسطة ، وتسمى باسم « الحسين » والده على قدر من المعرفة ، وأمه لاتعرف القراءة أو الكتابة . على غير رغبته ألحقه أبوه بكتاب « الشيخ سليمان جاويش » وكانت الأسرة قد انتقلت إلى حى باب الشعرية ، وبقي يتردد على الكتاب من عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩٠٧ وبين حى الحسين وحى باب الشعرية وحى السيدة زينب كانت حركة الطفل والصبى والشاب ، يصحبه أبوه ، أو بصحبة أقرانه ، أو متفردا وتتأصل مصريته . ومع والده يرى الأهرامات وأبا الهول فينبهر الصبى أيما انبهار . وأحسبني على صواب إذا قلت أن (مصريته) قد رسخت فى وجدانه منذ صباه حتى آخر عمره . لم أزل أذكر منذ بداية الستينات دعوة ذكية تلقيتها من الصديق الراحل « عبد الرحمن صالح » ، المذيع بإذاعة ركن السودان ، كنت هناك فى مكتب رئيس تلك الإذاعة الزميل والصديق « الدكتور المعتصم سيد » رحمه الله ، وحن وقت تسجيل للدكتور حسين فوزى ، ورحبت بدعوة « عبد الرحمن » لى بأن أحضر التسجيل لأكون أول من يسمع حديث المفكر العظيم . وفى الاستوديو كنت صامتا بالطبع ودون أى حركة تفسد التسجيل ، ولكن الدكتور بدأ كالسيل النهمر ، الفكرة واضحة وناصعة لديه . . قال ، ما نصه ومعناه . . إنه مصرى ، وعمره أكثر من خمسة آلاف عام . . الأهرامات ومعابد مصر القديمة ميراثه وأرضه وبيته ، وكنائس الأقباط وأديرتهم ميراثه وأرضه وبيته ، والأزهر والمساجد ميراثه وأرضه وبيته . وانتفتخت أوداج الرجل وكأنه يفاخر الدنيا كلها وهو يكمل حديثه . . أنا مصرى . . أنا أصيل . . أعرف أصلى وفصلى . . جذورى تمتد فى أعماق التاريخ لأكثر من خمسة آلاف عام . ومنذ تلك اللحظة وأنا أضع هذا المفكر المصرى العظيم موضع التقدير .

مصرى هو ، تنمو مصريته معه وهو يتدرج فى الدراسة من التعليم الابتدائى ويحصل على الابتدائية عام ١٩١٢ والتعلم الثانوى ، ويحصل على التوجيهية عام ١٩١٧ ، والتعليم الجامعى ويحصل على بكالوريوس الطب فى مطلع عام ١٩٢٣ . ويعين طبيباً فى مستشفى الرمد بمدينة طنطا ، ويصدر قرار تعيينه طبيباً بمصلحة الصحة عام ١٩٢٤ فى عهد وزارة « سعد زغلول » التى عرفت بوزارة الشعب الأولى .

فى حداثق القاهرة ، وحول الأكشاك الموسيقية ، ينسى الصبى نفسه ، وتهز أصابعه ، وتتحرك قدماه على أنغام الموسيقى التى عشقها لآخر عمره وكان له مع الموسيقى قصة . ومع عصر كل يوم جمعة كان الصبى ينطلق من المنزل إلى كشك الموسيقى بالحديقة القريبة . ومن يرده فليبحث عنه أولاً هناك . وهكذا عندنا فى سنواته الأخيرة ، من كان يريده فليبحث عنه فى البرنامج الثانى بإذاعة جمهورية مصر العربية .

حصل على الشهادة المتخصصة في طب العيون ، وعمل بمستشفى الرمد عام ١٩٢٣ ، وصدر القرار بتعيين الطبيب «حسين فوزى» بمصلحة الصحة عام ١٩٢٤ . والتحق بالبعثة التي أعلنت عنها الحكومة المصرية للتخصص في علوم البحار وذلك عام ١٩٢٥ بفرنسا . وهناك يجد «حسين فوزى» نفسه . . يحصل على دبلوم الدراسات العليا في الأحياء المائية ومصائد الأسماك من جامعة تولوز بفرنسا . . ويحصل على بكالوريوس العلوم من السوربون ، ويترك نفسه على سجيته ليشبع من الموسيقى وألوان الفنون الأخرى .

وفى باريس تزوج من زميلة فرنسية كانت تدرس الآداب بالسوربون وهى التى سعدت فى حياته معها على امتداد ثلاثين عاما حتى توفيت بالقاهرة . وعاش هو بعدها وحيدا دون ولد ، ويبدو أنها كانا على اتفاق فى عدم الإنجاب . ومن فرنسا بدأ يرسل ببعض مقالاته إلى الصحف المصرية ليصل ما انقطع عندما كان يكتب فى مجلة (السفور) وهو طالب فى الطب إلى حين سفره فى بعثته الفرنسية . ومجلة السفور صدرت عام ١٩١٥ م بعد أن توقفت (الجريدة) . وكان صاحب السفور «أحمد حمدى» من أعضاء حزب الأمة ، ووضع السفور تحت تصرف مجموعة من المثقفين الشباب فى ذلك الحين تضم ذوى ثقافة انجليزية وذوى ثقافة فرنسية وذوى ثقافة قانونية وذوى ثقافة عربية . . نذكر منهم الآن الشيخ أحمد أمين والشيخ مصطفى عبد الرازق وعزيز ميرهم ويوسف الجندى ومحمد صبرى أبو علم ومحمد حسين هيكل ومنصور فهمى ومحمود عزمى . . ووجدت مقالات «حسين فوزى» بين مقالات هؤلاء جميعا والذين أصبح لهم شأن بعد ذلك .

وفى فرنسا رضع من ألبان الثقافة الغربية حتى شبع وارتوى وتشكل عقله ووجدانه وسلوكه . . وأصبح له تفكيره الخاص به وأصبح له أسلوبه المتميز أيضا . . الفصحى السهلة المطعمة بعبارات لها وقعها ولها وظيفتها من اللهجة العامية .

وعاد ليصبح عالما من كبار علماء البحار والأحياء المائية ، وفى عام ١٩٤٢ اختير كأول عميد لكلية العلوم بجامعة الإسكندرية والتى اختير مديرا لها أيضا عام ١٩٤٥ . وظل يبدع فى الكتاب والمقال فى الثقافة والفنون ، كذلك ظل يترك بصماته فى معهد الأحياء المائية ، وخرج إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وعكف على الدراسات الخاصة بعلوم البحار وإضافة إلى عطائه المتميز فى علوم الفن والموسيقى . كما كانت له إنجازاته فى كلية العلوم وجامعة فاروق الأول (الإسكندرية حاليا) . ثم اختير وكيلا لوزارة الثقافة ليسجل أروع إنجازاته فى تلك الوزارة ، بل أروع إنجازات تلك الوزارة بأسرها مما جعل طابور الحقد يتحرك ليزيحه عن الطريق .

فى مذكراته السياسية والثقافية كتب الدكتور « ثروت عكاشة » نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة ، والذى تولى وزارة الثقافة مرتين . . الأولى من أكتوبر ١٩٥٨ إلى سبتمبر ١٩٦٢ ،

والثانية من سبتمبر ١٩٦٦ إلى نوفمبر ١٩٧٠ يقول : إن الدكتور حسين فوزى قدم استقالته كوكيل لوزارة الثقافة في الفترة الأولى . وسجل الدكتور عكاشة أنه كان يود لو استمر العمل بينه وبين هذا المثقف العظيم . على أية حال البركة في « أولاد الحلال » على حد تعبير الأستاذ رجاء النقاش في مقاله الممتاز عن « الدكتور حسين فوزى » في مجلة المصور (٢ سبتمبر ١٩٨٨) . . وأولاد الحلال هؤلاء عملة رديئة عملت على طرد العملة الجيدة من السوق طبقا للقاعدة الاقتصادية المعروفة .

وقدر للعملة الجيدة ، ونقصد بها « الدكتور حسين فوزى » أن تترك من الأعمال لوزارة الثقافة مما يعد سجلا مشرفا إبان عمله وكيلا للوزارة حتى يوم اختلافه مع الدكتور ثروت عكاشة واستقالته من عمله الحكومي . وما نسجله له هنا مرجعنا فيه هو ما سجله « الدكتور ثروت » في مذكراته .

أقامت حكومة الثورة وزارة الإرشاد القومي ، وفي ٢٢ فبراير ١٩٥٨ أضافت إلى مهامها الإعلامية مهمة ثقافية حملت من أجلها اسم (وزارة الثقافة والإرشاد القومي) فأنشأت مصلحة الفنون ، وإدارة للثقافة والنشر ، ومركزا للفنون الشعبية ، وبرنامجا إذاعيا سمي (بالبرنامج الثاني) يهدف إلى الارتفاع بذوق الجماهير في مجالات الأدب والفن والموسيقى الرفيعة . وقد كان للعالم الفنان الدكتور حسين فوزى فضل المشاركة بالجهد الأساسي الواعي في هذا العمل الطليعي الجليل .

وكان مشروع (الألف كتاب) الذي صدر بالإدارة العامة للثقافة حين كانت تابعة لوزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٥ من بين المشروعات الأولى الثقافية في عهد الثورة .

وبهذا الصدد فإن آخر ميزانية لهذا المشروع كانت عام ١٩٦٩/٦٨ . وقد أعاد « الدكتور سمير سرحان » النشاط لهذا المشروع بعد أن تولى رئاسة الهيئة المصرية العامة للكتاب في أغسطس ١٩٨٥ ، وبدأ (المشروع الثاني) للألف كتاب الذي يشرف صاحب هذا المقال بأن يكون رئيسا لتحريره . ثم كانت (المكتبة العربية) و (المكتبة الثقافية) وسلسلة (تراث الإنسانية) وسلسلة (أعلام العرب) وسلسلة (مسرحيات عالمية) وغيرها من المشروعات التي كان للدكتور حسين فوزى وكيل الوزارة المثقف دور هام منذ عهد « الأستاذ فتحي رضوان » وأعطاه « الدكتور ثروت عكاشة » دفعة قوية . ولقد آمنت وزارة الثقافة بأن من أهم واجبات الدولة في ميدان النشر احتضان المشروعات الضخمة مثل دوائر المعارف والمعاجم ، فبدأت عام ١٩٥٩ بمشروع (دائرة المعارف الإسلامية) . وكانت وزارة الثقافة قد أصدرت في عهد « الأستاذ فتحي رضوان » مجلة (المجلة) في يناير ١٩٥٧ وتولى رئاسة تحريرها بالتعاقب الدكتور « محمد عوض محمد » ثم الدكتور

« حسين فوزى » والدكتور « على الراعى » والأستاذ « يحيى حقى » فالدكتور « عبد القار القط » ومع حلول عام ١٩٥٩ أرتفعت مقتنيات دار الكتب بمبنى باب الخلق إلى نصف مليون مجلد مكدسة بطريقة لايسهل معها تنظيفها ولا صيانتها ولا الانتفاع منها وأصبح التلف يترىص بأكثر الكتب قيمة وندرة ، فكانت أول الحلول انشاء عشرة فروع لدار الكتب فى أحياء القاهرة تتيح خدمة مكتبية يسيرة ومريحة . وظهر أول عرض لمسرح القاهرة للعرائس فى مارس ١٩٥٩ ، واستفاد من الزيارات المتبادلة مع أشهر المسارح المتخصصة فى أنحاء العالم حتى فاز فى عام ١٩٦٠ بالجائزة الثانية فى مهرجان بوخارست العالمى لفن العرائس . وفى هذه المرحلة شرعت الوزارة فى إنشاء (الفرقة القومية للفنون الشعبية) . . وقدمت فرقة رضا أول عروضها على المسرح فى أغسطس ١٩٥٩ ، وما لبثت أن انضمت إلى فرق الدولة فى عام ١٩٦١ . . ومنذ عام ١٩٥٩ أهتمت الوزارة بإنشاء مسارح جديدة . وبادرت إذاعة القاهرة بإنشاء أوركسترا الإذاعة عام ١٩٥٦ ، وأوصى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عام ١٩٥٧ بنقل تبعية الأوركسترا من الإذاعة إلى دار الأوبرا . ويقول الدكتور «ثروت عكاشة» صفحة ٥١٦ من الجزء الأول (ومن هذه البداية جهاد نفر من المثقفين يأتى على رأسهم الدكتور حسين فوزى فى الارتقاء ، به مضى أوركسترا الإذاعة ليحتل مكانه بين أجهزة وزارة الثقافة والإرشاد القومى مع بداية عام ١٩٥٩ تحت اسم أوركسترا القاهرة السيمفونى .

وضمن إطار وزارة الإرشاد القومى عام ١٩٥٧ نشأ جهاز خدمات تحت اسم (مؤسسة دعم السينما) بدأ نشاطه الفعلى عام ١٩٥٩ ، ونشأ (المعهد العالى للسينما) فى أغسطس ١٩٥٩ ، وفى عهد وكالة لوزارة الثقافة بدأ إنشاء معاهد الفنون المختلفة على أسس أكاديمية ، وبعدها رأى أن تتجمع هذه المعاهد وتستكمل تطورها فى أكاديمية الفنون) .

لقد تمكنت العملة الرديئة من طرد العملة الجيدة من وكالة وزارة الثقافة غير أن المسئول عن الثقافة « الدكتور ثروت عكاشة » كان عارفا لقدر الرجل وأثنى عليه فى أكثر من موضع فى مذكراته الهامة عن السياسة والثقافة . واستمرت الصلة بينهما حتى بعد إحالة الدكتور حسين فوزى إلى التقاعد ، وبعد التحاقه للعمل بالصفحة الأدبية بجريدة الأهرام عام ١٩٦١ . ونقرأ فى مذكرات الدكتور ثروت عكاشة على صفحة ٣٩٢ تين له أن (المعهد العالى للموسيقى) تدهورت أحواله فأوفد الدكتور حسين فوزى « إلى وزارة الثقافة فى الاتحاد السوفيتى لاختيار عميد جديد للمعهد . وعلى صفحة ٣٩٨ (الجزء الثانى) نقرأ للدكتور ثروت . . (أنشأت فى ١٩٦٨ مجلسا للمعاهد برياستى توطئة لتجميع هذه المعاهد فى أكاديمية للفنون . ولقد كنت أتوق إلى أن يرأس هذه الأكاديمية حسين فوزى بأستاذيته التى لا تنكر فرشحته لرياستها فى الفترة التى كنت أشرف بنفسى على الإعداد لها وأوفدته فى مهمة علمية إلى فرنسا والاتحاد السوفيتى على نفقة وزارة الثقافة . . وبعد عودته إلى مصر اشترط لقبول المنصب أن يحتفظ بمكانه فى صحيفة الأهرام . غير

أنى رأيت أن رئاسة الأكاديمية تستوجب فيمن يتولاها أن يتفرغ لها تفرغا تاما ، وتركت له أن يختار مايشاء : الأهرام أو الأكاديمية ، فاختار الأهرام .

لقد كان الدكتور ثروت عكاشة على حق لأن رئاسة الأكاديمية لايجوز أن تكون إلى جانب عمل آخر ، وكان الدكتور حسين فوزى على حق لأنه لم يزل يذكر (أولاد الحلال) الذين نجحوا في الإيقاع بينه وبين الدكتور ثروت ، ولم يكن الدكتور حسين فوزى يجيد السير في الدهاليز مثلما فعل الذين مارسوا العمل السياسى ، ولعبوا بالبيضة والحجر ، كان الدكتور حسين فوزى يعبرعن أفكاره باستقامة ووضوح حتى لو اختلف معه الكثيرون .

والدكتور حسين فوزى جزء لا يتجزأ ، مصريته التى ملكت عليه كل حركة من حركاته جعلته يحرص على مصر لايريد لها أن تتحد مع هذا البلد العربى أو ذاك . ثقافته الغربية سيطرت على نشاطه الفكرى بأسره ، وظل يعتقد أن التقدم والفكر والثقافة والتطور . . من هناك . . من الغرب . حرية الفكر وحرية العقيدة وحرية التعبير لم يتراجع عنها قيد أنملة وظل في صدام مع أية قيود يحاول البعض أن يفرضها عليه أو يفرضها على غيره .

سأله مرة زميلنا « محمد شلبى » في حديث معه لمجلة الجديد عام ١٩٧٥ . . ماهو تصورك للحياة الفكرية والثقافية والفنية عام ٢٠٠٠ ؟ كانت إجابة « الرجل » . . لا أستطيع تصورها إلا بعد أن أعرف اليوم مستقبل الحرية والديموقراطية في بلادنا ومتى تشرق شمسها ، الحرية كانت عنده كل شيء . . الحرية هى الأساس لبناء الإنسان . . والإنسان هو كل شيء لبناء الوطن . وعلى مسئولية الزميل « إبراهيم عبد العزيز » في حديث نشره بمجلة الإذاعة بعد رحيل السندباد إنه أجراه معه عام ١٩٨٣ . . تحدث السندباد « حسين فوزى » إنه قال لعبد الناصر في زيارة للأهرام . . . كان أهلنا وأصدقاء أهلنا ومدرسونا يقولون لنا نقوا بأنفسكم وأحبوا بلدكم لأنها أصل الحضارات ، والأجانب يعرفون ويعترفون بذلك ، ويقولون لنا أيضا إذا أردتم أن تحبوا بلدكم انظروا إلى أوروبا واعملوا على تقدم بلدكم ، فقال عبد الناصر . . طبعاً لا توجد بلد تستطيع أن تفعل شيئا من غير التكنولوجيا . .

وسكت « حسين فوزى » ولم يتكلم لأن عبد الناصر حصر الموضوع في (التكنولوجيا) أما « حسين فوزى » فيقول : - لقد قصدت بكلامى أن نبني الفرد في بلدنا ونعطيه الثقة بنفسه أمنا من الخوف لأن الخائف لن يحب إلا نفسه ولن يكون همه أن يبنى بلده بقدر ما يكون همه ضمان لقمة عيشه . . التكنولوجيا تشتري بالمال ، وسوف يأتى يوم ينتهى فيه المال . . فماذا بعد ؟ إن الضمان هو الإنسان نفسه . . عبد الناصر رجل له طاقة جبارة ولكنه شئت هذه الطاقة في حروبه الخارجية . . خرج بنا عبد الناصر من حكم فاروق الفاسد إلى نظام حكم ألغى دستور ١٩٢٣ . .

وما الحاجة إلى الدستور إذا كان سيتغير كلما جاء حاكم من الحكام . . فمن الضروري ألا يتغير الدستور إلا باستفتاء الشعب حقيقة لاصوريا .

لقد كان « حسين فوزى » مصر يا بلا حدود . . كان ينجل من إلغاء اسم مصر ليسمى الإقليم الجنوبى كمديرية من المديریات فى ظل الوحدة المصرية السورية ١٩٥٨ . . كان يكتب أمام توقيعه فى سجل الزيارات فى الدول الأجنبية « د . حسين فوزى - القاهرة » كان يؤمن بالوحدة العربية الفاتحة فعلا بفعل الإسلام واللغة العربية ، ولكنه رفض الوحدة السياسية لأنها تتحول إلى مطايا أنظمة الحكم - فى نظره - زائلة ، ولن تبقى إلا الشعوب تجسد رمز الوحدة العربية . . وعلى هذا - فى نظره أيضا - لا يوجد شىء اسمه تكامل مصرى سودانى لأن مصر والسودان دائما قلب واحد وشریان حياة واحد . . وهو يرى دائما أن تتكتل جهود الشعوب العربية لاستثمار إمكانياتهم المادية والبشرية لخيرهم وخير أجيالهم القادمة .

والسادات - فى رأى حسين فوزى - فى غاية الذكاء والنباهة و (ألعبان) كبير . . يسمح بإبراز أخطاء وسلبيات عبد الناصر ، ويظهر على أنه غير موافق على أسلوب الحديث عن أخطاء وسلبيات عبد الناصر . . والسادات رجل كتوم وأغواره عميقة ولا تستطيع أن تتبين من خلال ملامح وجهه إذا كان موافقا على الموضوع الذى تطرحه أمامه أو لا .

وحسين فوزى هو أول وأكبر مفكر عربى يزور إسرائيل . . زارها مرتين الأولى فى ديسمبر ١٩٧٩ ، والثانية فى أبريل ١٩٨٠ وألقى المحاضرات فى الجامعة العبرية ، وقدموا له الدكتوراه الفخرية . . وهذا الموقف أيدته فيه السياسيون وصحفيو السادات والكتاب الذين يؤيدون الصلح مع إسرائيل ويؤيدون اتفاقية السلام و (كامب دافيد) . . ويهاجمه فيه كل أعداء الصلح مع إسرائيل والرافضون للتطبيع بين مصر وإسرائيل .

إن « حسين فوزى » واحد من شباب ثورة ١٩١٩ ، وجيله أيد الثورة تأييدا واضحا ، أبناء الحزب الوطنى ، وأبناء قادة حزب الأمة ، وقد أيد هو الثورة وأيد سعد زغلول وتنظيمات ما بعد ثورة ١٩١٩ وفى ثورة ١٩ انضم إلى مجموعة منهم إبراهيم عبد الهادى ومحمد كامل حسين ومحمود عز العرب ، ولم ينضم إلى أى تشكيل من تشكيلات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ رغم الفرصة المواتية لانضمام المثقفين كمستشارين أو دعاة للثورة . كانت له أفكار سياسية وأراد أن يكون حرا فى التعبير عن هذه الأفكار بعيدا عن قيود هذه التنظيمات والتزاماتها . ومن هنا كانت نزاهته وأمانته وصدقه فى التعبير عن أفكاره الذاتية حتى ولو رفضها الكثيرون .

لقد أراد لنفسه أن يكون كما (السندباد) ذلك الرحالة الذى أبدعته قريحة عربية مجهولة . .

يذهب من هنا لهنالك . . لا تحده حدود ولا عوائق من نظم ، ولا إرادة من بشر . . رحلة إلى الشرق . . ورحلة إلى الغرب . . ورحلة إلى داخل النفس المصرية . . وهكذا كانت أعماله .

صدر له (سندباد عصري) عام ١٩٣٨ طاف معه في عدد من بلدان أوروبا . و (حديث السندباد القديم) عام ١٩٤٣ طاف معه في أزمنة مختلفة وكتب عربية مختلفة ، و (سندباد إلى الغرب) عام ١٩٥٠ وطاف معه في عالم القطط التي تعيش معه في منزله ، أما (سندباد مصري) فقد أصدره عام ١٩٦١ يطوف معه في الحضارة المصرية منذ نشأتها ، وسندباد في حركة الحياة سنة ١٩٦٨ ، وسندباد في سيارة سنة ١٩٧٣ .

وكتب أخرى كثيرة نذكر منها (الموسيقى السيمفونية) سنة ١٩٥٠ ، وكتاب عن (بيتوفن) ١٩٧١ ، وكتابه عن (سان جوست ملاك الإرهاق) فقد أصدره عام ١٩٧٥ . وله أيضا (رحلة تاريخية في البحار السبعة) و (لندن تطفئ الأنوار) و (المرأة كتاب) .

وفي دراسته لعلوم البحار ، ولدت لديه فكرة الكتابة مستعينا بالسندباد وقصص (السندباد قصص بحرية خيالية والسندباد القديم رحلة عبر التاريخ في الزمان والمكان ، أما سندباد الغرب فهو سندباد حقيقي هو « حسين فوزي » ذاته في بلاد الغرب فعلا .

والدكتور حسين فوزي في كتبه ومقالاته يستوعب ثقافة الغرب ولكنه استوعب أيضا ثقافة بلاده القومية ، ومصريته لم تفارقه لحظة واحدة في كل ماكتب .

لقد منحت الدولة جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٦ للدكتور حسين فوزي ، سلمها له (جمال عبد الناصر) . . وأوصى هو بمكتبته الأدبية لجامعة القاهرة ، وأوصى بمكتبته الفنية لأكاديمية الفنون . . فهل تتحرك جامعة القاهرة وأكاديمية الفنون بأسرع مما يتحرك السائق والخدم والورثة الذين لا يعرفون قيمة هاتين المكتبتين ؟ .

تلكم مختللات تصور جهود مؤسسة ثقافية وفكرية ، اسم الشهرة لتلك المؤسسة هو « الدكتور حسين فوزي » أقصى ما وصل إليه في السلم الوظيفي هو درجة (وكيل وزارة) ووكلاء الوزارة أصبحوا بعد « الدكتور حسين فوزي » وإذا استخدمت أسلوبه (في التطجين العامي - على حد تعبير الزميل خيرى شلبى) لقلت إنهم أصبحوا - كنت أنا واحدا منهم - أكثر من المهم على القلب . . ولكن ليس كل من ركب الحصان خيالا . . وليس كل وكيل وزارة حسين فوزي . . رحم الله الدكتور حسين فوزي ابن آحياء الحسين وباب الشعرية والسيدة زينب . . ابن مصر .

الأسانيد :

(ورد ذكرها في ثنايا المقال)

حمد الباسل



عزيزى حمد . . الاتجاه إلى الاعتقال . . واجبك أن تعود إلى الوفد . . رد الأمة هو عدم التضامن مع الإنجليز، مقاطعة البنوك والشركات الانجليزية، تشجيع بنك مصر، الامتناع عن تشكيل أى وزارة . . التوقيع (سعد) .

تهتز مشاعرى كلما قرأت هذه السطور الحاسمة من سعد زغلول إلى حمد الباسل فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ . عندما كان الوفد فى باريس ولندن وقف حمد الباسل مرة إلى جانب رأى سعد ومرات إلى جانب الرأى المعارض لسعد . . وعندما أصبح الانقسام وشيكا وقف حمد الباسل مع فريق عبد العزيز فهمى والمكبائى وشعراوى وعلوبه وأحمد لطفى السيد . . وعندما عاد « عدلى يكن » من أوروبا وشكل وزارته فى ١٦ مارس ١٩٢١ على غير رأى سعد وقف « حمد الباسل » إلى جانب عدلى . . وأجرى « عدلى » مفاوضات مع الانجليز على أمل أن يحقق بعض المكاسب ينتصر بها على سعد ، وانضم إليه فريق الاعتدال « حمد الباسل ، عبد العزيز فهمى ، جورج خياط ، أحمد لطفى السيد ، محمد على علوبه ، محمد محمود ، على شعراوى ، حافظ عفيفى ، عبد اللطيف المكبائى ، عبد الخالق مذكور » على أمل القضاء على « سعد » وتياره المتشدد . ولكن المفاوضات تفشل ويعود عدلى ليقدم استقالة وزارته وهنا يباشر الإنجليز الإرهاب ضد « سعد » وفريقه الذى وقف إلى جانبه وفى ٢٠ ديسمبر ١٩٢١ يوجه الانجليز إنذارا إلى « سعد زغلول » ومصطفى النحاس وسينوت حنا ومكرم عبيد وجعفر فخرى ، وأمين عز العرب وصادق حنين . . أن يبتعدوا عن القاهرة وأن يلزموا الإقامة فى الريف .

واستشعر الزعيم أن الاتجاه إلى الاعتقال ، ويستعرض فى ذهنه الذين خرجوا على الوفد وبخبرته العميقة يستقر ذهنه عند « حمد الباسل » دونهم جميعا ويترك له الرسالة الموجزة وبها توجيهاته عد

إلى الوفد . . عدم التضامن مع الإنجليز . . تشجيع بنك مصر . . الامتناع عن تشكيل أى وزارة .

فراصة الزعيم

وتصدق فراصة « سعد زغلول » ويعتقل الإنجليز « سعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، وسينوت حنا ، ومكرم عبيد ، وفتح الله بركات ويبقى من الوفد ثلاثة « على ماهر ، وواصف غالى ، وويصا واصف » وظهر التردد على خطى « على ماهر » وأعد «واصف غالى وويصا واصف» بياناً إلى الأمة تلقتة الجماهير الواعية على أنه بيان سعد . . وتصدق فراسته ويعود « حمد الباسل » ليتقدم صفوف الوفد ، ويعود معه « جورج خياط » وينضم إلى الوفد في ظروف التحدى « على الشمسي وعلوى الجزار ومراد الشريعى ، وعبد القادر الجبال ، ومرقص حنا » وقبض الانجليز على « حمد الباسل ، وجورج خياط ، ومراد الشريعى ، ومرقص حنا ، وعلوى الجزار ، وواصف غالى ، وويصا واصف ، وساقوهم إلى قشلاق قصر النيل وصدر عليهم الحكم بالإعدام بتهمة التحريض على تخريب الاقتصاد والحض على كراهية السلطات وذلك في ٢٥ أبريل ١٩٢٢ .

ووقف « حمد الباسل » يقول للمحكمة - باسم الوفد المصرى ، إننا ونحن الوكلاء عن الشعب المصرى مكلفون بالمطالبة باستقلاله لا نستطيع أن نعترف بأى حال من الأحوال بقضاء محكمة أجنبية ولو أن هذه المحكمة تأخذ بتصريح حكومتها أو تعتبره تصريحاً جاداً « يقصد تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى اعترض عليه الوفد والذى صدر عندما كان سعد وصحبه في جزيرة سيشل » وهو أن مصر دولة ذات سيادة لكان حقان عليها أن تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا . . لكم أن تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحكمونا . .

صدقت فراصة الزعيم ، وعاد « حمد المنشق إلى الوفد ليتقدم الصفوف ويحكم عليه وعلى رفاقه الستة بالإعدام والجدير بالذكر أن الجماهير أطلقت على هؤلاء السبعة (سبعة أسود في قفص) وهؤلاء قد رفضوا الإجابة على أسئلة المحقق ورفضوا أن يدفعوا التهمة وكان لموقف هؤلاء الرجال أثره في أن تتشكل قيادة جديدة ، أخرى للوفد من المصرى السعدى ، وحسن القصبي وفخرى عبد النور ، ومحمد نجيب الغرابلى ، ومصطفى القاياتى ، وسلامة ميخائيل » .

وأمام نضال الوفد تم تعديل الحكم على (الأسود السبعة) من الإعدام إلى السجن ٧ سنوات وغرامة ٥٠٠٠ جنيه لكل منهم . وأمام المد الشعبى والتفاف الجماهير حولهم أفرج عنهم في ١٤ مايو ١٩٢٣ .

اللقاء الأول

وفي مذكرات سعد زغلول ، الكراسة السابعة ، صفحة ٣٤٠ تقف على أول لقاء بين سعد زغلول عندما كان ناظرا للمعارف وذهب إلى الفيوم ليتفقد أحوال التعليم فيها . . يقول سعد في يوم الاثنين عشرة فبراير (سنة ١٩٠٨) توجهت إلى الفيوم مع برادة كاتم أسرارى ، وذلك لزيارة معاهدها العلمية ونزلت عند مدير الفيوم (محمد محمود بك ورئيس الوزراء ، ورئيس حزب الأحرار فيما بعد) في بيته وقد احتفل بقدومى احتفالا على عظمتهم كان أقل من سابقه في السنة الماضية ، وكان في الإكرام من جهة المائدة أقل أيضا ، ولكنى حملت ذلك على ما وجد بيننا من تمكن الألفة فإنه لم يدع أحدا للأكل معنا ، ولم يكن غيرى وهو على المائدة ولكنى رأيت منه احتراما ولطفا عظيمين .

وقد طاف بى على بعض بلاد المركز فلم أجد فيها زرتة من المعاهد شيئا تغير لأن أكثر هذه المعاهد وسخ والعلم فيه ضعيف والنظام غير تام ، وبعضها لم يتم بناؤه وبعضها لم يستكمل معداته ولكنى رأيت نهضة فوق ما رأيت في العام الغابر وقد يكون السبب في ذلك راجعا إلى فقر الأهالى فإنهم ضيقوا الحال جدا وقد رأيت المدير محترما عندهم ، نافذ الكلمة وإذا استمر على ما رأيت في النهضة فلا يبعد أن تتقدم المعارف على عهده تقدما عظيما . وقد تكلمت معه في شئون كثيرة يختص بعضها بالعلاقة مع الخديوى وبعضها بالعلاقة مع الإنجليز ، وبعضها بحزب الأمة والبعض الآخر بالحزب الوطنى ، وكنت أراه موافقا لى في الآراء جميعها تقريبا وقد أعجبت بحمد الباسل وهو عربى شجع العلم كثيرا بتشديد كثير من معاهده وحضرت افتتاح كتابه واثنت عليه الشناء الجميل وقد استقبلنى حكامدار البوليس - من قبل الفيوم بمحطة ثم سبقنى لغاية الواسطى حين العودة .

هذه هى الصفحة رقم ٣٤٠ من مذكرات سعد زغلول أثرتنا أن نوردتها كاملة وهى تعرض لنا حال مدينة الفيوم منذ ٨٠ عاما تقريبا وتعرض لأول لقاء بين سعد زغلول وحمد الباسل وهو مغربى الأصل ولد بمصر سنة ١٨٧١ وعين عمدة لقبيلة الرماح وعين في مجلس مديرية الفيوم سنة ١٩١٠ وفى سنة ١٩١٤ حصل على رتبة الباشوية وأصبح فيما بعد وكيلا للوفد المصرى .

وتعرض الصفحة أيضا للقاء الطريف بين سعد زغلول ومحمد محمود مدير الفيوم وهو ابن محمود باشا سليمان صاحب الدور المعروف في تأسيس حزب الأمة وقد قدر لمحمد محمود أن يكون من الرعيل الأول في تأليف الوفد المصرى وأن يكون مع سعد زغلول وحمد الباسل وإسماعيل صدقى عند اعتقالهم ونفيهم إلى جزيرة مالطة في ٨ مارس ١٩١٩ .

وقد أثرتنا ان نشر الصفحة كما كتبها سعد زغلول بأسلوبه الطريف وبالصدق دون تزويق أو تزيف .

الرعييل الأول

كان سعد زغلول يعرف حمد الباسل منذ عام ١٩٠٨ وربما قبل ذلك ولعل الزعيم عرف منذ ذلك الحين أى نوع من الرجال هو على الرغم من انحيازه أغلب الأحيان إلى معسكر المخالفين لسعد أثناء المفاوضات في أوروبا وعلى الرغم من أنه شد أزر الذين يمهّدون للانشقاق عليه رأى فيه « سعد » إنه لن يتراجع عن دعم الوفد إذا واجه الوفد هجوماً من جانب الإنجليز فاختره دون سواء من المعارضين وعبارة صغيرة يتركها له . . عدياحمد . . فيعود حمد ليواجه حكماً بالإعدام .

وفي الانتخابات الأولى لمجلس شورى النواب ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ . .

وفي الانتخابات الثانية سنة ١٨٧٠ وفي البرلمان الثالث الذى شهد خلع إسماعيل سنة ١٨٧٩ وفي برلمان ١٨٨١ لانجد أحداً من أسرة الباسل عضواً في هذه المجالس عن الفيوم ولكننا نجد اسمه « حمد الباسل » في الجمعية التشريعية التى قامت بديلاً عن مجلس شورى النواب والجمعية العمومية) وكان سعد وكيلًا للجمعية . .

وكان التشكيل الأول للوفد من « سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمي ومحمد على علويه وعبد اللطيف المكباتي ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد » ثم انضم إليه « حمد الباسل وجورج خياط وواصف غالى وإسماعيل صدقى وسينوت جنا ومصطفى النحاس وحافظ عفيفي » . . وهكذا إلى آخر جولات الانضمام والانسحاب المعروفة حتى يبيء يوم ٨ مارس ١٩١٩ وهو اليوم السابق على الثورة وكانت مكاتب الوفد في بيت سعد زغلول « بيت الأمة » ومنزل « حمد الباسل » في مواجهة بيت الأمة وقبض الإنجليز على سعد زغلول وإسماعيل صدقى ومحمد محمود ومحمد الباسل « وسارت بهم باخرة إلى مالطة حيث نقلوا إلى حصن عسكري وتم الإفراج عنهم في ٧ أبريل سنة ١٩١٩ .

وفي أوروبا يحدث الصراع الكبير بين فريق يرى قطع المفاوضات لعدم جدواها وهذا الفريق يقوده « سعد زغلول » وعرف بفريق « التشدد » وبين فريق يرى التريث وعدم قطع المفاوضات ليأخذ من الإنجليز مايمكن أخذه وهذا الفريق يقوده « عدلى يكن » في الخفاء و«عبد العزيز فهمي » في العلن وعرف بفريق « التريث » ونعرف أن حمد الباسل في مرات عديدة يقف مع الفريق الثانى وإن كانت علاقته قوية بسعد زغلول . .

ويعود « عدلى يكن » من أوروبا ليرأس وزارة تقوم بمفاوضات جديدة وتفشل المفاوضات ويقدم استقالته ويوجه الإنجليز رماحهم إلى سعد وفريقه وعندما استشعر « سعد » هذا الاتجاه من الإنجليز كان أول من فكر فيه ليقود الوفد في حالة اعتقاله هو المعارض حمد الباسل كما أسلفنا في بداية الحديث .

وبعد ما يحدث الانشقاق الكبير في الوفد اثناء حياة « سعد » وتمثل في إعلان فريق التريث لحزب الأحرار الدستوريين بقيادة « عدلى يكن » وبأفكار عبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد وبقوة دافعة من محمد محمود وبتأييد من حمد الباسل وآخرين ..

عمر المختار

و حمد الباسل عربى نشأ نشأة بدوية ويمت بالصلة إلى « عمر المختار » الشيخ الذى قاوم الغزو الإيطالى فى ليبيا وكان لاستشهاده صدى كبير فى مصر وفى البلاد العربية .

وفى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ وجه « حمد الباسل باشا » دعوة للاحتفال بتأبين « عمر المختار » وأعد الشعراء وفى مقدمتهم أحمد شوقى و خليل مطران القصائد لتلقى فى ذلك الحفل . ولكن « إسماعيل صدقى » دكتور مصر وقت ذاك خشى أن يتحول الحفل إلى تظاهرة سياسية ضد حكمة الاستبدادى وخاصة أن يوم الاحتفال يواكب الاحتفال بعيد الجهاد الوطنى فاصدر تعليماته بمنع الاحتفال ..

و كتبت جريدة البلاغ وجريدة الجهاد وغيرهما فى ١٣ نوفمبر ١٩٣١ تصف كيف صودرت حفلة تأبين « عمر المختار » أوفدت حكمدارية بوليس العاصمة ألف جندى من رجال البوليس وبلوك الحفر وأحاطت تلك القوات بدار سعادة حمد الباسل وسدت المنافذ المؤدية إليها ومنفذ الوصول إلى الدار التى كان مزعما إقامة الاحتفال بها . . ووضع رجال البوليس أسلحا سائكة لمنع مرور السيارات كما وضعوا سيارات كبيرة لتعرض الطرقات ومنع جميع المدعوين . . وتقول الجهاد أعد سعادة حمد الباسل باشا سرادقا داخل منزله ليكون محل الاجتماع لسباع القرآن الكريم وذكر مناقب المجاهد العظيم عمر المختار وبينما هو جالس فى منزله عصر يوم الأربعاء إذا برسول يحمل إليه خطابا من محافظ القاهرة يتضمن منع الاحتفال لأنه سياسى ودخل مأمور القسم وأبلغ الباشا أنه يحمل أمرا بهدم السرادق بالقوة فأمر سعادة حمد باشا بغلق أبواب المنزل وأتصل برئيس النيابة وطلب منه الحضور لضبط واقعة تهجم على منزل ليس فيه أحد فلم يحظ منه بطائل ويقول حمد الباسل لحكمدار البوليس اسمع ما أقوله لك : إن هذا الاجتماع ليس سياسيا مطلقا ، وهو أبعد ما يكون عن السياسة المصرية بل هو اجتماع للذكرى رجل يمت لى بقرابة ومن العار ، أن يحتفل بذكراه السوريون والفلسطينيون ولا يحتفل به أقاربه وأكثر الناس به ارتباطا .

ومضى الباشا فى طريقه من إعداد لوازم الاجتماع وتجهيز الطعام للفقراء والمساكين وأقبل الفقراء فلم ينالوا إلا إهانة وبدل الطعام إلا لكزا وضربا وأمر الباشا بحمل ما كان معدا للفقراء إلى قسم البوليس وتسليمه للحكومة ليكون شاهدا على تصرفات ما كان يتصورها أحد .

السبعة ونصف

في خريف سنة ١٩٣٢ اتهم «نجيب اسكندر» عضو الوفد في قضية إلقاء قبلة وتقديم للدفاع عنه «مكرم عبيد» و«نجيب الغرابي» واختلف «مكرم باشا» مع المحكمة وأعلن انسحابه وأوقعت عليه المحكمة غرامة إهانة المحكمة وتوقع «مكرم» سكرتير الوفد أن يتضامن معه «نجيب الغرابي» ويعلن انسحابه ولكنه لم يفعل وايد «النحاس باشا» موقف سكرتير الوفد وتقدم «الغرابي» باستقالته وعاد فسحبها ولكن «النحاس باشا ومكرم باشا» قررا قبول الاستقالة وفي ٢٠ نوفمبر ١٩٣٢ حرم الوفد عددا من أعضائه شكلوا نوعا من التكتل داخل الوفد ، وحرّمهم من عضوية الوفد وهم «حمد الباسل» وفتح الله بركات ومراد الشريعي وعلوى الجزار وفخرى عبد النور وعطا عفيفي وعلى الشمسي» ومن حيث الشكل بدأ هذا الانشقاق وكأنه خلاف بين مكرم عبيد ونجيب الغرابي ورغم تسليمنا بهذا العنصر ودوره في الانشقاق إلا أننا نرى أن هذا الانشقاق وقع خلال ظروف موضوعية كانت تساعد عليه وكان إسماعيل صدقي يشدد من قبضته على الشعب ويعصف بالحياة الدستورية وكان الملك فؤاد والانجليز يشدون من أزر صدقي لضرب الوفد الذي تحالف في ذلك الوقت مع الأحرار الدستوريين ولم يكن القصر أو إسماعيل صدقي بعيدين عن هذا الانشقاق . وقد تردد بشدة أن إسماعيل صدقي كان وراء نجيب الغرابي وتردد بشدة أيضا إن عبد القادر حمزة صاحب جريدة البلاغ كان قد تعب من مضايقات صدقي باشا فكان يؤيد هذا الانشقاق وقد أيد الثمانية المنشقون حزب الأحرار الدستوريين في دعوته لوزارة ائتلافية التي رفضتها (الوفد) وكان هذا العدد يشكل نسبة هامة من أعضاء الوفد مما اضطر إلى أن يضم إلى صفوفه عددا جديدا من الأعضاء وأعلن مقاطعة جريدة البلاغ التي أيدت المنشقين .

وعلى الرغم من أن هذه المجموعة لم تؤثر كثيرا في بنين الوفد إلا أنها ظلت كمجموعة تنادى بإيمانها بمبادئ سعد زغلول وإنها تسير على دربه ونجد في بعض الوثائق إشارة إلى «حمد الباسل» كرئيس لما أسموه «الوفد السعدى» نسبة إلى سعد زغلول وكانت صحف الوفد تشير إليهم باسم (السبعة ونصف) ونجد اسمه أيضا بهذه الصفة في أوراق الجبهة التي أعلنت في ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ من جميع القوى السياسية في مصر بفعل الأزمة السياسية الداخلية وبفعل سحب الحرب الخارجية وهي الدعوة التي تطورت بعد حين إلى جبهة لمفاوضة بريطانيا نجد أن في أوراق هذه الدعوة اسم «حمد الباسل» رئيس الوفد السعدى مع اسم «مصطفى النحاس» رئيس الوفد المصرى واسم محمد محمود رئيس حزب الأحرار .

الرجال الأربعة

ويبدو أن اهتمام «مصطفى النحاس» رئيس الوفد المصرى بانجاز قدر من المكاسب الوطنية لمصر في ظل الظروف التي كانت تمر بها بريطانيا في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية هذا

الاهتمام بإزالة ما بقى من الامتيازات الأجنبية وإزالة الإدارة الأوروبية التي كانت لم تزال موجودة إلى جانب إدارة الأمن العام المصرية والرغبة في أن تكون لمصر قوة دفاع مصرية وحق مصر في دخول المنظمات الدولية كعصبة الأمم . . إلى آخر الأمور التي تضمنتها معاهدة ١٩٣٦ هذا الوضع في تقديرنا هو الذى دفع الوفد برئاسة « مصطفى النحاس » أن يرتفع فوق الشكليات ويوقع بيانا مع رؤساء الأحزاب الآخرين بمن فيهم حمد الباسل رئيس الوفد السعدى على أية حال اندثرت دعوة الوفد السعدى مع الأيام وإذا نظرنا نحن الآن من بعيد إلى الأربعة الكبار أو إلى الأربعة الذين قبض عليهم الإنجليز يوم ٨ مارس ١٩١٩ وغداة هذا اليوم اندلعت ثورة مصر القومية . . رأينا ان ترتيب الرحيل هكذا . . سنة ١٩٢٧ رحل رئيس الوفد « سعد زغلول » . . وسنة ١٩٤٠ رحل وكيل الوفد « حمد الباسل » . . وسنة ١٩٤١ رحل رئيس حزب الأحرار الدستوريين « محمد محمود » وسنة ١٩٥٠ رحل رئيس حزب الشعب « إسماعيل صدقى » . . هل تدخل القدر ليحفظ لكل مقامه حتى في ترتيب الرحيل ؟ لست ادري .

الأسانيد :

- ١- صبرى أبو المجد . سنوات ما قبل الثورة .
- ٢- د . عبد العظيم رمضان . مذكرات سعد زغلول ج ١ .
- ٣- فخري عبد النور . مذكرات .
- ٤- د . لويس عوض . تاريخ الفكر المصرى الحديث .

رفاعة الطهطاوى



أى عام هذا ، العام الأول ، من القرن التاسع عشر ، عام ١٨٠١ م الذى تقع فيه ثلاثة أحداث تدخل كلها فى نسيج واحد لتصنع تاريخ مصر الحديث ، عام ١٨٠١ م يأتى إلى مصر (عسكرى بلديات الإسكندر الأكبر) يأتى إلى مصر على رأس ألف جندى ليشترك فى القتال ضد الغارة الفرنسية ثم يعود إلى حيث أتى ، وتخرج الحملة الفرنسية فى ١٥ أكتوبر ١٨٠١ م ولكن «محمد على» يحاور ويناور ويداور ليبقى فى مصر . وأى يوم هذا ١٥ أكتوبر ١٨٠١ م تجمع الحملة الفرنسية فلوها عائدة إلى فرنسا ، وفى اليوم ذاته ، فى طهطا مديرية جرجا ، بصعيد مصر يولد «رفاعة الطهطاوى» فيكون له شأن مع بلديات الاسكندر الأكبر «محمد على» الذى جاء من قوله ورفض أن يعود .

وفى ١٣ مايو ١٨٠٥ م ، يتقدم «الشيخ عمر مكرم» ابن أسبوط مع علماء الأزهر ويختارون «محمد على» واليا على مصر . أحداث تتشابه فى عملية مخاض تاريخية تخرج من شرقتها مصر الحديثة . .

الحكم العثماني بتخلفه وفساده ، ونور المعرفة يجبو ، وبصيص ضوء ينبعث من الأزهر ، وقيادة مصرية من علماء الأزهر وكبار التجار ، والماليك يمرحون فى بلد مثقل بالأزمات المالية وبالفساد الإدارى ، وعند تلك النقطة الحرجة من الزمان ، فى يوليو ١٧٩٨ يلتقى نابليون بوناپرت . . فى يده اليمنى مدفع وفى يده اليسرى مطبعة وحوله عدد من العلماء . . يلتقى بجيش الماليك . . وأترك «الشيخ عبد الرحمن حسن الجبرتي» يصفه لنا . . (يلبس أحدهم قميصا من القطن الناعم الأبيض فوقه ثوب من القماش الهندى الخفيف ، وفوقه قفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى أطراف الأصابع ، وحول رقبته فراء من السمور ، وفوق ذلك كله طيلسان » يلف

به جسمه جميعه ، وفي يده سيفه وفي وسطه خنجره . .) نوعان من الحضارة يلتقيان ويكون
الصدام !

وبين هؤلاء وأولئك علماء مصر برئاسة نقيب الأشراف « السيد عمر مكرم » يريدون لمصر أن
تخرج من ظلمة التخلف ، وفي الوقت ذاته يقودون المقاومة الشعبية ضد الحملة الفرنسية ،
والأسطول البريطاني يحوم حول سواحل مصر لاصطياد سفن الحملة . والماليك بملايسهم
المزركشة يكررون ويفرون على أرض الدلتا والصعيد . (والقنبر) المتساقط من مدافع الفرنسيين يهز
نفوس العثمانيين والماليك والمصريين ، (والخيل العلمية) تهز عقول علماء مصر ، رجفة شبيهة
بفعل شرارة الكهرباء .

وفي زاوية أخرى من الصورة نرى « محمد علي » وقد بقى في مصر يرقب الموقف بذكاء
طموح . . بونابرت أشهر قادة الحرب في تلك الأيام عاد إلى فرنسا سعياً لتحقيق طموحاته ،
والحملة الفرنسية تنسحب مهزومة (ملحوظة : محمد علي ونابليون بونابرت من مواليد سنة واحدة
هي ١٧٦٩) . والقيادة الشعبية التقليدية وعلى رأسها « السيد عمر مكرم » لا تتقدم لتسد الفراغ في
قيادة البلاد ويقول « الدكتور محمد عمارة » عن هذه القيادة : (لم تكن هذه القيادة مؤهلة لاطبقيا
ولا اجتماعيا ولا فكريا لحمل كل المهام الجديدة بعد الهزة الفكرية والاجتماعية التي أحدثتها الغزو
الفرنسي للبلاد . ويتقدم « محمد علي » في حذر بشيء من الجرأة ، وفي مكر بشيء من الصراحة ،
أبدى ميلا نحو المصريين ، وأبدى استعدادا لمواجهة الماليك ، وأبدى رغبة في إزاحة الباشوات
الأتراك ، وفي ١٣ مايو ١٨٠٥ م ، وفي احتفال شعبي أعلن « العلماء » اختيار محمد علي واليا .
وأقر الباب العالي هذا الاختيار في ١٨ يوليو ١٨٠٥ . . وفي ظل هذا المناخ كان قد ولد لمصر
« رفاعة الطهطاوى » في ١٥ أكتوبر ١٨٠١ .

الميلاد

ميلاد « رفاعة » وخروج الحملة ، و« محمد علي » موعد واحد مع القدر الجديد لمصر ، ولد
« رفاعة » من أسرة تتصل بالسلف الصالح ، فأبوه من نسل الرسول ، وأمه من نسل الأنصار . أبوه
« بدوى بن علي بن محمد بن علي بن رافع » يتصل بالحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما ،
وأمه « فاطمة بنت الشيخ أحمد الفرغلى » وتتصل نسبها إلى الأنصار وإلى قبيلة (الخزرج) .
وتنقل « رفاعة » الصغير مع أبيه « بدوى » من طهطا إلى منشأة النيدة إلى فرشوط إلى قنا ، وكان
الوالد حريصا رغم كل الظروف على أن يتم « رفاعة » حفظ القرآن وحفظ جميع المتون . . إلى أن
كان عام ١٨١٦ م يتوفى الوالد فيرحل « رفاعة » عام ١٨١٧ إلى القاهرة ليدق باب الأزهر .

مرحلة جديدة

هذا هو الأزهر عام ١٨١٧ م ، وقد انصرفت قياداته إلى علوم الدين بفعل تدبير « الباشا » بدأ « محمد على » حكمه سنة ١٨٠٥ م بالغاء نظام الالتزام ، وأعقبه بتأميم الأرض إذا صح هذا التعبير فتذمر الأهالي ولم يقبل « محمد على » احتجاج « عمر مكرم » وسافر « الألفى بك » زعيم المماليك إلى بلاد الانجليز ليتفق معهم على طرد « محمد على » ويرسل الإنجليز حملة « فريز » سنة ١٨٠٧ وقلوب المماليك معها . ولكن الشعب - وليس جيش محمد على - يهزم الحملة الإنجليزية عند رشيد . ويخشى « محمد على » بأس الشعب ونفوذه « عمر مكرم » . وعندما يطلب زيادة الضرائب يعترض الأهالي بزعامة عمر مكرم . ويلجأ « محمد على » هذه المرة إلى الحيلة فيوقع بين العلماء وبين عمر مكرم . وينتهي الأمر بعزل « عمر مكرم » من نقابة الاشراف ونفيه إلى دمياط . وحل محله « الشيخ السادات » الذي انحاز إلى « محمد على » وتوقف دور العلماء في الشئون السياسية .

كبار المماليك وهؤلاء دعاهم إلى احتفال في القلعة وأجهز عليهم في مذبحه مارس ١٨١١ م .

وفي تطور آخر ادرك « محمد على » دور الاقتصاد في السياسة ، فبعد أن ألغى نظام الالتزام واستولت الدولة على الأرض عمل على تنويع المحصولات والاكثار من رقعة زراعة القطن . وأمر عن طريق السخرة ، بحفر الترع وإقامة الجسور ، والسدود على النيل . ثم بدا عام ١٨١٦ م سياسة جديدة للتصنيع .

أما المرحلة الثانية من عام ١٨١٨ م - ١٨٣٠ م فهي مرحلة الصناعة الكبرى وبخاصة صناعة التسلح وصناعة النسيج .

وكان صاحبنا « رفاعه الطهطاوى » قد تخرج في الأزهر عام ١٨٢٢ م وعمل مدرسا به لعامين . ثم عين عام ١٨٢٤ م واعظا وإماما بالجيش ححتى عام ١٨٢٦ م .

وهكذا غادر « رفاعه » مصر إلى فرنسا واعظا وإماما لأكبر بعثة دراسية أوفدها « محمد على » إلى باريس في يوليو ١٨٢٦ م ومصر بها تطور زراعى وصناعى جديد يقوم على صناعة نشطة في مجالات كثيرة ، وعلى زراعات متنوعة ، والدولة تقوم على احتكار وسائل الإنتاج جميعها بما فيها الأرض . وبالتعبير العصرى على (رأسمالية الدولة) . ويدير هذا كله (الديوان العالى) وهو بمثابة مجلس الوزراء ويجتمع بالقلعة برئاسة نائب الباشا ويحمل لقب (كتخدا) . . وكان رئيس وزراء مصر في عهد محمد على « لاظ أوغلى » .

وقد أرسل « محمد على » من قبل بعثة إلى إيطاليا عام ١٨١٣ لدراسة فنون الطباعة ، وأرسل بعثة إلى فرنسا عام ١٨١٨ م لدراسة فنون الحربية والبحرية . وفي مجال الحديث عن بعثات « محمد

على « فان بعض الكتاب من ذوى أنصاف الثقافة التاريخية يهتمون « محمد على » بأنه قهر بعثاته على الأتراك والشراسة وهذا غير صحيح على الإطلاق ، وينكر دور العناصر المصرية الوطنية التي شاركت في بعثات « محمد على » وعادت لتقود النهضة الحديثة في مجالاتها المختلفة .

ويجدر أن نذكر عدداً من أسماء المصريين الوطنيين الذين شاركوا في بعثات محمد على . . «محمد بيومى» من دهشور ، و«أحمد دقلة» من بسيون غربية ، و«أحمد طائل» من بلتان مركز طوخ قليوبية ، و«أحمد السبكى» من سبك الثلاث ، و«حسن نور الدين» من سنهور غربية ، و«محمد على البقلى» من زاوية البقلى بالمنوفية ، و«إبراهيم البنجاوى» من نبروة غربية ، و«حماد عبد العاطى» من أبو تيج أسيوط ، و«عبد الله السيد» من الفيوم .

تخليص الأبريز

بدأ « رفاعه » بتعلم اللغة الفرنسية ، وأخذ يرصد كل ما يصل إليه من معارف جديدة ومن مشاهدات . وفي عام ١٨٣١ أتم تأليف عمله الشهير (تخليص الأبريز في تلخيص باريز) أو (الديوان النفيس بإيوان باريس) صدرت طبعته الأولى عن مطبعة بولاق الرسمية عام ١٨٣٢ . واهتم « محمد على » بهذا الكتاب وأمر بقراءته في قصوره ، وأمر بتوزيعه على جميع دواوين الدولة والمدارس ، وعلى (الوجوه والأعيان من الرعية) ، وهذا دليل على استنارة « محمد على » فعلى الرغم من أن الكتاب يعد من كتب أدب الرحلات ويحتوى على ما شاهده « المسيو الشيخ رفاعه » في باريس إلا أن به لمحات اجتماعية وسياسية ذات دلالة خاصة . فالملك في فرنسا يحكم بشروط ، والوزير إذا مشى في الطريق لاتعرفه من غيره ، والورقات اليومية المسماة بالجرنالات يعرف الإنسان منها سائر الأخبار سواء كانت داخلية أو خارجية ، وفي باريس مجامع للعلماء وخزائن للكتب ، وعلماء الهيئة أوضحوا بالأدلة أن الأرض كروية ، والتياترو عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل .

وفي نهاية الكتاب يحتفى « الشيخ رفاعه » بثورة الشعب الفرنسى على « شارل العاشر » عام ١٩٣٠م لانتهاكه (الشرطة) أو الميثاق ويقصد به الدستور الفرنسى الذى عكف « رفاعه » على ترجمته بما فيه من دعوة للحريات وأصول الحكم الديمقراطي ومن باريس أرسل « رفاعه » ترجمة للكتاب (مبادئ العلوم المعدنية) سنة ١٨٢٨ وطبع بإذن من « الباشا » في مطبعة بولاق .

العودة والازدهار

وعاد ابن الأزهري من باريس سنة ١٨٣١ م وعمل مترجماً بمدرسة الطب لمدة عامين ، راجع ترجمة قام بها « يوسف فرعون » لكتاب (التوضيح لألفاظ التشريح) . وأشرف على (مدرسة المارستان) إلى جانب عمله بمدرسة الطب . وقام بتدريس الحساب والهندسة والتاريخ والمنطق . وانتقل عام ١٨٣٣ م للعمل مترجماً للعلوم الهندسية والعسكرية بمدرسة (الطوبجية) - أي المدفعية . وفي العام نفسه أنشأ (مدرسة التاريخ والجغرافيا) وأصدر كتاب (التعريفات الشافية لمريد الجغرافية) وهو عبارة عن محاضرات ألقاها على طلبة المدرسة . وترجم سنة ١٨٣٤ م مجلداً من (جغرافية ملطرون) . وأنشأ سنة ١٨٣٥ مدرسة الترجمة التي أصبح اسمها (مدرسة الألسن) وأشرف عليها فنيا وإداريا وقام بتدريس الأدب والشرائع الإسلامية والغربية ، وأشرف على اختيار الكتب المرشحة للترجمة . وأنشئت مدرسة الإدارة الفرنجية (العلوم السياسية) سنة ١٨٤٤ م . وأنشأ قسماً للإدارة الزراعية الخصوصية سنة ١٨٤٧ م .

وإذا لاحظنا أن هذه المدارس جميعها هي مدارس عليا في مستوى المعاهد العليا أو الكليات الجامعية في أيامنا الحالية لادرنا ماذا يقصده « صالح مجدى » مؤرخ سيرة الطهطاوى بقوله . . (كان الطهطاوى يسوس هذه المدرسة المجتمعة بغاية الدقة) . وهو يقصد أن « الطهطاوى » كان يخطط لتحويل (مدرسة الألسن) إلى جامعة تضم هذه المدارس العليا جميعها . ونلاحظ في هذا الصدد أن « رفاعه » قد حول فناء (مدرسة الألسن) إلى متحف للآثار سنة ١٨٣٥ م ، ونقل المدرسة التجهيزية إلى مقر مدرسة الألسن سنة ١٨٤١ م . وأنشأ عام ١٨٤١ م قلماً للترجمة . وعندما أسند إليه عام ١٨٤٢ م الإشراف على (الوقائع المصرية) أدخل التعديلات على مادتها وإخراجها . وصدر قرار بترقيته إلى رتبة (قائمقام) سنة ١٨٤٣ م . وتحول ابن الصعيد إلى شعلة من الإشعاع الفكرى .

الانقلاب الرجعى

بداية من معاهدة لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠ فرضت الدولة العثمانية وبريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا حالة من التقلص على نشاط مصر العسكرى والاقتصادى وانعكس بالتالى على النشاط الفكرى والثقافى . وأصاب الوهن الذهنى والجسمانى « محمد على » فترك دفة الحكم لابنه إبراهيم باشا ، ولكن إبراهيم باشا توفى في ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ م وخلفه « عباس الأول » في ٤ ديسمبر ١٨٤٨ ، وفي ٢ أغسطس ١٨٤٩ م توفى « محمد على » .

وكان « رفاعه » العظيم وتلاميذه العظام في حياة محمد على وإبراهيم باشا قد أقاموا صرحا من النهضة الفكرية الحديثة موازيا للتقدم العسكري ، والتطور الاقتصادي . وبعد أن تولى الجاهل «عباس الأول» أريكة حكم مصر بدأ الانقلاب الرجعي في المجالات العسكرية والزراعية والصناعية والثقافية . قرر (المجلس المخصوص) نفي « رفاعه الطهطاوى » إلى السودان وتمت تصفية مدرسة الألسن وأغلقت أبوابها في نوفمبر ١٨٤٩ م .

ومات « عباس الأول » في مؤامرة من مؤامرات قصور الشرق ، وتولى الحكم « سعيد باشا » في ١٦ يوليو ١٨٥٤م وعاد الطهطاوى من السودان ، وأرسل « سعيد » على باشا مبارك إلى الحرب الدائرة في القرم بين روسيا والدولة العثمانية . . ولا بأس فهو يحمل رتبة (اميرالاي) . .

وتولى « رفاعه » وكالة المدرسة الحربية سنة ١٨٥٥م ، ثم أنشأ مدرسة مستقلة للحربية في القلعة ، وإلى جانب عمله تولى نظارة مدرسة « الهندسة » ومدرسة « مصلحة الأبنية » وفي تلك الفترة أعد أول مشروع لطبع كتب التراث العربى الإسلامى تقوم به مطبعة بولاق . . وفجأة على عادة الشرق أيضا وجد نفسه مفصولا عن العمل عام ١٨٦١م ، وبقي دون عمل رسمى إلى أن مات سعيد وجاء إسماعيل سنة ١٨٦٣ م .

شجرة طيبة

وجاء عصر « إسماعيل » ورفاعة رافع الطهطاوى يتقدم كتيبة من المثقفين في مختلف مجالات المعرفة . وأدرك « رفاعه » أن الأمة ينبغي أن تسير بساقين . . البنين والبنات ، فوضع سنة ١٨٧٢ كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) . وانتشرت المدارس في عهد إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) . وازدهرت الصحافة التى تصدرها الحكومة والمصريون والأجانب ، وظهرت المجلات العلمية المتخصصة .

واشترك « رفاعه » مع « على مبارك » في التخطيط لمجلة (روضة المدارس) التى صدر العدد الأول منها يوم السبت أول إبريل سنة ١٨٧٠م وكان على مبارك ناظراً للمعارف ، ورفاعة مشرفاً على المجلة وناظراً لقلم الترجمة . وتحلقت حول « الرائد العظيم » مجموعة من العلماء والمفكرين والأدباء والدارسين ، تأثروا بشخصيته المشعة ، ونادى رفاعه بأن يكون هؤلاء المثقفون المستشارين للسلطان ، وأن يكون للشعب حقه في الحوار السياسى ، وشاعت في كتاباته عبارات الوطن والوطنية والأخوة الوطنية والمجتمع المدنى .

واقترح « رفاعه » أصعب القضايا الاقتصادية ، وبكل البصيرة المتقدمة قال بأن العمل هو

(القيمة الرئيسية) . وقال فى جرأة . إن الملاك يسرقون جهد الفلاحين وعملهم . . ترك لمصر ما هو أثمن من ذلك بكثير . . عشرين عملا مترجما . . وزادا فكريا تربي عليه . . على مبارك ومحمد عبده وأحمد عرابي وعبد الله النديم وسعد زغلول . .

ويوم الثلاثاء ٢٧ مايو ١٨٧٣م انتهى عمر شجرة طيبة ، أصلها ثابت ، فروعها فى سماء الوطن العظيم .

الأسانيد :

- ١ - الطليعة (مجلة) . . ملف رفاعة الطهطاوى (يونيه ١٩٦٧) .
- ٢- د . أنور عبد الملك . . نهضة مصر .
- ٣- د . حسين فوزى النجار . . رفاعة الطهطاوى .
- ٤ - صلاح عبد الصبور . . قصة الضمير المصرى الحديث .
- ٥ - محمد عبد الغنى حسن ود . عبد العزيز دسوقي . . روضة المدارس .
- ٦- د . محمد عبارة . . رفاعة الطهطاوى .

الدكاترة زكى مبارك



زكى مبارك العاشق الذى نعرف هو الثائر الذى نجهل ، زكى مبارك صاحب ليلي المريضة في العراق ومرجريت ومادلين في باريس ، وسعاد في المنصورة المنافس لإبراهيم ناجى في حب من أسماها « ليلي الزمالك » وصاحب فتاة مصر الجديدة ، وفتاة حى الحمراء بأسقوط . . زكى مبارك هذا هو بنفسه الشيخ الأزهرى المعمم الذى ألهب حماسة الثائرين سنة ١٩١٩ وما بعدها ، هو بذاته الذى ألقى القصائد الوطنية في بيت « محمود باشا سليمان » رئيس لجنة الوفد المركزية فأحال الاجتماعات إلى تظاهرات ضد الاحتلال فيلجأ الإنجليز إلى اعتقاله . .

وتخرج جريدة الأهرام صباح الاحد أول يناير سنة ١٩١٩ بخبر يقول : (اعتقل البوليس صباح أمس الأول الاستاذ زكى مبارك وهو شيخ معروف بدلاقة اللسان والنظم الرشيق . .) ويرفض زكى مبارك أن يفرج عنه إلا إذا ما كتب تعهدا بالآلا يشتغل بالسياسة ويواصل نشاطه الوطنى متأثرا بالشيخين . مصطفى الغاياتى وعبد اللطيف دراز ويكتب في صحيفة الأفكار ، التى يصدرها « الصوفانى » رجل الحزب الوطنى ويضطر الإنجليز إلى الافراج عنه بعد شهور طويلة .

وظل زكى مبارك يذكر جهاده في ثورة ١٩١٩ ويفاخر به على الكتاب الآخرين الذين لم يشاركوا مثله في الثورة ، كان ثائرا بالمعنى الذى تعنيه الكلمة ، يخطب ويهيج الجماهير ويلقى القصائد الوطنية ويختفى عن أعين الانجليز الذين يطاردونه . كتب مرة عن هذه الفترة . . (كانت السلطات العسكرية تبحث عنى لتقتلنى ، وكان يجب أن احتس فأمنع السلطة البريطانية من أن تعرف أين مكانى ، فقضيت ثلاثة أشهر وماوإى غرفة في سطح بيت يقيم به أحد الشبان الأقباط من أبناء سنترس . وهو شاب على جانب من الذوق واللطف هو الأستاذ (أنيس ميخائيل) . . كانت علاقته وطيدة بانيس ابن قريته ، ويلجأ إليه كلما حاول الاختفاء ويرسل إليه الرسائل

من المعتقل . . ومن رسالة أرسلها لأنيس في مارس ١٩٢٠ نشرها « زكى مبارك » في كتابه (البداية) نعرف محاولة الإنجليز مساومة زكى مبارك للإفراج عنه : (فكر القوم في مساومتي لأول لحظة وطئت فيها ثكنة قصر النيل ولكنى فقت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء في سبيل البلاد . وأقسم لو خرج مصطفى كامل من قبره ليصافح الإنجليز لما كان في ذلك ما يزعجنى قيد أنملة عن معاداتهم) .

وسجل في كتاباته . . (كان الأزهر يموج كل مساء بالآلاف المؤلفة لسماع الخطب الوطنية . وكان رئيس الخطابة يومئذ الشيخ محمود أبو العيون . . وفي مساء يوم حضر وفد الصحافة الأجنبية وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية ، فسألنى الشيخ أبو العيون أن أرد تحيتهم بجرأة وحماسة وخطبت خطبة فرنسية رنانة . . وأشهر خطباء الثورة يومئذ أبو شادى ، والشيخ مصطفى الغاياتى والدكتور محبوب ثابت) .

ولم تكن مواقفه الوطنية مقصورة على أيام الشباب بل إننا نجده في وزارة « إسماعيل صدقى » ١٦ فبراير - ٩ ديسمبر ١٩٤٦ له موقف واضح ضد سياسة هذه الوزارة فاشار « محمد حسن العشماوى » وزير المعارف بملاحقته في عمله فأنشد قصيدته (الوزارة التى هوت) ومن قبل كان قد نظم قصيدة (يوم المدينة الجامعية) يوم الصدام بين البوليس والطلبة في عهد حكومة النقراشى (٢٤ فبراير ١٩٤٥ - ١٥ فبراير ١٩٤٦) وكان فيها عبد الرزاق السنهورى وزيرا للمعارف وعلى خصومة مع زكى مبارك فنقله إلى دار الكتب وإنما وقع في خصومة مع الكثيرين جرت عليه المتاعب طوال حياته ، ولا بأس أن نعرض لها ولكن بعد فقرة عن حكاية (الدكاترة) التى عرف بها . .

الدكاترة . . . لماذا ؟

في الجامعة المصرية القديمة تقدم برسالة عن (الأخلاق عند الغزالي) التى نوقشت في ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ونال عنها درجة الدكتوراه . . وقد ثارت ضجة حول ما جاء في هذه الرسالة . وكتب بعض العلماء في المقطم والأهرام يهاجمون « زكى مبارك » لما حسبه تطاولا على (حجة الإسلام الإمام الغزالي) .

وفي ٢٥ إبريل ١٩٣١ نال الدكتوراه عن رسالته (النثر الفنى في القرن الرابع الهجرى) من جامعة السوربون في باريس . . وهناك اختلف مع أساتذته وفي مقدمتهم المشرف على الرسالة . . وعارض رأى الأستاذ المشهور « ماسينيون » وهاجم آراءه في النثر الفنى . . وقال هناك . . جئت لأصحح أغلاط المستشرقين .

وبعد ان عاد من باريس فى مارس ١٩٣١ عكف يعد رسالة الدكتوراه الثالثة عن (التصوف الإسلامى) التى حصل عليها فى ١٤ إبريل ١٩٣٧ من الجامعة المصرية الجديدة . . واعتذر الدكتور طه حسين عن عدم رئاسة لجنة المناقشة بحجة أن زكى مبارك رجل غير مصقول وأنه قد يخرج على قواعد الذوق فى المناقشة مما يسبب الحرج للعميد أمام الجمهور . .

وبعد الدكتوراه الثالثة حرص « زكى مبارك » أن يتحدث عن نفسه بعبارة (الدكاترة زكى مبارك) وقال الآخرون عنه إنه معجب بذاته ، ويمتدح نفسه دائما ويقلل من شأن الآخرين . . وهذا القول صحيح إلى حد كبير . .

قال عن كتاب (التصوف الإسلامى) - كتاب لم يسبقنى إليه سابق ولن يلحقنى فيه لاحق ، ولن تنجب الجامعة المصرية فتى يؤلف كتابا مثل هذا الكتاب !

وقال - (سأشمت بزملائى فى البلاغ وأنا منهم مغتاز وفعل شمت لا يوجد فى اللغة الفرنسية ، سأتركهم لنيران الظهيرة فى المطبعة بين تحرير وترجمة وتخيير والتخيير هو استيقاء الخبر ، وهى كلمة لا يعرفها المجمع اللغوى !

وقال - المجمع اللغوى فقد هيئته حين خلا منه اسم زكى مبارك . . واليوم أقول إننى زاهد فى عضوية المجمع اللغوى لأن هذه المنزلة ستجعلنى زميلا لحضرة الأستاذ محمد فريد أبو حديد .

وقال - بأى حق يكون الأستاذ الزيات عضوا فى المجمع اللغوى ولا أكون أنا عضوا فى المجمع اللغوى !

وقال عن كتابه الشر الفنى - ستبید أحجار الجامعة المصرية ويبقى كتاب الشر الفنى فقد بادت المدرسة النظامية وبقيت مؤلفات الغزالي .

وإذا كان أدباء عصره عابوا عليه أنه كثير الحديث عن نفسه ، فقد أوضح أنهم جميعا هكذا . . الدكتور طه حسين ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعباس محمود العقاد ، وسلامة موسى ، كتبوا عن أنفسهم وعن تجاربهم الذاتية .

المعارك القلمية

حمل زكى مبارك القلم كما يحمل فلاح سنترىس (النبوت) وإذا كان الشاعر « الخطيئة » أيام الخلفاء الراشدين قد هجا الجميع حتى نفسه ، فإن زكى مبارك أطاح فى الجميع ومدح نفسه . . وحاربه الجميع فى الخفاء أو العلن وكان ضحية قلمه (الفالت) إذا صح هذا التعبير . . فأسقطه الدكتور طه حسين مرتين فى امتحان الليسانس ، وأخرجه محمد حسن العشماوى من عمله ، وأخرجه عبد الرزاق السنهورى من وزارة المعارف ، وسافر إلى باريس على نفقته الخاصة . . كان

يبحث دائما عن خصوم يصاولهم ويتنصر عليهم . . ظل طوال عمره ، رجلا غير مصقول ، جريئا وعنيفا لا يعرف المجاملة ، يأبى المداواة والنفاق فيه بداوة في الطبع قيل عنه إنه يثير الناس ليظفر بالشهرة . . احتفظ بطبيعة الفلاح في سلوكه . . وأدرك هو هذا كله . . أدرك ان غيره وصل لأنه كاذب أما هو فقد تخلف لأنه صادق ، وأدرك أن صراحته قطعت رزقه ورزق عياله ، وأدرك أنه تخلف في حياته الرسمية رغم كثرة ما نشر من كتب ومقالات . . وأدرك ان الصديق جره إلى معاطب ومهالك وقال عن نفسه (من المستحيل ان يكون في الدنيا أحد أصدق مني) !

تصدى لأساتذته في باريس المشرفين على رسالته والمتحنيين له على غير عادة الباحثين هنا وهناك . . كان ناقدا خفيفا يخشاه الآخرون والويل لمن يبدأ الهجوم عليه . . ومنذ أن قال « طه حسين » على كتاب النثر الفني . . (كتاب من الكتب ألفه كاتب من الكتاب) ففتح « زكي مبارك » النيران عليه لعشر سنوات متصلة ورفض طه حسين تجديد عقد زكي مبارك مع كلية الآداب سنة ١٩٣٤ . . فرد بقوله (لو جاع أولادى لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه) وقال عن طه حسين (لم يقرأ في حياته كتابا كاملا ، وإنما قرأ فقرات من هنا وهناك وأخذ يشطح ذات اليمين وذات الشمال) . . ودخل في معركة مع أحمد أمين وكتب ضده في الرسالة أكثر من عشرين مقالة ولم يرد عليه أحمد أمين لأنه كان يظن أن أحمد حسن الزيات يقف خلف هذه الحملة إلى أن رزق الله زكي مبارك بالسباعى بيومى الذى واجهه بالعنف والقوة .

واشتبك مع العقاد وسلامة موسى وأحمد شوقي ولطفى جمعه وأحمد حسن الزيات . . حتى أحمد لطفى السيد قال زكى مبارك عن أسلوبه (بطيء الحركة إلى حد الجمود وهو يجر كلامه بثاقل وإبطاء) وهاجم مصطفى صادق الرافعى وشيخ العروبة أحمد زكى باشا ، وعبد العزيز البشرى ، والملازنى ، ولم يسلم من قلمه الشيخ « سليم البشرى » شيخ الجامع الأزهر والوالد « عبد العزيز البشرى » وهاجم إسماعيل صدقى والنقراشى والسنهورى وإسماعيل القبانى . . فكتب في البلاغ يقول : (لن اطيع أمرك ، إلا يوم يقوم الدليل على أنك وزير فقد أسلمت أمور الوزارة إلى قبانى بلا ميزان) يقصد إسماعيل القبانى !

زكى مبارك والبلاغ

نستطيع أن نقول إن زكى مبارك كان في فترة ماسببا في شهرة البلاغ ، وإن البلاغ بدورها كانت طريقا إلى شهرة زكى مبارك الذى لم يعرفه الكثيرون بقصائده أو بعمله في وزارة المعارف وقد وقفت البلاغ إلى جانب « زكى مبارك » عندما سافر إلى باريس للحصول على الدكتوراه الثانية وكانت تدفع له ١٥ جنيها شهريا بعد أن كان في سنوات السفر الأولى يقضى في باريس أربعة شهور وفي

القاهرة ثمانية يعمل في الصحافة وفي التدريس ويجمع نفقات إقامته في باريس ويعود إليها .

ومنذ عام ١٩١٤ كتب في الصحف بتوقيع « الفتى الأزهرى » ثم كتب في جريدة الأفكار وهي من صحف الحزب الوطنى حتى وصل إلى رئاسة تحريرها . ثم اتفق « عبد العزيز الصوفانى » مع « عبد القادر حمزة » على أن تصبح « الأفكار » جريدة وفدية واستمر زكى مبارك في الأفكار وكان ذلك سنة ١٩٢١ . وعمل بالبلاغ منذ صدورها عام ١٩٢٣ واستمرت علاقته بها وهو في باريس من ٢٧ - ١٩٣١ وبعد أن عاد من باريس اهتم بنشر مقالات عن الأدب العربى . وقد شهدت البلاغ معارك زكى مبارك الساخنة مع أدباء وساسة عصره . وهو وأن كتب في صحف أخرى سياسية وأدبية إلا أن صفحته في البلاغ بعنوان (الحديث ذو شجون) سوف تظل معلما بارزا لزكى مبارك وللبلّاغ على السواء .

وبعض ما كتب تعرض للتكذيب بوصفه مزاعم من زكى مبارك مثل قوله في البلاغ في ١٧ يونيه ١٩٣٢ بأن المتنبي زار سنتريس دون أن يوضح في أية مناسبة ولماذا . وعندما صدر ديوان أحمد شوقى بمقدمة للدكتور محمد حسين هيكى كتب زكى مبارك إن شوقى طلب منه مقدمة ثانية ولكنه اعتذر ، كان ذلك عام ١٩٢٥ . . ولكن « د . محمد رجب البيومى » في دراسة له يستبعد هذا الزعم وكتب زكى مبارك يقول إنه كان يكتب (جريدة الأفكار) من الألف إلى الياء ولا تظن أن الوضع كان هكذا تماما ولكنه نوع من مفاخرة زكى مبارك بجهوده التى لم يعترف بها الكثيرون وهذا مانجده يعبر عنه في أشعاره ولعل هذا أيضا ما جعله يغرق في الكأس ومع بنات الناس إن حقيقة أو مبالغة إلى درجة أن البعض قال بأن ليلى المريضة في العراق هى شخصية من اختراع خيال زكى مبارك .

ومهما يكن من أمر فإننا سوف نسير معه في رحلته مع الشعر ، والخمر والغراميات والإيمان لننظر إليه في صورته المتكاملة .

الشعر والعشق

يبدو أن تأثير سنتريس تلك القرية الصغيرة من قرى المنوفية ، كان كبيرا في نفسية زكى مبارك وماترسب في وجدانه هى قرية تجاور الرياح المنوفى ، ولد فيها زكى مبارك سنة ١٨٩٢ وقد نشأ يحب قريته ويجب أباه الذى توفى سنة ١٩٣٥ وكان قد فقد أمه سنة ١٩١٧ وفقد أخاه سنة ١٩١٨ ، وأخذ عن والده صدق القول وفصاحة اللسان وقوة العزيمة .

وسنتريس (لم تكن تعرف الطلمبات فكان الماء يحمل إلى المنازل من النيل أو من السواقي ،

فكنت ترى في الصباح أسرابا من الصبايا يحملن جرات الماء وحولهن ظلال من الهوى والمرح والشباب والنشوان) وكان في تلك الأيام يخرج لصلاة الصبح ، ثم يعود مسرعا إلى داره ، فيسحب البقرة ويخرج إلى الغيط ، وهو مسرور لأنه سيشهد أسراب الصبايا في طريقهن إلى السواقى أو إلى النيل . وفي هذه السن الباكراة أقبل الفتى زكى مبارك على مشاهدة الحسان وعلى قراءة الشعر فأقبل على نظمه مستمدا مادته مما حوله في سنتريس من طبيعة ومن حسان الفجر . وقد أصبح عشقه للجمال من العناصر الرئيسية في تكوين شخصيته سواء في سلوكه أو في أشعاره . . أنطق شعره في الغزل وفي التصوف . . وهنا مكان الحديث عن الغزل والعشق والخمر ليجيء الحديث عن التصوف والإيمان خاتمة للموضوع وغفر الله له ولنا وللقرءاء أجمعين .

نجد من أشعاره أن حبه الأول كان في سنتريس مع تلك الفتاة التى أنطقته بالشعر الأول والتي أهدى لها ديوانه الأول كما جاء في مقدمة ديوانه (ألحان الخلود) (إلى تلك الفتاة التى خفق لها القلب أول خفقة والتي قلت فيها أول قصيدة وسكنت عليها أول دمة إلى تلك الفتاة التى تنام في قبر مجهول تحت سماء سنتريس) ونسير معه جغرافيا لا تاريخيا . . في القاهرة وفي الزمالك ليلاه المريضة . . ممثلة إغراء مشهورة وهى التى أوحى للشاعر « إبراهيم ناجى » بقصيدة الأطلال الشهيرة ، وأوحى إلى زكى مبارك بقصائد عديدة . . ويقول « صالح جودت » إن هذه الفاتنة من (سنتريس) وكان « زكى مبارك » يشعر بأنه أولى بحبها ولكنها ألقت بالجميع بعد أن بلغت الشهرة ويتنقل زكى مبارك إلى مصر الجديدة حيث يسكن وحيث تعيش ليلي أخرى . ومن القاهرة إلى المنصورة حيث سعاد وهى الأخرى تنظم الشعر ، ويحدثنا عنها وعن أخيها وقد أوحى إليه بقصيدة (غرامى) . ومن المنصورة إلى مدينة أسيوط حيث كان هناك مفتشا للمدارس الأجنبية ، وفى (حى الحمراء) ملهمة صعيدية ولكنه لا يكتب فيها الشعر مباشرة وإنما ينظمه على أهل أسيوط .

وفى باريس يلتقى وامرأة ضائعة ترك لها من خدعها ابنها مورييس يقول زكى مبارك إنها اخلصت له وعاش معها يحكى القصص لمورييس ويقول : « د . العربى درويش » إنه في قصيدته (زفرات) استلذ العذاب في حب هذه الفاتنة الحسناء واستطاب العويل في تلك الساحرة الجذابة . ثم يكشف لنا نحن عن (روح لطيفة عرفت من باريس كان اسمها مادلين قسيميها ليلي . بلغ بها الوجد مبلغا قضى بأن تنظم الأشعار في حبي . وتحضر إليه في مصر تعرض عليه الزواج وتعود إلى باريس لأنه متزوج) .

أما قصة الطبيب المداوى زكى مبارك مع ليلي المريضة في العراق فقد أصدر عنها كتابا في ثلاثة أجزاء .

أما بعد

فقد توفي زكى مبارك يوم ٢٣ يناير ١٩٥٢م فيكون قد قطع هذه الرحلة الصاخبة من الحياة في ٦٠ عاما . . من سنتريس إلى الأزهر الشريف إلى باريس إلى بغداد . . من المعتقل إلى الصحافة إلى التعليم إلى الجامعة . . من الفصل إلى التشريد إلى الجوع أحيانا . . ملأ الحياة الثقافية في مصر والبلاد العربية صخباً وضجيجاً . . دخل في عراك مع قادة الفكر والرأى فما دارى أو نافق أو مسح الجوخ أو الخذاء لأحد كما يفعل البعض .

من حقه علينا - وهو في رحاب الله - أن نصدقه حين يقول إنه كان صوفياً مؤمناً محباً لله وإنه كان من حماة الدين الحنيف ، وإنه كان له في سنتريس وغير سنتريس مريدون واتباع ، وإنه كان يصوم رمضان في باريس . . رحم الله الدكاترة « محمد زكى عبد السلام مبارك » ونداء إلى ابنه الزميل والصديق « عبد السلام زكى مبارك » الذى طاب له المقام في باريس منذ سنوات طويلة أن يعود ومعه ولو دكتوراه واحدة تحية للذكرى والده .

الأسانيد :

- ١ - العربى درويش . زكى مبارك شاعرا .
- ٢ - أنور الجندى . زكى مبارك .
- ٣ - زكى مبارك . ألحان الخلود (ديوان) .
- ٤ - عبد الرزاق الهلالى . زكى مبارك فى العراق .
- ٥ - فاضل خلف . زكى مبارك بين رياض الأدب والفن .
- ٦ - د . محمد رجب البيومى . مجلة الثقافة يناير ٨٢ .
- ٧ - محمد محمود رضوان . صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك .

سعد زغلول



هؤلاء الرجال من مصر . . وسعد زغلول زعيم مصر وزعيم هؤلاء الرجال جميعا دون منازع .
أدخل في الموضوع مباشرة لأننى اتحدث عن « سعد » العظيم . . والمساحة المتاحة محدودة .

أبدأ بملذكرات « حسن يوسف » الذى عمل مع « فاروق » من سنة ١٩٣٥ إلى أن أصبح وكيلا للديوان الملكى ورئيسا له بالنيابة على فترات ، وكان كاتم سر مجلس البلاط ، وحامل أختام الملك . قال حامل أختام الملك فى مذكراته على صفحة ٦٠ : « يجمع الكتاب والمؤرخون على أن محاولة الحكم فى مصر تركز على ثلاث قوى . . الوفد والقصر والإنجليز . . ويمكن القول اجمالا إن الفترة التى سبقت دستور ١٩٢٣ كان الحكم فيها للقصر بمساندة الإنجليز وبعد صدور الدستور وتحديد اختصاص كل من السلطتين التنفيذية والتشريعية تناوب القصر والوفد سلطة الحكم . . سنة ١٩٢٤ كان الحكم فيها للوفد .

وعلى صفحة ٧٧ . . (ذهب سعد باشا بعد ظهر ذلك اليوم - يقصد ١٦ نوفمبر ١٩٢٤ - لمقابلة الملك - ودامت المقابلة ساعتين علت من خلالها أصوات المتجمهرين « جنود سعد » وهم يهتفون تحت نوافذ القصر « سعد أو الثورة » .

وعلى صفحة ٨٢ . . (عمد الملك بعد ذلك فورا إلى تكوين جبهة مناهضة للوفد ، فقرب إلى القصر عدلى يكن باشا وعبد الخالق ثروت باشا وإسماعيل صدقى باشا كما تقرب إلى الحزب الوطنى برئاسة حافظ رمضان باشا . وأنشأ القصر من خلال حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكى بالنيابة ، حزب الاتحاد فى يناير سنة ١٩٢٥ وبذلك أصبح الملك وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى ، وحزب الاتحاد فى جبهة معارضة للوفد ولسعد باشا) .

وملاحظة سريعة من عندنا إن « على ماهر » كان وكيلا لحزب الاتحاد والرئيس الفعلى له . .

وبذلك تكون الجبهة المعادية للوفد تضم أيضا عدلى يكن وعبد الخالق ثروت وإسماعيل صدقى وعلى ماهر ، وهذا يوضح الثقل الوطنى والشعبى الذى كان يتمتع به سعد العظيم .

ويستطرد صاحب المذكرات على الصفحة ذاتها . . (وقد أحدثت وفاة سعد زغلول فى أغسطس ١٩٢٧ فراغا شعبيا هائلا انتهزه الملك فؤاد ليزيد من نفوذه القصر إذ أن شخصية سعد كانت القوة الوحيدة التى تستطيع الوقوف أمام أو توقيراطية الملك) .

واعتقد أن كلام « حامل أختام الملك فاروق » ليس فى حاجة إلى توضيح أو إلى تعقيب من جانبنا ، وليس فى حاجة إلى اعتراض من جانب غيرنا .

ونأتى إلى « إسماعيل صدقى » أول من خرج على سعد زغلول ، ومؤسس حزب الشعب ، والذى حل البرلمان الوفدى أكثر من مرة والذى تمت فى عهده محاولة اغتيال مصطفى النحاس فى المنصورة . . والذى . . . والذى . . يقول فى مذكراته عن سعد زغلول (كان سعد زعيميا وطنيا بكل ماتؤديه هذه الكلمة من معان ، ولو أن كلمة زعيم لا تمنع ، أنه كان سياسيا قديرا وقائدا ماهرا فى أوقات الشدائد وربانا بارعا صارع الأنواء والأمواج وواجه الأخطار فلم تؤثر فى عزمته ولم تززع من جبروت نفسه وإرادته .

وكان يخرج بسفينته قويا منتصرا جبارا ، وكانت شجاعته وبلاغته وسعة اطلاعه وكثرة تجاربه مما هيا له ، التأثير بين الجماهير فاشتد حبها له وإعجابها به ، وانقيادها لكل ما يديه من رأى واصغاؤها لكل ما يهتف به من قول . . فامتلك الافئدة والنفوس وبقي طوال حياته الزعيم الأكبر .

واعتقد أن كلام « إسماعيل صدقى » ليس فى حاجة إلى توضيح أو إلى تعقيب من جانبنا ، وليس فى حاجة إلى إنكار من جانب غيرنا .

القرية والأزهر

من الظواهر التى تلفت نظر الباحثين أن القرية المصرية أنجبت لمصر عددا من زعمائها المرموقين بعد أن استودعتهم الأزهر الشريف يقدم لهم الأصالة ثم يقدمهم بدوره قادة لمصر فى الأنشطة المختلفة . . من هؤلاء الذين ولدتهم القرية المصرية وتأسست بنيتهم الثقافية فى الأزهر كان « سعد زغلول » .

والتاريخ الشائع لميلاد « سعد زغلول » هو عام ١٨٥٩ م ويرجح « الدكتور عبد العظيم رمضان » أنه ولد فى شهر ذى الحجة ١٢٧٤ هـ الذى يوافق يوليو ١٨٥٩ م ، وهو التاريخ الذى

صرح به سعد زغلول بنفسه لسكرتيه محمد إبراهيم الجزيري .

ومهما يكن من أمر فقد انبثته ونمته قرية مصرية هي (قرية ابيانه) مركز فوه التي كانت تابعة لمديرية الغربية ، أبوه « الشيخ إبراهيم زغلول » رئيس مشيخة القرية ، والدة سعد هي مريم بنت الشيخ عبده بركات أحد كبار الملاك ، وأنجب منها بنتا واحدة هي « ستهم » ثم سعد الذي عرف بسعد زغلول ، وفتحي الذي عرف بأحمد فتحي زغلول ، ومات الشيخ إبراهيم زغلول وسعد عمره خمس سنوات فكفلته أمه وخاله « عبد الله بركات » والد « فتح الله بركات » .

ثم جاء دور « الكتاب » بتعلم منه سعد القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم ، ووفد « سعد » إلى القاهرة سنة ١٨٧٣ م ويلتحق بالأزهر . . وفي ذلك العام رحل رفاة الطهطاوى .

وكان قد وفد إلى مصر الثائر « السيد جمال الدين الأفغانى » سنة ١٨٧١ .

وفي تقديري أن تلك النشأة الأصلية هي التي حددت السمات التي تميز بها « سعد زغلول » فيما بعد والتي سجلها « محمد كامل سليم » قال : (سعد رجل الشعب ، والاستقلال لمصر . وثقافته عربية أدبية دينية إسلامية ، تعلم الفرنسية على كبر وأتقنها كلاما ، وكتابة ، وعرف الحضارة الغربية بكثرة اطلاعه وقراءاته وكثرة أسفاره إلى الخارج ، وهو رجل أخلاق ومبادئ مطبوع على الصراحة والشجاعة والثقة بالنفس والصدق والأمانة . . رجل عاطفى مشبوب العواطف يجب بكل قلبه مع العطف والحنان ، ويكره مع السخط والاحتقار ، ويغضب في عنف على كل منحرف عن الصدق والفضيلة والاستقامة) .

سعد والشيخ والسيد

من الصعب أن تقارن بين تأثير الشيخ محمد عبده ، وتأثير السيد جمال الدين الأفغانى على سعد زغلول . . ولعل تأثير « السيد » على سعد زغلول هو الذى حدا بالزميل الكاتب الأستاذ جمال بدوى أن يطلق على مقالة له في هذا الشأن عنوان (سعد زغلول . . الأفغانى) على كل حال فإن « الشيخ محمد عبده » وفد إلى الأزهر في منتصف شوال من سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٦ ميلادية) وهو في هذا سابق على مجيء سعد زغلول بسبع سنوات الذى جاء إلى الأزهر سنة ١٨٧٣ م ، وكان السيد جمال الدين الأفغانى قد جاء إلى مصر في أواخر سنة ١٢٨٦ هجرية (مارس ١٨٧١ ميلادية) وقد صاحبه « الشيخ محمد عبده » ابتداء من شهر المحرم سنة ١٢٨٧ هجرية وأخذ يتلقى عنه بعض العلوم الكلامية والفلسفية .

وصحب « الشيخ محمد عبده » تلميذه وصديقه إلى حلقة الأفغانى ، وكان « الشيخ محمد عبده » يكبر « سعد زغلول » بعشر سنوات وسابقا عليه في تلقى العلم بالأزهر بسبع سنوات ،

وسابقا عليه أيضاً في الاتصال « بالسيد جمال الدين » الذى جلس إليه مريدون كثيرون « محمد عبده ، سعد زغلول ، عبد الله النديم ، محمود سامى البارودى ، إبراهيم المويلحى ، وإبراهيم اللقانى وعلى مظهر ، وحفنى ناصف ، وعبد السلام المويلحى ، وعبد الكريم سلمان ، وأديب اسحق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستانى ، والسيد وفاء التونى ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد » .

وفي ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ كانت قوة بأمر « الخديو توفيق » تقبض على « جمال الدين الأفغانى » وعلى خادمه « أبو تراب » وأودعا باخرة عند السويس سارت بها إلى بومباى ، وكان هذا اليوم آخر العهد بالسيد في مصر . . ولكنه كان قد ألقى بذور الثورة في تربة مهياة لها .

فكانت تظاهرة عابدين بقيادة عرابى في ٩ سبتمبر ١٨٨١ . . وكتب سعد زغلول في (الوقائع المصرية) يؤيد الثورة . . وقام بدور هام في نقل أخبار الوطنيين إلى عرابى في الجبهة ، ونقل آراء « الشيخ محمد عبده » وقرارات الوطنيين إلى العربيين في جبهة القتال . . وبعد هزيمة الثورة فصل من وظيفته ففتح مكتباً للمحاماة . . وظلت سلطات الاحتلال والخديوى تطارده فقبض عليه في ٢٠ يونيو ١٨٨٣ بتهمة الاشتراك في جمعية سرية .

١٣ نوفمبر ولماذا سعد ؟

لسنا بصدد الحديث عن وقائع هذا اليوم التاريخى وإنما نعرض هنا لسؤال هام هو . . لماذا سعد ؟

للرجل تاريخ يعود إلى سنة ١٨٧٣ وهو العام الذى التقى فيه بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وتاريخ يعود إلى مصاحبته للشيخ محمد عبده ، وتاريخ يعود إلى مشاركته الجدية في أحداث الثورة العرابية وإلى الفصل من الوظيفة وإلى السجن بسبب هذا النشاط .

ثم يواصل المسيرة إلى جانب الشعب ، ففي ١٨ نوفمبر ١٩٠٦ اختير سعد ناظراً للمعارف فينحاز تماماً إلى حق الشعب في التعليم ، وإلى تعيين الوطنيين في وظائف المعارف ، والتصدي لدانلوب والمستشارين الإنجليز وفي ٢٣ فبراير ١٩١٠ نقل ناظراً للحقانية فكان مثالا للعدالة والوطنية المصرية .

وعندما كان وكيلا للجمعية التشريعية كان معارضا بارزا للسياسة الانجليزية .

وقبيل إعلان الهدنة دعا « سعد » إلى عزبته بمسجد وصيف « عبد العزيز فهمى » و« أحمد لطفى السيد » ومحمد محمود « وتحذروا فيما ينبغى عمله بعد إعلان الهدنة ، وفي ١١ نوفمبر أعلنت

الهدنة وكان هناك اجتماع في بيت سعد تقرر فيه توجيه الدعوة إلى اجتماع موسع وكتب صيغة الدعوة « أحمد لطفى السيد » ، وفي هذا الاجتماع الموسع تقرر أن يذهب « سعد زغلول » وكيل الجمعية التشريعية ، و«عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى » عضوا الجمعية التشريعية إلى المعتمد البريطانى في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ .

ليس دفاعا عن الثورة

وهكذا إذا وصلنا إلى يوم الثورة في ٩ مارس ١٩١٩ التى اشتعلت غداة القبض على « سعد زغلول » وزملائه . . وراء سعد ما يقرب من نصف قرن من الارتباط بالحركة الوطنية المصرية ، ومن المواقف الشجاعة إلى جانب مصالح الشعب ، ومن التنظيم والإعداد ليوم الجهاد ولما بعد هذا ، ولم تأت القيادة مصادفة ولا هو ركب موجة ولا يحزنون .

والحديث عن الثورة القومية الكبرى عميق ومتشعب . . فهى أول ثورة يقوم بها شعب ضد الاحتلال بعد الحرب العالمية الأولى ، وأعدت ثقة الشعب المصرى إلى نفسه ، بعد أن هزمت الثورة العربية . هذه الثورة لم يقم بها حزب واحد من الأحزاب التى عرفت في مصر قبل الحرب العالمية الأولى (الحزب الوطنى حزب الأمة حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، حزب النبلاء ، الحزب المصرى الحزب الدستورى ، الحزب الجمهورى ، الحزب الاشتراكى المبارك . .) وإنما قامت بها جبهة عريضة واسعة أذهلت السياسيين داخل مصر وخارجها هذه الجبهة عرفت تاريخيا باسم «الوفد» وهذه واحدة من ميزات الثورة الكبرى .

وكانت الحركة الوطنية موزعة الاتجاهات والأساليب . . مرة الأمل في الدولة العثمانية ، وأخرى في الخديوى ، وثالثة في فرنسا ورابعة في التسليم بواقع الاحتلال والسعى إلى الإصلاح . . ولكن الثورة رفعت شعار مصر للمصريين وجددت أمل المصريين في الثورة كأسلوب للتغيير .

ويرى باحثون آخرون أن أعظم انجازات ثورة ١٩١٩ هى وحدة المسلمين والأقباط فقد أصبحت مصر بذلك تكاد تكون الدولة العربية الوحيدة التى لاتتمزقها العصبية والنعرات القومية والدينية . ويكفى أن شعار الثورة (الدين لله والوطن للجميع) ، لم نزل نعود إليه إذا ما نزلت بالوطن فتنة أو شبه فتنة طائفية .

الوزارة الشعبية

بقيت مصر من ٩ فبراير - ١٥ مارس ١٩٢٣ بدون وزارة ، وجاءت وزارة « يحيى إبراهيم » من ١٥ مارس - ٢٧ يناير ١٩٢٤ على أساس أن تفرج انجلترا عن « سعد زغلول » وعن أعضاء الوفد المعتقلين في سيشل . وتم الإفراج عن المعتقلين داخل مصر وصدر الدستور في ١٩ إبريل ١٩٢٣ . وأجرى يحيى إبراهيم انتخابات برلمانية سليمة في ١٢ يناير ١٩٢٤ حاز فيها مرشحو سعد على ١٩٥ مقعدا من مجموع المقاعد (٢٢٤) . وتقدم يحيى إبراهيم بالاستقالة في ٢٧ يناير ١٩٢٤ ليشكل « سعد باشا » في (٢٨ يناير - ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤) الوزارة الشعبية الأولى التي أدهشت الكثيرين .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل في مذكراته (في اليوم الذي تألفت الوزارة فيه فتح كثيرون عيونهم واسعة من شدة الدهشة لقد ألف الناس من عشرات السنين ، وفي عهد الإنجليز أنفسهم ، أن يكون في الوزارة قبضى واحد . أما سعد فقد أخذ في وزارته اثنين من الأقباط . . وقد ألف الناس أن يكون الوزراء ممن لهم مكانة ملحوظة في الحكومة أو خارج الحكومة . فاشرك سعد في وزارته رجالا لم يعرف لهم أحد ماضيا يقام له وزن ، أشرك نجيب الغرابي المحامي بطنطا ، وأشرك غيره فأدهش ذلك أهل مصر وكان مثارا لدهشة البلاد العربية الأخرى) .

وإذا كان هذا الاتجاه إلى وضع أبناء الشعب في مقاعد الوزراء قد أدهش الكثيرين في مصر والبلاد العربية ، فإن ما قدمه نواب الشعب في الدورة الأولى لأول مجلس نواب ينتخب انتخابا حرا على أساس دستور ١٩٢٣ كان بمثابة قرارات سياسية واجتماعية واقتصادية تؤكد اتجاه السلطة الوطنية الجديدة . . قرر نواب الشعب فيما قرروا . . تنظيم استهلاك الدين ، وفصل العملة المصرية عن العملة البريطانية ، وسحب الاحتياطي من بنك انجلترا ، وحذف الاعتماد المخصص لنفقات جيش الاحتلال ، وحذف رسوم الجمارك بين مصر والسودان على مهمات وذخائر الجيش المصرى . . وتنشيط الجمعيات التعاونية واعتماد إضافي لوزارة المعارف لإنشاء المدارس ، ومشروع إصلاح الأراضى البور ، وبيع أطياف الحكومة لصغار المزارعين واختيار مندوبين مصريين يمثلون الحكومة لدى الشركات الأجنبية بدلا من الأجانب ، وجعل الانتخاب على درجة واحدة لمجلسي النواب والشيوخ ، بعد أن كان على درجتين للنواب ، وثلاث للشيوخ . .

وإزاء الثورة القومية الكبرى ، الثورة الشعبية الحقيقية من حيث القوى والقيادة والأهداف والتنظيم ، وإزاء أول برلمان بعد انتخابات حرة يتخذ مثل القرارات السابقة ، وإزاء الوزارة الشعبية الأولى برئاسة زعيم الأمة ، وإزاء الوفد الوكيل الشرعى للأمة . . كان من الطبيعى أن تتحالف القوى المعادية للشعب المصرى لإجهاض ثورة ١٩١٩ ، ووضع العراقيل أمام مسيرتها . . تحالف الإنجليز ، والملك فؤاد ، والزعامات غير الشعبية وغير الديمقراطية أمثال إسماعيل صدقى ،

وعلى ماهر ومحمد محمود وأحزاب القصر والأقلية السياسية كالأحرار الدستوريين ، والحزب الوطنى ، وحزب الاتحاد . . وبعد أول طلقة لاغتيال « السيرلى ستاك » اضطّر سعد باشا إلى الاستقالة . . وجاء أحمد زيور ليعطى الجمل بها حمل للانجليز والملك .

لماذا الهجوم ؟

ليس من الغريب إذن أن يكون هذا الهجوم الشرى على سعد زغلول وسياسة سعد زغلول أثناء حياته وطوال ستين عاما حتى اليوم بعد رحيله فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . . لماذا ؟ كان سعد يمثل ضمير الأمة فى مفاوضاته مع الإنجليز ، وكان غيره يريد أن يصل إلى ما يمكن أن يسمح به هؤلاء الإنجليز . . وحين لجأ سعد إلى الجماهير فى ٢٥ إبريل ١٩٢١ يفسر لها تمسكه برئاسة وفد المفاوضات قال : (إذا طلبنا الرئاسة ، فإننا نطلبها ليكون الرئيس حرا مرتكزا على قوة هى قوة الأمة لا أن يكون مرتكزا على قوة من الحكومة الإنجليزية . . وإلا ففى هذه الحالة يكون جورج الخامس يفاوض جورج الخامس) .

سعد استرد من الملك فؤاد السلطات التى اغتصبها . . من الطبيعى أن يحاربه القصر وكل سياسى يريد أن تعود السلطات للملك . . كان زعيمًا خرج بكفاحه من بين الجماهير ، زعيمًا شعبيا حقيقيا ، يستند إلى الشعب وليس إلى سلطة الاحتلال أو القصر حاربه بالانقسام ويمحاولة الاغتيال وبكل محاولات إجهاض الثورة القومية الكبرى ، حاربه ومازالوا يحاربون ميراثه الديموقراطى عندما كان رئيسا لمجلس النواب وأراد أن يتحدث فينزل عن كرسى الرئاسة وناداه وكيل المجلس « ويصا واصف » الكلمة الآن لنائب السيدة زينب . . وضع المجلس الموقر بالتصفيق .

معذرة أبا الزعماء . . فالعين بصيرة والمساحة المتاحة قصيرة . . ويكفى أن أردد ما قاله الشاعر اللبناني « بشارة الخورى » عند رحيلك . .

قالوا : دهب مصر دهباء فقلت لهم . . هل غيضى النيل أم هل زلزل الهرم ؟
قالوا : أشد وأدهى قلت ويحكم . . إذن لقد مات سعد وانطوى العلم .

الأسانيد :

- ١ - اسماعيل صدقى مذكرات .
- ٢ - جمال بدوى مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث .
- ٣ - حسن يوسف مذكرات .
- ٤ - د . عبد العظيم رمضان . مذكرات سعد زغلول .
- ٥ - عباس محمود العقاد . سعد زغلول سيرة ونجدة .
- ٦ - د . محمد حسين هيكل . مذكرات فى السياسة المصرية .
- ٧ - محمد كامل سليم . سعد وعدلى .

سلامة موسى



أدخل كلمة (الاشتراكية) في وقت مبكر إلى اللغة العربية . . وعندما : عرف البعض شيئا عن الاشتراكية أداروا مدافعهم إلى « سلامة موسى » يمتطرونه بأشد الهجوم لأنه أراد هذه الاشتراكية ديمقراطية بعيدة عن الدكتاتورية ويريدها وطنية لاترتبط بهذا البلد أو ذاك ، ولأنه أرادها سلاما بعيدة عن العنف والدم !

روج لكلمة (الثقافة) وعندما نشأ جيل من المثقفين تتلمذوا على أفكاره وعلى يديه حرصوا على ألا يذكروا اسمه في مناسبة أو غير مناسبة ، وحرصوا على تجاهل اسمه ، وعملوا على ألا تعرفه الأجيال الجديدة وكأن لم يكن هناك في الحقل الثقافي مفكر اسمه « سلامة موسى » .

أسس جمعية (المصري للمصري) ونادى بمقاطعة البضائع الأجنبية وخاصة الانجليزية ، وأصر « إساعيل صدقي » على أن يترك « سلامة موسى » رئاسة الجمعية .

كان يرى أن تكون الصحافة المصرية للصحفيين المصريين . . وعندما عمل بدار الهلال ، وعندما انضم « كريم ثابت » إلى دار الهلال خرج « سلامة موسى » ليصدر من جيبه الخاص مجلة شن فيها حملة شعواء على وجود غير المصريين ، وعلى وجود المتصرين في الصحافة المصرية .

الفقيه القانوني الدستوري الكبير « عبد العزيز فهمي » دعا مرة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ظنا منه أن هذه الطريقة تخلص الكتابة من بعض سلبياتها ، ودعا سلامة موسى إلى هذه الفكرة فنسى البعض « عبد العزيز فهمي » وتذكروا « سلامة موسى » ، نسوا الأصل وتذكروا الفرع وانهاالت المطارق على رأس سلامة موسى .

حمل بشراسة على القصر ، وعلى الملك فؤاد ، وعلى الملك فاروق وجابه عهود ما قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وجاءت عهود ما بعد ٢٣ يوليو فلم تذكره ولم تنصفه سوى مؤسسة أخبار اليوم التي

ضمته إلى كتابها حتى توفي في ٤ أغسطس ١٩٥٨ .

باع الأرض التي تركها له أبوه ليصدر المجلات الصغيرة ، وليصدر كتبه ، ويتعرض لعمليات المطاردة وقطع الرزق . . ثم يكتب كاتب مصري في مجلة الحوادث اللبنانية وبعد رحيل سلامة موسى مقالا غاية في القسوة : (سلامة موسى . . صفحة ينبغي أن تطوى) .

على أية حال نقول ربما يكون قد أخطأ . . ويقول البعض . . ليس خطأ ولكنه خطيئة . . وإذا قالوا خطيئة . . نقول . . من كان منكم بلا خطيئة فليرمه بأول حجر . . فهو بكل المقاييس لا يستحق أن يرمى بأول حجر . إنه صفحة ينبغي أن تنشر .

تربية سلامة موسى

في كتابه (تربية سلامة موسى) نعلم الكثير عن سيرته الذاتية . . ولد سنة ١٨٨٧ في قرية قرب مدينة الزقازيق بدلتا النيل . والده موظف في الحكومة ولكنه توفي عندما كان « سلامة » في الثانية من عمره . لم تكن الأسرة فقيرة أو معدمة ، فلديها بعض الأملاك وترك الوالد للأسرة معاشا لا بأس به . على أية حال لم تكن الأسرة تعاني من مشكلات مالية .

في طفولته دخل مدرسة قبطية صغيرة من تلك المدارس التي تعلم شيئا من القراءة وشيئا من الحساب ، ثم انتقل إلى مدرسة إسلامية صغيرة من تلك المدارس التي تعلم شيئا من اللغة العربية إلى أن التحق بالمدرسة الابتدائية الأميرية بالزقازيق حتى حصل على شهادة (الابتدائية) .

جاء إلى القاهرة والتحق بالمدرسة التوفيقية ثم المدرسة الخديوية حتى حصل على البكالوريا حوالي عام ١٩٠٣ ويبدو أن الأزمات بدأت تقتحم مناخ الأسرة ويقول في مقدمة كتابه (هؤلاء علموني) : (بدأت أرسم خارطة حياتي حوالي عام ١٩٠٦ حين ساء الوسط العائلي . ففررت إلى أوروبا . . وهناك شرعت أدرس اللغتين الفرنسية والانجليزية وأقرأ من الكتب ما يشع النور في عقلي ويبعث الشجاعة في قلبي . .) .

وقبل أن نتحدث عن رحلته الأوروبية وما بعدها نتناول محاولته تثقيف نفسه قبل سفره إلى أوروبا ، وذكرياته عن قريته ، ثم قصة كتابه (هؤلاء علموني) ، وحقيقة الأمر أن حياة « سلامة موسى » قصص متصلة من المعاناة . . على مسئولية « حازم فوده » في كتابه (نجوم شارع الصحافة) . . ننقل ما كتبه عن « سلامة موسى » : - في عام ١٩٥٠ ضاق المسئولون في السراي بما يكتبه سلامة موسى في جريدة (صوت الأمة) وطلبوا منه من الكتابة . . وظهر اقتراح بأن تدفع الحكومة لسلامة موسى مرتبه كاملا ويمتنع عن الكتابة . . واقرحت - حازم يتحدث - إخفاء الأمر عن سلامة موسى . . وعرضت عليه أن يكتب صفحة بعنوان - هؤلاء علموني كل

أسبوع يلخص فيها كتابا لمؤلف مشهور . . واخترنا لهذه الصفحة عنوان - هؤلاء علمونى - والتي أصبحت فيما بعد كتابا يحمل نفس العنوان . . ولقد ظل سلامة موسى سنوات طويلة لايعرف هذه الحكاية حتى صدر كتابه وكتبت له القصة بالكامل ، ورد على رحمه الله بخطاب مازلت أحتفظ به يلومنى فيه أننى أخفيت عنه محاولات (الأوباش) . . لمنعه عن الكتابة ! انتهى كلام حازم فودة - والحكاية على مسئوليته - ولكن كل الذين يمنعون المفكرين من الكتابه هم أو باش بكل المقاييس .

وعندما كان بالقاهرة ، قبل أن يسافر إلى أوروبا قرأ عن دارون وعن نظرية النشوء ، وقرأ للدكتور شبلى شميل ، وقرأ المقتطف وقرأ الأدب العربى القديم .

القرية المصرية

أما القرية المصرية فقد بدأت مع « سلامة موسى » منذ طفولته وصباه وبقيت معه حتى وفاته ، كانت جزءا هاما من اهتماماته وأفكاره . . وهو يروى أنه ولد حوالى سنة ١٨٨٧ لأسرة نزحت أصولها من (البياضية) وهى قرية من قرى (المنيا) وأقامت فترة فى (القراقرة) مركز منيا القمح فى الشرقية ثم استقرت فى الرقازيق . . ويذكر أنه كان يركب الحمار والفلاح يجرى خلفه نحو ساعة أو أكثر ويذكر وباء الكوليرا الذى تفشى فى الرقازيق حوالى سنة ١٨٩٥ وكيف كانت النعوش تخرج متوالية وليس خلفها سوى شخصين أو ثلاثة . . ويذكر أيضا أنه اكتسب من الريف حبه للطبيعة الذى جعله يحس سائر حياته أن الأرض هى الأم .

تلك الصورة ترسبت فى وجدان سلامة موسى وفى عقله فنذر قلمه دفاعا عن القرية المصرية وعن الفلاحين المصريين . وهاجم البذخ الذى يعيش فيه أفراد قليلون ينفقون الوف الجنيهات فى العام بينما لاينفق الفلاح أكثر من عشرة جنيهات هو وعائلته . وفى كتبه وفى الجرائد والمجلات التى كتب فيها دافع عن حق الفلاحين فى الحياة . وهاجم الترف والسفة فى شارع الهرم وحققت معه النيابة على اعتبار أنه يقصد سهرات « الملك فاروق » هناك .

فى رحاب العقل

بدأ يرسم خارطة حياته عام ١٩٠٦ وسافر إلى فرنسا وقضى سنة فى باريس ، وعاد إلى مصر لعدة أشهر ثم سافر مرة ثانية إلى باريس ليقضى سنتين آخرين قرأ فيها كتابات الاشتراكيين الفرنسيين . ولكنه تأثر أكثر ماتأثر بالمفكر الفرنسى « فولتير » الذى مهد للثورة الفرنسية وتأثر بكارل ماركس ولكنه لم يكتب عنه فى (هؤلاء علمونى) وذلك خشية اتهامه بالشيوعية . كان أول

كتاب له هو مقدمة السوبرمان نشرته له (دار الهلال) سنة ١٩١٠ . وهو كتاب به خليط من الأفكار والقراءات لايربطها خيط واحد وإن كان أشار فيه إلى الاشتراكية .

وقضى بعد سنواته الثلاث في فرنسا أربع سنوات في انجلترا التقى فيها بجورج برنارد شو، واتصل بالجمعية الفابية . ونشر عام ١٩١٣ كتابه الصغير بعنوان (الاشتراكية) وضح فيه تأثره بالاشتراكية الفابية التي تنفر من العنف والثورة، وهي أقرب إلى الإصلاح بالتدرج الهادئ عن طريق التوعية والانتخابات الحرة . وكان معجبا أشد الإعجاب بالكاتب الروسي « تولستوى » وفي أخريات أيامه كان يضع صورة كبيرة لتولستوى فوق فراشه، وكان يرى فيه فيلسوفا للشعب لأنه يقيس كل شيء بمدى قيمته للشعب .

ومنذ أن عاد من الخارج حتى وفاته ، وفي كل رحلاته إلى الخارج وبعد عودته من كل رحلة ، كان ينقل إلى المصريين ما رأى وما سمع وما قرأ . . أصدر ٤٠ كتابا وأصدر على نفقته الخاصة عددا من المجلات والجرائد . . أشهرها (المصرى للمصرى والمجلة الجديدة والمستقبل واليومية) وكتب في عديد من المجلات والجرائد (اللواء والجامعة والمحروسة والمقتطف والهلال والأخبار والبلاغ) وتولى رئاسة تحرير (الهلال) من عام ١٩٢٥ . كان أول من ترجم لدستور يفسكى إلى العربية . وفي كل كتاباته كان صريح العداء للقصر وللأمراء ولملك الأرض الإقطاعيين ، وكان صريح الانحياز للفقراء وللعمال والفلاحين ولعل هذا هو الذى دفعه للاشتراك فى تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى .

الحزب الاشتراكى المصرى

فى نهاية العقد الثانى وأوائل العقد الثالث من القرن العشرين شهدت مصر حركة ثقافية جديدة . اهتم سلامة موسى كما عرفنا بنقل أفكار تولستوى وغاندى والاشتراكيين الفرنسيين وشبلى شميل بنقل أفكار دارون ، وطه حسين يتحدث عن الأفكار الاجتماعية لابن خلدون ، وإسماعيل مظهر يسير فى اتجاه شبلى شميل وأحمد لطفى السيد مثل هؤلاء جميعا ينادى بالديمقراطية ويرفع شعار مصر للمصريين . وعدد من أبناء الثقافة الفرنسية « الشيخ مصطفى عبد الرازق وعزيز ميرهم والدكتور محمود عزمى والدكتور منصور فهمى والدكتور محمد حسين هيكل » يؤسسون الحزب الديمقراطى وكان الاقتراح الأول للدكتور منصور فهمى أن يكون اسمه (الحزب الاشتراكى) .

أما الأجانب فقد كان لهم نشاط فى اتجاه تأسيس خلايا شيوعية ، خاصة جماعات من اليونان والأرمن والإيطاليين والروس . أبرز هؤلاء جميعا شخصية غامضة وهو « روزنتال » الذى نشط فى

تأسيس نقابات عمالية بالإسكندرية ، وعمل على تحريك النقابات على الإضرابات ، ثم نشط للاتصال بعدد من المثقفين المصريين لتأسيس حزب شيوعي مصرى . وفى أغسطس ١٩٢١ صدر بيان بإعلان (الحزب الاشتراكى) وكانت العناصر المؤسسة له والتي أعلن عنها هى : سلامة موسى وحسنى العرابى وعلى العنانى ، ومحمد عبد الله عنان . وقد حرص « روزنتال » على عدم وضع اسمه . ودار بعد ذلك صراع غريب بين العناصر المصرية من جانب والعناصر الأجنبية من جانب آخر . ثم صراع آخر داخل المجموعة المصرية إذ إن « سلامة موسى » لم يكن يرغب فى تكوين حزب أو تنظيم وإنما كان يريد أن يكتفى بتكوين (جماعة) تقوم بالدعاية للأفكار الاشتراكية ، ولكنه على الرغم من هذا ينشر بيانا باسم الحزب الاشتراكى باعتباره (سكرتيرا عاما) للحزب مما دفع العناصر الأجنبية إلى مساندة « محمد عبد الله عنان » واختياره سكرتيرا للحزب الاشتراكى المصرى . وقد شن « سلامة موسى » حملة ضد (البلشفية) لأنها نشرت الخراب والدمار فى روسيا ، وأعلن « سلامة موسى » أن أى نشاط شيوعى فى مصر يضر بقضية البلاد الوطنية - وهو هنا يقترب من موقف سعد زغلول وموقف الوفد - وأصر « روزنتال » والأجانب على تحويل الحزب الاشتراكى إلى حزب شيوعى وقد أيدهم فى هذا الاتجاه « محمد عبد الله عنان » سكرتير الحزب ، ومحمود حسن العرابى . ولكن سرعان ما تبين « على العنانى » و« محمد عبد الله عنان » صحة موقف « سلامة موسى » بعد أن تبادلوا الاتهامات من قبل ، ويتبادلوا المنافسة على منصب سكرتير عام الحزب الاشتراكى الذى اختير له فى بداية الأمر « على العنانى » ثم نشر « سلامة موسى » بيانا بتوقيعه كسكرتير عام ، ثم اختار الأجانب سكرتيرا جديدا هو « محمد عبد الله عنان » . على أية حال انسحب العنانى وعنان وسلامة موسى وتركوا العرابى يمضى فى الشوط إلى آخره وليس هنا مجال الحديث عن هذه القصة .

ترك « سلامة موسى » الحزب الاشتراكى والحزب الشيوعى لأنه فيما يبدو لم يكن يرغب فى أية قيود تنظيمية وإن كانت هناك رواية أنه انضم للوفد وبقي عضوا فيه حتى وفاته ، وكان يوجه بين الحين والآخر نقدا لسياسة الوفد إلا أننا كما نعلم فإن طبيعة الوفد كانت تسمح لأعضائه بقدر من الاختلاف .

وقد ظل « سلامة موسى » واحدا من جيل يؤمن بالحضارة الغربية ويدعو إلى الحرية وإلى العدل الاجتماعى وإلى العلم وإلى تحكيم العقل فى سلوكنا اليومى . ونذر قلمه للتنوير العلمى متأثرا فى كل ذلك بما رآه فى أوربا من شعوب حرة لها الكلمة العليا ورأى الصحف تعالج المذاهب وتناقش الساسة ، ورأى البيت النظيف والشارع النظيف ، والمكتبات المجانية .

كان يؤمن بأن مصر أصل الحضارة ، وإن كان ينظر إلى العالم كقرية كبيرة ، سرت مصريته فى

دمائه وعظامه وإن كان شعوره بالإنسان يشمل الإنسان في كل مكان . هوجم لأنه كان مفتونا بالحضارة المصرية القديمة وقالوا إنه كان يدعو إلى (الفرعونية) ونسوا أن هذه الدعوة كانت في جوهرها إيماناً بمصر في مواجهة محاولات الاحتلال طمس الشخصية المصرية والتهجم على قدرات شعب مصر في النهوض والتقدم . . وقد دعا إلى (الفرعونية) وإلى أحياء مجد مصر القديمة من هذا المنطلق « الدكتور محمد حسين هيكل » و« أحمد حسين » رئيس جماعة مصر الفتاة وعندما دعا إلى الأخذ بأسباب الحضارة العربية لم يكن يعنى أبداً التبعية إلى الغرب بل كان يقصد التخلص من هذه التبعية « كان مناضلاً صلباً من أجل الاستقلال الوطنى .

مدرسة سلامة موسى

وقد نقب له خصومه عن مثالبه وقالوا ثمة تناقض بين دعوته إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية وبين إشاداته الدائمة بالحضارة المصرية القديمة . وأخذوا عليه ارتباطه بجمعية الشبان المسيحيين التى لها اتصالات قوية بأمريكا فى الوقت الذى يهاجم الاحتلال البريطانى هجوماً مستمراً . . ومن الطريف أنهم أشاروا إلى حملته من أجل تحديد النسل فى الوقت الذى أنجب فيه ثمانية أبناء .

على الرغم من هذا فإن أفكار سلامة موسى فى مجموعها شكلت مدرسة مستقلة . ولظروف مختلفة لم تكن لمدرسة سلامة موسى شعبية ولكن لاينكر أحد أن أفكاره وجدت تأييداً من عناصر مختلفة . . فدعوته إلى تمصير الصناعة أيدته فيها محمد طلعت حرب وأحمد حسين وفتحي رضوان وحافظ محمود . . ودعوته للتوسع فى التعليم وجدت أرضاً خصبة لدى الدكتور طه حسين . . ودعوته إلى حرية التعبير وحرية التفكير وجدت صداها لدى مثقفين كثيرين . . أما دفاعه عن (اللهجة العامية) فقد هاجمها الكثيرون وأيدها البعض الذين كتبوا المسرحيات وغيرها .

ودعوته للزى الأفرنجى أيدتها الكثيرون وعارضها البعض . . ودعوته القوية للاشتراكية فقد وجدت تأييداً لها بدرجات متفاوتة لدى المنظمات اليسارية وبعض الأحزاب وإن اختلفت الأساليب . . وكتب عام ١٩٥٧ : هانذا (فى عام ١٩٥٧ ، أجد الجمهورية التى اهتمت بالدعوة إليها ، وحبست من أجل ذلك فى سنة ١٩٤٦ ، وأجد نجاح دعوتى للصناعة ، وهى دعوة أمضيت فيها أكثر من ثلاثين سنة ، وأجد نجاح دعوتى للعلم ، . . ولذلك أستطيع أن أقول : إنى انتصرت) .

والمسألة ليست مسألة انتصار أو هزيمة ، المسألة هى رسالة ولاينكر أحد أن سلامة موسى كانت له رسالة تحمل فى سبيلها الهجوم المتصل .

والكاتب دائماً موقف وأسلوب . . مواقفه معروفة جرت عليه غضب القصر وبعض

الحكومات وسلطات الاحتلال . . وأسلوبه باعد بينه وبين الذين تجذبهم المحسنات البديعية وجذالة اللفظ . . كان يكتب بأسلوب تقريرى مستخدما السرد المنطقى والجملة القصيرة . أطلق عليه هو فيما بعد (الأسلوب التلغرافى) .

صورة عن قرب

لقد قدر لجيلنا أن يراه وأن يقترب منه ، وللجيل الجديد الذى لم يره ولم يقترب منه نقدم تلك الصورة القلمية التى كتبها « نعمان عاشور » : (كان رغم صراخه الداخلى المتأجج رجلا ساكنا هادئا قانعا . . يتحمل كل ما يصيبه بصبر وتفاؤل . . كان متوسط الحجم أقرب إلى أن يكون قصيرا . . وجه مستدير وعينان تلمعان فى بريق نفاذ يدل على الذكاء المتوقد . . والقارئ الذى يريد أن يتعرف على سلامة موسى . . يستطيع بكل سهولة وبلا حاجة إلى لقائه ، أن يجد المادة التفصيلية الغزيرة لحياته وفكره وكفاحه فى كتبه العديدة التى خص معظمها بالحديث عن نفسه) . هذا هو سلامة موسى الذى ترك أكثر من ٤٠ كتابا و ١٥ مجلة ومئات المقالات . . إنه صفحة ينبغى ان تنشر .

الأسانيد :

- ١ - توفيق حنا . . . جريدة وطنى ٩/٨/١٩٨٧ .
- ٢ - د . رفعت السعيد . . . تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر .
- ٣ - سلامة موسى . . . تربية سلامة موسى .
- ٤ - د . عفاف لطفى السيد . . . تجربة مصر الليبرالية . ترجمة عبد الحميد سليم .
- ٥ - يحيى أحمد . . . أسماء لها بريق أخضر .

سينوت حنا



كان صديقا شخصيا لمصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى ، ووثيق الصلة بعضو اللجنة الإدارية للحزب الوطنى « ويصا واصف » والذى امتدت العلاقة بينهما إلى يوم الرحيل وقد تميز كلاهما بوضوح الرؤية وتحديد الاتجاه والصلابة فى الموقف وكان لكليهما موقف متميز واضح إلى جانب « سعد زغلول » ثم إلى جانب خليفته « مصطفى النحاس » وكان على علاقة قوية ببلدياته « قلبنى فهمى » المؤسس المشارك فى صحف الحزب الوطنى ولكن الثلاثة وغيرهم من أقباط مصر الذين اتصلوا بالحزب الوطنى تباعدت خطاهم عن مسيرة الحزب بعد رحيل « مصطفى كامل » وضعف قبضة القيادة الجديدة « محمد فريد » وارتفاع صوت « عبد العزيز جوايش » الذى توجس الأقباط خيفة منه ، وإن كان للجوايش بعد ذلك بسنوات موقف واضح فى دعم وحدة الأمة .

وبدأت فى الساحة السياسية المصرية قوة جذب جديدة متمثلة فى شخصية « سعد زغلول » وفى أفكار (الأخوة الوطنية) التى ورثها « سعد » عن رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده .

وفى الشهر الأخير من حياة « مصطفى كامل » كان ناظر المعارف العمومية « سعد زغلول » فى جولته الشهيرة بالوجه القبلى لتفقد المعاهد العلمية ، ومن أمتع الصفحات فى مذكرات سعد زغلول تلك التى يتحدث فيها عن جولاته والتى رأى فيها ربما لأول مرة عددا من الشخصيات التى قدر لها بعد عقد واحد من هذه الجولات أن تقترب من « سعد » وقد أصبح زعيما للأمة ونقف فى تلك الصفحات على حالة المصريين الاجتماعىة والمادية والعلمية .

بدأت جولة « سعد زغلول » ناظر المعارف إلى الوجه القبلى صبيحة يوم السبت ١٨ يناير سنة ١٩٠٨ من القاهرة - بطريق النيل على ظهر الباخرة رفيق ، يرافقه كل من أحمد أفندى براده ، سكرتيره ، وفؤاد أفندى كمال ، مساعد السكرتير . . وترك « سعد زغلول » يتحدث عن الجولة

بأسلوبه العفوى الممتع ، وبتفصيلاته الدقيقة . . كان المطر يتساقط رذاذاً ، والهواء بارداً جداً والشمس محجبة بالغمام ، وتأخر السفر عن ميعاده الثامنة صباحاً ، بسبب تأخر الطباخ عن الحضور ! حتى ظننا أنه « لن يعد » يحضر ، وخرجنا من الواوبر ، ثم صارت السفينة ، ولم نستطع لشدة البرد البقاء على ظهرها ، فنزلنا في غرفها . .

ويوم الجمعة ٢٤ منه ، قمنا في الساعة السادسة والدقيقة ٥٠ إلى أسيوط ، فوصلناها الساعة السابعة والدقيقة ١٥ (صباحاً) ، وفي أثناء المسير ، قبل الوصول إلى ابنوب بنحو ساعة ونصف ، شحط الواوبر ، ومكث مشحوطاً زيادة على أربع ساعات ونصف . . وكنا عازمين أن نتناول ، الشاي عند حسين بك فهمى المحامى إجابة لدعوته ، وأخبرناه بذلك في التليفون ولكن تأخرنا على الوصول منعنا وكان أمين واصف ، في انتظارنا مع بعض العساكر .

. . . توجهنا إلى منزل المدير ، حيث تناولنا العشاء ، وكان حاضراً وكيل المديرية المذكور ، والخواجة سينوت حنا ، أحد التجار الأعيان بأسيوط وفي أثناء العشاء حضر كل من حسين بك فهمى المحامى ومحمد أفندى أمين ناظر المدرسة ، وفي الساعة عشرة عدنا إلى الواوبر وحددنا الساعة ثمانية لزيارة المدارس (يقصد الثامنة من صباح السبت) . . .

زرنا أولاً المدرسة الأميرية فصلاً فصلاً ، ثم جميع الملحقات ، فوجدنا النظافة فيها لا بأس بها ولكن لم نسر من حالة التعليم بها فإن تلامذتها متأخرون في جميع الفنون التى سألناهم فيها ، وهى العلوم العربية ، والحساب والجغرافيا ، والديانة ، واللغة الإنجليزية ، وتبين لنا أن أغلب الأساتذة ضعاف في التعليم من جهة ، وكسالى من جهة أخرى . . وبالجملة فإننا خرجنا من المدرسة غير مسرورين إلا من نظافتها ونجابتها التلميذ « إسماعيل » الذى وجدناه في كتاب الكاشف عام أول ، وأمرنا بإدخاله في هذه المدرسة مجاناً . .

ونتوقف عند هذا الحد من حديث سعد الممتع وعرفنا منه أنه رأى في اللقاء « الخواجة سينوت حنا » الذى قدر له أن يقف إلى جوار سعد حتى رحيله . وإلى جوار « مصطفى النحاس » حتى تلقى عنه طعنة السونكى من جنود « إسماعيل صدقى » فى المنصورة أما « إسماعيل » التلميذ الذى كان « سعد » قد رآه فى كتاب الكاشف العام السابق على عام الزيارة فهو « إسماعيل القبانى » الذى اختار بعد ذلك أن تكون له مدرسة فى التربية والتعليم لا تؤمن بحق أبناء الشعب فى مجانية التعليم ، وقدر له أن يكون وزيراً للمعارف فى (٨ سبتمبر ١٩٥٢) ويقترح طرد توفيق الحكيم « من وظيفته بدار الكتب . . فى حين أن سعد زغلول أمر بأن يتعلم « إسماعيل » بالمجان .

صوت العقل

على الرغم من أن الحزب الوطنى (مصطفى كامل) حرص على أن يضم إلى صفوفه بمختلف مستوياتها عددا من الأقباط إلا أنه بعد رحيل « مصطفى كامل » لم يكن الوضع هكذا وبدأت العناصر القبطية تتباعد عن الحزب الوطنى ، وتقرب أكثر فأكثر من اتجاهات (حزب الأمة) الذى كان يعمل فى أناة لبناء الوطنية المصرية والقومية المصرية . ونجد فى صفوفه عددا من الأقباط وقام « اخنوخ فانوس » المحامى فى سبتمبر ١٩٠٨ بالإعلان عن تأسيس (الحزب المصرى) كحزب للأقباط ، وكرد فعل للاتجاهات الجديدة فى الحزب الوطنى (محمد فريد) إلا أن الاتجاه القومى المتصاعد أبقى (الحزب المصرى) كمحاولة فردية من صاحبها ، ولم يكن له نشاط يذكر ، وانضم إليه أفراد قليلون لم يكن من بينهم أحد من الزعامات القبطية التى أسهمت بعد ذلك بدور فعال فى الحركة الوطنية .

لم يقبل الأقباط على الحزب المصرى أو (الحزب القبطى) حزب اخنوخ فانوس وهو (غير تابع للكنيسة القبطية الارثوذكسية دينا وتعلما اذ تربى فى أحضان أرساليات التبشير الأجنبية) وبعد أن قاطع المسلمون والأقباط هذا الحزب أعلن فانوس عن تكوين هيئة باسم مجتمع الإصلاح القبطى روجت لها صحيفتا (الوطن ومصر) وسيأتى ذكر موقف هاتين الصحيفتين من الرباعى سينوت حنا وويصا واصف ومرقس حنا وواصف غالى ووصفهم باخوان يهوذا الأسخريوطى لدورهم الشجاع ضد العناصر المتطرفة قام سينوت بدوره داخل المؤتمر وقام ويصا بدوره العظيم خارج المؤتمر .

الاغتيال والمؤتمر

وفى تلك الفترة تصاعدت الكتابات والأصوات المعبرة عن الخلاف بين المسلمين والأقباط ونشأت دعوة إلى عقد مؤتمر قبطى بدأ الأمر بفكرة عقد المؤتمر القبطى وبدأ التفكير فيه قبل اغتيال بطرس غالى وكان هو (وهو رئيس للوزراء) ممن وقف ضد تحقيقها فجاء مقتله محرضا الدعاة على عقد المؤتمر .

وكان اغتيال (بطرس غالى) فى ٢٠ فبراير ١٩١٠ وكان سينوت حنا ضمن العناصر البارزة التى حاولت احتواء الحادث وأن يكون محصورا فى نطاق سياسى لاطافى قال شيخ الأزهر عند قبر بطرس - قليل من المسلمين عملوا الخير لبلدهم ولقد فعل هذا المسيحي الخير أيضا وأصدرت المؤيد جريدة الشيخ على يوسف ملحقا وصفت الاغتيال بالحادث المحزن ووصفت اللواء جريدة الحزب الوطنى الحادث بالحادث الخطير .

ونشرت المؤيد رسالة للأديب زكى خير الابوتيجى تدعو للتسامح والإخاء وقام نصيف جندى المنقبادى بالرد فى جريدة التيمس على مقال طائفى « قرياقص ميخائيل » أما صحيفة العلم وهى من صحف الحزب الوطنى فقد ائنت فى (١٠ مارس ١٩١٠) على ما اتصف به سينورت بك حنا الذى زار مدرسة الفشن وهى بلدة سينوت وتبرع للمدرسة وتبرع لتعليم تلميذ مسلم على حسابه حتى التعليم العالى وذلك كرمز للتعاون بين أبناء الوطن الواحد .

المؤتمران

وقد تصاعد نوع من اصطناع الخلاف بين المسلمين والأقباط كان ميدانه صحيفتى مصر والوطن من جهة وصحيفة المؤيد وبعض كتاب صحف الحزب الوطنى من جهة أخرى ووصل الخلاف إلى مداه حتى انعقاد المؤتمر القبطى فى مدينة أسيوط ٦ مارس ١٩١١ والمؤتمر المصرى (الإسلامى) فى مصر الجديدة فى ٢٩ إبريل ١٩١١ .

ويسجل الأستاذ المستشار طارق البشرى تقويا هاما يوضح مدى صلاية الجماعة الوطنية المصرية ومدى قدرتها على احتواء هذا النوع من الخلاف رغم حساسيته . . يقول البشرى ص ٦٣ - من المفيد التطلع إلى هذا الذى يشكل (أقصى) ما حدث من شقاق عرفة التاريخ الحديث بين أبناء مصر وإذا كان هذا هو الأقصى فهو ابلغ دليل على الوحدة والامتزاج بين أبناء الوطن الواحد . . وفى كتاب الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ١٢٠ يقول محمد حسين هيكل تعليقا على هذين المؤتمرين لم تكن هذه المحنة شرا خالصا فقد وضعت هذه الخصومة السافرة حدا لسوء الظن المتبادل بين الفريقين وإذا كان من الحق أن هذه الخصومة كانت قمة العنف فى النزاع الذى ينذر بتصدع الجامعة المصرية فمن الحق أنها كانت فى نفس الوقت الميلاد الحقيقى لفكرة الوطنية المصرية .

وكان سينوت حنا ومرقص حنا وويصا واصف وواصف غالى من كبار القبط الذى وقفوا بإصرار ضد الشقاق وعندما اعترض « جورست » المعتمد البريطانى على انعقاد مؤتمر أسيوط سواء حقيقة أم تمويها دافع قادة الرأى من المسلمين عن حق الأقباط فى الاجتماع والتعبير عن مطالبهم على الرغم من أنهم لا يرون ضرورة لهذا الاجتماع ومعنى هذا ببساطة أن المسلمين وقفوا إلى جانب مواطنيهم المسيحيين ضد مثل الاحتلال الأجنبى .

وقد حاول « اخنوخ فانوس » ان يرأس المؤتمر ، ولكن العناصر المعتدلة سيطرت على قيادة المؤتمر فتولى رئاسته « بشرى حنا » وتولى أخوه « سينوت حنا » أمانة الصندوق ، وقد قام بدور هام

في أن يكون المؤتمر دعماً للوحدة الوطنية وليس شرخاً في جدارها ولم يجذب « واصف غالى » بن « بطرس غالى » فكرة المؤتمر ، وعارض المؤتمر وقاطعه « ويصا واصف » وأبدى « الأنبا كيرلس الخامس » بطريك الأقباط تخوفه من المؤتمر وأصدر بيانا ذكر به أنه كان يسره اجتماع كلمة أبنائه على مافيه الخير للجميع وليس بدعوة الجمع الغفير ، وسجل « عبد القادر حمزة » صاحب جريدة « الأهالى » والذي حضر المؤتمر ، سجل في ١٤ مارس ١٩١١ - أعجبني من خطباء المؤتمر أنهم ضربوا في أقوالهم على نعمة اتحاد المسلمين والأقباط . وفي يوم الافتتاح في ٦ مارس ١٩١١ حرص المؤمنون على تأكيد الانتماء الكامل للوحدة الوطنية ، فارتفع العلم المصرى فوق مكان الاجتماع ، وبدأ يعزف السلام الخديوى وقد شمل الجميع أو الغالبية حرص على توثيق الرباط الوطنى .

ورد المسلمون على المؤتمر القبطى بمؤتمر آخر أسمى « المؤتمر المصرى » تولى رياسته « رياض باشا » المعروف بعدائه للثورة العربية ولكنه مشهود له ببعد النظر والحرص على عدم تدهور الموقف . وفي جلسة الافتتاح أعلن « رياض باشا » أن هدف المؤتمر مناقشة المسائل العمومية ومنها ما يسمونه بمطالب القبط . . وكان في هذا حصيها وموفقا وضع الأمور بما يليق بدور أغلبية وإعية تناقش كافة الأمور التى تشغل رأى العام ، وعلى الرغم من أن تقرير المؤتمر تعرض لما حدث في المؤتمر القبطى بعبارات حادة إلا أنه انتهى إلى اشاعة روح التهدئة .

لسنا بصدد الحديث عن المؤتمر القبطى أو المؤتمر المصرى إلا بالقدر الذى نوضح به سلامة الاتجاه العام لدى الفريقين ، وإلا بالقدر الذى نوضح به أهمية الدور الذى قام به المستنيرون في كل فريق ، وقد كان موقف « ويصا واصف » ومع « سينوت حنا » و« مرقص حنا » و« واصف غالى » حاسما وواضحا في احتواء الموقف والحرص على وحدة الوطن ، ومن جراء هذا حملت « الوطن » حملة شعواء على « ويصا واصف » وسينوت والآخرين وأطلقت عليهم « جماعة يهوذا » نسبة إلى « يهوذا الاسخريوطى » الذى خان السيد المسيح وسلمه لليهود ، في الوقت نفسه هاجمت البطريك « كيرلس الخامس » الذى دعا الأقباط إلى التعقل ، وذكرت « الوطن ومصر » أن البطريك لاشأن له بمثل هذه الأمور على اعتبار أنها شئون مدنية لا دخل للقيادات الدينية بها ، وتحدث « إبراهيم الغزالى » في المؤتمر المصرى وقال - لقد تنبه لتلك المضار ، أغلب مواطنينا الأقباط مقدرين الوحدة الوطنية حق قدرها . وأثبت الزمن أن « جماعة يهوذا » . . ويصا واصف ، وسينوت حنا و« مرقص حنا » و« واصف غالى » ومن استمع إليهم كانوا أبعد نظرا وأصبحوا القوة الضاربة لدعم الوحدة الوطنية ، والفصيلة المناضلة حول « سعد زغلول » والوفد إلى درجة أن جريدتى مصر والوطن أصبحتا في فترة ما أكثر الصحف دفاعا عن « سعد » والوفد ، وكذلك مراسلهما في لندن « قرياقص ميخائيل » أصبح في فترة ماداعية كبيرا لسعد والوفد .

وإذا كان « سينوت حنا » قد لقى « سعد زغلول » في فترة باكرة في يناير ١٩٠٨ فإننا في ٢٢

يناير ١٩١٤ ، في افتتاح الجمعية التشريعية التي قامت على دستور ١٩١٣ ، نجد سعد زغلول « عضواً منتخباً ، وسينوت حنا عضواً معنا ، ومعهم الأقباط المعينون « قليني فهمي ، وكامل صدقي ، ومرقس سمكة » وعندما ثار خلاف « مبكر أيضاً » بين سعد الوكيل المنتخب ، وبين عدلي الوكيل المعين انحاز سينوت إلى سعد ضد عدلي .

واختار الأقباط في نوفمبر ١٩١٨ « واصف بطرس غالي » ليمثلهم في الوفد ثم رأى الوفد أن يضم إليه « سينوت حنا » عضو الجمعية التشريعية ، وجورج خياط ، وحلفا اليمين مع حمد الباسل في جلسة واحدة في ٢ ديسمبر ١٩١٨ .

وفي ٨ إبريل ١٩١٩ سافر سينوت مع أعضاء الوفد إلى باريس ، وبقي إلى آخر يوم قرر فيه الرئيس سعد أن يبقى .

المجاهد الزاهد

كان « سينوت حنا » مناضلاً صلباً إلى جانب سعد زغلول ، وتميز بوضوح الرؤية ، وبوضوح الهدف في المقالات التي نشرت له في صحف مختلفة ، واستمر هكذا إلى جانب « مصطفى النحاس » ومن بين الموضوعات الثلاثة التي كتبها عنه الأستاذ « جمال بدوي » مذبحة في المنصورة - مروءة نادرة - المجاهد الزاهد « اخترت العنوان الأخير فهو يعبر بدقة عن شخصية « سينوت حنا » .

وتحدد يوم ٨ يوليو ١٩٣٠ لزيارة يقوم بها النحاس باشا لمدينة المنصورة . وأن يتناول طعام الغداء في منزل محمد بك الشناوي رئيس لجنة الوفد ، ثم يلتقي ولجان الوفد في منزل محمود بك نصير ، وقررت حكومة إسماعيل صدقي منع الوفد من السفر عن طريق قطار الدلتا ، وفتحت الكباري حتى لايسافر الوفد بالسيارات . وانتشر عساكر البوليس يهدمون الأقواس والزينات وباتت المنصورة في ليلة الزيارة كأنها ميدان حرب ، وحمل الجنود كل أنواع الأسلحة ، وغمرت الحكومة شوارع المدينة بالزفت والقطران ولكن الأهالي من عمال وفلاحين وموظفين وطلبة خرجوا يهتفون للنحاس وللدستور ، ومرت سيارة النحاس في المسار المتفق عليه بين الوفد والإدارة فلما أشرفت على اجتياز النطاق العسكري الثالث وقعت المذبحة ، وكان « سينوت حنا » يشعر في قرارة نفسه بأن خطة دنيئة دبرتها حكومة صدقي لاغتيال النحاس ، وأسر « سينوت » بها ليخالجه من شكوك إلى صديقه « حامد جوده » واتفق الصديقان على أن يلاصقا الزعيم حتى يفتدياه إذا تعرض لكرهه ، وأسرع سينوت إلى سيارة النحاس باشا أما حامد جوده فقد فرق الزحام بينه وبين السيارة ، ولح « سينوت » أحد الجنود يسدد الحربة إلى صدر النحاس ، فما كان من سينوت إلا أن تصدى ليلقي الطعنة القاتلة ، فانغرست في كتفه وانكسر النصل في لحمه وتدفقت دماؤه على ملابس

النحاس باشا ، وتقدم جندي آخر ليسدد طعنة أخرى فتلقاها على أفندي الموجي ، وهاجت الجماهير العزلاء فالتحمت بالجيش والبوليس ، وسقط أربعة من الأهالي وثلاثة من الجنود وجرح حوالي ١٥٠ من الجانين ، وتوفي سينوت حنا في منزله بالجيزة ودفع حياته ثمنا لوفاته لمبادئ سعد ولخليفة سعد ، وإخلاصا لتراب مصر .

الأسانيد :

- ١ - جمال بدوى . . كان وأخواتها .
- ٢ - سعد زغلول . . مذكرات تحقيق د . عبد العظيم رمضان .
- ٣ - طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .
- ٤ - محمد كامل سليم . . صراع سعد في أوروبا .

شريف باشا أبو الدستور



محمد شريف باشا الذى نتحدث عنه اليوم تولى رئاسة النظارة (رئاسة الوزارة) أربع مرات . .
المرّة الأولى شهدت خلع الخديو اسماعيل (٢٦ يونيه ١٨٧٩) . وكان « شريف » قد جاء فى (٧
إبريل - ٥ يوليو ١٨٧٨) لمواجهة النفوذ الأجنبى ولیمصر النظارة التى وضع فيها « نوبار باشا »
وزیرین من الأجانب . . وقدم « شريف » ماعرف بـ « اللائحة الأساسية » التى يعدها المؤرخون
أول دستور فى تاريخ مصر ؟

والنظارة الرابعة أسندت إليه فى ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ وجيش الغزو الانجليزى يزحف نحو
القاهرة . وفى تلك الفترة كانت الثورة المهدية فى السودان وطلب الانجليز من « الخديو توفيق »
إخلاء السودان ووافق توفيق . ورفض « شريف باشا » إخلاء السودان ، واحتج على موافقة
الخديو وهو عمل سياسى من صميم اختصاص الوزارة ، وقدم استقالته فى ١٠ يناير ١٨٨٤ .

التفت الحركة الوطنية المصرية التى تمثلت فى الأعيان والعلماء والمشايخ والعمد حول « محمد
شريف باشا » الذى قام بدور كبير فى (جمعية حلوان) ويعدها (الحزب الوطنى الأول) وأصدر
منشورا سرىا طبع منه ٢٠٠٠٠ نسخة فى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ ويعلن أن الحزب حزب سياسى لا
دينى ، لا ينظر إلى اختلاف المعتقدات ، ويعضده مشايخ الأزهر الذين يعتقدون أن الإسلام ينهى
عن البغضاء ويعتبر الناس فى المعاملة سواء .

قبل وفاة « محمد على » فى (٢ أغسطس ١٨٤٩) كان قد ترك الأمور لابنه إبراهيم باشا من
إبريل ١٨٤٨ حتى توفى فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ . وجاء « عباس الأول » من ١٨٤٩ - ١٨٥٤ الذى
قضى على كل ما فعله محمد على خوفا من النفوذ الأجنبى وقضى على كل تقدم فى الداخل خوفا
من التمرد الداخلى . وفى عهد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣) بدأ رأس المال الأوروبى يدخل إلى مصر ،

وبدأت الخطوات التمهيديّة لقناة السويس ووضع العجز في الميزانية ، وزادت أعمال السخرة ، وسياسة القروض من الدول الأجنبية . وهنا نجد اسم « شريف باشا » وزيرا للخارجية في عهد « سعيد » من بين أسماء الوزراء .

وفي ١٨ يناير ١٨٦٣ توفي سعيد وتولى إسماعيل وصاحبنا « شريف باشا » قد وصل إلى رتبة الفريق . وعمره ٣٧ عاما إذ إنه ولد بالقاهرة في نوفمبر عام ١٨٢٦ . جاء إسماعيل والحال في مصر ما أوجزنا ولكنه للحقيقة أعلن عزمه على إلغاء السخرة وأعلن بعد يومين من توليه (١٨٦٣) وأمام الدبلوماسيين الأجانب (أريد أن تكون القناة تابعة لمصر لا أن تكون مصر تابعة للقناة) ومن يومها وضع الأجانب في أذهانهم أن الخديو إسماعيل لا يرتاح للنفوذ الأجنبي ، فهو يريد الإفادة من الأجانب . . . نعم . . . ولكنه يريد أن تكون الكلمة له . . . وهو موقف الاستقرائية المصرية في ذلك الحين وعلى رأسها « شريف باشا » ، ولكن واقع الحال لم يسر هكذا ، فقد غرق إسماعيل إلى ذقنه في الديون وازداد النفوذ الأجنبي حتى فرضوا عليه الأمانى « نوبار باشا » رئيسا للنظار وفرضوا على وزارته وزيرين من الأجانب . فترة غامضة مليئة بالتناقضات . . . إسماعيل يريد المال لا يريد أصحابه ، إسماعيل يغمض عينيه عن حركات التمرد في الجيش ضد نوبار وضد النفوذ التركي والشركسي ويغمض عينيه عن الحركات السرية والعلنية ويرغب في قيام أشكال نيابية ولكنه يريد أن تكون الكلمة له في النهاية . ويفتح الباب للصحافة ولكنه يريد أن تكون صحافة موجهة .

الأجانب أدركوا أنه ليس رجلهم تماما ، والباب العالى لا يرتاح لهذا الانفتاح على أوروبا ، والميزانية أثقلت بالديون . والمثقفون من أبناء مصر لا يريدونه وخلفهم أو أمامهم « جمال الدين الأفغانى » الذى وقع فريسة للمخادع الماكر « توفيق » . كان الأفغانى وتوفيق فى محفل ماسونى واحد ومعها قسم عظيم من رجال البلاد من وطنيين وأجانب ويقول « توفيق » للسيد جمال الدين الأفغانى (أنت موضع أمل فى مصر أيها السيد . .) ويدبر الأفغانى مع تلميذه « محمد عبده » خطة لاغتيال إسماعيل وهو يمر على كوبرى قصر النيل ولكن الخطة لم تنفذ ويشكل الأفغانى جماعة سرية باسم مصر الفتاة ويذكر محمد عبده أن أغلب أعضائها كان من الشبان اليهود ! ويجتمع الأعيان وأعضاء مجلس شورى النواب ويطالبون بعزل نوبار وتشكيل وزارة برياسة « شريف باشا » . ويذهب « الأفغانى » على رأس وفد من المصريين إلى قنصل فرنسا بمصر ويبلغه أن حزبا بمصر قد تشكل ويطالب بأن يتنازل « إسماعيل » عن الحكم لولده « توفيق » . وفى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ يتنازل « الخديو إسماعيل » عن العرش ويتولى « الخديو توفيق » ولكن فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ذهبت قوة بأمر « توفيق زميل الأفغانى فى المحفل الماسونى ١ » تقبض على « الأفغانى » وعلى خادمه « أبو تراب » وتودعهما باخرة عند السويس سارت بهما إلى « بمباى »

وكان هذا اليوم آخر العهد « بالسيد جمال الدين » في مصر . وبعدها كان الصراع بين توفيق والأجانب من ناحية وبين الحركة الوطنية المصرية بشقيها العسكرى والمدنى من ناحية أخرى ثم صراع خفى بين القسم العسكرى من ناحية والقسم المدنى من ناحية أخرى . . وصراعات جانبية كثيرة قدر لشريف باشا أن يشهدها وأن يكون له دور فيها . وقدر له أن يرأس نظارة في عهد إسماعيل ، ونظارات ثلاثا في عهد توفيق ، وأن يقود حركة الأعيان من أجل الدستور والديمقراطية بكل تعقيداتهما وتراجعهما وتقدمهما .

تمصير الوزارة

قام في عهد « إسماعيل » أول برلمان مصرى باسم (مجلس شورى النواب) سنة ١٨٦٦ وله سلطة محدودة وحق الانتخاب محصور في العمد والمشايخ وأعيان البلاد بحيث يكون من الصواب أن نطلق على هذا البرلمان (مجلس الأعيان) وكان « إسماعيل » يعترم إعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية مع افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ وهو يريد من المجلس أن يقف إلى جواره في مواجهة الباب العالى . وفي أوائل ١٨٧٠ أجريت الانتخابات للمجلس الثانى وكان إسماعيل يغرق ويغرق في الديون يريد من البرلمان ان يعاونه في قوانين جباية الضرائب ، ويقع نوع من الفتور بين إسماعيل والمجلس .

وطوال سنوات المجلسين الأول والثانى نجد « شريف باشا » أبا الديمقراطية وزيرا للداخلية تحت رئاسة « إسماعيل » ولكن في الدورة الثالثة للمجلس الثانى من (يناير ١٨٧٣ - مارس ١٨٧٣) نجد أن « شريف باشا » أصبح وزيرا للحقانية وأن « إسماعيل صديق المفتش » أصبح وزيرا للداخلية ومعنى هذا أن الخديو إسماعيل رأى جباية الضرائب بالكرباج إنقاذا لورطته في الديون ثم جاء البرلمان الثالث من ١٨٧٦ - ١٨٧٩ وهذا البرلمان شهد أخطر الأحداث . .

الحديث الأول - وزارة نوبار باشا الأرمنى والتي عرفت بالوزارة الأوروبية (٢٨ أغسطس ١٨٧٨ - ٢٣ فبراير ١٨٧٩) وهى نتيجة لتزايد النفوذ الأجنبى استغلالا لديون الخديو إسماعيل . ودخل هذه الوزارة وزيران من الأجانب ومعهما رياض باشا وراتب باشا ، وعلى مبارك ولم يشترك فيها « شريف باشا » .

الحديث الثانى - التظاهرة العسكرية من الضباط في ١٨ فبراير ١٨٧٩ أحاطت بعربة نوبار باشا وجر الضباط رئيس الوزراء ووزير المالية إلى وزارة المالية وحسوهما مع رياض باشا في غرفة بالدور العلوى وجاء « الخديو إسماعيل » وأنقذ رئيس الوزراء والوزيرين . والكلام كثير حول هذه التظاهرة هل هى بترتيب من الخديو أم بترتيب من « راتب باشا » وزير الحربية وهو وثيق الصلة

بشريف باشا ؟ المهم أن وزارة نوبار سقطت بعدها بأيام .

الحدث الثالث - نظارة محمد شريف باشا الأولى (٧ إبريل - ٥ يوليو ١٨٧٩) وكان واجبها الأساسى المعروف مواجهة النفوذ الأجنبى الذى أذل « الخديو إسماعيل » عندما أغرق مصر بالديون . وتخلّى « شريف باشا » عن الوزيرين الأجنبيين وقام بتمصير الوزارة . وهنا قرر الأجانب أن يذهب شريف ولكن بعد أن يذهب الخديو إسماعيل نفسه .

الحدث الرابع - فى ١٩ مارس ١٨٧٩ ، كان مجلس شورى النواب قد طالب بتخفيض الضرائب ولكن وزارة « الأمير محمد توفيق » أعلنت فض الدورة البرلمانية . ورفض الأعضاء وطالبوا بحضور وزير المالية لمناقشته ، وفى ٢ إبريل ١٨٧٩ اجتمعوا وفى مقدمتهم « شريف باشا » ووقع المجتمعون من الأعيان والنواب والعلماء (اللائحة الوطنية) مطالبين فيها بالإصلاح الدستورى على أساس مبدأ المسئولية الوزارية . ووافق الخديو إسماعيل على اللائحة . وعلى أثر ذلك شكل شريف نظارته الأولى .

الحدث الخامس - فى ١٠ إبريل ١٨٧٩ بعد ثلاثة أيام من نظارة شريف أعلن مجلس النظار إلغاء قرار فض الدورة البرلمانية وفى ١٧ مايو ١٨٧٩ قدم « شريف باشا » مشروع (اللائحة الأساسية) وهى أول دستور عرفته البلاد بالمعنى الكامل . ولكن قبل أن يصدر بالدستور المرسوم الخديوى كان قد وقع حادث هام هو :

الحدث السادس - خلع الخديو إسماعيل فى ٢٦ يونيه ١٨٧٩ وحل برلمان إسماعيل الثالث ، وتأجيل النظر فى إصدار دستور ١٨٧٩ ، واستقالة نظارة شريف باشا ولكن « الخديو توفيق » الماكر المخادع كلف شريف باشا بتأليف نظارته الثانية .

إرهاصات الثورة .

وهكذا سقط « إسماعيل » بفعل السهام التى وجهت إليه من الجوانب المختلفة ، وبفعل موافقه الأزدواجية . . فى عملية معقدة وغامضة سقط « إسماعيل » الذى أراد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا تأمر عليه الأجانب طمعا فى زيادة نفوذهم والأعيان أملا فى تخفيض الضرائب ، وقطاعات من الجيش رغبة فى تمصير المواقع القيادية ، والجمعيات السياسية بتأثير الأفغانى توهما فى الاستيلاء على السلطة . ولعب على هذه الحبال كلها المخادع الماكر « توفيق » الذى دخل المحفل الماسونى مع الأفغانى ، اتصل بعناصر الجمعيات السياسية ، وهادن بعض عناصر الجيش ، وقرب إليه بعض العناصر الفعالة من الأعيان وكبار الملاك ، ووثق علاقاته مع الدول الأجنبية ، فسقط إسماعيل وجاء توفيق لتدخل مصر فى أخطر مراحل تاريخها ، وتوقف عند أمرين :

الأولى انتفاضة الضباط في ١٨ فبراير ١٨٧٩ والتي انتهت باستقالة نوبار باشا والتي تعد تجربة لثورة أحمد عرابي ، وتعبر عن اشتراك الجيش المصرى في السياسة المصرية ضد النفوذ الأجنبى ، وفى وزارة شريف تخلص من الوزيرين الأجنبين فلو اتحدت جبهة الأعيان والجيش والخطيو ربما أمكن محاصرة النفوذ الأجنبى وعمل تسوية معينة لديون إسماعيل وربما لم يسر تاريخ مصر فى مساره المعروف .

الثانى - استقالة نظارة شريف الثانية فى ١٨ أغسطس ١٨٧٩ بعد شهر ونصف من تشكيلها لأن « توفيق » رفض مشروع دستور ١٨٧٩ حين قدمه له « شريف باشا » . وقام « توفيق » بتشكيل النظارة بنفسه ، وبطرد « الأفغانى » ، من مصر ، ولم يلبث أن أسند رئاسة النظارة إلى رجل الإنجليز « رياض باشا » فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٩ . وبدأت تركيا تستعيد نفوذها على مصر الذى كانت قد فقدته أيام محمد على وإسماعيل ، وتم تحديد عدد الجيش ، بـ ١٨ ألف جندي . ووضح تماما التنسيق بين « توفيق » والسلطان « عبد الحميد » وتزايد نفوذ العناصر التركية والشركسية على جيش مصر .

الحزب الوطنى

فى الفترة المعقدة والغامضة ، التى سبقت خلع إسماعيل وتولى توفيق نجد تنظيمين تجدر الإشارة إليهما وكلاهما قام « جمال الدين الأفغانى » بدور فيه . . الأول هو المحفل الماسونى . قام الأفغانى بدور مؤثر فى هذا المحفل وضم إليه « محمود سامى البارودى » ، وعبد السلام المويلحى ، وإبراهيم المويلحى ، والشيخ محمد عبده ، وإبراهيم اللقانى ، وعلى مظهر ، وأبو الوفا العونى ، وسليم النقاش ، وأديب اسحق ، وعبد الله النديم ، وفرع المحفل بالإسكندرية ضم قائدى التمرد العسكرى الذى وقع فى ١٨ ، ١٩ فبراير ١٨٧٨ « لطيف سليم وسعيد نصر » . والتنظيم السرى الثانى هو (جمعية مصر الفتاة) التى ضمت « الأفغانى وسليم النقاش وعبد الله النديم ونيقولا توما » ونلاحظ هنا أن « سعد زغلول » على الرغم من اتصالاته بالأفغانى وصلته القوية بالشيخ محمد عبده لم ينضم إلى أحد هذين التنظيمين السريين كما أن الشيخ محمد عبده ذكر أن أغلب أعضاء جمعية مصر الفتاة كانت من اليهود ولعل هذا يفسر انسحاب « عبد الله النديم » من هذه الجمعية .

ونحن الآن فى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ مع أول بيان يحمل توقيع (الحزب الوطنى) وهو منشور سرى طبع منه ٢٠٠٠ نسخة نعرف منه أن الخطيو إسماعيل طلب تدخل الحزب الوطنى وأن الحزب الوطنى يسعى لانتزاع البلاد من الهوة السحيقة التى دفعها إليها الاستبداد .

الحزب العسكرى

قدم « شريف باشا » استقالة نظارته الثانية - كما عرفنا - فى ١٨ أغسطس ١٨٧٩ وشكل « الخديو توفيق » النظارة برئاسته . . . وبعدها سلم الحكومة لمصطفى رياض من (٢١ سبتمبر ١٨٧٩ - ١٠ سبتمبر ١٨٨١) وخلال تلك الفترة ظهر الأعيان كقوة سياسية متمثلة فى (الحزب الوطنى) وتظاهر طلاب الأزهر ومارس « رياض » أعمال القمع ضد هذا المد الوطنى فألقى الصحف التى ظهرت أيام الخديو إسماعيل ونفى الكثيرين وشدد الرقابة على الزعماء وفى مقدمتهم « شريف باشا » ووجد المد الوطنى متنفسا له فى الجيش المصرى أو ما يمكن أن نسميه بالحزب العسكرى الذى بدأه « أحمد عرابى » ومحمد عبيد ، وخضر خضر وعبد العال حلمى ، وألفى يوسف ، وأحمد عبد الغفار ، وعلى فهمى وإسماعيل صبرى واستطاعت مجموعة عرابى أن تجبر الخديو على عزل « عثمان رفقى » ناظر الجهادية والبحرية وأن يحل محله « محمود سامى البارودى » من أصدقاء « شريف باشا » والذى انضم للعرايين بعد ذلك . وكان هذا فى أول فبراير ١٨٨١ . وينضم النديم إلى العرايين وأيده أعيان الريف وأقام « عرابى » علاقة وثيقة مع « شريف باشا » و«سلطان باشا» .

وتمضى الأحداث بسرعة ، ويستقيل البارودى من وزارة رياض ، ويشعر العرايون بمؤامرة الخديو ضدهم وتصل إلى اليوم التاريخى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، يوم التظاهرة العسكرية أمام قصر عابدين لمواجهة الخديو توفيق بمطالب الجيش والأمة . وكتب الضباط عريضة إلى « شريف باشا » - نلتمس من دولتكم قبول مسند الوزارة . ووقع حوالى ١٦٠٠ من كبار المصريين عريضة إلى « شريف » - نحن الواضعين أسماءنا علماء ومشايخ وأعيان وعمد مصر واسكندرية والثغور والوجهين البحرى والقبلى . . التمسنا أن تتسلم إدارة وأشغال ورئاسة مجلس النظر .

وقدم « شريف باشا » شرطين . . الأول على الخديو وهو ان يضمن سلامة الثوار الشخصية ، والثانى على الثوار وهو انسحاب القوات الثائرة إلى المعسكرات .

وفى تقديرنا أن هذا الذى حدث هو الانقسام الأول فى صفوف الثورة ويعبر عن تخوف (الأعيان) من الحكم العسكرى . وقد تردد الكثيرون من قادة الفكر والأعيان فى تأييد أحمد عرابى وتخوفوا من مغبة الصدام غير المحسوب ، ونجد عددا منهم قد انحاز للخديو توفيق بعد انكسار الثورة وفى مقدمتهم « سلطان باشا » .

وشكل « شريف باشا » نظارته الثالثة (١٤ سبتمبر ١٨٨١ - ٤ فبراير ١٨٨٢) ولكن الحرص والحذر كانا يحكمان العلاقة بين الجناح المدنى بقيادة « شريف » ، وبين الجناح العسكرى بقيادة « عرابى » وانتهى الموقف بانحياز غالبية مجلس الشورى لأحمد عرابى الذى تزايد نفوذه فسقطت وزارة شريف وفرض الجيش « محمود سامى البارودى » .

الثورة والانقسام

فى ٤ فبراير ١٨٨٢ تولى اللواء والشاعر محمود سامى البارودى رئاسة النظارة ، وتولى أحمد عرابى منصب ناظر الجهادية والبحرية وهو المنصب الذى كان يشغله البارودى فى وزارة شريف . وتولى الضابط « محمود فهمى » منصب ناظر المالية . وبدأ تحول « سلطان باشا » رئيس مجلس شورى النواب الذى سحب الثقة من شريف ، بدأ يتحول ضد الوزارة العسكرية ، وأخذ شريف موقفا متشددا من سيطرة العرابيين على الحكم فاستقال « محمود سامى البارودى » وشكل « إسماعيل راغب » أحد رؤساء مجلس شورى النواب أيام إسماعيل ، شكل نظارة جديدة فى ١٧ يونيه ١٨٨٢ . وانحسر نفوذ العرابيين داخل الوزارة فى شخص « أحمد عرابى » الذى بقى ناظرا للجهادية .

وكانت وزارة « إسماعيل راغب » فى أعقاب المؤامرة التى دبرها « توفيق » ومحافظ الإسكندرية « عمر لطفى » فى ١١ يونيه والتى تمثلت فى هجوم البدو وغيرهم على الأجانب . وكان الهدف منها إظهار « أحمد عرابى » بمظهر العاجز عن حفظ الأمن فأقيل من نظارة الجهادية . وخرج أحمد عرابى ينظم صفوفه بعيدا عن السلطة فى ٢٥ يوليو ١٨٨٢ وكان الأسطول البريطانى قد ضرب الإسكندرية فى ١١ يوليو ونزلت القوات البريطانية إلى أرض مصر لتبقى فيها ٧٤ عاما .

خرج أحمد عرابى من الوزارة لمواجهة قوات الغزو . . والخريطة هكذا . . انجلترا ودول أوروبا تريد مزيدا من النفوذ فى مصر وتركيا تريد مزيدا من استرداد النفوذ والحديث « توفيق » يريد النفوذ فى ظل الأجانب وتركيا . وجيش مصر يعتمد على حماسته أكثر مما يعتمد على عدته وعتاده . والجناح المدنى يأخذ على عرابى مغامرته بعضه يؤيده ما دامت الثورة قد اشتعلت ، وبعضه يخذله لأنه لم يحسب حساباته بدقة .

وفى ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ وجيش الغزو يقترب من القاهرة يسند « توفيق » ، رئاسة النظارة إلى « محمد شريف باشا » ، وفى ظل هذه النظارة دخل الجيش البريطانى القاهرة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، واندلعت الثورة المهدية فى السودان ، إلا أن شريف باشا أراد أن يختم وزارته الرابعة بموقف مشرف فرفض تدخل « الحديوى » فى أعمال الوزارة ، ورفض طلب الانجليز بإخلاء السودان واستقال فى ١٠ يناير ١٨٨٤ . وانتهت بذلك وزارته الرابعة وكان الله غفورا رحيمًا .

الأسانيد :

- ١- د . أنور عبد الملك . . نهضة مصر .
- ٢- د . رفعت السعيد . . الأساس الاجتماعى للثورة العربية .
- ٣- د . لويس عوض . . تاريخ الفكر المصرى الحديث .
- ٤- مركز الدراسات السياسية - الأهرام . . ١٠٠ عام على الثورة العربية .

شهدى عطية الشافعى



كيف نبدأ ؟ . . ومن أين نبدأ ؟ . . بعيداً عن التعظيم ، وبعيداً عن التأنيب ؟ . . كيف نقرأ «شهدى عطية الشافعى» أحد قادة الحركة الشيوعية في مصر قراءة صحيحة ؟ أحد العناوين البارزة في الكتاب الأحمر في مصر . . لانقرؤه دون أن نبدأ من الصفحات الأولى لذلك الكتاب . . وبعد أن نقرأه لانستطيع أن نتوقف عند خطاب مصلحة السجون إلى مدير الطب الشرعى - مشرحة زينهم - ١٧ يونيو ١٩٦٠ (مرسل مع هذا جثة المسجون تحت التحقيق المتوفى لرحمة الله شهدى عطية الشافعى وذلك كإشارة قسم عابدين بناء على انتداب السيد وكيل نيابة أمن الدولة لكم . رجاء التكرم بالاستلام والتوقيع بما يفيد ذلك) .

اتفقنا . . سوف نقرأ الصفحات الأولى لنرى آثارها في خطى « شهدى عطية الشافعى » . . وسوف نقرأ « شهدى » لنرى بصماته على الحركة الشيوعية المصرية بعد النعى الذى نشرته جريدة (الأهرام) في ٢٠ يونيو ١٩٦٠ وقالت الأسرة عن (عزيزها الغائب):

فتى مات بعد الطعن والضرب ميتة

تقوم مقام النصر إن فاته النصر

البداية أجنبية صرفة . . « بانكاكس » تاجر اسفنج يونانى ١٩٢٠ ، و«روزنتال» لا أحد يعرف أصله ، غادر مصر بعد أن حل « سعد زغلول » الحزب الشيوعى سنة ١٩٢٤ . . «افيجدور» زوج بنت روزنتال . .

« روزنتال » اشتراكى روسى ، بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ عاد لروسيا وعمل سكرتيراً خاصاً للزعيم لينين . . « استور » جندي انجليزى جاء أثناء الحرب العالمية الأولى . . « بوبوفا » بلغارية

لقت الماركس المصري القديم « عبد الفتاح القاضى » الماركسية فى ألمانيا سنة ١٩٢٠ . أجنب من كل لون عملوا على تأسيس نقابات عمالية ، وتأسيس الحزب الاشتراكى المصرى (١٩٢١) وتحول إلى (الحزب الشيوعى المصرى) سنة ١٩٢٢ . وذكر الكاتب « إبراهيم عامر » فى كتابه (ثورة مصر القومية ص ٦٤) قولاً للزعيم « لينين » نقلاً عن (وثائق الدولية الشيوعية ١٩١٩ - ١٩٢٢ المنشورة فى لندن ١٩٥٦) . . أعلن لينين (إن الحزب الشيوعى المصرى مؤلف أساساً من الأجانب وإن الأجانب موجودون فى الحزب لا يزدون على كونهم عملاء للاستعمار ، يسعون إلى تضليل العمال المصريين) .

وفى ظل الحماية الأجنبية وامتيازاتها نشر « روزنتال » بياناً إلى النقابات التى أسسها الأجانب فى مصر يدعوها إلى تأسيس (اتحاد عام للعمال) الذى تكون فعلاً سنة ١٩٢١ . وانتقل « روزنتال » خطوة أخرى بين الأجانب ذوى الثقافة الماركسية فأسس (حزباً) ، وفى الوقت ذاته كانت بالقاهرة جمعية اشتراكية تكونت من سلامة موسى وعلى العنانى ومحمد عبد الله عنان ومحمود حسنى العربى .

واتفق « روزنتال » مع الجمعية على تكوين (الحزب الاشتراكى المصرى) سنة ١٩٢١ . وصدر بيان بتأسيس الحزب موقع عليه من هؤلاء المصريين وحرص « روزنتال » على عدم التوقيع معهم مكتفياً بتحريك الأعضاء الأجانب وهم الغالبية الساحقة فى الحزب . وفى منتصف ١٩٢٢ تحول الحزب إلى (الحزب الشيوعى المصرى) وانضم إلى (الكومنترن) وأصبح « محمود حسنى العربى » سكرتيره العام . وشن « سلامة موسى » حملة شعواء على الشيوعية وعلى الاتحاد السوفيتى والكومنترن والحزب ، وتبعه فى ذلك باقى الأعضاء المؤسسين المصريين وبدأ العمال الأجانب ، والنقابات ، والحزب الشيوعى حملة إضرابات واعتصامات من فبراير ١٩٢٣ وقبض على « حسنى العربى » وآخرين ، واشتدت حركة احتلال المصانع فى مارس ١٩٢٤ فأمر « سعد زغلول » بالقبض على قيادات الحزب وترحيل الأجانب . وسنة ١٩٢٥ قبضت حكومة « أحمد زبور » على الباقين ، وتوقف النشاط الشيوعى .

ثم كانت البداية الثانية . . على أيدي الأجانب أيضاً فى تيارات متصارعة . . التيار الأول عرف بتيار (الفجر الجديد) نسبة إلى مجلته الشهيرة (الفجر الجديد) ومن عناصره التاريخية « بول جاكو دى كومب » ومعه من اليهود « يوسف درويش وأحمد صادق سعد وريمون دويك » وقد أسلموا بعد ذلك . ومن العناصر المصرية أحمد رشدى صالح وأبو سيف يوسف ، ومحمد يوسف المدرك ومحمود العسكرى وطه سعد عثمان ، وقد مارس هذا التيار نشاطه الثقافى من خلال (لجنة نشر الثقافة الحديثة) و(دار القرن العشرين) ومجلتى (الفجر والضمير) وكان « شهدى » على خلاف

مع هذا التيار . هنرى كوريل والتيار الثانى وهو تيار صغير وضعيف ، هو التيار التروتسكى المعادى لستالين ولجميع المنظمات الشيوعية الأخرى . من أبرز عناصره « جورج حنين » ولطف الله سليمان ورمسيس يونان ، وكانوا يتجمعون حول (المجلة الجديدة) التى كان يصدرها « سلامة موسى » .

أما التيار الثالث ، فهو تيار الحركة المصرية للتحرر الوطنى التى أسسها « هنرى كوريل » أشهر شخصية شيوعية فى مصر وقد ولد بالقاهرة عام ١٩١٤ ، من أسرة يهودية إيطالية وفدت إلى مصر . تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى بالفرنسية وكان زميلا فى تلك الدراسة على صبرى والدكتور أنور عبد الملك . حسب رواية الدكتور « أنور » لى . وعرف « هنرى كوريل » الماركسية عن طريق أخيه « رءول كوريل » مع بداية الحرب العالمية الثانية . وافتتح (مكتبة الميدان) بميدان مصطفى كامل بالقاهرة لترويج الكتب الماركسية سنة ١٩٤١ . وأصبحت حلقة اتصال لجنود الحلفاء الماركسيين ومن بينهم جنود الفرقة اليهودية التى كونتها (الحركة الصهيونية) للخدمة فى صفوف الحلفاء . وهكذا بقيت علاقة « هنرى كوريل » بالصهيونية موضع جدل داخل الحركة الشيوعية فى مصر وأصدر « كوريل » مجلة أسماها حرية الشعوب ثم أسس منظمة شيوعية أطلق عليها اسم (الحركة المصرية للتحرر الوطنى) سنة ١٩٤٢ وانضم إليها عدد من الأجانب (اليهود) وعدد من (السودانيين) وعدد من المثقفين المصريين التروتسكيين .

واعتقل فى يونيو ١٩٤٢ بمعقل الزيتون حسنى العربى ، فى المعتقل . وانضم إلى (الحركة المصرية) عدد من أبناء البورجوازية اليهودية والمصرية . وفى ليلة ١١ يوليو ١٩٤٦ اعتقال إسماعيل صدقى هنرى كوريل فى القضية التى عرفت بقضية الشيوعية الكبرى . وفى مايو ١٩٤٧ اتحدت (الحركة المصرية للتحرر الوطنى) ومنظمة (اسكرا) وتكونت المنظمة الشهيرة (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - حدثو) وهى المنظمة التى انضمت إليها بعد ذلك منظمات أخرى . وانقسمت عنها منظمات أخرى وتلك قصة أخرى لايتسع لها المجال الحالى .

المهم (منظمة اسكرا) التى ورد اسمها الآن . . واسكرا كلمة روسية معناها (الشرارة) أسسها سنة ١٩٤٣ مثقف يهودى هو (شوارتز) كانت له علاقات واسعة بالمثقفين المصريين أمثال «شهدى عطية الشافعى ، وعبد المعبود الجبيلى ، وأنور عبد الملك وشريف حتاتة ، ومحمد سيد أحمد » هؤلاء وآخرون أنشؤا (دار الأبحاث العلمية) تقدم محاضرات أسبوعية .

ومثقف يهودى ماركسى آخر هو « مارسيل إسرائيل » أسس منظمة شيوعية سرية أخرى هى (تحرير الشعب) سنة ١٩٤١ وهذه المنظمة انضم منها جزء إلى (الحركة المصرية) قبل أن تتحد مع (اسكرا) وانضم جزء آخر إلى (الحركة الديمقراطية) وهى نتاج وحدة (الحركة المصرية واسكرا)

وانفجرت الصراعات والانتهاكات بين المنظمات وبقايا المنظمات وهى دوامة ليس هنا مجال الدخول فيها لأن أقلها الاتهام بالعمل لصالح الإمبريالية والصهيونية والبوليس واتهامات أخرى ليس من أخلاقيات هذا القلم أن يدخل فيها . وأثناء حرب فلسطين ١٩٤٨ تم اعتقال الشيوعيين اليهود الذين أفرج عنهم وسافروا إلى إسرائيل . وبقى ثلاثة هم «هنرى كوريل وشحاته هارون وجو ماتالون» أفرجت عنهم حكومة الوفد فى مايو ١٩٥٠ وقامت بترحيل «كوريل» فى يوليو ١٩٥٠ . وفى باريس ، فى ٤ مايو ١٩٧٨ ، وهو يوم بمغادرة المصعد اغتيل بشكل غامض لم يكشف عنه حتى اليوم .

العودة إلى شهدى

عندما تأسست منظمة (اسكرا) ١٩٤٢ كان « شهدى عطية الشافعى » أحد أعضائها البارزين ، وعندما التحدت (اسكرا) مع (الحركة الوطنية) فى المنظمة الجديدة (الحركة الديمقراطية) أصبح « شهدى » عضوا فى لجنيتها المركزية .

كان « شهدى » خلال الحرب العالمية الثانية قد عاد من انجلترا بعد أن حصل على الماجستير فى الأدب الانجليزى . تلقى الماركسية على أيدي صديقة انجليزية تمسكت بالزواج منه ، ولكنه أصر على العودة لمصر لمحاربة الوجود الإنجليزى (هكذا أكد لى الدكتور أنور عبد الملك) والقى بجهوده هو وزميله « الدكتور عبد المعبود الجبيلى » فى (دار الأبحاث) ومحاضراتها السياسية والاجتماعية كل يوم أحد .

وعام ١٩٤٥ صدر لشهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى كتاب فى ٩٢ صفحة من القطع الصغير بعنوان (أهدافنا الوطنية) ويبدو ان الكتاب صدر بعد مناقشة مع مجموعة المثقفين فى (دار الأبحاث) وهم عماد تنظيم (اسكرا) وعلى الرغم من الملاحظات عليه إلا أنه محاولة باكرة لرسم (الأهداف الوطنية) من جانب مجموعة من المثقفين المصريين الشيوعيين . . وطالب الكتاب بالجللاء العسكرى والاقتصادى والسياسى وبالسودان (حرا وقد تخلص من كافة أنواع الاستعمار) وطالب بحركة شعبية تضغط على الاستعمار ، ورفع مستوى الشعب فى ميادين الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة . وطالب بضرورة انضمام مصر إلى هيئة الأمم المتحدة ، وبالجللاء التام فوراً دون قيد أو شرط ، وبشراء الأسهم البريطانية فى قناة السويس ، وعقد معاهدات تحالف وصدقة مع (أمريكا والاتحاد السوفيتى وفرنسا والصين) وتأييد قيام الجامعة العربية على ألا تأخذ صفة دينية وضرورة انضمام مصر إليها ، وأوضح الكتاب خطر الصهيونية مع التفرقة بين الصهيونية واليهودية . وطالب الكتاب بتصنيع البلاد تصنيعاً شاملاً والارتفاع بمستوى

معيشة الجماهير ، وملكية الدولة للصناعات الكبرى ، واشتراك مندوبى العمال فى إدارة هذه المصانع ، وتوزيع الملكيات الزراعية الكبيرة والأراضى الحكومية وأراضى الأوقاف على فقراء الفلاحين والعمال الزراعيين . وركز الكتاب على الكفاح ضد (الاتجاهات الفاشية) فى مصر التى تعادى الأسلوب الديموقراطى فى الحكم وتتستر وراء الدين والنصرة القومية المتطرفة وتعادى الأقليات . وطالب بأن تحول الحكومة دون (الفاشيين) والترشيح للانتخابات . ثم طالب بتأميم الطب وإلغاء العيادات الخاصة .

هذه هى لمحات سريعة من كتاب (أهدافنا الوطنية) الذى وضعه شهدى عطية الشافعى فى فترة باكراً (١٩٤٥) ورغم الملاحظات عليه فإنه (برنامج) تفصيلى يلزم أصحابه بدلا من الشعارات المرسلة دون تحديد . .

وفى أوائل عام ١٩٤٧ نزل تنظيم (اسكرا) المعركة بمجلة أسبوعية هى (الجماهير) صاحبها ورئيس تحريرها أحد أعضاء التنظيم « محمود النبوى المحامى » والمسئول السياسى لها هو « شهدى عطية الشافعى » يعاونه « عبد المعبود الجبيلى وأنور عبد الملك ومحمد سيد أحمد » وكان « شهدى » يكتب افتتاحية المجلة وقد صدر العدد الأول فى ٧ إبريل ١٩٤٧ . وقدم شهدى تلميذه فى مدرسة التجارة المتوسطة الرسام « طوغان » ، ليكون رسام الكاريكاتير فى (الجماهير) .

على أن أهم ما كتبه « شهدى » فى (الجماهير) هو مقالة بعنوان (يريد الشعب . . حزبا من نوع جديد) يدعو إلى حق الطبقة العاملة والجماهير الكادحة فى تأسيس حزب لها . وقد اعتبر باحثون كثيرون أن هذا المقال هو نقطة تحول فى موقف المنظمات الشيوعية ، ودعوتها إلى (حزب مستقل) عن الأحزاب القائمة وخاصة (الوفد) . . ولكن التيار الأول الذى أشرنا إليه من قبل (تيار الفجر الجديد) كان له رأى آخر . . وتصدى « أحمد رشدى صالح » أحد قادة تيار الفجر الجديد لهذه الدعوة . وكتب مقالا فى (رابطة الشباب) مجلة الشباب الوفدى ووصف اتجاه « شهدى » بأنه لايقوم على خطة سياسية واضحة ، وليست هناك عناصر قيادية لهذا الحزب ، وليس هناك برنامج يقوم عليه الحزب . وانفجر الصراع التقليدى بين تيار الفجر الجديد من جانب وتيار (الحركة المصرية واسكرا ومن بعدهما الحركة الديموقراطية) من جانب آخر .

شهدى وكورييل وشوارتز

تكونت الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى كما عرفنا فى مايو ١٩٤٧ من تنظيمى (الحركة المصرية - كورييل) و(اسكرا - شوارتز) وأصبح « شهدى » عضوا فى اللجنة المركزية . وفى سبتمبر ١٩٤٧ طالب « شهدى » باستبعاد كل من كورييل وشوارتز فهما يهوديان مثقفان ثقافة أجنبية ،

وطالب بتمصير قيادة الحركة الشيوعية في مصر (يلاحظ أن جميع المنظمات في تلك الفترة استستها عناصر يهودية) . وكان الرد هو إبعاد « شهدى » عن مجلة (الجماهير) . وحدث صراع عنيف داخل التنظيم الجديد ونشأت تكتلات مختلفة وازداد الخلاف في فبراير ١٩٤٨ وقررت اللجنة المركزية طرد « شهدى عطية الشافعى وأنور عبد الملك وحسين كاظم » الذين اتجهوا إلى تشكيل تنظيم جديد ، ووقف « عبد المعبود الجبيلى » ضد « شهدى » ثم انشق « عبد المعبود » بدوره بعد ذلك . وفى إبريل ١٩٤٨ أغلق البوليس مجلة (الجماهير) وإعلان حرب فلسطين (١٥ مايو ١٩٤٨) ألقت السلطات القبض على عدد كبير من الشيوعيين اليهود والمصريين وفى آخر عام ١٩٤٨ قبض على « شهدى » وصدر الحكم ضده بالأشغال الشاقة سبع سنوات . ومن السجن أرسل « شهدى » يساند (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - حدتو) ويعترف بأنه كان على خطأ وخرج من السجن عام ١٩٥٥ ليقف مع « جمال عبد الناصر » وثورة ٢٣ يوليو فى المعركة ضد الأحلاف وظل على موقفه هذا حتى يوم رحيله فى ١٥ يونيو ١٩٦٠ . وشارك عام ١٩٥٦ فى تحرير جريدة (المساء) التى أصدرها « خالد محيى الدين » وافتتح مكتب مصر للترجمة والنشر . ونشر كتابه الشهير (تطور الحركة الوطنية المصرية - ١٩٥٧) وبعض الأفكار التى وردت به موضع خلاف . .

شهدى وعبد الناصر

ومنذ عام ١٩٥٥ حتى أول يناير ١٩٥٩ و« شهدى عطية الشافعى » يدعو لمساندة « جمال عبد الناصر » وفى أول يناير كان البوليس المصرى بتعليمات مباشرة من عبد الناصر يعقل الغالبية الساحقة من الشيوعيين المصريين . وداخل المعتقل ظل « شهدى » يردد أن ثورة ٢٣ يوليو بقيادة « الرئيس جمال عبد الناصر » ثورة وطنية تتطور نحو آفاق الثورة الوطنية الديمقراطية . . ويقنع جميع المعتقلين الشيوعيين بهذه المقولة . ثم وجه « شهدى » رسالة من داخل السجن إلى « جمال عبد الناصر » . . أوضح فيها : (إن القوى الرجعية من مصلحتها أن تشعل نار الخلافات . . وكل مالاقيناه من عنت وإرهاق لم يزعجنا قيد أنملة عن الثقة بوطينتك . . لسنا اليوم ولا فى السنين العشر القادمة بصدد تطبيق الاشتراكية . . نحن اليوم بصدد استكمال ما بدأته ثورة ٢٣ يوليو . . وهل لى ياسيادة الرئيس أن أطمع فى ان تبعث بمندوب تطمئن إليه أستطيع أن أفضى إليه بمكنون قلبى . . سبتمبر ١٩٥٩) .

ولم يرسل « عبد الناصر » مندوبا إلى « شهدى » وقدم معه مئات الشيوعيين أمام محكمة أمن الدولة العليا فى مارس ١٩٦٠ ووقف « شهدى » أمام المحكمة فى تلك الفترة . ورغم ظروف الاعتقال فإن المتهمين كانوا يسجلون أمام المجلس العسكرى العالى الذى يرأسه « هلال عبد الله

هلال « تأييدهم لعبد الناصر. وإن استمرار الأزمة وتصاعدها لن تفيد منه سوى الرجعية التي تريد أن توقف التحول الاشتراكي وتدمره! وفي التحقيق الذي أجرته النيابة حول مقتل «شهدى» في ١٥ يونيو ١٩٦٠ حرص كل واحد على أن يختم أقواله بعبارة لا صلة لها بالتحقيق. (إننى أؤيد الرئيس جمال عبد الناصر) مما يؤكد أنها عبارة متفق عليها بين الشيوعيين.

كان «شهدى» في سبتمبر ١٩٥٩ قد طلب من «عبد الناصر» ان يرسل مندوبا ليفضى إليه بمكنون قلبه . . وتأخر عبد الناصر في الرد خمس سنوات . . وبدلا من مندوب واحد كان هناك ثلاثة مندوبين . . وانقل عن عبدالستار الطويلة ص ١٥٢ : (تمسك عبد الناصر مع أولئك الذين كانوا يفاوضون في التحالف مع الشيوعيين بحل الحزب وكان أبرز تلك العناصر التي تقوم بدور المكوك . . السادة أحمد حمروش وأحمد فؤاد والمرحوم كمال الدين رفعت وكانت هي المرة الأولى في تاريخ الشيوعية في العالم ان يحل حزب شيوعي سرى نفسه ويدخل تنظيما يرأسه جلادوه . والله في خلقه شئون .

الأسانيد :

- ١- إبراهيم عامر . . ثورة مصر القومية .
- ٢- أحمد صادق سعد . . اليسار المصري (١٩٤٥-١٩٤٦) .
- ٣- د . رفعت السعيد . . (الحركة الاشتراكية في مصر والصحافة اليسارية في مصر) .
- ٤- د . رءوف عباس . . (الحركة العمالية في مصر ودراسة لأوراق كورييل) .
- ٥- شهدى عطية الشافعى . . (تطور الحركة الوطنية المصرية) .
- ٦- د . عبد العظيم رمضان . . (الفكر الثورى قبل ٢٣ يوليو) .
- ٧- هنرى كورييل . . (أوراق) ترجمة عزة رياض .

الدكتور صبرى السربونى



آه يا بلد . . الدكتور محمد صبرى السربونى توافيه المنية يوم الأربعاء ١٨ يناير ١٩٧٨ ، وتشيع جنازته يوم الخميس ١٩ يناير فلا يسير فى جنازته أكثر من عشرة أشخاص حسب وصف « الأستاذ فتحى رضوان » للجنازة هم أربعة من مقدره لشخصه ومكانته ، وبمجموعة من الضباط جاءوا لمواساة أحد أفراد أسرته حسب وصف « الأستاذ بدر الدين أبو غازى » رحمه الله .

آه يا بلد . . الدكتور محمد صبرى السربونى الذى عمل مع الزعيم « سعد زغلول » سكرتيراً للوفد فى باريس ، وقال عنه « سعد » - هذا شاب أحب الاحتفاظ به . . لا يسير فى جنازته أكثر من عشرة .

آه يا بلد . . الدكتور محمد صبرى السربونى الذى نشرت عن أعماله ما يقرب من ٦٠ مقالا ، ونشر هو ما يقرب من ٤٠ مقالا فى الأدب والاجتماع والفن والتاريخ والسياسة ، وكتب ٢٣ عملا فى الثورة المصرية ، وفى التاريخ الحديث ، وفى الأدب ، وفى السياسة . . ولا يسير وراء نعشه سوى أربعة من عارفى فضله ، ومثل هذا العدد أو يزيد جاءوا لمواساة زميل لهم من أفراد الأسرة . لماذا هذا الجحود ؟ نقول إن الرجل كان لديه قدر من خشونة الحق . . لا يداهن ولا يتافق ولا يطرق باب أحد . . كان نائبا لمدير عام دار الكتب المصرية ، والدار تابعة لوزارة المعارف وقت ذاك . ويخلو منصب مدير دار الكتب فى ديسمبر ١٩٤٦ . ولكن الرجل على خلاف مع « الدكتور عبد الرزاق السنهورى » وزير المعارف فيعين مديرا جديدا للدار متخطيا السربونى ويقدم استقالته . وفى ديسمبر ١٩٥٠ يقوم بتدريس التاريخ الحديث بالجامعة ، ويعين فى ١٩٥١ مديرا لمعهد الوثائق والمكتبات بجامعة فؤاد الأول . ويظل على خشونة فى الطبع فيخرج فيما سمي بالتطهير فى ديسمبر ١٩٥٢ ولجأ الرجل إلى القضاء ولكن أى قضاء كان يمكنه أن يجاهر بالعداء للثورة ويناصر السربونى ؟

ولماذا السربونى يقول إنه دأب أن ينشر اسمه على أعماله مقرونا بعبارة (دكتوراه الدولة من السربون) فعرف بالسربونى فى الأوساط الثقافية . . وهكذا أصبح اسمه وشهرته « الدكتور محمد صبرى السربونى » .

محمد إبراهيم صبرى

واسمه الأصلى . محمد إبراهيم صبرى وموطن الأسرة مدينة بليس مديرية الشرقية . وعمل والده مفتشا للزراعة وكثرت تنقلاته من الوجه البحرى إلى الوجه القبلى .

ولد « محمد إبراهيم صبرى » فى (المرج) التابعة لمديرية القليوبية أما تاريخ مولده فحولته خلاف ويرجح « الأستاذ فتحى رضوان » أنه ولد عام ١٨٩٠ . تعلم القراءة والكتابة فى المرج . وتلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة النحاسين الابتدائية بالقاهرة . وبسبب انصرافه إلى حفظ الشعر فشل كطالب منتظم فى الدراسة . ولكنه حصل على البكالوريا (الثانوية العامة) من المنازل سنة ١٩١٣ وهى سن متأخرة للحصول على مثل هذه الشهادة . توفيت والدته وهو يؤدى امتحان الشهادة الابتدائية مما أصابه بالحزن الشديد . وانصرف إلى التعرف لشعراء تلك الفترة ورواية ما يحفظه لهم وكاد الشعر يجنى على مستقبله . وسوف تعرف بعد قليل أن الشعر احتل مساحة هامة فى شخصيته وفى نشاطه الثقافى .

وسافر إلى فرنسا سنة ١٩١٣ عام حصوله على البكالوريا ليكمل تعليمه على نفقته الخاصة . وهناك عكف على شعر لامارتين وفكتور هيغو ، وجذبه الطبيعة الخلابة فساح فيها وجال وعاد إلى مصر سنة ١٩١٤ مع مقدمات الحرب العالمية الأولى وسافر ثانية إلى باريس سنة ١٩١٥ . وعقد العزم على أن يحصل على الليسانس فحصل عليه سنة ١٩١٩ وكان زميلا للدكتور طه حسين الذى حصل على الليسانس سنة ١٩١٨ . .

وتحدث عنه الدكتور « طه حسين » . .

(. .) لم يعرف ياساً أو قنوطاً . ولم يدعن لعقبة أو صعوبة وإنما حاول وطاول وألح فى المحاولة والمطاوله حتى تقدم للامتحان ذات يوم . وقدم إلى המתحنيين صحفاً أتاح له الفوز والنجاح) . أما « محمد صبرى » فيروى رواية طريفة . . (دخلت أنا والدكتور طه حسين امتحان الليسانس فى عام واحد ، وعندما أعلنت النتيجة ذهبت فلم أجد اسمى ولا اسمه - كان ذلك عام ١٩١٨ - وفى اليوم التالى وجدت اسمه محشوراً بين السطور فتوجهت إليه وأخبرته . .) .

والمهم أن « طه حسين » حصل على الليسانس عام ١٩١٨ ، وإن (محمد إبراهيم صبرى »

حصل عليه عام ١٩١٩ . وفي إبريل ١٩١٩ سافر أعضاء الوفد المصري إلى باريس . وهناك التقى « محمد صبرى » وأعضاء الوفد وعمل في سكرتارية الوفد واتصل برئيس الوفد « سعد زغلول » وتلك حكاية طويلة نؤجل الحديث عنها إلى أن نفرغ من حكاية « الدكتور صبرى » مع الشعر الذى كاد الانصراف إليه يؤدى به إلى الفشل فى الدراسة .

شيطان الشعر

ويبدو أن شيطان الشعر اقترب من « محمد صبرى » وهو صبى صغير وظل يحوم حوله إلى فترة متأخرة من حياته . فى مرحلة التعليم الثانوية وانصرف الصبى إلى حفظ أشعار المعاصرين والقداىم حتى كاد يفشل فى دراسته . وصدر له الجزء الأول من كتابه (شعراء العصر) سنة ١٩١٠ وقدم له « مصطفى لطفى المنفلوطى » وصدر الجزء الثانى سنة ١٩١٢ وقدم له « جميل صدقى الزهاوى » الشاعر العراقى المعروف .

والكتاب به تراجم لعدد من شعراء العرب المعاصرين الذين التقى بهم الفتى مما يدل على حركة نشطة له فى الحركة الأدبية ويدل على نبوغ مبكر فى حفظ الشعر وروايته . وهذا الكتاب جعل « الأستاذ أحمد حسين الطماوى » لايتماد تاريخ مولد « محمد صبرى » الذى ورد فى بطاقته العائلية وهو (٩ يوليو ١٨٩٤) ويجعلنا نعتد التاريخ الذى أورده « الأستاذ فتحى رضوان » فى كتابه (أفكار الكبار) وهو ١٨٩٠ وإن كان لم يذكر مصدره .

وقد عثر « الأستاذ الطماوى » على قصيدة له نظمها عام ١٩١٢ . ويبدو أن الحظ العاثر بدأ معه مبكرا فحين نشرت له الأهرام عام ١٩١١ قصيدة عن الحرب الإيطالية فى طرابلس نسبها إلى « إسماعيل صبرى » بدلا من « محمد صبرى » وعلى الرغم من أن الأهرام صوبت الاسم فى اليوم التالى إلا أن القصيدة ظلت تنشر فى (ديوان إسماعيل صبرى) . وسنة ١٩٢٣ ينشر دراستين عن الشاعر « محمود سامى البارودى » والشاعر « إسماعيل صبرى » . فىكون بذلك قد قدم فى (شعراء العصر) بجزأية وفى هاتين الدراستين ، ترجمة للبارودى وإسماعيل صبرى وشوقى وحافظ وأحمد نسيم وبطرس كرامة وحفنى ناصف ومطران وعائشة التيمورية والمنفلوطى والزهاوى وأحمد الكاشف وحسن القاينى وخير الهنداوى والكاظمى وعثمان زناتى وكاظم الرجبل وناصر اليازجى ونقولا رزق الله .

ثم يحىء عام ١٩٤٤ فى إصدار سلسلة (الشوامخ) ويستهلها بـ « امرؤ القيس » ثم دراسة بعنوان (الشعر الجاهلى أعلامه وخصائصه) و« ذو الرمة » سنة ١٩٤٦ و« البحترى » فى العام ذاته .

وبدافع من الوفاء لشاعرين صديقين له هما « خليل مطران وأحمد شوقي » ، راح « الدكتور صبرى السربونى » يجمع ما تناثر من أدبيهما فى الدوريات . وأصدر سنة ١٩٦٠ كتاب (خليل مطران أروع ما كتب) . وتقف الحركة الأدبية فى مصر وفى البلاد العربية مبهورة عامى ١٩٦١ ، ١٩٦٢ عندما يصدر « صبرى السربونى » الشوقيات المجهولة التى جمع فيها عشرات القصائد التى لم تنشر فى ديوان شوقى بأجزائه الأربعة . وعكف « الدكتور صبرى » على تاريخ القصائد وكان يحمل اسم شوقى والكثير منها يحمل توقيعات رمزية . ثم يعود فى سنة ١٩٦٨ ليقدم لنا شوقيات مجهولة أخرى لم ترد فى الكتاب الذى سبق نشره وكان « السربونى » يرى أن « أحمد شوقى » أكبر شعراء العربية على الإطلاق .

فى ظلال سعد

كان « محمد صبرى » كما عرفنا من قبل فى فرنسا منذ عام ١٩١٤ فيما عدا شهورا قليلة قضائها فى مصر ثم سافر إلى باريس وفى ١١ إبريل ١٩١٩ سافر أعضاء الوفد المصرى . إلى باريس . وفى تلك السنة حصل « صبرى » على الليسانس من (السوربون) وأغلب الظن أنه اتصل بالوفد فى تلك السنة ، وأغلب الظن أن معرفة سابقة كانت تربطه بالأستاذ « محمد كامل سليم » ، السكرتير الخاص لسعد زغلول .

وتحت تاريخ ١٢ يناير سنة ١٩٢١ وهو يتحدث عن آخر جلسة للوفد فى باريس وجو الانقسام قد خيم على الجميع يقول « محمد كامل سليم » كنت أول من وصل إلى مقر الوفد فأشرفت على إعداد قاعة الجلسة مع صديقى الدكتور محمد صبرى (السربونى) ثم توافد الأعضاء وهم متجهمون عابسون إلا حمد الباسل وسينوت حنا فهما باسمان مشرقان ، دخل حمد الباسل قاعة الجلسة وكأنه داخل إلى حجرة الطعام ، وكذلك كان صاحبه الرشيق الهندام ، ودخل عبد العزيز فهوى قاعة الجلسة وكأنه داخل قاعة محكمة للمرافعة فى جريمة قتل عقوبتها الإعدام . ودخل الرئيس سعد وعلى وجهة ملامح الأسد ونظراته وكأنه داخل لمبارعة الثيران . إلخ .

وفى موضع آخر تحت تاريخ ١٧ يناير سنة ١٩٢١ . . يقول . . دخل صديقى الدكتور محمد صبرى (السربونى) ومعه جريدة (الأوفر) الفرنسية وأطلعنا على برقية مطولة نشرتها الجريدة لمراسلها فى القاهرة واستأذنت من الدكتور صبرى فى أن يعطينى هذا العدد من جريدة الأوفر لأطلع الرئيس على برقية مراسلها .

وفى ٢٠ يناير سنة ١٩٢١ يسجل السكرتير الخاص لسعد زغلول - كنت فى مكتبى بمقر الوفد

في صبيحة هذا اليوم أتصفح الجرائد الإنجليزية كالعادة وكان معي الدكتور حامد محمود والدكتور محمد صبرى (السربونى) وأحمد نجيب مراسل الأخبار وكانوا يتحدثون في أمر المنشقين الذين سافروا إلى مصر أمس ، ويتنبأ كل منهم بما عسى أن يعملوه في مصر . .

ولنا ملاحظة على النص الذى أورده «الأستاذ أحمد حسين الطهاوى» في كتابه الممتاز (صبرى السربونى) على صفحة ٥٣ نقلا عن مذكرات محمد كامل سليم (٢١ نوفمبر سنة ١٩٢١ حضر لزيارة سعد ، ومصطفى النحاس ، وويصا واصف وحافظ عفيفى ، وأبلغوه أنهم عائدون إلى مصر . . وقال سعد هل تستطيع البقاء معى أم تؤثر العودة إلى مصر ؟ فقلت انى معك هنا ، وأشعر بأننا في حاجة إلى آخرين مثل الدكتور صبرى (السربونى) . . إلخ .

الملاحظة الأولى أن مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى عادوا من باريس في ٢١ نوفمبر ١٩٢٠ بعد أيام قضوها هناك للإبلاغ الرئيس سعد أحوال مصر (ولعل رقم ٢١ من قبيل الأخطاء المطبعية) والمؤكد أيضا أن سعد باشا عاد من باريس إلى مصر في إبريل ١٩٢١ أى قبل نوفمبر ١٩٢١ .

ويسجل «الأستاذ الطهاوى» أن «محمد صبرى» سجل في مذكرات له - لم تنشر بعد - إعجابه بوطنية سعد ورفضه لقبول التحفظات التى تعنى الحماية ويذكر أن سعد باشا شجعه على كتابة تاريخ مصر .

تاريخ مصر

في باريس بدأ كتاباته التاريخية ، فأصدر سنة ١٩١٩ الجزء الأول من (الثورة المصرية) باللغة الفرنسية ، وأصدر الجزء الثانى سنة ١٩٢١ بالفرنسية أيضا ، وكان سنة ١٩٢٠ قد أصدر في باريس كذلك كتاب (المسألة المصرية) بالفرنسية وفي هذه الأعمال الثلاثة أفاد من وثائق الوفد ومباحثاته في باريس ولندن ، وأفاد من معلومات قادة الوفد وقد عاش معهم واقترب منهم . و«الدكتور صبرى» وإن كان يميل إلى التوفيق بين جناحى الثورة ويأسف للانقسام الذى وقع في الوفد إلا أنه بقى على وفائه وتقديره لسعد زغلول .

أما رسالته للدكتوراه فقد كانت عن (نشأة الروح القومية في مصر) وصدرت في باريس بالفرنسية . سنة ١٩٢٤ وهى تتناول تاريخ مصر الحديث من عصر محمد على إلى الثورة العراقية .

وكان كثير التنقل بين مصر وفرنسا ، ونجده سنة ١٩٢٦ يصدر كتابه باللغة العربية (تاريخ مصر الحديث من محمد على إلى اليوم) وكان قد عاد إلى مصر سنة ١٩٢٤ ليعمل بمدرسة المعلمين العليا أستاذا للتاريخ ، ويعمل بالجامعة ، وينقل إلى دار العلوم ١٩٢٧ - ١٩٢٨ ، ويعود ليكتب بالفرنسية ، سنة ١٩٣٠ كتابه (الإمبراطورية المصرية في عهد محمد على والمسألة الشرقية) .

وبالفرنسية أيضا أصدر سنة ١٩٣٣ (الإمبراطورية المصرية في عهد إسماعيل والتدخل الإنجليزي الفرنسي) وسنة ١٩٣٤ عين مديرا للبعثة التعليمية المصرية في جنيف حتى عام ١٩٣٧ . وبعد عودته إلى مصر أصدر باللغة العربية عام ١٩٣٩ كتابه (مصر في أفريقيا الشرقية) .
وسنة ١٩٤٧ كلفه « محمود فهمى النقراشى » ، بوضع دراسة عن مسألة السودان فكتب بالفرنسية (السودان المصرى - ١٨٢١ - ١٨٩٨) وطور الدراسة إلى كتاب كبير ترجمه إلى العربية تحت عنوان (الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر) وصدر بالعربية سنة ١٩٤٨ .
أخرجته الثورة المباركة في التطهير سنة ١٩٥٢ . ولكن بعد أن أمت مصر قناة السويس في يوليو ١٩٥٦ ووقع العدوان الثلاثي على مصر في أكتوبر ١٩٥٦ بادر إلى إصدار كتاب دفاعا عن حق مصر في تأميم القناة بعنوان (أسرار قضية التدويل واتفاقية ١٨٨٨) كان ذلك عام ١٩٥٧ أعقبه كتاب آخر بعنوان (فضيحة السويس) سنة ١٩٥٨ وفيه إدانة للغرب .

ظلموه

وقد لقيت أعمال « الدكتور محمد صبرى السربونى » تقدير العدد القليل من أهل الفكر والثقافة في بلادنا ، فقد روى « فتحى رضوان » في كتابه (أفكار الكبار) أنه سمع من الفقيه المصرى الكبير « عبد الحميد بدوى باشا » يقول عن كتاب (الإمبراطورية المصرية في أفريقيا) . .
حسب محمد صبرى هذا الأثر النفيس والعظيم لينال من أمته مظاهر التبجيل والتوقير .
وقال عنه « فتحى رضوان » - محمد صبرى ، كان يتمتع بموهبة المؤرخ الذى يطيل صبره على الوثيقة ، ويجرى لاهثا وراء الفهم الصحيح والتاريخ المحقق والورقة الضائعة والكتاب المندثر ، ليحصل بعد العناء والجهد ، على حقيقة صغيرة .
ولكن هل نعود في النهاية لنفس الأمور بالقسمة . . والنصيب . . ؟

نظم القصائد الكثيرة ، ولم يدخله النقد في زمرة الشعراء . . اتصل بشعراء عصره المصريين والعرب وكتب عنهم وترجم لهم وأرسلوا له يقرظونه ويمتدحون أعماله ولم يدخله أحد في عداد الأدباء أو في عداد مؤرخى الأدب ! اتصل بقيادة الوفد جميعا في باريس واتصل بجناح سعد وجناح عدلى على السواء ، وهو واحد من كتاب عصر النهضة الثقافية ومن جيل طه حسين ومحمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد وبعضهم كتب عنه في كتبه ولكنه لم يصل إلى شهرة أحد منهم . كتب تاريخ مصر والمسألة المصرية والثورة المصرية فلم يلق اهتماما كبيرا بأعماله التى أصدرها باللغة العربية ، ولم يلتفت أحد لترجمه أعماله التى أصدرها باللغة الفرنسية . كتب التاريخ من زاوية الشعب وليس من زاوية السلطان فلم يعترف به السلطان ولم ينصفه كتاب الشعب سوى بعض الدموع على سطور بعد رحيله ، أفنى سنوات من عمره بين دهاليز دار الكتب بحثا عن

الشوقيات المجهولة فأصابه من بعض النقاد اتهامات بالتزييف والانتحال . كتب في الاجتماع والحضارة فالتفت إليه قليلون ! أنفق ما كان لديه من مال على دراسته في الخارج ، وعلى أسفاره ، وعلى أعماله الفكرية والتاريخية حتى لم يعد لديه ما يكفيه في هذه الحياة ، وأضاع سنوات من عمره في ساحات القضاء مطالباً بحق في ترقية ، وبحق في تعويض ولم يصل إلا إلى الدرجة الأولى دون المدير العام والدرجة الأولى الآن يصل إليها كثيرون من صغار الموظفين .

كان معترفاً بكرامته وبذاته لا ينافق ولا يداهن يريد أن يأخذ الدنيا غلاباً ولكن بالحق . . . وهجرته زوجته الفرنسية عام ١٩٥١ والتي كان قد تزوجها عام ١٩٣٧ بعد أن تركت له « اسماعيل وعلى ومنى » .

وقد وصف « الأستاذ أحمد حسين الطماوى » ، وهو صديقه وكاتب سيرته ، وصف حاله في أخريات أيامه . . (فى أخريات أيامه تهرم بالناس ، وضباق صدره بهم ، وساء ظنه فيهم ، فلا جرم أن رأيناه يكتتب نفسياً ، وتسهل إثارته لأوهى الأسباب) . . رحم الله الدكتور محمد صبرى السربونى .

الأسانيد :

- ١ - أحمد حسين الطماوى . . صبرى السربونى .
- ٢ - د . طه حسين . . الأيام جـ ٣ .
- ٣ - فتحي رضوان . . أفكار الكبار .
- ٤ - محمد كامل سليم . . سعد وعلى .



الصاغ صلاح سالم

في الساعة الحادية عشرة قبل ظهر يوم الأحد ١٨ فبراير عام ١٩٦٢ توفي « الصاغ صلاح سالم »
عضو مجلس قيادة الثورة وأحد الضباط الأحرار الذين استولوا على السلطة في مصر ٢٣ يوليو
١٩٥٢ .

وكان قدره أن يموت والناس يشفقون عليه . . أرقده المرض عاما ونصف عام وعجز أطباء
مصر والسويد والولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا والاتحاد السوفيتي ، عجزوا جميعا عن علاجه
وكانت صحته تسير إلى التدهور .

أشفق عليه الناس فهو أول من يرحل بالوفاة من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين حكموا
مصر، وكان قد اعتزل عضوية المجلس واعتزل الوزارة ، وبدأ اسمه يذبل في الظل مع جسمه
الذي يضممر وهو يصارع المرض ، وأشفق عليه الناس الطيبون لأنه أصغر ملوك مصر الجدد
عمرا . . والناس في بلادى يحزنون لموت صغار العمر حتى ولو كانوا يخالفونهم الرأي . . يتحسرون
على الشباب الذي راح . . وقد مات صلاح سالم في شرح الشباب كما يقولون عن واحد وأربعين
عاما وثلاثة شهور . . ولد في ٢٥ سبتمبر عام ١٩٢٠ . . وأبناء جيله يذكرون جيدا الشاب
« صلاح مصطفى سالم » ابن (الحلمية الجديدة) وابن (المدرسة الإبراهيمية) والضابط الشاب
الذي يتميز بالحوية والحركة والتهور والاندفاع ، والذي تخرج في الكلية الحربية عام ١٩٣٨ وهو
في الثامنة عشرة من عمره .

وصلاح مصطفى سالم لم يدع أحدا في (مجلس قيادة الثورة) لم يسخر منه أو يضطدم به ،
بداية من « محمد نجيب » و« جمال عبد الناصر » إلى أنور السادات وإلى الآخرين كافة . . لسانه
أفقدته صداقه الكثيرين . . وأحيانا يده . . وأحيانا قدمه . . والقصص كثيرة ومعروفة . . وصلاح

سالم الذى انتهى رئيسا لمجلس إدارة مؤسسة صحفية وصحفيا كان أول صدام له مع الصحافة والصحفيين . عرض فى مجلس الثورة قائمة بعدد من الصحفيين يتقاضون مصاريف سرية . . ولكن « عبد الناصر » بعقليته السياسية والذكية حال دون ذلك وسعى للإفادة من أصحاب هذه الأسماء . وفى ١٥ سبتمبر ١٩٥٣ أعلن « صلاح سالم » فى ميدان عابدين عن وجود مؤامرة سياسية ، وأعلن عن تشكيل « محكمة ثورة » برئاسة « عبد اللطيف البغدادي » وعضوية « أنور السادات وحسن إبراهيم » . ثم التفت إلى الصحفيين وقال بطريقة مسرحية (سيأتى دورك يا صاحبة الجلالة !) .

الحكاية كلها واحدة

فى كتابه (عودة الوعى) قال « توفيق الحكيم » أنه سمع « مصطفى النحاس » يقول إن الصخرة التى تتحطم عليها المفاوضات المصرية دائما من أجل إجلاء الانجليز عن مصر هى السودان . والحكيم يقصد أن اتفاقية الجلاء وقعها « عبد الناصر » فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ هى ماثلة لأى (اتفاقية) رفضتها الأحزاب المصرية قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولكن لأن (الثورة) طرحت مسألة السودان جانبا أمكن توقيع اتفاقية الجلاء . والطريف أن « صلاح سالم » ولد فى مدينة (سنكات) شرقى السودان ، وقضى هناك أيام طفولته ، وحفظ أول آية قرآنية . وتلقى على يد (عريف سودانى) أول علاقة لأنه ذهب إلى الكتاب عارى الرأس وكان فى التاسعة من عمره . وتلقى فى المسألة السودانية أقصى درس .

وتدور الأيام ويستولى الضباط الأحرار على السلطة . ويطير من العرش صباح ٢٦ يوليو ١٩٥٢ إلى القاهرة ، ويتولى فيما يتولى الاشراف على القوات المسلحة مع « عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين » واختص « صلاح سالم » بقوات الجيش المصرى فى السودان . ويقول « صلاح سالم » فى مذكراته التى اطلع عليها صديقنا الاذاعى الراحل « الدكتور محمد المعتصم سيد » مدير إذاعة ركن السودان فيما بعد . . يقول المرحوم صلاح : (القدر وحده هو الذى ربطنى بقضية السودان ، القطر الشقيق ، ولم يكن لى سابق دراية أو خبرة بمثل هذا العمل . . لم أقرأ فى حياتى عن السودان سوى النذر اليسير . . لم يكلفنى مجلس قيادة الثورة قبل ٢٣ يوليو بدراسة هذا الموضوع . . أمر هذه القضية لم نتعرض له قط فى اجتماعاتنا ومناقشاتنا التى سبقت الثورة . . لم يكن لى صديق سودانى واحد يتحدثنى وأتحدث معه فى شئون بلاده . . لم أسمع شيئا عن السودان إلا من والدى الذى عمل فى حكومة السودان ، ومن والد زوجتى وقد عمل طويلا كضابط فى الجيش فى السودان) .

ويواصل « صلاح » حديثه (فى الأسبوع الأول من أغسطس عام ١٩٥٢ وفد إلى دار القيادة العامة « خضر عمر » وكان سكرتيراً عاماً لحزب الأشقاء جناح محمد نور الدين ، وطلب خضر عمر مقابلة جمال عبد الناصر الذى رجاني أن اجتمع بالزائر السودانى . . وقال . . أنت عارف ان ده يدخل فى اختصاصك . . أنت مش مسئول عن الجيش فى السودان ؟ وده كمان من السودان ؟ الحكاية كلها واحدة . .) .

صلاح والمسألة السودانية

هكذا كانت الأمور ، أهل الثقة قبل أهل الخبرة ، صلاح سالم مسئول عن أخطر القضايا لأنه ولد فى (سنكات) شرقى السودان ، ولأنه كان مسئولاً عن قوات الجيش المصرى فى السودان . كانت الظروف كلها مهية لتسير مسألة السودان فى مسارها الصحى . . اتحاد السودان مع مصر بإرادته الحرة المستقلة ، واتحاد شقيقين كل واحد له ذاتيته ولكن قلبه على الثانى . قبل نهاية عام ١٩٥٢ عقدت اجتماعات فى القاهرة بين زعماء الأحزاب السودانية وتم الاتفاق على حق السودان فى تقرير المصير . وأجريت انتخابات برلمانية فى السودان أعلنت نتائجها فى ٢٥ نوفمبر حصل فيها (الحزب الاتحادى على ٥٤ مقعداً ، وحزب الأمة على ٢٠ مقعداً ، والحزب الجمهورى على ٤ مقاعد ، والمستقلون على ١٢ مقعداً ، وانضم نواب الحزب الجمهورى إلى الوطنى الاتحادى . . أى أن الغالبية الساحقة لاتجاه الاتحاد مع مصر ويقود هذا الاتجاه « إسماعيل الأزهرى » .

وبدأت المفاوضات الرسمية مع بريطانيا فى ٢٨ أبريل ١٩٥٣ ، وشكل وفد المفاوضات المصرى من « جمال عبد الناصر وصلاح سالم وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادى والدكتور محمود فوزى » . . وكانت الأزمة بين « محمد نجيب » و« عبد الناصر » قد بدأت منذ أواخر عام ١٩٥٣ ، وألقت بظلالها الكثيفة على المفاوضات مع بريطانيا ، وعلى الوضع فى السودان ، وأعلن « حزب الأمة » صراحة عن رغبته فى انفصال السودان عن مصر ، ووقعت مصادمات بين الجماهير والبوليس فى السودان ، وطالما أن الشخص المسئول ليس لديه الخبرة الكافية والمعرفة بالمسألة فإنه يلجأ إلى أساليب لاتستقيم معها الأمور . . وهذا ما فعله « صلاح سالم » ولم تكن لمجلس قيادة الثورة خبرة أيضاً أو قدرة على تقويم الموضوعات ، واستهلك عناصره فى الصراع الداخلى على السلطة . . لجأ صلاح سالم إلى ضرب « إسماعيل الأزهرى » بجناح « نور الدين » ولجأ إلى أسلوب الرشوة السافر لعناصر لانفوذ لها حتى (أصبح الشك يتناول كل شخص يرغب فى التعاون مع مصر . .) وهذا ماقرره « اللواء صالح حرب » أمام مجلس قيادة الثورة فى ٢٥ أغسطس ١٩٥٥ . وكان هذا الأسلوب الخطأ أحد الأسباب الرئيسية فى تحول الحزب الاتحادى بزعامة « إسماعيل

الأزهرى « وليس بزعامة « نور الدين » الذى قام بحركة مفتعلة لفصل إسماعيل الأزهرى وروجت لهذه الحركة أجهزة صلاح سالم تحول الحزب الاتحادى من الدعوة للاتحاد مع مصر إلى الاستقلال عن إنجلترا وعن مصر معا . وساعد هذا الاتجاه تنحية « محمد نجيب » وأساليب صلاح سالم المسرحية الساذجة مما جعل الصحف الأجنبية تطلق عليه عبارة (الصاغ الرافض) . وضاع الاتحاد بين مصر والسودان . وضاعت الملايين التى أغدقها « صلاح » على بعض العناصر السودانية . وحسم « إسماعيل الأزهرى » الموقف أمام الجماهير السودانية وقال : (أنا لحم اكتافى من مصر ، وأنا وصلت هناك لانسأ حذاء كاوتش ولكن هل يرضيكم أن يحكمنا صلاح سالم والعسكر فى مصر ؟ وأجابته الجماهير الهادرة . . لا . . لا . .) وهكذا أعلنت الحكومة السودانية جمهورية السودان فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ ، كما تم إعلان استقلال السودان رسميا أول يناير ١٩٥٦ . . ورفض « إسماعيل الأزهرى » أن يكون « صلاح سالم » أول سفير مصرى فى السودان .

أما فى مصر . . كان صلاح سالم قد قدم استقالته من جميع مناصبه ومواقعه من مجلس الثورة ومن وزارة الارشاد القومى . . واستقر فى يقين صلاح أن هناك مؤامرة ضده أدت إلى انفصال السودان . . وهذه المؤامرة يشترك فيها « حسين ذو الفقار صبرى والقائمقام عبد الفتاح حسن ، والقائمقام حمدى عبيد » ثم اتهم « على صبرى وزكريا محبى الدين وأنور السادات » بالاشتراك فى المؤامرة وأنهم يرغبون فى التخلص منه . واتهم « صلاح » على صبرى بأنه ينفذ سياسة الانجليز والأمريكيين فى السودان ، وهذا يعنى اتهامها خفيا لجمال عبد الناصر نفسه إذ إن « على صبرى » كان مديرا لمكتب « جمال عبد الناصر » ، على أية حال فإن « محمد نجيب » كان قد نحى عن منصبه فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ ، وكان صلاح سالم وجمال سالم أكبر أعوان عبد الناصر ضد محمد نجيب . وأصبح « صلاح سالم » كرتا محروقا - حسب تعبير صلاح نفسه - فى السودان . . فلا بأس من التضحية بصلاح سالم وقبول استقالته من جميع مناصبه فى ٣٠ أغسطس ١٩٥٥ .

صلاح والاتحاد السوفيتى

فى مايو ١٩٥٥ أفصح « جمال سالم » شقيق صلاح عن أن « جمال عبد الناصر » من نوع « ستالين » يحرص أن يحيط نفسه بالأقزام ، على خلاف « لينين » الذى كان يحيط نفسه بالأقوياء . وتوقع « جمال سالم » أن يتخلص « عبد الناصر » من العناصر القوية فى مجلس قيادة الثورة . وقال « صلاح سالم » للبغدادى إن الدور على جمال ثم صلاح سالم وبعدهما حسن إبراهيم . أما « البغدادى » فكان يتوقع أن يكون هو نفسه أول القائمة . وهنا نسأل : هل هذا الشعور الذى سيطر على صلاح جعله يؤمن نفسه بعلاقات مع الاتحاد السوفيتى ؟ الكاتب « محمد جلال

كشك « في كتابه (ثورة ٢٣ يوليو الأمريكية) أشار إلى أن « صلاح سالم » حاول أن يعقد اتصالات خفية مع الاتحاد السوفيتي في مواجهة الصلات السريعة التي كانت لعدد من زملائه مع الولايات المتحدة الأمريكية .

للمحقيقة . . النتيجة ليست محسومة عندنا ولهذا نضع الوقائع أمام غيرنا ، عسى أن يحسمها الزمن ، يحدثنا « البغدادى » أنه ذهب ومعه « حسن إبراهيم » في ٢٧ أغسطس ١٩٥٥ لزيارة صلاح سالم في استراحة القناطر الخيرية أثناء أزمة صلاح في (المسألة السودانية) فوجدا عنده السفير الروسى يتكلم معه عن السودان ، وقد أهدها السفير في نهاية الزيارة بعض الكتب عن روسيا والدستور الروسى وكان صلاح مهتما بها أشد الاهتمام . وفي ٢٩ أغسطس أبلغ الصحفى « صلاح هلال » مصطفى أمين أنه عرف من « صلاح سالم » أن بعثة من الجيش المصرى قد سافرت إلى روسيا لشراء أسلحة وأن أول شحنة من طائرات الميج والدبابات قد شحنت فعلا إلى مصر . وفي منتصف الليل . . اتصل « مصطفى أمين » بعبد الناصر وأبلغه الرواية ، وبعدها عاد « عبد الناصر » يطلب « مصطفى أمين » ليعيد عليه الخبر لأنه كان هذه المرة يسجل حديث مصطفى أمين . وقد وضع « عبد الناصر » هذا الموضوع أمام (مجلس القيادة) متهما « صلاح سالم » بالخيانة وإنه يجب أن يحاسب عليها .

وفي ١٢ فبراير ١٩٥٣ . . عقدت اتفاقية السودان وتقضى بإجراء انتخابات حرة تأتى بمجلس نواب يمارس نشاطه خلال فترة انتقال لثلاث سنوات تحت إشراف الحاكم العام تعاونه لجنة خماسية تتكون من مصرى وعضو بريطانى وعضوين سودانيين وعضو باكستانى ويرأس اللجنة . . واقترح « صلاح سالم » ضم عضو سوفيتى ولكن الاقتراح رفض .

وفي أغسطس ١٩٥٥ طالب « صلاح » بالافراج عن المعتقلين الشيوعيين بل إنه استدعى إلى مكتبه أربعة من المعتقلين الشيوعيين هم « الدكتور يوسف ادريس ، وإبراهيم عبد الحليم ، وفتحى خليل ، والرسام زهدى » وأكد لهم أن سياسة مصر في طريقها إلى توثيق علاقاتها بالاتحاد السوفيتى ، وأنها تسير نحو الاشتراكية ، وطلب منهم السفر إلى السودان لاقتناع (الحزب الشيوعى السودانى » بفكرة الاتحاد مع مصر ، وأعطاهم مهلة لمدة أسبوع ، ولكن قبل أن ينتهى الأسبوع كان صلاح قد قدم استقالته وانتهت علاقته بالسودان .

والذين يقولون بعلاقة (ما) بين صلاح سالم والاتحاد السوفيتى ربما وجدوا مبررا لهم في زيارة « صلاح سالم » التى قام فيها إلى موسكو في نوفمبر ١٩٥٩ ، سافر كرجل إعلام لأنه لم يعد مسئولاً ، وفي موسكو « عومل صلاح كواحد من قادة ثورة ٢٣ يوليو » وأعدت له الحكومة السوفيتية استقبالا رسميا ووضعت له برنامجا خاصا لزياراته ، وأفردت له وسائل الإعلام اهتماما

ملحوظا وتابع التلفزيون السوفيتى زيارته حتى مغادرته للاتحاد السوفيتى ، والتقى بخروشوف واستمر اللقاء أربع ساعات كاملة ، وتقرر فى هذه الزيارة أن يقوم الاتحاد السوفيتى بتمويل المرحلة الثانية لمشروع السد العالى ، كانت المقابلة يوم ٥ نوفمبر ، ويوم ٧ نوفمبر كان « صلاح سالم » ضمن ضيوف الشرف فى يوم الثورة الاشتراكية . الاحتمالات كثيرة وقد وضعنا هنا المادة اللازمة للدراسة وتحليل الظروف .

بين نجيب وجمال

من يكتب عن (أعضاء مجلس قيادة الثورة) لا يستطيع أن يتجنب الحديث عن موقف هذا أو ذاك من « محمد نجيب » و « جمال عبد الناصر » وقد استطاع « جمال عبد الناصر » أن يدفع كلا من « جمال وصلاح سالم » ضد « محمد نجيب » ثم تخلص منهما بعد ذلك وكان من الميسور عليه أن يصطادهما من أخطائهما واندفاعهما وجموحهما وطموحهما . اندفع صلاح سالم فى تأييد عبد الناصر إلى حد أن يقود تظاهرة غوغائية تعتدى على مجلس الدولة وعلى رئيسه « الدكتور عبد الرزاق السنهورى » وقد علم « محمد نجيب » من زوجة المرحوم الاميرالاي وصفى مدير الحدود الأسبق أن ابنها الضابط محمد وصفى ضابط مخبرات مطروح قد تعرض للضرب والتعذيب من « صلاح سالم » أثناء التحقيق معه وكان يركله برجله فى صدره حتى نرف الدم من فمه وتوفى بعد ذلك .

وقد اقترح « جمال عبد الناصر » أن يضم إلى مجموعته « عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وعبد اللطيف البغدادى » وكان بالمجموعة من قبل « عبد المنعم عبد الرؤوف ، وكمال الدين حسين ، وخالد محيى الدين ، وحسن إبراهيم » كان هو إذن من الأعضاء القدامى فى الضباط الأحرار . أما الطيار « جمال سالم » فقد انضم قبل نهاية ١٩٥١ بعد عودته من لندن بعد ثلاث سنوات تحت العلاج . ولم يقدر لجمال سالم وصلاح سالم المشاركة فى الحركة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لأنها كانا فى العريش وإن كانا قد سيطرا على القوات المسلحة هناك صباح الأربعاء ٢٣ يوليو .

كان « صلاح سالم » أول من أثار اعتراضات على « محمد نجيب » وأسلوبه فى الاتصال اليومى ، بموظفى الإذاعة أثناء رحلته فى بلاد النوبة فى أواخر نوفمبر ١٩٥٣ ، وبعدها بأيام ، وفى مؤتمر شعبى بالإسكندرية ألقى عبد الناصر وصلاح سالم وأحمد حسن الباقورى كلمات عن الديمقراطية توحى بأن « محمد نجيب » يتجه إلى الدكتاتورية وذلك فى حضور نجيب نفسه ، ولكن أمانة للتاريخ ، عندما اقترح « جمال عبد الناصر » مسaire نجيب إلى حين التخلص منه فى مارس ١٩٥٤ ، وأنه بنفسه الذى سيقوم بعمل الترتيبات اللازمة ، اعترض صلاح سالم على فكرة التخلص من نجيب لتأثير ذلك على العلاقات مع السودان . وعندما اقترب محمد نجيب من الفوز فى جولة من جولات الصراع واضطر أن يعلن فى الإذاعة عن عودة محمد نجيب بكى صلاح

وجمال سالم بكاء مرا لشعورهما بالهزيمة ، وأبدى صلاح رغبته في الاستقالة .

وفي مساء الاثنين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ بدأ العدوان الثلاثي على مصر والذي اضطرب له غالبية أعضاء مجلس القيادة وفي مقدمتهم جمال عبد الناصر إلا أن « صلاح سالم » وصل به الأمر إلى اقتراح وقف القتال والاستسلام وأن يسلموا أنفسهم إلى السفير البريطاني (راجع مذكرات البغدادي جـ ١ ص ٣٤٥) وتقدم « سليمان حافظ » باقتراح إعلان حياد مصر وأن يقوم بهذه الخطوة محمد نجيب (ص ٣٤٦ الجزء نفسه) . واقترح « صلاح دسوقي » اعتقال صلاح سالم في منزل البغدادي . . وتقرر أن يسافر « صلاح » للدفاع عن السويس ، وللحقيقة فإنه أخذ الأمور بجدية كواحد من أبناء هذا الوطن الذين يدافعون عن ترابه .

الأسانيد :

- ١ - أنور السادات . . قصة الثورة كاملة .
- ٢ - عبد اللطيف البغدادي . . المذكرات جـ ١ ، جـ ٢ .
- ٣ - توفيق الحكيم . . عودة الوعي .
- ٤ - جمال حماد . . صلاح سالم ومأساة انفصال السودان (مجلة أكتوبر ٦ ديسمبر ١٩٨٧) .
- ٥ - محمد المعتصم سيد . . صلاح سالم .
- ٦ - محمد نجيب . . كلمتي للتاريخ .

الدكتور طه حسين



سألت صديقي العزيز فضيلة الشيخ الدكتور « إبراهيم أبو الخشب » الأستاذ المحاضر في الأزهر عما إذا كنت أستطيع أن أدرج « الدكتور طه حسين » ضمن المجموعة التي كان لها صلة واضحة بالأزهر « فقال فضيلة الشيخ « أبو الخشب » : (رغم أنفه ورغم أنفنا هو واحد من أبناء الأزهر) .

« وطه حسين » « كثيرة هي النعوت التي خلعت عليه » فهو عميد الأدب العربي ، وقاهر الظلام والمعجزة ، ورائد اليقظة . . وهو الأديب الكبير والمفكر الحر ، وهو الذي فتح للعربى العربى آفاقا عالمية .

في عزبة (الكيلو) إحدى قرى مركز مغاغة بمحافظة المنيا ولد في أكتوبر ١٨٨٩ . وفي (الكتاب) حفظ القرآن وألم بمبادئ العلوم الدينية والعربية وجاء إلى القاهرة ليتلقى العلم بالأزهر الشريف . وكان ذلك عام ١٩٠٢ وعمره ١٣ عاما . حضر دروس المبتدئين ثلاث سنوات . وبين عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٧ حضر دروس المتوسطين في الفقه والنحو . وبدأ عام ١٩٠٧ يحضر دروس المتقدمين . وفي سنة ١٩٠٨ لم يكن يحضر غير درس الفقه على « الشيخ محمد بخيت » ودرس الأدب على « الشيخ سيد المرصفي » ودرس البلاغة على « الشيخ عبد الحكيم عطا » إلا أنه كان برما بهذه الدروس وبنظام الأزهر عامة ، كثير الجدل مع الأساتذة . واختلف اختلافا حادا ففصل ومعه زميله « أحمد حسن الزيات » و« محمود حسن زنتي » .

وفتحت الجامعة الأهلية أبوابها عام ١٩٠٨ فالتحق بها ، وفي ٥ مايو ١٩١٤ نوقشت أول رسالة علمية في هذه الجامعة عن (أبي العلاء المعرى) وحصل بها « طه حسين » على الدكتوراه وأوفدته الجامعة في بعثة إلى فرنسا في نوفمبر ١٩١٤ بجامعة مونبلييه وجامعة باريس وحصل هناك على

الليسانس في الآداب من السوربون ١٩١٧ ، وعلى الدكتوراه سنة ١٩١٨ ، وعلى دبلوم الدراسات العليا سنة ١٩١٩ . وفي أكتوبر ١٩١٩ عاد إلى مصر ليعمل أستاذاً للتاريخ القديم بالجامعة ويبدأ قصة جديدة .

رجال في حياته

وإذا كان « الشيخ سيد المرصفي » له الأثر الكبير عليه وهو (مجاور) في الأزهر فإن رجلين آخرين كان لهما أثر كبير في تشكيل مستقبله . وترك « الفتى » أو « طه حسين » يتحدث عن أثر أول الرجلين في حياته : (واتصل الفتى بالشيخ عبد العزيز جاويش - رحمه الله - فأكثر الاختلاف إليه ، والاستماع له - وما هي إلا أن أخذ يجرب نفسه في الكتابة ، كما جرب نفسه في الشعر على يدى أستاذه المرصفي . ولم يكد الفتى يأخذ في الكتابة حتى عرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد ، وكان نقداً محافظاً إلا أن يعرض لشئون الأزهر ، فهناك كان يخرج حتى عن طور الاعتدال ، ويغلو في العبث بالشيوخ ، ويجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبد العزيز جاويش ، وربما وجد منه إغراء بذلك وحضاً عليه . . . كان يحب العنف إلى الفتى ، ويزين في قلبه الجهر بخصوصية الشيوخ والنعي عليهم في غير تحفظ ولا احتياط . . . وللشيخ عبد العزيز جاويش فضل أى فضل فهو الذى ألقى في روح الفتى فكرة السفر إلى أوروبا . . . وعلمه الكتابة في المجلات ، فقد أنشأ مجلة (الهداية) وطلب إلى الفتى أن يشارك في تحريرها ثم ترك له أو كاد يترك له الإشراف على هذا التحرير . وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول . . . وأنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش مدرسة ثانوية وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على ألا ينتظر على ذلك أجراً . وقد أقبل الفتى على تعليمه ذلك فرحاً به مبتهجا له يرى فيه شفاء لغيظه من الأزهر) .

وهكذا على غير ماهو شائع ، فإن الشيخ عبد العزيز جاويش قطب الحزب الوطنى هو الذى بدأ برعاية الفتى ، وجذبه إلى محافل الكتابة والخطابة وهو الذى شجعه على مصاولة الأزهر ، وهو الذى حرصه على السفر إلى فرنسا .

أما الرجل الثانى ، وهو أحمد لطفى السيد ، فعلاقته بالفتى ومساندته له وتعضيده هى أمور شائعة ومعروفة . كان « الفتى » يزوره كل يوم في مكتبه بدار (الجريدة) فلا يحجب عنه ويقبل عليه ويتوسط له لدى السلطان وغير السلطان دفاعاً عنه ، وطلباً للخير له ومسانداً له في الجامعة ، وفاتحاً له صفحات الجريدة . وهكذا كان « صاحبنا » موزعاً بين مذهبين من مذاهب الكتابة ، أحدهما مذهب الاعتدال ذلك الذى كان الأستاذ لطفى السيد يدعوه إليه ويزينه له . والآخر

مذهب الغلو والإسراف ، ذلك الذى كان الشيخ عبد العزيز جاويز يغريه به ، ومحرضه عليه تحريضا . وكان للفتى مذهبان فى ذلك الوقت . . إذا اقتصد فى النقد نشر فى (الجريدة) عند أحمد لطفى السيد ، وإذا غلا ذهب ينشر فى صحف الحزب الوطنى .

على أية حال ، فإن « الفتى » قد سافر إلى فرنسا فى نوفمبر من سنة ١٩١٤ وعاد إلى مصر فى أكتوبر من سنة ١٩١٩ ، وكان بين هذين التاريخين وثيق الصلة بأحمد لطفى السيد يرأسله هويلقه حين يأتى إلى مصر بين الحين والآخر ليحل له ما أشكل عليه من أمور ، ويقوده إلى أصحاب السلطة ، ويجد طه حسين - بأسلوبه الخاص - طريقه إلى السياسة .

تقويم من اليسار

لبعض الماركسيين ولع بتصنيف الأحداث وتوصيف الناس ، وهو أمر يريح الناس أحيانا ، ولكنه أحيانا أخرى يوقع فى الخلط والاضطراب ويؤدى إلى فساد الأحكام اذا لم تتوفر لة الدراسة الموضوعية وخاصة إذا كان (التوصيف) فريسة للمسميات الشكلية ومقصورا على عدد من المواقف دون مراعاة للاتجاه العام . والمنطق الشكلى - لا الجدلى - يكتفى بأن تتطابق الصفات على الموصوف فتكون محددة لذاته وموضحة لمسماه وعلم السياسة - يحدد صفات (الليبرالية البورجوازية) بأنها تدعو إلى : (حرية الفكر والتسامح الدينى والاتجاه العقلانى والحكم الدستورى وحق الانتخاب العام وعدم التفرقة أو التمييز بسبب الجنس واللون أو العقيدة الدينية) وبنظرة سريعة إلى « الرجل » وأسلوب تفكيره وجدوا أن الصفات السابقة كلها موجودة عنده ، فهو إذن (ليبرالى بورجوازى) هكذا كتب محرر مجلة (الفجر الجديد) التى كانت تصدرها إحدى المنظمات الماركسية فى مصر عامى ٤٥ - ١٩٤٦ وكان من شأن هذه اللافتة الجامدة أن تحجب عن أعين (هؤلاء النقاد) البيئة التى انحدر منها « طه حسين » من صلب رجل فقير ، ونشأته فى بيئة فقيرة ، ولا يجد علاج عينيه إلا عند (حلاق القرية) الذى ذهب بما فيهما من إضرار . وحجبت عنهم أيضا دفاعه عن حرية الشعب السياسية وحرية التعبير ، وحارب بصلابة وعناد طغيان السلطة الرأسالية والاقطاعية التى تمثلت فى اضطهاد حكومة إسماعيل صدقى له . وهذا المفهوم الضيق هو الذى دفع اثنين من (هؤلاء النقاد) لتوجيه الاتهامات القاسية للدكتور طه حسين على صفحات جريدة المصرى فى باكورة الخمسينات وإنصافا فإن عددا من الماركسيين وقت ذاك لم يؤيدوا هذا الكلام الذى نشر على صفحات جريدة المصرى وإنصافا مرة أخرى فإن الموقف فى عمومياته الآن ليس كما كان سابقا . لقد وجد « طه حسين » كلمات حق وحقيقة من جانب الذين اخطئوا فى حقه وحقيقته . ولم تزل صورة العميد

التي نقلتها الشاشة الصغيرة منذ نحو ربع قرن من منزله وحوله عدد من الأدباء والمفكرين ومن بينهم «محمود أمين العالم» يناقش مناقشة (الراغب في الاستزادة من العلم) على حد تعبيره هو. لم تزل هذه الصورة ماثلة للعيون والأذهان وإن كانت محاولات نقد جديدة من اتجاهات أخرى تحاول أن تنال من «العميد» بدعوى أن الذين يؤازرونه بعضهم بدافع من جهات أجنبية لاتكن الود للحضارتين العربية والإسلامية.

البداية السياسية

من الأفكار الشائعة - وهي صحيحة إلى حد كبير - أن يتغير الناس كلما تقدم بهم العمر ، فينتقلون من اليسار إلى اليمين وينتقلون من الثورة إلى الاعتدال .

ولكن « طه حسين » - كعادته - يخالف ماجرت به العادة ، وتراه في حياته السياسية ينتقل من اليمين إلى اليسار نسبيا كلما تقدمت به السن وكلما نضجت التجربة . فالثابت أنه كتب (لمصر الفتاة) القديمة عام ١٩٠٩ و(الجريدة) عام ١٩١٠ . و(الهداية) في مثل هذين التاريخين . و(الجريدة (٩ مارس ١٩٠٧ - ٣٠ يوليو ١٩١٥) دعت إلى (التعقل والاعتدال والمحاسبة) وكانت تمهيدا لحزب الأمة (٢١ سبتمبر ١٩٠٧ وهو حزب العقلاء الساكنين والحكماء الهادئين على حد تعبير الدكتور « محمد حسين هيكل » . ومن جريدة العقلاء الساكنين إلى (الأهرام) عامى ١٩٢١ و١٩٢٢ أيام كانت الأهرام أكثر عقلا وسكينة وأكثر حكمة وهدوءا ، وكان معه في الأهرام « محمود عزمى » بعد أن انتهى من تجربة الحزب الديموقراطى ، ومعه « توفيق دياب » قبل أن يتحول إلى الوفد . وكانوا جميعا في موقف المعارضة للوفد وكتب « الدكتور طه » في ٢٥ يونيو ١٩٢١ مقالا في الأهرام بعنوان (ديموقراطية أم طغيان) حمل فيها على (طغيان شخصية سعد على مستوى الحزب ، وعلى مستوى الأمة) .

ويتبلور الموقف من « سعد والوفد » على صفحات جريدة السياسة التي صدرت في (٣٠ أكتوبر ١٩٢٢) غداة إعلان حزب الأحرار الدستوريين (٢٩ أكتوبر ١٩٢٢) والذي تشكل أساسا من البقية الباقية من حزب الأمة . وعلى صفحات السياسة من ١٩٢٢ حتى ١٩٢٦ هاجم « طه حسين » زعامة سعد لأنها (زعامة حزب لا زعامة أمة) ولأن (سعدا وأصحابه ضعاف يخافون الحق ويفزعون منه ويدعون من النقد ويضطربون له) ولعل أوضح المواقف في هذا الاتجاه تلك التي اتخذها عام ١٩٢٦ عندما تولى رئاسة تحرير جريدة (حزب الاتحاد) الذي عرف بانه حزب السراى . على صفحات جريدة الاتحاد ، ومن موقع رئاسة التحرير شدد الهجوم على « سعد » وأظهر ميزات الملك فؤاد في (رعايته للجامعة) ودافع عن (حق الملك الدستورى في

اختيار الوزراء) إلا أنه سرعان ما ترك حزب الاتحاد ورياسة التحرير وعاد إلى جريدة السياسة التي التفت حولها عدد من المفكرين والمثقفين المستنيرين أمثال أحمد لطفى السيد ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومحمود عزمى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وتوفيق دياب ، ومحمد زكى عبد القادر .

الشعر الجاهلى

فى سنة ١٩٢٥ عين « الدكتور طه حسين » أستاذاً لتاريخ الأدب العربى فى كلية الآداب بالجامعة . وألقى على طلبة هذا القسم مجموعة من المحاضرات جمعها فى كتاب بعنوان (الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦ . وقد وردت بهذا الكتاب وقائع استنكر الرأى العام أن تصدر من مفكر مسلم تعلم فى الأزهر وحمل لقب شيخ لفترة ما . وقد تصدى للرد على هذا الكتاب « الشيخ الخضر حسين ، ومحمد فريد وجدى ، ومحمد لطفى جمعة » فى كتب ثلاثة هى نموذج للبحث العلمى ومقارعة الحجة بالحجة فى هدوء وبسلوك حضارى يندر أن نجده فى أيامنا الحالية . لقد أنكر عليه الرأى العام هذه الأفكار التى خرج بها . ودخلت السياسة فى المعركة وكان من حظ « الدكتور طه » أن تحالفاً كان قائماً وقت ذاك بين الأحرار الدستوريين والوفد . . فترأس الوزراء « عدلى يكن » هو حر دستورى ، ورئيس مجلس النواب هو « سعد زغلول » . . هدد رئيس الوزراء بالاستقالة أن أصاب الرجل أذى . واستخدم رئيس مجلس النواب نفوذه الشخصى فى تخفيف حدة ثائرة النواب الوفديين الذين وجدوها فرصة لتصفية الحساب مع « طه حسين » وقادت جريدة (كوكب الشرق) التى كانت تعتبر إلى حد كبير امتداداً للمؤيد ، وصدرت وفدية عام ١٩٢٤ ، واستمر صاحبها ورئيس تحريرها « أحمد حافظ عوض » الذى تربى على أيدي « الشيخ على يوسف » فى تأييده للوفد ، واستمر أيضاً فى الهجوم على طه حسين بسبب ما جاء فى الكتاب المشار إليه . وأفردت (كوكب الشرق) عدداً من صفحاتها للهجوم على طه حسين ، والهجوم على اتجاه (جريدة السياسة) والذين وقفوا يداً فاعون عن « طه حسين » أمثال . . أحمد لطفى السيد والدكتور محمد حسين هيكل ، ومنصور فهمى ، وكذلك « عباس محمود العقاد » الذى تصدى للدفاع عن حق « طه حسين » فى التعبير عن آرائه . وجبذت (كوكب الشرق الوفدية) مقالات للرد على طه حسين بأقلام مصطفى صادق الرافعى وشكيب أرسلان ومحمد لطفى جمعة وأحمد الغمراوى وعبد المتعال الصعيدى .

على أية حال حفظ التحقيق مع « الدكتور طه » وأعاد طبع الكتاب تحت عنوان (الأدب الجاهلى) بعد أن رفع منه الفصول التى أهاجت الرأى العام ، وأغضبت العلماء .

أزمة جديدة

وفي سنة ١٩٢٨ عين عميدا لكلية الآداب إلا أن الظروف السياسية اضطرتة إلى الاستقالة يوم تعيينه . واختير عميدا مرة أخرى سنة ١٩٣٠ . وفي ٣ مارس سنة ١٩٣٢ في عهد وزارة إسماعيل صدقي (الثانية) ٤ يناير - ٢٧ مارس ١٩٣٢ قرر « إبراهيم فهمي كريم باشا » وزير المعارف العمومية نقل « الدكتور طه حسين » إلى وزارة المعارف ، وعلى الرغم من أنه نفذ النقل إلا أنه رفض العمل . وكان « العميد » قد رفض ما أراده وزير المعارف من منح الدكتوراه الفخرية لعدد من الوزراء ، رأى الدكتور طه أنهم غير جديرين بدرجة الدكتوراه . ووقفت الجامعة والصحافة والرأي العام إلى جانب الدكتور طه حسين فقررت وزارة إسماعيل صدقي إحالة الدكتور طه إلى المعاش . والدكتور طه يشحذ همته أيام التحدي ، ففي ديسمبر ١٩٢٦ عام أزمة الشعر الجاهلي بدأ في (مجلة الهلال) يكتب أول فصل من الجزء الأول من (الأيام) ، ونشر هذا الجزء الأول في كتاب سنة ١٩٢٩ ، ونشر الجزء الثاني ١٩٤٠ ، ونشر الجزء الثالث قبل وفاته بعام واحد (توفي في ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ - وشيعت جنازته في ٣٠ أكتوبر ١٩٧٣) .

وتراه عام ١٩٣٢ بعد أن أصدرت الوزارة قرارا بإحالة إلى التقاعد قد لزم بيته يكتب في جريدة السياسة اليومية ، ويتولى رئاسة تحريرها أثناء غيبة الدكتور محمد حسين هيكل . ثم تراه يشارك في تحرير جريدة الوفد (كوكب الشرق) وفي ٩ مارس عام ١٩٣٣ صرح « مصطفى النحاس » بقوله : (إنني لمغبط لاشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين في تحرير الكوكب على المبدأ الوفدي وكتب الدكتور طه مقاله الأول بعنوان (عهد) . . وكان عهدا لمسيرة مع الشعب ، وعهدا للدفاع عن الدستور . ومهدت (كوكب الشرق) التي طالما شنت حملة شعواء على طه حسين ، مهدت لهذا الحدث الكبير في ٨ مارس بمقال لأحمد حافظ عوض يشهد لطه حسين أنه كان (في جميع مراحلها في الصحافة لا ينشد من وراء كتاباته كلها إلا ما يراه متفقا والمصلحة الحقيقية ، وكم أود أن أذكر لكم مبلغ تعلقه بالقرآن الكريم وتذوقه لأسلوب القرآن وإجلاله لكل ما يتصل بالقرآن) . واستعار « أحمد حافظ عوض » وهو يمهد لطه حسين على صفحات (الكوكب) بعبارة قالها « مكرم عبيد » عندما تحول « توفيق دياب » من الأحرار الدستوريين إلى الوفد ، قال مكرم : (ومن عجب أن يأخذ بعض الناس على توفيق دياب أنه أصبح وفديا مع أن الوفدية كانت مصيره المحتوم . بل إنه كان وفديا بطبعه في الوقت الذي كان يتحمس فيه لمحاربة الوفد بقلمه) .

الرجل والرمز

اشترك سنة ١٩٣٣ في تحرير (كوكب الشرق) كما قلنا ، وأشرف على تحريرها أيضا لفترة محدودة ، ثم اشترى امتياز جريدة (الوادي) وأشرف على تحريرها حتى ديسمبر سنة ١٩٣٤ ولكنه خسر ما يقرب من ثلاثة آلاف جنيه ، وتوقف حين أعيد إلى كلية الآداب أستاذاً للأدب العربي مرة

أخرى ثم انتخب مع مجيء حكومة الوفد سنة ١٩٣٦ عميدا لكلية الآداب . وفي أواخر عام ١٩٣٩ انتدب (مراقبا) للثقافة بوزارة المعارف العمومية إلى جانب محاضراته في كلية الآداب ، وبمجيء حكومة الوفد إلى الحكم في فبراير سنة ١٩٤٢ عينه وزير المعارف « أحمد نجيب الهلالي » مستشارا للوزارة ووضع في تلك الفترة أسس ديمقراطية التعليم والخطوط العريضة لحق أبناء الشعب في التعليم . وفي السنة ذاتها (أكتوبر ١٩٤٢) انتدب إلى جانب عمله مديرا لجامعة فاروق بالإسكندرية (جامعة الإسكندرية حاليا) وظل يزاول هذه الأعمال جميعها بروح الانتماء إلى الشعب حتى أحيل إلى التقاعد في ١٦ أكتوبر ١٩٤٤ . وفي هذا الشأن يقول أستاذنا الدكتور « محمد مهدي علام » : إنه بمقتضى هذا التاريخ يكون تاريخ ميلاد الدكتور طه هو ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ وليس نوفمبر ١٨٨٩ كما هو شائع . وقد أكد « الدكتور طه » للدكتور « مهدي علام » أن تاريخ ميلاده - أي ميلاد الدكتور طه - هو ١٨٨٩ . وليس هناك تفسير سوى أن تسجيل المواليد في القرن التاسع عشر في ريف مصر لم يكن منتظما ولا سليما .

وفي ظل حكم السعديين والأحرار الدستوريين . . أخذ البعض يوجه الضربات للدكتور طه كمدير لجامعة الإسكندرية فاستقال عام ١٩٤٦ وأصدر مجلة (الكاتب المصري) . ثم قصد إلى أوروبا وأقام بها إلى حين ، وقال في ذلك : - تركت في مصر شرا ونكرا وإثما ، وخرجت وفي نفسى شيء من شرها ونكرها وإثمها ، وإنى لظالم للحق ولنفسى حين أحفل بهذه الضفادع البائسة التي تملأ جو مصر نقيقا) .

وفي ١٢ يناير ١٩٥٠ في حكومة « مصطفى النحاس » السابعة والأخيرة جاء « الدكتور طه حسين » وزيرا للمعارف ليقرر مجانية التعليم الثانوي والفنى ، وينشر المدارس في أزقة المدن وحاراتها ، وفي الكفور والنجوع لأن التعليم عنده ضرورى كالماء والهواء .

وأذكر عند تشكيل حكومة الوفد في ١٢ يناير ١٩٥٠ بعد فوز الوفد الشهير في ٣ يناير ١٩٥٠ ، أذكر أن آمالنا - نحن الشباب - الذى وجد في تلك الليلة بمنزل « مصطفى النحاس » كانت أن يتولى « أحمد نجيب الهلالي » وزارة المعارف . اعتقادا منا - في ضوء رؤيتنا وقت ذاك - أنه يدعم الاتجاه الشعبى في مواجهة التيار اليميني الذى كان يزحف على قيادة الوفد . أذكر أن « أحمد نجيب الهلالي » وهو يهبط الدرج داخل منزل « مصطفى النحاس » ، قال : - الشخص الجدير بالمنصب هو الذى سيتولاه ، الدكتور طه حسين سيكون وزيرا للمعارف . وظل وزيرا للمعارف حتى أقيلت الوزارة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . وفي عام ١٩٥٥ كان وراء المشروع الثقافى الكبير (مشروع الألف كتاب) وكانت آخر ميزانية لهذا المشروع عام ٦٨ - ١٩٦٩ وقد أصدر قرابة ثلاثة أرباع الرقم المقرر له أن يصدره ترجمة وتأليفا . وقد كان شرفا لهذا القلم كاتب هذه السطور أن يرأس تحرير هذا المشروع عندما عاد للمرة الثانية عام ١٩٨٦ ليصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

مجمع اللغة العربية

هذه العقلية المستنيرة التي أصدرت أكثر من ١٠٠ كتاب عملا بين تأليف وترجمة ، وكتبت عشرات المقالات ذات الهدف والقصد ، وجدت طريقها إلى العضوية العاملة بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٠ ثم اختير نائبا للرئيس سنة ١٩٦٠ ، وبعد أن توفي رئيس المجمع « أحمد لطفى السيد » اختير « الدكتور طه حسين » خلفا له سنة ١٩٦٣ ، وظل رئيسا للمجمع لعشر سنوات متصلة حتى توفي في أكتوبر ١٩٧٣ .

وفي مجمع اللغة العربية أسهم في كثير من لجان ، وقدم عدة بحوث ودراسات واقتراحات . ومثل المجمع في عدة مؤتمرات خارجية . وأهتم أكثر ما اهتم بمشكلات اللغة العربية وتيسير كتابتها .

لقد أصبح الدكتور طه حسين (الموقظ الأكبر للعقل العربى) على حد تعبير تلميذه « الدكتور عبد الرحمن بدوى » . ولم يكن من الغريب أن تترجم كتبه إلى عدة لغات أجنبية . . الإنجليزية والفرنسية والصينية والعبرية والروسية والفارسية والألمانية والإيطالية والمجرية والاردية . ونال جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٥٨ بل إنه أول من نال هذه الجائزة ، ومنح قلادة النيل سنة ١٩٦٥ ، ولهذا شيع جثمانه في جنازة عسكرية مهية خرجت من الجامعة في ٣٠ أكتوبر ١٩٧٣ .

ولقد استقبل « الدكتور طه حسين » ما حدث في مصر يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بارتياح كبير . وفي ٣ أغسطس سنة ١٩٥٢ يكتب من فندق بالاس تولى ايزاريو - بإيطاليا رسالة إلى صديقه « توفيق الحكيم » يطلق فيها على ما حدث عبارة (الثورة الرائعة) بعيدا عن تعقيدات فكرية ، ومتاهات حزبية . ولم يكن هذا التعبير معروفا لأحد حتى لأصحاب ٢٣ يوليو أنفسهم وبدأ الماركسيون استخدامه بعد أن أطلقه « طه حسين » بسنوات . كان رائدا في ميادين كثيرة . . التعليم . . والتعليم الجامعى . . والنقد الأدبى . . ومجمع اللغة العربية . . وفي الصحافة . . وفي مواقف سياسية كثيرة . . وفي الثقافة . . إلى أن رحل وحسبه أنه نبت طيب لأرض طيبة .

الأسانيد :

- ١ - أنور الجندى . . الصحافة السياسية في مصر .
- ٢ - طه حسين . . الأيام (٣ أجزاء) .
- ٣ - فتحى رضوان . . مجلة الثقافة ديسمبر ١٩٧٣ .
- ٤ - لمعى المطيعى . . مجلة الثقافة نوفمبر ١٩٧٤ .
- ٥ - د . محمد مهدى علام . . المجمعيون في خمسين عاما .

عبد الرحمن الرافعي



صديقه الحميم لسنوات طويلة « محمد إبراهيم جمعة » قال . . إن الرافعي كثيرا ما كان يتساءل . . هلى سياتى من يكتب عني؟ نعم . . جاء وسيجيء من كتب ويكتب عنك . . مقالات . . وكتبا . . ورسائل جامعية . . ولكن وأنت فى رحاب الله هل ترضى أو لاترضى عنها؟ فتلك قضية أخرى . .

ونبدأ بأكثرها حدة . . كتب المرحوم « الدكتور وحيد رأفت » تعليقا على أحداث مارس ١٩٥٤ ، وتعليقا على موقف « عبد الرحمن الرافعي » المؤيد على طول الخط لمواقف عبد الناصر . . (وللاستاذ عبد الرحمن الرافعي وأمثاله من الكتاب والمؤرخين ان يتخذوا جانب السلطة بلا تحفظ ويتغنوا بكل ما فى ذلك العهد ، ويحرقوا للسلطة البخور ، ويؤهلوا الحاكم الذى حولوه بخنوعهم وسكوتههم إلى طاغية ، فانهم قوم فقدوا الوعى فوجدوا حسنا ما ليس بالحسن ، وعميت أبصارهم عن رؤية السليبيات والسيئات . .) .

والعبارات ليست أكثر حدة مما قال « عبد الرحمن الرافعي » فى أحمد عرابى وصحبه . . وفى كتابه عن (ثورة ١٩١٩) تحدث على استحياء عن (الملك فؤاد) وفتح النار على الوفد وقادته ، وفى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ يقوم « محمود العيسوى » وهو من شباب الإخوان المسلمين ويعمل محاميا فى مكتب « الأستاذ عبد الرحمن الرافعي » يقوم باغتيال « الدكتور أحمد ماهر » رئيس الوزراء ويعلق « عبد الرحمن الرافعي » على الحادث . . فلا يذكر صلة محمود العيسوى بالعمل فى مكتبه من قريب أو بعيد ، ولا يذكر صلة العيسوى بالحزب الوطنى ويذكر صفته على إنه (محام شاب متهوس يدعى محمود العيسوى) ثم يمضى « الرافعي » محاولا القاء المسئولية على الوفد والوفديين (. .) ولكن الوفديين أثاروا النفوس على أحمد ماهر ، موهمين الناس انه يسعى للزج بالبلاد فى أتون

الحرب وإرسال المصريين إلى الخارج ليحاربوا في ميادين القتال البعيدة . . وكان من أثر هذه الفتنة وقوع تلك الجناية الفظيعة التي ذهب ضحيتها زعيم من خيرة رجالات مصر وعلم من أعلام الجهاد . . .

وهذا كلام سياسى حزبى يحاول ان يوقع بالحزب الذى لايميل إليه ، وليس كلام مؤرخ يشرح الظروف ويحلل المواقف ويسرد الوقائع كلها بأمانة ولعل هذه المقدمة تيسر علينا السبيل ونحن نتحدث عن مواقف « عبد الرحمن الرافعى » من نظام ٢٣ يوليو لأن أحداث تلك الفترة لم تنزل قريبة إلى الأذهان . .

٢٣ يوليو ١٩٥٢

استقبل « عبد الرحمن الرافعى » نظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقدر كبير من حسن الظن ووجدها فرصة مواتية ليعاود هجومه على الأحزاب السياسية ، ونعتها بأسوأ الأوصاف وطالب بالا تزيد على حزين أو ثلاثة أحزاب . . وكان الحركة الدافعة لعناصر الحزب الوطنى سببا إنه كان سكرتيرا عاما للحزب منذ عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٤٦ ، ليواصل الحزب نشاطه فى ظل ظروف مواتية للحزب الوطنى وغير مواتية للأحزاب الأخرى وخاصة الوفد . . ولكنه فوجئ فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ بالاستاذ « فتحى رضوان » يتقدم بإخطار لإعلان (الحزب الوطنى الجديد) ووصل الأمر إلى القضاء على اعتبار أن « فتحى رضوان وزملاءه » مفصولون من الحزب الوطنى ٢٨ يناير ١٩٥٠ . . وكان قد حدث فى أواخر الحرب العالمية الثانية ان انشق عن جماعة (مصر الفتاة) فتحى رضوان ونور الدين طراف ، ومصطفى المنزلاوى ، والدكتور زهير جرانه وانضموا إلى الحزب الوطنى ثم انشقوا على الحزب الوطنى فى أوائل عام ١٩٥٠ وشكلوا ماسموه (اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى) وأصدروا جريدة (اللواء الجديد) . وكانت مجموعة نشطة على عكس القيادات التقليدية للحزب الوطنى التى كان نشاطها الأساسى مقصورا على زيارة أضرحة الزعماء فى المناسبات الوطنية . غير أن النظام الجديد لم يعط الفرصة لا للحزب الوطنى القديم ولا للحزب الوطنى الجديد ، فشارك « الرافعى » فى إصدار جريدة (القاهرة) ، وفى يناير ١٩٥٣ اختير عضوا فى لجنة الدستور ، ولم يتم اختيار « الدكتور وحيد رافت » على الرغم من ان « فتحى رضوان » اتصل به فى هذا الشأن على اعتبار أن اختيار كفاءة دستورية قانونية مثل الدكتور وحيد رافت أمر مفروغ منه ثم منح « عبد الرحمن الرافعى » جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية .

قرار ١٩٥٤

وفي أحداث مارس ومقدمات تلك الأحداث راهن « الرافعي » على « جمال عبد الناصر » وأنجاز إلى صفه انحياز الحزب السياسى . . وتنشيطا للذاكرة فإن مظاهر الخلاف بين « محمد نجيب » و « جمال عبد الناصر » قد بدأت تظهر على السطح خلال اشهر صيف ١٩٥٣ ، وتكلم « جمال عبد الناصر » مع « محمد حسنين هيكل وأحمد أبو الفتوح ومصطفى أمين وعلى أمين » لعدم نشر احاديث محمد نجيب وصوره (راجع مذكرات عبد اللطيف بغدادى) وفي ١٢ يناير ١٩٥٤ صدر قرار بحل جمعية الإخوان المسلمين (لم تكن قد حلت مع حل الأحزاب عام ١٩٥٣) وجرت اعتقالات واسعة لعناصر الإخوان . وساد التخبط والارتباك والمناورات عناصر قيادة ٢٣ يوليو . . بين العودة إلى الجيش ، وبين الحياة النيابية ، وبين تشكيل حكومة مدنية إلى اقتراح بمد فترة الانتقال إلى عشر سنوات ، وإلى اقتراح بإعفاء محمد نجيب وإعادةه دون سلطات . والصدام بين سلاح الفرسان والعناصر الأخرى من الضباط الأحرار . . إلى التظاهرات الشعبية الجارفة في ٢٨ فبراير ١٩٥٤ . ثم تجدد الاعتقالات في أوائل مارس للإخوان والشيوعيين والوفديين وأساتذة الجامعات والطلاب . ثم قرارات جديدة في ٥ مارس بشىء من الانفراج ، وبعدها قرارات هامة في ٢٥ مارس وبعدها النكوص على قرارات ٥ و ٢٥ مارس وعودة الرقابة على الصحف ، وتظاهرات مدفوعة الأجر ضد الحرية وضد الحياة النيابية وضد مجلس الدولة ، وضد الدكتور السنهورى .

ونقابة المحامين المعروفة بمواقفها المساندة لحرىات الشعب لم تكن بعيدة عن هذه الأحداث . واجتمعت الجمعية العمومية لنقابة المحامين بصفة غير عادية في ٢٦ مارس ١٩٥٤ وقررت المطالبة بعودة الحياة النيابية ، وحل مجلس قيادة الثورة وإعلان حكومة مدنية والإفراج عن المعتقلين السياسيين كافة . وردت قيادة ٢٣ يوليو بحل مجلس نقابة المحامين في ٢٢ ديسمبر ١٩٥٤ وتعيين « عبد الرحمن الرافعي » نقيبا وظل هذا المجلس المعين إلى أن أجريت انتخابات للنقابة في ١٣ يونيه ١٩٥٨ اسفرت عن مجلس جديده برياسة « مصطفى البرادعى » .

وسنة ١٩٥٨ صدر قرار جمهورى بتعيين « عبد الرحمن الرافعي » عضوا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية لمدة سنتين وتجدد التعيين مرة ثانية ، ومرة ثالثة حتى عام ١٩٦٤ . وخلال عضويته بالمجلس حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية سنة ١٩٦١ .

موقف سياسي

وأسلوب الرافعى فى تأييده لنظام جمال عبد الناصر هو الأسلوب نفسه الذى اتبعه عندما انحاز فى دفاعه عن الدولة العثمانية وعن مصطفى كامل ، وعن محمد فريد ، أسلوب واحد يركز الأضواء على الإيجابيات ويحرص على إخفاء كامل لكل السلبيات . رفع مصطفى كامل ومحمد فريد إلى مرتبة القداسة مع إخفاء كامل لكل السلبيات أو ما يشبه السلبيات .

هذا كان موقفه منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى اقعه المرض فى ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤ ، وتوفى إلى رحمة الله فى ٣ ديسمبر ١٩٦٦ . رجب بقانون الإصلاح الزراعى الذى صدر فى سبتمبر ١٩٥٢ لأنه (أوجد طبقة من صغار الملاك تجعل المجتمع اقرب إلى التوازن الاجتماعى وأبعده عن تسرب الشيوعية) . ورأى فى بعض التشريعات العمالية (خطوة هامة لمنع تسرب الشيوعية إلى العمال) .

وتراه عام ١٩٥٤ يؤيد المفاوضات مع الإنجليز ويرحب باتفاقية الجلاء فى أكتوبر ١٩٥٤ تلك الاتفاقية التى كان ضمن شروطها رجوع الإنجليز إذا ما تعرضت المنطقة إلى الخطر ، والتى اشترطت الإبقاء على عدد من الخبراء . وكانت هذه الشروط هى العقبة أمام حكومات ما قبل ١٩٥٢ فى مفاوضاتها مع الإنجليز . . والأهم من هذا فان العقبة الرئيسية أمام تلك الحكومات هى مسألة السودان ، ولولا مسألة السودان لأمكن لأى حكومة الوصول إلى اتفاق للجلاء مع الإنجليز وجاءت : حكومة ١٩٥٤ وفصلت المسألة السودانية . فكان من السهل الوصول إلى اتفاقية الجلاء . .

وعبد الرحمن الرافعى الذى بنى رصيده مع مدرسة الحزب الوطنى فى شعار (لامفاوضة إلا بعد الجلاء) والذى قال : (يجب أن يحل الجهاد والمطالبة محل المفاوضات . . المطالبة هى الحق الكامل . . أما المفاوضات فهى مساومة فى هذا الحق) واختفى هذا كله اثناء المفاوضات التى انتهت بإقرار الاتفاقية فى يوليو سنة ١٩٥٤ ، ثم الموافقة النهائية فى أكتوبر ١٩٥٤ ، ويصرح بأن الاتفاقية كسب كبير لمصر ، وأن الذين يعارضون هذه الاتفاقية غير مخلصين وهذا بذاته الذى فسر إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ (بان الوفد أراد ان يوارى سوء اخفاقه فى المفاوضات وتساهله فيها بعمل يكون له دوى وفرقة) .

وهو نفسه الذى هاجم أسلوب الكفاح المسلح (القوة المسلحة فى ذاتها ليست كل شىء . . وليست وسائل الكفاح فى العنف فقط وأنا لا أنادى به . .) وقال أيضا : (الصدام غير المسلح أقوى أثرا من أى سلاح ، ومن الوسائل المعروفة للصدام غير المسلح عدم التعاون مع المحتلين ومقاومتهم سلبيا . .) .

أما وقد اقبل « عبد الرحمن الرافعي » على نظام جمال عبد الناصر ، فمن الطبعياً أن يقبل النظام عليه . . فيتولى الرافعي رئاسة لجنة الآثار والتاريخ بالمجلس الأعلى للفنون والآداب لسنوات طويلة ، وصدر له (مقدمات ثورة يوليو ١٩٥٢) ثم (ثورة يوليو من ١٩٥٢ - ١٩٥٩) تركيزاً على الإيجابيات وإخفاء للسلبيات والحديث على استحياء شديد عن « محمد نجيب » .

ويتم اتفاق بين « كمال الدين حسين » و« عبد الرحمن الرافعي » لنشر مختارات من أعمال الرافعي ، وبترتيب مقصود يتقدم اسم « الرافعي » على الساحة أسماء مؤرخين لهم دورهم وأساتذة تاريخ لا يمكن إغفال ذكرهم أمثال : « سليم حسن ، ومحمد شفيق غربال ، وصبرى السربوني ، وعبد الحميد العبادي ، وعزيز سوريال عطية ، ومحمد فؤاد شكرى ، وحسن إبراهيم حسن ، وأحمد عزت عبد الكريم » مما جعل الكثيرين يطرحون منهج الرافعي في كتابة التاريخ للمناقشة العلمية . . هل هو مؤرخ أم هو جامع للوقائع التاريخية ؟ هل هو مؤرخ له منهج خاص به أم هو سياسى حزبى يكتب التاريخ من زاوية الحزب الذى ينتمى إليه ؟ هل هو مؤرخ أم هو محام يدافع عن قضايا حزبية ؟

وكانت هناك في هذا الشأن ملاحظات حادة :

في فترة سابقة اعترض على أن يتولى « حافظ رمضان » منصبا وزاريا لأن الاشتراك في الوزارة دعم للاحتلال ، وبالمنطق نفسه اعترض على اشتراك « محمد زكى على وعبد العزيز الصوفانى » في وزارة إبراهيم عبد الهادى ، (من ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ حتى ٢٥ يوليو ١٩٤٩) وبعدها قبل هو نفسه الاشتراك وزيرا للتموين في وزارة « حسين سرى » .

كتب عن (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية) وحرص على إخفاء أية سلبيات من شأنها أن تחדش تلك الصورة . . حتى ماسجله محمد فريد في مذكراته عن أسلوب مصطفى كامل . . (لا أدري إن كان الخديو دفع له مساعدة في هذا المشروع أم لا لأنه رحمه الله كان يخفى على كل مايتخصص بالمساعدات المالية التى كان يأخذها سواء من الخديو ، أو من السلطان عبد الحميد) . .

كتب عن (محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية) وحرص على إخفاء أية أخطاء سياسية أو شخصية . . وفي الوقت نفسه يندفع في الهجوم على « أحمد عرابى » إلى حد اتهامه بالخيانة ، ويهاجم الشيخ محمد عبده ، ويشكك في إخلاص قادة الوفد وفي وطنيتهم .

ويبقى السؤال هل هو مؤرخ له منهج علمى ؟

أصول الكتابة التاريخية

معلومة خطيرة . . قبل الحديث عن مواصفات الكتابة التاريخية ، والشروط التي ذكرها الرافعي نفسه وهل التزم بها أم لم يلتزم؟ نسجل هنا معلومة خطيرة أوردها الباحث الممتاز « د . حمادة محمود أحمد إسماعيل » في كتابه (صناعة تاريخ مصر الحديث - دراسة في فكر عبد الرحمن الرافعي وهو جزء من أطروحة الدكتوراه التي لم تنشر كاملة بعد ، وقد تفضل باهداء نسخة من الرسالة إلينا وعلى صفحة ٢٤٧ يشرح « الدكتور حمادة إسماعيل » الأسلوب الفني الذي يزعم أن الرافعي كان يلجأ إليه لإسقاط العبارات التي تشوه صورة من يدافع عنه عند نشر الوثائق الأصلية . . يقول د . حمادة : (لتنفيذ هذه المهمة كان يقوم بتصوير الخطاب الأصلي ، ويقوم بعد ذلك بتقسيم النسخة المصورة إلى شرائح ، ويقوم برفع ما يريد حذفه ثم يعيد ترتيب الشرائح ويقوم بإعادة التصوير من جديد) وفي الهوامش صفحة ٢٧٩ وأمام الهامش رقم ١٢٣ يقرر الدكتور حمادة (عثرت بين أوراق الرافعي على إحدى هذه المراسلات وقد قسمت إلى شرائح وهذا يؤكد ماقلناه في المتن) . انتهى ماقرره الدكتور حمادة على مسئوليته الأدبية والتاريخية والقانونية - إذا لزم الأمر - ونأتى إلى ألقايات الكتابة التاريخية كما قررها الرافعي نفسه : كان الرافعي على حق عندما قال : (المؤرخ يشبه أن يكون قاضيا في الحوادث التي يؤرخها وعليه ان يقتبس من القاضى روح العدل) ونحن على حق عندما نقول أن روح العدل لاتعنى إخفاء سلبيات الدولة العثمانية والحزب الوطنى وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ولاتعنى إخفاء إيجابيات أحمد عرابى والشيخ محمد عبده وسعد زغلول ومصطفى النحاس ، كان الرافعي على حق عندما قال : (لايجوز لمن يتصدى لكتابة التاريخ ان يدخل عنصر المجاملة فيما يكتب) ونحن على حق عندما نقول إن « الرافعي » جامل إلى أبعد الحدود مصطفى كامل ومحمد فريد وجمال عبد الناصر على حساب سعد زغلول ومصطفى النحاس حتى لتبدو كتاباته في هذا الشأن تصفية حسابات مع الوفد وقادة الوفد .

لماذا الخصومة ؟

عبد الرحمن الرافعي ابن مخلص للحزب الوطنى ، يميل حيث يميل ويكره حيث يكره وعندما بزغت قيادة جديدة للحركة الوطنية وقامت الثورة القومية الكبرى في ٩ مارس ١٩١٩ واندش لها « محمد فريد » وقادة الحزب الوطنى فى المنفى . . حدث نوع من التنسيق بين الحزب الوطنى والوفد داخل مصر . وانضم عبد الرحمن الرافعي وامين الرافعي إلى اللجنة المركزية للوفد . . وكان « عبد الرحمن الرافعي » ضمن مؤيدى نشر توكيل الأمة لسعد زغلول ، بل إنه كان ضمن مؤسسى لجنة الوفد بمديرية الدهلية واختاره « سعد » ضمن الجهاز السرى برئاسة عبد الرحمن فهمى ولكن

طابع الاعتدال غلب عليه فانسحب من الجهاز السرى وانسحب من اللجنة المركزية ، وابتعد عن نشاط لجنة الوفد في الدقهلية وقد لاحظ الدكتور حسين مؤنس في دراساته عن ثورة ١٩١٩ أن « عبد الرحمن الرافعى » استنكر العمل الفدائى إبان الثورة إلى درجة انه عند تسجيل أحداث الثورة قدم لها بقوله (وإنا مع استنكارنا لمبدأ الاعتداء وحوادثه - نذكر فيما يلى تسجيلا للوقائع التاريخية) وفى حديثه عن ثورة ١٩١٩ القى عبد الرحمن الرافعى مسئولية انقسام الوفد بعد الثورة على « سعد زغلول » وهو متأثر فى ذلك بموقف « محمد على علوبه » والذى عمل الرافعى فى مكتبه . أما فوزه بدائرة (مركز المنصورة) فى انتخابات ١٩٢٤ على مرشح الوفد بصوت واحد فهى قصة طريفة . والذى حدث ان (لجنة الطلبة) فى الدقهلية - وهى لجنة وفدية - أيدت ترشيح « عبد الرحمن الرافعى » ولكن الوفد رفض وأصدر قرارا بفصل جميع أعضاء لجنة الطلبة . ولكن فى انتخابات ١٩٢٦ تم تصحيح هذه الأوضاع وطلب الرافعى ان يترك له الوفد الدائرة ولكن الوفد رفض ويذكر الرافعى أن عددا من زملائه الذين هزموا فى الانتخابات قد توفوا إثر الصدمة وانه شخصيا تأثر نفسيا من موقف الوفد الذى أدى إلى هزيمته . ومن يومها وهو لا يكتفم عداؤه للوفد الذى تسبب فى هزيمته .

من هو ؟

فى ٨ فبراير ١٨٨٩ ولد « عبد الرحمن الرافعى » فى عطفة « أبو » داود بشارع درب الحصر حى الخليفة بالقاهرة . والده الشيخ « عبد اللطيف » من علماء الأزهر وتوفى والده فى ٢٤ يناير ١٩١٨ . أما والدته فهى السيدة « حميدة » كريمة الشيخ « محمود رضوان » من القاهرة وتوفيت فى ٢١ يوليو ١٨٩٣ وكان « عبد الرحمن » فى الرابعة من عمره وهو رابع أخوته الأشقاء « أمين » واحمد وإبراهيم وعبد الرحمن « كان أمين الرافعى الذى أصبح صحفيا شهيرا يكبره بثلاث سنوات وقد توفى فى (٢٩ ديسمبر ١٩٢٧) أما أحمد وإبراهيم فقد توفيا فى فترة باكرة .

وفى الإسكندرية حيث نقل والده نال الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠١ ، وفى المنزل رقم ٥٨ شارع قصر رأس التين بالانفوشى فى هذا المنزل فى أحد أيام صيف ١٩٠١ كان أخوه أمين يجره فى قفص من جريد ودخل من يخبره بنجاحه فى الشهادة الابتدائية ولأول مرة فى حياته يرى اسمه منشورا فى (جريدة اللواء) وهى المرة الأولى أيضا التى يرى فيها (اللواء) فتدخل إلى رأسه وإلى وجدانه معا ويظل مخلصا لقادة الحزب الوطنى وللحزب الوطنى حتى آخر لحظة فى حياته .

وبعد ان تخرج فى الحقوق التحق بهيئة تحرير اللواء وحضر ندوات اللواء واستمع لأحاديث مصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد لطفى وعمر لطفى وإبراهيم الهلباوى . وحضر ندوات نادى المدارس العليا ، وودعت البلاد « مصطفى كامل » إلى مثواه الأخير يوم ١٠ فبراير ١٩٠٨ وأقيم

حفلى تأبين فى ٢٠ مارس . وفى صباح ٢١ مارس ١٩٠٨ كان ظهور المقال الأول « للاستاذ عبد الرحمن افندى » وعلى مدى ٥٥ عاما امسك بالقلم ليكتب المقالات والرسائل لمحمد فريد وليكتب عن حقوق الشعب ونقابات التعاون الزراعية ، وتاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، وعصر محمد على وعصر إسماعيل ، والثورة العربية ومصطفى كامل ومحمد فريد ، ثورة سنة ١٩١٩ وفى أعقاب الثورة المصرية ، وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكتابه الأخير عن « جمال الدين الأفغانى » الذى ظهر سن ١٩٦٧ بعد رحيله .

ماذا بقى للتاريخ ؟

الذين يعارضون « عبد الرحمن الرافعى » كثيرون ونحن منهم ، إلا أن معارضيه ومؤيديه لم يستطع أحد منهم ان يفلى من تأثير كتابات الرافعى التاريخية . ومفردات تاريخية كثيرة أغفلها عن عمد أو عن غير عمد . . نعم . . ولكن سوف تظل المعطيات التى قدمها لأجيال الباحثين أهم المصادر فى تاريخنا الحديث . إن تأثير « الرافعى » على الفكر التاريخى المصرى يشكل تحديا هائلا أمام المدارس المصرية السياسية المختلفة لأن الخلافات بين تلك المدارس ومدرسة الحزب الوطنى كبيرة وسوف يظل كذلك . بلغ من تأثير كتاباته التاريخية أن نسى الناس أنه كان محاميا ، أو أنه كان وزيرا أو أنه كان من أوائل الدعاة إلى التعاون أو انه كان نائبا فى مجلس النواب أو فى مجلس الشيوخ . لقد بقى للتاريخ منه ما أراداه هو عن عمد أن يبقى فبقيت (الكتابات التاريخية) لأنه كان يرى (إن التاريخ مدرسة للوطنية) ولكن الوطنية عند الرافعى هى (الحزب الوطنى - مصطفى كامل ومحمد فريد) وهى بالقطع ليست مصر كلها . وهو ماختلف معه من البداية إلى النهاية وهذا حقنا مع رجل عظيم من مصر العظيمة .

الأسانيد :

- ١ - بهاء الدين علوان . . عبد الرحمن الرافعى .
- ٢ - د . حمادة إسماعيل . . أطروحة للدكتوراه لم تنشر كاملة بعد ، تفضل وأهدى إلينا نسخة منها - ظهر منها جزء بعنوان دراسة فى فكر عبد الرحمن الرافعى .
- ٣ - صبرى أبو المجد . . أمين الرافعى .
- ٤ - عبد الرحمن الرافعى . . مذكراتى .
- ٥ - د . وحيد رافت . . فصول من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

عبد الرحمن الشرقاوى



كان هذا الاستفتاء الباكي وراء نعش الشرقاوى هو فصل الخطاب فى اعتراف الكل بمكانته ، الحكومة وقادتها ، الحزب الحاكم وكباره ، أحزاب المعارضة وزعمائها ، زملاؤه فى الصحافة ، تلاميذه فى الثقافة والأدب ، رجال الدينين الإسلامى والمسيحى . . جاءوا يودعون الشرقاوى ويعتذرون له . . جاءوا يقولون ما قاله زميله وصديقه الوفى « عبد الوارث الدسوقي » يرحمنا الله . . ويرحم عبد الرحمن الشرقاوى الذى كان - فى العلم والأخلاق والجهاد - إماما . . مقبولا من الكل وانقل لكم الصورة كما وصفها « عبد الوارث » . . أرايتم إلى الكاتب والمفكر الإسلامى الكبير خالد محمد خالد يترك سرير مرضه ، ويسارع إلى جنازة عبد الرحمن الشرقاوى يبكى ، ويحمل نعشه على كتفه رغم العلة وتقدم السن ! والشيخ الكبير الدكتور السعدى فرهود الرئيس السابق لجامعة الأزهر وهو يؤم صلاة الجنازة والدموع تملأ مآقيه ؟ والشيخ الورع الدكتور محمد الطيب النجار رئيس جامعة الأزهر الأسبق ، وهو يمشى فى الجنازة أسيفا وقد اخضلت دموع لحيته الوقور؟ والشيخ المجاهد الدكتور عد المنعم النمر ، وهو يصحب عبد الرحمن الشرقاوى إلى قبره وينزل معه إلى لحده يسويه بيديه وهو يبكى ؟ وكثيرون غيرهم من علماء الإسلام ورجال الدين المسيحى وكلهم حزين عليه . . حزن أم مات وحيدها فى حجرها . .

* * *

محمد مهدي الجواهري الشاعر العراقي الكبير ، الذى كان رئيسا لاتحاد كتاب العراق ، ونقيا للصحفيين ، ويقيم منذ فترة خارج العراق بين الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية وأحيانا سوريا . . محمد مهدي الجواهري هذا ، فى فترة باكرة امتدح الملك « فيصل الثانى » بقصيدة مطلعها . .

ته يا ربيع بزهرك العطر الندى
وبصفوك الزاهى ربيع المولد
ونصدي للجواهري شاعر - لم يحفظ التاريخ الحديث اسمه أو لم يردده - بقصيدة مطلعها ،
ويعارضه فيها . .
صه يا ربيع فمن شفيحك في غد
فلقد صدأت وبان معدنك الردى
وكان « الجواهري » كلما اتخذ موقفا مغايرا لموقف إحدى المجموعات السياسية في العراق ،
أعادوا على مسمعه أو إلى عينيه قصيدته في مدح « الملك فيصل » وأخرجوا له ما يحفظونه في الجعبة
أو في الجراب . . ويعيدون ويزيدون . . الجواهري هو القائل في مدح أمريكا .
أمريك يا بنت كولومبس
لحبك وقع على الأنفس
وهو القائل في مدح نوري السعيد . .
عليك سلام أيها البطل الفرد
تطالعك البشرى ويخدمك السعد
وانقسمت الحركة الثقافية بل الحركة السياسية بأسرها في العراق حول (الخانة) التي يضعون
فيها « الجواهري » هل هي خانة الشعب أم خانة أعداء الشعب . . بيت واحد من قصيدة
(الشهيد) للجواهري كان يحسم الموقف . . ويصمت الجميع لأن الجماهير هي التي تردده
اتعلم أم أنت لا تعلم
بأن جراح الضحايا فم
وما حدث مع الجواهري في العراق حدث مثله مع « عبد الرحمن الشقراوى » في مصر مع فاروق
كبير هو أن الشقراوى لم يمتدح الملك ، ولم يمتدح أمريكا ، ولم يمتدح قرين نوري السعيد . . إلا
أنه كان له تاريخ طويل في الخلاف مع فصائل كثيرة . . ومع هذا فإن هذه الفصائل كافة أرسلت
أرفع مندوبيها لوداع الشقراوى في رحلته الأخيرة .

الخلاف مع اليسار واليمين

وعلى امتداد نحو أربعين عاما أصبح وراء الشقراوى مايمكن أن نطلق عليه (معارك
الشقراوى) وهى جزء لايتجزأ من تراثه الأدبى والفكرى . . ويمكن أن نقسم وجهات النظر
الخلافية إلى قسمين ، القسم الأول . . بينه وبين رفاق الدرب اليسارى وهو في حقيقته خلاف بين

فصائل اليسار ذاتها نتيجة لمعطيات جديدة على الساحة السياسية . القسم الثانى . . بينه وبين من أسماهم الصحفى الكبير « عبد الوارث الدسوقي » حملة التوكيلات والأقلام . . وذلك على صعيد دعوته إلى الإسلام الحق .

وإذا بدأنا بالقسم الثانى فأننى أترك الحديث للشيخ الدكتور « عبد المنعم النمر » - توسعت مداركه وقراءاته فى الإسلام وتاريخه ، وشده موقف أبى ذر الغفارى من المال وحقوق المواطنين وجد فيه ما يغذى نزوعه ودعوته لإنصاف المحرومين والمظلومين . . كما وجد فى القرآن ، وفيما كفله الإسلام لمجتمعه من تحقيق العدالة الاجتماعية فيه ، ما يمكن أن يكون بديلا لما جذب به إليه من شعارات الماركسية . . وأخرج للقراء بعد ذلك روائعه الإسلامية من تاريخ الأئمة ومواقفهم ، ثم أخيرا من تاريخ الراشدين بصورة مغايرة تماما للسرد التاريخى . . ولكنى مع ذلك لمست أن بعض من أعرفهم من علماء الأزهر لايزالون واقفين عندما عرفوه عن عبد الرحمن الشرقاوى فى مطلع حياته ، وتعاطفه مع اليساريين .

ونقترب من الصورة مع كلمات « عبد الوارث الدسوقي » على صعيد دعوته إلى العودة إلى الإسلام الحق كان طريقه مزروعا بالألغام مخفوها بالأعاصير راحوا يطرقون كل باب وبأيديهم خناجرهم المسمومة ، وفى قلوبهم ضغن وغل . . راحوا لشيخ الأزهر الراحل الإمام عبد الحليم محمود ليوغروا صدره ضد الشرقاوى قائلين له ، يا مولانا . . لم نكن نعلم أن الإمام الحسين شيعوى . .

ولكن عبد الرحمن يترك الفتنة تعربد حتى تسقط ، ويستمر فى الطريق الذى بدأه « محمد رسول الحرية » وختمه « الصديق أول الخلفاء » لايعبأ بمن كادوا ، ويأسى ويتألم لمن وقعوا فى الكمين ! عندما أثار قضية الثروة فى الإسلام ، وساق بصدها الأسانيد المعتبرة ، والأدلة المعتمدة من أئمة الإسلام الذين يرون رد فضول الأغنياء على الفقراء هبت عليه الرياح الصرصر العاتية تتهمه بالشيوعية فى هذه المرة ينحى عبد الرحمن الشرقاوى حلمه جانبا ويقول لهم ، أرجوكم جميعا أن تعودوا إلى تراثنا الخصب . . أرجعوا إليه لتجدوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد وضع قاعدة للبقاء . . لكل وسابقته . . لكل وبلائه . . لكل وحاجته . . وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : (ما اغتنى غنى إلا بفقر فقير) !! هما « عمر وعلى » شيعيان اذن ؟ . . عودوا إلى الإسلام الحق ، تجدوه أكثر تقدما من كل الفلسفات البشرية . . أم أنكم ستسلبون الإسلام محاسنه لتضيفوها إلى الشيوعية ؟ .

مشف شجاع

والشراقوى على امتداد مراحل الفكرية إذا صحت هذه التسمية كان مثقفا شجاعا على غير ما يظن الكثيرون . . نلقاه منذ البداية في (جماعة نشر الثقافة الحديثة) مع « سعيد خيال ، ومصطفى كامل منيب ، وأحمد رشدى صالح ، ونعمان عاشور ، وسعد مكاوى ، ومحمد إسماعيل محمد ، وأبو سيف يوسف ، وعلى الراعى ، وكانت تقف خلف الجماعة حلقة صغيرة من الماركسيين الأجانب والمتمصرين .

وهذه الحلقة الماركسية هي التي أصدرت مجلة (الفجر الجديد) ويقول « أحمد صادق سعد » في كتابه (اليسار المصرى) على صفحتى ٥٠ ، ٥١ : (صدرت مجلة الفجر الجديد في ١٥ مايو الصحيح ١٦ مايو) ١٩٤٥ كمجلة نصف شهرية ثم تحولت إلى أسبوعية بعد ذلك ، وتعاون في التحرير معنا على الراعى ونعمان عاشور وعبد الرحمن الشراقوى ثم تفرغ لها أبو سيف يوسف . . ومن مميزات الفجر الجديد أنها لم تكن مجلة فقط ، بل مركزا للجذب فقد اهتمت بنشر رسائل القراء والاتصال بهم : ويقدم لنا د. على شلش بيانا موجزا ودقيقا عن مجلة الفجر الجديد في كتابه (دليل المجلات الأدبية) : تاريخ صدور العدد الأول ١٦ مايو ١٩٤٥ ، وتاريخ صدور العدد الأخير ١١ يوليو ١٩٤٦ (تاريخ حملة صدقي باشا) ورئيس التحرير . . أحمد رشدى صالح . . والكتاب : عبد الرحمن الشراقوى ، لطيفة الزيات ، نور الشريف ، على الراعى ، زكى هاشم ، سعد مكاوى ، نعمان عاشور ومحمد عبد المعز نصر ، يوسف الشارونى ، سعيد خيال ، صفية ربيع ، أبو سيف يوسف ، أنور شتا ، أسعد حليم ، محمد خليل قاسم ، صادق سعد ، عبد القادر القط ، محمد إسماعيل محمد ، عبد القادر التلمسانى ، عبد العزيز فهمى ، كمال عبد الحليم ، أنور المشرى ، أنور عبد الملك ، محمود الشنيطى ، لطفى عزوز ، عز الدين فوده . .) .

وفي كتابه (الصحافة اليسارية في مصر) يكمل لنا « د. رفعت السعيد » الصورة : (لأن عدد محررى الفجر الجديد كان في بداية الأمر محدودا جدا فقد اضطروا إلى أن يكتب الواحد منهم أكثر من مقال في العدد الواحد ، واضطروهم ذلك إلى التوقيع في أحيان كثيرة باسماء مستعارة . . فمثلا كتب « محمد إسماعيل محمد » باسم إسماعيل يحيى ، وكتب « أبو سيف يوسف » باسم رأفت يوسف ، وكتب « على الراعى » باسم على الكاتب ، وكتب « أحمد رشدى صالح » باسم أحمد سعيد) .

المهم أن « عبد الرحمن الشراقوى » لمع منذ العدد الأول بقصيدة عنوانها - الفجر الجديد . . وقعها باسمه كسائر قصائده . . ومطلعها . .

يارفاق المجد قد عشنا إلى الآن حيارى

انها الحرية الكبرى . . جعلناها المنار

كان مثقفا شجاعا ونحسبه قد ظل هكذا فى كل ماكتب بعد ذلك لأن الشجاعة ليست مقصورة على مواجهة السلطان ولكنها أيضا فى مواجهة رفاق الدرب .

العمل الجبهوى

وشهدت الفترة الأخيرة من حياته خلافات سياسية كبيرة بينه وبين رفاق الدرب ، وكانت أكثرها حدة حول دعوته إلى (الجبهة) لمواجهة أزمات الوطن . .

وجرت سطور من الرفاق تحاول أن تنال منه . . قالوا إن دعوته إلى (الجبهة) تعود إلى أيام السادات سنة ١٩٧٩ ويسألون عما دار بينه وبين « الرئيس مبارك » وربطوا بين مقابلاته للرئيس وبين دعوته للجبهة . . وجرت السخريه من (الجبهة الشراوية) وليس أقسى على المثقف من التعريض بشرف كلمته ، وليس أقسى على المناضل من تشويه تاريخه . ووجدت نفسى مضطرا إلى الكلام حتى أدفع عن « الرجل » الاتهام بالخوف أو التواطؤ . . واضطرت إلى إخراج بعض ماهو مكتوم فى الصدور ، والذى أحرص على كتابته مادام أصحابه أحياء أو مادمت حيا . . ونشرت مقالا فى جريدة الأخبار فى ٢٥ سبتمبر ١٩٨٥ بعنوان (اذهبوا إلى الأزهر وأعلنوا الجبهة) . . وجاء فى مقالى ذاك :

أعود إلى بدايات ثورة ٢٣ يوليو والخوف على الديمقراطية وعلى حرية الكلمة ، وعلى حقوق الإنسان المصرى . . كنا ثلاثة . . عبد الرحمن الشراوى ، ومحمد إسماعيل محمد وكاتب هذه السطور . . فى بيت محمد إسماعيل محمد وضعنا الخطوط العريضة لجبهة تقف فى وجه الاستبداد الزاحف ، وفى وجه الديكتاتورية . . كانت هذه الجبهة التى دعونا إليها مواجهة فى الأساس ضد السلطان . وكان الشراوى بذاته هو واضع عباراتها المحددة وليست العامة . .) .

كانت هذه سطورا من مقال الذى اضطرت إليه ، وأعود اليوم فأكمل ما لم اكتبه . . كانت مهمة الشراوى أن يجذب إلى هذا العمل السرى الموجه ضد سلطان ذلك الزمان عددا من الشخصيات العامة ، وكانت مهمة « محمد إسماعيل محمد » الحوار مع المنظمات اليسارية السرية ، وكان دورى هو الحوار مع الأصدقاء من شباب الوفد . . وبدأ العمل وأصدرنا نشرة باسم (الجبهة) . وفزعت أجهزة السلطان ولكنها لم تصل إلى الشراوى ولا إلى محمد إسماعيل . . وفى صيف ١٩٥٣ دخلت أنا السجن لأقضى فيه ٥ سنوات . وطويت السر فى صدرى إلى أن حاول

البعض أن يمس الشرقاوى فى شرفه الوطنى فكتبت ما كتبت بعد مضى ٣٢ سنة وخشيت أن أكون قد سببت حرجا للشرقاوى إلى أن جاءنى صوته شاكرا ويرفع عنى الحرج فيما اضطرت إليه . . وأظن أن ما يتعرض لعمل سرى فى عهد عبد الناصر وضد نظامه ليس من السهل أن يتهم بالتواطؤ فى عهود أخرى .

الرفاق والفتى مهران

وكان عاما ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ هما عاما الأزمة بين الثورة وقادتها من جانب ، وبين الجماهير الشعبية من جانب آخر . . فالأحزاب قد حلت ، والدستور قد ألغى . والمعتقلات تستوعب غالبية القوى السياسية ، والصراعات قد تفجرت داخل صفوف الثوار أنفسهم . . ولكن تغيرات أخرى تحت السطح لايتبينها الكثيرون . . عبد الناصر يشتد فى العداء مع القيادات العربية الرجعية ، وتقارب خفى يحدث مع الصين الشعبية . ونفور بين مصر وبين الدول العربية التى تدعو لحلف بغداد . . وإذا بعبد الناصر فى أبريل من عام ١٩٥٥ مع نهرو وتيتو فى باندونج ودعوة إلى المبادئ الخمسة وحركة إلى حياد إيجابى . . وإذا بالشرقاوى يفاجئ الجميع بكتابات ذات الأسلوب الرفيع عن السلام وباندونج . . ويقف إلى جانبه البعض فى حرص وحذر ويهاجمه الآخرون فى بذاة وقحة . ومن يراجع اليوم الأسانيد التى يسوقها هؤلاء الذين تحولوا إلى الدفاع بحماسة عن « عبد الناصر » فإذا هى تلك التى تحدث بها الشرقاوى منذ عشرين عاما . . وهاجموه بسببها !

وبفعل التغيرات الموضوعية والذاتية داخل المجتمع وداخل فئات الثورة نفسها اتجهت الثورة إلى مايشبه سحق القوى السياسية الأخرى والقضاء عليها ليتأكد لقيادة الثورة الحكم المطلق . . كان ذلك فى منتصف الستينات . . وظهرت مسرحيته (الفتى مهران) وإذا برفاق الأمس ينبهون الثورة وأجهزتها إلى إحياءات يلقي بها الشرقاوى فى أعماله الأدبية ، وذلك على اعتبار أن الشرقاوى لم يدخل فى الحلف الجديد بين الفصائل الماركسية التى حلت نفسها وبين تنظيم الاتحاد الاشتراكى لدعم ما أسموه التنظيم الواحد للثورة .

وكان من الطبيعى جدا ان يقف « الشرقاوى » مع السادات فى مايو ١٩٧١ كما وقفت معه قطاعات عديدة من الشعب التى وجدت فى الصراع بين السادات وبين أجهزة عبد الناصر فرصة للتخلص - ولو إلى حين - من التنظيم الواحد ومن عناصر القهر .

واترك له هذه السطور، من هو ؟ يقدم نفسه . . كما جاءت فى رائعته (من أب مصرى إلى الرئيس ترومان) على اننى قد أطلت الحديث ولم تدر ياسيدى من أنا ولكن أنا . . أنا من أنا ؟

ولدت لعشرين عاما مضت على مطلع القرن ياسيدى .

ولما كبرت لبست الحذاء ووليت وجهى إلى القاهرة .

فأبصرت من تحت ثقل السلاح وجوههم الجهممة الجائرة

فتصرخ ويلي من الانجليز

وندرس (جغرافيا) ذات عام ، ونعرف مناخ الدول والملح (أطلس) دولة من فوقها جمة
تشتعل ولمارجعت إلى قريتى سألت أبى (من هم البلشفيك : ؟ ولكننى رغم طول الحديث
ووعثانة لم أقل من أكون .

ولست بشيء جليل الخطر !

فدعنى أقل لك إنى أب . . أب ليس غير ولى طفلة كاتتلاف الصباح .

الأسانيد :

١- أحمد صادق سعد . . اليسار المصرى (٤٥ - ١٩٤٦) .

٢- جلال السيد . . جريدة الجمهورية ١١ / ١١ / ١٩٨٧ .

٣- د . رفعت السعيد . . الصحافة اليسارية فى مصر .

٤- د . عبد المنعم النمر . . جريدة الأخبار ١٥ / ١١ / ١٩٨٧ .

٥- عبد الوارث الدسوقي . . جريدة الأخبار ١٣ / ١١ / ١٩٨٧ .

٦- د . على شلش . . دليل المجلات الأدبية .

٧- مصطفى عبد الغنى . . الشراوى متمردا .

عبد الرحمن فهمى



دار الأدباء ١٠٤ شارع قصر العينى ، على يمين القادم من ميدان التحرير . . وإلى يسار الداخل إلى الدار باب صغير أسفل المبنى يؤدي إلى دور سفلى أو (البدروم) كان أيام الأديب الراحل « يوسف السباعى » مؤثنا بأسلوب يليق بأدباء مصر وبضيوفهم من الأدباء العرب والأجانب .

فى هذا البدروم المؤث بطريقة فاخرة كان أدباء مصر من شعراء وروائيين وكتاب القصة والمسرحية ، ومن نقاد ومفكرين ومثقفين . . كانوا يلتقون ويثرثرون ويختلفون ويتفقون وترتفع أصواتهم ويهمسون ويتجادبون أطراف الحديث من كل بلد وعن كل أديب ، وعن كل أدب ، ومن كل عصر . . وفى يد كل منا كتاب جديد أو مشروع كتاب أو مجلة أو مشروع مقال . . وكل منا يظن أنه أتى بما لم يأت به الأوائل . هكذا كان الحال ، قبل أن ينتقل النشاط إلى مقر اتحاد الكتاب فى ١١ شارع حسن صبرى بالزمالك ، كان السامر ينعقد مع بداية المساء وينفض عندما يتصفى الليل أو يكاد .

فى هذا المبنى ١٠٤ شارع قصر العينى بالقاهرة . . كان شباب فى مصر منذ حوالى ثلاثة أرباع القرن يدخلون متستريين بالظلام ، ويدلفون صامتين إلى البدروم ، ويتحدثون هامسين إلى أن يهبط إليهم من الأدوار العليا رجل يقيم هو وأسرته وأولاده - رجل قال عنه سعد زغلول بالحرف الواحد « عبد الرحمن فهمى رجل كبير فى مركزه الماضى والحاضر ، وهو فى طليعة الرجال الأكفاء العاملين فى مصر ، وهو المنظم لسير الحركة الوطنية والمنفذ لرغباتنا وقراراتنا بصفتة السكرتير العام لهيئة الوفد المركزية والقبض عليه أن هو إلا طعنة بريطانية تشل الحركة الوطنية فى مصر . .

الجماعات السرية

وفي الحديقة الصغيرة خلف البيت ، وفي طرقاته الخارجية وممراته كان اللقاء الطبيعي لأخطر جهاز سرى للوفد ولثورة ١٩١٩ كانت الجماعات السرية تجتمع في البدروم ، وفي طرقات الفناء الخارجى يلعب ويمجى ويصرخ ويتشاجر أولاده . . كمال فهمى (المرحوم مهندس) ومراد فهمى (المرحوم) والذى أصبح وزيرا للأشغال بعد ٢٣ يوليو ومحى الدين فهمى (المرحوم) الذى عمل سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء فى وزارة من وزارات ابن عمه « على ماهر » قبل ٢٣ يوليو . . وأصغرهم الزميل والصدى « صلاح فهمى » المدير العام الآن بالجهاز المركزى للمحاسبات .

الأولاد وأقرانهم يلعبون خارج الدار وفى الداخل يضع « عبد الرحمن فهمى » أسس أخطر جهاز لمخابرات الثورة ، ويجمع بكل جماعة سرية على حدة ، وكل جماعة لا تعرف الجماعة الأخرى . . وعرف « عبد الرحمن فهمى » هو وابن أخيه « أحمد ماهر » أسلوب الكتابة بالخبر السرى . . وفى هذا البيت الوطنى التقى أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وإبراهيم عبد الهادى والشيخ القايتى وأصغرهم كان الشيخ عبد اللطيف دزاز . . ثم الشاب القبطى « عريان يوسف سعد » وله حكاية يجدر ان نحكيها لشباب مصر هذه الأيام .

فى ٢١ نوفمبر ١٩١٩ أسندت رئاسة الوزارة إلى « يوسف باشا وهبة » وهو من القبط وكان وزيرا فى وزارة محمد سعيد المستقيلة ، وقد اختار الإنجليز هذا القبطى رئيسا للوزارة بهدف شق الصف الوطنى بقيادة الوفد ، ولكن قومة القبط العنيفة الشرسة ضد يوسف وهبة أفسدت مخططات أعداء الوطن ، وعقد الأقباط اجتماعا بالكنيسة الكبرى ، وخطب فيهم « القمص سرجيوس وتوفيق حبيب » وأرسل المجتمعون برقية ليوسف وهبة (الطائفة القبطية تحتج بشدة على شائعة قبولكم الوزارة ، اذ هو قبول للحماية ، ول مناقشة لجنة ملنر ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الأمة المصرية . . نستحلفكم بالوطن المقدس وبذكرى أجدادنا العظام أن تمتنعوا عن قبول هذا المنصب الشائن) .

وهنا يتقدم الوطنى العظيم « عبد الرحمن فهمى » وقد ذهب إلى الكنيسة فى ٢٣ نوفمبر يشارك الأقباط فى تألمهم ويقول إنه إذا وجد بين الأقباط خائن قبل الوزارة ، فيوجد سبعة من المسلمين اشتركوا معه فى الوزارة . . وإنه لن يحدث شقاق بين المسلمين والأقباط لسبب قبول « يوسف وهبة » تشكيل الوزارة .

وهنا أيضا يتقدم الشاب القبطى عضو الجهاز السرى الذى يرأسه « عبد الرحمن فهمى » يتقدم « عريان يوسف سعد » بن « يوسف بك سعد » من أقباط ميت غمر ويتربص فى مقهى (ريش)

فى شارع سليمان باشا ، يتربص لسيارة « يوسف وهبه » ويلقى على موكبه قنبلتين انفجرتا وأخطأناه ، ويقبض على الشاب القبطى وهو يهتف (يحيا الوطن) ولم يتكلم « عريان » بكلمة واحدة وان كان البحث قد كشف عن شريكين له هما « تادرس المنقبادى وجورج شحاته » وحكم على « عريان » بالأشغال الشاقة عشر سنوات . وقد تطوع « عريان » لاغتيال « يوسف وهبه » حتى لايساء استخدام الحادث ان أقدم عليه وطنى مسلم وهو أمر وارد ازاء الخروج على الصف الوطنى بغض النظر عن الانتماء الدينى ، رحم الله رجال زمان ، ورحم الله شباب زمان وحفظ الله أرض الكنانة من كل سوء .

ضرب التنظيم السرى

ونعود إلى أول يوليو ١٩٢٠ ، وسعد باشا وعدد من أعضاء الوفد فى لندن للمفاوضات مع « ملنر » وتصل برقية إلى سعد باشا من « مصطفى النحاس » بالقاهرة تحمل أبناء القبض على « عبد الرحمن فهمى بك » السكرتير العام للجنة الوفد المركزية والشخصية القوية الممتازة المنظمة للحركة الوطنية فى مصر .

ويقول « محمد كامل سليم » سكرتير « سعد زغلول » وقع الخبر كالصاعقة على « الرئيس سعد » وانتشر فى جو حجرة الاجتماعات غضب وغیظ وسخط . . وبعد قليل وردت برقية أخرى تحمل أخبار القبض على عدد من معاونى « عبد الرحمن فهمى » من الشباب .

إبراهيم عبد الهادى طالب الحقوق ، ومحمد عبد الرحمن الجدیلی خريج مدرسة القضاء الشرعى ، عبد الحليم عابدين طالب حقوق ، على هنداوى طالب بالأزهر ، حسنى الششتاوى طالب ثانوى ، توفيق صليب طالب بمدرسة الأقباط ، محمد حلمى الجيار طالب طب ، وكامل أحمد ثابت خريج الحقوق ، وكامل جرجس عبد الشهيد طالب بالحقوق ، ومحمود عبد السلام مدرس ، ومحمد إبراهيم سليمان طالب بمعهد الإسكندرية ، وياقوت عبد النبى ، وعبد العزيز حسن هندی الطالبین فى الثانوى ، وقریاقص میخائیل صحفى ، ومحمد حسن البشیشى المحامى ، ومحمد المصیلحى طالب بالجامع الأحمدي ، وعازر غبريال ، وناشد غبريال ، وأنیس سليمان عامل بالسكة الحديدية ، وصالح شلبى ، ومحمد الميرغنى النجار ، وحافظ محمود ومنير جرجس عبد الشهيد طالب بمدرسة الأقباط ، ومحمد سامى سكرتير الأمير محمد داود ، ومحمد لطفى المسلمى .

ورحم الله من رحل من هؤلاء الأبطال ، وأمد الله فى عمر من يكون باقيا منهم على قيد

الحياة . . ودعونا نتأمل هذه الأسماء . . من نعرف منهم ، وما أخبارهم . . أنا شخصيا وجبلى كله بالطبع عرف إبراهيم عبد الهادى (رحمه الله) وقد وصل إلى منصب رئاسة الوزارة . . وقرأنا عن «توفيق صليب» والد زميلنا الصحفى «سمير توفيق» بالأخبار ، وسمعنا عن «قرياقص ميخائيل» الصحفى الذى استقر به المقام فى لندن ومات هناك . . أكثر من هؤلاء لا أعرف . . ولكن ماذا يضير هؤلاء الأبطال الوطنيين إذا كنت أعرف أو لا أعرف . . الله يعرفهم أبطالا . . وسعد باشا كان يعرفهم كزعيم لهذه الأمة وعبد الرحمن فهمى كان يعرفهم عناصر صلبة فى كتائبه السرية .

وسكت الأعضاء وكان على رؤوسهم الطير ، ثم كان أولهم فى الكلام «حمد الباسل» الذى قال : «إن الرئيس على حق فيما يرى ويشعر به . ولكنه يرى قبل اتخاذ أى قرار أن يتفضل عدلى باشا فيقابل ملنر ويفهم الموقف جيدا» .

وقال عدلى . . يحسن التريث قليلا فقد يأتى الغد بجديد ، وقال أحمد لطفى السيد وعلى ماهر ومحمد على علوبة ومحمد محمود والمكباتى وعبد العزيز فهمى . . قالوا إن الوفد وصل إلى مرحلة دقيقة نهائية فى المفاوضات ويحسن التريث وعدم قطعها وقال عدلى إن ملنر يجب أن يأخذ الزمن الكافى ليصلح ما إفسده غيره !

وقال «سعد» إن ملنر من غير شك يعرف كل شىء حتى قبل ان يقع القبض فى أول يوليو وقال «محمد محمود» إن السياسة تقضى بالمعاملة وحسن المعاملة . وقال له سعد لا أقبل أن تكون ناصحى بطريقة عامة . . وضع ما تريد . . قال محمد محمود . . كلا . . هذه فكرة عامة طرأت على .

وقال «سعد» بعد انصراف الجميع : لا يتأتى لضعيف أن يبث روح الثورة . . لقد ضاق صدرى من أحوال هؤلاء الذين قضت الظروف القاسية أن يكونوا زملاء لى فى عمل لا هم يليقون به ولا لهم قابلية للقيام به فضلا عما عندهم من غرور عجيب . .

ويذكر التاريخ ان عدلى ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيد ، وعلى ماهر ، ومحمد على علوبة ، كل الذين نصحوا «سعدا» بالتريث وبالمعاملة وبحسن المعاملة ، وبعدهم قطع المفاوضات احتجاجا على اعتقال عبد الرحمن فهمى وأخوته هم جميعا الذين خرجوا على «سعد» وانقسموا على الوفد بعد ذلك ، ورفعوا شعار المحاسنة والملاينة .

صحيفة الشرف

وبدأت محاكمة « عبد الرحمن فهمى » وزملائه يوم الثلاثاء ٢٠ يوليو ١٩٢٠ بتهمة انشاء جمعية سرية باسم (الانتقام) تعمل على خلع السلطان « أحمد فؤاد » وفى واقع الأمر كان الإنجليز يخشون دور عبد الرحمن فهمى فى تحريك ثورة جديدة بعد فشل مفاوضات الوفد مع « ملنر » فى لندن ، وانتهت المحاكمة فى ٦ أكتوبر ١٩٢٠ « ومن أبرز المحامين المصريين الذين دافعوا عن عبد الرحمن ومجموعته «مصطفى النحاس بك» وكامل البندارى ، وتوفيق دوس ، وأمين يوسف» .

وأصدرت المحكمة أحكامها بالإعدام على « عبد الرحمن وحامد محمد المليجى ، ومحمود عبد السلام ، ومحمد يوسف ، ومحمد حسن البشبيشى ، ومحمد لطفى المسلمى ، وعلى هندأوى ثم خفف الحكم إلى السجن ١٥ سنة » .

وصدرت أحكام بالسجن لمدد مختلفة على « حسن الشتناوى ، وتوفيق صليب ، وإبراهيم عبد الهادى ، وكامل جرجس عبد الشهيد وعبد الحليم أحمد عابدين ، ومحمد إبراهيم سليمان ، ومحمد عبد الرحمن الجدبلى ، وصالح حسن شلبى ، وحافظ محمد عواد ، وعازر غبريال ، ومحمد المصيلحى ، ومحمد سامى ، وياقوت عبد النبى وعبد العزيز هندأوى ، ومحمد حلمى الجيار » طبيب الله ثرى من رحل من هؤلاء الأبطال وأمد الله فى عمر من لم يزل منهم على قيد الحياة .

وفى عهد حكومة الشعب ، أول حكومة وفدية برئاسة « سعد زغلول » يناير ١٩٢٤ صدر قانون بالعفو عن هؤلاء الأبطال .

ويبدو أن العلاقة بين « عبد الرحمن فهمى » و«مصطفى النحاس » كانت وثيقة فى تلك الفترة . . فيسجل عبد الرحمن فى مذكراته -الكراسة الأولى ص ٢٢ :

(لما خرج عضوا الحزب الوطنى الأستاذان محمد زكى على بك ومصطفى الشوربجى غاضبين . . يقصد من اجتماع لهما مع سعد باشا - عرضت على سعادة زغلول باشا بان المصلحة تقضى بأن يكون الحزب الوطنى ممثلا فى الوفد المصرى وقلت له . . أعرف شاين معتدلين من هذا الحزب هما ١ - مصطفى بك النحاس القاضى الأهلى . ٢ - الدكتور حافظ بك عفيفى طبيب جمعية رعاية الطفل فاستدعاهما سعد باشا وبعد أن أنس فيها خيرا اجتمع الوفد المصرى وقرر ضمهما إليه ورقما ١ ، ٢ وردا هكذا بالمذكرات .

مثال آخر . . ملف ٧ ص ٤٣٢ . . (ظلت المحكمة العسكرية تنعقد منذ ٢٣ مايو ١٩١٩ وحكمت بالإعدام على كل من أمين عبد القادر ، وعبد السيد شحاته ، وعبد الله أبو زيد ،

وبالاشتغال الشاقة المؤبدة على أمين الريدى ، وبالسجن ١٥ سنة على بدوى الديب) وكانت هذه الأحكام بسبب الأحداث التى وقعت فى الواسطى وقتل فيها أحد الموظفين الانجليز « أرثر سميث » .

الشائدائما

عبد الرحمن فهمى الضباط بالجيش المصرى بمنطق ذلك الزمان شارك فى الحملة التى قادها «كتشنر» القائد العام للجيش المصرى سنة ١٨٩٨ إلى السودان وظلت له علاقات بقيادة الحركة الوطنية السودانية تدعمت بعد ثورة ١٩١٩ .

وعمل مديرا للجيزة سنة ١٩١١ ولأعماله الوطنية المبكرة أصر مستشار الداخلية الانجليزى على إبعاده عن مديرية الجيزة فنقل إلى (وكالة الأوقاف) فى أواخر سنة ١٩١١ وكانت الأوقاف تابعة للخديو عباس فوقع الصدام بين الخديو وعبد الرحمن فهمى فأصدر الخديو عباس قرارا باحالة «عبد الرحمن فهمى» إلى المعاش فى ١٩١٣ لأنه وقف فى وجه السراى التى أرادت الاستيلاء على أرض الأوقاف فى « المطاعنة » .

وقد كتب مذكراته بخط واضح منسق وجميل أيضا ، والباحث لا يجد صعوبة فى مطالعته على عكس ما عليه الحال فى مذكرات سعد . .

وفى يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ قامت مجموعة من الشباب باغتيال « السردار » سيرلى ستاك واتهم فى هذا الحادث « عبد الفتاح عنایت ، وعبد الحميد عنایت ، وإبراهيم موسى ، ومحمود راشد ، وراغب حسن ، وعلى إبراهيم ، وشفيق منصور ومحمود إسماعيل » وكانت الأنظار قد اتجهت إلى « عبد الرحمن فهمى » فأعيد اللقاء القبض عليه مع آخرين ولكن لم تثبت أية صلة له بالحادث .

وإذا كانت المذكرات تعد من ناحية التقويم العلمى (يوميات سياسية) فإنها لدقتها ذات فائدة تاريخية كبرى بالنسبة للمرحلة الثورية ودور الفئات المختلفة فى الثورة . . ولم يغفل تسجيل دور المرأة المصرية فى الحركة الوطنية . . ودور العمال ودور الطلبة .

وهو بكل المقاييس أهم من سجل وقائع ثورة ١٩١٩ . . وكانت حياته كما قلنا من قبل سلسلة متصلة من المواقف المناضلة .

والرواية الراجحة تقول إن « عبد الرحمن فهمى » ولد بالقاهرة فى ٣٠ مارس ١٨٧٠ ، وتخرج فى

المدرسة الحربية سنة ١٨٨٨ وعمل ياورا لوزير الحربية « مصطفى فهمى باشا » ثم نقل إلى خدمة البوليس سنة ١٩٠١ ، وكما ذكرنا من قبل عمل مديرا للجيزة سنة ١٩١١ ، ولصدامه مع الخديو صدر قرار باحاليته إلى المعاش مبكرا جدا سنة ١٩١٣ . . وحسب رواية ابنه الصديق « صلاح فهمى » فإن عبد الرحمن فهمى توفى إلى رحمة الله فى ١٣ يوليو سنة ١٩٤٦ .

والراجع ان « عبد الرحمن فهمى » كان متأثرا بموقف « سعد زغلول » و« أحمد فتحي زغلول » المساند لدعوة « قاسم أمين » إلى أن يكون للمرأة دور فى تقدم البلاد ونهضتها ، وهو الرأى الذى كان يخالفه « مصطفى كامل » وفريق كبير معه .

والراجع أيضا أن جمعياته السرية لم يكن ضمن أعضائها نساء . . ولكنه فى مذكراته سجل دور المرأة فى الحركة الوطنية التى كان يقودها « سعد باشا » وفى تقريره الذى قدمه إلى الوفد فى ١٧ يناير ١٩٢٠ يقول : (قامت بعض النساء المصريات بعد ظهر أمس بمظاهرة لطيفة قامت من ميدان المحطة إلى لوكاندة شبرد . وهناك هتفن لسينوت حنا بك المقيم بها وللوفد المصرى ورئيسه وللإستقلال التام ولجريدة مصر . ولما وقع نظر السيدات على بعض الضباط الانجليز أخرجت كل واحدة من تحت إزارها علما مصرىا وصحن بأعلى أصواتهن . . تحيا مصر حرة مستقلة ، يحيا الإستقلال التام ، يحيا الوفد المصرى ، يحيا سعد باشا زغلول . . يسقط ملتر ، لتخسف الأرض بملتر . . وكانت المظاهرة على الأقدام

سعد وعناصر المهادنة

وقبل أن نتحدث عن قضية البطل « عبد الرحمن فهمى » وعن معاونيه من الجماعات الوطنية السرية . . يجدر أن تعرف تأثير هذه القضية على أعضاء الوفد فى لندن . .

كان أشد الناس غضبا وسخطا وحزنا وغيظا وانفعالا نفسيا عنيقا هو الرئيس « سعد زغلول » والأعضاء يحاولون تهدئته وهو لا يهدأ بل يزيد انفعالا ويقول « لابد من قطع المفاوضات فورا احتجاجا » ولكن اخوانه ينصحونه بالترىث والانتظار حتى تنجلي السحابة ويعرف الوفد مزيدا من المعلومات .

ويصرخ سعد باشا . . إن الانجليز يريدون أن يذكرونا ونحن فى لندن أنهم مسيطرون على مصر سيطرة تامة . . إن الانجليز يريدون أن يفهموا المصريين عامة والوفد خاصة أنهم لا يكترون بهم ولا يعيئون بغضبهم أو رضاهم . . إن الانجليز يريدون التأثير على سير المفاوضات .

الرئيس سعد مدرك لأسلوب الانجليز ومدرك أيضا لقيمة رجاله معاونين له وفى مقدمتهم « عبد الرحمن فهمى » .

وفي ٢ يوليو ذهب « سعد وعدلى » لمقابلة « ملتر » وكان الرئيس متجهما ثم قال للملتر . . ما هذا الذى ترتكبه فى مصر ؟ . . ماذا لديك من معلومات ؟

وقال ملتر . . إنه يجهل كل شىء وإنه أسرع بإرسال برقية إلى النبى يطلب منه التفاصيل الكافية (ملتر كاذب فى هذا الذى قال) .

وفي ١١ يوليو دعا الرئيس سعد أعضاء الوفد للاجتماع به فى الساعة ١١ صباحا فحضر جميعا وحضر معهم عدلى ، وقال الرئيس إنه تلقى برقية من « مصطفى النحاس » من القاهرة عن الإجراءات التعسفية القاسية التى اتخذتها السلطات العسكرية البريطانية ضد « عبد الرحمن فهمى » وإخوانه . وإن النحاس وزملاءه المحامين منعوا من مقابلة المتهمين المسجونين سجننا انفراديا ، واقترح « سعد باشا » ان تقطع المحادثات مع لجنة ملتر والعودة فورا إلى باريس .

وكان « مصطفى النحاس » وعدد من الشباب الوطنى قد سعوا إلى مقابلة « سعد باشا » يحدثونه فى قيادة الحركة الوطنية ولكن الزعيم كان حذرا فى حديثه معهم فتوجهوا إلى عبد العزيز باشا فهمى « ليحث « سعد باشا » على قيادة الحركة ، ولما أطمأن « عبد العزيز باشا » لهم أفصح لهم بما يطمئنهم وبأن « سعد باشا » يعد فعلا لهذا الأمر عدته ، وأوصاهم بالكتمان الشديد . . وبعدها كانت مقابلة سعد وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى لممثل الاحتلال الانجليزى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٧ ، كان « سعد » قد رأى « مصطفى النحاس » من قبل فكانت مهمة « عبد الرحمن فهمى » سهلة فى تركيته للانضمام للوفد .

المذكرات

وعبد الرحمن فهمى لايشفى غليل الباحث حول (الجماعة السرية) وأعضائها وأعمالها فى مذكراته التى تقع فى ٤٣ ملفا ، ولعل حرصه الشديد ، وقدرته على التنظيم والكتمان وخوفه على أسرار هذه الجماعة جعلته لا يكتب عنها فى مذكراته المحفوظة الآن فى دار الوثائق القومية ، والتى أعد مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر بهيئة الكتاب جزءا منها للنشر ، ولكن المذكرات دقيقة غاية الدقة فى سردها لأحداث ثورة ١٩١٩ مما يشير إلى أن « عبد الرحمن فهمى » كان يعاونه فى أعماله الثورية جهاز دقيق يضع أمامه الأخبار بتفاصيلها والتى يقدمها بدوره إلى زعيم الأمة سعد زغلول .

• المذكرات « ملف ٢ ص ١١٩ وص ١٢٠ » . (يوم الأحد ٩ مارس ١٩١٩ خرج مئات الطلبة فى مقدمتهم طلبة مدرسة الحقوق ، أعلنوا أنهم لا يدرسون القانون فى بلد تداس فيه القوانين . . لم يكن هناك أروع من أن الطلبة يقابلون رصاص البنادق بصدورهم إذا سقط رافع العلم فى مقدمة

الموكب تقدم غيره ورفع العلم . . المذكرات . . ملف ٣ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ . . (٥ ابريل علمت السلطة بان اجتماعا سيعقد بالأزهر . . فتقرر عقد الاجتماع بجامع أحمد بن طولون . . وعند سبيل أم عباس أقيمت طابية وكان فيها صبي في العاشرة يدعى بن القباقيى قتله الانجليز) .

وبالمذكرات سجل هام لشهداء ثورة ١٩١٩ . . في القاهرة والإسكندرية والوجه القبلى والوجه البحرى . . مما يؤكد وجود شبكة واسعة تسجل الأحداث بدقة مثال - المذكرات - ملف ٤ ص ١٦٩ يتحدث عن تظاهرة في البدرشين في ٢٦ مارس ١٩١٩ (من ضحايا البدرشين « محمد أبو العلا » هشم الرصاص ذراعه وقام الطبيب بقطعها في اليوم التالى ، والسيد الدالى الخفير الرسمى اخترقت رصاصة جسده ولم يمض ، وأحمد أحمد حماد ضرب في رأسه وأصيب إصابة خطيرة ، والسيد محمد ضرب في صدره وجرح وأصيب) كان يتميز بالدقة وعدم المبالغة ويعرف قيمة الكلمة الأمانة .

وفي المذكرات (لقد كتبت إلى الوفد بخصوص احتجاج لجنة السيدات ، وابتعاد شعراوى باشا عن العمل ، وعدم تضامنه مع المجاهدين إزاء هذه المشروعات في تقريرى المؤرخ ٢ مارس ١٩٢٠ ، ومن الغريب أنه بينما تحتج لجنة السيدات التى ترأسها السيدة حرم شعراوى باشا ، تراه هو لايهتم بذلك . . ذكرنا لكم هذا لتعرفوا مقدار اشتغال سعادته بالحركة العامة .

ويبدو هنا ان « عبد الرحمن فهمى » كان من مهامه أيضا أن يلاحظ نشاط الشخصيات العامة ومدى إسهامها في الحركة الوطنية ، وهو هنا يلوم « على شعراوى » لابتعاده عن العمل الوطنى ، ويقارن بينه وبين حرمه « هدى شعراوى » التى أخذت تسهم في العمل الوطنى عن طريق النشاط النسائى .

وكتب يصف تظاهرة نسائية أخرى بروح تنم عن سعة أفق . . (لم تشأ المرأة المصرية أن تحجم عن المساهمة في تلك الثورة التى اشتد لهيبها فأرادت أن تحظى بشرف هذا العمل المجيد حتى تبرهن للغاصب المحتل على أنها ليست أقل قوة وعزيمة عن أختها الغربية . وحتى تذكى نار الحماسة الوطنية في قلوب الرجال . . ففى ١٦ مارس انطلقت كثرات من عقائل العائلات الراقية يمين أنحاء القاهرة هاتفات بحياة الحرية والاستقلال ، مناديات بسقوط الحماية . وقد مررن بموكبهن على القنصليات ومعتمدى الدول الأجنبية ، والناس من حولهن يصفقون لهن ويهتفون والنساء من نوافذ بيوتهن يزغردن ويهتفن ، فكان ذلك منظرا جميلا رهيبا يأخذ بمجامع القلوب . ولكن لم يكن للسلطة ان تترك مثل هذا الموكب الرائع دون أن تشوه من جلاله فضرب الجنود الانجليز نطاقا حولهن وسددوا إليهن فوهات بنادقهم وحراهم) .

التنظيمات العمالية

وكان لعبد الرحمن فهمى قدرات تنظيمية هائلة جعلت الزعيم سعد زغلول يعتمد عليه اعتماداً كبيراً ليس في تنظيم الجماهير الثائرة فحسب ، وليس في تنظيم الجماعات الوطنية السرية ولكن في التنظيمات النقابية العمالية أيضاً .

ففى ٢٨ يناير ١٩٢٤ شكل « سعد زغلول » الحكومة وسرعان ما فوجئ بإضرابات في الإسكندرية قامت بها النقابات التي تسيطر عليها العناصر الأجنبية اليسارية ورفعت العلم الأحمر على المصانع . وكان « سعد » قبل أن يتولى الحكومة قد حذر «عبد الرحمن فهمى» من نشاط هذه العناصر الأجنبية التي يمكن أن تضر بمسيرة الحركة الوطنية .

وأصدر « سعد » تعليماته إلى « عبد الرحمن فهمى » بإنشاء نقابات عمالية جديدة غير تلك التي تسيطر عليها العناصر الأجنبية ، على أن تكون من المصريين وأن تكون قياداتها من العناصر الموالية للوفد . . وربما كان هذا أول عمل تنظيمي يقوم به الوفد داخل العمال المصريين مستفيداً من المشاركة الفعالة التي قام بها العمال في ثورة ١٩١٩ إلى جانب الفئات الأخرى .

وقد عمل « عبد الرحمن فهمى » على إصدار مجلتي عماليتين في فترة قصيرة وبذلك يكون (الوفد) قد أدرك أهمية « التنظيم » وأهمية « الجريدة » للعمل الجماهيري . . وقد كان « سعد زغلول » عبقرية في اختيار رجاله « عبد الرحمن فهمى » للتنظيم وللأعمال السرية ، وأمين الرفاعي للصحافة والبيانات الصحفية ، وعباس العقاد للمقالات التي تصول وتجول ، وواصف غالى للأمور السياسية الخارجية . . والرجال كثيرون حول الزعيم . . كل له دور يصلح له .

رجل التوضيحات

ولكن يبدو أن « عبد الرحمن فهمى » كانت له علاقة من نوع خاص بالزعيم . . يتداخل في كل الأعمال التي هي في حاجة إلى كتمان وإلى تنظيم .

تقرأ له في رسالة سرية إلى « سعد زغلول » بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩١٩ .

(اشتد الخلاف بينى وبين إبراهيم باشا سعيد (أمين صندوق لجنة الوفد) لأنه يريد معرفة الطريقة التي أخطبكم بها . . كما يريد معرفة تفاصيل المصروفات التي أصرفها . . ولما لم أنجح في أخذ العقود اللازمة للصرف توجه إليه أمس سعادة محمود باشا سليمان مع أمين بلك الرفاعي) .
وأمين بك الرفاعي عرف هو الآخر بالوطنية والتوضيحية معا . . قريب من نوعية عبد الرحمن

فهيمى الذى كان يثق فى أمانة الرافعى . . فى رسالة من عبد الرحمن فهيمى إلى سعد زغلول فى أول سبتمبر ١٩١٩ يكرر الشكوى من مواقف إبراهيم باشا سعيد ورغبته فى تشكيل لجنة للنظر فى نشر أو عدم نشر البيانات التى يرسلها « سعد باشا » على الأمة فاقترح عبد الرحمن فهيمى ، أن يشترك معه فى اللجنة « أمين بك الرافعى ومرقص بك حنا » .

وفى رسالة إلى سعد باشا بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٠ قال عبد الرحمن فهيمى « نحمد الله الذى أتاح لنا بعد التى والتتيا إصدار جريدة الأخبار بمعرفة زميلنا أمين بك الرافعى » .

ويرحل أمين بك الرافعى راضيا بما قدم لمصر ، ويرحل « عبد الرحمن بك فهيمى » راضيا أيضا بما قدم لمصر دون أن يكون نائبا أو وزيرا . . وسلام على المخلصين فى هذا البلد الأمين .

الأسانيد :

- ١- د . آمال السبكى : الحركة النسائية فى مصر . ١٩١٩-١٩٥٢ .
- ٢- صبرى أبو المجد- أمين الرافعى .
- ٣- طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .
- ٤- عبد الرحمن فهيمى . . مذكرات .
- ٥- د . محمد أنيس . . دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ جـ ١ .
- ٦- د . نبيل عبد الحميد . . شهداء ثورة ١٩١٩ مع فريق من مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر .

الدكتور عبد الرزاق السنهورى



هذا الرجل ولد في الإسكندرية سنة ١٨٩٥م وضرب بمدينة القاهرة سنة ١٩٥٤م . . كيف ضرب ؟ ولماذا ضرب ؟ نقرأ ماكتبه « اللواء محمد نجيب » في كلمته للتاريخ صفحة ٢٢٤ عن أحداث ٣٠ مارس ١٩٥٤ :

توجهت مظاهرة مدبرة من مبنى هيئة التحرير إلى مجلس الدولة وكانت المظاهرة مكونة من عمال مديرية التحرير وجنود من البوليس الحربي وعدد آخر من ضباط البوليس الحربي .

وكانت جريدة أخبار اليوم قد نشرت أن الجمعية العمومية لمجلس الدولة سوف تجتمع اليوم بدعوة عاجلة من رئيس المجلس بصورة توحى بأن الاجتماع له صلة بالأحداث الجارية . واقتحم المتظاهرون مبنى مجلس الدولة الذى سحبت الحراسة من حوله ودخلوا إلى قاعة الاجتماع الذى كان قد أصدر قرارا بتأييد الديمقراطية والحياة النيابية وقرارات ٥ ، ٢٥ مارس وقد اعتدى المتظاهرون على الدكتور عبد الرزاق السنهورى وعلى باقى الأعضاء بالضرب الشديد ومزقوا القرار الذى تم اتخاذه وبعد أن تم حبس مستشارى مجلس الدولة فى قاعة الاجتماعات تم إجبارهم على توقيع بيان بتأييد مجلس الثورة .

اتهم الدكتور عبد الرزاق السنهورى أمام النيابة جمال عبد الناصر بتدبير الحادث كما أنه رفض مقابلاته عندما زاره ليعوده بعد الاعتداء عليه .

وكلام اللواء محمد نجيب . . يوضح أن التظاهرة مدبرة وأن الحراسة سحبت من مجلس الدولة وأن الدكتور السنهورى اتهم جمال عبد الناصر شخصيا بتدبير الحادث . كما أنه رفض مقابلاته عندما ذهب يسأل عنه بعد الاعتداء عليه .

ومذكرات عبد اللطيف البغدادي لاتنفى ماسجله « اللواء محمد نجيب » وإن كانت تعرض للموقف بطريقة أخرى على صفحة ١٠٢٧ وفي مجال حديثه عن أزمة مارس (إن السنهورى يقترح إعادة دستور سنة ١٩٢٣ فوراً ، وأن يحل مجلس قيادة الثورة حتى يطمئن محمد نجيب على نفسه لأنه يشعر بالقلق منه . وإن هذا الحل الذى يقترحه هو أسرع وأضمن الحلول لإنقاذ هذه البلاد من كارثه محققة) .

السنهورى هنا قد انحاز إلى صف القوى الشعبية التى طالبت بحل مجلس قيادة الثورة وبرجوع الجيش إلى ثكناته ، وبالعودة إلى الدستور . وهو بذلك أصبح مستهدفاً من قبل العناصر التى تريد أن تستبد بحكم البلاد .

وفي صفحة ١٦٠ يسجل (حضر أثناء انعقاد المؤتمر أحد الطيارين واسمه « عبد الرؤوف عبد الحميد » فأبلغنى أن المتظاهرين قد اتجهوا نحو مبنى مجلس الدولة لاجتماع الجمعية العمومية . ثم حضر من بعده أيضاً « محمد صدقى محمود » رئيس أركان حرب القوات الجوية وأبلغنا نفس الشئ فطلبت منه كذلك ارسال البوليس الحربي الجوى فوراً إلى مبنى مجلس الدولة لمنع المتظاهرين من الاقتراب منه) .

ويواصل البغدادي (ثم صلاح - يقصد صلاح سالم - وتوجه إلى مبنى المجلس ليعمل على تهدئة المتظاهرين ولقد عاد صلاح إلى الاجتماع ثانية بعد ساعتين من مغادرته لنا وأبلغنا أن المتظاهرين قد اعتدوا على رئيس مجلس الدولة وأن إصاباته بسيطة وسطحية . وأن المتظاهرين هاجموا المجلس بعد أن وصفهم بعض المستشارين بالمأجورين مع نعتهم بصفات قبيحة أخرى وقال صلاح إنه لازم السنهورى من مبنى المجلس حتى المستشفى لعلاج الإصابات التى أصيب بها . ولكن السنهورى لم يشكره على موقفه) .

وهذه العبارات توضح أن السنهورى والمستشارين يعتقدون أن الحادث مدبر وتوضح أن صلاح سالم يفسر الاعتداء بتصدى المستشارين للمتظاهرين ولكن سرعان ما تكشف المذكرات عن حقيقة موقف مجلس الثورة من الاعتداء على مجلس الدولة . . فعلى صفحة ١٦٩ نقراً :

(وانعقد المجلس وقرأ علينا جمال عبد الناصر مذكرة مجلس الدولة المرسلة إلى رئيس مجلس الوزراء والخاصة باعتداء المتظاهرين على مجلسهم . . وكانت مذكرة شديدة اللهجة عنيفة في تعبيراتها - ولقد دارت مناقشة حولها - ورئى في النهاية أن يكون الرد عليها بدبلوماسية - بمعنى إن نقول أن النيابة ستقوم بالتحقيق - وإن الحكومة منتظرة نتيجة هذا التحقيق) .

وطبعاً كان تحقيق النيابة في ذلك العهد شهاعة لتفويت أو لتمويت الاعتداء على القضاء وكان

رد الحكومة هو قانون بمنع الوزراء الحزبيين قبل ١٩٥٢ من تولي المناصب الهامة فسقط السهنورى من رئاسة مجلس الدولة وهذا دليل واضح على موقف «عبد الناصر» من السهنورى الذى اقترح (العودة إلى دستور ١٩٢٣) لإنقاذ البلاد من الكارثة .

السهنورى و٢٣ يوليو

ومنذ الأيام الأولى لاستيلاء الضباط الأحرار على السلطة وضع «الدكتور عبد الرزاق السهنورى» رئيس مجلس الدولة نفسه وخبرته بل استخدم وضعه فى مجلس الدولة لإقناع المستشارين الآخرين بتأييد الوضع الجديد .

ظهر هذا واضحا وجليا فى مشاورات خلع الملك فاروق ووضع صيغة التنازل عن العرش . . بل إن السهنورى توجه مع اللواء محمد نجيب وجمال سالم وأنور السادات إلى مقر الوزارة فى بولكلى وهناك اقترح «جمال سالم» إضافة عبارة أيده فيها الدكتور السهنورى وتفيد بأن النزول عن العرش كان استجابة لرغبة الأمة وذهب «المستشار سليمان حافظ» بالوثيقة إلى الملك لتوقيعها .

وكان اندفاع «السهنورى» فى تأييد الحركة ومعه فى ذلك الموقف المستشار «سليمان حافظ» . وكيل المجلس واضحا يوم ٣١ يوليو ١٩٥٢ فى أول قضية تواجه الضباط الشبان بعد تنازل «الملك فاروق» عن العرش ، وهى قضية دستورية ، ولو اتخذ السهنورى فى تلك القضية الموقف الدستورى السليم ربما تغيرت أمور كثيرة ولكن التساهل فى المواقف الدستورية جر عليه وعلى سليمان حافظ ما لا يرضاهما أحد وبعد هذه التنازلات ضرب السهنورى فى مقر مجلس الدولة ، وبعدها بسنوات اعتقل «سليمان حافظ» عند أول خلاف مع السلطة الجديدة .

ونعود إلى موضوعنا . . ينص الدستور فى المادة ٥١ على ألا يتولى أوصياء العرش عملهم إلا بعد أن يؤدوا أمام مجلسى النواب والشيوخ مجتمعين اليمين التى يؤديها الملك أمامهما قبل مباشرة سلطته الدستورية وتنص المادة ٥٢ من الدستور على أنه عند وفاة الملك يجتمع البرلمان بحكم القانون خلال عشرة أيام من الوفاة فان كان المجلس منحلا وجب أن يعود المجلس المنحل للعمل حتى يجتمع المجلس الذى يخلفه .

ومعنى هذا السلوك الدستورى فى حالة تنازل الملك فاروق أن يدعى المجلس الوفدى المنحل ، ولكن رئيس الوزراء هو «على ماهر» عدو الوفد التقليدى وهو الذى استصدر قرارا بحل المجلس بعد يناير ١٩٥٢ ومستشار السلطة الجديدة هو «سليمان حافظ» الذى يكره «مصطفى النحاس» كراهية شخصية ورئيس مجلس الدولة هو «الدكتور السهنورى» الذى كان وفديا وخرج من الوفد

في انقسام النقراشي وأحمد ماهر . . تجمعت هذه الظروف وانعقد قسم الرأي في مجلس الدولة برئاسة « الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهاوري » والعادة جرت على أن يجتمع القسم برئاسة وكيل المجلس ولكن السنهاوري ذهب بنفسه ليساند وكيله « سليمان حافظ » ونزل بثقله الفقهي والقانوني واستصدر قرارا من قسم الرأي بإضافة مادة للأمر الملكي رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٢ تنص على أنه (في حالة نزول الملك عن العرش وانتقال وصاية الملك إلى خلف قاصر يجوز لمجلس الوزراء إذا كان مجلس النواب منحل أن يؤلف هيئة للعرش من ثلاثة تتولى بعد حلف اليمين أمام مجلس الوزراء سلطة الملك) .

شخص واحد فقط عارض هذا الرأي داخل القسم هو « دكتور وحيد رأفت » وندم السنهاوري وسليمان حافظ على موقفيهما بعد ذلك .

وبذل السنهاوري جهدا خاصا في مشروع الإصلاح الزراعي وبعد استقالة على ماهر التجهت الأنظار إلى « الدكتور السنهاوري » لرأس الوزارة ولكن « على صبرى » أقنع « جمال سالم » بأن السنهاوري له ميول شيوعية لأنه وقع على (نداء السلام) فتولى « جمال سالم » مهمة إقناع مجلس قيادة الثورة بعدم ترشيح السنهاوري لرئاسة الوزارة حتى لا يغضب الأمريكان .

وتولى رئاسة الوزارة « اللواء محمد نجيب » وسارت الأمور حتى أزمة فبراير ومارس ١٩٥٤ والسنهاوري يقدم لهم الرأي والمشورة ، وعند أول بادرة لوقوفه إلى جانب الديمقراطية ومطالبة بعبودة الدستور وحل مجلس قيادة الثورة أو عودة الجيش إلى ثكناته تحركت التظاهرة من مبنى هيئة التحرير إلى مجلس الدولة وحدث ما حدث .

عود على بدء

في السطر الأول قلنا إن الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهاوري ولد في الإسكندرية سنة ١٨٩٥ وبالأحرى في ١١ أغسطس وتلقى فيها تعليمه الابتدائي والثانوي . . ونال شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٩١٣ ثم انتقل إلى القاهرة والتحق بمدرسة الحقوق وحصل منها على الليسانس سنة ١٩١٧ .

وبعد تخرجه بعامين اندلعت شرارة الثورة القومية سنة ١٩١٩ بقيادة الزعيم « سعد زغلول » فتأثر بها وانحاز لها وانعطفت ميوله نحو الوفد المصري وعين عضوا بالنيابة العامة وتدرج في الوظائف حتى رقى وكيلا للنائب العام سنة ١٩٢٠ . ثم انتقل بعد ذلك لتدريس القانون في مدرسة القضاء الشرعي . . وسافر إلى باريس سنة ١٩٢١ في بعثة حصل خلالها على الدكتوراه في

العلوم القانونية وعلى الدكتوراه في العلوم الاقتصادية والسياسية وعلى دبلوم القانون الدولي وعاد إلى مصر سنة ١٩٢٦ ليعمل مدرسا للقانون المدني بكلية الحقوق حتى أصبح أستاذا مساعدا فأستاذا ثم انتخب عميدا للكلية سنة ١٩٣٦ .

وفي تلك السنة نادى بوضع قانون مدنى جديد فى مصر واستجابت الحكومة إلى رأيه ، وشكلت لهذا الغرض لجنة كان «السنهورى» من أبرز أعضائها - ثم انتهى الأمر بإسناد مهمة التعديل إليه وحده - سنة ١٩٣٨ - وتركت الحكومة له حرية اختيار من يعاونونه فى هذا العمل الجليل . وانتهى وضع التقنين المدنى الجديد فى صورة مشروع متكامل سنة ١٩٤٥ - ومر بمراحله التشريعية إلى أن صدر فى أواخر شهر يوليو من سنة ١٩٤٨ .

وفى كتابه (عودة الوعى) يحكى لنا « توفيق الحكيم » جانباً من علاقته بالسنهورى فيقول (كانت صداقتى قديمة به ، منذ عام ١٩٣٥ كنت مديراً لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف وكان هو أستاذا بكلية الحقوق وكنا نسكن منطقة الجيزة ونسير على أقدامنا ساعة العصر على كوبرى عباس نتحدث طويلا وفى يد كل منا قرطاس من الترمس وفى ذات يوم جاءنى يقول إنه فكر فى مشروع نافع لتكوين الشباب وغرس روح البطولة فى نفوسهم ، وجعلنا نستعرض أبطال تاريخنا الذين يمثلون المبادئ العظيمة مثل « عمر بن الخطاب » و« طارق بن زياد » و« رمسيس الثانى » ونحو ذلك . . ومضت أيام ، وبينما أنا جالس فى مكتب وكيل الوزارة إذا بى أجد حركة غير عادية وكانت الوزارة يومئذ ضد حزب الوفد والوفديين ، ووكيل الوزارة يقول مجلس الوزراء منعقد لفصل الدكتور السنهورى من الجامعة لأنه ألقى جمعية سياسية لنشر الدعوة للوفد بإيعاز من صديقه عضو الوفد « النقراشى » فتعجبت عجباً شديدا ولم تلبث الوزارة التى فصلت السنهورى أن سقطت وجاءت وزارة وفدية وأصبح عميدا للكلية فوكيلا لوزارة المعارف) .

السنهورى وزيرا

فى ٣ أغسطس ١٩٣٧ شكل « مصطفى النحاس » وزارته الرابعة فى أعقاب وزارته الثالثة التى كان قد شكلها فى ٩ مايو ١٩٣٦ . . وفى الوزارة الرابعة تم استبعاد « محمود فهمى النقراشى » ، ومحمد صفوت ومحمود غالب وعلى فهمى « وكان هذا الإبعاد نتيجة للخلافات الداخلية وكان بدوره بداية لتفاقم الخلافات واستغلت السراى وأحزاب المعارضة وعلى ماهر والشيخ المراغى الفرصة لتعميق الخلافات داخل الوفد وانضم « أحمد ماهر » إلى هذا التكتل وحدث الانشقاق الخطير فى تاريخ الوفد فى سبتمبر ١٩٣٧ ويهمنى فى موضوعنا الحالى أن الدكتور عبد الرزاق

السنهوري صديق محمود فهمى النقراشى كان إلى جانب قادة هذا الانقسام . . إلى أن شكل المرخوم « أحمد ماهر » وزارته الثانية في ١٥ يناير سنة ١٩٤٥ واختير « السنهوري » وزيرا للمعارف . وبعد اغتيال « أحمد ماهر » شكل « محمود فهمى النقراشى » الوزارة في ٢٤ فبراير ١٩٤٥ حتى فبراير ١٩٤٦ وعندما شكل إسماعيل صدقي وزارته في ١٦ فبراير ١٩٤٦ لم يدخلها « السنهوري » ولكنه دخل في التعديل الذى أجرى في ١١ سبتمبر ١٩٤٦ وكان وزير دولة حتى ٩ سبتمبر ١٩٤٦ وعاد « النقراشى » رئيسا للوزارة في ٩ سبتمبر ١٩٤٦ إلى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ وكان « السنهوري » وزيرا للمعارف . . ولاغتيال النقراشى باشا شكل « إبراهيم عبد الهادى » وزارته في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ التى استمرت إلى ٢٥ يوليو ١٩٤٩ وكان « السنهوري » وزيرا للمعارف ولكنه استقال في ٢٧ فبراير ١٩٤٩ ليحل محله « على أيوب » وزيرا للمعارف .

وبهذا يكون الدكتور السنهوري قد شغل منصب وزير المعارف أربع مرات في مدد مجموعها أكثر من ثلاث سنوات ترك عليها بصماته دون شك وعين رئيسا لمجلس الدولة من عام ١٩٤٩ إلى عام (الضرب) ١٩٥٤ ويوم ترك وزارة المعارف ليرأس مجلس الدولة قال للدكتور « مهدى علام » أترك وزارة المعارف وقد نجحت في معظم مشروعاتي وأخفقت في أمرين الدروس الخصوصية وتوزيع الحجرات على كبار الموظفين .

ثروة قومية

ومثل « الدكتور عبد الرزاق السنهوري » هو جزء من ثروة مصر القومية سواء اتفقنا أو اختلفنا معه . . فهو أحد أعلام الفقه والقانون ومؤلفاته ثروة للمكتبة القانونية . . ظل عضوا بمجمع اللغة العربية منذ سنة ١٩٤٦ وقد أسهم في وضع كثير من المصطلحات القانونية - إلى أن لقي ربه سنة ١٩٧١ .

وقد أوفد « السنهوري » إلى مؤتمرات دولية كثيرة . . فكان رئيس الوفد المصرى في مؤتمر القانون المقارن بباريس سنة ١٩٣٢ ورئيسا للوفد المصرى في مؤتمر القانون الثانى في لاهى سنة ١٩٣٧ ورئيس الوفد المصرى إلى لندن في مؤتمر فلسطين سنة ١٩٤٦ ورئيس الوفد في الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٤٦ وعضوا في الوفد المصرى الذى تقدم بشكرى مصر ضد انجلترا أمام مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ .

لم يقتصر دوره في التوجيه على دارسى القانون في مصر بل شمل كل أبناء البلاد العربية كان كل مؤلف يعد كتابا أو رسالة في القانون يحرص على أن يلقي السنهوري لكى يعرض عليه عمله

ويستنير برأيه وبعض الأساتذة العرب المتفرغين لدراسة الشريعة الإسلامية يطلقون على السنهورى لقب (الإمام الخامس) بعد الأئمة الأربعة وفي العراق يلقبه تلاميذه (بالأستاذ الإمام) فهو الذى وضع للعراق قانونه المدنى الذى جمع فيه بين أحكام القوانين العصرية الوضعية وأحكام الشريعة الإسلامية .

كذلك وضع السنهورى القانون المدنى السورى كما وضع القانون المدنى الليبى ثم وضع قوانين دولة الكويت ودستورها كما وضع الدستور السودانى وكان آخر عمل تشريعى قام به للبلاد العربية هو مشروع وضع دستور لاتحاد إمارات الخليج العربى ولكنه لم يتمكن من إتمامه لظروف صحية . ووضع السنهورى لإمارة البحرين مجموعة من القوانين العصرية تعد من المفاهيم التشريعية .

وكان نشاط السنهورى كمشرع للبلاد العربية سببا فى إيجاد وحدة فكرية فى الميدان القانونى بين أبناء البلاد العربية .

رحم الله الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى ، الذى رحل عام ١٩٧١ .

واعذار له من كل أبناء مصر لما لحقه فى مارس ١٩٥٤ .

الأسانيد :

- ١ - توفيق الحكيم . . عودة الوعى .
- ٢ - د . عبد الباسط جيمعى . . مجلة الفكر المعاصر - أغسطس ١٩٧١ .
- ٢ - د . محمد مهدى علام . . المجمعين فى ٥٠ عاما .
- ٤ - محمد نجيب . . كلمتى للتاريخ .
- ٥ - د . وحيد رافت . . فصول من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

عبد العزيز الشوربجي



بالوفاء للأستاذ النقيب « عبد العزيز الشوربجي » اقترح الصديق الأستاذ « عبد العزيز محمد » المحامى ، الذى تعرفه الساحة الوطنية مدافعا عن الحريات ، ويعرفه القراء بحسه القومى العربى ، اقترح ان تخصص حلقة عن « عبد العزيز الشوربجي » وفى لحظات وضع الصديق « الأستاذ جمال بدوى » دينامو التحرير - وكنا فى مكتبه - وضع أمامى رقم تليفون « الأستاذة مواهب الشوربجي » كريمة المرحوم « عبد العزيز الشوربجي » وخلال أيام كان أمامى ما تصورت « الأستاذة مواهب » أن يكون مفيدا لى فى كتابة هذه الحلقة .

وجدت نفسى أمام شخصية محيرة بكل ما تحمل الكلمة من معان . محام يشتغل حماسة لكل قضية وطنية يؤمن بها ، وينفعل إخلاصا لكل جانب يميل إليه .

بدأ حياته السياسية وفديا ، وفى لجنة الطلبة التنفيذية العليا (١٩٣٥) يرى غير ما يرى الوفد فى المطالبة بالدستور والاستقلال فيقف مع (أقلية) تقدم الاستقلال على الدستور وسنة ١٩٤٣ يقف مع « مكرم عبيد » فى الانقسام الذى عرف بالكتلة الوفدية بل إنه يشرف على تحرير جريدة (الكتلة) فترة ما وعندما يتجه « مكرم عبيد » إلى المصالحة مع الحزب الأم (الوفد) يخاصم « عبد العزيز الشوربجي » الوفد والكتلة الوفدية ، ومصطفى النحاس ومكرم عبيد ، وتمضى السنوات ويستولى الضباط الأحرار على السلطة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وسنة ١٩٥٤ يطالب المحامون بأن يعود الجيش إلى ثكناته ، وتخرج التظاهرات تعبر عن رغبة قطاعات كثيرة من الشعب فى عودة الحكم النيابى ، ولكن « عبد العزيز الشوربجي » يرى غير هذا رأى ، ويقف إلى جانب جناح « عبد الناصر » ويشكل من بعض المحامين ما عرف بجماعة « أنصار الثورة أو المحامين الأحرار » .

ويتم حل مجلس النقابة ، ويحكم « عبد الناصر » قبضته على السلطة وتمضى الأيام ويكتشف

الشوربجي أن الجناح الذي أيده لم يسر في المسار الذي يرتضيه وينزل « عبد العزيز الشوربجي » يدافع في بسالة عن عائلة « الفقى » في أحداث « كمشيش » المعروفة ويصطدم بقيادات التنظيم السياسى الواحد ويصدر قرارا بحرمان الشوربجي من حق الترشيح لانتخابات مجلس الأمة . . ويبقى هكذا على خصومة شديدة حتى ١٥ مايو ١٩٧١ فيهنىء « السادات » ويؤيده ولكنه يهاجم بعد ذلك السياسة الخارجية للسادات والاتجاه إلى الصلح مع إسرائيل ، ويشن حملة على (كامب دافيد) وعلى تدخل الحكومة فى الانتخابات ويرشح نفسه نقيبا للمحامين ويصفه السادات بأنه (وفدى عتيق) يؤيده الإخوان المسلمون والشيوعيون والانتهازيون ويقف «الشوربجي » يقول بأعلى الصوت . . نعم ياريس هؤلاء يؤيدوننى . . فمن الذى يؤيدك أنت ياريس ؟ دخل (الوفد الجديد) وتحمس له ، ولكنه عارض الموقف من (تجميده) . . وفى مقر حزب العمل فى يونيه ١٩٨١ صاح بأن الصلح مع إسرائيل مقبرة لكل الآمال المصرية واستدعاه (المدعى الاشتراكى) للتحقيق فقال (الشوربجي) لو أننى أستطيع أن أحمل السلاح لذهبت أحارب إسرائيل . . وفى ٥ سبتمبر ١٩٨١ كان عبد العزيز الشوربجي واحدا ضمن ١٥٣٦ من قادة الرأى والعمل السياسى المعتقلين .

سياسى بالصدفة

شخصية مثيرة محيرة قلقة لها زوايا مدبية كثيرة تبحر فى مياه صعبة وأنت تكتب عنها ، المواقف متعددة تبدو أنها متناقضة ولكن لها قاسما مشتركا أعظم هو الرأى المستقل والتعبير الحر عن هذا الرأى ، ثم الاندفاع إلى آخر الشوط دفاعا عما يعتقد أنه صواب .

فى مطلع الثلاثينات ، كان طالبا فى نهاية المرحلة الثانوية وإسماعيل صدقى رئيس للوزراء ، حل البرلمان والغى الدستور والتظاهرات ضد صدقى تجتاح القاهرة والمدن الرئيسية الأخرى والطالب « عبد العزيز الشوربجي » . . يذهب من البيت إلى المدرسة ويعود من المدرسة إلى البيت بعربة « حانطور » والسائق يتجنب التظاهرات حتى يعود فى سلام . و« الشوربجي » يأبه بهذه التظاهرات ، ولا بأصحابها ، ولا بالجالس على كرسي رئاسة الوزارة هو فى (حاله) كما يقولون . . آماله ان يجتاز المرحلة الثانوية وأن يدخل كلية الحقوق ويخرج منها أو فيها ويعمل محاميا مشهورا . . وذات يوم وهو ذاهب من البيت إلى المدرسة وواحدة من التظاهرات ضد صدقى باشا مشتعلة والبوليس يتصدى للطلاب بوحشية وقسوة أثارتا الطالب « عبد العزيز الشوربجي » ويهاجم البوليس فيما يهاجم (عربة الحانطور) وانقلبت العربة ، وثار الطالب « الشوربجي »

وبأعلى صوته ، وبكل حماسه يردد هتافات الطلاب ضد الحكومة ويطالب بالدستور وينضم إلى لجنة الطلبة الوفديين . .

وينتهى عهد « إسماعيل صدقى » الذى بدأ فى ٢٠ يونيو ١٩٣٠ حتى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ . وتحيى وزارة « عبد الفتاح يحيى باشا » من ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ حتى ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ ودستور ١٩٢٣ لم يزل معطلا وتعقبها وزارة محمد توفيق نسيم فى ١٤ نوفمبر ١٩٣٥ وأعلن عدم رضائه على دستور صدقى مما يشير إلى أنه يعتزم إعادة دستور ١٩٢٣ فأيده الوفد وبدأ توفيق نسيم وزارته بالغاء دستور صدقى (دستور ١٩٣٠) ولكنه لم يبادر بإعادة دستور ١٩٢٣ وفى ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ فى احتفال الأحرار الدستوريين بعيد الجهاد الوطنى خطب « محمد محمود » وطالب بإعادة دستور ١٩٢٣ ، وخرج الشباب من سرادق الأحرار الدستوريين إلى سرادق الوفد حيث « مصطفى النحاس » يطالب بمقاطعة الانجليز وباستقالة الوزارة وبسحب الثقة منها . وتدفقت جموع الشباب من مختلف الأحزاب فى تظاهرات عارمة نحو بيت الأمة ، ووقع الصدام المعروف بين المتظاهرين وجنود الاحتلال . . وهنا نجد الطالب عبد العزيز الشوربجى بإرادته وبِعزمه عضوا بلجنة الطلبة التنفيذية العليا التى قادت ما عرف بثورة الشباب ١٩٣٥ أو بثورة الدستور . ولنا مع شبابنا اليوم حديث عن هذه الثورة وعن لجنة الطلبة التنفيذية العليا .

لجنة الطلبة العليا

حفظت لنا وثائق تلك الفترة بيانات ثلاثة أو أربعة عن أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للطلبة التى قادت ثورة الشباب من أجل الدستور ١٩٣٥ وجهود الشباب من أجل وحدة الزعماء ومن أجل تحقيق المطالب الوطنية ويبدو أن اللجنة لم يكن لها تشكيل ثابت تماما ، وأنها كانت تتكون بفعل واقع الأحداث وإن كانت هناك عناصر تشكل غالبية اللجنة نجدتها فى البيانات المتباينة . .

التشكيل الأول . . نقرؤه على النحو التالى :

كلية الطب : محمد بلال ، نور الدين طراف ، أحمد لطفى ، وحافظ حسنى .

كلية الحقوق : عبد العزيز الشوربجى ، الطاهر حسن أحمد ، فريد زعلوك ، زكى علام ، على كريم ، نصيف مرقس ، أحمد عبد النبى .

كلية الآداب : مصطفى السعدنى ، أحمد بشر ، عبد القادر حجاب ، فتحية الكابلى ، عبد العزيز يونس .

كلية العلوم : محمود لاشين ، سعد الدين الشيشينى .

الأزهر : أحمد حسن الباقورى ، عبد المجيد الغايش ، سليمان النمكى .
 كلية التجارة : عبد المنعم البيه ، كامل الدماطى ، فتحى عمر ، أحمد طلبة صقر .
 كلية الزراعة : أحمد الدمرداش قرنى ، أبو المجد التونى ، حسن سالم ، عبد السلام حسن .
 كلية الهندسة : جلال الدين الحمامصى ، جمال صادق ، إبراهيم عثمان ، محمود يونس حسين
 الشايب (الهندسة التطبيقية) . دار العلوم : أحمد الحوفى ، أحمد حجاب ، فؤاد رحمو ، سيد
 العجان ، محمد برهام ، عبد الرافع الشافعى ؟
 الفنون الجميلة : محمد شبل الحضرى .
 وهذا البيان حسبا وعته ذاكرة المناضل القديم « دكتور محمد بلال » وأرسل به إلى الأستاذ
 « صبرى أبو المجد » ليضمه الجزء الأول من كتابه « سنوات ما قبل الثورة » .
 وفي البيان الذى أصدرته اللجنة فى ٦ ديسمبر ١٩٣٥ وهو البيان الذى عبرت فيه اللجنة عن
 وحدة صفوفها بعد خلاف سوف نعرض له فى فقرة قادمة نجد أسماء جديدة إلى جانب الأسماء
 السابق ذكرها ونجد أن بعض الأسماء التى وقعت البيان السابق لم يرد ذكرها فى هذا البيان
 الجديد . . فمثلا . .
 كلية الطب أضيفت أسماء إبراهيم عبود ، أحمد عبد الله ، حسن توفيق ، قاسم فرحات ،
 محمود لبيب الشاهد ، عبد اللطيف جوهر ، ولم يرد اسم « أحمد لطفى » .
 كلية الحقوق : أضيف اسم « فكتور مكرم عبيد » وبهذه المناسبة فهو نفسه فكرى مكرم عبيد
 وغاب اسم نصيف مرقس وأحمد عبد النبى .
 كلية الآداب : أضيف اسم سهير القلماوى ومحمود أبو رحاب وغاب اسم فتحية الكابلى .
 كلية العلوم : أضيف اسم فؤاد سالم ، حبيب المصرى ، عماد الدين الشيشينى .
 كلية التجارة ؛ أضيف اسم الفونس زكى ، عبد الله أباطة ، أحمد حلمى .
 كلية الزراعة : أضيف اسم حسن الأبيارى ، مصطفى كامل منصور ، حسين عزت .
 دار العلوم : غابت أسماء أحمد الحوفى وأحمد حجاب ، وفؤاد رحمو ، وسيد العجان .
 وبعودة دستور ١٩٢٣ ، أصدرت (لجنة الطلبة التنفيذية العليا) بيانا توضح فيه اتجاهاتها
 وتطالب المظاهرات بالبعد عن التخريب ولاحظنا عليه :
 كلية الطب . . ظهر لأول مرة اسم حسنى العامرى . . كلية الحقوق انتظام ظهور اسم « عبد
 العزيز الشورىجى » وأضيفت أسماء حمادة الناحل ، ومحمود فهمى أبو عزيز ، وعبد الغفار متولى

وخليل جمال الدين وأحمد شرف الدين ومراد يس لأول مرة . .

وبالنسبة لموضوعنا الراهن نلاحظ أن اسم « عبد العزيز الشوربجي » انتظم ظهوره في البيانات المختلفة مما يوضح أن مساهمته في العمل الوطني كانت بإرادة واعية وبموقف محدد لاسيما أن كفاح اللجنة كان شاقا ومحفوفا بالمخاطر ولا بأس أن نقدم فكرة عن جهود الشباب تلك . .

ثورة الشباب

كان شباب مصر في عامي ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ يواجه مشكلات إعادة العمل بدستور ١٩٢٣ الذي ألغاه « إسماعيل صدقي » والذي لم يكن مقتنعا به « توفيق نسيم » فإذا به يلغى دستور ١٩٣٠ « دستور صدقي » ولا يبادر بإعادة العمل بدستور ١٩٢٣ ، ثم مشكلة توحيد جهود زعماء مصر ، ومشكلة تحقيق الاستقلال الوطني .

وتحرك شباب مصر في سبيل تحقيق هذه المطالب الثلاثة وتشكلت (لجنة الطلبة التنفيذية العليا) وعند أول موقف ظهرت أقلية داخل اللجنة تنادى بأن يكون (الاستقلال) هو المطلب الرئيسى أو المطلب الوحيد ، وأغلبية تنادى بضرورة عودة دستور ١٩٢٣ والحريات مع المطالبة بالاستقلال الوطني وانحصرت الأقلية في عدد محدود من أعضاء اللجنة هم : (عبد العزيز الشوربجي ، ونور الدين طراف ، وحسن أحمد ، ومصطفى السعدنى ، وأحمد حسن الباقورى) .

ومضت أغلبية اللجنة في طريقها الذى رسمته لنفسها وكانت اجتماعات اللجنة بنقابة المحامين ثم بالنادى السعدى وانصهرت مع الأحداث ، وتقدمت الشعب بأسره وتوحدت صفوفها واتحدت جهود الطلبة مع جهود العمال وكان أول شهداء ثورة الشباب في نوفمبر ١٩٣٥ عاملين هما : إسماعيل الخالع وأخوه عبد السميع الخالع واستشهد برصاص الانجليز أيضا بطل كلية الزراعة محمد عبد المجيد مرسى وبطل كلية الآداب « عبد الحكم الجراحى وبطل المعهد الأزهرى بطنطا محمد عبد المقصود وهم بلديات عبد العزيز الشوربجي من طنطا وبطل دار العلوم على طه عفيفى ، وأصيب في تلك الأحداث « إبراهيم شكرى » من كلية الزراعة « رئيس حزب العمل حاليا » ، وأصيب « عبد القادر زيادة » من كلية الحقوق ووحدت دماء الشهداء صفوف الطلبة فأصدرت اللجنة التنفيذية بيانا شهيرا في ٦ ديسمبر ١٩٣٥ يعلن وحدة الجهود من أجل الدستور واتفاق الزعماء والاستقلال وفي ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ صدر قرار عودة دستور ١٩٢٣ وأعلن الزعماء في اليوم نفسه اتفاقهم من أجل مواجهة الانجليز جبهة واحدة في المفاوضات وأصدرت اللجنة بيانا في ٣ يناير ١٩٣٦ تشكر فيه الطلبة على حسن تقديرهم للموقف وعودتهم

إلى الدراسة استجابة منهم لزعيم البلاد دولة الرئيس « مصطفى النحاس باشا » واستقالت وزارة « نسيم » في ٣٠ يناير ١٩٣٦ وشكل على ماهر وزارته من (٣٠ يناير ٣٦ - ٩ مايو ١٩٣٦) على أساس أن يتكون وفد المفاوضات برئاسة مصطفى النحاس وأن تجري الانتخابات في ٢ مايو ١٩٣٦ وفي ٢٨ أبريل توفي الملك فؤاد وأجريت الانتخابات التي فاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة فشكل مصطفى النحاس وزارته في ٩ مايو - ٣١ يوليو ١٩٣٧ ، وهي الوزارة التي جرت خلالها المفاوضات وعقدت المعاهدة في أغسطس ١٩٣٦ هذه هي الفترة التي تشكلت فيها شخصية « عبد العزيز الشوربجي » .

صورة سريعة

وفي أواخر الثلاثينات تخرج عبد العزيز الشوربجي في كلية الحقوق وعمل بالمحاماة وكان أقرب الناس إليه الشباب الثائر في بلده (طنطا) ولد في محلة مرحوم مركز طنطا ١٩١١ وكان يدافع عن المقبوض عليهم بدون مقابل في كل العهود وخاصة في فترة وزارة إبراهيم عبد الهادي سنة ١٩٤٩ .

وانضم إلى انقسام (الكتلة الوفدية) خطيبا وكاتبا . وفي الأربعينات كان من أبرز محامي الحريات . وأشرنا من قبل إلى تأييده لحركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى درجة أنه شكل ما أسماه « أنصار الثورة » واشتدت خصومته للحركة عندما أهدرت حقوق الإنسان ودافع عن أسرة الفقى التي تعرض أفرادها للتعذيب والمهانة ويذكر الأستاذ إبراهيم يونس أن « الأستاذ عبد العزيز الشوربجي عندما كان نقيبا للمحامين أوائل الستينات حدث أن قتل أحد المحامين في شبرا ، ولم يعثر على جثته ونقلت الإشارات أن أحد الأجهزة هي التي قتلتها عقد اجتماعا لمجلس النقابة واتصل بوزير الداخلية أمام جمع من الحاضرين وأخبره ان مجلس النقابة سيظل في حالة انعقاد إلى حين العثور على جثة المحامي ، والقبض على القاتل .

وعلى الرغم من محاربة جناح عبد الناصر له إلا أنه تقدم يدافع عن الذين تعرضوا للسجن أو الاعتقال في عهد السادات ومن بينهم « فريد عبد الكريم » السياسي الناصري المعروف ورأس الاتحاد المحامين العرب وعنى بقضايا الأمة العربية .

الإفراج والرحيل

وعنى أيضا بوحدة الكلمة بين النقابات المهنية المختلفة . . قال الأستاذ « حافظ محمود » نقيب الصحفيين الأسبق وهو يرثيه « تذكرت يوم انتخابي نقيبا للصحفيين . . كان أول زائر لي بدار النقابة هو عبد العزيز الشوربجي نقيب المحامين ، وقد جاء مهتئا وكانت تهنتته صورة من

شخصيته فقد دخل غرفة مكتبى مهللا يقول . . يحافظ جاءت المناسبة التى نتخذ فيها قرارا مشتركا لإزالة السور الذى يفصل بين نقابتينا) .

وقال « الشوربجى » يصف لحظات الإفراج عنه بعد رحيل السادات :

(كنت موجودا فى مستشفى معهد القلب بامبابة بعد ان أصبت بأزمة قلبية فى ليان طره . . ويوم الإفراج اعتقدت أننى مطلوب للتحقيق . . وطلبت منى مديرة مكتب كبير الأطباء ان أرتدى ملابسى الكاملة ، وفى الطريق إلى قصر العروبة اعتقدت بأننى متوجه إلى مكتب المدعى الاشتراكى . . ووصلت إلى صالون القصر قبل أن يصله باقى زملائى بحوالى ساعة ونصف . واجتمع بنا الرئيس . . وقد لمست شخصا كرم الرئيس محمد حسنى مبارك عندما سألنى عن صحتى فأخبرته بأننى قادم من معهد القلب . . فقال الرئيس لو علمت ذلك لذهبت إليك بنفسى . . وأجلسنى إلى جواره) .

ولكن لكل أجل كتابا . . ففى يوم الأحد ٧ فبراير ١٩٨٢ توفى الأستاذ النقيب عبد العزيز الشوربجى وفى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الاثنين ٨ فبراير شيعت جنازته من مقر نقابة المحامين وأقيم سراق العزاء بالنقابة أيضا .

الأسانيد :

- ١ - إبراهيم يونس . . جريدة الأخبار ٩/٢/١٩٨٢ .
- ٢ - حافظ محمود . . جريدة الجمهورية ١٢/١/١٩٨٢ .
- ٣ - شكرى القاضى . . مائة شخصية وشخصية .
- ٤ - صبرى أبو المجد . . سنوات ما قبل الثورة .
- ٥ - عبد العزيز الشوربجى . . حديث لجريدة الهدف ٢٤/١٢/١٩٨١ .
- ٦ - عبد العزيز الشوربجى ندوة فى ٢٨/١٢/١٩٨١ .

الشيخ عبد العزيز جاويش



الشيخ عبد العزيز جاويش أو شاويش هو في تقديرنا الشخص الثالث في الحزب الوطني بعد مصطفى كامل ومحمد فريد ترك بصمات واضحة على السياسة المصرية في تلك الفترة ، وعلى (أزمة الحزب الوطني) منذ أن قدمه « محمد فريد » إلى « مصطفى كامل » في باريس سنة ١٩٠٦ ، وإلى أن رحل - الجاويش - في ٢٥ يناير ١٩٢٩ .

لم يكن « الجاويش » مجرد عضو عادي بالحزب الوطني ، وإنما كان يرى في نفسه أحسن رأيا ، وكان يرى أنه جدير بزعامة الحزب ، ولم تظهر هذه النزعة أيام مصطفى كامل مؤسس الحزب والمستحوذ على عواطف الشباب ، وإنما ظهرت أيام محمد فريد وخاصة بعد سفر الجاويش إلى الأستانة سنة ١٩١٢ عندما كانت سلطات الاحتلال تتأهب لاعتقاله بسبب مشاركته في إرسال السلاح للمجاهدين في (طرابلس الغرب) ضد الغزو الإيطالي .

ترك « محمد فريد » مصر في ٢٧ مارس ١٩١٢ وأرسل برقية للجاويش لانتظاره في الأستانة ، ولكن عندما وصل « محمد فريد وإسماعيل ليبب » الأستانة صباح الأحد ٣١ مارس لم يجدا « الجاويش » في انتظارهما ، وإنما أرسل إليهما مدير جريدته (الهلال العثماني) التي كان يصدرها هناك ، ورفض « إسماعيل ليبب » أن يذهب إلى مقر الجريدة حيث « الجاويش » لأنه استاء من عدم انتظاره لهما ، ولكن « محمد فريد » ذهب على مضض .

ليس من الغريب إذن ألا نجد رسالة واحدة من الجاويش إلى محمد فريد أو من محمد فريد إلى الجاويش ضمن (مراسلات محمد فريد) التي بلغت (٣٨٥) رسالة باللغات العربية والفرنسية والانجليزية ، وليس من الغريب أيضا ألا نجد رسالة واحدة من الجاويش إلى مصطفى كامل أو من مصطفى كامل إلى الجاويش ضمن (مراسلات مصطفى كامل) التي بلغت (١٩٨) رسالة .

لم يتحدث « محمد فريد » بأسى ومرارة في مذكراته مثلما تحدث عن « الشيخ عبد العزيز جاويش » منذ اليوم الأول لوصول « فريد » إلى الأستانة في ٣١ مارس ١٩١٢ ، وفي صيف ١٩١٢ حضر « الخديو » إلى الأستانة وقرر « فريد » أن يقوم الطلبة المصريون هناك بتظاهرة ضد الخديو ولكن (ظهرت معاكسة الشيخ لى فى أعمالى السياسية وكلمنى فى منعها ونصح الطلبة بالعدول عنها . . وقال لى أمام جميع الحاضرين . . اسمح لى بأن أحاربك فى هذه المسألة فقلت له أفعل ماشرت) لم يكن « الجاويش » إذن مجرد عضو عادى بالحزب الوطنى ، ولكنه كان يرى فى نفسه نظيرا لرئيس الحزب لايمثل لقراراته وإنما يتصرف حسب رأيه الخاص .

وسرعان ما تبدل الوضع السياسى فى الأستانة وكان فريد قد أدرك هذا الأمر فسافر إلى باريس قبل أن يقع التغيير ويقبض على « الشيخ جاويش » فى ٤ سبتمبر ١٩١٢ ويسلم إلى سلطات الاحتلال بمصر ، وأفرج عنه لعدم كفاية الأدلة على شرط ألا يقيم بمصر فسافر إلى الأستانة فى ٢٠ أكتوبر ١٩١٢ ، وعندما عاد « فريد » إلى الأستانة فى ٢٣ فبراير سنة ١٩١٣ وجد « الجاويش » قد تغير تماما وامتنع عن ان يكتب لى شيئا فى جريدته (الحق يعلو) لاضد الخديو ولا ضد الانجليز ، ثم علمت من محمد بك كامل نجاتى بأنه رأى عنده محمود أفندى وصفى وكيل الخديو وأنه اختلى به فتأكدت من وجود علاقات بينه وبين رجال المعية .

ويمضى فريد فى مذكراته . . (أول سبتمبر ١٩١٣ أخبرنى عبد الملك أفندى حمزة بحضور على محمد بأن الشيخ جاويش كتب لاسماعيل شرين سكرتير محمد سعيد باشا يطلب منه أن يسغى لى لدى الحكومة أن يتيح له العودة لمصر على شرط ألا يشتغل بالسياسة مطلقا ، وأخبرنى عبد الملك أفندى أيضا بأنه سمع من القولى والد زوجة الشيخ جاويش ، بأن الحكومة عرضت على الشيخ أن يوظف بوظيفة شرعية) أكثر من هذا فى ٢٧ أكتوبر ١٩١٣ يسجل فريد - عدت لباريس فى مساء ٢٧ فوجدت جوابا من الأستانة يفيد أن الشيخ عبد العزيز لاينحى سياسته الجديدة بل يعلن أنها سياسة اعتدال ، وأنه ملازم دائما لسعيد بك الشيمى رئيس جواسيس المعية) .

وأعلنت الحرب العالمية الأولى فى أول أغسطس ١٩١٤ ، وعاد الاتفاق بين الخديو ومحمد فريد والحزب الوطنى والأتراك لإعداد حملة تركية تدخل مصر ومعها « الخديو عباس » الذى كان مقبيا فى الأستانة ، ونصح الخديو عباس الجميع بتصفية الخلافات فى مواجهة « الصدر الأعظم سعيد حليم باشا » الذى كان يطمع فى عرش مصر . . وهنا يبرز دور جديد للشيخ جاويش يسجله فريد فى مذكراته ص ٩٢ ، ص ٩٣ على الوجه التالى - قال سعيد حليم باشا بأن مصر لايمكن أن تكون للمصريين بل هى ملك للترك ، والمصريون بها كالبهائم وأن الخديو عباس مخطئ فى اتفاه

مع الحزب الوطنى . .) ويقول فريد . . (سعيد حليم باشا يشتغل مع حلمى مسلم وعهاد الدين وكيل دائرته ، وأخيه الدكتور بهجت وهبى لتأليف حزب مصرى جديد يدعونه بالحزب الوطنى تحت رئاسة الشيخ عبد العزيز جاويش ، يكون مبدؤه محاربة الخديو عباس والسعى فى تولية سعيد حليم مكانه .

وسارع الإنجليز بإعلان الحماية على مصر فى ديسمبر ١٩١٤ ، وب عزل الخديو عباس وبتعيين عمه « حسين كامل » سلطانا لمصر تحت الحماية الانكليزية . وفى ٢٩ مايو ١٩١٥ تم الإعداد للحملة التركية على مصر وحرص « الشيخ الجاويش » السلطات التركية ألا تصحب الحملة معها « إسماعيل لبيب » لأنه من الجناح الذى يقول باستقلال مصر وانفصالها عن تركيا تماما ، فى حين أن الشيخ يقول بأن تكون مصر ولاية عثمانية .

وفى نوفمبر ١٩١٦ قدمت تركيا أموالا لعوض البحراوى وإسماعيل كامل والجاويش وعبد الملك حمزة لإصدار (مجلة مصر) وظهر العدد الأول من هذه المجلة فى ١٧ نوفمبر . وقد حمل « فريد » على هذه المجلة عندما وجد مقالا كتبه أحد الألمان يركز على انتزاع مصر من الانجليز .

أما مسألة ما إذا كانت مصر تحكم نفسها بعد ذلك أو لا فمسألة ثانوية ويعلق « فريد » على ذلك بقوله (هذا دليل جديد أن الشيخ ومن انضم إليه لا يخدمون الا صالحهم الشخصى) . وفى مايو ١٩١٧ سعى الجاويش لمصالحة محمد فريد ولكن « فريد » يسجل - إنى مصمم على ألا أضع يدى فى يد هذا الرجل مادمت حيا بعد ما ارتكبه فى حقى من الوشايات والسعايات لدى الأتراك بقصد الإفساد بينى وبينهم) .

ونعرف من المذكرات أنه تم صلح بين فريد و جاويش فى يناير ١٩١٨ ، وأن الجاويش سافر إلى الأستانة يوم الجمعة ١٨ يناير للحصول على أموال للصرف على الحزب الوطنى ، ولكن الجاويش يقابل الخديو ويتفق معه أن يعمل الخديو مع غير الحزب الوطنى ويعلق « محمد فريد » على صفحة ٢٧٢ من مذكراته - ليس من الغريب أن يسعى جاويش فى أن يكون العمل بغير اسم الحزب الوطنى لأنه يرمى بذلك إزالة صفة الرئاسة وأن ينتخب هو رئيسا لهيئة جديدة) .

ويظل « محمد فريد » و « عبد العزيز جاويش » يتخاصمان ويتصالحان ، ويحجى شهر نوفمبر ١٩١٨ وتعلن هزيمة تركيا ويهرب الجاويش من الأستانة إلى برلين ، ويتشكل الوفد المصرى برئاسة « سعد زغلول » وفى ٩ مارس تقوم الثورة القومية الكبرى ويسجل « محمد فريد » على صفحة ٣٠٣ (الذى يمكن قوله إن هذه الحركة لم تكن فى الحسبان وإن ما أظهره المصريون من التضامن والاتفاق ما كان أحد ليحلم به) .

الانعزال والإرهاب

فاجأت الثورة الشعبية المناضلين خارج مصر ، وسارع محمد فريد وعبد العزيز بإرسال برقيات تهنئة لسعد زغلول ، ووقعت قيادة الحزب الوطنى فريسة الانعزال عن الحركة الجماهيرية حتى توفى « محمد فريد » فى ألمانيا ، فى ١٥ نوفمبر ووقف « عبد العزيز جاويش » يؤبنه وقال : (أبصر فريد كيف اتحدت كلمة الشعب ، وكيف نافس فى سبيل الوطن أطفال الأمة ، الشيوخ ونساؤها والرجال ، ومسيحيوها المسلمين ، وكيف تعانق الهلال والصليب ، والقرآن والإنجيل ، وتعانق الشيخ والقسيس) . ولما جرت أول انتخابات عامة طبقا لدستور ١٩٢٣ ، ورشح الشيخ عبد العزيز جاويش نفسه عن دائرة كرموز بالإسكندرية وقف ، إلى جانبه « جندى إبراهيم » صاحب جريدة الوطن بمقال طويل نشر فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٣ ، وبذلك أكد الفريقان أن أية خلافات بين عنصرى الأمة يمكن محاصرتها وتجاوزها بصوت العقل والحكمة .

ومهما يكن من أمر فقد قبض على « الجاويش » يوم ١٢ يوليو ١٩٢٤ حين جرت محاولة لاغتيال « سعد زغلول » رئيس الوزراء وزعيم الأمة وأعادت إلى الأذهان محاولات الاغتيال الأخرى التى نسبت إلى الحزب الوطنى ، والجمعيات السرية التى كان يقف خلفها « الجاويش » ولقد كان الجناح السرى هو أقوى أجنحة الحزب الوطنى بعد أن دخل الحزب الوطنى مرحلة التشرذم والتفتت أمام (الوفد) الذى سيطر على الشارع المصرى وقت ذاك لم تكن أبدى هذا الجناح الذى يؤيده الجاويش بعيدة عن محاولة اغتيال زعيم الثورة ، كما إنها لم تكن بعيدة عن اغتيال « السردار » الذى أعقبته استقالة وزارة سعد فى نوفمبر ١٩٢٤ ، وزيادة تحكم الانجليز فى مقدرات البلاد ، واجهاض ثورة ١٩١٩ ، وأعقبه أيضا إصدار « زيور » رئيس الوزراء الجديد قرارا بتعيين « الجاويش » مديرا للتعليم الأولى .

وبعد وفاة « مصطفى كامل » انقسم الحزب الوطنى من الناحية الفعلية إلى أقسام مختلفة ، واشتدت نبرة « الجاويش » ولجأ كثيرون من أعضاء الحزب إلى العمل السرى ، وكان أبرزهم « إبراهيم الوردانى » الذى كانت له صلات قديمة ، وبعد أن تولى « الجاويش » رئاسة تحرير اللواء فى سنة ١٩٠٨ كان له تأثير قوى على الشباب وخاصة أعضاء الجمعيات السرية التى انتشرت فى البلاد ، إلى درجة أن « الخديو » نفسه فى فترة تباعد الحزب الوطنى عنه أو عز إلى « الشيخ على يوسف » بتأسيس (جمعية الاخلاص الإسلامية) كجمعية سرية تحارب الحزب الوطنى .

وإلى جانب الجمعيات السرية وجد « عبد العزيز جاويش » فى الصحافة وسيلة علنية للتعبير عن مواقفه وأفكاره ، وقد ظهرت جريدة اللواء فى ٢ يناير ١٩٠٠ قبل الإعلان الرسمى عن الحزب الوطنى بسنوات ست ، وقد هاجم اللواء أحمد عرابى وثورته والشيخ محمد عبده وأفكاره وقاسم

أمين ودعوته إلى المرأة الجديدة وكان « عبد العزيز جاويش » من كتاب اللواء البارزين ، واتفقت اتجاهاته في ذلك المجال مع اتجاهات مصطفى كامل ومحمد فريد ، وعلى الرغم من أن اللواء صدرت بتأييد من « الخديو » وعلى الرغم من أن مصطفى وفريد والجاويش حاربوا قاسم أمين وتحرير المرأة (تقريبا للخديو ولذوى الأفكار المتخلفة - على حد تعبير سعد زغلول في مذكراته - إلا أننا نجد شخصية أخرى أكثر تبعية للخديو وهو الشيخ على يوسف « ينشر بتأييد من « الشيخ محمد عبده » الذى وقف خلف « قاسم أمين » ودعوته ينشر كتاب « المرأة الجديدة » في حلقات على صفحات (المؤيد) .

وتوفى « مصطفى كامل » في ١٠ فبراير ١٩٠٨ ، وتولى « محمد فريد » رئاسة الحزب في ١٤ فبراير انفجر الصراع المكبوت داخل الحزب الوطنى وداخل جريدة اللواء وسلم « محمد فريد » رئاسة تحرير اللواء للجاويش حتى يقف في وجه مناورات « على فهمى كامل » واستقال من (اللواء) أحمد حلمى المحرر الأول واليد اليمنى لمصطفى كامل ، وأصدر مجلة (القطر المصرى) في ٢٤ ابريل ١٩٠٨ وظل الجاويش رئيسا لتحرير اللواء حتى اغلقتها السلطات في ٣١ أغسطس ١٩١٢ ، وقد عرف الجاويش بتطرف لهجته واتهمته السلطات بالتحريض على ارتكاب الجرائم ، وبإهانة الوزارة ، وارتفعت نبرته في الدفاع عن الدولة العثمانية ، وكانت له مقالات مشهورة في فترة الصراع الطائفى وقدم « الجاويش » أثناء رئاسته لتحرير اللواء « بداية من ٣ مايو ١٩٠٨ » للمحاكمة مرات ثلاثا الأولى بتهمة إهانة وزير الحرية ، والثانية بسبب مقال له في ذكرى دنشواى ، والثالثة بسبب مقدمة كتبها لديوان « وطنيتى » للشيخ على القايتى ، وبسبب أزمة (اللواء) المالية والصراع الموجه بين الورثة ، ترك « محمد فريد » اللواء وأصدر جريدة أخرى تحمل محل اللواء هى جريدة العلم ، وصدر العدد الأول منها يوم ٧ مارس ١٩١٠ ومديرها وصاحب امتيازها « اسماعيل أفندى حافظ » وقد عطلتها السلطات لمدة شهرين سنة ١٩١٠ ، وثلاثة شهور من ديسمبر ١٩١١ ، وعطلتها نهائيا في ٧ نوفمبر ١٩١٢ وكان « الجاويش » هو المحرر الأول لجريدة العلم ايضا ، وضيقّت السلطات الخناق عليه فخرج من مصر وسافر إلى الأستانة حيث اصدر هناك (الهلال العثمانى) بأموال الدوائر الحاكمة العثمانية ، ومالبث ان لحق به هناك « محمد فريد » في ٣١ مارس ١٩١٢

الجامعة الأهلية

هذه فرصة للحديث الموثق عن (الجامعة الأهلية) وحقيقة موقف الشخصيات المختلفة منها ، بدأت (مجلة الهلال) التمهيد لهذا المشروع في سنوات ١٨٩٨ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٣ ، وانضمت مجلة (المقتطف) لمجلة الهلال في هذه الدعوة ، وفي سنة ١٩٠٤ اقترح « مصطفى كامل » إنشاء (كلية محمد علي) ، وسنة ١٩٠٥ تبنى « الشيخ محمد عبده » المشروع ودعا الاثرياء للتبرع له وبعد أن رحل الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ ، دعا مصطفى كامل المصريين للتبرع لهذا المشروع وكان ذلك سنة ١٩٠٦ على أن تكون الجامعة (لانتختص بجنس أو دين بل تكون لجميع السكان على اختلاف جنسياتهم وأديانهم) وبذلك يكون « مصطفى كامل » هو الذى حدد الاتجاه العلماني لهذه الجامعة منذ البداية ، وتمت الدعوة لاجتماع يعقد في ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ لمناقشة الاكتتاب ووضع الأسس العامة لهذه الجامعة وعقد الاجتماع بدار سعد زغلول وحضره ٢٧ شخصا نجد من بينهم « سعد زغلول وقاسم أمين ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وأخنوخ فانوس وعبد العزيز فهمي » ، وقرر المجتمعون تكوين لجنة تحضيرية من « سعد زغلول » وكيلا للرئيس ، وقاسم أمين سكرتيرا للجنة وحسن سعيد أمينا للصندوق وعضوية « محمد عثمان أباطة » ، ومحمد راسم ، وحسن مجموع ، وحسين السيوفى ، وأخنوخ فانوس ، وزكريا فانوس ، ومحمد الشيشينى ، ومصطفى الغمراوى « على أن يكون اسم الجامعة هو (الجامعة المصرية) وتأجل اختيار الرئيس . واستاء « مصطفى كامل » وأرسل من أوروبا أنه سبق سعد زغلول وقاسم أمين في الفكرة ، ويجب أن يكون تنفيذ المشروع تحت رعايته ، إلا أن اللجنة مضت في عملها وتمحست الأمة للمشروع ، ويوم ٣٠ نوفمبر عقدت اللجنة جلسة ثانية في منزل « حسن مجموع » وحضر الاجتماع « سعد زغلول وقاسم أمين ومحمد فريد » وتم اختيار « قاسم أمين » نائبا لرئيس اللجنة مكان سعد زغلول الذى كان قد اختير وزيرا للمعارف حتى يتفرغ لمنصبه الجديد ، واختير « محمد فريد » سكرتيرا محل قاسم أمين .

ثم سافر « محمد فريد » إلى أوروبا وطال غيابه فاختارت اللجنة « حفى ناصف » سكرتيرا ، ولم نجد اسم « الجاويش » في اللجان التالية ، وهاجم « محمد فريد » أعمال اللجنة على صفحات (الدستور) و(اللواء) وشنت اللواء حملة على أعضاء اللجنة ، وهاجها في خطبه بعد رحيل مصطفى كامل ، وللتاريخ فإن « الشيخ على يوسف » وقف إلى جانب المشروع وهاجم موقف محمد فريد والحزب الوطنى واللواء ، وانتقد « سعد زغلول » موقف فريد وأنصاره (لأن الهمم فائرة من طبيعتها فليست هى فى حاجة إلى من يشبطها) على أية حال تشكل مجلس إدارة الجامعة برئاسة الأمير « أحمد فؤاد » وعقد أول جلسة له فى ٢٤ مايو ١٩٠٨ ، وكان « مصطفى كامل » قد رحل ، وابتعد عن المشروع « محمد فريد » و« الجاويش » والحزب الوطنى .



عبد العزيز فهمى

رحم الله الشيخ « محمد عبده » الذى استعاذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن عبارات ساس ويسوس وسائس ومسوس .

ولعل الأستاذ الإمام يشير فيها يشير إليه من مثالب السياسة إلى أنها قد تصرف عبقرى عن جانب أو جوانب من عبقريته ، أو تصرف معاصريه المخالفين له فى رأى عن الإرشادة بهذا الجانب أو ذاك من الموهبة ، أو تجعلهم يسلطون الأضواء على جوانب الضعف دون جوانب القوة .

وهذا ما حدث لذلك الرجل العظيم « عبد العزيز فهمى » الذى أساءت السياسة إليه فاعتزلها واعتزل الحياة العامة وعاد إلى قريته « كفر المصيلحة » بمحافظة المنوفية ، وخلع ملابس المدينة وارتدى الجلباب والعباءة ، وانصرف يعلم الناس القراءة والكتابة حتى لم يعد فى القرية واحد يجمل القراءة والكتابة . وأسس الجمعية التعاونية وأقام المساجد ، وكأنه يقول لمنافسيه من رجال السياسة ، إليكم دولتكم السياسية اغرقوا فى « ساس ويسوس ومسوس » حتى الذقون ، واتركوني وشأني مع أهلى البسطاء ومع قريتي الصغيرة وأنا هم على الله نتعلم القراءة والكتابة ونتعاون على الحياة .

ويبدو أن الرجل كان يدرك مواهبه الحقيقية ويخشى عليها من السياسة ومن الساسة ، ففى أواخر سنة ١٩٢٢ وقف خلف تأسيس حزب الأحرار الدستوريين مع المنشقين على سعد زغلول ، ولكنه ترك رئاسة الحزب إلى « عدلى يكن » بل ولم يكن عضواً بالحزب ، وبعد أن استقال « عدلى يكن » من رئاسة حزب الأحرار الدستوريين فى أواخر ديسمبر ١٩٢٤ كتب إليه « محمد محمود وحافظ عفيفى » والى عليه قادة الحزب لى يتولى رئاسة الحزب ولو إلى حين ومرة أخرى اختير



عبد العزيز فهمى

رحم الله الشيخ « محمد عبده » الذى استعاذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن عبارات ساس ويسوس وسائس ومسوس .

ولعل الأستاذ الإمام يشير فيها يشير إليه من مثالب السياسة إلى أنها قد تصرف عبقرى عن جانب أو جوانب من عبقريته ، أو تصرف معاصريه المخالفين له فى رأى عن الإرشادة بهذا الجانب أو ذاك من الموهبة ، أو تجعلهم يسلطون الأضواء على جوانب الضعف دون جوانب القوة .

وهذا ما حدث لذلك الرجل العظيم « عبد العزيز فهمى » الذى أساءت السياسة إليه فاعتزلها واعتزل الحياة العامة وعاد إلى قريته « كفر المصيلحة » بمحافظة المنوفية ، وخلع ملابس المدينة وارتدى الجلباب والعباءة ، وانصرف يعلم الناس القراءة والكتابة حتى لم يعد فى القرية واحد يجمل القراءة والكتابة . وأسس الجمعية التعاونية وأقام المساجد ، وكأنه يقول لمنافسيه من رجال السياسة ، إليكم دولتكم السياسية اغرقوا فى « ساس ويسوس ومسوس » حتى الذقون ، واتركوني وشأني مع أهلى البسطاء ومع قريتي الصغيرة وأنا وهم على الله نتعلم القراءة والكتابة ونتعاون على الحياة .

ويبدو أن الرجل كان يدرك مواهبه الحقيقية ويخشى عليها من السياسة ومن الساسة ، ففى أواخر سنة ١٩٢٢ وقف خلف تأسيس حزب الأحرار الدستوريين مع المنشقين على سعد زغلول ، ولكنه ترك رئاسة الحزب إلى « عدلى يكن » بل ولم يكن عضواً بالحزب ، وبعد أن استقال « عدلى يكن » من رئاسة حزب الأحرار الدستوريين فى أواخر ديسمبر ١٩٢٤ كتب إليه « محمد محمود وحافظ عفيفى » والى عليه قادة الحزب لى يتولى رئاسة الحزب ولو إلى حين ومرة أخرى اختير

رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين بعد وفاة « محمد محمود » في فبراير سنة ١٩٤١ . وكان في كل مرة عازفا عن الرئاسة ويتحين الفرصة ليرتكها في أقرب وقت .

بعيدا عن السياسة

وبعيدا عن السياسة نراه شاعرا مشهودا له وإن كان هذا الجانب غير شهير به قال عنه الدكتور طه حسين . . « ما أعرف أن احدا أصلح من رأى في الشعر العربي كما أصلح من رأى عبد العزيز فهمى وما أعرف أن أجدا دنا ناقشنى من الشعر الجاهلى كما ناقشنى فيه عبد العزيز » له قصيدة طويلة من ٣٤٠ بيتا قال عنها من قرأها إنها ثامنة المعلقات إشارة إلى المعلقات السبع وتلك هى الثامنة . ويقول الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام فى كتابه « المجمعون فى خمسين عاما » إن الأستاذ محمد شوقى أمين عضو المجمع ، عنده قصيدتان طويلتان رصيتان للشاعر « عبد العزيز فهمى » . . ليت الأستاذ محمد شوقى أمين يعيد على شباب اليوم نشر هاتين القصيدتين . . وليت عبد العزيز فهمى ابتعد عن السياسة وبقي شاعرا كبيرا من شعراء العربية .

وبعيدا عن السياسة نراه عضوا بمجمع اللغة العربية منذ سنة ١٩٤٠م إلى سنة وفاته ١٩٥١م . وفى المجمع كان له نشاط كبير ، واشترك فى كثير من لجانه مثل لجنة الأصول ، ولجنة الاقتصاد ، ولجنة القانون ولجنة ألفاظ الحضارة الحديثة ، ولجنة اللهجات ، ولجنة نشر النصوص القديمة .

وقد تقدم للمجمع باقتراح رأى أنه السبيل لتيسير الكتابة العربية وجعلها صالحة لضبط النطق وهو أن تكون الكتابة بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية . وقد كان لهذا الاقتراح صدى كبير ، فكان مجالا لمناقشات طويلة لم تقتصر على قاعة جلسات المجمع ، بل تعدتها إلى الصحافة وإلى الهيئات المعنية بالدراسات اللغوية ، وانتهى الأمر برفض المشروع .

ومهما يكن من أمر ، ليت عبد العزيز فهمى ابتعد عن السياسة إذن لكسبت اللغة العربية عالما كبيرا إلى جانب أحمد لطفى السيد وطه حسين .

حرية الفكر

وهذا الرائد العظيم واحد من مدرسة عظيمة تضم « أحمد لطفى السيد والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ على عبد الرازق ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور طه حسين ، وإبراهيم

دسوقي أباطة . . هذه المدرسة التي نؤثر ان نسميها «مدرسة التنوير» وإن تربت في أحضان حزب محافظ سياسيا هو حزب الأحرار الدستوريين ، ولكن كانت لها مواقف شجاعة دفاعا عن حرية الرأي وعن حرية الفكر .

في ٣ مارس سنة ١٩٢٤ أعلن « مصطفى كمال أتاتورك » إلغاء الخلافة العثمانية ، فأوعز الانجليز إلى الملك فؤاد بأن يتولى منصب الخلافة ، ولما كان الملك فؤاد هو من هو في صفاته وأخلاقياته ومن منطلق وطني ديمقراطي وقفت مدرسة الاستنارة وفي مقدمتها عبد العزيز فهمي ضد فكرة أن يتولى الملك فؤاد الخلافة ، واستطاعت هذه المجموعة بثقلها الفكري والثقافي والحزبي أن تجعل حزب الأحرار الدستوريين بأسره يقف ضد هذه المحاولة ووقف الوفد إلى جانب الأحرار .

وبهذا الصدد أصدر الشيخ على عبد الرازق القاضي الشرعي بمحكمة المنصورة كتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم» سنة ١٩٢٥ بهدف سد الطريق أمام الملك فؤاد وأمام الانجليز الذين أرادوا أن يستخدموا فكرة الخلافة في إضفاء صفة الشرعية على تصرفاتهم وتصرفات الملك فؤاد .

وأثار الكتاب عاصفة في الحياة السياسية والثقافية والدينية ، قادها الملك فؤاد سرا وعلاية فعددت « هيئة كبار العلماء » محاكمة تأديبية للمؤلف أنهت بالحكم عليه بما يؤدي إلى فصله من وظيفته وتجريم توليه الوظائف المدنية أو الدينية وحكم بتجريمه من « شهادة العالمية » .

وكان عبد العزيز فهمي وزيرا للحقانية في وزارة أحمد زيور الثانية التي شكلها في ١٣ مارس ١٩٢٥ وكان في تلك السنة رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين ، وانعكس الخلاف الحاد حول كتاب « الإسلام وأصول الحكم » على وزارة زيور التي ضمت عناصر كثيرة موالية للملك فؤاد الطامع في الخلافة ، وأصبح على وزير الحقانية عبد العزيز فهمي بعد قرار « هيئة كبار العلماء » ان يصدر قرارا بفصل الشيخ على عبد الرازق من منصبه ، وقال الرجل في قوله المشهور : « بأى حق في الكتاب أو في السنة أو في الدستور أو في القانون أصادر حرية الرأي وأعتدى على حرمة العلم وكرامة العلماء » وقال : « استحضرت هذا الكتاب وقرأته فلم أجد فيه ادنى فكرة يؤخذ عليها مؤلفه » ، وأصر الملك فؤاد على فصل الشيخ المؤلف .

ورفض الرجل أن يصدر قرارا بفصل المؤلف وأعد استقالته لأنه كاره بطبعه للسياسة وللمنصب . وجاء أمر الملك فؤاد بأن يقدم الوزير استقالته وهنا تغير موقف عبد العزيز فهمي ابن كفر المصيلحة ومزق الاستقالة وصاح : « أنا لن استقبل . . وعلى الملك أن يقبلني بمرسوم أو أن يقدم رئيس الوزراء استقالة الوزارة ولا يدخلني في الوزارة . وكان زيور باشا يستشفى في الخارج تاركا تصريف الأمور ليحيى إبراهيم ، وتاركا البلاد لرئيس الديوان الملكي حسن نشأت فاستصدر

يحى إبراهيم مرسوما بإحالة أعمال وزير الحقانية إلى وزير المعارف على ماهر ! فلزم الرجل بيته
وقدم توفيق دوس ومحمد على علوبة استقالتيهما من الوزارة تضامنا مع عبد العزيز فهمى وكان
إسماعيل صديقى وزير الداخلية فى أوروبا فاستقال تلغرافيا .

وفى ٨ مارس ١٩٢٥ أصدر حزب الأحرار الدستوريين قرارا باجماع الحاضرين نسجله هنا
لأهميته التاريخية :

- الثقة التامة بسيادة رئيس الحزب عبد العزيز فهمى باشا وبزميله محمد على علوبة باشا
وتوفيق دوس باشا .

- استنكار ما يروجه خصوم الحزب من أن هذا التصرف المخالف للدستور منشؤه مسألة دينية .
ونعلن أن حزب الأحرار الدستوريين يحافظ اشد المحافظة على أن الإسلام دين الدولة .

- عدم التعاون مع الحكومة واستقالة الوزراء الأحرار الدستوريين . .

وارتاح عبد العزيز فهمى من هموم المنصب الوزارى الذى لم يكن راغبا فيه . ولم يبق يثقل
كاهله إلا رياسته لحزب الأحرار الدستوريين فاستقال منها سنة ١٩٢٦ وجاء بعده محمد محمود ،
واشتهر فى تلك الفترة ، وفى مواجهة تلك الأزمة بخطابه المشهور « حنانيك يانشأت » والمقصود
به حسن نشأت الذى كان رئيسا للديوان الملكى ، والرئيس الفعلى لحزب الاتحاد حزب الملك
فؤاد .

النزاهة المبكرة

مكث فى مدرسة الحقوق حتى سنة ١٨٨٩ ، وكان وقتئذ فى السنة النهائية وتقدم إلى وظيفة
مترجم ونجح على الرغم من بقاء عدة شهور على امتحان ليسانص الحقوق ، وبعدها حصل على
الليسانس سنة ١٨٩٠ وعمره أقل من عشرين عاما . وحدث وهو فى عمله كمترجم أن وصلته
دعوة لمقابلة السير ملنر « وهو اللورد ملنر رئيس لجنة ملنر » فيما بعد إبان الحركة الوطنية . وكان
فى ذلك الحين وكيلًا لوزارة المالية وصاحب الشأن الفعلى ، وعرض عليه وظيفة معاون إدارة
بالدقهلية بمرتب ١٢ جنيها . ويقول فى كتابه « هذه حياتى » . . ولما كنا فى أوائل شهر أغسطس
سنة ١٨٩٢ واخذ النيل فى الارتفاع فنصبت « خصا » من البوص على جسر البحر وأرسل لى
والدى بغلة أركبها فى المرور على الدرك المخصص لى وقد اتبعت فى عشى خطة لم تكن متبعة من
قبل تلك أنى دفعت ثمن البوص والخشب اللازم للخص من مالى ، ولم أقبل من أى من الوجهاء
أن يقدم لبغلتى شيئا من التبن ولا من العليق ، كما جرت عادة المعاونين .

ولما انتهت فترة زحف النيل في تلك السنة ١٨٩٢م جاءني أمر من المدير ألا أرجع إلى المنصورة، بل أقوم بالتحصيل في البلاد التي كان أهلها يخفرون النيل في دركي . وهنا أقول إنني لم أطلق البقاء بعد ١٨٩٢ بالإدارة فتبادلت مع كاتب اسمه بسيوني أفندى بمحكمة طنطا فجاء معاونا بالدقهلية بدلي ، وذهبت كاتباً بمحكمة طنطا بدله ، وسنة ١٨٩٣ نقلت معاونا لنيابة قنا ومعاونا لنيابة أسنا ١٨٩٤ ، ونيابة نجع حمادى ١٨٩٥ ، ونيابة بنى سويف ١٨٩٥ وهناك التقيت بصديقى أحمد لطفى السيد الذى كان عضواً بنيابة بنى سويف ، وسنة ١٨٩٧ في منتصفها عينت وكيلاً للمستشار القضائى بالأوقاف ، ولكن طبيعة عبد العزيز فهمى قلقة وسرعان ما زهد في الوظيفة .

وسنة ١٩٠٣ استقال عبد العزيز فهمى وبدأ العمل بالمحاماة وفتح مكتباً في ميدان العتبة الخضراء . وكان زميله في هذا المكتب صديقه عزيز منسى وظل المكتب يعمل حتى استقال أحمد لطفى السيد سنة ١٩٠٦ وانضم إليهما في المكتب .

بيت الأمة

وفي يوليو سنة ١٩١٣ صدر قانون بإنشاء الجمعية التشريعية لتحل محل مجلس شورى القوانين والجمعيات العمومية . . ويقول في « هذه حياتى » . . لم أكن ممن يميلون لترشيح أنفسهم وخوض المعارك الانتخابية ولكن صديقى محمد علوى الجزار هو الذى جعل أهالى قويسنا يرشحونى ويتخبوننى عن دائرتهم وافتتحت الجمعية التشريعية في ٢٢ يناير ١٩١٤ وتعطلت أعمالها في ديسمبر من السنة نفسها لفرض الحماية على مصر .

وفي ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ - وهو يوم الهدنة - طلبنا من سير ريجنلد ونجت المعتمد البريطانى تحديد موعد لمقابلته فحدد لنا الساعة الحادية عشرة من صباح ١٣ نوفمبر ، ومما أذكره هنا أننا ونحن مجتمعون بمنزل سعد باشا حضر اثنان من الحزب الوطنى هما مصطفى الشورىجى ومحمد زكى على واعترضا على انفرادنا بتأليف الوفد دون تفكير في الحزب الوطنى وغيره ، وقال مصطفى الشورىجى لسعد باشا ليس هذا بيتك . . إنه بيت الأمة . . وسارت مثلاً .

ويواصل عبد العزيز فهمى ذكرياته : وكان الأمر قد وصل بالأمر عمر طوسون والحزب الوطنى وبعض أعضاء الجمعية التشريعية إلى تأليف وفد آخر إلى جانب وفدنا فاتفقنا على فكرة ترضى الجميع وهى أن كل من كان عضواً في الجمعية التشريعية يكون عضواً في وفدنا .

هو إذن ثانى الثلاثة الذين قابلوا المعتمد البريطانى في الساعة الحادية عشرة يوم ١٣ نوفمبر

١٩١٨ « سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى » وهو عضو الوفد المصرى فى تشكيله الأول وتؤكد الوثائق التاريخية دوره فى التمهيد لتشكيل الوفد ، ودوره فى المطالبة باستقلال مصر ، وهو الذى تولى كتابة محضر بما دار فى تلك المقابلة التاريخية ، وقد كان التشكيل الأول للوفد من سعد زغلول وعبد العزيز فهمى ومحمد على علوبة وعبد اللطيف المكباتى ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد .

وفى ٨ مارس سنة ١٩١٩ اعتقل سعد باشا وإسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحيد الباسل باشا ونفاهم الانجليز إلى مالطة ، وغداة الاعتقال اشتعلت الثورة القومية الكبرى .
وسافر عبد العزيز فهمى مع الوفد إلى باريس ولندن واختلفت وجهات النظر داخل الوفد فاستقال عبد العزيز من الوفد فى يناير ١٩٢١ ووقف خلف تشكيل حزب الأحرار الدستوريين دون أن ينضم إليه .

ليس من الأشقياء

أعلنت وزارة عبد الخالق ثروت الاستقلال حسب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، وشكلت لجنة لوضع الدستور كان من أبرز أعضائها عبد العزيز فهمى وبرئاسة حسين رشدى باشا ، وفى تلك الأثناء كان زعيم الشعب سعد باشا فى المنفى فى سيشل وقاطع الوفد والحزب الوطنى لجنة الدستور، وطالب الوفد بجمعية تأسيسية منتخبة لوضع الدستور وأطلق سعد باشا عبارة « لجنة الاشقياء » على لجنة الدستور . على أى حال جاء مشروع الدستور الذى انتهت إليه اللجنة مخيبا لآمال الملك فؤاد . وغضب الملك على رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت لأنه لم يعترض على النتائج التى توصلت إليها لجنة الدستور فاستقال فى أواخر أكتوبر ١٩٢٢ وجاءت وزارة توفيق نسيم وأدخلت تعديلات على مشروع لجنة الدستور وجاءت وزارة أخرى برئاسة يحيى إبراهيم وتصدى فقيه ذلك العصر عبد العزيز فهمى لهذه المحاولات . ونشر فى الصحف نص الخطابات التى وجهها إلى رئيس الوزراء يحيى إبراهيم مطالباً بالعدول عن كل تعديل فيما انتهت إليه لجنة الدستور. وفى هذه الخطابات حدد عبد العزيز فهمى نقاطا هامة تشهد له أنه لم يكن ضمن الاشقياء الذين ساءروا الملك داخل لجنة الدستور . . وأهم هذه النقاط :

- السيادة هى سيادة الأمة ، فلا بد أن تكون الأمة وليس الملك مصدر السلطات .
- إن حل مجلس النواب من جانب الملك ينبغى أن يكون مقيدا ، وإن حل مجلس الشيوخ محظور عليه .
- إن الملك لا حق له فى تعيين نصف أعضاء مجلس الشيوخ - كما ذهب إليه التعديل - ويكتفى

بتعيين ثلاثين عضوا فقط يختارهم الملك عن طريق الوزارة الدستورية .

- الملك ليس من حقه إصدار مراسيم في غيبة البرلمان .

- ليس من حق الملك ان يلحق بإدارته شئون التعليم الدينى وإدارة الأوقاف

لقد كان عبد العزيز فهمى فى هذا الموقف صائغا قانونيا لوجدان الشعب . وبالفعل تم حذف فقرات هامة من التعديل الذى أدخل على بيان لجنة الدستور الذى أعلن فى ١٩ ابريل ١٩٢٣ وجاءت بموجبه وزارة الشعب الأولى بعد انتخابات حرة .

هذه حياته

هذه القيمة الدستورية العظيمة ، عضو الوفد المصرى الأول ، وأحد مؤسسى حزب الأحرار الدستوريين ، والمحامى النزيه وعضو لجنة دستور ١٩٢٣ ورئيس حزب الأحرار لفترتين «متفرقتين» ووزير الحقانية ووزير الدولة وعضو مجلس الشيوخ ورئيس المجلس . وأول رئيس لمحكمة النقض ، والقاضى العادل ، وعضو مجمع اللغة العربية ، والشاعر والأديب والمترجم ، المدافع الصنديد عن حرية الفكر ، والذى طالب بإلغاء تعدد الزوجات ، والمشرع الدقيق ، والمحامى الذى لا يقبل الدفاع عن الباطل . . هذه الشخصية الثرية يقول عن نفسه فى كتاب هذه حياتى : « نشأت فى أسرة من صميم الريف المصرى الذى اعتز به ولبثت فى الجامع الأزهر أعيد تسميع القرآن وأحفظ المتون . ولدت فى ليلة أول شوال سنة ١٢٨٥ هـ الموافقة ٢٣ ديسمبر ١٨٧٠ م » وسلام عليه يوم ولد ويوم مات فى فبراير ١٩٥١ .

الأسانيد :

- ١ - حافظ محمود « أسرار الماضى ١٩٠٧ - ١٩٥٢ » .
- ٢ - عبد العزيز فهمى « هذه حياتى » .
- ٣ - مجلة الطليعة « أغسطس ١٩٧٢ » .
- ٤ - مركز الوثائق والبحوث « مؤسسة الأهرام » « خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ » طبعة ١٩٦٩ .

عبد السلام فهمى جمعة



مدينة طنطا . . ذات التاريخ الشعبى والدينى والوطنى . . وسط هذا المزيج الفريد ينشأ بيت « جمعة » لا يخل على مصر بالشهداء إذا طلبت الاستشهاد ، ويقدم لها اثنين من أفضل العناصر الوطنية فى تاريخنا القريب . . الوالد وابنه أو الابن وأباه . . عبد السلام فهمى محمد جمعه والدكتور عزيز فهمى .

نشأ الأب « عبد السلام فهمى جمعة » فى مناخ الحركة الوطنية المصرية وهى تتبلور فى (الوفد المصرى) ، والثورة الشعبية الكبرى تشتعل ، وهو من قادتها فى مدينة (طنطا) وسط الدلتا . واتجهت التظاهرة الأولى يوم ١١ مارس ١٩١٩ إلى محطة السكة الحديد تمنع القطارات من الحركة فى هذا الاتجاه أو ذاك ، ووصلت الرسالة إلى أهالى الدلتا وبدءوا هم ايضا بالمشاركة فى هذا التيار الشعبى الجارف . وكانت توجيهات القيادة الوفدية فى طنطا هى الاحتجاج السلمى ، وهكذا كانت التظاهرة الأولى سلمية من الصباح حتى المساء .

وفى صباح يوم الأربعاء ١٢ مارس ١٩١٩ خرج أبناء « المعهد الأحمدي » هاتفين بحرية هذا الوطن ، وسارت جموعهم إلى المدارس كافة وانضمت إليهم الجماهير الثائرة ، إلى مبنى المديرية . ومن مبنى المديرية إلى المحطة حتى تتوقف حركة المواصلات احتجاجا ، ولكن شرذمة من جنود الاحتلال خرجت على المتظاهرين ترميهم بالرصاص فسقط أكثر من ٢٠ قتيل ، وحوالى ٥٠ جريحا . . من الشهداء أذكر اسماء « محمد إسماعيل » الطالب بالمعهد الأحمدي ، و« السيد يوسف المبيض » تاجر ، و« محمد عامر العربى » مزارع ، و« منصور فهمى جرجس » طالب ، و« محمود السيد جمعة » طالب وهكذا ضمت قائمة الشهداء طلاب المعهد الأحمدي ، وطلاب المدارس الثانوية ، والتاجر والمزارع . وفى مناخ الثورة الوطنية اكتملت شخصية « عبد السلام فهمى جمعة » .

والحديث عن الابن « الدكتور عزيز فهمى » هو جزء من الحديث عن الأب « عبد السلام فهمى جمعة » إذ إن الأب رمى بالابن فى أتون السياسة التى كان الأب من كبار شخصياتها ، وشارك فيها منذ نشبت الثورة والأب كان وراء الأبن العظيم يشركه فى رأى ، ويلقنه كل ما يهم الوطن ، وهذه الرعاية السياسية من الأب ملأت عزيزا بتلك النزعات السياسية وجعلته ذا حظ كبير يفوق حظ الناشئين الذين عاصروه . . ثم دفع الابن بالأبن إلى باريس ليحصل على مزيد من علم فى حقلى الحقوق وحقل الآداب . وكان له ما أراد وعاد الأبن إلى مصر عام ١٩٤٨ يحمل «دكتوراه» فى الحقوق ودكتوراه فى الآداب .

ليس غريبا إذن أن نتحدث عن الابن عندما نتحدث عن الأب ، وليس غريبا أيضا أن يقع العكس . . وها هو أستاذنا « الشيخ أحمد أمين » فى كتابه (حياتى) يتحدثنا عن رحلة له مع طلابه فى سنة ١٩٣١ ، وفى إجازة نصف السنة إلى العراق . يقول بأسلوبه الممتع : (كان يوما أيوم ، يوم « سر من رأى » وقد شاء الله أن تكون « سىء من رأى » ذلك أننا اعتزمنا زيارة سامرا وعبرنا نهر دجلة وحدث أن اراد طالب معنا أن يعبر الجسر المقام على دجلة فسقط بين المركبين ، وكانت الدنيا شتاء والبرد قارسا فاخرجناه والحمد لله سلبيا . . وكان هذا الطالب هو المرحوم « عزيز فهمى » نجل الأستاذ « عبد السلام فهمى جمعة » رئيس مجلس النواب سابقا وكان هذا الحدث ارهاصا لما حدث فيما بعد ، فقد ذهب الأستاذ بعد ذلك بسنين ، يريد أن يترافع فى قضية وفاته القطار ، فركب سيارة إلى بنى سويف ، فغرقت به فى الطريق ، (وكأن القدر حتم عليه أن يموت غريبا) .

رياسة مجلس النواب

تولى « عبد السلام فهمى جمعة » رياسة مجلس النواب مرتين . . الأولى من ٣٠ مارس سنة ١٩٤٢ إلى ١٥ نوفمبر ١٩٤٤ . والثانية من ١٦ يناير ١٩٥٠ إلى ١٠ مارس ١٩٥٢ . وبذلك يكون قد جلس على الكرسي الذى جلس عليه منذ ١٦ مارس ١٩٢٤ أول مجلس نواب فى ظل دستور ١٩٢٣ « أحمد مظلوم باشا ، وسعد زغلول باشا ، ومصطفى النحاس باشا ، ووصفا واصف بك ، ومحمد توفيق باشا والدكتور أحمد ماهر ، ومحمد بهى الدين بركات باشا ، ومحمد حامد جودة بك » . وإذا كان « أحمد مظلوم باشا » هو أول رئيس لمجلس النواب فى العهد البرلماني ، فقد كان أيضا رئيسا للجمعية التشريعية (ديسمبر ١٩١٣) .

وبهذا الصدد لا بأس أن نذكر أن الهيئات النيابية فى مصر بدأت سنة ١٨٢٤ وإن لم تكن كاملة الشكل أو السلطة . . كان فى مصر المجلس العالى ، وهو مجرد مجلس استشارى أيام « محمد على

الكبير » وقد تولى رياسته على التوالى « محمد لاطوغلى بك ومحمد شريف بك ، والحاج إبراهيم أفندى ، ومحمود أفندى ، وعبد شكري بك ، ومصطفى مختار بك ، وعبد الباقي بك » .

ثم بدأ مجلس « شورى النواب » أيام إسماعيل (١٨٦٦) وتولى رياسته على التوالى « إسماعيل راغب باشا ، وعبد الله عزت باشا ، والسيد أبو بكر راتب باشا ، وقاسم رسمى باشا ، وجعفر مظهر باشا ، وأحمد رشيد باشا ، وحسن راسم باشا » .

وأما مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية أيام الاحتلال وأيام توفيق ومن تلاه منذ ١٨٨٣ حتى قيام الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ فقد كان الرؤساء على الوجه التالى : « محمد سلطان باشا ، على شريف باشا ، عمر لطفى باشا ، إسماعيل محمد عبد الحميد صادق باشا ، الأمير حسين كامل باشا ، محمود فهمى باشا » .

ونعود إلى المرة الأولى التى تولى فيها « عبد السلام فهمى جمعة » رئاسة مجلس النواب من (٣٠ مارس ١٩٤٢ - ١٥ نوفمبر ١٩٤٤) فقد كانت فى ظل حكومة الوفد (٤ فبراير ١٩٤٢ - ٨ اكتوبر ١٩٤٤) ومعروف تاريخيا أن أحزاب (الأقلية السياسية) حاولت أن تشارك فى حكومة ٤ فبراير برياسة « مصطفى النحاس » ولكن « النحاس باشا » رفض بإصرار لسابق خبرته بالحكومات الائتلافية مع هذه الأحزاب . ثم طلبت تلك الأحزاب أن يسمح لها الوفد بنصف مقاعد مجلس النواب ورفض الوفد هذه النسبة وعرض على الأحزاب ربع عدد المقاعد ، ولم تقبل الأحزاب هذا العرض وأجريت الانتخابات وفاز فيها الوفد بنسبة ٨٩٪ من مقاعد مجلس النواب . وأقيمت حكومة « النحاس باشا » فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، وتولى رئاسة الحكومة « أحمد ماهر باشا » الذى استصدر قرارا بحل مجلس النواب الوفدى فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٤ .

وفى ٣ يناير ١٩٥٠ كانت الانتخابات الشهيرة التى فاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة . وتم انتخاب « عبد السلام فهمى جمعة » رئيسا لمجلس النواب للمرة الثانية . وبسقوط حكومة الوفد فى ٢٧ يناير سقط نظام كامل كان قد بدأ بحكم الوفد أيضا فى يناير ١٩٢٤ ، وكان فى درج « على ماهر » مرسوم موقع من الملك بحل مجلس النواب دون تحديد التاريخ ولكن « مرتضى المراغى وزير الداخلية أذاع مرسوم حل مجلس النواب على الصحف فى ١٠ مارس ١٩٥٢ .

المواجهة مع جريفرز

لن نتحدث عن الفترة القصيرة التى تولى فيها « عبد السلام فهمى محمد جمعة » وزارة الزراعة من ٦ فبراير إلى ٣١ مارس ١٩٤٢ لأن الفترة قصيرة ، وقد تم تعديل وزارى لأن « عبد السلام

جمعة» انتخب رئيسا لمجلس النواب في ٣٠ مارس ١٩٤٢ ، وحل مكانه وزيرا للزراعة « الأستاذ محمد فؤاد سرج الدين » . كما إنه في وزارة « مصطفى النحاس » الرابعة (٣ أغسطس ١٩٣٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) وهى الوزارة التى عين فيها « عبد السلام فهمى محمد جمعة » وزيرا للتجارة والصناعة ووزيرا للمعارف العمومية وقد جرى تعديل وزارى في ١٧ نوفمبر ١٩٣٧ ترك بموجبه « عبد السلام باشا » وزارة المعارف وحل محله في تلك الوزارة « أحمد نجيب الهلالي بك » .

سيكون حديثنا مقصورا على إنجازات « عبد السلام فهمى محمد جمعة باشا » في وزارة التجارة والصناعة في حكومة « مصطفى النحاس » الثالثة (١٠ مايو ١٩٣٦ - ٣١ يوليو ١٩٣٧) وفي وزارة التجارة والصناعة أيضا في الوزارة الرابعة لمصطفى النحاس باشا (أول أغسطس ١٩٣٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) .

ويلاحظ الباحثون ان الفترة من مايو ١٩٣٦ إلى ديسمبر ١٩٣٧ من اخطر الفترات التى وقف فيها الوفد في مواجهة الانجليز والقصر فيما يتصل بالحركة العمالية ، وخاصة مشكلات الأجور والبطالة . . وقد كان الانجليز يقبضون على زمام الأمور عن طريق « مكتب العمل » الذى يسيطر عليه رجال الأمن العام الانجليز ، يتلقون التوجيهات من « جريفز » المدير العام للمكتب . وإلى جانب « مكتب العمل » كان « اتحاد العمال » الذى عادت السيطرة عليه لعباس حليم بعد أن رد إليه « الملك فاروق » لقب « النبيل » فهادن القصر وساءت العلاقة بينه وبين الوفد . وهناك أيضا « الاتحاد الصناعات » وكانت رئاسته لأحمد زيور رجل الانجليز والقصر .

كل هذه الأجهزة تكاثفت لعزل الوفد عن العمال ، بل إنها ذهبت إلى تحريض العمال ضد حكومة الوفد ، فشهدت تلك الفترة موجة من الإضرابات العمالية أبرزها إضرابات عمال النسيج والسكر والنقل .

وتدلنا التقارير التى كان يرفعها جريفز إلى السفارة البريطانية وترفعها السفارة بدورها إلى «المستر انتونى ايدن » وزير الخارجية على موقف جريفز ضد الوفد ، واتهام الوفد بالعمل ضد مصالح الشركات الأجنبية . ويخشى جريفز ان يؤدي تشجيع الوفد لعمال المدن إلى أن يطالب عمال الزراعة بزيادة أجورهم بنفس القدر . وفي تقرير للسفير البريطانى إلى وزير الخارجية ايدن ان الملك «فاروق» عرف بوجهة نظر «المستر جريفز» .

ولكن حكومة الوفد ممثلة في وزير التجارة والصناعة كان عليها أن تواجه الانجليز والقصر واتحاد الصناعات فأصدر « عبد السلام جمعة » وزير التجارة والصناعة قرارا (١٤ يوليو ١٩٣٦) بتشكيل لجنة لبحث الموقف من جميع جوانبه ، ولم تجدد الحكومة قرار المجلس الاستشارى الأعلى للعمل الذى يمثل المصالح الحكومية الخاضعة لنفوذ الانجليز وأصدرت قرارا بمنح عمال الحكومة

إجازات سنوية مدفوعة الأجر . ووضعت العناصر الوفدية في المواقع الحساسة بمصلحة العمل واستطاعت هذه العناصر أن تتحد من نفوذ « جريفز » المدير العام للمصلحة . . وقرر « النحاس باشا » رئيس الوزراء ، وعبد السلام جمعة وزير التجارة والصناعة والوزراء الآخرون عدم استقبال « جريفز » ووضعوه في حججه الحقيقي كموظف لدى حكومة مصر . ولكنه استرد مكانته بعد إقالة حكومة الوفد في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ ، وتولى « محمد محمود » رئاسة الوزارة .

على أية حال فإن الوفد في أواخر الثلاثينات سيطر على الحركة العمالية ، وحقق في هذا المجال نصرا واضحا على القصر وعلى عباس حليم وعلى « جريفز » والسياسة الانجليزية إزاء الحركة العمالية المصرية .

سكترير عام الوفد

وقد أفرزت ثورة ١٩١٩ قادة سياسيين في الأقاليم المختلفة وفي الغربية ظهر « يوسف الجندي » الذي تزعم المجلس الثوري وظهر « عبد السلام فهمي محمد جمعة » الذي ارتبط بالفلاحين والتجار والأفندية والأعيان في طنطا ، وظل مخلصا لهذه البيئة وأقام فيها ، ولم ينقل مقر إقامته حتى وهو رئيس لمجلس النواب ، على الرغم من عضويته القديمة في (الوفد المصري) الذي كان بمثابة الهيئة العليا للوفد ، وظل هذا الوضع قائما وهو وزير . وفي عهد ولاية « عبد السلام جمعة » على وزارة التجارة والصناعة يقرر الباحث « ماريوس ديب » في كتابه (الوفد وخصومه) أن الوفد استطاع أن يستعيد بوجه عام في الفترة (١٩٣٥ - ١٩٣٩) ولاء العمال ، وقد أيد « عبد السلام فهمي جمعة » الاعتراف الرسمي بنقابات العمال بوصفه إجراء يفيد العمال وأصحاب العمل . ويقرر أيضا أن الوفد كان متعاطفا مع مطالب النقابات العمالية المختلفة مثل زيادة الأجور وتخفيض ساعات العمل « الإجازات المدفوعة الأجر ، والإجازات المرضية ، والتأمينات والمعاشات » .

وأقدمية « عبد السلام فهمي محمد جمعة » في الوفد سابقة على الذين انتخبهم الوفد في هيئته العليا في سبتمبر وديسمبر ١٩٣٧ أمثال « محمد سليمان الوكيل ، ومحمد المغازي عبد ربه ، وبشرى حنا ، ومحمد الحفنى الطرزي ، وكمال علما ، وفهمي ويصا وسيد بهنس ، ومحمد صبرى أبو علم ، وعبد الفتاح الطويل ، ويوسف الجندي ، وعلى زكى العربى ، وعلى حسين ، وأحمد نجيب الهلالى ، ومحمد محمود خليل ، وعثمان محرم » . وكان عدد الأعضاء القدماى ثمانية أعضاء هم : « مصطفى النحاس ومكرم عبيد ، وأحمد حمدى سيف النصر ، وكامل صدقى ، ومحمود

البسيونى ، وإبراهيم سيد أحمد ، وعبد السلام فهمى جمعة» .

وفى عام ١٩٤٧ توفى « محمد صبرى أبو علم » السكرتير العام للوفد المصرى ، وتولى « عبد السلام فهمى جمعة » المنصب ولكن لإقامته الدائمة فى طنطا بعيدا عن القاهرة ، ولظروفه الصحية ، قدم استقالته وعرض المنصب على « عبد الفتاح الطويل » واعتذر لإقامته الدائمة أيضا فى الإسكندرية . وفى عام ١٩٤٨ اختير « محمد فؤاد سراج الدين » سكرتيرا عاما ، واختير « محمود سليمان غنام » سكرتيرا مساعدا .

يوليو والوفد

وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ استولى الضباط الأحرار على السلطة . ووجهوا رأس الرمح ضد (الوفد) . وألغيت الأحزاب لإلغاء الوفد ، وألغى دستور ١٩٢٣ لإلغاء الحكم النيابى ، وضموا « عبد السلام فهمى جمعة » لعضوية لجنة الدستور برئاسة « على ماهر » فى فبراير ١٩٥٣ لإحداث انقسام داخل صفوف الوفديين ، وكان « جمال عبد الناصر » قد اجتمع قبل ذلك بعبد السلام فهمى جمعة بعزبة عبد السلام جمعة بالغربية ، وحاول تشجيعه على إحداث انقسام فى الوفد . وذكر له ان « تطهير » الوفد هو شرط تعاون الضباط معه . ولكن « عبد السلام جمعة » نقل تفاصيل المقابلة إلى زعيم الوفد « مصطفى النحاس » الذى اعتبر ما قام به « جمال عبد الناصر » عملا تخريبيا ، وحذر « عبد السلام جمعة » من هذه المحاولة التخريبية وبعدها وقع الهجوم الرهيب ضد الوفد ، وهو صراع قال عنه الكاتب « صلاح عيسى » : « صراع يتميز بدرجة عالية من اللا أخلاقية أهين بها التاريخ وزورت بعض صفحاته ، واستخدمت أكثر أساليب الصراع السياسى دناءة وأقلها احتراما » .

الأسانيد :

- ١- أحمد أمين . . حياتى .
- ٢- د . رءوف عباس . . الحركة العمالية فى ضوء الوثائق البريطانية .
- ٣- صلاح عيسى . . محاكمة فؤاد سراج الدين باشا .
- ٤- محمد قنديل البقل . . مقدمة بحث للدكتور عزيز فهمى .
- ٥- د . محمود متولى . . مصر والحياة الحزبية .
- ٦- د . نبيل عبد الحميد وآخرون . . شهداء ثورة ١٩١٩ (اعداد) .

عبد الفتاح الطويل



مرة أخرى نبقى في مدينة (طنطا) لسطور قليلة نقول فيها إن هذه المدينة العظيمة قد شهدت أيضا مولد رجل عظيم من رجالات مصر ورجالات الوفد هو « عبد الفتاح الطويل » وكان مولده في ٢٩ يناير ١٨٩٣ . واجتاز تعليمه الابتدائي في طنطا وحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٦ م . وجاء إلى القاهرة لينجز التعليم الثانوى عام ١٩١١ ويدخل الحقوق ويأمل مجموعة من الشباب الوطنى الثائر فى مقدمتهم « محمد صبرى أبو علم » و« حسن سرور » . ويفصلون من التعليم لمدة عام بسبب نشاطهم الوطنى ، وتخرج « عبد الفتاح الطويل » فى الحقوق عام ١٩١٦ . ويطيّب له المقام بعد تخرجه حتى وفاته (يونيو ١٩٦٣ م) فى مدينة الإسكندرية حيث بدأ حياته العملية بالمحاماة فى مكتب المحامى الوطنى « مصطفى الخادم » .

ويسير الزمن إلى يوم الجهاد الوطنى ، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وقد استقل بعمله فى المحاماة . . وتنشط الحركة الوطنية فى الإسكندرية حول رجل الأعمال الوطنى « سيد بك مرسى » الذى يختاره سعد باشا رئيسا للجنة الوفد بالإسكندرية ويتولى المحامى الوطنى الشاب « عبد الفتاح الطويل » مسئولية وكيل لجنة الوفد ويكون الامتحان الكبير فى أيام الثورة الكبرى ثورة ١٩١٩ .

ووسط هيب الثورة تمرست لجنة الوفد وعلى رأسها سيد مرسى وعبد الفتاح الطويل فى النضال ويسجل عبد الرحمن الرافعى أن طلبة المدارس والمعاهد أضربوا يوم ١٢ مارس ١٩١٩ . وبدأت المسيرة من ميدان مسجد أبى العباس المرسى ، واتجهت إلى دار المحافظة بشارع رأس التين ، ثم ميدان محمد على . وألقت السلطات القبض على ٦٠ طالبا وتجددت التظاهرات يوم ١٦ مارس وفى ١٧ مارس واجه الجنود الانجليز تظاهرة طلاب المدارس الثانوية والمعاهد الدينية والمدرسة

الصناعية ، وأطلقوا عليها النار عند الانفوشى وسقط ١٦ قتيلًا و٢٤ جريحًا . وفى ٢٠ مارس قامت تظاهرة عمالية اندمج فيها الطلاب وواجههم الانجليز بالرصاص فقتلوا ١٢ وجرحوا ٢٤ . وبمناسبة الإفراج عن زعيم الثورة « سعد زغلول » فى ٧ ابريل ١٩١٩ طافت التظاهرات بشوارع الإسكندرية . وفى ١٠ ابريل حدث تصادم دام بباب عمر باشا ، وحى كرموز فقتل ثلاثة وجرح ستة ، وبعد ظهر اليوم نفسه قتل ١٧ غير الجرحى الكثيرين . ثم كانت التظاهرة الشهيرة فى ١٢ ابريل التى سقط فيها أكثر من ٢٠ قتيلًا ، وفى ١٤ ابريل كانت تظاهرة الطالبات . وفى أكتوبر من العام نفسه خرجت الإسكندرية لاحياء ذكرى شهدائها وخاصة فى يومى ٢٤ ، ٢٥ أكتوبر التى رتب لها لجنة الوفد بالمدينة ، وقام المتظاهرون بوضع التاريس وحفر الخنادق بحى رأس التين والجمرك فلم تستطع سيارات الانجليز مطاردة المتظاهرين فى الشوارع وأغلقت المتاجر أبوابها . وتحولت الإسكندرية إلى مايشبه ساحة القتال . وقد سجل « عبد الرحمن فهمى » فى مذكراته الأحداث الدامية لأيام ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ أكتوبر ١٩١٩ بالإسكندرية . واحتج المواطنون فى مدن كثيرة بالبرقيات وتظاهرات الاحتجاج على بربرية سلطات الاحتلال ضد المواطنين الإسكندرية .

ويوم ٣١ أكتوبر خرجت التظاهرة الكبرى التى تجمعت فى ميدان محمد على وسارت فى شارع المنشية إلى شارع شريف وتطاير الرصاص فى كل اتجاه وسقط المتظاهرون قتلى وجرحى أمام (التلغراف الانجليزى) وداست سيارات الانجليز أجساد المتظاهرين . وعلى الرغم من هذه الفظائع فإن شعب الإسكندرية واصل احتجاجه فى ١٨ نوفمبر ١٩١٩ حتى وصلوا إلى شارع فرنسا حيث أطلق الانجليز الرصاص على المتظاهرين . وفى هذا اليوم احتلت القوات البريطانية أحياء الاسكندرية وحظرت التجوال من الساعة التاسعة مساءً . وبناء على تعليمات لجنة الوفد المركزية قابل شعب الإسكندرية خبر وصول لجنة فلنر إلى البلاد (ديسمبر ١٩١٩) بالتظاهرات التى واجهتها السلطات الانجليزية بالرصاص .

كانت هذه صورة إقليمية لثورة ١٩١٩ م وجرت أحداث كثيرة ثم صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد . وكانت البداية الحقيقية للانقسام فى صفوف الثوار فرحب به جناح «عدلى يكن» ولم يرض عنه تيار سعد زغلول وظهر (حزب الأحرار الدستوريين) فى مواجهة الوفد، وتم إعلان دستور ١٩٢٣ فى ١٩ ابريل ١٩٢٣ الذى عبث به الذين وضعوه . وتمسك به الذين لم يرضوا عنه ولم يشاركوا فى وضعه (سعد وأبنائه) وفى هذه الظروف كلها تبلورت شخصية «عبد الفتاح الطويل» الذى خاض انتخابات يناير ١٩٢٤ وأصبح عضواً فى أول مجلس نواب ينتخب على أساس دستور ١٩٢٣ . وقد حصل الوفد على ١٩٥ مقعداً من مجموع مقاعد مجلس

النواب وعددها ٢١٤ مقعدا وكان رئيس مجلس النواب هو أحمد مظلوم رئيس الجمعية التشريعية ١٩١٤ ومن يناير ١٩٢٤ حتى يناير ١٩٥٢ ظل عبد الفتاح الطويل علامة بارزة في مجالس النواب عن الإسكندرية .

شئون القصر

حاولت وزارة الوفد (مايو ١٩٣٦) في عهد مجلس الوصاية على العرش إنشاء وزارة لشئون القصر ضمن هيئة الوزارة ، ووجد الوفد معارضة لهذه الفكرة من جهات عديدة فاضطر النحاس باشا إلى العدول عن إنشاء هذه الوزارة الجديدة واكتفى بتعيين عبد الفتاح باشا الطويل وكيلا برلمانيا لشئون القصر ، وكان وقت ذاك رئيسا للجنة الوفد بالإسكندرية .

وقد خشى مجلس الوصاية أن يسيطر الوفد على القصر عن طريق وزير شئون القصر مما يترتب عليه إلغاء منصب رئيس ديوان الملك وقد تقرر ان يكون مقر الوكيل البرلماني لشئون القصر برياسة مجلس الوزراء وليس بالقصر وإلى جانب تعيين « عبد الفتاح الطويل » وكيلا برلمانيا لشئون القصر، تقرر تعيين يوسف الجندى وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية و« حامد محمود » وكيلا برلمانيا لوزارة الصحة ، وعمدوح رياض « وكيلا برلمانيا لوزارة الخارجية . وانتهت التجربة في وزارة النحاس باشا (يوليو ١٩٣٧) ولعدم الدخول في صراعات مع لجنة الوصاية برياسة الأمير محمد على ومع الإنجليز ومع العناصر المعاونة للوفد رأى النحاس باشا ان منصب الوكيل البرلماني لشئون القصر قد يفى بالغرض وبالفعل استطاع عبد الفتاح الطويل ، أن يضع في يده كل شئون القصر . واصدر تعليماته ألا يتصل أى موظف في الحكومة بموظفى القصر والا يتصل موظفو القصر بموظفى الحكومة الا بإذن منه . وبهذا تحول رئيس الديوان الملكى وكبار موظفى القصر ، وموظفو لجنة الوصاية على العرش ، تحولوا إلى تابعين لعبد الفتاح الطويل وثاز على التجربة كل موظفى القصر ، وسنة ١٩٣٧ ولانشغال النحاس والوفد في مواجهة محاولة الانشقاق الخطير داخل الوفد بقيادة « أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى ، ومحمود غالب ، ومحمد صفوت وإبراهيم عبد الهادى » صرف النحاس باشا النظر عن تجربة الوكلاء البرلمانيين التى فتحت عليه بابا جديدا للصراع مع جهات مختلفة .

في مقاعد الوزراء

في ٢٩ يوليو ١٩٣٧ تولى « الملك فاروق » سلطاته الدستورية وكان من الطبيعى أن يتقدم مصطفى النحاس باستقالة وزارته وكلفه الملك بتشكيل وزارته الرابعة (٣ أغسطس ١٩٣٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) واشترك عبد الفتاح الطويل في هذه الوزارة وزيرا للصحة العمومية . وفي وزارة النحاس باشا الخامسة (٦ فبراير - ٢٦ مايو ١٩٤٢) اختير الطويل باشا وزيرا للصحة أيضا وتولى

وزارة الشؤون الاجتماعية بالنيابة في (أول ابريل ١٩٤٢) وحدث تعديل وزارى في ١٤ مايو ١٩٤٢ تولى بمقتضاه عبد الفتاح باشا وزارة المواصلات وحل محله في وزارة الصحة « الدكتور عبد الواحد الوكيل » واستمر هذا الوضع إلى أن استقالت الوزارة في ٢٦ مايو ١٩٤٢ . وفي وزارة النحاس السادسة (٢٦ مايو ١٩٤٢ - ٨ أكتوبر ١٩٤٤) جاء « عبد الفتاح الطويل » وزيرا للمواصلات وفي ٢٠ نوفمبر ١٩٤٣ أصبح وزيرا للعدل بالنيابة وذلك في مدة غياب « محمد صبرى أبو علم » بالحجاز لأداء فريضة الحج والمعروف أن هذه الوزارة أقبلت في ٨ أكتوبر ١٩٤٤ .

وفي آخر وزارات الوفد ، وزارة النحاس باشا السابعة (١٢ يناير ١٩٥٠ - ٢٧ يناير ١٩٥٢) تولى « عبد الفتاح الطويل » وزارة العدل ، وفي ١٩ ابريل ١٩٥٠ ، تولى أعمال وزارة المعارف بالنيابة عن « الدكتور طه حسين » مدة تغيبه في الخارج وفي ٢٤ سبتمبر ١٩٥١ جرى تعديل في الوزارة تولى بمقتضاه « عبد الفتاح الطويل » وزارة المواصلات ، وحل محله « محمد محمود الوكيل » وزير المواصلات وزيرا للعدل ، وفي هذه الوزارة جرت أحداث كثيرة أهم ما يتصل منها بعبد الفتاح الطويل باشا وزير العدل ما عرف بقضية (الأسلحة الفاسدة) .

أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، كان هناك نفر من العاملين بالقصر وغير القصر ضمايرهم فاسدة وذمهم خربة ، احتسبوا بملك فاسد وتاجروا في الأسلحة كما تاجروا في قوت الشعب وأثروا بطريقة غير مشروعة ، ولم تكن هناك أسلحة فاسدة لدى الجيش المصرى المحارب في فلسطين ، وإن ما عرف بقضية الأسلحة الفاسدة عملية سياسية لم يكشف بعد عن حقيقتها ولا عن الأسباب الحقيقية خلف إثارتها بالشكل الواسع الذى عرفت به ، ولكن الأمر الثابت والذى نعى هنا بتسجيله هو أن الجيش المصرى لم يحارب سنة ١٩٤٨ بأسلحة فاسدة (يضرها إلى الأمام فترتد إلى الخلف !) وأن الهزيمة التى حدثت لم تكن هزيمة لجيش ، ولا هى هزيمة لأسلحة وإنما كانت هزيمة أنظمة ، في ٢٨ مارس ١٩٥١ صدر قرار بحفظ التحقيق الذى جرى في عهد حكومة الوفد ، وفي عهد « عبد الفتاح الطويل » وزير العدل . وفي يوليو ١٩٥٢ أعادت حركة الجيش التحقيق في القضية وتأكدت النيابة أنه لم تكن هناك أسلحة فاسدة وتم حفظ التحقيق . وفي يناير ١٩٨٨ أعلن « الفريق السفير » حافظ إسماعيل « مستشار الأمن القومى أثناء ندوة (كاتب وكتاب) التى اشرفت على إعدادها بمعرض القاهرة الدولى للكتاب ، أعلن الرجل أنه كان ضابطا في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ م ولم تكن هناك بندقية واحدة فاسدة . لم تكن هناك إذن أسلحة فاسدة ، كانت هناك تجارة فاسدة في الأسلحة .

والمهم الآن كيف كان موقف حكومة الوفد إزاء الحملة الصحفية الخاصة (بالأسلحة الفاسدة) وكيف كان موقف وزير العدل عبد الفتاح الطويل ؟ وأشير هنا إلى التحقيق الصحفى الذى نشره « جمال بدوى » في حلقات ثلاث (٢٧ / ١٢ - ٨٤ - ١ / ٣ - ١٠ / ١ - ١٩٨٥) وكيف أفاد الضباط

الأحرار من الحملة الصحفية حول ماسمى بالأسلحة الفاسدة . وكان عبد اللطيف البغدادي وحسن إبراهيم ومصطفى مرتجى ومحمد شوكت على صلة بمصطفى مرعى . وقابل محسن عبد الخالق أمينة الشعيد والسادات على صلة بإحسان عبد القدوس . وبدا « إحسان عبد القدوس » بإثارة الموضوع في يوليو ١٩٤٩ ، وجدد الحملة في يونيو ١٩٥٠ . وأعود إلى السؤال الهام عن موقف حكومة الوفد ، وموقف عبد الفتاح الطويل . . أنقل هنا عن مذكرات « حسن يوسف » رجل الملك فاروق من ص ٢٨٦ - ص ٢٩٠ يقول :

بدأت القصة بما نشرته مجلة روز اليوسف في شهر يونية ١٩٥٠ من أنباء خطيرة عن توريد أسلحة فاسدة للجيش المصرى أثناء حرب فلسطين إذ اتصل بى مصطفى نصرت وزير الحرية والبحرية وقال إنه سوف يبلغ النائب العام . واستدعت النيابة رئيس التحرير الاستاذ إحسان عبد القدوس لسماع أقواله . وبعد ثلاثة أشهر من بدء التحقيق زارنى فى مكتبى عبد الفتاح الطويل وزير العدل وفؤاد سراج الدين وزير الداخلية وقالوا إن النائب العام أخبرهما بوجود قرائن تدل على أن لبعض افراد الحاشية الملكية صلة بصفقات الأسلحة التى ظهر فسادها وأنه يطلب التصريح بتفتيش منازل خمسة اشخاص ومراقبة تليفوناتهم .

المهم أن النائب العام - فى عهد حكومة الوفد - وضع تليفونات المذكورين تحت المراقبة وفتش منازلهم . وقام جهلان - متعهد التوريدات للخاصة الملكية - بفتح الخزينة بحضور رئيس النيابة . وقامت الحكومة بتنحية حيدر باشا عن منصبه ، وباقالة عثمان المهدي رئيس هيئة أركان الحرب من منصبه ، وبإحالة ١٢ ضابطا إلى التقاعد لتسهيل مهمة النائب العام . وفى النهاية أثبت التحقيق أنه لا توجد أسلحة فاسدة وكان موقف الحكومة وموقف وزير العدل يستحقان التسجيل التاريخى لإزاء هذه القضية . وقد تبنى هذه المسألة فى استجواب أمام مجلس الشيوخ « مصطفى مرعى » أملا فى إحراج حكومة الوفد وبالذات وزير العدل « عبد الفتاح الطويل » الذى تشوب علاقتهما بعض الحساسيات منذ أيام الشباب فى الإسكندرية . . عبد الفتاح الطويل سابق على مصطفى مرعى وسليمان حافظ فى التخرج بحوالى سنوات أربع ، وله شهرة سياسية لانتمائه لحزب الأغلبية ، أما مصطفى مرعى وسليمان حافظ فقد كانا ينتميان لحزب انحسرت عنه الأضواء فى سنوات ثورة ١٩١٩ . ويفسر البعض اعتراض حكومة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بعد صدور قرار بتنظيم الأحزاب فى سبتمبر ١٩٥٢ ، على عضوية عبد الفتاح الطويل فى الوفد ، يفسرونه برغبة الانتقام لدى « سليمان حافظ » من « عبد الفتاح الطويل »

تنظيم الأحزاب

وقد ظهر اعتراض « سليمان حافظ » على عضوية « عبد الفتاح الطويل » فى الوفد بعد أن صدر قانون تنظيم الأحزاب السياسية (٩ سبتمبر ١٩٥٢) وبعد أن قدم الوفد برنامجه تطبيقا لهذا

القانون ، وأعلن « سليمان حافظ » أيضا اعتراضه على الرئاسة الفخرية « لمصطفى النحاس » مما دفع بالوفد إلى أن يلجأ للقضاء في يناير ١٩٥٣ . وعندما تأكد « سليمان حافظ » أن مجلس الدولة سوف ينصب الوفد لا محالة صدر قانون حل الأحزاب في ١٦ يناير ١٩٥٣ .

على أية حال قبل تقديم لإخطار الوفد لم يكن « عبد الفتاح الطويل » موضع اعتراض . وبهذه المناسبة تفضل واتصل بى « أنور نافع » ضابط الجيش المتقاعد ، والمحامى والكاتب والشاعر حاليا بعد نشر الحلقة الخاصة بعبد السلام فهمى جمعة ، وأكد لى ان «عبد الفتاح الطويل» لم يكن فى الفترة الأولى موضع اعتراض وذكر انه - أى أنور نافع - كلفه « جمال عبد الناصر » بأن يسلم «عبد السلام فهمى جمعة» مايمكن أن نسميه تبليغ القيادة للوفد وقد سافر معه المرحوم « أحمد الحضرى المحامى » حيث التقيا بعبد السلام جمعة فى عزبته بالقرب من طنطا الذى قرأ فى وجودهما التبليغ تليفونيا على « النحاس باشا » وكان البيان أو التبليغ يبدأ بثقة القيادة فى وطنية النحاس باشا والمطالبة بفصل فؤاد سراج الدين ومحمود سليمان غنام وأعضاء الوفد من اسرة الوكيل ، وترك التصرف لعبد السلام جمعة فى إعفاء من يرى من أعضاء الوفد ، ثم اجتمع « عبد السلام جمعة » على مدى ساعات ثلاث بجمال عبد الناصر وأنور السادات وكيل الدين حسين . وانتهى الموقف برد النحاس باشا برفض هذا التبليغ ، وماجاء فيه . والأرجح أن هذا الرد املاه « النحاس باشا » على « عبد السلام جمعة » ليسلمه إلى جمال عبد الناصر ، وأرجو من لديه صورة منه أن ينشرها خدمة لتاريخ تلك الفترة المضطربة .

والمعروف أن « عبد الفتاح الطويل باشا » لم يقدم لمحكمة الثورة وإن كان قد استدعى للشهادة بمناسبة محاكمة « فؤاد سراج الدين باشا » وقد انتقل « عبد الفتاح الطويل » ابن طنطا ، وزعيم الوفديين فى الإسكندرية ، وأول وكيل برلمانى لشئون القصر ووزير العدل والمواصلات والصحة ، وعضو مجلس النواب منذ عام ١٩٢٤ ، انتقل إلى رحاب الله فى يونيو ١٩٦٣ .

الأسانيد :

- ١ - إبراهيم الطويل . . حديث شخصى ١٩٨٨ .
- ٢ - الأهرام - جريدة . . (أعداد ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣١ يناير ١٩٥٣) .
- ٣ - أنور نافع . . حديث شخصى (٢٦ أغسطس ١٩٨٨) .
- ٤ - جمال بدوى . . (جريدة الوفد ٣ ، ١٠ يناير ١٩٨٥) .
- ٥ - حسن يوسف . . (القصر ودوره فى السياسة) .
- ٦ - د . عبد العظيم رمضان . . تطور الحركة الوطنية فى مصر .
- ٧ - د . نبيل عبد الحميد وآخرون . . شهداء ثورة ١٩١٩ .

عبد اللطيف المكباتى



كانوا سبعة رجال من مصر ، شكلوا ما عرف في التاريخ المصرى الحديث بالوفد الأول أو المجموعة الأولى للوفد « سعد زغلول ، على شعراوى ، عبد العزيز فهمى ، أحمد لطفى السيد ، محمد محمود ، على علوية ، وعبد اللطيف المكباتى » .

وهذا التشكيل نتيجة جهد من جانب « سعد زغلول » الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية بعزبته بمسجد وصيف ، وبيته الذى أطلق عليه « مصطفى الشورىجى » عضو الحزب الوطنى عبارة (بيت الأمة) وتميزت جهود سعد بالسرية والكتبان حتى ضاق بهذه السرية « على ماهر ومصطفى النحاس » وذهبا يشكوان سعدا لزميله « عبد العزيز فهمى » ولما وثق بهما الرجل طمأنهما إلى جهود سعد ، وتصدية للكفاح من أجل استقلال البلاد ولكنه يلجأ إلى التحفظ والتمويه حماية للحركة في مهدها .

وعبد اللطيف المكباتى ، على نقيض ذلك تماما ، لايعرف كيف يخفى سرا ، ما في قلبه على لسانه ، واضح وصريح ولايعرف في أمور السياسة إلا الوضوح والصراحة ، فأطلق عليه زملاؤه عبارة (المدباتى) . . وهكذا عرف باسم عبد اللطيف المدباتى ١١ .

كان يزهد في الشهرة . ولم يسع للأضواء ، فلم تسلط عليه الأضواء ، فكان أقل الساسة الأول شهرة ، ولا يكاد يعرفه أحد من الجيل الجديد ، بل والجيل الوسيط أيضا ، من أجل هذا نكتب عنه بعد أن كتبنا عن زملائه الستة في (الوفد الأول) . . سعد زغلول رئيس الوفد وزعيم الأمة ، وعلى شعراوى عضو الجمعية التشريعية ووكيل الوفد وأمين الصندوق في الفترة الباكرة ، والفقيه القانونى عضو الجمعية التشريعية عبد العزيز فهمى ، والمفكر والكتاب والمترجم مدير المكتبة السلطانية أحمد لطفى السيد ، ثم اين من عرض عليه الملك فأبى ، ابن محمود باشا سليمان زعيم

حزب الأمة ، محمد محمود ، والسادس هو آخر من ضمه سعد إلى الوفد الأول والذي سعى إلى سعد مرات كثيرة واستدعاه سعد في مساء ١٢ نوفمبر ١٩١٨ للحضور إلى منزله صباح ١٣ نوفمبر ١٩١٨ . ونعني به (محمد على) الذي عرف فيما بعد بمحمد على علوبة - ذهب إلى بيت سعد وكان « سعد زغلول وعلى شعراوي وعبد العزيز فهمي » يتأهبون للذهاب إلى مقابلة « السير ونجت » في تمام الساعة الحادية عشرة . . يبقى لنا إذن الرجل الذي ابتعد عن الأضواء ، وابتعدت الأضواء عنه ، والذي انكسرت نفسه بعد أن راح ابنه ضحية غلطة قدرية ، ومات غريقاً أمام عينيه في رأس البر ، وانزوى الرجل حتى رحل عام ١٩٢٤ .

السياسة والأخلاق

كان « المهندس أحمد عبده الشرباصي » يتحدث عن « عبد اللطيف المكباتي » على أنه شخص لم يجد تاريخ مصر الحديث بمثله ، وبأفكاره وبسلوكه حتى أصبح « المهندس الشرباصي » نسخة مكررة من ابن خاله « المكباتي » في الفكر وفي السلوك وقد كتب « الشيخ مصطفى عبد الرازق » وهو من عرف باستقامة الفكر ونزاهة القصد في جريدة السياسة : الأحد ٢٠ ربيع الأول ١٣٤٣هـ - ١٩ أكتوبر ١٩٢٤ م كتب يقول :

في سنة ١٩١٣ سمعنا أن قاضياً من ذوى الكفاية والخلق ، قد استقال من منصبه ليضع مواهبه السامية ومطامح نفسه الكبيرة في خدمة أمته في الجمعية التشريعية . ولم يكن لأعضاء الجمعية التشريعية راتب ذو شأن ولا امتيازات مغرية من أجل ذلك شعرت البلاد بتقدير العاطفة النبيلة في نفس هذا النائب الشاب ثم جعلت موافقه في الجمعية التشريعية تكشف عن أصله حتى صار أحد أولئك الأفراد الذين يشار إليهم بالبنان من بين أعضاء الجمعية ، باعتبارهم قادة الحركة وأهل الرأي ولعله كان أحدثهم سناً .

كنا في ذلك العهد شباباً في معاهد العلم ننظر بإعجاب وفخر إلى وثبات عبد اللطيف المكباتي في ميدان المجد والشرف ولم يكن الشباب في عهدنا هو الذي يضع موازين الرجال ولكن مع ذلك كان يرقب بعناية وروية كيف تبني الأمة المجد الصحيح لأبنائها وكنا نفهم أن خير مجد الرجال ما يقوم على فضائل الأخلاق . فلما برزت شخصية المكباتي ممتازة بالصراحة والشجاعة والأخلاق عرفنا سر عظمته ، فإن هذه الفضائل لا تكون إلا للنفوس الكبيرة وهي عزيزة خصوصاً في الأمم الناهضة من عثار طويل .

ثم جاءت النهضة الوطنية ، وكان من زعمائها منذ فجرها الأول وظل عنصرها فعالاً من عناصرها الطيبة ممتازاً بصدق عزمته . .

كانت شمائل عبد اللطيف المكباتى شمائل قوة يحيط بها النبل من جميع جهاته ، صريح في وطنيته ، صريح في جهاده صريح في صداقته ، صريح في عداوته ، وكانت مخايل عظمتة الخلقية تلوح في مظاهر هيكله الجسماني . . جسم ممتلئ وافر ، من غير أن يسرف في ضخامة ولا طول مع تناسب الأعضاء وقوة العقل ونشاط الحركة وعينان في بريقهما ذكاء وفطنة يفيضان نورا وبشرا وقد يقدحان نارا وشررا ، ينطلق في مشيته بخطا مطمئنة من غير فتور ، مشرقا على الرأس ، فصيح اللهجة من غير تكلف ، في صوت واضح سليم الرنة قوى التأثير .

ولقد عصف الموت به من غير نذير ، فهدم به صرحا رفيع العماد ، وذوى أملا نضيرا من آمال البلاد .

انتهت هذه الصورة القلمية التي رسمها « الشيخ مصطفى عبد الرازق لعبد اللطيف المكباتى وكان المهندس الشرباصى عندما يتحدث عن ابن خاله المكباتى ويستوقفه الحضور ويحسبونه مغاليا بفعل صلة القربى يستشهد بها كتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق في تأبين المكباتى في شهر رحيله أكتوبر ١٩٢٤ .

الجمعية التشريعية

وفي بيانات الجمعية التشريعية انتخابات ١٣ ديسمبر ١٩١٣ نجد اسم عبد اللطيف المكباتى بك مع حسين هلال بك وعثمان سليط بك ومتولى نور بك عن مديرية الدقهلية إلى جانب أسماء عديدة من مدن مختلفة . . « سعد زغلول باشا » وعبد الخالق مددكور باشا وحسين واصف باشا ، ومحمد يكن باشا وعبد السلام العلايلي بك ومحمد فتح الله بركات بك وعبد العزيز فهمى بك ، ومحمد علوى الجزار بك ومحمد أبو حسين باشا وعبد اللطيف الصوفانى بك ، والشيخ محمد حسن عزام ومحمد رشوان الزمر أفندى ، وحمد الباسل بك ، وعلى شعراوى باشا ، ومحمد على علوبة بك ، ومحمد محفوظ باشا ، وعمر عبد الآخر بك ، ومحمد أمين أبو ستيت بك ، وأحمد مظلوم باشا ، وعدلى يكن باشا ، سينوت حنا بك ، وكامل صدقى بك المحامى والشيخ محمد شاكر وأمين سامى باشا وعديد من الأسماء الأخرى التى لمعت في سماء الحركة الوطنية .

وعين « أحمد مظلوم باشا » رئيسا للجمعية التشريعية ، وعدلى يكن باشا وكيلا لها وكان « سعد زغلول باشا » هو الوكيل المنتخب . . وعندما ثار الخلاف بين « سعد » الوكيل المنتخب ، و«عدلى» الوكيل المعين حول تولى رئاسة الجمعية في حالة غياب الرئيس . . انحاز « عبد اللطيف المكباتى » العضو المنتخب ، و«سينوت حنا » العضو المعين إلى صف « سعد زغلول » وتولى

المكبتي رئاسة لجنة الأوقاف في الجمعية التشريعية وكان الخديو « عباس حلمي الثاني » هو المشرف على أوقاف المسلمين ، وكانت شهيته مفتوحة لابتلاع خيرات الأوقاف ، واستدعى « المكبتي » لمقابلته لكن « المكبتي » رفض أن يذهب لأنه يعلم نتائج المقابلة مقدما . .

وعلى أية حال فان تجربة (الجمعية التشريعية) التي قامت على أساس دستور (أول يوليو ١٩١٣) الذي أعده (حسين رشدي باشا) وزير الحقانية بالاتفاق مع « كتشتر » ووقعه « الخديو عباس حلمي الثاني » وهو يصطاف في باريس ، هذه التجربة فشلت فقد أفرزت الانتخابات عناصر لانسايير رغبات الانجليز . . وكان على رأس هذه العناصر الوكيل المنتخب « سعد زغلول » . . ولهذا تأجل افتتاح الدورة الثانية التي حل موعدها في أول نوفمبر ١٩١٤ (بدأت الدورة الأولى في ٢٢ يناير ١٩١٤) ثم تأجل انعقاد الجمعية إلى أجل غير مسمى « وأعلنت الهدنة في ١١ نوفمبر ١٩١٨ .

مع سعد والوفد

في ٨ يناير ١٩١٨ ألقى « ولسن » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في « الكونجرس » خطابا طويلا عن الحرب العالمية الأولى .

وعن الأسباب التي دعت أمريكا لخوض غمارها ودعوته لسلامة أراضي الأمم الصغرى . . وفي ظل هذا المناخ كان سعد زغلول يسعى سرا وعلانية لتكوين الوفد وفي مقدمة الذين تشاور معهم عبد اللطيف المبكاتي وزملاؤه أعضاء الجمعية التشريعية وفي الساعة الحادية عشرة من صباح ١٣ نوفمبر ١٩١٨ م قابل نواب الأمة الثلاثة سعد زغلول وعلى شعراوي وعبد العزيز فهمي ونجت باشا المعتمد البريطاني في دار لحماية ثم تألف الوفد المصري سعد زغلول رئيسا ، على شعراوي عبد العزيز فهمي محمد محمود ، أحمد لطفى السيد عبد اللطيف المبكاتي ، محمد على أعضاء وبعد ذلك وضعوا للوفد قانونا يجرى العمل بمواده وتصدق عليه يوم ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ ورأى الوفد أن يكون في يده (توكيل) بالمطالبة بحقوق مصر في تقرير مصيرها وبالسعى في سبيل حريتها واستقلالها . ولأعضاء الوفد السبعة أن يضموا إليهم من يختارون . وقد طبع التوكيل وتناوله الناس يوقعون عليه ، وتولى ضم الأعضاء للوفد وقد حاول نفر من (الحزب الوطني) تشكيل (وفد) آخر وصرف النظر عن المحاولة نظرا لانضمام عدد من شباب الحزب الوطني للوفد أمثال « مصطفى النحاس وحافظ عفيفي وأمين الرافعي وعبد الرحمن الرافعي ومحمد عبد اللطيف دراز » وتمت محاولة أخرى لتشكيل وفد حكومي برئاسة « حسين رشدي » رئيس الوزراء ومعه

«على يكن» وزير المعارف وفشلت هذه المحاولة أيضا وقدم «حسين رشدى» استقالته .

وبدأ الوفد حملة مكاتبات لولسون ورئيس الوزراء البريطانى وللمعتمد البريطانى وممثلى الدول الأجنبية وحملة موازية لتوسيع نطاق الوفد وشحن الشعور الوطنى خلف الوفد ، وعدد من المكاتبات للسلطان وردت السلطات العسكرية البريطانية باعتقال رئيس الوفد «سعد زغلول» ومعه «محمد محمود وحمد الباسل وإسماعيل صدقى» فى ٨ مارس ١٩١٩ ولم تكذب غزاة يوم ٩ مارس حتى كان نبأ القبض على رئيس الوفد وثلاثة من أعضائه قد انتشر فى ربوع مصر ، وبدأت الثورة الشعبية الكبرى وتحمل العبء من بقى بعد الاعتقال من أعضاء الوفد ومنهم بالطبع «عبد اللطيف المكباتى» ونجد توقيعه على «النداء إلى الأمة المصرية» الذى وقع عليه شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية ، وبطريك الأقباط ورئيس الوزراء ورئيس الجمعية التشريعية والوزراء ورجال الحزب الوطنى ورجال الوفد ، ذلك النداء الذى ناشد الناس تجنب الاعتداء على طرق المواصلات والأماكن والأشخاص وكان النداء بتاريخ ٢٤ مارس ١٩١٩ وواقع الأمر أن الأعمال الثورية كانت قد بدأت تخف حدتها وفى ٣٠ مارس قدم الوفد المصرى بياناً للمندوب السامى شرح فيه عدالة القضية الوطنية وطلب بمساواة مصر بالأمم الأخرى التى نالت استقلالها . . وقع على هذه المذكرة حسب ترتيب التوقيعات فى الأصل الفرنسى «على شعراوى» عبد العزيز فهمى ، أحمد لطفى السيد محمد على ، سنيوت حنا ، محمد أبو النصر جورج خياط حافظ عفيفى ، عبد اللطيف المكباتى ، مصطفى النحاس .

وفى ٧ أبريل ١٩١٩ أعلن «المندوب السامى» الإفراج عن سعد باشا ورفاقه ، وأعلن السماح لأعضاء الوفد بالسفر إلى أوروبا واعتزم أعضاء الوفد السفر فى ١١ أبريل واجتمعوا بمنزل على شعراوى لاختيار اللجنة المركزية للوفد ، وسافر الأعضاء إلى أوروبا ومن بينهم «عبد اللطيف المكباتى» لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الوفد قام فيها «المكباتى» بدور هام .

المكباتى المدبباتى

من أطرف الصور التى توضح شخصية «المكباتى» تلك التى سجلها محمد كامل سليم فى مذكراته عن أيام الوفد فى أوروبا كان «ملنر» قد قدم مشروعاً اعتبره سعد حماية تحت اسم استقلال ، ورأى فيه الفريق المعارض لسعد غير هذا رأى وحسباً لخلاف رأى الوفد فى ١٨ أغسطس ١٩٢٠ أن يرسل إلى مصر عبد اللطيف المكباتى وأحمد لطفى السيد ومحمد محمود ، وعلى ماهر على أن ينضم إليهم فى مصر مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى ويقوموا

بعرض المشروع على الأمة بأسلوب محايد ، إلا أن «على ماهر» رأى في مصر أن يكون العرض بطريقة تغري الناس بقبول المشروع ورد سعد برسالة حادة إلى على ماهر والأعضاء بأن المشروع ظاهره الاستقلال وباطنه الحماية . وأخذت جرائد لندن وجرائد باريس تنشر العناوين التي ترضى كبرياء المصريين : مصر تحقق أمانيتها الوطنية . . نجاح الوفد في مهمته . . استقلال مصر وأيد أحمد لطفى السيد ومحمد محمود وعبد اللطيف المكباتى « المشروع » والتزم مصطفى النحاس وحافظ عفيفى وويصا واصف الحياض ووقع سعد فى أشد حالات الكرب والحزن إنقاذا للموقف حدد سعد عددا من التحفظات يرى ضرورة إقرارها فى المفاوضات وهى . إلغاء الحماية بنص صريح ، تنفيذ المعاهدة عقب التصديق عليها ، ضمان إعطاء مصر الماء الكافى من النيل ، تسوية مسألة السودان . .

وأدرك سعد أن مناورة الذين عرضوا المشروع نجحت وأصبحت الغالبية تميل إلى قبول المشروع . . وفى ٢٠ أكتوبر عاد المندوبون الأربعة ومعهم ويصا واصف وحافظ عفيفى ومصطفى النحاس الذى كشف أسلوب المندوبين فى تأييد المشروع عند عرضه على الهيئات المختلفة . وبعد جلسات متعددة من المفاوضات وضح للفريق المؤيد للمشروع أنه لافائدة طالما « سعد هو الذى يرأس وفد المفاوضات واتجهت نيتهم إلى أن يكون « عدلى » هو رئيس وفد المفاوضات وأغرقوا الاجتماعات فى محاورات ومناورات وهنا تقدم الصورة التى سجلها محمد كامل سليم لشخصية المكباتى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٠ - قال المكباتى المدبأتى فى صراحة عجيبة إنهم يريدون تنحية الرئيس سعد عن المفاوضات فلا يعالجها فى المستقبل وإنهم يريدون أن يتولى أمر المفاوضات عدلى ومن يختارهم وقال صاحبكا لقد حاولنا تهدئة سعد وزعمنا أننا على رأيه ولا نريد دخول المفاوضات إلا بعد قبول التحفظات لكن «سعد» (ثعلب) لم ينخدع بما قلناه .

هكذا كانت المؤامرة ، كشف عنها « المكباتى » ولكن « الثعلب سعد » قطع المفاوضات وعاد «عدلى» فى مارس ١٩٢١ لرأس الوزارة ويشكل وفد المفاوضات وعاد سعد فى إبريل ليستقبل استقبال الأبطال وتفشل المفاوضات ويقدم عدلى استقالته . وفى ٢٩ ديسمبر ١٩٢١ كان سعد وعدد من زعماء الوفد فى الطريق إلى « سيشل » فيما عرف بالاعتقال الثانى .

الانشقاق الكبير

كان « المكباتى » والمعارضون لسعد قد عادوا إلى مصر فى ٢ يناير عام ١٩٢١ ، بالاتفاق مع «عدلى» بطبيعة الحال الذى عاد كما عرفنا فى مارس عام ١٩٢١ لرأس الوزارة وليرأس

وفد مفاوضات كان من أعضائه « عبد اللطيف المكباتى » الذى استدعاه من لندن « عبد العزيز فهمى » للإعداد لحزب جديد! وكان الاستدعاء فى ٣٠ أغسطس ١٩٢١. وكان المكباتى قد قدم استقالته من الوفد ومعه عدد آخر فى ٢٨ إبريل عام ١٩٢١ . وفى صيف ١٩٢١ أنشأ الخارجون على الوفد جمعية مصر المستقلة لمساندة عدلى فى وزارته ومفاوضاته وحصل حافظ عفيفى على امتياز إصدار جريدة السياسة ووقفت حكومة عبد الخالق ثروت خلف الجمعية والجريدة والمجموعة التى تمهد لحزب جديد فى مواجهة الوفد وتم التأسيس الفعلى لحزب الأحرار الدستوريين فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ برئاسة عدلى يكن ومدحت يكن ومحمد محمود وكيلين ومحمد على سكرتيراً وإبراهيم الدسوقي أباظة سكرتيراً مساعداً وعبد اللطيف المكباتى أميناً للصندوق .

الأسانيد:

- ١- عبد الرحمن فهمى (مذكرات) ..
- ٢- على عبد الرازق .. (من آثار مصطفى عبد الرازق) .
- ٣- د . فرج الشرباصى .. مع المهندس أحمد عبده الشرباصى .
- ٤- د . لويس عوض .. تاريخ الفكر المصرى الحديث .
- ٥- ماريوس ديب .. الوفد وخصومه (ترجمة عبد السلام رضوان)
- ٦- محمد على علوية .. (ذكريات) تحقيق بإشراف ، د . عاصم الدسوقي .

عبد المنعم عبد الرؤوف



قبل أن أكتب عنه أقدمه لكم :

* عبد المنعم عبد الرؤوف الضابط الطيار كان أقرب الضباط على الإطلاق إلى قلب الفريق عزيز على المصرى وقد رتب « عبد المنعم » مع زميله « حسين ذو الفقار صبرى » طائرة حربية ليهربا بها مع عزيز المصرى وأقلعت الطائرة فى ليلة ١٥ مايو ١٩٤١ ولخطأ فنى سقطت بهم فى مزرعة يوسفى قرب (قليوب) فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وكان ذلك فى عهد وزارة حسين سرى باشا الذى اهتم بالبحث عن عزيز وزميليه .

* عبد المنعم عبد الرؤوف ، بعد فشل هذه المغامرة التى كانت بقصد الهرب إلى بغداد للانضمام إلى ثورة « رشيد على الكيلانى » اختفى وعزيز المصرى وحسين ذو الفقار فى منزل مدرس . بالفنون الجميلة فى أمبابه ، هو « المرحوم عبد القادر رزق » والذى أصبح فى السنوات الأخيرة وقبل رحيله وكيلا لوزارة الثقافة .

واقترح البوليس شقة « عبد القادر رزق » بحثا عن أحمد حسين وكانت المفاجأة أن يجد عزيز المصرى وزميليه فقبض عليهم . وفى مارس سنة ١٩٤٢ أفرجت عنهم حكومة « مصطفى النحاس : باشا » رغم معارضة الانجليز ونقل عبد المنعم من سلاح الطيران إلى سلاح آخر فى الجيش .

* عبد المنعم عبد الرؤوف كان موضع تقدير المرحوم « الشيخ حسن البنا » المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين ، وقد نشأ عبد المنعم فى بيئة دينية ، واقتربت أسرته من « الشيخ حسن البنا » وقد كان « عبد المنعم » منذ فترة باكرة عضوا بجماعة الإخوان المسلمين وظل على ولائه لها إلى أن فارق الحياة فى ٣١ يوليو ١٩٨٥ .

* في أوائل عام ١٩٤٨ حين بدأ « جمال عبد الناصر » في تكوين الضباط الأحرار اتصل بعبد المنعم عبد الرؤوف الذى قدم له « كمال الدين حسين ، وخالد محيى الدين ، وحسن إبراهيم » وهم أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين وغيرهم من الضباط المتعاطفين مع الإخوان . . ولعل ذلك كله كان بتوجيه من المرشد العام أو من عزيز المصرى أو بتوجيه مباشر من عضو الإخوان النشط الضباط المتقاعد « محمود لبيب » .

* هذه النواة الأولى للضباط الأحرار ومنها عبد المنعم عبد الرؤوف ، بدأت كمجموعة من مجموعات الإخوان المسلمين في الجيش وكانت هذه المجموعة ضمن نشاط الضباط المتقاعد « محمود لبيب » ولكن وضح من البداية أن « جمال عبد الناصر » يسعى لاستقلال الضباط الأحرار عن الإخوان المسلمين وعن القوى السياسية الأخرى وكان عبد الناصر على اتصال بأكثر من اتجاه سياسى فى وقت واحد . . بالإخوان المسلمين تحت اسم « زغلول عبد القادر » وتحت اسم « مورييس » في المنظمة الماركسية وحرص عبد الناصر على أن تظل الأسرار الحقيقية للضباط الأحرار مقصورة عليه وعلى عدد قليل من المخلصين له .

* في أواخر عام ١٩٥١ كان « عبد المنعم عبد الرؤوف » الوحيد الذى اعترض بإصرار على اقتراح « جمال عبد الناصر » بضم «أنور السادات » إلى اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار . . ويمكن أن يعد هذا الاعتراض تعبيراً عن موقف الإخوان المسلمين من أنور السادات الذى اتصل في مرات سابقة بالشيخ حسن البنا ، واتصل بيوسف رشاد رجل الملك ، وكان فيما سبق أيضاً على اتصال بمجموعة البغدادى ، وبالفريق عزيز المصرى . على أية حال تم قبول السادات عضواً باللجنة التأسيسية .

* في مارس ١٩٥٢ رأى « جمال عبد الناصر » وبعض قادة الضباط الأحرار أن الوقت مناسب لعمل انقلاب عسكري ولكن المناقشة داخل الإخوان المسلمين أظهرت تخوفاً وعدم ثقة فى مدى إخلاص عبد الناصر ومجموعته لاتجاهات الإخوان بعد الاستيلاء على السلطة ، وتم إرجاء الموعد . وتفجرت المناقشات بعدها داخل (اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار) حول العضوية المزدوجة لعبد المنعم عبد الرؤوف فى اللجنة التأسيسية وفى جماعة الإخوان المسلمين معا ، وحول نشاطه الذى تزايد لضم عدد من الضباط الأحرار للجماعة ، وكانت اللجنة ترى أن تقتصر العلاقة على التعاون دون الاندماج . . وتقرر إسقاط عضوية عبد المنعم عبد الرؤوف من اللجنة التأسيسية ولكن بقى فى الجيش ليقوم بدور هام فى حصار قصر رأس التين عندما كان فيه الملك السابق فاروق ويبدو أن « جمال عبد الناصر » كان يخطط للتخلص من العناصر التى ترتبط بهيئات أو جهات يمكن أن تعوق حركته . . فهذا هو قد تخلص من «عبد المنعم عبد الرؤوف » العضو

الملتزم بالاخوان المسلمين، وبعد الانقلاب بشهور قليلة تم إبعاد «عبد المنعم أمين» المعروف بارتباطاته القوية بالدوائر الأمريكية، وفي فبراير ١٩٥٣ قدم «يوسف صديق» المعروف باتجاهاته اليسارية استقالته، ومن بعده بفترة استقال «خالد محيى الدين» الذى بدأ إخوانيا وانتهى يساريا .

« وفي يناير ١٩٥٤ كانت السيارات تقطع شوارع القاهرة تجمع الإخوان من بيوتهم وكانت القطارات تحمل المعتقلين الإخوان من الأقاليم ، وأصدر مجلس قيادة الثورة قراراً فى ١٢ يناير سنة ١٩٥٤ بأن يجرى على جماعة الإخوان المسلمين قانون حل الأحزاب ، وجرت حركة اعتقالات واسعة لفعاليات جماعة الإخوان المسلمين وفى مقدمتهم « عبد المنعم عبد الرؤوف » الذى قدم للمحاكمة العسكرية وفى مايو ١٩٥٤ كان « عبد المنعم عبد الرؤوف » فى طريقه من السجن إلى المحاكمة تحرسه سيارتان حريبتان بهما ستة جنود بالمدافع الرشاشة ولكن « عبد المنعم عبد الرؤوف » يهرب من حارسه العميد محمد نبيه خطاب ويختفى فى القاهرة إلى أن غادر مصر إلى لبنان فى أواخر سنة ١٩٥٤ ويتزوج هناك من زوجته اللبنانية سنة ١٩٥٥ من أسرة « الخالدى » .

« هرب خارج مصر ، وفى عنقه حكم بالإعدام ، عاش فى لبنان والاردن وتركيا وعاد إلى لبنان مرة أخرى لاجئاً سياسياً وفى ظروف صعبة إلى أن أصدر عنه « الرئيس السابق محمد أنور السادات » عفواً فى سبتمبر ١٩٧٢ . . وبدأ المرض يناوشه بداية من عام ١٩٧٣ إلى أن رحل فى ٣١ يوليو ١٩٨٥ .

وأظن أن هذه مقدمة تكفى - على إجازها - للتعريف به . . وانتقل الآن إلى الكتابة عنه دراسة وتحليلاً وتفصيلاً . . والكتابة عنه جزء لا يتجزأ من قصة الإخوان المسلمين والتنظيمات السرية فى الجيش ، وقصة الإخوان المسلمين وحركة ٢٣ يوليو وقصة الفريق عزيز المصرى . . لقد كان « عبد المنعم عبد الرؤوف » عنصراً أساسياً فى هذه القصص الثلاث .

الحرب والتنظيمات السرية

حيث كانت الحركة السرية فى الجيش المصرى ، كان هناك عزيز المصرى وحيث كان عزيز المصرى كان هناك « عبد المنعم عبد الرؤوف » موضع إعجابه وموضع تقديره . . وحيث كان عبد المنعم عبد الرؤوف كانت هناك جماعة الإخوان المسلمين أو العكس .

ومع بداية الحرب العالمية الثانية (سبتمبر ١٩٣٩ - مايو ١٩٤٥) ومع تصاعد قوة ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية أخذت فصائل سياسية كثيرة فى البلاد العربية تأمل فى هزيمة قوات الاحتلال البريطانى والاحتلال الفرنسى .

كانت هناك موجة داخل مصر تغذى هذا الاتجاه كراهية فى الاحتلال البريطانى وفى مقدمة

هذه القوى جماعة (الإخوان المسلمين) وجماعة (مصر الفتاة) و(الحزب الوطنى) وفى مقدمة الرموز لهذا الاتجاه أيضا « عزيز المصرى باشا » و« على ماهر باشا » و« أحمد حسين » .

ونظر هؤلاء جميعا إلى العناصر الشابة الثائرة فى الجيش والتى يمكن أن تؤيد هذا الاتجاه . . وظهر من هؤلاء كما هو معروف تاريخيا « عبد اللطيف البغدادى » ، وأحمد سعودى أبو على ، وحسن عزت ، وأنور السادات ، وعبد المنعم عبد الرؤوف » .

واتصلت هذه العناصر بجماعة الإخوان المسلمين وبمصر الفتاة وبالحزب الوطنى وبعلى ماهر وبعزيز المصرى ، وكانت جماعة الإخوان المسلمين تهدف إلى ضم هذه العناصر وغيرها إلى صفوفها واقتربت هذه العناصر بدرجات متفاوتة ، البعض حاول التعاون دون الاندماج . والبعض أخلص للانتفاء بلا حدود ومن هؤلاء كان « عبد المنعم عبد الرؤوف » الذى رأى فى الاندماج فى الجماعة نوعا من الأمل للتأثيرين إذا ما تعرضوا للمتاعب .

وكانت الفكرة الرئيسية للقوى وللأفراد المشجعين للمحور هى (التصدى للقوات البريطانية المحتلة للبلاد وتدمير مخازنها وخطوط مواصلاتها وعرقلة انسحابها أمام القوات الضاغطة عليها معتقدين أنه بذلك يمكن أن نطالب باستقلال بلادنا . . البغدادى ص ١٣) .

وقد تم الاتصال بخصوص هذا الأمر مع جماعة الإخوان المسلمين للتعرف على مدى استعدادها للمشاركة فى تحقيق هذا الهدف وقد رحب المرحوم الشيخ حسن البنا بالفكرة ولكنه اقترح اندماج التنظيمين فى بعضهما ولكننا لم نتفق معه على فكرة الإدماج خوفا من أن تلدوب منظمتهما وهى فى بداية عهدها داخل منظمتهما . . وكان قد اتضح لنا هذا الهدف الذى يرمون إليه عندما قال لنا المرحوم الشيخ حسن البنا إننا ندعو إلى الدين لغرض سياسى نأمل تحقيقه ولسنا مشايخ طرق . . البغدادى ص ١٤ .

وقد جذبت هذه الأفكار التى ترمى إلى ضرب قوات الاحتلال البريطانية بوسائل عملية كالتفجيرات وغيرها ، وترمى إلى معاونة قوات المحور معاونة عملية جذبت عددا من الضباط الشبان منهم « عبد المنعم عبد الرؤوف » .

مرحلة التكوين

فى مثل هذا المناخ السياسى تبلورت شخصية « عبد المنعم عبد الرؤوف » الذى ولد فى حى العباسية بالقاهرة فى ١٦ مايو سنة ١٩١٤م وتخرج فى الكلية الحربية سنة ١٩٣٨ ، ليعمل طيارا فى سلاح الطيران الملكى المصرى وإن كان قد تحول إلى وحدات أخرى فى الجيش بعد الإفراج عنه فى مارس ١٩٤٢ .

منذ البداية يعمل الملازم طيار « عبد المنعم عبد الرؤوف » في هذا المناخ السياسي ويقترب من الشخصية المثيرة للانقلابية والمغامرة شخصية الفريق « عزيز على المصرى » ويعتمد عليه « عزيز » في تدبير أمر سفره إلى بيروت التي كانت تحت سيطرة حكومة فيشى الفرنسية بهدف السفر إلى بغداد للمشاركة في ثورة « رشيد على الكيلانى » المؤيدة للمحور ، والمعادية للانجليز . . ولكن المحاولة تفشل كما عرفنا . . كان المناخ مهياً للتعاون وللاتصال بعناصر ألمانيا التي تقترب جيوشها من حدود مصر الغربية وكان مهياً لتعاون عناصر الجيش المصرى الشاب مع القصر وخاصة بعد الإنذار البريطانى للملك فاروق في ٤ فبراير ١٩٤٢ ونظر الضباط إلى الملك على أنه رمز لمصر في ذلك الحين ، وكانت العناصر الفعالة داخل القصر لها صلاتها بالمحور وخاصة إيطاليا .

مناخ يحاول ضرب قوات الاحتلال البريطانى بالتعاون مع قوات المحور الزاحفة في ذلك الحين ، ويحاول التنسيق بين القوى المؤيدة لهذا الاتجاه خاصة جماعة الإخوان المسلمين ومصر الفتاة وشباب الحزب الوطنى ، والضباط الشبان ، وتنشط مجموعة من الشخصيات المعروفة . . « كعلى ماهر ، وعزيز على المصرى ، وأحمد حسين » وتبرز جماعة الإخوان المسلمين كجماعة تعرف أهمية « التنظيم » على ماعداه من العناصر . . فتهتم بضم الضباط الشبان إلى صفوفها ، في سرية تامة في أغلب الأحيان . . وتهتم بتدريب الشباب رياضياً وعسكرياً . . وتخصص لهم أفضل عناصرها . . مثل « المرحوم محمود لبيب » .

وفي مايو ١٩٤١ فشلت محاولة « عزيز المصرى وعبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبرى » للهروب إلى لبنان والعراق تلك المحاولة التي قام بدور واضح فيها « عبد المنعم عبد الرؤوف » والتي تمت بعد اتصالات مع القوات الألمانية وكانت الفكرة أصلاً التي اتفق فيها « عزيز » مع عملاء الألمان هي أن تقوم طائرة ألمانية باختطاف « عزيز » من منطقة صحراوية . وتم تحديد منطقة (جبل رزه) على طريق الواحات البحرية فتوجه « عزيز وعبد المنعم » إلى المنطقة وفي الطريق تعطلت السيارة وفات الوقت المحدد لهبوط الطائرة الألمانية التي كان من المقرر أن يصعد إليها « عزيز المصرى » .

الالتزام الحزبى

في مارس ١٩٤٢ م أفرج « مصطفى النحاس باشا » عن « عزيز المصرى وعبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبرى » وقد تم إبعاد عبد المنعم عن الطيران إلى سلاح آخر . . وإن كان النشاط السرى قد تشعب داخل الجيش في تلك الفترة وما قبلها وما بعدها إلا أن الباحث يلاحظ أن خطوات عبد المنعم عبد الرؤوف كانت محسوبة مما يوضح أثر ارتباطه بجماعة الإخوان المسلمين .

لم يكن « عبد المنعم عبد الرؤوف » بعيدا عن المجموعة السرية الأولى التى اتسعت وضمت « المشير - فيما بعد - أحمد إسماعيل » وضمت « خالد محيى الدين » إلى جانب « عبد اللطيف البغدادي وحسن عزت وأنور السادات وحسن إبراهيم » لم يكن عبد المنعم عبد الرؤوف بعيدا عن نشاط هذه المجموعة التى كانت على اتصال بالإخوان المسلمين وبعزيز المصرى ، واتصلت فى فترة ما بأحمد حسين . . ويسجل « أنور السادات » فى كتابه (البحث عن الذات) أهمية الدور الذى كان « عبد المنعم » يقوم به . . (ص ٣٤) .

وقد قامت هذه المجموعة يوم الاثنين ٢٩ يونية ١٩٤٢ بإيفاد أحد أعضائها « أحمد سعودى أبو على » على طائرة مقاتلة من النوع البريطانى (جلاديتور) فى الصباح الباكر ومعه حقيبة بها معلومات عن القوات البريطانية ، واتجه بها نحو منطقة مرسى مطروح ليسلمها إلى الألمان هناك . . ولا يعرف أحد حتى الآن مصير « أحمد سعودى » ولا مصير طائرته ، وكلفت قيادة الطيران المصرى فى ذلك الحين « الطيار رضوان » البحث عن طائرة سعودى ولكنه وصل إلى الألمان وبقي فى ألمانيا حتى قبض عليه هناك بعد انتصار الحلفاء . وحكم عليه فى مصر بالسجن لمدة ١٥ سنة وتم الإفراج عنه بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وقد جرى تحقيق آخر حول طائرة « سعودى » لم يصل إلى « البغدادي » الذى يعده الرجل الأول فى هذه المجموعة ، ولم يصل إلى « عبد المنعم » الذى يعده السادات الرجل الثانى . . وإنما جوزى بسببه « حسن إبراهيم » بتأخير أقدميته سبعة ضباط .

وعلى الرغم من الصلة الوثيقة والمستمرة بين « عبد المنعم عبد الرؤوف » وبين « أنور السادات » الذى يعرف تقدير « الشيخ حسن البنا وعزيز المصرى » لعبد المنعم إلا أن « عبد المنعم » لم ينزل إلى اتصال « السادات » بجواسيس الألمان فى حكاية (عوامة الراقصة حكمت فهمى) .

والجاسوسان الألمان هما « هانز ابلر » والثانى « ساندى » .

تسلل « ابلر أو حسين جعفر ، وساندى » إلى مصر فى ملابس ضباط انجليز عبر الصحراء الغربية إلى أسبوط ، ومن أسبوط إلى القاهرة ، ومعهما ألوف الأوراق المالية المزورة . . واستأجرا عوامة الراقصة حكمت فهمى التى عملت بالإنتاج السينمائى فى أخريات أيامها ، واتصل الألمان بعبد المغنى سعيد (الكاتب المعروف الآن ووكيل وزارة العمل الأسبق) عن طريق قريب لحسين جعفر أو ابلر ، وطلب الألمان مقابلة « عزيز المصرى » فأوصلهما « عبد المغنى سعيد » إلى « الطيار حسن عزت » زميل « عبد المنعم عبد الرؤوف » وتلميذ « عزيز المصرى » . وعن طريق « حسن عزت » اتصل الألمان بأنور السادات وبعزيز المصرى .

اتصل السادات بهذين الجاسوسين الألمانين ، واتصل بهما عزيز المصرى ، وفى أغسطس من

عام ١٩٤٢ قبض على عزيز المصري مرة أخرى وقبض على « أنور السادات » . . ولم يشمل التحقيق « عبد المنعم عبد الرؤوف » .

التنظيم والإخوان المسلمون

في ٨ أكتوبر ١٩٤٢ تقرر طرد أنور السادات من الجيش ، وأرسل إلى معتقل المنيا ، وجمال عبد الناصر في السودان ، وزاد ارتباط « عبد المنعم عبد الرؤوف » بالإخوان المسلمين . وفي ٨ أكتوبر ١٩٤٤ أقيمت حكومة الوفد . وشكل « أحمد ماهر » وزارته من أحزاب الأقلية السياسية إلى أن قام « محمود العيسوي » من شباب الإخوان والمحامي بمكتب « عبد الرحمن الرافعي » باغتيال « أحمد ماهر » وحل محله « محمود فهمي النقراشي » وبدأت الحركة الوطنية تأخذ بعدا جديدا .

ولكن منذ الإفراج عن « عبد المنعم عبد الرؤوف » و« عزيز المصري » في مارس ١٩٤٢ وبعد اعتقال أنور السادات و« عزيز المصري » في أغسطس ١٩٤٢ حتى ١٥ مايو ١٩٤٨ وهو تاريخ دخول الجيش المصري حرب فلسطين ، أخذت حركة التنظيم السري مسارا معينا ينبغي تسجيله .

تصاعد نشاط « عبد المنعم عبد الرؤوف » باعتباره الشخص الأول في الظروف التي أشرنا إليها وكثف جهوده في ضم ضباط الجيش إلى الإخوان المسلمين . وكان الصاغ « محمود لبيب » وكيل الإخوان هو المشرف على تثقيف وتدريب وإرشاد الضباط اخوانيا .

وبين الحين والآخر يلتقى هؤلاء الضباط « بالشيخ حسن البنا » وفي وجود « محمد لبيب » وعبد المنعم عبد الرؤوف » ، وكانت نواة هذا التنظيم السري المرتبط بجماعة الإخوان المسلمين في مطلع عام ١٩٤٤ حسب الأقدمية في كشف الجيش المصري (حركة الضباط الأحرار والاخوان المسلمون ص ٣٣) ١ - اليوزباشي عبد المنعم عبد الرؤوف . ٢ - اليوزباشي جمال عبد الناصر . ٣ - الملازم أول كمال الدين حسين . ٤ - الملازم أول سعد حسن توفيق (الذي أبلغ جمال عبد الناصر أن الملك قد كشف حركة الضباط الأحرار) . ٥ - الملازم أول خالد محيي الدين (تحول إلى الماركسية عام ١٩٤٧) . ٦ - الملازم أول حسين حمودة (مؤلف كتاب أسرار الضباط الأحرار والاخوان المسلمون) . ٧ - الملازم أول صلاح الدين خليفة (ضابط متقاعد الآن) .

وقام هؤلاء السبعة في أوائل عام ١٩٤٦ بحلف اليمين في حجرة مظلمة تماما ، في منزل في حي الصليبية بجوار سبيل أم عباس ، أمام رجل مغطى بملاءة .

وفي يناير ١٩٤٦ كلف « عبد المنعم عبد الرؤوف » الصاغ « حسين حمودة » باغتيال « أمين عثمان » إلا أن « محمود لبيب » تدخل ورفض أن يقوم أحد من التنظيم السري بهذا الاغتيال حرصا على السرية .

وفي أبريل ١٩٤٨ بدأت حركة التطوع للقتال في فلسطين وكانت الكتبية الأولى : البكباشي أحمد عبد العزيز قائدا ومعه عبد المنعم عبد الرؤوف ، وزكريا الورداني ، ومعروف الحضري ، وكمال الدين حسين ، وحسن فهمي عبد المجيد ، ومصطفى صدقي ، وخالد فوزي ، وأنور الصبحي .

الصدام ولقاء الهند!

وفي ١٥ مايو ١٩٤٨ توقف نشاط التنظيم السري لاشتراك الضباط في حرب فلسطين وإن كان الأعضاء قد بذلوا جهودا كبيرة في الحرب . وبعد الحرب وضحت خطة عبد الناصر في عزل التنظيم عن جماعة الإخوان المسلمين .

وقد عرفنا موضوع القبض على عبد المنعم عبد الرؤوف في أوائل عام ١٩٥٤ م وهو عام الصدام الأول بين الإخوان ونظام ٢٣ يوليو ، ثم كان الصدام الدامي الثاني بعد محاولة اغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية بالاسكندرية في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ . وكان عبد المنعم عبد الرؤوف هاربا خارج مصر . وجاء الصدام الدامي الثالث عام ١٩٦٥ وهو خارج مصر أيضا ، إلا أن ولاءه ظل قويا لمبادئ الإخوان المسلمين .

ترك زوجة وأولادا في مصر ، وتزوج من لبنانية وهو في لبنان وأنجب منها .

كانت العلاقات الإنسانية مسألة أساسية عند « عبد المنعم عبد الرؤوف » . سنة ١٩٤٤ هرب السادات من المعتقل ولجأ إلى منزل « عبد المنعم » . . وعندما كان السادات معتقلا وجدت أسرة السادات في « عبد المنعم » عضو الإخوان المسلمين معينا يرفع شئونها بانتظام . وتطور الأيام ويحل موعد زفاف ابنتي « عبد المنعم » وهو غائب أو هارب . . فيفتح « السادات » بيته لاسرة عبد المنعم ، ويعقد قران ابنتي عبد المنعم في منزل السادات . . ويشهد على عقد القران الرئيس الأسبق « جمال عبد الناصر » هذه واقعة مؤكدة . . وتبقى واقعة موضع خلاف نسجلها للباحثين ولن لديهم معلومات أدق . . في بداية الستينات نشرت بعض الصحف العربية أن الرئيس الأسبق « جمال عبد الناصر » وهو في زيارة لنيودلهي فوجئ بين مستقبليه من السفراء بعبد المنعم عبد الرؤوف باعتباره سفيرا للاردن ، وقيل إن الملك حسين منحه الجنسية الاردنية وعينه سفيرا للاردن في نيودلهي . . غير أن زوجته الفاضلة والتي كان قد تزوجها من لبنان عام ١٩٥٥ نفت لى بحسم مسألة الجنسية الاردنية ، ومسألة تعيين « عبد المنعم » سفيرا للاردن في نيودلهي . . وأقرت أن الموضوع قد نشر فعلا في ذلك الحين ولكنه غير صحيح . . ورجحت أن يكون الموضوع من صنع

أحد كبار معاوني « عبد الناصر » في ذلك الحين . . وقد تردد أنه « الأستاذ فتحى رضوان » . .
على أية حال الموضوع نشر فعلا وأكدته لى صديق مصرى قرأه بنفسه فى حينه فى الكويت . . وتبقى
كلمة من لديه الحقيقة .

الأسانيد :

- ١ - أنور السادات . . أسرار الثورة المصرية .
- ٢ - حسن العشماوى . . الإخوان والثورة .
- ٣ - حسين حمودة . . الضباط الأحرار والإخوان المسلمون .
- ٤ - عبد اللطيف البغدادي . . مذكرات .
- ٥ - محمد نجيب . . كلمتى للتاريخ .



الدكتور عبد الوهاب عزام

ما شاء الله ، بارك الله في مصر الولود ، في يوم واحد مشهود ، يدخل إلى مجمع اللغة العربية عشرة رجال . . وأقرءوا الأسماء التي ورد بها المرسوم الصادر في ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦ . الدكتور إبراهيم بيومي مذكور ، والدكتور أحمد زكي ، والأستاذ زكي المهندس ، والدكتور عبد الرزاق السنهوري ، والشيخ عبد الوهاب خلاف ، والأستاذ مصطفى نظيف ، والدكتور محمد شرف والأستاذ محمد فريد أبو حديد ، والشيخ محمود شلتوت ، والدكتور عبد الوهاب عزام .

ومن قال إن تاريخ مصر مقصور على رجال السياسة والأحزاب والوزراء ؟ ومن قال إن العمل في الحقل والمصنع والمدرسة والجامعة ودور العبادة والمعامل والجيش وغيرها ليس سياسة ؟ تاريخ مصر كل هذه الأنشطة وكل هؤلاء . . تاريخ مصر في كل المؤسسات . . قضائية وإدارية وثقافية وتنفيذية وشعبية وحكومية وسياسية . .

ومجمع اللغة العربية ، على الرغم من أنه مؤسسة تعنى أساسا باللغة وتطورها ومواكبتها للنهضة الحديثة ، إلا أن التفكير فيه كان في الأساس تلبية لحاجة النهضة المصرية الاقتصادية والعسكرية والصناعية والاجتماعية . ولم يكن هذا النشاط بعيدا عن السياسة . . فرفاعة الطهطاوي الذي قام بجهود هائلة في نقل المعارف الأوروبية إلى اللغة العربية ، والشيخ محمد عبده الذي جدد في أسلوب التأليف وطالب بإنشاء مدرسة دار العلوم للمساهمة في تطوير اللغة وتوفيق البكري وأحمد تيمور ولطفى السيد الذين أنشئوا الجمعيات لتطوير اللغة العربية ، ورواد مجمع اللغة فيما بعد أمثال محمد توفيق رفعت والدكتور منصور فهمي والشيخ إبراهيم حمروش والشيخ محمد الخضر حسين وعلى الجارم هؤلاء جميعا وغيرهم أسهموا بقدر وفير في نهضة مصر الحديثة السياسية وغير السياسية .

وننظر إلى العشرة الذين دخلوا إلى مجمع اللغة العربية في يوم واحد (٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦). . الدكتور إبراهيم مذكور (١٩٠٢) مد الله في عمره وأسبغ عليه نعمة الصحة . . رئيس المجمع حاليا ، كاتب ولغوى ومفكر ، وزير سابق ، وعضو مجلس شيوخ سابق ، اعتقل وسجن في ثورة ١٩١٩ ، ونادى بإصلاح الأداة الحكومية ، ودعا إلى تحديد الملكية الزراعية . الدكتور أحمد زكي (١٨٩٥ - ١٩٧٥) عالم كيميائي وأديب ، وزير سابق ، مدير سابق للجامعة القاهرة ، ورأس تحرير مجلة العربى التى تصدر من الكويت . وزكى المهندس (١٨٨٧ - ١٩٧٦) أحد رجال التربية والتعليم ، وهو أحد الأساتذة الذين شجعوا الطلاب على المشاركة في ثورة سنة ١٩١٩ . والدكتور عبد الرزاق السنهورى (١٨٨٥ - ١٩٧٦) أحد أعلام الفقه والقانون ، والوزير السابق ، وضع خدماته تحت تصرف حركة ٢٣ يوليو ، ثم اصطدم بقائدها جمال عبد الناصر ، وضع القانون المصرى المدنى والقوانين المدنية والتشريعات الدستورية لعدد من البلاد العربية . الشيخ عبد الوهاب خلاف (١٨٨٨ - ١٩٥٦) أحد الفقهاء المجددين المجتهدين في الشريعة الإسلامية تخرج على يديه أبنائه القضاة الشرعيون والقضاة المدنيين والمدرسون . الدكتور محمد شرف (١٨٩٠ - ١٩٤٩) الوكيل الأسبق لكلية الطب وتفرغ على إخراج معجم خاص بالمصطلحات الطبية . محمد فريد أبو حديد (١٨٩٣ - ١٩٦٧) أحد المؤسسين للجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤ ، المستشار الفنى السابق لدار المعارف . الشيخ محمود شلتوت (١٨٩٣ - ١٩٦٣) فقيه واسع الأفق ، مفسر واسع الاطلاع ، حارب الجمود والعصبية المذهبية ، وندد بفكرة سد باب الاجتهاد في الشريعة الإسلامية . تجاوب مع الشيخ محمد مصطفى المراغى في مشروعاته لإصلاح الأزهر . مصطفى نظيف المدير الأسبق لجامعة عين شمس ، وكان ناظرا لمدرسة أسيوط الثانوية وهو أحد علماء الطبيعة المعدودين ورائد من رواد النهضة العلمية العربية .

أرايت أن هؤلاء التسعة أسهموا في نهضة مصر الحديثة العلمية والتعليمية والثقافية والدينية والاجتماعية والسياسية أيضا . أما الدكتور عبد الوهاب عزام (١٨٩٣ - ١٩٥٩) فله ماتبقى من صفحات فإنه فارس هذه الحلقة .

أكثر من رجل

وعاشر هؤلاء الذين انضموا إلى مجمع اللغة في يوم واحد ، هو « الدكتور عبد الوهاب عزام » السفير الأسبق لمصر في الباكستان والمملكة العربية السعودية ، والعميد الأسبق لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة ، وعضو المجمع العلمى العربى بدمشق والمجمع العلمى العراقى ومجمع اللغة العربية ، وكاتب أديب مؤلف ، ومنشئ لجامعة الرياض ، ورئيس لقسم اللغة

العربية واللغات الشرقية بكلية الآداب ومترجم عن اللغتين التركية والفارسية ، وبحقق لبعض كتب التراث الشعرية والمترجمة إلى العربية وعالم في اللغات الشرقية . . قال عنه الدكتور طه حسين في حفل تأبينه : (بفضل عبد الوهاب عزام ، استقر تدريس اللغة الفارسية في جامعة القاهرة ، وانتقل منها إلى جامعات أخرى ، ومعاهد أخرى للتعليم ، وبفضل عبد الوهاب عزام أخذنا نعرف أدب الفرس ، ونعرف من آثارهم وأمورهم شيئا غير قليل .)

وعن الفارسية ترجم « الدكتور عبد الوهاب عزام » ديوان (بياض مشرق) للشاعر والفيلسوف والمعلم واحد قادة الدعوة الإسلامية « محمد إقبال » وطبعت الترجمة العربية في كراچی سنة ١٩٥١م - وكانت أول ترجمة كاملة إلى العربية لهذه الرسالة . ولابد أن أمورا بذاتها دفعت « الدكتور عزام » إلى ترجمة هذه الرسالة . وجاء هذا الديوان ردا على (الديوان الشرقى) للمفكر الغربى « جيتة » فوضع إقبال (بياض مشرق) أو رسالة المشرق سنة ١٩٢٣م . وعلى غرار ما فعله الشاعر الألماني « جيتة » في الديوان الشرقى كتب « إقبال » في أعلى ديوان رسالة المشرق عبارة (والله المشرق والمغرب) وأسفل هذه العبارة عبارة أخرى (رد على ديوان الشاعر الألماني جيتة) . ويدير « إقبال » حوار ممتعا في العالم الآخر مع تولستوى وماركس وهيغل ومزدك ونيتشة ، ويتحدث عن اينشتاين وجلال الدين الرومى ، وحوارا آخر بين أوجيست كونت من ناحية وبين رجل أجير من ناحية أخرى ، وحوارا بين لينين من ناحية والقيصر من ناحية أخرى .

وألظن أن الدافع الذى حدا بإقبال إلى وضع هذا الديوان (بياض مشرق) أو رسالة المشرق هو بذاته الذى حدا بالمفكر المصرى «دكتور عزام» إلى ترجمتها إلى اللغة العربية من الفارسية . . يقول «إقبال» - لقد حاولت في أعمالي بالفارسية أن أبرز حقيقة مؤكدة أشار إليها القرآن الكريم .

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . لقد أصدر « إقبال » بياض مشرق بعد الديوان الشرقى لجيتة بمائة عام ، وترجم « عزام » . رسالة إقبال بعد صدورها بالفارسية بـ ٢٨ سنة ، ولم تكن الترجمة مجرد عمل من مصرى يجيد الفارسية ، وإنما نجد (عبد الوهاب عزام) بعد سنتين من صدور الترجمة قد أصدر في القاهرة كتابا من تأليفه عن (محمد إقبال ، سيرته وفلسفته وشعره) بالقاهرة سنة ١٩٥٣ . ومن الضروري أنه عاش مع « إقبال » وشعره وفلسفته وجذبتة إليها سيرة حياته وأعجبه دوره في الدعوة إلى وحدة المسلمين وقد زار « إقبال » مصر سنة ١٩٣١م زيارة قصيرة كان « عبد الوهاب عزام » يعمل وقت ذاك مدرسا بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ولم نقف على مصدر يدلنا على ان الرجلين التقيا في القاهرة . واختار عبد الوهاب عزام أيضا أول أشعار إقبال بالفارسية وترجمها إلى العربية وهى تلك التى نشرها في لاهور لأول مرة في سنة ١٩١٥ م . وقد أطلق « إقبال » على هذه الأشعار الباكورة اسم (أسرار خودى) أى أسرار الذات ثم أضاف إليها « رموز خودى » ، وقام عبد الوهاب عزام سنة ١٩٥٦ بنشر ترجمة عربية للأسرار

والرموز وفي الأشعار. يثبت إقبال أن الكون كله يخضع لازادة الذات وأن عشق الذات يسود كل شيء في هذا العالم وهذه الأشعار لقيت معارضة من القراء حين نشرها وقد فسر إقبال ذلك بصعوبة تلك الأشعار أو بإغراقها في الرمزية ووعد بجزء ثالث إلى جانب (الأسرار والرموز) يوضح فكرته أكثر وأكثر واختار له عنوانا (الوجود المستقبلي للإسلام) إلا أنه لم يصدر وقد ترجم عبد الوهاب عزام كذلك مجموعة شعرية صدرت عام ١٩٣٦ م هي (ضرب كليم) ونشرت الترجمة العربية بالقاهرة في سنة ١٩٥٢ م .

ووصف « إقبال » هذا الديوان بأنه (إعلان للحرب على العصر الحاضر) وتناول فيه السياسة في المشرق والمغرب والتعليم والتربية والإسلام والمسلمين .

وهكذا نجد أن الشاعر المفكر الإسلامي « إقبال » قد استحوذ بأعماله وشخصيته وأشعاره وأفكاره على كاتبنا المصرى عبد الوهاب عزام فيصدر كتابا عنه ويترجم له أشعارا إلى اللغة العربية هذا إلى جانب مقتطفات متفرقة من الشعر الفارسي والشعر التركي نشرها في فترة باكرا بمجلة الرسالة التي كان يصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات .

أبو الطيب المتنبي

وإذا أردنا أن نقف على مكانته الثقافية الباكرا يكفى أن نقول إن « عبد الوهاب عزام » كتب في مجلة الرسالة (٣٣ - ١٩٥٣) إلى جانب « طه حسين ومحمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعى وأحمد أمين وعبد العزيز البشرى وأمين الخولى ومحمد عوض محمد ومحمود تيمور وإبراهيم عبد القادر المازنى وتوفيق الحكيم وخليل مطران وعبد الرحمن شكرى وأحمد زكى أبو شادى ومحمد عبد الله عنان وأحمد رامى وأحمد زكى وإسماعيل مظهر » .

وإذا كان « محمد إقبال » قد استحوذ على عبد الوهاب عزام فإن شاعرا عربياً شاعرا دخل إلى دائرة نشاط الدكتور عزام ذلك هو أبو الطيب المتنبي اذ عكف عبد الوهاب عزام على تحقيق ديوانه ثم أصدر كتابا عن الشاعر نفسه بعنوان (ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام) وأبو الطيب المتنبي علم من أعلام الشعراء العرب وطبع كثيرين من شعراء العربية بطابعه ، وهو من شعراء القرن الرابع الهجرى وقد زار « المتنبي » مصر أيام « كافور » وزعم « الدكتور زكى مبارك » أنه زار قرية سنترىس وهذا لم يقم عليه دليل قوى وقد أخذ العلماء يصنفون شروحا لديوان المتنبي منذ أن كان هو نفسه على قيد الحياة منذ أكثر من ألف عام . ومن هؤلاء ابن جنى وهو أول شارحيه وأبو العلاء المعرى وغيرهما ثم الدكتور عبد الوهاب عزام وكتابه يطلق عليه الباحثون (ديوان المتنبي) وهناك

شروح أخرى لعدد من الشوامخ أمثال زكريا التبريزي تلميذ أبى العلاء وعبد القاهر الجرجاني وشاعر مصرى « ولد سنة ٣٩٣هـ » وضع كتابا بعنوان المنصف فى سرقات المتنبي وقد بلغت الشروح المستوفاة لسائر الديوان سبعة عشر شرحا يقف فى وسطها (ديوان المتنبي) للدكتور عبد الوهاب عزام وحتى نعرف قيمة هذا العمل وقيمة الجهد الذى بذل فيه نقول إن عددا من الأسماء الكبيرة اكتفت بالكلام عن بعض أبيات من المتنبي أمثال أبى بكر الخوارزمي وعبد الرحمن النيسابوري وأحمد بن محمد العروضي .

والمتصفح لديوان المتنبي بتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام يرى أن المتنبي قد جمع قصائد الصبا بها سعى (العراقيات الأولى ثم (الشاميات) ثم المصريات وهى الكافوريات فالعراقيات الأخيرة إلى آخر ذلك ، وقد لاحظ الدكتور عزام أن كثيرا من القصائد له مقدمات طويلة ويرجح أن هذه المقدمات من إملاء المتنبي نفسه على رواة شعره وهذا ما لم يحدث لأى شاعر آخر وقد شغل عبد الوهاب عزام وهو الشخص القريب من التصوف والقريب من محمد إقبال بشخصية المتنبي ذات الحضور الوهاج والمقبل على المغامرة دائما والمندفع إلى المديح وإلى الهجاء لذوى السلطان والذى اتصل بوللى طبرية وبابن طفح وسيف الدولة وكافور الاخشيدي ورفض أن يمدح صاحب بن عباد عندما علم أن الصاحب شديد الرغبة فى استبعاد الكتاب والشعراء . . . ويوم الاثنين لست ليال بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلثمائة من الهجرة كان المتنبي يقترب من بغداد فقتل وقتل معه عبده وابنه وهناك روايات كثيرة عن أسباب مقتله . . . ولعل سبب اهتمام الدكتور عزام به إعجابه بشعره الفحل وشخصيته الهادرة مما جعله يحقق الديوان سنة ١٩٤٤ م ثم يصدر كتابا بعنوان (ذكرى أبى الطيب المتنبي بعد ألف عام) .

عزام ومصطفى النحاس

هذا وقد شغل عبد الوهاب عزام عدة مناصب أتاحته له الفرصة للتعرف على أحوال البلاد التى عمل فيها بل إنه كان موضع ثقة كبار المسئولين فى تلك البلاد . عمل سفيرا لمصر فى الباكستان فكان قريبا إلى قلوب المسئولين والمثقفين على السواء لما عرف عنه من بحوثه ودراساته السابقة عن شاعرهم « محمد إقبال » حدثنى الأستاذ إبراهيم فرج أن الملك عبد العزيز آل سعود كان قد بعث برسالة إلى النحاس باشا عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦ عن طريق السفير السعودى فى مصر يعرض فيها وساطته لدى حكومة واشنطن ، وطلب من النحاس أن يحدد شروطه لابلأغها إلى الحكومة الأمريكية ، وكنت - أى إبراهيم فرج - فى ذلك الوقت وزيرا للخارجية بالنيابة ، فاقترحت على النحاس تكليف الدكتور عزام ب إلأغ الرد إلى الملك عبد العزيز ، وكان عزام فى ذلك الوقت يقضى إجازته السنوية فى القاهرة حيث كان يشغل منصب سفير مصر لدى

باكستان، وقام عزام بمهمته الدبلوماسية ، فلما عاد بالجواب ، كانت وزارة الوفد قد أقيمت ، فقدم التقرير إلى وزير الخارجية السابق ، الأمر الذى يكشف عن حرصه واحترامه التقاليد والأصول وطلبنا منه تسليم التقرير إلى على ماهر باشا رئيس الوزراء ، ووزير الخارجية الجديد .

وإلى جانب أعماله فى بلاد وقف على أحوالها وتعرف على مسئوليتها كانت له رحلات إلى تركيا وبلاد الشام والعراق وإيران وبعض دول أوروبا جمعها فى كتاب باسم (رحلات عبد الوهاب عزام) . .

وعاد للعراق للتدريس فى بغداد ثم عمل فى السعودية حتى بلغ سن التقاعد سنة ١٩٥٣ وبذل جهودا كبيرة فى إنشاء جامعة الرياض وأصبح مديرا لها حتى توفى فى يناير عام ١٩٥٩ ويكون هذا الرجل (أو هؤلاء الرجال) قد عاش ٦٦ عاما عاش غالبيتها يقدم لمصر وللبلاد العربية والإسلامية أجل ما لديه من عطاء .

بداية الرحلة

ولد بالشوبك الغربى بمحافظة الجيزة فى سنة ١٨٩٣ م . والشوبك الغربى (نزلة) تابعة لمركز العياط عرف أهلها بالبطولة فى مواجهة قوات الاحتلال الانجليزى فى ٣٠ مارس ١٩١٩ . وقد حفظت لنا (مذكرات عبد الرحمن فهمى) فظائع قوات الاحتلال فى الشكوى التى قدمها عبد اللطيف أفندى أبو المجد ابن عمدة نزلة الشوبك المرفوعة لأعتاب الحضرة السلطانية ورجال الحكومة ونواب الأمة المصرية ويجد القارئ نص هذه الشكوى التى تسجل مدى الانحطاط الذى وصلت إليه القوات الانجليزية على صفحات (١٩٤ - ٢٠٠) من كتاب مذكرات عبد الرحمن فهمى ج ١ الذى صدر أخيرا .

وفى تلك النزلة نشأ عبد الوهاب عزام نشأة دينية فحفظ القرآن الكريم منذ صغره والتحق بالأزهر ، وانتقل منه إلى مدرسة القضاء الشرعى وتخرج منها أول زملائه سنة ١٩٢٠ م . وعمل مدرسا بها وفى الوقت ذاته كان يدرس فى الجامعة المصرية فحصل منها على ليسانس الآداب سنة ١٩٢٣ .

وفى تلك السنة (١٩٢٣) وبعد مائة عام تقريبا من سفر الشيخ رفاعه الطهطاوى إماما لبعثة محمد على إلى باريس يتكرر الموقف فيسافر الشيخ عبد الوهاب عزام إماما فى السفارة المصرية فى لندن وكما فعل رفاعه حين اتجه لدراسة اللغة الفرنسية التحق عبد الوهاب بمدرسة اللغات الشرقية

بجامعة لندن ليدرس الفارسية وكان معه أستاذنا الدكتور محمد مهدى علام والمرحوم حامد عبد القادر وسنة ١٩٢٨م عاد من لندن ليعمل مدرسا بكلية الآداب وحصل على الدكتوراه في الأدب الفارسي عام ١٩٣٢ وعمل أستاذا بالكلية ثم عميدا لها عام ١٩٤٥ ولقى ربه بالسعودية في يناير ١٩٥٩ راضيا مرضيا .

الأسانيد :

- ١- د . أحمد معوض - محمد إقبال .
- ٢- عبد الرحمن فهمي - المذكرات .
- ٣- د . عبد المجيد دياب - أبو الطيب المتنبي .
- ٤- د . عبد المنعم الجميلى - مجمع اللغة العربية .
- ٥- على شلش - دليل المجالات الأدبية .
- ٦- محمد مهدى علام - المجمعون .

عدلى يكن



أول رؤساء حزب الأحرار الدستوريين (٣٠ أكتوبر ١٩٢٢) .

ولد عام ١٨٦٦ م ، وفي رواية أخرى ١٨٦٤ م ، وتوفي في باريس ١٩٣٣ . جميع الكتابات التي عرضت له تناولته في مجال المقارنة مع « سعد زغلول » ونحن هنا لسنا في مجال المقارنة أو المفاضلة ، ولهذا سوف نقدم صورته دون المقارنة مع شخصية « سعد زغلول » التي سيطرت على القلوب وعلى الشارع المصرى .

كتب عنه « محمد كامل سليم » سكرتير سعد زغلول فقال . . رجل الديوان ، أرستوقراطى ، فيه دم تركى أجنبى ، عظيم الثراء ، نبت من بيئة الحكام ، وليس في قلبه ما يضرم الشوق إلى الحرية والاستقلال . ثقافته ونشأته وتربيته وعاداته فرنسية وأقدر على الكلام بالفرنسية أضعاف قدرته على الكلام بالعربية العامية ، ولم يعرف العربية الفصحى ، ولم يقرأ كتابا من كتب الأدب العربى . رجل مصالح أولا وأخيرا ولا يعنى بسواها . وكل وسيلة تحقق مصالحه هي مقبولة فورا مادامت لاتعرضه للمتاعب والأخطار ، ويرى أن المساومة وحدها هي سر النجاح في الحياة ، والنعمومة والمكر وانتهاز الفرص خير الوسائل في الحياة . متكبر لا يترك أية عاطفة تسيطر عليه ، فهو يقلد الانجليز في البرود ولا يسمح لأية عاطفة أن تفوت عليه مصلحة يريد بها . وهو بحكم مزاجه البارد وطبيعته الجامدة وبيئته ونشأته لا يعترف بالمثل العليا ، ولا يتأثر كثيرا بها يصيب الآخرين . سلوكه يتوقف على ما يراه فإن كان ما يراه صعبا جدا أعرض عنه وانصرف إلى سواه . وإن كان ما يراه مفيدا وممكنا بمجهود يسير أقبل عليه ودافع عنه وقام بالعمل لتحقيقه . ومصالحته الشخصية هي الهدف الأول والأخير على الدوام . ولا يرى أى معنى للتمسك بالمبدأ أو الثبات على عهد أو مقاومة القوة القاهرة ، ويرى أن التمسك بذلك إنما هو من مظاهر الغباء وقلة

العقل وأسلوبه في الكلام أسلوب السياسى الناعم الملمس الذى يؤذى ولايجرح . وكان يتكلم دائما في هدوء .

هذا ماكتبه عنه « سكرتير سعد » وهو بالتأكيد محب لسعد ، ولهذا يجدر أن ننظر إلى ماكتبته «دكتورة عفاف لطفى السيد » ابنة شقيق « أحمد لطفى السيد » المحب لعدلى يكن ، والدكتورة عفاف ليست موالية لسعد ويظهر هذا بوضوح في كتبها التى أصدرتها . كتبت تصف « عدلى يكن » فقالت - ولد ارستوقراطيا أسمر البشرة ، ملامحه زنجية يعزوها البعض إلى أجداده السودانيين ، ومع ذلك كانت تربطه بالأسرة المالكة رابطة قرابة . كان واسع الثراء ، ولم يكن يجارب قط من أجل البقاء أو الشهرة إذ أتيا له بحق المولد ، فضلا عما كان يتمتع به من صفات مؤكدة وبخاصة مهارته الإدارية . تلقى العلم في فرنسا وتركيا والتحق بالمدارس الفرنسية والألمانية في مصر . ولم يكن عدلى ارستوقراطيا فحسب ، بل كان أميناً أيضا ، عنده (عزة نفس) وهى من الخصال التى يقدرها الناس في مصر تقديرا عظيما ، وهو لا يحط من قدر نفسه أبدا ليؤدى عملا وضيعا . ويندر أن يقبل الاشتراك في أى أمر أعنف من مناقشات سياسية نبيلة . كان يفضل أن يستقيل عن أن يحط نفسه بالاشتراك في شغب سياسى . كان رجل دولة ولكن لم يكن سياسيا . كان دائما محل إعجاب ، ولكن نظرا لترفعه لم يكن محبوبا وقلة من الشعب تعرفه ، وهو بدوره نادرا ما يتصل بالناس ، ونادرا ما كان يتأثر بهم ، ومع ذلك كان رجلا حكيما يمكنه أن يرى جانبى المشكلة ، ويحترم آراء الآخرين .

عدلى وزيراً

وفي تقديرى أن كل صورة كانت لجانب واحد من « عدلى يكن » والصورتان معا تشكلان الصورة الشاملة لعدلى يكن ، الذى تعلم في الأستانة ومصر وفرنسا . وفي مصر تعلم في المدرسة الألمانية والفرير والجزويت ومدرسة مارسيل . وسنة ١٨٨٠ عين كاتبا بقلم الترجمة بنظارة الداخلية . ثم تولى منصب سكرتارية مجلس النظار (مجلس الوزراء) في عهد الأرمنى الداهية الماكر « نوبار » . وعين عام ١٨٩٠ وكيلا لمديرية المنوفية ، فوكيلا لمديرية المنيا . ثم مديرا للفيوم سنة ١٨٩٤ . فمديرا للشرقة والدقهلية والغربية ومحافظا للقاهرة .

وفي ٥ ابريل سنة ١٩٠٤ صدر (أمر عال) لحسين رشدى باشا بتشكيل نظارة جديدة اختار فيها « عدلى يكن باشا » ناظرا للخارجية وكانت نظارة رشدى هى آخر عهد مصر بالنظارات اذ إذ الحرب العالمية الأولى بدأت في أول أغسطس ١٩١٤ ، ورحل الخديو عباس حلمى الثانى إلى الأستانة ولم يعد بعد ذلك إلى مصر ، وأصبح « حسين كامل » سلطانا على مصر . وشكل

«حسين رشدى» وزارته الثانية فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ وتولى «عدلى يكن» وزارة المعارف العمومية. وفى ١٠ أكتوبر ١٩١٧ شكل «حسين رشدى» وزارته الثالثة وبقي «عدلى يكن» وزيرا للمعارف إلى أن استقالت الوزارة فى أول مارس ١٩١٩. وفى ٥ ابريل ١٩١٩ شكل «حسين رشدى» وزارته الرابعة التى استمرت حتى ٢٢ ابريل ١٩١٩ وشغل فيها «عدلى يكن» منصب وزير الداخلية. وبذلك يكون «عدلى يكن» قد شغل منصب الوزير من ٥ ابريل ١٩١٤ حتى ٢٢ ابريل ١٩١٩، أى لأكثر من خمس سنوات متصلة ولكن فى مواقع وزارية مختلفة.

وبالنظر فى تواريخ الوزارات الماضية تكون الفترة من ١٣ نوفمبر ١٩١٨ حتى ٢٢ ابريل ١٩١٩، التى كانت فترة المد الشعبى حول الوفد وحول سعد زغلول، تكون داخل نطاق رئاسة «حسين رشدى» لوزارات متعاقبة، وكان فيها «عدلى يكن» وزيرا للمعارف مرة، ووزيرا للداخلية مرة أخرى. وبخصوص جمع التوكيلات للوفد فى نوفمبر ١٩١٨ فقد لاحظ رئيس الوفد «سعد زغلول» أن (وزير الداخلية ورئيس مجلس الوزراء - حسين رشدى) قد أمر بالكف عن إمضاء هذه التوكيلات، وأمرت الداخلية بمصادرة ماتم التوقيع عليه. وقد أرسل «سعد زغلول» بصفته وكيلًا منتخبًا للجمعية التشريعية ورئيس الوفد المصرى احتجاجا فى ٢٤ نوفمبر ١٩١٨ لحسين رشدى باشا الذى أجابه برد يفيد أن «مستشار الداخلية» وهو انجليزى هو الذى أصدر تلك التعليمات. ورغم هذا فقد كان الإقبال على جمع التوكيلات للوفد شديدا وقد قدم «حسين رشدى» استقالة الوزارة فى أول مارس ١٩١٩ ووقف الوفد إلى جانب «رشدى» وأرسل مايشبه الإنذار للسلطان «أحمد فؤاد» وفى ٨ مارس كما هو معروف اعتقلت السلطات البريطانية «سعد زغلول» وثلاثة من قادة الوفد. وبقيت البلاد دون وزارة جديدة إلى أن شكل «رشدى» وزارته الرابعة من ٩ - ٢٢ ابريل. وتولى «عدلى» وزارة الداخلية وكان قد تضامن مع «رشدى» فى تقديم استقالته السابقة. وفى عهده اجتمع مجلس مديرية الجيزة واحتج على الفظائع التى ارتكبتها الانكليز ضد الأهالى. بل إن «عبد الرحمن فهمى» يسجل فى مذكراته (ظلت البلاد من أول مارس ١٩١٩ دون وزارة مسئولة حتى إذا أجابت السلطة الانجليزية رغبات الأمة التى هى رغبات رشدى باشا وزميله عدلى باشا، وهى السماح للمصريين بالسفر إلى أوروبا لعرض قضية البلاد أذعن رشدى باشا للرغبة (التي أبدت لتشكيل الوزارة فى ٩ ابريل ١٩١٩) ولم يسجل «عبد الرحمن فهمى» فى مذكراته - وهو معروف بدقته وحيدته - أية ملاحظات على تصرفات «عدلى يكن» وزير الداخلية أثناء توليه الداخلية فى الفترة الحرجة من ٩ - ٢٢ ابريل ١٩١٩.

عدلى فى أوروبا

تم الإفراج عن سعد زغلول وزملائه الثلاثة فى ٨ ابريل ، وسافر عدد من أعضاء الوفد من بورسعيد إلى فرنسا فى ١١ ابريل والتقى الجميع هناك لعرض قضية البلاد على مؤتمر السلام . ثم نجحت الثورة بإجماع المصريين على مقاطعة لجنة ملنر وعادت إلى لندن . واضطر « ملنر » للاتصال بسعد زغلول فى باريس ودعوته للمفاوضة فى لندن . وظل سعد يعارض ويعترض . واضطر أخيرا إلى الموافقة تحت ضغط غالبية الوفد يؤيدهم فى ذلك رأى « عدلى يكن » وهكذا سافر سعد زغلول وأعضاء الوفد من باريس إلى لندن فى ٥ يونية ١٩٢٠ . وفى يوم ٦ يونية ذهب « سعد وعدلى » لمقابلة « ملنر » . وفى ٩ يونية بدأت الجلسة الأولى للمفاوضات الساعة ٤٣٠ بعد الظهر فى وزارة المستعمرات ومثل الجانب المصرى « سعد زغلول ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد وعدلى يكن » وتعددت الجلسات . وفى أول يوليو ١٩٢٠ وردت بريقة من « مصطفى النحاس » تحمل أنباء القبض على « عبد الرحمن فهمى » وسبعة وعشرين مصريا من زعماء الشباب والطلبة فى قضية أطلق عليها اسم (المؤامرة الكبرى) . وقرر « سعد » قطع المفاوضات فورا ولكن لإخوانه ينصحونه بالتريث وفى مقدمتهم « عدلى يكن » الذى قال (إن ملنر يجب ان يعطى فرصة ليصلح ما افسده غيره) . وفى ١٧ يوليو تقدم « ملنر » بمشروع للمعاهدة . ورد « سعد » بمشروع آخر . وفى ٢٠ يوليو أبلغ « عدلى » الوفد أن « ملنر » اتصل به تليفونيا وأبلغه أنه ساحت على مشروع الوفد ورفض له . فأعلن سعد ضرورة قطع المفاوضات والعودة من لندن إلى باريس ، ولكن أغلبية الأعضاء ومعهم « عدلى » رأوا ضرورة التريث وضبط الأعصاب . ووصل « حسين رشدى » إلى لندن وانضم إلى المتفاوضين ، وفى ٢٥ يوليو وضع « رشدى وعدلى وأحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ومحمد على علوبة » مشروعا جديدا حمله « عدلى » إلى ملنر دون أن يطلع « سعد زغلول » عليه وتقدم « ملنر » بمشروع جديد رفضه « سعد زغلول » ولكن غالبية الأعضاء قرروا أن يعود أربعة منهم هم « أحمد لطفى السيد ، ومحمد محمود ، وعلى ماهر ، والمكبأتى » إلى مصر وينضم إليهم « مصطفى النحاس وويصا واصف والدكتور حافظ عفيفى » الموجودون فى مصر . ولم يرض « سعد » عن هذا الاقتراح وعاد من لندن إلى باريس فى ١٦ أغسطس . . وكان الموقف كالتالى يعارض المشروع « سعد زغلول وواصف غالى وسينوت حنا وعلى ماهر ومصطفى النحاس ومعهم الحزب الوطنى . . وفوجئ سعد بأقسام كثيرة تؤيد المشروع وصولا إلى اتفاق مع انجلترا . . « عدلى وعدد كبير من أعضاء الوفد » وصحافة لندن وباريس تروج للاتفاق ، ومعهم عدد من أعضاء الجمعية التشريعية . . وكان رأى العام فى مصر يميل إلى قبول المشروع مع بعض التحفظات عليه .

وبدأت المفاوضات جولة جديدة ، وكان سعد يأمل أن يضع تحفظات جوهريّة على المشروع ورفض « ملنر » هذه التعديلات وهنا حسم الموقف داخل الوفد . . غالبية الأعضاء ينضمون إلى عدلى فى قبول « مشروع ملنر » . . وعدد قليل من الوفد يقف إلى جانب « سعد » ووقع الصدام السافر بين سعد وعدلى . فى نوفمبر ١٩٢٠ . وعاد سعد مرة أخرى من لندن إلى باريس ، أما عدلى فقد تخلف فى لندن لعدة أيام .

وكان الموقف قد تحدد . . عاد « عدلى » إلى مصر ، واتجهت نية غالبية أعضاء الوفد إلى المفاوضات مع انجلترا بدون سعد زغلول حتى يمكن الوصول إلى اتفاق ، وفى يناير ١٩٢١ كتب « عبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد ومحمد محمود ومحمد على علوبة وعبد اللطيف المكباتى وحمد الباسل » خطابا إلى سعد زغلول يتهمونه بالسياسة الانفرادية وأنه وحده يتحمل تبعة انقسام الأمة ! وفى ١٥ مارس ١٩٢١ استقالت وزارة نسيم وشكل « عدلى يكن » وزارته الأولى فى ١٦ مارس ١٩٢١ . . وبدأ « عدلى » عهد رئاسته للوزارة ، وأصبح فى حياته رئيسا للوزارة مرات ثلاثا .

عدلى رئيسا للوزراء

وأدرك « سعد » أن هدف « عدلى » هو إبعاده عن رئاسة وفد المفاوضات ، للوصول إلى أى اتفاق مع الانجليز . وعاد « سعد » من أوروبا فى ٤ ابريل ١٩٢١ واستقبل استقبالا منقطع النظر . وفى محاولة ماهرة حاول « عدلى » أن يضم « سعد زغلول » إلى وفد المفاوضات مجرد عضو ، وأعلن « سعد » شروطه وهو أن يتولى رئاسة وفد المفاوضات باعتباره زعيم الوفد وزعيم الأمة ، والغاء الاحكام العرفية والمراقبة على الصحف ، وأن يكون الغاء الحماية إلغاء تاما أحد أهداف المفاوضات . وفشلت مناورة عدلى وتوجه « سعد » إلى اجتماع فى شبها وأطلق قوله المشهور (جورج الخامس يفاوض جورج الخامس) وعاد « عدلى » من لندن بعد فشل المفاوضات . وقدم استقالة الوزارة فى ٨ ديسمبر التى قبلت فى ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ بعد الاعتقال الثانى لسعد وقادة الوفد ونفيهم إلى (سيشل) . وفى ٧ يونيه ١٩٢٦ شكل « عدلى يكن » وزارته الثانية وكانت وزارة ائتلافية اشترك فيها الوفد ، وأيدها بأغلبيته فى مجلس النواب ، بعد أن أصر الانجليز والملك فؤاد على ألا يشكل « سعد الوزارة » ، وحدث لقاء عنيف بين سعد والمندوب السامى وتحركت قطع الأسطول البريطانى إلى الإسكندرية ، وترددت الأقوال عن اتجاهات سعد إلى (إعلان الجمهورية) أو القيام بحركة مثل « أحمد عرابى » وفى ٧ يونيه شكل « عدلى » وزارة ائتلافية برئاسته وتضم عددا من الوفديين والأحرار الدستوريين . وكان « سعد » رئيسا لمجلس النواب . وقد

مارس الوفد سلطاته على هذه الوزارة إلى أن استقالت في ٢١ أبريل ١٩٢٧ .

وفي ٢ أكتوبر ١٩٢٩ استقالت وزارة اليد الحديدية ، وزارة محمد محمود الأولى ، بعد مناورات عديدة من « على ماهر » وزير المالية ، وتولى « عدلى يكن » وزارته الثالثة التى استمرت من ٣ أكتوبر ١٩٢٩ حتى أول يناير ١٩٣٠ ، وتولى فيها « عدلى يكن » منصب وزير الداخلية إلى جانب منصب الرئاسة . وقد أجرت هذه الوزارة الانتخابات بطريقة حرة دون تدخل إدارى وفاز الوفد بالأغلبية الساحقة ، وانتهت مهمة وزارة عدلى يكن الثالثة وأفسحت الطريق لوزارة «مصطفى النحاس الثانية في أول يناير ١٩٣٠ .

رئيسا للأحرار الدستوريين

يرى « ماريوس ديب » أنه يمكن النظر إلى (الوفد) فى نشأته عقب الحرب العالمية الأولى على أنه مركب من (الحزب الوطنى وحزب الأمة) السابقين على وجوده استعار من الحزب الوطنى منهجاً وحظي بتأييد انصاره فى المدن ، واستعار من حزب الأمة أفكاره وحظي بتأييد انصاره فى الريف . . أى إنه يريد القول بأن (الوفد) هو مزيج من طبقة الأفندية (الحزب الوطنى فى المدن) ومن الأعيان (حزب الأمة فى الريف) وهذا تحليل سهل يريح الذين يكتبون فى السياسة . وفى تقديرنا أن الأمور فى بلد مثل مصر وفى ظل الاحتلال نحن فى حاجة إلى نظرة أعمق من هذه النظرة السهلة المريحة . فالحزب الوطنى (مصطفى كامل ومحمد فريد) إذا كان قد قام على أكتاف (الأفندية والطلبة) فهذه ضرورة اقتضتها نسبة الأمية المتفشية التى ألقت على (الطلبة) عبء النضال الوطنى ، ولكن الطلبة كطليعة للتغيير نجد لهم دوراً حتى فى دول رأسمالية متقدمة مثل فرنسا أيام إضرابات ١٩٦٨ وأيام ١٩٨٦ . وبرنامج الحزب الوطنى كان يهدف إلى أن يكون حزبا للأمة ، وفى فترة من الفترات كان بالفعل حزب الأغلبية . وحزب الأمة أيضاً وإن اعتمد على (كبار الملاك) فى الريف إلا أنه اعتمد أيضاً على فئة أخرى هى فئة (صفوة المثقفين) أبناء كبار الملاك الذين تعلموا فى الغرب ، وتأثروا بأفكاره ، والذين أسسوا (الحزب الديمقراطى) أمثال د . محمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرازق ومحمود عزمى وهؤلاء جميعاً شكلوا فيما بعد فى ظل الأحرار الدستوريين مجموعة الاستنارة الفكرية ونظراً لوجود قضية وطنية تهم طبقات الشعب كله ، كان كل حزب يسعى إلى أن يكون حزبا للأمة بأسرها . . على أية حال استطاع (الوفد) فى ظل القضية الوطنية أن يكون بالفعل (حزبا للأمة بأسرها وهذه قضية يمكن أن نثيرها فى دراسة مستقلة . ومن خلال الحركة الوطنية ذاتها بدأ الانقسام الأول يتسلل إلى الوفد على أساس منهجين . . منهج يأخذ ما يمكن أخذه من الاحتلال ويرفض عناد وتصلب « سعد زغلول » الذى رفض مشروعات الاستقلال المنقوص . وتبلور الانقسام بعد تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى صدر من جانب

واحد ، وفى ظل تشكيل لجنة وضعت الدستور الذى عرف بدستور ١٩٢٣ وحين صدر تصريح فبراير ، وإبان عمل لجنة الدستور كان عدد من قادة الوفد فى المنفى . وعارض الوفد والحزب الوطنى أعمال لجنة الدستور . ولكن بعد محاولة القصر اختزال ماوصلت إليه الحركة الوطنية كان المدافع الأول عن هذه المكاسب هو (الوفد) وعدد من قادة الانقسام مثل « عبد العزيز فهمى » . وفى مجريات الأمور بعد ذلك أصبح الوفد فى جانب والأحزاب الأخرى فى جانب آخر .

على أية حال أصبح الخلاف بين سعد وعدلى سافرا ، وانضمت غالبية أعضاء الوفد إلى عدلى ونزل « سعد » إلى الشارع فى المدن وإلى الحقل فى الريف فكانت البيعة الكبرى وفى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ عقدت الجمعية العمومية لحزب الأحرار الدستوريين وفى ١٠ نوفمبر اختير أعضاء مجلس الإدارة . ثم اختير « عدلى يكن » كأول رئيس للأحرار الدستوريين وانقسم الوفد هذا الانقسام الخطير ، وانقسمت الأمة بين سعد وعدلى أو بين الاستقلال التام والاستقلال المتاح ، وسارت الحركة السياسية على النحو الذى هو معروف . وعندما رحل سعد زغلول سنة ١٩٢٧ بكاه «عدلى» وأشاد بوطنيته ، وعندما رحل عدلى يكن سنة ١٩٣٣ نعه « مصطفى النحاس » وأشاد بتزاهته . ورحم الله الجميع .

الأسانيد :

- ١ - حسن يوسف . . . المذكرات .
- ٢ - عبد الرحمن فهمى . . المذكرات .
- ٣ - د . عواطف لطفى السيد . . تجزية مصر الليبرالية ترجمة : عبد الحميد سليم .
- ٤ - د . ماريوس ديب . . الوفد وخصومه ترجمة : عبد السلام رضوان .
- ٥ - محمد فريد . . . المذكرات بإشراف د . عاصم دسوقي .
- ٦ - محمد كامل سليم . . . سعد وعدلى

د . عزيز سوريال



هذا الرجل سرت مصريته في دمه منذ أن ولد في قرية (العايشة) وهي قرية صغيرة بمركز زفتى مديرية الغربية بدلتا النيل يوم ٥ يوليو عام ١٨٩٨ م ، إلى أن فاجاته أزمة قلبية وهو جالس إلى مكتبه كرئيس لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة (يوتا) - سولت ليك سيتي بالولايات المتحدة الأمريكية يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٨٨ م .

من كتاب شيخ ضاع اسمه مع الأيام في قرية (العايشة) حيث تعلم مبادئ الحساب والقراءة والكتابة ، واستمع إلى آيات القرآن يردددها زملاؤه في الكتاب عن ظهر قلب فينشأ الصبي « عزيز سوريال عطية » مستقيم اللسان ، سليم العبارة ، إلى أن يجيد في مقبل الأيام اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية ، ويكتب باللغات الأربع أكثر من ٦٠ مرجعا عالميا ، ومئات من البحوث والدراسات .

مصريته سرت في دمه تسعين عاما أو تزيد . . يشارك في تحرير (الموسوعة الإسلامية) التي تنشرها دار (ماكميلان) . . وتكلفه جامعة (حيدر أباد) بالهند بتحقيق العمل الإسلامي الشهير (الإمام بالإعلام فيما قضت به الأمور المقتضية في واقعة الإسكندرية) الذي كتبه « النويري السكندري » في سبعة أجزاء ، في القرن الرابع عشر الميلادي ثم يشرف على تحرير الموسوعة القبطية والتي شارك في إعدادها علماء وباحثون من أوروبا وأمريكا ومصر ، ومصريون وغير مصريين . . ومن مصر أذكر « د . رءوف عباس حامد ، ود . عبد العظيم رمضان ، ود . عبد الرحيم عبد الرحمن ، ود . أحمد زكريا ، ود . يونان لبيب رزق ، وإبريس حبيب المصري ، وكاتب هذه السطور وآخرون كثيرون . . . » .

كانت مهمته أن يقيم الجسور بين الثقافات والحضارات والعقائد وألقى محاضراته في جامعات

أمريكا وأوروبا . كانت له جنازة مهيبة يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٨٨ ، ويقول سفيرنا في واشنطن « عبد الرؤوف الريدى » . . (لقد كان الدكتور عزيز سوريال عطية سفيرا ثقافيا مخلصا لمصر في أوروبا وأمريكا) . وبعد هذا التصوير السريع نعود إلى سيرته منذ بدايتها بالتصوير البطيء . .

في البدء كانت المعاناة

الأسرة (مستورة) لا هى بالغنية ولا هى بالفقيرة ، والأب يعمل في تجارة الأقطان ، والقرية صغيرة ، ولم تكن بالقرى وخاصة الصغيرة منها مدارس للتعليم الابتدائي . (والعائشة) مركز زفتى مديرية الغربية قرية صغيرة ، بل إننا نسميها قرية تجاوزا ، بها (كتاب) لم نصل إلى اسم شيخه ، وفي الكتاب الذى صدر عنه في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٥ ، شأنه في ذلك شأن المشاهير ، ذكر « الدكتور سوريال » لمن أجرى معه المقابلة وهو « ايفيرت كولى » أنه قضى سنوات من طفولته في هذا (الكتاب) يتلقى ما يتلقاه أقرانه من أطفال القرية « آيات من القرآن ، ومبادئ الحساب والقراءة والكتابة ، وحوالى عام ١٩٠٥ وكان عمره ٧ سنوات إذ ولد في ٥ يوليو من عام ١٨٩٨ انتقلت الأسرة إلى (الزقازيق) حيث التحق بالتعليم الابتدائي وحصل على الابتدائية عام ١٩٠٩ ، ثم جاء إلى القاهرة والتحق بالمدرسة التوفيقية ليحصل على (البكالوريا) القسم العلمى عام ١٩١٤ ثم يلتحق بكلية الطب ، والأسرة تأمل أن يكون أول أبنائها طبيبا مرموقا ، ولكن الحركة الوطنية بقيادة « سعد زغلول » تبدأ بمشوار ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، تجذب الأسرة ضمن آلاف الأسر المصرية التى سارت خلف « سعد » وطالب الطب بالسنة الرابعة يشتغل حماسة في أحداث الثورة الشعبية الكبرى في مارس ١٩١٩ ، وتصطدم مجموعته بجنود الاحتلال بالطوب والحجارة ، وتصدر سلطات الاحتلال قرارا بفصل الطالب « عزيز سوريال عطية » فصلا نهائيا من كلية الطب وهو على أعتاب التخرج بعد اعتقاله مرتين ويضيع أمل الأسرة التى دأمتها في الوقت نفسه كارثة إفلاس عائلها في تجارة القطن وأصبحت الأسرة يهددها الفقر ، ولكن بعزيمة مصرية أصيلة يغير الشاب « عزيز سوريال عطية » اتجاه تعليمه ، ويعيد دراسة البكالوريا في القسم الأدبى بدلا من القسم العلمى ، ويعمل في النهار موظفا صغيرا بمصلحة الطب البيطرى بوزارة الزراعة ، ويعطى دروسا خصوصية في المساء ويحصل على البكالوريا القسم الأدبى ويلتحق بمدرسة المعلمين العليا بالقسم المسائى ، حتى لا يفقد وظيفته الصغيرة بالنهار ، وكان أول القسم الأدبى في القطر عام ١٩٢٠ .

يعمل نهارا ، ويعطى دروسا خصوصية عصرا أو مساء ، ويعاون في الإنفاق على الأسرة التى أفلس عائلها ، ويحصل على شهادة المعلمين العليا يتفوق لم يسبق له مثيل ويكون الفارق بينه وبين

الطالب الذى يليه فى القسم النهارى أو الليلى ٤٧ر٥ درجة ويتم اختياره فى بعثة إلى ليفربول بانجلترا .

البداية العلمية

إلى (ليفربول) كانت بعثته عام ١٩٢٥ ، وكانت رغبته الأساسية التخصص فى التاريخ الحديث ، إلا أن أستاذ التاريخ القديم والعصور الوسطى « كوبلاند » دعاه إلى محاضرة له عن «العصور الوسطى» خرج منها « عزيز » يقول : هذا هو اتجاهى الذى أجد نفسى فيه .

تخصص فى (العصور الوسطى) وحدثنى وزير التربية والتعليم الأسبق والمترجم والكاتب الكبير حالياً « أحمد نجيب هاشم » أنه سافر فى بعثة إلى (ليفربول) عام ١٩٢٨ وكان « عزيز » و«مصطفى زياده - الدكتور فيما بعد » قد سبقاه إلى هناك بثلاثة أعوام ، ووجد « عزيز سوريال » شخصية مستقلة الرأى ، عميقة التفكير ، معاوناً لزملائه وأبناء وطنه ، مرشداً لهم فى الدراسات والبحوث ، وحدثنى عن أستاذهم « كوبلاند » كنموذج لأستاذ يحترم حرية التفكير لدى تلاميذه ، حدث أن كتب « أحمد نجيب هاشم » إجابة نموذجية فى أحد الاختبارات كما وردت فى مؤلفات « كوبلاند » وتوقع أن يسمع كلمة ثناء وفوجئ بالأستاذ يستدعيه ويطلب منه أن تكون له مطالعته وآراؤه الخاصة بعيداً عن كتب الأستاذ المحاضر .

وطوال سنوات البعثة كان « عزيز » يقسم المكافأة الشهرية إلى أقسام ثلاثة . . الثلث لمعيشته فى ليفربول والثلث للكتب والبحوث ، والثلث يرسله للأسرة فى مصر . . بل إن « الدكتوراة جانيت سوريال » الأستاذ بأداب عين شمس بمصر وابنة شقيقه ، حدثنى أن الجوائز المالية التى كان يحصل عليها كان يرسلها لأسرته بمصر ، حصل على الماجستير من جامعة ليفربول وكانت الدراسة تقتضى أن يسافر إلى منطقة البلقان ويطلع على المراجع ويعاين المواقع رؤيا العين ، وحصل على الدكتوراه من جامعة ليفربول أيضاً عن الحروب الصليبية فى أواخر العصور الوسطى ، ثم حصل على دكتوراه الفلسفة من جامعة (لندن) كما عرفت من أخيه « الأستاذ الدكتور فؤاد سوريال . . . وفى وفاء نادر وبروح طيبة وباستاذية كريمة حدثنى « الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور » وهو تلميذ « الدكتور سوريال » الذى شارك مع « الأستاذ الدكتور محمد شفيق غربال » فى مناقشة رسالة الماجستير للدكتور مصطفى زيادة « بكلية الآداب عام ١٩٤٩ ، حدثنى بأن « الدكتور سوريال » كان يحاضر فى أكثر من جامعة أوروبية وأمريكية ومصرية .

حصل على الدكتوراه من « ليفربول » وعمل أستاذاً فى جامعتها ، وأستاذاً فى جامعة « لندن » ، ودعته جامعة بون كمحاضر وفى النصف الثانى من الثلاثينات عاد إلى أرض الوطن .

على أرض الوطن

عاد إلى أرض الوطن ، ولم يوفق في أن يعمل بكلية الآداب جامعة القاهرة ، فاختر للعمل بتفتيش التاريخ بوزارة المعارف العمومية لمدة عامين ، وفي سنة ١٩٣٨ دعتة جامعة (بون) ليعمل مع عميد المستشرقين الألمان « كالى » وأثناء الحرب العالمية الثانية عاد إلى مصر مرة أخرى في أوائل الأربعينات على غير رغبة الجامعة ، واختير استاذاً بكلية الآداب جامعة القاهرة بفضل جهود «الدكتور طه حسين» وشارك في التدريس بفرع جامعة فؤاد الأول بالإسكندرية إلى أن تأسست جامعة فاروق الأول (جامعة الإسكندرية حالياً) وكان قد شارك الدكتور طه حسين في مشروعات تأسيس كلية الآداب ، ففرغ للعمل في كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، واشتهر بمحاضراته في الجمعية الجغرافية والجمعية التاريخية وجمعية الآثار القبطية .

وعام ١٩٤٠ تزوج « لولا » نجيب مسيحة « والدتها نجيب مسيحة » المدير بمصلحة السجون ، والزوجة من أسرة وفدية عماها « الدكتور نجيب اسكندر » و« راعب اسكندر المحامى » ، وابن خالتها « عزيز ميرهم » عضو مجلس الشيوخ الوفدى المعروف .

وقد حدثنى « الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور » عن عمليين هامين « للاستاذ الدكتور سوريال » الأول : هو تحقيق مخطوطة من سبعة أجزاء للعالم المؤرخ « النويرى السكندرى » وهو غير النويرى صاحب نهاية الأرب ، وهذا العمل الشهير هو (الأنام بالإعلام فيما قضت به الأمور المقتضية في واقعة الإسكندرية) وواقعة الاسكندرية هى القسم الرئيسى في هذا الكتاب الإسلامى الموسوعى ، الذى احتوى على التعريف بموضوعات إسلامية كثيرة مع التركيز على (واقعة الإسكندرية) التى تدور حول قيام ملك قبرص سنة ١٣٦٥ م بالإغارة على الإسكندرية وتدميرها ، فسجل النويرى السكندرى « هذه الواقعة في المخطوط المعروف له ، وقد قام « الدكتور سوريال » بتحقيق هذا المخطوط بتكليف من (جامعة حيدر اباد - فى الهند وهى جامعة معروفة بنشاطها العلمى ، والعمل الثانى : أشرف عليه وأنفق على طباعته « الأمير عمر طوسون » وهو مخطوط لأحد مؤرخى العصر الأيوبى ، « ابن ممتى » من أقباط مصر . . والمخطوط عن قوانين الدواوين ونظم الحكم ، وقام بتحقيقه « الدكتور سوريال » .

ونأتى إلى مشروع هام له أثره في حياة « الدكتور سوريال » نفسه طلبته منه (مكتبة الكونجرس) أن يشرف على تصوير مخطوطات دير سانت كاترين فاشترط أن يقوم بهذا العمل لقاء أن تهدى جامعة الإسكندرية نسخة من الصور ، وأن تودع بالدير صورة أخرى ، وأن تتعهد مكتبة الكونجرس بأن تضع صور المخطوطات تحت طلب الباحثين من جميع أنحاء العالم ، ووافقت مكتبة الكونجرس وامتد العمل تحت إشراف « دكتور سوريال » لسنوات إلى أن كانت سنة ١٩٥٢

وفي اجتماع لمجلس الكلية وكان برئاسة عميد كلية الآداب بالإسكندرية المرحوم « الأستاذ محمد خلف الله أحمد » فأثار أحد أعضاء المجلس موضوع تصوير مخطوطات دير سانت كاترين ، وإن الدكتور عزيز سوريال استأثر بهذا العمل الخطير وكان يجب أن يقدم إلى مجلس تأديب بدلا من تسجيل الشكر له ، ولم يرض عميد الكلية ، رئيس مجلس الكلية عن اتجاه هذا العضو ، إلا أن «الدكتور عزيز سوريال عطية» ترك الاجتماع وتوجه على الفور إلى وزير المعارف وقدم استقالته من كلية آداب الإسكندرية ، وكان عمره ٥٤ عاما .

العدوان الثلاثي

وانتهت أنظار جامعات الولايات المتحدة الأمريكية إليه . . دعت جامعة ميتشجان كأستاذ زائر وقضى سنة هناك ، ودعته جامعة كولومبيا في نيويورك كأستاذ زائر لمدة سنة أيضا ، ثم جاءته دعوة من معهد (برنستون) للدراسات العليا وهو معهد أنشأته الولايات المتحدة الأمريكية لعلماء أوروبا يتفرغون فيه للبحث العلمي دون أية التزامات بالتدريس ، ويضع المعهد كل الإمكانيات العلمية والمادية ، والوحيد من خارج أوروبا الذي منح هذه الفرصة هو « الدكتور سوريال » المصري ، وبقي هناك سنتين إلى جانب علماء عظماء أمثال « البرت اينشتاين » من ألمانيا لدراسات الفيزياء ، و«فون نويان » من المجر لدراسات الكومبيوتر، و«فايتسمان » من ألمانيا لدراسات الفنون .

وظل دائما في خدمة الوطن ، حدثني « الأستاذ الدكتور حسين مؤنس » أنه كان يلبي دعوات جامعات أوروبا لإلقاء المحاضرات ، ثم دعاه « د . مؤنس » ليحاضر في معهد الدراسات الإسلامية بمدريد فلبس الدعوة وكان الإقبال شديدا للاستماع إليه ، وظلت المراسلات متصلة بينه وبين الدكتور مؤنس .

وأثناء العدوان الثلاثي على مصر في أكتوبر ١٩٥٦ سافر إلى الولايات المتحدة « أحمد نجيب هاشم ، وحسين كامل سليم والسيدة أمينة السعيد » لشرح طبيعة العدوان وسلامة موقف مصر للمسؤولين وللرأي العام في أمريكا ووضع « الدكتور سوريال » نفسه واتصالاته وعلاقاته تحت تصرف هذا الوفد ، واحتفى بهم وقدمهم إلى المؤرخ المشهور « فيليب حتى » .

استاذ متميز

وعاد إلى الوطن وقد ذاعت شهرته ووفد إلى مصر « بروفيسور أولين » مدير جامعة يوتا في سولت ليك سيتي بالولايات المتحدة الأمريكية ، وعرض عليه فكرة إنشاء مركز لدراسات الشرق الأوسط

وسافر إلى « يوتا » عام ١٩٥٨ وأنشأ مكتبة للمركز تضارع مكتبة شيكاغو ، ووضع الخطوط الأساسية للمركز يعنى بالدراسات التاريخية والإسلامية والعربية ، ودراسة اللغتين العربية والفارسية وسائر لغات المنطقة وأطلقوا اسمه على مكتبة المركز .

وقد أشرف على هذه المكتبة الزميل والصدیق القديم « رجائي نجيب » وعندما سافر المرحوم «الأستاذ محمد خلف الله أحمد» إلى يوتا بدعوة من « فولبرايت » قال قوله المشهور ، وجدت الأمريكيين يعرفون مصر من خلال الدكتور عزيز .

لم يكن مجرد أستاذ ، ولكنه كان أستاذا مصريا ، أدخل تعليم اللغة العربية في التعليم العام بولاية يوتا ومنحته جامعة يوتا لقب أستاذ متميز وهذا يعنى أن له الحق في أن يستمر في العمل إلى أن يرغب هو في التقاعد وبالفعل ظل يعمل حسب هذا التقليد إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

وظل سنوات عديدة يتردد على مصر ، وعلى جامعات أخرى في أوروبا وأمريكا ليكمل مشروعه الكبير عن تاريخ مصر بعصوره المختلفة ، العصر الفرعوني ، والقبطي ، والإسلامي ، والحديث ، كل ذلك في دائرة أطلق عليها اسم (انسكلوبيديا كوبيكا) أى (دائرة المعارف القبطية) وشكل لها هيئة تحرير تحت إشرافه تضم مجموعة من علماء أوروبا وأمريكا ومصر والبروفيسور سوريال « حريص تماما على أن تعنى دائرة المعارف هذه بكل ماهو مصرى ، وأن تعنى بالتعريف بكل من هو مصرى ، وقد شارك في إعداد هذه الموسوعة مصريون في أمريكا وأوروبا ، وفي مصر بطبيعة الحال ، وأذكر من الذين شاركوا من مصر د . رءوف عباس حامد ، د . عبد العظيم رمضان ، د . عبد الرحيم عبد الرحمن ، د . أحمد زكريا قاسم ، ود . مجدى وهبه ، ود . يونان لبيب رزق ، وإيريس حبيب المصرى وكاتب هذه الحلقات . . وآخرين » وأشرف على العمل في مصر الوزير الأسبق الأستاذ مريت غالى .

وفي جنازة مهية تليق بابن عظيم من أبناء مصر ، تم تشييع جنازته في سولت ليك سبتي يوم ٢٧ سبتمبر (توفى يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٨٨) وخرجت جريدة (مون داي مورننج) وجريدتان أخريان تعنى العالم الراحل العظيم ، الذى اختير في عام ١٩٨٧ (كأستاذ العام) وصدر عنه كتاب عام ١٩٨٥ هو عبارة عن حديث بينه وبين أستاذ أمريكى وعام ١٩٧٥ أعد تلاميذه عدة بحوث صدرت في كتاب أهدى له ، فضلا عن رسالة جامعية .

إن « الدكتور عزيز سوريال عطية » كعالم ومؤرخ عطاؤه للبشرية كلها ولكنه في النهاية (رجل من مصر) وانكب تلميذه العظيم « الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، على إعداد بحث عن « الدكتور سوريال مؤرخا » قدمه في جمعية الدراسات التاريخية في الأسبوع الأول من يناير ،

وقد قدمه لقراء مصر الزميل « ماجد عطية » في جريدة الأهالي والدكتورة «جانيت سوريال » على صفحات الأهرام ، وأعدت إذاعة (صوت العرب) برنامجا قصيرا عنه وأشرف الزميل الدكتور «سليان نسيم» على عدة بحوث بجمعية الدراسات القبطية عن الفقيد الكبير .

الأسانيد

- ١- أحمد نجيب هاشم . . . حديث شخصي ١٧/١٠/١٩٨٨ .
- ٢- د . جانيت سوريال . . . حديث شخصي ١٩/١٠/١٩٨٨ .
- ٣- د . حسين مؤنس . . . حديث شخصي ١٩/١٠/١٩٨٨ .
- ٤- د . سعيد عبد الفتاح عاشور . . . حديث شخصي ٢١/١٠/١٩٨٨ .
- ٥- د . فؤاد سوريال . . . حديث شخصي ٢٠/١٠/١٩٨٨ .

الدكتور عزيز فهمى



أيها الرواد العظام . . افسحوا مكانا بينكم فى هذه الموسوعة لقائد وطنى ، للدكتور عزيز فهمى ابن عبد السلام فهمى جمعة . أول مايو ، وفى مثل هذا اليوم منذ ٤١ عاماً ، قال الناعى إن «الدكتور عزيز فهمى» البركان الوطنى الثائر قد انطفأ فى ترعة صغيرة فى أواسط صعيد مصر ، وإن سيارة أجرة قد سقطت به عند مدينة (الفشن) وهو ذاهب ليبارس قضية لأحد موكلية . رحل ولم يكن وقت الذهاب قد حان ، إن هى إلا خطوات ثلاث بعد الأربعين . ومازال السؤال معلقا فى الأفواه . . هل هى غلطة قدرية قاسية ، أم إن موعد القضية معروف بالطبع ، والذى دبر للتخلص من هذا الكاتب الثائر وضع فى طريقه السيارة ليموت وينجو السائق ؟ ولكن من هو الذى دبر للتخلص من «عزيز فهمى» ؟ ولماذا لم يفتح ملف التحقيق بعد يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهو واحد من الذين شاركوا فى صنع ذلك اليوم مع رفاقه «أحمد أبو الفتح ، وإبراهيم طلعت والدكتور محمد مندور، ورفيق الطرزى» . كانت الثورة قصيدة وكان هو الشاعر ، فمن الذى قتل الدكتور عزيز فهمى ؟

هل هى مجرد غلطة قدرية ، أم إن الانجليز ومعاونيهم قد دبروا وربوا له فى فترة تصفية الحسابات بعد إقالة حكومة الوفد فى فجر يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٥٢ ؟

كانت حكومة الوفد برئاسة «مصطفى النحاس» قد حددت يوم ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ ، موعدا لقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا ، وموعدا للدخول مع الاتحاد السوفيتى فى محادثات لعقد معاهدة أكثر تقدما من مجرد تبادل العلاقات الدبلوماسية وحكومة الوفد هى أول حكومة مصرية تعترف بالاتحاد السوفيتى سنة ١٩٤٣ ، ويوم ٢٦ يناير كانت التظاهرات فى كل مكان بين طلبة الجامعة وطلاب الأزهر ، بين العمال وجنود بلوكات النظام ، يوم ٢٦ يناير كان

الملك فاروق في احتفال فاخر في سراى عابدين مع ضباط الجيش وضباط البوليس .

ويوم ٢٦ يناير احترقت القاهرة ، ولم تجد حكومة الوفد جيشا أو بوليسا إلا فلولا متراخية على آخر النهار . . وفي الساعة الحادية عشرة في تلك الليلة أعلن « مصطفى النحاس » الأحكام العرفية ، وفي فجر يوم ٢٧ يناير أعلن الملك فاروق إقالة حكومة النحاس ، وعهد بتشكيل الحكومة إلى عدو الوفد المتآمر « على ماهر » وتحول مكتب « الدكتور عزيز فهمي » بشارع قصر النيل إلى ملتقى للشوار من جيله ومن جيل الشباب . . وقامت وزارة « على ماهر » باعتقال الفدائيين في الإسمايلية وبورسعيد والتل الكبير . . وليس سرا أن « عزيز فهمي » كانت له يد في هذه الكتائب التي ناوشت الإنجليز في منطقة القناة ، إلى جانب الكتائب التي تعمل تحت إشراف « عزيز المصري » وإلى جانب بعض الكتائب الأخرى ، وفشلت وزارة « على ماهر » وجاء « نجيب الهلالي » بنصيحة من الأمريكان على رأس وزارة في أول مارس ١٩٥٢ وكان شعارها (التطهير بعد التحرير) ووجهت رأس الرمح - بإشراف الأمريكان أيضا - ضد الوفد . . وقد تصاعد في تلك الفترة وعى الحركة الشعبية إزاء الدور المتزايد لأمريكا في المنطقة مما لم يكشف النقاب عنه تماما حتى اليوم ، واستصدر الهلالي قرارا من الملك فاروق بتأجيل البرلمان شهرا ينتهى في ١٢ إبريل ١٩٥٢ (وهذا يذكرنا بما فعله صدقي باشا حين أجل مجلس النواب شهرا يبدأ في ٢١ يونيه ١٩٣٠) . . وقام الهلالي باعتقال « فؤاد سراج الدين ، و . عبد الفتاح حسن » في محاولة لضرب الوفد .

وتردد أيضا في تلك الأيام أن « الهلالي باشا » يسعى لتكوين حزب جديد ، وأنه يتصل بعدد من القيادات الوفدية للاشتراك معه في تشكيل هذا الحزب ، وتردد أيضا أنه - أى الهلالي - اتصل أو هو في سبيل الاتصال بالقطب الوفدى الكبير « عبد السلام فهمي » والد « الدكتور عزيز فهمي » وهنا جاء دور (الشباب الوفدى) الذى استنفر للدفاع عن الوفد رغم ملاحظاته النقدية على عدد من المواقف . . وهنا جاء دور « الدكتور عزيز فهمي » وقيل إنه قام بدور حاسم مع والده في إفشال مخطط الهلالي لإعلان حزب جديد تكون نواته الأساسية من عناصر وفدية معروفة . . فأعلن الهلالي حل مجلس النواب الوفدى في ٢٤ مارس ١٩٥٢ ، وفشلت وزارة الهلالي وجاء حسين سرى رئيسا للوزارة في ٢ يوليو ١٩٥٢ ، وفشل « حسين سرى » الذى قدم استقالته في ٢٢ يوليو وجاء « نجيب الهلالي » من جديد . . وفي ٢٣ يوليو جاء « جمال عبد الناصر وصحبه » وكان « عزيز فهمي » قد رحل في أول مايو . . وهل الحيشيات السابقة تكفى لانهام الإنجليز بأنهم وراء مصرع « عزيز فهمي » ؟ أم من الممكن أن يكون الأمريكان معهم ؟ ولماذا الأمريكان ؟ وهل لهم مصلحة ؟ ! .

الأمريكيون قادمون

كان الدكتور «عزيز فهمي» أثناء حكومة الوفد الأخيرة (١٢ يناير ١٩٥٠ - ٢٧ يناير ١٩٥٢) من أبرز قادة الاتجاه الذي يحذر من زحف النفوذ الأمريكي إلى السياسة المصرية ، وأعلنت حكومة الوفد في صيف ١٩٥٠ موقف حياد مصر إزاء الحرب الكورية وكان هذا الموقف مؤشرا كافيا للأمريكيين بأن الوفد يقف عقبة في طريق نفوذهم .

ويبدو أن الأمريكيين اتجهوا إلى ضرب الوفد بعناصر وفدية أو قريبة من الوفد فاتصلوا بأحمد نجيب الهلالي القطب الوفدي البارز ، وكثف اتصالاته بالأمريكيين وبالإنجليز وبرجال القصر أيضا بعد تصاعد حدة الأحداث إزاء إقدام حكومة الوفد في ٨ أكتوبر ١٩٥١ على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ . . وبات واضحا في الأفق أن النشاط الأمريكي يتجه إلى ضرب حكومة الوفد . . سيما وإنها سمحت للنشاط الثوري في الجامعة ، وفي منطقة القناة ، وللتظاهرات الشعبية ضد النفوذ الاستعماري وضد القصر . . وسمحت لعناصر كثيرة داخل الوفد ذاته أن تدفع الأحداث في اتجاه جديد . . ودون أدنى شك كانت رموز هذا الاتجاه تتمثل في «الدكتور عزيز فهمي ، والدكتور محمد مندور ، وأحمد أبو الفتح ، وإبراهيم طلعت ، ورفيق الطرزي ، ومصطفى موسى» .

ودون مبالغة فإن مواقف «الدكتور عزيز فهمي» تعد فصلا عظيما في كتاب الحرية العظيم في مصر . . رأس تحرير جريدة (الوفد المصري) التي أغلقها وألغى ترخيصها «إسماعيل صدقي» في ١٠ يوليو ١٩٤٦ ، فأصدر الوفد جريدة (صوت الأمة) ورأس تحريرها «الدكتور عزيز» أيضا .

ودعا «عزيز» الأقالام الفتية من الوفد ومن التنظيمات اليسارية لتسبح في أنهار جريدتي (الوفد المصري وصوت الأمة) . . وجرائد الوفد الأخرى . . النداء ورابطة الشباب . . سمح الوفد لأقالام ديمقراطية أخرى لتكتب فيها . . وفزع القصر لهذا الاتجاه .

ونزل «الدكتور محمد مندور» بقلمه إلى جوار قلم «الدكتور عزيز فهمي» وكانا يكتبان يوميا تقريرا كلمات أوقعت الرعب في قلب الجالس على العرش ، وأثارت الجباهير ضد حكومات الأقلية .

وكان الوفد قد ركز هجومه على حكومة محمود فهمي النقراشي عن طريقين . . الأول في مجلس النواب بقيادة «صبري أبو علم» زعيم المعارضة . . الثاني في (الوفد المصري) بمقالات «الدكتور عزيز فهمي» وغيره من الكتاب التقدميين . . وقد انتقد «الدكتور عزيز» موقف وزير الخارجية «عبد الحميد بدوي» واصلا نارا حامية في سلسلة مقالات وأعاد إلى الأذهان تاريخ «بدوي» وموقفه مع «محمد محمود» في سياسة اليد الحديدية سنة ١٩٢٨ ، وموقفه مع «إسماعيل صدقي»

سنة ١٩٣٠ وإلغاء دستور ١٩٢٣ ووضع دستور « صدقى » بدلا منه .

وجاء « إسماعيل صدقى » فى ١٦ فبراير ١٩٤٦ وأعلن « مصطفى النحاس » تمسك الوفد بإجراء انتخابات جديدة ، وأعلنت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال تمسكها بأن تكون المفاوضات على أساس إصدار بيان رسمى من إنجلترا تعترف فيه بحق مصر فى الجلاء التام ، وتعترف بوحدة وادى النيل .

واستقبله الدكتور « عزيز فهمى » بمقالة المشهور الذى قال فيه (إما أن يكون هذا وطننا وإما أن يكون وطننا لأعوان الاحتلال فإن كانت الأولى فمن حقنا أن نقرر مصيرنا ومصيرنا ، وإن كانت الثانية فهى الحرب بين الأمة وحكومات الأقلية) .

ونفخ « الدكتور عزيز » بمقالاته الملتهبة والمستعرة فقامت إضرابات ٢١ فبراير بقيادة (اللجنة الوطنية للطلبة والعمال) وخرجت قوات الاحتلال من ثكنات قصر النيل وأطلقت الرصاص على المتظاهرين ، وقامت التظاهرات فى الإسكندرية فى ٤ مارس والتى عرفت بالأحداث الدامية ، وفزعت السراى من هذا المد الثورى الجديد . . وقررت اللجنة الوطنية أن يكون يوم ١١ يوليو (ذكرى ضرب الانجليز للاسكندرية سنة ١٨٨٢) يوما للحداد العام ، ولكن « إسماعيل صدقى » ومن خلفه السراى والانجليز ، أسرع بتوجيه ضربته الشهيرة فى (١٠ يوليو) واعتقل أكثر من ٢٠٠ مفكر ومثقف وصحفى وطالب وعامل . . وألغى تراخيص جرائد ومجلات (الوفد المصرى والفجر الجديد) وعددا من دور النشر . . وفشل صدقى واستقال فى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ ، وكان الوفد قد أصدر جريدته السياسية اليومية الجديدة (صوت الأمة) وتولى « الدكتور عزيز » رئاسة تحريرها أيضا ويواصل مسيرته فى مقدمة الأقلام الثائرة .

قدر من الانتصارات

ذهب صدقى وجاء النقراشى واستمرت القوى الشعبية فى مواجهة محاولات تصفية القضية الوطنية ، واستمرت الأقلام الوطنية فى مواجهة القصر وحكومات الأقلية السياسية ، واستطاع تحالف القوى الشعبية أن يجhez مفاوضات صدقى - بيفن وأن يحقق بعض عمليات الجلاء الجزئية لقوات الاحتلال عن مواقعها فى القاهرة والإسكندرية تحت تأثير الصدام المستمر بين القوى الشعبية وبين قوات الاحتلال .

تم جلاء القوات الانجليزية عن القلعة فى ٤ يوليو ١٩٤٦ ، ومعسكرات الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية وخيم الأهرام ، وقلعة رأس التين ، وثكنات مصطفى باشا ، وقلعة كوم

الدكة في فبراير ١٩٤٧ ، وإجلاء عن مطار هليوبوليس وقشلاق باب الحديد ، ومعسكر الحلمية ،
وثكنات العباسية ، وثكنات قصر النيل بالقاهرة ، والنادى البريطانى بالمعصرة والعامرية بطريق
الإسكندرية في مارس ١٩٤٧ .

وفي أغسطس وسبتمبر ١٩٤٧ ظلت القضية المصرية معروضة أمام مجلس الأمن ، واستغرق
نظر القضية المصرية أمام مجلس الأمن عدة جلسات ، وكانت آخر جلسة لمجلس الأمن ينظرها
جلسة ١٠ سبتمبر ١٩٤٧ ، وأعلن « جروميكو » مندوب الاتحاد السوفيتى ورئيس المجلس في
تلك الدورة ، أن المجلس لم يتمكن من اتخاذ قرار في شأن القضية المصرية ، وسوف تظل المسألة
مدرجة في جدول الأعمال ويمكن نظر المسألة بناء على طلب أى عضو من أعضاء المجلس أو أى
طرف من الطرفين المتنازعين .

ثم دخلت الحركة الوطنية المصرية في إطار جديد بصدر قرار تقسيم فلسطين في ٢٩ نوفمبر
١٩٤٧ إلى دولة يهودية ودولة عربية من الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وصدر هذا القرار بموافقة
٣٣ دولة في مقدمتها الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ، ومعارضة ١٣ دولة في
مقدمتها مصر والعراق والدول العربية ، وامتناع ١٠ دول عن التصويت في مقدمتها بريطانيا
والصين . . وساد مناخ جديد داخل مصر ، ودخل الجيش المصرى مع الجيوش العربية إلى
فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ . وكانت الجماهير عامة في حماسة لهذا القرار فيما عدا (الأحزاب
الشيوعية) التى أعلنت أن هذه الحرب لصالح الرجعية العربية والاستعمار العالمى ، وفيما عدا
«إسماعيل صدقى» الذى حذر من عواقب هذه الحرب .

انتخابات ١٩٥٠

وتولى رئاسة الوزارة في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ بعد اغتيال (النقراشى باشا » نائبه « إبراهيم عبد
الهادى باشا » الذى قام بتصفية الحسابات مع جماعة الإخوان المسلمين ، واغتيال « الشيخ حسن
البنّا » مؤسس الجماعة انتقاما لاغتيال النقراشى باشا ، ولم تسكت الأعلام الوطنية وعلى رأسها قلم
الدكتور عزيز ، ولم تسكت صحف الوفد والصحف الموالية لها عن الممارسات القمعية لحكومة
السعديين ، ونددت بالإرهاب الذى ساد البلاد بزعم التصدى لجماعة الإخوان المسلمين . . وإن
كان صديقنا « الدكتور ناجى نجيب » الكاتب المصرى الذى يقيم فى ألمانيا الغربية قد قام بدراسة
عن (موضوع العسكرى الأسود) الذى كتبت عنه بعض الصحف المصرية كنموذج لإرهاب
حكومة « إبراهيم عبد الهادى » في تلك الفترة . . ولم يصل بدراسته هذه إلى وجود فعلى لما سُمى
بالعسكرى الأسود .

وطوال عامى ١٩٤٨ و ١٩٤٩ غرقت البلاد - إلى جانب أعمال العنف ، وأعمال الإرهاب -

غرقت في موجات قتالية من الاضرابات بين صفوف العمال ، والممرضين ، والبوليس ، ومدرسي التعليم الحر ، وتولت صحف الوفد الدفاع عن هذه الإضرابات بما فيها إضراب رجال البوليس ، وأصبحت البلاد تواجه خطرا حقيقيا وهزة عنيفة يمكن أن تعصف بالنظام كله ورأت الأطراف المختلفة أنه لا مندوحة من عودة الوفد إلى الحكم لعودة الاستقرار إلى البلاد فأرسل الملك فاروق «محمد حيدر» وزير الحربية إلى «إبراهيم عبد الهادي» يأمره بأن يقدم استقالته وكان ذلك في ٢٥ يوليو ١٩٤٩ ، وعهد برئاسة الوزارة إلى «حسين سرى» الذي استقال في نوفمبر ١٩٤٩ ليشكل وزارة محايدة أجرت انتخابات ٣ يناير ١٩٥٠ .

وفي تلك الانتخابات رشح الوفد «الدكتور عزيز فهمي» في دائرة الجمالية ، ورشح «الدكتور محمد مندور» في الوائل . . وتم ترشيح أحمد أبو الفتح ، وإبراهيم طلعت ، ورفيق الطرزي ، وكان ترشيح مصطفى موسى «زعيم الشباب الوفدي في دائرة صعبة هي (باب الشعرية) معقل نائبها العتيد «سيد جلال» والمعركة الانتخابية بالنسبة لهؤلاء النواب الستة لم تكن مجرد انتخابات عادية بل خاضها هؤلاء ومعهم شباب الوفد والشباب الديمقراطي كمعركة سياسية ضد الاحتلال وضد القصر وضد الرجعية المصرية . . ونجح هؤلاء جميعا في الانتخابات التي حصل فيها الوفد على ٢٢٨ مقعدا ، وحصل السعديون على ٢٨ مقعدا والأحرار الدستوريون على ٢٦ مقعدا ، والحزب الوطني على ٦ مقاعد ، والحزب الاشتراكي على مقعد واحد ، وحصل المستقلون على ٣٠ مقعدا والمجموع ٣١٩ مقعدا . . وأما (الكتلة الوفدية) التي انشقت على الوفد عام ١٩٤٣ وأصدرت الكتاب الأسود وملأت الدنيا صخباً وضجيجاً حول ما أسمته فساد الوفد فلم تحصل على مقعد واحد وطواها النسيان . وعاد الوفد إلى أخطر وزارة عرفتتها مصر . . وعادت مصر إلى أحداث خطيرة هي في تقديرنا التي مهدت إلى يوم الأربعاء ٢٣ يوليو وذلك بفضل ديمقراطية الوفد وطبيعة تكوينه وأسلوب العمل السياسي بداخله مما يميزه عن أي قوة سياسية أخرى .

ديمقراطية الوفد

لم يكن دور «الدكتور عزيز فهمي» في مجلس النواب الجديد ، وفي الممارسة السياسية في فترة هذا المجلس ، ودور رفاقه مقصورا على مجرد الانتماء الحزبي . . وإنما كان دورهم تاريخيا في إحياء تراث الوفد الديمقراطي وربطه بالمعطيات الجديدة التي ألفت بها التطورات المختلفة بعد الحرب العالمية الثانية .

كان دور هذه المجموعة دورا رياديا بالنسبة لشباب الوفد ، ساعد على تعميق ارتباطهم بالحزب في الوقت الذي يتحدثون فيه بلغة جديدة سواء داخل لجانهم أو على لسان صحيفتهم (رابطة الشباب) التي صدرت في ٢٠ مارس ١٩٤٧ وحدد «مصطفى موسى» أهدافها في مكافحة

(الاستعمار والاستبداد) ، ورحب « صبرى أبو علم » سكرتير عام الوفد وقت ذاك بأن يتولى الشباب تحريرها .

وكان من أبرز أعمال « الدكتور عزيز ورفاقه » هو الدفاع عن التعددية الحزبية فى مواجهة ، دعوى الإخوان المسلمين التى روجوها فى ذلك الحين وهى الدعوة إلى (اللاهزبية) والتى كانت فى جوهرها تستهدف ضرب الوفد المصرى .

واتسع الوفد كوعاء للديمقراطية لأراء مختلفة لهذا الفريق دون هزات ودون إجراءات كالدعوة التى نادى بها « رفيق الطرزى » فى جريدة (الجمهور المصرى) لإعادة تشكيل الحزب على أساس ديمقراطى . . ومثل موقف هذا الفريق مجتمعاً ومعه شباب الوفد إزاء محاولات بدرت من بعض نواب الوفد إزاء الصحافة أو لحماية أنباء القصر أو لتنظيم مجلس الدولة . . وسرعان ما صرف النظر عن مثل هذه التشريعات المقترحة واستمر الوفد فى مسيرته فى إطاره التاريخى الديمقراطى الذى يتسع لعدد من الآراء طالما هى تتفق مع الخط الديمقراطى للوفد .

وقد أتاح هذا الإطار حرية التعبير للصحف إلى حد أن تناول فيه بعض الصحف القصر والملك شخصياً بشكل لم يسبق له مثيل . . وإن جرت بعض تدخلات من الحكومة سرعان ما تراجع وتعود الصحف إلى صوتها المرتفع . . وأتاح هذا الإطار حرية التظاهر إلى حد مرمطة سمعة الملك على أفواه الجماهير . . وإن جرى بعض الضبط والربط سرعان ما ينكمش ويهدر التظاهرات فى الشوارع من جديد .

ولم تكن مجموعة « الدكتور عزيز ورفاقه » بعيدة عن ضرب قوات الاحتلال فى منطقة القناة بمد السلاح . . وشهدت تلك الفترة انسحاب العمال المصريين من المعسكرات البريطانية ، وإضرابات المتعهدين والموردين ، ومعركة الإسمايلية فى ١٦ أكتوبر ١٩٥١ بين شعب الإسمايلية وبين القوات الإنجليزية ، ومعركة بورسعيد الأولى فى اليوم نفسه ، ومعركة ثانية فى الإسمايلية فى ١٨ نوفمبر ومعركة فى السويس فى ٣ ديسمبر ثم ضرب محافظة الإسمايلية بالمدافع فى ١٧ ديسمبر ، ومعركة فى السويس وأبوصوير فى ٤ يناير ١٩٥٢ . . ونأتى إلى الموقعة التاريخية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ .

يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢

لم يكن « الدكتور عزيز ورفاقه » مجرد كتاب أو مجرد دعاة ، وإنما كانوا يمارسون العمل السياسى ممارسة فعلية . . ولما أدرك الاحتلال والقصر أن المد الوطنى من الصعب مواجهته بالاجراءات

العادية سيما أن حكومة الوفد تشارك في الكتائب المسلحة وأنها تترك الحرية للتظاهرات في الشوارع تلهب مشاعر الجماهير ضد الاحتلال وضد القصر لجأوا إلى مؤامرة حرق كنيسة الأقباط في مدينة السويس ، وهنا يظهر الأسلوب الذي واجهته به الحكومة هذه المؤامرة ، « عبد الفتاح حسن » الوزير المستول في مكان الحادث بعدها مباشرة . . والثائر « عزيز فهمي » ذو السمعة الطيبة لدى الجماهير بين الناس هنا يشرح أبعاد المؤامرة . . وفشلت تلك المؤامرة .

ولكن بعدها كانت المواجهة المباشرة من قوات الاحتلال . . ففي يوم الجمعة ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، وفي الساعة السابعة والنصف صباحا قصد ضابطان بريطانيان إلى منزل ضابط الاتصال المصري « البكباشي شريف العبد » وطلبا منه مقابلة « اكسهام » قائد القوات البريطانية في الإسماعيلية الذي سلمه إنذرا بتسليم أسلحة جميع قوات البوليس المصري بالإسماعيلية ورحيلها عن المنطقة وعندما أبلغ « البكباشي شريف العبد » ما سمعه إلى « اللواء أحمد رائف » وإلى وكيل المحافظة « على حلمي » رفضا الإنذار وأبلغا « فؤاد سراج الدين » وزير الداخلية فأقرهما على تصرفهما وأمرهما بعدم التسليم ومقاومة أى اعتداء من الإنجليز ، وضرب الإنجليز المحافظة بالقنابل والرصاص . . ورد عليهم الجنود المصريون البواسل وسقط ٥٠ جنديا مصرية ، ونحو ٨٠ جريحا ، واعتقل الإنجليز « أحمد رائف » واليوزباشي « مصطفى رفعت » وانحنى القائد الإنجليزى تحية لبسالة بلوكات النظام المصريين الذين كان عددهم ٨٠٠ ووقفوا أمام ٧٠٠٠ جندي بريطاني . . وفي اليوم التالى حريق القاهرة ، وفي الذى يليه إقالة حكومة الوفد . . وفي أول مايو ١٩٥٢ ينعى الناعى إلينا « الدكتور عزيز فهمي » الذى جاء إلى السياسة من طنطا .

في طنطا والقاهرة وباريس

في مدينة طنطا كان مولده سنة ١٩٠٩ ، ووالده هو « المرحوم عبد السلام فهمي جمعة » أحد أقطاب الوفد ، وشغل منصب السكرتير العام ، وكان رئيسا لمجلس النواب ، تفتحت عينا « عزيز » وهو في العاشرة من عمره على أحداث ثورة ١٩١٩ ، وكان والده من شبابها المخلصين ، نال شهادة الابتدائية من طنطا ، وقضى في طنطا الثانوية بضع سنوات ثم التحق بمدرسة الجيزة الثانوية وحصل منها على شهادة البكالوريا سنة ١٩٢٧ .

على العموم التحق « عزيز » بكلية الحقوق سنة ١٩٢٧ ، وانتسب في العام ذاته إلى كلية الآداب وسنة ١٩٣١ حصل على إجازة الحقوق ، وعلى أجازة الآداب ، وتقدم لأعمال السنة بكلية الآداب ببحث عن (المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول) أشرف عليه « الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام » وقد عنى بتحقيق هذا البحث وكتب مقدمة له صديقنا « الأستاذ

محمد قنديل البقلی « ونشرته (دار المعارف » وأحسب انه اختار بحثه ذاك لأنه شاعر أولا ولأسباب سياسية ثانياً . . فالخوارج والشيعة والمرجئة كلها أمور نشأت وترعرت في ظل بنى أمية . وقد نشرت له (دار المعارف) أيضا ديوان شعره وغالبيته قصائد وطنية . . وقد لحن « محمد عبد الوهاب » نشيده لمتطوعى (مشروع القرش) في ديسمبر ١٩٣٣ . . ويقول فيه :

لك يا مصر شبابى
ونعيمى وعذابى
لك عزمى وجهادى
وبروحى وفؤادى

وشد الرحال إلى باريس وحصل سنة ١٩٣٨ على الدكتوراه في القانون عن (الامتيازات الأجنبية ومعاهدة ١٩٣٦) ، ثم حصل على دكتوراه في الآداب من (السوربون) . وشبت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ فتخلف فترة ، ثم عاد إلى مصر ليعمل في النيابة ويفصل من الخدمة بعد إقالة حكومة الوفد (أكتوبر ١٩٤٤ وليس أفضل من أن نختم المقال بها قدم به «الدكتور طه حسين» ديوان شعر عزيز فهمى . . قال « الدكتور طه » (إيه يا عزيز ، وما أكثر ما كنت أقول لك أيام كنت طالبا تختلف إلى أستاذك في الدرس وتختلف إليه في غير ساعات الدرس ، وكنت أقولها لك بعد أن تخرجت من الجامعة وبعد أن أبعدت في طلب العلم وعدت إلى وطنك ترضى قليلا وتسخط كثيرا ، وكنت أحب أن أسمع منك حديث السخط لأنه كان كريما يملؤه الإباء ويشيع فيه النقاء ، وكنت لا تسمعننى أقول لك إيه يا عزيز حتى ينطلق لسانك بالحديث عذبا كأنه العين الصافية ينساب منها الماء بين الخمائل والرياض ، أو ينطلق لسانك بالحديث كأنه البركان يقذف بالحمم ويوشك أن يحرق من حوله كل شيء وما أكثر ما كنت أقول لك حيثئذ ، على رسلك يا بنى فإنك إنما تتحدث إلى الأستاذ الصديق لا إلى المستعمرين ولا إلى الظالمين) .

الأسانيد :

- ١- الطليعة (مجلة) . . أغسطس ١٩٧٢ .
- ٢- عبد الرحمن الرافعى . . مصر بين ثورتين .
- ٣- عزيز فهمى . . الشعر الأموى والشعر العباسى .
- ٤- لمعى المطيعى . . عزيز فهمى . . ذكره بعد ٢٥ سنة (الأخبار ٣ مايو ١٩٧٧) .
- ٥- الوفد المصرى (جريدة مجموعة ١٩٤٦ - دار الكتب) .



الفريق عزيز على المصرى

شخص واحد فقط يستطيع أن يكتب تاريخ عزيز المصرى هو عزيز المصرى . . ولكنه رحل في ١٥ يونيه ١٩٦٥ ومحاولتى الحالية للكتابة عنه سبقتها محاولة سنة ١٩٦٢ . وقبل أن التقى به قابلت واتصلت بالذين اقتربوا منه . فى الروضة وفى المطبعة السلفية وفى شقة تعلوها التقيت بالمفكر الإسلامى الراحل « محب الدين الخطيب » عن طريق صديق مشترك الكاتب الإسلامى الصديق « أنور الجندى » وسمعت من المرحوم « محب الدين الخطيب » ما لم يسمعه ، وما لم يعرفه أحد عن « عزيز المصرى » واتصلت بالمرحوم « اللواء محمد صالح حرب » الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين ، واتصلت بالدكتور « حلمى عبد الشافى » الطبيب الذى كان يشرف على علاج « عزيز » فى مستشفى الدمرداس أثناء مرة من مرات اعتقاله والدكتور « حلمى عبد الشافى » هو الذى قام بدور هام فى تأسيس (حزب الأمة) ولكن كل شىء قسمة ونصيب إذ تولى « أحمد الصباحى » مسئولية هذا الحزب وهيمن عليه وفى صحبة الزميل الكاتب الإسلامى بجريدة الأهرام « محمود مهدى » زرت الأستاذ أحمد حسين رحمه الله ورحم الصديق العزيز المستشار فؤاد نصحى الذى كان معنا فى الزيارة .

فى ليلة من ليالى سنة ١٩٦٢ حملت القليل الذى حصلت عليه ، وحملت معى نصيحة من الصديق « أنور الجندى » متعه الله بالصحة أن أتجنب الحديث معه عن « محب الدين الخطيب » لأن بين الرجلين جفوة حملت هذا كله فى ذهنى وأنا أصعد درج البناية رقم ١٨ شارع الجزيرة بالزمالك وكانت جريدة الجمهورية قد نشرت اننى اعتزم إعداد كتاب عن « عزيز المصرى » فأحسست بشبه اتفاق بينى وبين القراء فى مهمتى هذه .

وجلست إليه وبدأت بالتمهيد الحقيقى للكتاب وهو أن « الرئيس جمال عبد الناصر » قد أعلن

عن زيارة له ، للفريق عزيز المصري ، لبحث معه استيلاء الضباط الأحرار على السلطة ومن هنا نبئت فكرة إعداد كتاب جيد عن « عزيز » تقوم الدار القومية للطباعة والنشر بإصداره وكان لي دور في هذه الدار ولكن « عزيز » بذاكرته الحديدية سد الطريق وقال بحسم وحزم إن جمال عبد الناصر لم يكن بين الذين زاروه وإن شخصا واحدا يحوز تقديره وإعجابه هو « عبد المنعم عبد الرؤوف » وكان وقتها خارج البلاد عليه حكم بالإعدام من رفاق السلاح والكفاح لأنه على صلة وثيقة بالإخوان المسلمين .

رواية محب الدين

ونظرت إلى الرجل الذى سد على الطريق قبل أن أبدا ، قصير القامة ضامر الجسم له عينا صقر يشع منهما الذكاء عبارات قاطعة داهية صقلته تجارب الأيام فأين أذهب أنا فيه ؟ لا بأس إذن من المغامرة جئت أحمل إليك شهادة حق من زميل قديم . . من ؟ . . « محب الدين الخطيب » . . تحفز في تساؤل . . لم أعطه الفرصة (كانت هذه المقابلة في حياة محب الدين الخطيب الذى رحل في ٣١ ديسمبر ١٩٦٩ » . . سنة ١٩٠٥ وكان « محب » يدرس الحقوق في استانبول ومعه زميله « عارف الشهابى » شاهدا الطلاب العرب يزينون غرفهم بصورة شاب مصرى بالملابس العسكرية هى صورة « الملازم عزيز على المصرى » ويؤكد انك في ٢٤ يوليو ١٩٠٨ كان لك دور في استيلاء (جماعة الاتحاد والترقى) على السلطة وإجبار « السلطان عبد الحميد » على إعادة العمل بالدستور وعندما تجمعت القوى الرجعية بقيادة شوكت باشا رآك بعينى رأسه تقتحم معسكر (السليمية نسبة إلى سليم الأول) وتقطع الطريق على القوى الرجعية ، الصقر يركز عينيه في اتجاهى ويهر رأسه تأكيدا لما قاله « محب الدين الخطيب » لى عنه . . وحدثنى « محب الدين الخطيب » عن دورك مع الشريف حسين وأكد لى أنك كنت معتقلا في مقر جريدة (القبلة) وكان محب رئيسا لتحريرها وأكد لى أيضا حكم الإعدام الذى صدر ضدك وأن الوحيد الذى استطاع إقناع « الشريف حسين » بالعفو عنك هو صديقك « نورى السعيد » أكثر من هذا ألم تعد لى مصر وذهب بدلا منك « الأمير الالى محمود القيسونى » والد « الدكتور عبد المنعم القيسونى » المفكر الاقتصادى المعروف ؟ (هذه الرواية لم أجدها فى أية كتابات عن عزيز المصرى ولكننى سجلتها فى هذا المقال للتاريخ وللباحثين الذين يمكن أن يبحثوا عنها) .

المهم أننى لم أخرج من الصقر بأكثر من كلمات . . تمام . . تمام ولكن المذكرات والأوراق ضاعت كلها فى حملات التفتيش والمطاردة العديدة . . ولم يعد فى مقدوره أن يكتب تاريخ حياته . . وخيل لى أن الرجل حريص على ألا يقول شيئا عن حياته وشددت على يديه وأنا أقول

له . . لن يكتب تاريخ الفريق عزيز على المصرى سوى شخص (واحد) إن أراد ذلك هو « الفريق عزيز على المصرى » نفسه وافترقنا .

معلومات جديدة

وحسبت أن الكلام عن « الفريق عزيز المصرى » قد توقف عند هذا الحد إلى أن جاء أغسطس ١٩٧٦ وتجدد الحديث عن حقيقة الدور الذى قام به « عزيز المصرى » فى ليبيا إبان الزحف الإيطالى ومحاولة لكشف الغموض الذى أحاط بهذا الدور وفى حدود ما أذكر الآن شارك فى هذه الأحاديث على صفحات جريدة الأخبار « المرحوم أحمد حسين » و« المرحوم محمد فهمى عبد اللطيف » و« السيد حسين ذو الفقار صبرى » وأدليت بدلوى فى هذه الأحاديث وسجلت للتاريخ كل ما رواه لى « محب الدين الخطيب » عن عزيز المصرى ولكن المفاجأة جاءت لنا من حيث لا نتوقع فقد أرسلت السيدة خيرية البكرى شيرين وهى أرملة المرحوم « فؤاد باشا شيرين » ردا على ندائى الذى كان عنوانا لمقالى (قبل أن يرحل الرجال . . سجلوا تاريخ الثائر الجسور) . . ونشر التعليق تحت عنوان (معلومات جديدة . . منزل محافظ القاهرة يقدم الأمان والطعام للفدائيين) وقالت « السيدة خيرية البكرى شيرين » نزيح الستار عن دور « عزيز المصرى » مع الكتائب خلال سنتى ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ودور زوجها « فؤاد باشا شيرين » وكان يشغل منصب محافظ القاهرة حينذاك فى إخفاء عزيز ورجاله فى منزله وهو آخر مكان يمكن أن تبحث فيه السلطات عن الفدائيين . . تقول السيدة :

وتفصيل الأمر اننى لاحظت اختفاء الطعام والفاكهة والخبز من المطبخ والثلاجة كل صباح ، وكنا نحفظ بكميات كبيرة منها بحكم المنصب ومتطلباته وكان منزلنا يتكون من طابقين بمصر الجديدة . . وفى الدور الأرضى كان يقع مكتب زوجى وله مدخل خاص من الحديقة واحترت فيما يحدث وضايقنى أن أظلم شخصا بريئا من العاملين بالمنزل . .

ودعائى زوجى إلى مكتبه وإذ بالبطل الجسور يقول . . أنا متأسف بس الأولاد يجوعوا لأننا نتدرب طول الليل . . وعرفت تفاصيل المغامرة فقد كان « عزيز » يحضر إلى منزلنا فى الفجر فيدخل زوجى ويخدمه بنفسه حتى ينام فيغلق عليه باب المكتب ويخرج البطل فى المساء إلى عملياته الفدائية حتى الفجر وهكذا يوميا . ولم يدر أحد ممن فى البيت أو زواره بهذا الأمر حتى يومنا هذا ثم انتقل زوجى إلى جوار ربه سنة ١٩٦٢ . . ولحق به البطل عزيز المصرى . . رحم الله الجميع . . هكذا كان الرجل مقبلا على المغامرة حتى سن متأخرة وسوف نسير مع هذه الحياة المثيرة المليئة بالمفاجآت .

بداية الطريق

حتى تاريخ مولده حوله خلاف . . جاء في الموسوعة الميسرة أنه ولد سنة ١٨٧٩ ميلادية بالقاهرة وأورد الصديق الراحل « فؤاد نصحي » تاريخاً لا أعرف مصدره وهو ١٨٨٠ ميلادية وذلك في كتابه الصغير عن (عزيز المصرى باشا) وكان قد أصدره سنة ١٩٥١ (ولست من عزيز المصرى أنه لم يكن راضياً عنه رغم أنه كان محاولة باكرة للتعريف به) وأعتقد أن أقرب التواريخ إلى الصواب هو ما جاء بصحيفة (المؤيد) في عددها الصادر يوم الأحد ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٣١ هـ (أول يونية ١٩١٣ م) أنه من مواليد القاهرة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) ووالده هو « زكريا أفندى على » جركسى الأصل توفى و « عزيز » في العاشرة من عمره فكفلته أمه التى فارقت الحياة بعد وفاة أبيه بخمس سنوات فكفلته أخته من أمه حرم « على باشا ذو الفقار » محافظ القاهرة .

تعلم في المدرسة التوفيقية وكان اسمه فيها عبد العزيز زكى ولما كان في الأستانة اتخذ لنفسه اسم عبد العزيز على ومن عادة الأتراك أن يقولوا « عزيز » بدلا من عبد العزيز فأصبحوا يلقون عليه « قاهرة لى عزيز على » أى عزيز على المصرى . . وهكذا أصبح اسمه في التاريخ المصرى « عزيز على المصرى » وحصل على البكالوريا من المدرسة التوفيقية سنة ١٨٩٦ م . والتحق بمدرسة الحقوق على غير رغبته ونزعتة إلى العسكرية وإنما تلبية لرغبة على باشا ذو الفقار وتعلم اللغة التركية في الإجازة وسافر إلى الأستانة ودخل مدرستها الحربية كما أراد وجاء في مذكرات جمال باشا أنه تعرف على عزيز بك وقت تخرجه في المدرسة الحربية حولى سنة ١٩٠٤ م (وهذا يتفق مع التاريخ الذى ذكره لنا « محب الدين الخطيب ») وعمل في الجيش الثالث بمقدونيا وخدم بعد ذلك في ألبانيا .

وكانت المدارس العسكرية في الوقت الذى دخلها « عزيز » تموج بالدعوة إلى الحركات الإصلاحية وكانت مقدونيا من أكثر مناطق الدولة تقدما وبعيدة عن قبضة الدولة العلية وفي المدارس العسكرية تعرف على عدد من الشباب العربى الذين قاموا بدور معه بعد ذلك في الجمعيات السرية التى أسسها بهدف إنشاء كيان عربى مستقل داخل الدولة العثمانية ومن هؤلاء «نورى السعيد وجعفر العسكرى وحميل المدفعى وعلى جودت وياسين الهاشمى » وفي كلية أركان الحرب التقى عزيز بمصطفى كمال الذى عرف بعد ذلك بمصطفى كمال أتاتورك الذى تولى بعد تخرجه منصبا عسكريا في دمشق واجتمع حوله عدد من الساخطين على «السلطان عبد الحميد » فكون في أكتوبر ١٩٠٦ جمعية (الوطن) التى نقلت مركزها بعد ذلك إلى (سالونيك) وفي أوائل سنة ١٩٠٧ حدث اتصال بين جمعية الوطن السرية وبين مركز الاتحاد والترقى في باريس وجماعة الاتحاد والترقى كانت تناوئ «السلطان عبد الحميد » وتضم عسكريين ومدنيين أتراكا وعربا

مسلمين ومسيحيين وتهدف إلى إقامة دولة عثمانية ديمقراطية في ظل دستور يكفل المساواة لجميع المواطنين العثمانيين وانضم « عزيز » وعدد من الضباط العرب إلى الاتحاد والترقي .

واتفق الاتحاديون على أن تقوم الثورة في يوم جلوس السلطان عبد الحميد في ٢١ أغسطس ١٩٠٨ ولكن لظروف معينة بدأت الثورة في صباح العاشر من يوليو ١٩٠٨ . وكانت وحدات الجيش الثالث في مقدونيا قد بادرت باللجوء إلى الجبال معلنة الثورة التي شارك فيها « عزيز » بجهد واضح واضطر السلطان عبد الحميد أن يعلن في ٢٤ يوليو إعادة العمل بدستور ١٨٧٦ . ولكن في ١٢ ، ١٣ أبريل ١٩٠٩ حدثت حركة رجعية موالية للسلطان تعارض الاتجاهات الديمقراطية للاتحاد والترقي فزحفت قوات الاتحاديين من سالونيك في ٢٣ أبريل ١٩٠٩ وكان « عزيز » على رأس إحدى فصائلها وذكرى « محب الدين الخطيب » أنه شاهد « عزيز بك » يقتحم معسكر (السليمية - نسبة إلى السلطان سليم) وقال « جمال باشا » في مذكراته . . (ولما زحف الجيش على الأستانة بعد الثورة الرجعية في ١٣ أبريل كان عزيز على رأس إحدى فصائل الجيش وأظهر مهارة عظيمة في مطاردة الثائرين ولم أكن إلى تلك اللحظة أعرف أنه على صلة بالعرب) وهكذا كان عزيز في تلك الفترة في مقدمة العناصر العربية في الجيش العثماني التي انحازت إلى الدستوريين الذين نجحوا في إعادة العمل بالدستور ثم قضوا على التمرد الرجعي في ٢٣ أبريل ١٩٠٩ وعزلوا السلطان عبد الحميد وأرسلوه إلى المنفى في سالونيك وجاء « محمد رشاد » بدلا منه .

بعد استيلاء الاتحاديين على السلطة سارت الأمور على غير مايتوقع العرب منهم فأخذ الاتجاه الطوراني يزداد وبدأت نغمة الأتراك والعرب تتصاعد ووضح هذا في القسوة التي عامل بها الاتحاديون الأقليات الأخرى مثل (الدروز) فضلا عن الخلافات التي بدأت تتسرب إلى السلطة الجديدة ذاتها . . وفي الوقت ذاته كانت الدعوة إلى « العروبة » يشتد عودها في المجالات المختلفة في الأدب وفي الفكر وفي المجالات الاقتصادية وأحس العسكريون العرب وفي مقدمتهم « عزيز على المصري » أنهم قاموا بدور هام في إسقاط « السلطان عبد الحميد الثاني » فضلا عن القضاء على الحركة الدينية الرجعية التي قامت في أبريل ١٩٠٩ وتأسست أول جمعية سرية عربية على أساس سياسي وتضم العسكريين والمدنيين العرب واشترك مع « عزيز المصري » في هذه الجمعية « سليم الجزائري وعبد الكريم خليل رئيس المنتدى الأدبي » وأخذت العناصر العربية المعروفة تنسحب من الاتحاد والترقي وهذه العناصر سيكون لها دور هام في جمعية أخرى أسسها « عزيز المصري » أيضا بعد انتهاء الحرب الطرابلسية وعودة عزيز إلى الأستانة هي (جمعية العهد) .

ولكن بين تأسيس الجمعية القحطانية وجمعية العهد وقعت الثورة في اليمن ضد الحكم العثماني ولأن الإمام يحيى قد دخل قبل ذلك صنعاء في ٢١ أبريل ١٩٠٥ ، وحاول عزيز بك عقد مصالحة

بين الإمام يحيى والدولة العثمانية في أغسطس ١٩٠٩ فشلت محاولات الصلح فنزلت قوات الحكومة في الحديدة ودخلت صنعاء في أبريل ١٩١١ ولكن « عزيز بك » نجح في عقد صلح جديد وفسر هذا بحرص عزيز على تقوية العناصر العربية في أطراف الدولة العثمانية .

ثم كانت الحرب التركية الإيطالية . . ولاحظ المراقبون أن النفوذ الإيطالي أخذ يتزايد في طرابلس الغرب منذ تولي الاتحاديون الحكم . . ووجهت إيطاليا إنذاراً للدولة العثمانية في ٢٧ سبتمبر ١٩١١ وبدأت الحرب في ٢٩ سبتمبر وبقدر ما تراخت السلطات العثمانية بقدر ما نهضت القوى العربية الشعبية لمعاونة المجاهدين العرب في ليبيا وكان « عزيز » قائدا للقوات العثمانية تحت إمرة « أنور باشا » وقائدا مستولا عنها بعد رحيل « أنور » في نوفمبر ١٩١٢ . وكان « عمر المختار » قائدا لشيوخ الزوايا وظل عزيز يقاتل حتى عاد إلى الإسكندرية في ١٦ يوليو ١٩١٣ وموقف عزيز في الحرب التركية الإيطالية موضع جدل غير قليل . . ولكن الوقائع تؤكد أنه أبلى بلاء حسنا في القتال ضد الغزو الإيطالي غير أن وزارة الاتحاديين استقالت في ٩ يوليو ١٩١٢ وتم توقيع صلح في مدينة (أوشر) بسويسرا في ١٥ أكتوبر ١٩١٢ وتعهدت الحكومة العثمانية بموجب هذه المعاهدة بسحب كل ضباطها وجيوشها من طرابلس الغرب وبرقة ورغم ذلك استمر عزيز في المقاومة قرابة تسعة أشهر وتردد أنه يعتزم انضمامه إلى العرب في حروبهم الأهلية ضد الدولة العثمانية فصدرت إليه الأوامر بالانسحاب من برقة إلى السلوم وهنا طلب (السنوسيون) منه أن يسلم أسلحة الجيش لهم فرفض ودارت بينهم وبينه معركة دامية ووصل إلى الإسكندرية في ١٦ يوليو ١٩١٦ . . ومنها إلى الأستانة .

وصل عزيز إلى الأستانة والسخط يتزايد بين العرب ضد الدولة العثمانية لموقفها المتخاذل من الإيطاليين والشكوك تتزايد من الدولة العثمانية حول موقف « عزيز بك » وأسس عزيز (جمعية العهد) ومن العرب الذين انضموا إلى جمعيته في أكتوبر ١٩١٣ « جميل المدفعي » ، وطه الهاشمي ، ويوسف العزاوي ، وسعيد التكريتي ، وصبيح نجيب ، وتحسين العسكري ، ونوري متاح ونوري السعيد من العراق ومن السوريين . . مصطفى وصفي ، ويحيى كاظم ، وتوفيق الجندى ، وأمين لطفى ، وعلى النشاشيبي ومن طرابلس الغرب محمود حلمي . . هؤلاء كانوا من العسكريين ومن المدنيين اشترك معه « مزاحم الأمين » ، وعبد الكريم الخليل ، وعاصم الحلبي ، وإسماعيل الطيب ، وأسعد داغر ، وفايق شاعر الطيب ، وثابت عبد النور » وأصبح « عزيز على المصري » خطرا على الدولة العثمانية ويكفى أن نعرف أنه انضم إليه ٣١٥ ضابطا عربيا من مجموع الضباط العرب في الدولة العثمانية ٤٩٠ ضابطا وأصبح للجمعية فروع في الشام وحلب وبغداد والموصل والبصرة وانفجر الحديث عن موقف الدولة العثمانية من اليمن والدروز وطرابلس الغرب ومن العرب عامة .

وبينما كان « عزيز » خارجاً من الفندق بعد ظهر ٩ فبراير ١٩١٤ ألقى القبض عليه وبدأت المحاكمة في أول أبريل ١٩١٤ وجاء في قرار الاتهام أن أفكار عزيز المصرى تتناقض مع مصلحة الدولة لعثمانية وأنه يبت الفكر العربية بين الأهالى ويسعى لإنشاء دولة عربية مستقلة يتولى هو إدارة شئونها وذاع بين الناس أن حكماً بالإعدام قد اتخذ إلى حين إعلانه فانفجر العرب في استانبول وسوريا ومصر . ودعا شيخ الجامع الأزهر إلى اجتماع حضره ألوف الناس وخطب فيه « رفيق بك العظم ، ومحمد أفندى لطفى جمعه ، ومحمد أبو شادى بك ، وإبراهيم بك الهلباوى ، ورشيد رضا صاحب المنار » ونددت الصحف العربية والأوربية . . فصدر العفو عنه وأرسل إلى مصر .

الشائر لا يهدأ

ولكن الشائر لا يهدأ . . وبدأت انجلترا اتصالاتها مع الشريف حسين في الحجاز وابن السعود في نجد والإدريسى في عسير تقدم لهم الوعود للوقوف إلى جانبها ضد تركيا التى انحازت إلى ألمانيا في الحرب العالمية الأولى .

وبين من الوثائق أنه في يوم ١٦ أغسطس ١٩١٤ عقد « عزيز المصرى » اجتماعاً مع أحد المسئولين الإنجليز في القاهرة ر . م . رسل وقال عزيز إنه يتحدث باسم (لجنة مقرها بغداد) ليعرف موقف بريطانيا من قيام دولة عربية متحدة مستقلة عن تركيا وتضم الأقاليم الناطقة باللسان العربى ورأى انجلترا في مد اللجنة بالسلاح والأموال . . وأرجأ المندوب البريطانى بحث الموضوع لأن الوقت غير مناسب وفى ٣٠ أكتوبر ١٩١٤ يكتب رئيس المخابرات البريطانية في القاهرة عن مقابلة سرية له مع « عزيز المصرى » ، طلب فيها عزيز مده بالمال والبنادق والذخيرة والمدفعية لتنفيذ برنامج (القومية العربية) الذى يمكن أن تقوم به قوة قواتها من (الجيش العراقى) ومرة ثانية أرجأ الانجليز بحث الموضوع ولكن في ١٦ نوفمبر ١٩١٦ بدأ الانجليز الاتصال بعزيز المصرى الذى طلب منهم إعادة نورى السعيد من منفاه في الهند وكان نورى السعيد قد هرب من تركيا حيث حاولوا اعتقاله كما اعتقلوا «عزيز» ولجأ إلى البصرة في يونيو ١٩١٤ ولكن الإنجليز أبعده إلى الهند ثم أعادوه إلى مصر في ديسمبر ١٩١٥ بطلب من عزيز المصرى وجرت مباحثات بين الإنجليز وبين عزيز المصرى ونورى السعيد والفاروقى والشهيندر ورشيد رضا لم تثمر عن نتائج هامة فذهب نورى السعيد ، إلى الشريف حسين في مكة وكان محب الدين الخطيب هناك رئيساً لتحرير جريدة القبلة ولحق بهم عزيز المصرى .

الحكم الثانى بالإعدام

ودارت محادثات حسين مكماهون فى أكتوبر ١٩١٥ وأعلنت بريطانيا تأييدها لاستقلال البلاد العربية ووصل عزيز إلى الحجاز ١٩١٦ وقسم الجيش إلى قسمين الجيش النظامى وجيش خفيف الحركة ليعمل وراء خطوط الأتراك وقدمت بريطانيا المعونات المالية والأسلحة والخبرة البشرية وبعد سقوط الطائف أعلن الشريف حسين فى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩١٦ نفسه ملكا وشكل حكومة على رأسها ابنه « الأمير على » و« الأمير عبد الله » وزيرا للخارجية و« الأمير فيصل » وزيرا للداخلية و« عزيز المصرى » وزيرا للحرية ورئيسا لأركان الحرب وفوجئ الإنجليز بهذه الخطوة ولم يكن فى تقديرهم إن يضعهم الشريف حسين أمام الأمر الواقع إلى هذا الحد وبدأت سياستهم تأخذ شكلا جديدا وبالنسبة لعزيز المصرى قيل أن السوريين وشوا به عند الشريف حسين وأبلغوه كذبا أن المصرى اتصل بالأتراك للاعتراف باستقلال البلاد العربية وقيل إن عناصر أخرى حذرت الشريف من عزيز وأعادوا إلى ذاكرته زحفه وخلع السلطان عبد الحميد وموقفه فى اليمن وقيل إن المصرى قد طالب بإنشاء قيادة عسكرية مستقلة وقيل إنه عاود الاتصال بالإنجليز وطالبهم بالمال والسلاح لإنشاء دولة عربية مستقلة عن تركيا وتقول المصادر إن الشريف حسين عزل عزيز المصرى الذى نزل فى إجازة إلى مصر فى مارس ١٩١٧ ولم يعد بعدها إلى الحجاز ولكن تبقى رواية محب الدين الخطيب لى والتي لم يعترض عليها عزيز المصرى عندما أعدت روايتها عليه وأسجلها هنا للتاريخ والاثبات فى رحاب الله أكد لى « المرحوم محب الدين الخطيب » أن الشريف حسين وصلته رسالة من الإنجليز تؤكد اتصاله بهم وأن حكما بالإعدام قد صدر على عزيز بعد هذه الرسالة وأنه كان فى (القبلة) التى رأس تحريرها « محب الدين » وأن تدخل قويا من نوري السعيد لدى الشريف حسين وكان مقربا منه وبعدها تقرر عودة « عزيز » إلى مصر كما أكد محب الدين أن الأمير الالى محمود القيسونى والد الدكتور عبد المنعم القيسونى وصل إلى هناك بعد عودة « عزيز » .

المهم أن « عزيز على المصرى » عاد إلى القاهرة فى مارس ١٩١٧ ويتزوج من سيدة أمريكية وينجب ابنه الوحيد « عمر » الذى ذهب مع والدته ليعيشا هناك فى أمريكا واختير مديرا لكلية البوليس وهو الذى أدخل نظام الكلاب البوليسية واختاره الملك فؤاد ليشارك فى الإشراف على الأمير « فاروق » وكان يقرر دائما أن أحمد حسنين وعلى ماهر قاما بإفساد الأمير خير قيام مع سبق الاصرار والترصد وسنة ١٩٣٧ رقى إلى رتبة اللواء وحصل على الباشوية ثم عين رئيسا لهيئة الأركان سنة ١٩٣٩ ومنح رتبة الفريق وبعدها بعام أحيل إلى التقاعد . . وفجأة فى مايو ١٩٣٩ يسافر إلى العراق ولم يعرف أحد لماذا سافر . . ولكن بعدها بفترة حدثت ثورة « رشيد على الكيلانى » فى العراق بتنسيق مع ألمانيا . . وتساءل الناس هل كان عزيز وراء هذه الثورة ؟!

ويروى « الرئيس أنور السادات » (أسرار الثورة المصرية) قصة اتصال « عزيز المصرى » برجال

« روميل » الذين تسللوا إلى القاهرة وقصة اتصال عزيز بالمرحوم حسن البنا يوضح كل ذلك أن عناصر كثيرة وقطاعا هاما في المجتمع المصري في تلك الفترة كان يرتب لدخول الألمان إلى مصر على ظن أن ألمانيا النازية سوف تخلص مصر من الاحتلال الانجليزي .

مغامرة لم تتسم

وفي ليلة ١٥ - ١٦ مايو سنة ١٩٤١ استقل الفريق عزيز على المصري باشا طائرة الون ٢٠٥ من المطار العسكري بالمأظرة ومعه حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف وتعطل المحرك وهبطت الطائرة في مزرعة يوسفى بجوار قليوب وبأعصاب من حديد في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل دق عزيز باب ضابط البوليس المسئول الذى عرف عزيز باشا ولكن خبر الحرب لم يكن قد أذيع فأدى له التحية العسكرية ووضع تحت تصرفه سيارة المركز الحكومية التى أفلتها إلى ميدان الأوبرا وكان ذلك في عهد وزارة حسين سرى باشا وبعدها أذيع الخبر ولم يتوصل البوليس إلى مكان « عزيز » .

وكانت تحريات البوليس قد أفادت بأن السيد محمد حسين والد أحمد حسين زعيم مصر الفتاة الهارب والمطلوب اعتقاله يتردد كثيرا على منزل معين بامبابية وذاهم الضابط إبراهيم إمام مسئول البوليس السياسى شقة « عبد القادر رزق » المدرس بالفنون الجميلة أصبح في السنوات الأخيرة قبل رحيله وكيلًا لوزارة الثقافة واذ بالبوليس وجها لوجه أمام عزيز باشا المصري على غير انتظار وأودع السجن في ٤ يونية ١٩٤١ وأفرجت عنه حكومة النحاس باشا في مارس ١٩٤٢ وأعيد اعتقاله في ١٣ أغسطس ١٩٤٢ وأفرج عنه في ٢٠ نوفمبر ١٩٤٤ لاثامه بالاتصال بالألمان حسب رواية أنور السادات التى أشرنا إليها من قبل .

وسنة ١٩٤٨ قام بدور هام في تنظيم كتائب المتطوعين في حرب فلسطين وقام بدور هام في تنظيم الكتائب سنة ١٩٥١ كما شرحنا من قبل وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عين سفيرًا لمصر في الاتحاد السوفيتى ١٩٥٣ وبعدها قبع في بيته ١٨ شارع الجزيرة بالزمالك تقوم على رعاية شئونه « زينب » أفلت من قيودها في ١٥ يونية ١٩٦٥ ولم تزل قصة هذا الناصر الجسور في حاجة إلى مزيد من الأضواء .

الأسانيد :

- ١ - أنور السادات . . أسرار الثورة المصرية .
- ٢ - خيرية البكرى شيرين . . الأخبار ٢٣/٨/١٩٧٦ .
- ٣ - فؤاد نصحى . . الفريق عزيز على المصري .
- ٤ - لمعى المطيعى . . الأخبار ١٢/٨/١٩٧٦ .
- ٥ - محب الدين الخطيب . . لقاء معه في منزله بالروضة .
- ٦ - د . محمد عبد الرحمن برج . . عزيز المصري والحركة العربية .

عزيز ميرهم



هذا نموذج فريد من الرجال ، عاش حياته السياسية كلها محبا ومخلصا ومؤمنا بسعد زغلول ومصطفى النحاس ، وفكره مع المدارس الاشتراكية المختلفة ، أيد تأسيس الحزب الاشتراكي المصري ١٩٢١ دون أن ينضم إليه ، وعبر عن أفكاره تلك في رعاية الوفد وتحت رايته ، مطمئنا لحب سعد زغلول ومصطفى النحاس له ، وإعجاب الزعيمين بالنشاط العملى لعزيز ميرهم فى خدمة مبادئ الوفد وسياسته .

وبفضل مناخ الحركة الوطنية الذى أشاعته ثورة ١٩١٩ شارك « عزيز ميرهم » فى تأسيس (الحزب الديمقراطى) مع منصور فهمى ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمود عزمى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ولكن عند أول بادرة من « محمد حسين هيكل » لتأييد « عدلى يكن » فى مواجهة « سعد زغلول » سارع « عزيز ميرهم » بأن أرسل برقية لسعد زغلول يؤيده تأييدا مطلقا ، وأدار داخل الحزب الديمقراطى حوارا حاسما لتأييد سعد ضد عدلى ، ومنذ تلك اللحظة كانت خطوات عزيز ميرهم تحت رايه الوفد .

وعندما حان موعد الاحتفال بعيد جلوس « الملك فؤاد » فى ٩ أكتوبر ١٩٢٧ ، وكان زعيم الأمة « سعد زغلول » قد رحل فى ٢٣ أغسطس ، قرر « مصطفى النحاس » خليفة سعد زغلول فى رئاسة الوفد أن يحول دون الاحتفال بعيد الجلوس الملكى احتراما لمشاعر الأمة وكتب « عزيز ميرهم » أعنف ما يمكن أن يكتب فى هذا المجال : (ليهنا بالزينة ضعاف العقول صغار الأحلام وليشترك فى الوليمة أشخاص ليس لهم فى الوطن نصيب . . كل ذلك وضع للشىء فى غير محله ، وخروج مفضوح على الواجبات الأولية للمجاملة واللياقة ، ونصب للأفراح وسط المأتم العام . يجب أن نعلم جميعا أن الملك ، مدين للحركة الوطنية التى كان سعد على رأسها ، ولولا تلك الحركة التى

أسسها سعد ، لما كانت مصر اليوم مملكة ، وكانت مجرد سلطنة ترزح تحت عبء الحماية) .
ثم فتحت صحف الوفد نيرانها على القصر الذى يزعم أن يحبى الأفراح والليالى الملاح ،
والشعب حزين لفقد قائده وزعيمه وكان الموقف كله الموجه ضد الملك فؤاد يحوز إعجاب
«مصطفى النحاس» بل كان هو الذى أعطى إشارة البدء للصراع مع القصر.

مع الديمقراطية

وقد تشرب « عزيز ميرهم » مبادئ الليبرالية فى فرنسا حيث تخرج فى جامعة (ليون) وعاد
ليعمل محاميا ويلتقى بمجموعة من أبناء الأعيان ذوى الثقافة الفرنسية مثل « الشيخ مصطفى عبد
الرازق ، ومنصور فهمى ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمود عزمى ومحمد كامل البندارى ، وعبد
الحميد حمدى ويحدثنا « أحمد أمين » فى كتابه (حياتى) عن مجموعة أخرى تعرف إليها
سنة ١٩١٤ ، من الشباب ذوى الثقافة الإنجليزية نذكر منهم « أحمد زكى ، وأحمد عبد السلام
الكرداني ، ومحمد عبد الواحد خلاف ، ومحمد كامل سليم ، ومحمد فريد أبو حديد ، ومحمد
أحمد الغمراوى » ويبدو أن هاتين الجماعتين قد تحلقتا حول مجلة (السفور) التى بدأت تظهر فى
الأيام الأخيرة (للجريدة) التى توقفت فى ٣٠ يوليو ١٩١٥ ، وكان « أحمد لطفى السيد » قد
اعتكف لأسباب سياسية ، وكان « عبد الحميد حمدى » من أعضاء حزب الأمة .

ووضع « عبد الحميد حمدى » جريدة (السفور) تحت تصرف الشباب كافة من ذوى الثقافة
الفرنسية والإنجليزية والعربية ووجد الشباب المثقف ملاذا فى سراى (آل عبد الرزاق) خلف قصر
عابدين ، وأطلقوا على أنفسهم (جماعة العقلين) وبعد قيام الوفد ١٩١٨ ، وقيام الثورة ١٩١٩ ،
اجتمع الشباب فى شكل جمعية عمومية صغيرة فى بيت آل عبد الرزاق واحتدت المناقشات بين
«عزيز ميرهم» و«محمد حسين هيكل» وفى النهاية أقرت الجمعية العمومية فى ١٠ سبتمبر ١٩١٩
برنامجا للحزب الذى أطلقوا عليه اسم (الحزب الديمقراطى) وجاء البرنامج خاليا من عبارة
(الاشتراكية) . وكان البرنامج فى مجموعه قريبا من البرنامج العام للوفد مع اهتمام بقضايا العمال
وسرعان ما انفجر الخلاف داخل الحزب . . « عزيز ميرهم » فى جانب يؤيد فى حماسة سعد
زغلول ، « ومحمد حسين هيكل » فى جانب آخر يؤيد « عدلى يكن » وحتى يحسم « عزيز ميرهم »
الموقف بادر بإرسال برقية تأييد واضحة لسعد زغلول وانحاز إليه منذ تلك اللحظة وظل طوال
حياته مخلصا للوفد . أما « محمد حسين هيكل » فقد انضم للأحرار الدستوريين ورأس تحرير
جريدة (السياسة) وتردد « محمود عزمى » بين الحزب الاشتراكى المصرى (الشيوعى) وبين الحزب
الديمقراطى وبين الأحرار الدستوريين وبين القصر . . أما « منصور فهمى » الذى بدأ مغاليا فى

أفكاره الحرة تراه في نهاية المطاف مؤيدا لهيئة التحرير بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وداعيا للانضمام إليها .

اشتراكي من منازلهم

وقد دعا « عزيز ميرهم » إلى الديمقراطية السياسية على أن تنسحب إلى المجالات الأخرى ، ورأى أن النشاط السياسى الذى أوجدته الثورة المصرية ١٩١٩ جعل من (الوفد) حركة سياسية شاملة تسمح له ولغيره بممارسة هذه الأفكار ، من أجل هذا التزم بالوفد تنظيميا ، وفى الوقت نفسه مارس هواياته الفكرية فأمن بالاشتراكية إيمانا متطرفا رغم ارسنوقراطيته ، ولكنه إيمان هواية كما قلنا فلا هو ينضم إلى (الحزب الاشتراكي - الشيوعى فيما بعد) ولا يتخذ أية خطوات عملية فى هذا السبيل مما جعل عددا من كتاب الماركسية يقولون عنه إنه كان (أحد وسائل) الوفد لإخضاع الحركة العمالية لنفوذ البورجوازية) .

على أية حال فإن « عزيز ميرهم » كان يكتفى بالتفكير العميق فى مجال الفكر الاشتراكي ، ولكن من يريد تطبيق الاشتراكية فى مصر فهو وشأنه ، وعزيز لا يخطو خطوة عملية واحدة فى هذا السبيل ، وقانع بعضويته فى الوفد ، حتى فى كفاحه من أجل مصالح العمال يقوم به من الوفد أيضا . . هكذا قناعة الرجل . . غلص للفكر الاشتراكي فى المجال النظرى ومخلص للوفد فى حركته العملية .

ابتعد تماما عن (الحزب الاشتراكي) وعن تحوله إلى حزب شيوعى ، وعن الصراعات الداخلية به ، وبالتالي ابتعد عن النشاط العملى لذلك الحزب والذى أدى ببعض أعضائه إلى السجن .

والطريف أنه عندما دب الخلاف بين سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان وعلى العنانى ومحمود حسنى العرابى وبين غيرهم من العناصر الأجنبية ، وعندما شن « سلامة موسى » حملة ضد البلشفية ضد الاتحاد السوفيتى ، وتبعه فى ذلك « محمد عبد الله عنان » وآخرون . . من الطريف أن « عزيز ميرهم » وهو مرموق فى الوفد استنكر هذا الهجوم منهم على (البلشفية) ، وأنكر عليهم الهجوم الضارى ضد الاتحاد السوفيتى .

اتحاد النقابات

هو موقف « خاص » لا ينضم للحزب الاشتراكي ، ويكتفى بالتفكير للاشتراكيين ويترك لهم الجانب العملى بكل تعقيداته ولا ينضم إلى المجموعة البلشفية داخل ذلك الحزب ولكنه لا يؤيد الهجوم عليهم إيمانا بحرية الفكر ، وإيمانا بحقوقهم فى التعبير .

ولتفسير موقف الرجل نقول إنه كان يؤمن بالإصلاح عن طريق الوسائل البرلمانية ، أى إنه لم يكن يؤمن بالعنف والانقلاب الدموى كان يعتقد فى التطور والتدرج ، وكان ينفر من الأفكار التى تقول بمصادرة أموال الآخرين ، كان ينفر من الحرب بين طبقات المجتمع كان يفضل التعاون بين الطبقات من أجل صالح المجتمع بأسره ومن أجل السلام الاجتماعى .

ولعل « الوفد » كان أفضل الأوعية السياسية لمثل هذا الرجل . . يتيح له حرية التفكير وحرية التعبير طالما هو ملتزم بخط الحزب العام الذى كان يتفق مع تفكيره فى الإصلاح وفى الكفاح البرلمانى وفى الديمقراطية السياسية والاقتصادية والاجتماعية كل هذا داخل إطار أخلاقى ، كما كان يريد « عزيز ميرهم » .

وصفات الرجل الفكرية والسلوكية جعلته قريباً إلى قيادة الوفد ، وفى سنة ١٩٢٩ نراه عضواً بمجلس الشيوخ عن دائرة بولاق الشعبية ، وفى أبريل عام ١٩٣٠ ، تزعم « عزيز ميرهم » محاولة لإقامة مكتب لتنظيم حركة العمال تمهيداً لتأسيس اتحاد للنقابات - وكان قد توقف نشاط اتحاد النقابات ١٩٢٨ - وكان لجهود « عزيز ميرهم » عضو مجلس الشيوخ الوفدى أثرها ، فقد استجاب له عدد من النقابات المهمة مثل نقابة عمال ورش الترام ، ونقابة المطابع المصرية ، وجمعية رقى العمال ، ونقابة خريجي المدارس الصناعية وعمال ورش التجارة الميكانيكية ، وعمال السيارات وعمال الدخان ، وعمال ترام القاهرة .

واسفرت هذه الجهود عن تأسيس (اتحاد عام النقابات) فى مايو ١٩٣٠ برئاسة أحد رجالات الوفد وهو « أحمد محمد أغا المحامى » واتخذ الاتحاد من دار نقابة عمال ترام القاهرة مقراً له ، وبعد أن تولى « إسماعيل صدقى » رئاسة الوزارة فى يونيو ١٩٣٠ وحل البرلمان ، نشطت محاولة لإحياء (اتحاد نقابات ١٩٢٨) برئاسة « داود راتب » رجل الأحرار الدستوريين . . ولكن أعضاء الاتحاد فى ذلك الوقت فضلوا بقاء الاتحاد برئاسة « النبيل عباس حليم » فعزلوا داود راتب واختاروا « عباس حليم » الذى كان على خلاف شديد مع الملك فؤاد وعلى وفاق مع الوفد .

رياسة الاتحاد العام

عندما شرع الوفد يجمع التوكيلات التى تحول له حق الحديث عن الأمة ، كان من الضرورى أن يكون له فى صفوف العمال العناصر ذات الارتباط الوثيق بالعمال وذات الولاء للوفد فى وقت واحد وكان عدد العمال قد زاد نتيجة للحرب العالمية الأولى ، فبعد أن كان عدد العمال سنة ١٩٠٧ حوالى ٤٦٠ ألف عامل وصل عددهم سنة ١٩١٧ ٦٤٠ ألف عامل ، وقد شارك العمال فى الثورة منذ اليوم الأول وشاركوا فى الابتهاج بالإفراج عن زعيم الأمة « سعد زغلول » فى ٨ أبريل ١٩١٩ ،

وأقبل العمال على تأسيس نقاباتهم ، وازداد عدد النقابات وكان من الضروري أن تهتم الجماعات السياسية المتعلقة بهذا النشاط النقابي ومن المعروف دور (الحزب الاشتراكي المصرى أو الشيوعى القديم) فى تنظيم العمال وفى الدعوة إلى الإضراب والاعتصام ، ولكن هذا النشاط كان فى أيدي العناصر اليسارية الأجنبية وقد ثبت أنها عناصر مشكوك فى ولائها للقضية الوطنية المصرية ، ولم يكن أمام « سعد زغلول والوفد الإ تنظيم العمال المصريين فى نقابات واتحادات ، وقد كان هناك شخصان قاما بالدور الرئيسى فى هذا المجال . . الأول : عبد الرحمن فهمى بقدراته الإدارية والتنظيمية الهائلة والثانى عزيز ميرهم بطاقته النظرية والفكرية والذى عمل كمستشار لعدد من النقابات وعرف بدعوته للعمال ليؤسسوا شركات يمتلكونها يعملون بها بعيدا عن تحكم أصحاب الأعمال فيهم وحتى لا يتعرضوا للفصل والتشريد كما إنه اختير سنة ١٩٣٥ سكرتيرا عاما للاتحاد العام لنقابات العمال ، وسنة ١٩٣٧ اختير رئيسا للمجلس الأعلى للاتحاد .

وقد عرفت تلك الفترة شخصيات عديدة اهتمت بإنشاء (اتحاد عام للعمال) فى مقدمتهم عباس حليم ومحبوب ثابت وعبد الرحمن فهمى ، وداود راتب وفضل « عزيز ميرهم » أن يكون له دور الاستشارات الفكرية والنظرية ولكنه كان حريصا على أن يكون نشاط العمال تحت راية الوفد ودعما لهذا الاتجاه فإن « عزيز ميرهم » دعا إلى دمج الاتحاد الذى كان قد أنشأه برياسة أحمد اغا المحامى فى مايو ١٩٣٠ فى الاتحاد الذى تولى رياسته عباس حليم (١٧ ديسمبر ١٩٣٠) على اعتبار أن الملك فؤاد قد سحب لقب (النبيل) منه وإن النبيل أعلن فى خطاب عام ولاءه للوفد ولكن النبيل ، بعد دمج القوى العمالية فى اتحاد تنكر للوفد وبدأت الحركة العمالية مسيرة جديدة ليس هنا مجال الحديث عنها ونذكر أن الوفد عام ١٩٣٥ أقام برياسة « أحمد حمدي سيف النصر » المجلس الأعلى للعمال وسحب من اتحاد عباس حليم عددا كبيرا من النقابات وتولى « عزيز ميرهم » منصب السكرتير العام للمجلس الأعلى للعمال ، وسنة ١٩٣٧ تولى رياسته .

القصر وعزيز ميرهم

وقد لاحظت فى مذكرات « حسن يوسف » عن (القصر ودوره فى السياسة المصرية ١٩٢٢ - ١٩٥٢) اهتماما بالسؤال الذى قدمه « محمود سليمان غنام » فى فبراير ١٩٣٩ عن سبب عدم اعتراف مصر بحكومة الاتحاد السوفيتى ، وكذلك اهتماما بالاستجواب الذى قدمه « عزيز ميرهم » عن مفاوضات مصر وإيطاليا بعد عقد المعاهدة الإنجليزية الإيطالية فى أبريل ١٩٣٨ ويبدو أن القصر كان يهتم برصد نشاط عدد من أعضاء مجلسى النواب والشيوخ وإلا ماسجل « حسن يوسف » ما تقدم به « محمود سليمان غنام » و« عزيز ميرهم » .

وبداية من عام ١٩٣٩ كان القصر حساسا جدا من العناصر التي لها اتصالات أو التي عرفت بأنها كانت لها اتصالات بالنقابات العمالية ، وكان « عزيز ميرهم » أحد هذه العناصر البارزة إلى جانب « محسن كامل حسين وحسن نافع ومحجوب ثابت » وهي عناصر معروفة بارتباطها بالوفد ، فضلا عن دورها السابق في الجهاز السرى برياسة « عبد الرحمن فهمى » .

كما إن « عزيز ميرهم » عندما شكل « مصطفى النحاس » الوزارة في مايو ١٩٣٦ نجح في ان يزيد عدد النقابات المرتبطة (بالمجلس الأعلى للعمال) الذى أصبح تحت سيطرة الوفد ، وقد كان لهذه النقابات دور مهم في أن يسترد الوفد هيئته بعد الانقسام الخطير (١٩٣٧) وتأسيس الهيئة السعدية ، إذ إن الوفد نجح في ٢ يوليو ١٩٣٨ في عقد اجتماع حاشد قدر عدد من حضروا الاجتماع بحوالى ٤٠,٠٠٠ « أربعين ألفا » من الهيئة العليا للوفد ، الهيئة البرلمانية ، نقابات العمال ، لجان الشباب ، لجان الطلبة . .

ولم يكن دوره مقصورا على مواقفه في مجلس الشيوخ ، ولا على نشاطه في معظم نقابات العمال والاتحادات العمالية ، ولا على أفكاره الاستشارية للمؤسسات العمالية ، ولا على جهاده في صفوف أبناء سعد والنحاس ، ولا على بحوثه في الاشتراكية وإنما نزل أيضا إلى ميدان جهاد المرأة المصرية وخاصة على صفحات جريدة « الأمل » وساند هيئة النساء الوفدية التي تكونت في ظل ثورة ١٩١٩ ، والتي ساندت تأسيس بنك مصر ، والتي قامت بدور فعال في إضراب العاملات إلى جانب العمال ، والتي نظمت التظاهرات ضد « عدلى يكن » .

وعندما اختار الوفد السيدة « منيرة ثابت » لتأليف جمعية الأمل ، وتصدر مجلة تحمل الاسم نفسه ، وتتولى الدفاع عن مواقف الوفد ، وكانت مجلة أسبوعية سياسية أدبية اجتماعية . . كان قلم « عزيز ميرهم » يدافع عن دور المرأة المصرية في المجتمع المصرى . . .

الأسانيد :

- ١- أحمد أمين . . . حياته .
- ٢- د . آمال السبكى . . . الحركة النسائية في مصر .
- ٣- د . رفعت السعيد . . . تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر .
- ٤- د . رءوف عباس . . . الحركة العمالية في مصر .
- ٥- شهدى عطية الشافعى . . . تطور الحركة الوطنية في مصر .
- ٦- ماريوس ديب . . . الوفد وخصومه . (ترجمة عبد السلام رضوان) .

على زكى العربى



هذه الحلقة ، فى مديرية الغربية ، فى محلة (أبو على) بالقرب من طنطا (شىء الله ياسيد) . فى محلة (أبو على) ولد « على زكى العربى باشا » عام الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ م وكان فى الخامسة من عمره عندما توفى والده فكفله عمه « محمد العربى » وتعهده بالتعليم فى مدارس القاهرة حتى تخرج الشاب النابغة « على » فى مدرسة الحقوق عام ١٩٠٣ م وتفرغ للعمل فى المحاماة ، فى تلك المرحلة الباكورة من عمره فى مكتب أحد مشاهير المحامين « إبراهيم بك عاصم المحامى » ولمجرد العلم فإن « إبراهيم عاصم المحامى » هو والد الفنان الكبير « مدحت عاصم » متعه الله بالصحة ومد الله فى عمره ، والفنان مدحت عاصم له هو أيضا جهود نضالية سابقة ولكنه لايرغب فى الحديث عنها ، وهو فى الوقت ذاته ابن خال رجل الفقه والقانون رئيس مجلس الشيوخ « على زكى العربى » .

وبعد فترة من العمل فى المحاماة ترك على زكى العربى مكتب خاله « إبراهيم عاصم المحامى » وعمل بالنيابة والقضاء حتى وصل إلى منصب رئيس محكمة جنايات مصر .

وخطوات « على زكى العربى » تتشابه إلى حد كبير مع خطوات بلدياته « عبد السلام فهمى جمعة » الذى تولى رئاسة مجلس النواب مرتين ، و« العربى باشا » تولى رئاسة مجلس الشيوخ مرتين كذلك . . بل إن الفترات متقاربة ومتوازية « عبد السلام باشا » كان رئيسا لمجلس النواب فى الفترة الأولى من (٣١ مارس ١٩٤٢ إلى ١٥ نوفمبر ١٩٤٤) . والمرة الأولى التى تولى فيها على زكى العربى رئاسة مجلس الشيوخ كانت (من ١٥ نوفمبر ١٩٤٢ إلى ٩ أغسطس ١٩٤٣) وذلك خلفا لمحمد محمود خليل الذى كان رئيسا لمجلس الشيوخ (من ١٨ نوفمبر ١٩٣٩ إلى ١٨ أكتوبر ١٩٤١) أما المرة الثانية التى تولى فيها على زكى العربى رئاسة مجلس الشيوخ فقد كانت من (١٦

نوفمبر ١٩٥٠ إلى ٢٥ فبراير ١٩٥٢) وهى قريبة من الفترة التى تولى فيها عبد السلام فهمى جمعة رئاسة مجلس النواب التى كانت (من ١٦ يناير ١٩٥٠ إلى ١٠ مارس ١٩٥٢) .

وكانت رئاسة على زكى العربى لمجلس الشيوخ نموذجا لاستقلال الرأى والحيدة والنزاهة ، مع قوة الحجة ، والعمق العلمى وقد عرف بمؤلفاته العديدة فى القانون الجنائى ، والإجراءات الجنائية ومركز الوارث فى الشريعة الإسلامية والشفعة فى الشريعة الإسلامية .

وقد طغت شهرته كرئيس لمجلس الشيوخ على نشاطه فى أية مجالات أخرى ، ومن هذه الزاوية حاولت جهات عديدة الضرب للرجل على نغمة فروسيته فى الدراسات القانونية ، وعلى نغمة اسمه الكبير الذى ارتبط بمجلس الشيوخ ومحاولات القصر عديدة فى هذا المجال انطلاقا من رئاسته لمجلس البلاط منذ عام ١٩٤٢ ، وهذا المجلس يختص بمنازعات الأسرة المالكة ، ومن هنا كان « العربى باشا » على ارتباط وثيق بكثير من أعضاء الأسرة المالكة ، وقد عرض القصر عليه سنة ١٩٤٨ أن يتولى الإشراف على إدارة أملاك الأسرة المالكة لقاء ١٥ ألف جنيه سنويا وهذا رقم كبير بحساب أربعين سنة مضت وليس هناك مايدل على أن الرجل قد قبل هذا العرض .

وبعد تجربة « أحمد حسنين » مع مكرم عبيد فى النصف الأول من عام ١٩٤٢ والمقابلات الانفرادية التى اختص بها الملك مكرم باشا ، والتلميح بالعروض البراقة من جانب . « أحمد حسنين » لمكرم باشا ومداعبة طموحه . ساعدت على نجاحها وانقسام مكرم باشا وتآليف (الكتلة الوفدية) وإصدار جريدة (الكتلة) وتأثير هذا الانقسام على (الوفد) بدأت محاولة أخرى مع «على زكى العربى » هذه المرة . وأنا أستند هنا إلى ما قاله لى « محمد زكى العربى » الابن الأكبر لعلى زكى العربى باشا فى حديث شخصى معه ، إن الملك فاروق كان يدعو العربى باشا لزيارته ويشير له الملك أثناء الحديث إلى أنه يقدم له الشاى فى (فنجان) مذهب تقديرا واعزازا لشخصه . وهى محاولة من الملك لاستئالة العربى باشا إلى خارج الوفد ويبدو ان القصر قد أساء فهم الرجل أو لم يعرف شخصيته معرفة صحيحة ، فإذا كانت المحاولة قد نجحت مع مكرم عبيد فإن القصر قد نسى أن الجلسة التى عقدها (الوفد) وقرر فيها فصل « مكرم عبيد » ومجموعة المؤيدين له تمت بحضور وموافقة « على زكى العربى » بل تمت فى منزله ١٠ ميدان المساحة بالدقى .

العربى وعبد الناصر

ومن الطريف أن هذا المنزل شهد موقفا غريبا بعد أكثر من ١٥ عاما أخرى ، أثناء العدوان الثلاثى على مصر (أكتوبر ١٩٥٦) نما إلى علم أحد أجهزة عبد الناصر أن حركة داخلية تدبر للاطاحة بحكم عبد الناصر ، وأن هذه الحركة سوف تضع على رأس الحكم « على زكى العربى »

وفي ظل جو التوتر والاضطراب الذي ساد أجهزة الحكم العليا في تلك الفترة يبدو أن جهاز عبد الناصر الذي تلقى الخبر أو الإشاعة لم يتحقق الأمر وأرسل قوة لاعتقال « العرابي باشا » وشهد الجيران (طريجة) لبائع المياه الغازية « على طه » بجوار منزل « العرابي باشا » في محاولة ليعترف بمكان « الباشا » فالمنزل كان خاليا ومظلماً لأن « على زكي العرابي » توفي في ٥ مارس ١٩٥٦ أي قبل العدوان بسبعة أشهر .

وبهذا الصدد فإن « سليمان حافظ المستشار المخلص للسلطة الجديدة هو الذي اقترح على عبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادي ان يتنحى جمال عبد الناصر وأن يتولى محمد نجيب السلطة وذلك لتجنب مصر مخاطر احتلال جديد . وأشرنا أيضا أن أحد قادة السلطة الجديدة « صلاح سالم » قدم اقتراحا مماثلا للأمانة التاريخية فإن عبد الناصر وعامر والبغدادي رفضوا هذه الاقتراحات بإصرار . ولكن من المهم أيضا أن نسجل ان أحدا من خارج السلطة الجديدة ومستشارها المخلص لم يتقدم بمثل هذه الاقتراحات .

وفي الأيام الأولى بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وخلع الملك فاروق عن العرش تردد اسم « على زكي العرابي » عند تكوين لجنة الوصاية ولكن الرجل طلب أن يستأذن مصطفى النحاس في هذا الأمر فكانت النتيجة صرف النظر عن تعيينه في مجلس الوصاية . ولكننا في فبراير ١٩٥٣ نجد اسمه ضمن أعضاء (لجنة الدستور) التي شكلت برئاسة على ماهر وليس معروفا على وجه الدقة موقف الوفد من هذه اللجنة خاصة وإننا نجد عددا من الأسماء لهم دور تاريخي في قيادة الوفد : مثل « على زكي العرابي ، وعبد السلام فهمي جمعة ، ومحمد صلاح الدين » .

وقد احتل العرابي مكانه بجدارة في رئاسة مجلس الشيوخ إلى جانب رؤساء آخرين . . « أحمد زيور ، ومحمد توفيق نسيم وحسين رشدي ، وعدلي يكن ، ويحيى إبراهيم ، ومحمود بسيوني ، ومحمد محمود ، ومحمد محمود خليل ، ومحمد حسين هيكل » .

في الوزارة

أما حياته الوزارية فقد اختاره « مصطفى النحاس » عند تشكيل وزارته الثالثة (٩ مايو ١٩٣٦ - ٣١ يوليو ١٩٣٧) وزيرا للمعارف العمومية ، وتزامن في وزارة النحاس باشا مع « واصف بطرس غالي ، وعثمان محرم ، ومحمد صفوت ، ومكرم عبيد ومحمود فهمي النقراشي ، وأحمد حمدي سيد النصر ، ومحمود غالب ، وعلى فهمي ، وعبد السلام فهمي جمعة) .

وبعد أن تولى فاروق سلطاته الدستورية في ٢٩ يوليو ١٩٣٧ قدم النحاس باشا استقالته وعهد

الملك فاروق إليه بتشكيل وزارته الرابعة (٣ أغسطس ١٩٣٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) واختار النحاس باشا على زكى العرابى وزيرا للمواصلات . ولم يتم اختيار «محمد صفوت ، والنقراشى ، ومحمود غالب وعلى فهمى » وهم عناصر الانقسام الجديد الذى انشق وأسس (الهيئة السعدية) ودخل الوزارة بدلا من هؤلاء الأربعة « محمود بسيونى ، محمد محمود خليل ، محمد صبرى أبو علم ، عبد الفتاح الطويل) .

أما وزارة مصطفى النحاس الخامسة وهى الوزارة التى شكلت فى ٦ فبراير ١٩٤٢ ، واستقالت فى ٦- مايو ١٩٤٢ فقد اشترك فيها على زكى العرابى كوزير للمواصلات . وفى ٧ مايو ١٩٤٢ صدر مرسوم بتعيين على زكى العرابى رئيسا لمجلس الشيوخ وبناء على ذلك صدر مرسوم بتعديل تأليف الوزارة . ثم يعود مرة أخرى وزيرا للمواصلات فى وزارة مصطفى النحاس السابعة والأخيرة (١٢ يناير ١٩٥٠ - ٢٧ يناير ١٩٥٢) وظل العرابى وزيرا للمواصلات إلى ٩ يوليو ١٩٥٠ وعين «محمد محمد الوكيل » وزير الاقتصاد الوطنى وزيرا للمواصلات ، وفى ١٠ نوفمبر عام ١٩٥٠ تولى العرابى رئاسة مجلس الشيوخ .

فى صفوف الوفد

وعندما اشتعلت الثورة الشعبية الكبرى عام ١٩١٩ كان عمره حوالى السابعة والثلاثين عاما ، وكان قد ترك العمل بالمحاماة وقطع شوطا فى العمل بالنيابة والقضاء ولذلك شارك بحرص فى أعمال اللجان الفرعية للثورة هو وعدد من زملائه فى النيابة والقضاء . وذلك على عكس موقف يوسف الجندى بلدياته الذى تزعم المجلس الثورى فى مدينة زفتى وأعلن المجلس استقلال المدينة . وكان « العرابى » من عناصر الوفد التى التزمت جانب « سعد زغلول » فى صراعة مع «عدلى يكن » والعرابى ينتمى إلى فئة « الأفندية » فهو ابن عائلة من (الطبقة المتوسطة) الصغرى بالغربية فلم يكن فرع أسرته من (طبقة ملاك الأراضى) وقد حظى الوفد بتأييد فئة الأفندية ، أى المهنيين والموظفين والبورجوازية الصغيرة والتجار والصناعيين والعمال فى المدن وفى الريف أيد (الملاك المتوسطون والفلاحون وبعض كبار الملاك) أيدوا الوفد وأيده كذلك خاصة فى البداية كبار الملاك . ولهذا فان الهيئة العليا للوفد أو القيادة تكونت من أفراد ينتمون لطبقات ثلاث هى : الأفندية والملاك المتوسطون وكبار الملاك .

وبعد الانشقاق الذى حدث فى الوفد فى أواخر عام ١٩٣٧ انتخب الوفد خمسة عشر عضوا جديدا ، (فى الجهاز القيادى) وهم : « محمد سليمان الوكيل ، محمد المغازى عبد ربه ، وبشرى

حنا ، محمد الحفنى الطرزى ، كمال علما ، فهمى ويصا ، سيد بهنسى ، ومحمد صبرى أبو علم ، عبد الفتاح الطويل ، يوسف الجندى ، على زكى العربى ، على حسين ، أحمد نجيب الهلالى ، محمد محمود خليل ، عثمان محرم . وقد أشرنا إلى هذه الحقيقة فى الحلقة الخاصة بعبد السلام فهمى جمعة .

وعندما تشكلت وزارة « مصطفى النحاس » - ٩ مايو ١٩٣٦ - كانت الوزارة وفدية خالصة ولكن كان من بين أعضائها الأحد عشر خمسة فقط فى (الهيئة العليا للوفد) وهم : مصطفى النحاس ، ومكرم عبيد ، وأحمدى حمدى سيف النصر ، وعبد السلام فهمى جمعة وواصف غالى

مراسيم يونية ١٩٥٠

يتميز الوفد منذ تكوينه عام ١٩١٨ بأنه وعاء سياسى له أهداف عامة ويتسع لفئات ولعناصر كثيرة يمكن أن يكون لها مواقفها وأفكارها الذاتية ولكن يجمعها الهدف العام . وبهذا نشأت تقاليد متعارف عليها داخل الوفد تسمح بحرية التعبير وحرية التفكير لهذه العناصر المختلفة . وفى النهاية يكون الالتزام بخط الوفد العام . . مواقف كثيرة . . فى فترات كثيرة يمكن أن ينظر إليها من هذه الزاوية منها قرارات ١٧ يونيو ١٩٥٠ التى قضت بأن يحل « على زكى العربى » رئيسا لمجلس الشيوخ محل « الدكتور محمد حسين هيكل » وقضت بإلغاء عضوية عدد من أعضاء مجلس الشيوخ . ويلجأ البعض للرد على هذه القرارات برأى خاص لعلى زكى العربى نفسه . وهذه المسألة فى حاجة إلى شىء من التفصيل . .

لقد كان مجلس الشيوخ مسرحا لاهتزازات بدأت فى مارس ١٩٤١ وانتهت فى يونيه ١٩٥٠ . وفى عهد حكومة « حسين سرى » أجريت القرعة بجلسة ٧ مارس ١٩٤١ لتجديد النصف الأول من أعضاء مجلس الشيوخ ولم تقم الوزارة بإجراء انتخابات لاختيار أعضاء جدد وعمدت إلى استصدار مرسوم فى ٢٤ مارس بتعيين أعضاء جدد بدلا من الذين خرجوا بالقرعة . وكان اختيار « حسين سرى » للأعضاء بطريقة أخلت بنسبة الأعضاء الوفديين فى مجلس الشيوخ . وكان من الطبيعى أن تقوم وزارة الوفد « ٤ فبراير ١٩٤٢ » باستصدار مرسوم ببطلان تلك التعيينات ، وقامت بإجراء انتخابات للملء مقاعد الخارجين بالقرعة . ثم جاءت وزارة « أحمد ماهر » فى أكتوبر ١٩٤٤ فأعادت من عينهم « حسين سرى » وأبطلت تعيين الذين اختيروا فى عهد حكومة الوفد وعاد الخلل فى نسبة الأعضاء الوفديين فى المجلس . وحل موعد التجديد النصفى سنة ١٩٤٦ فى عهد « إسماعيل صدقى » فأجريت الانتخابات والتعيينات على طريقة المرحوم صدقى باشا وتحقق للقصر ولأحزاب الأقلية السياسية ما تنشده من إخلال بنسبة الوفديين فى المجلس وكان توزيع

المقاعد كما يلي : ٤٥ للوفديين ، ٤٤ للمستقلين ، ٢٨ للأحرار الدستوريين ، ١٨ للسعديين ، ٩ لحزب الكتلة ، ٢ للحزب الوطني . وعندما عاد الوفد للحكم في يناير ١٩٥٠ كان من الطبيعي أن تلغى المراسيم السابقة « الباطلة من وجهة نظرها » فأبطلت رئاسة « محمد حسين هيكل » للمجلس ، وأبطلت عضوية إبراهيم عبد الهادي وآخرين وعادت الأغلبية الوفدية لمجلس الشيوخ في انتخابات التجديد النصفى في مايو ١٩٥١ . وفي « محاكمة فؤاد سراج الدين باشا » أمام محكمة الثورة برئاسة « عبد اللطيف البغدادى » وعضوية السادات وحسن إبراهيم أشار الشاهد « الدكتور محمد حسين هيكل » إلى مراسيم ١٧ يونيو ١٩٥٠ واستشهد برأى لعلى زكى العرابى . وحقيقة الأمر أن « على زكى العرابى » نشر رأيه ذاك في « مجلة القانون والاقتصاد » عدد « سبتمبر - ديسمبر ١٩٤٩ » فالرأى سابق على مراسيم يونيه ١٩٥٠ ولم يكن تعليقا عليها كما حاول البعض أن يوحى بذلك . وموجز الرأى « أنه لا تلازم بين عملية التعيين والانتخابات لعضوية مجلس الشيوخ ولايتحتم أن يكون الانتخاب سابقا على التعيين » وهذا رأى أبداه « على زكى العرابى » وينسحب على أمور إجرائية في ظل أية حكومة . وقد رأى « العرابى » أيضا « أن الوزارات في تعاقبها تمثل السلطة التنفيذية ولو تغير أشخاصها ، فإذا استنفدت وزارة حقها في أمر ما لم يجوز لوزارة أخرى أن تلغيه » وهذا الرأى الذى نشره « العرابى » في أواخر ١٩٤٩ « ينسحب على ما قامت به وزارات حسين سرى وأحمد ماهر وإسماعيل صدقى أكثر من أن ينسحب على ما قامت به حكوم الوفد .

وفي ٥ مارس ١٩٥٦ يوم الرحيل ، كان الزعيم العظيم « مصطفى النحاس » يبكى في منزل « على زكى العرابى » ذكرى ٥٠ عاما من كفاح الرجال في سبيل مصر ، وقدم كل رجل في حدود ما يتيح له من رؤية وعزيمة .

الأسانيد :

- ١ - حسن يوسف . . . القصر ودوره في السياسة المصرية .
- ٢ - صلاح عيسى . . . محاكمة فؤاد سراج الدين باشا .
- ٣ - ماريوس ديب . . . الوفد وخصومه ترجمة عبد السلام رضوان .
- ٤ - محمد زكى العرابى . . . حديث شخصى ١٨/٨/١٩٨٨ .
- ٥ - د . محمود متولى . . . مصر والحياة الحزبية والنيابية .

على شعراوى



على سطور التاريخ نسير من الوجه البحرى إلى صعيد مصر . من محافظة المنوفية أخصب محافظات وجه بحرى إلى محافظة المنيا أخصب محافظات وجه قبل ، من قرية (كفر المصيلحة) إلى قرية (المطاهرة) وإن شئت الدقة إلى قرية (بنى محمد شعراوى) إذ إن كلمة (المطاهرة) تطلق على أربع عشرة قرية صغيرة منها (بنى محمد شعراوى) نسبة إلى « حسن أغا شعراوى » وإلى « شعراوى » الجدد الكبير .

على سطور التاريخ نسير من « عبد العزيز فهمى » إلى « على شعراوى » أو من ثمانى الثلاثة الذين قابلوا المعتمد البريطانى فى تمام الساعة الحادية عشرة من يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ . إلى ثالث الثلاثة « على شعراوى » وإن شئت فبدل المواقع بين الثانى والثالث ويبقى المركز الأول دائماً لسعد زغلول العظيم .

لم يكن « سعد زغلول » ألع رجل قانونى فتلك صفة « عبد العزيز فهمى » ولا أكثرهم مالا ؟ فتلك صفة « على شعراوى » ولا أكثرهم دهاء فتلك صفة « إسماعيل صدقى » ولا أعمقهم ثقافة فتلك صفة « أحمد لطفى السيد » ولا أشدهم مناورة فتلك صفة « على ماهر » ولكن كانت لديه القدرة على القيادة وجعل الآخرين يسرون خلفه ، كانت لديه الزعامة التى تولدت من شعوره بنبض الشارع ، كان كجهاز (السيسموجراف) الذى ينبىء بحركات الأرض قبل أن يشعر بها الناس ، ووجد فيه الشارع المصرى والحقل المصرى المعبر الحقيقى عن آمالهم فأولوه ثقتهم كزعيم لهم لا ينازعه فى ذلك أحد ، كان كل عضو فى الوفد الأول يتميز بميزة جزئية وإن تكن هامة ، ولكن « سعد زغلول » كان الزعيم وكان القائد .

مميزات شخصية

وقد ثقلت موازين على شعراوى طوال حياته بميزاته الشخصية التى لم يختلف حولها أحد . وقد سجلت الباحثة المصرية الأمريكية « عفاف لطفى السيد » وهى ابنة شقيق « أحمد لطفى السيد » تزوجت فى أمريكا واستقر بها المقام هناك وتعنى بدراسة تاريخ مصر الحديث ، سجلت فى كتابها (تجربة مصر الليبرالية) وهو كتاب لنا على بعض مادته ملاحظات أشرنا إليها فى مقال لنا منذ سنوات . سجلت أن « على شعراوى » كان طاهرا فى سلوكه ومحافظا على تقاليد بيئته التى نشأ فيها ، وقد ظل إلى أن رحل متمسكا بلهجته الصعيدية ، وأشار « محمد السوادى » فى كتابه (أقطاب مصر بين ثورتين) والسوادى من قرية قريبة من قرية على شعراوى ، وأشار إلى أن « على شعراوى » كان رجلا مهيب الطلعة جليل المشية تقيا صالحا . . عرف فيه معاصروه صفات الطهارة والاستقامة من بدء حياته حتى نهايتها ويروون عنه أقاصيص تكاد تلحقه بركب العارفين بالله . .

وفى حديثه عنه ، فى كتابه (هذه حياتى) قال « عبد العزيز فهمى » : (أما على شعراوى فكان من خيرة الوطنيين المخلصين بل من أخلص رجال مصر ، وأكثرهم حبا لوطنه ، وكان جريئا فى الحق ، يقول ما يعتقد ، ويحافظ على كرامته ، ولا يمتنع عنها كان الظروف . وكان فى الجمعية التشريعية من العاملين لخدمة البلاد) .
هكذا قال عنه القاضى الفاضل « عبد العزيز فهمى » .

أين كان ؟

بعض الباحثين ومعهم بعض الكتاب يتناولون شخصية « على شعراوى » وكأنه ظهر لأول مرة فى الساعة الحادية عشر من يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ وفى هذا ظلم للرجل وظلم للكتابة التاريخية معا .

ففى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ م ، أجريت الانتخابات الأولى لمجلس شورى النواب ، وانعقد المجلس فى القلعة برئاسة إسمايل باشا راغب « وتقول أوراق هذا المجلس إن الأعضاء الذين انتخبوا عن (المنيا وبنى مزار) على الوجه التالى إبراهيم أفندى الشريعى عمدة سمالوط ، حسن أفندى شعراوى عمدة المطاهرة ، وإسمايل أحمد عمدة بنى أحمد ، وأحمد على عمدة الزاوية وأحمد حبيب عمدة الصف ، وميخائيل اثنايوس عمدة اشرومة .

(والمطاهرة) كما أسلفنا هى القرية الكبرى - إذا صح هذا التعبير - لعدة قرى صغيرة جدا عنها

(قرية بنى شعراوى) التى منها « على شعراوى » وحسن أفندى شعراوى عمدة المطاهرة والذى ورد اسمه ضمن أعضاء مجلس شورى النواب هو « حسن أغا شعراوى » والد « على شعراوى » .

ولكن مجلس شورى النواب (٧٦ - ٧٩) الذى شهد خلع الخديو « إسماعيل باشا » يغيب عنه « حسن شعراوى » . وليس فى أعضاء (المنيا وبنى مزار) أحد من أسرة شعراوى . ويتولى « توفيق » فى ٢٦ يونيه ١٨٧٩ . وفى (الوقائع المصرية) عدد أكتوبر ١٨٨١ إشارة إلى أن شريف باشا أرسل منشورا انتخابيا إلى المحافظات والمديريات بوجوب احترام الإدارة لحرية الانتخابات . ونجد أن أعضاء (المنيا) فى هذا المجلس الجديد على النحو التالى : (محمد سلطان باشا) ، وعلى أفندى شعراوى ، وحسن باشا الشريعى ، ويوسف أفندى عبد الشهيد ، ومحمد أفندى جلال ، ومحمد أفندى مصطفى عميرة) . وفى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ افتتح الخديو توفيق الدورة الأولى من برلمانه الأول والذى يطلق عليه « الدكتور لويس عوض » عبارة « برلمان توفيق - عرابى » .

ويظهر أمامنا فى برلمان توفيق - عرابى اسمان . . الأول هو « محمد سلطان باشا » والثانى هو « على أفندى شعراوى » وسوف يكون لنا مع « محمد سلطان باشا » و« على أفندى شعراوى » حكاية لأن الأول كانت له حكاية مع الثورة العربية ، والثانى هو الذى نكتب عنه .

سلطان وشعراوى

على شعراوى هو ابن شقيقة محمد سلطان . ويروى « محمد السوادى » الناقد البرلمانى المعروف لجريدة البلاد . وهو من أبناء إقليم المنيا ومن قرية قريبة إلى قرية المطاهرة ، ويروى فى كتابه (أقطاب مصر بين ثورتين) أن « محمد سلطان » كان فى نشأته جمالا ، ويحمل الأحجار التى تقطع من المحاجر فوق جملة أو فوق جماله لقاء أجر معين واستطاع أن يصبح شيخا للبلد ، ثم عمدة لها واتصل بأسرة « الشريعى » المعروفة فى المنيا ، فأخذ الشريعى باشا بيده إلى المناصب الرفيعة بسبب كفاءته وذكائه رغم أنه يجهل القراءة والكتابة .

مهما يكن من أمر فإن « محمد سلطان » هذا هو أخيرا « محمد سلطان باشا » رئيس المجلس النيابى فى عهد الخديو توفيق . وهو الخصم اللدود للعربيين وللثورة العربية والذى أثرى بسبب هذه الخصومة .

المهم أن « حسن شعراوى » وهو فلاح ثرى ذكى تزوج شقيقة لمحمد سلطان ، وأنجب منها « على شعراوى » الذى شب معتمدا على ثروة أبيه وعلى سلطان خاله « محمد سلطان » الذى كان يصعد بخطى نحو المناصب ونحو الثروة معا .

على شعراوى إذن هو ابن « حسن أغا شعراوى » عمدة المطاهرة ، وابن « آمنة » أو « يامنة »

بلغة المنيا ، شقيقة « محمد سلطان باشا » وتزوج « على » في فترة باكورة وأنجب ولده الأكبر حسن «حسن باشا شعراوى » فيما بعد . وكان الخديو « توفيق » قد أهدى لصديقه المخلص « محمد سلطان » جارية بيضاء أنجب منها « عمر » الذى أصبح فيما بعد « عمر سلطان باشا » وأنجب منها أيضا « هدى محمد سلطان » .

وتقدم « على بك شعراوى » ليتزوج الفتاة المثقفة نزيلة القاهرة ، والتي أصبحت فيما بعد الزعيمة النسائية المعروفة « هدى شعراوى » وقيل إن الزواج لم يكن على رغبتها على أية حال فقد مات أبوها وترك لها هي وشقيقها « عمر » اثني عشر ألف فدان في أرض خصبة ، ووضع « على شعراوى » ثروته أيضا - رغم حرصه الذى عرف به - تحت تصرفها ومضت في نشاطها الاجتماعي المعروف واتخذت لها هي الأخرى فيما بعد نشاطا ملحوظا في الحركة النسائية وأرسلت « هدى شعراوى » على حسابها الخاص وكجزء من نشاطها الاجتماعي أرسلت « أحمد الصاوى محمد » إلى السربون في باريس ليتعلم ويصبح فيما بعد الكاتب الصحفى الكبير صاحب (مائل ودل) .

الطريق إلى الجهاد

وفي النصف الثانى من العقد الأول للقرن العشرين نلمح نشاطا متوازيا لهدى شعراوى ولعل شعراوى فهل كان زواج «هدى» بـ «شعراوى » هو الدافع لها للتفرغ للأعمال العامة والنشاط الاجتماعى الذى امتد بعد ذلك إلى نشاط سياسى في ثورة ١٩١٩م أن شخصية هدى شعراوى الثائرة النشطة انعكست على زوجها ؟ على أية حال نلمس نشاطا مبكرا لهدى شعراوى في المجال الاجتماعى سنة ١٩٠٧ بأن دعت نساء مصر لجمع تبرعات لإنشاء جمعية لرعاية الطفل واقتنع الناس بالفكرة وتم جمع التبرعات لكن الحكومة تدخلت فتوقف المشروع في مهده . وفي سنة ١٩٠٨ دعت هدى شعراوى الكاتبة الفرنسية . . «مارجريت كليان » لإلقاء محاضرة ثقافية على السيدات في قاعة من قاعات الجامعة ونجحت المحاضرة نجاحا عظيما مما شجع « الأمير أحمد فؤاد » - الملك فؤاد فيما بعد - على تخصيص قاعة للسيدات في يوم الجمعة من كل أسبوع . وبعدها نشأت فكرة (مبرة محمد على) التى بدأت كجمعية خيرية لتعليم الفتيات الحياكة ومستوصف لرعاية الأطفال صحيا . وكان لهدى شعراوى دور ملحوظ في ذلك .

على الجانب الآخر من الأسرة . نرى الزوج « على شعراوى » من بين مؤسسى الجريدة التى أنشأها صديقه « أحمد لطفى السيد » في ٩ مارس ١٩٠٧ والتي توقفت في ٣٠ يوليو ١٩١٥ . ونجد اسم « على شعراوى » إلى جانب اسم شقيق زوجته وابن خاله «عمر سلطان » وإلى جانب زميله فيما بعد يوم ١٣ نوفمبر وأعنى به « عبد العزيز فهمى » ونحن لا نعرف على وجه الدقة دور

«على شعراوى» بعد ذلك فى (حزب الأمة) الذى شكلته فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ مجموعة الجريدة أيضا اذ لم يكن له دور ملحوظ فهذه هى طبيعة الرجل البعيدة عن النشاط والمثابرة ومواصلة العمل السياسى بمتاعبه المعروفة .

الاعتدال

وإلى جانب التقوى والصلاح كانت هناك سمة أخرى اتصف بها « على شعراوى » هى الاعتدال . ولعل هذه الصفة هى التى دفعته للمشاركة فى (الجريدة) والتى قدمها رئيس تحريرها « أحمد لطفى السيد » بعبارات واضحة . محددة « ما الجريدة الا صحيفة مصرية شعارها الاعتدال الصريح . وربما يكون (الاعتدال) أيضا هو الذى جمع فى صداقة قوية بين على شعراوى وعبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد الذى كان فى فترة ما من حياته رئيسا لنياة المنيا (مديرية على شعراوى) .

وفى كتاب (هذه حياتى) يحكى لنا « عبد العزيز فهمى » رواية طريفة كانت سببا فى أن يكره « أحمد لطفى » العمل بالمحاماة ويعمل بالسياسة . . والرواية موجزها أن « على شعراوى » ، ذهب يوما إلى مكتب المحاماة بالعتبة الخضراء والذى يعمل به « عبد العزيز فهمى » وعزيز منسى وأحمد لطفى السيد ، ذهب ومعه رجل هرم اسمه « عم عزام » كان بعض الناس قد زوروا عليه سنداً بمبلغ كبير ، وقد حكم عليه ابتدائيا واستئنافيا ولم يعد هناك وجه قانونى للالتماس ، ولكن « شعراوى » يعلن أن الحكم ظالم وأن « عم عزام » مظلوم فقد ألح على « لطفى » أن يقدم هذا الالتماس . ورفضت المحكمة الالتماس فما كان من « عم عزام » الا أن عسكر فى مكتب المحاماة على أمل أن يقوم « لطفى » بعمل أى شىء لتبرئته . . ومن وقتها هرب « أحمد لطفى السيد » من المحاماة واشتغل بالسياسة ، وسارت حياته كما نعرف . وبعد أن تم إدماج مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية فى (الجمعية التشريعية) فى ظل حكم الخديو عباس حلمى الثانى ، جرت انتخابات الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ وكان الأعضاء عن المنيا هم : المصرى السعدى بك ، حسنين الشريعى بك ، زايد جلال بك ، وعلى شعراوى باشا .

وقد حصل « على شعراوى » على لقب باشا بفضل خاله ووالد زوجته « محمد سلطان باشا » وبفضل ثروة الأسرتين . ويلاحظ أن أسرة سلطان وأسرة شعراوى بفضل الدور الذى قام به « محمد سلطان باشا » ضد الثورة العربية ولصالح الخديو توفيق لم يصب هاتين الأسرتين أى أذى بعد انكسار الثورة العربية . ومن بين مئات الذين قبض عليهم وقدموا للمحاكمة كان هناك ٨٠ شخصا من العمد وأعيان الأرياف ليس من بينهم أحد من أسرة سلطان أو أسرة شعراوى على خلاف أسرة الشريعى التى نالها بعض الأذى .

تكون الوفد في بداية الأمر من : سعد زغلول ، وعلى شعراوي ، وعبد العزيز فهمي ، ومحمد على علوبة ، وعبد اللطيف المكباتي ، ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيد .

وذهب الثلاثة الأول على نحو ماهو معروف في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ بعد يومين من إعلان الهدنة إلى المعتمد البريطاني « ونجت » إما لماذا اختير وفد (المقابلة) على هذا النحو فالروايات تختلف . . سعد زغلول ليس حوله خلاف فهو وكيل الجمعية التشريعية التي أوقف الانجليز أعمالها بعد إعلان الحماية سنة ١٩١٤ ، وهو الذى كان يدعو القادة الآخرين للاجتماع عنده سرا في عزبته بمسجد وصيف . . إلخ . . ويقول « عبد العزيز فهمي » تفسيراً للاختيار إنهم حرصوا على من كان عضواً بالجمعية التشريعية . . وكان سعد وكيلاً للجمعية وعبد العزيز وشعراوي عضوين ، وقيل ان « سعدا » حرص على اختيار « عبد العزيز » ممثلاً للوجه البحرى ، وعلى اختيار « شعراوي » ممثلاً للوجه القبلى وأياً كان التفسير الصحيح فإن « على شعراوي » قام بدور هام في الدعاية للوفد ، والدعاية لجمع التوكيلات للوفد ، والدعوة لمقاطعة لجنة ملتر في الصعيد عامة وفي إقليم المنيا خاصة لما تتمتع به الأسرة من جاه وسلطان . وشهدت مديرية المنيا أثناء ثورة ١٩١٩ أحداث عنف هامة ضد قوات الاحتلال الانجليزى .

الثورة والانقسام

ويرى البعض أن « على شعراوي » قد نال شهرته ودخل اسمه تاريخ مصر الحديثة إلى جانب « سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمي » ، بفضل المشوار الذى صاحبهما فيه إلى المعتمد البريطانى . ولكنه كما قلنا أدى دورا هاما للوفد وللثورة في الصعيد وعندما اشتد الصراع بعد ذلك بين سعد وعدلى وانقسم الوفد إلى متشددين ومعتدلين انحاز « على شعراوي » حسب طبيعته إلى فريق المعتدلين ، وكما كان لعلى شعراوي دوره في حدود طبيعته وطاقته في الثورة ، كان لزوجته وابنة خاله « هدى شعراوي » دورها أيضا وقد سجل هذا الدور الكتاب الأجانب و« عبد الرحمن فهمي » في مذكراته وتولت « هدى بمساعدة زوجات الوفديين (لجنة الوفد المركزية للسيدات) . شاركت في كل المواقف السياسية . وخرجت تظاهرات النساء ضد قوات الاحتلال . وكما خرج زوجها على « سعد » خرجت هى أيضا سنة ١٩٢٢ وتركت (لجنة الوفد المركزية للسيدات) وكونت في ١٦ مارس سنة ١٩٢٣ (الاتحاد النسائى المصرى) وتولت « السيدة شريفة رياض » رئاسة لجنة الوفد للسيدات . وكان « على شعراوي » بعد انسحابه من تيار سعد إلى تيار الاعتدال انسحب من العمل السياسى كله ولجأ إلى مزرعته المريحة واستمرت زوجته « هدى » في العمل الاجتماعى وإن تركت السياسة لأهل السياسة .

آثر الرجل السكينة والهدوء والراحة دون أن يدخل في جدل أو في صخب مع هذا التيار أو ذاك ، ولا مع هذا السياسى أو ذاك ، وترك ولدين الأول « حسن شعراوى » من زوجته الأولى ، والثانى « محمد شعراوى » من زوجته الثانية « هدى » وارتبط « محمد شعراوى » بالوفد حتى أصبح عضوا بمجلس الشيوخ ثم انعزل عن العمل السياسى وانصرف إلى شئونه الخاصة التى أغرقته بمشاكلها .

وهذه هى سيرة رجل من مصر بكل مافيها من تقدم وتراجع ، ومن إيجابيات وسلبيات . .
ومنذ متى كانت الحياة تسير في خط مستقيم ١٩

الأسانيد :

- ١ - آمال السبكي . . . الحركة النسائية في مصر .
- ٢ - د . عفاف لطفى السيد . . تجربة مصر الليبرالية (ترجمة عبد الحميد سليم)
- ٣ - عبد العزيز فهمى . . . هذه حياتى
- ٤ - د . لويس عوض . . تاريخ الفكر المصرى الحديث .
- ٥ - محمد السوادى . . أقطاب مصر بين ثورتين .

على ماهر



يوم الخميس ٢٤ يوليو ١٩٥٢ ، في اليوم التالي لاستيلاء الضباط الأحرار على السلطة . صدر الأمر الملكي رقم ٥٩ لسنة ١٩٥٢ إلى « صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا » بتأليف هيئة الوزارة . وفي اليوم نفسه رد « على ماهر » بقبول تشكيل الوزارة واحتفظ لنفسه - كعادته - بعدد من الوزارات الهامة كالحرية والداخلية والخارجية .

كانت تلك هي الوزارة الرابعة التي يرأسها « على ماهر » وكلها كانت نجىء في ظروف انقلابية ، ويطرب هو عندما يقال عنه « رجل الساعة » وزارته الأولى (٣٠ يناير ١٩٣٦ - ٩ مايو ١٩٣٦) كانت على أنقاض وزارة توفيق نسيم (١٤ نوفمبر ١٩٣٤ - ٣٠ يناير ١٩٣٦) التي أيدىها الوفد وتآمر عليها « على ماهر » رئيس الديوان الملكي وقت ذاك ، والذي اضطر أمام الأحوال الدولية والغزو الإيطالي للحبشة ، وتكوين « الجبهة الوطنية » والتمهيد لمفاوضات مع انجلترا ونذر حرب عالمية ، اضطر بدكائه الخارق إلى أن يجري انتخابات حرة ينال فيها الوفد الأغلبية الساحقة ويشكل « مصطفى النحاس » وزارته الثالثة في ٩ مايو ١٩٣٦ - وكان الملك فؤاد قد رحل في ٢٨ أبريل ٣٦ وشكلت هيئة وصاية .

أما وزارة « على ماهر الثانية » التي شكلها في ١٨ أغسطس ١٩٣٩ ، فتشير الوثائق البريطانية إلى أن على ماهر قد وجه مناوراته ضد وزارة محمد محمود الرابعة (٢٤ يونيو - ١٨ أغسطس ١٩٣٩) ، ساعده في ذلك اشتداد الأزمة الصحية على محمد محمود الذي قدم استقالته فعهد الملك إلى « على ماهر » بتشكيل الوزارة وهي وزارته الثانية التي ضمت ٩ وزراء من المستقلين إلى جانب ٥ وزراء من السعديين ، أما الأحرار الدستوريون فقد اعتذروا عن عدم الاشتراك بسبب مناورات « على ماهر » ضد وزارتهم المستقيلة .

مع ارتفاع المدين النازى والفاشى فى أوربا ، وانعكاس هذا على بعض الجماعات والشخصيات داخل مصر ، ومع اقتراب خطر الزحفين الألمانى والإيطالى على الأراضى المصرية ، استقالت وزارة على ماهر فى ٢٧ يونية ١٩٤٠ .

والوزارة الثالثة فظروفها معروفة ، وهى تلك التى شكلت فى ٢٧ يناير ١٩٥٢ ، اليوم التالى لحريق القاهرة وإقالة حكومة الوفد - واستمرت وزارة على ماهر إلى أول مارس ١٩٥٢ بعد أن جاءت فى ظروف انقلابية مثل وزارته الأولى والثانية .

ولقد بدأنا حديثنا عن « على ماهر » بوزارته الرابعة التى جاءت هى الأخرى فى ظروف انقلابية واستمرت تلك الوزارة من (٢٤ يوليو - ٧ سبتمبر ١٩٥٢) .

أما كيف جاء إلى الحكم عقب استيلاء الجيش على السلطة فسوف نعرض له بعد أن نتحدث عن الوزارات التى اشترك فيها « على ماهر » وسوف نلاحظ أنه دخل هذه الوزارات عقب مناورات ضد الوزارات المستقبلية السابقة عليها ، وأنه أيضا كان يمارس المناورات فى الوزارات التى يشارك فيها .

وزارات الإقلية السياسية

فى الوزارة الثانية لأحمد زيور من (١٣ مارس ١٩٢٥ - ٧ يونية ١٩٢٦) تولى « على ماهر » وزارة المعارف ، ومن داخل هذه الوزارة تولى وزارة الحقانية بالنيابة لفترة محدودة .

ومعروف أن « أحمد زيور » هو الذى خلف وزارة الشعب ، وزارة سعد زغلول ، وحل مجلس النواب .

ثم شارك « على ماهر » فى وزارة « محمد محمود » الأولى التى شكلت من (٢٥ يونية ١٩٢٨ - ٢ أكتوبر ١٩٢٩) شارك فيها كوزير للمالية ومن داخل الوزارة تولى الحقانية والخارجية بالنيابة وهذه الوزارة هى المعروفة بوزارة اليد الحديدية .

وعاد وزيراً للمعارف فى وزارة إسماعيل صدقى الأولى فى (١٩ يونية ١٩٣٠ - ٤ يناير ١٩٣٣) وأدرك « على ماهر » بذلك أنه الاتجاه ليس فى صالح وزارة صدقى باشا فاستقال ورفض دخول الوزارة عند إعادة تشكيلها فى (٤ يناير - ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣) احتجاجاً على حوادث التعذيب ! فى حين أنه اشترك مع زيور باشا الذى كان قد حل مجلس النواب لأن أغليتيه للوفد ، وأجرى انتخابات جديدة أصر فيها الشعب على انتخاب الوفد فقام « زيور » فى وزارته الثانية بحل المجلس الجديد أيضاً ونراه قد شارك فى وزارة « محمد محمود » الأولى (٢٥ يونية ١٩٢٨ - ٢ أكتوبر

١٩٢٩) وهى وزارة جاءت فى أعقاب إقالة وزارة « مصطفى النحاس » الأولى ويقول « د . عبد العظيم رمضان » إن « على ماهر باشا » كان مستشارا للملك أحمد فؤاد ، ورجله فى حزب الاتحاد وكان صاحب الفتوى فى إقالة النحاس باشا فى يونية ١٩٢٨ وهى أول إقالة فى تاريخ الحكم النيابى فى مصر وكان « محمد محمود » وزيرا للمالية فى وزارة النحاس وقدم استقالته تمهيدا لنجاح المؤامرة ليتولى هو رئاسة الوزارة ويحىء على ماهر وزيرا للمالية .

ومن هنا فإن استقالة « على ماهر » من وزارة صدقى باشا بسبب ما ارتكبه من حوادث تعذيب ، واعتذاره عن الوزارة الصديقة المعدلة فى ٤ يناير ١٩٣٠ احتجاجا على ما ارتكبه رجال الإدارة فى حق الأهالى ليس هو السبب الصحيح عند « على ماهر » ولكنه أدرك بحسه السياسى أن « إسماعيل صدقى » ذاهب لا محالة ، وأن وزارته لن يكتب لها عمر جديد بسبب تزايد الكراهية ضدها فأراد أن يحتفظ لنفسه برصيد سياسى يفيد فى مقبل الأيام .

ونعود إلى يوم الخميس ٢٤ يوليو ١٩٥٢ عندما استولى الجيش على السلطة وجاء « على ماهر » رئيسا للوزراء .

لماذا على ماهر ؟

ومنذ ذلك اليوم لم يزل السؤال قائما . . لماذا على ماهر ؟ مستشار الملك فؤاد ورجله الأول فى حزب الاتحاد . . والراعى الأول أو الثانى للملك فاروق فى شبابه . . رئيس الديوان الملكى مرتين . . رئيس الوزراء والوزير السابق فى ظروف انقلابية . . عدو الوفد التقليدى منذ أن قدم استقالته فى ١٨ مارس ١٩٢٢ وانضم للأحرار الدستوريين ثم حزب الاتحاد حزب الملك فؤاد .

بعد يومين فقط من تولى على ماهر لرئاسة الديوان الملكى فى الفترة الأولى (أول يوليو ١٩٣٥) وبعد اتصالات مكثفة بأحزاب الأقلية السياسية المعادية للوفد واتصالات بالجماعات السياسية التى ترغب فى التنسيق مع على ماهر وإن اختلفت الأسباب . . طافت التظاهرات بالقاهرة تهتف للملك الصالح ! ووقفت أحزاب الأقلية السياسية تؤيد ما أسموه (الحق الدستورى) للملك وذلك فى مواجهة اعتراض الوفد على قيام القصر بتعيين بعض المسئولين دون الرجوع للوزارة .

ويقدم « اللواء محمد نجيب » تفسيراً معقولاً لاختيار على ماهر رئيسا للوزارة . . (كان اتفاقنا السريع على اختيار على ماهر مبنيا على أساس أن علاقته الوثيقة بالملك تسهل عملينا وأنه غير مرتبط بحزب من الأحزاب مما قد يورط الثورة بعلاقاتها فى الأيام الأولى) .

ويفهم من عبارات اللواء نجيب أن اختيار « على ماهر » تم بالاتفاق السريع غير أن الزميل

الصحفى فى الأخبار « المرحوم سامى جوهر » أورد فى كتابه (الصامتون يتكلمون) على صفحتى ٣٩ و ٤٠ رواية للسيد « صالح أبو رقيق » العضو القىادى فى جماعة الإخوان المسلمين . . كان ذلك قبل الثورة بليتين حضر جمال عبد الناصر ومعه كمال الدين حسين إلى شقة عبد القادر حلمى وهى فى الطابق الثانى بالمنزل الذى كنت أقيم به فى أول شارع الهرم بالقرب من جامع سيدى نصر الدين . . وأبلغنا اعتزامه القيام بالثورة خلال أيام فطلبنا منه الانتظار لحين استطلاع رأى المرشد فطلب استطلاع رأيه أيضا فى أن يتولى الإخوان الحكم بعد نجاح الثورة . . وقابلنا المرشد فطلب منا إبلاغ جمال عبد الناصر موافقته وتأييده وحمايته للثورة كما طلب إبلاغه أنه ليس من المصلحة أن تظهر للثورة علاقة بالإخوان حتى لايتدخل الانجليز لمقاومتها واقترحت أن يتولى الحكم على ماهر باشا على أساس أنه غير حزبى وكان رئيسا للوزارة وقت وفاة الملك فؤاد واستطاع أن يقود البلاد) .

وهذا التصريح يكشف على أن اسم على ماهر قد طرح من جانب الإخوان المسلمين قبل الثورة بليتين وربما يكون الاختيار قد بدأ من وحى اللحظة بالنسبة للواء محمد نجيب إلا أنه لم يكن هكذا فى ذهن جمال عبد الناصر ، وكان متفقا عليه بين الإخوان وجمال .

على ماهر والإخوان المسلمون

واقترح اسم « على ماهر » من جانب الإخوان المسلمين يسوقنا إلى البحث فى علاقة « على ماهر » بالإخوان المسلمين تلك الجماعة التى بدأت نواتها الأولى بمدينة الإسمايلية فى مارس ١٩٢٨ وانتقلت إلى القاهرة فى أكتوبر ١٩٣٢ .

ونلاحظ أنه فى تلك الفترة ارتفع مد دعاية هتلر وموسولنى فى أوروبا وانعكست هذه الدعاية على الشباب المصرى سيما شباب الإخوان المسلمين وشباب مصر الفتاة التى ظهرت فى أكتوبر ١٩٣٣ وكان هناك محوران بارزان يلوذ بهما الشباب وهما . . « الفريق عزيز المصرى » و « على ماهر باشا » ومن الثابت اتصال عزيز المصرى بالمرشد « الشيخ حسن البنا » بما يصل إلى حد التنسيق فى بعض الأعمال وقد جمعت الميول نحو دعوة هتلر وموسولنى ، والعداء للحلفاء ، والعداء للحزبية ، جمعت هذه العناصر بين عزيز المصرى وعلى ماهر ومصر الفتاة والإخوان المسلمين ، وفى عام ١٩٣٩ كانت علاقة الإخوان بعلى ماهر قد توثقت ، وعند عودته من مؤتمر فلسطين فى لندن فقد ذهب وفد من الإخوان إلى المحطة لاستقبال على ماهر .

ويقول الدكتور عبد العظيم رمضان فى كتابه (تطور الحركة الوطنية المصرية ١٩٣٧ - ١٩٤٨) إن على ماهر باشا قد اتجه فى ذلك الحين إلى احتضان حركة الإخوان وفى الحق لقد اعتبر الإخوان

المسلمون وزارة على ماهر باشا (أغسطس ٣٩ - ٢٧ يونية ١٩٤٠) وزارتهم أو ماهر أشبه بذلك .

ويروى « طارق البشري » في كتابه (الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢) على صفحتي ٤٧ ، ٤٨ (إن الجماعة اختارت لظهورها السياسي السافر عام ١٩٣٨ إذ كانت معاهدة ١٩٣٦ قد أبرمت وهزت شعبية الوفد الذي شارك في إبرامها وأرادت الرجعية المحلية أن يخلو لها وجه الحياة السياسية من دون الوفد ، كما رأت السراى الاقتراب من أى تنظيم جماهيرى « جاهز » تمكن له من القوة لقاء استخدامهما إياه وفي هذا الوقت كانت ألمانيا وإيطاليا تزدان نفوذا وكانت سحب الحرب العالمية تتجمع . . وكان « على ماهر » رئيس الديوان الملكى وقتها وصاحب النفوذ الأكبر على الشباب هو مصمم هذه السياسة ومحركها لمصلحة السراى كمؤسسة سياسية ولمصلحة طموحه الشخصى) .

ومهما يكن من أمر فإننا نميل إلى أن اختيار على ماهر رئيسا للوزارة في اليوم التالى لحركة الجيش كان بموافقة الإخوان وموافقة جمال عبد الناصر اذ لم يعرف عن على ماهر أى خلاف سابق له مع الإخوان المسلمين على غير ما كان الوضع مع (مصر الفتاة) التى انتابت العلاقات بينهما بعض فترات الفتور أو ما يشبه التباعد .

على ماهر ومصر الفتاة

لم تعرف السياسة المصرية جماعة تقلبت مواقفها إزاء المؤسسات والقوى السياسية الأخرى مثل جماعة (مصر الفتاة) التى أعلنت من خلال نشاط الشباب في مشروع القرش في أكتوبر ١٩٣٣ .

وقد بدأت العلاقة طيبة بين « على ماهر » ومصر الفتاة يجتمع الفريقان في الإعجاب بالقوة السياسية الجديدة في ألمانيا وإيطاليا ، وفي محاولة ضرب شعبية الوفد وفي الفترة التى تلت وفاة الملك فؤاد واستقالة على ماهر ومحجىء الوفد إلى الحكم (٩ مايو ١٩٣٦) توثقت العلاقات بين مصر الفتاة وعلى ماهر ولكل فريق هدفه الخاص .

كتب أحمد حسين في أول يوليو ١٩٣٩ . . (خرج على ماهر من الوزارة وجاء الوفد . . ومنذ اليوم الأول الذى بارح فيه الوزارة شرع يعد الخطط ويحكم التدابير للعودة إلى الحكم . . ونحن نرى هذه المحاولة من ناحية متفقة مع برنامجنا . . هو يريد ذلك لأجل أن يقفز إلى كرسى الوزارة ونحن نريده لنحرر الأمة من ربة الاستعباد لهذا الصنم المعبود بالباطل) .

وبعد إقالة حكومة الوفد في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ جاء « محمد محمود » في وزارته الثانية وكان « على ماهر » رئيسا للديوان الملكى مسبقا رعاية كبيرة على « أحمد حسين ومصر الفتاة » وظهر نفوذ (القمصان الخضر) واتفقت رغبة الطرفين في هدم الوفد وإضعاف الأحزاب الأخرى أيضا .

وقد أورد الدكتور عبد العظيم رمضان عبارات واضحة صريحة لأحمد حسين عن مستوى ذلك التعاون . . (على ماهر آخر هذه الأسماء الطنانة ، وهو الذى لم يفتر عن تأييدنا تأييدا كاملا طوال ست سنوات . . يمدنا بالمال ويفتح لنا بابه حيث كان فى الليل والنهار وفى أى وظيفة كان فيه) .

وحدث تقلب فى العلاقة بين على ماهر ومصر الفتاة بعد تعيين « محمد كامل البندارى باشا » وكيلا للديوان الملكى ، وكان البندارى يعطف على مبادئ مصر الفتاة وكان على صلة وثيقة بالقصر مما أوغر صدر على ماهر وحدث ما يشبه الخلاف بين على ماهر والبندارى وبين على ماهر ومصر الفتاة .

وفى أثناء الحرب عاد التقارب بين على ماهر ومصر الفتاة وسارت الأمور بعد ذلك فى تقدم وتراجع حسب مصلحة كل طرف .

رئيسا للديوان الملكى

فى أول يوليو ١٩٣٥ تولى « على ماهر » منصب رئاسة الديوان الملكى للمرة الأولى ، ولم يترك المنصب إلا وقد استقالت وزارة « توفيق نسيم » فى ٣٠ يناير ١٩٣٦ التى كان الوفد يؤيدها ليصبح « على ماهر رئيسا للوزراء لأول مرة فى ٣٠ يناير ١٩٣٦ .

وبحلال فترة رئاسته للديوان كان يحاول تحسين صورة القصر والعمل لحسابه الخاص - أى لحساب على ماهر . ووجدها فرصة ليحسن موقفه هو مع الانجليز بحكم دوره كهمزة الوصل بين القصر والانجليز . وعمل لصالح نفسه أيضا فى علاقاته مع الأحزاب الأخرى وظهر بمظهر « المحايد » فى السياسة المصرية وساعده هذا على أن يتولى رئاسة الوزارة للمرة الأولى كما أشرنا فى ٣٠ يناير ١٩٣٦ ويجرى الانتخابات التى فاز فيها الوفد بالأغلبية ، وفى ٢٨ أبريل توفى الملك فؤاد فكان لعلى ماهر دور كبير فى تشكيل هيئة الوصاية وكانت برئاسة « الأمير محمد على » المعروف باتجاهاته التى لا تتفق مع اتجاهات الوفد .

وفى ٩ مايو ١٩٣٦ تولى النحاس باشا الحكم وساءت العلاقات بين الوفد والقصر بفعل على ماهر أيضا ، واستقالت الوزارة فى ٣١ يوليو ١٩٣٧ بعد تولى « فاروق » سلطاته الدستورية ، وكانت الظروف تقضى بأن يعهد إلى النحاس باشا تشكيل وزارته الرابعة (أول أغسطس ١٩٣٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) ولمواجهة الوفد عين « الملك فاروق » على ماهر رئيسا للديوان الملكى لمرة ثانية ، فى ٢٠ أكتوبر ١٩٣٧ وتفاقم الخلاف بين الوفد من جهة وبين الملك وعلى ماهر من جهة أخرى وانتهى الموقف بإقالة وزارة الوفد فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ وظل على ماهر رئيسا للديوان الملكى ليخرج منه رئيسا للوزراء للمرة الثانية فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٩ حتى ٢٧ يونية ١٩٤٠ .

فى سطور

ولد على ماهر فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٨١ بمدينة القاهرة ونال شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) سنة ١٨٩٨ من المدرسة الخديوية ، وحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٠٣ عمل بالمحاماة ثم عين قاضيا سنة ١٩٠٧ ، فمعيدا بمدرسة الحقوق ١٩٢٣ ومنح (الدكتوراه الفخرية فى القانون) سنة ١٩٢٨ ، كان وزيرا عدة مرات أولاها فى ١٩٢٥ وتولى رئاسة الوزارة أربع مرات أولاها فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٦ تزوج سنة ١٩٢٤ وفى ١٣ يناير ١٩٥٣ عين عضواً ثم رئيساً للجنة مشروع الدستور الذى انتهى لإعداده ولم يعمل به ، توفى فى أغسطس ١٩٦٠ .

من بعيد

والآن . . كيف نراه بعد أن رحل ؟ كيف نرى الشخصية الفريدة المتميزة إذا نظرنا إليها من بعيد ؟ كيف فعل ما فعل ؟ وكيف وصل إلى ما وصل إليه ؟ هل هو القدر ؟ هل هو الذكاء ؟ هل هو الرد على التحدى ؟ هل هو الدهاء ؟ القدر . . ربما . . وإلا فكيف نفسر أن يكون على رأس الوزارة ويتوفى الملك فؤاد فى أبريل ١٩٣٦ قبل أن يسلم الحكم لزعيم الأغلبية ويقدر له أن يكون له دور فى تكوين هيئة الوصاية على العرش وفى إعلان فاروق ملكا . . وكيف نفسر أن يتولى رئاسة الوزارة فى ٢٤ يوليو ١٩٥٢ . . ويقدر له أن يكون له دور فى تنازل فاروق عن العرش وفى إعلان هيئة وصاية على العرش .

الذكاء . . ربما . . الممزوج بالمصلحة الشخصية . . ربما وإلا فكيف نفسر أنه كان فى شبابه يميل إلى مبادئ الحزب الوطنى ولكنه لا ينضم إليه ويسعى إلى أن يتزعم سعد الحركة الوطنية . ويقرر الوفد المصرى ضم على ماهر فى ٧ نوفمبر ١٩١٩ ويقترب من سعد وفى ظروف حرجية يؤيد تصريح ٢٨ فبراير ويستقيل من الوفد فى ١٨ مارس سنة ١٩٢٢ وإلا فكيف نفسر أنه فى حكومته سنة ١٩٣٦ يدرك تطورات الموقف الداخلى إدراكا ذكيا فهناك الجبهة الوطنية وهناك مفاوضات مقبلة مع الانجليز لتوقيع معاهدة ولا مندوحة من حكومة وفدية تجرى هذه المفاوضات فيشرف «على ماهر» على انتخابات حرة تأتى بأغلبية وفدية وذلك فى ذكاء منقطع النظير فى اختيار طريق لأمفر منه وإن كان على غير رغبته الحقيقية .

الدهاء . . ربما . . الفكر . . ربما فى مواجهة التحديات . . والقدرة على التقدم والتراجع . . ربما . . دخل حزب الاتحاد سنة ١٩٢٥ ، حزب الملك فؤاد فرضى عنه الملك بهمة أن كان غاضبا عليه لاقترابه السابق من سعد زغلول واستقال بعد ذلك من الحزب بعد أن أضحى الحزب مكروها تماما من الجماهير .

جهوده كلها كانت لمصلحته الخاصة ، اقترب أو قرب إليه مصر الفتاة والإخوان المسلمين والحزب الوطنى ولكن بالقدر الذى يفيدده هو . . كان رجلا واحدا ولكنه عمل داخل السياسة المصرية كمؤسسة كاملة ، حركة ودعاية وترقبا ومكرا ودهاء . . كل خطوة محسوبة لمصلحته الخاصة . . قال عنه سعد العظيم : « على ماهر لا يوافق على شىء فى صراحة ، مسالم ومساوم ويجب إمساك العصا من الوسط » .

الأسانيد :

- ١ - رشوان محمود جاب الله « على ماهر » .
- ٢ - سامى جوهر « الصامتون يتكلمون » .
- ٣ - د . عبد العظيم رمضان « تطور الحركة الوطنية فى مصر ١٩٣٧-١٩٤٨ » .
- ٤ - على شلبى « مصر الفتاة ودورها فى السياسة المصرية » .
- ٥ - د . يونان لبيب رزق « تاريخ الوزارات المصرية » .

الدكتور على مصطفى مشرفة



شائعة . . تجاوز عمرها ثمانية وثلاثين عاما . . سرت صباح يوم الاثنين السادس عشر من يناير عام ١٩٥٠ ، بعد أن ارتشف الدكتور « على مصطفى مشرفة » ما شاء الله له ان يرتشف من شأى الصباح وصعدت روحه إلى بارئها وأقبل على بيته زملاؤه وتلاميذه من الجامعة ، وأقبل أعضاء من مجلس النواب وقرروا أن يكون تشييع الجثمان يوم الثلاثاء السابع عشر من يناير . . وسرى همس بأنه قتل ، وأن الجالس على العرش هو قاتله . . ولكن لماذا ؟ قال الهامسون . . إن الدكتور على مصطفى مشرفة كان يرأس مجموعة سرية من تلاميذه وأصدقائه ، وهدفها إعلان الجمهورية بدلا من النظام الملكي ، وقال الناس وهم يستغربون الشائعة . . لم لا ؟ إن الملك « فاروق » لم يرسل مندوبا عنه في تشييع الجنازة ! والدكتور مشرفة هو من هو وما هي الجامعة أساتذة وطلابا تشيع فقيدها العظيم ، وما هم أعضاء مجلس النواب الوفدى يتوافدون على الجنازة ، وما هم كبار القوم وراء الجثمان . . جثمان عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة لمرات أربع ، ولأربعة عشر عاما منذ أن اختاره على زكى العرابى وزير المعارف في ٢٧ مايو ١٩٣٦ عميدا ، وذلك في عهد حكومة الوفد « ٩ مايو ١٩٣٦ - ٣١ يوليو ١٩٣٧ » .

في عهد عمادته الأولى ، حصل على لقب البكوية بتأثير مصطفى النحاس على السراى ، ومع هذا لم يأبه الدكتور مشرفة بهذا اللقب ولم يكن يعنى به ، ولم يكن يستخدمه في حياته العامة . وفى ١١ فبراير سنة ١٩٤٦ ، كان من المقرر أن يزور الملك عبد العزيز آل سعود جامعة فؤاد الأول ، وتصادف أن كان على باشا إبراهيم مدير الجامعة مريضا وأصبح الدكتور مشرفة مديرا للجامعة بالانابة وعليه أن يستقبل الملك عبد العزيز آل سعود واضطرت السراى إلى منحه رتبة الباشوية كرئيس « مؤقت » للجامعة ويستقبل عاهل العربية السعودية . وأقبل الأهل والأساتذة والتلاميذ

عليه يهتونه بالباشوية فاستنكر منهم ذلك معتزا بالدكتوراه لرجل العلم . ومن المحتمل جدا أن تكون أجهزة الرصد قد أبلغت كل ذلك في حينه ، فزادت من شكوك القصر حول الدكتور مشرفة وحول اتجاهاته .

وكان مشرفة منتخبا وكيلا للجامعة لمدة ثلاث سنوات تنتهى فى ٢ ديسمبر من عام ١٩٤٨ ، وفوجئ بأن وزارة محمود فهمى النقراشى الثانية (٩ ديسمبر ١٩٤٦ - ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) أصدرت قانونا بأن يكون اختيار وكيل الجامعة بالتعيين ، وفى يونيو ١٩٤٨ صدر قرار بإعفاء مشرفة من وكالة الجامعة وتعيين وكيل جديد لها .

وكان من المتوقع عندما يخلو منصب مدير الجامعة أن يكون من نصيب الدكتور مشرفة ، فهو أقدم العمداء ، وشغل منصب وكيل الجامعة لفترة ، بل إنه شغل منصب مدير الجامعة بالإناابة لفترة أخرى . ولكن الدكتور مشرفة لم يذهب للشكر عندما منح رتبة الباشوية فى ١١ فبراير ١٩٤٦ ، وفوجئ فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٧ بتعين الدكتور إبراهيم شوقى مديرا للجامعة وهو أحدث منه فى العادة وفى الأستاذية . . وكان القصر وراء هذا القرار .

ولم يكن مشرفة ولا الذين يحيطون به غافلين عن موقف القصر الذى يقف له بالمرصاد . وحدث أن الحكومة الأمريكية اختارت الدكتور مشرفة عضوا فى اللجنة الدولية للبحوث اللرية وعلى هذا دعتة جامعة برينستون أستاذًا زائرا لإلقاء سلسلة من المحاضرات إلى جانب عدد من مشاهير أساتذة علوم الرياضة والطبيعة فى العالم وفى مقدمتهم اينشتين وفى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٧ وافق مجلس الوزراء على سفر الدكتور مشرفة إلى لندن على أن تتحمل الحكومة المصرية نفقات السفر إلى لندن ، وأن يسافر إلى سويسرا على أن يتحمل هو نفقات السفر إلى سويسرا ، ثم يسافر إلى أمريكا على نفقة الحكومة الأمريكية . وفى ٢ أبريل أبلغه الدكتور عبد السلام الكردانى سكرتير عام الجامعة أن مولانا ألغى قرار مجلس الوزراء بئدبه أستاذًا زائرا لجامعة برينستون . ولكن مشرفة سافر إلى إنجلترا وإلى سويسرا وأرسل إلى أهله يطلب مالا فحالت دون إرساله عقبات كثيرة ، فعاد من سويسرا دون أن يسافر إلى أمريكا وخسرت مصر فرصة مهمة فى أن يمثلها أستاذ إلى جانب أساتذة العالم .

كانت مواقف القصر من الدكتور مشرفة معروفة ، وهى كلها تدل على أن القصر كان يضع الدكتور فى خانة الأعداء الذين يتعقبهم ، كما كانت استهانة الدكتور بالجالس على العرش معروفة لدى تلاميذه وأصدقائه ولكن ما مدى صحة تكوين مجموعة سرية تعمل على إعلان الجمهورية ؟ فى حين أنه لم يعرف عن مشرفة أنه منضم إلى حزب من الأحزاب ؟ على الرغم من صداقته لعدد من السياسين فى مقدمتهم مصطفى النحاس ومكرم عبيد ، وأحمد ماهر وأحمد لطفى السيد .

الشائعة . . لم تزل تحوم فوق الرؤوس . . والأمر مطروح لكل من لديه معلومة تضيء الطريق . . ولا نريد أن نخلق هذه النقطة دون أن نشير إلى أنه في ١٥ أغسطس ١٩٥٢ وجدت جثة الدكتور سميرة موسى « تلميذة الدكتور مشرفة » داخل سيارتها ولم تزل الشكوك القوية تحوم حول أصابع الصهيونية ، فهل يمكن توجيه الاتهام إلى الصهيونية باغتيال أستاذ جيل مصرى من العلماء « جمال الفندى وأحمد حماد وعبد المعبود الجببلى وعبد العظيم أنيس » ؟ ولم لا ، سيما أن نفوذ اليهود في مصر كان واضحا ؟ فلماذا لا تكون هذه العناصر في مصر قد استغلت ما هو معروف عن كراهية القصر للدكتور على مصطفى مشرفة وأجهزت على حياته وهو في الثانية والخمسين من عمره . ؟ « ولد في دمياط في ١١ يوليو ١٨٩٨ م » . الأمر كله لم يزل مطروحا ، وصفحات تاريخ مصر الحديث لم تزل مفتوحة ، وإن كانت الأدلة حتى الآن ضعيفة .

مشروع القرش

حصل مشرفة مع دبلوم مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١٧م وسافر إلى إنجلترا في بعثة للحصول على بكالوريوس الرياضة وقامت الثورة الشعبية الكبرى في مارس ١٩١٩ ورغب في العودة من إنجلترا للمشاركة في الثورة ، ولكنه بقى ليحصل على بكالوريوس الرياضة سنة ١٩٢٠ ، وعرف في إنجلترا بنشاطه الوطني بين المصريين لتأييد الحركة الوطنية في مصر .

وفي مصر يبدو أنه مال إلى النشاط الاجتماعي دون النشاط السياسي ، فالتقى بثلاميذه وزملائه وأصدقائه في بيته يتحدثهم عن الحياة الجامعية وكيف تكون . وامتدت علاقاته إلى الطلاب أبناء الدول العربية والأفريقية . عرف بالحيدة والموضوعية والإنسانية في سلوكه وتعامله مع الناس ، وحب الحرية وإنحيازه للديمقراطية وحبه لوطنه إلى أبعد الحدود .

وقد أسهم الدكتور على مصطفى مشرفة بدور مهم في « مشروع القرش » . وكان أحمد حسين قد لجأ إلى نشر فكرة المشروع في أواخر عام ١٩٣١ في أوساط الطلبة بالجامعة والمدارس العليا وعلى صفحات الصحف ، ومع بداية العام الجامعي تولى عميد كلية الطب في ذلك الوقت الدكتور على إبراهيم باشا ومدير الجامعة فيما بعد ، تولى رئاسة اللجنة التنفيذية للمشروع . وكانت اللجنة قد اتخذت من نادى الجامعة بميدان الأوبرا مقرا لها ، وقد ضمت كلا من الدكتور على إبراهيم رئيسا ، والدكتور عبد الله العربى ، والدكتور على حسن وكيلين ، والدكاترة مصطفى مشرفة ، وعبد الرازق السنهورى ، وعلى بدوى وزكى عبد المتعال والأستاذ أمين الخولى مراقبين ، وعضوية كل من . . نعيمة الأيوبى وكمال الدين صلاح وعبد الخالق فريد ، وأحمد حسين وفتحى رضوان ،

وعبد القادر عودة ، ومنير القاياتى ، وعبد الرحمن الصدر ، ونور الدين طراف ، وحناء مرقص ، ويحيى العلابى ومصطفى الوكيل ، ومصطفى ملوك ، وإبراهيم عبده ، ومحمد زكى ، ومدحت عاصم ، وصالح عوضين ، وحسين حافظ وأمانة الصندوق أسندت إلى داود راتب وأعمال السكرتارية ، أسندت إلى كل من أحمد حسين ، وفتحى رضوان ، ومدحت عاصم .

وقد حرصنا على تسجيل جميع الأسماء التى عمل معها مشرفة فى ذلك المشروع فى يناير ١٩٣٢ وقد تم تحديد أول فبراير ١٩٣٢ لبدء الاكتتاب للمشروع . ثم استقال أحمد حسين من سكرتارية المشروع وحل محله كمال الدين صلاح وذلك بعد إعلان قيام « جماعة مصر الفتاة » فى أكتوبر ١٩٣٣ . ولكن وثائق مشروع القرش ووثائق جماعة مصر الفتاة لم تدلنا على انضمام مشرفة إلى جماعة مصر الفتاة .

الطفولة والتحدى

الذين يعرفون أسرة مشرفة فى مدينة دمياط يقولون : إن على مصطفى مشرفة ولد كبيراً ولم يولد طفلاً . ويقصدون أنه لم يلعب مثلما لعب أقرانه من الأطفال ، وكان يريد أن يكون دائماً فى أول الصف . ولد فى ١١ يوليو سنة ١٨٩٨ م ، وسنة ١٩٠٧ م داهمت الأسرة أزمة مالية أودت بكل ما تمتلكه ، وقبل أن يؤدى الصبى مشرفة امتحان الشهادة الابتدائية « ١٩١٠ » بشهور توفى والده وبعد أن حصل على الشهادة الابتدائية انتقلت الأسرة إلى القاهرة ولكن مشرفة التحق بمدرسة ثانوية بالإسكندرية بالمجان ثم انتقل إلى القاهرة حتى حصل على البكالوريا سنة ١٩١٤ م وتوفيت والدته قبل الامتحان بشهرين . والتحق بمدرسة المعلمين العليا ، وسافر فى بعثة إلى إنجلترا وحصل على البكالوريوس فى الرياضة سنة ١٩٢٠ . وبقي فى إنجلترا وحصل على الدكتوراه فى فلسفة العلوم سنة ١٩٢٣ ، وأصبح عضواً فى الجمعية الملكية البريطانية . ودفعه التحدى الكامن داخله منذ معاناة الطفولة ورحيل الأب والأم والمأساة الاقتصادية ، إلى محاولة أن يثبت وجوده ، فأخذ ينشر بحوثه العلمية فى المجلات المتخصصة ، وأصبح من فريق المحاضرين فى الجمعية الملكية البريطانية . وبعد أن عاد إلى مصر كان اهتمامه أن يعود إلى إنجلترا ليحصل على الدكتوراه فى العلوم ووفقه الله إلى ما أراد ، وسافر مرة ثانية واجتاز الامتحان فى يناير ١٩٢٤ ، وعاد إلى مصر فى فبراير يحمل الدكتوراه فى العلوم . وأصبح الدكتور على مصطفى مشرفة العالم الحادى عشر فى العالم الذى يحصل على الدكتوراه فى العلوم ، وأول مصرى يحصل عليها .

وحاربه الانجليز ورفض طلبه فى وظيفة أستاذ لعلم الطبيعة فى مدرسة الطب . وعينه أحمد لطفى السيد مدير الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ أستاذاً مساعداً فى كلية العلوم . ولكن مشرفة كان

يرى أنه أحق بوظيفة أستاذ ، فلجأ إلى أحد أعضاء مجلس النواب الوفديين وكان سعد زغلول رئيسا للمجلس ، فأثير الموضوع وأصدر على ماهر وزير المعارف قرارا بتعيين الدكتور مشرفة أستاذا للرياضة التطبيقية في كلية العلوم سنة ١٩٢٦ ، وكان بذلك أول مصري في هذا المنصب . كان الطريق مليئا بالأشواك ، وكان هو نموذجا للإصرار والتحدى ، واختير في أكتوبر ١٩٣٠ وكيلا لكلية العلوم حتى عام ١٩٣٦ وهو العام الذي اختارته فيه حكومة الوفد عميدا ، رغم أنه لم يكن الحائز على أكثر الأصوات ولكنه كان أقدم الأساتذة في كلية العلوم ، وأصبح بذلك أول عميد مصري لكلية العلوم .

أعلام الترجمة

وإذا كان الدكتور على مصطفى مشرفة في مكان الريادة العلمية ، فإنه كذلك علم من أعلام الترجمة في مصر في القرن العشرين وذلك إلى جانب أحمد فتحى زغلول وأحمد لطفى السيد وطه حسين وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى ومحمد بدران وزكى نجيب محمود ومحمد عوض محمد وعبد الوهاب عزام ومحمد حسين هيكل وأحمد الصاوى محمد ومحمد مندور ولويس عوض وغيرهم ، وكان صديقا لأحمد لطفى السيد والدكتور طه حسين ، وقد اشترك مع الدكتور طه وآخرين في كتاب «الحياة والحركة الفكرية في بريطانيا» .

وقد أسهم مشرفة في الحركة الفكرية المصرية بريادته في تخصصه وبيحوثه واكتشافاته ، وبتأسيسه للجمعيات المتخصصة ومشاركته في مجمع الثقافة العلمية ، ومراكز البحوث . حتى الموسيقى أسهم في إثرائها بتأسيس « الجمعية الموسيقية » بالاشتراك مع محمود الحفنى ، « وأبو بكر خيرت ، ووديع فرج ، وتولت لجنة من هذه الجمعية ترجمة الأوبرات العالمية إلى اللغة العربية .

وقد اهتم مشرفة بالتأليف العلمى والترجمة العلمية ، فأنشأ قسما للترجمة العلمية في كلية العلوم لترجمة الكتب العلمية العالمية إلى اللغة العربية ، وقد وضع مشرفة عام ١٩٣٨ « القاموس العلمى » بالاشتراك مع محمد عاطف البرقوقى . وكان يرى جواز استعمال المصطلح الأجنبى في اللغة العربية بعد تعديله على نحو يتفق وأوزان اللغة شريطة أن يكون مستخدما في جميع اللغات العلمية الأخرى أو في غالبيتها . أما إذا كان المصطلح الأجنبى مقصورا على لغة أجنبية أو اثنتين ، فمن الضروري أن يكون عندنا لفظ عربى . وكان على مقدرة في أن يترجم الأفكار العلمية إلى صياغة أدبية رفيعة ، وكان ماهرا في اختيار اللفظ وانتقاء العبارة .

وعنى بتقريب العلم للناس وتجد هذا في كتبه « مطالعات علمية ، والعلم والحياة ، ونحن والعلم ، والذرة والقنابل الذرية » . وقد اختاره مجمع اللغة العربية خبيرا للجنة المصطلحات العلمية مع مصطفى نظيف ومحمود توفيق حفناوى ، وأحمد زكى .

وقد حرصت الصحف الخاصة والصحف الحزبية أن تستكتب مشرفة لجاذبية مادته وإشراق عبارته وحدائه فكرته . وكتب للأهرام والجديد والمقتطف والجهاد .

حدثني تلميذه (١٩٣١ - ١٩٣٥) العالم المعروف الدكتور جمال الدين الفندى عن شخصية الدكتور مشرفة الفذة . . قال في امتحان البكالوريوس طلب اختيار ٧ أسئلة من ٩ ، فأجاب الفندى على الأسئلة التسعة فمنحه ١١٧ درجة من ١٠٠ ونشر له صورته في الصفحة الأولى بجريدة الأهرام . . وهكذا الإنسان مع الذين تتلمذوا على يديه . .

عود على بدء

ونعود إلى سطورنا الأولى . . احتمال مقتل مشرفة ، إن لم يكن من القصر فلم لا يكون من جهة أجنبية نكره لمصر أن تسير على طريق العلم ، وتكره للعرب أن يكون العلم طريقهم ؟ لا أريد أن أدخل في تعقيدات علمية ، ويكفى أن أقول إنه سنة ١٩٢٩ نشر « مشرفة » في الدوريات العالمية بحوثاً ، توجهها ببحث خطير سنة ١٩٣٢ ، أعقبه ببحث آخر سنة ١٩٤٢ ، وبحوث في سنوات ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ ، ١٩٤٨ تتصل اتصالاً وثيقاً بنتائج مهمة في العلوم الذرية والنوية ، ثم انتقل إلى الجانب التطبيقي فدعا إلى البحث عن اليورانيوم في الصحراء الشرقية . وظل ينادى بضرورة عناية الدول العربية بالعلم ، وإقامة الندوات العلمية بين الدول العربية .

وأهم التوجهات لديه هو اعتقاده بأن العلم هو السبيل إلى التقدم وإلى حل المشكلات . ومن أجل هذا حرص على أن يتحرك جيل من العلماء يكملون المسيرة من بعده . ولكن العدو لم يكن غافلاً عن هذه الحقيقة ، فخلال عقد أو عقدين من رحيل مشرفة مات من مات وقتل من قتل من تلاميذه علماء مصر . وقد ركزوا جميعاً على الاهتمام المصرى بالذرة وخاصة أن اليورانيوم موجود في الصحارى المصرية . ومصر على رأس عدد كبير من الدول العربية والإسلامية . لقد رحل العالم الكبير ، ورحل عدد من تلاميذه وترك لنا حسباً سجله الدكتور محمد الجوادى في كتابه عنه « الدكتور مشرفة بين الذرة والذروة » ترك مشرفة خمسة كتب له وأربعة كتب بالاشتراك مع أساتذة آخرين ، وستة كتب دراسية بالمشاركة و ٥٣ مقالا ، و ٢٠ حديثاً إذاعياً وصحفياً ، و ٢٥ بحثاً علمياً باللغات الأجنبية نشرت في دوريات أجنبية . . رحم الله الدكتور مشرفة .

الأسانيد :

- ١- أحمد عصام الدين . . حركة الترجمة في مصر .
- ٢- د . جمال الدين الفندى . . حديث شخصى ١١/٧/١٩٨٨ .
- ٣- د . على شلبى . . مصر الفتاة (ودورها في السياسة المصرية) .
- ٤- د . على مصطفى مشرفة . . العلم والحياة .
- ٥- د . محمد محمد الجوادى . . مشرفة بين الذرة والذروة .

عمر لطفى



اثنان في تاريخنا الحديث ، يحمل كل منهما اسم « عمر لطفى » وأحيانا يحدث الخلط بينهما ويظن البعض أنهما شخص واحد الأول دبر مذبحة الإسكندرية في يونيو ١٨٨٢ تمهيدا للاحتلال البريطاني . ونظير هذا عينه « الخديو توفيق » ناظرا للجهادية والبحرية . والثاني رأى الأزمة تطحن الفقراء في بلاده فنأدى بالتعاون وبدأ بتأسيس النقابات الزراعية التعاونية .

نبدأ بعمر لطفى الوزير وننتهى منه في فقرة أو فقرتين ونترك المقال بأسره بعد ذلك لرائد الحركة التعاونية في مصر « عمر لطفى » طيب الله ثراه .

« السيد الوزير عمر لطفى » كان محافظا للإسكندرية أيام المد العرابى ، وكان « الزعيم أحمد عرابى » ناظرا للجهادية والبحرية ، وتعهد « عرابى » بمسئوليته عن حفظ الأمن في بر مصر وأوعز « الخديو توفيق » إلى « عمر لطفى محافظ الإسكندرية » أن يدبر لأحداث الشغب والفوضى خصوصا بين الجاليات الأوربية مما يؤدى إلى التدخل الأوربى ، وإخراج « أحمد عرابى » .

تقول المصادر التاريخية الموثوق بها إن « الأمير حيدر باشا » ابن عم الخديو توفيق حمل هذه الخطة إلى « عمر لطفى » في الإسكندرية الذى جاء بنفسه إلى القاهرة في ٩ يونيو ١٨٨٢ في الساعة الثانية عشرة ظهرا حدثت مشاجرة فردية بين رجل مالطى من أتباع انجلترا ، وبين (مكارى) مصرى بسبب خلاف على أجر مشوار . . أى خلاف على ملايم بعملة ذلك الزمان ، طعن المالطى التابع لانجلترا المصرى الغلبان بسكين وتجمع الناس وتدخل جاويز مصرى من قسم اللبان ليقبض على المالطى المعتدى ، وقيل إن « السيد قنديل » مأمور الضبطية في حى اللبان بالإسكندرية كان على علم بالمؤامرة فتجاهل الموقف ولم يتدخل واشتعل الموقف وحدثت حرائق وسقط عدد من الضحايا وقيل أيضا إن « عمر المحافظ أشار على رجال البوليس بعدم التدخل

وحرص الناس على الاشتراك في المذبحة ، وانه أحضر إلى الإسكندرية عددا من البدو الأجراء نزلوا ينيهون ويحرقون . . وطلب انزال عساكر انجلترا إلى الميناء لعجز عرابي عن ضمان الأمن ، المهم أن قوات « عرابي » نزلت إلى الشوارع وسيطرت على الموقف ولكن بعد الحرائق وبعد المذابح وبعد أن أذاع الخديو والمحافظ أن عرابي لا يستطيع حماية الأمن في البلاد . ويروي « الشيخ محمد عبده » أن اشاعات كثيرة راجت تتهم العرابيين وخاصة « عبد الله النعيم » بإثارة الخواطر مما أدى لهذه المذبحة .

ولكن التحليل التاريخي يرى عرابي والنديم من هذه المذبحة . وتشير الأدلة القوية إلى « الخديو والمحافظ » ففي ٢٠ يونيو أصدر « الخديو توفيق » أمرا بخلع « أحمد عرابي » من منصب ناظر الجهادية والبحرية . وفي ١١ يولييه ١٨٨٢ ضرب الأسطول البريطاني مدينة الاسكندرية بالمدافع ونزلت القوات الانجليزية وصدر الأمر العالي في ٢٥ يولييه ١٨٨٢ بتعيين (سعادة عمر لطفى باشا) ناظرا للجهادية والبحرية . وكان « عمر هذا » وزيرا مرتين . . المرة الأولى في وزارة إسماعيل راغب باشا التي ظلت من (١٧ يونيه ١٨٨٢ - ٣١ أغسطس ١٨٨٢) ودخلها « عمر » في ٢٥ يولييه كما أسلفنا المرة الثانية في وزارة « شريف باشا » (٢١ أغسطس ١٨٨٢ - ١٠ يناير ١٨٨٤) . واضح إن « عمر المحافظ كوفي على المؤامرة مرتين بتولى منصب الناظر أو (الوزير) بلغة أيامنا الحالية . ورجاء إذن إلى القراء ، وإلى الدارسين أن يفرقوا بين « عمر لطفى السكندري » و« عمر لطفى التعاوني » ونترك الأول في مزبلة التاريخ ونأتى إلى الثاني لإلقاء الأضواء عليه .

العقد الأسود

كان العقد الأول لسنواته العشر الأولى في القرن العشرين من أسود السنوات التي مرت بمصر من الناحية الاقتصادية . ولم يكن هناك نظام صالح للتسليف يقترض منه الفلاح ما يحتاج إليه بطريقة تبعده عن مهاوى الفقر والفاقة كان المرابون الأجانب يغتنمون الفرصة ويقرضون الفلاح بالفوائد الباهظة التي تثقل كاهله . وفي شهرى أكتوبر ونوفمبر من كل عام تهبط أسعار القطن هبوطا ملحوظا في الوقت الذي ترتفع فيه أسعار الحبوب لحاجة الفلاحين والسكان إليها بعد أن كان الفلاحون قد باعوا هذه الحبوب من قبل بأسعار منخفضة . . حركة دورية رهيبه لبيع الفلاح محاصيل الحبوب بسعر منخفض ليعود إلى شرائها بسعر مرتفع ، وإلى شراء المنسوجات القطنية الواردة إليه من الخارج بالأسعار التي يطرحها الأجانب .

هبط المحصول الزراعى وأوشكت البلاد على المجاعة ، على الرغم من أن الاحتلال كان قد حول مصر إلى مزرعة لبريطانيا . . وأصبح الفلاح في الصعيد لا يكاد يجد الذرة وأصبح الفلاح في

الوجه البحرى لا يكاد يجد الأرز . . رغم انخفاض سعر الذرة وسعر الأرز فلم يكن فى جيوب الفلاحين المصريين شىء بعد أن نظفها جباة الضرائب أولا بأول . وزاد الطين بلة انتشار الطاعون فى الماشية وفى النفس على السواء . والذين فى مثل أعمارنا سمعوا من أجدادهم عبارة (سنة الشوطة) ويقصدون بها تلك الأيام السود التى حصدت آباءهم وحصدت مواشيهم لتفشى مرض الطاعون .

وفى أواسط ذلك العقد كان سكان مصر حوالى ١١ مليون نسمة منهم حوالى ٥٥ مليون نسمة عاطلون أو مجهولو الصفة ! ، ومنهم حوالى ٢٥ مليون نسمة يعملون فى الخدمات المنزلية وما يماثلها وحوالى ٢٥ مليون نسمة يعملون بالزراعة أى حوالى ١٠٥ مليون نسمة كانوا يعيشون تحت خط الفقر . . والنصف مليون الباقى موزع بين كبار ملاك الأرض والفئات المتوسطة ومستخدمى الحكومة بمختلف درجاتهم والتجارة وعدد من الصناعات والحرف الأخرى .

هل هناك أبلغ من هذه الأرقام دلالة على سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والفلاحون أكثر الفئات تعاسة وذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أن الفدان الواحد كانت عليه ديون ٢٥ جنيها فى العام بفائدة قدرها ٥٪ شهريا أى ٦٠٪ سنويا وهذه الفوائد تصل إلى ١٥ جنيها . أى إن الفدان كان عملا بدين يبلغ ٤٠ جنيها فى السنة (مع مراعاة القيمة فى ذلك الوقت) .

سنوات التحدى

ولإزاء هذه الظروف القاسية واجه أبناء مصر هذه الأوضاع بالتحدى والتصميم على الخروج بالبلاد من هذه المأساة التى أوقعهم فيها الإنجليز والخبديو وبعض كبار الملاك المرتبطة مصالحهم بالإنجليز والخبديو .

ولكن لم يكن كل كبار الملاك هكذا كانت شريحة عريضة منهم اتجهت إلى تعليم أبنائهم فى أوروبا وهؤلاء عادوا بأفكار جديدة وكان من أبنائهم الموظفون وكبار الموظفين بل إن « محمد فريد » يقول فى مذكراته عن فترة باكرا قبل مطلع القرن العشرين : « فى يوم ٢٣ فبراير ١٨٩٣ اشيع أن جماعة من ذوات مصر شرعوا فى إنشاء شركة زراعية رأسها ٢٥٠ ألف جنيه لشراء أراضى الدائرة السنية واستغلالها وجعلها شركة مساهمة قيمة كل سهم عشرة جنيهات » من أبناء الذوات خرج قادة هذه الأيام .

كما إن الاضرابات انتشرت سنة ١٩٠٦ (عام دنشواى) بين الطلاب وهم يعبرون عن سخطهم على الاحتلال وعلى الظروف الاقتصادية السيئة التى تمر بها البلاد . وانتشرت الجمعيات

السرية لاغتيال الانجليز أو العناصر المصرية التي تكشف عن تعاونها مع الانجليز ووقف «الشيخ محمد عبده» خلف إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية .

ولم تكن مصادفة إذن أن يقف « مصطفى كامل » في مسرح زيزينيا بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ يعلن الحزب الوطنى رسميا (وهو موجود فعلا) ويتحدث عن الفلاحين بقوله (الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو معتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له فاسمى عمل نقوم به . . هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وأعلاء مكانته فهو ممثل النشاط المصرى ومصدر كل خير ونعيم) . وهنا تبدو أهمية ثورة ١٩١٩ التى جذبت الفئات الشعبية إليها .

وفى السنة ذاتها تصدر (الجريدة) برئاسة « أحمد لطفى السيد » ويقوم حزب الأمة ليدعو لشعار (مصر للمصريين) لخلاصها من الدولة العلية والدولة المحتلة وفى المقابل ينشط « الشيخ على يوسف » فى حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية وتقوى الدعوة إلى إنشاء بنك للأمة ، تلك الدعوة التى كللت بالنجاح على يدى « محمد طلعت حرب » وبعدها بسنوات قام (بنك مصر) فى مايو ١٩٢٠ .

وانتشرت الإضرابات المتفرقة بين عمال خزان أسوان ، وعمال التريزة وعمال شركة الغزل الأهلية بالإسكندرية وعمال المطابع وعمال النظافة وعمال السكة الحديد وعمال الفحم فى ميناء بورسعيد .

وفى ديسمبر ١٩٠٥ يتأسس نادى المدارس العليا ويتم اختيار « عمر لطفى » أول رئيس له ويحاضر « عمر لطفى » ويتحدث ويتصل بالأصدقاء داعيا إلى (التعاون) .

لماذا التعاون ؟

المرابون الأفراد وخاصة الأجانب منهم كانوا البداية فى محاولة الفلاح المصرى الخروج مؤقتا من أزيمته وإن كان هذا الأسلوب قد جر عليه كثيرا من الويلات . وظل هذا مصدر التسليف الوحيد للفلاح إلى أن فتحت مصر أبوابها لرؤوس الأموال الأجنبية ، فنشأ مصدر آخر للتسليف ، وهو البنوك التى أنشئت برءوس أموال أجنبية وخاصة بنوك الرهونات الأجنبية وهى فى مصر البنك العقارى والبنك الزراعى وصندوق الرهونات وغيرها .

والفلاح المصرى منذ سنوات طويلة جدا وهو يستخدم الخبرة المتوارثة فى استغلال الثروة الزراعية دون أن تكون أمامه معلومات أو خبرات جديدة واعتباد البلاد على رؤوس الأموال الأجنبية وخاصة فى الزراعة ، وقد بلغت نسبة الأموال الأجنبية المستثمرة فى الزراعة ٦٢٪ من مجموع رؤوس الأموال الأجنبية فى مصر ، وهذا وحده يشكل خطرا على اقتصاد البلاد .

وكما قال « عمر لطفى » محاضرة له بالإسكندرية : (إن تسرب الأموال الأجنبية إلى مصر في أيام الرخاء قد غير الناس وملأهم بالغرور فاعتمدوا على هذه الأموال واندفعوا في تيار المضاربات ولكن من يوم أن أصيبت البلاد بالأزمة المالية انصرفت الأفكار إلى البحث في إصلاح نظام التسليف في مصر وجعله نظاما قوميا محضا قائما على بنوك وطنية تجمع أموالها من أبناء البلاد) .

وإذا كان الحزب الوطنى لم يهتم كثيرا بالجانب الاقتصادى وركز على الجانب السياسى وشعارات الجلاء ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء إلا أن « محمد فريد » بدافع من ثقافته الذاتية شجع الاتجاهات الجديدة وبدأت تتردد بعض الكتابات عن (التعاونية) بل إن « محمد فريد » وتلميذه « عبد الرحمن الرافعى » وهو في الوقت ذاته تلميذ لـ « عمر لطفى » أسهما بجهودهما في النشاط التعاونى منذ ١٩٠٨ ، وعملا إلى جانب جهود « عمر لطفى » على انتشار الجمعيات الزراعية بالقرى وشركات التعاون المنزلية بالمدن .

وكان « عمر لطفى » يؤمن بأن النظام التعاونى هو الطريق الوحيد للخلاص من التعماسة التى فرضها المستغلون . وقال « عمر لطفى » : (إن الزراعة المصرية مصابة بآفات منها نقص المحصول ودودة القطن ، وعدم جودة تيلة القطن ، وعدم وجود المصارف الكافية في بعض الجهات . والفلاح مصاب بكثرة الديون والاقتراض بالفوائد الفاحشة ، والاضطرار دوما إلى بيع المحصولات قبل أوانها بأثمان بخسة ولا يوجد علاج لهذه الأمراض المتعددة إلا بإيجاد النقابات الزراعية) .

النقابات والجمعيات الزراعية

نحن هنا نفرق بين النقابات العمالية والنقابات الزراعية والجمعيات الزراعية التعاونية من حيث طبيعة العمل، ومن حيث الوظيفة ومن حيث الأسلوب . ولكننا أشرنا إلى عدد من الإضرابات العمالية في العقد الأول من القرن العشرين كدلالة على وجود تنظيمات ولو في أشكالها الأولى تنظيمات عمالية تسعى لأهداف اقتصادية . بل إننا نجد إشارات لهذه الإضرابات سابقة على مطلع القرن العشرين يسجل « محمد فريد » في مذكراته عن أحداث أبريل ١٨٩٤ (وردت تلغرافات من بورسعيد تفيد اعتصام عمال نقل القمح لزيادة الأجرة) .

ونجد بدايات واضحة لجمعيات عمالية مثل جمعية لفافى السجائر بالقاهرة في عام ١٨٩٩ واستمرت قائمة حتى عام ١٩٠١ . وجمعية اتحاد الخياطين بالقاهرة عام ١٩٠١ وتأسست في نفس السنة جمعية الحلاقين وجمعية عمال المطابع وسنة ١٩٠٢ تأسست جمعيات عمال الأدوات المنزلية وعمال السجائر بالإسكندرية وكتبة المحامين بالقاهرة ، وقد أيد الحزب الوطنى وجريدة اللواء في مطالبهم وفي تشكيل جمعياتهم بل إن الحزب الوطنى شكل نقابة للصناعات اليدوية في مطلع عام ١٩٠٨ .

وانتشرت فكرة تأسيس النقابات من القاهرة إلى الأقاليم فأنشئت نقابات بالإسكندرية والمنصورة وطنطا بفضل جهود « محمد فريد » الذى دعا إلى (العناية بنقابات العمال وبث مبدأ التضامن بينهم والدفاع عن حقوقهم واستصدار القوانين التى تضمن لهم عدم التكلف عند الشيخوخة أو عقب الإصابة بما يمنعهم عن الكسب) .

وفى جانب آخر كانت دعوة « عمر بك لطفى » الذى أسس عدة نقابات زراعية كانت أولها النقابة الزراعية التى قام بها « سليمان أفندى زكى العبد » عمدة شبرا النملة بإرشاد « عمر بك لطفى » فى ٢٥ أبريل ١٩١٠ ، ثم نقابة (ستمى) فى محافظة الدقهلية فى ١١ نوفمبر ١٩١٠ . وأمام العراقيل التى وضعت أمامه لجأ « عمر لطفى » إلى شكل (الشركات المدنية) ومن عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٠ نجح بالفعل فى تأسيس أول شركة تعاونية وهى شركة التعاون المالى والتجارى بالقاهرة فى ٣٠ ديسمبر ١٩٠٩ وصدر بها الأمر العالى فى ٢٧ يناير ١٩١٠ .

وقد رأى « عمر لطفى » أن الجمعيات الخيرية ليس فى مقدورها مساعدة الفلاحين والعناية بتربية أولادهم . ومعاونتهم فى مهنتهم الرئيسية فلا بد إذن من أسلوب جديد هو (التعاون) الذى يقوم على تسخير قوة المجتمع لمصلحة الفرد وتسخير قوة الفرد لمصلحة الجماعة فيتبادل كلاهما المساعدة والمنفعة وعلى هذه القاعدة كان « عمر لطفى » ينشر مبادئ التعاون .

الرجل والمبادئ

فى عام ١٨٦٧ كان مولده وتخرج فى مدرسة الحقوق الخديوية حوالى ١٨٩٠ وعمل مدرسا بها فوكيلا لها . وفى ٨ ديسمبر ١٩٠٥ كان أول رئيس لنادى المدارس العليا واتصل بمصطفى كامل ومحمد فريد وكان من تأثير تدريسه فى (مدرسة الحقوق الخديوية) أن أصدر كتابا عن (حق الدفاع) وكتابا عن (حق المرأة) وكتابا صغيرا عن (الامتيازات الأجنبية) واشتغل بتدريس القانون الجنائى فى الجامعة المصرية . وفى سنواته الأخيرة اتصل بسعد زغلول .

اهتم فى محاضراته بنادى المدارس العليا بالدعوة إلى (التعاون) وضرورة الاهتمام بتأسيس الجمعيات الزراعية التعاونية . ووقف البعض فى وجه هذه الدعوة بزعم (أنها مارقة على الدين) وقام (نادى المدارس العليا) الذى تأسس سنة ١٩٠٥ بدور هام فى الحركة الوطنية وفى النهضة الحديثة على السواء . . منه تحرك الشعور الوطنى الذى آزر « مصطفى كامل » ومنه خرجت فكرة جمعية رعاية الأطفال ومنه بدأ مشروع (مدارس الشعب الليلية) وبداخله دارت المناقشات حول (الجامعة الأهلية) ومنه أيضا بدأ « عمر لطفى » الدعوة إلى (مشروع النقابات الزراعية التعاونية) .

سافر « عمر لطفى » فى صيف ١٩٠٨ إلى إيطاليا لدراسة الحركة التعاونية وهناك التقى بقيادة ومفكرى (التعاون) وفى مقدمتهم المفكر التعاونى « لوتزاتى » وعاد فى أواخر أكتوبر ١٩٠٨ ليبدأ حملة محاضرات ودعاية للتعاون وافتتح محاضرات نادى المدارس العليا لسنة (١٩٠٨ - ١٩٠٩) بمحاضرة ألقاها فور عودته يوم أول نوفمبر ١٩٠٨ عن نظام التسليف فى ألمانيا وإيطاليا والقواعد التى تسير عليها جمعيات التعاون فى البلدين واقترح أن تكون البداية فى مجال التعاون بنظام التسليف . ثم ألقى محاضرة فى نادى دمياط يوم ٥ يناير ١٩٠٩ ثم عرج على المنصورة وألقى محاضرة أخرى وبعدها توجه إلى الإسكندرية وألقى محاضرة فى ٢١ يناير سنة ١٩٠٩ وركز على (أن خير نظام يحسن إدخاله فى مصر هو نظام التسليف القائم على مبادئ التعاون لأن المسلمين يتسابقون إلى الاكتتاب بأموالهم فى مشروع يقوم على مبادئ الإخاء والتضامن وحب الخير والاحسان فليس الغرض من التسليف التعاونى استثمار المال بوساطة إقراضه للغير بالفائدة ولكن الغرض منه تسهيل الإقراض لأعضاء الجمعيات أنفسهم بفضل التوفير والتضامن ومن أسمى أغراضه تخصيص جزء من ربح الجمعيات للأعمال الخيرية والسعى فى إسعاد المتعاونين وإنقاذهم من الفقر ومذهبي الذبأدعو إليه الآن هو نشر مبادئ التعاون على التسليف فى المدن والقرى) .

الصوت والصدى

فى محاضرة ألقاها « الدكتور إبراهيم رشاد » فى مدرسة الخدمة الاجتماعية فى ١٧ مايو ١٩٣٨ ذكر أنه فى يناير سنة ١٩٠٩ شكلت اللجنة التنفيذية للجمعية الزراعية لجنة من المتخصصين من أعضائها « عمر لطفى » لدراسة النظم التعاونية وأشار تقرير هذه اللجنة إلى نوعين من النظم التعاونية .

١ - الجمعية الزراعية لشراء حاجيات الزرع وبيع المحاصيل .

٢ - صناديق التسليف لإقراض الفلاحين .

إلا أن الحكومة لم تنظر إلى هذا الاقتراح أو ذاك ثم اهتم « الأمير حسين كامل » الذى أصبح « السلطان حسين كامل » فيما بعد بموضوع التعاون . وشكلت لجنة برئاسته لوضع مشروع لقانون التعاون وردت الحكومة بمشروع قانون ملء بالعوائق وبعد ذلك شكلت لجنة جديدة برئاسة « سعد زغلول » كان لها ملاحظات على مشروع قانون الحكومة وتولت « لجنة سعد » وضع مشروع قانون جديد . غير أن الجمعية التشريعية رفضت مشروع لجنة سعد ووافقت على المشروع السابق للحكومة بما فيه من عوائق .

واستمر أنصار « عمر لطفى » فى الدعوة التعاونية فتعددت النقابات أو شركات التعاون المنزلى ونقابات العمال والصناع ، ولما كان من عوامل نمو الحركة التعاونية إنشاء النقابات العامة فقد سعى إلى انشاء نقابة عامة للتعاون المنزلى والزراعى ولكنه رحل فى ٤ نوفمبر ١٩١١ فاستمر أنصاره وأسسوا النقابة العامة فى أوائل سنة ١٩١٢ وذلك لتعمل على توحيد الجمعيات التعاونية بمصر وإعداد عناصر مدربة على العمل التعاونى . وإذا كانت الحركة التعاونية قد انتشرت ونمت فى أيامنا هذه فإن الفضل الأول يعود إلى الرائد الأول للتعاون فى مصر « عمر لطفى » والفضل الثانى يعود إلى أنصاره وتلاميذه الذين حملوا رسالة التعاون من بعده وسوف نشير هنا إلى اثنين من أنصاره وتلاميذه وهما .

١- أحمد بك لطفى .

٢- الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

أما الأول فهو « أحمد بك لطفى المحامى » وهو شقيق « عمر بك لطفى » وعندما كتب « عبد الرحمن الرافعى » كتابه (نقابات التعاون الزراعية) صدر فى ١٥ يونيه ١٩١٤ بمقدمة ضافية كتبها « أحمد بك لطفى المحامى » ومضى الاثنان فى مقدمة الداعين للحركة التعاونية وسارا على طريق الرائد الأول « عمر لطفى » . .

ويقول « عبد الرحمن الرافعى » إن حركتهم الاجتماعية بدأت بتأسيس (الجمعية الخيرية الإسلامية) . وينقسم الكتاب إلى قسمين الأول . . عن التعاون فى أوروبا والثانى . . عن التعاون فى مصر وإلى جانب « أحمد لطفى وعبد الرحمن الرافعى » سار معها أيضا « مصطفى الشويخى وعلى الشمسى » ولأمانة التاريخية فإن « محمد فريد » وهو فى الخارج كان يرفع جهود هذه المجموعة فأرسل فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٣ إلى عبد الرحمن الرافعى . . (إذا كان الخوف من رجال السلطة حدا بالكثيرين إلى عدم اظهار إحساسهم الوطنى ، فما يمنهم من صرف همهم إلى المشروعات الاقتصادية كالنقابات وشركات التعاون المنزلى والمالى وقد برهن ما أسس منها على نجاح عظيم وعلى استعداد الأمة للإقبال على مثل هذه المشروعات . هذا ميدان واسع للجميع فادخلوا فيه بهمة ونشاط . .) .

وفى ٢٣ يوليو سنة ١٩١٤ أرسل « محمد فريد » إلى « عبد الرحمن الرافعى » يهته على كتابه (نقابات التعاون الزراعية) يقول له (. . فقد وصلنى كتابكم فى تاريخ النقابات ومستقبلها فى مصر، وقرأته من أوله لآخره فألفيته أحسن كتاب أخرج للأمة المصرية فى هذا العام فشكرا على هذه الخدمة الوطنية التى لا تقدر . . والأمل الآن أن كل النقابات التى تؤسس تنشأ حرة بحيث يسقط قانون الحكومة من نفسه أو تضطر هى إلى تعديله) .

ويمضى الـركب

ويسير فرسان التعاون فى طريقهم ويعاونهم (محمد حسين هيكل وإبراهيم الطاهرى ، وحسين هلال ، وعبد الوهاب البرعى ، والدكتور إبراهيم الوكيل ، ومحمود نصير ، وعبد الفتاح نور ، ومحمود مرسى) وفى ٥ يونيه ١٩٤٣ عقد أول مؤتمر عام للتعاون ، واختيرت مدينة المنصورة باعتبارها من أوائل المدن الرئيسية التى أسهمت مبكرا سنة ١٩٠٨ فى إنشاء النقابات والجمعيات الزراعية . وحضر المؤتمر « عبد الرحمن الرافعى » تلميذ « عمر لطفى » على طريق التعاون . ورأس المؤتمر « فؤاد سراج الدين » الذى كان وزيرا للشئون الاجتماعية فى ذلك التاريخ والذى استصدر من حكومة الوفد فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٤ (قانون الجمعيات التعاونية) وقد ساعد هذا القانون على نشاط الحركة التعاونية وخاصة لظروف الحرب العالمية الثانية فهل كثير بعد هذا أن يقول أحمد شوقي فى رثاء عمر لطفى :

ففيك عرفت ارتجال الدموع ومثلك علمت ارتجال الدروع
ومثلك يرثى بآى الكتاب ومثلك يفدى بنصف البشر

الأسانيد :

- ١- إبراهيم رشاد . . مذكرات مجاهد تعاونى .
- ٢- د . رموف عباس . . الحركة العمالية فى مصر .
- ٣- عبد الرحمن الرافعى . . نقابات التعاون الزراعية .
- ٤- عبد العزيز مهنا . . التعاون الزراعى فى أوربا ومصر .
- ٥- يحيى أحمد . . أسماء لها يريق أخضر .

فتحي رضوان



امرأتان عظيمتان وراء هذا الرجل العظيم . . والدته امرأة مصرية بسيطة . . ابنة « على حمدى » فلاح مصرى أصيل من قرية (الخيس) الزقازيق شرقية ، تعهدته بعد أن ولد عام ١٩١١ فى قرية (المنير) قليوبية بما تتعهد به النساء أولادهن ، ثم تعهدته بجريدة (اللواء) لمصطفى كامل ، وبصور مصطفى كامل ، وبإعجابها الشديد بمصطفى كامل وبالحزب الوطنى ، والثانية زوجته السيدة الفاضلة الصابرة ابنة القاضى الشرعى وشقيقة المناضل « كمال الدين صلاح » الذى اغتيل فى الصومال فى أبريل ١٩٥٧ وزميل « سيد فتحي رضوان » و« أحمد حسين » و« حافظ محمود » و« ابراهيم شكرى » فى مشروع القرش ، وجريدة الصرخة ، وجمعية مصر الفتاة بعد ذلك .

اسمه الأصل « سيد فتحي رضوان عثمان » وعلى عادة التسمية بأسماء مركبة كان اسمه وحده « سيد فتحي » وهكذا نجده فى لجان مشروع القرش والمشروعات الأولى . ثم ترك كلمة « سيد » واكتفى بأن يكون مشهورا باسم « فتحي رضوان » وبهذه المناسبة ليس هو « أحمد فتحي رضوان » الدبلوماسى المصرى الذى عمل فى الأردن أيام ولاية « عبد الكريم قاسم » على العراق ، وهو جرم الدبلوماسى « أحمد فتحي رضوان » على اعتبار أنه « فتحي رضوان » وزير جمال عبد الناصر ، وأحد قادة مصر الفتاة القدامى . وكنا فى مخابثنا ، أثناء مطاردة عبد الناصر لنا ولغيرنا نبتمس لهذا اللبس . وقد غطى اسم المناضل « فتحي رضوان » على اسم الدبلوماسى « أحمد فتحي رضوان » إلى حد أن مجلة أسبوعية مصورة فى الفترة الأخيرة وهى تستعيد ذكريات من الماضى أوردت بيانات خاصة بالدبلوماسى « أحمد فتحي رضوان » ووضعت صورة « فتحي رضوان » على اعتبار أن البيانات القديمة له . وأعتقد أن الدبلوماسى « أحمد فتحي رضوان » قد وقعت له مواقف طريفة من هذا الازدواج فى الاسم مع الوطنى الراحل « فتحي رضوان ».

والده « رضوان عثمان » مهندس الري كان كثير التنقل . . في أسبوط تعرف التلميذ « سيد فتحى رضوان » بالتلميذ « عبد المنعم عبد الرؤوف » وهو فيما بعد الضابط الذى حاصر قصر رأس التين ، وانتهى الحصار بإبعاد الملك فاروق عن البلاد في ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، وانتهى الأمر بالحكم بالإعدام على « عبد المنعم عبد الرؤوف » .

وفي بنى سويف التقى « سيد فتحى رضوان » بالتلميذ « مصطفى الوكيل » وهو فيما بعد أحد قادة (مصر الفتاة) . وفي القاهرة يعود الطالب « سيد فتحى رضوان » ليلتقى بالطلاب « أحمد حسين وإبراهيم شكرى وحافظ محمود وكمال الدين صلاح ومصطفى الوكيل » وتبدأ المسيرة التى انتهت في ٢ أكتوبر ١٩٨٨ إلى جوار مصطفى كامل ومحمد فريد .

الفرسان الثلاثة

وكان هناك لقاء باكر بين « فتحى رضوان » و« أحمد حسين » قبل اللقاء في دراسة الحقوق ، هو لقاء في مرحلة الدراسة الابتدائية بالقاهرة ، وفي السنة الثالثة الابتدائية وعمر كل منهما حوالى ١٢ سنة أعلننا عن تكوين (جمعية نصر الدين الإسلامى) لنشر تعاليم الدين ، وأعدنا منشورات تعبر عن هذا الغرض . وفي مارس من عام ١٩٣٠ صدرت مجلة الصرخة وعلى صفحاتها دعا « أحمد حسين » إلى تكوين ميليشا فرعونية وإعادة مجد مصر التليد . وقد شارك في إصدارها « فتحى رضوان » ورأس تحريرها « حافظ محمود » الذى يقول في كتابه (أسرار الماضى) : - ما إن ظهرت الجريدة حتى اقتادونا نحن الثلاثة إلى السجن ورهن التحقيق . ونحن في محبسنا بسجن الاستئناف كاشفنا زميلنا أحمد حسين بعزمه على إنشاء الجمعية السياسية التى أسماها مصر الفتاة . وقد كان من رأى - الحديث لحافظ محمود - الاكتفاء بالجريدة إلى أن يجتمع لمبادئها رأى عام يلتف حولنا .

لكن أحمد كان عنده تصميم المؤمن بفكرته ، فقررت أن أعزل رياسة تحرير الصرخة . والذى يتأمل الفرسان الثلاثة « أحمد حسين وفتحى رضوان وحافظ محمود » يلمس أن الثلاثة كانت تجمعهم أنشطة مختلفة وإن كان كل واحد منهم يخطط لمجال يكون بارزا فيه ، ولذلك نجدهم يتقاربون ويتباعدون ولكن دون خلاف جارج . الثلاثة بهرتهم الدعوة إلى الفرعونية ، ولكننا نجد أن « أحمد حسين » عندما عاد « محمد محمود » ابن الصعيد ، وابن محمود باشا سليمان ، من لندن عام ١٩٢٩ وهو يحمل مشروع المعاهدة مع هندرسون ، دعا أحمد حسين المصريين لقبول المشروع وطلب من « محمد محمود » أن يعمل على إعادة مجد مصر ، أى إنه دخل العمل السياسى تحت شعار كبير هو الدعوة لإعادة مجد مصر . في حين أننا نجد « حافظ محمود » يرأس لجنة

تسمى (جماعة الشاب الحر أنصار المعاهدة) تعمل من خلال والحساب حزب الأحرار الدستوريين الذى ربط « حافظ محمود » نفسه به ويعجده السياسة التى تولى رئاسة تحريرها فترة ما . أما « فتحى رضوان » فإنه يرشح نفسه لعضوية اتحاد الطلاب على أساس برنامج إصلاحى محدد ولكنه لم ينجح ، فاعتنق فكرة عقد مؤتمر للطلبة الشرقيين بهدف توسيع دائرة الروابط بين العالم العربى والدول الشرقية . واقتنع بعض أساتذة الجامعة بهذه الفكرة أمثال : الدكاترة على إبراهيم ، وعلى مصطفى مشرفة ، وأحمد أمين ، وعبد الرزاق السنهورى . واتصل فتحى رضوان فى هذا المجال بطلاب تركيا واليابان والصين وجاوه وفلسطين والعراق والهند . ولكن الفكرة طويت والمساعى أحيطت .

وعندما تأسست جمعية (المصرى للمصرى) برياسة « سلامة موسى » عام ١٩٣٠ نتيجة لافكار سلامة موسى نفسه ومقالاته المتعددة أصبح « أحمد حسين » وكيلًا للجمعية ، واختير « حافظ محمود » سكرتيرًا لها . وأطاح « إسماعيل صدقى » بسلامة موسى واختير للجمعية تشكيل جديد . وفى العام نفسه كان « أحمد حسين » قد عاد من رحلته إلى باريس وعرض (مشروع القرش) على فتحى رضوان وكمال الدين صلاح فوافقا عليه . وشجعت (الأهرام) وبعض الصحف الأخرى الفكرة ، وتولى الدكتور « على إبراهيم » رئاسة المشروع . وتم تشكيل لجنة للمشروع نسجل هنا عناصرها للتاريخ : (الدكتور على إبراهيم رئيسًا والدكتور عبد الله العربى أستاذ الحقوق والدكتور على حسن أستاذ الطب وكيلين . والدكاترة على مصطفى مشرفة ، وعبد الرزاق السنهورى وعلى بدوى وزكى عبد المتعال وأمين الخولى مراقبين) . واختير كأعضاء كل من : (نعيمة الأيوبى ، كمال الدين صلاح ، عبد الخالق فريد ، سيد فتحى رضوان ، أحمد حسين ، عبد القادر عوده ، منير الغاياتى ، وعبد الرحمن الصدر ، ونور الدين طراف ، وحنا مرقص ، ويحيى العلايلى ، ومصطفى الوكيل ، ومصطفى ملوك ، وإبراهيم عبده ، ومحمد زكى ، ومدحت عاصم ، وصالح عوضين ، وحسين حافظ) ، وتولى « داود راتب » أمانة الصندوق ، وأسندت أعمال السكرتارية إلى كل من : (أحمد حسين ، وسيد فتحى رضوان ، ومدحت عاصم) والطريف أنه بعد قيام مصنع الطرايش نقلت جريدة مصر الناطقة أول صورة لإنتاج المصنع فى ديسمبر ١٩٣٣ . . وتظهر فيها السيدة « نعيمة الأيوبى » المحامية وهى تضع أول طربوش على رأس « سيد فتحى رضوان » .

مصر الفتاة

تحت شعار (الله . الوطن . الملك) ، ومن أجل (أن تصبح مصر فوق الجميع وتحالف الدول العربية وتزعم الإسلام) أعلن « أحمد حسين » فى ١٢ أكتوبر ١٩٣٣ (على جنود مصر الفتاة تقع

تبعة بعث المجد القديم) . ونشر برنامج (مصر الفتاة) في جريدة الصرخة في ٢١ أكتوبر ١٩٣٣ . وأصبح « فتحى رضوان » الرجل الثانى فى الجمعية ، إذ إنه تولى منصب السكرتير العام . وفى عام ١٩٣٥ شكلت (مصر الفتاة) القمصان الخضر ، ورد (الوفد) بتشكيل القمصان (الزرق) فى يناير ١٩٣٦ . ومع مطلع عام ١٩٣٧ ، بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ ، وفى اجتماع لمجلس الجهاد بالجمعية بدأ « أحمد حسين » قراءة قانون جديد لتحويل الجمعية إلى حزب سياسى ، فاقترح « فتحى رضوان » أن ينسخ هذا القانون ويوزع على أعضاء المجلس وأن تشكل لجنة خاصة لدراسته ، ولم يؤخذ باقتراح فتحى رضوان . وتم تحويل (جمعية مصر الفتاة) إلى (حزب مصر الفتاة) . وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ أطلق « عز الدين عبد القادر » أحد أعضاء (مجلس الجهاد) أربعة أعيرة نارية على سيارة « النحاس باشا » وتدهور الموقف بين الوفد ومصر الفتاة ، وسارع القصر بإقالة حكومة النحاس باشا فى ديسمبر ١٩٣٧ ، وشكل « محمد محمود » صديق مصر الفتاة الحكومة . وفى مايو ١٩٣٨ أعلن حزب مصر الفتاة تشكيل عدة مكاتب منها مكتب الشئون السياسية برياسة « فتحى رضوان » .

ومنذ أواخر عام ١٩٣٨ بدأ الاتجاه الإسلامى يظهر واضحا فى نشاط حزب مصر الفتاة . وبسبب إرهابات الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ أصبح التراخى واضحا فى نشاط الأحزاب بعامة . وبدأت عناصر مثقفة وقيادية تجمد نشاطها فى حزب مصر الفتاة وكان « فتحى رضوان » قد جمد نشاطه منذ عام ١٩٣٧ . وفى مارس ١٩٤٠ طرح « أحمد حسين » فكرة تحويل الحزب إلى (حزب إسلامى) وتمسك الكثيرون باسم مصر الفتاة ، ورفع « أحمد حسين » برنامج الحزب إلى الملك فى ١٥ مارس ١٩٤٠ . على أية حال نجد دورا فعالا لفتحى رضوان فى (الحزب الوطنى الإسلامى) الجديد وساد الارتباك عددا من فروع الحزب التى تمسكت باسم (مصر الفتاة) .

وكان « أحمد حسين » قد استحدث فى أواخر عام ١٩٣٧ منصب نائب رئيس الحزب ، وكان « مصطفى الوكيل » قد حصل على الدكتوراه فى العلوم وعاد من لندن وتولى منصب نائب الرئيس ، وهناك خطابات متبادلة بين أحمد حسين وفتحى رضوان فى تلك الفترة توضح تباعد فتحى رضوان عن (مصر الفتاة) منذ ذلك التاريخ على الرغم من استمرار ارتباطه الرسمى .

اللجنة العليا

منذ أواخر عام ١٩٣٧ بدأ تباعد « فتحى رضوان » عن مصر الفتاة من الناحية العملية ، وبدأ يستقطب عددا من مؤيديه وقدم استقالته فعلا ، ولكن الحزب لم يبت فيها فاستمرت الأمور

معلقة وأصبح الشخص الثانى فى الحزب هو « الدكتور مصطفى الوكيل » ومن بعده « محمد صبيح » وفى تلك الفترة كان (الحزب الوطنى) يتعرض لخلافات حادة ، ولصراعات بين حافظ رمضان وعبد الرحمن الرفاعى . وتبادل الفريقان قرارات الفصل وأصبح (الحزب الوطنى) فى تلك الفترة مادة لتهمك الصحف عليه والسخرية منه . وازداد الهجوم على « حافظ رمضان » الذى وجد تأييدا من « فتحى رضوان » ومجموعة الشباب التى انضمت للحزب أواخر عام ١٩٤٤ وأصبحت تعرف باللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى . إلا أن الاتهامات استمرت والانقسامات زادت ، والمواقف اضطربت . بعد أن اشتد الهجوم على « حافظ رمضان » لاشتراكه فى الوزارات مخالفا تقاليد الحزب ، اشترك « محمد زكى على وعبد العزيز الصوفانى » فى وزارة « إبراهيم عبد الهادى » ٢٨/١٢/١٩٤٨ . وبالمثل فإن الفريق المعارض انضم منه اثنان فى وزارة « حسين سرى » - ٢٥ يوليو ١٩٤٩ - وهما « عبد الرحمن الرفاعى ومحمد زكى على » .

وفى ظل هذا المناخ من التمزق والتضارب والصراع ، أصدرت مجموعة اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى بيانا أدانت فيه اشتراك بعض أعضاء الحزب الوطنى فى الوزارة ، وبدأت هذه اللجنة تسلك مسلكا مستقلا عن الحزب الوطنى فى الاجتماعات والمواقف وفى البيانات مما حدا بالحزب أن يصدر بيانا فى جريدة الأهرام (٩ مايو ١٩٤٩) يشجب فيه بيانات تلك اللجنة التى استمرت فى نشاطها المستقل بقيادة « فتحى رضوان » ، واجتمعت اللجنة الإدارية للحزب الوطنى فى ٢٨ يناير ١٩٥٠ وأدانت بالإجماع موقف (اللجنة العليا) وأصدرت قرارا بفصل « فتحى رضوان ، ومحمد زهير جرانه ، ومصطفى المنزلاوى ، ونور الدين طراف » من عضوية الحزب الوطنى .

الحزب الوطنى الجديد

ومضت اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى قدما ، ومضت جريدة (اللواء الجديد) تسهم فى الحركة الوطنية من أجل الاستقلال والديموقراطية والعدل الاجتماعى . . ورددت الصحف أن الاتجاه قوى لإنشاء حزب باسم (الحزب الوطنى الجديد) أو (الحزب الوطنى الاشتراكى) . واعتقل « فتحى رضوان » وعدد من زملائه بعد حريق القاهرة (يناير ١٩٥٢) واتجهت حركة الضباط الأحرار بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى الإفراج عنه ، واشترك فى وزارة محمد نجيب (سبتمبر ١٩٥٢) . واجتمعت اللجنة العليا وقررت تنحية « حافظ رمضان » وتعيين « فتحى رضوان » رئيسا للحزب الوطنى . وردت اللجنة الإدارية وعدد آخر من شباب الحزب الوطنى تستنكر هذا الموقف .

وبعد إصدار القرار الخاص بتنظيم الأحزاب فى سبتمبر ١٩٥٢ تقدم « فتحى رضوان » بإخطار

لتأسيس (الحزب الوطنى الجديد) وتقدم « عبد الرحمن الرافعى » يسانده « فكرى أباطه » وآخرون ، بإخطار آخر باسم (الحزب الوطنى) . ووصل النزاع إلى القضاء الإدارى وبدأت المحكمة فى نظر القضية فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٢ . وقررت المحكمة حجز القضية للنطق بالحكم إلى جلسة ٢٢ يناير ١٩٥٣ . ولكن نظام يوليو أصدر قرارا فى ١٦ يناير ١٩٥٣ بحل الأحزاب فأسدل الستار على هذه القضية وغيرها من القضايا المماثلة . واستمر « فتحى رضوان » وزيرا فى عدة وزارات حوالى ٧ سنوات ، أسهم فيها بدعم نظام جمال عبد الناصر ومحاربة النظام القديم وضرب حزب الوفد ، وفى الوقت نفسه اعتقل النظام الجديد « أحمد حسين » وشهدت ساحة السجن الحربى أبشع اعتداء على أحمد حسين وعبد القادر عوده . وعلى أية حال فقد أنجز « فتحى رضوان » فى ثقافة مصر ما يستحق الإشادة ويستحق التقدير .

فى الثقافة

لا أحد يستطيع أن ينكر الدور الرائد الذى قام به « فتحى رضوان » فى فترة ولايته للإرشاد القومى والثقافة بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وأصدرت وزارة الثقافة فى عهد « فتحى رضوان » مجلة (المجلة) فى يناير ١٩٥٧ ، ومجلة (نهضة أفريقيا) . ونال (المسرح القومى) عناية كبيرة ، وكذلك (المسرح الغنائى) ، ويقول الدكتور « ثروت عكاشة » : من أهم البذور الطيبة التى غرسها الأستاذ فتحى رضوان « مركز الفنون الشعبية » الذى أنشأه عام ١٩٥٧ ليكون مؤسسة علمية لتسجيل التراث الشعبى بمختلف أنواعه . وفى عهده وضع « الدكتور حسين فوزى » بصناته على الثقافة ، وفى مقدمتها (البرنامج الثانى) فى الإذاعة وهو برنامج ثقافى . وتم إنشاء معاهد للبالغين وللموسيقى وللسينما ومسرح للعرائس .

أصبح وزيرا فى سبتمبر ١٩٥٢ وترك الوزارة فى أكتوبر ١٩٥٨ ، وطوال هذه السنوات الست كان - رحمه الله - عاملا من عوامل تعميق الخلاف بين الوفد والثورة . لقد ظل « فتحى رضوان » طوال حياته خصما للثورة العربية وللوفد ، وإلى يوم رحيله كان يرمى « أحمد عرابى ، وسعد زغلول ، ومصطفى النحاس » بالخيانة . سيطرت عليه نظرة حزبية ضيقة ، ولذلك عندما رغب فى أن يكون زعيما لهذا الشعب ، لم تساعده أفكاره التى اعتنقها ، ولم يعط له هذا الشعب تلك الفرصة .

كان الرجل الثانى بعد أحمد حسين فى مصر الفتاة ، فجمد عضويته منذ عام ١٩٣٧ وكان عضوا بارزا فى مجموعة دخلت الحزب الوطنى عام ١٩٤٤ وحافظت على استقلالها حتى خرجت

بزعامة « فتحى رضوان » عام ١٩٤٩ ، وفصلت من الحزب الوطنى فى مايو ١٩٥٠ . ثم شارك مع نظام يوليو فى ضرب زعامات مصر كافة . ولكنه كان شعلة وهاجة إلى أن لقي ربه .

الأسانيد :

- ١- د . ثروت عكاشة . . مذكرات فى السياسة والثقافة .
- ٢- جلال السيد . . الجمهورية ١٣ / ١٠ / ١٩٨٨ .
- ٣- جلال الدين حمدى . . حديث شخصى ٥ / ١٠ / ١٩٨٨ .
- ٤- د . حماده إسماعيل . . رسالة دكتوراه عن عبد الرحمن الرافعى .
- ٥- د . على شلبى . . مصر الفتاة ودورها فى السياسة المصرية .
- ٦- د . محمود متولى . . مصر والحياة الحزبية والنيابية .



فتح الله بركات

ثلاثة من آل بركات في تاريخنا الحديث . لا يكتمل الحديث عن احدهم إلا بالحديث عن الآخرين . . فتح الله بركات ارتبط اسمه بترشيحه رئيسا للوفد بعد وفاة زعيم الأمة « سعد زغلول » . . . وعاطف بركات القريب إلى قلب « سعد » وارتبط اسمه بمدرسة القضاء الشرعى التى انشأها « سعد » وألغاها « الشيخ محمد مصطفى المراغى » ، ثم « الدكتور بهى الدين بركات » والذى كان عضوا بهيئة الوصاية بعد تنازل « الملك فاروق » عن العرش فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ .

وآل بركات هم (أحوال) سعد زغلول الذى ولد فى قرية ابيانه بمركز فوه (مديرية الغربية وقتذاك) وأبوه الشيخ إبراهيم زغلول ، عمدة القرية . وقد سبق للشيخ إبراهيم زغلول أن تزوج من سيدة أنجب منها بنتين وخمسة أولاد هم : « عبد الرحمن وشناوى ومحمد واحمد وشلبى » ثم تزوج من « مريم » بنت الشيخ « عبده بركات » أحد كبار الملاك ، وانجب منها « ستهم وسعد ، وفتحى » ويذكر « محمد فريد » فى مذكراته ان « فتحى » هذا كان اسمه فى الأصل (فتح الله صبرى) وفصل من المدرسة لاشتراكه فى الدعوة إلى الثورة العربية ، وغير اسمه إلى « أحمد فتحى زغلول » وعاد إلى الدراسة بالاسم الذى عرف به بعد ذلك . ونسير الآن مع ثلاثة من أبرز أسرة والدته سعد زغلول ، أسرة بركات . . ونبدأ بالدكتور « محمد بهى الدين بركات » بن « فتح الله بركات باشا » وبعده نعرض لأقرب (البركاتيين) إلى قلب سعد ونعنى به « عاطف بركات » وتبقى غالبية الحلقة لصاحب عنوانها « محمد فتح الله بركات » .

ابن فتح الله

فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ تنازل « الملك فاروق » عن العرش خضوعا لطلب من حركة الجيش التى

استولت على السلطة في ٢٣ يوليو . وخرج « فاروق » من مصر وأصبح ابنه « الأمير أحمد فؤاد » ملكا على مصر تحت رعاية هيئة الوصاية التي تشكلت من القائمقام « محمد رشاد مهنا » أحد الضباط البارزين والمناوئين لجناح « جمال عبد الناصر » ومن « الأمير محمد عبد المنعم » ، وهو ابن الخديو السابق « عباس حلمي الثاني » ومن « الدكتور محمد بهي الدين بركات » وهو ابن « محمد فتح الله بركات باشا » وهيئة الوصاية وإن كانت هيئة شكلية إلا أن القرارات ظلت تصدر ممهورة بتوقيع عناصرها الثلاثة .

ولقد تولى « محمد بهي الدين بركات بك » وزارة المعارف العمومية في وزارة مصطفى النحاس الثانية من أول يناير ١٩٣٠ - ١٩ يونيو ١٩٣٠ . وذكرت الدوائر البريطانية أن تعيينه قد تم إرضاء لوالده فتح الله بركات الذي بدأت علاقاته بالوفد وبمصطفى النحاس تشوبها الحساسيات منذ عام ١٩٢٧ ، ولكن هذا لا يقلل أبدا من كفاءة « بهي الدين بركات » وسمعته الطيبة . وكان ينظر إليه على أنه من العناصر (المعتدلة) كما كان ينظر إلى والده « فتح الله بركات » على أنه من العناصر اليمينية داخل الوفد . وبعد إقالة حكومة « مصطفى النحاس » جاء « محمد محمود » في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ ليشكل حكومته الثانية ، وكانت المؤامرات قد اشتدت للاستيلاء على الوفد من الداخل عن طريق أحمد ماهر وبجموعته ، وضربه من الخارج عن طريق « على ماهر » والقصر، والشيخ المراغي ثم يتوج ذلك كله بانقسام (الهيئة السعدية) وقد شكل محمد محمود وزارته من عناصر لها ثقلها التاريخي مثل « عبد العزيز فهمي باشا » و« أحمد لطفي السيد باشا » وعناصر لها ثقلها الشخصي مثل إسماعيل صدقي باشا وعبد الفتاح يحيى باشا وحسن صبري باشا وحسين سري باشا وعناصر لها تاريخ وفدى مثل « أحمد محمد خشبة باشا » ومحمد بهي الدين بركات بك الذي اشترك وزيرا للمعارف العمومية إلى جانب عناصر حزبية أخرى معادية للوفد مثل « محمد حافظ رمضان » رئيس الحزب الوطني وانتهت مهمة هذه الوزارة بإجراء انتخابات أجرتها الإدارة ضد الوفد . وبعد هذه النتيجة المصنوعة شكل محمد محمود وزارته الثالثة ولم يكن محمد بهي الدين بركات عضوا .

ومن الطريف أن محمد بهي الدين بركات في مارس ١٩٣٢ وقف إلى جانب فريق في الوفد نادى بمقاطعة التجارة البريطانية والدعاية لهذه المقاطعة وكانت لجنة المقاطعة تتكون من « محمد بهي الدين بركات » وعبد الحميد اللبان ومحمود فهمي النقراشي وكان « مصطفى النحاس » يؤيد هذا الاتجاه الذي عارضه حزب الأحرار بزعامة محمد محمود .

ومن الطريف أيضا أن على ماهر عندما شكل وزارته في ١٨ أغسطس ١٩٣٩ ، بعد استقالة وزارة محمد محمود الرابعة بفعل مناورات « على ماهر » شكلها من خمسة وزراء من حزب

السعديين ، وثمانية من المستقلين . وتم انتخاب « أحمد ماهر » رئيسا لمجلس النواب بدلا من محمد بهي الدين بركات الذي كان وقت ذاك يؤيده الأحرار الدستوريون .

ويكفى هذا القدر عن « محمد بهي الدين بركات » بن « فتح الله بركات » لنلقى الأضواء السريعة أيضا على « عاطف بركات » ابن شقيقة « سعد زغلول » والذي كان يؤثره بعطفه وحبه وكان عاطف بركات من جانبه يكن الحب والتقدير للزعيم سعد زغلول .

عاطف بركات

ومن خلال مذكرات سعد زغلول ندرك أن عاطف بركات لم يكن مجرد ابن شقيقة الزعيم ، وإنما كان بمثابة الابن المتبنى يصحبه سعد معه في غالبية تحركاته ويأنس له ولرأيه . . والمذكرات مليئة بالعبارات التلقائية التي تكشف عن هذه العلاقة . . يقول سعد : (في يوم الجمعة توجهت مع عاطف لفتحى لتهنئته) وعاطف هو عاطف بركات ، وفتحى هو أحمد فتحى زغلول شقيق سعد . ويقول : (حضر أناس آخرون منهم لطفى السيد وعاطف والشيخ الخضرى وجرى الكلام على موضوعات شتى خاصة بالجريدة والذين يتغامزون ويعلنون في الجرائد عن أنفسهم ثم انصرف الجميع . . وجلس عاطف وقلت له ماحصل) .

وعندما كان « سعد » ناظرا للمعارف ١٩٠٦ يقول : (فاتحت عاطف من بعيد في موضوع كثرة عمل النظارة وقله الأنصار فيها ، واحتياجى إلى من يعاونى ، وأريد ان أختار معينا كسكرتير عام أو وكيل) . ويبدو أن « سعدا » كان يريد أن يعرف - من بعيد - مدى موافقة عاطف إذا عرض عليه العمل معه وسنة ١٩٠٨ يكتب سعد : (عدت إلى المنزل ، وأخبرنى عاطف بان على بهجت كان تكلم مع محمد فريد هو ومحمد راسم ، فى شأن ماكتبه ضدى ، وأنه كتب إليه خطابا شديدا للهجة ولم يرد عليه السلام عندما قابله بعد ذلك) . وفى موضع آخر يكتب : (تقابلت مع ويلس وتواعدنا على أن نتلاقى فى يوم ٥ يونيو ، حيث يكون مترجما بيننا «عاطف» لعدم وجود من يثق به فى الترجمة) . وويلس هو ويلز المدير الإنجليزى للمدارس الصناعية .

وإذا كان هذا هو حب سعد لابن شقيقته عاطف ودرجة الثقة به ، ليس غريبا إذن أن يعينه ناظرا لمدرسة القضاء الشرعى ، وهى المدرسة التى صدر قرارها فى ٢٥ فبراير ١٩٠٧ عندما كان «سعد» ناظرا للمعارف وهى من أفكار « الشيخ محمد عبده » وعلى غير رغبة من « الخديو عباس حلمى الثانى » ويقول « أحمد أمين » فى مذكراته « حياتى » : (دعى مجلس النظار للاجتماع يوم

٢٥ فبراير ١٩٠٧ ورأسه الخديو ، فعارض الخديو المشروع واقترح إرجاء النظر فيه ، فعارض سعد باشا ودافع عن الفكرة وانضم جميع النظار إلى سعد باشا ماعدا ناظر الأشغال) . ويصف لنا أحمد أمين عاطف بركات : (ويتحين عاطف بك بركات فرصة الفسحة أو فرصة وجود بعض الطلبة في المكتبة ويقف ويلف حوله من شاء من الطلبة يحاورهم ويحاورونه) . وكانت المدرسة تعد نفسها عملا من أعمال « سعد » الجلييلة ، والوطنية والوفاء معا يوجبان عليها تأييده ما استطاعت . (وجاء يوم انعقد فيه مجلس الإدارة في المدرسة فأجتمع بعض الطلبة تحت الحجرة التي ينعقد فيها المجلس وهتفوا بحياة سعد . . ولم يأت المساء حتى أعلن قرار مجلس الوزراء بإحالة عاطف بك إلى المعاش) .

وبعد ان فشلت مفاوضات « عدلى يكن » مع الانجليز عاد عدلى في ٥ ديسمبر ١٩٢١ ليقدّم استقالته التي أرجا « الملك أحمد فؤاد » قبولها ملقيا اللوم في فشل المفاوضات على سعد وصحبه ، وأندرت السلطات البريطانية سعدا وفتح الله بركات وعاطف بركات ، ومصطفى النحاس ، وسينوت حنا بمغادرة القاهرة إلى الريف . وقال سعد كلمته المعروفة : فلتفعل القوة بنا ما تشاء وقبل الملك استقالة عدلى في ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ ، وفي ٢٩ ديسمبر كانت سفينة بريطانية بأمر من اللنبى تحمل سعد زغلول وفتحى بركات وعاطف بركات ومصطفى النحاس وسينوت حنا ومكرم عبيد من السويس إلى عدن ثم جزيرة سيشل وهو ما يعرف بالاعتقال الثانى لسعد زغلول .

فتح الله بركات

وفي الوزارة الشعبية (٢٨ يناير ١٩٢٤ - ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤) التى شكلها « سعد زغلول » كان « محمد فتح الله بركات باشا » وزيرا للزراعة ، ومن داخل الوزارة ذاتها تولى وزارة الداخلية في ٢٥ أكتوبر حتى تاريخ استقالة الوزارة أى لمدة شهر واحد في أعقاب اغتيال (السردار) . وفي ٧ يونيو ١٩٢٦ شكل عدلى يكن وزارته الثانية وهى (ائتلافية) شغل فيها « محمد فتح الله بركات » منصب وزير الزراعة حتى (٢١ أبريل ١٩٢٧) وكان الانجليز قد خشوا أن يشكل « سعد » الوزارة بعد الأغلبية الكاسحة التى نالها الوفد فى انتخابات أخريات أيام وزارة « زيور » الثانية وبعد استقالة وزارة عدلى لم يمكن الانجليز والقصر « سعد زغلول » من تشكيل الوزارة . وشكلت الوزارة برئاسة « عبد الخالق ثروت » من ٢٥ أبريل ١٩٢٧ - ١٦ مارس ١٩٢٨ ، وكان « محمد فتح الله بركات وزيرا للزراعة .

وفي عهد وزارة عبد الخالق ثروت رحل زعيم الأمة « سعد زغلول » في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . وكتب في وصيته أن تحفظ مذكراته لدى من يخلفه فى زعامة الوفد وبمعرفة « فتح الله بركات »

وتنفيذا للوصية قام فتح الله بركات بتسليم مذكرات سعد إلى «مصطفى النحاس» بعد أن اختاره الوفد رئيسا له . وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سلم «مصطفى النحاس» المذكرات للدكتور محمد بهي الدين بركات بن «فتح الله بركات» باعتباره أحد ورثة سعد زغلول وبعد ذلك تسلمت الدولة المذكرات من الدكتور بهي الدين بركات واودعتها دار الوثائق القومية لتصبح تحت نظر المؤرخين والباحثين ، إلى أن أذن الله بأن يقوم مركز تاريخ ووثائق مصر المعاصر بنشر الجزء الأول من المذكرات تحت إشراف وبتحقيق «الدكتور عبد العظيم رمضان» .

وقد كان للدكتور «محمد بهي الدين بركات» دور هام في الحفاظ على (مذكرات سعد زغلول) والحفاظ على مذكرات والده (فتح الله بركات) ولقد جمعت (مذكرات فتح الله بركات) في ٤٧ كراسة معظمها بخط يده ، فلما أصيب البصر بالمرض أخذ يملأ على سكرتيه الأجزاء الأخرى . ويلاحظ أن (مذكرات بركات) لم تخضع لترتيب زمني . وليس هناك ترقيم للكراسات ، وقد تم هذا الترقيم بعد وفاته بطريقة غير دقيقة ومذكرات بركات تغطي الفترة من (١٩٢٢ - ١٩٣٤) أى من السنة التى نفى فيها مع «سعد» ومع «عاطف بركات» إلى سنة وفاته . وتعد مذكرات فتح الله بركات من أهم المصادر عن تلك الفترة وعن نشاط الوفد وسعد زغلول .

الزعامة بعد سعد

ومن أهم ما يشغل الباحثين بالنسبة إلى «محمد فتح الله بركات باشا» هو موقفه في الانتخابات التى أجريت في سبتمبر ١٩٢٧ لاختيار خليفة لسعد زغلول في زعامة الوفد ، فقد كان «فتح الله بركات» أبرز المرشحين لرياسة الوفد من دوائر كثيرة خارج الوفد وداخل الوفد . فقد نفى مع «سعد» في سيشل ، وكان عضوا في الهيئة العليا للوفد على يدى سعد ، واختاره الزعيم وزيرا في الوزارة الشعبية ووافق له ان يكون وزيرا في وزارتي عدلى يكن وعبد الخالق ثروت . وكان ترشيحه لرياسة الوفد - في نظر بعض الباحثين - مقبولا لدى الدوائر الحزبية خارج الوفد باعتبار الوضع الاجتماعي الذى ينتمى إليه ويضعه «ماريوس ديب» في كتابه (الوفد وخصومه) في فئة الملاك المتوسطين ، بينما يضع في فئة الأفندية «سعد زغلول» ، ومحمد عاطف بركات «واللذين ترجع أصولها إلى فئة الملاك المتوسطين» ، أما الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة المدنية مئة في المئة ولا يملكون مساحة لها أهمية من الأرض فمنهم «مصطفى النحاس» و«يوصا واصف» ومحمد نجيب الغرابي «ووضع الباحث نفسه عددا من قيادات الوفد أيام سعد ضمن طبقة كبار الملاك مثل «حمد الباسل» ، المصري السعدى ، محمد علوى الجزار ، فخرى عبد النور . .»

وخلال فترات رئاسة سعد للوفد كان «سعد» هو صاحب السلطة الفعلية ، ومعه مجموعة

مقربة منه مثل « مصطفى النحاس وواصف غالى ، وفتح الله بركات ، ومرقص حنا ، وعلى الشمسى ، وأحمد ماهر » . وقد احتدم الصراع داخل الوفد بعد وفاة سعد . . وترشح للرئاسة اثنان فقط وآخرون رشحوا أنفسهم بينهم وبين أنفسهم وبين انصارهم المرشحين المعلنان هما مصطفى النحاس وفتح الله بركات . . مصطفى النحاس سكرتير عام الوفد ، والقاضى النزيه ، والوزير فى وزارة سعد ، ونفى معه مثلما نفى فتحى بركات وعاطف بركات والمناضل المشابر والقريب إلى غالبية قاعدة الوفد العريضة من حيث الوضع الاجتماعى و«بركات» تقول عنه المصادر (محنك فى التنظيم والتأمر) وعمدة سابق ، ولم يكمل تعليمه الثانوى فهو بعيد عن المتعلمين فى الوفد . ويقول البعض إن « سعد زغلول » قد ألمح إلى ان النحاس هو الذى يصلح للزعامة من بعده . وقد نشطت مجموعة « مكرم عبيد وأحمد ماهر وعمود فهمى النقراشى » فى تأييد مصطفى النحاس وكانت أمنية الانجليز ألا يتولى « النحاس » رئاسة الوفد كانوا يفضلون شخصية تميل للجناح الأيمن مثل « على الشمس أو فتح الله بركات » وقد عرف عن « بركات » مهارته التنظيمية التى كسبت للوفد التأييد الشعبى فى الوجه البحرى ، وكان سياسيا بارعا ، عرف كيف يتعامل مع الفلاحين ومع الأعيان وكرس نفسه لخدمة «سعد زغلول» ولكنه لم يكن يعرف لغة أجنبية ، ولم يكن مثقفا ثقافة غربية . وعرف عنه الحرص والحذر حتى إن البعض وصفه (بالمناورة والتأمر) وتردد فى الترشيح لرئاسة الوفد اسما « واصف غالى » و«أحمد ماهر» وتوارى أحمد ماهر وانضم إلى المجموعة النشطة التى دعت إلى اختيار مصطفى النحاس وهى مجموعة « مكرم وماهر والنقراشى » وقال مكرم بالقراءة إلى قلب الزعيم والقراءة إلى الوطن فى مقابل شعار (القراية الأسرية) . . وكان يقصد أن يرجع كفة « مصطفى النحاس » سكرتير عام الوفد والمناضل الجسور ، وحتى يقفل باب (القراية الأسرية) قال : (كان على بن ابى طالب ابن عم الرسول . . واستخلف المسلمون أبا بكر . . دعونا من صلات القريبى والدم) . وتم انتخاب « مصطفى النحاس » زعيما للوفد . . وأحداث التاريخ لاتقع مصادفة .

الأسانيد :

- ١- أحمد أمين . . حياتى .
- ٢- سعد زغلول . . المذكرات ج ١ . تحقيق د . عبد العظيم رمضان .
- ٣- د . عفاف لطفى السيد . . تجربة مصر الليبرالية ترجمة عبد الحميد سليم .
- ٤- ماريوس ديب . . الوفد وخصومه . ترجمة عبد السلام رضوان .
- ٥- محمد السوادى . . اقطاب مصر .

فخرى عبد النور



ما أعظم أن يموت الجندي في ساحة الوغى وأن يموت الكاتب وفي يده القلم وما أروع أن يموت الفنان أمام الجمهور الذى يصفق له . . وهاهو « فخرى عبد النور » يموت في مجلس النواب يوم التاسع من ديسمبر سنة ١٩٤٢ .

وقد وجه سؤالاً إلى وزير الصحة عن التدابير التى أمر باتخاذها لمكافحة حمى الملاريا بمديرية جرجا وأسوان . . ويطلب الأستاذ « محمود سليمان غنام » بالنيابة عن وزير الصحة تأجيل الإجابة على السؤال لأن وزير الصحة يتفقد فعلاً بلاد النوبة وأسوان من أجل الغرض الذى جاء فى السؤال .

وللنائب « فخرى عبد النور » سؤال ثان عن قانون (الإكثار من زراعة القمح) ويرجو « محمد فؤاد سراج الدين » وزير الزراعة المجلس فى ان يؤجل الرد على هذا السؤال أسبوعين .

ثم السؤال الثالث للنائب نفسه إلى وزير الزراعة « محمد فؤاد سراج الدين » أيضاً عن السجاد الذى تصرفه الحكومة لكل فدان يزرع قمحاً . . ويتولى سراج الدين الرد . .

وأمامى مضبطة ، وإن شئت الدقة ، صورة لمضبطة الجلسة الرابعة فى دور الانعقاد العادى الثانى لمجلس النواب ، المنعقدة فى يوم الأربعاء غرة ذى الحجة سنة ١٣٦١ هـ . الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٢ م . .

وجداول الأعمال فى مقدمته تلاوة الاعتذارات وأسماء الغائبين دون إذن فى الجلسة السابقة - لا أدرى اذا كان هذا التقليد لم يزل معمولاً به ؟ - وبعد إجراءات أخرى تأتى الأسئلة .

ماشاء الله . . نواب الشعب يقدمون فى هذه الجلسة عشرة أسئلة . . سؤالين لوزير الترميم

وسؤالين لوزير المواصلات وسؤالين لوزير المالية وسؤالاً لوزير الوقاية ، ثم أسئلة ثلاثة يقدمها
فخرى عبد النور .

جلسة السوادع

سراج الدين نحن السبب فى أن تقوم وزارة المالية فى توزيع حوالى ٣٣ كيلو من السماد لفدان
القمح - كان هذا فى أثناء الحرب العالمية الثانية - ويقف « فؤاد سراج الدين » يوضح بالأرقام
الكميات المتاحة من السماد وتوزيعها على الزراعات المختلفة . . ويعقب « حضرة النائب المحترم
فخرى عبد النور بك » محتجاً ومحتداً . .
(تصفيق) . . نقلاً عن المضبطة . .

وأسير مع المضبطة الحزينة وبين قوسين (بعد أن جلس حضرة النائب المحترم فخرى عبد النور
بك بدت عليه دلائل التعب الشديد ثم مال فى مقعده مغشياً عليه) .

الرئيس (عبد السلام فهمى جمعة) - ترفع الجلسة وتخلى القاعة من حضرات النواب المحترمين
والشرفات من حضرات الزائرين (رفعت الجلسة فى الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين
مساءً وأخلت القاعة والشرفات) . أعيدت الجلسة فى الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين مساءً .
الرئيس - حضرات الزملاء المحترمين .
ما أصدق الشاعر المصرى حين قال :
دقات قلب المرء قائلة له .

إن الحياة دقائق وثوان

وها هو فخرى عبد النور كان يؤدى واجبا وطنيا بينكم فهوى بيننا وهوى قلبى بين جنبى .
فإنى لأعرف فخرى من أمد طويل ، من بدء النهضة الوطنية ، رجلاً شريفاً مجاهداً قوى الإيمان ،
ولقد قدر له أن يموت فى ميدان الجهاد ميتة المجد والشرف .

وتكلم النائب عبد السلام الشاذلى . . أعتقد أننى إنما أعبر عن شعور إخوانى هنا أجمعين ،
إذ أعرب عن مشاركة حضرة صاحب السعادة رئيس المجلس وحضرات الزملاء فى الحداد والحزن
على فقيدنا الكريم الذى اختطف من بيننا وهو يؤدى واجبه عن أمتة على أكمل وجه .

وتحدث حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء - إنى باسم الحكومة - أعرب عن بالغ
تأثرى وزملائى أجمعين لهذا الحادث الفاجع فلقد ثوى الفقيد العزيز وهو قائم بيننا فى هذه الساحة
المقدسة يؤدى أشرف الواجبات وأجيب النيابة عن أمتة ، ولقد قضى الفقيد زهرة حياته فى خدمة
أمتة فلم يكن بعيداً عن الحركة الوطنية بل لقد اشترك فيها منذ بدئها وسأهم فيها بنصيب وافر ،

وعاصر كل أحداثها البارزة حتى لقد كان حافظا لخطاها ، مسجلا لحوادثها شأن من تابع بالجهد أطوارها من أولها إلى آخرها .

أما النائب المحترم مكرم عبيد . . فقال ببلاغته المعروفة عنه - وكان الله قد أهم المجلس الموقر فصفق تصفيقا أخيرا ، لا لخطابه ، وإنما لجميع جهاده الذى تركز فى كلمته الأخيرة وهو يؤدى واجبه عن بلاده ونصل إلى النائب المحترم حسن يسن - الذى قال بعد قصيدة قصيرة . . عرفت فخرى منذ فجر الحركة الوطنية واعتقلت معه ستة أشهر فى قصر النيل فكان لنا مثالا طيبا وقدوة حسنة ، وقد كان يتصدرنا فى كل أمر حتى لقبناه بالرئيس . . عاش فخرى مجاهدا ، ومجاهدا فقط فلم يتقلد منصبا ولم يسع إلى شىء من هذا القبيل .

الطبقة الثالثة

هذا نوع رائع من الرجال يكافح دون أن ينتظر الجزاء ، يدفع دون أن ينظر إلى عائد . . لم يطلب شيئا ، ولم يأخذ شيئا ، ولم يعطه أحد شيئا . . وفى ٢٠ ديسمبر ١٩٢١ وجه الانجليز إنذارا إلى كل من سعد زغلول ومصطفى النحاس وسينوت حنا وجعفر فخرى وأمين عز العرب وصادق حنين أن يتعدوا عن القاهرة وأن يلزموا الإقامة فى الريف ليفسحوا الطريق لمفاوضات عدلى مع الانجليز ، وتم إبعاد سعد والنحاس وسينوت ومكرم وجعفر إلى سيشل . وبقي ما عرف بالطبقة الثانية من الوفد وقبض الانجليز على هذه الطبقة « حمد الباسل ومراد الشريعى ، وعلوى الجزار وويصا واصف » وساقوهم إلى قشلاق قصر النيل وصدر الحكم عليهم بالإعدام - تغير الحكم بعد ذلك - ولم يتراجع الرجال وتألفت هيئة الوفد الجديدة التى عرفت بالطبقة الثالثة من « المصرى السعدى وحسين القصبى وفخرى عبد النور ومحمد نجيب الغرابلى ، ومصطفى القاياتى ، وسلامة ميخائيل » . وأصدروا بيانا إلى الأمة وفى ٢٧ يناير ١٩٢٢ تم الإفراج عن الذين كان قد صدر ضدهم قرار بالإعدام لإرهاب الوطنيين وصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وترك على ماهر الوفد وعين ناظرا لمدرسة الحقوق وعادت السلطات الانجليزية فى يوليو ١٩٢٢ واعتقلت « حمد الباسل ورفاقه » ونشطت الطبقة الثالثة من جديد وكان « محمد نجيب الغرابلى » معتقلا فى طنطا وسلامة ميخائيل كان فى أوروبا وانضم إلى الوفد نجيب اسكندر وقدمت السلطات سبعة من الوفد للمحاكمة وهم حمد الباسل ومركص حنا وواصف غالى وعلوى الجزار وويصا واصف ومراد الشريعى وجورج خياط ، وصدر الحكم عليهم بالسجن سبع سنوات بدلا من الإعدام وهتف « واصف غالى » لتحى مصر وردد الحاضرون اهتافا وقبض البوليس على شاب من الهاتفين وكان هو الدكتور أحمد ماهر ونقلوا إلى سجن مصر ثم إلى معتقل المأظله .

الوطني الغيور

كان « سعد زغلول » لا يذكر اسم « فخرى عبد النور » أمام الناس إلا ويردده بعبارته (الوطني الغيور) حتى أصبح لقباً له بين إخوانه وعلى الألسنة وأصدر الوطني الغيور مع إخوانه أعضاء الطبقة الثالثة بياناً ملتهباً ضد سلطات الاحتلال ودفاعاً عن زملائهم المحكوم عليهم وقال سعد (لو أن هذه الطبقة لم تتقدم الصفوف بعد محاكمة حمد الباسل وإخوانه لظن اللبني أنه نجح في القضاء على الحركة . .) .

وفي فجر يوم الاثنين ١٤ أغسطس ١٩٢٢ صبيحة يوم صدور الحكم بالإعدام على حمد الباسل وزملائه - أحاط جنود الاحتلال بمنزل فخرى عبد النور وألقوا القبض عليه وكان في حراسته الضابط « التونى الضبيع » وذهبوا به إلى القلعة وبعدها جاءوا بالدكتور نجيب اسكندر والشيخ مصطفى القاياتى ومحمود فهمى النقراشى ، وحسن يس وعبد الستار الباسل ومحمد نجيب الغرابلى ثم نقلوا إلى ثكنات قصر النيل (مكان النيل هيلتون ومبنى الجامعة العربية بميدان التحرير الآن) . واختار المعتقلون السبعة فخرى عبد النور متحدثاً باسمهم لدى سلطات الاعتقال وبما يذكر الشيخ مصطفى القاياتى كان أبوه وعمه من أشد المشايعين للثورة العربية ونزلا ضيفين على معتقل ثكنات قصر النيل سنة ١٨٨٢ .

وفي ٢٢ أكتوبر ١٩٢٢ أفرج عن محمد نجيب الغرابلى والدكتور نجيب اسكندر ، وفي ١٥ نوفمبر أفرج عن الشيخ القاياتى وعبد الستار الباسل ومحمود فهمى النقراشى ، وبقي في الاعتقال حسن يس وفخرى عبد النور وفي ١٧ نوفمبر أطلق الرصاص على المرحومين حسن عبد الرازق وإسماعيل زهدى وهما خارجان من دار حزب الأحرار الدستوريين فأعيد اعتقال الشيخ القاياتى واعتقل الدكتور محجوب ثابت ، وفي ٢٧ ديسمبر أفرج عن حسن يس وبقي فخرى عبد النور وحده في المعتقل وفي يوم السبت ٣ فبراير ١٩٢٣ تم الإفراج عن فخرى عبد النور ، وكان « سعد زغلول » منفياً في جبل طارق وأرسل البرقية التالية (إن الافراج عنكم ، المرتقب بفارغ الصبر ملأنا سروراً فلکم أطيب التهاني ونحن معجبون بتفانيكم في خدمة القضية الوطنية) .

ولكن فترة حريته لم تتجاوز شهراً ويومين فاعتقل من جديد في ٥ مارس ١٩٢٣ واعتقل جميع أعضاء الطبقة الثالثة من الوفد ومن ثكنات قصر النيل نقلوه إلى (سجن الأجانب) وكان هناك « محمد أبو شادى ، عبد الحليم البيلى ، ومحمود فهمى النقراشى وراغب اسكندر وعبد الغنى سليم عبده » . وبعدها نقلوا « فخرى عبد النور » إلى سجن مصر . وأعادوه إلى سجن الأجانب مرة أخرى وكان الإفراج عنه يوم الاثنين ١٢ يونيو ١٩٢٣ .

ولقد قدر لفخرى عبد النور أن يلتقى فى فترة باكرا بسعد زغلول عندما كان سعد وزيرا للحقانية فى وزارة محمد سعيد التى أعقبت وزارة « بطرس غالى » فى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ وكان « فخرى بك » فى الأصل من أعضاء حزب الأمة . . وأتركه يحدثنا عن هذه المقابلة فى مذكراته . .
فما أنا فى منزلى هناك - يقصد مدينة جرجا - فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٠ جاءنى القاضى الشرعى .
المرحوم الشيخ عبد الحكيم خطاب « وبلغنى نبأ قدوم سعد باشا تصحبه صاحبة العصمة السيدة الجليلة حرمه (أم المصريين) والمرحوم سعيد زغلول ، وكان إذاك طالبا بمدرسة الحقوق والأنسة رتيبة هانم (قرينة الأستاذ محمد أمين يوسف - فيما بعد - ووالدة الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين) ثم كان لى شرف زيارته لىاى فى منزلى ومعه القاضى الشرعى والقاضى الأهلى « توفيق حقى » ومدير الإدارة القضائية « محمد علام » وزير الزراعة فيما بعد ثم سكرتيه الخاص فؤاد كمال .

وكان هذا أول لقاء مع « سعد باشا » وأول حديث دار بينى وبينه وأذكر انى دعوته حينئذ أن يجلس على كرسى كان صاحب السمو الخديو عباس حلمى قد جلس عليه يوم تكرم بزيارتي فى منزلى بجرجا يوم الأربعاء ٩ فبراير ١٩٠٩ فطلب لى « سعد باشا » أن أحدثه عن هذه الزيارة وكانت جلسة ممتعة أدار فيها سعد باشا الحديث بأسلوبه الجميل الساحر وسألنى عن تاريخ الإنعام على برتبة البكوية ، ورددت على سؤال له بأنى وكيل البنك المصرى فى جرجا من سنة ١٩٠٤ ، وسألنى أيضا فى أى المدارس تعلمت فقلت لى اتممت ثقافتى فى مدرسة الجزويت بمصر - يقصد القاهرة - .

واذكر بهذه المناسبة أنه كان قد زارنى فى هذه الدار قبل ذلك ببضعة أيام إبراهيم نجيب باشا مدير عموم الأوقاف مع صهره على أبو الفتوح بك مدير جرجا ، وأحمد أبو الفتوح باشا والده كما زارنى إسماعيل باشا وزير الأشغال وأحمد حشمت باشا وزير المالية .

الحركة الوطنية

كانت تلك المقابلة الباكرا لسعد باشا وقبل أن نصل لاشتراك « فخرى عبد النور » فى الحركة الوطنية بزعمامة سعد زغلول نقدم الرجل من بيان موجز لموسوعة جديدة تحت الإعداد كتبها « سعد فخرى عبد النور » الذى أسماه والده باسم سعد حبا وإعجابا بسعد باشا . . ولد فخرى عبد النور بمدينة جرجا فى ١٥ يونيه ١٨٨١ وتوفى بالقاهرة فى ٩ ديسمبر ١٩٤٢ والده عبد النور اقلادىوس (١٨٤٩ - ١٨٩٠) اشترك فى إعداد الحملة العسكرية التى شنّها الخديو إسماعيل لتثبيت حقوق مصر فى المديرىات الاستوائية وقد زارته الإمبراطورة « اوجينى » بمنزله بجرجا فى نوفمبر ١٨٦٩ ، أما جده « اقلادىوس حنين » ١٨٠٤ - ١٨٧٧ فقد كان مساعدا لحاكم الإقليم من ١٨٥٥ -

١٨٧٣ ، في عام ١٩٠٨ انضم إلى حزب الأمة واتصل بأحمد لطفى السيد ، وانضم لحركة سعد زغلول الوطنية في نوفمبر ١٩١٨ وتلك قصة رائعة نترك للمذكرات أن توجزها لنا . .

. . يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ١٩١٨ كانت المجالس في القاهرة تتحدث عن ذهاب الزعماء الثلاثة . . سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى « إلى دار الحماية البريطانية لمقابلة المعتمد البريطانى » ونجت وبعدها شاء الله أن أقصد إلى « المدرسة الناصرية » لأمر خاص بأكبر أبنائى موريى وقابلت ناظرها - سعيد فهمى الروبى بك - وفيما أنا معه فى مكتبه إذ دخل الشيخ الوقور على شعراوى باشا ، وأفصح لنا عما دار فى هذه المقابلة التاريخية . . وفى مساء اليوم نفسه زرت نادى رمسيس وهو ناد يضم كبار الأقباط ورويت للحاضرين ما سمعته . . وقرروا انتداب ثلاثة من الحاضرين للذهاب إلى سعد باشا واختير الثلاثة وهم . . ويصا واصف وتوفيق اندراوس وفخرى عبد النور . . واستقبلنا « محمد على علوبة بك » وانتظرنا حتى حضر سعد باشا . . وحضر هذه المقابلة على شعراوى ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد ومحمد علوبة ومحمود أبو النصر وقد رجب بنا سعد باشا ترحيبا كبيرا وأعرب عن اغتباطه بالفكرة التى من أجلها حضرنا وظن سعد أننا جئنا لنرشح « ويصا واصف » فأعرب عن اغتباطه بهذا الترشيح إلا أن « ويصا واصف » اعتذر . . وأخيرا أبلغنا سعد باشا الشخص الحائز للصفات الكاملة المؤهلة لعضوية الوفد هو « واصف بطرس غالى » فاغتبط سعد باشا لهذا الاختيار فأعرب عن ثقته وتقديره لعلمه ومكانته ، وأرسل له « ويصا » تلغرافيا بترشيحه إلا أن التلغراف لم يصل إلا بعد زمن بسبب الرقابة العسكرية .

ثم رأى الوفد بعد ذلك أن يضم « سينوت حنا » العضو فى الجمعية التشريعية وجورج خياط فخلقا اليمين مع حمد الباسل فى جلسة واحدة وكان ذلك فى ٢ ديسمبر سنة ١٩١٨ .

ولما خرجنا من حضرة سعد باشا أخذنا معنا نسخا من التوكيلات وقصدنا إلى نادى رمسيس فانهاالت التوقعات عليها من جميع الوافدين على النادى وكان يتولى هذا العمل شقيقى لبيب بك ، وقد توفى مع مزيد الحزن بعد ذلك بأيام قليلة . .

مع المذكرات

أروع ما كتب عن سعد زغلول وجدته فى هذه المذكرات ، قصيدة حب جميلة لشخص سعد وكفاحه فى هذه المذكرات وقد تفضلت الأسرة الكريمة بنسخة من التجار قبل أن تصدر وتتميز بالتفاصيل اليومية الطريفة وتنم عن ذاكرة تعى .

وهى فى النهاية تكشف عن الشخصية الجبارة لسعد زغلول وقدرته على الارتباط بالناس

جماعات وأفراد ، وعلى الطاقة الهائلة التى تميز بها حتى وهو فى مراحل أخيرة من عمره ، وتبدأ المذكرات بلقاء فخرى عبد النور بسعد زغلول سنة ١٩١٠ وتنتهى بأيام التضحية والبذل سنة ١٩٢٣ ، وهى زاخرة بالأحداث الدقيقة وبالوصف الدقيق للشخصيات التى تعترض الأحداث وصفاً أميناً .

أعرف ويعرف غيرى كيف تحارب الحكومة أى حكومة زعيماً شعبياً وحزباً شعبياً . . ولكن التفاصيل المذهلة لتأمر حكومة عدلى يكن والسلطات الانجليزية ضد زيارة زعيم الأمة للصعيد التى تقرر أن تبدأ من الجيزة بباخرة نيلية يوم الثلاثاء ١١ أكتوبر ١٩٢١ على أن تمر الباخرة بينى سويس والمطاهرة وجزيرة بهيج وأسبوط و« أبو » تيج والنخيلة وسوهاج وجرجا ونجع حمادى وقنا وتنتهى عند وصولها إلى الأقصر يوم الأربعاء ١٩ أكتوبر ، هذه التفاصيل توضح درجة التأمر من الانجليز ومدبرى المديرية وحشد رجال الإدارة والخبراء وتخطيط الزينات وموائد الطعام والتأمر الدنىء على حياة الزعيم أكثر من مرة ، ولكنها توضح أيضاً شجاعة رجال سعد فى المواجهة والتضحية إلى حد الصدام الدامى وسقوط الأبرياء . . وإلى صور تهتز لها النفوس والأبدان . . فى غمرة حشود الحكومة التى رتبت لتهتف ضد سعد وتهديد حياته إذا نزل من الباخرة إلى البر . . ولكن عندما يطل زعيم الأمة من الباخرة بهيئته ومهابته تتحول الجموع إلى أصوات هادرة تهتف بحياة مصر وزعيم مصر وبسقوط الانجليز وبرادع الانجليز . . كانت أيام . .

الأسانيد :

- ١ - سعد فخرى عبد النور . . حديث معه .
- ٢ - فخرى عبد النور . . مذكرات .
- ٣ - مجلس النواب . . مضبطة جلسة يوم ٩ ديسمبر ١٩٤٢ .

فكرى أباطة



إذا كان « محمد فكرى حسين أباطة » قد شيعت جنازته في ١٤ فبراير من عام ١٩٧٩ ، فإن محاولة قد جرت قبل ذلك بسنوات لواد قلمه وإخفاء اسمه ، في ١٨ أغسطس من عام ١٩٦١ نشرت الأهرام على صفحتها الأولى خبراً يقول : (أصدر أمس الرئيس جمال عبد الناصر قراراً بإعفاء السيد محمد فكرى أباطة من رئاسة مجلس إدارة مؤسسة دار الهلال ورئاسة تحرير المصور) .

وكان هذا اليوم بداية لإخفاء اسم « فكرى أباطة » من الصحافة المصرية ، ذلك الاسم الذى ظهر على صفحات (الأهرام) منذ عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٦ ، وأثناء عمله بدار الهلال عمل رئيساً لمجلس إدارة الأهرام من ٢٤ مايو سنة ١٩٦٠ إلى ١٥ أغسطس من عام ١٩٦١ .

ورفع اسم « فكرى أباطة » من صحف (دار الهلال) والتي بدأ يظهر عليها منذ عام ١٩٢٤ (تاريخ صدور المصور) وفي أكتوبر ١٩٣٤م اختاره أصحاب (دار الهلال) رئيساً لتحرير المصور وملأت الشوارع صيحات باعة الصحف . . (فكرى أباطة . . المصور) .

رفع اسمه من الصحافة المصرية ، وقضى عليه أن يقبع في مسكنه وحيداً ، أو كما قال هو : (حدث اننى قرأت فجأة بالأهرام اننى اعفيت من جميع مناصبى . . وقضى على أن الجأ إلى الشارع واستريح في قهوة الأنجلو . . .)

وجرت حول الرجل . . عملية تعذيب من نوع غريب . . كان في عام (الفصل) في الثامنة والستين من عمره (ولد عام ١٨٩٣م) وانطفأ اسمه بين الناس بقرار اتهام غامض نشر في الصفحة الأولى من (الأهرام) في صورة (تعقيب من مصدر مسئول) يشوه صورة « الرجل » بسبب مقال من مقالاته دون أن يكتب أحمد من فرسان الكلام كلمة واحدة في حق الرجل ، ودون أن يسمح له بالتوضيح أو بالشرح أو بالتعقيب . .

ولكن سمح له بالاعتذار ، وسط هذا المناخ وفحيح الافاعى حوله وهو على اعتاب السبعين . . سمح له بالاعتذار في صورة مقال خرجت به (الأهرام) أيضا يوم الاثنين ٢٥ سبتمبر ١٩٦١ على الصفحة الأولى . . مقال اضاع كثيرا من رصيد الرجل عند الناس . . ثم سمح له بأن يعود ككاتب في المصور بداية من ١٦ إبريل ١٩٦٢ . . واعتقد أن الموقف كله يستحق أن يروى للأجيال الجديدة . .

في ١٨ أغسطس ١٩٦١ صدر (المصور) وبه مقال « فكري أباطة » بعنوان (الحالة ج) حذر فيه من أن الحرب الباردة توشك أن تتحول إلى حرب حامية واقترح - حسب طريقته وبأسلوبه - حل جميع الأحلاف العسكرية ، وحل الدولة الشيوعية ، وجلاء القوات السوفيتية والأمريكية والإنجليزية والفرنسية من ألمانيا الغربية والشرقية ، وتوحيد الشطرين في دولة محايدة واقترح إجراء إصلاح جوهري في كيان الأمم المتحدة ، وجلاء القوات الأجنبية من آسيا وأفريقيا ، وحياد منطقة الشرق الأدنى وجميع الدول العربية . . ثم اقترح قيام اتحاد فيدرالى بين الدول العربية ، على أن تدمج فلسطين بها فيها إسرائيل في هذه الدول وذلك بعد أن تزول الصفة الدينية عن إسرائيل ويصبح الإسرائيليون كأي أقلية من رعايا هذا الاتحاد وأن تكفل لهم كل حقوقهم . . وختم المقال بدخول الصين الشعبية الأمم المتحدة . .

هذا هو مقال ١٨ أغسطس ١٩٦١ الذى كتبه « فكري أباطة » كأمنيات يقوم بها لو كان أحد أقطاب العالم ، مجرد افكار تقبل أو ترفض ، تناقش أو لا تناقش ، وكان يمكن أن يدور حولها حوار ينتهى بأن ترفض برمتها ، إلا أن « المعقب المسئول » الذى أشارت إليه (الأهرام) عندما نشرت قرار فصل « فكري أباطة » رأى - حسب خبر الأهرام - (إن هذا الاتجاه يحمل معانى عديدة لايمكن السكوت عليها فهو ينطوى على دعوة بأن تتجمع الدول الكبرى وتفرض على الدول العربية اتحادا بينها كما ينطوى على دعوة للدول الكبرى بأن تفرض دمج إسرائيل في اتحاد عربى) .

ولم يعرف أحد من هو هذا « المعقب المسئول » وأغلب الظن أنه هو نفسه الذى كتب حيثيات فصل « فكري أباطة » ثم نشرت الحيثيات على أنها كلام « معقب مسئول » .

وقد حاول « فكري أباطة » أن يرد ولم يسمح له أحد بالرد وإنما سمحوا له بالاعتذار الذى أشرنا إليه ، وذلك في صورة مقال بعنوان « معركة بين ضميرى وقلمى » في مقال نشره الأهرام في ٢٥ سبتمبر ١٩٦١ واستهله بقوله : (كان واجبا على أن أنشر لقرائى إيضاحا عن مقالى . . ولقد كان أوجب أن أقدم هذا الايضاح لصاحب الشأن أولا ، وهو سيادة الرئيس . . ولقد فعلت والرجل العظيم الذى أعفى المحكوم عليهم بالإعدام من الإعدام - والذى أعفى الذين تأمروا على حياته

من الأشغال الشاقة المؤبدة - هذا الرجل لا يعز عليه أن يعفى فكرى أباطة لا من الإعفاء وإنما من حيثيات الاعفاء إذا شاء الله ، فشاء . . لا يمكن - بحال - أن يختفى قلم فكرى أباطه في عهد جمال عبد الناصر .

ومقال الاعتذار طويل اختلفت حوله الآراء وبعد الاعتذار بستة أشهر وتسعة عشر يوما سمح « عبد الناصر » لفكرى أباطة أن يعود للكتابة في المصور في ١٦ ابريل ١٩٦٢ .

ويعلمنا أن نذكر هنا أن « صبرى أبو المجد » في كتابه « فكرى أباطة » قد سجل (ص ٥٨) أنه بحث طويلا عن قرار أصدره الرئيس جمال عبد الناصر بإعفاء فكرى أباطة ، غير أنه لم يجد قرارا بهذا الشكل لا في الوقائع المصرية ولا في دار الهلال ولا في ملف فكرى أباطة بدار الهلال . وإذا كان هناك قرار بهذا الشكل فلماذا لم ينشر ؟

ومهما يكن من أمر فإن عام ١٩٦١ م كان أخطر أعوام ابن (كفر أبو شحاته) بالشرقية . . فلنبدا من هناك . .

كفر «أبو» شحاتة

في (كفر «أبو» شحاته) شرقية ولد « محمد فكرى حسين أباطة » والتاريخ الأرجح لمولده هو عام ١٨٩٣ وهو تاريخ ميلاد عدد من ساسة مصر مثل « محمد صبرى أبو علم » و« عبد الفتاح الطويل » ووالدته ابنة أحد أعيان « ههيا » وعقد قرائنها على والده في ههيا ثم انتقلا إلى (منيا القمح) في ذهبية ثم بحر موسى الجميل ، كتب « فكرى أباطة » عن نفسه فقال : (أنا متدين ومؤمن ، ومسلم ، ودينى وإيمانى وإسلامى من النوع العميق لا من النوع السطحي ، تدين سر لا جهر . . علمنى والدى عدم التعصب . . دائما يردد على مسمعى الحديث النبوى الكريم . . (أوصيكم خيرا بنى خوؤلتكم الأقباط) .

دخل كتاب الشيخ « جاد » وزوجته الشيخة « صابحة » وظلت أصابعه وقدماه رغم مرور السنين تشكو عصا الشيخ والشيخة . . وسكنت الأسرة حتى شبها بالقاهرة ، ولما كان أبوه من طلبة الأزهر ومن خريجه أدخله الأزهر ثم التحق مع أخوته بمدرسة النحاسين المواجهة للكتاب (خان جعفر) وخلع الجلالية ولبس (البدلة) عندما التحق بمدرسة عابدين الابتدائية وانتقل إلى مدرسة الجيزة الابتدائية بعد ان انتقلت الأسرة إلى مصر القديمة ، وحصل « محمد فكرى حسين أباطة » على الشهادة الابتدائية في يونيو ١٩٠٩ ، أى إن عمره كان ١٦ سنة إذا كان عام مولده

١٨٩٣م كما يرجع الكثيرون ، ولكن « فكري أباطة » يقول (لا أحد يعرف تاريخ ميلادى . . ولا الجن الأزرق) .

مهما يكن من أمر فقد التحق بالمدرسة السعيدية الثانوية في أكتوبر ١٩٠٩ ، وكان زميله « محمد التابعى » وحصل على شهادة الكفاءة في يونيو ١٩١١ وشهادة البكالوريا في يونيو ١٩١٣ . وكان يسكن في مصر القديمة ويذهب بالترام إلى الجيزة ويعترف أنه طوال السنوات الأربع لم يدفع مليا واحدا في الذهاب والإياب (كنت اعتلى سلم الترام اليمين فإذا أطل الكومسارى انتقلت للشمال بين التلاميذ الآخرين الذين مر عليهم الكومسارى) !

وفي المدرسة السعيدية كان في الفريق الأول لكرة القدم ، وفريق التمثيل ، وفي جماعة الخطابة ، تفتحت مواهبه في جميع الأنشطة .

وفي أكتوبر ١٩١٣ التحق بمدرسة الحقوق وتخرج فيها عام ١٩١٧ ، وسوف نسير في الحلقة الخاصة بمحمد صبرى أبو علم أنه فصل وآخرين لمدة سنة بسبب الدعوة لعدم استقبال « السلطان حسين كامل » أثناء زيارته لمدرسة الحقوق ، وعندما وقع الاعتداء على السلطان في ٨ أبريل ١٩١٥ ألقى القبض على « محمد صبرى أبو علم ، وأحمد مرسى بدر ، وحسن ياسين ويوسف الجندي ، وآخرين » وقضوا ثلاثة أشهر في سجن طره فتخرجوا سنة ١٩١٧ مع « فكري أباطة » الذى لم يقبض عليه وتأخر تخرجهم لمدة عام .

الثورة والنضال الوطنى

تخرج في الحقوق عام ١٩١٧م كما عرضنا وعمل محاميا تحت التمرين في مكتب « محمد زكى على » أحد أقطاب الحزب الوطنى ، وفكري أباطة بدوره أحد شباب الحزب الوطنى ، وقدر له أن يذهب إلى أسيوط ويعمل في مكتب « حامد جودة » وهو من قرية (درنكة) بجوار مدينة أسيوط ، والذى انضم فيما بعد للوفد وانشق مع أحمد ماهر على الوفد ، وأصبح رئيسا لمجلس النواب ، وقد ذهب فكري أباطة ليلعب كرة القدم في أسيوط ضمن فريق النادى الأهلى .

ووصلت أخبار الثورة الكبرى إلى أسيوط ، وضرب الانجليز المستشفى فقتل مرضى كثيرون ، وخرجت ديروط وديرمواس في ثورة عاصفة دامية ، وأعد فكري أباطة نشيدا للثورة وألقاه في الكنيسة (فإذا بالناس تخرج موج يوم القيامة) وزحف البؤساء زحف الأسود الكاسرة على مستودعات الذخيرة وعلى سلاح البوليس وارتفع اللهب في أجزاء كثيرة من المدينة . . واشتعلت

الثورة في المدينة . . كانت ثورة ضد الانجليز والحكومة . . وضد البذخ والثراء الفاحش . . وحكموا على المأمور الوطني « محمد كامل » بالإعدام ، وقبضوا على الكثيرين ، ويسجل « عبد الرحمن الرافعي » ثورة أسيوط وضحاياها . . شارك « فكرى أباطة » في إشعال الثورة في أسيوط . . وصهرته ثورة أسيوط في أتونها .

وهكذا شارك « فكرى أباطة » الابن الملتزم بالحزب الوطني (مصطفى كامل ومحمد فريد) في ثورة ١٩١٩ تحت قيادة « سعد زغلول » وعلاقة فكرى أباطة بسعد زغلول كانت علاقة ود ومحبة ، ولا ينسى « فكرى » عندما فصل سنة ١٩١٠ من المدرسة السعيدية لأنه من سواقط القيد ولم يقدم شهادة ميلاد ، فسافر إلى الإسكندرية لمقابلة عمه « إسماعيل أباطة باشا » ليتوسط له لدى « سعد زغلول » ناظر المعارف ، وأمر « سعد باشا » بقبوله . . ويقول فكرى أباطة : (كان سعد باشا عندما اعنف في معارضته يقول لى . . الحق علىّ الى دخلت المدرسة . .) وفكرى أباطة شخص وفي ومنصف وصادق . . قال كلمة حق في سعد زغلول وفي خليفته مصطفى النحاس . .

فكرى أباطة . . من العناصر القليلة التي تمسكت بخط الحزب الوطني في عدم المشاركة في الوزارات . . هذا الخط لم يتمسك به عبد الرحمن الرافعي سكرتير الحزب ، ولا حافظ رمضان رئيس الحزب وشاركا في وزارات الأقلية السياسية !

وبعد أن صدر قانون تنظيم الأحزاب في ٧ سبتمبر ١٩٥٢ سارع « فتحى رضوان » بتقديم إخطار باسم (الحزب الوطني الجديد) إلا أن فكرى أباطة كان في مقدمة المعارضين لمحاولة الاستيلاء على الحزب وشارك في القضية المرفوعة أمام محامى الدولة في ديسمبر ١٩٥٢ . . . وانتهت « الخصومة بصدر قرار حل الأحزاب في ١٦ يناير ١٩٥٣ ، وكان « فكرى أباطة » قد اختير عضوا باللجنة الإدارية للحزب الوطني سنة ١٩٢١ ، وظل وفيا لمبادئ الحزب ولرجالها وبارا بأبنائه حتى الرmq الأخير في حياته .

حياته في الصحافة

ارتبط اسمه بالأهرام وبالمصور ، ومن قبل ذلك كتب في (المؤيد) التي أصدرها « الشيخ على يوسف » وكان يوقع مقالاته باسم « عابر سبيل » ، زميله في المدرسة السعيدية « محمد التابعى » أصبح صحفيا له أسلوبه الخاص ، وهكذا أصبح أيضا « فكرى أباطة » . . ارتبط بالحزب الوطني حتى توفي ، وكذلك كان مع مجلة المصور الأسبوعية .

بدأ الكتابة في الأهرام عام ١٩١٩ م وعلى الرغم من أنه بدأ يكتب في المصور منذ أكتوبر ١٩٢٤ (تاريخ صدور المصور) استمر يكتب في الأهرام حتى عام ١٩٢٦ م وبعدها كان يكتب في

الأهرام على فترات . . التزم في كتاباته بالخط الوطنى القومى . . العداء للاحتلال ، والحيدة بين الأحزاب والشخصيات السياسية ، والعلاقات الطيبة مع الساسة .

كان أسلوبه قريبا ومألوفاً لدى القراء والمستمعين ، واشتهر بالخطابات المفتوحة وبكلمة الحق وبالجاسوسة الحسناء مع الصراحة والموضوعية في تقديره للأمور . . كانت له مواقف عليها ملاحظات . . ولكن من منا ليست على بعض مواقفه ملاحظات ؟ كان نقيبا للصحفيين . . أقصد كان نقيبا ذكيا ناجحا . . نسيت أن أقول إنه حصل على (الباشوية) . . له كتاب شهير (الضاحك الباكي) ترجم إلى عدة لغات . . ظل عشر سنوات يكتب في المصور حتى اختير رئيسا للتحرير عام ١٩٣٤ م . . عارض معاهدة ١٩٣٦ ، وعارض قوانين مصادرة الصحف وحبس الصحفيين احتياطيا ، وهاجم قانون تحريم الاجتماعات والتظاهرات ، ونادى بالحياة وعام ١٩٤٥ كان مستشارا صحفيا لوفد مصر عند تأسيس (الأمم المتحدة) وبعث برسائل صحفية نشرت في المصور والأهرام والمصرى .

استمرت رحلته مع المصور قرابة ٥٥ عاما منذ عام ١٩٢٤ حتى عام الرحيل ١٩٧٩ ، وفي مقال طريف كتبه « محمد سعيد » في المصور ذكر أن مجموع المقالات التى كتبها « فكرى أباطة » في المصور هو ٥٥٠٠ مقال فى مختلف ألوان التعبير الصحفى تنوعت بين السياسة والحزبية ، والفن والنقد الاجتماعى ، والاقتصاد والأدب ، والسلوكيات .

ومن لحظة التعاقد معه حتى لحظة الرحيل لم يتخلف عن كتابة مقاله ، فى أكتوبر ١٩٧٧ كتب فى حديث الذكريات (فى أوائل العشرينات كنت أجرب قدراتى على الكتابة فى الأهرام حتى وصلتني برقية من جبرائيل تقلا - أحد أصحاب الأهرام - تطالبني بالحضور إلى القاهرة لكى أتناقش أجز مقالاتي . . لكنني رفضت هذا العرض متصورا اننى ابيع قلمي . . وبعد احتفال المصور بعشر سنوات على صدوره ، وبعد أعوام من الكتابة والمشاركة فى أسرة التحرير اختارنى أصحاب دار الهلال رئيسا للتحرير فى أكتوبر عام ١٩٣٤) . .

كان مقاله يوم رحيله فى ١٤ فبراير ١٩٧٩ عن التضامن العربى ونبذ الفرقة ، ونشر المصور له كلمات بعد رحيله بعنوان (الحب . . نعم الحب) لقد كانت المحبة تظلل آخر كلماته إلى القراء . .

وفى ١٤ فبراير عام ١٩٧٩ م خرجت جموع مختلفة تودع للمرة الأخيرة « محمد فكرى أباطة » ابن (كفر أبو شحاته) شرقية لاعب الكرة ، الخطيب المفوه ، الشاعر والزجال ، الكاتب الساخر المتميز ، البرلمانى البارز ، نقيب الصحفيين ، ورئيس مجلس إدارة الأهرام ودار الهلال ، ورئيس تحرير المصور ، الابن البار للحزب الوطنى (مصطفى كامل ومحمد فريد) وعضو مجلس إدارته . .

كانت الجموع حزينة خلف جثمانه . . والذاكرة تعود إلى ذلك اليوم من أغسطس عام ١٩٦١ الذى صدر فيه قرار بفصله من جميع مواقعه الصحفية . . وعلى الرغم من أنه عاد إلى الكتابة ، كان « فكرى أباطة » يشعر بأنه كزجاج أصيب بكسور ولا يمكن أبدا أن تداوى الكسور . . ودفنوا الجثمان وعادوا يبحثون عن مذكراته وعرفوا انه أضرم فيها النيران قبل لحظة الفراق الأخيرة ! رحم الله محمد فكرى حسين أباطة وغفر الله للآخرين ، كل الآخرين .

الأسانيد :

- ١ - أنور الجندي . . الصحافة السياسية .
- ٢ - حازم فودة . . نجوم شارع الصحافة .
- ٣ - د . حمادة إسماعيل . . رسالة دكتوراه عن عبد الرحمن الرافعى .
- ٤ - شكرى القاضى . . الجمهورية ٢١ / ٢ / ١٩٨٨ .
- ٥ - صبرى أبو المجد . . (فكرى أباطة) .
- ٦ - محمد سعيد . . المصور ٧ / ١٢ / ١٩٨٨ .

قاسم أمين



٢١ افريل (ابريل) الساعة التاسعة مساء اليوم المذكور - التليفون يدق ، فدق قلبي لدقه ، وسمعت أحمد في التليفون يردد بصوت المنزعج قاسم أمين ، ففهمت أنه نزل به مصاب ، فانخلع قلبي ، وقمت منزعجا نحو التليفون ، وسألت ، فقيل : قاسم بيك مات ، فاعترائي هلع شديد ، وقلت انتحر الرجل ! . ثم طلبت عربة ، وركبت مع عبد الخالق وصدقى إلى بيته فوجدنا العويل والصراخ والبكاء والنواح . وهناك رأيت طلعت ، ويحيى ، والدكتور عباس ، وفهمنا من مجموع أقوالهم أنه عاد إلى منزله في نحو الساعة الثامنة ، وأبى ان يأكل مع الآكلين ، وتألم من شىء في أعلى صدره . فدعكته زوجته بهاء الكولنيا وطلب نارا لإشعال سيجارته ثم فارق الحياة .

وقد تحدث من كانوا في المكان بالانتحار ، وسألت الدكتور عباس عن حقيقة الأمر ، فقال : إنه موت طبيعى ، ولكن كان في جوابه شىء من التردد ، وكررت أقوالى عليه في الغد ، فأجاب - بعد سكوت - بأن الموت طبيعى ، وقال إنها كان عاشقا ، فقلت له : اعرف شيئا من ذلك .

وذهبت إلى البيت مع فتح الله بيك بركات ، وبت طوال ليل بين التأثر عليه تارة عندما أذكر صداقته ، والتأثر منه تارة عندما اذكر هجره لى . وهذا لطف من الله بى ، لأنه لو حل الموت والصداقة في قوتها - لفاضت روحى معه .

وكنت أول من توجه في الصباح إلى منزله باكرا ، ولم أذق في ليلتى طعم النوم ، وجلست هناك أباشر مايلزم عن مسائل التشيع . وقد مشيت في الجنازة إلى السيدة .

ومن السيدة أخذت عربة ، وسرت إلى القرافة ، وهناك - بعد الدفن - قام فتحى ، فارتجل خطابا ، أبكى الحاضرين وبكى بكاء شديدا .

وقد انفعلت انفعالا شديدا فاض ببعض الكلمات . . . وكانت نفسى فى أشد حالات الانفعال ، وكان فى صوتى البكاء والناس من حولى يخافون على ، وأخيرا عدت والدموع تنزل من عينى . .

حركة وطنية شاملة

عاد « سعد زغلول » والدموع تنزل من عينيه بعد أن دفن صديق عمره « قاسم أمين » يوم الأربعاء ٢٢ إبريل ١٩٠٨ ، وكما قال فى السطور السابقة - التى نقلناها عن صفحتى ٦٣١ - ٦٣٢ من مذكراته .

وكنا قد اعتمدنا أن تكون تلك الصورة الحية الدقيقة الصادرة التى رسمها « سعد » فى مذكراته عن ليلة وفاة « قاسم » بداية لموضوع عن « قاسم أمين » فى ذكرى وفاته ، وقد دفعنا بالموضوع شهرا إلى الأمام بعد أن حل (يوم المرأة العالمى) فى ٨ مارس . والغريب أن هذا اليوم يعود إلى حركة نسائية وقعت فى الولايات المتحدة الأمريكية يوم ٨ مارس عام ١٩٠٨ ، ثم عقد اجتماع نسائى فى (كوبنهاجن) فى ٨ مارس ١٩١٠ تقرر فيه المطالبة بحقوق المرأة ، وبدأ الاحتفال بيوم المرأة العالمى لأول مرة فى ٨ مارس ١٩١١ .

وعلى الرغم من أننا ننشر الموضوع الخاص بقاسم أمين فى شهر مارس الذى وقع فيه (اليوم العالمى للمرأة) - على الرغم من هذا - لم يكن قصدنا من الحديث عن قاسم أمين هو ما اشتهر عنه ، أو ما أثير من ضجة حوله بسبب كتابيه (تحرير المرأة) ثم (المرأة الجديدة) وإنما بسبب أن « قاسم أمين » كان واحدا من رجال مصر ، قام بدور هام فى (العقد الأول) من القرن العشرين . ذلك العقد الذى اشتد فيه الظلام على شعب مصر ، فخرجت من تراب مصر شموع تتحدى هذا الظلام وتضيء الطريق لنا طوال هذا القرن على امتداده بما فيه من تقدم وتراجع إذ إن حركة « قاسم أمين » من أجل امرأة جديدة كانت جزءا من حركة شاملة لوطن جديد . وكانت دعوته لتحرير المرأة جزءا من حركة تحرير الوطن .

هذا العقد الفريد

مع بداية القرن العشرين ، كان النشاط الاقتصادى للأجانب قد أخذ يتوغل فى الحياة المصرية ليسيطر عليها . وفى سنة ١٩٠٢ بلغت جملة الأموال الأجنبية العاملة فى مصر حوالى ٤٣ مليون جنيه مصرى وكان أغلب هذه الاستثمارات مركزا فى الشركات العقارية وشركات النقل والمواصلات ، وشركات الاستغلال التجارى والاستغلال الصناعى ، أى مركزة أساسا فى مشروعات النفع العام كالسكك الحديدية والنقل والمواصلات ثم الزراعة ، وبنسبة قليلة فى الصناعة .

أما في الزراعة لم يكن هناك نظام صالح للتسليف يقتض من الفلاح ما يحتاج إليه بطريقة تبعدة عن الفقر وكان المرابون الأجانب يقرضون الفلاح بالفوائد الباهظة التي تثقل كاهله . وتعرضت البلاد مرات كثيرة للمجاعة . وعلى الرغم من أن الاحتلال كان يهدف إلى تحويل مصر إلى مزرعة له فإن الفلاح في الصعيد لم يكن يجد الدرة ، والفلاح في الوجه البحري لم يكن يجد الأرز يضاف إلى ذلك الأمراض (الشوطة) التي حصلت للمواشى .

وفي أواسط ذلك العقد كان سكان مصر حوالى ١١ مليون نسمة . منهم حوالى ٥٥ مليون نسمة عاطلون ، وحوالى ٢٥ مليون نسمة يعملون في الخدمات المنزلية وما يائها ، وحوالى ٢٥ مليون نسمة يعملون بالزراعة ، والنصف مليون الباقي موزع بين كبار ملاك الأرض والفئات المتوسطة ومستخدمى الحكومة والتجار ، وعدد من الصناعات والحرف الأخرى . باختصار كان هناك أكثر من عشرة ملايين نسمة يعيشون تحت خط الفقر .

وإلى جانب هذا كله كان التسلط الاحتلالى . . فالمستشار الانجليزى في كل نظارة له الكلمة الأولى ، والرجل الأجنبى يقهر الرجل المصرى ، وويل للمصرى إذا مس شعرة من الانجليزى أو من احتسمى بسلطات الاحتلال . ونموذج (دنشواى) في يونيو ١٩٠٦ واضح الدلالة . . المشائق والسجون والجلد والتعذيب لعشرات المصريين لمجرد أن (انجليزيا) واحدا مات بضربة شمس بعد أن طارده الفلاحون المصريون من حقولهم وهو يعث بأرواحهم في رحلة صيد مع بعض زملائه من رجال الاحتلال .

رجال من مصر

في هذا العقد الأسود ، اشتدت سواعد رجال مصر لمواجهة هذا التحدى الخطير في كل المجالات . . في السياسة ، في الاقتصاد في الصحافة ، في الإصلاح الدينى ، في التعليم ، في النشاط الاجتماعى . . وكان « قاسم أمين » واحدا من هؤلاء الرجال . كان قد عاد من فرنسا في صيف سنة ١٨٨٥ م حيث اقترب هناك من « السيد جمال الدين الأفغانى » و« الشيخ محمد عبده » وسنة ١٨٩٤ م اصدر كتابه بالفرنسية (المصريون . . رد على الدوق داركور) وكان « الدوق داركور » هذا قد اصدر سنة ١٨٩٣ م كتابه (مصر . . والمصريون) بالفرنسية هاجم فيه تقاليد المجتمع الشرقى وأوضاعه . ثم اصدر « قاسم أمين » سنة ١٨٩٩ م كتابه (تحرير المرأة) الذى قوبل بعاصفة من النقد ، وفي العام التالى ١٩٠٠ عالج « قاسم أمين » الرد على حجج خصومه في كتابه (المرأة الجديدة) الذى ألهب بدوره حماس المعركة من جديد .

كانت تلك هى جهود قاسم أمين في الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر . وفي العقد الأول

من القرن العشرين تراه يشارك في نادى المدارس العليا ، وفي الجمعية الخيرية الإسلامية ، وفي الجامعة الأهلية .

ويعجب الذين يقرءون تاريخنا إذا عرفوا أن (نادى المدارس العليا) الذى تأسس سنة ١٩٠٥ ورأسه التعاونى « عمر لطفى » كان طليعة لكفاح الطلبة المصريين ، وأن « محمد طلعت حرب » الذى أسس (بنك مصر) سنة ١٩٢٠ كان قد أطلق صيحته فى إنشاء (بنك وطنى) سنة ١٩٠٦ ، وكان « مصطفى كامل » يندد بالاحتلال الانجليزى فى كل مكان ، وفى الوقت ذاته كان « قاسم أمين » نائباً لرئيس اللجنة التى تدعو لقيام الجامعة الأهلية .

وفى أواخر القرن التاسع عشر كانت هناك جريدة (المؤيد) للشيخ على يوسف ، ثم ظهرت (اللواء - مصطفى كامل) فى يناير ١٩٠٠ . وفى سنة ١٩٠٧ يصدر « أحمد لطفى السيد » (الجريدة) وينشأ حزب الأمة ، والحزب الوطنى ، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية وتنشط (الجمعية الخيرية الإسلامية) من منطلق قومى وهو مساعدة فقراء المصريين الذين طعنهم الفقر والمرضى ، وينشط « سعد زغلول » داخل (نظارة المعارف) لمواجهة المستشار الانجليزى « دانلوب » وللاخذ بأيدى المصريين فى التعليم .

وهكذا فإن (رجال مصر) واجهوا هذا العقد الأسود . . فأنشئوا الأحزاب وأصدروا الصحف ، وأسسوا الجمعيات والنوادى ونادوا بالتحرك الاقتصادى . ونلمح نحن الآن من بعيد مجموعة من الرجال متقاربة الاتجاهات ، تنشأ معا وتتحرك معا ، تتفق وتختلف ولكنها فى النهاية فصيلة واحدة . . « الشيخ محمد عبده ، سعد زغلول ، أحمد لطفى السيد ، قاسم أمين . . » .

السيد والشيخ وقاسم

عندما جاء « السيد جمال الدين الأفغانى » إلى مصر فى مارس ١٨٧١م كان « قاسم أمين » دون الثامنة من عمره إذ إنه ولد (فى أول ديسمبر ١٨٦٣م) ، وعندما أمر الخديوى توفيق بترحيل « السيد » وخادمه « أبو تراب » من مصر إلى (بومباى) فى ٣- أغسطس سنة ١٨٧٩م كان « قاسم أمين » فى السنة الثانية بمدرسة الحقوق والإدارة ، ولهذا لا نجد اسمه بين مريدى السيد أمثال « محمد عبده وعبد الله النديم ، وسعد زغلول ، ومحمود سامى البارودى ، وإبراهيم المويلحى ، وإبراهيم اللقانى ، وعلى مظهر ، وحفنى ناصف ، وعبد السلام المويلحى ، وعبد الكريم سلمان ، وأديب إسحق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستانى والسيد وفاء التونى ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد . » ولكن قدر لقاسم أمين أن يحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٨٨١م ويسافر فى بعثة إلى فرنسا لدراسة القانون ، وكان « السيد جمال الدين الأفغانى » قد سافر إلى باريس ولحق به

« الشيخ محمد عبده » في أواخر عام ١٨٨٣ م حيث أصدر (العروة الوثقى) والتي صدر العدد الأول منها في ١٣ مارس ١٨٨٤ لمناهضة الزحف الانجليزى على الشرق ، وخاصة في الهند ومصر ، وفي تلك الفترة اقترح « قاسم أمين » من السيد جمال الدين الأفغانى ، وعمل مترجما خاصا للشيخ محمد عبده « في باريس . وعاد « قاسم » من فرنسا في صيف سنة ١٨٨٥ م إلى مصر وعين في النيابة المختلطة ، ومنذ أن عاد « الشيخ محمد عبده » إلى مصر سنة ١٨٨٨ م كان « قاسم » وثيق الصلة به ينهل من أفكاره في الإصلاح الدينى والتربوى وظل وفيها له إلى أن رحل « الشيخ » في صيف ١٩٠٥ فظل « قاسم » وفيما لذكراه . وتوثقت العلاقة بين قاسم أمين وبين سعد زغلول وأحمد لطفى السيد . وعندما سافر « الخديوى عباس حلمى الثانى » إلى الأستانة في يوليو ١٨٩٣ اصطحب معه وفدا يتكون من « سعد زغلول ، وأحمد لطفى السيد ، وقاسم أمين ، وحفنى ناصف ، والشيخ على يوسف . » وعندما أصدر « قاسم أمين » كتابه (تحرير المرأة) ١٨٩٩ م تردد ان مادة الكتاب اتفق عليها « الشيخ محمد عبده ، وأحمد لطفى السيد ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين » عندما كانوا يصطافون في جنيف سنة ١٨٩٨ م ، ويرى بعض الباحثين أن « الشيخ محمد عبده » كتب الفصول الخاصة برأى الشريعة الإسلامية في الزواج والطلاق والحجاب وتعدد الزوجات ، وأن الأفكار الخاصة بالحرية هى لأحمد لطفى السيد ، وأن الأسلوب عليه بصمات سعد زغلول .

على أية حال فإنه بعد أن صدر الكتاب وهبت عليه عاصفة من النقد دافع عنه « سعد زغلول وأحمد لطفى السيد » وهاجمه « مصطفى كامل » و« الخديو عباس الثانى » وجريدة (اللواء) وبعد عام من صدور الكتاب ، قام قاسم أمين بالرد على عناصر الهجوم المختلفة في كتابه الجديد (المرأة الجديدة) وأهداه إلى صديق عمره « سعد زغلول » بعبارة جاء فيها : (فيك قلب يحب وعقل يفكر وإرادة تعمل .) .

الجمعية والجامعة

ومنذ أن عاد « قاسم أمين » من فرنسا سنة ١٨٨٥ م لم يكن بعيدا عن الأنشطة السابقة التى أشرنا إليها بما في ذلك نشاطه في (الجمعية الخيرية الإسلامية) و (الجامعة المصرية) . وقد كان للشيخ « محمد عبده » دور ملحوظ في هذين المشروعين ، ولكن إذا تحدثنا عن (الجمعية الخيرية الإسلامية) لانسى دور « عبد الله النديم » في تأسيس جمعية بهذا الاسم في الإسكندرية في ١٨ ابريل ١٨٧٩ على أن يكون من أهدافها فتح المدارس للبنين والبنات لجميع أبناء الشعب بالمجان للفقراء وبمصروفات للقادرين وتقديم المعونات المالية للفقراء من أهل الاسكندرية . وكانت

مدارس هذه الجمعية مفتوحة لجميع أبناء العقائد الدينية المختلفة . كذلك إذا تحدثنا عن دور «الشيخ محمد عبده» في مشروع الجامعة المصرية فلا ينبغي ان ننسى دعوة مجلة (الهلال) سنة ١٨٩٨م ودعوته سنة ١٩٠٠م . وسنة ١٩٠٣م . وكذلك دعوة مجلة المقتطف سنة ١٩٠٣م ، وفي سنة ١٩٠٤م تبنى «مصطفى كامل» و«الشيخ محمد عبده» الدعوة للمشروع ، واتصل الشيخ بالقادرين للتبرع له ، وكان يعاونه في جهود هذه «سعد زغلول وقاسم أمين» . ثم تأسست لجنة كان نائب الرئيس فيها «سعد زغلول» وسكرتيرها «قاسم أمين» وذلك في ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ . وفي ٣٠ أكتوبر ١٩٠٦ تخلى «سعد زغلول» عن مكانه في اللجنة كنائب للرئيس وذلك لاختياره (ناظرا للمعارف) وحل محله «قاسم أمين» . وفي ٧ مارس سنة ١٩٠٨ تشكلت لجنة برئاسة «الأمير أحمد فؤاد» وعضوية «حسين رشدي ، وقاسم أمين ، ويعقوب ارئين ، ولوزينا بك ، ومسئو ماسبيرو ، ومحمد علوي ، وأحمد زكي» لوضع المشروع التنفيذي للجامعة . ويوم ١٧ ابريل سنة ١٩٠٨ شن «محمد فريد» حملة ضد اللجنة وضد المشروع ، ورحل قاسم أمين في ٢١ ابريل . . وعقد مجلس إدارة الجامعة أول جلسة له يوم ٢٤ مايو ١٩٠٨ ، ولم يكن قاسم أمين بالطبع عضوا في أول مجلس لإدارة الجامعة الذي تشكل على النحو التالي «الأمير أحمد فؤاد رئيسا - حسين رشدي وإبراهيم نجيب وكيلين - أحمد زكي سكرتيرا - حسن سعيد أمينا للصندوق - وعضوية كل من يعقوب ارئين ومرفص حنا ومسئو لويز ينيك وعلى ذو الفقار ، وعلى أبو الفتوح ويوسف صديق وعبد الخالق ثروت ومحمد علوي .» .

قاسم والنديم

على الرغم من أننا لم نعط الأولوية لموضوع (تحرير المرأة) عند الحديث عن «قاسم أمين» ، وعلى الرغم من وجود محاولات رائدة في هذا المجال سابقة عليه تتمثل في مدارس تعليم البنات أيام «محمد علي الكبير» ، والمفاهيم الجديدة التي ألقى بها «رفاعة الطهطاوي» في بحر النهضة المصرية الحديثة ، إلا أنه مما لا شك فيه أن «قاسم أمين» أدرك بذلك مساوئ غياب الديمقراطية وأثرها في استبداد الحكومات بالرجل ، واستبداد الرجل بالمرأة وهذه سمة المجتمعات الشرقية عامة . والسبيل إلى تحرير المرأة هو (تربية المرأة) حتى تبلغ قدرا من العلوم ، ودراسة بعض الحقائق العلمية والطبيعية حتى تطرح الخرافات . ذلك كله في حدود ما نادت به (الشرعية الإسلامية) ولم يكن لقاسم أمين الذي ولد من أب تركي وأم صعيدية ، وكان زميلا للشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، واقترب من السيد جمال الدين الأفغاني أن يخرج على أحكام الشريعة .

قضى «قاسم أمين» المرحلة الابتدائية في مدرسة رأس التين بالإسكندرية ، وأكمل تعليمه

التجهيزى (الثانوى) فى القسم الفرنسى بالمدرسة الخديوية بالقاهرة . وبعد أن حصل على ليسانس الحقوق من مدرسة الحقوق والإدارة سافر فى بعثة إلى فرنسا عام ١٨٨١ م . عمل بالنيابة المختلطة ، وقسم قضايا الحكومة ، ورئيسا لنيابة بنى سويف ، ثم رئيسا لنيابة طنطا وجىء له بعبد الله الندين مقبوضا عليه سنة ١٨٩١ م فقدم له (القهوة والدخان والنقدية) وأوصى به لدى مدير سجن طنطا وشارك فى حملة للعفو عن عبد الله النديم وعن غيره من ثوار الوطن . وكما أسلفنا كتب فى صحف ذلك العصر ، وأصدر كتابه (المصريون . . ردا على الدوق دراكور) سنة ١٨٩٤ م . وأصدر (تحرير المرأة) سنة ١٨٩٩ م وسنة ١٩٠٠ م أصدر (المرأة الجديدة) وكان قد نشر على صفحات (المؤيد) التى كان يصدرها « الأزهرى الصعيدى الشيخ على يوسف » وشارك فى نشاط (الجمعية الخيرية الإسلامية) وفى الدعوة إلى (الجامعة المصرية) إلى أن رحل مساء يوم الثلاثاء ٢١ ابريل ١٩٠٨ بعد حياة قصيرة (١٨٦٣ - ١٩٠٨) فى الزمن ، عميقة الأثر والتأثير فى تاريخ مصر الحديث .

الأسانيد :

- ١- د . أمال السبكى . . . الحركة النسائية فى مصر
- ٢- د . سامية حسن . . . الجامعة الأهلية .
- ٣- سعد زغلول . . . المذكرات جـ ١ تحقيق د . عبد العظيم رمضان .
- ٤- د . على الخديوى . . . عبد الله النديم .
- ٥- د . محمد حمارة . . . قاسم أمين . . .

البابا كيرلس الخامس



البطريك رقم (١١٢) في سلسلة تاريخ البطاركة للكنيسة القبطية ، رجل عميق الجذور في تراب مصر باسق كنخيل بلادى ولد عام ١٨٢٤م وتوفى عام ١٩٢٧م فعاش مخلصا لأرض مصر وابنا بارا لشعبها مائة سنة وثلاث سنوات .

عاش الخمسين عاما الأولى من عمره (١٨٢٤ - ١٨٧٤) في عهود م «حمد على الكبير وإبراهيم باشا وعباس الأول وسعيد باشا» ، ومنذ أن اختير ليتولى مسئولية الكنيسة المصرية (أول نوفمبر ١٨٧٤) إلى ان توفى (١٧ أغسطس ١٩٢٧) ثلاثا وخمسين سنة قضاه في عهود ، الخديو إسماعيل ، الخديو توفيق ، والخديو عباس حلمى الثانى ، والسلطان حسين كامل ، والملك أحمد فؤاد » ، عاش عهود جميع حكام الأسرة العلوية جميعهم فيها عدا عهد «الملك فاروق» .

أيام «الخديو إسماعيل» ركزت الإرساليات الأمريكية نشاطها في أسبوط ، وأنشأت الكلية الأمريكية سنة ١٨٦٥م ، ونشطت الإرساليات لنشر البروتستانتية بين الأقباط ولجذب أبناء الأقباط إلى مدارسها . . دخل «البطريك كيرلس الخامس» أسبوط كما دخل السيد المسيح إلى أورشليم راكبا حمارا .

وتقدم موكب البطريك القسس وحاملو فروع النخيل والشموع وضاربو الدفوف والمزمون ، وسافر إلى «أبو» تيج وأخميم وهو يأمر الأقباط بمقاطعة كنائس الإرساليات ومدارسها ، تعاطف مع الثورة العربية وبعد أن انحاز «الخديو توفيق» ومجلس النظار للانجليز ، انعقد يوم السبت ٢٩ يوليو ١٨٨٢ اجتماع وطنى تصدره «الشيخ محمد عبده» وندد «كيرلس الخامس» بمواقف توفيق . . وانتهى قرار الأمة الممثلة في كبار رجال الدين والضباط والتجار وكبار موظفى الدولة (بعدم تنفيذ أوامر الخديو لخيانتته وخروجه عن الشرع والقانون) . «أما عبد الله النديم» خطيب

الثورة العرابية فقد التقى اتجاهه مع الاتجاه القديم للبطريرك في مواجهة مدارس الإرساليات ، وكان النديم قد دعا عام ١٨٧٩م إلى إنشاء (الجمعية الخيرية الإسلامية) بالإسكندرية التي أسست عددا من المدارس الخاصة في مصر لاتتعصب لدين أو لجنس وان أنشأتها هيئة دينية ، وتأسست (الجمعية الخيرية القبطية) بناء على دعوة من عبد الله النديم « وموافقة من البطريرك » كيرلس الخامس « الذى تبنى فكرة إنشاء المدارس القبطية الخاصة التى تفتح أبوابها لأبناء الوطن جميعا .

وأثناء الدعوة إلى الاكتتاب لإنشاء الجامعة الأهلية (١٩٠٨م) وحتى يشجع « البطريرك » أثرياء الأقباط للتبرع قامت الكنيسة المصرية بالتبرع لإنشاء الجامعة الأهلية بمبلغ (ألف جنيه) وتوالت تبرعات الأقباط وهكذا قامت الجامعة منهجا وإعدادا لأبناء الوطن جميعا تميز بالزهد والتقشف ولكنه تميز أكثر بالحرص على مهابة الكرسي الذى جلس عليه « القديس مرقس » مؤسس الكنيسة المصرية . . ذهب « كيتشنر » رمز الاحتلال الانجليزى إلى دار البطريرك على غير موعد وفى موكب اهتز له الناس على الجانبين ، وهو يقصد أن يسبر غور هذا البطريرك الزاهد الذى وقف مع عرابى ضد الانجليز وتوفيق . . وأسرع الحاجب إليه يردد وهو يلتهث . . اللورد . . اللورد يا أبانا . . فأجاب الزاهد الروع . . ومن يكون اللورد يا هذا ؟ اذهب يا ولد وقل له إن أبانا لا يقابل أحدا بغير موعد ! .

وفى سنة ١٩١١م ، وهى السنة التى عقد فيها المؤتمر القبطى بأسسوط والمصرى (الإسلامى) بمصر الجديدة ، وقفت جريدتا (مصر والوطن) خلف الدعوة للمؤتمر القبطى ، وقاطع المؤتمر وعارضه « ويصا واصف » ووصفته جريدة (الوطن) بيهوذا الاسخريوطى وأظهر « كيرلس الخامس » النفور من المؤتمر وحذر من انعقاده وأصدر بيانا طالب فيه المؤتمرين أن يستعملوا الحكمة وأن يتخذوا الوسائل القومية مع الرؤية والتأنى . . فهاجمته صحيفتا (مصر والوطن) وذكرتا (لاشأن لغبطته بمثل هذه الأمور السياسية وانتهى المؤتمران على خير وخطط الحركة الوطنية إلى الامام حتى جاء « سعد » العظيم يقود الحركة الوطنية وتوثقت علاقته مع « الأنبا كيرلس الخامس » وأثار الانجليز مسألة (حماية الأقليات) فقال البطريرك قوله الحاسم . إن المصريين شعب واحد ، والذى يحميهم هو الله وحده وكان من قبل قد رفض العروض التى قدمها « كرومر » بمنح المدارس القبطية معونات مالية . أيد الثورة الشعبية الكبرى وبتشجيعه وبمباركته تقدم رجال الدين المسيحي وفى مقدمتهم « القمص سرجيوس » يخطبون فى المساجد ، وفتح الكنائس لرجال الدين المسلمين يخطبون فيها ويدعون إلى وحدة الوطن القومية ووقف إلى جانب حكومة الشعب برياسة « سعد زغلول » (يناير نوفمبر ١٩٢٤) وبعد أن تأمر الانجليز والقصر ضدها وجاء

«أحمد زيور» في وزارتین متعاقبتین حاول «الملك أحمد فؤاد» أن يبارك «البطريك» وزارة زيور ، قال بهدوء . . (إن البركة لا تمنح باليمين لتسلم باليسار) وظل على صداقته لسعد باشا ، وعلى تأييده للحركة الوطنية بقيادة سعد . . حتى توفي (أوتنيح على حد تعبير الكنيسة) في ١٧ أغسطس سنة ١٩٢٧ أى قبل وفاة «سعد زغلول» بستة أيام . . ففقدت البلاد في أسبوع واحد زعيما وطنيا عظيما ، وقائدا دينيا حكيما له سيرة ينبغي أن تروى لكل أبناء هذا الوطن العظيم .

خمسون سنة تمهيدية

كان زاهدا ناسكا منصرفا عن شئون الدنيا ، ولم يسع في حياته إلى منصب أو إلى دعاية ، لم يكن طالبا لشيء وإنما كان مطلوبا دائما ولد في قرية (تزنمت) بمديرية بنى سويف سنة ١٨٢٤م ودعى باسم «يوحنا» وبعد ميلاده بوقت قصير هجر أبواه مديرية بنى سويف إلى (كفر سليمان) بمديرية الشرقية ، اتجه في صباه إلى الكنيسة ، وعكف على القراءات الدينية ورسم شماسا وظهرت عليه ميول الانقطاع عن العالم وخاصة بعد وفاة والديه ، وفي العشرين من عمره ، سنة ١٨٤٤ قصد دير السريان بالجبل الغربى ولكن أخاه الأكبر الذى تولى شئونه بعد وفاة الوالدين استطاع أن يسترجعه ، وبعد ذلك صمم على التهرب بدير السيدة العذراء بالبراموس .

وسنة ١٨٤٥ رسم (قسيسا) وعندما تمسك الرهبان به ظل يدير شئونهم واستدعاه «البابا ديمتريوس» سنة ١٨٥٥ ورسمه ليصبح (القمص) وليساعد في الكاتدرائية بالأزبكية ، ولكن الرهبان كتبوا للبابا ليعيده إليهم فكان لهم ما أرادوا .

وسنة ١٨٦٩ توفي «البطريك ديمتريوس» وظل المنصب البطريكى خاليا نحو خمس سنوات ، ولإجماع الأقباط على أن يتولى «يوحنا» مسئولية الكنيسة المصرية لجئوا إلى «الخديو إسماعيل» ليعاونهم في هذا الأمر ، فكلفت الحكومة مدير البحيرة لإحضاره من الدير إلى القاهرة ، وأجمع رجال الدين وأعيان الأقباط على اختياره بطريكا في أول نوفمبر سنة ١٨٧٤ وكان عمره خمسين عاما ، وقد عرف عنه الصلاح ومحبة الفقراء والاهتمام بالتعليم .

البطريك والثورة العربية

وتصاعد الصراع بين الكنيسة المصرية من جهة وبين الإرساليات الأجنبية وخاصة الأمريكية من جهة أخرى منذ أيام سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣) - واشتد هذا الصراع أيام إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) وحدث صدام مشهور بين «البابا ديمتريوس» وبين قادة هذه الإرساليات

الأمريكية وواصل « البابا كيرلس الخامس » مقاومته للتيار التبشيري ، وتوجه إلى الوجه القبلى (اسيوط وإبو تيج واخميم) وعمل على عودة التلاميذ من مدارس الإرساليات إلى المدارس القبطية ، واستخدم سلاح (الحرمان) للذين يستمرون فى الاتصال بالإرساليات ، وفى مواجهة الكلية الأمريكية بأسىوط ظهرت الدعوة لإنشاء الكلية القبطية ، وكانت المدارس القبطية مدارس قومية لجميع أبناء مصر شأنها شأن المدارس الإسلامية الأهلية .

وتصاعد مد التدخل الأجنبى وتم خلع « الخديو إسماعيل » وتولى « الخديو توفيق » الحكم فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ ولا يخفى الخلاف التقليدى بين النفوذ الأجنبى والكنيسة المصرية إذ إن المذهب الكاثوليكي نشط فى صعيد مصر مع النشاط الأجنبى أيام «سعيد باشا» ، والمذهب البروتستانتي ازداد نشاطه مع ازدياد النفوذ الانجليزى ، منذ أيام « إسماعيل باشا » وكانت الكنيسة المصرية هى إحدى القلاع الوطنية التى وقفت فى وجه النفوذ الأجنبى الذى استهدف ضرب الكنيسة المصرية أو تخريبها من الداخل ومحاولة تقليص نفوذها ولذلك وقف البطرك السابقون مع «كيرلس الخامس» فى وجه هذا النفوذ الأجنبى ، ومن أجل ذلك كان « البابا كيرلس الخامس » من المتعاطفين مع حركة عرابى منذ إرهاباتها الأولى فى ١٥ يناير ١٨٨١ عندما تقدم « أحمد عرابى » بعريضته التى يطالب فيها بمساواة الضباط المصريين بالجراسية . . وتصاعدت الأحداث بسرعة غربية وقبض على عرابى وزميلين له فى أول فبراير ١٨٨١ واقترح البطل « محمد عبيد » ثكنات قصر النيل وأفرج عن عرابى وعزل عثمان رفقى وحل محله « محمود سامى البارودى » وزيرا للحربية واستطاع توفيق بعد ذلك أن يعزل « البارودى » ونزل « أحمد عرابى » إلى الشعب ليكسبه بكل طوائفه إلى جانبه وفى الساعة الثالثة والنصف من يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ توجه « أحمد عرابى » إلى ميدان عابدين على رأس التظاهرة العسكرية الشهيرة وتتصل الأحداث إلى أن يشكل « محمود سامى البارودى » الوزارة ، ويتولى « أحمد عرابى » وزارة الجهادية والبحرية وتوالى سلسلة من المؤامرات انتهت بأن ضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ وانسحب عرابى من الإسكندرية فى ١٣ يوليو ولجأ « الخديو توفيق » إلى الانجليز فى الإسكندرية وانضم إليهم وأصدر بياناته بعدم التعاون مع عرابى وقرر الوطنيون عقد مؤتمر عام فى ١٧ يوليو ١٨٨٢ من كبار رجال الدولة وكبار الدين وكبار التجار والأعيان . . وبعد التداول فى الموقف . . كان رأى بطريك أقباط مصر تشكيل لجنة لمعرفة الموقف الحقيقى للخديو توفيق . . وتبنى غالبية أعضاء الاجتماع رأى البطريك مع الاستمرار فى التجهيزات الحربية ، إلا أن « على مبارك » رئيس اللجنة تبنى وجهة نظر « الخديو توفيق » وعاد الاجتماع الوطنى للانعقاد فى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ وشارك البطريك فى التنديد بموقف « توفيق » وقرر الاجتماع الاستمرار فى الاستعداد الحربى ، وعزل الخديو توفيق ، وتكليف أحمد عرابى - الذى لم يكن حاضرا فى الاجتماع - بالدفاع عن البلاد ،

وبعد هزيمة الثورة العرابية ظلت العلاقة بين الخديو والبطريك تشوبها الحساسيات وعدم الوفاق .

مرحلة المتاعب

وفي ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ اعتذر « عرابى » عن الثورة وألقى سيفه ، وعاد الخديو توفيق إلى القاهرة في ٢٥ سبتمبر وبدأت مطاردة العرابيين ، وجاء « كرومر » ليحكم مصر خمسا وعشرين سنة من ١١ سبتمبر ١٨٨٢ حتى ٧ مايو ١٩٠٧ وحاول أن يلعب لعبته على « البابا كيرلس » وعرض عليه المعونات السخية للكنيسة المصرية ورفض البابا بأسلوب جعل « اللورد كرومر » لايعود إلى مثل هذه المحاولة مرة أخرى حتى رحل كرومر عن مصر .

وانصرف « كيرلس الخامس » إلى بناء المدارس وأنشأ تسع مدارس في القاهرة والجيزة منها المدرسة الأكليريكية ومدرسة البنات بالأزبكية ، والصنائع ببولاق .

ونوجز هنا الخلاف الذى وقع بين البطريك وبعض الأقباط في محاولة لتعرف حقيقة وظروفه . . بعد وفاة « البابا ديمتريوس الثانى » سنة ١٨٦٩ وبقي المنصب شاغرا لحوالى خمس سنوات كان يتولى إدارة شئون الكنيسة « مطران الإسكندرية » والذى كان وكيلا للبطريركية منذ ١٨٦٢ واستعان بعدد من الشخصيات القبطية المرموقة ، وتشكل من هؤلاء (مجلس استشارى) ورغب المجلس فى أن تكون له صفة رسمية ورفع القائم بأعمال البطريك الطلب إلى الحكومة فوافقت على الطلب .

ولما ارتقى « كيرلس الخامس » كرسي البطريركية وضع مع أعضاء المجلس لائحة تقضى بأن ينظر المجلس فى أحوال الكنائس وأموالها وفى المدارس والأوقاف والفقراء والأحوال الشخصية وتم التصديق من الحكومة على اللائحة فى ١٤ مايو ١٨٨٣ إلا أن أعضاء المجلس انصرفوا عن المهام الملقاة عليهم ، وتجمدت أعمال المجلس ، وأخذ النشاط الأجنبى يتصاعد لمحاصرة نشاط الكنيسة ، وركز البابا نشاطه فى دعم الكنيسة المصرية لمواجهة نشاط إرساليات الكاثوليك والبروتستانت ، وعندما تحرك بعض أعضاء المجلس من جديد لإحياء المجلس ونشاطه فى مراجعة أحوال الكنيسة كانت تحيط هذه الدعوة ذات النشاط المفاجئ شبه التحريض من « كرومر وشبهه الاتصال بالإرساليات الأجنبية فاستدعى « البابا كيرلس » المطارنة والأساقفة وكبار القسس وعقد بهم مجمعا أصدروا فيه قرارا بعدم التدخل فى شئون الكنيسة وتآزم الموقف بين « كيرلس » وأعضاء المجلس ، وعندما عاد « المرحوم بطرس غالى باشا » من أوروبا كلفه « الخديو توفيق » بحسم المشكلة ، وحدث نوع من الوفاق بين الطرفين تأسست فى ظله (جمعية التوفيق القبطية) ، وتم

تعيين مرتب لرجال الدين الأرثوذكس أسوة بما فعلته طائفتا الكاثوليك والبروتستانت وتم تنظيم الإنفاق على المدارس الخاصة من ريع الأوقاف القبطية .

وحدث أن ارتفعت موجة المطالبة بتشكيل (المجلس الملى) ، وذهب (المرحوم بطرس غالى باشا) يستأذن في السفر إلى أوروبا ولكن « الخديو توفيق » طلب منه إرجاء السفر وتشكيل المجلس ، وطلب « البابا » تعديل لائحة هذا المجلس ورفض أن يشرف على إجراء الانتخابات . وافتتحت الإجراءات باسم الحضرة الخديوية الفخمة وأسفرت الانتخابات عن فوز : بطرس غالى وحنان نصر الله ، وبيطرس يوسف ومقار عبد الشهيد وقلبنى فهمى وخليل إبراهيم ويوسف وهبة ، ويوسف سليمان وحنان باخوم ونخلة البارانى وحشى مفتاح ويعقوب نخلة كأعضاء وتم اختيار ١٢ آخرين بصفة نواب أعضاء اجتمع بطرس غالى مع البابا ووافق على تعديل اللائحة ونسيان ما مضى وفرح الأقباط بهذه النتيجة إلا أن غالبية المجلس اعترضت على هذا الاتفاق في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٢م تدهور الموقف من جديد وذهب كيرلس الخامس إلى دير البراموس كرضية المجلس ولكن جماهير الأقباط طلبت من الخديو توفيق و « مصطفى فهمى » رئيس النظار رجوع البطريرك فصدر الأمر الخديوى في ٢٠ يناير سنة ١٨٩٣م بعودة البطريرك فأقيمت الأفراح وعم السرور وكان العربان على طول الطريق ينشدون الأناشيد ويطلقون البنادق ويرقصون على صهوات خيولهم حتى وصل الركب إلى محطة كفر الدوار مما يوضح مكانة كيرلس الخامس في نفوس الناس .

مع الشعب

واتصلت مواقف هذا الأب إلى جانب الشعب وقام بزيارة للوجه القبلى وللسودان من ٢٥ يناير حتى ٢ إبريل سنة ١٩٠٤م يتفقد الكنائس والمدارس يشد من أزرها لتحافظ على أبنائها في مواجهة النشاط الأجنبى ، وكان له موقف واضح من المؤتمر القبطى الذى انعقد في أسبوط في ٦ مارس ١٩١١م وتعهد له الأنبا مكاريوس مطران أسبوط بعدم حدوث مايجرح البنيان الوطنى المصرى . .

وفى عهده وبروحه الوطنية اندمج رجال الدين المسيحى مع إخوانهم رجال الدين الإسلامى يتبادلون الخطابة فى المساجد والكنائس . . من رجال الدين المسيحى . . القمص بولس غبريال والقمص سرجيوس الذى خطب فى الجوامع والكنائس والشوارع وأطلق عليه الزعيم سعد زغلول لقب خطيب مصر واعتقلته السلطات الانجليزية حوالى ثلاثة أشهر فى (رفح) .

وبعد أن حمى وطيس الثورة خشى العلماء والأعيان والوزراء أن تفلت أحداث الثورة من قيادتها الفعلية فأصدروا بيانا في ٢٤ مارس ١٩١٩ دعوا فيه إلى عدم الاعتداء على الأملاك وعدم تخريب المواصلات . . . ووقع البيان شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية وبطريك الأقباط وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ونقيب الاشراف ورئيس الوزراء .

ولم يتردد البطريك كيرلس الخامس في تأييد سعد زغلول ووزارة الشعب وحجب تأييده عن وزارتي أحمد زيور وبقي كيرلس الخامس موضع التقدير والاحترام من جماهير الشعب إلى أن توفي في ١٧ أغسطس ١٩٢٧ تاركا سيرة عطرة ونموذجا دينيا ووطنيا يحتذى .

الأسانيد :

- ١ - جمال بدوى . . مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث .
- ٢ - عبد الرحمن فهمى . . (مذكرات) .
- ٣ - طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .
- ٤ - فخرى عبد النور . . مذكرات .
- ٥ - د . لطيفة سالم . . القوى الاجتماعية في الثورة العربية .
- ٦ - منسى القمص (الشماس) . . تاريخ الكنيسة القبطية .

الدكتور محمد بلال



أكثر ما يميز في النفس ، عندما يخطر اسمه على البال ، أن اذكر رغبة له اتفقنا على تنفيذها ، ولكنه رجل دون أن تخرج الفكرة إلى الناس . كانت التضحية منهجه في الحياة ، وكان حديث الشهداء ، أحب الأحاديث إلى نفسه . . . وكنت قد تناولت شهداء الحركة الوطنية عام ١٩٣٥ ، وأوردت أسماء اللجنة التنفيذية العليا للطلبة التي قادت الحركة الثورية ضد الاحتلال ، وطالبت بعودة دستور ١٩٢٣ ، ودعوت إلى قيام الجبهة الوطنية التي انتهت جهودها بتوقيع معاهدة أغسطس ١٩٣٦ .

وجلسنا إليه . . الزميل المناضل « الأستاذ أحمد البلقيني » أحد قادة الشباب في الأربعينات وأنا . . واتفقنا ثلاثتنا على أن نعرض في أحاديث إلى الشباب ، وعلى صفحات جريدة « الوفد » ثم في كتاب . . اتفقنا على أن نعرض . . تضحيات شهداء ثورة ١٩١٩ ، وبطولات شهداء (الثورة المصغرة) سنة ١٩٣٥ . وشهداء عامي ٤٥ و ١٩٤٦ وكان مقرراً أن أكتب عن (شهداء ثورة ١٩١٩) وأن يكتب الأستاذ (البلقيني) عن حركة الأربعينات ، وأن يكتب « هو » عن الفترة التي عاشها وقادها (١٩٣٥) ولكن إن هي إلا أيام ومضى ليلقى ربه ، ويلقى زملاء من شهداء الوطن . .

ونحن الآن لا نملك إلا أن نكتب عنه ونقدمه إلى شبابنا . . ثم نكتب عن شهداء الوطن في ثورة ١٩١٩ - وتلك كانت رغبته - إن شاء الله وكان في العمر بقية .

« محمد بلال » ظاهرة فذة بين المناضلين من شباب مصر . . انضم إلى اللجنة التنفيذية العليا للطلبة عن كلية الطب وهو طالب في السنة الثانية ، ولجان الشبان الوفديين تعقد برئاسته وينسق بينها وبين فرق القمصان الزرق التي كان هو قائدها . . وهو طالب في السنة الثالثة ، وعندما

يصبح طالبا في السنة الرابعة يملأ اسمه الصحف الانجليزية والمصرية ويسعى إليه الملك فيساومه .

في ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ ، في احتفال الأحرار الدستوريين بعيد الجهاد خطب « محمد محمود » مطالبا باعادة دستور ١٩٢٣ وخرج الشباب إلى سراقق الوفد حيث كان « مصطفى النحاس » يطالب بمقاطعة الانجليز وباستقالة وزارة توفيق نسيم . وفي رسالة للدكتور محمد بلال إلى « صبرى أبو المجد » ذكر أن « صموئيل هور » وزير خارجية بريطانيا أصدر في ١٠ نوفمبر بيانا ضد الأمن القومي ، فاجتمعت الهيئة الوفدية في ١٢ نوفمبر وأصدرت القرارات التي أعلنها رئيس الوفد في ١٣ نوفمبر .

قامت المظاهرات العارمة من الجامعة ومدرسة التجارة بالظاهر والفنون والصناعات . وتوجهت التظاهرات إلى بيت الأمة وثكنات قصر النيل (مكانها الآن النيل هيلتون ومبنى الجامعة العربية) والسفارة البريطانية هاتفين بسقوط بريطانيا ووزير خارجيتها . وامتدت التظاهرات إلى الإسكندرية والمنصورة وشبين الكوم وبور سعيد والزقازيق وأقيمت الجنائز الصامتة في كل مدينة وقرية . وأبرق الطلاب من خارج مصر يشجعون من في داخلها واحتجوا لدى عصبة الأمم على طغيان الانجليز . واستعمل طلاب كلية الصيدلة زجاجات مولوتوف يقدفون بها البوليس . ويقول « د . بلال » : إنه في صبيحة ٧ ديسمبر ١٩٣٥ تجمع الطلاب عند كوبرى عباس وطلب الضابط « نوبل » مقابلتي ووافق على مرور الطلاب إلى الروضة حيث نشبت معركة مع البوليس . ونصحني « مكرم عبيد » بأن أغادر القاهرة وسافرت إلى منشأة عبد النبي مركز أجا في منزل زميلي « أحمد عبد النبي » وانتحلت اسم « محمد شوقي » وعدت إلى القاهرة واستوفت التظاهرات أمام كلية الطب وكلية التجارة ، وكان الضباط الانجليز يطلقون الرصاص دون وعى . فسقط الشهداء الذين سوف نتحدث عنهم فيما بعد .

لجنة الطلبة التنفيذية

ونواصل مطالعة رسالة « الدكتور محمد بلال » التي حفظت لنا غالبية أسماء لجنة الطلبة التنفيذية العليا . وبدأت اللجنة بممثلين للكليات - وهي غير مجلس اتحاد الجامعة - ولم تكن لهالائحة تنظم عدد الأعضاء أو طريقة التشكيل ، ولكن الأحداث جمعت الذين تصدروا في شجاعة حركة الطلاب . وعقدت الاجتماعات بنادى نقابة المحامين ثم بالنادى السعدى إلى أن وقع الاختلاف في رأى حول المطالبة بالدستور أولا أو الاستقلال قبل الدستور . والفريق الذى رأى تأجيل المطالبة بالدستور هم : « نور الدين طراف من الطب ، والظاهر حسن أحمد ، وعبد العزيز

الشوري بجى من الحقوق ، ومصطفى السعدنى من الآداب وأحمد حسن الباقورى من الأزهر .

ونترك ما كتبه « الدكتور بلال » مؤقتا وننظر فى الدراسة التى نشرها « الدكتور على شلبى » بعنوان « مصر الفتاة » يقول إنه تألفت عام ١٩٣٥ هيئة تسمى (كتلة الطلبة القوميين) وهذه الهيئة تضم الشباب المعارض للوفد . وقد تولى « نور الدين طراف » أحد أعضاء مصر الفتاة رئاستها وكانت تعقد اجتماعاتها بمنزل النبيل عباس حلیم . وشارك أعضاء مصر الفتاة فى حركة الطلبة ١٩٣٥ ، وتقدم « نور الدين طراف » باقتراح فى جلسة مجلس الجهاد بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٣٦ لتأليف لجنة من طلبة مصر الفتاة باسم (اللجنة التنفيذية لطلبة مصر الفتاة) .

وسجل « د . بلال » غالبية أسماء أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للطلبة نذكر منهم « محمد بلال » من الطب ، فريد زعلوك من الحقوق ، أحمد بشر من الآداب ، محمود لاشين من العلوم ، عبد المنعم البيه من التجارة ، أحمد الدمرداش تونى من الزراعة جلال الدين الحماصى من الهندسة ، محمد برهام من دار العلوم ، عبد المجيد الغايش من الأزهر ، محمد شبل الحضرى من الفنون الجميلة العليا ، أحمد الشافعى من المدارس الثانوية والمتوسطة .

وتتفق رسالة « الدكتور بلال » مع رسالة الشاعر « عامر بحيرى » - توفى أخيرا - فى هذا الشأن وفى بيان الشهداء الذين سقطوا فى تلك المعارك .

الشهداء

يروى « الدكتور بلال » أن أول الشهداء كان العامل « إسماعيل الخالغ » صرعه رصاصة أمام سراق الاحتفال بعيد الجهاد مساء ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ وحمل البوليس جثمانه ودفن خلسة تحت جنح الظلام . أما الشهيد الثانى فهو « محمد عبد المجيد مرسى » شهيد الزراعة وصل جثمانه إلى مشرحة الكلية صباح ١٤ نوفمبر . وتسللنا ليلا فى غفلة من البوليس واستولينا على مفتاح الثلاجة غير أننا فوجئنا عند عودتنا باختفاء الجثمان وأن البوليس كسر باب الثلاجة ونقله فى عربة مغلقة إلى الإسكندرية مع والده حيث دفن بمقبرة العمود . وشهدنا الثالث « على طه عفيفى » من دار العلوم صرعه هراوة كونستابل انجليزى صبيحة ١٦ نوفمبر أمام كلية دار العلوم وأسلم الروح صباح ١٧ نوفمبر وأحضر إلى المشرحة ليخطفه البوليس ليلا ، وكنا ثلاثة « بلال وطراف وجوهر » دلفنا فورا إلى داخل المشرحة وحملنا جثمانه وأخفيناه أسفل مدرج التبريح ، وانطلق ضباط القسم وحكمداية القاهرة يفتشون الكلية . واقتحم فريق من الضباط والجند منزلى بالمنيرة . وأبدى العميد « الدكتور على باشا إبراهيم » نصيحة بتسليم الجثمان فاشترطنا جنازة تجمع كل فئات الأمة وإلا سوف تكون الجنازة شعبية رغم أنف الحكومة . وتم لنا ما أردنا وكتب « فكرى أباطة » مقالا

بعنوان « أشرف سرقة في التاريخ » في مجلة المصور ، وكان « عبد الحكم الجراحى » بصارع الموت وأعطيته ربيع دمسى لاتفاق الفصيلة وقام بزيارته مصطفى النحاس وعدد من الزعماء ، وفاضت روحه صباح ١٩ نوفمبر ١٩٣٥ . . وتقدم جنازته زعماء مصر رمزا لقيام الجبهة الوطنية .

ويحدثنا الشاعر الراحل « عامر بحيرى » عن الشهداء السابقين بما يؤكد رواية الدكتور بلال ، ويضيف أن « عبد الحكم الجراحى » نشرت له مجلة « ابولو » بعض قصائده .

القمصان الزرق

ارتبط اسم (القمصان الزرق) بالدكتور محمد بلال قائدها ومنظمها ، وارتبط اسمه بها واختلفت حولها الآراء . ونعطى الكلمة الأولى له هو . .

يقول الدكتور بلال : مع قيام الجبهة الوطنية في ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ فان تظاهرات الطلبة في ساحات الكليات وأفنية المدارس والأحياء انتهت بطواير منتظمة تصدر صيحاتها الوطنية في هتافات متفق عليها مما أدى إلى انتظامها في تشكيلات أقرب إلى الفرق العسكرية . مما يصحح الفكرة الخاطئة عند الكثير من المؤرخين من أنها نشأت من خارج صفوف الطلاب لتأديب خصوم الوفد . وكانت أولى الفرق . . فرقة عبد الحكم الجراحى وساحة تدريبها في فناء كلية الطب ، والثانية فرقة على طه عفيفى وساحة تدريبها أمام دار العلوم ، ثما قامت فرق أخرى في باقى الكليات والمعاهد والمدارس . ووضع الكاتب والشاعر « مصطفى صادق الرافعى » لها نشيدا ولحنه الموسيقىار « رياض السنباطى » واتخذنا اللون الأزرق لون (الجلايب الزرقاء) زى الفلاح المصرى . واتفقنا على صورة (شارة) توضع على الذراع وشارة معدنية صغيرة تعلق على الصدر ، وكلتاها تمثل قبضة قوية تطبق على مفتاح النيل . واتخذت الفرق علما خاصا يرفع في معسكراتها مكونا من اللونين الأحمر والأسود . وقامت هذه الفرق مع أول عام ١٩٣٦ . ويؤكد الدكتور بلال : (أن نشاط اللجنة العليا للشبان الوفديين لم يكن مرتبطا بإدارة الفرق أو تكوينها رغم أن جلسات اللجنة كانت تعقد برئاسة . . وفي مقابلتى لرئيس الوفد مصطفى النحاس وسكرتيره . مكرم عبيد أكدا على الجوهر الأصيل لنظام الحكم الدستورى والديمقراطى في مصر وحمايته ، فدعوت إلى اجتماع للجان الشبان الوفديين حضره مكرم عبيد وزهير صبرى في ٥ يناير ١٩٣٦ وانضمت هذه اللجان إلى صفوف الفرق القائمة . . ولم يستمر قيام فرق للطلاب . وحدهم حتى طالب العمال بحق الانضمام إليهم فقامت فرق من عمال العنابر الأميرية والسكة الحديد و«أبو زعبل» بالإضافة إلى فرق أخرى للعمال والمؤلفين والفلاحين في المدن والقرى) .

وفي أول الأمر تألف مجلس لقيادة الفرق من « محمد بلال ، وفهمى سليمان ، وأحمد لطفى ،

ورأى الهوارى ، ومحمود يونس وعماد الجندى ، وأحمد الشافعى ، وكامل الدماطى ، وحنفى الشريف « وكان يقوم فريق من قدامى الخبراء والعسكريين بمهمة التدريب فى مقدمتهم الصاغ «محمود لبيب» رجل الإخوان المسلمين فيما بعد - ثم أصدر الوفد فيما بعد قرارا بتشكيل المجلس الأعلى للفرق من « الأميرالاي » متقاعد حافظ صدقى ، وسيد بهنسى ، ومحمود سليمان غنام ، ومحمد بلال ، وزهير صبرى وميخائيل غالى .

القمصان الخضر

فما سبق صورة موجزة لما قدمه « الدكتور بلال » عن (القمصان الزرق) وحتى تكتمل الصورة ينبغي أن نقف على نشاط مماثل مقابل عرف بالقمصان الخضر الخاص بجماعة مصر الفتاة ، ويوضح « الدكتور على شلبى » فى كتابه (مصر الفتاة) . أن مصر الفتاة أعلنت منذ بداية تكوينها (يجب أن نجتمع الشباب من صعيد واحد ، وأن نعودهم النظام والطاعة ، وأن نلبسهم زيا واحدا وأن نلتف حول العرش) . وأوضح القانون النظامى لجمعية مصر الفتاة الهيكل التنظيمى الذى يبدأ بالانصار ثم المجاهدين . . . والمجاهد (يخضع لنظام شبه عسكرى أساسه الخضوع التام للرؤساء وتنفيذ الأوامر دون مناقشة . .) وكل اثنى عشر مجاهدا يكونون قسما . . وكل أربعة أقسام يكونون كتية وكل أربعة كتائب تكون فرقة ، وكل أربع فرق تكون لواء ، وكل أربعة ألوية تكون فيلقا ، وهذه التشكيلات شبه العسكرية أزياء رسمية وشارات مميزة ، ولها مجلس أركان حرب الجهاد . وهذا القانون النظامى نشرته (الصرخة) جريدة الجمعية فى ٣١ مارس ١٩٣٤ أى إنه سابق فكرة القمصان الزرق والقمصان الخضر وقد نشرت جريدة الصرخة أول صورة (لجندى مصر الفتاة) مرتديا القميص الأخضر فى ١٦ ديسمبر ١٩٣٣ . . وقد كان ذلك بداية الدعوة لتكوين فرق المجاهدين لابسى القميص الأخضر . وكان « جمال عبد الناصر » من بين هؤلاء الأعضاء ، وسدد اشتراكه للجمعية بالإيصال رقم ٣٤ عن شهر يناير ١٩٣٥ (انضم جمال عبد الناصر إلى القمصان الخضر عن طريق الأستاذ إبراهيم طلعت المحامى بالإسكندرية ، ويؤكد الدكتور بلال أنه كان أيضا ضمن القمصان الزرق . على أية حال فإن عبد الناصر ابتعد عن مصر الفتاة فى أواخر عام ١٩٣٥ ، والقمصان الزرق نشأت فى أول عام ١٩٣٦) وفى غضون عام ١٩٣٦ ، شرعت جمعية مصر الفتاة فى تنظيم العمال فى شكل فرق يرتدى أعضاؤها القمصان الخضر . ومع بداية عام ١٩٣٦ أصبح فى مصر فرق نظامية شبه عسكرية . . الأولى القمصان الخضر أو الخضراء منذ عام (١٩٣٤) . . والثانية القمصان الزرق أو الزرقاء (مع بداية عام ١٩٣٦) . . الأولى تابعة لجمعية مصر الفتاة . . والثانية تابعة للوفد ، وفى أول يناير ١٩٣٧

تحولت جمعية مصر الفتاة إلى حزب أعلن الحزب عن تأليف فيلق باسم (فيلق فاروق الأول) . وهكذا فإن تشكيل القمصان الزرق (الوفد) جاء بعد تشكيل القمصان الخضراء (مصر الفتاة) وربما كرد فعل له . ومهما يكن من أمر فإن (القمصان الزرق) وجدت ظروفًا مواتية للنمو والانتشار في ظل وزارة النحاس الثالثة (٩ مايو ٣٦ - ٣١ يوليو ١٩٣٧) ووزارة النحاس الرابعة (أول أغسطس ٣٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) وفي نهاية ١٩٣٧ أغلقت حكومة الوفد دور مصر الفتاة بسبب اعتداء « عز الدين عبد القادر » العضو القيادي في حزب مصر الفتاة على « مصطفى النحاس » .

ومن المعروف أن السلطات الانجليزية كانت تعارض وجود كل هذه التشكيلات شبه العسكرية ، وأن القصر كان معارضا تماما للقمصان الزرق التابعة لحزب الأغلبية الشعبية ، وشنت الصحف الموالية للقصر والمعادية للوفد حملات شعواء على القمصان الزرقاء . واستدعى « الملك فاروق مصطفى النحاس رئيس الوفد ورئيس الوزراء في ٢٦ أكتوبر ١٩٣٧ وسلمه بحثًا قانونيًا جاء فيه أن وجود القمصان ينافي الدستور وطلب إليه حلها . واستدعى عميد كلية الطب « الدكتور على باشا إبراهيم » محمد بلال « الطالب بالسنة الرابعة وقت ذاك وبحضور « الدكتور أحمد شفيق باشا » والدكتور مصطفى فهمي ، والدكتور رشوان فهمي والأستاذ محمد السحرتي » وأبلغه أن « الملك فاروق » يعرض عليه وظيفة رفيعة بالسراري نظير أن يعلن باعتباره قائدًا للقمصان الزرقاء أن أعضاء تلك الفرق جنود الملك المخلصون ويدينون لجلالته بالولاء والإخلاص . . . ورفض المناضل « محمد بلال » هذا العرض . ولكن كان لابد من الحل .

حل الزرقاء والخضراء

كان على الانجليز والملك والأحزاب والعناصر المعادية للوفد أن تطيح أولاً بحكومة « مصطفى النحاس » ووجدوا الفرصة في مناخ الانقسام الخطير داخل الوفد والذي يقوده « أحمد ماهر ، ومحمود فهمي النقراشي ، وحامد محمود ، ومحمود غالب وحامد جودة » وكلها عناصر لها ثقلها ولها دورها التاريخي فأقيمت حكومة الوفد في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ . وشكل « محمد محمود » وزارته الثانية (٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ - ٢٧ أبريل ١٩٣٨) واشتركت فيها عناصر معروفة بمهارتها الفردية وبعدها التقليدية للوفد « إسماعيل صدقي ، وعبد الفتاح يحيى ، وعبد العزيز فهمي ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمد حافظ رمضان ، وحسين سرى وأحمد لطفى السيد . . . وغيرهم » . وبدأت الوزارة بحل البرلمان الوفدي في ٣ يناير ١٩٣٨ وفصلت عددا كبيرا من الموظفين المواليين للوفد . وفي ٩ مارس ١٩٣٨ صدر المرسوم الملكي يحظر كافة التشكيلات شبه العسكرية التابعة للأحزاب

السياسية . وطالب حزب مصر الفتاة باستثناء (القمصان الخضراء) من الحل ولكن « محمد محمود » صديق الحزب لم يستطع إصدار مثل هذا الاستثناء .

ويعلق « الدكتور عبد العظيم رمضان » قائلا إن « النقراشى » اختار موضوع (القمصان الزرقاء) لمنازلة « مصطفى النحاس » على اعتبار أن وجودها كان منافيا للدستور ، وإن كان من المؤكد أن معارضى الوفد لم يكونوا مخلصين في مهاجمة التشكيلات باسم الدستور ، فقد سبق ظهورها القمصان الخضراء التى ألفها أحمد حسين ، وكانت تلقى من المعارضة كل عطف وتشجيع بسبب مناهضتها للوفد .

رحيل الفارس

عاش « محمد بلال » وفديا مخلصا ، رفض وظيفة رفيعة بالسراى وهو طالب بالسنة الرابعة بكلية الطب ، ولم يخرج فى أى انقسام تعرض له الوفد ، ولم يهتز فى ظروف الوفد على الطريق الوعرة وعندما حان وقت الذهاب شاء له الله أن يكون فى مقر الوفد وبين قادة الوفد وشبابه فى الأول من مايو ١٩٨٨ فى الاحتفال بذكرى المناضل العظيم « الدكتور عزيز فهمى » .

الأسانيد:

- ١ - الوفد (جريدة) . . . عدد ٣ مايو ١٩٨٨ .
- ٢ - صبرى أبو المجد . . (سنوات ما قبل الثورة) . (رسائل من محمد بلال وعامر بحيرى وحنفى الشريف وعز الدين عبد القادر) .
- ٣ - د . عبد العظيم رمضان . . تطور الحركة الوطنية فى مصر .
- ٤ - د . على شلبى . . مصر الفتاة .

محمد حافظ رمضان



هو آخر رؤساء (الحزب الوطنى مصطفى كامل ومحمد فريد) هو آخر رؤساء الحزب الوطنى بعد محمد فريد فى فترة الانقسامات والعزلة اذا شئت ، أو فى فترة المحاق إذا أراد آخرون .

كانت تقاليد الحزب الا يشارك فى الحكم ، ومع ذلك دخل هو الوزارة خمس مرات ، وكلها من وزارات الاقلية السياسية الموالية للقصر ، ظل رئيسا للحزب الوطنى منذ سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٥٣ حين أصدرت قيادة يوليو قرارا بحل الأحزاب وإلغاء دستور ١٩٢٣ .

فى عام الأحزاب ، عام ١٩٠٧ ظهرت أحزاب كثيرة منها (حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية) ورئيسه الشيخ على يوسف وسبقته جريدته (المؤيد ١٨٨٩) ومنها (حزب الأمة) ورئيسة « محمود سليمان » وسبقته جريدة (الجريدة ١٩٠٧) ، أما « مصطفى كامل » فكان قد أصدر (اللواء سنة ١٩٠٠) وفى ديسمبر ١٩٠٧ اجتمعت أول جمعية عمومية للحزب الوطنى وانتخب « مصطفى كامل باشا » رئيسا للحزب مدى الحياة التى دامت لشهرين فقط بعد هذا الانتخاب واختيرت لجنة إدارية للحزب من « محمد فريد ، محمد حافظ رمضان ، أحمد فايق ، حسن حارس ، سيد شكرى ، على واصف ، عمر أنيس ، فؤاد سليم حجازى ، ويصا واصف ، حسين يسرى ، محرم رستم ، يوسف ذهنى ، على فهمى كامل ، على حشمت ، محمود لبيب . محمد خلوصى ، محمد رشوان ، عبد الرؤوف السيوفى ، يوسف حافظ ، ابراهيم حفظى ، عبد الله طلعت ، على لهيطة ، اسماعيل الملوانى ، محمد عبد اللطيف ، فهمى حسين ، وأحمد الجيهنى » على أن يكون الحزب للأمة كلها وأن يتمسك بالنظام الدستورى .

وإذا كان الحزب الوطنى قد أعلن عنه « مصطفى كامل » فى أكتوبر ١٩٠٧ ثم اجتمعت الجمعية العمومية فى ديسمبر من العام نفسه إلا أن واقع الأمر يدعونا إلى أن نعتبر الحزب الوطنى

كان موجودا منذ عام ١٩٠٠ حين صدرت اللواء لتعبر عن أفكار هذه المجموعة في مواجهة المؤيد التي كانت قد بدأت تهادن الانجليز بعد أن كانت صوتا متميزا في معارضة الاحتلال وبدأت تنافس مصطفى كامل في التعبير عن رأى الخديو الذى بدأ يخفف من اعتماده على مصطفى كامل ومن الطريف ان الشيخ على يوسف قد نشر أفكار قاسم أمين على صفحات المؤيد .

وإذا كان الحزب الوطنى فى اتجاهه الغالب وفى فتراته الأولى حتى قبل الإعلان الرسمى ينسق مع الخديو ويحرص على تأييد الباب العالى والدولة العثمانية فإن هذه الدعاوى لم تكن مرفوضة من غالبية الرأى العام المصرى ، وبالتالى لم تشكل عقبة أمام مسيرة مجموعة مصطفى كامل ، أما دعوته إلى مقاومة الاحتلال والتشدد فى هذه الدعوة فقد جعلت منه حزبا وطنيا متميزا كسب قطاعا هاما من المجتمع المصرى بحيث يمكن أن نقول إن (الحزب الوطنى) خاصة فى فترة « مصطفى كامل » كان (حزب الجلاء) وكان (حزب الأغلبية) .

وفى هذا العام عام ١٩٠٧ الذى يطلق عليه البعض (عام الأحزاب) ظهرت جماعة أطلقت على نفسها اسم (الحزب الوطنى الحر) . وإذا كان الشيخ على يوسف كانت عنده (المؤيد) ومصطفى كامل عنده (اللواء) وصحف أخرى وأحمد لطفى السيد عنده (الجريدة) فإن المقطم ذات الميول الاحتلالية وضعت صفحاتها فى خدمة مجموعة (الحزب الوطنى الحر) . وكان الشخصان الرئيسيان فى هذا الحزب هما « محمد وحيد ومحمد نشأت » وبعد ذلك صدرت عن الحزب جريدة « الأحرار » وتوالى بعد ذلك أحزاب عديدة مختلفة الاتجاهات . .

والمؤرخ المنصف لا يستطيع أن يقول إن الأحزاب التى ظهرت فى عام ١٩٠٧ وفى السنوات القليلة التالية قد أثرت فى مسيرة الحزب الوطنى بقدر ما أثر فيه رحيل زعيمه ومؤسسه « مصطفى كامل » فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ . ففى اليوم التالى للرحيل وقع ما يشبه الانشقاق فى الحزب الوطنى . . مجموعة بقيادة « على فهمى كامل » شقيق الزعيم المؤسس « مصطفى كامل » . . ومجموعة من بينها « محمد حافظ رمضان » تؤيد « محمد فريد » . . وكان الخديو والشيخ على يوسف ضده اختيار محمد فريد رئيسا للحزب فى ١٤ فبراير ١٩٠٨ . وظهر الخلاف أيضا فى صحافة الحزب فقد تولى الشيخ عبد العزيز جاويش رئاسة تحرير اللواء . واستمر الحال والخلاف يتزايد داخل الحزب الوطنى حتى سافر رئيسه محمد فريد سرا إلى خارج البلاد فى ٢٦ مارس ١٩١٢ .

مرحلة جديدة

فى مصر بدأت تتبلور الحركة الوطنية حول مفهومات جديدة قوامها الاستقلال عن انجلترا وعن تركيا وحول حياة دستورية يكون للشعب فيها دور واضح أما الحزب الوطنى فقد غاب عنه رئيسه

والشخصيات ذات الفعالية التي سافرت مع فريد أو لحقت به وقد زاد ارتباطها بتركيا وبالخليج نظرا لاعتمادها عليهما كمصدر للتمويل فانعزلت المجموعة القيادية عن تيار الحركة الوطنية المصرية الجديدة .

ولكن المندهش الأعظم « محمد فريد » ازاء الثورة القومية الكبرى (من الأمور التي كانت غير منتظرة ما حصل بمصر في شهرى مارث - يقصد مارس - وابريل هو قيام ثورة عامة اشتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها . .) بقى في أوروبا لا يقدر على إصدار توجيه واحد ازاء الأحداث الجارية في مصر .

وأخذت عناصر الحزب الوطنى داخل مصر تتصرف دون توجيهات من القيادة القابعة في أوروبا تبهرها شعبية « سعد » الجارفة وتدهشها صلابة « عبد الرحمن فهمى » وجهازه السرى وتقيدها مفهومات عامة ورثوها عن « مصطفى كامل » .

ونقرأ في صفحتى ٣٠٥ و ٣٠٦ من مذكرات محمد فريد بعد الهجرة . . (علمت بأن انجلترا صرحت لوفد آخر كل أعضائه من الحزب الوطنى بالسفر إلى باريس . - يشير إلى وفد آخر غير وفد سعد زغلول الذى سافر يوم ٨ أبريل ١٩١٩ - وهو مؤلف من أحمد لطفى - شقيق عمر لطفى - والدكتور إسمايل - غير إسمايل باشا صدقى ومحمد حافظ رمضان ، وعبد اللطيف الصوفانى ، ومحمد كمال أبو جازية وأحمد وجدى ومصطفى الجورى ومحمد زكى على ، وأحمد فائق رفعت ، ومحمد فؤاد حمدى) . . وعلى صفحة ٣٠٧ نعرف أن رجال الحزب الوطنى قرروا عدم السفر لعدم عرقلة وفد سعد مادام هذا الوفد يطالب باستقلال مصر وحتى تسقط دعوى الانجليز بأن المصريين غير متفقين .

على أية حال فإن رجال الحزب الوطنى داخل مصر كانوا سيتصرفون دون توجيه من محمد فريد وإن « محمد حافظ رمضان » وزملاءه تركوا مكانا لمحمد فريد حتى وهو في أوروبا ويعيشون على هدى تراث الحزب .

ولكن « محمد فريد » يرحل إلى رحاب الله في نوفمبر ١٩١٩ والفاعليات الرئيسية في برلين وباريس والأستانة وتلاميذ مصطفى وفريد بين أمواج الأحداث في مصر إلا أنهم يتكون مكان رئاسة الحزب شاغرا حتى يوم ٩ مايو ١٩٢٣ بعد شهر واحد من إعلان (دستور ١٩٢٣) . اجتمعت اللجنة الإدارية للحزب في شكل جمعية عمومية مصغرة وانتخب محمد حافظ رمضان رئيسا ولم يلبث أن أعلن حسن شافعى الجيزاوى تشكيل ما أسماه اللجنة العامة للحزب الوطنى واتشح بالملابس السوداء حزنا على مصطفى كامل ومحمد فريد ورفض الاعتراف بحافظ رمضان رئيسا للحزب الوطنى لخروجه على خط الزعيمين الراحلين وأعلن إسقاط العضوية عن كل اتباع

حافظ رمضان وزعم أن مؤيدى (اللجنة العامة) هم وحدهم الأعضاء الحقيقيون للحزب الوطنى .

وكان محمد حافظ رمضان قد أرسل برقية إلى الزعيم سعد زغلول يخبره فيها بانتخاب اللجنة الإدارية له رئيسا للحزب الوطنى . وقد فسرت هذه البرقية على أنها محاولة من حافظ رمضان للوثام مع الوفد الممثل للأغلبية الشعبية إلا أن عاصفة من النقد هبت على الرئيس الجديد للحزب الوطنى من الرافعى والجيزاوى فى مصر ومن عبد العزيز جاويش من خارج مصر .

واشتدت العاصفة على رمضان عندما دخل فى مفاوضات مع سعد زغلول بهدف ائتلاف الحزب الوطنى مع الوفد والأحرار الدستوريين وقاد الهجوم هذه المرة فكرى أباظة ، وظهرت دعوة لخلع حافظ رمضان واختيار عبد الحميد سعيد بدلا منه ، وقدم حافظ رمضان استقالته ولكنها رفضت داخل اللجنة الإدارية التى سرعان ما أيدت نظام إسمايل صدقى مع حزبه الاتحاد والشعب مما زاد من حدة الخلافات داخل الحزب وزاد من عزله عن التيار الديمقراطى الذى يرفض دكتاتورية صدقى باشا .

وحدث أن اختير عبد الرحمن الرافعى سكرتيرا للحزب الوطنى بدلا من محمد زكى على وذلك فى ٢٦ ديسمبر ١٩٣٢ وكان الرافعى معارضا لائتلاف الحزب الوطنى مع الوفد والأحرار وفى الوقت نفسه معارضا لموقف الحزب من تأييد نظام صدقى وكان لتأييد الحزب لنظام صدقى أثره السيئ على وحدة الحزب فتركه البعض إلى أحزاب أخرى مما حدا بحافظ رمضان إلى أن يقدم استقالته من رئاسة الحزب مرة ثانية فى ٢٣ أبريل ١٩٣٣ ورفضت اللجنة الإدارية الاستقالة الثانية كما سبق ان رفضت الاستقالة الأولى .

وقد ساند عبد الرحمن الرافعى سكرتير الحزب حافظ رمضان رئيس الحزب فى انضمام الحزب الوطنى إلى (الجبهة الوطنية) التى أعلنت فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ من أحزاب الوفد والأحرار الدستوريين وحزب الشعب وحزب الاتحاد والوفد السعدى والحزب الوطنى والمستقلين وذلك لإعادة العمل بدستور ١٩٢٣ وتوقفت جهود الحزب الوطنى عند هذا الحد وبعدها استكملت الجبهة الوطنية جهودها التى انتهت بمعاهدة ١٩٣٦ التى هاجمها الحزب الوطنى .

رمضان والحكم

كان الحزب الوطنى بعد رحيل مصطفى وفريد يرفض قبول الاشتراك فى الحكم ويعد ذلك خروجا على مبادئ مصطفى وفريد وقبولا ضمنيا لمعاهدة ١٩٣٦ التى هاجمها الحزب ولكن بعد إقالة وزارة مصطفى النحاس الرابعة فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ ، شكل محمد محمود وزارته الثانية

واشترك فيها حافظ رمضان كوزير دولة وهاجمه عبد الرحمن الرافعى بشراسة واعتبره بعض الأعضاء مفصولاً من رئاسة الحزب . . وما لبث « حافظ رمضان » أن دخل وزيراً للشئون الاجتماعية في وزارة حسن صبرى في يونيه ١٩٤٠ على الرغم من أن الحزب الوطنى كان قد قرر عدم الاشتراك في الوزارة في جلسة له بتاريخ ٢٤ يونيه وعقد عدد من أعضاء الحزب الوطنى اجتماعاً في مكتب عبد المقصود متولى واعتبروا حافظ رمضان متخلياً عن عضويته ورئاسته وانقسمت اللجنة الإدارية وتبادلت الأطراف المختلفة البيانات بين مؤيد ومعارض للاشتراك في الحكومة وأعلنت مجموعة حافظ رمضان فصل عبد الرحمن الرافعى ومحمد محمود جلال من الحزب الوطنى وهكذا وصل الحزب الوطنى إلى حالة من التشرذم وبأوامر من القصر عاد حافظ رمضان للاشتراك وزيراً للعدل في وزارة أحمد ماهر في ٨ أكتوبر ١٩٤٤ كرئيس للحزب الوطنى إلى جانب الحزب السعدى برئاسة أحمد ماهر والأحرار الدستوريين برئاسة محمد حسين هيكل والكتلة الوفدية برئاسة مكرم عبيد وذلك لمواجهة الوفد الذى أقبلت حكومته واشترك رمضان باشا في وزارة أحمد ماهر الثانية في ١٦ يناير ١٩٤٥ وزيراً للعدل أيضاً بل إننا نجده كذلك وفي نفس المنصب في وزارة « محمود فهمى النقراشى » الأولى في ٢٤ فبراير ١٩٤٥ . وفي تلك السنة احتفل الحزب الوطنى بحافظ رمضان ونودى به رئيساً مدى الحياة للحزب وتم الصلح بين الفرقاء المتصارعين سنة ١٩٤٦ . وعندما خلف « إبراهيم عبد الهادى » المرحوم النقراشى باشا في رئاسة الوزارة في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ اشترك الحزب الوطنى بوزيرين لا وزير واحد وهما « محمد زكى على » وعبد العزيز الصوفانى ، وفي وزارة حسين سرى التى حلت محل وزارة عبد الهادى « في ٢٥ يوليو ١٩٤٩ دخل الوزارة المعارض العنيد للاشتراك في الحكم وهو « عبد الرحمن الرافعى » وزيراً للتموين ا ومعه « محمد زكى على » وزيراً للدولة وانتهت بذلك اسطورة اعتراض الحزب الوطنى حزب مصطفى وفريد على الاشتراك في الحكم . الأخطر من ذلك انه اشترك في حكومات تقوم بمفاوضات مع الانجليز على عكس شعار الحزب الوطنى (لامفاوضة إلا بعد الجلاء) واشترك في حكومات موالية للقصر وهو الصديق التقليدى لمؤسسى الحزب الوطنى .

اللجنة العليا

في أواخر عام ١٩٤٤ كانت مجموعة من الشباب بزعامة « فتحى رضوان » قد انفصلت عن (مصر الفتاة) وانضمت إلى الحزب الوطنى . ومن الطريف أن هذه المجموعة أبدت في البداية « حافظ رمضان » في مواجهة « عبد الرحمن الرافعى » وقد حرصت هذه المجموعة على التماسك تنظيمياً وعدم الدوبان في تشكيلات الحزب فأست ما أسمته (باللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى) وأصدرت صحيفة (اللواء الجديد) كتب فيها « حافظ رمضان وفكرى أباطة وعبد الرحمن الرافعى ونور الدين طراف وزهير جرانة » .

وبعد ذلك بدأت هذه الجماعة تقول بعدم صلاحية « حافظ رمضان » رئيسا للحزب ولعلها بذلك كانت تمهد للأستاذ فتحى رضوان ليتولى رئاسة الحزب ، وكان أن اجتمعت اللجنة الإدارية للحزب الوطنى بحضور « عبد الرحمن الرافعى » وقررت فى يناير ١٩٥٠ فصل « فتحى رضوان ومحمد زهير جرانة ومصطفى المنزلاوى ونور الدين طراف » من عضوية اللجنة الإدارية وعضوية الحزب .

وبعد هذا الموقف بدأت اتجاهات الأطراف المختلفة تتضح . . « حافظ رمضان » رئيس الحزب الوطنى أخذ فى زيادة تقاربه مع رؤساء الأحزاب الأخرى فى مواجهة الوفد الذى كان فى الحكم بأغلبية كبيرة . وفى ١٧ يونيه ١٩٥٠ اجتمع « حافظ رمضان » رئيس الحزب الوطنى ، ومحمد حسين هيكل رئيس الأحرار الدستوريين ، و« ابراهيم عبد الهادى » رئيس الهيئة السعدية ومكرم عبيد رئيس الكتلة الوفدية ، وأذاعوا يوم ٢٣ يونيه بياناً إلى الأمة ، ورفعوا عريضة إلى الملك فاروق .

وعلى جانب شيوخ الحزب فقد زاد الخلاف بين عبد الرحمن الرافعى ، وفكرى أباطة ، وعبد المقصود متولى وبين حافظ رمضان واستقال فكرى أباطة من اللجنة الإدارية . أما « فتحى رضوان » فقد مضى فى الطريق الذى يحلم به وهو أن يكون رئيسا للحزب الوطنى أو لحزب آخر . وكثف من اتصالاته بعناصر سياسية مختلفة من أجل تشكيل حزب جديد . وما إن أعلن « محمد نجيب » فى ٣١ يوليو ١٩٥٢ بيانه بتطهير الأحزاب والذى كان موجهها أساسا ضد (الوفد) ، وسرعان ما اجتمعت اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى وأعلنت إعفاء « حافظ رمضان » من رئاسة الحزب واختيار « فتحى رضوان » رئيسا ، وكان « حافظ رمضان » ملازما للفراش . . وهنا تصدى « عبد الرحمن الرافعى » لمحاولة فتحى رضوان الاستيلاء على الحزب الوطنى وردت اللجنة الإدارية بأن فتحى رضوان ومجموعته لا صلة لهم بالحزب الوطنى . وفى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ صدر قانون تنظيم الأحزاب فسارع « فتحى رضوان » بتقديم إخطاره بتشكيل (الحزب الوطنى الجديد) برئاسة « فتحى رضوان » . وقدم « عبد الرحمن الرافعى » إخطارا (بالحزب الوطنى) برئاسة عبد الرحمن الرافعى ، كل هذا والرئيس المنتخب راقد فى فراشه يصارع المرض . ووصل الأمر إلى القضاء الذى حجز القضية للحكم فى ٢٢ يناير ١٩٥٣ . ولكن السلطة الجديدة أصدرت قرارها فى ١٦ يناير ١٩٥٣ بحل الأحزاب فأراحت العرايا من شراء الصابون ، ومضى « فتحى رضوان » وزيرا ومدافعا عن النظام الذى حل الأحزاب ، ومضى « عبد الرحمن الرافعى » محاميا ومؤرخا ومؤيدا للنظام الذى ألغى دستور ١٩٢٣ .

وفى فبراير ١٩٥٥ رحل « محمد حافظ رمضان » آخر رؤساء الحزب الوطنى حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، حزب الجلاء أو حزب لامفاوضة إلا بعد الجلاء ، الحزب الذى شن حملة شعواء على الثورة العرابية ، وعلى أحمد عرابى ، وعلى العرابيين ، وشن رئيسه « مصطفى كامل » حملة على قاسم أمين وسعد زغلول ، وهاجم خلفاؤه مصطفى النحاس والوفد . . الحزب الوطنى

الذى كان من تقاليده العلاقات الودية مع الخديو والقصر على امتداده بعد ذلك ، ومن تقاليده العلاقات الوثيقة مع الباب العالى والدولة العثمانية ، ومن تقاليده أيضا الإفادة من التناقضات بين فرنسا وانجلترا مرة ، وبين ألمانيا وانجلترا مرة أخرى . . ولكن (الحزب الوطنى) ظل طوال عمره وظل أعضاؤه فى عدااء مستمر مع الاحتلال الانجليزى وحسبهم هذا .

الأسانيد :

- ١- د . حمادة إسما عيل . . رسالة دكتوراه عن (عبد الرحمن الرافعى) .
- ٢- حسن يوسف . . . مذكرات .
- ٣- صبرى أبو المجد . . سنوات ما قبل الثورة .
- ٤- محمد فريد . . مذكراتى بعد الهجرة .
- ٥- د . محمود متولى . . . مصر والحياة الحزبية والنيابية .

محمد صبرى أبو علم



فى اليوم الرابع عشر من أبريل عام ١٩٤٧م ، وفى عهد وزارة محمود فهمى النقراشى (٩ سبتمبر ١٩٤٦ - ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨) كانت الجماهير الحزينة المكتظة من ميدان الإسماعيلية ، (التحرير حاليا) إلى جامع الكخيا والتي هبت لوداع سكرتير عام الوفد « محمد صبرى أبو علم » ، كانت والأسى يحتاج النفوس تطلب من المناضل الوطنى الراحل أن يشكو الظلم لسعد زغلول .

مع « مصطفى النحاس » خرج زعماء الأحزاب ورؤساؤها لوداع « محمد صبرى أبو علم » الذى تميز بعلاقات طيبة مع غالبية الساسة وقادة الرأى . كان يفصل دائما بين المواقف السياسية والعلاقات الإنسانية . . ويوم الجنازة المشهود أقبل « مكرم عبید » سكرتير عام الوفد السابق على الزعيم « مصطفى النحاس » يحتضنه ويقبله ويطلق قوله المشهور (إذا مات صبرى فإن حب مكرم للناس لا يموت) جريدة (صوت الأمة) أربعين يوما مجللة بالسواد حزنا على رحيل بطل الوطن وصاحب امتيازها « محمد صبرى أبو علم » واحد من أعدادها ، يوم التاسع عشر من ابريل . . مصطفى النحاس يشكر شعب مصر الوفى الذى خرج معه لوداع أحد قادة الوفد العظام . . ويقول النحاس عن مساعده الأول .

(كان صديقا وفيا ورجلا أبيا ، وعلى المساومين فى حقوق الوطن جبارا عصيا) ومع « النحاس » كتيبة أخرى من الأعلام الوفية . عبد السلام فهمى جمعة ، والدكتور طه حسين ، والدكتور محمد مندور ، والدكتور محمد بلال ، ومحمود لطيف ، وحافظ شيحا ، والشاعر محمد هارون الخلو ، والملاح النائه الشاعر « على محمود طه » الذى قال فى مطلع قصيدة حزينة له : ألك فى عالم الذكرى وتلقانى . . رغم الفراق بهذا العالم الفانى .

ثم كتيبة أخرى من رؤساء اللجان وشباب الوفد ترثى « الرجل » الذى توسمت فيه أن يدعم

حركتها المتطلعة إلى آمال المستقبل ، والمسلحة بالمعطيات الجديدة التى ألفت بها الوضعية الجديدة من التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى على المستويين العلمى والمحلى على السواء .

وتعد فترة السكرتارية العامة للوفد التى شغلها « محمد صبرى أبو علم » من عام ١٩٤٣ حتى وفاته عام ١٩٤٧ من أخصب فترات العمل الشبابى فى الوفد ، مما أعطى الوفد حركة نشطة وبعدا اجتماعيا . صحف الوفد تركت أنهارها تسبح فيها أقلام من اتجاهات مختلفة تؤمن بان الوفد « جبهة » تلتقى فيها القوى السياسية المناضلة من أجل الاستقلال والديمقراطية والعدل الاجتماعى . وهكذا عصف « إسماعيل صدقى » فى حملته الشهيرة (١١ يوليو ١٩٤٦) بصحف الوفد المصرى ، واعتقل فيما اعتقل كتاب الوفد وشبابه . وبعد أن صدرت (صوت الأمة) وكان محمد صبرى أبو علم صاحباً لامتيازها ، « وحامد طلبة صقر » مديراً لها ، و« حافظ شيجا » رئيساً لتحريرها استمرت الجريدة فى الحفاظ على التراث الليبرالى للوفد ، وعلى النضال من أجل الاستقلال والديمقراطية والعدل الاجتماعى .

وفى صيف عام ١٩٤٥ كانت البداية لتكوين (اللجنة الوطنية للطلبة والعمال) والتى ضمت ممثلين لطلاب الجامعة والأزهر وطلاب المدارس الثانوية ، وممثلين على العمال . وكان التشكيل (نواة) لجبهة واسعة للكفاح ضد الاحتلال وقواته ، وضد القصر والأحزاب الممثلة له ، وضد الظلم الاجتماعى .

وقد نشط شباب الوفد داخل هذه اللجنة أو الجبهة ، ووجدت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال دعماً من الوفد بكل أجهزته وعلى كافة مستوياته ، بداية من زعيم الوفد « مصطفى النحاس » وسكرتير عام الوفد « محمد صبرى أبو علم » . وقد واجه الوفد إجراءات « إسماعيل صدقى » بموقف واضح . طالب « مصطفى النحاس » بإجراء انتخابات جديدة حرة ، وهذا يعنى إسقاط نظام إسماعيل صدقى ، وكتب الدكتور عزيز فهمى فى الوفد المصرى « يقول : إما أن يكون هذا وطننا وإما أن يكون وطننا لأعوان الاحتلال .

واستمد شباب الوفد من المعطيات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة ومن ليبرالية الوفد ، ومن استنارة قيادة مصطفى النحاس ومحمد صبرى أبو علم زادا ودافعا لحركتهم داخل الوفد وبين صفوف المناضلين الآخرين . وداخل إطار الحفاظ على تقاليد الوفد صدرت (رابطة الشباب) فى عدد ٢٠ مارس ١٩٤٧ (أى قبل رحيل أبو علم بأقل من شهر واحد) صدرت وتحت الاسم عبارة (لسان حال الطليعة الوفدية) ويتصدر العدد فى الصفحة الأولى صورة للزعيم « مصطفى النحاس » وتحت الصورة عبارة (زعيم الأمة وقائد الشباب) وكتب « محمد صبرى أبو علم » سكرتير عام الوفد كلمة رحب فيها بتولى الشباب تحرير (رابطة الشباب) وأشار فى الكلمة إلى واجب الشباب النضالى .

ويبدو أن ما أشار إليه « جابريل ماير » في كتابه (تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة ١٨٠٠ - ١٩٥٠) ان اتجاه كبار الملاك إلى معارضة حركة الوفد الشعبية لم تكن من سمات الحياة السياسية في مصر ، واستشهد في ذلك بانضمام بعض كبار الملاك إلى الوفد أمثال « فتح الله بركات ، وواصف بطرس غالى ، ومرقص حنا ، وجورج خياط ، وأحمد مظلوم) ، يبدو ان هذه المقولة تنطبق أيضا على « محمد صبرى أبو علم » الذى ذكر « جابريل ماير » أنه - أى صبرى أبو علم - يمتلك ٥٠٠ فدان . قدم « محمد خطاب » مشروعه المعروف بتحديد الملكية الزراعية - مستقبلا - بخمسين فدانا على مجلس الشيوخ في يونيو ١٩٤٥ ، وقبل المشروع برفض شديد ، ولكن « محمد صبرى أبو علم » سكرتير عام الوفد ، وزعيم المعارضة في مجلس الشيوخ وقف يقول : (إن مواجهة الظروف الاجتماعية هى التى حدثت بمقدم المشروع إلى تقديمه ، وفى الحق أنه بذل جهدا مشكورا فى دراسة موضوعه وإعداده وقد اطلعت على بعض محاضر اللجنة ، وفهمت أنه قد أعد له كثيرا من الوثائق وكثيرا مما يبرره .) .

استقلال القضاء

عندما شكل « مصطفى النحاس » وزارته السادسة (٢٦ مايو ١٩٤٢ - ٨ أكتوبر ١٩٤٤) اختار لوزارة العدل « محمد صبرى أبو علم باشا » وكانت وزارة « النحاس » هذه أطول وزاراته عمرا وأشدها خصومة مع القصر وقد أعد وزير العدل « محمد صبرى أبو علم » مشروع قانون استقلال القضاء الذى أصدرته حكومة الوفد فى ١٠ يوليو ١٩٤٣ م . ومنحت حكومة الوفد رجال القضاء قطعة أرض مساحتها حوالى ألفى متر مربع وعشرة آلاف جنيه لنادى القضاء .

ولم يكن « محمد صبرى أبو علم » وزير العدل وهو يضع مشروع قانون استقلال القضاء ، لم يكن يدرى ولم يكن أحد يدرى أنه سيأتى يوم ٣١ أغسطس بعد ست وعشرين سنة ، فى عام ١٩٦٩ ويصدر فى مصر قانون فصل القضاة بغير الطريق التأديبى ، وفصل أعضاء الهيئات القضائية الأخرى . وفى ذات اليوم ، ومنذ الساعة الرابعة بعد الظهر ينطلق طابور من راكبى الموتوسيكلات إلى منازل هؤلاء القضاة يحملون إلى كل منهم ورقة مطبوعة بنموذج متماثل حوى القرار بقانون رقم ٨٣ لسنة ١٩٦٩ والقرارات المنفذة له بإنهاء خدمة هؤلاء القضاة . وكان التوقيع على هذا النموذج يتختم وزير العدل الجديد ، « مصطفى كامل اسماعيل » الذى لم يكن قد حلف اليمين بعد . وهكذا فصل قضاة مصر لأنهم استجابوا لرئيس ناديهم المنتخب « المستشار ممتاز نصار » فى عدم الانضمام للاتحاد الاشتراكى حفاظا على استقلال القضاء . . والطريف أن أحد راكبى الموتوسيكلات توجه إلى « المستشار محمد يحيى أبو علم » نجل وزير العدل الأسبق صاحب

مشروع استقلال القضاء « محمد صبرى أبو علم » يسلمه قرار فصله وآخر إلى « المستشار محمد أبو علم » ابن عم « محمد صبرى أبو علم » يسلمه أيضا قرار فصله لأنه إمسك الميكروفون وهاجم محاولات الحكومة لإغراء بعض رجال القضاء للموافقة على قانون فصلهم ! غير أن « المستشار محمد أبو علم » تلقى قرار العزل وهو فى الخارج . وبموجب قرار عزل القضاة فصل كل رجل قضاء ينتهى اسمه بـ « أبو علم » تكريما لوزير العدل الذى أصدر قانون استقلال القضاء عام ١٩٤٣ .

بداية الرحلة

من اطرف ما قرأت ما كتبه « الشيخ أحمد أمين » فى (حياتى) عن إسهامه فى السياسة ومشاركته لبعض من صاروا زعماء سياسيين مثل « محمود فهمى النقراشى ، ويوسف الجندى ، ومحمد صبرى أبو علم » ولكنه يبادر إلى القول : « ولكن لم أندفع اندفاعهم ، ولم أظهر فى السياسة ظهورهم لأسباب أهمها أنى لم أتشجع شجاعتهم ، فكنت أخاف السجن وأخاف العقوبة » . والذى نعلمه عن حياة « محمد صبرى أبو علم » أنه فصل سنة وهو فى (مدرسة الحقوق السلطانية) فتأخر تخرجه سنة ، وتخرج سنة ١٩١٧ بدلا من ١٩١٦ . وذلك لمشاركته فى تظاهرة ضد السلطان حسين كامل فى زيارة له لمدرسة الحقوق . وكان عمره وقت ذاك حوالى ثلاثة وعشرين عاما إذ إنه ولد فى ٢١ مارس ١٨٩٣ م فى مدينة (منوف) ووالده « محمد خليل أبو علم » أحد كبار التجار . ومن مدرسة المساعى المشكورة فى (منوف) حصل على الابتدائية ، ثم جاء إلى القاهرة ليكمل تعليمه الثانوى والعالى . وبعد أن تخرج فى الحقوق عمل فى المحاماة بين منوف واشمون . وحدث أن كان « سعد باشا » عام ١٩٢٣ يحضر احتفالا لجمعية المساعى المشكورة بعيد الجهاد وأشار إلى « علوى الجزار » ليتكلم غير أن « الجزار » أشار إلى المحامى الشاب « محمد صبرى أبو علم » الذى وقف خطيبا وطنيا بين يدى سعد فأعجب به وطلب منه أن ينقل عمله إلى القاهرة . وفى مكتب « مرقص حنا باشا » عمل « محمد صبرى أبو علم المحامى » . وفى انتخابات ديسمبر ١٩٢٣ رشحه الوفد فى دائرة (منوف) أمام أحد كبار الملاك ، وفاز « أبو علم » بالدائرة وكان من أصغر النواب سنا .

أزمات مع القصر

فى وزارة « النحاس » السادسة (مايو ٤٢ - أكتوبر ٤٤) صدر قانون استقلال القضاء ، وفى عهد تلك الوزارة قدر على « محمد صبرى أبو علم » أن يصطدم بالسرائى . كانت الوزارة قد اقترحت تعيين « أمين انيس باشا » رئيس لجنة قضايا الحكومة رئيسا لمحكمة النقض ، وصدرت

الموافقة على ذلك وادى اليمين القانونية أمام الملك في ١٣ أكتوبر ١٩٤٣ . وبعد أسبوعين قدم ثلاثة من مستشارى النقض استقالاتهم احتجاجا على هذا الاختيار والتقى الملك بهؤلاء المستقلين . ورشحت الوزراء ثلاثة من المستشارين بدلا من الذين استقالوا . وفى تلك الأثناء خلت فى (قضايا الحكومة) ثلاث وظائف لمستشارين ، ووجدها القصر فرصة لكسب المستشارين المستقلين فرشعهم للوظائف الثلاث الشاغرة فى قضايا الحكومة ، ولكن وزير العدل « محمد صبرى أبو علم » أبلغ « حسن يوسف » فى ٢ يناير ١٩٤٤ ان التعيين من اختصاص رئيس الوزراء ، وأصر القصر على تأجيل الموافقة على تعيين ثلاثة فى مكان الذين استقالوا . وأصر « النحاس باشا » على عدم تنفيذ رغبات القصر ، واحتد « صبرى أبو علم » على « حسن يوسف » وفى النهاية رضخ القصر لطلبات الحكومة .

وفى ٦ أكتوبر ١٩٤٣ نشرت جريدة (المصرى) نبأ تعيين « إبراهيم فرج » و « حسن أبو علم » قاضيين بالمحاكم المختلطة وذلك ضمن حركة واسعة واعترض القصر على « إبراهيم فرج » ودافع الوزير عن تعيين « إبراهيم فرج » ويقول « حسن يوسف » بالحرف الواحد : (وأنهى صبرى باشا الحديث بأنه متمسك بوجهة نظره وبأنه سيتنظر من الديوان إخطارا بالموافقة) . ولكن الملك وقع الحركة فيما عدا تعيين « إبراهيم فرج » .

وأقبلت الوزارة كما هو معروف فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ وصدر مرسوم بحل مجلس النواب فى ٨ ديسمبر ١٩٤٤ ، وجرت انتخابات جديدة فى يناير ١٩٤٥ لم يشترك فيها الوفد لأن القصر لم يجب المطالب التى تقدم بها عن طريق « محمد صبرى أبو علم » وتتلخص فى ان تكون الانتخابات حرة ، وأن تجرى الانتخابات وزارة من المستقلين ، وإيقاف الأحكام العرفية ، وحرية الصحافة .

هذا عن الوزارة السادسة (٢٦ مايو ١٩٤٢ - ٨ أكتوبر ١٩٤٤) ومشاركة « صبرى باشا » فيها كوزير عدل ، وقد بدأ عهده بالوزارة فى وزارة « النحاس باشا » الرابعة (٣ أغسطس ١٩٣٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧) واشترك فيها وزيرا للحقانية . واشترك أيضا كوزير للعدل فى وزارة « مصطفى النحاس » الخامسة (٦ فبراير ١٩٤٢ - ٢٦ مايو ١٩٤٢) أما وزارة « مصطفى النحاس » الثالثة (٩ مايو ١٩٣٦ - ٢٩ يوليو ١٩٣٧) وهى الوزارة التى أنجزت فيها معاهدة ١٩٣٦ ، وتم فيها إلغاء الامتيازات الأجنبية لم يشارك فيها « محمد صبرى أبو علم » كوزير وإن كان قد شارك فى اللجنة التى أعدت مشروع إلغاء هذه الامتيازات الأجنبية كواحد من العقلليات القانونية والدستورية فى الوفد .

أخلاقيات المحاماة

هذا وقد عرف عن « محمد صبرى أبو علم » حرصه على أن يترافع عن القضايا التى يرتاح إليها ضميمه القانونى بأحقية أصحابها فى الدفاع عنهم ، وكان يعتذر عن عدم الدفاع فى قضايا كثيرة يكون أصحابها موضع الاتهام الحقيقى ورجل له دوره فى السياسة المصرية ، مثل « محمد صبرى أبو علم » قام بدور هام فى السياسة المصرية والحزبية نتمنى أن يكون قد ترك مذكرات له ونتمنى أن تقوم الأسرة بنشرها إن وجدت هذه المذكرات . وبدون هذه المذكرات لا يستكمل الباحث الجوانب الكاملة بهذه السياسة . وعلى الرغم من وضوح الموقف الحزبى لمحمد صبرى أبو علم بما جعل (الهيئة العليا) تختاره عام ١٩٤٣ بالإجماع سكرتيراً عاماً للحزب ، كانت له علاقاته الإنسانية والأسرية والشخصية مع عدد من الشخصيات لها أراؤها الخاصة بها مثل «إسماعيل صدقى ، والدكتور محمد حسين هيكل ، وأحمد نجيب الهلالى ، وإبراهيم عبد الهادى . وفى سبتمبر ١٩٣٠ فى عهد حكومة « صدقى باشا » سافر إلى برلين ضمن الوفد البرلمانى المصرى إلى المؤتمر البرلمانى الدولى .

ولم يكن -رحمة الله عليه - من النوع الذى يطمع فى الوظائف والمناصب ، ويسعى إليها ويرتب لها الخطوات ، فعندما خرج «مكرم عبيد» من الوفد ، تحدث « محمد صبرى أبو علم » مع « أحمد نجيب الهلالى » وألح عليه ليتولى « نجيب » منصب السكرتير العام للوفد وبعد أن اعتذر ، «الهلالى» أسند المنصب لمحمد صبرى أبو علم بإجماع الآراء وبعد أن رحل فى ١٣ أبريل ١٩٤٧ تولى المنصب « عبد السلام فهمى جمعة » لفترة قصيرة . واعتذر لعدم تفرغه للعمل كسكرتير عام فأسند الوفد منصب السكرتير العام سنة ١٩٤٨ إلى « محمد فؤاد سراج الدين » . رجال لهم تاريخ .

الأسانيد :

- ١ - حسن يوسف . . القصر ودوره فى السياسة المصرية (١٩٢٢-١٩٥٢) .
- ٢ - صوت الأمة (جريدة) . . عدد ١٩ إبريل ١٩٤٧ .
- ٣ - المستشار طارق البشرى . . الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥-١٩٥٢ .
- ٤ - المستشار محمد يحيى أبو علم . . حديث شخصى ١/٩/١٩٨٨ .
- ٥ - المستشار ممتاز نصار . . معركة العدالة فى مصر .

محمد طلعت حرب



هل لاسم الأسرة تأثير على سلوك الأبناء ؟ ربما فوالده من عائلة (حرب) . . ووالدته من عائلة (صقر) . . والعائلتان من مدينة (منيا القمح بالشرقية) .

وهل للحى أو للبيئة الأولى التى ينشأ فيها الإنسان تأثير على سلوكه فى مقبل الأيام ؟ ربما . . فى قصر الشوق بحى الجمالية بالقاهرة ولد « محمد طلعت حرب » فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٧ . . وهل كان يعرف عندما حارب « قاسم أمين » الذى نادى بامرأة مصرية جديدة وعندما وقف إلى جانب مصطفى كامل وتيار قوى يرفض دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة المصرية . . هل كان « طلعت حرب » يتوقع أن يكون قصره الذى عاش فيه بعد فترة النشأة والكائن الآن بشارع رمسيس رقم ٣٦٥ ، هل كان يتوقع أن يصبح هذا القصر دارا للمعلمات تتلقى فيه بنات مصر العلم كما طالب لهن « قاسم أمين » وعلى غير رغبة « مصطفى كامل وطلعت حرب ؟ مفارقة تحدث بعد أن يرحل الرجل عن دنيانا « فى بلدة « (العنانية) بالقرب من دمياط وهو فى زيارة لأحد أصدقائه وكان ذلك فى ٢١ أغسطس ١٩٤١ .

إن ينتقم منه الإنجليز لأنه وضع صرح الاستقلال الاقتصادى هذا أمر مفهوم ولكن أن تساعد حكومة مصرية فى هذا الانتقام أمر غير مفهوم وغير متصور قبيل الحرب العالمية الثانية على وجه التحديد فى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ كان « على ماهر » رئيسا لحكومة مصر حتى ٢٧ يونيو ١٩٤٠ و« حسين سرى » وزيرا للمالية فى تلك الحكومة وكان للإنجليز سيطرة على البلاد فأوعزوا للحكومة بأن تسحب كل قرش لها لدى بنك مصر وأن تسحب كل أموال صندوق التوفير البريذى وصاحب هذا الإجراء موجة من سحب الودائع قام بها الأهالى سواء من بنك مصر أو من بنوك أخرى فحدث عجز فى السيولة النقدية لدى بنك مصر وكان من الطبيعى أن يتقدم « محمد طلعت

حرب « إلى (البنك الأهلي) يطلب قرضاً لقاء رهن محفظة الأوراق المالية ، ولكن البنك الأهلي الذى يسيطر عليه الإنجليز وجدها فرصة لضرب بنك مصر فرفض تقديم القرض حتى لا تتوفر السيولة المنشودة لبنك مصر على زعم أن بنك مصر لم يلتزم بالأصول المصرفية وأن « محمد طلعت حرب » هو سبب سوء الإدارة ولجأ « محمد طلعت حرب » إلى رئيس حكومة بلاده « على ماهر » وإلى وزير مالية بلاده « حسين سرى » للتدخل لدى البنك الأهلي فقال « حسين سرى » وزير المالية . . أنت أو البنك على زعم أن هذه هى مطالب البنك الأهلي وأدرك « الرجل » الموقف أنها فرصة المحتل الانجليزى للقضاء على بنك مصر وبالتالي كل شركاته . . فاستقال الرجل وكان ذلك فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٩ وحل مكانه « حافظ عفيفى » وظل الرجل يجترأ أحزانه لخضوع وزير مالية مصر لشروط « السير ادوارد كوك » مدير البنك الأهلي وفى عهد وزارة « حسين سرى باشا » . وفى يوليو ١٩٤١ دعت الحكومة البرلمان ليوافق على دعم بنك مصر بمليونى جنيه . . ولا ندرى السر فى موقف على ماهر وحسين سرى من محمد طلعت حرب الذى ذهب يشكو الظلم لربه فى ٢١ أغسطس من السنة نفسها أى بعد شهر واحد من قرار الحكومة المصرية بدعم بنك مصر . . وهكذا كانت نهاية بطل الاستقلال الاقتصادى والذى قال فيه أعظم شعراء العربية بعد المتنبى الشاعر « أحمد شوقى » . .

شرفاً محمد هكذا تبنى العلا
مازلت تبنى ركن كل عظمة
وقال فيه الشاعر بشارة الخورى (الأخطل الصغير)
يا (طلعة) العرب قد حققت بغيتهم
للسمال أنا وللآداب آونة
فكنت أعطف من أم على الضاد
صحائف من مروءات وأجناد
وللرجل حكاية نقولها من البداية . . .

الأموال الأجنبية

نحاول هنا أن نذكر الأرقام التقريبية حتى لا نثقل على القارئ بالكسور والفصلات ونسير مع النشاط الاقتصادى للأجانب فى مصر من بداية القرن العشرين حتى نفهم لماذا كان البنك الوطنى ضرورة للاستقلال الاقتصادى وللاستقلال السياسى على السواء . .

سنة ١٩٠٢ بلغت جملة الأموال الأجنبية العاملة فى مصر حوالى ٤٣ مليون جنيه مصرى (هذه الأرقام أيام زمان ١) وكان أغلب هذه الاستثمارات مركزاً فى الشركات العقارية وشركات النقل والمواصلات وشركات الاستغلال التجارى والصناعى والزراعى أى مركزة أساساً فى مشروعات

النفع العام كالسكك الحديدية والنقل والمواصلات ثم الزراعة والنسبة الصغيرة منها في الصناعة وفى سنة ١٩١٤ من بداية الحرب العالمية الأولى ارتفعت رءوس الأموال العاملة في الشركات المختلفة إلى حوالى ٩٢ مليون جنيه مصرى بالإضافة إلى ٨ ملايين جنيه أموالا محلية . . أى إن رءوس الأموال الأجنبية بنسبة ٩٢٪ من الأموال العاملة في الأنشطة المختلفة في مصر .

وسنة ١٩١٥ وصلت الأموال الأجنبية إلى ١١٧ مليون جنيه منها ٤٦ مليون جنيه أموالا فرنسية ، و ٣٠ مليون جنيه انجليزية و ٤١ مليون جنيه من دول مختلفة المهم أن ٦٢٪ من مجموع هذه الأموال الأجنبية مستثمرة في الأنشطة الزراعية و ٦٪ فقط لا غير في المجال الصناعى و ٣٢٪ في مختلف الأنشطة الأخرى ، سياسة موجهة تماما أن تكون أعلى نسبة في النشاط الزراعى وأقل نسبة في النشاط الصناعى .

ومع نمو الحركة الوطنية أخذت الأموال الأجنبية في التراجع فسنة ١٩٢٢ وصلت الأموال الأجنبية إلى ١١١ مليون جنيه التراجع محدود وبطء ولكنه لايتزايد على الأقل . . وكان رأس المال المصرى كما هو ٨ ملايين جنيه . . ولكن سنة ١٩٥٠ انخفض رأس المال الأجنبى إلى ٩١ مليون جنيه وارتفع رأس المال المصرى إلى ٤٨ مليون جنيه . . وهكذا كلما تصاعدت حركة الاستقلال الوطنى زاد رأس المال المصرى ، وانخفض رأس المال الأجنبى .

البنوك والأجانب

ومع نشاط الأموال الأجنبية ظهرت البنوك التى ترجع بدايتها إلى سنة ١٨٥٦ صحيح أن عدد الأجانب بدأ صغيرا ولكنه أخذ يتزايد حتى وصل إلى ١٧٥ ألف أجنبى سنة ١٩١٧ (هذا الرقم لا يدخل فيه عدد قوات الاحتلال) وبدأ يزداد بعدها ثم أخذ يتناقص بعد معاهدة ١٩٣٦ وبعد إلغاء الامتيازات الأجنبية على أية حال فإن الأجانب في حاجة إلى نقط ارتكاز مالية تعمل على تثبيت أقدامهم في الأسواق المالية وتكون حلقة اتصال بين أعمالهم في مصر وبين مراكزهم المالية في الخارج . . وحلقات الارتكاز المالية تلك هى (البنوك) الأجنبية التى عملت في الوقت نفسه على جمع أموال المصريين لاستثمارها لصالح الدول الأجنبية التابعة لها تلك البنوك مع مراعاة أن أرباح النشاط الاقتصادى الأجنبى لم تكن تبقى في مصر وإنما كانت تحول أولا بأول إلى خارج مصر عملية نهب منظمة لمقدرات البلاد المالية فلم تعد المفاتيح الحقيقية للقوة الاقتصادية المصرية في أيدي المصريين ومن هنا كانت الدعوة إلى بنك للمصريين أو بنك للأمة على قدم المساواة في الأهمية مع الدعوة للاستقلال السياسى كانت العمليتان متلازمتين أو متداخلتين تدعم كل منهما الأخرى .

علاج مصر الاقتصادى

وفى يونيو ١٩٠٦ وقعت حادثة دنشواى فأيقظت مشاعر المصريين إلى أخطار الاحتلال . . وأعلن « مصطفى كامل » صيحته بالجلء . . وفى الوقت نفسه أعلن « محمد طلعت حرب » صيحته بإنشاء بنك وطنى . . تحرك « مصطفى كامل » خطيبا يندد بالاحتلال ووقف « محمد طلعت حرب » خطيبا ويقول :

إن اقتصاديات البلاد تحتاج إلى نهضة شاملة مفتاحها هو إنشاء بنك وطنى يديره مصريون بأموال مصرية وبلغة عربية يعمل على تشجيع وتمويل النشاط المصرى فى نواحي الصناعة والتجارة والزراعة .

وأكرر أن - الزمن ١٩٠٦ - . . الدعوة باكرة وواضحة ومحددة ولم يكن مجرد داعية اقتصادى بل كان يدرك بوعى كامل الارتباط الوثيق بين الاقتصاد والسياسة تحرك فى تلك الفترة تحت راية الحزب الوطنى وشارك فى إنشاء (الجريدة) لسان حال حزب الأمة (١٩٠٧) والتي روجت لشعار (مصر للمصريين) . . وكان الشعار يعنى أيضا أن يكون اقتصاد مصر فى أيدي المصريين . .

وقرأت كتابه (علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك للمصريين أو بنك الأمة) الذى نشرته له (مطبعة الجريدة) فى نوفمبر ١٩١١ (أكرر سنة ١٩١١) وأشهد بالصدق كله إنه كتاب متقدم بكل المعايير . . فى المنهج وفى التحليل وفى الدراسة الموثقة بالقرارات والتقارير المالية والأرقام والإحصائيات والبعد عن الحماسة والإنشاء ويقع فى ١٨٥ صفحة من القطع المتوسط ليت كل مشغل بالسياسة والاقتصاد يقرأ هذا الكتاب على الأقل ليعرف كيف كان الرجل يدرك أصول الدراسات الاقتصادية وكيف كانت دعوته الباكرة تقوم على حقائق علمية وليست مجرد عاطفة وطنية جياشة . . وبدأت هذه الدراسة العلمية وانتهت بالتركيز على (حاجة مصر لإنشاء مصرف يعمل على مد يد المساعدة للمصريين ويحثهم على الدخول فى أبواب الصناعة والتجارة) وعلى إنشاء بنك مصرى برءوس أموال مصرية .

وضوح وغموض

كانت فكرة البنك الوطنى واضحة إذن فى ذهن « محمد طلعت حرب » جاءت على لسانه سنة ١٩٠٦ كما أسلفنا وجاءت مطبوعة وصريحة فى كتابه سنة ١٩١١ ولكن بين هذين التاريخين ترد مواقف من الرجل لم نجد لها تفسيراً لقد عرفنا أنه كان يميل إلى تيار مصطفى كامل ويعدها كان من رجال حزب الأمة ومن المشاركين فى إنشاء (الجريدة - ١٩٠٧) ولكننا نجد بين سطور الكتب أنه بعد وفاة مصطفى كامل طلب « عمر سلطان » العضو فى مجلس إدارة (اللواء) من محمد

طلعت حرب العمل على مساعدتها لأنها كانت تواجه أزمة مالية غير أن طلعت حرب لم يفعل شيئاً فتعثرت اللواء وغيرها من صحف الحزب الوطنى . . ربما كان الرجل يتجه فى تلك الفترة إلى نشاطه الاقتصادى وربما انطفاً أمام عينيه بريق الحزب الوطنى بعد رحيل مؤسسه وربما أراد أن يكتفى باتصالاته مع (الجريدة) وربما انشغل فى أعماله الاقتصادية الخاصة . . إذ إنه فى ٣٠ سبتمبر من سنة ١٩٠٩ قام ومعه عدد من المالىين المصريين بتأسيس (بنك التضامن المالى) وربما نظر إليه على أنه (التجربة الأولى) لمشروعه الذى ينادى به وهو (البنك الوطنى) وصدر مرسوم بقيام هذه التجربة فى ٢٧ يناير ١٩١٠ تحت اسم (الشركة التعاونية التجارية للائتمان) ونجده كما عرفنا يصدر كتابه الهام فى أواخر سنة ١٩١١ العلاج الاقتصادى لمصر . . مشروع بنك للمصريين أو بنك الأمة . وقد أدرك المؤتمر المصرى - ١٩١١ - أن محمد طلعت حرب هو الرجل المنوط به أن يحقق حلم الأمة فى الاستقلال الاقتصادى ويرى المؤتمر أهمية أن ينشأ بنك مصرى براء وس أموال مصرية أكثر من هذا يقوم المؤتمر كخطوة عملية بإرسال طلعت حرب مبعوثاً إلى أوروبا لدراسة نظم إدارة البنوك .

التحرك الاقتصادى

وجاءت الحرب العالمية الأولى وانصرفت المؤسسات المختلفة إلى المجهود الحربى وقام هو بتدريس الشئون المصرفية فى الجامعة المصرية وهى وظيفة غير حكومية ، وكان من بين المصريين الذين ساندوا الدعوة إلى إنشاء تلك الجامعة . ويقرر « حسين رشدى باشا » تشكيل لجنة لدراسة تأثير الحرب على الصناعات المصرية سنة ١٩١٧ ويشترك « محمد طلعت حرب » فى تلك اللجنة التى ترى ضرورة الاهتمام بالصناعات إلى جانب النشاط الزراعى . . وتضع اللجنة تقريراً قيل إن كاتبه هو « محمد طلعت حرب » وقيل إنه « إسماعيل صدقى » على أية حال فإن (المستشار الانجليزى) للشئون المالية وضع التقرير فى الأدراج ونام عليه وكيف لا ومحمد طلعت حرب كان يقول عبارته الشهيرة وهى عبارة غاية فى الوعى وفى التقدم وتدل على أنه كان واضح الرؤية بعيد النظر .

قال (لكى يتم الاستقلال السياسى فإنه من الضرورى أن تتوفر للوطن إمكانيات التحرر الاقتصادى التى ترسى دعائم اقتصادية وطنية يستطيع الوطن أن يواجه بها الاحتياجات التى سوف يمتازها فى مراحل نضاله مع الاستعمار . . تغذى كفاحه وتدعمه وتمنحه الصلابة وقوة الصمود . .) أى وعى أكثر من هذا يربط بين التحرر السياسى وبين التحرر الاقتصادى .

إذن لابد من التحرر الاقتصادي . كانت سيطرة رؤوس الأموال الأجنبية قوية وصلت نسبتها كما عرفنا ضمن الأموال العاملة ٩٢٪ وكانت نسبة الأموال الأجنبية التي تعمل في المجال الزراعي ٦٢٪ وسنة ١٩١٧ بلغ عدد الأجانب الذين يملكون أرضا زراعية في مصر (٨٢٤٢) مالكا ومساحة الأرض التي يملكونها ٧١٢ ألف فدان أى إن الأجانب كانوا يملكون نسبة ١٣٪ من مجموع الأرض الزراعية في مصر . . الله ! . ليس هناك بلد في العالم يسمح للأجانب بملكية الأراضي الزراعية فيه صحيح أن الرقم بدأ ينخفض ولكن قرارا واحدا لم يصدر ليحظر على غير المصريين ملكية الأرض وصحيح أن المؤرخ عبد الرحمن الرافعي كان قد تقدم بهذا المشروع ولكن في ١٢ فبراير سنة ١٩٥١ (أكرر سنة ١٩٥١) وفي عهد حكومة الوفد صدر قانون يحظر على غير المصريين ملكية الأراضي الزراعية وملكية الأراضي الصحراوية .

الثورة القومية

ويجمع المؤرخون على اختلاف اتجاهاتهم ومن بينهم عبد الرحمن الرافعي أن من بين النتائج الهامة التي حققتها الثورة القومية ثورة ١٩١٩ بقيادة « سعد زغلول » قيام بنك وطني بنك الأمة تحت اسم بنك مصر . . وتحت راية سعد ودون أن ينضم للوفد استمر محمد طلعت حرب يدعو لإنشاء البنك وعرفت الجماهير أن سعدا يؤيد مشروع البنك فاحتضنته واستدعى المستشار الانجليزي « محمد طلعت حرب » وقال له :

كنت أظنك رجلا عاقلا ولكنك فيما يبدو لي أصبت بعدوى الجنون المنتشر في البلد هذه الأيام . . هل تتصور أن المصريين يستطيعون أن يديروا بنكاً ؟ إنكم لا تصلحون للأعمال المالية إنها صناعة الأجانب وحدهم .

أنت تعرف أن في وسعي أن أمنع قيام هذا البنك ولكنني وافقت على قيامه لاعطيكم درسا في الفشل وكل ما أنصحك به أن تشرك معك بعض الأجانب حتى تعطى المصريين شعورا بالثقة في هذا البنك .

قال « محمد طلعت حرب » . . وروح الثورة القومية تشد من أزره .

« لقد قررنا أن يكون هذا البنك مصريا مائة » في المائة عبارة توازى في وزنها عبارة « أحمد عرابي » في ميدان عابدين . وفي مواجهة الخديو توفيق . . قال المستشار لا فض فوه :

إنك تتكلم بلغة تظاهرات الشوارع ، والذي يصلح للشارع لا يصلح لأعمال المال والبنوك . . وقد استدعيتك لأنصحك فأنت رجل طيب لا تشتغل بالسياسة .

حلم الرجل الطيب

هى الثورة الكبرى التى جعلت كل مصرى يشتغل بالسياسة مؤيدا لها . . ضمت إليها العمال وكبار رجال المال . . الفلاحين وكبار ملاك الأرض . . النساء والرجال كل فئات الأمة بعقائدهم الدينية . . ومع بداية المقال عرفنا كيف أن المدير الإنجليزى للبنك الأهلى انتقم من الرجل الطيب . . واشترط وزير المالية المصرى لتدخله لإنقاذ بنك مصر بعد عشرين سنة من قيامه - أن يستقيل منه (الرجل الطيب) .

ومهما يكن من أمر فإن إرادة الثورة انتصرت وحلم الرجل الطيب تحقق . وفى ٨ مارس ١٩٢٠ (بعد عام واحد من قيام الثورة وفى ذكرى نفى سعد زغلول وصحبه) تم تحرير العقد الابتدائى بين كل من : (أحمد مدحت يكن باشا ، ومحمد طلعت حرب بك ، واسكندر مسيحه أفندى ، ويوسف اصلان قطاوى باشا ، وعبد العظيم المصرى بك ، وعبد الحميد السويفى بك وعباس دسوقى الخطيب أفندى ، والدكتور فؤاد سلطان) على تأسيس شركة مصرية مساهمة تحت عنوان (بنك مصر) . . واقراءوا الأسماء من جديد لتعرفوا أثر الثورة القومية والتى جمعت المسلمين والمسيحيين واليهود المصريين فى تأسيس بنك مصر . وفى ١٣ أبريل ١٩٢٠ صدر المرسوم السلطانى بإنشاء البنك الذى أعلن قيامه فى ٧ مايو ١٩٢٠ برأسمال قدره ٨٠ ألف جنيه مصرى موزعة على ٢٠ ألف سهم بقيمة السهم الواحد ٤ أربعة جنيهات مصرية وعدد المساهمين (١٢٦) مساهما وجميعهم من المصريين دون استثناء ومن بينهم اثنان من أصل يهودى الأول « يوسف اصلان قطاوى » وهو يهودى مصرى تولى وزارة المالية سنة ١٩٢٤ (فى عهد حكومة أحمد زيور باشا التى خلفت وزارة سعد زغلول) والثانى هو يوسف شيكوريل يهودى مصرى والذى قام بتأسيس محلات شيكوريل .

سعد والبنك

قام البنك ، وقامت بعض شركاته وأحاطه المصريون بالمساندة وأحس «سعد زغلول» اتجاه الانجليز لضربة جديدة لقيادة الوفد وكان حمد الباسل قد وقع فى خلاف مع الوفد وبيته فى مواجهة بيت الأمة وبعث سعد برسالة صغيرة إلى حمد الباسل قبيل اعتقاله فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ .

عزيزى حمد . . الاتجاه إلى الاعتقال . . واجبك أن تعود إلى الوفد وتنسى الخلافات التى بيننا الموقف يستوجب الاتحاد . . رد الأمة هو عدم التضامن مع الانجليز . . مقاطعة البنوك والشركات الإنجليزية تشجيع بنك مصر . . الامتناع عن تشكيل أى وزارة .

واعتقل « سعد » وعاد « حمد الباسل » إلى الوفد ومعه جورج خياط الذي كان قد ترك الوفد إلى مجموعة عدلى يكن وانضم إلى الوفد في تلك الأيام (على الشمسى وعلوى الجزائر ، ومرقص حنا ، وعبد القادر الجمال ، ومراد الشريعى) وبعد أقل من شهر من اعتقال « سعد » أصدر الوفد بيانا تاريخيا في ١٣ يناير ١٩٢٢ .

على المصريين أن يسحبوا ودائعهم من المصارف الإنجليزية ومن الواجب على المصريين أن يقبلوا على شراء أسهم بنك مصر حتى يصل رأسه إلى مبلغ يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية وبذلك يتسنى له أن يساعد المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة ، على كل مصرى أن يقاطع شركات التأمين الانجليزية وكذلك السفن وأن يفضل المصنوعات الوطنية والإعلان عنها وتشجيع الإقبال عليها ويجب أن يبشر بهذا النظام ويذاع في الجوامع والكنائس والنقابات والهيئات .

وكان هذا البيان تنفيذا لتعليمات « سعد » التي تركها قبل الاعتقال وهي الدعوة التي ترددت بعد ذلك في جمعية (المصرى للمصرى) التي أسسها « سلامة موسى » وعمل فيها « الشاب أحمد حسين » وبعدها أعلن عن « مشروع القرش » .

المهم أن بيان الوفد وقعه « حمد الباسل ، وويصا واصف ، وجورج خياط ، ومرقص حنا ، وعلوى الجزائر ، ومراد الشريعى وواصف غالى » فزعت انجلترا لبيان الوفد وأصدر السير اللبى نائب ملك بريطانيا وقائد القوات البريطانية في مصر أمرا بتعطيل الصحف التي نشرت نداء الوفد وتم القبض على أعضاء الوفد الذين وقعوه وتم تشكيل محكمة عسكرية انجليزية . . وقال « حمد الباسل » لكم أن تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحكمونا . . وردت المحكمة بإصدار حكمها بإعدامهم جميعا وهتف الرجال «نموت ونحيا مصر» .

المال والكلمة

وتراجع الانجليز عن حكم الإعدام وتحول الحكم إلى غرامة مالية كبيرة بمقاييس ذلك الزمان ومضى البنك في أعماله وتأسيس شركاته وكانت أول شركة يؤسسها البنك هي (مطبعة مصر) في مايو ١٩٢٢ وفي سنة ١٩٢٥ أسس البنك (شركة مصر للتمثيل والسينما) ولم يكن هذا الاختيار مصادفة ، ولكنه كان إدراكا من « الرجل » لأهمية الكلمة وأهمية الفن إلى جانب المال (ثمار الفكر وثمار الفن جناحان للبنك ، بهما يخلق في سماء الثورة العملية ولدعم الثورة الشعبية) .

وأذكر عام ١٩٦٢ وكان قد تقرر ضم عدد من دور الطباعة إلى الدار القومية للطباعة والنشر أول دار للنشر العام (أقصد القطاع العام) وكان الدكتور محمد عبد القادر حاتم قد شكل لجنة

لضم هذه الدور تحت إشراف « الأستاذ يحيى أبو بكر » وكنت أحد أعضاء هذه اللجنة التى دخلت مطبعة مصر لضمها ولتكون مقرا لرئيس مجلس إدارة الدار القومية بعد ذلك . . وقفت اللجنة فى هيئة أمام تاريخ سابق لنا فى الحجرة التى جلس فيها « محمد طلعت حرب » وجلس فيها « عزيز باشا أباطة » لقد كانت مطبعة مصر أول دار طباعة ونشر يملكها الشعب إذا جاز هذا التعبير . .

وتوالى الشركات (حلج القطن ١٩٢٤ - النقل والملاحة ١٩٢٥ - مصر للغزل والنسيج (المحلة) ١٩٢٧ - مصايد الأسماك ١٩٢٧ - نسيج الحرير ١٩٢٧ - بنك مصر وسوريا لبنان ١٩٢٩ - تصدير الأقطان ١٩٣٠ - مصر للطيران ١٩٣٢ - بيع المصنوعات المصرية ١٩٣٢ - مصر للتأمين ١٩٣٤ - مصر للملاحة البحرية ١٩٣٤ - مصر للدخان ١٩٣٧ - مصر للسياسة ١٩٣٤ - صناعة الزيوت ١٩٣٧ - الأسمت المسلح ١٩٣٨ - الغزل والنسيج (كفر الدوار) ١٩٣٨ وصباغى البيض ١٩٣٨ المناجم والمحاجر ١٩٣٨ - وغيرها وغيرها نسيت أن أقول بالأحرى أن أعيد القول إنه فى ١٤ سبتمبر ١٩٣٩ وتحت ضغط الانجليز وبتأييد وزير مالية مصرى وفى ظل حكومة مصرىة قدم « محمد طلعت حرب » استقالته وخرج من بنك مصر ولم يعد له مرة أخرى وحتى خرج من هذه الدنيا فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٤١ فى قرية من إحدى قرى مركز فارسكور لقد كان فى مصر « رجل » قال : (إن الاستقلال السياسى والاستقلال الاقتصادى توءمان عزيزان خليك بنا أن نوفر لهما القوة والمنعة والسلطان) فهل نستعيد هذا الكلام هذه الأيام ؟

الأسانيد :

- ١ - الهامى حسين . . محمد طلعت حرب رائد صناعة السينما .
- ٢ - محمد السوادى . . أقطاب مصر بين الثورتين .
- ٣ - محمد طلعت حرب . . علاج مصر الاقتصادى ١٩١١ . مجموعة خطب ١٩٢٧ .
- ٤ - د . نبيل عبد الحميد . . النشاط الاقتصادى للأجانب وأثره فى المجتمع المصرى ١٩٢٢ - ١٩٥٢ .

الشيخ محمد عبده



أنا لا أكتب ولكنى أأمل . . كثيرون كتبوا عنه في حياته ، وكثيرون كتبوا عنه بعد رحيله في صيف ١٩٠٥ . . وكثيرون سوف يكتبون عنه ولكنه في حاجة إلى مجلدات .

قال « الخديو عباس حلمى الثانى » إن الشيخ « محمد عبده » يدخل على وكأنه فرعون ! والتفت « الخديو » يسأل « عبد الرحمن الكواكبي » رأيه فى الأستاذ الأمام . . فقال الكواكبي : (إن افريقية أخرجت كثيرا من العلماء والفلاسفة والحكماء ، ولكنها أخرجت أخيرا حكما فاق جميع الحكماء هو الشيخ محمد عبده) وفى السويس ، وفى سنة ١٨٧٩ وقد تقرر خروج « السيد جمال الدين الأفغانى » ودع الشيخ « محمد عبده » وهو يبكى بكاء شديدا ، وقال لتلاميذه : (لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالما) وأطلق عليه « الأستاذ عباس محمود العقاد » إنه عبقرى الإصلاح والتعليم والهداية ، وأنه أعظم من أنجبته القرية المصرية ، ونهض برسالة الأزهر فى عصره . وإذا كان « عبد الرحمن الكواكبي » الذى جاء إلى مصر من (حلب) رأى أن « الشيخ محمد عبده » فاق جميع الحكماء ، فإن الشيخ « رشيد رضا » الذى جاء من منطقة (طرابلس) وتعلم على يدى الشيخ محمد عبده ، وهو الذى كتب تاريخ الأستاذ الإمام كان يرى أن (محمد عبده أعلم من أستاذه الأفغانى) . وهذا الرجل الذى تنتظرون أن أكتب عنه هو الذى قال فى رثائه حافظ إبراهيم :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجّة

وضاقت عيون الكون بالعبرات

ففى الهند محزون وفى الصين جازع

وفى مصر باك دائم الحسرات

وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب

وفى تونس ما شئت من زفرات

أنا لا أكتب عن الرجل ولكنى فى محراب سيرته الثرية أتأمله فلنسر معا نتأمل هذا الصرح العظيم الذى أنبتته القرية المصرية وتعهده الأزهر الشريف . .

- ١ -

نتأمل ونطيل التأمل فى القرية المصرية . . القرية الصابرة الولود . . القرية المصرية أنجبت رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وعبد الله فكرى وأحمد عرابى ومحمد عبده وسعد زغلول . . نتأمل القرية المصرية وهى تنجب لمصر أعظم أبنائها ، وتستودعهم الأزهر الشريف ليقدم لمصر أعظم قادتها ، نتأمل قرية صغيرة أو (حصّة) حسب التعبير الدقيق . . (حصّة شبشير) من إقليم الغربية يولد فيها « الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » سنة ١٢٦٦ هجرية (١٨٤٩) ميلادية . ولكنه نشأ فى (محلة نصر) إحدى قرى مركز شبراخيت بمديرية البحيرة . وأحوال الشيخ هم غالبية سكان (حصّة شبشير) ولم يكن يزيد عدد سكان هذه الحصّة عن ألف نسمة وأصلهم من قرية (بنى عدى) بمديرية أسيوط واستقر بهم المقام فى تلك الحصّة . . فتكون أم الشيخ صعيدية من محافظة أسيوط . أما والده فقد نشأ هو وأسرته فى (محلة نصر) وإن كان أحوال والده هم غالبية سكان قرية (كنيسة أودين) . وللشيخ أقارب بمنية طوخ فى مركز السنطة ، وأقارب فى بعض القرى المجاورة . ولئن تهمة الأسماء فى السيرة فإن والد الشيخ هو « عبده بن حسن » وأمة هى « جنيّة بنت عثمان » .

نشأ إذن فى أسرة كبيرة العدد من جهة الأب أو من جهة الأم . ويقول الشيخ فى سيرته التى كتبها بقلمه (تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ، ثم انتقلت إلى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة . . وبعد ذلك حملنى والدى إلى طنطا لأجود القرآن فى المسجد الأحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد ، وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ هجرية ١٨٦٢ ميلادية) .

وفى سيرته يحكى لنا أنه تلقى فى المسجد الأحمدي (شرح الكفراوى على الأجرومية ، وأن المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لانفهمها) فهرب من الدروس إلى أحوال أبيه . وزوجه أبوه وهو فى سن السادسة عشرة عسى أن يستقيم الحال دون فائدة ، ولكن صلاح الحال كان باذن الله على يد أحد أحوال والده ، ولولاه ربما سار « الشيخ محمد عبده » فى طريق غير التى سار فيها . . ربما انصرف إلى الزراعة أو إلى غيرها من الأعمال ، وربما كان قد تخرج فى الأزهر الشريف وقنع بوظيفة من الوظائف التقليدية . ولكن الشيخ درويش كان على يديه لإقبال الشيخ

على الدرس والتحصيل ، وإمعان الفكر فيما يقرأ وتولدت عنده شرارة البحث والتفكير والجدل .

- ٢ -

والشيخ درويش هو أحد أحوال أبيه ، سبقت له أسفار إلى (طرابلس الغرب) وجلس إلى السيد محمد المدني ، ثم رجع من أسفاره إلى قريته « كنيسة أورين » واشتغل بها يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق بالزراعة .

وبعد صبر وحسن معاملة تحلى « محمد عبده » عن كراهيته للعلم وأقبل عليه بفضل الشيخ درويش واهتمك « محمد عبده » على كتاب به رسائل كتبها « السيد محمد المدني » إلى بعض مريديه ، وهى رسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا .

ويقول الأستاذ الإمام فى ذكرياته عن تلك الفترة : (سألت الشيخ : ما هى طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا الإسلام ، فقلت أو ليس كل هؤلاء بمسلمين ؟ قال : ولو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب) .

ويستطرد الأستاذ الإمام معلقاً على أثر هذه العبارات فى نفسه : (هذه الكلمات كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم . . متاع تلك الدعاوى الباطلة ، والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وإن كنا فى غمرة ساهية) .

وفى منتصف شوال من سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٦ ميلادية) جاء شيخنا إلى الأزهر وأخذ يتلقى العلم فيه إلى أن جاء إلى مصر « السيد جمال الدين الأفغانى » أواخر سنة ١٢٨٦ هجرية (مارس ١٨٧١ ميلادية) وقد صاحبه « الشيخ محمد عبده » ابتداء من شهر المحرم ١٢٨٧ هجرية وأخذ يتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والكلامية والحكمية (يقصد الفلسفية) . . (وأخذ مشايخ الأزهر يقولون عليه وعلى الأقاويل ، ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى إلى زعزعة العقائد الصحيحة) ولكن « الشيخ درويش » يرد على هذه الأقاويل بحجة بسيطة ومقنعة . . (فكنت إذا رجعت إلى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش . . فيقول لى . . إن الله هو العلم الحكيم ، وأن أعدى أعداء العلم هو الجاهل . . وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة ، فلا شىء من العلم محقوت عند الله ، ولا شىء من الجهل محمود لديه . .) .

- ٣ -

فى مارس ١٨٧١ وصل « السيد جمال الدين الأفغانى » إلى أرض مصر . وقد سبقه « رفاعه رافع الطهطاوى » الصعيدى ابن الأزهر فى نشر المعرفة . والدعوة إلى حرية الفكر ، والإصلاح

والتعليم ، وتعليم المرأة ، والأخوة الوطنية ، والانفتاح على العلوم الحديثة . ورحل مؤسس النهضة المصرية الحديثة في ٢٧ مايو ١٨٧٣ أى بعد وصول الأفغانى بأكثر من عامين (ورد في كتاب محمد عبده للأستاذ العقاد - الطبعة الثالثة صفحة ٥٥ أن وفاة الطهطاوى كانت سنة ١٨٧١ ولعلها غلطة مطبعية في هذه الطبعة) إلا أن « الأفغانى » جاء يلقي بذور الثورة الفكرية ، والثورة السياسية في التربة المصرية . وأسلفنا القول عن رأى الأفغانى في « الشيخ محمد عبده » وفي اتصال « محمد عبده » بالأفغانى الذى كان له أثر منتشر الإشعاع في اتجاهات كثيرة . . . جلس إليه مريدون كثيرون . . محمد عبده ، وعبد الله النديم ، وسعد زغلول ، ومحمود سامى البارودى ، وإبراهيم المويلحى ، وإبراهيم اللقانى ، وعلى مظهر ، وحفنى ناصف ، وعبد السلام المويلحى ، وعبد الكريم سليمان ، وأديب اسحق ، وسليم النقاش وسعيد البستانى ، والسيد وفاء التونى ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد .

أرسل إشعاعه في اتجاهات مختلفة وتلاميذه يأخذون عنه ما يتفق وطبيعة كل منهم ، شجع تلاميذه على إصدار الجرائد ، يكتب فيها بنفسه ، ويدعو تلاميذه الآخرين . . أصدر تلميذه « أديب اسحق » جريدة مصر . . كتب فيها الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، وإبراهيم اللقانى . واهتم « الشيخ محمد عبده » بالوقائع المصرية التى أشرف على تحريرها وشجع بدوره تلميذه « رشيد رضا » على إصدار (المنار) واشترك مع السيد جمال الدين في إصدار (العروة الوثقى) في باريس ، وفي (لندن) أصدر صحيفة (الاتحاد العربى) بمعاونة « بلنت » صديق العربيين . وشجع أحد مريديه « إبراهيم سراج » على إصدار صحيفتى (الحجاز والفسطاط) .

ودعا « الأفغانى » الشائر . . إلى الثورة فخرج العربيون من عباءته ، وكذلك « سعد زغلول » أما « الشيخ محمد عبده » فقد حذر من أساليب العنف ، وانحاز للثورة بعد أن بدأت ، ثم مال إلى الإصلاح وربما تكون لنا عودة لهذه الفقرة ، بل سوف تكون حديثنا في الفقرة التالية مباشرة .

— ٤ —

أما موقف الأستاذ الإمام من (الثورة العربية) فهو موقف جدير بالتأمل بل هو جدير بالدراسة وبعدها يحكم القارئ للرجل أو عليه .

بداية كان « الرجل » على خلاف مع عربى في برنامج العمل ، ورأى تنبيه الزأى العام ، وإنهاض الأمة على أسس التربية والتعليم ، وخالف العربيين في اتباع أسلوب يفتح الباب لتدخل عسكري من جانب الدول الأجنبية ، بل إنه قال في صراحة كاملة في بيت « طلبة عصمت باشا » قائد الإسكندرية . . (إن هذا الشعب قد يجر إلى البلاد احتلالا أجنبيا يستدعى تسجيل اللعنة

بسببه إلى يوم القيامة) وابتسم « أحمد عرابي و قال : « أبذل جهدي في ألا أكون مورد هذه اللعن) .

وهذا الاحتلال الذي توقعه « الشيخ محمد عبده » وحذر من استخدام أساليب تؤدي إليه هو الاحتلال البريطاني البعث الذي جثم على صدر البلاد أكثر من سبعين سنة . وبالقطع عندما حذر « الشيخ » من احتلال عسكري أجنبي كان يرى بوضوح قوة العرايين وحجم الاستعداد العسكري ، وكان يرى بوضوح طبيعة « الخديو توفيق » واستعداده للغدر بالبلاد ، واستعداده لتسليم البلاد إلى القوى الأجنبية في حالة تعرض عرشه للضياع .

لم ينس « الشيخ » الدرس الذي تعرض له أستاذه « الأفغاني » عندما ذهب على رأس وفد من المصريين إلى قنصل فرنسا بمصر وأبلغوه أن حزبا بمصر قد تشكل ويطالب بأن يتنازل « الخديو إسماعيل » عن الحكم لولده « توفيق » وتوفيق هذا كان عضوا (بمحفل الأفغاني) . وتم خلع « إسماعيل » عام ١٨٧٩ وجاء توفيق الذي قال للسيد جمال الدين (أنت موضع أملي في مصر أيها السيد .) ولكن في ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ كانت قوة بأمر « توفيق زميل المحفل » تقبض على « جمال الدين الأفغاني » وعلى خادمة « أبو تراب » وأودعا باخرة عند السويس سارت بهما إلى بومباي . وكان هذا اليوم آخر العهد بـ « السيد » في مصر وكان قرار توفيق بإبعاد (أمله في مصر) مؤسسا على أن هذا « الأمل » رأس جمعية سرية من ذوى البطش مجتمعة على فساد الدين والدنيا ، مشيرا بذلك إلى « الحزب الوطني الحر » وإلى (جمعية حلوان) .

رأى « الشيخ » بوضوح احتمالات الخيانة من جانب « توفيق » ولم يكن هناك في مصر من يكره (أسرة محمد علي) أكثر من « الشيخ محمد عبده » . ورأى دائما أن الخير في أن تتخلص مصر من حكم هذه الأسرة . . ورأى أيضا أن توازن القوى ليس في صالح الوطنيين لهذا نصح في البداية بالتريث وعدم الاندفاع الذي يمكن أن يجبر على البلاد الاحتلال الذي كان . .

ولكن ما إن بدأت الأحداث تتصاعد إلا وكان للأستاذ الإمام موقف آخر كشف عن ثورية كامنة تحت رداء الإصلاح والتربية والتعليم .

— ٥ —

وما إن بدأت الخطوات الأولى للشورة إلا وكان الأزهر يؤيدها ويشد من أزرها ، وفي التاسع من سبتمبر ١٨٨١ طالب الأزهريون بتنحية « الشيخ محمد العباسي » الذي كان يتولى الإفتاء ومشيخة الأزهر ، وفعلا تم تعيين « الشيخ محمد الأمبابي » بدلا منه . وأعلن « الشيخ الأمبابي » ضرورة عزل « الخديو توفيق » وأفتى « الشيخ محمد عليش » بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكما للمسلمين

بعد أن باع مصر للأجانب ، وأفتى «الشيخ حسن العدوى» بشرعية عصيان «الخديو» ، وبرز دور «الشيخ محمد عبده» في طليعة المثقفين الذين أسهموا في الثورة ، وأصبح أحد قادة الحركة الوطنية المصرية ، على صفحات (الوقائع المصرية) كان يبث أفكاره عن الحرية والديموقراطية . وشرح في خطبه معانى القومية ، وأهمية أن تعتمد الحركة الوطنية على جميع عناصر الأمة بلا استثناء ، وحث المواطنين على التبرع بالأموال ، وامتدح المديرين الذين بذلوا جهودا في هذا الشأن . وحرص على نشر خيانات توفيق والدعاء لعرابى ، والجهد في سبيل الله بالتطوع في صفوف القوات المحاربة . ودفع تلاميذه إلى كتابة المقالات ضد الخديو توفيق ، وإلى التخلص منه نهائيا بعد محاولة عسكرية لاغتياله لم يقدر لها النجاح .

ولم يرحم «محمد عبده» بقلمه ولسانه أولئك الذين أبدوا ترددا أو خرجوا على الخط الوطنى أمثال «سلطان» . . ونادى بالشورى التى أرجعها لأصول الإسلام ، وأعطى لمفهوم القومية أبعادها (التى لا تفرق بين دين وآخر ، وهى سمة العصر الحديث منذ الثورة الفرنسية . وهى نزعة فكرية وعاطفية توجه ولاء الفرد للأمة ، وقد سميت القومية نسبة إلى القوم الذين يعيش الفرد بين ظهرانيهم ، ويشعر أن كيانه جزء لا يتجزأ من كيانهم ، وللقومية مقوماتها الخاصة كاللغة والأرض والكيان السياسى والعادات والتقاليد أو الدين) .

وحول (الوقائع المصرية) إلى صفحة ثورية ، تنشر خيانات أعداء الثورة ، وتمجد مؤيدى الثورة ، ووضع للوقائع نظاما حديثا في تحريرها وإدارتها وجعلها تصدر باللغة العربية وحدها ، وعاونه في ذلك عدد من تلاميذ «الأفغانى» عبد الكريم سليمان ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى .

وبعد أقل من أسبوع من ضرب الإسكندرية بالمدافع البريطانية ، وعلى وجه الدقة في الساعة الثامنة من يوم الاثنين غرة رمضان ١٢٩٩ هجرية (١٧ يوليو ١٨٨٢ ميلادية) عقد مجلس عام في وزارة الداخلية ، برئاسة «حسين الدرملى باشا» وحضره حوالى ٧٠ شخصا من كبار العلماء ورجال الدين والتجار . . وفي هذا الاجتماع قرأ «الشيخ محمد عبده» البرقيات المتبادلة بين الخديو توفيق وأحمد عرابى . وطالب «الشيخ العدوى» بعزل الخديو وإعلان الحرب المقدسة غير أن غالبية المجتمعين لم تقرر هذا الاقتراح . واستمرت الأحداث على ما هو معروف . وفي ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ سلم «عرابى» سيفه لقائد القوات الانجليزية الزاحفة إلى القاهرة التى دخلتها في ١٥ سبتمبر دون مقاومة تذكر ، وانتكست أعلام الثورة العربية ووقع في التاريخ المصرى ما كان قد حذر منه «الشيخ محمد عبده» .

- ٦ -

وكان رأيه في الأساس هو الاهتمام بتعليم الأمة لتوكل إليها حقوقها وهي أمينة عليها ، وقال لعرايى أن يصير الاهتمام بالتربية والتعليم بعض سنين ، وليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمر قبل أن تستعد له . وعلى الرغم من نصائحه تلك إلا أنه انحاز للشورة بكل جهوده وبكل فكره وبكل قلمه . على أية حال انتكست أعلام الثورة وبدأت فترة تصفية الحسابات من جانب سلطات الاحتلال والحديو ضد العرايين والوطنيين . وقبض على « الشيخ محمد عبده » وبقي في السجن ثلاثة أشهر وجهت إليه فيها اتهامات لاتتفق مع مركزه الدينى والاجتماعى . وصدر الحكم بنفيه إلى بيروت ثلاث سنوات امتدت إلى ست سنوات بسبب مواقفه الصلبة ضد «الحديو» .

وفى ٢٣ ديسمبر ١٨٨٢ أصدر « الحديو توفيق » أمرا بإلغاء (جرائد الزمان والسفير والطائف والمفيد والنجاح) وبدأت عملية رهيبة لقطع أسنة الثورة العربية ، وبعد أن أقام الشيخ في (بيروت) عاما وبعض عام لحق بأستاذه « جمال الدين » في باريس ليصدر صحيفة سياسية هي (العروة الوثقى) .

وصدرت صحيفة العروة الوثقى في باريس في ١٣ مارس ١٨٨٤ وصدر منها ١٨ عددا وكانت ترسل إلى مصر سرا وعنت الجريدة (بإفهام الشرقيين واجباتهم التى كان التفريط فيها موجبا لسقوطهم ، وشجذ هم الناس من الفتور وانحطاط العزائم ودعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التى كان عليها أبائهم وأسلافهم ، وإبطال الزعم بأن المسلمين لايتقدمون في مضمار المدنية ، وتقوية الروابط والصلات بين الأمم الشرقية ، ورفع لواء الجامعة الإسلامية ، وتنكيس أعلام بريطانيا في الهند ومصر) .

وتوقفت (العروة الوثقى) واقترب الأستاذ والتلميذ ، ذهب الأفغانى إلى (استانبول) وذهب «محمد عبده» إلى طرابلس الشام ومنها إلى (بيروت) حيث عمل وعنى بالتعليم ، وألف كتاب (رسالة التوحيد) سنة ١٨٨٥ هناك ، ودعا فيه إلى فتح باب الاجتهاد ، وكان رأى عبده أن (الإصلاح الدينى) هو أساس الإصلاح الاجتماعى ، والإصلاح السياسى ، وبعد أن عاد الشيخ من باريس إلى بيروت ازداد إيمانا بعدم المحاولات السياسية ، وضعف أمله في الملوك والأمراء . . وحصر أمله كله في إعداد هذه الأمة للنهضة والمقاومة بالعلم والتربية الاجتماعية الصالحة . وبهذه الروح عاد الشيخ إلى مصر سنة ١٨٨٨ . .

- ٧ -

ونقطع المسيرة التاريخية ونسجل ما وجه إلى الشيخ من ملاحظات ، وذلك بعد أن وضعنا الظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية التى عمل الشيخ في إطارها ، والآن يمكن أن ننظر إلى هذه الملاحظات في إطارها الحقيقى ، وعلى أية حال نسجلها هنا حتى تكون الصورة كاملة . . ولكن لانسى أن « مصطفى كامل » وحزبه كانا يتهمان « أحمد عرابى » بالخيانة !

كتب « محمد فريد » في مذكراته (لقد اطلعت بطريق الصدفة على جواب من الشيخ محمد عبده إلى بلانت بتاريخ ذى الحجة ١٢٩٩ هجرية أرسله إليه من السجن يشتكى حاله ويقول فيه ما معناه إنه واثق بأن انكثرا سيكون لها تمثال في قلب كل مصرى وبكل أسف لم أتمكن من أخذ صورته) .

والمعروف أن « الشيخ محمد عبده » قبض عليه بعد دخول الانجليز إلى القاهرة في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ وبقي في السجن ثلاثة شهور قبل نفيه إلى بيروت . ومعروف أيضا أن الشيخ محمد عبده كان يعطف على أحمد لطفى السيد وسعد زغلول وقاسم أمين إلى درجة أن اصدار جريدة (الجريدة) وقيام حزب الأمة سنة ١٩٠٧ وذلك بعد رحيل الشيخ بعامين . . كان التعبير الشائع عن مجموعة الجريدة (هذا حزب محمد عبده) - محمد فريد اتهم (حزب الأمة) بالعمالة للانجليز !

وفي ٧ فبراير ١٩٠٦ كتبت الأهرام بعد وفاة الشيخ محمد عبده يوليو (١٩٠٥) : (اشتهر الشيخ محمد عبده في أخريات أيامه بممالة المحتلين ، وكان يسمى تلك الممالة مسالة ، وكنا نسميها استسلاما . وهو الذى علم مجلس الشورى الاستسلام حتى بات ذلك المجلس على ماتراه الآن بعين الأسف والحسرة) .

والمعروف أن الأهرام كانت على شئ من التأييد للعربيين أثناء المد العرابى ولكن بعد (النكسة!) تحولت الأهرام للهجوم على العربيين وعلى الوطنيين وإنهم سبب ما حل بالبلاد . والطريف أنها كانت تستخدم عبارات التحذير التى كان يوجهها « الشيخ محمد عبده » قبل اشتعال الثورة العرابية ، تستخدمها بعد النكسة تدليلا على أن العربيين لم يستمعوا إلى صوت العقل .

ونعود إلى المسيرة التاريخية بعد هذه الفقرة الاعتراضية ، فنجد أن « الشيخ » قد عاد إلى القاهرة سنة ١٨٨٨ بعد أن تدخل صديقه وتلميذه « سعد زغلول » لدى « الأميرة » نازلى فاضل التى تدخلت لدى ابن عمها « الخديو توفيق » فوافق على عودة « الشيخ محمد عبده » ويقال إن « الأميرة » نازلى فاضل « كانت تتعاطف مع العربيين لكراهيتها للخديو توفيق ، وكان صالونها ملئى دعاة

القومية المصرية ، والديموقراطية السياسية ، والإصلاح الاجتماعى .

عاد الشيخ وأبعدوه عن وظائف التعليم وعينوه قاضيا فى محكمة بنها إلا أن أحكامه كانت نوعا من التعليم أيضا ، وأشرف سنة ١٨٩٢ ميلادية على تأسيس (الجمعية الخيرية الإسلامية) مع أصدقائه وتلاميذه « سعد زغلول وحسن عاصم وأحمد فتحى زغلول » وكان للإمام حلقات أسبوعية يلتقى فيها مع أبناء الأزهر ودار العلوم والأدباء . وفى ذلك العام ، ١٨٩٢ ، عهد إليه بتصحيح أوراق الامتحان للصف الذى فيه « أحمد لطفى السيد » وإذا به يعجب بجرأة التناول وقوة الأسلوب ، وكان « أحمد لطفى السيد » يتوقع أن يرسب لأنه كتب موضوعا ينكر فيه حق الحكومة فى عقاب الجناة لأن الحكومة نفسها تقوم على العنف وليس على العقد . وفوجئ « لطفى السيد بالشيخ » محمد عبده « يهتبه بشجاعته وقوة أسلوبه . ثم عين الشيخ عضوا بمجلس إدارة الأزهر عام ١٨٩٤ . وتولى منصب الإفتاء سنة ١٨٩٩ ، وكان المفتى بحكم وظيفته عضوا فى المجلس الأعلى لديوان الأوقاف ، ومن عمله الإشراف على المساجد فى الأقاليم ، وكان أول ما نظر فيه إنشاء إدارة المساجد ، ودعا « الشيخ » لفتح باب الاجتهاد لإمكان معالجة العديد من القضايا المعاصرة . وحيد الإفادة بأراء أصحاب المذاهب الأربعة وعلى وجه الخصوص مذهب الإمام مالك ، وأباح التعامل مع البنوك بإدخار الأموال فيها وأخذ الأرباح عليها . ودعا إلى عدم تعدد الزوجات الا للضرورات الشرعية ، وإلى أن من حق الزوجة أن تطلب الطلاق من زوجها لسبب شرعى تثبته بطريقة شرعية . ووافق الشيخ على مشاركة المرأة فى الأمور السياسية ، وهو فى هذا المجال يعد الأستاذ الحقيقى لقاسم أمين . بل قيل إن كتاب (تحرير المرأة) قد وضع فى (جنيف) عندما كان « الشيخ محمد عبده » وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين هناك للاصطياف وقيل إن الأفكار هى للشيخ والأسلوب لأحمد لطفى السيد ونشر باسم « قاسم أمين » وقيل أيضا إنه تحت تأثير الشيخ استقال « أحمد لطفى السيد » من الحزب الوطنى ، وانتشرت الدعوة إلى (مصر للمصريين) .

واعتبر الشيخ فترة الإصلاح فترة انتقالية تتطلب حاكما مستبدا عادلا نزيها شجاعا حازما (أصيل الرأى على الأهمية رفيع المقصد) ومن الأعمال التى اهتم بها مشروع الجامعة الأهلية على الرغم من مرض الوفاة .

الرحيل

وذاث يوم من النصف الأول من شهر يوليو ١٩٠٥ ميلادية توفى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وقد حضرت وفاته زوجته اللبنانية من أسرة (حماده) وجاوز الزحام كل ما قدرته الشرطة واتخذت له حيطتها لتشيع الجنازة من الإسكندرية إلى القاهرة وتعطلت حركة الأسواق ، وأغلقت

الدكاكين ، واكتظت الأرصفة بالواقفين . رحل وقد ترك لمصر أنجب تلاميذه : سعد زغلول وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين . وترك في الشئون الدينية تلاميذه : « الشيخ محمد شاكِر ، والشيخ مصطفى المراغى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ إبراهيم حمروش ، والشيخ محمود شلتوت » . ونلتفت اليوم وإذ بالأستاذ الإمام قد رحل وتلاميذه كافة قد رحلوا . . رحم الله الجميع وكان الله في عون مصر من بعدهم . . وإذا كنت قد قصرت في هذه السيرة العظيمة عن هذا الجانب أو ذاك ، وبالقِطْع قد فعلت . . وشرّد الذهن إلى هنا أو إلى هناك فذلك لأننى كما قلت من السطر الأول . . أنا لا أكتب ولكنى أتأمل .

الأسانيد :

- ١- الشيخ رشيد رضا ، تاريخ الإمام محمد عبده .
- ٢- د . زكريا سليمان بيومى ، دراسة في فكر الشيخ محمد عبده .
- ٣- عباس محمود العقاد ، محمد عبده (عبقرى الإصلاح والتعليم) .
- ٤- مركز الدراسات بالأهرام ، مصر للمصريين (نخبة من الأساتذة) .
- ٥- د . محمد عبد الرحمن برج ، عبد الرحمن الكواكبي .
- ٦- مصطفى عبد الغنى ، المؤثرات الفكرية في الثورة العربية .
- ٧- د . محمد عمارة ، جمال الدين الأفغانى المقترى عليه .

محمد عبد الله عنان



تسعون عاما على أرض مصر الطيبة . . ورجل بدأ حياته ماركسيا وزعيما لحزب شيوعي وانتهى مؤرخا عربيا إسلاميا . بدأ حياته ثائرا محرضا على الثورة وانتهى وديعا وقورا . بدأ حياته يميل إلى موسكو حيث ثورة أكتوبر الاشتراكية وانتهى عاشقا لمدينة القاهرة قلب العروبة والإسلام وداعيا لأحياء عيدها الألفى . بدأ مفكرا ماديا وانتهى محبا للأزهر الشريف وكاتبا للدراسة عن تاريخه من أروع الدراسات عن رحلة الأزهر عبر ألف عام . بدأ كاتبا لتاريخ الجمعيات السرية ، ولتاريخ المؤامرات السياسية وانتهى كاتبا لتاريخ الإسلام في الأندلس ، ولتراجم إسلامية - شرقية وأندلسية .

آخر مرة لقيته فيها ، كانت وسط البلد كما نقول « في أحد الشوارع المزدهمة يتكئ إلى ذراع تلميذه وصديقه ، زميلنا وصديقنا حسين فوزى النجار ، كان المرض يناوشه وفي سبيل أن يتنصر عليه . . نظرت إليه وارتد الدهن ستين عاما إلى الخلف أو تزيد . . أهذا الوديع الوقور كان خلف عمال الإسكندرية وهم يرفعون الراية الحمراء على مصانع الإسكندرية » .

من أين نبدأ مع هذه الشخصية الخصبية؟ من أين نبدأ مع « محمد عبد الله عنان » ؟ نبدأ من حيث بدأ حياته ، أو من حيث قدر له أن يبدأ . . في يوليو ١٨٩٦ في قرية بشلا مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية ولد « محمد عبد الله عنان » ، وفي كتاب القرية حفظ ما تيسر من القرآن وانتقلت الأسرة إلى القاهرة فتلقى دروسه الابتدائية في مدرسة العقادين الأميرية ، وبعد أن حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٩ دخل المدرسة الحديوية الثانوية وحصل منها على البكالوريا سنة ١٩١٤ . درس القانون في مدرسة الحقوق وحصل على الليسانس سنة ١٩١٨ واشتغل بالمحاماة . وكانت الحركة الوطنية المصرية تموج بتيارات كثيرة ، تيار الحزب الوطنى ، وتيارات

عمالية وتيارات وطنية واستطاع سعد زغلول أن يوحد الصفوف جميعها تحت قيادته في (الوفد المصرى) .

نشطت الحركة النقابية في مصر في العقد الأول وفي منتصف العقد الثاني من القرن العشرين نشاطا ملحوظا ، وتكونت نقابات عديدة في مختلف المهن والصناعات ولكن بنشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وإعلان الحماية البريطانية ، وإعلان الأحكام العرفية ، توقفت الحركة النقابية ، وتوقف نشاطها أثناء الحرب .

قاسى العمال والفلاحون أثناء الحرب من جراء تجنيدهم عنوة ، وتشغيلهم سخرة في أعمال قوات الاحتلال ومات منهم الكثيرون بعيدا عن قراهم وعن ديارهم . وما إن تألف الوفد المصرى بزعامة سعد حتى كان العمال والفلاحون في مقدمة المؤيدين لتحقيق مطالب البلاد . وما إن اشتعلت الثورة في ٩ مارس ١٩١٩ حتى كان عمال النقل أول المضربين ، وتعطلت حركة النقل والمواصلات ، وأضرب عمال العنابر وخرج العمال في التظاهرات وسقط منهم قتلى كثيرون .

وبعد الإفراج عن « سعد » ورفاقه شارك العمال في تظاهرات الاحتجاج يومى ٧ ، ٨ أبريل ١٩١٩ . وكانت تظاهرة قومية ، شارك فيها الشعب بطوائفه المختلفة .

وفي تلك الفترة ظهرت أسماء عديدة تؤيد العمال في مطالبهم وتدعو إلى تشكيل نقاباتهم ، وكان في مقدمة هذه الأسماء « محمد عبد الله عنان » وعادت بعض النقابات القديمة إلى نشاطها ، وظهرت نقابات جديدة أخرى ومن بين الأسماء المصرية الأخرى التى ظهرت في هذا المجال إلى جانب اسم « محمد عبد الله عنان » . اسم « الدكتور محجوب ثابت » واسم « عبد الرحمن فهمى » الذى كان له دور كبير في تكوين اتحاد عمال مصرى يرتبط بالوفد في مواجهة النشاط الأجنبى الذى وقف خلف عدد من النقابات خاصة بالإسكندرية .

المناخ الثقافى

وقد شهد العقد الثانى من القرن العشرين وهو العقد الذى بدأت تتشكل فيه شخصية عنان الثقافية بدايات ثقافية على جانب كبير من الأهمية ألقت بظلالها على « محمد عبد الله عنان » وباقي أفراد جيله .

سلامة موسى ينقل أفكار ماركس وتولستوى وغاندى ، وشبلى شميل ينقل أفكار دارون ، وطه حسين يتحدث عن الأفكار الاجتماعية لابن خلدون ، وإسماعيل مظهر يسير في اتجاه شبلى شميل ويتصدى « فريد وجدى » لتيار الفكر المادى ، وبعد ثورة أكتوبر الاشتراكية يتصاعد

الحديث عن الفكر الاشتراكي ويتصدى لهم الشيخ التفتازانى والشيخ محمد بخيت المطيعي . ويظهر العقد وسطا بين الاتجاهين ونادى بالإصلاح مستندا إلى التراث الإسلامى . ويظهر أحمد لطفى السيد ليدعم تيار الديمقراطية ومعه مدرسة الاستنارة التى بدأت فى حزب الأمة وتبلورت فى حزب الأحرار الدستوريين حتى بعض رموز الحزب الوطنى كمحمد فريد اهتم بالتعاون وبالنقابات والنشاط العمالى .

وينشط عدد من المثقفين فى محاولة لحزب تحت اسم (الحزب الديمقراطى) منهم « محمود عزمى ، ومنصور فهمى ، وعزيز ميرهم ، ومحمد حسين هيكل » .

والأجانب كان لهم نشاط آخر فى اتجاه تأسيس خلايا شيوعية ، خاصة جماعات من اليونان والأرمن والإيطاليين والروس البيض . وأبرز هؤلاء جميعا شخصية غامضة هو « روزنتال » الذى حرك هذه الجماعات الأجنبية فى اتجاه تأسيس نقابات عمالية ، وفى اتجاه تحريض النقابات على الإضرابات ، وفى اتجاه تجميع عدد من المثقفين المصريين لتأسيس حزب شيوعى مصرى .

وفى أغسطس ١٩٢١ يصدر بيان بتكوين (الحزب الاشتراكي) والعناصر المؤسسة له هم « على العنانى ، سلامة موسى ، محمد عبد الله عنان ، حسنى العرابى » .

ولكن صراعا غريبا يدور بين هؤلاء المصريين . وبين بعضهم والعناصر الأجنبية التى وقفت خلف الحزب . فسلامة موسى يبدو أنه من العناصر التى تكتفى بالدعاية لأفكارها ولا يرغب فى أن يحكمه تنظيم معين . وهو من دعاة الاشتراكية القدامى منذ أن أصدر كتابا عن الاشتراكية سنة ١٩١٣ . ونجده بعد الإعلان عن تأسيس الحزب يشن حملة ضد (البلشفية) وأنها نشرت الخراب والدمار فى روسيا ، ويعلن أن أى نشاط شيوعى فى مصر يضر بقضية البلاد الوطنية - وهو هنا يقترب من موقف سعد زغلول وموقف الوفد الذى سوف نشير إليه فى فقرات أخرى . وبرر سلامة موسى موقفه هذا بأنه كان يرغب فى تأسيس جمعية وليس فى تأسيس حزب وينسحب سلامة موسى من الحزب ليتفرغ لعمله الصحفى .

أما « محمد عبد الله عنان » والذى ظهر اسمه كسكرتير للحزب فى فترة ما فانه بعد أن ظل يدافع عن الحزب ومبادئه ينفذ يديه من الحزب ويتبعد عن رجاله ويجد المرفأ لدى حزب الأحرار الدستوريين وفى جريدتى السياسية اليومية والأسبوعية وتلك قصة أخرى .

كان « روزنتال » ومجموعة الأجانب يصرون على تغيير اسم الحزب الاشتراكي إلى الحزب الشيوعى وإن ينضم إلى الشيوعية الدولية (الثانية) وكان يؤيدهم فى هذا الاتجاه « محمود حسنى العرابى » وتزعم « محمد عبد الله عنان » المعارضة وانفصل وكان قد سبقه « سلامة موسى » عندما

أراد أن يقصر نشاط الحزب في (جمعية) تبشر بما أسماه (بالاشتراكية المصرية) ، وسبقه «على العنانى» الذى نادى بما تقره الأحكام الشرعية والقوانين الدستورية . واتضح فيما بعد أن الصراع كان يدور حول منصب سكرتير الحزب . كان سلامة موسى يرى أنه أجدر العناصر به ، وكانت الصحف قد أشارت إلى أن سكرتير الحزب هو «على العنانى» وينشر «سلامة» بياناً ويوقعه باسمه كسكرتير للحزب . وانتهى هذا الصراع حول المنصب بأن اختار الأعضاء «محمد عبد الله عنان» سكرتيراً وكان مقره بجنيانة الناصرية بالسيدة زينب بالقاهرة .

جريدة السياسة

على أية حال فقد انسحب محمد عبد الله عنان وسلامة موسى والعنانى ومضى «حسنى العربى» فى قبول شروط (الدولية الثانية) لإعلان الحزب كحزب شيوعى وذلك بفعل العناصر الأجنبية . وكان لسعد زغلول رأى فى هذا النشاط الأجنبى وهو إنه ضار بالحركة الوطنية . وجاء رأى «لينين» الذى سجله «إبراهيم عامر» فى كتابه (ثورة مصر القومية) قريباً من رأى سعد زغلول إذ إن لينين اتهم الأجانب الذين يقفون خلف الحزب الاشتراكى المصرى وخلف إضرابات العمال بأنهم عملاء لدول أجنبية وجواسيس يقومون بأعمال استفزازية لضرب الحركة الوطنية على أية حال فقد حدد «عنان» موقفه وأدان الاتجاه الجديد وفى الوقت نفسه كان «عبد الرحمن فهمى» و حسب توجيهات «سعد زغلول» قد أصدر جريدتين للعمال ، وقام بتأسيس (اتحاد نقابات عمال وادى النيل) بزعامة عبد الرحمن فهمى . وأصدر سعد زغلول قراراً بحل الحزب الشيوعى ، وتم القبض على عدد من قاداته الأجانب والمصريين وترحيل عدد من الأجانب . ويقول «إبراهيم عامر» إنه ثبت أن «روزنتال» كان رعية بريطانية وسافر إلى الخارج . ولعل هذه الأوضاع كلها . . دور الأجانب فى تحريض العمال . . وموقف الحزب من تقاليد البلاد ، وانتشار الإضرابات فى الوقت الذى كان الوفد يتعرض فيه لأول انقسام . . لعل هذه الأوضاع كلها هى التى عمقت التناقضات بين القيادات المصرية العلنية من القيادات الخفية الأجنبية وجعلت «محمد عبد الله عنان» الذى كان سكرتيراً يوماً ما للحزب ينفصل عنه .

وفى حزب الأحرار الدستوريين وجد «محمد عبد الله عنان» مكانه داخل جريدتى السياسة اليومية والسياسة الأسبوعية إلى جانب الدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور محمد صبرى السربونى ، ومصطفى عبد الرازق ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ومحمد توفيق دياب ، وعبد العزيز البشرى ، وعلى عبد الرازق ، ومحمود عزمى ، وإسماعيل مظهر وفكرى أباطة ، ومحمود تيمور .

ويروى « فتحي رضوان » في كتابه (أفكار الكبار) كيف إنه واضب على رؤية « محمد عبد الله عنان » في مكتبه بحديقة مبنى جريدة السياسة الذي كان مبنى حزب الأحرار الدستوريين . . ويقول (لم أره في جميع الزيارات ولا حين ألقاه خارجا من مكتبه أو سائرا في الطريق ، أو في اجتماع يضم الدكتور هيكل ، وبعض زوار حزب الأحرار أو جريدة السياسة ، لم أره في كل هذا غاضبا أو محتجا أو عنيفا ، أو غليظا أو سيئ المزاج ، بل لم أسمع له رأيا في السياسة والشئون العامة بل كان في جميع الأحوال لطيفا ودودا مقبلا على ضيفه ، حسن اللقيا ، وحسن التوديع . . ولفت نظري أن الأستاذ محمد عبد الله عنان عاش حياته ، منذ هجر المحاماة بعد سنوات من تخرجه في مدرسة الحقوق سنة ١٩١٨ وهو يعمل في الصحافة وكان أكثر عمله في صحافة الأحرار الدستوريين ومع ذلك لم يستدرجه هذا القرب الحميم ، وصلته الدائمة برئيس تحرير جريدة السياسة ، إلى العمل بالسياسة فأصبح أشبه بشيء يجلس إلى جانب بركان يقلد همه ، وهو مستغرق في تصورات وأملاته .

عقب أن تخرج في مدرسة الحقوق سنة ١٩١٨ تفرغ « محمد عبد الله عنان » للمحاماة وللعمل السياسي ، والكتابة في الصحافة وبعد أن انسحب من الحزب الاشتراكي أو الشيوعي انصرف إلى كتابة ثلاثة كتب وكان لم يزل مدفوعا بالأساس الفكري القديم . . الأول هو كتاب (قضايا التاريخ الكبرى) وقد صدر في يوليو سنة ١٩٢٥ وقدم له صديقه « الدكتور محمد حسين هيكل » رئيس تحرير جريدة السياسة والعضو البارز في حزب الأحرار الدستوريين . والثاني هو (تاريخ الجمعيات السرية) سنة ١٩٢٦ والثالث هو (تاريخ المؤامرات السياسية) سنة ١٩٢٨ . وأكثر فصول هذه الكتب الثلاثة قد نشر في مجلة (الهلال) وفي جريدة السياسة ، وهي كلها كتب تتم عن قدرة « محمد عبد الله عنان » على التحصيل والتأليف معا .

الدراسات الإسلامية والعربية

وبعد الكتب الثلاثة الأولى والتي نلمس فيها حركة قصور ذاتي لنشاطه السابق نجد أن « محمد عبد الله عنان » نزل عن رغبة واقتناع في ميدان الدراسات الإسلامية والعربية فيصدر بالعربية والإنجليزية (مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام) ثم يصدر (مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية) و (مؤرخو مصر الإسلامية) . وكتابه الشهير (الحاكم بأمر الله) وهو المرجع الوحيد الكامل عن هذه الشخصية المثيرة . أما كتابه (تاريخ الجامع الأزهر) فسوف يظل مرجعا فريدا عن رحلة الأزهر في ألف عام وقد أشرنا إليه في صدر بحثنا هذا ، وقد نشر « عنان » مستندا إلى هذا العمل بحثا راقعا نشره مرة في مجلة (العربي) ونشر مرة ثانية بإذن من المجلة في (الكتاب

(التذكاري) في الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر وصدر له أيضا (تراجم إسلامية) - شرقية وأندلسية.

ومنذ سنة ١٩٤٣ وقف « محمد عبد الله عنان » نفسه وقلمه على تاريخ الحضارة العربية في الأندلس . وجاءت أعماله في هذا الميدان تشغل أكثر من أربعة آلاف صفحة في سبعة مجلدات ضخمة ، وعكف على تحقيق كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) ونشر (الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا) و(نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين) و(عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس) و(دول الطوائف) و(دولة الإسلام في الأندلس - جزءان) . وإلى جانب هذا كله عني بدراسة (ابن خلدون - حياته وتراثه الفكري) . ومن هنا تكون أعمال « محمد عبد الله عنان » . جميعها في إطار التاريخ دراسة وتحليلا وفي محاور سياسية وإسلامية وعربية .

كان قد بلغ الثمانين من عمره عندما انتخب لعضوية مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٦ في الكرسي الذي خلا بوفاته المرحوم الدكتور « عبد الحكيم الرفاعي » وقد قال عنه الأستاذ « على النجدي ناصف » يوم استقبله : لم يتبوأ الأستاذ عنان مكانه هذا بين أئداده ، وفي قلوب قرائه ، عفا ميسورا ، ولكن جهادا كبيرا ، وصنيعا مشكورا ، يتمثلان في آثار له حسان ، وبحوث شائقة متعددة ، أصاب الناس منها علما غزيرا ، ومتاعا طيبا لا لغو فيه ولا تأثيم .

ويسجل الأستاذ الدكتور « محمد مهدي علام » انجها بارزا في فكر الأستاذ عنان - سعدت بلقائه في باكورة الستينيات عندما عهد إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، في تأليف لجنة يشترك فيها عضو من كل لجنة من لجان المجلس ، لتختار أسماء الأبطال في التاريخين العربي والإسلامي . وكان الأستاذ محمد عبد الله عنان ممثلا للجنة التاريخ وحدث أن كان من بين الأسماء المقترحة للاحتفال ببطلتها اسم سليمان الحلبي قاتل كليبر ، القائد الفرنسي الذي ناب عن نابليون في مصر في الحملة الفرنسية ، فعارض هذا الأستاذ المؤرخ ، قائلا نحن لا نؤيد الاغتيال السياسي ، ولا يليق أن نعد هذه الشخصية من بين أبطال الإسلام . ووافقت اللجنة على رأيه . إلى هذا الحد كان الرجل في شبخوخته حريصا على إرساء ما يؤمن به من أفكار إنسانية تبتعد بالإنسان عن الاغتيال السياسي .

وفي السنة ذاتها ١٩٧٦ تقرر منح « محمد عبد الله عنان » جائزة الدولة التقديرية في الآداب . كان قد بلغ الثمانين من عمره كما ذكرنا ، وكان تلاميذه وأبنائه من الذين يجيدون السير في دهاليز وزارة الثقافة وفي دهاليز المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب قد حصلوا على الجائزة دون أن يكون لديهم مثل ما لديه من علم ومعرفة ، ودون أن يكون لديهم مثل ما لديه من إنتاج . وإنما كانوا يجيدون الدعاية والإعلام ، وكان لديهم البريق اليومي ، وهكذا قدر لمناضل قديم سواء اتفقنا أو

اختلفنا معه ، وقدر لمؤرخ كبير سواء عرفناه أو لم نعرفه ، قدر له أن يتقدم إلى جائزة الدولة التقديرية ويحقق في الحصول على الأصوات مرة ومرة حتى أصبح الأمر مدعاة للخجل عند الذين يملكون الأصوات .

رجل غير مشهور

لعل على صواب إذا قلت إن الجيل الجديد من شباب هذه الأيام ، لا يعرف شيئا عن « محمد عبد الله عنان » والجيل الوسيط يعرف النذر القليل والجيل القديم الذى يؤذن بالرحيل يعرفه مؤرخا عربيا إسلاميا ، ويعرفه كاتباً صحفياً وربما لا يعرف عنه سنوات النشأة أو التكوين وإذا عرف بعضهم شيئا من هذا فإنهم لا ينسبونه إلى الرجل ولا يعرفون الرجل به وكأنهم يريدونه كما أراد لنفسه فى شيخوخته فهو ينظر إلى أيام الشباب كصفحة انطوت وعفا الله عما سلف فلم أجد فيما كتبه « فتحى رضوان » عنه شيئا عن حياته ومواقفه أيام الشباب ولم أجد فيما كتبه « دكتور محمد مهدى علام » شيئا من هذا أيضا .

وها هو « محمد عبد الله عنان » كما نقدمه هنا . . ولد سنة ١٨٩٦ فى قرية من قرى الدقهلية ، وحفظ القرآن ، وتعلم علوم الابتدائى والثانوى ومدرسة الحقوق بالقاهرة حتى تخرج فيها سنة ١٩١٨ . وعاش ثورة ١٩١٩ ووقف على يسار الثورة مع عدد من المثقفين اليساريين حتى سنة ١٩٢٤ . وارتد عن هذا التيار وواصل الهجوم على رفاق الأمس ، وتفرغ للمحاماة وللصحافة وللتأليف والترجمة ، والتحق ببعض الوظائف حتى وصل إلى منصب (المراقب) وهى وظيفة دون (المدير العام) ثم تفرغ للحضارة الإسلامية فى الأندلس ، وللحضارة الإسلامية عامة . وحصل على جائزة الدولة التقديرية وعضوية مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٦ . وظل وديعا وقورا معتزا بنفسه حتى رحل فى يناير ١٩٨٦ . رحم الله « محمد عبد الله عنان » بقدر ما أعطى ، وبقدر ما أتيح له من رؤية . وقد قال عنه « أحمد بهاء الدين » أخيرا إنه أحد أعظم المؤرخين المصريين فى كل العصور .

الأسانيد :

- ١- إبراهيم عامر . . ثورة مصر القومية .
- ٢- فتحى رضوان . . أفكار الكبار .
- ٣- د . رءوف عباس . . الحركة العمالية فى مصر .
- ٤- د . رفعت السعيد . . تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر .
- ٥- د . محمد مهدى علام . . المجمعين فى ٥٠ عاما .



محمد على علوبة

في وثائق الحزب الوطني ، والوفد المصري ، والأحرار الدستوريين ، نجد اسمه « محمد على المحامى بأسيوط » وقليلًا ما تجد اسمه كما أشرنا إليه في العنوان . محمد فريد في مذكراته ، يكتبه هكذا : « محمد على بك » . ووثائق إنشاء حزب الأحرار الدستوريين تذكره على أنه « محمد على سكرتير الحزب » وفي وزارة « زيور » الثانية (١٣ مارس ١٩٢٥) ورد اسمه « محمد على باشا » .

أما « علوبة » فهو اسم اشتهر به والده « على » الذى نشأ فى أسيوط ، أطلقته عليه والدته أحد زملائه تدليلاً وتحويراً لكلمة « على » . وبعد أن اعتزل العمل الحكومى ، أنشأ مطحناً ، وليس فى مدينة أسيوط من لا يعرف (طاحونة علوبة) فى وسط المدينة .

وجده « محمد » عاش فى (منفلوط) بمديرية أسيوط باسم (محمد الجهينى) نسبة إلى بلدة « جهينة » التى عاش بها الجد الأكبر ويقال إنه نزع إليها من الحجاز .

وعندما أراد « محمد على » وإخوته أن يتخذوا لهم لقباً رأوا أن لقب (الجهينى) شائع يشاركهم فيه أبناء بلدة (جهينة) فاستقر رأيهم على أن يكون اسم « علوبة » الذى اشتهر به الوالد واشتهرت به (الطاحون) لقباً لهم . فسجله « محمد على » بإشهاد بمحكمة مصر الشرعية بتاريخ ١٠ أغسطس ١٩٣١ م .

أصبح اسمه إذن - رسمياً - منذ ١٠ أغسطس ١٩٣١ م « محمد على علوبة » وهو الاسم الذى سوف نطلقه عليه فى مختلف مراحل حياته قبل هذا التاريخ وبعده .

بداية الطريق

وفي (ذكرياته) لم يحدد « محمد على علوبة » تاريخاً لمولده ، وإن كان الأرجح أنه ولد حوالى عام (١٨٧٨ م) وكان ذلك فى شارع (درب الشجرة) بالمنيا . حيث كان والده يعمل فى ذلك الحين رئيساً لكتاب (باشكاتب) مجلس مديرية المنيا ، ثم عاد إلى أسيوط رئيساً لكتاب مجلس استئناف وجه قبل . وبعد أن ترك الوالد خدمة الحكومة اشتغل بالأعمال الحرة من زراعية وصناعية .

دخل الطفل « محمد على علوبة » كتاباً فى سوق الخضار بأسيوط وتعلم الحروف الأبجدية وحفظ قصار السور وحفظ جزء « عم » وجزء « تبارك » وسورة « يس » إلى أن حفظ القرآن بداية وعبادة . . وبعدها التحق بمدرسة أسيوط الابتدائية . ولم يكن فى أسيوط فى ذلك الحين (١٨٩٠ م) مدرسة ثانوية فالتحق بالمدرسة الخديوية بدرب الجمايز بالقاهرة ، ونال شهادة البكالوريا سنة ١٨٩٥ م . والتحق بمدرسة الحقوق ونال إجازتها من اللغة الفرنسية . وفى أوائل سنة ١٩٠٠ ذهب إلى أسيوط واشتغل تحت التمرين بمكتب المرحوم (حسين فهمى) وكان معه فى المكتب المرحوم « محمود بسيونى » وكان بأسيوط من المحامين فى تلك الفترة « مرقص حنا » و« أحمد رمزى » اللذان تركا النيابة للاشتغال بالمحاماة . ومن الطريف أن المحامين بأسيوط « محمود بسيونى » و« مرقص حنا » وأحمد رمزى ، ومحمد على علوبة ، أصبحت لهم شهرة فى المحاماة على نطاق مصر كلها .

وقيد « علوبة » اسمه محامياً أمام المحاكم الشرعية . ثم تزوج سنة ١٩٠٤ م وتوفى والده فى ٧ مايو ١٩٠٧ م وكان عمر « محمد على علوبة » فى ذلك الوقت حوالى ٢٩ سنة .

الطريق إلى الأحزاب

وفى عام الأحزاب ، عام ١٩٠٧ م نشأت أحزاب كثيرة ، وفى ذلك العام فكر « محمد على علوبة » فى الانضمام إلى أحد الأحزاب الكثيرة ، ويبدو أن تفكيره كان يدور حول « حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وحزب الأمة ، والحزب الوطنى ويسجل انطباعه عن هذه الأحزاب هكذا . .

حزب الأمة معروف عنه كراهيته لطغيان السراى . ورغبته فى الارتقاء بالشعب عن طريق التطور لا عن طريق الثورات وحرصه على المطالبة بالدستور كى يصل إلى تأليف البرلمان . وكان المهيمنون على حزب الأمة من سراة الشعب ولا يظن منهم أنهم يسعون إلى الحكم وكان يطلق عليهم أصحاب المصالح الحقيقية .

وحزب الإصلاح عرف عنه - الكلام مازال لعلوبة - أنه ألف ليحافظ على مركز الخديو ضد تطرف رجال الحزب الوطنى الذين قطعوا صلتهم بالخديو ، وشاع أن الخديو انقطعت صلاته بمصطفى كامل . وكانت جريدة (المؤيد) غنية بالمواد العلمية والثقافية وكانت تناصب الانجليز العداء وقت أن كان سوء التفاهم قائما بين الخديو واللورد كرومر . فلما عزل اللورد تصادق الخديو مع سير جورست تغير أسلوبها مع الإنجليز .

أما الحزب الوطنى أى حزب مصطفى كامل وفريد فقد كان الرأى العام فى تلك الأوقات يفهم أنه يسعى فى إخراج الإنجليز بلا قيد ولا شرط على أن تبقى السيادة الرمزية للسلطنة العثمانية وكان يشايح مصطفى كامل جميع الشبان المثقفين من تعلم منهم فى مدارس مصر أو فى معاهد أوروبا .

وكان « محمد على علوبة » من أنصار الحزب الوطنى فى حياة مصطفى كامل واندماج فى الحزب بعد أن تولى محمد فريد رياسته وعلى صفحة ٧ من مذكراته يسجل محمد فريد سنة ١٩٠٩ : سافرت فى يوليو مع محمود بك حسيب ومحمود بك محرم ، ومحمد على بك المحامى بأسىوط ، وعبد السلام ذهنى المحامى بالمنيا ، واجتمعنا هناك بالوردانى وانضم إلينا على بك علوى الجزائر من حزب الأمة مع محمد بك حسيب وكلاهما من أعداء إبراهيم الوردانى ولما وصلنا الأستانة قابلنا الكثير من المصريين وأعضاء نادى الأحرار من الفرس والأتراك وغيرهم .

وفى يناير ١٩١٤ افتتحت الجمعية التشريعية وكان « أحمد مظلوم » رئيسا وعينت الحكومة « عدلى يكن » وكيلًا وانتخب الأعضاء « سعد زغلول » وكيلًا أيضا وكان سعد زغلول يوقع مكاتباته بصفته (وكيل الجمعية التشريعية المنتخب) ونجد محمد على علوبة عضوا بالجمعية التشريعية عن بندر أسىوط وتزعم سعد فى الجمعية المعارضة للإنجليز وللخدو .

وتوالى الأحداث . قامت الحرب العالمية الأولى فى أول أغسطس ١٩١٤ وعطل الإنجليز أعمال الجمعية فى يونيو بسبب المعارضة . وأعلنوا الحماية على مصر ومنعوا الخديو عباس من العودة إلى مصر وخلعوه فى ديسمبر وعينوا حسين كامل سلطانا على مصر . . وهكذا حتى نصل إلى وقائع نوفمبر ١٩١٨ وتكوين الوفد . .

أى قدر هذا ، منذ اللحظة الأولى لاشتراك علوبة فى الوفد المصرى إلى اللحظة الأخيرة فى حياته وهو خصم لدود لسعد زغلول . . وعدو شرس للوفد المصرى . عبد العزيز فهمى ، وإسماعيل صدقى ، وأحمد لطفى السيد ، وإبراهيم الهلباوى فى مذاكراتهم وأوراقهم سجلوا أن سعد زغلول كان يسعى إلى تكوين هيئة لتحمل عبء الجهاد فور انتهاء الحرب العالمية الأولى ،

وكانت الاجتماعات تعقد بشكل سرى فى عزبة سعد باشا وفى أماكن أخرى وحرص سعد على الكتمان فى تحركه السياسى فى تلك الفترة إلى درجة أنه لجأ إلى التمويه مع « على ماهر ومصطفى النحاس » عندما قابلاه وطلبا منه أن يقود الجهود للمطالبة بحقوق البلاد . . مما اضطرهما إلى مقابلة عبد العزيز فهمى ليتوسط لدى سعد وابتسم « عبد العزيز » وطمأنها وطمأن الشباب الآخرين إلى أن سعد باشا يقوم بدوره فعلا ولكنه يتوخى الكتمان فى تحركاته .

ويبدو أن أسلوب الكتمان هذا كان سببا فى جفوة مبكرة بين « سعد زغلول » و« محمد على علوبة » ، وفى ٨ نوفمبر ١٩١٨ قابل « علوبة » سعد باشا وتحدث معه فى تكوين (جمعية) تسعى لتحقيق ماتصوبو إليه البلاد وكان حديث سعد حديثا عاما غير محدد ، وقال له إن بعض الأصدقاء (دون أن يذكر الأسماء) فكروا فى هذا الأمر ، وأخذ يتداول معهم فيما ينبغى أن يعمل ، وعند اتفاهم على الفكرة سوف يخبره بذلك . هذا بينما سعد وصحبه كانوا قد انتهوا إلى كل التفاصيل وتم تشكيل المجموعة الأولى أو الطبقة الأولى للوفد من « سعد زغلول » ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيد ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة « وفى يوم ١٢ نوفمبر اتصل سعد بالتليفون بعلوبة فى العاشرة من صباح يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ دون أن يذكر له أية أسماء ودون أن يذكر له أية تفاصيل وثبت أن اتصالا كان قد تم مع المعتمد البريطانى يوم ١١ نوفمبر لتحديد موعد للمقابلة وتحدد الموعد الساعة ١١ يوم ١٣ نوفمبر وذهب علوبة إلى منزل سعد باشا فى الموعد المحدد وفوجئ بالأعضاء الستة وأخبروه أنهم أصبحوا (هيئة) تسعى لتحقيق مطالب البلاد ، وأن سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى فى طريقهم للمقابلة المعتمد البريطانى وعليه - أى على علوبة - أن ينتظر مع بقية الأعضاء لحين رجوع المندوبين الثلاثة .

ومنذ تلك اللحظة ومحمد على علوبة يضمم العداء لسعد زغلول وتحول هذا العداء لكرامية للوفد الذى سار تحت لواء سعد . . فالخصومة تتضح فى وصف علوبة لمقابلة (الوفد) للمعتمد البريطانى . فقد حاول دائما أن يلقى الظلال على موقف سعد فى تلك المقابلة التاريخية ، وثمة ملحوظة هامة وهى أن « محمد على علوبة » عندما كتب عن المجموعة الأولى للوفد أغفل ذكر اسم « عبد اللطيف المكباتى » عضو الجمعية التشريعية عن الدقهلية فى حين أن المصادر المؤتوق بها تذكر المكباتى ضمن المجموعة الأولى وإن كانت بعض المصادر تقصر المجموعة الأولى على خمسة هم « سعد زغلول ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمد محمود ، وأحمد لطفى السيد » دون ذكر المكباتى وعلوبة .

فى أوروبا

وكان علوبة ضمن أعضاء الوفد الذى سافر من بورسعيد يوم ١١ أبريل ١٩١٩ إلى أوروبا ومنذ اللحظة الأولى لوجود الوفد فى أوروبا (أبريل ١٩١٩) إلى رجوع غالبية الوفد إلى مصر (مارس ١٩٢١) ومحمد على علوبة يقف فى الجناح المعارض لسعد ، وقد استخدم وضعه كأمين لصندوق الوفد لعرقلة تحركات سعد كرئيس للوفد . تولى علوبة أمانة صندوق الوفد بعد أن تنحى على شعراوى فى نوفمبر ١٩١٩ على أن يرسل مصروفات الوفد فى أوروبا من مصر ، اضطر سعد أن يأمره بأن يتخلى عن أمانة الصندوق إلى واصف بطرس غالى . .

أما عبد اللطيف المكباتى ، فقد كان ضمن أعضاء الوفد فى أوروبا وكانت غالبية مواقفه معارضة أيضا لسعد زغلول . وفى حديث علوبة عن (أعمال الوفد فى أوروبا) ذكر لأول مرة عبارة (مؤسسو الوفد السبعة) مما يؤكد أن المؤسسين كانوا سبعة على خلاف ما ذكر علوبة فى بداية مذكراته ، وعلى خلاف ما ذكرت بعض المصادر أنهم كانوا خمسة .

عارض « علوبة » سعد زغلول وانحاز لعدلى ، ولم يستطع أن يخفى هذا العداء حتى وهو يكتب ذكرياته عام ١٩٥٤ وبعد أن رحل عدلى وسعد وكثيرون من الصحاب . . فعندما تكلم عن عدلى ومفاوضاته وتقديم استقالته فى ٨ ديسمبر ١٩٢١ يقول علوبة بالحرف الواحد : (فى هذا الوقت وسعد دائب على الشغب ، وأنصاره يتظاهرون ويسبون ويخربون ، أمرت السلطات العسكرية «سعد» بأن يمتنع عن الاشتغال بالسياسة ، ولما لم ينفذ سعد هذا الأمر قبضت السلطة الانجليزية عليه وعلى بعض أنصاره فى ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ ونقلتهم إلى سيشل) .

وانصافا لعدلى يكن فى هذا الموقف بالذات ، بعد أن تقدم باستقالته وأدرك أن الاتجاه إلى اعتقال سعد صمم على الاستقالة حتى لايعتقل سعد فى ظل رئاسته للوزارة ، وأجل « السلطان » قبول الاستقالة إلى ما بعد اعتقال سعد ، فى ٢٤ ديسمبر . . وهكذا كان « علوبة » يرى فى كفاح سعد نوعا من الشغب ، وانتقل إلى الجبهة التى شكلت حزب الأحرار الدستوريين فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ واختير سكرتيرا للحزب .

ما بعد الوفد

وفى الطريق إلى الانشقاق الكبير فى الوفد والذى بدأ أثناء المفاوضات فى أوروبا تم تشكيل وزارة عدلى يكن فى مارس ١٩٢١ وفشلت مفاوضاته مع الانجليز واعتقل سعد للمرة الثانية فى ديسمبر ١٩٢١ . صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من دار الحماية والذى رفضه الحزب الوطنى والوفد وقبله عدلى يكن والجناح المعارض لسعد زغلول داخل الوفد على اعتبار أن التصريح يعلن (مصر دولة

مستقلة ذات سيادة) وسعى « عبد الخالق ثروت » رئيس الوزراء إلى تشكيل لجنة لوضع الدستور في أبريل ١٩٢٢ عارضها الوفد والحزب الوطنى واختير علوبة ضمن أعضائها .

ومهما يكن من أمر ، فإن حزب الأحرار الدستوريين بعد إعلان قيامه في أكتوبر ١٩٢٢ شارك في وزارة « أحمد زيور » الثانية (١٣ مارس ١٩٢٥ - ٧ يونيو ١٩٢٦) ووزارة عدلى يكن الثانية ٧ يونيو ١٩٢٦ - ٢١ أبريل ١٩٢٧) ووزارة عبد الخالق ثروت الثانية من (٢٥ أبريل ١٩٢٧ - ١٦ مارس ١٩٢٨) وشارك في وزارة مصطفى النحاس الأولى (١٦ مارس - ٢٥ يونيو ١٩٢٨) وشكل محمد محمود وزارته الأولى (٢٥ يونيو ١٩٢٨ - ٢ أكتوبر ١٩٢٩) في كل هذه الوزارات التى شارك فيها أو شكلها الأحرار الدستوريون نجد اسم « محمد على بك » . في وزارة زيور الثانية على الرغم من أنه كان سكرتيرا لحزب الأحرار . وقد أعلن استقالته من سكرتارية الحزب رسميا سنة ١٩٣٤ ثم يعوده اسمه وزيرا للمعارف العمومية في وزارة على ماهر الأولى « (٣٠ يناير - ٩ مايو ١٩٣٦) ووزيرا للشئون البرلمانية في وزارة على ماهر الثانية (١٨ أغسطس ١٩٣٩ - ٢٧ يونيو ١٩٤٠) واشترك في وزارة محمود فهمى النقراشى الثانية (٩ ديسمبر ١٩٤٦ - ٣ مارس ١٩٣٧) . . والمعروف أن الوزارة استمرت إلى وقت اغتيال النقراشى في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ، ولكن علوبة باشا استقال في ٣ مارس ١٩٤٧ لأن اسمه أدرج وزيرا للأوقاف دون علمه .

على أية حال فإن محمد على علوبة بعد عام ١٩٣٤ واستقالته من سكرتارية حزب الأحرار الدستوريين يكون قد ابتعد عن عضوية الأحزاب رسميا وإن ظل صديقا للأحرار الدستوريين ، وعدوا للوفد والوفديين .

ولعل التحرر من الإغراق في المشكلات الحزبية والقضايا المحلية أتاح للرجل أن يواجه طاقاته في القضايا الاجتماعية والعربية والإسلامية ، وهو الوجه الذى عرف به في نهاية الأمر ، بل إنه الوجه الذى بقى منه للتاريخ .

فهو عندما تولى وزارة المعارف عرض على الملك فؤاد ضرورة ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية . وسنة ١٩٣٦ عرض على مجلس الشيوخ مشروعا لتنظيم (تعدد الزوجات) بما يتفق مع الدين وتستلزمه التطورات الاجتماعية وكان مشروعه ينص على (إن الرجل إذا أراد أن يتزوج بثانية ، وجب عليه عرض الأمر على قاض مختص يبحث الضرورة التى تقضى السماح بعقد الزواج) . وقدم مشروعا بتقييد حق الطلاق تقييدا يتفق مع قواعد الشريعة الإسلامية .

وكان « محمد على علوبة » أول سفير لمصر في الباكستان أواخر سنة ١٩٤٨ ، وعمل على نشر اللغة العربية وتقوية الروابط بين مصر والباكستان .

ويسجل لعلوبة اهتمامه بالمسألة الفلسطينية وله كتاب (فلسطين والضمير الإنسانى) نشر بعد سنة ١٩٦٤ (وكان قد توفى في ٢٥ مارس ١٩٥٦) واهتمام علوبة بالقضايا العربية والإسلامية قديم يعود إلى عام ١٩٢٩ حيث اهتم بقضية البراق ، وأصبح عضوا مؤسسا للجنة المؤتمر الإسلامى وسافر إلى القدس مع أحمد زكى شيخ العروبة ، وعبد الحميد سعيد للدفاع عن ملكية العرب لحائط البراق وكان عضوا باللجنة التى شكلتها عصبة الأمم لتحقيق النزاع .

وإذا كان محمد على علوبة قد تولى منذ عام ١٩٣٤ عن الاطار الحزبى فى سلوكه وفى مواقفه فانه لجأ إلى الإسلام يستمد منه أفكاره الجديدة سواء فى المشكلات الاجتماعية كالطلاق وتعدد الزوجات ، أو فى الأمور السياسية كالديمقراطية ، وبسط رأيه فى كتابه (الإسلام والديمقراطية) ودعوته إلى ديمقراطية إنسانية . وفى الوقت ذاته حمل « علوبة » على الماسونية وقال : إنها وراء ثورات فرنسا وأحداث تركيا ١٩٠٨ ، والثورة السوفيتية ١٩١٧ ، وأحداث أسبانيا ١٩٣٦ ، ووراء الحركة الصهيونية ، وأطباعها فى فلسطين . وفى كتابه (مبادئ فى السياسة المصرية) الذى أصدره عام ١٩٤٢ ينادى بـ (كتلة عربية) على أساس أن البلاد العربية تتكلم لغة عربية واحدة وتربط بينها ثقافة واحدة . ويدين غالبيتهم بالدين الإسلامى . ونادى (بكتلة عربية) مع احتفاظ كل دولة عربية بسيادتها واستقلالها ، لقد بدأنا معه وهو مجرد عضو بأحد الأحزاب المصرية ، وانتهينا معه وهو مفكر مصرى عربى إسلامى .

الأسانيد :

- ١ - طارق البشرى . . « الحركة السياسية فى مصر » .
- ٢ - ماريوس ديب . . « الوفد وخصومه ترجمة عبد السلام رضوان » .
- ٣ - محمد على علوبة . . « ذكريات اجتماعية وسياسية » .
- ٤ - محمد فريد . . « المذكرات » .
- ٥ - محمد كامل سليم . . « صراع سعد فى أوروبا » .

الشيخ محمد أبو زهرة



هذا رجل شجاع . . جهر بما يرى ، وبما يعتقد أمام الناس وأمام السلطان ، ليس من الضروري ان تتفق معه في كل ما قال وليس من الضروري أن تختلف معه في كل ما قال ، ولكنك في الحالين تجد فيه رجلا شجاعا ، له وجه واحد ، يلقي به البشر ويلقى به السلطان ، ويلقى به ربه .

كانت له آراء في قضايا الشورى ، والربا ، والحكم بالطاعة ، وغيرها وغيرها . . وفي حدود ما يعتقد أنه الصواب ، قال رأيه دون مواربه .

كانت له أفكار حول إصلاح الأزهر وقوانين الأسرة ، والأحوال الشخصية ، وغيرها ، وغيرها . . وفي ضوء ما يرى أنه حق أطلق صيحاته بما رأى .

كانت له مواقف مع سعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، ومحمد نجيب . . ثم مواقف أخرى من جمال عبد الناصر ، والميثاق ، والاشتراكية والشيوعية . . وغير هباب ولا وجل أعلن هذه المواقف . .

كان شجاعا ، وكان أستاذا . . ورحل وترك كثيرين تتلمذوا عليه وصاحبوه في جهاده . . الداعية الإسلامى الشيخ « محمد الغزالي » ووزير الإعلام السابق الدكتور « أحمد كمال أبو المجد » وأستاذ فلسفة القانون الرومانى « الدكتور السيد بدر » ووزير الأوقاف الأسبق « الدكتور زكريا البرى » وأمين عام اتحاد الإذاعات العربية السابق « صلاح عبد القادر » الذى كان قريبا إلى قلبه والشيخ الدكتور « أحمد الشرباصى » والدكتور « عبد الرحمن الصابونى » ، ووزير الشؤون الاجتماعية الأسبق ، الأستاذ الدكتور « أحمد خليفة » والكاتب الإسلامى المستشار « عبد الحليم الجندى » والمحامى المعروف الأستاذ « عبد الحليم رمضان » والأستاذ الدكتور « مأمون سلامة »

والكاتب الإسلامى « محمد علم الدين » والشيخ « صلاح أبو اسماعيل » ووزير التربية والتعليم الأسبق السياسى المعروف « الدكتور محمد حلمى مراد » والكاتب الإسلامى الكبير « الدكتور محمد كامل البنا » والكاتب الإسلامى الكبير الشهير « على عبد العظيم » والأستاذ الشيخ « يوسف البدرى » ووكيل وزارة العمل السابق والكاتب الكبير « عبد المغنى سعيد » وغيرهم ، وغيرهم ، ثم تلميذه الوفى الصحفى بالجامعة العربية « أبو بكر عبد الرازق » . وإذا طالعنا كتابات هؤلاء عن أستاذهم الكبير لوجدناهم جميعا يتفقون على أنه كان « أستاذا شجاعا » وإذا طالعنا سيرة هؤلاء التلاميذ لوجدنا لدى كل واحد منهم نوعا معينا من « الشجاعة » سواء فى رأى أو الموقف أو السلوك أو العمل .

ستائر الكتمان

ولأنه كان شجاعا ، فقد أخلص الحاكم النصيحة لأن (صاحب رأى المخالف يأتى للحاكم بجديد ، والموافق يأتى به عنده ويرجع إليه صداه) ولكن الحاكم لم يكن يريد سوى رجوع الصدى فأصدر قرارا يمنعه من الكتابة ومن الفتيا .

وهاجمته أقلام بأقصى هجوم . وجزع الشيخ « محمد الغزالى » وهو يرى (العلماء الراسخين يحيون مستوحشين ويتركون الدنيا وما هى إلا أيام حتى يهال عليهم وعلى ذكراهم التراب . . . وتبع جناز بعض العلماء فهالتنى قلة المشيعين . . . على حين كان قطعان من الدهماء تتبع جناز المجان والمغنين وبعد رحيل « الشيخ محمد أبو زهرة » واجه اسمه مؤامرة الغمط والتجاهل وواجهت أعماله وأفكاره مؤامرات الصمت المتعمد . .

وتقدم أصدقاؤه وتلاميذه فى وفاء نادر يمزقون ستائر الكتمان ، ويتصدون لمؤامرة الصمت والغمط والتجاهل معلنين أن (الرجل الذى رمق بازدراء الساسة المستبدين ، وأدار وجهه عنهم مستغنيا متأبيا ينبغى أن يكون أسوة حسنة لعلما هذا العصر) .

وكان الذى قام به تلاميذه هو عمل جدير بالتسجيل لأنه يكشف عن الجوانب المختلفة للشيخ ، وجدير بنا هنا أن نسجل قليلا من كثير مما شهد به علماء العصر ومفكره . .

« قال « الشيخ أحمد حسن الباقورى » . .

(مع اختلافى فى رأى مع الإمام «أبو» زهرة حيث ان لكل منا منهجه فى الحياة . . إلا أننى وأنا وزير للأوقاف ، عندما استشكل على موضوع فقهى ، واحتجت فيه إلى الفتوى لم أجد إلا للإمام «أبو» زهرة . وعلى الفور أجاب - ومن الذاكرة - لنا على الفتوى ، ذاكر المصادرات التى استند إليها ، وبيان أوجه الاختلاف بالإضافة إلى تأصيل كل ما تذكره ويحقى كان العلم يتدفق منه) .

✽ قال الدكتور محمد كامل البنا . .

(اختلفت معه اختلافا علميا شديدا . . وبعد هذا الخلاف الحاد حسبت أن الشيخ سيكون في نفسه شيء من ناحيتي ولكن كان له قلب كقلب الطفل البريء الذي لا يحمل ضغينة لأحد ، وما ان تلاقينا حتى كنا كأوفى صديقين) .

✽ قال الدكتور أحمد خليفة . .

(أنا أشهد بالصدق وبشعور كامل المسئولية ، أن صفات الإمام « أبو زهرة » كلها صفات رفيعة ولم أكن لآتردد لحظة في أن أذكر أو أردد شيئا يخالف ذلك . إن أهم صفاته كانت الجرأة النادرة . . كان رحمة الله عليه جريئا مقداما في آرائه ، ومواقفه وفي قوله الحق) .

✽ قال : الدكتور حلمي مراد . .

(من خلال لقاء أتى العلمية معه ، واستماعي لبعض محاضراته العامة ، ومطالعاتي ، لمعظم مؤلفاته وبحوثه ، انطبع في نفسي أن شيخنا الأستاذ «أبو» زهرة يمتاز بالعلم الغزير والقدرة على التعبير والإيمان العميق بكل ما يقول) . .

والأقوال كثيرة ، والشهادات عديدة ، من تلاميذه ومعاصريه ، الذين اتفقوا أو اختلفوا معه ، الذين أيدوه أو عارضوه . . ولكن استوقفتنا كلمة (الدكتور عبد المنعم خزيك) عضو مجلس الشعب لأكثر من مرة . . قال :

(. . في جلسة اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي برئاسة « عبد الناصر » حدث توجيه للمسؤولين بالإسماح للشيخ «أبو» زهرة بالاستمرار في نقده الذي كان يؤثر في الجماهير باعتباره من أكبر علمائنا الشجعان الصادقين الذين يعتد بهم وبرأيهم . . وباعتبارهم لايشدون إلا صالح البلاد ، وصالح الإسلام ولا يهمه في هذا السبيل ما يحدث من غضب مسؤل أو رضا أي إنسان . .) .

هكذا شهد د . عبد المنعم خزيك وقد كان عضوا بارزا في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي وقد كان للشيخ موقف معروف من الشيوعية ، وقد رأى فيما أشار إليه الميثاق خاصا بالاشتراكية العلمية حين جاء فيه . . (إن الاشتراكية العلمية ، هي الصيغة الملائمة لاييجاد المنهج الصحيح للتقدم ، وإن أي منهاج آخر لا يستطيع بالقطع أن يحقق التقدم المنشود) رأى الشيخ أن هذا الكلام يقصد به الشيوعية وأوضح ان تسرب الشيوعية إلى بعض الشباب في مصر لا يرجع إلى سنة ١٩٦٠ أو سنة ١٩٦١ بل إنه أعمق من ذلك ففي الماضي أخذت الشيوعية تغزو نفوس الشباب المصري عقب الحرب العالمية الثانية .

وقد كانت البوادر لها قد بدأت عقب الحرب العالمية الأولى ، وكان الانجليز حريصين على أن يتهموا كل حركة تمرد عليهم بأنها شيوعية حتى إنهم اتهموا سعد زغلول وثورة ١٩١٩ بأن لها صلة بالشيوعية . ولكن سعدا قال إنه رجل سياسى لايعنى بالمذاهب الاجتماعية . .

وقع الخلاف الحاد إذن بين الشيخ وبين عبد الناصر حول ما ذهب إليه الميثاق في شأن الاشتراكية العلمية ورأى الشيخ فيها (المبادئ الشيوعية) . . وكان خلاف آخر قد وقع حول مشروع القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ الخاص بإعادة تنظيم الأزهر والهيئات التابعة له ، وقال الشيخ إنه ليس ضد أى إصلاح ولكن الأزهر صانع الثوار والثورات هل من المنطق أن يدبر أمره في ليلة واحدة ؟ وسرد عددا من عهود الإصلاح ، وأشار إلى عهد الإصلاح الذى ابتدأه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وهو يقضى بأن ييث الأفكار في الأزهر وان يوجه المسلمين إلى ما كان عليه السلف الصالح ، وأشار إلى الإصلاح النظامى سنة ١٩١١ وما اقترحه أحمد فتحي زغلول من إنشاء هيئة كبار العلماء ، وإدخال دروس الرياضة والجغرافيا ولكن بكميات قليلة ، وأشار إلى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى على يدى سعد زغلول ، ثم أرسى الشيخ مقولته وهى أن كل إصلاح للأزهر يجب أن يكون مشتقا من رسالته ومن ثم رأى أن يقوم الأزهر بتثقيف الأطباء والمهندسين بالثقافة الدينية ، واقترح أن يلتحق الحاصلون على المؤهلات العليا من الجامعات وغيرها بالأزهر ، وتوضع لهم مناهج خاصة لتثقيفهم دينيا ، ولم ير إنشاء كليات للطب والهندسة والعلوم .

وصدرت قرارات مختلفة بحرمانه من التدريس في الجامعة ، وإلقاء الأحاديث العامة وأوصدت أمامه أبواب التليفزيون والإذاعة والصحف .

وانتهى بهم الأمر بأن قيدوا حريته في بيته وعرفوا أن له تقديرا لاحدود له لسعد زغلول تقديرا لم ينكره الشيخ بل كتبه وجهر به . . ولما جاءت ثورة ١٩١٩ أشار إعجابى الشديد الذى لاحد له ولا حدود سعد زغلول لأنه اقترنت سمعته عندى بوقوفه في وجه الخديو . وانتقل هذا الحب إلى مصطفى النحاس وكان يكبر فيه نزاهته وتمسكه بقواعد الدين . وفي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ استولى الضباط الأحرار على السلطة (ويعلم كل قارئ أن فرحتى - الكلام للإمام - ما كانت لتحد يوم عزل فاروق على يد زعيم تلك الثورة اللواء محمد نجيب الوطنى بحق وذهدت يومها إلى قيادة الثورة وألقيت فيها كلمة باسم الجامعيين أشرت فيها إلى مرحلة من تاريخنا وتطوره في مقاومة الاستعمار والقصر . . وظننت أن العدل قد تحقق . . إلى أن حدثت المفاجأة المذهلة وتغير الوضع تماما وانتصرت الأهواء والنزعات الشخصية وانقلبت الثورة التى باركناها بقيادة محمد نجيب إلى انقلاب عسكري بقيادة طاغية جديد اذاق البلاد أقسى ألوان الذل والهوان) .

وضحت الصورة الآن أن الخلاف بينه وبين عبد الناصر ليس مجرد خلاف حول الاشتراكية العلمية أو حول الشيوعية أو حول قانون تنظيم الأزهر أو حول تحديد النسل أو غير ذلك وإنما أيضا لأن للشيخ تاريخا في حب سعد زغلول ومصطفى النحاس ، ثم صداقة شخصية قوية مع اللواء محمد نجيب مع صفات شخصية لا ترضى الحاكم وربما لا ترضى غير الحاكم . . اتصف بصراحته وغضبه لما يعتقد إنه الحق واعتزاز بكرامته بلا حدود ، ورفضه للزلفى وكرامته للملق . . حدث أن شارك في مناقشة رسالة دكتوراه في جامعة الأزهر للمرحوم الدكتور حسن صبرى الخولى عن المسألة الفلسطينية وبصراحة الشيخ المعهوده فيه قال : إن الرسالة عبارة عن بعض التقارير الخاصة برئاسة الجمهورية ، وإن الطالب لم يكلف نفسه حتى بجهد ترتيب الصفحات أو حتى إصلاح الأخطاء اللغوية الفادحة ، وهمس أحدهم في أذن الشيخ بأن الطالب هو الممثل الشخصى لرئيس الجمهورية فصاح أبو زهرة : (متحدث رسمى . . ممثل شخصى تلك مسميات في مكتب رئيس الجمهورية لادخل لنا بها) . .

النشأة والتكوين

في مدينة صغيرة ، لها تاريخ قديم ، في دلتا النيل ، في المحلة الكبرى ولد « محمد أبو زهرة » في ٢٩ مارس ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ) ، دخل الكتاب والمدرسة الأولية ، وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم مبادئ العلوم العامة ، والتحق بالجامع الأحمدي في طنطا سنة ١٩١٣ ، وسنة ١٩١٦ دخل مدرسة القضاء الشرعى ، وكما حدثنا « أحمد أمين » فإن مدرسة (القضاء الشرعى) كان لها مناخ خاص فقد انشأها « سعد زغلول » على غير رغبة الخديو واختار لها قريبا إلى قلبه ، ابن شقيقته « عاطف بركات » الذى تميز بالنزاهة والوطنية ، ومدرسة القضاء الشرعى هى إحدى أفكار « الأستاذ الإمام محمد عبده » فى اصلاح الأزهر وإصلاح التعليم ، ونفذ سعد زغلول فكرة أستاذه وصديقه (فبراير ١٩٠٧) . ومالبث الخديو والسلطات الإنجليزية أن فصلوا « عاطف بركات » لمواقفه الوطنية ويصور لنا « أحمد أمين » مدى حزن طلاب مدرسة القضاء الشرعى على فصل هذا المدير الذى تميز بالخلق والوطنية . ووضعت بعد ذلك خطة لتصفية مدرسة القضاء الشرعى وأقفلت أبوابها سنة ١٩٢٥ وهو عام تخرج « الشيخ محمد أبو زهرة » فيها واتجه للعمل بالمحاماة . وحصل على دبلوم دار العلوم عام ١٩٢٧ ، وعين مدرسا للشريعة واللغة العربية بتجهيزية دار العلوم ، وبعدها عمل مدرسا بالمدارس الثانوية ، وسنة ١٩٣٣ اشتغل بالتدريس فى كلية أصول الدين . وجمع بين التدريس بكلية الحقوق وكلية أصول الدين من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٤٢ عندما تفرغ للتدريس بالحقوق وأصبح رئيسا لقسم الشريعة حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٥٨ م وبعدها عمل فى معهد الدراسات العربية . . وشارك فى إنشاء معهد الدراسات الإسلامية وقام

بتدريس الشريعة الإسلامية في كلية المعاملات والإدارة بجامعة الأزهر عامى ٦٣ و ١٩٦٤ م . وقد ظل متمسكا بكل آرائه الدينية والاجتماعية والسياسية إلى أن رحل في ١١ أبريل سنة ١٩٧٤ . قضى حياته مقاتلا بالخطابة وبالكتابة وبالمحاضرة في سبيل أفكاره ومعتقداته ، وإن شاب أسلوبه حدة في النبرة فذلك لأنه لم يكن يرغب في منصب أو ينظر إلى جاه .

صدر له ثمانون كتابا آخرها (المعجزة الكبرى) وهو العمل الذى عكف عليه في الفترة التى حالوا فيها بينه وبين الحياة العامة . وفي المقدمة سجل لنا هذه المحنة التى مرت به ومنع من الكتابة في حين أنه في كل كتاباته بمجلة (لواء الإسلام) لم يكن يأخذ أجرا لأن صاحب المجلة « أحمد حمزة باشا » كان مضطهدا من السلطان وقبل أن تطوى الصفحة اتركه يحدث القارئ مباشرة . . (اختلطت حياتي بالحلو والمر ، وكنت في صدر شبابهى أرى مر الحياة حلوا . . ولما أخذت أشدو في طلب العلم وأنا في سن المراهقة ، دخلت المعهد الأحمدي في طنطا ، وكنت أفكر لماذا يوجد الملوك ؟ وبأى حق يستبد الملوك بالناس ؟ ولما دخلت مدرسة القضاء الشرعى . وكان ناظرها العالم ذا الأخلاق عاطف باشا بركات . . شديد التمسك برأيه ، مادام لم يعلم أنه باطل . . ومن هذا المنبع استقيت ما تغذت به نفسى ، وأرضى نزعتي . لقد ابتدأت فقيرا ، في أسرة بين الفقر والغنى ، ولكن لم ينل الفقر من إحساسى بنفسى واعتزازى بدينى وخلقى . ولما دخلت موظفا في الحكومة قنعت وكنت مدرسا يقدر بين تلاميذه وأولياء أمورهم وعزفت عزوفا كاملا عن الدروس الخصوصية . لقد كان أقصى ما أتمناه أنى عندما أحال على المعاش يكون معاشى كالمرتب الذى عينت به وهو خمسة عشر جنيها . ولكن الله يسر لى ، فقد أحلت على المعاش وأنا آخذ أربعة وتسعين جنيها . ويسر لى الله من كتب كتبها . وإنى أقول نصيحتى لأبنائى . . كونوا مع الحق دائما ، أخلصوا لله دائما ، ولا تمالقوا في حق ، ولا تكونوا على ضعيف أبدا .) . هل نسمع ؟

الأسانيد :

- ١- أبو بكر عبد الرازق ، أبو زهرة إمام عصره .
- ٢- (د . أحمد كمال أبو المجد ، د . أحمد خليفة ، الشيخ صلاح أبو إسماعيل ، عبد المغنى سعيد ، على عبد العظيم ، د . زكريا البرى ، د . محمد السيد بدر ، د . محمد كامل البنا ، د . عبد المنعم شريك . الشيخ يوسف البدرى ، د . يحيى الرخاوى) الإمام أبو زهرة من خلال تلامذته ومعاصريه .
- ٣- أبو بكر عبد الرازق . . أبو زهرة وقضايا العصر .
- ٤- أحمد أمين . . حياتى .
- ٥- محمد أبو زهرة . . (المعجزة الكبرى) المقدمة .

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز



حرصت على أن يكون اسمه في العنوان كما كان يجب أن ينطقه ويكتبه في حياته ، وكما كان يود أن ينطقه ويكتبه الناس ، كان رد الفعل لديه سريعا لايقبل من صديق المساس به أو شبهة المساس به من قريب أو بعيد ، كان يوما بين أقارب وأصدقاء وجاء «حسين الشافعي» عضو مجلس قيادة الثورة وألقى التحية على الشيخ « أهلا بالشيخ عبد اللطيف » ورد الشيخ التحية على «حسين الشافعي باسم أبيه « محمود » وقال لمن حوله . . « حيانى باسم أبى فكان رد التحية باسم أبيه ، هذا على حد ما سجله «محمد طلعت عبد العاطى» نائب الأمين العام لمجلس الشعب سابقا في انبطاعاته التى لم تنشر بعد ، عن خاله « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » الذى تفضل وأطلعنى عليها .

كان « الشيخ » ينفر من الوصاية عليه أو توجيه النصيحة له في مواقفه . . في فترة الاعتقال الأولى لفؤاد سرج الدين ، بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . أصر « الشيخ » على زيارة فؤاد باشا في داره ، ولم يأبه لغضب « جمال عبد الناصر » ولم يأبه للتلويح له بمنصب شيخ الأزهر إذا ما أخلص الانقياد للسلطة الجديدة ، ولم يأبه أن يضار « الشيخ أحمد حسن الباقورى » زوج كريمته ، وكان وزيرا للأوقاف في ذلك الحين . . لم يأبه بشيء من هذا وذهب لزيارة « فؤاد باشا » وقت ان كان يتجنب تلك الزيارة بعض قدامى زملاء والأصدقاء .

كان وفيًا للمعارف والأصدقاء . . أيام حكم « إسماعيل صدقى » وصلته معلومات بأن « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » يزور صديقه « محمود فهمى النقراشى » وكان « النقراشى » في تلك الفترة من أقطاب « الوفد » ويعارض حكم صدقى معارضة عنيدة ، وطلب « إسماعيل صدقى » « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » فذهب إليه بصحبة « الشيخ محمود شلتوت » وعاتب

«إسماعيل صدقي» الشيخ لأنه حسب المعلومات - قد زار النقراشي مرة ، ولوح له بترشيحه قاضيا في المحكمة الشرعية . وقال «الشيخ» الخبر غير صحيح يادولة الباشا وطرب إسماعيل صدقي لأن الشيخ وهو من قادة الأزهر في ثورة ١٩١٩ قد أنكر زيارته للنقراشي ، ولأن التلويح بالمنصب قد أثر في عزيمة هذا الشيخ النائر . . ولكن «الشيخ» أردف قائلا . لم يحدث يادولة الباشا أن زرت «النقراشي» مرة واحدة . . لقد زرتة عدة مرات ، وواجب الوفاء أن أزور صديقي وهو بعيد عن السلطة . . وانصرف «الشيخ» ورفض العرض بأن يكون قاضيا في المحاكم الشرعية .

بعد ثورة الأزهر

ولم ينس «الشيخ» أن «إسماعيل صدقي» هذا كان قد استهل حكمه بفصله وفصل واحد وسبعين عالما وشيخا من الأزهر في مقدمتهم «الشيخ عبد الجليل عيسى والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ إبراهيم اللقاني ، والشيخ على سرور الزنكلوني . . . » ومع بداية وزارة «توفيق نسيم» - ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ بدأ شباب الأزهر حركة تطالب بالإصلاح ، وامتدت الحركة إلى المعاهد الأزهرية في المدن الأخرى ، وتصاعدت الحركة حتى يناير ١٩٣٥ . . وفي فبراير بلغت الحركة ذروتها وتحدد هدفها في «عودة المراغي» . . وأطلق زعيم هذه الحركة «الشيخ أحمد حسن الباقوري» صيحته الشهيرة «إما تحت راية المراغي ، وإما إلى القرى تاركين الأزهر للبوم والغربان» وفي ١٨ فبراير ١٩٣٥ أصدر «الشيخ الظواهري» قرارا بفصل «الشيخ الباقوري ، والشيخ محمد المدني» وأصدر قرارا بنقل عدد كبير من العلماء منهم : «الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، والشيخ عبد اللطيف السبكى» ولكن «الشيخ الظواهري» اضطر إلى الاستقالة في ٢٧ إبريل ١٩٣٥ ، وعاد «الشيخ المراغي» شيخا للأزهر وعاد المفصولون والمنقولون ، وبقي «الشيخ المراغي» في منصبه عشر سنوات حتى توفي في ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ .

وقد ظل «الشيخ» مفصولا من الأزهر من عام ١٩٣١ حتى أعيد إلى الخدمة مدرسا بكلية اللغة العربية بعد عودة «المراغي» ١٩٣٥ وفي تلك الفترة حاول «إسماعيل صدقي» أن يلوح له بمنصب القاضى في المحاكم الشرعية ، وجرت محاولة أخرى من جانب «الأمير محمد على» حيث أرسل في طلبه يعرض عليه أن يكون إماما للمسجد الذى أقامه الأمير داخل حديقة القصر . . وطلب «الشيخ» أن يكون للمسجد باب على الشارع حتى يؤمه المصلون من أبناء الشعب . . وانصرف «الشيخ» على الرغم من ظروفه المالية .

وعام ١٩٣٦ أصبح وكيلا لمعهد القاهرة الدينى ، فمفتشا للعلوم الشرعية والعربية سنة ١٩٣٧ ، وفي انتخابات أبريل عام ١٩٣٨ التى اجرتها وزارة «محمد محمود» الثانية ، والتى جاءت

في أعقاب إقالة حكومة مصطفى النحاس « في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ رشح « الشيخ » نفسه في بلده « شباس الشهداء » ضمن مرشحي « الهيئة السعدية » والتي انضم إليها لصداقته القوية بالنقراشي باشا ، وتولى التفتيش للوعظ والإرشاد عام ١٩٤١ .

وفي ١٨ فبراير ١٩٤٢ حاول القصر أن يستقطب الأزهر ضد حكومة الوفد فتم اعتقال « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » والشيخ أحمد حستن الباقوري ، وكتب « حسن عزت » يصف قدوم « الشيخ » إلى معتقل المنيا فقال : « في يوم من الأيام جرى بشيخ إلى المعتقل ينبعث من عينيه بريق لم أره إلا في عيني الفريق عزيز باشا المصري . . ثم عرفنا إنه فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » . وخرج من المعتقل بعد فترة قصيرة وأصبح شيخا لمعهد الزقازيق سنة ١٩٤٣ .

وفي أكتوبر ١٩٤٤ عين سكرتيرا عاما للجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، وأقيمت حكومة « مصطفى النحاس » وتولى الحكومة « الدكتور أحمد ماهر » .

ونقرأ في الملحق الأول للجزأين الخامس والسادس من كتاب « تاريخ الحياة النيابية في مصر » للأستاذ « محمد خليل صبحي » ان « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » المفتش بالمعاهد الدينية فاز بدائرة « شباس الشهداء » في انتخابات ٩ يناير ١٩٤٥ ، ولكنه استقال في ١٨ فبراير سنة ١٩٤٦ لاختياره في وظيفة بالحكومة ، وانتخب بدلا منه تكميلا بالترشيح في أول أبريل سنة ١٩٤٦ « عبد السلام الشاذلي » وهو منافسه التقليدي في الدائرة . ونعود إلى مجلد « الأزهر الشريف في عيده الألفى » لنقف على ان « الشيخ » قد عين مديرا للجامع الأزهر في يناير ١٩٤٦ ، واختير عضوا في المجلس الأعلى للأزهر في مارس ١٩٤٦ . وقد فضل « الشيخ » موقعه في الأزهر على موقعه في مجلس النواب . وقد اختار أن يترك مجلس النواب بعد يومين اثنين من استقالة صديقه « النقراشي باشا » وتولى « إسماعيل صدقي باشا » رئاسة الوزارة .

وقد تميز « الشيخ » أثناء فترة رئاسة « النقراشي » للوزارة بالرأى المستقل والشخصية الحرة ، فقد رأى أن يقف إلى جانب المطالبة بعودة « رشيد عالي الكيلاني » من منفاه إلى بلده « العراق » أو إلى أي بلد عربي ليموت حسب رغبته ويدفن في بلد إسلامي ، فوقع الشيخ على هذه المذكرة بوصفه عضوا في مجلس النواب المصري ، وجعل عددا من النواب الآخرين يوقعون معه . ولكن صديقه « النقراشي » خشى أن يغضب ملك العراق ، وأن يشكو بدوره إلى « الملك فاروق » فهرع إلى « الشيخ » يعاتبه وكان عنيفا في العتاب . . فما كان من « الشيخ » إلا أن قال لصديقه القديم . . إن العتاب مقبول من النقراشي كصديق ومرفوض من النقراشي رئيس الحكومة . . وظل « الشيخ » على موقفه . . وهكذا كان « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » ابن الأزهر وابن ثورة ١٩١٩ .

الشيخ والوفد

كان « الشيخ » من أبناء الحزب الوطنى « مصطفى كامل - محمد فريد » وقد حصل على « العالمية » من الأزهر سنة ١٩١٦ م وعمره ستة وعشرون عاما إذ إنه ولد فى سنة ١٨٩٠ م « فى محلة دياى مركز دسوق » واتصل بمصطفى كامل قبل رحيله ١٩٠٨ واتصل بمحمد فريد قبل هجرته إلى أوروبا « ١٩١٢ » . وتوثقت علاقته بعد ذلك بأمين الرافعى صاحب جريدة الشعب وجريدة الأخبار .

وقد بدأت حركة تشكيل الوفد برئاسة « سعد زغلول » فى نوفمبر ١٩١٨ م ويقول « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » : - فى أوائل نوفمبر سنة ١٩١٨ أخذ الناس يتهايمسون بأن فريقا من المصريين يزمعون تأليف وفد للمطالبة بحرية البلاد لدى مؤتمر السلام . وتناقل الناس أن « الأمير عمر طوسون » أرسل دعوة إلى نواب البلاد وزعمائها وأصحاب رأى فيها يدعوهم إلى الاجتماع بمنزله بجزيرة بدران لانتخاب أعضاء الوفد .

ثم فشلت هذه الحركة ونهض « سعد زغلول باشا » على رأس جماعة من إخوانه النواب والأعيان لأداء هذه المهمة الخطيرة . وكانت هناك جماعة من أعضاء الحزب الوطنى المقيمين فى مصر ، اجتمعوا بعد خروجهم من السجن يعدون أنفسهم لمثل هذا الأمر . ووقف كثير من الناس موقف الحيرة والارتباك إزاء هذه الوفود المتعددة والأفكار المتضاربة . ويواصل « الشيخ » كلامه . ولما أردت النجاة بنفسى من ظلام هذه الحيرة خطر ببالي « أمين الرافعى » فتوجهت إليه بداره بالحلمية فقال أمين الرافعى - إن من واجبنا أن نفسح المجال أمام كل من يريد أن يخدم بلاده ، وأن نعقد ألية الزعامة لمن شاء العمل بإخلاص .

وكانت العلاقة بين « سعد زغلول » و « أمين الرافعى » فى تلك الفترة قوية ومثينة ، وكان « أمين » يسمى « سعدا » أبا الأحرار ويعلق عليه أمالا كثيرة فى زعامة المعارضة فى الجمعية التشريعية . ولهذا فعندما بدأ تشكيل « الوفد المصرى » كان أمين الرافعى وعبد الرحمن الرافعى من العناصر القريبة إلى سعد زغلول ، واختيرا فى « اللجنة المركزية » للوفد وبدأ الشعب يوقع على عرائض توكيل « الوفد » بأن ينوب عنه فى المطالبة بحقوقه ، وكان « الشيخ » ضمن عناصر الحزب الوطنى التى عملت فى تلك الفترة تحت رؤية الوفد وإن ظلت ترتبط بالحزب الوطنى .

الشيخ والثورة

ليس أجمل مما كتبه « عبد الرحمن فهمى » فى مذكراته : كان الذين يأخذون بظاهر الأمور ،

أثناء الحرب العظمى ، يعتقدون أن الأمة المصرية ، راضية عن الحال التي آل إليها أمرها ، بعد إعلان الحماية عليها عام ١٩١٤ . لكن هذا الاعتقاد خاطئ ، يؤدي إلى عدم فهم الثورة المصرية على حقيقتها ، فلو أن حقيقة الأمور كانت كظاهرها ، لما قامت الثورة في سنة ١٩١٩ ، أو لأخذت بعد قيامها ببضعة أيام . . ولم يكن التفكير في أمر البلاد ومستقبلها مقصورا على فئة أو طائفة دون أخرى ، بل كان هذا التفكير عاما . . وفي الساعة الحادية عشرة ، في اليوم الثالث عشر ، من شهر نوفمبر ١٩١٨ قابل نواب الأمة الثلاثة ، سعد باشا زغلول الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية وعلى باشا شعراوي ، وعبد العزيز فهمى بك العضوان فيها ، « ونجت » المعتمد السامى البريطانى في دار الحماية .

كانت البداية تتفق والظروف الموضوعية التى تمر بها البلاد ، وكان تفسير « عبد الرحمن فهمى » لهذه البداية في تكوين الوفد تفسيرا سليما ، وبعدها ضم الوفد عددا من أعضاء الحزب الوطنى ، وعددا من الأقباط ، وأقبلت الأمة على توقيع التوكيلات للوفد .

وقد حفظت مذكرات عبد الرحمن فهمى بريقة « على شعراوي » وكيل الوفد المصرى وخطاباته إلى معتمدى الدول بمصر حول اعتقال « حضرة صاحب المعالي سعد باشا زغلول رئيس الوفد المصرى ، وأصحاب السعادة محمد محمود باشا وإسماعيل صدقى باشا ، وحمد الباسل باشا » في ٨ مارس ١٩١٩ . ولم تكد تشرق شمس يوم ٩ مارس ١٩١٩ حتى كان نبأ القبض على أعضاء الوفد المصرى قد انتشر في جميع أنحاء البلاد . . وبدأت الثورة .

وقد سجل التاريخ للأزهر في هذه الثورة دوره المجيد ، فقد كان مركز الثورة ، وقائد الثورة « سعد زغلول » ابن الأزهر ، قضى في صحنه خمس سنين ، وتقدم الأزهرى « سعد زغلول » صفوف الوطن وقاد الجموع زعيما للشعب ووكيلا عنه . وفي ثورة ١٩١٩ فتح الأزهر ذراعيه لكل الشعب ، لكل طوائفه ، لكل فئاته ، لكل أعمارهم . واستقبل المسلمين والأقباط ، وأصعدهم منابرهم وماذنه ، وخطب فيه الشيخ والقسيس . . ولا ينسى الشعب أبناء الأزهر . . « المشايخ مصطفى القاياتى ، ومحمود أبو العيون وعبد ربه مفتاح ، وعبد الباقي سرور ، وأحمد أمين ، ومحمد عبد اللطيف دراز . . » ولا ينسى من القساوسة « مرقص سرجيوس وبولس غبريال » ومهما ينسى الناس لا ينسون القمص « سرجيوس » وهو يخرج من كنيسته وقد أحاطت به الحشود حتى يدخل الأزهر ويعتلى منبره ويؤكد للجميع أنه ينسى في سبيل مصر أنه قبطى .

وقد نفى القمص سرجيوس مع الشيخ القاياتى في رفح . . واعتقل « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » وغيره من علماء الأزهر ومشايخه .

وطلب الانجليز من شيخ الأزهر « الشيخ الإمام محمد أبو الفضل الجيزاوى » فى ٢ أبريل أن يغلق أبواب الأزهر ، أو أن يكون مقصورا على أوقات الصلاة وحسب ، فرفض الشيخ محتجا وبقي هذا الجامع - كما كان دائما حصنا للوطن وساحة للجهاد الوطنى .

وتميز « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » برأيه المستقل ، وقال البعض عنه إنه كان ذا « شخصية تصادمية » يدافع عما يعتقد ولم يتردد فى أن يصطدم بمحمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء ورئيس الحزب الذى انتمى إليه الشيخ وكانت النتيجة ان انفصل عن الهيئة السعدية وانصرف إلى أعماله بالأزهر . وعلى الرغم من أن السلطة الجديدة بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اصدرت قرارا فى أكتوبر ١٩٥٢ بتعيينه هو والشيخ « محمد نور الحسن زين العابدين » وكيلين للجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، إلا أن « الشيخ » لم يتردد فى الرد على « جمال عبد الناصر » وكان عبد الناصر فى حديث أو خطاب له قد تناول « الأزهريين » بالنقد ولم يرد عليه أحد . . إلى أن كان « الشيخ » يتحدث فى « جمعية الشبان المسلمين » فدافع عن الأزهر وعن علمائه وشيوخه ، واستنكر أن يتعرض أحد بالهجوم على الأزهريين ثم استقال « الشيخ » من الخدمة فى يناير ١٩٥٤ .

وفى انتخابات مجلس الأمة عام ١٩٥٧ فاز « الشيخ » بعضوية المجلس عن دائرة « شباس الشهداء » أيضا . وفى أكتوبر ١٩٧٧ انتقل إلى رحمة الله « الشيخ محمد عبد اللطيف دراز » ابن محلة دياى مركز دسوق ، وابن الأزهر الشريف ، وابن ثورة ١٩١٩ . وفى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر فى يونيه ١٩٨٢ منح اسمه وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .

الأسانيد :

- ١- د . السعدى فرهود وآخرون . . الأزهر الشريف .
- ٢- صبرى أبو المجد . . أمين الرافعى .
- ٣- عبد الرحمن فهمى « مذكرات » . .
- ٤- محمد خليل صبحى . . تاريخ الحياة النيابية فى مصر . « الملحق الأول للجزأين الخامس والسادس » .
- ٥- محمد طلعت عبد العاطى . . « انطباعات لم تنشر بعد » .

محمد فريد



ظلت العلاقة بين « مصطفى كامل » والخديو « عباس الثاني » ما يقرب من ١٢ عاما معروفة مرة ومجهولة مرات ، يرتب أمورهما « عبد الرحيم أحمد » الصديق الشخصي لمصطفى كامل والموظف في الوقت ذاته لدى الخديو . . إلى أن كان عام ١٩٠٤ ورتب الخديو أموره مع سلطات الاحتلال وكف يده عن معاونة « مصطفى كامل » ماليا وفي تلك السنة ، في ١٣ سبتمبر يكتب « مصطفى كامل » إلى شقيقه « على فهمي كامل » وهو على علاقة بالخديو أيضا - (إنى يا أخى قرفت من خدمة هذا الرجل . . ولذلك ترانى مصمما قطعيا على الانفصال عنه نهائيا حتى ولو صرت مكبلا بالديون) . ولكن ما الفائدة ؟ و« مصطفى كامل » نفسه قد أصبح أسير هذه العلاقة وقد ظلت منذ ١٩٠٤ حتى يوم الرحيل بين وصل وانقطاع ، وأصبح « على فهمي كامل » رجل الخديو داخل الحزب الوطنى . . ووقع « محمد فريد » فريسة لهذه العلاقة . وكان هذا أول ميراث ثقيل تركه مصطفى كامل لمحمد فريد .

وثانى أقسام الميراث هو موقف « مصطفى كامل » من الدولة العثمانية والذي تردد بين إعلانه عام ١٨٩٦ (إن الراية العثمانية هى الراية التى يجب ان يلتف حولها المصريون) . وإن استقلال مصر عن الدولة العثمانية ضار ببقاء تلك الدولة ، وبين إعلانه عام ١٩٠٧ (نحن لانود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية) . . ولكنها كانت دعوة متأخرة إذ إن قوة جديدة تمثلت في (حزب الأمة) هى التى رفعت شعار (مصر للمصريين) وعندما تولى « محمد فريد » وتردد موقفه بين الارتباط بالدولة العلية وبين شعار (مصر للمصريين) فقد مصداقيته . . وكان هذا عنصرا جديدا من عناصر (أزمة الحزب الوطنى) .

أما ثالث هذه العناصر فهو الاعتماد الواضح على مناصرة فرنسا للحركة الوطنية المصرية إلى أن

كان موقف فرنسا في فاشودة سنة ١٨٩٨ ، والاتفاق الودى مع انجلترا سنة ١٩٠٤ ، أخذ «مصطفى كامل» يندد بموقف فرنسا وكتب في ٣- أبريل سنة ١٩٠٦ إلى «مدام جوليت آدم» يقول : إنى ثائر على السياسة المشثومة التى تنهجها فرنسا ، لأنها تمنعنا من أن نكون لها نافعين (فجاء محمد فريد ليتردد فى موقفه بين الاستعانة بفرنسا وبين الاستعانة بألمانيا .

الصراع حول اللواء

جاء «محمد فريد» رئيسا للحزب الوطنى بعد رحيل مؤسس الحزب ورأسم سياسته «مصطفى كامل» ، فى ظل صراع مع «على فهمى كامل» الذى كان يطمح فى رئاسة الحزب بعد وفاة أخيه ، وفى ظل شكوك دفينة لدى محمد فريد إزاء علاقة «مصطفى كامل» بالخديو عباس وبالسultan عبد الحميد سجلها فى مذكراته (كان رحمه الله يخفى على كل مايتخص بالمساعدات المالية التى كان يأخذها سواء من الخديو أو من السلطان عبد الحميد) وبدأ الخلاف بين الشركاء فى جريدة (اللواء) التى صدرت فى (٢ يناير ١٩٠٠) وبدأت عملاقة وبأقلام معروفة وتبنت القضايا الوطنية والاجتماعية . وكان الخديو أبرز الشركاء والذى دفع الأموال بصفة سرية ليقوم عمال الجريدة باضراب عن العمل (مذكرات محمد فريد) .

وكشف هذا الصراع عن علاقات سرية بين مصطفى كامل وبين الخديو سنة ١٩٠٦ أى بعد أن أعلن مصطفى كامل (إنه قرف من خدمة هذا الرجل) واضطر «محمد فريد» أن يشرف على صحافة الحزب بنفسه وأن يختار «الشيخ عبد العزيز جاويش» رئيسا لتحرير (اللواء) وكان محمد فريد قد تعرف على «جاويش» فى مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ وقدمه إلى «مصطفى كامل» سنة ١٩٠٦ وقد أغضب اختيار الجاويش لرئاسة تحرير اللواء «أحمد حلمى» الساعد الأيمن لمصطفى كامل ، والذى كان على خلاف شديد مع «على فهمى كامل» فاستقال من اللواء فور تولى الجاويش أمورها وأصدر مجلة أسبوعية باسم (القطر المصرى) فى يوم ٢٤ أبريل ١٩٠٨ وكان يوما مطيرا شديدا المطر . . إلى أن صدر أمر باغلاقها فى يوم مطير آخر هو ٨ يناير ١٩١٠ .

وقد بدأت اللواء قوية من الناحية المالية وظلت تنشر الإعلانات التجارية بدون مقابل خلال الشهر الأول لظهورها (شهر رمضان) وظلت تصل بالمجان لمن يطلبها لمدة أسبوع من يوم ظهورها . ونلاحظ من بين الشركاء المؤسسين اسم «قلىنى فهمى» ومن بين كتابها «ويصا واصف» مما يدل على أن الحزب الوطنى أيام مصطفى كامل كان يحرص على التعبير عن الأمة باقسامها المختلفة . وتبدل الحال أيام محمد فريد وخاصة أيام رئاسة الجاويش لتحرير اللواء إلى أن صدر فى ٣١ أغسطس ١٩١٢ قرار بتعطيل جريدة اللواء بصفة نهائية .

مصطفى وفريد

وإذا كان لنا قبل أن نوغل في الحديث أن ننظر مرة إلى مصطفى وأخرى إلى فريد فإننا نلاحظ أن مصطفى كامل حين تفرغ للعمل السياسي كان عمره ١٩ عاما وإذا أخذنا بتقدير « دكتور عاصم الدسوقي » في دراسته للمذكرات محمد فريد وهو أن « محمد فريد » بدأ العمل السياسي الفعلي سنة ١٩٠٤ يكون فريد في تلك السنة ٣٨ عاما (ولد سنة ١٨٦٦) . . وهذه مسألة هامة . . مصطفى كامل تفرغ للعمل السياسي وعمره ١٩ عاما ، ومحمد فريد تفرغ للعمل السياسي وعمره ٣٨ عاما . . وليس غريبا في مجتمع ، كانت نسبة الأمية فيه تتجاوز ٩٠٪ أن يعمل طلابه بقضاياها الوطنية ، وليس غريبا أيضا أن يطلق الدارسون على فكر مصطفى كامل (فكر الطلبة) سنة ١٨٩٠ وعمره (١٦ عاما) أسس (جمعية الطلبة الأدبية) جمع فيها « مصطفى كامل » سبعة من زملائه يتبادلون الخطابة وإلقاء الشعر وسنة ١٨٩٣ يدعو مصطفى كامل زملاءه طلبة الحقوق للاحتفال بعيد جلوس عباس ونراه سنة ١٩٠٥ وراء تكوين (نادى المدارس العليا) والذي رأسه عمر لطفي رائد التعاون فيما بعد ، وبدأ النادى يضم إليه طلاب المدارس العليا . كان الطلبة طليعة واعية بقضايا الوطن وبمستقبله وتجمعوا حول طالب وشاب ثائر مثلهم هو مصطفى كامل ومن الطبيعي أن يكون أسلوبهم في التعبير هو الخطابة حتى المقالات التي امتلأت بها صحف الحزب الوطنى كانت خطابية في لهجتها . . واستأثر مصطفى كامل بقلوب وعقول الطلاب والشباب الذين أصبحوا فيما بعد رجال الحزب الوطنى وغيره من الأحزاب . .

وعندما تولى محمد فريد زمام أمور الحزب الوطنى كان عمره (٤٢ عاما) وهو أقل اقتدارا وتبصرا من مصطفى كامل ، واضعف تأثيرا على الشباب والطلبة ، وجد نفسه حائرا بين أفكار الشباب النائرة الحماسية وبين حزب آخر يناوئه ويسحب الأرض من تحت أقدامه له مفكر مثقف ثقافة عصرية هو « أحمد لطفي السيد » وله جريدة التفت حولها عناصر مدرسة التنوير فيما بعد . . كان هذا الحزب هو (حزب الأمة) وحزب آخر هو (حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية) يعلن صراحة أنه يدافع عن « الخديو » وله جريدة قوية تلتف حولها فئات معينة وهى جريدة (المؤيد) .

وفي تقديرنا أن « محمد فريد » نفسه وقع نهبا للأفكار الحماسية السابقة للحزب الوطنى ، وللأفكار العصرية لحزب الأمة ولازباطات قديمة مع الدولة العلية والخديو ، ولأفكار جديدة وفدت إليه من أوروبا . . ولم يستطع أن يقدم صياغة جديدة للحزب الوطنى ، تضىء له الطريق وتحفظ له وحدته . . فانقسم الحزب إلى أقسام مختلفة . . قسم ذهب ينضم إلى احزاب أخرى وقسم أغرق في الولاء للدولة العلية ، وقسم يعمل سرا لحساب الخديو . . وقسم لجأ إلى الجمعيات السرية وأعمال الاغتيالات الفردية . . ثم غادر مصر إلى أوروبا في ٢٧ مارس ١٩١٢ . وظل خارج مصر حتى توفي في ١٥ نوفمبر ١٩١٩ وعمره ٥٣ عاما (ولد عام ١٨٦٦) .

لماذا ألمانيا ؟

سبق « مصطفى كامل » زميله « محمد فريد » في الاتصال بألمانيا لتوسيع نطاق النشاطين الدعائي والسياسي . وقد سافر مصطفى إلى ألمانيا فعلا في يونيه ١٨٩٥ واتصل هناك بعدد من الصحفيين الألمان . ومراسلات مصطفى كامل إلى محمد فريد بداية من ٢١ أكتوبر ١٨٩٦ حتى ٢٣ أغسطس ١٩٠٧ تدور حول أهمية دور ألمانيا في حل القضية المصرية . وخاصة بعد أن أدرك مصطفى موقف فرنسا السلبي ، وكان يرى ضرورة أن يقوم « الخديو » بدعوة أمبراطور ألمانيا لزيارة مصر . ثم تدور المراسلات حول شكوى مصطفى كامل من المصريين الذين لا يفعلون شيئا سوى انتقاد جهوده ، وفي ثانيا المراسلات نجد طلبات دائمة من محمد فريد ليمده بالمال وبالسؤال عن أحوال العائلة ورعاية شئونها بمصر نيابة عن مصطفى كامل بسبب إقامته الكثيرة في دول أوروبا .

ومهما يكن من أمر فقد غادر « فريد » مصر يوم ٢٧ مارس ووصل الأستانة صباح الأحد ٣١ مارس ١٩١٢ وبدأت خلافات بينه وبين الشيخ « عبد العزيز جاويز » وفي ١٧ يونيه (حضرت عائتي إلى الأستانة وكانت عيشة هنية بين زوجتي وأولادي) ويوم الثلاثاء ١٦ أغسطس ١٩١٢ سافر من الأستانة إلى باريس وسافر من باريس في ٥ سبتمبر إلى جنيف ، وبعدها سافر إلى استكهولم وفي ٢٩ سبتمبر سافر إلى برلين . ومن برلين كان دائم التنقل إلى باريس وجنيف واستكهولم وبروكسل . والمراسلات تصله إلى البنك الألماني ببرلين توجه له عن طريق أحد شباب الحزب الوطني المصريين في برلين وفي الأستانة - في إحدى مرات وصوله إليها - وقف على ميل « الجاويش » للخديو كل الميل . ويسجل أمام وفاة الشيخ على يوسف في ٢٥ أكتوبر ١٩١٣ (انهد بموته ركن النفاق والذبدبة . هذا الرجل نشأ فقيرا حقيقا في بلففورة) وفي ١٨ فبراير سنة ١٩١٤ سافر إلى (لندن) لحضور مؤتمر الأجناس المضطهدة . وفي إنجلترا قابل « حفي محمد عبد السلام عبد الغفار » .

ومما يذكره في مذكراته أنه عندما بلغته جهود « سعد زغلول » داخل الجمعية التشريعية (والسعى في تشكيل حزب معارضة في الجمعية يكون تحت رئاسة سعد زغلول باشا ، تثبت لهم في ٣١ من هذا الشهر (يناير ١٩١٤) بأن يجتهدوا في إدخال سعد باشا اللجنة الإدارية ، وانتخابه وكيلا . . ولو تحقق ذلك لأصبح مركز الحزب مقربا في الظاهر والباطن) . .

وفي أول أغسطس ١٩١٤ أعلنت الحرب العالمية الأولى وفي ١٠ سبتمبر في الأستانة تحدث محمد فريد مع سفير ألمانيا حول الحملة المزمع أن تقوم من تركيا إلى مصر وعلى رأسها « الخديو عباس الثاني » وتم إعداد منشور يوزع في مصر .

وبعد جولة طويلة بين الأستانة وبون وجنيف وباريس وبلجيكا عاد « محمد فريد » إلى برلين

في ١٨ مايو ١٩١٥ ثم سافر إلى الأستانة وإلى جنيف . . ودفع الألمان إلى « الخديو عباس » أربعة ملايين مارك ليشتري جريدة في باريس ولينفق بسخاء ويعود « محمد فريد » إلى برلين في ديسمبر ١٩١٥ وقد اخذت الخلافات تتصاعد بين أعضاء الحزب الوطنى في أوروبا وزادت تنقلاتهم بين مدن أوروبا سنة ١٩١٦ .

ونلاحظ في مذكرات محمد فريد بداية من شهر مايو ١٩١٦ يأسا واضحا من خلاص مصر على يد (الترك والألمان) ونجد حديثا عن ضيق الترك بمحمد فريد ذاته وميلهم إلى « الجاويش » وحديثا عن تردد الألمان إزاء « محمد فريد » مراعاة لشعور حلفائهم الترك .

وهكذا مضت الأيام بمحمد فريد وصحبه والخديو عباس خارج مصر يأتلفون مرة ويختلفون مرات ينقسمون حول الموقف من الخديو ، ويتفقون حول الموقف من الدولة العلية ، ويفاجأ الجميع في نوفمبر ١٩١٨ باستقالة أمبراطور ألمانيا وولى العهد ويلجان إلى هولنده ، وتركيا توقع الهدنة ويهرب الشيخ عبد العزيز جاويش وعدد من المصريين من الأستانة إلى برلين (وقد أحضر الشيخ معه لي ولكل من أعضاء لجنة الحزب أربعائة جنيه عثمانى) ثم يفر المصريون من برلين إلى سويسرا .

وفي ٨ ابريل ١٩١٩ يسجل « محمد فريد » في مذكراته - من الأمور التى كانت غير منتظرة ما حصل بمصر وهو قيام ثورة عامة اشتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها واتحد فيها الأقباط والمسلمون مطالبين باستقلال مصر التام . . والذي يمكن قوله إن هذه الحركة لم تكن في الحسبان وإن ما أظهره المصريون من التضامن والاتفاق ما كان أحد ليحلم به) .

والمفاجأة الكبرى التى لم يتوقعها « محمد فريد » وهو خارج مصر ، والتى وقعت بعد أن ترك مصر إلى برلين وباريس وفيشى واستكهولم وجنيف وبرن ولوزان ولوكسمبورج بسبع سنوات كاملة ، لم تكن مفاجأة للقوى والقيادات السياسية التى بقيت تكافح داخل مصر ولسعد زغلول بالذات الذى رأى « محمد فريد » أن يضمه وكيلا للحزب الوطنى سنة ١٩١٤ . ولكن المحاولة لم تنجح مع سعد الذى وضحت الرؤية أمامه في حركة وطنية جديدة تأتلف فيها كل قوى الأمة السياسية ، وكل عناصرها سعيًا من أجل (استقلال تام) و (دستور) بينما (الحزب الوطنى) يتخبط إزاء الموقف من الدولة العثمانية ومن الخديو ومن فرنسا ومن ألمانيا . وقد أثر « محمد فريد » أن يكافح في أوروبا وفي الأستانة فترك مصر في ٢٧ مارس ١٩١٢ ومعه ومن بعده فعل الشيء نفسه أهم قيادات الحزب الوطنى التى سرعان ما انقسمت في أوروبا إلى مجموعات متفرقة يجمعها فقط اسم الحزب واسم رئيسه ووجودهم في الغرب . . مجموعة تعمل مع الأتراك تحت جناح الصدر الأعظم سعيد حليم الذى كان يطمع في عرش مصر ومجموعة تعمل مع الخديو عباس

وتسعى للمصالحة مع إنجلترا ، ومجموعة محمد فريد نفسه والتي ترفع على حياء شعار (مصر للمصريين) ولكن جهودها تضع بين الولاء للدولة العثمانية ، وبين مهادنة الخديو على فترات متقطعة ، وبين الاستقلال الكامل .

أفكار مترددة

لا أحد ينكر أن « محمد فريد » انفق ثروته كلها على الحزب الوطنى ، ومصطفى كامل ، والعمل السياسى ، ولم يمد يده للسلطان أو الخديو ، إلا مضطرا تحت ضغط الحاجة وهو فى أوروبا . ولا ينكر أحد أنه وقف إلى جانب تعليم أبناء الشعب ونادى بافتتاح المدارس الليلية وهذا تمشيا مع خط مصطفى كامل فى الدعوة إلى التعليم . ولكن فى حين دعا « مصطفى كامل » إلى الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٤ نجد أن « محمد فريد » فى موقف غير مفهوم يشن هجوما على لجنة الجامعة فى أبريل ١٩٠٨ على صفحات (اللواء) ورد عليه « سعد زغلول ، والشيخ على يوسف وقاسم أمين وتم إبعاد « محمد فريد » عن المشروع بعد أن كان سكرتيرا للجنة الاكتتاب .

وكان لانتعاش الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل ومحمد فريد أثر كبير فى تحريك الطبقة العاملة المصرية لممارسة النضال للظفر ببعض المكاسب الاقتصادية . وكان الحزب الوطنى وجريدته اللواء يؤيدان العمال فى مطالبهم ، ويرى الدكتور رءوف عباس فى كتابه (الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢) أن عطف الحزب الوطنى على إرايات العمال جزء من مخطط وضعه الحزب منذ انتقلت رئاسته إلى محمد فريد متأثرا فى ذلك بأفكار حزب العمال البريطانى . ودعا محمد فريد إلى العناية بنقابات العمال . وكان لاتصاله بتجارب البلاد الأوروبية أثره على محمد فريد فى تشجيع الدعوة إلى (نقابات التعاون) وتشجيع عبد الرحمن الرافعى وأحمد لطفى السيد فى هذا السبيل وفى الوقت نفسه يهاجم بعنف شأنه فى ذلك شأن مصطفى كامل دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة ويرى أن ذلك يؤدى إلى فساد الأخلاق .

نهاية الاسطورة

ومن الملاحظ أن (الحزب الوطنى) الذى تحول اسمه إلى أسطورة تحول اسم مصطفى كامل إلى باعث للحركة الوطنية واسم محمد فريد إلى رمز الاخلاص والوطنية . هذا الحزب فى ظل ظروف موضوعية وتطورات داخلية سرعان ماتدهور وانقسم وأقل نجمه وتحول من حزب للجلاء وللدستور إلى حزب صغير وانتهى به الأمر إلى ارتقاء فى أحضان الملك أحمد فؤاد ، والملك فاروق من بعده . . لماذا ؟

قلنا عند حديثنا عن مصطفى كامل إن الحزب في شكله غير الرسمي نشأ في أحضان « الخديو عباس الثانى » يمدّه ويمد صاحبه وصحافته بالمال ويدس رجاله واعوانه بداخله . . وعلى الرغم من أن مصطفى كامل تمرد في أخريات أيامه على الخديو وعلى الرغم من أن محمد فريد كان أكثر حدة في التناقض مع الخديو . . إلا أنه كان يعود في الفترات الحرجة إلى التنسيق معه .

وقلنا إن مصطفى كامل في أخريات أيامه نادى بالاستقلال لمصر عن الانجليز وتركيا إلا أن محمد فريد لم يبدأ من هذه النقطة وإنما عاد إلى الوراء مغاليا في الارتباط بالدولة العثمانية وبالجامعة الإسلامية . . وقد تبين في أخريات أيامه خطأ هذه الفكرة .

وفي الوقت الذى بدأ فيه المجتمع المصرى يتجه إلى صياغة جديدة تتمثل في استقلال الحركة الوطنية عن الخديو وعن تركيا وعن فرنسا أو ألمانيا وتتمثل في تجميع قوى الشعب بمختلف فئاته وطوائفه سعيا إلى الاستقلال والدستور كان « محمد فريد » ينقل كفاح الحزب إلى خارج مصر ومعه الفعاليات الرئيسية فينقسم الحزب في الخارج والداخل إلى مجموعات صغيرة متصارعة وذات اتجاهات مختلفة ، كان أكثرها تشنجا مجموعات العمل السرى التى اتجهت إلى محاولة اغتيال الزعامات الشعبية ، وإلى اجهاض ثورة ١٩١٩ .

الأسانيد :

- ١- د . رموف عباس . . الحركة العمالية في مصر .
- ٢- د . عصام ضياء الدين . . الحزب الوطنى والنفال السرى .
- ٣- عبد الرحمن الرافعى . . محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية .
- ٤- محمد فريد (المذكرات) تحقيق د . عاصم الدسوقي .
- ٥- محمد فريد (المراسلات) تحقيق د . مصطفى النحاس جبر .

الدكتور محمد حسين هيكل



قال الدكتور « طه حسين » يصف صديقه الدكتور « محمد حسين هيكل » . . (هيكل صاحب صحيفة يشرف عليها ويدير أمورها ، ويكتب فيها فصلا في كل يوم على أقل تقدير ، وهو عضو في حزب سياسى يتحدث إليهم كل يوم في السياسة إذا كان الصباح ، فإذا كان المساء فهو أديب يقرأ . . وعلى ذلك كله أب وزوج لا يبخل على أسرته بحققها عليه . . وهو صديق لا يبخل على أصدقائه بحقوقهم عليه ، والغريب مع هذا كله أنك تلقاه فإذا هو رجل هادىء مطمئن ، كأنه أفاق منذ حين قصير من نوم مريح . فهو لم ينشط كل النشاط بعد ، ولكنه بعيد عن الجمود والفتور ولا تكاد تتحدث إليه دقائق حتى يفتنك ويروعك فكأنك تتحدث إلى جنى . ولكنه جنى عذب الروح للذيد الحديث .

المهم أن هذا « الجنى » عذب الروح للذيد الحديث عندما وقف أمام محكمة الثورة أبى أن يكون (شاهد ملك) على أى من خصومه السياسيين بل إنه دافع عنهم أمام محكمة « عبد اللطيف البغدادى » .

وكان رجال يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد أعلنوا أن الانتخابات العامة سوف تجرى في فبراير ١٩٥٣ ، أى بعد ستة أشهر من ٢٣ يوليو ولكن قبل أن يحل موعد الانتخابات العامة، وقبل أن يطالبهم الشعب بتنفيذ الوعد ، صدر قرار بحل الأحزاب وبإلغاء دستور ١٩٢٣ ، وصدر إعلان دستورى مؤقت . . وفي سبتمبر سنة ١٩٥٣ أعلن الصباغ « صلاح سالم » عن وجود مؤامرة سياسية من بعض السياسيين ضد النظام . وأعلن أن مجلس الثورة قد قرر تشكيل محكمة من « عبد اللطيف البغدادى » رئيسا وعضوية « حسن إبراهيم وأنور السادات » وجرت حركة اعتقالات واسعة ، وجرت محاكمات لعدد من السياسيين القدامى بتهمة إفساد الحياة

السياسية واستغلال النفوذ ، وأصدرت المحكمة حكما بإعدام « إبراهيم عبد الهادي » جرى تخفيفه بعد ذلك . في مثل هذا المناخ جرت محاكمة السياسيين القدامى ، وفي مثل ذلك المناخ وقف « الدكتور محمد حسين هيكل » أمام المحكمة لايطعن في خصومه السياسيين بل اتجه إلى الدفاع عن موقفهم وتصرفاتهم وهم الذين يصفونه دائما بأنه يقف في خندق حزب كبار الملاك . وبأنه كان يدافع سياسيا عن الذين يقفون في غير معسكر الشعب .

نشأة محافظة

وقد ولد « محمد حسين هيكل » في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٨ في كفر غنام ، إحدى قرى مركز السنبلوين من أعمال الدقهلية ومن أسرة ثرية مما كان يعرف وقتئذ باسم (الأعيان) نشأ في بيت ريفي طيب وكان أبوه رجلا ميسورا ويمت بصلة القرى إلى « أحمد لطفى السيد » والذي سوف يكون له شأن كبير مع « محمد حسين هيكل » توجيهها واتجاهها ، سياسة وفكرا ، سلوكا وثقافة .

ثم وجد الصبى طريقه إلى كتاب القرية ، وحصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ من مدرسة الجمالية ، ومن مدرسة الخديوية بالقاهرة حصل على البكالوريا سنة ١٩٠٥ ، ثم الحقوق سنة ١٩٠٩ . ومن فرنسا حصل على الدكتوراه سنة ١٩١٢ في رسالة عن (دين مصر العام) التي أوضح فيها مرض مصر الاقتصادية منذ عهد الخديو إسماعيل ، ويحاول أن يصف العلاج في حدود رؤيته الفكرية في ذلك الزمان ويعود « محمد حسين هيكل » إلى مصر بعد حصوله على الدكتوراه سنة ١٩١٢ . . ولكننا نرى اسمه يتردد على صفحات (الجريدة) التي يحررها بلدياته وصديقه وأستاذه « أحمد لطفى السيد » ويتكرر الاسم قبل سفره إلى باريس وأثناء وجوده في باريس ، واستمر يكتب على صفحاتها حتى عام ١٩١٥ وهو العام الذى توقفت فيه .

ومنذ سنة ١٩١٠ بدأ يكتب قصة (زينب) مختزنا الريف المصرى الذى ولد فيه ، ومتأثرا بالريف الفرنسى الذى تأثر به . وقد أخذ ينشرها دون أن يضع اسمه عليها . وإنما اتخذ من عبارة (فلاح مصرى) توقيعاً له على فصول القصة في (الجريدة) التى أنشأها ورأس تحريرها « أحمد لطفى السيد » في ٩ مارس ١٩٠٧ .

أحمد لطفى السيد

والذى يريد أن يقرأ الجانب السياسى عند « محمد حسين هيكل » عليه أن يعود أولا إلى قراءة « أحمد لطفى السيد » الذى ترك بصماته واضحة على صديقه وإن شئت فقل تلميذه « هيكل » ،

وأزعم أيضا أن مطالعة « أحمد لطفى السيد » تساعدنا على فهم الجانب الثقافى والفكرى لدى « هيكل » وغيره من الجوانب ، ولعل القارئ لم يزل يذكر ما قلناه فى الحديث عن « أحمد فتحى زغلول » عن الوضعية التى دخلت فيها مصر سياسيا وفكريا بعد أن أسلم عرابى سيفه للقائد الانجليزى وبعد أن نكست أعلام الثورة العرابية . وبدأت مطاردة العرابيين . . قلنا إن الفكر الثورى استدار إلى الخلف وتقدم إلى الإمام الفكر الإصلاحى الذى يتجنب الصدام الحاد مع الاحتلال ويعنى بقضايا كثيرة كالإصلاح الدينى « محمد عبده » وحركة الترجمة « أحمد فتحى زغلول » وتحرير المرأة « قاسم أمين » والتعاونيات « عمر لطفى » . . ومن الناحية السياسية الانصراف عن الولاء للدولة العلية وعدم التبعية لدولة الاحتلال والالتفاف حول شعار « مصر للمصريين » وهذا كله هو السبيل إلى الاستقلال مع المحاسنة والتدرج فى نيل المطالب لدى أصحاب هذا الاتجاه . .

وإذا كان لهذه العناصر كلها أن تتجسد فى رجل فهو « أحمد لطفى السيد » الذى أنشأ الجريدة فى ٩ مارس ١٩٠٧ وتوقفت فى ٣٠ يوليو ١٩١٥ ، وأعلنت الجريدة فى عددها الأول عن مؤسسيتها « محمود سليمان - والد محمد محمود - وحسن عبد الرازق وأحمد فتحى زغلول ، وعبد الرحمن الدمرداش - وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى ، وعمر سلطان » وقدمها رئيس التحرير « أحمد لطفى السيد » بقوله : (ما الجريدة الا صحيفة مصرية شعارها الاعتدال الصريح ومراميها إرشاد الأمة إلى أسباب الرقى الصحيح) ثم تأسس حزب الأمة فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ .

فها هو « أحمد لطفى السيد » المعتدل سياسيا المستنير ثقافيا المتحرر فكريا والذى نعرف من سيرة « محمد حسين هيكل » أنه تعهده بالتوجيه فى التعليم فى مختلف المراحل وفتح له صفحات (الجريدة) قبل أن يسافر إلى فرنسا وأثناء إقامته فى فرنسا ، وبعد ان عاد إلى مصر . . هو الأستاذ الحقيقى المؤثر فى حياة « دكتور محمد حسين هيكل » سياسيا وفكريا مع تفصيلات جزئية بطبيعة الحال .

السياسى المحافظ

ومن هذه الأرضية التى مهدها له « الأستاذ » تبدأ مسيرة « محمد حسين هيكل » السياسية وهى كلها فى الاتجاه المحافظ . .

لم يكن بحكم النشأة ولا بحكم الأسرة ينجح إلى الثورة أو يميل إليها . . كان يميل دائما إلى التدرج المأمون . والتطور الهادئ بل إنه فى كل ما وصل إليه وعلى حد عبارة ذكية قراتها للمحرر البرلماني الراحل « محمد السوادى » قال رحمه الله (كان الدكتور هيكل يتدهلز إلى المناصب الرفيعة فى سكون لا يثير غضبا . وفى تواضع لا يثير حسدا . وفى وداعة لا تثير حقدا) .

وتأسس حزب الأحرار الدستوريين من العناصر التي انشقت على الوفد والتي خرجت على زعامة سعد وكان « محمد حسين هيكل » من العناصر الفعالة في هذا الحزب ورأس تحرير جريدة (السياسة) التي صدرت في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٢ . واستقال «عدلى يكن» من رئاسة الحزب وخلفه « عبد العزيز فهمى » ثم « محمد محمود » وفي سنة ١٩٤٢ ، وفي سكون وتواضع ووداعة تولى « محمد حسين هيكل » رئاسة حزب الأحرار الدستوريين .

كان زعيما للمعارضة بمجلس الشيوخ وكان رئيسا لمجلس الشيوخ . . ولأن الفنان في داخله يغلب على السياسى في ظاهره لم يكن خبيرا بدهاليز السياسة . . فأثناء وزارة إسماعيل صدقى مع بداية الثلاثينات رأى (حزب الأحرار الدستوريين) أن ينسق مع (الوفد) في مواجهة صدقى . . وكان هو يرى مواجهة صدقى دون التنسيق مع الوفد الذى داب الحزب على أن يهاجمه على صفحات (السياسة) ومن هنا رفض « محمد حسين هيكل » نشر بيان الحزب الذى ينتمى إليه والذى تعبر (السياسة) عنه . وكان أن نشرت قيادة الحزب بيان التنسيق مع الوفد في جريدة الأهرام .

الحق الطبيعى

ويصل هذا الموقف إلى مداه في ٢٠ أكتوبر ١٩٣٧ عندما أصدر الملك فاروق أمرا ملكيا بتعيين « على ماهر » رئيسا للديوان الملكى ورأى الكثيرون وخاصة (الوفد) ضرورة أن يعود الملك إلى الحكومة فيما يتخذ من قرارات . . دافع « محمد حسين هيكل » عما أسماه (الحق الطبيعى) للملك .

وتراه قبل ذلك يؤيد مشروع معاهدة بين « عبد الخالق ثروت » و«تشمبيلين» وهو مشروع أقل بكثير من مشروع معاهدة ١٩٣٦ ، وبالمثل دافع عن مشروع « محمد محمود - هندرسون » في حين تراه بعد ذلك داخل (حزب الأحرار) وداخل (مجلس الشيوخ) يقود الحملة ضد مشروع معاهدة ١٩٣٦ وإن كان اسمه من بين أسماء قيادة حزب الأحرار عند موافقة الحزب على المعاهدة .

أما في مجال العمل الوزارى فإن قائمة الذين تولوا رئاسة الوزارة تخلو من اسم « محمد حسين هيكل » حتى تاريخ وفاته في ديسمبر ١٩٥٦ وإن كان وزير دولة لأول مرة في حكومة « محمد محمود » رئيس حزب الأحرار من (٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ م - إلى ٢٧ أبريل ١٩٣٨) وبعد ذلك كان وزيرا للمعارف ست مرات . . مرتين في وزارة « محمد محمود » من ٢٧ أبريل ١٩٣٨ إلى ٢٤ يونية ١٩٣٨ ومن ٢٤ يونية ١٩٣٨ إلى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ ومرة ثالثة في وزارة « حسن صبرى » من

٢٨ يونية ١٩٤٠ إلى ١٤ نوفمبر ١٩٤٠ ، ومرة رابعة ومرة خامسة في وزارتي « حسين سرى » من ١٥ نوفمبر ١٩٤٠ إلى ٣١ يولية ١٩٤١ ، ومن ٣١ يوليو ١٩٤١ إلى ٤ فبراير ١٩٤٢ . أما المرة السادسة فقد كان وزيرا للمعارف ووزيرا للشئون الاجتماعية في وزارة « أحمد ماهر » من ٩ أكتوبر ١٩٤٤ إلى ١٥ يناير ١٩٤٥ . ودعونا نترك هذه المناصب ونصل إلى ما بقى للتاريخ من « محمد حسين هيكل » وهو كثير وجليل .

المعادلة الصعبة

وافكر أمام القارئ بصوت عال . . احيانا أتأمل حياة الفرسان الثلاثة « الدكتور طه حسين » و« الأستاذ عباس محمود العقاد » و« الدكتور محمد حسين هيكل » وأقول لنفسى أه ليته . . وليته . . وليته . . وليته . . ليت « الدكتور طه حسين » ما عرف طريقه إلى (حزب الاتحاد) ذلك الحزب الذى أنشأه الملك فؤاد ورعاه وانفق عليه ليستعين به على تنفيذ سياسته وأسند رئاسته تحرير جريدته إلى « الدكتور طه حسين » . . وليت « الأستاذ العقاد » ما انشق على (الوفد) الذى أعطاه عصارة قلمه وأعطاه الوفد الشهرة والمساندة من القائد ومن الجماهير . . وأما « الدكتور محمد حسين هيكل » فليته ما عرف السياسة أصلا وانطلق كما كان فارسا من فرسان الاستنارة الثقافية ، وفارسا من فرسان حرية الرأى والبحث العلمى كان فنانا أخطأ الطريق إلى السياسة .

ولكن منذ متى تسير الحياة في خط مستقيم ؟ وربما لو سارت الحياة مع « الدكتور محمد هيكل » كما توهمنا ربما ما بقى منه شيء للتاريخ . فمع (الجريدة) ومع (حزب الأمة) ومع (الأحرار الدستوريين) خرجت لمصر وبقيت لمصر أعظم مدارسها الفكرية استنارة وثقافة ودفاعا عن حرية الرأى وحرية البحث . . أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ على عبد الرازق ، والدكتور طه حسين ، والدكتور محمد حسين هيكل .

معادلة صعبة كما أسميتها في مقال عن الدكتور محمد حسين هيكل في العدد التذكارى من مجلة (الثقافة - يناير ١٩٨٢) بمناسبة مرور ربع قرن على رحيل هذا الفارس العظيم . . معادلة صعبة . . مواقف سياسية محافظة . . ومواقف فكرية مستنيرة إلى أبعد الحدود بل وبأكثر مما يظن أحد في أيامنا هذه . .

الصدق في الرأى

دافع عن حق الكاتب في أن يكتب وحق المفكر في أن يفكر ، وعن صاحب الرأى في أن يعبر عن رأيه . . هكذا أخذ عن « أحمد لطفى السيد » وهكذا تعلم في باريس سنة ١٩١٧ . كتب « منصور فهمى » على صفحات (السفور) مقالا عن (الشك واليقين) وانتقده كثيرون ، وعلى

صفحات (الأهرام) كتب « حسن الشريف » مقالا يشتم فيه الشك في وجود (الخالق) سبحانه وتعالى . وثار كثيرون وتصدى لهذا وذلك « الشيخ رشيد رضا » وانتصر الدكتور « محمد حسين هيكل » في ذلك الوقت إلى ما أسماه (الصدق في العقيدة وفي الموقف وفي الرأي) لأن الجماعة لاتنصار بمن يخالف عقيدتها مادام موقفها واضحا أما المنافقون فهم خطر دائما على الحياة وعلى العقائد ولا ينبغي أن نخشى حرية التفكير ، والسبيل هو مقابلة الحجة بالحجة والفكرة بالفكرة قصدت هنا أن أقول إن الدفاع عن حرية البحث عند « الرجل » قديم ويعود إلى سنة ١٩١٧ .

وفي ٣ مارس سنة ١٩٢٤ أعلن « مصطفى كمال اتاتورك » إلغاء الخلافة العثمانية فأوعز الاحتلال الانجليزى إلى الملك فؤاد بأن يتولى منصب الخلافة ولما كان الملك فؤاد هو من هو في صفاته وأخلاقياته ومن منطلق وطنى وديمقراطى وقفت مدرسة الاستنارة ومن بينها « دكتور محمد حسين هيكل » ضد فكرة أن يتولى الملك فؤاد الخلافة واستطاعت هذه المدرسة أن تدفع حزب الأحرار بأسره ضد هذه المحاولة ووقف الأحرار والوفد في جبهة واحدة ضد فكرة الانجليز وفؤاد .

وبهذا الصدد أصدر « الشيخ على عبد الرازق » القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الابتدائية كتابه (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥ بهدف سد الطريق أمام الملك فؤاد الذى أراد مع الانجليز استخدام فكرة (الخلافة) لإضفاء شرعية على تصرفات الملك والانجليز معا ضد الحركة الوطنية المصرية ولكن الكتاب أثار عاصفة في الحياة السياسية والثقافية والدينية ولم يكن القصر بعيدا عن تحريك هذه العاصفة وكان أن دافع « دكتور محمد حسين هيكل » وحزب الأحرار الدستوريين عن حق « الشيخ على عبد الرازق » في الدراسة والبحث والتعبير .

ثم جاء كتاب (فى الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦ وهو فى الأصل محاضرات ألقاها « الدكتور طه حسين » فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول وقد قوبل الكتاب بمعارضة شديدة من قطاعات مختلفة فى المجتمع المصرى ووصل الأمر إلى حد التحقيق مع الدكتور طه ولكن التحقيق حفظ فى ٣٠ مارس ١٩٢٧ . وما بين صدور الكتاب وحفظ التحقيق اختلفت الآراء حول الكتاب ومنهجه وحول صاحبه وأهدافه وانتصر « الدكتور محمد حسين هيكل » فى ذلك الحين لحق الدكتور طه حسين فى التفكير وفى التعبير عن رأيه وقد أصاب الدكتور هيكل من جراء هذه المواقف هجوم حاد وقد أشار هو نفسه إلى هذا فى مذكراته (واتهم الناس جريدة السياسة بالاحاد فى الدين . وبالمرق فى الوطنية) وهجوم الناس على جريدة السياسة يعنى الهجوم على هيكل رئيس تحريرها ، والعقل المفكر فيها .

جريدة السياسة

وصدر العدد الأول من جريدة (السياسة) اليومية في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٢ لسانا لحال حزب الأحرار الدستوريين واختير «الدكتور محمد حسين» رئيسا لتحريرها والتف حوله أو حول الجريدة «الدكتور طه حسين» و«محمود عزمى» و«توفيق دياب» و«السيد كامل» وعدد من المثقفين الذين لم يجتمع مثلهم في جريدة حزبية أخرى .

وكانت النبرة حادة في الصحف الحزبية كعادتها في كل زمان وخشى الدكتور هيكل أن يتأثر الجانب الثقافي في (السياسة اليومية) بأسلوب الحوار الحزبي السائد فأصدر (السياسة الأسبوعية) كمجلة ثقافية وإن شئت فقل مجلة فكرية صدر العدد الأول منها في ١٣ مارس ١٩٢٦ في حجم الصحيفة اليومية ثم في حجم نصف الصحيفة اليومية (تابلويد) وثمنها قرش صاغ واحد . وصادرت حكومة «إسماعيل صدقي» عدد ٢ فبراير ١٩٣١ فنقررت إلغاؤها في اليوم في اليوم نفسه وإن كانت قد عادت إلى الظهور مرة أخرى في ١٦ يناير ١٩٣٧ وبعد فترة قصيرة توقفت نهائيا .

وقد حدد الدكتور هيكل هدف (السياسة الأسبوعية) بأن تكون (صلة الثقافة وتبادل الفكر بين الشرق والغرب) وكان الصف الأول من كتابها « طه حسين » ، ومحمد صبرى السربونى ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمد عبد الله عنان ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، ومحمد توفيق دياب ، وعبد العزيز البشرى ، وعلى عبد الرازق ، وعمر عنایت ومحمود عزمى ، وإسماعيل مظهر وعبد الحميد حمدى ، وجعفر والى ، وفكرى أباطة ، ومحمود تيمور ، ومن الصف الثانى أو الجليل الثانى إذا شئت « حافظ محمود » ومحمد زكى عبد القادر ، وسيد نوفل ، وزكى مبارك ، وعثمان أمين ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ، ونقولا يوسف وإبراهيم ناجى ، وعلى محمود طه ، ومحمود عماد ، ومحمد الأسمر .

وقد أثرى الجليل الأول والجليل الثانى على صفحات السياسة الأسبوعية (حرية النقد ، وحرية الرأى ، وحرية المعارضة) .

رحلة الفكر

ونحن هنا نقدم الرجل للناس كما كان ، نقدم الصورة كما هى حتى نعرف كيف كان يفكر الناس في ذلك الزمان وكيف كانت نبرة الهجوم بين المثقفين حادة ، قال عنه « عباس محمود العقاد » (ده مش كاتب . . ده عرضحالجى) ولم يكن الرجل هكذا كما أن الأمر أن أسلوبه القانونى ألقى بظلاله على كتاباته وتأثر بلغة الصحافة وحس على عرض أفكاره عرضا منطقيا مرتبا بعيدا عن (البلاغة) التى لها ثقلها فى النفوس . . والخط ردىء فى حاجة إلى « شمبليون » لفك رمزه .

لم يعن ببلاغة الارتجال وروعة الإلقاء التي سحرت الناس زمانا . . من بعيد عن التعصب لأفكاره . . المهم كيف كانت رحلة الفكر عنده ؟ .

تلقاه في البداية مع (الفرعونية) حريصا على أن يتولى المصريون أنفسهم ، وليس الأجانب ، الكشف عن آثار اجدادهم . . ودعا إلى استلهاهم الحضارة الفرعونية حرصا على الاتصال الوجداني الحضاري وقال بوضوح (لا سبيل إلى إنكار ذلك الاتصال النفسى الوثيق الذى يربط تاريخ مصر منذ بدايته إلى عصرنا الحاضر . . هذا الاتصال الوثيق الذى يجعل مصر وحدة تاريخية أزلية خالدة هكذا نظر إلى تاريخنا كتيار دافق متصل . الحضارة فى مصر عنده تيار متصل . . فرعونية ومصرية وعربية إسلامية .

وفكرة المصرية عنده رضع ألبانها كما عرفنا من (الجريدة) ومن (فكر حزب الأمة) ومن « أحمد لطفى السيد » ، وروايته (زينب) تعبر عن مصريته رغم أنه كتبها وهو فى باريس ثم جاء تيار ثورة ١٩١٩ الذى أيقظ الروح القومية فى الثقافة وفى الفن وفى الأدب وفى الحياة الاقتصادية أيضا . .

وكان اهتمامه باللغة العربية واضحا ، كتب مقدمة ديوان أحمد شوقى أعظم شاعر عرفته العربية بعد المتنبى ، فى مجلة السياسة الأسبوعية أصدر عددا خاصا عن « أحمد شوقى » عندما نودى به أميرا للشعراء وأصدر عددا خاصا عن « حافظ إبراهيم » ولكن الأخير كان قد غادر الحياة .

ويرى الكثيرون أن (الأدب الإسلامى) عند « محمد حسين هيكل » هو أهم ما قدمه للناطقين بالعربية وقد انتهج العقاد فى الإسلاميات نهج العبقريات . ونهج هيكل نهج السيرة . وترك للمكتبة العربية أروع ما كتب عن (حياة محمد) سنة ١٩٣٣ و(فى منزل الوحى) سنة ١٩٣٩ و(أبو بكر الصديق) سنة ١٩٤٢ ، و(الفاروق عمر) سنة ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ ثم (الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة) نشر بعد وفاته سنة ١٩٦٤ ، و (عثمان بن عفان) نشر بعد وفاته سنة ١٩٦٨ ، والإسلاميات هى آخر ما تلقاه من إنتاج فكرى إسلامى وإن ظل يكتب فى الصحف مقالات متفرقة حتى قبيل رحيله .

أما كتبه الأخرى فقد صدرت له (زينب) سنة ١٩١٤ وجان جاك روسو فى جزأين ١٩٢١ ، ١٩٢٣ وفى أوقات الفراغ ١٩٢٥ وعشرة أيام فى السودان ١٩٢٧ وتراجم مصرية وغربية ١٩٢٩ وولدى ١٩٣١ ، وثورة الأدب ١٩٣٣ ومذكرات فى السياسة المصرية ١٩٥١ ، ١٩٥٣ وصدر الجزء الثالث بعد رحيله سنة ١٩٧٨ ، ولعل آخر كتبه قبل الرحيل هو (هكذا خلقت) سنة ١٩٥٥ ، وعام ١٩٦٤ صدر كتابه (الإيمان والمعرفة والفلسفة) ثم قصص مصرية سنة ١٩٦٧ .

آراء متفرقة

وتكتمل الصورة العامة بعدد من آرائه نشرها متفرقة هنا وهناك . .

قال في موضوع الفن للفن والفن للحياة . .

التفريق بين الفن للفن والفن للحياة ليس مستطاعا فالفن مظهر من مظاهر الحياة فلا يمكن أن تصوره مستقلا عنها لا يستلهمها ولا يوجهها لكنه لا يتصل بالحياة الإنسانية وحدها بل يتصل بحياة الوجود كله فالطبيعة الصامتة والمطر والبرق والرعد والطير والحيوان هذه كلها وسائر مظاهر الطبيعة تفسح أمام الفنان السبيل ليأخذ منها ما يزيد فيه حياة وسموا وما يجعله جديرا بالبقاء .

وقال في حرية الفكر وحرية التعبير .

إن أقل ما نطمح فيه أن تكون حرية البحث العلمى والاجتهاد الدينى القائم على تسامح الشريعة الغراء أمرا مقروا بحيث لا يضار أحد من ورائها ولا يترتب على مخالفة إنسان لغيره فى رأى أن يصاب بأذى أو يعتدى على حقوقه .

وقال عن تطور الحياة وتجدها .

(إن كل ما تحت الشمس جديد لأنه دائم التجدد . وكل إنسان منا جديد وهو كل يوم متجدد وكلما ازداد بما حوله من صور الحياة امتزاجا ازداد بهذا الامتزاج حياة وازداد بذلك تجدها) .

لم نكن إذنا أمام رجل واحد له نشاط واحد كنا مع الأديب الروائى والأديب القاص مع الكاتب والصحفى مع المحامى مع عضو مجلس الشيوخ ورئيس المجلس وزعيم المعارضة مع الوزير مع السياسى الحزبى ورئيس الحزب مع الكاتب الإسلامى والناقد الأدبى مع (جنى) عذب الروح لذيذ الحديث . . مع هؤلاء جميعا فى شخص الدكتور محمد حسين هيكل .

ونترك أستاذنا الدكتور « مهدى علام » يحتتم مقالنا هذا بقوله :

(أقرر أن هذا الرجل العظيم كان فى ميدان القصة الرائد الأول وكان فى النقد الأدبى قريبا من القمة وكان فى السياسة من الذين خلطوا عملا صالحا بأخر سيئ) .

الأسانيد :

١ - أنور الجندى . . الصحافة السياسية فى مصر .

٢ - الثقافة (مجلة) عدد يناير ١٩٨٢ . دكتور محمد حسين هيكل فى ذكره الخامسة والعشرين .

٣ - فؤاد كرم . . النظارات والوزارات .

٤ - د . محمد أبو الأنوار ال . . حوار الأدبى .

٥ - محمد حسين هيكل . . مذكرات فى السياسة المصرية .

محمد فهمى عبد المجيد



كان التاريخ - ولم يزل - هو تاريخ الأسماء اللامعة من الملوك والحكام والرؤساء والسلطين والقادة والزعماء . مصر القديمة معروفة لدينا بأسماء الفراعنة بداية من الملك مينا موحد القطرين . . ولكن من منا يعرف شيئا عن أبطال من قلب شعب مصر ربما بدّلوا أكثر مما بدّل الملك مينا ١٩ .

والعصر اليونانى الرومانى معروف لدينا بأسماء الحكام من (الخواجات) ولا أحد يعرف شيئا عن أبطال مصر الذين قاوموا مظالم تلك الحقبة . . فيما عدا شهداء مصر الذين دافعوا عن عقيدتهم فى مواجهة القهر الأجنبى حتى جاء الفتح العربى بقيادة « عمرو بن العاص » ورد لهم حرياتهم وطمأنهم على حرية الاعتقاد . .

ورمز الفتح الإسلامى لمصر . . تعرف أمراء المؤمنين وتعرف أسماء الولاة على مصر . . وأما الأبطال من شعب مصر فربما تعرف عنهم النذر القليل .

وبدأ اتجاه جديد ، ولو فى حدود ، وأصبحنا عندما نتحدث عن ثورات مصر فى العصر الحديث . . نتحدث عن عبد الله النديم ومحمود سامى البارودى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمد عبيد ، عندما نتحدث عن أحمد عرابى ، ويحيى ذكر على فهمى كامل وعبد العزيز جارش وإسماعيل لبيب وعبد الملك حمزة وفؤاد سليم عندما نتحدث عن « مصطفى كامل » ونتحدث عن « عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وعلى ماهر ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد وعبد الرحمن فهمى ومصطفى النحاس وواصف غالى » عندما يجرى ذكر « سعد زغلول » وهكذا . . هذه الأسماء كلها من الصف الأول أو الصف الثانى حول هذا الزعيم أو ذاك . . ولكن أين

أبناء الشعب الذين بقوا في الظل على الرغم من أنهم واجهوا الظلم وبذلوا التضحيات ودفعوا الثمن دون أن تكون لأسائهم بعض البريق !

في ثورة أحمد عرابي مثلاً سمعت عن بطولة ضابط بوليس في أسبوط وكان في منصب (وكيل المديرية) أو ما يشبه ذلك حسباً تروى الروايات واسمه « سرور » هكذا قيل لي . . وكان مدير المديرية اسمه « مراد باشا » ضابط البوليس العظيم « سرور » قاد في شوارع أسبوط تظاهرة وطنية تتهف ضد الاحتلال الزاحف على بر مصر ، وتهتف ضد الخديو توفيق ، وتهتف باستقلال مصر . . وبعد انكسار الثورة العرابية قبضت عليه سلطات الاحتلال ولا يدرى أحد ماذا كان مصيره . . ومنذ زمن وأنا أجرى وراء قصة البطولة هذه . . وأرجو أن أوفق .

وفي ثورة ١٩١٩ كان « سعد » هو الزعيم وكتبنا عنه وكتب الكثيرون ، وهناك « عبد الرحمن فهمي » قائد الجهاز السري للثورة وهناك أيضاً الضابط (محمد كامل) الوطني الذي حكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص في أسبوط . . هذا البطل ألا يستحق الكتابة عنه .

وفي حركة الطلاب سنة ١٩٣٥ مازلنا نذكر أسماء « الدكتور محمد بلال والمهندس إبراهيم شكرى والدكتور عبد اللطيف جوهر والدكتور نور الدين طراف » . . متعهم الله بالصحة ونذكر أيضاً « الدكتور رشوان فهمي » عليه رحمة الله . . ولكن لماذا لم نعد نذكر « عبد الحكم » و« على طه عفيفي » ابن دار العلوم الذي لقي مصرعه برصاصة غادرة . .

من أجل هذا أكتب هذه الحلقة عن « محمد فهمي عبد المجيد » كمواطن بسيط من أبناء الشعب تحدى القصر وأسهم في المؤسسات الاجتماعية . .

في عام ١٩١٠ فكر لفيف من أهل الإسكندرية في إنشاء جمعية خيرية لمواجهة الأزمة الاقتصادية التي عصفت في تلك السنوات الكادحة وأطلقوا على هذه الجمعية اسم « المواساة » وكانت المجموعة التي أسست الجمعية تتكون من محمد مالك ومحمد الجبال ومحمد فهمي عبد المجيد وحسين فهمي وعبد الرازق أبو الخير وهؤلاء جميعاً كانوا من أبناء الشعب البسطاء ، ولم نعرف منهم سوى « حسين فهمي » الذي أصبح رئيساً لمجلس الإنتاج فيما بعد وامتدت أعمال الجمعية إلى مساعدة الطلاب الفقراء في التعليم ، وإلى مساعدة الفتيات عند الزواج وتولى نفقات دفن الموتى من الفقراء . .

وسنة ١٩٢٦ أصبح رئيساً للجمعية « إبراهيم أحمد » عضو مجلس الشيوخ ، وأصبح « محمد فهمي عبد المجيد » وكيلها وأنشأت الجمعية لها عمارة معاونة شركة التعاون المنزلى لموظفي الحكومة ، ومعاونة نادي موظفي الحكومة .

وفى أواخر عام ١٩٢٩ اتفقت آراء « محمد فهمى عبد المجيد » والدكتور محمود على تخصيص قسم كبير لمعالجة الفقراء مجاناً . وفى منتصف عام ١٩٣٠ وافقت بلدية الإسكندرية على أن تبيع للجمعية قطعة أرض مساحتها حوالى ١٨ ألف متر مربع بقيمة مخفضة . ووضع الدكتور « النقيب » تصميم مشروع المستشفى . وعرضت الجمعية المشروع على الأمير « عمر طوسون » راعى جمعية المواساة وتوفر للجمعية فى المدة من ١٩٣٢ - ١٩٣٥ ربع مليون جنيه شيد به المستشفى .

وفى أوائل سنة ١٩٣١ والمستشفى فى مرحلة التشييد أوفدت الجمعية « الدكتور النقيب » عضو مجلس إدارة الجمعية إلى أوروبا حيث زار مستشفيات إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وبعد أن عاد أوصى بتشيد مستشفى (مارتن لوثر) ببرلين نموذجاً لمستشفى المواساة ووافق مجلس إدارة جمعية المواساة واستدعى المهندس الإخصائى الذى قام بتشيد مستشفى (مارتن لوثر) ببرلين وهو « أرنيست كوب » الذى حضر إلى الإسكندرية فى ٢٠ يوليو وعاین الأرض وعاد إلى برلين ليضع التصميمات الهندسية للمستشفى وسافر « محمد فهمى عبد المجيد » ومحمد سعيد جمعى « إلى برلين لمعاينة مستشفى مارتن لوثر . وفى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١ عاد « كوب » إلى الإسكندرية وعرض على الجمعية الأعمال الفنية والهندسية .

وفى ٢٢ نوفمبر ١٩٣١ أعلنت الجمعية ، وهى تتكون من الشباب الراغب فى خدمة وطنه ، أعلنت عن مناقصة لإقامة مبانى المستشفى وفى ٧ يناير ١٩٣٢ تم فحص العطاءات المقدمة وتبين أن أقلها عطاء شركة أجنبية وعرضت الجمعية على المقاول المصرى التالى للشركة الأجنبية تخفيض عطاؤه ليكون أقل من عطاء الشركة الأجنبية ، ووافق المقاول المصرى وهو « محمد حسن العبد » مساهمة منه فى المشروع الوطنى الإنسانى . .

ولكن أحد كبار رجال القصر - لم تذكر المصادر اسمه - استدعى « محمد فهمى عبد المجيد » . . وكان قد أصبح رئيساً للجمعية وطلب منه أن يعطى العملية للمقاول المصرى الثانى - لم تذكر المصادر اسمه أيضاً - فرفض رئيس الجمعية هذا الأسلوب فى العمل وغادر القصر مغضوباً عليه من رجل قوى النفوذ ومقرب لأعلى رأس فى البلاد ، وبعدها رفض « الملك فؤاد » حضور حفلة وضع حجر الأساس الذى تقرر أن يكون فى مارس ١٩٣٢ وكان مشروع المستشفى يحمل اسم الملك فؤاد ، وكان أن ألغى محمد فهمى عبد المجيد حفلة وضع حجر الأساس وبدأ العمل بحماسة الشباب فى ١٥ مارس ١٩٣٢ ، وهذا يذكرنا بوضع مشروع القرش الذى قام به عدد من شباب مصر والذى تزعمه شاب مصرى وطنى أصبح زعيماً لجماعة مصر الفتاة وهو « أحمد حسين » .

سار العمل فى المستشفى تحت إشراف لجنة تنفيذية تكونت من « محمد فهمى عبد المجيد ،

والدكتور أحمد النقيب ، ومحمد سعيد الجميعة ، والمهندس أحمد المكي والدكتور محمد العقاد .

ولجأت الجمعية إلى أسلوب اليانصيب ، وإلى تبرعات المصريين واعترافا بفضل مصر أسهم الأجانب المقيمون في الإسكندرية بنصيب هام في التبرعات وساندت الصحافة الوطنية المشروع ووقفت أقلام كثيرة إلى جانب هؤلاء الشباب . . نذكر منهم أقلام «الدكتور طه حسين ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والأستاذ فكري أباطة» . .

وفي مارس ١٩٣٣ أخذت الجمعية قرضا من بنك مصر بضمان العمارة التي تملكها على أن يسدد على عشرة أقساط سنوية . وعندما تأخرت الجمعية في سداد القسط الأول في يونيو سنة ١٩٣٤ ، هدد بنك مصر للأسف الشديد تحت ضغط القصر الذي تأزمت الأمور بينه وبين الجمعية ، هدد بتنفيذ عقد السلفة الذي ينص على أنه في حالة عدم دفع أى قسط كاملا في ميعاده يصبح كامل باقى الأقساط مستحق الدفع فورا . وفوجئت الجمعية في ديسمبر ١٩٣٤ بتبني نزع ملكية العمارة المرهونة سدادا لكل الأقساط المتبقية وفي يناير ١٩٣٥ استمر « بنك مصر » في إجراءات نزع الملكية وأصر على بيع العمارة لإذلال الجمعية .

لجأت الجمعية أمام هذه المحاصرة من القصر الملكي ومن رجاله ومن بنك مصر إلى عمل يانصيب على العمارة ذاتها في يونيو ١٩٣٦ ربحت من ورائه الجمعية وسددت أقساطها .

وطلبت الجمعية من الحكومة قرضا وقد فرحت الجمعية عندما علمت أن الحكومة قررت تشكيل لجنة برئاسة « الدكتور محمد شاهين » لدراسة الموضوع ولكن « الدكتور محمد شاهين » الطبيب الخاص للملك فؤاد وضع شروطا تؤدي لإدخال المشروع تحت وصاية مصلحة الصحة . فرفضت الجمعية ومضت في طريقها متحدية كل المعوقات التي وضعها القصر ، وبنك مصر ، وطبيب الملك ، ورجال الملك من الساسة .

عناصر وطنية

وإذا وجدت عناصر في الساحة السياسية تأتمر بأمر القصر وبأمر رجال القصر ، فقد وجدت أيضا عناصر تلتزم جادة الصواب وتسلك سبيل الموضوعية ففى وزارة « توفيق نسيم » ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ - ٣٠ يناير ١٩٣٦ كان « أحمد عبد الوهاب » وزيرا للمالية فوقف إلى جانب الجمعية ، وقدم لها عام ١٩٣٥ سلفة مالية تسدد على عشر سنوات ابتداء من عام ١٩٣٧ ورد للجمعية ما سبق أن دفعته من ثمن الأرض التي أقيم عليها المستشفى .

وتمكنت الجمعية من استكمال جميع المعدات والأجهزة والأدوات وأصبح المستشفى معدا لأداء رسالته الإنسانية .

وفي نوفمبر ١٩٣٥ عرضت الجمعية على الملك فؤاد افتتاح المستشفى الذي يحمل اسمه ورفض الملك حضور حفل الافتتاح وبدأ العمل في المستشفى في أول نوفمبر ١٩٣٥ دون افتتاح رسمي وفي مواجهة موقف القصر من المستشفى تطوع عدد من الأطباء للعمل بالمستشفى دعماً لرسالتيه الإنسانية والوطنية .

وما إن علم بذلك الدكتور « محمد شاهين » طبيب خاص الملك ومدير عام الصحة العمومية حتى أصدر أمراً مفاجئاً بنقل «الدكتور أحمد النقيب » وكان جراحاً بالمستشفى الأميرى بالإسكندرية وله دور في مستشفى المواساة إلى مستشفى بورسعيد ! إلا أن الدكتور النقيب قدم استقالته وعينته الجمعية مديراً للمستشفى الذى أصبح يضارع أرقى المستشفيات الأجنبية ، وأخذ المصريون يدعمون المستشفى وانهاالت التبرعات وقد تبرع تاجر الأخشاب « أسعد باسيلي » بأول سيارة للعيادة الخارجية في حين أن الأمير «محمد على توفيق » رفض أن يتبرع بحجة ضيق ذات اليد

على ماهر

توفي الملك فؤاد في ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ وجاء الملك فاروق وكانت سياسة « أحمد حسنين » أن يقدم الملك الجديد في صورة محبة للشعب ، فوضع أحمد حسنين المستشفى تحت رعايته الخاصة وأقيمت حفلة لافتتاح المستشفى رسمياً في ١٢ نوفمبر ١٩٣٦ حضرها الملك فاروق وقدمت حكومة « مصطفى النحاس » عام ١٩٣٦ إعانة سنوية للمستشفى قدرها عشرون ألف جنيه . واستقرت الأمور في المستشفى وانصرفت الجمعية إلى أغراض أخرى كالعيادات الخارجية والمستوصفات وخاصة في الأحياء المزدهرة بالسكان وأقامت مسجداً أمام المستشفى . وأنشأت مدرسة للخدمة الاجتماعية التي تحولت فيما بعد إلى معهد للخدمة الاجتماعية وأحييت الجمعية (ملجأ الحرية) الذى أقيم بمناسبة ثورة ١٩١٩ .

ولكن « على ماهر » لم يكن راضياً عن كل هذا النشاط ورفض الملك فاروق بتأثير « على ماهر » مقابلة « محمد فهمى عبد المجيد » ليعرض عليه أمور الجمعية ونشاطها حتى أقيلت وزارة مصطفى النحاس التى ساندت الجمعية في ديسمبر سنة ١٩٣٧ وانضم « محمد فهمى عبد المجيد » إلى السعديين لصداقته للدكتور « أحمد ماهر » رئيس الهيئة السعدية واختير عضواً بمجلس النواب . وتوفي مدير عام الجمارك وتوقع الناس أن يعين « محمد فهمى عبد المجيد » مديراً عاماً للجمارك ، ويستقيل من عضوية مجلس النواب . وكان « محمد فهمى عبد المجيد » قد فضل أن يظل في مصلحة الجمارك عند انتهاء المدة القانونية المقررة لاختيار أحد المنصبين . . الوظيفة الحكومية أو عضوية مجلس النواب . . وكان ذلك في يونيو عام ١٩٣٨ . إلا أن على ماهر الذى جاء رئيساً

للوزراء فى أغسطس ١٩٣٩ ألغى منصب وكيل الجمرك فأحيل « عبد المجيد » إلى المعاش قبل السن القانونية بـ ١١ عاما إذ إنه من مواليد ١٨٩٠ . .

مصطفى النحاس

ونعود إلى الوراء قليلا إلى سنة ١٩٣٧ حيث بدأ خلاف بين رئيس الجمعية « محمد فهمى عبد المجيد » وبين مدير المستشفى « الدكتور أحمد النقيب » وبدأ الدكتور النقيب يتقرب إلى القصر على حساب رئيس الجمعية . حتى غضب الملك فاروق على « محمد فهمى عبد المجيد » وعندما دعى الملك فى ٦ أكتوبر ١٩٣٨ لحضور الحفلة الخيرية السنوية للجمعية اشترط أن يلقي الدكتور النقيب كلمة الجمعية بدلا من رئيسها عبد المجيد . وفوجئ « على ماهر » رئيس الديوان بأن « محمد فهمى عبد المجيد » نفذ تهديده ولم يحضر الحفلة لاستقبال الملك . وفى اليوم التالى استدعى على ماهر « محمد فهمى عبد المجيد » إلى مكتبه بالقصر وأبلغه إقالته من جمعية المواساة ومن جميع مؤسساتها الخيرية . وعين « حسين فهمى » رئيس مجلس الإنتاج القومى السابق - رئيسا للجمعية .

واستولى الملك فاروق على المستشفى وخصص له فيه جناحا لا للعلاج بل للهوى ، وفى ٧ أكتوبر ١٩٣٨ أقيل محمد فهمى عبد المجيد من جمعية المواساة التى أسسها . وفى ١٩ أغسطس ١٩٣٩ ألغى « على ماهر » منصبة فى الجمرك . . هكذا كان موقف « على ماهر » من رجل وطنى بسيط أظهر حماسه فى خدمة أهله البسطاء ورحل « فهمى » حزينا فى يناير ١٩٤٣ .

ولكن « مصطفى النحاس » سنة ١٩٤٣ قرر تعليم أولاد « محمد فهمى عبد المجيد » على حساب الحكومة وقرر التصالح فى القضية التى رفعها « عبد المجيد » لإلغاء وظيفته وكان قرار التصالح بما يحقق مصلحة « عبد المجيد » وقررت بلدية الإسكندرية إطلاق اسمه على الشارع المؤدى إلى مستشفى المواساة وقرر مجلس جمعية المواساة وضع تمثال نصفى للمرحوم « فهمى » فى البهو الكبير بالمستشفى .

وأخيرا هل قدر علينا فى مصر أن نحارب الكفاءات المخلصة بالحقد والدس والوقية ؟ وهل هذا جزء الذين يقفون ضد القصر وضد رجال القصر ؟ وهل هذا جزء الوطنيين المخلصين ؟

هل تريدون معرفة كيف اكتملت مأساة « محمد فهمى عبد المجيد » بعد وفاته بأربعة وأربعين عاما . . أقول لكم . . كنت قد انتهيت من جمع مادة هذا الموضوع وإذ بى أقرأ فى (جريدة الشعب) الثلاثاء ٢٥ أغسطس ١٩٨٧ تحت عنوان (سرقة قبر والد . د . عصمت عبد المجيد)

كتشف د . عصمت عبد المجيد نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية سرقة قبر والده المرحوم محمد فهمى عبد المجيد - الكائن بمدافن المنارة بباب شرق الإسكندرية وذلك خلال توجهه يوم الجمعة الماضى لزيارة القبر بعد حضوره الندوة التى أقامتها نقابة الصحفيين بالإسكندرية . .

واتضح أنه أقيم قبران بدلا منه لشخصيتين كبيرتين بالإسكندرية إحداهما تعمل بالمحافظة والأخرى بالرقابة الإدارية . وكان «التربى» قد فجر مفاجأة حينما أخبر وزير الخارجية أن قبر والده أزيل بقرار من المحافظة . اتصل د . عصمت عبد المجيد بالمحافظ وبمدير الأمن للاستعلام منهما عن سبب الإزالة ، وتوجه إلى قسم باب شرق وحرر محضرا بالواقعة . ولا تعقيب لنا فنحن هنا نكتب تاريخ رجال من مصر ونترك التعقيب للدكتور أحمد عصمت محمد فهمى عبد المجيد وشهرته «الدكتور عصمت عبد المجيد ابن رجل من مصر هو «محمد فهمى عبد المجيد» . .

الأسانيد:

- ١ - أحمد أحمد ترك . . صورة رسالة إلى الأستاذ صلاح منتصر .
- ٢ - الشعب (جريدة) ٢٥ أغسطس ١٩٨٧ .
- ٣ - صلاح منتصر . . الأهرام ١٤ ، ١٥ يناير ١٩٨٧ .
- ٤ - محمد سعيد جمعى . . بطل المواساة دار لوران ١٩٦٠ .

الدكتور محمد كامل حسين



مع مولد القرن العشرين كان مولده سنة ١٩٠١ في سبك الضحاك بالمنوفية . كان الأول على دفعته في البكالوريا من مدرسة (الإلهامية) بالقاهرة ، وكان الأول على دفعته في مدرسة الطب سنة ١٩٢٣ ، وكان أول مصري يجمع بين زمالة كلية الجراحين وماجستير جراحة العظام سنة ١٩٣١ . كان أول وربما آخر من حصل على جائزتي الآداب والعلوم ، وكان أول مدير لجامعة إبراهيم (عين شمس فيما بعد) ، وقدر له بعد رحيله أن يكون أول عضو في مجمع اللغة العربية تدور حوله وحول أعماله مسابقة للمجمع عن عام ١٩٧٧ - ١٩٧٨ .

هذا (الأول) في أنشطة كثيرة توفي والده وهو طفل رضيع ، ونشأة كهذه كان يمكن أن تجعله يقبل على الحياة ليأخذ منها كل شيء ، وكان يمكن أن تجعله منكسرا منعزلا يسير إلى جوار الجدار . ولكنه نشأ سويا وإن كان قد أثر ألا يرتبط بزوجة في مشوار الحياة ، وأخوه الذي يكبره لم يتزوج أيضا .

هذا الذي تفوق في دراسته شارك في مواكب ثورة ١٩١٩ .

تخرج في مدرسة الطب سنة ١٩٢٣ ، وبعدها سافر في بعثة عامة سنة ١٩٢٥ وعاد من لندن سنة ١٩٢٩ زميلا بكلية الجراحين الملكية . ولكن « الدكتور على باشا إبراهيم » أعاده إلى إنجلترا مرة أخرى ليحصل على الماجستير في جراحة العظام سنة ١٩٣١ .

وهذا الذي تميز بدراسته اللغوية ، وبدراساته الفكرية ، وبإبداعه الأدبي كان متميزا أيضا فيما تخصص فيه من فروع الطب وهو (جراحة العظام) . وفي أوائل الأربعينات ، وعندما أصيب « الملك فاروق » في حادث سيارة عند (القصاصين) كان الفريق المعالج في مقدمته « على باشا إبراهيم ، وعبد الوهاب مورو ، وعبد الله الكاتب ، وعباس الكفراوي ، والطبيب الشاب محمد كامل حسين ، ومنح الملك رتبة الباشوية لمن لا يحمل هذه الرتبة من الأطباء المعالجين ، ورتبة

البكوية للدكتور محمد كامل حسين ، ولكنه لم يذكرها في حياته قط ولم يصفها إلى اسمه قط كما فعل الآخرون .

أخلاقياته وسلوكه

في بداية طرّيقنا ونحن نتحدث عن « الدكتور محمد كامل حسين » يحسن أن نبدأ بأخلاقياته وسلوكه ، فنحن ننظر إلى الرجل نظرة شاملة ، ولقد عكف صديقنا العزيز الطبيب والأديب الشاب « محمد محمد الجوادى » على تدوين سلوكيات « الدكتور محمد كامل حسين » وهو يكتب سيرته . . لم يكن الدكتور « محمد كامل حسين » يأخذ الناس بما أخذ به نفسه من جد وصرامة ولم تكن كتاباته عن الأخلاقيات والمثاليات والضمير وصفاء النفس إلا تعبيرا عما يمارسه في حياته . ولم يغضب إنسانا كائنا من كان ولا ذكره بسوء ولا صدرت عنه أية إساءة نحوه .

كان قليل الكلام ، شديد الاتزان ، عف اللسان ، هادئ الصوت ، رقيق الابتسامة ، زكى السميت والنفس والضمير رضى الخلق والشئال ولم يكن يطلب من الناس مالىس في إمكانيهم ، تميز أيضا بالهدوء النفسى وحبه للناس .

وشهد له تلاميذه وزملاؤه بالأمانة في عمله وبالمعاملة الإنسانية لمرضاه إلى درجة أن مرضاه تحولوا إلى أصدقاء له في مسيرة الحياة ، وعندما كان مديرا لجامعة عين شمس وتحولت خصومات أعضاء هيئة التدريس إلى نزاعات عاقت دوره العلمى لم يتردد في الاستقالة من إدارة الجامعة سنة ١٩٥٤ ، لم ييخل بعلمه على أحد وكره التعصب في الأديان . عرف عنه الاعتدال في كل الأمور ، في المأكل ، والملبس ، وفي الحياة عموما استقام سلوكه لم يدخن ولم يعرف الخمر ، ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا كعادة أهل الريف ، كان بارا بأهله وبعارفه لايفرط في صداقة أحد .

وليست مصادفة أن يعجب بأبى العلاء المعرى أعرق شعراء العرب تفكيراً وأصدقهم عاطفة وأحدهم ذكاء على حد تعبير «محمد كامل حسين » . وفي الشخصيات التى كتب عنها أبدى إعجابه باعتدال أحمد لطفى السيد ، وبعلمه وخلقه .

وأنت إذا طالعت عمله (الوادى المقدس) سرعان ماتدرك أن الأوصاف التى يسوقها إليك إنما هى الأوصاف التى يتحلى بها هو نفسه أو يحاول أن يتحلى بها . . من إيمان يؤمن به قويا خالصا لايشوبه شك ولايعتره ضعف . . وحيث يحتوى قلبه الحب العميق دون غل ودون حقد . . لايعتره قلق أو ندم ، يهتدى إلى الحكمة والتفكير المستقيم . . حيث آماله كلها خير ، وأحلامه كلها جميلة . . حيث تسمع صوت ضميرك صريحا واضحا أمرا بالخير في غير لبس ، هاديا إلى الحق في غير تردد .

ومن (الوادي المقدس) نقف على اعتقاد صاحب هذا العمل الهام . . فهو يرى الدين وسيلة الإنسان المثلى للاهتداء ، وهو شديد التسامح مع المعتقدات والأفكار التي لا يرضاه ولا يسلم بها ، وهو يرفض أن يكون الشر هو الأصل في الإنسان ، ويرى أن الخير هو الأصل ، ويرى أن أكثر الناس طبيون بطبيعتهم .

مجمع اللغة العربية

وأنقل بالقارئ من محمد كامل حسين جراح العظام إلى محمد كامل حسين جراح اللغة العربية إذا صح هذا التعبير يحاول أن يجبر مافيه من كسور حسب رؤيته . نحن الآن في سنة ١٩٥٢ ومحمد كامل حسين جراح العظام ينتخب عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية خلفا للمرحوم الأستاذ أحمد حافظ عوض .

وفي حفل استقبله حسب طقوس (الخالدين) قال عنه «الدكتور إبراهيم بيومي مذكور» - إنه عالم على أدق وأكمل ما يراد بهذا الوصف فهو يؤمن بالتجربة إيمانا لا يقل عن إيمانه بالعقل ، يؤمن بها لأنها سبيل كشف الحقيقة وكسب المعلومات . . . ويؤمن بالعقل إيمانا كاملا يريد العقل العلمي الذي يحلل ويعلل . . . وهو في نفسه فيلسوف بقدر ما هو عالم .

وكانت له آراء جريئة في لغة العرب نظر في قواعد (جنس العدد) في اللغة العربية وحسب أنها تفوق تفكير المتكلم فرأى أن تكون للعدد حالة واحدة دون نظر إلى تمييزه أي أن يستقل العدد عن معدوده والتسوية في العدد بين المذكر والمؤنث وذلك من باب التيسير والتسهيل . . . ورفض المجمع هذا الاقتراح مع تسجيل أن الدكتور كامل يتحرك من منطلق غيرته على اللغة العربية ورغبته في تيسير الحديث بها .

واهتم بموضوع (اللغة العلمية والمصطلحات العلمية) وهو هنا يفرق بين العلم ولغة الأدب ، اللغة العلمية ينبغي أن تطابق ، روح العلم ، وأن تكون ألفاظها محددة بعيدة عن المرادفات ، وأن تدل على الحقائق والوقائع ، ودعا إلى وضع المصطلحات العلمية وأن تكون هذه المصطلحات صورة حية لتطور العلوم .

ودخل في معارك مع زملائه اللغويين ، وذهب إلى أن (أخطاء اللغويين) أكثر الأخطاء الشائعة التي يتحدث عنها اللغويون وعنى بالدعوة إلى (دائرة معارف عربية) تساعد على توحيد المصطلحات وعلى تحديد المعنى الدقيق والمادة الدقيقة سواء للأشخاص أو الموضوعات . وكان من رأيه أيضا الاهتمام بها أسما (الفصحى المخففة) وهي وسط بين الفصحى وبين العامية وأشار إلى ضرورة وضع القواعد لها .

وقد أسهم « الدكتور محمد كامل » في أعمال المجمع مساهمة فعالة ، خاصة لجنة المصطلحات الطبية . وأسهم ببعض بحوث متعددة في موضوعات متباينة . . . في حقيقة أمر الفرزدق ، وفي القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية ، وفي اللغة والعلوم ، وفي أصول علم اللغة وفي أسلوب أبي العلاء المعري ، وفي أخطاء اللغويين ، وفي شعر المتنبي . وقد ظل عضواً بمجمع اللغة العربية حتى توفي في ٦ مارس ١٩٧٧ .

وفي سنة الرحيل أصدر آخر كتبه (اللغة العربية المعاصرة) الذي أودعه أفكاره الجريئة لتيسير اللغة العربية ، وهذا الكتاب موضع إعجاب زميله وصديق عمره « الدكتور حسين فوزي » والدكتور « محمد كامل حسين » يرفض العودة إلى ما يسميه الفصحى العالية فتكون كأهل الكهف الذين حسبوا أن عملتهم - وهى صحيحة غير زائفة - يمكن أن تروج ويقضون بها حوائجهم ، وتكون مثل علماء الحفائر ، علمهم له قيمته التاريخية ولكن لاضرورة للسير على منواله ، والذين يقصرون علمهم على ماعرفه القدماء مثلهم كمثل من يسير محمولا على عربة (كارو) وعلى بعد خطوات منه طريق واسعة تقطعها السيارة في دقائق والذين يستخدمون القواعد الجامدة مثلهم كمثل من يستخدم مغزل اليد وحوله الآلات التى تغزل آلاف الأمتار فى الساعة الواحدة . والذين يعتقدون أن كل مالا يرد فى المعاجم خطأ ، مثلهم كمثل الذى يدخل السجن طواعية واختياراً .

قرية ظالمه

إذا نظرت فى أية قائمة للكتب ، أو فى الفهارس تحت اسم « محمد كامل حسين » لوجدت أنه أنثر المكتبة العربية بعدد من الكتب . . . المتنوعات الجزء الأول سنة ١٩٥١ ، وبعده بسنوات عشر الجزء الثانى سنة ١٩٦١ . وفى هذين الجزأين جمع بحوثه ودراساته التى سبق له أن نشرها متفرقة . وبين هذين التاريخين ينشر أحد كتبه الخطيرة وهو (التحليل البيولوجى للتاريخ) سنة ١٩٥٧ ثم كتابه (وحدة المعرفة) وهو الموضوع الذى أدخله معركة مع عباس محمود العقاد ومع الدكتور زكى نجيب محمود . أما (الوادى المقدس) وهو قريب من التأملات الفلسفية فقد صدر سنة ١٩٦٨ ، وسنة ١٩٦٩ صدر له مختارات وهى فى واقع الأمر مختارات علمية ، وسنة ١٩٧١ صدر له كتابان هامان . . (الذكر الحكيم) وآخر أعماله (اللغة العربية المعاصرة) إلى جانب عديد من القصص القصيرة ذات العناوين المباشرة التى نشرها متفرقة فى دوريات مختلفة .

ويلاحظ القارئ أن هذه جميعها ليس من بينها العمل الذى ارتبط باسمه أو الذى ارتبط اسمه به وهو رواية (قرية ظالمه) التى صدرت له سنة ١٩٥٤ . ومن قبيل تداعى المعانى إذا ذكر أماننا اسم « الدكتور محمد كامل حسين » لتذكرنا أو ذكرنا رواية (قرية ظالمه) وهكذا عدد من كبار

أدبائنا .. توفيق الحكيم وعودة الروح .. طه حسين والأيام .. المنفلوطى والنظرات أو العبرات .. محمد حسين هيكل وزينب .. يحيى حقى وقنديل أم هاشم .. والأمثلة كثيرة يستطيع كل واحد منا أن يلحظها مع الأدباء الشعراء والفنانين عموما .

والقرية الظالمة هى (أورشليم) وماحدث من أهلها اليهود ومن حكامها الرومان مع « السيد المسيح » وحوارييه على النحو الذى هو شائع ومعروف وعلى النحو الذى هو مختلف عليه أيضا ، ولكن يبقى ما ليس حوله خلاف وهو أن اليهود منذ حوالى عشرين قرنا طغت على حياتهم مادية جشعة وأنهم ضاقوا بدعوة « السيد المسيح » إلى المحبة والسلام والتواضع . وضاق أغنيائهم بأن يقتسم كل من له ثوبان ملابسه مع آخر فقرروا أن يتخلصوا منه ، وأثاروا الجماهير بدعاوى لها مسحة الدين ، واخترقوا الحواريين وكان أحد التلاميذ عوننا لهم ، وأهاجوا الجماهير على الحاكم الرومانى . . ورغم كل ما يحدث تنتشر الدعوة الجديدة هنا وهناك . ولسنا بصدد تلخيص رواية (قرية ظالمة) ولسنا بصدد بيان أوجه النقد الفنى حولها ، ولكن حسبها وحسبه انهما أصبحتا كوجهى عملة واحدة هى عملة جيدة على كل حال . وتعدت شهرتها حدود مصر وأدخلت صاحبها فى عداد الأدباء إلى جانب ميادين أخرى كالطب وعلوم اللغة . أما آراؤه الفكرية والسياسية والفلسفية والتى شاعت فى ثنايا دراساته وبحوثه وما أصدره من كتب فسوف نعرض لها بعد قليل .

ثلاثة عقود

ثلاثة عقود من القرن العشرين تركت بصماتها واضحة على محمد كامل حسين وقد عرضنا أنه ولد مع مطلع القرن فى مارس ١٩٠١ وتوفى أيضا فى مارس (١٩٧٧) .

ولد مع بداية العقد الأول بسنواته السود التى مرت على مصر . وصلت الأزمة الاقتصادية إلى حد الجوع ، وانتشرت الأمراض فى البشر وفى الحيوانات على السواء ، وعبث جنود الاحتلال بمقدرات البلاد وحادثة دنشواى ١٩٠٦ دليل على ذلك . وتوفى والده وهو طفل رضيع وكفله أخوه « الصادق » الذى كان يقيم بالقاهرة . وعاش الاثنان على حب إلى أن فرق الموت بينهما . لم يتزوجا وعاشا مع أخت لهما مات زوجها وهى صغيرة . لعل سنوات العقد الأول بأزماتها الاقتصادية ، ولعل حرمانه من عطف الأب وإرشاده ، ولعل حب أخيه ورعايته له تركت آثارها على الفتى طوال حياته . كان محبا للناس ومواسيا لهم ، كان زاهدا فى بريق الدنيا معتدلا مستقيما ، بل لعلها هى التى دعت به إلى دراسة الطب فكان إنسانا طبيعيا ، وكان إنسانا يتسع قلبه لكل البشر حتى للذين يخالفونه الرأى والعقيدة ، ويحيىء العقد الثانى وإذ بالصبي ينتقل من المدرسة

الإبتدائية إلى المدرسة الإلهامية الثانوية ويحصل على البكالوريا ويدخل مدرسة الطب وهو في السنة الثانية وفي شهر (مارس) شهر مولده وشهر وفاته نشبت ثورة مصر القومية ويشارك فيها الشاب «محمد كامل حسين» وإذ بروحها القومية وروح التضحية والفداء ، روح الاندماج الوطنى تبقى معه حتى يوم رحيله ، كان وطنيا لاشك في هذا ، كان قوميا لاشك في هذا .

وفي أوائل العقد الثالث ، يتخرج في مدرسة الطب سنة ١٩٢٣ ، ويسافر في بعثة إلى لندن سنة ١٩٢٥ ، ويعود سنة ١٩٢٩ وهو زميل بكلية الجراحين الملكية . وهناك في أوروبا بين لندن وباريس تتفتح بصيرته على العلوم المادية ويقتنع بأساليب البحث العلمى ، ويقف على مذاهب الفلسفة التى تدعو إلى الشك ويعيش مع المجتمعات الأوروبية وهى تضطرم بمذاهب اجتماعية واقتصادية تدعو إلى الاشتراكية وإلى الشيوعية . يعود إلى بلده وإذ به يكتب ناقدا ورافضا للاشتراكية والشيوعية ، وتبقى في نفسه نزعة إنسانية أصيلة تدعو إلى المحبة والتكافل الاجتماعى ولكن داخل إطار إنسانى وبوسائل ترفض إهراق دم الإنسان ، وترفض إزهاق روحه . ولكن يبقى معه حتى يوم رحيله انفتاح على ثقافة الآخرين دون عقد ودون حساسية ودون تعصب .

جيل المعاناة

عندما أطلت النظر في حياة «الدكتور محمد كامل حسين» خطر لى أن أقوم بسرير سريع لجيله الذى ولد معه أو بعده فى العقد الذى ولد فيه وجدت أن مصر المحروسة قد أنجبت رجالا أعطوا لها كل ما يمكن فى حدود ما اتيح لهم من رؤية ومن جهد منهم من ذهب نطلب له الرحمة ومنهم من لم يزل على ظهرها ندعو له بالصحة والعافية والعطاء .

تأملوا معى الذين أعطوا - محمد خلف الله أحمد ، وحسين خلاف ، وبدر الدين أبو غازى ، والشيوخ عبد الرحمن تاج ، وعزيز أباطة ، ومراد كامل ، وأحمد عبده الشرباصى ، وأحمد عمار ، وعلى الجندى ، وإبراهيم أنيس ، وأحمد بدوى ، وأحمد حسن الباقورى ، ومحمد زكى عبد القادر ، وعلى النجدى ناصف . .

وإبراهيم بيومى مذكور ، ومحمد مهدى علام ، ومحمد توفيق الطويل ، ومحمود شاكر ، ومصطفى مرعى ، وسليمان حزين ، وشوقى ضيف ، وعبد السلام هارون ، وزكى نجيب محمود وغيرهم وغيرهم . . من جيل النهضة الفكرية والثقافية .

الأسانيد:

- ١ - لتحنى رضوان . . أفكار الكبار .
- ٢ - د . محمد كامل حسين . . التحليل البيولوجى للتاريخ .
- ٣ - د . محمد محمد الجوادى . . الدكتور محمد كامل حسين .
- ٤ - د . محمد مهدى علام . . المجمعين فى ٥٠ عاما .

الشيخ محمد مصطفى المراغى



رحل الأستاذ الإمام « محمد عبده » فى يوليو ١٩٠٥ وترك لمصر وللعالم الإسلامى ثروة من الرجال « الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ محمد شاكى ، والشيخ إبراهيم حروش ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ محمود شلتوت » واختزن الشيخ الإمام « محمد مصطفى المراغى » فى ضميره قول أستاذه « الإمام محمد عبده » إلى الخديو عباس حلمى الثانى - (إن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام وإصلاحه لإصلاح لجميع المسلمين) .

وعى « المراغى فى ذاكرته هذا القول وترسم منهاج أستاذه فى كل ما تولى من مناصب دينية ، فلم يتقيد بمذهب أبى حنيفة كما كان المتبع آنذاك ، وتزعم الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وتوحيد المذاهب حتى تتوحد الأمة . . هكذا كان وهو يعمل قاضيا لمديرية دنقلة ، وقاضيا لمديرية الخرطوم وقاضيا للقضاة بالسودان . . وهكذا كان وهو يعمل رئيسا للتفتيش الشرعى ، ورئيسا للمحكمة الابتدائية الشرعية ، ورئيسا للمحكمة العليا الشرعية فى مصر بعد أن عاد من السودان . . إلى أن جاء « مصطفى النحاس » رئيسا للوزراء (١٦ مارس - ٢٥ يونيه ١٩٢٨) وتمسك بتعيين « المراغى » شيخا للأزهر - على غير رغبة الملك فؤاد - فى ٢٣ مايو ١٩٢٨ . وهو أصغر من تولى هذا المنصب الجليل (ولد فى مارس ١٨٨١ م فى المراغة مركز طهطا مديرية سوهاج) وكان أصغر من حصل على (العالمية) - حصل عليها سنة ١٩٠٤ م - على يدى « الأستاذ الإمام محمد عبده » الذى رشحه فى السنة نفسها للعمل فى السودان . . وفى السودان تعلم اللغة الانجليزية واتسعت علاقاته بزملائه وأصدقائه السودانيين ، وتوثقت علاقاته بالحاكم العام للسودان وهو أنجليزى مع الحفاظ على جلال المنصب الذى يشغله ، ومع تمسكه بالقواعد الشرعية ، ومع حرصه على هبة شخصيته . . وعرف عنه الميل إلى الاعتدال ، والنفور من العنف

مع الاستقلال في اتخاذ القرار . . كل هذا بذكاء خارق جعل الانجليز يلتفتون منذ وقت مبكر - إلى الشيخ الذي يتمتع بقدر كبير من الذكاء والدهاء واستقلال الرأي والشخصية وتقرر أن يتولى منصب قاضى القضاة بالسودان (١٩٠٨ م) وعمره ٢٧ سنة فكان أصغر من تولى هذا المنصب . وقاضى القضاة منصب بالسودان كان يشغله مصرى ولكن الانجليز سنة ١٩٤٧ وبعد انتهاء مدة « الشيخ حسن مأمون » عينوا سودانيا في هذا المنصب رغبة منهم في إضعاف الصلة الدينية بين مصر والسودان ، وفي الوقت نفسه محاولة للإيقاع بين البلدين الشقيقين .

وعندما كان « الشيخ » قاضيا للقضاة بالسودان قامت الثورة الشعبية الكبرى مارس ١٩١٩ بمصر ، فأصدر « المراغى » نداء للمصريين بالسودان للتبرع المالى لإنقاذ منكوبى الثورة . وعلى الرغم من أن « الشيخ » لم يناشد السودانيون للتبرع فقد استاء الحاكم العام من هذه الخطوة السلمية والتي حصرت تحرك المصريين هناك في نطاق التبرع . وإن كانت بعض القطاعات السودانية تحركت بالفعل لتأييد الثورة المصرية . على أية حال فقد وصل المبلغ إلى ستة آلاف جنيه سلمه « المراغى » للأستاذ « محمد العشماوى » - الوزير محمد العشماوى باشا فيما بعد - والذي كان قاضيا مدنيا بالخرطوم ، ليقدمه بدوره إلى الجمعيات الخيرية الإسلامية والقبطية في مصر تتصرف فيه بمعرفتها . كان ذلك في شهر يونيه ١٩١٩ . وعاد « الشيخ » إلى مصر من السودان في شهر يوليو من السنة نفسها .

الشيخ وقضايا الخلافة

ونتوقف قليلا عند موعد عودة « الإمام » إلى مصر من السودان ريثما نتحدث عن مواقف هامة في تاريخ « الشيخ المراغى » قبل هذا التاريخ وبعده توضح حقيقة شخصيته وأبعاد علاقاته بالانجليز التي يكثر الحديث فيها أحيانا بمعزل عن ظروفها التاريخية وبمعزل عن أسلوب الإمام ومواقفه الأخرى .

كان من أثر الحرب التركية الإيطالية (١٩١١ - ١٩١٣) وتخاذل تركيا في تلك الحرب أن تزايد السخط بين العرب ضد الدولة العثمانية ، وأسس عدد من شباب العرب العسكريين والمدنيين (جمعية العهد) أكتوبر ١٩١٣ في مقدمتهم : « عزيز المصرى وجهيل المدفعى ، وطه الهاشمى ، ويوسف الغزاوى ، وسعيد التكريتى ، وصبيح نجيب ، وتحسين العسكرى ، ونورى السعيد ومصطفى وصفى ، ويحيى كاظم وتوفيق الجندى ، وأمين لطفى ، وعلى النشاشيبي ومزاحم الأمين ، وعبد الكريم الخليل وعاصم الحلبي ، وإسماعيل الطيب ، وأسعد داغر ، وفايق شاكر الطيب ، وثابت عبد النور » . وانضم غالبية هؤلاء - بمعاونة الإنجليز - إلى حركة « الشريف

حسين سنة ١٩١٥ ، وكان الانجليز يسعون إلى نقل (الخلافة) من الدولة العثمانية إلى « الشريف حسين » باعتباره قريشياً وخاصة أنه بعد سقوط (الطوائف) أعلن نفسه ملكاً في ٢٩ نوفمبر ١٩١٦ ولكن « الشيخ مصطفى المراغى » على الرغم من علاقته الوثيقة بالإنجليز ، وعلى الرغم من حرص الانجليز على الاحتفاظ بتلك العلاقة قوية ، على الرغم من هذا كله أعلن « المراغى » عدم شرعية نقلها للشريف حسين الخليف القوى للإنجليز في المنطقة أثناء الحرب العالمية الأولى . كان موقف « المراغى » هنا على غير رغبة الانجليز ، وعلى غير رغبة الحركة القومية العربية الصاعدة .

وفي ٣ مارس ١٩٢٤ ألغى « أتاتورك » الخلافة العثمانية ، ورغب الانجليز هذه المرة في أن يصبح « الملك أحمد فؤاد » خليفة للمسلمين . ووجدها الملك فرصة للتخلص من القيود المحدودة - التي يفرضها دستور ١٩٢٣ على سلطاته ، فرغب في الخلافة كانت سياسة أتاتورك الجريئة قد لقيت إعجاباً من عناصر وقطاعات كثيرة من الشعب المصرى ، ولكن عناصر هامة دافعت عن بقاء (الخلافة) كرابطة دينية . وعندما حاول « الشريف حسين » ملك الحجاز أن يأخذ البيعة لنفسه تذكر الناس ما كان قد أعلنه « الشيخ المراغى » من قبل ثم تحول الاتجاه العام بفعل الشعور القومى إلى أن تكون مصر مركز الخلافة .

وتكونت (الهيئة العلمية الدينية الإسلامية الكبرى) برئاسة « الشيخ «أبو» الفضل الجيزاوى » شيخ الجامع الأزهر وعضوية « الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ عبد الحميد البكرى ، والشيخ محمد شاكر » وعدد من الشيوخ والعلماء ومعهم عدد من المدنيين . . ونشط القصر في الدعاية والدعوة لهذه الهيئة ولتأليف لجان لها ، وتشجيع المجلة الشهرية التى أصدرتها الهيئة باسم (مجلة المؤتمر الإسلامى العام للخلافة فى مصر) .

إلا أن دور الانجليز المكشوف من هذه (المسألة الدينية) ومحاولة استغلالها لمصالحهم المعادية للحركة الوطنية ، والدور الواضح النشط الذى قام به « حسن نشأت » رجل القصر فى إنشاء اللجان الخاصة بالخلافة وشخصية الملك « أحمد فؤاد » وما أحاط بها من سلوكيات غير مقبولة لدى رأى العام المصرى ، هذه العناصر وغيرها كشفت عن الاتجاهات السياسية خلف هذه (المسألة الدينية) ورأى الوفد و « سعد زغلول » عدم تمكين « الملك فؤاد » من هذا الرداء الدينى الذى يمكن أن يستغله لزيادة سلطة القصر . وكان الملك لا يضمن تماماً تعاون حزب الأحرار الدستوريين معه ، فأسس القصر (حزب الاتحاد) والذى قام بالدور النشط فيه « حسن نشأت » الذى كان الدعاية للجان الخلافة . ومن هنا مال الأحرار الدستوريون إلى عدم زيادة سلطان « فؤاد » بالخلافة ، ووقف حزب الأحرار ووزرائه وقادته ومستنبروه وصحيفته إلى جانب « الشيخ

على عبد الرازق « عندما أصدر كتابه الشهير (الإسلام وأصول الحكم) عام ١٩٢٥ م . والكتاب كان موجها ضد رغبة الملك فؤاد في الخلافة . وتكاتف الوفديون والأحرار في الوقوف في وجه رغبة الملك ، وظهرت كتابات هامة تجزئ الموضوع إلى عنصرين . . وجوب الخلافة . . ومن يكون الخليفة ؟ والمعروف أن « الشيخ المراغى » كان مؤيدا قويا لحزب الأحرار الدستوريين وصديقا حميما لأحمد لطفى السيد مفكر الحزب . . وجاء رأى « المراغى » في مسألة الخلافة على وجوبها من الناحية الشرعية ، ولكنه ترك مسألة من يشغلها معلقة ، فأسر له الملك فؤاد هذا الموقف ولكن « المراغى » جاء شيخا للأزهر مرتين على غير رغبة الملك فؤاد وهذا ما سوف نفضله فيما بعد .

حزب الخلافة الإسلامية

وأفضل أن نستكمل مواقف « الشيخ » في مسألة الخلافة قبل أن نتحدث عن المشيختين الأولى والثانية للمراغى . وقد انتهينا إلى أن الحديث عن الخلافة أيام الملك فؤاد فتر لأسباب سياسية ودينية معا . . ولكن (جماعة مصر الفتاة) بزعامة « الأستاذ أحمد حسين » استمرت تنادى بزعامة مصر للبلاد الإسلامية ، وزادت من نشاطها أيام كان « المراغى » شيخا للأزهر للمرة الثانية لتفيد من أثر « الشيخ » على الملك فاروق ، وعبر « أحمد حسين » عن هذا الاتجاه في خطاب إلى الملك فاروق في فبراير ١٩٣٨ على صفحات مجلة (مصر الفتاة) وتبلور الاتجاه إلى دعوة لتأسيس (حزب الخلافة الإسلامية) يعمل على جمع كافة المسلمين والالتفاف حول (ملكنا الصالح خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاروق الأول) كما جاء في الدعوة إلى اجتماع لهذا الغرض يعقد في الساعة الثانية بعد الظهر بالجامع الأزهر يوم الجمعة ٢٣ أغسطس ١٩٤٠ م . ووقع هذا البيان « محمد مصطفى المراغى » ومحمد حسن الفحام ، وعبد المجيد سليم ، وعباس مشالى ، وإبراهيم حمروش ، ومأمون الشناوى . وإبراهيم الجبائى وسليمان نوار ، وعبد الجليل عيسى ، وعبد الرحمن عزام ، والحسينى سلطان ، وأمين الشيخ ومصطفى عنانى ، وعبد الحميد بصيلة وأحمد شاکر ، وسعد اللبان ، وأحمد حسين وعزيز المصرى ، وعلى ماهر» وواضح من الأسماء التى دعت لذلك الحزب أنها أسماء سياسية في غالبيتها وإن الدعوة سياسية في المقام الأول لمواجهة الانجليز . ولم يظهر دور واضح لجماعة (الإخوان المسلمين) لتكوين ذلك الحزب ، وسرعان ما فترت الدعوة له وإزاء ذلك بادر « أحمد حسين » بتغيير اسم (مصر الفتاة) إلى (الحزب الوطنى الإسلامى) في مارس ١٩٤٠ . وعرض تعديلا لبرنامج (مصر الفتاة) وأبرز الجانب الإسلامى على ما عده . وازداد التقارب بين الملك فاروق وجماعة مصر الفتاة عن طريق « محمد كامل البندارى » وكيل الديوان الملكى وقت ذلك - الباشا الأحمر فيما بعد - وكان صديقا حميما للأستاذ « أحمد حسين » .

المراغى شيخا للأزهر

عاد « المراغى » قاضى قضاة السودان إلى مصر فى يوليو ١٩١٩ ، وتنقل فى عدة مناصب . . رئيس التفتيش الشرعى بوزارة الحقانية ، ورئيس محكمة مصر الابتدائية الشرعية ، وعضو المحكمة العليا الشرعية ، ورئيس المحكمة العليا الشرعية . . وكان فى هذه المناصب جميعا أصغر من تولاها .

ونحن الآن فى عهد وزارة « مصطفى النحاس » الأولى من ١٦ مارس - ٢٥ يونيه ١٩٢٨ . وهى وزارة ائتلافية بين الوفد والأحرار الدستوريين . والشيخ المراغى مؤيد للأحرار الدستوريين ، وصديق حميم لمحمد محمود ، ولم يكن قد ظهر عداء بعد بين « الشيخ » والوفد . والملك « أحمد فؤاد » لم يزل يذكر موقف الشيخ فى تأييده للخلافة وتجنب الحديث عن تولاها . وفى يوليو ١٩٢٧ توفى شيخ الأزهر « الشيخ الإمام محمد أبو الفضل الجيزاوى » وظل المنصب شاغرا حتى تولى « مصطفى النحاس » رئاسة الوزارة ، ورشح الملك فؤاد « الشيخ الظواهرى » ورفض « النحاس » مرشح الملك ، واقترح « محمد محمود » وزير المالية فى وزارة النحاس الائتلافية اسم « المراغى » وأصبح بذلك مرشحا للوزارة الائتلافية ورفض الملك . فأصر « النحاس » على تعيين « الشيخ محمد مصطفى المراغى » شيخا للأزهر ، وعلى تعيين « الشيخ عبد المجيد سليم » مفتيا للدار المصرية فى ٢٣ مايو ١٩٢٨ . وبعد شهر انفرط عقد الائتلاف وأقيمت الوزارة بفعل دسائس « على ماهر » وشكل « محمد محمود » وزارته الائتلافية الأولى بدون الوفد (٢٥ يونيه ١٩٢٨) وكان « المراغى » أصغر من تولى مشيخة الأزهر (٤٧ عاما) وتسانده حكومة حزب الأحرار ، ويؤيده تيار الإصلاح داخل الأزهر وشكل لجنة للإصلاح برأسته انتهت من بحوثها فى سبتمبر . وأقرت وزارة « محمد محمود » هذه الاقتراحات . وبدأ المراغى فى تنفيذ مشروعه قبل أن يصدر قانون به فألغى مدرسة القضاء الشرعى . . وكان من بين الاقتراحات إلغاء دار العلوم ، وفتح باب الاجتهاد وإدخال العلوم الحديثة . . وأدرك « المراغى » بذكائه الخارق ان الوزارة تتباطأ فى استصدار القوانين تجنبا لصدام مع الملك الذى لم يرض عن (مشروع المراغى) وتحت إصرار المراغى أقرت الوزارة المشروع . ورفض الملك المشروع فى اليوم الأخير للوزارة . وقدم المراغى استقالته وأصر عليها قبلها محمد محمود يوم استقالة الوزارة أيضا (٢ أكتوبر ١٩٢٩) وكان من الطبيعى أن يخلفه « الشيخ الإمام محمد الظواهرى » فى ١٠ أكتوبر ١٩٢٩ .

وظل « المراغى » بعيدا عن الأزهر قرابة خمس سنوات ، ولكن ما أعظم أن يكون (المصلح) مطلوبوا لا طالبا . . خرج الأزهر ينادى (بالمراغى) وألح فى النداء ولكن الرد كان فصل ٧٢ من شيوخه وعلمائه . . منهم « الشيخ إبراهيم اللقانى ، والشيخ عبد الجليل عيسى ، والشيخ

شلتوت ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز والشيخ على سرور والزنكلوني . ومع بداية وزارة «توفيق نسيم» - ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ إلى ٣ يناير ١٩٣٦ ، وكان الوفد يؤيدها لأنه أعلن عن عزمه على إعادة العمل بدستور ١٩٢٣ ، بدأ شباب الأزهر حركة أعلى صوتا تطالب بالإصلاح ، وامتدت الحركة إلى معاهد المدن الأخرى ، وتصاعدت الحركة حتى يناير ١٩٣٥ . . وفي فبراير بلغت الحركة ذروتها وتحدد هدفها في عودة (المراغى) وأطلق زعيم هذه الحركة « الشيخ أحمد حسن الباقورى » عبارته الشهيرة : (إما تحت راية المراغى ، وإما إلى القرى تاركين الأزهر للبوم والغربان) . . ولكن « الشيخ الظواهري » في ١٨ فبراير ١٩٣٥ أصدر قرارا بفصل « الشيخ الباقورى » والشيخ محمد المدنى وقرارا بنقل عدد كبير من العلماء مثل : « الشيخ محبى الدين عبد الحميد ، والشيخ الظواهري » ذى استقال في ٢٧ أبريل ١٩٣٥ ، وعاد « الشيخ المراغى » شيخا للأزهر وعاد المفصولون والمتقولون « وبقي في منصبه عشر سنوات حتى توفى في ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ .

اعلن الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد ، وتوحيد المذاهب حتى تتوحد الأمة .

ودارت بينه وبين « أغاخان » سنة ١٩٣٨ م محادثات بهدف تكوين هيئة للبحث الدينى تستهدف التضامن بين الهيئات التعليمية في العالم الإسلامى ، والعمل على تبسيط قواعد الدين وتعاليمه ، ومحاولة التوفيق بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتأكيد الروابط فيما بينهم ، وألف لجانا لدراسة قوانين الأزهر والعمل على إصلاحها ، وأنشأ مراقبة للبحوث والثقافة الإسلامية تختص بالنشر والترجمة والعلاقات الإسلامية .

وفي مذكراته الاجتماعية والسياسية يسجل « محمد على علوبة » إنه بعد أن اختير وزيرا للمعارف في وزارة على ماهر (٣٠ يناير ١٩٣٦) عرض على الملك فؤاد ضرورة ترجمة القرآن الكريم فقال له إن شيخ الأزهر الشيخ مصطفى المراغى كان قد عرض عليه الفكرة وإنه لم يقبلها اتقاء بمجاهرة بعض رجال الأزهر بمخالفة هذا العمل للدين ، وطلب الملك من علوبة أن يذهب ويتفق في هذا الشأن مع الشيخ المراغى ، وهذا يبين أن الملك «فؤاد» كان يعمل حسابا للشيخ المراغى حتى ولو لم يكن يميل إليه . كان المراغى أميناً في عمله فبعد أن اختير بالمجمع اللغوى سنة ١٩٤٠ وجد أنه مثقل بالأعمال فاستقال سنة ١٩٤٢ .

الناقة والجمل

وعلى عكس علاقة الشيخ بالملك فؤاد ، كانت علاقته وثيقة بالملك فاروق واعتاد على أن يلقى دروسا في المساجد في رمضان ويوم ١٩ سبتمبر ١٩٤١ كان يخطب الجمعة في (جامع بيبس) والملك فاروق حاضرا يستمع ، وفي اليوم السابق وقعت غارة على القاهرة راح ضحيتها ٣٩ قتيلاً و٣٣ جريحا . وعبر « الشيخ » عن مشاعر غالبية الشعب في عدم الاشتراك في الحرب بقوله المشهور

(حرب لاناقة لنا فيها ولاجل) وكان « حسين سرى ، رئيسا للوزراء للمرة الثالثة ، وغضب الانجليز . وبعد أن أعيت الحيلة حسين سرى في حوار مع الشيخ قال سرى للمراغى : هذا كلام فى السياسة وليس من اختصاصك ، وليس لك أن تتكلم فى أمور تخصنا . . فقال المراغى : إننى لا أتكلم فى السياسة . . وأخذ ورقة وكتب استقالته التى لم تقبل .

وكان موقف « الشيخ » فى هذه المسألة يتفق وموقف الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى والقصر . أما الوفد فقد ركز على مطالب محددة هى أن تتعهد انجلترا بانسحاب قواتها بمجرد عقد الصلح وبإعادة النظر فى المعاهدة . وطوال عهد حكومة الوفد (فبراير ١٩٤٢ - أكتوبر ١٩٤٤) لم يفكر الوفد فى إعلان الحرب ضد المحور وركز على مطالبه السابقة . كان السعديون بزعامة « أحمد ماهر » ينادون فى صراحة بالاشتراك فى الحرب ، وقد دفع « أحمد ماهر » حياته ثمنا لهذا الاشتراك مساء يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٥ . وفى السنة نفسها فى ٢٢ أغسطس توفى « الشيخ الإمام محمد مصطفى المراغى » تاركاً ما يتفق ويختلف حوله الناس . . شأنه شأن كل رجل عظيم .

الأسانيد :

- ١- د. السعدى فرهود وآخرون . . الأزهر الشريف .
- ٢- أنور الجندى . . الإمام المراغى .
- ٣- حسن يوسف . . مذكرات .
- ٤- طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .
- ٥- عباس محمود العقاد . . محمد عبده .
- ٦- د. عبد المنعم النمر . . الأخبار ٢٨ / ٤ / ١٩٨٨ .
- ٧- د. على شلى . . مصر الفتاة .
- ٨- محمد على علوبة . . ذكريات اجتماعية وسياسية

محمد محمود



هذا الرجل من الصعيد . . ولعل بهذه العبارة أرضى رغبة الدكتور بجامعة سوهاج ورائد الشباب بكلية التربية الذى تفضل برسالة لى يقترح فيها إعداد سلسلة خاصة تحت عنوان (هذا الرجل من الصعيد) لتكون مقصورة على أهل السياسة وإنما تتناول المنسيين مثل محمد عبد المطلب شاعر البادية (سوهاج) والشاعر على الجندى عميد دار العلوم (سوهاج) والشيخ حسنين مخلوف المفتى الأسبق (بنى عدى وغيرهم ، وذلك لمواجهة ما أسماه بالزيف الذى يمارس ضد الصعايدة ممثلا فى الإسقاط الذى يقوم باسم الفن) .

وزيادة فى اغرائى يذكر الدكتور الصعيدى أن هذه مجموعة من مثقفى الصعيد وقد سبق هذه الرسالة رسائل أخرى . ويبدو أن أهلنا فى الصعيد لديهم قدر زائد من الحماسة لصعيديتهم - ربما لمواجهة الفن الزائف الذى يمارس ضدهم - يكفى أن اذكر ان « محمد محمود » هو الوحيد من بين قادة الأحرار الدستوريين الذى نجح فى انتخابات يناير ١٩٢٤ أمام مرشحى سعد زغلول ويكفى أن أذكر أننا ونحن صغار كنا نردد على لسان محمد محمود قولاً ينسب إليه (أنا ابن من عرض عليه الملك فأبى) إشارة إلى أن الانجليز بعد إعلان الحماية على مصر مع نشوب الحرب العالمية الأولى ومنع الخديو عباس حلمى من العودة إلى مصر اتجهت انظارهم إلى « محمود باشا سليمان » والد « محمد محمود » لتنصيبه سلطاناً على مصر فأبى .

محمود سليمان

وإذا كان الحديث عن الوالد يسبق الحديث عن الولد ، أذكر أننا ونحن تلاميذ فى مدينة «أبو»

تيج مديرية أسيوط كنا أكثر أبناء الصعيد ترديدا لهذا القول الذى ينسب إلى « محمد محمود » ليس زهوا بصعيدى يعرض عليه الملك ولكن لأن « محمود سليمان » كان فى فترة من حياته عمدة لمدينتنا (أبو تيج) وفى قائمة أعضاء (مجلس شورى النواب) يناير ١٨٦٧ نجد من بين أعضائه « سليمان افندى عبد العالى » عن أسيوط وهو والد « محمود سليمان » وجد « محمد محمود » وفى قائمة أعضاء برلمان توفيق ١٨٨١ وعن أسيوط نجد اسم « محمود بك سليمان عبد العالى » وهو والد « محمد محمود » . ثم عين عضوا فى (مجلس شورى القوانين) وبقي عضوا فيه لمدة ثلاثة عشر عاما منها ثمانية أعوام نائبا لرئيس الجمعية العمومية . وكان نائبا للمدير جرجا ونائبا لمدير أسيوط .

و « محمود سليمان » من رواد سياسة الاعتدال فى مصر ، ومن مجموعة ينسب إليها أنها خرجت على خط الثورة العربية بعد ان ألقى عرابى سيفه وهو واحد من الذين بادروا بقاء قادة حملة الاحتلال فى محاولة للمهادنة والمحاسنة لأنهم يرون أن « أحمد عرابى » لم يكن موقفا فى اختيار توقيت الصدام ولا فى معرفة مدى قوته التى يواجه بها القوة الأجنبية ، وأنه كما قال له الشيخ « محمد عبده » محذرا إن الصدام سوف يجلب النكبات على البلاد على أية حال كانت المجموعة تتكون من « محمد سلطان ، ومحمود سليمان وعبد الشهيد بطرس ، ومحمد الشواربى ، وعبد السلام المويلحى ، وأحمد السيوفى » ، وكان الشيخ « محمد عبده » قد حذر كما قلنا فى اجتماع مشهور من عواقب الصدام غير المدروس ، ولكنه انحاز تماما للثورة العربية عندما وقع الصدام ، وبعد انكسار الثورة عاد إلى (مدرسة الإصلاح الدينى والتعليمى) وفى محاولة لإنقاذ مايمكن إنقاذه .

وهذه المدرسة هى التى أسست جريدة (الجريدة) وأسست حزب الأمة ، تأسست (الجريدة) فى ٩ مارس ١٩٠٧ وتوقفت فى ٣٠ يوليو ١٩١٥ . وأعلنت الجريدة فى عددها الأول عن مؤسسيها « محمود سليمان - حسن عبد الرازق - أحمد فتحى زغلول عبد الرحمن الدمرداش - عبد العزيز فهمى - على شعراوى - عمر سلطان » وفى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ تأسس حزب الأمة وكان « محمود سليمان » أول رئيس له . وحزب الأمة تأسس من كبار الملاك الزراعيين الذين يرون فى أنفسهم الأصحاب الحقيقيين لمصر لذلك نادوا بشعار (مصر للمصريين) بعيدا عن الانجليز أو العثمانيين واهتموا بالثقافة العصرية فكان من أبنائهم (مدرسة الاستنارة) التى ترعرعت بعد ذلك فى حزب الأحرار الدستوريين . وقد حملت (الجريدة) هذه الدعوة للمصريين ، ومعارضة الاتجاه إلى الدولة العثمانية التى كان يحملها « مصطفى كامل » وفى الوقت ذاته دعت إلى التعقل وعدم العنف .

والملاحظ أن « سعد زغلول » رغم علاقاته الوثيقة بالشيخ « محمد عبده » الأب الروحى للجماعة حزب الأمة ، ورغم علاقاته الوثيقة بكثيرين من أعضاء حزب الأمة ومؤسسى الجريدة كان حريصا

ألا يدخل الحزب أو يرتبط بالجريدة . والذي كان له دور مع أعضاء الحزب والجريدة هو شقيقه «أحمد فتحى زغلول» . والملاحظ أيضا أن أعضاء حزب الأمة كان لهم دور بارز فى تأليف الوفد المصرى مثل «محمود سليمان» الذى أصبح رئيسا للجنة الوفد المركزية ومثل «عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى ومحمد محمود» .

محمد محمود

وإذا كان «محمود سليمان» الأب تعلم فى الأزهر فإن «محمد محمود» الابن تعلم فى اكسفورد وإذا كان الأب محبوبا من الذين احاطوا به لم يكن الابن هكذا لنزعة من التعالى والغطرسة أو ما يشبه ذلك .

هل أصفه لكم ؟ كان محمد محمود ربعة ، ذا ملامح سمراء وجهه عريض منبسط ، شفتاه تملان إلى الغلظة ، أنيق الملبس مثله مثل «على ماهر» فى العناية المفرطة بمظهره والأسرة يرجع أصلها إلى الحجاز واستقرت فى مدينة (ساحل سليم) بمديرية أسيوط منذ أمد طويل وهى أسرة كبيرة يطلق عليها اسم بيت (السلىنى) ولا أعرف أصل هذه التسمية .

ولد محمد محمود سنة ١٨٧٧ وبعد تعليمه الابتدائى والثانوى درس التاريخ فى اكسفورد . وبعد أن عاد ترقى بسرعة ملحوظة إلى أن أصبح مديرا للفيوم ثم مديرا للبحيرة . ويذكر «أحمد لطفى السيد» فى مذكراته أنه كان يتشاور مع «محمد محمود» فى تأسيس الجريدة وفى سياستها ، وفى تأليف (حزب الأمة) وفى خطه السياسى وكان هذا سنة ١٩٠٧ . وفى مذكراته يسجل «سعد زغلول» إنه عندما كان ناظرا للمعارف زار الفيوم سنة ١٩٠٨ واستقبله «محمد محمود» مدير الإقليم وهناك تعرف «سعد» على «حمد الباسل» وندرك من المذكرات أن هذه المقابلة بين سعد ومحمد محمود سبقتها مقابلات أخرى .

كان «محمد محمود» معروفا إذن لسعد زغلول لذلك نجد أن «سعدا» قد دعاه قبيل إعلان الهدنة فى الحرب العالمية الأولى إلى عزبته بمسجد وصيف مع «عبد العزيز فهمى» و«أحمد لطفى السيد» وتحدث معهم فيما يتبغى عمله بعد إعلان الهدنة . وفى الاجتماع الموسع الذى عقد فى بيت سعد زغلول فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ وحضره «محمد محمود» تقرر أن ينوب عن الوفد فى لقاء المعتمد البريطانى «سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى» وكان من الطبيعى أن يصبح «محمد محمود» عضوا فى التكوين الأول للوفد المصرى الذى تشكل من . . «سعد زغلول ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى ، وأحمد لطفى السيد ومحمد محمود ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة» .

وفى يوم ٨ مارس ١٩١٩ - اليوم السابق على الثورة - اعتقل الانجليز محمد محمود مع سعد زغلول وحمد الباسل وإسماعيل صدقى وسارت بهم باخرة إلى مالطة - وهكذا قدر لمحمد محمود أن يكون أحد الأربعة الكبار الذين أشعلوا ثورة ١٩١٩ غداة إلقاء القبض عليهم .

الأخوة الأعداء

ويتم الإفراج عن سعد وصحبه فى ٧ أبريل ١٩١٩ ويسافرون إلى باريس ويلحق بهم عدد آخر من أعضاء الوفد - ويبقى الوفد بين باريس ولندن ، بين مفاوضات ومباحثات ، بين شد وجذب قرابة عامين وفى غالبية المواقف كان هناك فريقان . . فريق عرف بتشده وتطرفه على رأسه «سعد» وفريق عرف باعتداله وحسن تدبيره كما يقال وعلى رأسه « عدلى يكن » وفى غالبية المواقف كان «محمد محمود» فى فريق الاعتدال الذى كان يضم « عبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد وحمد الباسل ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة » .

ووصل « عدلى يكن » مع الانجليز إلى صيغة معينة من الاتفاق لم يرض عنها « سعد » واتجه إلى قطع المفاوضات إلا أن غالبية الوفد (فريق الاعتدال) نصحت بالتريث وقررت إيفاد أربعة من أعضاء الوفد إلى مصر وطرح المشروع على الشعب وكان « محمد محمود» واحدا من هؤلاء الأربعة . وقد لاحظ « مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى » أن المندوبين الأربعة يعرضون الاتفاق بطريقة تجعل الناس يميلون إلى قبوله وليس بأسلوب محايد فسافروا إلى باريس فى ٤ أكتوبر ١٩٢٠ لوضع الأمر أمام «سعد» وهنا بدأت ملامح الانقسام فى الوفد تتضح ، وفى ٢٠ نوفمبر قرر « عدلى يكن » العودة إلى مصر وشكل وزارته الأولى فى ١٦ مارس ١٩٢١ وأجرى مفاوضات مع الانجليز بتأييد من فريق (الاعتدال) وفشلت المفاوضات وعاد (عدلى) ليقدم استقالته التى قبلت فى ٢٤ ديسمبر وكان الانجليز قد قرروا توجيه ضربة إلى « سعد » والمؤيدين له ويتم اعتقالهم .

وفى أكتوبر ١٩٢٢ تم الإعلان عن تشكيل حزب الأحرار الدستوريين كإعلان عن الانقسام الكامل فى الوفد وتولى رئاسة الحزب « عدلى يكن » وكان من أبرز عناصره « محمد محمود » . وفى أواخر ديسمبر ١٩٢٤ تخلى « عدلى » من رئاسة الحزب لعبد العزيز فهمى الذى استقال بدوره سنة ١٩٢٦ ليصبح « محمد محمود » رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين حتى توفى فيفبراير ١٩٤١ . وخلال تلك الفترة تولى رئاسة الوزارة والوزارة عدة مرات وكانت له مواقف هى موضع خلاف شديد .

نحو السلطة

استقال « محمد محمود » من الوفد في ٢٨ أبريل ١٩٢١ ، وشارك في تأسيس حزب الأحرار الدستوريين في أكتوبر ١٩٢٢ وهو الوحيد من زعماء هذا الحزب الذي نجح في انتخابات يناير ١٩٢٤ . واطيح بوزارة الشعب في نوفمبر ١٩٢٤ ، وجاءت وزارة القصر والانجليز برئاسة « أحمد زيور » من نوفمبر ١٩٢٤ حتى مارس ١٩٢٥ ثم وزارته الثانية في مارس ١٩٢٥ حتى يونيو ١٩٢٦ . ولم يكن هناك مفر من اللجوء إلى وزارات ائتلافية تكون فيها الغالبية للوفد بدلا من أن تكون وفدية خالصة .

جاءت وزارة برئاسة « عدلى يكن » من ٧ يونيو ١٩٢٦ - ٢١ أبريل ١٩٢٧ كان « محمد محمود » وزيرا للمواصلات فيها وسقطت الوزارة لعدم رضا « سعد » عن سياستها . وأعقبها وزارة برئاسة « عبد الخالق ثروت » من أبريل ١٩٢٧ - مارس ١٩٢٨ ، وهى وزارة ائتلافية من الوفد والأحرار الدستوريين ، كان « محمد محمود » وزيرا للمالية فيها . واستمر وزيرا للمالية في وزارة «مصطفى النحاس » الأولى من مارس - يونيو ١٩٢٨ . وفى منتصف الطريق في ٤ مايو ١٩٢٨ قدم « محمد محمود » استقالته ثم سحبها وعاد يستقيل في ١٧ يونيو كل ذلك للإطاحة بوزارة «مصطفى النحاس » واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون وسقطت وزارة « مصطفى النحاس » الأولى في ٢٥ يونيو ١٩٢٨ . وكانت التظاهرات الشعبية خلال فترة تلك الوزارة تحتاج البلاد مؤيدة للوفد وللنحاس مما أعاد للأذهان أيام سعد زغلول ولجأ القصر إلى « محمد محمود » ليحكم البلاد بيد من حديد .

حكومة اليد الحديدية

جاء « محمد محمود » رئيسا للوزارة في ٢٧ يونيو ١٩٢٨ وأصبح رئيسا للأحرار الدستوريين بعد تخلى عبد العزيز فهمى وروجت صحيفة الحزب لسياسة حكومة دعامتها الأحرار الدستوريون الذين خرجوا من الوفد اعتراضا على ما أسموه (دكتاتورية سعد) والذين كان لهم الدور الأكبر في (لجنة الدستور) التى وضعت دستور ١٩٢٣ ، ومن المفارقات أن هؤلاء هم أول من عصف بهذا الدستور المنقوص وتمسك الوفد به ودافع عنه على الرغم من أن الوفد قاطع لجنة (الأشقياء) التى وضعت الدستور واشترك فى تلك الوزارة (على ماهر) واحتفظ « محمد محمود » لنفسه بوزارة الداخلية حتى يمارس سياسة اليد الحديدية . فأوقف الحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد حسب منطوق الأمر الملكى في ١٩ يوليو ١٩٢٨ ، وأعاد العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر

١٨٨١ ، وإلغاء رخصة نحو مائة صحيفة ، وأُنذر صحف الوفد بالتعطيل ، ومنع الموظفين من الاشتغال بالسياسة ، وحرّم على الطلبة القيام بالتظاهرات واشتعل الموقف ضد حكومة اليد الحديدية ، عقب البيان الذى أصدره « مصطفى النحاس » زعيم الوفد داعياً الأمة للدفاع عن دستورها . ورفض الوفد إبداء رأيه فى مفاوضات « هندرسن - محمد محمود » طالماً إن الحياة النيابية معطلة فى البلاد واتضح أن (اليد الحديدية) عاجزة أمام المقاومة الشعبية خاصة أن إنجلترا لم تكن مطمئنة إلى عقد اتفاقية دون موافقة الوفد ، كما إن القصر رأى فى بعض مواقف « محمد محمود » محاولة منه للانفراد بالسلطة واتضح أن حكومة محمد محمود هى (يد من حديد فى ذراع من جريد) على حد قول كاتب الوفد فى ذلك الوقت (عباس محمود العقاد) .

بعيدا عن الحكم

قدم « محمد محمود » استقالة يده الحديدية فى ٢ أكتوبر ١٩٢٩ .

ثمانية أعوام قضّاها « محمد محمود » بعيداً عن السلطة بدأها بمقاطعة الانتخابات التى جرت بعد استقالته تجنباً لهزيمة ثقيلة للحزب من جراء سياسة اليد الحديدية . ونهج حزب الأحرار بعد ذلك نهج التحالف مع الوفد لمواجهة دكتاتورية إسماعيل صدقى خاصة عندما حاول إسماعيل صدقى أن يكون له حزب يجذب إليه عدداً من عناصر الحزبين الكبيرين وخاصة عناصر الأحرار الدستوريين .

وكان التآلف بين الأحرار الدستوريين والوفد يتقدم ويتراجع حتى ظهر فى صورة واضحة فى أواخر سنة ١٩٣٥ فى عهد حكومة « توفيق نسيم » حيث تحالف الحزبان الكبيران مع القوى والشخصيات الأخرى من أجل إعادة العمل بدستور ١٩٢٣ والتمهيد للدخول فى مفاوضات لمكاسب استقلالية أكثر ورفضت الأحزاب المتحالفة فى ذلك الحين بعريضة فى هذا الشأن إلى الملك أحمد فؤاد . وصدر الأمر الملكى رقم ١١٨ لسنة ١٩٣٥ بإعادة العمل بدستور ١٩٢٣ . وطالب الزعماء وفى مقدمتهم مصطفى النحاس ومحمد محمود الوزارة بإصدار قانون الانتخاب وإلغاء القوانين الاستثنائية . وفى تلك الفترة ظهر الدور الكبير الذى قامت به (لجنة الطلبة التنفيذية) وأصدرت بياناً بأن تكون التظاهرات بعيدة عن التخريب ووقع البيان :

كلية الطب : نور الدين طراف - أحمد عبد الله - إبراهيم عبود - عبد اللطيف جوهر - حسنى العامرى .

كلية الآداب : مصطفى السعدنى - طلعت خالد - سامى ناشد - عثمان عسل - محمود يوسف رضوان .

كلية الحقوق : الظاهر حسن - أحمد عبد العزيز الشويحي - محمد حسن حمزة - طاهر نعمان - محمد أبو بكر الهوارى - مراد يس - أحمد شرف الدين - خليل جمال الدين - عبد الغفار متولى - محمود فهمى أبو عزيز - حمادة الفاضل .

كلية الهندسة : جلال الدين الحمامصى ، إبراهيم عثمان ، مصطفى السعيد ، عزالدين كامل .

كلية الزراعة : حسين الأييارى ، أحمد الدمرداش التونى ، عبد المقصود عزت ، حسين حلمى ، فؤاد على ، محمد محمد سرحان .

كلية التجارية : عبد الله بغدادى أباطة ، إبراهيم الدسوقي ، أحمد حلمى ، أحمد شلبى .
دار العلوم : محمد برهام ، أحمد محيى الدين ، سعيد العجان ، سليمان النمكى .

العودة إلى القوة

وفى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ عاد « محمد محمود » رئيسا للوزارة للمرة الثانية التى ضمت لإسماعيل صدقى ، وعبد الفتاح يحيى وعبد العزيز فهمى ، وحافظ رمضان ، ومحمد كامل البندارى وغيرهم وبدأت الوزارة أعمالها بحل البرلمان الوفدى وفصلت الموظفين الوفديين وسيطرت على الانتخابات التى أعقبتها وزارة محمد محمود الثالثة من ٢٧ أبريل ١٩٣٨ وبأشرت سياسة القوة وفى ٢٤ يونية ١٩٣٨ شكل « محمد محمود » وزارته الرابعة التى استمرت إلى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ والتى سقطت بفعل مناورات على ماهر رئيس الديوان الملكى وقت ذاك وبعد أقل من شهر تقوم الحرب العالمية الثانية وتدخل السياسة المصرية فى مرحلة جديدة .

الأسانيد :

- ١ - جمال بدوى . . كان وأخواتها .
- ٢ - صبرى أبو المجد . . سنوات ما قبل الثورة .
- ٣ - عبد العزيز فهمى . . هذه حياتى
- ٤ - د . على شلبى ود . مصطفى النحاس جبر . . الانقلابات الدستورية فى مصر .

اللواء محمد نجيب



أبدأ بأخر أمنيات الرجل ، بأخر سطور كلمته للتاريخ . . « والآن لم يعد عندي حديث ، ولم يعد عندي ما يقال ، ولم يعد عندي إلا رجاء هو أن أدفن في السودان بجوار أبي وخالي هناك » .

ومحمد نجيب ابن « النمارية - مركز كفر الزيات » وأول رئيس لجمهورية مصر ولد في « ناحية ساقية أبي معلا » بالخرطوم عاصمة السودان الشقيق ، في ١٧ يوليو ١٩٠٠ م خدم جده في السودان . ووالده وخاله الضابطان خدما وماتا ودفنا في السودان ، وهو تعلم وخدم في السودان ، واتصل بالجمعية السودانية الوطنية « اللواء الأبيض » . وله كتاب « ذكريات من السودان » فلماذا لا تحقق أمنية الرجل في ٢٨ من أي أغسطس قادم ، في ذكرى رحيله « ٢٨ أغسطس ١٩٨٤ » . وأن تودع مصر أول رئيس لجمهوريتها في تراب السودان الشقيق رمزا للإخاء . . هل يحقق قادة السودان ومصر أمنية رجل أعطى السودان ومصر معا ؟

أما قبل . . .

وقبل أن نسير مع الرجل في حياته . وفي مواقفه . وفي مواقف الآخرين منه ، أرى أن أرتب أوراقى في غابة الأوراق والذكريات والمذكرات . وأن أضع نقاط ضوء استقر عليها ضميرى العلمى من واقع تجارب وأحاديث وقراءات في نزاقتها ، وهى عندي هنا تفكك العلامات الفارقة التى كان يضعها الآباء لتبين حدود زراعاتهم وأراضيهم .

* التنظيم السرى الذى بدأ في الجيش المصرى سنة ١٩٤٠ ، كانت الشخصية الأساسية فيه « عبد اللطيف البغدادى » ومعه « أحمد سعودى أبو على ، ومحمد وجيه أباطة ، وحسن عزت ، وحسن إبراهيم » ثم انضم إليهم « أنور السادات » ولم يكن محمد نجيب أو جمال عبد الناصر على صلة بهذه المجموعة التى كان هدفها الأساسى معاونه الألمان لضرب قوات الاحتلال الإنجليزى

لمصر . وفي هذا المجال اتصلت هذه المجموعة بالإخوان المسلمين وبالحزب الوطني وبعزيز على المصري وبآخرين .

* جمال عبد الناصر بدأ عام ١٩٤٨ قبل حرب فلسطين وبعدها في تنظيم مجموعة « الضباط الأحرار » وفي هذا المجال اتصل بالإخوان المسلمين ، وبعدد من أعضاء الهيئة الوفدية ، وتنظيم (حدثو) الماركسي ، وبعناصر مجموعة « البغدادى » القديمة وبأنور السادات الذى كان على صلة بيوسف رشاد وثيق الصلة بالحرس الحديدي . . « وهذا الحرس كان وراء بعض حوادث الاغتيالات لصالح الملك فاروق » .

* خلال فترة فيما قبل ٢٣ يوليو ، وبعدها تكونت مجموعة قيادية عرفت قبل ٢٣ يوليو باسم « الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار » وبعد ٢٣ يوليو باسم « مجلس قيادة الثورة » والعناصر هي : « جمال عبد الناصر ، وعبد اللطيف البغدادى ، وعبد المنعم عبد الرؤوف - الوحيد الذى اعترض على ضم أنور السادات للهيئة التأسيسية وفصل قبل ٢٣ يوليو ، وحكم عليه بالاعدام وهرب خارج البلاد - محمد أنور السادات ، وحسن إبراهيم ، وكمال الدين حسين ، وخالد محيى الدين ، وزكريا محيى الدين ويوسف صديق ، وجمال سالم ، وصلاح سالم ، وحسين الشافعى ، وعبد الحكيم عامر ، وعبد المنعم أمين - فصل بعد ٢٣ يوليو بشهور قليلة » .

* اللواء « محمد نجيب » هو الوجه الوطنى المحترم الذى قدمت به حركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نفسها إلى الجيش وإلى الشعب معا . اشترك في حرب فلسطين وكان أركان حربه « عبد الحكيم عامر » الصديق الصدوق لجمال عبد الناصر ، وسنة ١٩٤٢ - وكان مساعدا لنائب الأحكام عاون « أنور السادات » أثناء التحقيقات معه ، وكان معروفا بمواجهته لحيدر باشا وحسين سرى عامر رجلى الملك فاروق . وعرفته الجماهير رئيسا لنادى الضباط على غير رغبة الملك ، والذى ضم عددا من الضباط الأحرار . . وقام الملك بحل هذا المجلس الذى يتحداه . وهذا كله يقطع بأن الضباط الأحرار كانوا على صلة باللواء محمد نجيب ، وكان هو على معرفة بعناصرهم القيادية ، وعلى دراية بحركتهم وبأهدافها ، ويقطع بأنه كان يؤيدهم ولهذا فإننا نطرح جانبا ما قيل بأنه لم يعرف بالحركة إلا بعد استيلاء قوات « يوسف صديق على القيادة . فلو كان يجهل كل شيء لما ذهب لتولى قيادة الحركة لمجرد اتصال تليفونى من « الصاغ جمال حماد » أو لمجرد أنهم أرسلوا له عربة جيش .

* وقت أن كان « أنور السادات » في سينما الروضة ، ووقت أن كان عبد الناصر وعبد الحكيم بالملابس المدنية يرقبان الموقف تقدم « البكباشى يوسف صديق » قبل ساعة الصفر بساعة كاملة يقتحم القيادة ويعتقل « اللواء حسين فريد » وقادة الوحدات المجتمعين لإجهاض حركة الضباط

الأحرار ، وتم نقلهم إلى معسكر الاعتقال في الكلية الحربية . ولولا تحرك قوات يوسف صديق لكان قادة الضباط الأحرار جميعا في غياهب السجون ، وربما على أعواد المشانق .

مواقف سابقة

قدمنا في الفقرات السابقة ما استقر عليه ضميرنا العلمى من عناصر هى بمثابة إشارات ضوئية ونحن نتحدث عن « اللواء محمد نجيب » الذى يقول إنه عندما كان مساعدا لنائب الأحكام عام ١٩٤٢ وقف إلى جانب « أنور السادات » أثناء التحقيق معه . والرواية صحيحة لأن « محمد نجيب » نشرها في كتاب له صدر في حياة « الرئيس الراحل محمد أنور السادات » واعترض على تعيين « محمد حيدر » قائدا للجيس لأنه ضابط بوليس ، ولم يذهب إلى تهنتته وقد كان « حيدر باشا » قريبا للمشير عبد الحكيم عامر . واشترك « محمد نجيب » في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وجرح ثلاث مرات ، واستدعى إلى القاهرة وعين قائدا للمعهد دراسات الضباط العظام . وعاد مرة أخرى إلى فلسطين وتولى قيادة اللواء العاشر الضارب بالإضافة إلى اللواء الرابع . . وكان « الصاغ أ. ح . عبد الحكيم عامر » هو أركان حرب « محمد نجيب » . . وإلى هنا نستطيع أن نقول إن « أنور السادات وعبد الحكيم عامر وبالتالي جمال عبد الناصر صديق عامر » كانوا يعرفون « محمد نجيب » معرفة جيدة .

واعترض « حيدر باشا » مرتين على ترقية « محمد نجيب » ، وحيدر كما هو معروف رجل الملك فاروق . ولهذا فإن هذا الاعتراض على الترقية هو عدم رضاء من الملك على « محمد نجيب » . وبعد حرب فلسطين عين « نجيب » مديرا لسلاح الحدود وبعدها نقل « نجيب » مديرا لسلاح المشاة وعين بدلا منه في سلاح الحدود « حسين سرى عامر » .

و « حسين سرى عامر » هو أحد رجال الملك داخل الجيش ، وفى يناير ١٩٥٢ حاول « جمال عبد الناصر » ومجموعة خاصة له تتكون من « حسن إبراهيم ، وكمال رفعت ، وحسن التهامى » حاولوا اغتيال « اللواء حسين سرى عامر » وهنا نفتح قوسا لنقول إن « جمال عبد الناصر » رغم رئاسته للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار ، ورغم رئاسته لتنظيم الضباط الأحرار كانت له مجموعات الخاصة التى يحركها لأهدافه الخاصة دون استشارة التنظيم . ومن هذا القبيل ما قام به « كمال رفعت ودواود عويس » من إلقاء القبض على « محمد نجيب » ونقله إلى ميس سلاح المدفعية أثناء أزمة مارس ١٩٥٤ دون معرفة من مجلس القيادة . ومنها المجموعة التى فجرت القنابل في الجامعة ومحطة السكة الحديد وجروبي القاهرة ويذكر عبد اللطيف البغدادى في مذكراته « صفحة

١٤٦ « أن « عبد الناصر » اعترف أمامه وأمام كمال الدين حسين وحسن إبراهيم بأن الانفجارات من تديره . . ليشعر الناس بأنهم في حاجة إلى من يحميهم .

ونعود إلى يناير ، وقد جرت انتخابات مجلس إدارة نادي ضباط الجيش وفازت غالبية قائمة الضباط الأحرار ، وفاز محمد نجيب برئاسة النادي . وفي ١٦ يوليو ١٩٥٢ أصدر الملك قراراً بحل مجلس إدارة النادي ، وتعيين مجلس إدارة جديد برئاسة « اللواء على نجيب » شقيق محمد نجيب .

وفي شهر مارس ١٩٥٢ اعتقلت السراي « اليوزباشي محمد رياض » وهو من الضباط الأحرار المواليين لنجيب وهذا يوضح أن نجيب ومعاونيه كانوا من الذين يخشى القصر سطوتهم داخل الجيش .

الليلة التاريخية

وفي يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وقبل أن ينتصف الليل تحرك « البكباشي يوسف صديق » واقتحم برجале رئاسة الجيش وسيطر على منطقة كوبري القبة . وقبض على « حسين فريد ورجاله » . ثم تقدمت « الكتيبة ١٣ » بقيادة « العقيد أحمد شوقي » . . وبعدها جاء « ناصر وعامر » كما أسلفنا وجاء السادات . . وانتهى الجزء الأول من الخطة بنجاح حوالى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . وكان « أحمد مرتضى المراغى » وزير الداخلية قد اتصل باللواء أ . ح . محمد نجيب في منزله يسأله عن طلبات « المتمردين » - على حد تعبيره ، وطلب منه العمل على تهدئة الموقف . وتلقى « محمد نجيب » خبر نجاح الاستيلاء على قيادة الجيش . وتوجه ليتولى قيادة الانقلاب « الانقلاب كلمة البغدادي » . وكتب « الصاغ جمال حماد » البيان ، وألقى عليه « جمال عبد الناصر » نظرة عامة وراجع « محمد نجيب » وأضاف عليه بخط يده عبارة « طبقاً لأحكام الدستور » . والبيان الأصلي لم يزل لدى « اللواء جمال حماد » .

وفي الصباح استمع شعب مصر ، إلى البيان بصوت أحد الضباط ، وبعدها بصوت « محمد أنور السادات » وموقعاً عليه باسم « القائد العام للجيش اللواء أركان حرب محمد نجيب » .

وتلاحقت الأحداث سريعة . . عهد إلى « على ماهر » برئاسة الوزارة في ٢٤ يوليو ١٩٥٢ ، وصدر إليه أمر التكليف بوزارته الرابعة من الملك فاروق واحتفظ « على ماهر » لنفسه بوزارات الداخلية والخارجية والحربية والبحرية .

وفي صباح يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ توجه « الفريق محمد نجيب » إلى مقر الوزارة بالإسكندرية . وقدم إلى « على ماهر » رئيس الوزراء أنذار الجيش الموجه إلى الملك فاروق بضرورة

توقيع وثيقة التنازل عن العرش قبل الثانية عشرة من ظهر اليوم نفسه ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة مساء .

وكانت وثيقة التنازل « من الفريق أركان حرب محمد نجيب . . باسم ضباط الجيش ورجال إلى جلالة الملك فاروق . . » وقد عارض « محمد نجيب » رأى جمال سالم الذى طالب بإعدام فاروق . وبعد أن غادر الملك فاروق البلاد . أعلن « محمد نجيب » تنازله عن رتبة الفريق التى حملها ليوم أو بعض أيام ، وذلك مراعاة لأحوال البلاد الاقتصادية . . على أية حال عرف دائما واشتهر باسم « اللواء محمد نجيب » .

وكنا قد عرفنا أن خلافا قد وقع مع « عبد المنعم عبد الرؤوف » وهو من عناصر الإخوان المسلمين الملتزمين ، وفصل من الهيئة التأسيسية قبل ٢٣ يوليو وحكم عليه بالإعدام وهرب إلى خارج البلاد واستقر به المقام فى الاردن وفى رعاية « الملك حسين » وبعد ٢٣ يوليو رأت الهيئة التأسيسية بإبعاد « عبد المنعم أمين » لتصرفات خاصة كثيرة تحيط به ، وهو الذى رأس المحكمة التى حكمت على العاملين « خميس والبقرى » بالإعدام . وأهم الخلافات المبكرة التى وقعت داخل الهيئة التأسيسية فقد كانت إزاء موقف « يوسف صديق » الذى دافع بإصرار عن عودة الحياة النيابية ، وعن عودة مجلس النواب المنتخب الذى كان « على ماهر » فى حكومة مابعد حريق القاهرة قد استصدر قرارا بحل هذا المجلس . وانتهى الخلاف بفصل « يوسف صديق » واعتقاله فى السجن الحربى ، أما الصراع الكبير فقد كان طرفه الحاد مع « محمد نجيب » وانتهى هذا الصراع فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ بقرار من مجلس قيادة الثورة بإعفاء محمد نجيب من منصب رئيس الجمهورية وطويت بذلك صفحة الجمهورية المصرية الأولى .

الجمهورية الأولى

على الرغم من أن الأحداث ، من حيث الشكل كانت تتخذ خطا صاعدا باللواء محمد نجيب . . يتولى رئاسة مجلس قيادة الثورة ، برئاسة الوزارة بعد استقالة على ماهر فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، ورئاسة الجمهورية فى ١٨ يونية ١٩٥٣ ، إلا أن واقع الأمور يوضح أن القوة الأخرى المواجهة لنجيب كانت مدركة لأهدافها ، وتحكم قبضتها على الأوضاع ، وتمسك بالخيط بحيث تنتهى اللعبة فى النهاية لصالحها .

فاختيار « على ماهر » وهو الذى عرف بعادته التاريخى للحكم النيابى ، وللوفد وللنحاس باشا يوضح لماذا وقف رجال يوليو بعناد ضد عودة البرلمان الوفدى المنتخب . . وكانت وزارة « على

ماهر» التى شكلت فى ٢٤ يوليو ١٩٥٢ إلى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ من أشخاص عرفوا بالعلاقة الشخصية مع على ماهر نفسه .

والوزارة الأولى للواء محمد نجيب التى شكلت برئاسته « من ٧ سبتمبر ١٩٥٢ إلى ١٨ يونية ١٩٥٣ » كانت تضم فى المقدمة « سليمان حافظ » نائبا لرئيس مجلس الوزراء ووزيرا للدخالية ، المعروف بالعداء الشديد للوفد وللنحاس باشا ، وقد وقف بشدة ضد أى اتجاه دستورى منذ الأيام الأولى ، وقاد مع الدكتور السنهورى توجيه مجلس الدولة فى ٣١ يوليو ضد دعوة مجلس النواب السابق وهو الرأى الذى دافع عنه فى شجاعة « الدكتور وحيد رافت » وضمت الوزارة أيضا عددا من أعضاء الحزب الوطنى وعددا من المعروفين بانتمائهم المعادية للديموقراطية . . وبهذا كانت أقدام قادة ٢٣ يوليو المعادين للديموقراطية والراغبين فى الدكتاتورية ترسخ تدريجيا . . مما رجح كفتهم فى نهاية المطاف على « محمد نجيب » عندما حاول أن يتمسك بالديموقراطية وينادى بالحياة النيابية .

ونأتى إلى الإعلان الدستورى الصادر من مجلس قيادة الثورة فى ١٨ يونية ١٩٥٣ والذى وقع عليه « محمد نجيب » تحت لقب « قائد ثورة الجيش » ووقعه معه « جمال عبد الناصر ، وعبد اللطيف البغدادي ، وأنور السادات ، وعبد الحكيم عامر ، وكمال الدين حسين ، وجمال سالم ، وزكريا محيى الدين ، وحسين الشافعى ، وصلاح سالم ، وحسن إبراهيم ، وخالد محيى الدين وهنا نلاحظ غياب « يوسف صديق » ، وعبد المنعم أمين » اللذين خرجا أو أخرجوا من المجلس » .

كان هذا الإعلان تنويجا لخطوات ضد الأحزاب ، انتهت بحل هذه الأحزاب ، وبعد إلغاء دستور ١٩٢٣ ، وبعد إعلان فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات ربما لم يكن محمد نجيب موافقا عليها كلها أو على بعضها — كما سوف يتبين — ولكنه ظهر بمظهر المشارك فيها ، أو غير القادر على وقفها . . وكان تعيينه رئيسا للجمهورية مجرد إعلان عن مسمى وظيفى جديد سوف يشغله من بعده « جمال عبد الناصر » .

نجيب والقيادة

كان « محمد نجيب » يرغب فى الديموقراطية ، ولكن الكلمة كانت للقيادة التى لم تكن ترغب فى ذلك . . وأسجل هنا موقفين يوضحان هذا الأمر .

* يقول « المهندس سيد مرعى » فى أوراقه السياسية الجزء الأول ص ٢١٥ : (دخلت مع وفد السعديين إلى مكتب اللواء نجيب . . ورحب بنا بأسلوبه المهذب وأخذ يستمع إلينا بقلب

مفتوح . . ولاحظنا أن هناك ضابطا شابا يقف بجواره طوال الوقت وبعد أن طال الحديث أنهى هذا الضابط المقابلة وقال للواء نجيب بلهجة قاطعة . . على كل حال يجتمعوا خارج المكتب . . ويتفاهموا في هذا الموضوع . . حتى لا يضيعوا وقتنا . . وهز محمد نجيب رأسه موافقا ولم يقل شيئا) . . وكان هذا الضابط هو جمال عبد الناصر . . ويعلق « سيد مرعى » (وأدركت أنهم مش عاززين الأحزاب نهائيا . . لاحتزينا ولا أى حزب آخر) .

والذى أدركه « المهندس سيد مرعى » من المقابلة الأولى للقيادة ، وفي فترة مبكرة هو إدراك صحيح لم يدركه شباب الأحزاب الذين لعبت بهم القيادة وأوقعتهم في دوامة مع أحزابهم ، وأنزلت الارتباك بالأحزاب كلها .

* وأنقل هنا عن « جريدة المصرى - ١١ أغسطس ١٩٥٢ » . .

(. . عقد الشباب الوفدى أمس اجتماعا حضره جميع أعضاء اللجان الوفدية بالقاهرة تكلم في هذا الاجتماع الأساتذة لويس فانوس وإسماعيل أحمد سليمان وأحمد عبد الجواد وهبه وعبد المحسن حمودة وأحمد عبده حسنين ونور الدين مصطفى ثم تلا الأستاذ لمعى الطيعى المذكرة المرفوعة إلى الرئيس مصطفى النحاس . . وقد صورت هذه المذكرة التفاف الشعب حول الوفد لأنه كان أمينا على القضية الوطنية ثم توجه وفد منهم إلى القيادة العامة ، واستقبلهم اللواء أركان حرب محمد نجيب ، وتناول الحديث مايشاع من التفكير في حل الأحزاب ، وأكد القائد العام أنه لا توجد أى فكرة عن حل الأحزاب ، وأن مايشاع حول هذا الموضوع إنما هو إشاعة مغرضة) .

ولكن على الرغم من هذا النفى القاطع صدر في ٧ سبتمبر قانون إعادة تنظيم الأحزاب ، وفي ١٠ ديسمبر إلغاء دستور ١٩٢٣ ، وفي ٦ - يناير ١٩٥٣ صدر قرار حل الأحزاب فيما عدا الإخوان المسلمين ، وفي ١٠ فبراير الإعلان الدستورى المؤقت لفترة الانتقال ، وفي ١٩ مايو ١٩٥٣ قرار بأن يكون « جمال عبد الناصر » نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة .

في تقديرنا أن « جمال عبد الناصر » لعب لعبته بمهارة فائقة . . ففى ١٨ يونية تولى محمد نجيب رئاسة الجمهورية وأعاد تشكيل وزارته . . وفي الوقت نفسه كان « جمال » نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة . . وتولى وزارة الداخلية ، وتولى صديقه « عبد الحكيم عامر » منصب القائد العام للقوات المسلحة بدلا من اللواء محمد نجيب ، فأصبح جمال عبد الناصر يسيطر فعليا على قيادة الثورة وعلى الجيش وعلى الداخلية . . وبعد أن انتهى كل شئ كتب نجيب . . « أعترف الآن ، أن هذا كان خطئى الكبير الذى وقعت فيه » .

وأخذ الموقف يتفجر في يناير وفبراير ١٩٥٤ ، وطلبوا من نجيب أن يترك رئاسة الوزارة لجمال وأن يكتفى نجيب برئاسة الجمهورية . واجتماعات واقتراحات وتناقضات واختلافات وكل واحد

له رأى ومناورات مرهقة للاعصاب . . وقرار لسلاح الفرسان في ٢٦ فبراير ١٩٥٤ بإعادة نجيب رئيسا للجمهورية وتشكل وزارة مدنية وتظاهر « عبد الناصر » بحرصه على الحياة النيابية وحل مجلس القيادة والعودة إلى الثكنات ، وعامر يعلن عدم الالتزام بالقرارات ويحاصر سلاح الفرسان والطائرات تهدد بضرب سلاح الفرسان . . ويتقدم « خالد محيى الدين » بتهدة سلاح الفرسان ويقوم « عامر » باعتقال بعضهم وبعد تظاهرات شعبية في ٢٨ فبراير تعلن الإذاعة عودة نجيب ، وفي الوقت نفسه يقوم « عبد الناصر » باعتقالات للإخوان والشيوعيين وتشكيل محاكم عسكرية وفي ٥ مارس يتقرر إعادة رئاسة الوزارة لنجيب وانتخاب جمعية تأسيسية وإلغاء الرقابة على الصحف ، ويعلن عبد الناصر القرارات بنفسه .

وفي ١٥ مارس تظهر موجه اقتراحات جديدة ، وكل واحد منهم في حالة نفسية سيئة وتتفجر القنابل في الجامعة وجروبي والسكة الحديد . . ويوم ٢٦ مارس يتم الإفراج عن « الهضيبي » وعدد من الإخوان وتقوم إضرابات مدفوعة الأجر من عمال النقل ، وعمال مديرية التحرير ، والحرس الوطني والاعتداء على مجلس الدولة والدكتور « السنهورى » وتحدث المشادة بين نجيب وبين جمال سالم وعبد الناصر وعبد الحكيم أمام « الملك سعود » يوم ٢٨ مارس وتنتشر الشائعات حول الاتجاه لاغتيال نجيب وأحمد شوقي . ويتم التراجع عن القرارات السابقة كلها ويثور المحامون والطلاب يوم ٣٠ مارس ، وتتسع الاعتقالات للإخوان والشيوعيين وللوفديين من جديد ويستولون على جريدة المصرى ، ويستقبل خالد محيى الدين ويعتكف « محمد نجيب » في منزله ويتولى جمال رئاسة الوزارة بدلا من نجيب .

ويتم التوقيع على اتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ ، وهو يوم الاعتداء على « جمال عبد الناصر » في ميدان المنشية وتحدث اعتقالات واسعة للإخوان المسلمين وتشكل محاكم الشعب برياسة « جمال سالم » . وتحكم المحكمة على سبعة من قيادات الإخوان بالإعدام ، وينفذ الحكم فيما عدا « الهضيبي » الذى خفف الحكم عليه إلى السجن مدى الحياة .

وفي ١٤ نوفمبر صدر قرار مجلس قيادة الثورة بإعفاء « اللواء محمد نجيب » من رئاسة الجمهورية ، وطويت بذلك صفحة الجمهورية الأولى . . شريط طويل مرهق للاعصاب أشبه بالكابوس ، أو أشبه بحرب العصابات ، أو أشبه بالسرك دون وجود قوة شعبية تحسم الأمور لصالح الشعب .

استمرار الشريط الكئيب

لعل أفضل تعبير هو ما قاله محمد نجيب نفسه . . « لم أهزم بالضربة القاضية ، ولكنى هزمت بالنقط بعد كفاح طويل . . » وفي ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ أخذه « عبد الحكيم عامر وحسن

إبراهيم» إلى المرج ليقيم في منزل استولوا عليه وكان مملوكا للسيدة حرم «مصطفى النحاس باشا» . . وأجبر «خالد محي الدين» على الإقامة في سويسرا ، وهرب «محمد رياض» إلى السعودية وألقى بأحمد شوقي في السجن . وفي ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ تعرض أول رئيس لجمهورية مصر «هوان ما بعده هوان» وتعرض للضرب والسب ، واصطحبه «جمال القاضي» ، ومحمد عبد الرحمن نصير «إلى مدينة «طما» في صعيد مصر وتحفظوا عليه في بيت زوج شقيقة «أحمد أنور» وعديل «حسين عرفة» وعاد بعد ذلك إلى القاهرة ليواجه مأساة رحيل ابنه «علي» في حادث غامض بألمانيا الاتحادية ، وليواجه مأساة تزوير تاريخه في حياته على أيدي أتباع «عبد الناصر» في الإعلام والتربية والثقافة . . ويرحل «محمد نجيب» ابن «النهارية» مركز كفر الزيات وأول رئيس لجمهورية مصر في ٢٨ أغسطس ١٩٨٤م وكان قد رحل قبله «جمال عبد الناصر» ، وعبد الحكيم عامر ، وجمال سالم ، وصلاح سالم ، وأنور السادات ، وكمال رفعت «وبقيت مصر .

الأسانيد . .

- ١- أنور السادات . . البحث عن الذات .
- ٢- المصري . . «جريدة» ١١ أغسطس ١٩٥٢ .
- ٣- سيد مرعى . . أوراق سياسية «٣ أجزاء» .
- ٤- عبد اللطيف البغدادي . . مذكرات «جزءان» .
- ٥- محمد نجيب . . كلمتي للتاريخ .

الدكتور محمد مندور



عبارة واحدة جعلتني اترث في تحرير هذه السيرة بعد أن جمعت مادتها العلمية . . وجعلتني أعود إلى قراءة المادة التي أمامي من جديد ، وأن أستعيد ذكريات جيلي معه ، ودعنتني إلى أن أدرس بعناية أكثر موقفه من ٢٣ يوليو وموقف رجال ٢٣ يوليو منه ودفعنتني - حتى أستوثق أكثر - إلى أن أتصل بالشاعرة الكبيرة الأستاذة « ملك عبد العزيز » تلميذته في قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول ، ثم زوجته ورفيقة دربه منذ مارس ١٩٤١ - وعقب رحيله في « ١٩ مايو ١٩٦٥ » توفرت الشاعرة على جمع كتبه ومقالاته ، وسلمت هذه الحصيلة لصديق مسيرته الفكرية « الدكتور لويس عوض » وبالفعل كتب الدكتور « لويس » مقالين في جريدة « الأهرام » عن « الدكتور مندور » منذ صداقته له في ٢١ أكتوبر ١٩٣٧ بباريس حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بالقاهرة في ١٩ مايو ١٩٦٥ ، وحسب رواية « الشاعرة ملك عبد العزيز » لي فإن « الدكتور لويس عوض » لم يكتب ما هو أكثر أهمية مما كتب لأن « جمال عبد الناصر » لا يرغب - حسب رواية الأستاذ محمد حسين هيكل للدكتور لويس - في إلقاء الأضواء على جهود اشتراكية ونضالية وسياسية قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهذا يتفق مع أسلوب تفكير رجال يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في أن الله سبحانه وتعالى خلق مصر في فجر الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ومرة ثانية سلمت « الشاعرة ملك عبد العزيز » حصيلة المقالات والأوراق لمجلة « الطليعة » التي أصدرت في عدد مايو ١٩٦٦ ملفاً عن « مندور في تراثنا القومي » وذلك في الذكرى الأولى لرحيله ، وهذا يفسر التشابه الكبير فيما جاء في هذا الملف وفيما كتبه « الدكتور لويس عوض » لأن المصدر واحد وهو تراث الدكتور مندور الذي جمعته من بعده زوجته « الشاعرة ملك عبد العزيز » .

ويبدو أنني استرسلت ، وكاد الخيط يفلت مني ، أعود إذن إلى السطر الأول .

أنقل هنا ما جاء بعدد مجلة الطليعة في مايو ١٩٦٦ - في صفحة ١٤٤ ما نصه « لقد استمر فكر مندور السياسى النير ، يرسل ومضاته حتى آخر كلمة كتبها ففى آخر مقال كتبه بروز اليوسف فى ٢٤ / ٥ / ١٩٦٥ وضع يديه على أحد العوامل الأساسية إن لم يكن أكثرها أساسية فى الآونة الأخيرة بالنسبة لضمان نجاح الثورة وتقدمها ، حين قال « إن التنظيم السياسى الذى تحدث عنه الميثاق كدينمو الاتحاد الاشتراكى ، هذا التنظيم هو وحده الذى سيستطيع ، إذا نجحنا فى تكوينه أن يميز بين الحق والباطل ، والنصح والغش ، والصدق والكذب فى مجالات السياسة والإدارة والاجتماع والأخلاق » وعلى صفحة ١٥٢ فى الموضوع ذاته « كتب أخيرا فى روز اليوسف ، وقد كتب مقالاته الأخيرة بها ليلة وفاته ونشرت فى الأسبوع التالى » .

وهنا ترتب العناصر . . آخر مقال كتبه بروز اليوسف ونشر فى ٢٤ مايو ١٩٦٥ « بعد رحيله الذى كان فى ١٩ مايو » كتب ليلة وفاته ، وهذه البيانات القاطعة فى الملف تعنى أن كاتب الموضوع تسلم المقال من « الدكتور مندور » لنشره بروز اليوسف ، أو أنه حضر كتابته ليلة الوفاة ، أو أملاه عليه وهو يحضر ، أو كان حاضرا إملأه على زميل آخر ، أو على الأقل نقل إليه خبر كتابة المقال من شخص يثق فى صدق بياناته .

ولأن موضوع المقال الأخير على جانب من الأهمية بالنسبة لتطور فكر « الدكتور مندور » كان اتصالنا بالشاعرة « ملك عبد العزيز » لإلقاء الضوء على ظروف الكتابة فى ليلة الوفاة . . وعلى سبيل القطع أكدت لنا الشاعرة أنها لم تكتب بنفسها شيئا من هذا ، وذلك لأن الأطباء كانت تعليماتهم حاسمة فى الأسبوعين الأخيرين له بعدم القراءة وعدم الكتابة ، ولهذا امتنعت عن الكتابة له تنفيذًا لتعليمات الأطباء . هذا وإن كانت « الشاعرة الكبيرة » قد أوردت احتمال أن يكون قد أملى المقال على واحد من تلاميذه . وقد أضافت أنها لاتذكر شيئا عن هذا المقال أو موضوعه ، أو عن ملابسات كتابته أو نشره بعد وفاته . والتنظيم السياسى هنا ، موضوع هذا المقال - الذى قيل إنه كتبه ليلة الوفاة - يتعلق بتنظيم طليعة الاشتراكيين الشهير بالتنظيم الطليعى وهو تنظيم سرى كان يشرف عليه « شعراوى جمعة » ويضم فى أمانته « محمد فايق وزير الإعلام الأسبق ، وسامى شرف سكرتير الرئيس الراحل جمال عبد الناصر للمعلومات ، وأحمد كامل رئيس المخابرات ، ومحمود أمين العالم المفكر الماركسى » وعددا آخر من رجال الإعلام والأمن . .

٢٣ يوليو

وهذا الذى كتبه الدكتور مندور - أو قيل إنه كتبه - ليلة الوفاة سوف يظل موضع تحفظ حتى نجد ما يسانده فى مقال آخر يكون قد كتبه وهو فى أتم عافيته ، أو إلى حين أن ينشر علينا البعض أسماء ذلك التنظيم الذى أطلق عليه أصحابه اسم « طليعة الاشتراكيين » والذى عرف بين الناس

باسم « التنظيم الطليعى » وهو تنظيم سرى داخل الاتحاد الاشتراكى ، وكانت لجانه تندس فى مواقع الإنتاج وفى الأنشطة المختلفة ، جميع الأنشطة حتى « القضاء » .

وهذا المقال الذى نشر بعد رحيل الدكتور مندور فيما يشبه الوصية التى كتبها وهو يحتضر ورأى فيه « هذا التنظيم هو وحده الذى سيستطيع أن يميز بين الحق والباطل ، والنصح والغش ، والصدق والكذب فى مجالات السياسة والإدارة والاجتماع والأخلاق » هذا كله ذهب مع الريح فى ٥ يونيه ١٩٦٧ ، وظهرت آثاره جلية واضحة فى « مجالات السياسة والإدارة والاجتماع والأخلاق » بما يجعلنا نتحفظ إزاءه كما قلنا ، ويجعلنا نعود إلى موقف « الدكتور محمد مندور » من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بشيء من التفصيل .

والذى نعرفه أن سلطة ٢٣ يوليو اعترضت على الدكتور مندور مرتين ، مرة لصالح المرحوم الدكتور فؤاد جلال دون إبداء الأسباب ، والثانية لصالح « مصطفى كامل مراد » - رئيس حزب الأحرار حاليا - ولكن هذه المرة كان مشفوعا بخطاب تقدير للدكتور مندور يشره بأن السلطة الجديدة اذ تعترض عليه فإنها تدخره لأعمال هامة فى مقبل الأيام .

كتب « الدكتور مندور » فى جريدة الجمهورية ، وعمل بجريدة « الشعب » التى أشرف عليها المرحوم صلاح سالم « ورأس تحريرها لفترة « الأستاذ أحمد بهاء الدين » وكان فى فترة سابقة يكتب فى مجلة اسمها « الثورة » التى أصدرها أحد الضباط الأحرار « وحيد رمضان » والذى كان يعد الدكتور مندور استاذاً له وسعى إليه أن يكتب فى مجلته « الثورة » .

الديمقراطية السياسية

ومهما يكن من أمر ، فإن المقال الذى نشر باسمه فى مجلة روز اليوسف بعد رحيله ، والذى قيل إنه كتبه ليلة وفاته لا يشكل أمراً محمداً فى موقف « الدكتور مندور » من اتجاهات ٢٣ يوليو غير الديمقراطية . . فهذه السطور التى يتحدث فيها عن « التنظيم السياسى » دينامو الاتحاد الاشتراكى تحمل الأمنيات بأن يقوم هذا التنظيم بدور فى مجال السياسة والأخلاق والاجتماع .

ويبقى دوره المحدد الموفق إزاء الاتجاهات غير الديمقراطية لدى قادة ٢٣ يوليو والتى كان يحذر منها دائماً . وقد صح ما توقعه فى مجمله .

فى ديسمبر ١٩٥٢ صدر للدكتور مندور كتاب صغير بعنوان « الديمقراطية السياسية » فى سلسلة جديدة هى « كتاب المواطن » وقد صدر من هذه السلسلة ثلاثة أو أربعة أعداد . وكان يقوم على إصدارها مجموعة من الشباب الوطنى الذين كانوا يخشون الاتجاهات غير الديمقراطية لدى رجال ٢٣ يوليو ، وليس سرا أن « الدكتور مندور » كتب هذا الكتيب وركز فيه على حرية

العمل السياسى ، وحرية تكوين الأحزاب ، وحرية التعبير ، وحرية الاعتقاد تحذيرا من اتجاهات « فاشية » كان يراها تطل من مبنى قيادة الحركة الجديدة .

وقد صبح ما توقعه « مندور » عندما حمل « المرحوم الدكتور فؤاد محيى الدين » وكان قريبا من « القيادة » كما كانوا يسمونها في تلك الأيام ، حمل إلينا نحن شباب تلك الأيام اقتراحا براقا من « القيادة » بأن يتكون « مجلس استشارى » يضم الشباب الوطنى وممثلين للنقابات المهنية والعمالية ، وكان هذا الاقتراح بديلا عن تمسك مجموعة الشباب بعودة مجلس النواب المنتخب الذى سبق حله ، وبعد مناقشات استمرت غالبية الليلة تم رفض الاقتراح الذى حملة الدكتور فؤاد محيى الدين .

المجلس الاستشارى

ولا أتكلم هنا عن موضوعات يمكن أن يقال حولها . . ومن أدرانا ؟ فقد رحل الدكتور محمد مندور ، ورحل الدكتور فؤاد محيى الدين . . وأبادر فأقول إننى كتبت صراحة هذا الموضوع فى أكثر من مقال ، فى حياة « الدكتور فؤاد محيى الدين » رئيس وزراء مصر الأسبق ورجوته أن يكتب مذكراته ويزيح الستار عن هذا الموضوع . . هذه واحدة . أما الثانية فلإننى سجلت فى مقال من هذه المقالات أن هذا الاجتماع الخطير عقد فى منزل بأرض الطويل بحى شبرا ، هو منزل « الأستاذ محمد جويلى » عضو مجلس الشعب حاليا عن الحزب الوطنى الديمقراطى . أما الثالثة . . فهى تتعلق بالدور الفكرى الخطير الذى قام به « الدكتور مندور » عندما حملنا إليه — نحن الشباب — هذا الاقتراح المبكر من السلطة الجديدة . . وكان رأيه . . هذا اقتراح سبق أن طبقه « موسولينى » فى إيطاليا وكان بداية لضرب الديمقراطية السياسية ، وانفراد « موسولينى » بالسلطة .

ولما كان هذا الاتجاه يندر بالخطر على الحياة الديمقراطية فى مصر . . عقد مؤتمر عام فى منزل « المرحوم حفىنى باشا الطرزى » قطب الوفد المعروف والمنزل كان كائنا فى أول حى السكاكينى من جهة شارع « الملكة نازلى » . . وتكلم فى هذا المؤتمر « المرحوم الدكتور محمد مندور » شارحا ومحدرا من الاتجاهات الدكتاتورية أو الفاشية على حد تعبيره ، وتكلم « المهندس رفيق الطرزى » ابن صاحب البيت أو صاحب البيت . . وكان عضوا بمجلس النواب — آخر مجلس نواب فى مصر ، وقد فرض على نفسه عزلة اختيارية منذ مايقرب من ٣٥ سنة ، وعلى أية حال فإن مجلة المصور — فى تلك الفترة — تحمل الكثير من وقائع هذا المؤتمر .

هذه وقائع من مواقف « الدكتور مندور » بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهى وقائع تبين أنه على الأقل فى السنوات الأولى كان مناهضا لكل اتجاهات غير ديمقراطية ، وتبين أنه بعد أن استمر

الوضع للسلطة الجديدة اعترضت على « الدكتور مندور » مرتين وليس هناك ما ينبئ بأن السلطة الجديدة قد غيرت موقفها الحذر إزاء « الدكتور مندور » وليس هناك ما ينبئ بأن « الدكتور مندور » قد انحاز تماما لعبد الناصر أو لمرحلته .

الموقف من الماركسية

والذى حدث حول موقف « مندور » من ٢٣ يوليو نجد شبيها له في موقفه من « الماركسية » . حدث خلط كبير بين أفكاره وبين أفكار بعض الماركسيين إلى درجة أن بعض زملاء حزبه داخل الوفد كانوا يحسبونه ماركسيا من باب التصنيف السهل السريع ، وهكذا فعل « صدقي باشا » في يوليو ١٩٤٦ مبررا اعتقال « مندور » والغاء ترخيص « الوفد المصرى » ومجلة « البعث » التى كان « الدكتور مندور » قد أصدرها من ماله الخاص في ديسمبر ١٩٤٥ ، واتهمه « صدقي باشا » بأنه « الوسيط » بين الوفد وبين الشيوعية الدولية - ولم يكن شىء من هذا صحيحا فلا حزب الوفد حزب شيوعى ولا « الدكتور مندور » ماركسى أو شيوعى . . وله أقوال ثابتة في هذا المجال . . لم يكن لى في يوم من الأيام اتصال بالحزب الشيوعى ومنظماته ، وإذا كنت وضعت بين شعارات جريدة الوفد المصرى التى كانت تنشر تحت عنوانها كل يوم شعار العدالة الاجتماعية ، فقد كنت مدفوعا في ذلك بنزعة إصلاحية خالصة وكانت تدعونى إلى مناصرة العدل بين المواطنين ، وتقريب المسافة بين الثراء والفقر المدقع الذى كانت تتردى فيه الملايين .

وهو بهذا قد حدد موقعه بدقة . . إصلاحى يدعو إلى مناصرة العدل الاجتماعى بين المواطنين . . وإذا كان بعض من يقرءون له يلمسون أنه خفف من نقده للأنظمة الشيوعية . . فيمكن القول إنه مال في أخريات سنواته إلى تخفيف ملاحظاته حول الماركسية والماركسيين إلا أن هذه « المصالحة » إذا جاز هذا التعبير لم تتم إزاء نقطتين على وجه التحديد . . الأولى موقف الماركسية من الدين ، والثانية موقف الماركسية من الملكية الخاصة .

الديمقراطية الاجتماعية

وقد عرف عن « الدكتور مندور » قوله بما أسماه هو « الديمقراطية الاجتماعية » وإن شئت القول « الديمقراطية الاشتراكية » وهو في هذا متأثر بالفكر الاشتراكى الفرنسى عندما كان عضوا في البعثة التى أوفدها « الدكتور طه حسين » إلى باريس سنة ١٩٣٠ من خريجي كلية الآداب ولم تعد إلى مصر إلا بعد تسع سنوات عام ١٩٣٩ .

ويوضح « الدكتور مندور » موقفه الفكرى بوضوح كامل على صفحات مجلة « الثقافة » سنة ١٩٤٣ . . يقول . .

(بالنظر فيما يكتب اليوم في بلادنا نجد نزعتين . . نزعة الديمقراطية الحرة ، والنزعة

الاشتراكية . . وأصحاب النزعتين فيما أعتقد مخطئون . . فالديمقراطية الحرة تدعو كما هو معلوم إلى الحد من اختصاصات الدولة وإلى عدم تدخلها في الحياة الاقتصادية وهذا مذهب لو طبق في بلادنا لظللنا على ما نحن فيه من فقر وتخلف . فنحن إذن في أمس الحاجة إلى تدخل الدولة في كافة نواحي حياتنا الاقتصادية . ونترك الديمقراطية الحرة لننظر في الاشتراكية كمذهب اجتماعي . ومن الثابت أنه لو وزعت الثروة الموجودة الآن ببلادنا بالتساوي لافتقر الجميع ولم يغتن أحد ثم إنه لكي تحقق الاشتراكية لأبد من سفك دماء فيما أرجح وهذا أمر إجرامى لا يمكن أن يفكر فيه عاقل . وإذن فنحن من جهة نرفض الديمقراطية الحرة لأننا لا نرى مفرا من دعوة الدولة إلى التدخل كما نرفض الاشتراكية لأننا نكره وسائلها ونخشى طغيانها .

وبهذا يتضح موقف « الدكتور مندور » الفكري . . إيمان بالدين ، وحرص على الملكية الخاصة ، وديمقراطية سياسية تسمح بحرية تكوين الأحزاب وحرية الاعتقاد والتعبير ، وتدخل للدولة في حياتنا الاقتصادية ، ورفض للطغيان وسفك الدماء في تطبيق العدل الاجتماعي .

وفي موضع آخر يقول « مندور » عن وسيلة تحقيق « الديمقراطية الاجتماعية » (ليس هناك طرق غير النزول إلى الشارع وكسب الرأي العام تمهيدا للوصول إلى السلطة الفعلية . .) وأحسبه في ذلك متأثرا بأفكار الحزب الاشتراكي الفرنسي ، وبالاشتراكية الديمقراطية عموما ، والأخذ بالأسلوب البرلماني وصولا إلى السلطة وهو ما كان يميز هذه الأحزاب عن الأحزاب الشيوعية .

كتاب الشيخ عطوة

كانت تلك بعض الملامح الفكرية « للدكتور محمد مندور » ابن « كفر مندور » مركز منيا القمح بمديرية الشرقية . وولد في ٥ يوليو سنة ١٩٠٧ أى إنه كان يكبر زميل كفاحه « الدكتور عزيز فهمي » بستين . تعلم « مندور » في كتاب « الشيخ عطوة » بالقرية . ثم تلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة الألفى الابتدائية بمنيا القمح . ونال البكالوريا سنة ١٩٢٥ بمدرسة طنطا الثانوية - القسم الأدبي . ولكن حادثة تدخل في وجدانه الوطني سنة ١٩١٩ وهو في الثانية عشرة من العمر يشاهد تظاهرة من الفلاحين على جسر بحر موسى ، ويشاهد الانجليز يطلقون الرصاص على أهله الفلاحين فيسقط منهم ١٥٠ ما بين قتييل وجريح . وما أن يستقيل سعد زغلول في آخريات عام ١٩٢٤ ، ويحل محله « أحمد زيور باشا » حتى يتزعم « مندور » تظاهرة طلابية ضد الانجليز وضد حكومة زيور باشا ، ويفصل من المدرسة فترة غير قصيرة . وحصل على ليسانس الآداب سنة ١٩٢٩ وعلى ليسانس الحقوق سنة ١٩٣٠ . وسافر في بعثة إلى باريس سنة ١٩٣٠ . وهناك كانت حياته سياحة فكرية وثقافية وفنية . وقف هناك على معالم الحضارة الأوربية ، وعلى الفكر الاشتراكي ، وعاش النشاط الأدبي والفني . وحصل على شهادات في اللغة اليونانية وآدابها ، وشهادة في الأدب الفرنسي ، وشهادة في فقه اللغة الفرنسية ، وشهادة من

معهد الصوتيات وحصل على دبلوم في الاقتصاد والتشريع المالى . ويحدث ما يوقفه عن البعثة عام ١٩٣٦ ويسعى له « أحمد لطفى السيد » لدى « مكرم عبيد » الذى أعاد البعثة إليه ، أو أعاده إلى البعثة بسبب موقفه الوطنى فى باريس دفاعا عن حق مصر فى إلغاء الامتيازات الأجنبية . ويعود ابن كفر مندور من بعثته الطويلة فى باريس ، وقد حصل على شهادات ودبلومات دون أن يحصل على الدكتوراه التى أوفد من أجلها .

بعد البعثة

لم يكن مندور راغبا فى العمل بالنيابة وسافر إلى البعثة . ولكنه عندما عاد من البعثة دون أن يحصل على الدكتوراه غضب منه وعليه « الدكتور طه حسين » وأبى عليه أن يقوم بالتدريس فى قسم اللغة العربية ، ولم يقبله قسم اللغة الفرنسية . ولكن « أحمد أمين » هباً له أربع ساعات للترجمة من الفرنسية إلى العربية . وفى العام الجامعى ١٩٤٠ - ١٩٤١ أخذ جدولا فى معهد الصحافة لتدريس اللغة الفرنسية والترجمة من الفرنسية إلى العربية .

وسنة ١٩٤٢ عينه « الدكتور طه » عضواً فى هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية وكانت جامعة ناشئة . ولم يكن « الدكتور مندور » من النوع الذى يريد أن يحصل على الدكتوراه كترخيص يسمح له بالتدرج فى السلك الجامعى وإلا حصل عليها وهو فى باريس من أيسر السبل وما أكثرها للذين يعرفون دهاليز الحصول على مثل هذه الشهادات عن غير طريق المعرفة الجادة . ولهذا عكف فى مصر على أطروحتة « النقد المنهجى عند العرب » وتحت إشراف « أحمد أمين » أنجزها فى تسعة أشهر وحصل بها على شهادة الدكتوراه التى يريدونها وكان ذلك فى سنة ١٩٤٣ .

وبقدر غير قليل من التحدى قدم استقالته من الجامعة وخرج للعمل بالصحافة فى جريدة « المصرى » سنة ١٩٤٤ . ويبدو أنه هباً نفسه للعمل بالصحافة والسياسة وبالحياة العامة ومعه المؤهلات أو الأسلحة المطلوبة من دراسة الحقوق إلى دراسة الاقتصاد إلى الفكر والثقافة إلى الدكتوراه . . ولم يلبث أن وقع فى نزاع مع أصحاب جريدة المصرى . . وانطلق إلى جريدة « الوفد المصرى » وكان الصراع السياسى محتدماً فى تلك الأيام .

سنوات الصراع

عندما عاد « مندور » إلى مصر سنة ١٩٣٩ كان هناك حزب الأغلبية الشعبية « الوفد » برئاسة الليبرالى وإلى يساره أخذت الحلقات الماركسية بفكرها الجديد فى النمو ، وهناك إلى يمينه الإخوان المسلمون الذين وجدوا منه سنة ١٩٢٨ ومصر الفتاة التى تأسست عام ١٩٣٣ . وعرفنا فيما سبق المعاناة التى لقيها « مندور » فى الجامعة ، من الناحية الأخرى كان له فكره المتميز . . إيمان

بالديمقراطية السياسية وبدرجة من تدخل الدولة في الاقتصاد ، وحرص على الدين وعلى الملكية الخاصة والقول بالعدل الاجتماعى مما يشكل في مجموعة ديمقراطية اشتراكية أو ديمقراطية اجتماعية على حد تعبيره . . بهذه الأسلحة خاض « مندور » الحياة السياسية من باب الصحافة في جريدة المصرى ، والوفد المصرى ، والبعث . وأحاط نفسه أو أحاط به مجموعة من الكتاب اليساريين مثل « أحمد رشدى صالح ، وسعد مكايى ، ونعمان عاشور ، وأنور كامل ، ومحمد إسماعيل محمد ، ومصطفى كامل منيب ، وأنور المشرى » وهو يجد فيهم كفاءات ثقافية تعاونه في أعماله الصحفية ، وهم يجدون فيه مظلة واقية شرعية في ظلال حزب الأغلبية الشعبية . . ولكن الحدود واضحة ومعروفة ، والمقام محفوظ . فإذا وافقهم على أن الدين عقيدة بين الإنسان وخالفه تحميها القوانين ولا يحاسب عليها أحد . . لكنه يؤكد شخصيته لموقف الماركسية من الدين . وإذا وافقهم في الدعوة إلى العدل الاجتماعى . . أكد مبدأ الحفاظ على الملكية الخاصة . وبسبب مقالاته ضد « إسماعيل صدقى » ومفاوضاته مع الانجليز دخل الحبس الاحتياطى أكثر من عشرين مرة في عام واحد .

وهاجم إسماعيل صدقى وهاجم مكرم عبيد سنة ١٩٤٤ عندما ثارت مناقشات حول الميزانية في عهد وزارة « أحمد ماهر » . . وطالب إسماعيل صدقى بعقد قروض عامة ، وطالب مكرم عبيد بأن تبيع الحكومة أراضيها على أن يدفع الثمن فوراً . . عارض « الدكتور مندور » فكرة عقد القروض التى تمكن الأثرياء من استغلال أموالهم المقدسة وإن الدولة ستدفع لهم أرباح القروض من دماء الشعب . وعارض فكرة أن تبيع الحكومة أراضيها وأن يدفع المشترون الثمن فوراً لأن معنى ذلك هو أن كبار الأثرياء سينهبون أملاك الحكومة ويزداد التفاوت بين الأغنياء والفقراء .

المثقف الثورى

والدكتور محمد مندور نموذج للمثقف الثورى الذى قرن الفكر بالعمل ، والإيمان بالنضال ، وحكمت أفكاره نشاطيه السياسى والأدبى معا فأصبح داعية تطور وتقدم فيما يكتب وفيما يسلك وهذا هو دوره العظيم في تاريخنا المعاصر سواء داخل الوفد أو في الصحافة أو في السياسة .

الأسانيد:

- ١ - الطليعة - مجلة - مايو ١٩٦٦ ملف في الذكرى الأولى لرحيله .
- ٢ - د . عبد المنعم تليمة . . مجلة الكاتب يونية ١٩٦٧ .
- ٣ - د . لويس عوض - الثورة والأدب .
- ٤ - ملك عبد العزيز الشاعرة - نقاش بتاريخ ٨ / ٥ / ١٩٨٧ .

محمود حمدى الفلكى



لم يكن اسمه هكذا فى البداية ، بعد مولده سنة ١٨١٥ ببلدة الحصنة مديرية الغربية كان اسمه « محمود أحمد » ، وبعد أن ذاع صيته فى مجال الفلك والعلوم اشتهر باسم « محمود حمدى الفلكى » . وعندما أصبح ناظرا للنافعة (وزيرا للأشغال) من ١٨ يونية ١٨٨٢ - ٢١ أغسطس ١٨٨٢ فى نظارة إسماعيل راغب باشا أو وزارة الأزمة كما يطلق عليها « الدكتور لويس عوض » وعندما أصبح ناظرا للمعارف العمومية بعد الاحتلال فى نظارة (نوبار باشا الثانية) من ١٠ يناير ١٨٨٤ - ٩ يونية ١٨٨٨ كان قد اشتهر باسم « محمود الفلكى باشا » وهو الاسم الذى دخل به القبر فى ١٩ يوليو ١٨٨٥ . ويخبرنا « أحمد سعيد الدمرداش » فى كتابه عنه . . إن « محمود الفلكى باشا » ناظر المعارف العمومية توجه إلى الجبانة فى ١٨ يوليو ١٨٨٥ وحث العمال على سرعة الانتهاء من استكمال القبر الذى كان قد رسمه لنفسه ، وبعد أن اطمأن إلى أن القبر أصبح جاهزا عاد إلى مكتبه فى اليوم التالى ليموت فجأة وهو صحيح وبعاية .

المهم أن « محمود أحمد » هذا هو « محمود حمدى الفلكى » أو « محمود الفلكى باشا » لم يبق من سيرته فى أذهان الناس سوى ميدان أو شارع الفلكى ، وفى الفترة الأخيرة أشيع أن جهة ما فى سبيل أن تغير اسم الميدان أو اسم الشارع . وجاءنى الصديق الكاتب « مختار السويفى » يستحثنى أن يحتل « محمود الفلكى » واحدة من حلقات (هذا الرجل من مصر) وبعد حاضر . . حاضر دون تنفيذ . وضع أمامى كتابا من تأليف « محمود الفلكى » بالفرنسية ونقله إلى العربية حفيد « محمود صالح الفلكى » وفى هذا الكتاب ترجمة ضافية لحياة « محمود الفلكى باشا » كتبها الحفيد الوفى مستندا إلى عدد من المراجع الدقيقة ، ووضع (السويفى) أمامى أيضا دراسة له عن (العبقري المصرى محمود الفلكى) كان قد نشرها فى جريدة الأخبار فى أواخر عام ١٩٨٥ .

وحاسة « مختار السويفى » لمحمود الفلكى باشا تعادها حماسة الزميل الكبير « كامل زهيرى » النقيب الأسبق للمصحفين الذى حكى لى أنه عندما كان فى (باريس) منذ سنوات قضى أياما كثيرة يبحث عن آثار « الفلكى باشا » هناك إذ إنه سافر فى بعثة سنة ١٨٥٠ م إلى باريس وهو برتبة (الصاغ) واتخذ المرصد الفلكى مقرا له . ودرس على أيدي علماء الطبيعة والفلك مدة تسع سنوات كاملة . . ويستعيد « كامل زهيرى » سعادته وهو يبحث عن محل إقامة (الفلكى) وعن بحوثه ودراساته التى وضعها بالفرنسية وعن المعاهد التى درس فيها فى باريس .

ووعدت بالكتابة عنه ، وهأنذا أفى بالوعد . . وأرجو أن يقرأ هذا الموضوع الذين يركبون الخنازير وهم يفكرون فى اسم (مودرن) لميدان الفلكى .

العهد الخمسة

وإذا كنا قد عرفنا أن « محمود الفلكى باشا » قد ولد سنة ١٨١٥ م ورحل سنة ١٨٨٥ م ، فمعنى هذا أنه شهد عصور محمد على ، وعباس الأول ، وسعيد ، وإسماعيل ، وتوفيق ، وعند وفاة محمد على (٢ أغسطس ١٨٤٩ م) كان المهندس « محمود أحمد » يقوم بتدريس الرياضيات والفلك فى مدرسة المهندسخانة ومديرا للمرصد الفلكى الملحق بالمدرسة . وعندما توفى « محمود الفلكى » عام ١٨٨٥ فى عهد الخديو توفيق ، كان كما عرفنا ناظرا (وزيرا) للمعارف العمومية .

ونقف فى عصر إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) عند حركة الترجمة . وكانت رغبة إسماعيل فى الاستقلال عن تركيا تقوده إلى زيادة التمسير وبدأت اللغة العربية تحتل مكانتها . وقد صدر أمر لوزير الداخلية فى عام ١٨٦٦ ينص على استخدام اللغة العربية فى تحرير المراسلات الداخلية . واتخذ « إسماعيل » عددا من الخطوات لاهتمام بالترجمة ، والاهتمام بتعليم اللغات الأجنبية ، وإعادة فتح مدرسة الألسن ١٨٦٧ ، وتنوع اللغات الأجنبية فى المدارس ، وكان تعليم اللغة الفرنسية إجباريا .

نشطت حركة الترجمة فى عهد إسماعيل . وتأتى العلوم والرياضيات وفنون الهندسة على رأس القائمة ، وتأتى بعدها العلوم العسكرية ، وفى المرتبة الثالثة الآداب ، وفى المرتبة الرابعة التاريخ والجغرافيا ، وفى المرتبة الخامسة القانون ، وأخيرا (الطب والديانات والإحصاء والشئون المنزلية) . يهمنى هنا أن ترجمة (العلوم والرياضيات والهندسة) كانت تحتل المقام الأول فى عصر إسماعيل وهذا يدل على عقلية ناضجة متقدمة . . ولا بأس هنا أن نذكر قائمة بأسماء المترجمين أو أهم المترجمين فى عهد إسماعيل فى الفروع المختلفة :

العلوم والرياضيات : محمود حمدى الفلكى ، وصالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود ، ومحمود سليمان ، وجرجس حليا ومحمود فهمى ، وإسماعيل مصطفى الفلكى ، وأحمد نادى ، وعلى عزت ، وإبراهيم مصطفى .

العلوم العسكرية : أحمد عبيد الطهطاوى ، سليمان سليمان ، سليمان رءوف ، عبد الرحمن على ، حسن مظهر ، أحمد حمدى ، محمد عثمان .

الآداب : محمد عثمان جلال ، أحمد نجيب ، بشارة شديد ، حسين حسنى ، نجيب بحرى ، مراد مختار .

التاريخ والجغرافيا : خزين نعمة الله الخورى ، محمد أحمد عبد الرازق ، خليفة محمود عبد الله ، أبو السعود الطهطاوى .

القانون : رفاة الطهطاوى ، عبد الله أبو السعود ، محمد قدرى ، أحمد زكى .

المعارف الأخرى : حسن عبد الرحمن ، هليمة تمرهان ، حسن محمود ، نخلة صالح ، حسن عاصم ، حسين ندور ، سعيد البستانى ، محمد أحمد بن صدقى .

عصر محمد على

وعلى الرغم من أن « محمود الفلكى » حرص على أن يتبعد عن (السياسة) وربما هذا كان من عوامل عدم شهرته ، إلا أن طبيعة كل فترة من الفترات الخمس من محمد على إلى توفيق انعكست على أعماله بطبيعة الحال . .

كان مولده كما عرفنا عام ١٨١٥ فى أسرة فقيرة ، وسنة ١٨٢٤ وهو فى التاسعة من عمره اصططحه شقيقة الأكبر إلى الإسكندرية حيث ألحقه بإحدى المدارس الابتدائية ، وبعدها ألحقه بالمدرسة البحرية وكانت تسمى (مدرسة الترسخانة) ويديرها مهندس فرنسى خبير فى بناء السفن يعاونه عدد من الخبراء الفرنسيين والإيطاليين . وكانت (الترسخانة) فى مستوى المعاهد المتوسطة ، وتخرج فيها برتبة (البلوك أمين) سنة ١٨٣٣ . وجاء سنة ١٨٣٤ إلى القاهرة ليلتحق بمدرسة (المهندسخانة) ببولاك وتخرج منها سنة ١٨٣٩ برتبة الملازم . وأتقن اللغة الفرنسية فترجم إلى العربية كتابا فى (التفاضل والتكامل) الذى طبع بمطبعة بولاك سنة ١٨٤٢ بموافقة « محمد على » الكبير . وصدر قرار بتعيينه مدرسا فى مدرسة (المهندسخانة) لتدريس الرياضيات ، وعلم الفلك ، ومديرا للمرصد الفلكى الذى ألحق بالمهندسخانة ، ووضع رسالة باللغة العربية بعنوان (نبذة مختصرة فى تعيين عروض البلاد وأطوالها) . وكان « محمد على » تحت

ضغط مشروعاته الحربية خارج البلاد في حاجة لجباية الخراج ، فأراد تحديد مساحات الأرض المنزرعة ليقسم الخراج على أساسها ، فاستعان بعناصر أجنبية وأرمينية ، ولكن « محمود الفلكي » كان من العناصر المصرية التي قامت بدور هام في قياس المساحة المنزرعة على أسس علمية واستطاع ان يعين خطوط الطول والعرض لنحو ثلاثين نقطة في الدلتا والوجه القبلي .

ومن الطريف أن « محمود الفلكي » كان مدرسا لعلی مبارك عندما التحق « علی » بمدرسة المهندسخانة . وعلى مبارك أصغر في العمر من محمود الفلكي بثمانية أعوام ولكنه سبقه في الترقى إلى الوظائف العليا وفي الرتب .

حركة الانكماش

ويقصد بحركة الانكماش تلك التي صاحبت عهد « عباس الأول » الذي تولى حكم مصر (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م) في حياة محمد علي الذي كان قد ترك الحكم لابنه « إبراهيم باشا » الذي توفي ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ . وبدأ عباس الأول في حركته الانكماشية ونفى « رفاعة رافع الطهطاوى » إلى السودان وأغلق مدرسة الألسن وصفى الكثير من المدارس وسرح تلاميذها ، وطرد الكثير من المثقفين والعلماء ونفى بعضهم إلى الآستانة ، واستدعى « علی مبارك » من باريس الذي كان يتدرب في الجيش الفرنسى وقربه إليه . وفي أكتوبر ١٨٥٠ م أراد الخديو تقليص حجم التعليم وميزانيته ، فطلب سرا من « علی مبارك » وزميليه « حماد عبد العاطى » وعلى إبراهيم « إعداد المشروع ، فأعد « علی مبارك » مشروعا استحق عليه رتبة (اميرالاي) واستحق منصب (نظارة المدارس) . . وأصبحت لعلی مبارك منزلة عند « عباس الأول » وتراجعت أسهم « رفاعة الطهطاوى » . . على أية حال هناك دفاع ممتع عن عدم مسئولية « علی مبارك » في حركة الانكماش مع « عباس الأول » في كتاب الدكتور محمد عمارة عن علی مبارك . ولم ينس « علی مبارك » أستاذه السابق في مدرسة (المهندسخانة) ونعنى به « محمود الفلكي » فأرسله مع زميليه « إسماعيل مصطفى الفلكي » و« حسين إبراهيم » في بعثة إلى باريس لدراسة علوم الفلك لتولى مدرسة (الرصدخانه) التي ألغيت في مشروع الانكماش لعدم وجود من يتولى أمرها ، وكان سفر البعثة في ٨ أكتوبر ١٨٥٠ . وفي ١٥ يوليو سنة ١٨٥٤ م يلقي « عباس الأول » مصرعه بطريقة غامضة على أيدي الخدم ويتولى أمر البلاد « الوالى سعيد » بن « محمد على » فيقرب « رفاعة الطهطاوى » إليه ويعد « علی مبارك » عنه وسوف نرى ماذا كان شأن « محمود الفلكي » في عهد « سعيد » ولكن بعد أن نوجز حاله في فترة « عباس الأول » .

في باريس اتخذ المرصد الفلكي مقرا له ، ودرس على أيدي علماء الطبيعة والفلك مدة تسع

سنتين كاملة ، وفي سنة ١٨٥٤ قام برحلات إلى ألمانيا وبلجيكا لزيارة مراكز الأرصاء . وقدم رسالة إلى أكاديمية العلوم البلجيكية ، نشرتها سنة ١٨٥٤ .

عهد سعيد

وإذا كان « على مبارك » في فترة الانكماش قد أرسل « محمود الفلكى » في بعثة إلى باريس ، فإن « رفاعه الطهطاوى » الذى أصبح له الخطوة عند « سعيد » بدلا من « على مبارك » الذى أرسلوه إلى ميدان الحرب فى القرم لأنه يحمل رتبة (اميرالاي) . . رفاعه الطهطاوى كان وراء أن ترسل الحكومة المصرية إلى « محمود الفلكى » فى باريس - بعد أن اشتهر فى الأوساط العلمية - لكى يواصل بحوثه فى بريطانيا ، يزور مراكز الرصد فيها . ونشرت له أكاديمية العلوم البلجيكية سنة ١٨٥٥ (رسالة فى التقويمين الإسلامى واليهودى) ونشرت له أيضا سنة ١٨٥٦ رسالة عن (شدة المجال المغناطيسى فى بريطانيا وهولندا وبلجيكا وفرنسا) . . وفى السنة ذاتها نشرت له أكاديمية العلوم الفرنسية (رسالة عن المواد المغناطيسية الأرضية فى باريس) . ونشرت له أكاديمية العلوم البلجيكية سنة ١٨٥٨ (رسالة فى التقويم العربى قبل الإسلام ، وفى ميلاد النبى وعمره عليه السلام) .

وفى سنة ١٨٥٩ عاد محمود الفلكى إلى مصر بعد أن قضى فى المحافل العلمية فى أوروبا تسع سنوات . . وكان رائد النهضة الفكرية « رفاعه الطهطاوى » فى يده مقاليد الأمور التعليمية والثقافية . منحت الحكومة رتبة (الاميرالاي) ورتبة (البكوية) للفلكى ، واختير عضوا بالمجمع العلمى المصرى ، وانتخب وكيلا للجمعية الجغرافية المصرية منذ تأسيسها وأصبح رئيسا لها فى أخريات أيامه . وعمل على استكمال أجهزة المرصد التى وصلت بعد وفاة « سعيد » . وبدأ سنة ١٨٥٩ فى رسم خريطة كاملة للقطر المصرى وأنجزها فى عهد إسماعيل سنة ١٨٦٩ . ووضع رسالة فى وصف الكسوف الكلى للشمس فى دنقلة يوم ١٨ يوليو ١٨٦٠ ، وقدمها إلى أكاديمية العلوم فى باريس ، وطبعت سنة ١٨٦١ ، ونشرت له أكاديمية العلوم البلجيكية سنة ١٨٦٢ (رسالة فى عمر الأهرام) وفى تلك الرسالة انتهى إلى أن الأهرام بنيت سنة ٣٣٠٣ قبل الميلاد مع احتمال الخطأ فى مائة أو مائتين من السنين . . وعندما زار « امبراطور البرازيل » مصر فى تلك الفترة قال له : لقد أحسنت فى جميع ما فعلت وأتيت بأدلة بارعة ، وفى سبيل إعداد بحثه هذا يقول : ذهبت إلى الأهرام قبل الاعتدال الربيعى ببومين ، ونصبت خيمتى أسفل أكبر الأهرام ، ومكثت أربعة أيام بلياليها وصحبتنى اثنان من إخوانى « أحمد بك فايد » أستاذ الكيمياء بالمهندسخانة ، و « مصطفى شوقى » أفندى . وبينما أنا فى إحدى هذه الليالى شاخص إلى السماء ، جامع حواسى ومستعمل أفكارى فى البحث . . اذ وقع بصرى على كوكب « الشعرى

اليمانية - السيروس » إذ هو أنور الكواكب الثوابت فوجدت أشعته عند المتوسط تسقط على الوجه الجنوبي من الهرم الأكبر، وعلى الوجه المائل من بقية الأهرام عمودية) .

ووصل إلى نتائج أهمها أن أضلاع الأهرام متجهة اتجاهها صحيحا نحو الجهات الأربع الأصلية وأن نسبة ارتفاع الهرم إلى محيط كرة الأرض ١ : ٢٧٠ مليوناً .

وفي سبيل أن يرصد كسوف الشمس في دنقلة في ١٨ يوليو ١٨٦٠ سافر تحت الشمس المحرقة على ظهور الجمال لأيام كثيرة . ورغم تلف بعض الأجهزة رصد هذه الظاهرة . وأثبتت أكاديمية العلوم في باريس على هذا العمل العلمي .

عصر الازدهار

ويأتى عهد « الحديو إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩ وهو عهد ازدهار على المستوى الفردى لرفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ومحمود الفلكى ، وعهد ازدهار على مستوى النشر والترجمة والتعليم والنهضة الفكرية الحديثة . وقدر لرفاعة الطهطاوى أن يرحل عام ١٨٧٣ ، ولمحمود الفلكى أن يرحل عام ١٨٨٥ ، أما على مبارك فقد عاش إلى عام ١٨٩٣ ليتألق نجمه أكثر وأكثر . .

في تلك الفترة أخذ « محمود الفلكى » يستكمل مشروعاته التى بدأها أيام « سعيد » ووصلت أجهزة المرصد سنة ١٨٦٤ ، ونقل المرصد من مكانه القديم في بولاق إلى العباسية سنة ١٨٦٥ ، وظل يشرف على المرصد لسنوات عديدة .

وفي سنة ١٨٦٩ استكمل إعداد خريطة فلكية طبوغرافية للقطر المصرى ، وكان قد بدأ العمل فيها سنة ١٨٥٩ . واكتشف مقياس النيل القديم عند « ادفو » سنة ١٨٧٠ ، ومقياس النيل بجهة أسوان ، وموقعه أمام أسوان على النيل من الطرف الجنوبي الشرقى من جزيرة أنس الوجود (والمقياس موجود في بئر . . سام مستقيم يمينا ، وينزل ١٢ درجة وهناك يتصل البئر بمياه النيل التى تدخل إليه من باب ومن فتحات أخرى في الحائط . وفي ديسمبر ١٨٧٤ رصد مرور كوكب الزهرة على قرص الشمس) وفي تلك الفترة وضع رسالة باللغة العربية (في التنبؤ عن مقدار فيضان النيل قبل فيضانه) وألقى عدة محاضرات بالجمعية الجغرافية المصرية عن أعالي النيل وزيادة مياه الفيضان ونشر ملخصا للأرصاء الجوية من ١٨٦٨ - ١٨٧٧ . وقام بتمثيل الحكومة المصرية في المؤتمر الجغرافي الدولي بباريس سنة ١٨٧٥ . ونشر في (كوبنهاجن) سنة ١٨٣٧ رسالة (في المقاييس والمكايل) .

فترة الرحيل

تولى توفيق بعد عزل إسماعيل في فترة مضطربة سنة ١٨٧٩ ، ويبدو أن « محمود الفلكى » كان

حريصا على ألا ينغمس في الأحداث السياسية ، وأن ينصرف إلى نشاطه العلمى . وبعد استقالة البارودى فى ٢٧ مايو ١٨٨٢ رفض « مصطفى فهمى وعمر لطفى » رئاسة النظارة فأُسند إلى « إسماعيل راغب » فى ١٩ يونيه الذى أسند « نظارة النافعة » لمحمود الفلكى باشا واستقالت الوزارة فى ٢١ أغسطس . وفى نظارة نوبار باشا الثانية (١٠ يناير ١٨٨٤ – ٩ يونيه ١٨٨٨) تولى « محمود الفلكى » نظارة المعارف العمومية حيث توفى فجأة فى ١٩ يوليو ١٨٨٥ ، وقد ترك لمصر أعمالا علمية لا تقل أهمية عن الجهود السياسية لغيره . . وهذه الأعمال العلمية العظيمة قد تشفع له عند الذين يركبون الحنازير فيتركون اسمه على الميدان والشارع .

الأسانيد :

- ١ - أحمد سعيد الدمرادش . . محمود الفلكى .
- ٢ - أنور عبد الملك . . نهضة مصر .
- ٣ - د . لويس عوض . . تاريخ الفكر المصرى الحديث .
- ٤ - د . محمد صهابة . . على مبارك
- ٥ - مختار السويفى . . جريدة الأخبار ٢٦ / ١١ / ١٩٨٥ .
- ٦ - محمود الفلكى . . رسالة عن الإسكندرية القديمة . ترجمة محمود صالح الفلكى .

محمود أبو الفتح



كلما جلست إليه ، زاد احترامى لذلك الجيل العظيم الذى يسبق جيلى .
يحلوه له دائما أن يحدثنا عن « مصطفى النحاس » وعن سلوكه القويم النادر .
وندرك ونحن نستمع إليه لماذا حرص رجال يوليو على أن يتقموا من « مصطفى النحاس » فى شخص « إبراهيم فرج » .
مصطفى النحاس كان (ولى أمر) إبراهيم فرج ، وإبراهيم - مد الله فى عمره - لم يزل محبا ووفيا ومخلصا للذكرى الزعيم العظيم مصطفى النحاس .
كلما جلست إليه ، أحرص على أن أعرف رأيه - وهو قارئ ممتاز - فيما أكتب هذا (هذا الرجل من مصر) وأن أعرف منه ما لم أكن أعرف .
فى الأيام القليلة الماضية . . وبنظرات عتاب قال . . « محمود أبو الفتح » : قلت طبعاً ، ضرورى ، فى ذهنى وأردف قائلاً وهو يدير أرقام التليفون . . أول نقيب للصحفيين وقلت بلهجة دفاع عن النفس . . نعم إنه أول من طلب من الحكومة سنة ١٩٤١ إنشاء نقابة للصحفيين ، فوافقت الحكومة بشرط توفير مقر ، وتبرع « محمود أبو الفتح » بشقته فى عمارة الايموبيليا واختاره الصحفيون أول نقيب لهم فى عهد حكومة الوفد (٤٢ - ١٩٤٤) خصصت الحكومة الأرض الحالية للنقابة ، وتبرع هو بالجزء الأكبر من نفقات المبنى وحينما تقرر افتتاح مبنى النقابة كان « محمود أبو الفتح » قد استنفد مرات انتخابه كنقيب فاختار الصحفيون أخاه « حسين أبو الفتح » نقيباً بالتزكية . . وسمعتة ينهى المكالمة . . أحمد . . لمعى سيمر عليك غدا . . وودعنى فى أبوة أمرة . . أحمد أبو الفتح فى انتظارك غدا . . وودعته وأنا أتمنى أن يكون لجيلنا والأجيال التالية بعض النقاء والعزيمة والصدق لدى ذلك الجيل .

سعد ودنلوب

عندما كان سعد زغلول ناظرا للمعارف (١٩٠٦ - ١٩٠٨) ذهب إليه « الشيخ أحمد أبو الفتاح » مفتش اللغة العربية ومن أبناء دار العلوم وأستاذ الشريعة الإسلامية لأكثر من ثلاثين عاما في (الحقوق) فيما بعد . ذهب يعرض مشروعا لنشر (الكتاتيب) ويطلب دعمها . . وقال سعد أنت والد التلميذ « محمود أبو الفتاح » نعم ، وماذا في الأمر ؟! وقال سعد . . لقد أيدت رأى المدرس المصرى الذى منح . . محمود الدرجة النهائية فى موضوع كتبه باللغة الانجليزية بروح وطنية وعلى غير رغبة المدرس الإنجليزي الذى أعطى « محمود » صفرا تنفيذا لتعليمات « دنلوب » المستشار الانجليزي للتعليم فى مصر . . وقاد محمود تظاهرة ضد سياسة دنلوب ففصل من المدرسة استنادا إلى شهادة بحسن نية من زميله أحمد عبد الغفار وحصل على البكالوريا بنظام (المنازل) وفى مدرسة الحقوق جاء دنلوب يزور المدرسة ليوأجله محمود أبو الفتاح بتظاهرة ويتقرر فصل محمود مرة أخرى . .

وسنة ١٩١٤ وكان محمود أبو الفتاح قد تجاوز العشرين من العمر (ولد بالزقازيق فى ١٥ أغسطس ١٨٩٣ - وتوفى فى ١٥ أغسطس ١٩٥٨) اتصل بجريدة وادى النيل وهى جريدة موالية للحزب الوطنى أصدرها محمد الكله فى الإسكندرية فى ٢ مايو ١٩٠٨ ، واستمرت إلى ٣١ ديسمبر ١٩٣٦ وكتب فيها . . « أحمد عبد الغفار ومحمود أبو الفتاح وتوفيق دياب ، وعبد اللطيف النشار ، ومحمد حمدى ، ومحمود عزمى ، وأحمد حسين ، وفتحي رضوان » . . وكانت ذات اتجاه معتدل وعلى صلة قوية بأحمد لطفى السيد رغم تأييدها للحزب الوطنى . .

مع الوفد المصرى

ترك محمود أبو الفتاح كتابين . . (مع الوفد المصرى) (والمسألة المصرية والوفد) . . وفيهما تسجيل دقيق لحركة الوفد المصرى فى أوروبا وما اتصل بالحركة من ملابسات ويظهر فى الكتابين أسلوب الصحفى محمود أبو الفتاح . وكان أول اتصال له بالوفد المصرى فى فبراير ١٩١٩ فى الإسكندرية عندما عرض على « محمود أبو النصر » عضو الوفد ما تنشره الصحف الأجنبية عن الوفد وعن المسألة الوطنية واقترح أن تتم ترجمة هذه التعليقات واقترح الرد عليها وكان محمود أبو الفتاح يجيد اللغتين الانجليزية والفرنسية ووافق سعد باشا على الاقتراحات على أن يقيم أبو الفتاح فى القاهرة ومقابل عشرة جنيهات من أول مارس ١٩١٩ .

وفى مساء ٣١ مارس ١٩١٩ حصل أبو الفتاح على أول حديث من اللورد اللنبى ونشرته جريدة

وادی النيل وفي ١١ أبريل ١٩١٩ رافق محمود أبو الفتح الوفد المصري في السفر إلى باريس مندوبا عن جريدة وادی النيل ، وطلب منه « داود بركات » أن يوافي (الأهرام) بأخبار الوفد المصري في باريس ويصف لنا التظاهرة التي ودعت الوفد المصري في بورسعيد إلى أوروبا . ووصلت السفينة قبل ظهر الجمعة ١٨ أبريل ، وهناك في باريس يتصل بجمعية الطلبة المصريين . وفي ٢٥ أبريل يكتب « أبو الفتح » مذكرة عن الحركة المصرية ، وعن مطالب المصريين ويرسلها إلى أعضاء مجلس العموم ، وأعضاء مجلس اللوردات وإلى أعضاء حزب العمل ، ويتوقيع محمود أبو الفتح صحفي مصري يرسل في ١٥ مايو برفقة إلى مجلس العموم ، وتعرف هناك إلى الصحفيين الفرنسيين الذين يعملون سرا من أجل استقلال بلادهم ولم يذكر أساءهم خوفا من بطش السلطات بهم .

واهتم « أبو الفتح » في باريس بالحصول على تأييد اليسار الفرنسي للمطالب المصرية وقد عانى أبو الفتح في باريس كثيرا خاصة من الناحية المالية وإن كان في موضع آخر من الكتاب يسجل أن محمود الكلثه سلمه بعد رجوعه كل مستحقاته المالية . وكان قد سافر مقترضا من أصدقائه وعاد من باريس مقترضا من عبد العزيز فهمي ومحمود أبو النصر .

ما قبل المصري

وإذا كان اسم محمود أبو الفتح قد ارتبط بجريدة المصري (أكتوبر ١٩٣٦ - مايو ١٩٥٤) فإن نشاطه قد امتد إلى مجالات مختلفة بعد عودته من أوروبا فقد أصدر جريدة (الجمهور) كجريدة مصرية تتولى الدفاع عن القضايا الوطنية والحرية والاستقلال وتم تعطيلها ، وفي ٢٨ نوفمبر ١٩١٩ تعاقد على الاشتراك في تحرير « الأفكار » وكانت من قبل يصدرها عبد العزيز الصوفاني واشترك في تحريرها الدكتور زكي مبارك الذي كتب أنه كان يحررها من أولها إلى آخرها ! وتم الاتفاق بين الصوفاني وعبد القادر حمزة على أن تصدر موالية للوفد . وكتب فيها سينوت حنا . وقررت السلطات تعطيلها بعد ثلاثة أشهر بسبب مقالات سينوت . .

ويقول محمود أبو الفتح في كتابه الذي يقترب من المذكرات إنه سافر مرة أخرى إلى أوروبا وإلى إيطاليا وبلجيكا وجنوب فرنسا وتوطدت علاقته بجريدة الأهرام في عهد ولاية داود بركات . وكان الصحفي المصري الوحيد بل إنه أول صحفي يذيع خبر اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢ . واشترك مع عبد الله حسين في تغطية مفاوضات محمد محمود - هندرسون .

وقد ظل محمود أبو الفتح المحرر الأول في الأهرام . وكان داود بركات رئيسا لتحرير الأهرام (١٨٩٨ - ١٩٣٣) وفي ٥ نوفمبر ١٩٣٣ توفي داود بركات ورنا محمود أبو الفتح يبصره إلى كرسي رئاسة التحرير ، غير أن أصحاب جريدة الأهرام وضعوا « انطون الجميل باشا » رئيسا للتحرير

منذ ذلك اليوم تأكد محمود أبو الفتح أنه يلزم لمصر جريدة يومية مصرية تعبر عن الحركة الوطنية المصرية وكان هذا الحدث في حياته نقطة تحول رئيسية .

جريدة المصرى

واتفق ثلاثة محمود أبو الفتح ومحمد التابعى ، وكريم ثابت ، على أن يصدر جريدة يومية قترح لها كريم ثابت اسم المصرى والآن أصبح الثلاثة في ذمة الله وأصبح المصرى في ذمة الشعب .
باع محمد التابعى حصته للوفد واشترى محمود أبو الفتح حصته كريم ثابت ثم اشترى حصته للوفد . . وأصبحت جريدة المصرى ملكية موحدة لآل أبو الفتح . .

ولعل السياسة التى سار عليها المصرى فى عهد رئيس تحريره أحمد أبو الفتح منذ أول يوليو ١٩٤٦ نفس ذات سياسته فى فترة حسين أبو الفتح عامى ٤٤ - ١٩٤٥ وكلتاها امتداد للسياسة التى سار عليها المصرى أيام محمود أبو الفتح من ١٩٣٦ - ١٩٤٤ وهى فى مجملها ان تكون الجريدة عامة وليست حزبية بالمعنى الضيق . . وأن تتجه إلى الخبر قبل المقال ، وأن تكتفى بكلمة المصرى بدلا من المقالات الحزبية الحادة . وفى تقديرنا أن هذه السياسة تتفق وافتتاحية محمد التابعى التى قدم بها الجريدة إلى القارئ : وعدا واحدا فقط هو الذى نتقدم به إلى القراء . . أن نحاول ما استطعنا أن ندخل على المصرى دائئا لونا من روح العصر الذى نعيش فيه . . عصر الاختزال والسرعة والوصول إلى الهدف من أقصر طريق ، عصر الأخبار والأخبار ودائما الأخبار فلن نجدوا فى المصرى صفحة كاملة عن أيها أفضل البحترى أو أبو تمام ؟ كلاهما عندنا رجل فاضل نرضى أن نقرأ على روحه الفاتحة ولكننا لن نقرأ له سبعة أعمدة . .

وهذا لاينفى أن المصرى قد مرت عليها أيام كانت فيها وفدية حزبية وكانت القيادات داخل الوفد تتجاذبها . وقد لمع مصطفى أمين وعلى أمين فى جريدة المصرى وقدم مصطفى أمين حديثا مع مصطفى النحاس عن معاهدة ١٩٣٦ واهتم أحمد أبو الفتح فى فترته ٤٦ - ١٩٥٤ بتقديم الشباب أمثال محمد خالد ومحمد حمزة ، وعبد القادر حمزة ، وعبد المنعم الصاوى ، ومحمود عبد المنعم مراد .

يوليو والمصرى

كى ندرك حقيقة موقف ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من جريدة المصرى ينبغى أن نقلب صفحات الجريدة قبل ذلك بسنوات فى ضوء ملفات الخارجية البريطانية التى أوردتها الدكتورة لطيفة سالم فى كتابها (الصحافة والحركة الوطنية المصرية - من ملفات الخارجية البريطانية) . . وينبغى أن

نضع في الاعتبار الاتصالات التي تمت بين رجال يوليو ، ورجال السفارة الأمريكية في الأسبوع الأول من انقلاب الجيش والتي كشف عنها النقاب أخيرا ونشرتها مجلة المصور المصرية ، وينبغي أيضا وهو الأهم إدراك حقيقة دور «محمود أبو الفتح» في تحرير جريدة المصري ، وينبغي أخيرا أن نعرف العلاقة بين «جمال عبد الناصر» و«أحمد أبو الفتح» .

و «محمود أبو الفتح» . كان له صوت الخبرة في الجريدة ، كانت له بصمات تجربة سابقة في جريدة الأهرام . وسواء تولى رئاسة التحرير «حسين أبو الفتح» أو «أحمد أبو الفتح» فله دائما الإشراف العام واليومى .

وأشارت ملفات الخارجية البريطانية (٤٥ - ١٩٥٢) إلى ما كتبه «محمود أبو الفتح» (المصري في ١٦ يوليو ١٩٤٩) بعنوان (يا زعماء مصر اقرءوا الكتابة على الحائط) ويحذر من تخطيط بريطانيا ضد مصر إذ إن وصى العراق وملك الأردن وأمير ليبيا مجتمعون في لندن ، ويحذر من التدخل في الانتخابات القادمة . وفي ٢٩ مارس ١٩٥١ يرسل مسئول النشر بالسفارة البريطانية إلى حكومته بما يقوم به «محمود أبو الفتح» في جريدة المصري ويشير إلى احتمال أن تكون حكومة الوفد خلف الحملة الوطنية التي تقوم بها . ويشير إلى حملة «المصري» على أمريكا لدورها في مساندة بريطانيا (٢٥ أكتوبر ١٩٥١) .

والعلاقة بين «جمال عبد الناصر» وأعضاء الهيئة الوفدية (الدكتور عزيز فهمى ، وإبراهيم طلعت ، وأحمد أبو الفتح ، ورفيق الطرزي ، أصبحت الآن معروفة وشبه مؤكدة ، ولا يخفى أن «أحمد أبو الفتح» لظروف خاصة أسهم في تحذير «جمال عبد الناصر» من موقف القصر إزاء محاولة لإجهاض (٢٣ يوليو) فسارح «جمال عبد الناصر» إلى تقديم موعد الحركة .

هذه العناصر الثلاثة تؤكد أن الضباط الأحرار استولوا على السلطة ليلة ٢٣ يوليو وقد أسهم «أحمد أبو الفتح» بدور في حمايتها ، وأسهم «محمود أبو الفتح» بدور وطنى ضد بريطانيا ، وأسهم «المصري» بدور هام في الحركة الوطنية . فإذا ما جاءت (الوثائق الأمريكية التي قدمها «الدكتور رضا شحاته» الوزير المفوض بالخارجية المصرية ونشرتها مجلة المصور المصرية لتشير إلى أن مندوب الضباط الأحرار في (٢٤ يوليو ١٩٥٢) أكد لممثل السفارة الأمريكية أن الصحف المصرية اليسارية سوف يوقف إصدارها، ومن المنتظر إغلاق (جريدة المصري) يكون الأمر موضع أكثر من علامة استفهام .

موقفان

والآن وقد رحل «محمود أبو الفتح» في ١٥ أغسطس (يوم مولده) ١٩٥٨ ، ورحل «جمال عبد الناصر» في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، وابتعدت الصورة فأصبحنا نرى منحنياتها أكثر وضوحا

فإننا نرى بوضوح موقفين (جريدة المصرى) وبها أسرة أبو الفتح والمحرون الوطنيون الشبان تتمسك منذ اليوم الأول (٢٣ يوليو) بالجمهورية البرلمانية ، وبال دستور وبالنظام النيابى ، وبموقف محدد من الولايات المتحدة الأمريكية التى تزحف لترث النفوذ البريطانى . . من أجل هذا ينطلق قلم « رئيس التحرير » - أحمد أبو الفتح - يوميا تقريبا يؤذن بهذا الاتجاه ، ويفتح صفحات المصرى لأصحاب الاتجاه الوطنى الديمقراطى من العسكريين والمدنيين على السواء . . وعلى الساحة الأخرى « جمال عبد الناصر » ومجموعته تتحدث بهذا كله مجرد حديث . . وفى التنفيذ يعمقون اتجاه الجمهورية الدكتاتورية ، وإلغاء الدستور ، وحل الأحزاب ، والإعلان عن « هيئة التحرير » واعتقال الشيوعيين والوفديين ومهادنة الإخوان المسلمين مرة وضرهم مرات ، ومطاردة شرسة لكل العناصر التى تأتى بكلمة الديمقراطية على ألسنتها . .

وسافر « محمود أبو الفتح » إلى الخارج ، وبقي « أحمد أبو الفتح » يدفعه شبابه إلى الإصرار على الاتجاه الوطنى الديمقراطى والأمل فى إقناع « جمال عبد الناصر » لم يزل يراوده . . والاجتماعات تعقد وتنفض بينه وبين عبد الناصر . . والطريقان يتباعدان . . عبد الناصر مستمر فى الاعتقالات وتصفية المعارضين له ويريد أن تكون المصرى ورجالها كتيبة ضاربة للتنظيم الواحد . . وأحمد أبو الفتح يريد الدستور والحريات وهو كفيل بتأييد واسع لعبد الناصر من كل العناصر التى وضعت الأمل فى (٢٣ يوليو) قبيل وبعيد وقوعها .

وتباعدت السبل بين « عبد الناصر » و « أبو الفتح » و « أحمد أبو الفتح » عزوف عن مقابلات لا جدوى منها إلى أن هدده « عبد الناصر » باعتقال العناصر الأساسية فى (جريدة المصرى) وبذلك تتوقف الجريدة ، وتحث هذا التهديد كان اللقاء العاصف والأخير بين « جمال عبد الناصر » و « أحمد أبو الفتح » فى ١٤ مارس ١٩٥٤ الذى طال لست ساعات وحضره « أحمد أنور » الذى كانت تربطه بالوفد صلات قديمة ، ويربطه بأحمد أبو الفتح ود خفى . .

وفى نهاية الاجتماع عرف « أحمد أبو الفتح » بطريقة ما من « أحمد أنور » أن « عبد الناصر » قرر أن يهدر دمه ضمن قائمة من المعارضين لسياسته ، فكان أن سافر إلى بيروت صباح ١٥ مارس ١٩٥٤ ولم يعد إلى مصر إلا فى عهد « أنور السادات » .

الاستيلاء على المصرى

كان « جمال عبد الناصر » ينظر إلى الأمور من زاوية سياسية وهذا هو سر تفوقه على أقرانه فى اللجنة التأسيسية وفى مجلس قيادة الثورة . يروى « عبد اللطيف البغدادي » فى الجزء الأول من مذكراته على صفحتى ١٢٢ ، ١٢٣ أن محكمة الثورة برئاسة حكمت فى تلك الفترة على (صاحبى

جريدة المصرى محمود وأحمد أبو الفتح بدفع مبلغ ٢١ ألف جنيه فروق ضرائب مستحقة عليهم) ولكن « جمال عبد الناصر » اعترض وطالب بتقسيط المبلغ ! فقال لهم البغدادي في مجلس قيادة الثورة : منذ متى كانت جريدة المصرى مؤمنة بكم ١٩ أليس أصحاب المصرى هم الذين تكلم عنهم صلاح في المؤتمر الشعبى يوم ١٥ سبتمبر ١٩٥٣ ١٩ أليس هو أحمد أبو الفتح الذى يهاجمكم وخاصة صلاح ١٩ .

هذه جزئيات صحيحة ، ولكن « جمال عبد الناصر » ينظر إلى الأمور من زاوية أخرى . . كان مجلس قيادة الثورة أثناء جولة من جولات أزمة مارس قد قرر إلغاء الرقابة على الصحف اعتباراً من السبت ٦ مارس ١٩٥٤ وتولى « عبد الناصر » إعلان ذلك في مؤتمر صحفى يوم الأحد ٧ مارس في مبنى مجلس قيادة الثورة . . ولهذا فعندما عرض موضوع (المصرى) قال عبد الناصر . . هل أنتم مستعدون للدخول في معركة مع جريدة المصرى خاصة بعد الإعلان عن حرية الصحافة ؟ ولكن بعد سحب قرارات ٢٥ مارس المعروفة ، وإعادة الرقابة على الصحف في ٢٩ مارس ١٩٥٤ ، في اجتماع مجلس قيادة الثورة في ٣٠ مارس تم الإعلان عن محاكمة « محمود أبو الفتح » وعن مصادرة أمواله ، وإحالة ٨ من أساتذة الجامعة إلى المعاش ، والاعتداء على الدكتور السنهورى في مجلس الدولة ، وطالب عبد الناصر بإصدار قانون لتطهير الصحافة . وكلف « صلاح سالم » فتحى رضوان بوضع هذا القانون وفي اجتماع ٤ أبريل ١٩٥٤ تم الإعلان عن محاكمة « محمود أبو الفتح » ومصادرة جريدة المصرى . وتم الاستيلاء عليها وعلى مبانيتها وعلى ملحقاتها في ٥ مايو ١٩٥٤ .

صوت مصر الحرة

وسألت الأستاذ « أحمد أبو الفتح » عن الإذاعة المسماة بصوت مصر الحرة ، وعن طبيعتها وعن حقيقتها . . فأوضح أن إذاعة شبيهة بهذا الاسم كانت تصدر ربما من قبرص ويحتمل أن تكون انجلترا وراءها . . وكانت هذه إذاعة (بدئية ومبتدلة) على حد قوله . وليس لأى أحد من أسرة « أبو الفتح » صلة من قريب أو من بعيد بهذه الإذاعة . . وإنما الذى حدث بعد الاستيلاء على (المصرى) وأموالها ومطابعها وملحقاتها . . ظل « محمود أبو الفتح » يتنقل بين لبنان وأوروبا . . وقبيل وفاته بشهور قليلة وعن طريق « شارل ديغول » وليس عن طريق أحد غيره ، سلمته فرنسا محطة إذاعة وهى إحدى محطات الإذاعة القديمة التى كانت « حركة المقاومة الفرنسية » تستخدمها ضد النازى . كان ديغول يرقب تحركات الأسطول الأمريكى في المتوسط وقت ذاك ، ويرقب النفوذ السوفيتى المتصاعد في المنطقة . . في هذا المناخ وضعت فرنسا محطة الإذاعة تلك ، تحت تصرف « محمود أبو الفتح » وأحمد أبو الفتح « وأربعة من زملائهما ومعاونيهما .

يبقى أن أسجل أن « أحمد أبو الفتاح » أكد في حديثه معي أنهم اضطروا بحزم على السلطات الفرنسية عدم التدخل في سياستهم . . وكانت فترة البث ٣ ساعات يوميا . . تدافع عن حق الجزائر في الاستقلال ، وتهاجم إسرائيل وأساليبها ، وتدافع عن حق الشعب المصري في الحرية والديمقراطية .

وبعد تشغيل إذاعة (صوت مصر الحرة) بشهور قليلة توفي « محمود أبو الفتاح » ابن « الشيخ أحمد أبو الفتاح » صاحب ورئيس تحرير (جريدة المصري) الوطنية الديمقراطية . . وكان رحيله في ١٥ أغسطس ١٩٥٨ ، ودفن ولم يزل جثمانه في تونس .

الأسانيد :

- ١ - أحمد أبو الفتاح . . لقاء معه .
- ٢ - أنور الجندي . . الصحافة السياسية .
- ٣ - عبد اللطيف البغدادي . . المذكرات ج ١ .
- ٤ - د . لطيفة سالم . . الصحافة والحركة الوطنية المصرية .
- ٥ - محمد التابعي . . أسرار الساسة والسياسة .
- ٦ - محمود أبو الفتاح . . مع الوفد المصري .

محمود سليمان غنام



تحت راية الوفد أعطى لمصر كل مايمكن أن يعطى دون أن ينظر إلى عدد المرات التى استوزره فيها الوفد ، فهى لاتزيد على مرتين بصفه أصلية .

فى شهر فبراير ١٩٣٩ ، وفى ظل وزارة محمد محمود الرابعة (٢٤ يونيه ١٩٣٨ - ١٨ أغسطس ١٩٣٩) كان « محمود سليمان غنام » عضوا بمجلس النواب ، ويقدم سؤالا عن سبب عدم اعتراف مصر بحكومة الاتحاد السوفيتى . هذا الموقف الباكر كان منذ حوالى نصف قرن من نائب مصرى يرقب بذكاء شديد مجريات الأمور على الساحة العالمية .

وفى عهد وزارة على ماهر الثانية (١٨ أغسطس ١٩٣٩ - ٢٧ يونيه ١٩٤٠) وعلى وجه التحديد فى شهر أبريل وبريطانيا تتلقى الضربات الموجعة من ألمانيا النازية ، يقف النائب المحترم «محمود سليمان غنام» فى مجلس النواب يطالب بانسحاب القوات العسكرية البريطانية من المدن الرئيسية ، وخاصة من الأحياء الوطنية الأهلة بالسكان والمدارس والفنادق .

وتؤكد وثائق النصف الأول من عام ١٩٤٢ ، والذي شهد الانقسام المعروف بالكتلة الوفدية عن الحزب الأم (الوفد) تؤكد أن « محمود سليمان غنام » كان من بين العناصر التى حاولت مخلصه رأب الصدع وسعت جاهدة لعدم توسيع شقة الخلاف .

تراه محاميا شجاعا عن الدستور وعن حق الأحزاب فى التواجد على الساحة ، وعن حق الوفد فى اجراء تشكيلة لمستوياته المختلفة طبقا لللائحة الداخلية ، فقد اعفى « على ماهر » فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، وفى ٩ سبتمبر صدر قانون الاصلاح الزراعى وصاحبته ضجة إعلامية كبرى ، وفى اليوم ذاته صدر قانون تنظيم الأحزاب السياسية الذى لم يكن له هدف سوى ضرب (الوفد) وتلك

قصة أخرى سوف نقف على تفصيلاتها مع تفصيلات غيرها عند الحديث عن مواقف في حياة «محمود سليمان غنام» .

نظرة إلى المستقبل

كان «محمود سليمان غنام» سياسيا مثقفا نقول هذا باطمئنان كامل . . ففي فبراير سنة ١٩٣٩ وقبل أن تندلع شرارة الحرب العالمية الثانية بثمانية أشهر . وقبل أن يشارك الاتحاد السوفيتي في هذه الحرب ، وقبل أن يكون له دور فيها يجذب إليه انظار الدول المختلفة ، وانظار القوى السياسية . رأى محمود سليمان غنام «كسياسي مثقف ، بثاقب بصره أو بصيرته أن الاتحاد السوفيتي بدأ يظهر بقوة على الصعيد الدولي ، وان هذه القوة الجديدة من الصعب تجاهل وجودها فيقف في مجلس النواب في فبراير ١٩٣٩ ، والحكومة هي حكومة «محمد محمود» ابن «محمود باشا سليمان» والحزب الحاكم هو حزب كبار ملاك الأرض حزب الأحرار الدستوريين . . وغنام في مجلس النواب يسأل عن أسباب عدم اعتراف مصر بالحكومة السوفيتية ؟ كلام تابع من بصيرة تنظر إلى ابعد من موضع الاقدام ، ساعده في ذلك تواجده في (الوفد) الذي يبيح حرية التفكير وحرية التعبير لاعضائه بمختلف رؤياهم الفكرية ولهذا لم تكن مصابدة أن الحكومة المصرية التي اعترفت بالاتحاد السوفيتي وتبادلت معه التمثيل الدبلوماسي هي حكومة الوفد برئاسة «مصطفى النحاس» سنة ١٩٤٣ ساعدها في ذلك التواجد المبرر للاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ، وساعدها في ذلك أيضا التحالف الذي كان قائما بين الاتحاد السوفيتي والحلفاء في مواجهة دول المحور .

والثقافة الوطنية تعطي دائما صاحبها حيوية وعمرًا جديداً ، وهكذا وجدنا «محمود سليمان غنام» منحازا دائما للشباب . يقف دائما إلى جانبهم يرعاهم ويتقبل مايطرحونه من أفكار وقضايا بكل ما فيها من طموح وجنوح في الشهور الأولى من حركة الجيش تجاذبتها تيارات ومواقف مختلفة وساد الفزع بعض دوائر هذه الحركة . فتحكم بالإعدام على عاملين في كفر الدوار في حين أن العمال تحركوا من منطلق الأمل في حركة الجيش وتم اعتقال عدد من السياسيين في حين ان مواقف القوى السياسية لم تكن قد اتضحت بالقدر الكافي ونقل أحد اعضاء الهيئة الوفدية عن جمال عبد الناصر شخصا انه ينظر إلى قسم هام من الشباب الوفدي على انه اخطر اعداء الحركة في حين ان هذا القسم كان قد وضع ما يشبه البرنامج لو رجع الآن لوضح ان حركة الجيش قامت في مسيرتها الطويلة بتنفيذ غالبية المشروعات التي وردت به . وفي مناخ الاضطراب النفسي والتوجس والريبة خشي «الرجل» ان تضيق بعض عناصر الشباب الوفدي في لحظة من لحظات الضرب العشوائي ،

فنشر بياناً في جريدة « الأهرام » يدافع فيه عن الشباب وخص بالذكر وبالأسماء عدداً من شباب الوفد . مرة أخرى وفي منتصف عام ١٩٥٣ وفي مناخ الانقسام الفكرى والتنظيمى الذى ساد المنظمات الماركسية ازاء الموقف من حركة الجيش ، قدمت الحركة عدداً من فعاليات إحدى المنظمات الماركسية للمحاكمة أمام مجلس عسكرى عال وهنا تقدم « محمود سليمان غنام » للدفاع عن هؤلاء الشباب ، ليس من منطلق الاتفاق مذهبياً معهم ولكن من منطلق الدفاع عن حرية التفكير وحرية التعبير للشباب ، وهى حرية حرص عليها الوفد طوال تاريخه . وهنا اعتقلت حركة الجيش « المناضل محمود سليمان غنام » وقدمته للمحاكمة بتهمة الاشتراك فى نشاط جماعة سرية ذات مبادئ هدامة !

وقد ظن البعض - خطأ - ان « محمود سليمان غنام » كان على صلة باحدى المنظمات الماركسية ، وذلك بسبب مواقفه السابقة التى اشرنا إليها ، وحقيقة الأمر انه كان جندياً وفيما لمبادئ الوفد وتراثه ، واتخذ مواقفه كافة مخلصاً لزعامه مصطفى النحاس وميلاً لفؤاد سراج الدين السكرتير العام للوفد عندما كان « غنام » سكرتيراً عاماً مساعداً . . كان يتحرك بفعل التراث الوطنى للوفد . .

الخط الوطنى

وعن الخط الوطنى للوفد قال « الدكتور رفعت السعيد » بحق ان « مصطفى النحاس » وحزبه لم يفقدا ابداً خط العداء العام للاحتلال البريطانى . . وعندما كانت بريطانيا تعاني من ضربات النازى فاجأ الوفد - فى أول أبريل ١٩٤٠ - الجميع بتقديم مذكرة شديدة اللهجة للسلطات البريطانية وطالبها بالاستجابة - لخمس مطالب هى :

١ - ان تصرح - من الآن - بجلاء القوات البريطانية عن مصر بعد انتهاء الحرب وعقد مؤتمر الصلح .

٢ - اشتراك مصر اشتراكاً فعلياً فى مفاوضات الصلح ليتم الاعتراف فيها باستقلال مصر كاملاً .

٣ - الدخول فى مفاوضات مع مصر بعد انتهاء مفاوضات الصلح يعترف فيها بحقوق مصر كاملة فى السودان لمصلحة أبناء وادى النيل جميعاً .

٤ - حل مشكلة القطن بعدم الحيلولة دون تصديره إلى البلاد المحايدة .

٥ - إلغاء الأحكام العرفية التى أعلنت بناء على طلبها . وقد احدثت هذه المذكرة هزة عنيفة حاصرت كل خصوم الوفد : الاحتلال - القصر - احزاب الأقلية .

ومضت المطارق الوفدية تهوى على سياسة الاحتلال . . ففى مجلس النواب وقف « محمود سليمان غنام » ليدين تغلغل القوات العسكرية البريطانية تغلغلا واضحا فى جميع الأحياء الوطنية الأهلة بالسكان . والمدارس والشوارع والفنادق الوطنية . .

كان « غنام » برلمانيا ممتازا ، وكان أيضا كاتبا سياسيا ممتازا بمقالاته فى صوت الأمة وصحف الوفد الأخرى ، بل إنه فى ٣١ يناير ١٩٥٣ ينتهز فرصة وفاة « السير ونجت » وهو المعتمد البريطانى الذى قابله سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى « يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، وينشر « غنام » مقالا بجريدة الأهرام بهذه المناسبة ، وبكل ذكاء السياسى المحنك يتحدث عن الاحتلال البريطانى ، وجهاد سعد ، ودور الوفد ، وعيد الجهاد الوطنى فى ١٣ نوفمبر وتضحيات الشعب من أجل الحرية والدستور . والمقال رسالة واضحة للذين حلوا الأحزاب والغوا دستور ١٩٢٣ واعتقلوا الذين كانوا يتنادون بالتعددية الحزبية ، وبالدستور وبالديمقراطية .

غنام وزيرا

عندما شكل « مصطفى النحاس » وزارته السادسة (٢٦ مايو ١٩٤٢ - ٨ أكتوبر ١٩٤٤) خرج « مكرم باشا » من الوزارة وحل محله « كامل صدقى باشا » وزيرا للمالية . وفى تلك الوزارة شغل « الأستاذ محمود سليمان غنام » منصب وزير التجارة والصناعة الذى كان يشغله « كامل صدقى بك » .

وتميزت وزارة « النحاس باشا » السادسة بالصدام الدائم مع القصر ومحاولات القصر تخريض القوى السياسية الأخرى ضد الوفد . وتميزت أيضا ، وخاصة عام ١٩٤٤ ، بالصدام بين الوفد والانجليز ، وإصرار « النحاس » على تحقيق المطالب الوطنية ، وضرورة تعديل المعاهدة المبرمة بين مصر وبريطانيا عام ١٩٣٦ . وفى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ كان الانجليز والملك قد اتفقا على الاطاحة بحكومة النحاس باشا . ولكن « النحاس باشا » بعناده الوطنى المعروف عنه أعلن فى خطاب العرش عند افتتاح الدورة البرلمانية فى منتصف نوفمبر ١٩٥٠ ان المعاهدة فقدت صلاحيتها كأساس للعلاقات مع بريطانيا ولأمناس من تعزيز إلغائها . وفى ٢٦ أغسطس من عام ١٩٥١ قال مصطفى النحاس ، ستلغى المعاهدة فى القريب العاجل . وهكذا فإن النحاس باشا عندما أعلن باسم مصر فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ إلغاء معاهدة ١٩٣٦ لم يكن يسعى إلى دعاية شعبية كما قال بعض اعداء الوفد ، وإنما كان تحقيقا لمطلب أساسى أفصح عنه الوفد منذ عام ١٩٤٤ .

وفى وزارة النحاس باشا السابعة والأخيرة « ١٢ يناير ١٩٥٠ - ٢٧ يناير ١٩٥٢ » الوزارة التى أعلنت إلغاء المعاهدة وفتحت أبواب الجهاد الشعبى ضد الانجليز ، فى هذه الوزارة كان « الأستاذ محمود سليمان غنام » وزيرا للتجارة والصناعة ، وقد تولى الوزارة فى حياته بصفة أصلية مرتين وإن

كان في المرة الأخيرة تولى وزارات عديدة بالنيابة وهي « المواصلات ، الاقتصاد الوطني ، المعارف ، التموين » .

محاولة للتشويه

وقد عرف « محمود سليمان غنام » بنزاهة القصد وبنظافة اليد ، ولكن حدث اثناء محاكمة «فؤاد سراج الدين باشا» أمام محكمة « عبد اللطيف البغدادي » والتي استمرت من ٨ ديسمبر ١٩٥٣ ، حتى مارس ١٩٥٤ حدث اثناء تلك المحاكمة أن كان «الدكتور زكي عبد المتعال» الوزير السابق في وزارة الوفد الأخيرة من شهود تلك المحاكمة ، واستمر يشهد ويشهد على مدى ست جلسات من « ١٥ - ٢٠ ديسمبر ١٩٥٣ » . وتناول كثيرين في شهادته ومن بينهم الرجل النزبه الشريف «محمود سليمان غنام» أما ماذا قال « الدكتور عبد المتعال » ومدى ما قاله من الصحة فهذا كله يوضحه الرد الذي نشره « محمود سليمان غنام » في جريدة « المصري » في عددها الصادر في ١٨ ديسمبر ١٩٥٣ . وقد ركزنا على المعلومات الأساسية . . وفيما يلي الرد .

اشارت صحف صباح أمس إلى ما دار في شهادة « الاستاذ زكي عبد المتعال » أمام محكمة الثورة زاعما انني تلمست سببا للسفر إلى الخارج بحجة زيارة دار سك النقود في فرنسا وانجلترا ، وانه عارض في ذلك لأن السبب المستتر لهذا السفر يرجع إلى رغبتى في زيارة ولدى بانجلترا . واني ابادر بتكذيب ما رواه هذا الشاهد من أساسه كما بادرت باخطار محكمة الثورة . . واعلن للرأى العام اننى سافرت للخارج وأنا وزير في مهمات رسمية ثلاث مرات . . « ملحوظة من عندنا » . غنام عمل وزيرا ٤ سنوات و ٤ شهور « الأولى في أوائل ١٩٤٤ لحضور مؤتمر تجارى في القدس استغرق أسبوعا تنازلت عن بدل السفر وهو ٧٠ جنيها وصرفت من جيبى الخاص مائة جنييه الثانية - تقرر ان أسافر ومعى وكيل وزارة التجارة والصناعة إلى فرنسا وانجلترا سنة ١٩٥٠ وكان ولدى قد قضى معنا في مصر اجازة ثلاثة أشهر . ولما علم بوجودى في لندن حضر لرؤيتنا من جلاسجو على حسابه الخاص . ولم يقرر مجلس الوزراء لنا بدل سفر خاص في هذه المأمورية . وصرف لنا بدل السفر العادى المقرر في اللائحة الثالثة - تلقيت سنة ١٩٥١ من وزير التجارة الإيطالى دعوة لزيارة معرض ميلانو ، وتلقيت مثل هذه الدعوة من معرض « ليل » وصرفت بدل السفر المقرر وقدره عشرة جنيها في اليوم واستمرت المأمورية أسبوعا .

وسأخذ ضد هذا الشاهد ما ينولنى القانون اتخاذه ضده . . وليعلم الرأى العام أنه لا يليق بمن كان استادا في كلية الحقوق ان يعتمد إلى قلب الحقائق ويتهم اشرافا بالباطل . . محمود غنام المحامى . ودخل « زكى عبد المتعال » الجلسة التى تقرر ان يقوم فيها « فؤاد سراج الدين » بمناقشته في شهادته ضده . وبدأ حديثه في تحاذل : لو يسمح لى سيادة الرئيس احب اذكر اننى

قبل دخولي قاعة الجلسة قابلني في الطريقة الأستاذ محمود سليمان غنام وقال لي . . حارفع ضدك جنحه مباشرة ان شاء الله وانصرف .

وبالتأكيد اشفق رئيس المحكمة « البغدادي » على هذا الشاهد لأنه قال له : معلىش . . انتم زمايل قدام تقدرؤا تحاسبؤا بعض خارج المحكمة . .

محكمة الثورة

عجزت الثورة عن محاكمة « مصطفى النحاس » ولجأت إلى محاكمته في أشخاص « فؤاد سراج الدين ، وإبراهيم فرج ، ومحمود أبو الفتاح ، وحسين أبو الفتاح » .

وقد سبق المحاكمة صراع من نوع اخر ، فقد شهدت ساحة محكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولة - الدائرة الثالثة قضية الاعتراض على اخطار تكوين حزب الوفد . وسبق ان اشرنا إلى ان قانون تنظيم الأحزاب السياسية الذى صدر فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ كان القصد الرئيسى له هو ضرب حزب الوفد ، والتقليل من شأن زعامة مصطفى النحاس . وقد ساعد المناخ العام سواء من خارج الوفد أو من داخله على ان يقع الوفد فى المصيدة التى اعدّها بمهارة فائقة « جمال عبد الناصر » وتشجّع فى الدفاع عنها « سليمان حافظ » وباركها « فتحى رضوان » . وغرق الوفد فى الرد على اعتراض سليمان حافظ على الرئاسة الشرفية لمصطفى النحاس ، واعترض على عضوية عبد الفتاح الطويل .

ودخل الوفد ساحة القضاء بكتيبة قانونية على مستوى رفيع . . وحيد رأفت . . إبراهيم فرج . . محمود سليمان غنام . وفى ٩ يناير ١٩٥٣ قدمت بحوث دستورية لاثبات ان قانون الأحزاب غير دستورى ، وتوضح أنه لا شأن بقانون الأحزاب بمسألة الرئاسة الشرفية لمصطفى النحاس . ويسأل رئيس الدائرة . . ما الذى يلزم الحكومة الحاضرة باحترام الدستور ؟

وهنا ينبرى « محمود سليمان غنام » بالرد الذى وضع النظام الجديد فى مأزق . . فبيان القائد العام أكد ان الجيش قام بحركته لمصلحة الشعب واحترام الدستور ، وان قرار الوصاية على العرش صدر استنادا إلى الدستور .

ولكن اللعبة لم تكن هكذا . . فى ١٦ يناير صدر قانون حل الأحزاب السياسية وفى ١٧ يناير تقررت فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات ، وفى ١٠ فبراير أعلن الدستور المؤقت محل دستور ١٩٢٣ الذى ألغى . وجرت حركة اعتقالات لعناصر كثيرة ، من المدنيين والعسكريين وخاصة ضباط سلاح المدفعية وفى مقدمتهم « رشاد مهنا » وجرت محاكمات خاصة لعدد من العسكريين .

وقد اجمع المؤرخون على ان محكمة الثورة كانت موجهة أساسا ضد الوفد وضد زعيمه مصطفى

النحاس . فقد قدم إليها « فؤاد سراج الدين » السكرتير العام للوفد منذ عام ١٩٤٨ ، ومعه « محمود سليمان غنام » السكرتير العام المساعد . . و « إبراهيم فرج » القريب إلى قلب مصطفى النحاس .

ورب ضارة نافعة فقد كشف الشاهد « عبد المتعال » عن مقابلة مع الملك فاروق حضرها وزير التجارة « محمود سليمان غنام » وأراد الملك ان يثير مسألة الغلاء فسأل عن ارتفاع أسعار المنسوجات واجاب غنام . . حنعمل ايه للمضاربات ؟ وفهم الملك وقال لغنام : يعنى يا حضرة الوزير قصدك انى أنا بأضارب ؟ « رحم الله الوزير الوطنى الشجاع محمود سليمان غنام الذى رحل عام ١٩٧٤ .

الأسانيد :

- ١ - الأهرام « جريدة » . . اعداد ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣١ يناير ١٩٥٣ .
- ٢ - الطليعة « مجلة » سبتمبر ١٩٧٥ .
- ٣ - حسن يوسف . . المذكرات .
- ٤ - صلاح عيسى - محاكمة فؤاد سراج الدين يا شا .
- ٥ - عبد اللطيف البغدادى - المذكرات ج ١ .

محمد زكى عبد القادر



نحو النور . . سارت وصارت حياته . منذ شبابه الباكر كان اقرانه يقصدونه المشورة ، فيقدم
الرأى بأدب جم في حدود ما اتيح له من رؤية . على أعتاب الثلاثينات من هذا القرن قصده
«حافظ محمود» وصديقه السوداني « معاوية نور » فلم يأخذ الزهو بلب «محمد زكى عبد القادر»
ولم تتعذر خطاه بفعل الغرور ، ولكنه أشار على صاحبيه ان يذهبوا ثلاثتهم ويلتمسون الرأى لدى
اديب يكبرهم عمرا هو «محمود تيمور» ذلك عام ١٩٢٩ ، وتيمور في الثانية والثلاثين من عمره ،
وزكى عبد القادر في الثالثة والعشرين إذانه ولد في بلدة فرسيس من أعمال محافظة الشرقية
سنة ١٩٠٦ م ، وعندما بلغ محمد زكى عبد القادر الثانية والثلاثين من عمره وفي فبراير ١٩٣٨ م بدأ
يكتب عموده الصحفى (نحو النور) بجريدة الأهرام . وهذا بالقطع من أشهر الأعمدة الصحفية
ومن اكثرها احتراما ، وثارا للقراء . . فالأعمدة الصحفية كثيرة ، وعناوينها متشابهة ، وبعضها
مادته مكرورة وهزيلة ، والكثير منها أفكارها هامشية ، وغالبيتها يمر عليها القراء مر الكرام بعد
مطالعة سطر أو سطرين ، قليلة هي إذن الأعمدة الصحفية الجادة والذكية وغير المطروقة والتي
تضيف للقراء جديدا ، والقراء يعرفون ذلك أكثر منا .

وظل «محمد زكى عبد القادر» يكتب نحو النور في جريدة الأهرام ثم في جريدة الأخبار
وأخبار اليوم منذ فبراير ١٩٣٨ حتى ٧ مارس ١٩٨٢ (يوم رحيله) أى انه ظل يقدم ثمارا طيبة
للقراء على مدى ٤٤ عاما بقلم عف لايعرف التجريح الأهوج ، ولايعرف المهادنة الذليلة ، رأى
فيه القراء نموذجا للكاتب المتزن مع سلامة الطوية وحسن القصد ، والميل للحرية دون
حدود وبلا انفعال . . ولانه عاش يتكلم بقلمه ، فانه لجأ في كثير من الأحيان في عموده اليومي
إلى أسلوب الحوار بين الشيخ وتلميذه ، وهو أسلوب لجأ إليه بعض الأدباء يريدون به طرح الرأى
والرأى الآخر ، أو طرح آراء الأجيال المختلفة .

وقد كتب عموده الصحفى اليومى أكثر من ستة عشر ألف مرة بالمنهج نفسه ، وبالرصانة ذاتها ، وبالموضوعية التى عرفت عنه . وهى كلها فى حاجة إلى أن تجمع فى كتب لأن بها آراء وافكارا ينبغى أن تحفظ للأجيال القادمة . ويكفى أن اذكر لقارئ اليوم قضيتين اختلف فيها « محمد زكى عبد القادر » عن الآخرين . . القضية الأولى اختلف فيها مع « الدكتور طه حسين » عندما نادى بأن يكون التعليم كاملا والهواء . . ورأى « محمد زكى عبد القادر » بأن يكون الاهتمام الأساسى بمحو الأمية قبل الاهتمام بالتوسع فى التعليم الابتدائى والثانوى والجامعى . والقضية الثانية حين اتجهت نية القيادة السياسية فى نوفمبر ١٩٧٨ إلى إلغاء وزارة الثقافة وأيد هذا رأى قلم « محمد زكى عبد القادر » وعارضه الدكتور زكى نجيب محمود ، وأحمد بهاء الدين ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وكاتب هذه الحلقات . وكان من الطريف أن يصدر مقال فى (الأخبار) ٧ نوفمبر ١٩٧٨ بعنوان (اين وزراء الثقافة السابقون استحث فيه الدكتور ثروت عكاشة والأستاذ فتحى رضوان ، والدكتور محمد عبد القادر حاتم ان يزودوا عن وزارة الثقافة وفى الوقت ذاته كانت مقالات « نحو النور » تقارن بين الثقافة التى ازدهرت عندما لم تكن لها وزارة ، ثم خبت بعد ان كان لها وزارة ووزراء وطابور من وكلاء الوزارة . على اية حال هذا رأيه وكان دائما مستقل الرأى وله رؤيته الذاتية ، ولعل هذه الصفة هى التى جعلت « صدقى باشا » يعتقله فجر ١١ يوليو ١٩٤٦ متهما اياه بالترويج للشيوعية !

الشيخ (أبو الخشب)

فى فجر ١١ يوليو ١٩٤٦ كان بوليس « إسماعيل صدقى » يدخل بيت « محمد زكى عبد القادر » المحرر بالأهرام وصاحب ورئيس تحرير مجلة (الفصول) بحثا عن الكتب والمنشورات الشيوعية . وقال وكيل النيابة « حسين زكى » للكاتب الكبير انه متهم بالعمل على (قلب نظام الحكم) وقد قبض البوليس على ذمة هذه القضية - والتى عرفت بقضية الشيوعية الكبرى - على حوالى مائتين من الكتاب والصحفيين والمفكرين وقادة التجمعات المهنية المختلفة ، وأغلق إسماعيل صدقى صحف الوفد المصرى وعددا من دور النشر . وتم تفتيش منزل « محمد زكى عبد القادر » ومكتبه بجريدة الأهرام ، ومقر مجلته (الفصول) ولم يكن هناك شىء بالطبع يدين كاتبنا الكبير ، وتقدم تسعة من المحامين على رأسهم « محمد صبرى أبو علم » سكرتير عام الوفد للدفاع عن « محمد زكى عبد القادر » وبعد حبسه أربعة أيام جددت النيابة الحبس ١٤ يوما . واستدعاه رئيس النيابة « مصطفى حسنى » وواجهه بتقرير القلم السياسى الذى جاء فيه ان « هنرى كوريل » الداعية الشيوعى المعروف طلب منه انشاء خلية شيوعية بالأزهر ، وان زكى عبد القادر

كلف إبراهيم أبو الخشب . ويعرض الأوراق على النائب العام افرج عنه بعد أن قضى سبعة أيام . وقال للنائب العام . . (انا خارج من هنا وأنا حزين . . تقرير من مخبر نظير خمسة قروش وارجع ثانى هنا . . اننى متألم لأن حريتى لم تعد فى أمان) .

هذه هى رواية « محمد زكى عبد القادر » . . بقى ان نعرف رواية « إبراهيم أبو الخشب » لتقف على طبيعة أسلوب الحكم أيام « إسماعيل صدقى » الذى اعد القضية من البداية حتى النهاية بهدف ضرب شعبية الوفد . و « إبراهيم أبو الخشب » الذى ورد ذكره فى هذه القضية هو الآن فضيلة الشيخ الدكتور « إبراهيم أبو الخشب » الأستاذ غير المتفرغ بالأزهر الشريف ، وله كتابات عديدة نذكر منها (تاريخ الأدب العربى ، ومحنة اللغة العربية ، وبارسول الله) اكتب هذه الحلقة واكد انه لم يعرف « محمد زكى عبد القادر » على الاطلاق ، وفوجئ ببوليس صدقى يفتش بيته ويقبض عليه ويوجه إليه الاتهام بأنه اتفق مع زكى عبد القادر على تشكيل جمعية باسم (جمعية الخبز) ولم يكن « الشيخ أبو الخشب » قد رأى « محمد زكى عبد القادر » أو تعرف عليه ، وأصر فى التحقيق على مقابلة النائب العام ، وبعد حبسه أربعة أيام عرض على « محمود منصور » النائب العام الذى افرج عنه . أما لماذا قبض بوليس صدقى باشا عليه فذلك لأنه كان فى الأزهر ضمن فريق غير مؤيد للشيخ المراغى والشيخ دراز والشيخ عبد الآخر أبو زيد . والمعروف ان هؤلاء جميعا كانوا من المناوئين للوفد . وقد ثبت ان حملة صدقى المشهورة عام ١٩٤٦ كانت موجهة ضد الوفد .

على أن المتأمل فى مؤلفات محمد زكى عبد القادر وهى كثيرة ، وعلى مقالاته فى عموده اليومي ، فى مقالاته الأخرى ، بل فى مجلة فصول فى كل اعدادها ، وفى الجمعيات التى شارك فى نشاطها . . لايلمس اية اتجاهات شيوعية ولايسارية لدى « محمد زكى عبد القادر » وإنما هو كاتب وطنى وديمقراطى يسعى إلى درجات معتدلة من العدل الاجتماعى لبنى وطنه .

اقدام على الطريق

و « محمد زكى عبد القادر » اذا كان قد أثر الا ينضم إلى حزب من الأحزاب فانه لجأ وعدد من اقرانه إلى أشكال أخرى من العمل الفكرى والثقافى والاجتماعى مثل جمعية الفلاح ، وجمعية النهضة القومية ونادى الشرقية ، ومجلة فصول ، ثم الندوات الأسبوعية التى كان يعقدها منذ عام ١٩٥٦ وتوقفت عام ١٩٧٣ . ثم عضويته فى لجنة العلوم الإنسانية بجامعة القاهرة .

ومن زملاء « محمد زكى عبد القادر » أو كان هو زميلا لهم نذكر . . الدكتور إبراهيم بيومى مذكور ومريت غالى وجفرى بطرس غالى ، وزهير جراته . وهم عناصر تميزت بالجدية والصدق

مع الذات ووضوح الرؤية ، ومع ثقافتهم الواسعة أشتهروا بالفكر الاصلاحى والمناداة بالعدل الاجتماعى فى مواجهة الجشع الاقطاعى والرأسمالى والكتيبات التى اصدروها والبحوث التى اعدوها والمحاضرات التى قدموها كلها تدور حول الاصلاح الاجتماعى مما وضعهم فى صفِ المفكرين التقدميين .

ومن هذا المنطلق يمكن الاعتماد على ماكتبه هؤلاء المفكرون الاصلاحيون فى فهم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ايضا . وفى هذا المجال يمكن . الاعتداد بما كتبه « محمد زكى عبد القادر » فى كتبه (اقدم على الطريق ، وذكريات ومذكرات ، ومحنة الدستور) .

وفى روايته لسيرته الذاتية عرض للأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى مرت بمصر وجاوزها إلى البلاد العربية . وفى كل ماروى وحلل والتزم النظر الموضوعى والأمانة فى الرواية والصور التى رسمها للأشخاص ، رسمها فى موضوعية تامة ، وحاول جهده ان يعيد شعوره الشخصى وكتب فى مذكراته وذكرياته يقول : (كل ما أرجوه ألا أكون قد أذيت أحدا أو جرحته ، حيا أو ميتا ، فمن كان مثلى كثير الجروح مؤمنا بضعف الإنسان ، لايمكن أن يقصد إلى احداث جرح بانسان آخر .) .

مع صاحبة الجمالة

تخرج فى كلية الحقوق سنة ١٩٢٦ م وعمل لفترة قصيرة بوزارة الأوقاف ثم عين محررا بجريدة السياسة . وقد صدرت جريدة (السياسة) فى ٣١ أكتوبر ١٩٢٢ لتعبر عن (الأحرار الدستوريين) وهى فى منهاجها الفكرى امتداد لصحيفة (الجريدة) التى عبرت عن (حزب الأمة) ورأس تحريرها « أحمد لطفى السيد » وفى جريدة السياسة التقى « محمد زكى عبد القادر » بأحمد لطفى السيد ، ومحمد حسين هيكل ، وطه حسين ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، وأحمد شوقى ، وزكى مبارك ومحمود عزمى ، والمازنى وتوفيق دياب وظل « محمد زكى عبد القادر » محررا بالسياسة حتى عطلت اداريا من ديسمبر ١٩٣٠ إلى يونيو ١٩٣١ .

واشتغل بالمحاماة إلى ان عين محررا بجريدة الأهرام فى سنة ١٩٣٧ وأشرف على تحرير الأهرام بعد وفاة رئيس تحريرها « انطون الجميل » وظل مشرفا على تحرير الأهرام من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٠ عندما انتقل إلى مؤسسة أخبار اليوم واختير بعد صدور الأخبار اليومية (١٥ يونية ١٩٥٢) أحد رؤساء تحريرها . وفى سنة ١٩٥٦ اختير رئيسا لتحرير (المختار) وهى طبعة عربية لمجلد أمريكية كانت (دار الهلال) تتولى اصدارها ثم تولتها (مؤسسة أخبار اليوم) واختير استاذًا غير متفرغ فى معهد الصحافة وانتخب عضوا بمجلس نقابة الصحفيين ووكيلا لها واستقال بعد فترة .

هل كان « محمد زكى عبد القادر » يحسب انه سوف يموت فى أحد مطاعم وسط القاهرة (٧ مارس ١٩٨٢) وهو الذى افرد صفحات حزينه من مذكراته وذكرياته للموت . . سنة ١٩٤٧ فى زهو العمر ونضج الشباب مخلقا وراءه طفلين فى حاجة إلى الحب والحنان . ومخلقا أباه طحنه الحزن على الابن الذى كان معتمده حيث يعيش فى الريف يحمل عنه عناء الاشراف على الزراعة وإداء الواجبات الاجتماعية والواجبات السياسية من استقبال المرشحين والناخبين وأهل شهر أكتوبر من هذه السنة ١٩٤٧ ، وجاءت الأنباء من الريف ان اباه فى حالة سيئة . وبلغ الريف والشمس تميل إلى المغيب . هل هى الشمس التى تميل إلى المغيب أم هى حياة إنسان عزيز . .

وشهد الموت وواجهه . . بات ليلة كاملة إلى جوار طفلة ، هى ابنته التى لم تكن قد تجاوزت شهورا ثمانية . . واتاها الأجل والليل وليد . . ليلتها راح فى صلاة ودعاء وخشوع وخيل إليه ان الحيط الذى يفصل بينها وبينه رقيق ، ليلتها كان متعاطفا معه ، مع الموت ، ولم يجد فرقا بينه وبين الحياة . عايش الموت والحياة حقيقة واقعة متمثلة فى الطفلة المسجاة إلى جواره . وشهد الموت مرة أخرى ، فى طفل آخر ، هو ابنه ايضا ، وكان لم يكمل الثمانية اشهر عدا .

وفى أواخر عام ١٩٢٧ ، كان قد ترك عمله فى وزارة الأوقاف ، والدنيا تبدو أمامه جديدة بارعة رائعة ، وذهب إلى سينما متروبول لكى يشهد الاحتفال بذكرى الزعيم الوطنى محمد فريد . ووقف رجل ضئيل الجسم اشيب ، لا هو طويل ولا هو بالقصير ، وسمع همسا حوله إنه على فهمى كامل بك شقيق الزعيم مصطفى كامل ، وما ان بدأ يتكلم حتى هوى ، رأى الرجل الذى كان اصبح ولم يكن . . اين هو ؟ ماذا حدث ؟ ثم تبين ان الخطيب الذى لم يوشك ان يتكلم صمت إلى الأبد . . ماذا حدث ؟ . . ان الأجل بالمرصاد . . ليس فى حاجة ان يقدم لأحد الأسباب أو يقدم الاعتذار . .

وبعد ذلك بسنوات كان فى اليونان مع المرحوم « حبيب جاماتى » و« حافظ محمود » فى دعوة لرحلة سياحية . وابتعدت السفينة عن أثينا مهد سقراط وأرسطو وأفلاطون . . وفى بحر ايجة . . السفينة متوازنة والأمواج خافتة كانها تتناجى . . وفى قاعة الطعام ، وما كادت الساعة تبلغ التاسعة حتى بدأت السفينة تهتز ، وأخذت الموائد ترتج وصحاف الطعام تتصادم وتتلافى ، وتطلعون إلى البحر فإذا هو مكشر الأنياب . وعاد إلى غرفته والساعة التاسعة والنصف مساء والسفينة ريشة فى مهب الرياح . . وخيم على الأفق صمت مخيف ليس فيه إلا صوت الموج يهاجم السفينة كأنه الأسد المفترس . وحانت منه التفاتة من النافذة إلى البحر ، فإذا هو ميدان سباق لنمور وأسود مفترسة . . واعد نفسه للنهاية التى لا مفر منها . . وتوجه إلى الله بصلاة خاشعة . . والناس لا يشعرون بالحاجة إلى الإيمان وإلى الله إلا حينما تنقطع بهم الأسباب وتظلم الأضواء لا

يكون أمامهم إلا الله العلى المتعال . وسأل الله الا تكون النهاية في هذا البحر الهائج المخيف بعيدا عن أرض الوطن . وراح خاطره إلى الأعزاء الذين غادرهم في أرض الوطن ، ممن يعتمدون عليه ، كيف يكون حالهم بعده . وتناول « محمد زكى عبد القادر » ما يحمله من أوراق ومزقها ، وهذه واقعة تذكرنى بما فعله شرقاوى آخر هو « فكرى أباطة » الذى مزق مذكراته أو حرقها قبل ان يرحل عن دنيانا . وفى تلك الليلة رأى الله ، فما كان الفجر ينبثق وتبدو تابشيره أصبح البحر كالطفل القريير واصبحت السفينة على وجهه كأنها الأب الحنون . وصلى الى الله خاشعا يشكر له ان مسه بجناح من رحمته ويرجو المزيد . . وهكذا الإنسان . .

رحلة قلم

بدأ الرحلة من (فرسيس) بالشرقية عام ١٩٠٦ كما قلنا ، ونال شهادة الكفاءة سنة ١٩٢٠ ، وحصل على البكالوريا من مدرسة الزقاريق الثانوية سنة ١٩٢٢ ، وتخرج في الحقوق سنة ١٩٢٦ ، وعمل لفترة بوزارة الأوقاف ، فجريدة السياسة ، فالمحاماة ، فمحرراً بجريدة الأهرام حتى أشرف على تحريرها ، فاخبار اليوم ثم رئيسا لتحرير الأخبار ، فريسا لتحرير (المختار) من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٧ ، وسنة ١٩٨٠ انتخب لعضوية مجمع اللغة العربية حتى يوم الرحيل في ٧ مارس ١٩٨٢ تاركاً خلفه أكثر من عشرين كتاباً نافعا للناس .

وفى حياته منخاض تجرية الانتخابات لمجلس النواب مرتين . . الأولى في الريف في الشرقية ، والثانية في روض الفرج بالقاهرة . . ولم يقدر له الفوز في المرتين . . ولكن تجربة الترشيح في الريف عمقت في نفسه ما يعانيه الشعب من فقر وجهل ومريض ، وفي المدينة يحتاج المرشح — على حد تعبيره — ان يتحلل تماماً من مقتضيات الأخلاق والذمة والأمانة . كانت التجارب قاسية بالنسبة له بين الأحزاب والجماعات وسباسة الانتخابات والوعود الكاذبة والنفاق واللف والدوران والدعاية وانفاق الأموال مما لم يكن من طبع الكاتب الذى يسطر خواطره للقراء .

ولا ينبغي أن نختم هذه الحلقة عن « محمد زكى عبد القادر » دون ان نذكر انه لم يؤيد (٢٣ يوليو ١٩٥٢) تأييداً واضحاً كما أنه لم يعارضها معارضة واضحة ، واكتفى بأن يرقب الأحداث واستمر يبدى رأيه في الأوضاع الاجتماعية العامة ، وإن كانت (البهجة الطارئة والفرحة المفاجئة) قد طغت عليه في الفترة الأولى لرغبته في التغيير ، والتخلص من القصر ومن ضغطه على الحريات ، وقد دعاه « محمد فؤاد جلال » للمشاركة في لجنة استشارية لمجلس قيادة الثورة في أغسطس ١٩٥٢ وكان عددهم حوالى ٣٠ عضواً منهم « محمد فريد أبو حديد ، وزكى هاشم ،

وحسن كامل سليم ، ووليم سليم حنا ومريت غالى ، ومحمد فؤاد جلال ، وسيد قطب « .
وبعض هؤلاء الثلاثين وصل إلى الوزارة ، وبعضهم وصل إلى رقبتة جبل المشنقة !

الأسانيد :

- ١ - الدكتور إبراهيم أبو الخشب . . حديث شخصى ١٩ / ٩ / ١٩٨٨ .
- ٢ - حافظ محمود . . اسرار الماضى .
- ٣ - فتحى رزق . . شموع فى بلاط صاحبة الجلالة .
- ٤ - محمد زكى عبد القادر . . مذكرات وذكريات .
- ٥ - د . محمد مهدى علام . . المجمعون فى ٥٠ عاما .

الشيخ مصطفى عبد الرازق



لم يسعدنى الحظ ان اجلس إلى هذا الأستاذ الجليل جلسة التلميذ منذ التحقت بقسم الفلسفة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) سنة ١٩٤٦ ، كان الأستاذ الجليل شيخاً للجامع الأزهر فجلست إلى تلاميذه أساتذتى الاجلاء « الدكتور أحمد فؤاد الالهوانى ، والدكتور محمد مصطفى حلمى ، والدكتور عثمان أمين » و « الدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده » (رحمهم الله جميعاً) .

وحاولت هنا ان اقصر هذه الحلقة عليه وفشلت ، فكيف لي ان اتحدث عن فرع باسقى ، واغفل شجرة وارفة الظلال هي (آل عبد الرازق) . أسرة عريقة في الوطنية ، وإذا ما تحدثت عن أسرة « عبد الرازق » تحدث بالضرورة عن « حسن بن أحمد بن محمد ، بن عبد الرازق » الذى دخل تاريخ مصر الحديث باسم « حسن عبد الرازق » وتوطدت العلاقة بينه وبين « الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » وأعلن في ٢٠ سبتمبر ١٩٠٧ تسمية الجمعية العمومية لشركة (الجريدة) بحزب الأمة . وإذا ما وصل الحديث إلى « حسن عبد الرازق باشا » امتد بالضرورة إلى أولاده « على عبد الرازق » المعروف بكتابه (الإسلام وأصول الحكم) وأزمته سنة ١٩٢٦ ، و « محمود عبد الرازق » ثم « حسن عبد الرازق » الذى اغتيل في ٦ نوفمبر ١٩٢٢ واغتيل معه « إسحاق زهدى » المحامى أمام مقر حزب الأحرار الدستوريين .

آل عبد الرازق

أسرة وطنية عريقة في قرية (أبو جرج) بكسر الجيم وتسكين الراء ، من قرى محافظة المنيا

بالصعيد قال عنها « محمد زكى عبد القادر » إنها كانت على عداء وخصومة مع الملك « أحمد فؤاد » وعلى خصومة مع الخديو عباس الثانى لدورها فى انشاء حزب الأمة والجريدة ، وبعد ذلك لدورها فى تأسيس حزب الأحرار الدستوريين ثم لكتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلى عبد الرازق والذى وضعه ليسد الطريق أمام الملك فؤاد حين طمع فى أن يكون خليفة للمسلمين .

وتشير الدكتور « سعاد عبد الرازق » إلى أصل الأسرة فى (البهنسا) وهى (بلدة) على بحر يوسف تبعد عن قرية (أبو جرج) بنحو خمسة عشر كيلو مترا وكان الجد الأكبر « عبد الرازق » يتولى قضاء (البهنسا) حوالى عام ١٧٩٧م وانتقل « أحمد عبد الرازق » حفيد الجد الأكبر ، والجد الأول للشيخ مصطفى عبد الرازق انتقل إلى (أبو جرج) لتولى كرسى القضاء ، واستقرت الأسرة بها وعرفت بأسرة (القضاة) .

والدكتور « حسن محمود » بلديات « الشيخ مصطفى عبد الرازق » يقول : أبو جرج قرية من أكبر قرى مركز بنى مزار محافظة المنيا ، قرية وادعة مسالمة ، يعيش أهلها أسرة واحدة غنيها وفقيرها لم تعرف البغضاء . . وقد شبيت عن الطوق وأنا أقرب منبها ذلك القصر المهيب الذى يقف شاهقا على مشارف القرية من ناحية الشرق حيث أسرة « حسن باشا عبد الرازق » الثرية الكريمة التى جمعت بين العلم والفضل . وكانت شهور الصيف من أسعد أيامنا نحن أطفال هذه القرية ، حين تدب فى القصر الكبير الحياة ، ويعود أبناء « حسن باشا عبد الرازق » وإذا بهم فى تواضع العلماء وسخاء أهل الريف يخالطون الكبير والصغير ويعرفون أهل القرية شيوخا وشبابا وأطفالا . . يلاطفون ويسألون والقصر مأوى للغريب والمحتاج والموائد حافلة ليل نهار بالضيوفان من كل فجح كانوا قدوة فى البر بالناس والترفق بأهل القرية يعينون المحتاج ويعلمون الفقير ويشجعون على العلم . .

ويواصل « د . حسن محمود » كلامه : وكنا نرى الشيخ الجليل فى رفته وحيائه يسير عصر كل يوم فى الطريق الزراعى الطويل المنبسط أمام القرية منفردا حيناً أو بصحبة صديقة « د . طه حسين » وزوجته الفرنسية وكانا ينزلان صيف كل عام ضيوفا على (آل عبد الرازق) .

أما قصر آل عبد الرازق فى القاهرة خلف قصر عابدين أو (القصر الجمهورى حاليا) يلتقى فيه يوم الجمعة أبناء (أبو جرج) فى القاهرة ، فالدعوة مفتوحة وكان الطلاب والتلاميذ منهم يكتبون فى خانة ولى الأمر « بيت عبد الرازق » عابدين ويقدم « أحمد أمين » صورة لمنزل صديقه « الشيخ مصطفى عبد الرازق » كان منزلا يحتفظ بالتقاليد القديمة لبيوت الأسرة الكبيرة ، يكثر زوارها وتمد موائد غداء وعشاء ، وكان أصدقاء الشيخ من الشباب ينفردون بحجرة فى البيت يتلاقى فيها شبان الأزهر بشبان الحقوق ببعض الشبان الذين يتعلمون فى أوروبا ، فتثار المسائل

على اختلاف ألوانها دينية وفلسفية وسياسية واجتماعية تتبادل فيها الأفكار والآراء ، وآراء المحافظين تواجه آراء الأحرار ومؤيدو السفور ينازعون مؤيدي الحجاب ، والوطنيون يثيرون على الرجعيين) .

وقد قدر البعض ملكية عائلة عبد الرازق بسبعة آلاف فدان ، هذا هو بيت (عبد الرازق) بمناخة الاقتصادى والاجتماعى والدينى الذى نشأ فيه « الشيخ مصطفى عبد الرازق » . أما رب البيت « حسن عبد الرازق » فقد كان على علاقة طيبة بالشيخ « محمد عبده » وكان ذا ثقافة دينية أزهرية فضلا عن مكانته الاجتماعية والسياسية . وبعد عشرة أيام من حادثة دنشواى ، عقد الاجتماع الأول لتأسيس شركة لاصدار (الجريدة) فى يونيو ١٩٠٦ فى منزل « محمود سليمان » والد محمد محمود واختير محمود سليمان رئيسا واختير حسن عبد الرزاق نائبا وأحمد لطفى السيد مديرا ، وصدر العدد الأول من (الجريدة) فى ٩ مارس ١٩٠٧ ، وفى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ عقدت الجمعية العمومية ، للجريدة برئاسة حسن عبد الرازق لمرض محمود سليمان وفى هذا الاجتماع أعلن حسن عبد الرازق تحويل الجمعية العمومية إلى حزب باسم (حزب الأمة) واختير « محمود سليمان » رئيسا و « حسن عبد الرازق وعلى شعراوى » وكيلين واختير « أحمد لطفى السيد » سكرتيرا عاما للحزب وأصبحت الجريدة لسانا لحال حزب الأمة . وفى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٧ توفى حسن عبد الزارق باشا والد الشيخ مصطفى عبد الرازق ووالد حسن عبد الرازق الذى كان عضوا فى مجلس إدارة (حزب الأحرار الدستوريين) واغتيل كما أشرنا من قبل عند خروجه من جريدة السياسة فى ١٦ نوفمبر ١٩٢٢ . على اية حال أصبح من اليسير الآن ان ندخل مباشرة إلى سيرة « الشيخ مصطفى عبد الرازق » .

السفور والحزب الديمقراطي

فى هذه البيئة ولد « مصطفى عبد الرازق » حوالى عام ١٨٨٥ - ١٣٠٤ هـ وهو الأبن الرابع بين سبعة أبناء وبتين لوالده حسن عبد الرازق وفى السادسة من عمره التحق بكتاب القرية ، فتعلم القراءة والكتابة وحفظ شيئا من القرآن الكريم وفى الحادية عشرة من العمر التحق بالجامع الأزهر . والتقى بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . فكان يحضر دروسه التى يلقيها بعد صلاة المغرب فى الرواق العباسى . غير أن « الشيخ محمد عبده » يرحل فى ١١ يوليو ١٩٠٥ فتضطرب أحوال شيخنا مصطفى ولكنه يعكف على الدراسة ليحقق أمل الإمام فيه ونال اجازة العالمية فى ٢٥ يوليو ١٩٠٨ . ودعى للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى وبعد عام استقال وسافر إلى فرنسا سنة ١٩٠٩ وحضر سنتين فى السوربون ثم تحول سنة ١٩١١ إلى جامعة ليون ليحاضر فى أصول

الشرعية الإسلامية واضطرته ظروف الحرب العالمية الأولى إلى أن يعود لمصر سنة ١٩١٤ بعد أن حصل على الدكتوراة عن « الإمام الشافعى أكبر مشرعى الإسلام » وترجم إلى الفرنسية بالاشتراك مع « برنار ميشيل » رسالة التوحيد للإمام الشيخ محمد عبده ، كما ألفا معا كتابا باللغة الفرنسية عن (الشيخ محمد عبده) وعين سنة ١٩١٥ موظفا في المجلس الأعلى للأزهر ثم مفتشا بالمحاكم الشرعية سنة ١٩٢٠ .

وإلى أن اقفلت الجريدة أبوابها في ٣٠ يوليو ١٩١٥ كان في أغلب فتراتها كاتباً من كتابها وقال عنها : (استبشرنا بها راية يلتف حولها الجوهر المصفى من شبابنا ، وتسير في ظلها دعوة الحرية والتقدم بين حياة العلم والعقل وجاه العصبية والغنى ، ثم ماتت الجريدة وتفرق عنها أصحابها غافلين لاهين بمظاهر القابهم وأمواهم) .

وسرعان ما صدرت جريدة (السفور) التي اصدرها « عبد الحميد حمدى » أحد أعضاء حزب الأمة ، وضممت السفور إليها أقلام : « مصطفى عبد الرازق ، ومحمد كامل البندارى ، وعزيز ميرهم ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمود عزمى ، ومنصور فهمى ومحمد أحمد الغمراوى ، ومحمد فريد أبو حديد ، ومحمد كامل سليم ، ومحمد عبد الواحد خلاف ، وأحمد زكى ، وأحمد أمين ، كما ان غالبية هذه العناصر كانت تجتمع في بيت عبد الرازق وفي هذا البيت أعلن عن قيام (الحزب الديمقراطى) ووضع « مصطفى عبد الرازق » ومحمد حسين هيكل ، وعزيز ميرهم ، ومحمود عزمى ، ومنصور فهمى » في ١٠ سبتمبر ١٩١٩ ، وفي الحجرة الخاصة بمصطفى عبد الرازق في بيت آل عبد الرازق وضعوا قانون الحزب الديمقراطى وتمزق هذا الحزب بين الوفد ، وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الاشتراكى المصرى وهو الحزب الذى تحول إلى (الحزب الشيوعى) فيما بعد .

أستاذًا للفلسفة

في سنة ١٩٢٧ نقل « الشيخ مصطفى عبد الرازق » استاذًا مساعدا للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب ، بجامعة فؤاد الأول ، ثم صار استاذ كرسى الفلسفة سنة ١٩٣٥ وأصدر في هذا المجال كتاب (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) وكتاب (فيلسوف العرب والمعلم الثانى) ووضع أمام تلاميذه شخصيات لم تكن قد نالت حظها من الدرس والبحث ، أمثال البهاء زهير الذى يمت إلى مصر والمصريين بصلة ، والليث بن سعد ، فقيه مصر الأول ، والكندى فيلسوف العرب ، والفارابى المعلم الثانى ، وفخر الدين الرازى ، وأسهم في ترجمة (رسالة التوحيد) لأستاذه « الإمام محمد عبده » إلى الفرنسية . والتف حوله عدد من صفوة الطلاب أصبحوا فيما بعد أساتذة للفلسفة والاجتماع .

وهو أول من انشأ في الدراسات الجامعية مادة للدراسة سميت بالفلسفة الإسلامية ، ولكنه كان يرى ويردد ان أول من قام بهذا العمل هو « المستشرق الإيطالي سانتلانا » في الجامعة المصرية الأهلية .

والشيخ في كل ما كتب يكشف عن نزعة أدبية واهتمام بالحياة الاجتماعية والتعمق في معاني الفلسفة الإسلامية ، والتعبير عنها بعبارات سهلة واضحة . وقد حرص الدكتور « طه حسين » على ان يقوم الشيخ مصطفى عبد الرازق بتدريس مادة الفلسفة الإسلامية في كلية الآداب .

والشيخ في حياته كلها كان يعتقد ان هناك شيئا فوق العلم وفوق الفن هو ما يطلق عليه اسم (الأخلاق) .

ولخص « الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني » منهج الشيخ في إنه كان يرى (إن بناء ثقافتنا وإعادة مجد أمتنا يكون بانفتاحنا على ما هو جديد مع احتفاظنا بالقديم بحيث لا يطغى القديم على الجديد ، ولا الجديد على القديم ، وان نكون يقظين تجاه محاولة تشوية تراثنا الفكري الإسلامي ، وان نثق بأنفسنا وبتراثنا الحضارى ، وان نشر ما لم ينشر منه حتى نحكم عليه الحكم الصحيح) .

وزير للأوقاف

هو أول شيخ أزهرى يتولى وزارة الأوقاف وتولاها ثمانى مرات كانت أولاها في وزارة « محمد محمود » الثالثة من (٢٧ أبريل ١٩٣٨ - ٢٤ يونيو ١٩٣٨) في أعقاب انتخابات نموذج للتدخل والتزوير وانشغلت الوزارة في الرد على مناوورات « على ماهر » رئيس الديوان الملكى واستقالت الوزارة ليشكل « محمد محمود » وزارته الرابعة (من ٢٤ يونيو ١٩٣٨ - ١٨ أغسطس ١٩٣٩) ويتولى الشيخ مصطفى عبد الرازق بك وزارة الأوقاف . المرة الثالثة للشيخ وزيرا للأوقاف كانت في وزارة حسن صبرى الأولى من ٢٧ يونيو ١٩٤٠ - ١٤ نوفمبر ١٩٤٠ . المرة الرابعة في وزارة حسين سرى الأولى من ١٥ نوفمبر ١٩٤٠ - ٣١ يوليو ١٩٤١ ثم وزيرا للأوقاف للمرة الخامسة وهو يحمل لقب باشا في وزارة حسين سرى الثانية من ٣١ يوليو ١٩٤١ - ٤ فبراير ١٩٤٢ ويتولى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا وزارة الأوقاف للمرة السادسة في وزارة أحمد ماهر الأولى من ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - ١٥ يناير ١٩٤٥ ، ومن يناير ١٩٤٥ إلى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ يشكل أحمد ماهر وزارته الثانية ويبقى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا وزيرا للأوقاف للمرة السابعة . ولم يقدم أحمد ماهر استقالة وزارته لاغتياله ويقوم محمود فهمى النقراشى بتشكيل وزارته الأولى في ٢٤ فبراير ١٩٤٥ ،

وتنتهى الحرب العالمية الثانية فى مايو ١٩٤٥ وتقوم مجموعة من الشباب ثبت فيما بعد أنها كانت تعمل لحساب القصر باغتيال أمين عثمان فى يناير ١٩٤٦ ، وتسفر الانتخابات البريطانية عن فوز حزب العمال الذى يمهّد لسحب اللورد كيلرن السفير البريطانى من مصر وتستقيل وزارة النقراشى فى ١٥ فبراير ١٩٤٦ والتى كان فيها الشيخ مصطفى عبد الرازق وزيرا للأوقاف للمرة الثامنة والأخيرة .

شيخا للأزهر

فى ٢٧ ديسمبر ١٩٤٥ عين الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للجامع الأزهر ومن ٣٠ ديسمبر ١٩٤٥ تم نذب أحمد عبد الغفار وزير الزراعة وزيرا للأوقاف واستقالت وزارة النقراشى الأولى فى ١٥ فبراير ١٩٤٦ .

وقد أحاطت بعض الملاحظات بتعيين الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للجامع الأزهر . كان الشيخ مصطفى المراغى قد توفاه الله يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٥ . وثار أزمة بين القصر وهيئة كبار العلماء وكما يقول حسن يوسف فى مذكراته (أزمة أثارها الملك شخصيا بغير مبرر . .) وكان الملك فاروق قد رغب فى ترشيح الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للجامع الأزهر ، وكان قانون الأزهر ينص على اختيار شيخه من بين أعضاء هيئة كبار العلماء . وتقدمت وزارة النقراشى بتعديل قانون الأزهر لالغاء الشرط الخاص بعضوية هيئة كبار العلماء . وبدلا من شرط التدريس فى الأزهر لمدة عشر سنوات تعدلت المادة إلى خمس سنوات بالتدريس فى الأزهر أو فى جامعة فؤاد الأول أو جامعة فاروق الأول . وكذلك اضيف لمبرات الترشيح من سبق ان تولى منصب الافتاء أو عضوية المحكمة الشرعية . اجتمعت هيئة كبار العلماء وقررت الاعتراض على الترشيح بدون عضوية هيئة كبار العلماء . وقدم « الشيخ مأمون الشناوى » وكيل الأزهر استقالته من منصبه احتجاجا على تخطيه لتعيين شيخا للأزهر . ووافق مجلس النواب بجلسته ١١ ديسمبر ١٩٤٥ ، ووافق مجلس الشيوخ كذلك على تعديل قانون الأزهر . ولم يكن الاعتراض من جانب رجال الأزهر مقصودا به الشيخ مصطفى عبد الرازق وإنما كان المقصود به الحفاظ على التقاليد المرعية لاختيار شيخ الأزهر .

وفى اليوم الخامس عشر من فبراير سنة ١٩٤٧ ، ذهب الشيخ إلى الأزهر ، وعاد إلى منزله قبيل العصر ، وتوضأ وصلى العصر . وأوى إلى الفراش بعد ان شعر بالاعياء يزحف إلى جسده . . وكانت النهاية المحتومة . .

توفاه الله بعد اثنين وستين عاما قضاهما الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا أسهم بقلمه دفاعا عن الحريات كطريق لتحولات اجتماعية وسياسية وفي حدود ما اتيح له من رؤية . . تتلمذ على أيدي الإمام محمد عبده وظل وفيأ له ولمدرسته طوال عمره . . وعندما كان أستاذاً للفلسفة الإسلامية من ١٩٢٧ ، حتى ١٩٤١ تحلقت حوله مجموعة كان لها اسهامها الواضح بعد رحيله : توفيق الطويل ، وعلى النشار ، ومحمد عبد الهادي أبو ريذة ، وعثمان أمين ، ومحمد مصطفى حلمي ، وأحمد فؤاد الاهواني . . وغيرهم ، تولى وزارة الأوقاف ثمان مرات على فترات من ٢٧ أبريل ٣٨ حتى ٢٧ ديسمبر ١٩٤٥ ، كان فيها نموذجا للنزاهة والصدق والسباحة .

الأسانيد :

- ١ - إبراهيم بيومي مذكور وآخرون . الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق .
- ٢ - أحمد أمين . . حياتي .
- ٣ - حسن يوسف . . مذكرات .
- ٤ - محمد السعدى لرهود وآخرون . . « الأزهر الشريف في عيده الألفى » .
- ٥ - محمد على علوية . . « ذكريات سياسية واجتماعية » .
- ٦ - محمد مهدي علام . . « المجمعيون في محسن عام » .

مصطفى النحاس



أيها الغاضب الكبير تأمل
كيف صار الكتاب كالحرفان
عد إلينا ياسيدى عد إلينا
وانتشلنا من قبضة الطوفان
ورفضنا كل السلاطين فى الأرض
رفضنا عبادة الأوثان
عد إلينا فان ما يكتب اليوم
صغير الرؤى ، صغير المعانى
سقط الفكر فى النفاق السياسى
وصار الأديب كالبهلوان
يتعاطى التبخير يحترف الرقص
ويدعو بالنصر للسلطان
عد إلينا فان عصرك عصر
ذهبى ونحن عصر ثان
ارم نظارتيك ما أنت أعمى
إننا نحن جوقة العميان

وقبل أن يتحرك الذين احترقوا الصيد فى الماء العكر ، أو الذين احترقوا تعكير الماء الرائق . .
أقول ان هذه الأبيات ليست لى ، فأنا لست بشاعر ، وأقصى ما وصلت إليه فى حديقة الشعر هو
أن أتذوق أصدقه ، وإن كان أعذب الشعر أكذبه كما يقال .

وقائل هذه الأبيات هو الشاعر العربى الكبير « نزار قبانى » والزمان فى أواخر عام ١٩٧٤ . .
والمكان قاعة الجامعة العربية بالقاهرة . . والمناسبة مرور عام على رحيل عميد الأدب العربى . .
وزير المعارف العمومية فى وزارة الوفد (١٢ يناير ١٩٥٠ - ٢٧ يناير ١٩٥٢) والشاعر هنا يخاطب
الدكتور طه حسين .

ولكن ، إذا أراد القارئ أن يخاطب بها « مصطفى النحاس » فهذا شأنه ، ولا دخل لى فى
ذلك ، ولا دخل لنزار قبانى أيضا . وإذا أراد القارئ أن يستعيد الأبيات ، وأن يسقط معانيها على
الزمن الذى قيلت فيه (١٩٧٤) وعلى زمن آخر يقف على حدود يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢
فهذا شأنه أيضا ولا دخل لى فيه ، وإن كان الشاعر يقارن بصراحة بين زمن ١٩٧٤ وزمن عاش فيه
الدكتور طه حسين عميدا للأدب العربى . . وعلى مسئولية القارئ أن يستعيد الأبيات مرة
ومرات ، وأن يسقط ما فيها من معان على الأزمنة التى يريدتها أو يتصورها .

وبالنسبة لى فأننى أتوقف دائما عند بيتين من القصيدة أوردت هنا أحدهما ليكون مدخلا لى وأنا
أكتب عن مصطفى النحاس . . البيتان هما :

أرم نظارتك كى اتملى كيف تبكى شواطئ المرجان
أرم نظارتك ما أنت أعمى وإنما نحن جوفة العميان

فى جسارة عبقرية ، اقتحم الشاعر منطقة غاية فى الحساسية عند « طه حسين » ومآظنه
البعض نقطة الضعف عند « طه حسين » اعتبرها الشاعر نقطة القوة . . فالعيون الضريرة . .
شواطئ المرجان . . والعميد ليس بأعمى . . وإنما نحن جوفة العميان . . والأكف التى التهمت
تصفيقا لأبيات « نزار » لم تكن مقصورة على « طه حسين » وإنما صفت لأن الشاعر كان يقارن
بين عصر وعصر . . بين زمن وزمن . واقتحم المنطقة المحظورة . .

موقف تاريخى فى ٤ فبراير

والآن ، هل مهدت لنفسى وأنا أختار ما حدث فى ٤ فبراير ١٩٤٢ بداية للحديث عن
« مصطفى النحاس » . . لم يكن أعمى ، وإنما نحن جوفة العميان . . وليرم كل نظارتيه ، أو
ليرى الموقف عاريا على حقيقته فى ذلك اليوم ٤ فبراير ١٩٤٢ دون تشديق بالفاظ وعبارات
لاتساوى شرو نقيير تعتبر فى تلك اللحظات التاريخية التى اتخذ فيها « مصطفى النحاس » الموقف
شديد الذكاء فانقذ مصر من الخراب والدمار ، وانقذ عرش مصر رمز الوطن فى ذلك الزمان ،
وانقذ شعب مصر من سياسيين لم يروا فى تلك الفترة غير مصالحهم الذاتية .

* جحافل النازية الألمانية والفاشية الإيطالية تدق بعنف أبواب مصر الغربية ، وفصائل من شباب مصر تدافع عن وطنية غير واعية ، وبخطوات غير محسوبة تهتف في شوارع القاهرة . . «إلى الأمام ياروميل» ظنا ان «هتلر» و «موسوليني» سوف يقدمان استقلال مصر على طبق من ذهب للفصائل التي تمهد لهم دخول البلاد . . دون ادراك لما فعلته قوات النازي وقوات إيطاليا في فرنسا ووسط أوروبا والبلقان من نهب للثروات ، ومن دم ، ومن خراب ، ومن سحق لأي مظهر ديموقراطي فاذا دخلت قوات «روميل» مصر لضاعت البلاد وضاع استقلالها (المنقوص) الذي يتحدثون عنه ، ولن يكون في مقدورهم بعد ذلك أن يهتفوا . . «إلى الوراء ياروميل» .

* ضياع مصر في تلك الفترة ، ودخول قوات المحور . . كان يعنى ضياع منطقة الشرق الأوسط بأسرها من الحلفاء ، وتمهيدا لضياع ارتكازات بريطانيا في آسيا . . ولم تكن بريطانيا أو الدول المتحالفة معها على استعداد للحظة واحدة لوقوع مصر في أيدي (المحور) . وكان لابد من ان تتحول مصر ، كل شبر فيها لمسرح معركة دموية رهيبه بين قوات المحور وقوات الحلفاء . وهنا نسأل دعاة «إلى الأمام ياروميل» ودعاة كرامة الملك . . ودعاة عدم تشكيل وزارة وفدية . . نسألهم ماذا يكون الموقف ؟ هل يحاربون إلى جانب الغزاة الجدد للاحاق الهزيمة بقوات الحلفاء ؟ أم أنهم يشكلون الكتائب للحرب ضد المحور والحلفاء معا ؟ أغلب الظن إنه ما كان في مقدورهم هذا أو ذاك . . وكانوا يتركون البلاد مسرحا لمعارك رهيبه من بيت لبيت بين قوات المحور وقوات الحلفاء .

* كان الموقف الذى اتخذته الشعوب في أوروبا والأمريكتين وغالبية الشعوب بها فيها الاتحاد السوفيتى ، داخل ألمانيا ذاتها كما أثبتت الوقائع بعد ذلك : وهجرة العلماء والمفكرين والمثقفين فرارا من جحيم النازية والدكتاتورية . . اتخذت الشعوب في غالبية دول العالم موقفا واعيا يتمثل في الوقوف في وجه الزحف النازي الدكتاتورى ، حتى لو أدى هذا للتعاون والتنسيق مع قوات الحلفاء . . هكذا فعل «ستالين» ، وفعل «تيتو» ، وفعل «ديجول» .

* في مصر كان الملك يتعاون سرا مع إيطاليا ، وكانت فصائل سياسية جديدة - عن قصد أو غير قصد - ترحب بالغزو المحورى لمصر ، وكانت أحزاب الأقلية المعادية في جوهرها للديمقراطية والدستور لا يهمها إلا كراسى الحكم ، ومن هنا فأنها جميعا لم ترفض تشكيل حكومة برئاسة مصطفى النحاس ، وإنما رفضت فقط أن تكون الحكومة وفدية خالصة .

* من حيث الشكل احتج رؤساء الأحزاب جميعا وفي مقدمتهم «مصطفى النحاس» على الانذار البريطانى ، ومن حيث الشكل أيضا طلبوا ان يكون تشكيل الوزارة بتكليف من الملك . . ولكن «مصطفى النحاس» بسابق خبرته بهؤلاء جميعا رفض في تلك الظروف الحرجة ان يشترك أحد من هؤلاء معه في الحكومة . . خطيئة «النحاس» في نظرهم هنا هى الانفراد بحكومة وفدية .

* الملك كان يتآمر مع المحور وخاصة إيطاليا . . وهذا ثابت بالوقائع التاريخية . . والمرحوم أحمد حسين والمرحوم حسن البنا كانا - في تلك الفترة ينسقان مع رجال القصر ، وزعماء أحزاب الأقلية ومعهم على ماهر . . كانوا جميعا يأتمرون بأمر القصر للوقوف في وجه الوفد . . فلماذا المزايدة على الوفد وعلى النحاس ؟

* مصطفى النحاس هو الزعيم الوحيد الذى واجه القصر في عهده . . عهد فؤاد وعهد فاروق ، وهو الزعيم الوحيد الذى أقاله القصر من الوزارة أربع مرات من مجموع الوزارات التى ألفها . . وكانت محاولات ضربه تأتى دائما من أحزاب القصر ، سواء التى دخلت معه في وزارة ائتلافية ، أو من خارج الوزارة . . كان من الطبيعى إذن ان يرفض اشتراك الأحزاب الأخرى معه في وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢ .

* أثبتت جميع الدراسات المنصفة أن « مصطفى النحاس » لم تكن له صلة لا من قريب ولا من بعيد بالانذار البريطانى . وادرك الساسة الآخرون ان الانجليز جادون في انذارهم ، فوافقوا - ومعهم الملك - على تشكيل حكومة برئاسة « النحاس باشا » وكل الذى اشترطوه هو أن يشتركوا في وزارة النحاس .

* عندما كان الألمان يزحفون إلى الإسكندرية طلب الإنجليز أن ينتقل الملك فاروق ، والحكومة إلى السودان أو إلى جنوب أفريقيا . . ولم يمانع الملك فاروق ، ولكن الذى رفض وطلب من الملك أن يرفض هو مصطفى النحاس رئيس حكومة ٤ فبراير .

كان البديل رهيبا . . وفي لحظة تاريخية . . وكان مصطفى النحاس واضح الرؤية ، ثاقب النظر ، فتقدم ، وقبل تشكيل الحكومة في ٤ فبراير ، في لحظة تاريخية . وقع « لينين » الصلح مع الألمان وانسحب من الحرب العالمية الأولى ليدعم أقدام الثورة الاشتراكية الوليدة ، وفي لحظة تاريخية هادن « ستالين » ألمانيا النازية ليتمكن من الاستعداد الحربى ، وفي لحظة تاريخية قفز « ديجول » إلى طائفة بريطانية وترك فرنسا ليعود إليها محررا لها ، وفي لحظة تاريخية تحالف « تشرشل » مع الشيطان يقصد ستالين - ليتمكن من هزيمة ألمانيا .

هل أطلت ؟ أظن . . ولكن كان من الضرورى أن أطيل في هذه المسألة ، لأن الحديث في أمور أخرى سهل ميسور .

ماذا قدم لمصر

ولكن . . ماذا قدم « مصطفى النحاس » لمصر خلال فترات حكمه المتقطعة ، والتى كانت غالبيتها تنتهى بالاقالة ؟

- * في الحكومة الأخيرة نشطت حركة الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال في منطقة القناة ، وكانت تعلم الحكومة الوفدية وبتأييدها ، وربما بتدبيرها .
- * من أجل هذا أباحت الحكومة لكل مصري أن يحمل السلاح ، وسحبت آلاف المصريين الذين يعملون في المعسكرات الانجليزية ، وأصدرت الحكومة قرارات سريعة بتعيينهم في المصالح الحكومية جميعها .
- * من أجل مصر وقع « مصطفى النحاس » معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر أيضا ألغى « مصطفى النحاس » هذه المعاهدة .
- * رفضت حكومة النحاس باشا مقترحات الدول الأربع إلى قيادة متحالفة مشتركة للدفاع عن الشرق الأوسط ، وإن تكون قاعدة القناة لقوات هذه الدول الأربع .
- * قانون الضمان الاجتماعي .
- * انشاء مجلس الدولة ، وديوان المحاسبة ، وديوان الموظفين .
- * قانون استقلال القضاء .
- * مجانية التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي ، والمجانية الفعلية في التعليم الجامعي وعدم حرمان أى طالب من الامتحان بسبب المصروفات .
- * انشاء وزارة للاقتصاد الوطنى والاهتمام بتصنيع البلاد وبالاقتصاد الزراعى .
- * حرية الصحافة لم تشهدها البلاد في غير حكومات الوفد من قبل .
- * قيام الجامعة العربية ، والعمل على ضم ممثل لفلسطين إلى هذه الجامعة .
- * الحياذ في الحرب الكورية ١٩٥٠ .
- * كفاح مستمر من أجل حماية الدستور ، ومن أجل الحكم الدستورى .
- * المساواة في الحقوق والواجبات لكل طوائف الأمة .
- * إلغاء الامتيازات الأجنبية .
- * تمصير الديون والسير في تسديدها .
- * قانون الاهتمام باللغة العربية .
- * نظام تغذية أطفال المدارس الأولية .
- * مشروع خزان أسوان .
- * قانون الضرائب التصاعدية .

- * قانون انصاف الموظفين .
- * إلغاء نظام السخرة لحراسة النيل أيام الفيضان .
- * إلغاء ضريبة الحفر التي كان يفرضها العمدة على الفقراء من أهل القرى .
- * قانون عقد العمل الفردي ، وقانون عقد العمل الجماعي ، وقانون تحديد ساعات العمل بـ ٨ ساعات ، وقانون حق تكوين النقابات العمالية .
- * قانون الضرائب التصاعدية .
- * قانون انشاء البنك المركزي .

وفي هذا المجال لا أريد أن أطيل ، لأن السؤال يلح على القلم . . وهل جزاء الرجل الذي يقدم هذه الأعمال إلى بلده أن يوجه إلى صدره السونكي ؟ وإلى سيارته القنابل ؟ وإلى بيته الديناميت ؟ نعم . . يمكن أن يحدث هذا مادام الرجل عنيدا في الحق . . عنيدا في سبيل الحريات . . عنيدا في مواجهة طغيان القصر . . عنيدا في استقلال الوطن . نعم . . يمكن ان يحدث هذا . . مادام الذي يوجه السونكي يأتمر بأمر معاد للحريات ، وما دام الذي يلقي القنبلة أو يطلق الرصاص أو يفجر الديناميت خادما للقصر ، أو واقعا تحت تأثير سياسي مهرج .

محاولات الاغتيال

فوق طاقة البشر ، ما تعرض له « مصطفى النحاس » من محاولات للاغتيال .

* في ١٩ يونيو ١٩٣٠ جاء « إسماعيل صدقي » إلى الحكم ، وأجل انعقاد البرلمان لمدة شهر تبدأ من ٢١ يونيو ، وانفجرت المظاهرات ونزلت قوات « صدقي » تطلق الرصاص على المتظاهرين ، وأرسلت بريطانيا بارجتين إلى الإسكندرية . وأغلق صدقي أبواب البرلمان بالسلاسل . وتقدم « ويصا واصف » رئيس مجلس النواب وأمر الحرس بتحطيم السلاسل وفتح الأبواب . وفشلت محاولة صدقي ، وزادت شعبية النحاس . وكان في جولة سياسية في مدينة المنصورة يوم ٨ يوليو ١٩٣٠ وسدد أحد رجال الشرطة سونكيا مسموما إلى صدر « النحاس » بهدف القضاء عليه والتخلص منه . إلا أن « سينوت حنا » عضو الوفد تلقى الطعنة الغادرة بذراعه مفتديا زعيمه . وأشارت الجماهير الغاضبة في جنازة « سينوت حنا » إلى « إسماعيل صدقي » على أنه المدبر والقاتل .

* ولم يتراجع الرجل عن عناده في حب الشعب ، وفي الدفاع عن قضاياه ، ويشكل وزارته . الثالثة (٩ مايو ١٩٣٦ إلى ٣١ يوليو ١٩٣٧) ثم وزارته الرابعة (من أول أغسطس ١٩٣٧ إلى ٣٠

ديسمبر ١٩٣٧) . وفي تلك الفترة تقع المحاولة الثانية لاغتيال « النحاس باشا » وهو في طريقه لحضور أحد المؤتمرات الشعبية في حى بولاق بالقاهرة .

* سنة ١٩٣٨ يضعون المتفجرات في محرك سيارة الرجل ، ويكتشف الأمر ويتم انتزاع المتفجرات وينجو « النحاس باشا » من المؤامرة الثالثة .

* ولم تفلح الإقالة سنة ١٩٤٤ ، ولم تفلح دعاية الكتاب الأسود في تشويه سمعة الزعيم ، فينصبون له كميناً سنة ١٩٤٥ وهو في طريقه من منزله بجاردن سیتی إلى النادى السعدى . . . وعلى سيارته يلقون قنبلة . . وترتعش يد المتآمر - المجهول المعلوم - وتحطى القنبلة طريقها إلى « النحاس باشا » . . وينجو ثم يمضى في طريقه أكثر صلابة وأشد عزيمة .

* لم تنته المؤامرات بعد ، ويعود « المجهول المعلوم » وتحرك سيارة بها شحنة ناسفة لتفجر فتدمر واجهة المنزل . وأينا بأعيننا - وكنا لم نزل طلاباً بالجامعة - جزءاً من السيارة المتفجرة وقد تطاير ليخترق النافذة ويتوقف فوق « ناموسية » سرير رئيس الوفد وتلتهب حناجر الشباب سنة ١٩٤٨ بحياة مصطفى النحاس وبسقوط المجرم . . المجهول المعلوم .

* وأعداء النحاس لا يتوقفون ، ويعودون في سنة ١٩٤٨ ذاتها . . وحين كان النحاس باشا وفؤاده يدلفان إلى داخل المنزل ينهمر رصاص المدفع الرشاش ويسقط ثلاثة من الحراس قتلى ، وينجو رئيس الوفد وسكرتير الوفد .

ويذهب المتآمرون ويبقى الرجل على عناده الوطنى دون خوف ودون تردد .

التحدى والصراع

لم يقدر لزعيم مصرى ان يصارع القصر ، ويصارعه القصر مثلما قدر لمصطفى النحاس . وبداية من يوم ١٤ سبتمبر ١٩٢٧ وهو يوم اختيار « النحاس » رئيساً للوفد المصرى . إلى يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، وهو يوم خلع الملك فاروق ومصطفى النحاس يواجه دسائس القصر ، ويوجه السهام للقصر دفاعاً عن الشرعية الدستورية .

وفي الفقرة السابقة سجلنا محاولات لاغتيال الرجل . وهى كلها بتدبير القصر ومن صنعه أو لصالحه فى النهاية .

أحمد عرابى مثلاً ظل سنة أو أكثر قليلاً يواجه دسائس الخديو توفيق ، ومصطفى كامل كان «سمناً على عسل» مع الخديو عباس الثانى طوال فترة كفاحه ، ومرات الخلاف معه كانت معدودة وهينة ، ومحمد فريد دخل السجن لمدة ستة أشهر بطولها وكان على خلاف حذر مع

الخدوي عباس ، إلى أن هاجر إلى أوروبا ، فلم يتعرض لدسائس عنيفة من الخديو . بدأت رئاسة «محمد فريد» للحزب الوطني سنة ١٩٠٨ وهاجر إلى أوروبا سنة ١٩١٢ . . . أربع سنوات فقط قضاهما في مصر رئيسا للحزب الوطني . رؤساء الأحزاب الآخرون محمد محمود ، أحمد ماهر ، محمود فهمي النقراشي ، مكرم عبيد . . . اختلفوا مع القصر أيام النضال . . . ولكن أيامهم في رئاسة أحزابهم كانت على وفاق مع الجالس على عرش مصر .

إلا هذا الرجل «مصطفى النحاس» ابن الشيخ «محمد النحاس» صاحب (مغلق) خشب صغير في سمندو محافظة الغربية . هذا الرجل العنيد الذي كتب عنه «اللورد كيلرن» في مذكراته (رجل ضئيل الجسم يبرز صدره إلى الأمام وكأنه يتحدى العالم كله) هذا الرجل عاش حياته السياسية كلها ليتحدى الجالس على العرش . وتعرض لمؤامرات التصفية الجسدية .

* في ١٤ سبتمبر ١٩٢٧ كما قلنا اجتمع الوفد المصري واختار «مصطفى النحاس» رئيسا له ، وفي ١٩ سبتمبر أصدر الوفد برئاسة النحاس بيانا : لقد فجع الوفد في رئيسه ولكنه لا يزال حيا قوى الحياة بأتمته واجدا في كتلته ! أمينا على عهده ولن يترك ميدان الشرف حتى يتحقق مجد البلاد باستقلالها . وبعد أسبوعين أو ثلاثة من زعامة النحاس للأغلبية بدأت «السراي» تعد للاحتفال بيوم (٩ أكتوبر) يوم عيد جلوس الملك فؤاد على العرش . . . وقرر النحاس أن (ينكد) على الملك يومه لأن مصر لم تزل ترتدي الحداد على زعيمها الراحل «سعد زغلول» وكتب «عزيز ميرهم» عضو الوفد ويشجع من النحاس (ليهنأ بالعيد من يشاء ويهنأ بالزينة صغار الأحلام ، وكل ذلك وضع للنشء في غير محله واقامة للأفراح وسط المأتم العام أن جلالة الملك مدين للحركة الوطنية التي كان سعد زغلول على رأسها ولولا تلك الحركة لما كانت مصر اليوم مملكة ، وكانت مجرد سلطنة) وكانت بداية لا تبشر بالخير بين القصر والوفد .

* قام «النحاس» بتشكيل وزارته الأولى في ١٦ مارس ١٩٢٨ ، وكانت وزارة ائتلافية مع الأحرار الدستوريين . . . وانسحب الأحرار وعلى رأسهم «محمد محمود» من الوزارة . وأعطى الفرصة للملك فؤاد لاقالة النحاس ، وليقوم هو بتشكيل وزارة اليد الحديدية في ٢٥ يونيو ١٩٢٨ وليبدأ عهدا من حكمة الدكتاتوري الذي عرف به «محمد محمود» بعد ذلك .

* وفي ١٩ يونيو ١٩٣٠ جاء «إسماعيل صدقي» حتى ٤ يناير ١٩٣٣ ثم إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ في فترة من الكساد الاقتصادي والفقر السياسي والمضايقات للوفد ولرئيسه بايعاز من الملك فؤاد ولصالحه على أقل تقدير .

* كل الانقسامات التي حدثت في وفد مصطفى النحاس كانت بتدبير من القصر أو بمباركته أو لصالحه . . . انقسام (السبعة ونصف) سنة ١٩٣٢ الذي بدأ باستقالة ، «نجيب الغرابي» والذي انتهى بفكاهات ساخرة على صفحات الجرائد والمجلات . . . انقسام خيرة أبناء الوفد غالب وماهر والنقراشي وعبد الهادي على الوفد . . . لم تكن أيدي السراي عن طريق الشيخ

المراغى وعلى ماهر بعيدة عن هذا الانشقاق الخطير . انقسام مكرم باشا سنة ١٩٤٣ . . لم تكن يد « أحمد حسنين » بعيدة عنه .

* وهكذا كان صراع القصر ضد رئيس الوفد . . محاولة للاغتيال . وإذا لم تفلح يكون تشجيعا للانقسام . . سنة ١٩٣٠ محاولة للاغتيال لم تفلح ، بعدها سنة ١٩٣٢ محاولة انقسام . انشقاق خطير سنة ٣٧ - ١٩٣٨ أعقبوه بمحاولة للاغتيال سنة ١٩٣٨ . والانقسام الشهير عام ١٩٤٣ هز الوفد ، ولكنه لم يقض عليه فكانت محاولات لاغتيال ١٩٤٥ و ١٩٤٨ و ١٩٤٨ أيضا . أية أعصاب حديدية ، وأى عناد ، وأى اصرار على مطالب الأمة كان يتمتع بها هذا الرجل . . هذا رغم محاولات كثيرة لتشويه السمعة ، ورغم محاولات كثيرة لضرب الوفد من الداخل ، ورغم محاولات كثيرة للتصفية الجسدية . . محاولات لا تأس . . واحدة منها كانت تكفى أى سياسى لأن يهدأ أو يتردد أو يترك طريق النضال . .

* فى يونيو ١٩٥١ يستيقظ المصريون على جرائد الصباح ، وبها صور الوثائق شىء بالافرنجى وشىء بلغات مختلفة . . ما الحكاية . . النحاس باشا يتخبر مع مستشار السفارة السوفيتية !! ويحقق النائب العام ، ويثبت أن الوثائق مزورة وقد تورط فى الترويج لها « محمد على علوبة » و« حسن عبد الوهاب » وهما من أقطاب الأحرار الدستوريين . ويحكم على العناصر الصغيرة التى اصطنعت هذه الوثائق بالسجن .

يوم الرحيل

هذه هى الحياة التى عاشها حتى يوم الرحيل من أجل مصر ومن أجل شعب مصر نجعل كل مصرى أيا كان موقعه السياسى يحترم نضال هذا الرجل ، ولقد كان محافظ مدينة الإسكندرية الأسبق « المرحوم حمدى عاشور » أحد أبناء مصر الذين أدركوا هذا الموقف ، فأعلن خبر وفاة رئيس وزراء مصر الأسبق « مصطفى النحاس » فى صباح ٢٣ أغسطس ١٩٦٥ من إذاعة الإسكندرية المحلية ، وبهذا انتقل الخبر إلى إذاعة القاهرة والصحف المصرية ، وكان « حمدى عاشور » إلى جانب « محمد فؤاد سراج الدين » وهما يصحبان الجثمان إلى شارع النباتات بجاردن سیتی مقر إقامة مصطفى النحاس .

أما ما حدث يوم الجنازة فى صباح ٢٤ أغسطس ١٩٦٥ فأسألوا عنه واحدا من آلاف الذين التهب أكفهم بالتصفيق ، عندما شاهدوا نعش الزعيم فوق الرؤوس . وكان الزعيم قد أطل عليهم يخطب فيهم فى واحدة من خطبه بطريقته المألوفة المحببة إليهم أو أسألوا واحدا من الذين اعتقلهم « على صبرى » فى ذلك اليوم حتى أفرج عنهم فى ١٤ نوفمبر ١٩٦٧ وهم . . وحسب الحروف الأبجدية « أحمد صادق » أحمد عبد الجواد وهبة ، البسطويسى صديق ، حسن حصان ، حسين كامل ، حافظ شيحا ، زكى زهران ، صفوان رمضان ، طلعت رسلان ، سعد

المنصوري، عبد العزيز الدرمللي ، على سلامة ، على السيد شابون ، على الجزار ، لطفى المحرصاوى ، محمد أحمد على ، مرسى مصطفى مرسى ، سيف الدين الغزالى ، محمد جعفر ، محمد كامل ، مصطفى ناجى ، ياسين سراج الدين ، يوسف الدموهى .

تأملات

شعبنا الطيب كان يقول تأملات عن زعيمه الطيب . . « مصطفى النحاس » . . فيه شىء الله . . يفسرون به ببساطة ما حدث . وكان الأرجح ألا يحدث حسب منطق الحياة الجارية . . ولد صغير يولد فى أسرة رقيقة الحال - الوالد يعمل فى مغلق صغير لبيع الأخشاب . . هذا الصبى يفترش الأرض فى كتاب القرية أو المدينة الصغيرة ، يتعلم مبادئ القراءة ويحفظ القرآن الكريم . وفى العاشرة من عمره يلحقه والده بمكتب تلغراف محطة سكة حديد سمنود ليتعلم وليكون « تلغرافجى » بمحطة سكة حديد سمنود أو غيرها من محطات مصر كان هذا هو منطق الأمور . ولكن الله سبحانه وتعالى هياً له من يأخذ بيده ويلحقه بمدرسة الناصرية الابتدائية بالقاهرة .

والعين بصيرة ، واليد قصيرة كما يقول شعبنا الطيب . . وبهذا المنطق البسيط كان يمكن ان يتوقف التلميذ « مصطفى محمد النحاس » بعد الابتدائية أو بعد التوجيهية . . ولكن التلميذ « مصطفى النحاس » ينجح فى الابتدائية ويكون الأول على القطر سنة ١٨٩١ ينجح فى (البكالوريا) أو التوجيهية على أيامنا أو الثانوية العامة على أيامكم ، ويكون الأول أيضاً على القطر . . ماشاء الله . . وفى دراسته بمدرسة الحقوق يحصل على مكافأة التفوق فى القانون المدنى . ومكافأة المرافعات ، مكافأة الشريعة الإسلامية ومكافأة السلوك . . ويتخرج « مصطفى » فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٠ وترتيبه الأول على دفعته ، وبالتالي على القطر المصرى ، لأنه لم تكن هناك سوى مدرسة واحدة للحقوق .

ست محاولات للاغتيال . . بالسونكى والقنبلة . . والرصاص . . والديناميت ويذهب مرتكبوها فى مزبلة التاريخ ، إذا كان للتاريخ مزبلة . . ويبقى « مصطفى النحاس » زعيماً للأمة ٢٥ سنة متصلة ، وعند وفاته . . ويوم رحيله . . يصفق الآلاف لنعشه ، وكأنه لم يزل يخطب فيهم . . فيه شىء الله . . ولا كلمة بعد ذلك .

الأسانيد :

- ١- د . رفعت السعيد . . مجلة الطليعة سبتمبر ١٩٧٥ .
- ٢- على سلامة . . الزعيم مصطفى النحاس .
- ٣- لمعى المطيعى . . جريدة الوفد ٢١ أغسطس ١٩٨٦ .
- ٤- د . يونان لبيب رزق . . جريدة الوفد ٢١ أغسطس ١٩٨٦ .

مصطفى مرعى



مصطفى مرعى ، ابن قرية الجزيرة الخضراء التابعة هذه الأيام لمركز مطوبس بمحافظة كفر الشيخ ، فارس من فرسان مصر على مبادئ مصطفى كامل ومحمد فريد يوم كان للسياسة في مصر فرسانها .

ظل يجاهر بمبادئ الحزب الوطنى إلى ان عين قاضيا بمحكمة الإسكندرية سنة ١٩٣٢ ، ثم استقال من القضاء سنة ١٩٣٦ وعاد للعمل بالمحاماة في القاهرة ليعبر عما احتبس في صدره من آراء يحول دونها في العمل بالقضاء ، ولكنه سنة ١٩٣٩ عين محاميا عاما فمستشارا بمحكمة استئناف مصر سنة ١٩٤١ ومستشارا بمحكمة النقض سنة ١٩٤٦ ، ورئيسا لادارة قضايا الحكومة سنة ١٩٤٨ ، وقد أدى أعماله جميعا بضمير نقى ورأى نزيه . . أثار اعجاب جيلنا كله عندما قدم استجوابا لحكومة الوفد في مايو ١٩٥٠ حول استقالة رئيس ديوان المحاسبة « محمود محمد محمود » ابن « محمد محمود » رئيس حزب الأحرار الدستوريين السابق ، ورئيس الوزراء الأسبق .

وفي عهد حكومة الوفد (يناير ٥٠ - ٥٢) وفي ظل الحريات التى وفرتها الحكومة اشتعل الشارع المصرى ضد القصر . وقدم رئيس ديوان المحاسبة استقالته التى قبلت في ٢٠ أبريل لامور تمس المستشار الصحفى للملك . وتقدم عضو مجلس الشيوخ « مصطفى مرعى » بسؤال إلى رئيس مجلس الوزراء عن أسباب الاستقالة . . هل هى بسبب يتصل بكريم ثابت وإعانة الحكومة لمستشفى المواساة أم تتصل بملاحظات على نفقات حرب فلسطين ؟ وتلقف الشارع السؤال . . وشجاعة السائل الذى أحال السؤال إلى استجواب . . ودخل « احسان عبد القدوس » وأشعل الشارع بمقالاته المعروفة عن (الأسلحة الفاسدة) . وبقي اسم الرجل « مصطفى مرعى » بطلا في ذهن الشارع .

كان الرجل « شعجاعا » على المستوى الشخصى بعيدا عن الحسابات السياسية التى يجيدها المحترفون .

كان الرجل « شعجاعا » فى لحظاته الأخيرة من الحياة حسب رواية « الأستاذ أحمد أبو الفتاح » فى جريدة الوفد . وكان « زاهدا » على حد رواية الأسرة عن وصيته المكتوبة بأن يكتفى فى العزاء برسائل البرق أو البريد .

كان الرجل « أمينا » فى اخفاء خبر محاولة « الفريق عزيز المصرى » للهروب خارج مصر على حد رواية « الأستاذ مصطفى أمين » فى فكرته بجريدة الأخبار وجاء سطرها الأخير . . أمس سكت مصطفى مرعى ليتكلم التاريخ . .

عندما يتكلم التاريخ

وإذا تكلم التاريخ ليس لأحد أن يغضب حتى « مصطفى مرعى » وهو فى رحاب الله . . وحتى جيلنا كله الذى تلقف رواية (الأسلحة الفاسدة) لأننا كنا نكره الملك ونريد الإطاحة به ، ومن ثم فإن كل ما يقال عنه وعن حاشيته فهو صحيح مادام أنه يعجل بيوم سقوطه . . وحتى مجموعات الضباط الأحرار « البغدادي ، ومحسن عبد الخالق ، وعبد الصمد » الذين اتصلوا بمصطفى مرعى ، وأمينة السعيد ، وإحسان عبد القدوس . . فقد كان دافعهم وطنيا وغيره على مستقبل هذا البلد . . وحتى الذين يريدون أن تبقى صفحة « الثورة » طاهرة نقية ويرددون اسم « مصطفى مرعى » من بين أسماء قيل أنها اعتزمت لقاء عبد الناصر يطلبون منه الاستسلام للمعتدين عام ١٩٥٦ . . هؤلاء ينبغى ألا يغضبوا إذا طلبنا منهم أن يقرأوا (مذكرات عبد اللطيف البغدادي) الجزء الأول ص ٣٤٤ - ٣٦٧ ليعرفوا أن أحد قادة الثورة « صلاح سالم » هو الذى اقترح على جمال عبد الناصر أن يعلن بيانا على الشعب يخبره فيه بأنه رأى أن المصلحة تستدعى تجميد البلاد الخراب والمدار) . . وهنا قال جمال عبد الناصر : (إنه من المستحسن أن نتحرر جميعا هنا قبل أن نأتى بمثل هذا العمل) وليعرفوا أن شخصا واحدا من المدنيين هو « سليمان حافظ » طلب من « صلاح نصر » ان يقابل « جمال عبد الناصر » وتمت المقابلة مع عبد اللطيف البغدادي وعبد الحكيم عامر فى منزل بالدقى الساعة الثامنة والنصف مساء يوم الجمعة ، ٢ نوفمبر ١٩٥٦ . . وكان اقتراح « سليمان حافظ » هو : (إن نتقدم بطلب للدول المعتدية بجعل مصر دولة محايدة كسويسرا وكذا قناة السويس وأن تضمن هذه الدول حياد مصر وذلك حتى منجنب البلاد ويلات الحرب والدمار والخراب والاحتلال . وأن يقوم بتقديم هذا الاقتراح شخص

آخر غير جمال عبد الناصر - وليس هناك أصلح من محمد نجيب لهذه المهمة (فرد عليه عبد الحكيم بقوله : (إن هذا الاقتراح سبق وتقدم به جمال للجنة مانزيس ولكنه رفض . .) . . لقد كان هذا الاقتراح اذن هو اقتراح جمال عبد الناصر ، وأعادته « سليمان حافظ » الذى كان قد وضع نفسه فى خدمة حركة الجيش منذ قيامها .

ترتيب الأوراق

قبل أن نصل إلى استقالة رئيس ديوان المحاسبة ، والمراسيم الخاصة بمجلس الشيوخ لابد من ترتيب الأوراق ترتيبا تاريخيا حتى يمكن فهم كل خطوة فيها سليا . . ينص الدستور على تجديد نصف أعضاء مجلس الشيوخ فى كل خمس سنوات . ولما كانت نيابة النصف الأول من أعضاء المجلس تنتهى فى ٦ مايو ١٩٤١ فقد أجريت القرعة بجلسة ٧ مارس . ورأى « حسين سرى » رئيس الوزارة أن ظروف الحرب غير ملائمة لاجراء عملية انتخاب أعضاء جدد ، فاستصدر فى ٢٤ مارس مرسوما بتعيين أعضاء جدد بدلا من الذين خرجوا بالقرعة . ولما تولت وزارة النحاس باشا الحكم فى أعقاب ٤ فبراير ١٩٤٢ ألغت اجراءات حسين سرى وقامت باجراء انتخابات للء مقاعد الخارجين بالقرعة ، وقامت بتعيين أعضاء جدد بدلا من الذين عينهم حسين سرى . . ولكن القصر بعد اقالة النحاس باشا فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ رغب فى اضعاف نسبة الوفد داخل مجلس الشيوخ . وقام « أحمد ماهر » رئيس الوزراء باستصدار مرسوم يبطل تعيين الأعضاء الذين اختارهم النحاس باشا ويعيد من عينهم حسين سرى . وسنة ١٩٤٦ حل موعد التجديد النصفى . . وهنا يقول « حسن يوسف » فى مذكراته ص ٢٤٦ :

(كان الحكم لاسماعيل صدقى باشا وتعاونيه مع القصر أجريت الانتخابات وتمت التعيينات ، وبهذا تحقق للملك ماكان ينشده من ايجاد توازن بين الأحزاب بحيث يكون للوفدين ثلث الأعضاء وللاحزاب الأخرى الثلث وللمستقلين الثلث) وهذا كلام صريح يوضح ان اجراءات حسين سرى ، وأحمد ماهر ، وإسماعيل صدقى ، كان الهدف منها عدم اعطاء أغلبية للوفد داخل مجلس الشيوخ .

وعلى هذا فمن الطبيعى جدا عندما يعود الوفد فى ١٢ يناير ١٩٥٠ بأغلبية كاسحة فى مجلس النواب أن يعمل على تقويم الوضع فى مجلس الشيوخ بعد أن تعرض لاجراءات سرى وماهر وصدقى لحساب السراى للاخلال بنسبة تواجد الوفد فى مجلس الشيوخ . ويسجل « حسن يوسف » حامل اختتام الملك - فى مذكراته على ص ٢٥١ :

طلبت مقابلة الملك لأمر عاجل فاستمهلنى ثم حدثنى تليفونيا . . فشرحت له وجهة

نظري . . انه كملك دستوري (!) لامصلحة له في أن يكون في مجلس الشيوخ أغلبية وفدية ساحقة . وقد أنصت الملك إلى حديثي طويلا وأنا أدلل على مجهوداتنا منذ أن كان حسين باشا رئيسا للديوان لايجاد توازن في مجلس الشيوخ بين الأحزاب وبين المستقلين . . وفي النهاية قلت إننا قد نأسف يوما على هذا التصرف . .) .

كان تصحيح الوضع داخل مجلس الشيوخ بالنسبة للأغلبية الوفدية ، أمرا واردا بعد عودة الوفد إلى الحكم في يناير ١٩٥٠ ، ولكن مجيء مراسيم مجلس الشيوخ في ظروف تداخلت فيها استقالة رئيس ديوان المحاسبة ، واستجواب « مصطفى مرعى » وإثارة ماعرف بقضية (الأسلحة الفاسدة) والرغبة العارمة لدى الشارع المصري كما أسلفنا ضد الملك أعطى انطبعا معينا إزاء الاستجواب وإزاء المراسيم بمجلس الشيوخ .

الاستجواب والمراسيم

على الرغم من محاولة « حسن يوسف » تفسير استقالة « محمود محمد محمود » من رئاسة ديوان المحاسبة بعدم الانعام عليه بالباشاوية في ديسمبر ١٩٤٩ في عهد وزارة « حسين سرى » إلا أن الموقف الشجاع لرئيس ديوان المحاسبة من المبالغ التي صرفت لكریم ثابت المستشار الصحفي للملك من مستشفى المواساة ، واصراره على إدراج الأوراق الخاصة بالمستشفى في التقرير السنوى . ثم اصراره بعد ذلك على الاستقالة (٢٠ أبريل ١٩٥٠) لى كلها مواقف تسجل لمحمود محمد محمود ، وتحسب له أيا كانت الدوافع الشخصية . وبالمثل فان السؤال الذى قدمه « الشيخ مصطفى مرعى » لرئيس مجلس الوزراء فى ٧ مايو ١٩٥٠ عن أسباب الاستقالة وهل الاستقالة مقصورة على موضوع مستشفى المواساة ؟ أم أنها تتصل بملاحظات أبدتها ديوان المحاسبة على نفقات حرب فلسطين ؟ هو سؤال شجاع اسهم فى هز الثقة بالملك وبحاشيته ويتسق مع الاتجاه الوطنى العام . ولا يقلل من شأن السؤال الذى تحول إلى استجواب (٢٩ مايو ١٩٥٠) إن مصطفى مرعى سافر إلى أوروبا وأعلن الشيخ المحترم إبراهيم مذكور أنه يتبنى الاستجواب .

وفى ظل تلك الظروف تداخلت فى صورة واحدة المراسيم الخاصة بمجلس الشيوخ ، ثم تفجير موضوع (الأسلحة الفاسدة) بقلم « الأستاذ احسان عبد القدوس » وكانت مراسيم ١٧ يونيو ١٩٥٠ تقضى بتعيين على زكى العربى رئيسا لمجلس الشيوخ بدلا من د . محمد حسين هيكل وأبطال عضوية إبراهيم عبد الهادى ومصطفى مرعى وآخرين ، وتعيين ٩١ عضوا وفديا و ١٠ أعضاء غير وفدين . وبعد اجراء انتخابات التجديد النصفى للمجلس فى مايو ١٩٥١ تحققت

الأغلبية المطلقة للوفد في المجلس . وفي ١٧ أكتوبر ١٩٥٠ رفعت بعض الشخصيات السياسية عريضة إلى الملك فاروق وقعها إبراهيم عبد الهادي ومحمد حسين هيكل ، ومكرم عبيد ، وحافظ رمضان وعبد السلام الشاذلي ، وطه السباعي ، ومصطفى مرعى ، وعبد الرحمن الرافعي ، وإبراهيم دسوقي أباطة ، وأحمد عبد الغفار ، وعلى عبد الرازق ، ورشوان محفوظ ، وحامد محمود، ونجيب اسكندر ، وزكى ميخائيل بشارة ، والسيد سليم . وكان هذا الحشد أكبر تجمع من أحزاب الأحرار والسعديين والكتلة والوطنى لمواجهة حكومة الوفد ، وهو أحياء للتجمع نفسه الذى عمل في أكتوبر ١٩٤٤ بأوامر من الملك لضرب الوفد . . ولكنهم هذه المرة يعيدون إلى ذاكرة الملك (أياماً سعيدة كتتم فيها الراعى الصالح والرشيد .) ويهاجمون مراسيم يونية ١٩٥٠ . ثم يتحدثون عن العناصر التى تحجب العرش عن البلاد (لأن الاقدار قد أفسحت مكاناً في الحاشية الملكية لأشخاص حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشبهات هى الآن مدار التحقيق الخصاص بأسلحة جيشنا الباسل) وما نحن قد وصلنا إلى عقدة هذا المقال وهى القضية التى عرفت بقضية الأسلحة الفاسدة .

الأسلحة الفاسدة

أريد هنا أن أكون واضحاً ومحدداً . . فأنى واحد من جيل صفق لمصطفى مرعى ولاحسن عبد القدوس ولكل من آثار مسألة (الأسلحة الفاسدة) ولكل من اشار بأصابع الاتهام للملك والحاشية الملك . . وأنا هنا ماجئت بعد حوالى أربعين سنة لأسحب التصفيق أو لأعتمر عنه . . نريد فقط تحديد الوقائع . . دخل الجيش المصرى حرب فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ في ظل وزارة محمود فهمى النقراشى . . ولحققت الهزيمة بالجيش وبعد سنتين ، وفي ظل الحريات التى أتاحتها حكومة الوفد انفجرت حملة الدعاية التى تفسر الهزيمة بأن الأسلحة كانت فاسدة ! وحتى لايسىء البعض الفهم نقول تحديداً . . كان الملك فاروق فاسداً . . وكانت الحاشية فاسدة . . وكما تاجرت الحاشية بقوت الشعب وبحريات الشعب تاجرت بأسلحة الجيش وأثرت ثراء فاحشاً . . الأسلحة لم تكن فاسدة . . وأشير هنا في هذا المقام إلى التحقيق الممتاز الذى نشره جمال بدوى في حلقات ثلاث (٢٧ ديسمبر ١٩٨٤ - ٣ يناير ، ١٠ يناير ١٩٨٥) بعنوان (قصة أشهر استجواب برلمانى قبل الثورة - اسطورة الأسلحة الفاسدة) لقد أفاد الضباط الأحرار فائدة ممتازة من الحديث الملتهب حول ماسمى بالأسلحة الفاسدة . . وكان عبد اللطيف البغدادي وحسن إبراهيم ومصطفى مرتضى ومحمد شوكت على صلة بمصطفى مرعى وقابل محسن عبد الخالق أمينة السعيد ، وكان آخرون على صلة باحسان عبد القدوس . . والتعب الشارع المصرى كله ضد الملك

وضد الحاشية . ووجد (الضباط الأحرار) في القضية ورقة ناجحة لاثارة الضباط الشبان ضد العهد كله . وكان « احسان عبد القدوس » على صلة ما بعدد من الضباط الأحرار ، وبدأ «الأستاذ احسان » في إثارة الموضوع في يوليو ١٩٤٩ . وقدم له (الضباط الأحرار) عددا من الوثائق تشير إلى بعض الأمراء ، وبعض كبار الضباط ، وزوجة أحد كبار الضباط ، وبعض رجال الأعمال . . كلهم متورطون في صفقات مشبوهة للأسلحة وهذا كله يمكن ادراكه سياسيا حتى بدون وثائقه . . ولكن النقطة الرئيسية هي أن الأسلحة لم تكن فاسدة كما أشيع وقتذاك تضربها إلى الأمام فيرتد الرصاص إلى الخلف ! ويجدد « احسان » الحملة في يونيو ١٩٥٠ بعد أن قدم رئيس ديوان المحاسبة التقرير السنوي ، وبعد أن استقال في (أبريل ١٩٥٠) كما أسلفنا ، وبعد أن ترك مصطفى مرعى الاستجواب ليتبناه الدكتور إبراهيم بيومي مذكور وسافر إلى أوروبا . والنقطة الهامة هنا هي موقف حكومة الوفد من هذه القضية الخطيرة وهنا أشير إلى مذكرات حسن يوسف رجل الملك ص ٢٨٦ - ص ٢٩٠ يقول : (بدأت القصة بما نشرته مجلة روز اليوسف في شهر يونيو ١٩٥٠ من أنباء خطيرة عن توريد أسلحة فاسدة للجيش المصري أثناء حرب فلسطين إذ اتصل بي مصطفى نصرت وزير الحرية والبحرية وقال إنه سوف يبلغ النائب العام . . واستدعت النيابة رئيس التحرير الأستاذ احسان عبد القدوس لسماع أقواله فيما نشرته المجلة . . وبعد ثلاثة أشهر من بدء التحقيق زارني في مكتبي عبد الفتاح الطويل وزير العدل وفؤاد سراج الدين وزير الداخلية وقالان ان النائب العام أخبرهما بوجود قرائن بنسبة ٨٠٪ تدل على أن لبعض أفراد الحاشية الملكية صلة بصفقات الأسلحة التي ظهر فسادها . وأنه يطلب التصريح بتفتيش منازل خمسة أشخاص من الموظفين ومراقبة تليفوناتهم . .)

ثم يقول حسن يوسف : (وضع النائب العام تليفونات المذكورين تحت المراقبة وراح يفتش منازلهم . . وقام جهلان - متعهد التوريدات للخاصة الملكية - بفتح الخزانة بحضور رئيس النيابة . واصل النائب العام تحقيقاته إلى أن طلب تسهيلا لعمله ، ضرورة تنحية حيدر باشا القائد العام للقوات المسلحة عن منصبه . كذلك طلب النائب العام اقالة عثمان المهدي رئيس هيئة أركان الحرب من منصبه ، وإحالة ١٢ ضابطا إلى المعاش وكان له ما أراد .

لقد سمحت حكومة الوفد بنشر المقالات في هذا الموضوع الحساس ، وتم ابعاد القائد العام للقوات المسلحة عن منصبه ، وتمت اقالة رئيس هيئة أركان الحرب من منصبه ، وتمت إحالة ١٢ ضابطا كبيرا إلى المعاش . وتم تفتيش منازل رجال الحاشية الذين امتد إليهم التحقيق . . وبعد ذلك في ٢٨ مارس ١٩٥١ صدر قرار بحفظ التحقيق . وقبل ان يسرع القارئ إلى أى تعليق نسجل ان النيابة بعد استيلاء الضباط الأحرار على السلطة في يوليو ١٩٥٢ أعادت التحقيق في أمر الأسلحة الفاسدة وانتهى التحقيق إلى الحفظ مرة أخرى .

رجال لاملائكة

وفي النهاية قد نختلف أو نتفق حول مصطفى مرعى الذى جاء من تراب الدلتا سنة ١٩٠٢ وعاد إليه في ٧ نوفمبر ١٩٨٧ . ولكننا لانختلف حول صدقه مع نفسه وحول اخلاصه ، وحول شجاعته . اشترك في وزارة « إبراهيم عبد الهادى » الأولى من ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ - ٢٥ يوليو ١٩٤٩ ، الوزارة التى اشتهرت بمطاردتها للإخوان المسلمين والشيوعيين ، واشتد السخط الشعبى على إبراهيم عبد الهادى ، ومع هذا فان « مصطفى مرعى » بضمير القاضى وهو وزير في وزارة حسين سرى (٢٥ يوليو - ٣ نوفمبر ١٩٤٩) يعترض على قسوة الحكم الذى صدر ضد أحد زعماء الحركة الشيوعية ومع هذا أيضا يتقدم مصطفى مرعى المحامى الشجاع للدفاع عن إبراهيم عبد الهادى أمام محكمة الثورة . وقف يدافع عن سياسى لا يتمتع بعطف شعبى ، ويقارع الثورة في عنفوان جموحها وبطشها .

لقد كان لمصطفى مرعى موقف واضح ومحدد من ثورة ٢٣ يوليو ومن ممارساتها ومن تجاوزاتها . وهو في هذا الموقف صادق مع نفسه . كان صادقا مع نفسه عندما قاد حملة ضد فساد حاشية الملك وضد فساد الملك فلماذا يهاجمه البعض اذا كان صادقا مع نفسه وهو يختلف مع ٢٣ يوليو ؟ ويبدو أن الأستاذ أحمد أبو الفتوح قد اقترب منه كثيرا وهو يشهد له بالوطنية والعلم والعدالة والإنسانية والصدق في العقيدة الدينية والوفاء وحرصه على أداء حق الناس في ماله الذى هو مال الله ، وعن صلابته في مواجهة الطغاة وأذئاب الطغاة .

انصرف في آخريات حياته إلى المشاركة في أعمال مجمع اللغة العربية (١٩٧٣ - ١٩٨٧) وأسهم في لجان القانون والشرعية والاقتصاد ، والألفاظ والأساليب . . ماذا نريد من رجال مصر أكثر من هذا ؟ هل نريدهم ملائكة ؟ دلونا عليهم ونحن نكتب عنهم .

الأسانيد :

- ١ - أحمد أبو الفتوح . . . جريدة الوفد ١٢/١١/١٩٨٧ .
- ٢ - احسان عبد القدوس . . مجلة روز اليوسف (يوليو ١٩٤٩ - يونيو ١٩٥٠) .
- ٣ - جمال بدوى . . جريدة الوفد (٢٧/١٢/٨٤ - ٣/١/٨٥ - ١٠/١/١٩٨٥) .
- ٤ - حسن يوسف . . مذكرات .
- ٥ - مصطفى أمين . . جريدة الأخبار ٩/١١/١٩٨٧ .
- ٦ - د . مهدي علام . . المجمعين في حسين عام .

المستشار ممتاز نصار



الجماعة القيادية للهيئات القضائية

محضر جلسة ٢٨ / ٤ / ١٩٦٩

تم الاجتماع في منزل السيد الوزير محمد أبو نصير في تمام الساعة ٣٠ ٦ مساء وحضره السادة على نور الدين ، محمد الصادق مهدى ، عبد الحميد يونس ، على شنب ، إبراهيم هويدى ، عبد الحميد الجندي ، اعتذر عن الحضور السيد عمر شريف لمرضه .

١ - استهل السيد الوزير بانه يتعين وضع خطة متضمنة أهدافا ووسائل ومتابعة لهذا التنظيم ، وذلك في برنامج زمنى ينتهى في مدة سنة وفي رأيه ان الأهداف تتمثل في عنصرين :

(أ) تحطيم عناصر الثورة المضادة داخل القضاء والتي تتجمع بجميع فئاتها بين رجعيين وإخوان مسلمين وانتهازيين حول ممتاز نصار على أساس إنه القوة التي تعارض الحكومة . .

(ب) رفع مستوى الادراك السياسى والقومى لرجال القضاء . وأقر (المجتمعين) هذين الهدفين .

٢ - وبالنسبة للوسائل اقترح السيد الوزير كخطوة أولى إعداد مشروع قانون يقدم عن طريق أعضاء مجلس الأمة باباحة التبادل بين أعضاء الهيئات المختلفة . . ومبررات هذا القانون الآتى :

(أ) (ب) (ج) (د) . (هـ) تحطيم تجمع القوى المضادة والمنظمة والمركزة داخل القضاء والنيابة العامة .

وقد وافق المجتمعون على هذا الاقتراح بما يحققه من فوائد كثيرة في نطاق الأهداف الموضوعية .
على أن تقوم اللجنة باعداد مشروع القانون وعرضه على القيادة السياسية .

هذا هو موجز لمحضر التنظيم السرى داخل الهيئة القضائية نقلته عن صفحتى (٩٢ ، ٩٣)
من كتاب (معركة العدالة فى مصر) للمستشار ممتاز نصار . . وقد أوجزته بدقة بما فيه الخطأ
النحوى فى الفقرة (ب) إذ وردت كلمة (المجتمعين) وصحتها لغويا (المجتمعون) وهى على
الأرجح خطأ الذين كتبوا التقرير ، وليست خطأ المستشار نصار الذى نقل عن التقرير ، وهو الذى
عمل فى مكتب السكرتير العام للوفد « مكرم عبيد باشا » لمدة ست سنوات . . والتقرير ملئ
بعبارات التحطيم وعناصر الثورة المضادة والرجعيين والانتهازيين ، ورفع الإدراك السياسى إلى آخر
هذه الألفاظ التى احترفها كتبة التقارير السرية من أعضاء التنظيم السرى ، الذى عرف بالتنظيم
الطليعى . . ولحين العودة إلى اقتراح « السيد الوزير محمد أبو نصير » والتركيز على تحطيم
« المستشار ممتاز نصار » والذين تجمعوا حوله من « رجعيين وإخوان مسلمين وانتهازيين » ننظر
قليلاً فى هذا التنظيم الطليعى . .

التنظيم الطليعى

ونتخذ هنا مجال القضاء ، وهو أكثر المجالات هبة ووقارا ، لنرى ماذا كان يحدث من التنظيم
الطليعى ، أو طليعة الاشتراكيين ، أو التنظيم السرى ، أو النواة الاشتراكية الصلبة كما كان يسميه
كتبة التقارير تبريرا لعمليات التجسس على زملائهم . . يروى لنا المستشار « ممتاز نصار » فى
كتابه الذى أشرنا إليه من قبل فى صفحتى ٧١ ، ٧٢ قصة الاعتداء على أحد وكلاء النيابة ،
 واجتماع مجلس إدارة نادى القضاة فى ٢١ مارس سنة ١٩٦٩ ، واجتماع المجلس محتجا مع وزير
العدل السابق (محمد أبو نصير) واستنكار الوزير لهذا الاعتداء . . وفى مقابلة انفرادية بين « ممتاز
نصار » ووزير العدل أبلغه الوزير بالتقرير الذى كتبه أحد أعضاء التنظيم المندسين بين القضاة ،
 وأن الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا واجه وزير العدل بالتقرير الذى كتبه « القاضى فلان » .

وورد على صفحة ٩١ (إن بعض أفراد هذا التنظيم لم يكتف بمراقبة القضاة من زملائهم
واعداد التقارير عنهم بل راحوا يتلمسون الحصول على تقارير عن المواطنين ، وقد حدث أن
ارتدى أحد أفراد التنظيم السرى فى القضاء جلبابا وتعقب مواطنين أبرياء كانوا يتحدثون فى شئون
عامة لا علاقة لها بالقضاء وسجل أحاديثهم ورفعها إلى ذوى الشأن !

ويعقب الرجل المحترم عظيم الاحترام ، الرجل الشهم المستشار « ممتاز نصار » قائلا (ومثل
هذا السلوك يحتم محاكمة أعضاء الجهاز السرى فى القضاء لأنه لايسوغ تحت أى ظرف من الظروف
أن يبقى فى القضاء من يتصف بمثل هذا السلوك) .

الكشف عن التنظيم

وإذا كان المحامى الصلب ، والقاضى النزيه ، والنائب المحترم عظيم الاحترام قد تصدى لعناصر التنظيم السرى داخل القضاة ، وطالب بمحاكمتهم لأنه لايسوغ تحت أى ظرف من الظروف ان يتحول (القاضى) إلى (عسس) يرتدى الجلباب ويتسقط اخبار الناس ، وهذا الذى كان يحدث فى القضاء كان يحدث أكثر منه مرة داخل الأنشطة الأخرى ، داخل الصحف ، وداخل النقابات المهنية ، وداخل التجمعات العمالية ويفاجأ الناس بعناصر لاهنا ولا هناك قفزت إلى المناصب العليا ، وتصدت لقيادة المجالات الثقافية والإعلامية وغيرها ويرطنون بعبارات . . نواة العمل الاشتراكى . . الطليعة الاشتراكية . . التصدى للثورة المضادة وليس هذا كله إلا لستر كتابة التقارير عن زملائهم وتغطية أنفسهم باتهام العناصر المناورة لهم بالرجعية وبالعمالة .

وأعود اليوم إلى مقال لى فى ٢٧ يوليو ١٩٧٨ بجريدة الأخبار كان سन्दى فيه ما كتبه « المستشار ممتاز نصار » فى كتابه (معركة العدالة فى مصر) ورأيت فى هذا المقال ضرورة إعلان أسماء ذلك التنظيم إذا أردنا فعلا دعم الديمقراطية ، لأن عناصر هذا التنظيم لم تزل موجودة داخل القضاء ، وداخل الصحف ، وداخل القطاع العام وداخل الحزب الحاكم والأحزاب المعارضة ، بل وداخل الحكومة ذاتها . . والكشف عن هذه العناصر يلقي الأضواء عليها وعلى أساليبها داخل الأنشطة المختلفة . . وهى لم تزل ذات أصوات عالية فى كثير من المجالات وفى كثير من مواقع الإنتاج ، وهو ضرورة ديمقراطية لنزع الفتيل عن هذه القنابل الموقوتة ، ويكفى ان نعرف هنا ان أعضاء أمانة التنظيم الطليعى الذى تشكل بأمر مباشر مع « جمال عبد الناصر » هم : « شعراوى جمعة » ، وسعد زايد ، وحلمى السعيد ، ومحمد فايق ، وسامى شرف ، وأحمد شهاب ، وأحمد كامل ، ويوسف غزولى ، ومحمد عروق ، ومحمود أمين العالم ، والسكرتير أسعد خليل » ، وهى أسماء واضحة الدلالة أمام المواطنين .

المناضل الممتاز

ومثل هذا التنظيم السرى وبكل السلطات التى فى يده ، أجهزة الأمن المختلفة ، أجهزة الإعلام ، أجهزة الدعاية الفكرية كان يلقي بثقله داخل القضاء فيتصدى له « ممتاز نصار » والقضاة الشرفاء الذين يحرصون على استقلال القضاء . وحماية لاستقلال القضاء التقى « ممتاز نصار » بالسيد « على صبرى » وبالسيد « شعراوى جمعة » وبالسيد « محمد حسنين هيكل » وبالسيد « كمال رفعت » والجميع أيدوه فى رأيه ، والجميع نقلوا رأيه إلى « الرئيس جمال عبد الناصر » . . ولكن يبدو أن أسلوب التنظيم الطليعى كان له شأن آخر . . التقارير تكتب وترفع

وتصعد على حد تعبير (الجماعات القيادية) في ذلك الوقت . . وتصب التقارير لدى (الأمانة العامة) وبعدها تصدر القرارات الحاسمة التي لا راد لها من القيادة السياسية . وحدثت القارة في يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٦٩ وفصل القضاة بغير الطريق التأديبي ، وفصل أعضاء الهيئات القضائية الأخرى ، وفي ذات اليوم مساء ومنذ الرابعة بعد الظهر انطلق عدد وفير من راكبي الموتوسيكلات إلى منازل هؤلاء القضاة يحملون إليهم ورقة مطبوعة بنموذج متماثل حوى (انتصار النظام في معركة اليمن مثلا أو في معركة الانفصال أو الانتصار في ٥ يونيو) أسف حوى صدور القرار بقانون رقم ٨٣ لسنة ١٩٦٩ والقرارات المنفذة له بإنهاء خدمة هؤلاء القضاة ، وكان التوقيع على هذا النموذج بختم وزير العدل الجديد « الأستاذ مصطفى كامل إسماعيل » الذي لم يكن قد حلف اليمين بعد ! وقد استقال « السيد محمد أبو نصير » للخداع - على حد تعبير الدكتور محمد حلمي مراد - بعد أن اعد الطبخة كلها .

وهكذا فصل قضاة مصر لأنهم استجابوا لرئيس ناديتهم المنتخب في عدم الانضمام للاتحاد الاشتراكي حفاظا على استقلال القضاء وكان معه نائب رئيس محكمة النقض الآن « يحيى الرفاعي » ، ويومها عرضت الحكومة رشاي كثيرة على رجال القضاء لعلمهم يعدلون عن معارضتهم ، وأمسك المستشار « محمد أبو علم » الميكروفون وأعلن أن رجال القضاء يرفضون الرشاي وعليهم واجبات وليست لهم حقوق ، وجرت مذبة القضاة ، وعزل ممتاز نصار ، ويحيى الرفاعي ، وتلقى محمد أبو علم قرار العزل وهو في الخارج .

خلفيات القارة

والقارة التي وقعت في ٣١ أغسطس ١٩٦٩ والتي نتج عنها عزل « ممتاز نصار » هو وليفي من القضاة لم تكن بنت يومها ، وإنما هي حادثة لها تاريخ كما يقولون . . ففي عام ١٩٦٣ فكر السيد وزير العدل في تعديل قانون استقلال القضاء على وجه يزيد من سلطان وزارة العدل في الإشراف والهيمنة على القضاء بما يؤثر في استقلاله . فاعترض مجلس إدارة نادى القضاة على هذا التفكير ، وأبرق « ممتاز نصار » إلى « الرئيس جمال عبد الناصر » في أول أبريل لايفاف هذا المشروع ومنعه من الصدور ، وكانت النتيجة ان صدر قرار في ١٣ أغسطس سنة ١٩٦٣ بحل مجلس الإدارة المنتخب برئاسة « ممتاز نصار » وحل محله مجلس مؤقت معين ، ولكن في يونيو سنة ١٩٦٤ أعيد انتخاب « ممتاز نصار » رئيسا حتى أطيح بالنادى وبالقضاة في ٣١ أغسطس ١٩٦٩ .

وبعودة المجلس المنتخب وبعودة رئيسه المنتخب أيضا أمكن الغاء القيود التي فرضت على القضاء وصدر قانون السلطة القضائية رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٥ محققا لرجال القضاء ضمانات

الاستقلال وتعديل مرتباتهم بالزيادة التي تحقق لهم العيش الكريم ، وهذا هو ما اسماه التنظيم الطليعى وعناصره السرية وأمانته العامة (بالرجعية وبالثورة المضادة ، وبالرجعيين والانتهازيين الذين يلتفون حول رئيس ناديهم « ممتاز نصار » .

ثم حلت بالبلاد « كارثة ٥ يونية ١٩٦٧ » وبدلا من حديث المسؤولين عن أسباب الهزيمة والتصدى بشجاعة لمسئولية الهزيمة كما يحدث في البلاد المتحضرة ، وبدلا من التغير الجذرى في مواجهة هذه الكارثة بدلا من هذا كله ، كتب السيد على صبرى عدة مقالات متتالية في ستة أيام وكأنه يذكرنا بحرب الأيام الستة التى حلت فيها النكبة على مصر . . وكانت هذه المقالات في جريدة الجمهورية يتحدث فيها « السيد على صبرى » عن القضاء ووجوب خضوعه للرقابة الشعبية وانتائه للتنظيم السياسى وكأن القضاة هم السبب في كارثة ٥ يونية .

وواجه نادى القضاة وعلى رأسه « ممتاز نصار » هذا الخداع واللعب بعقول المواطنين بالبيان الذى عرف ببيان ٢٨ مارس ١٩٦٨ الذى رفض أية تنازلات سياسية من جانب الدولة تحت أى ضغوط ، ودعا إلى دعم الجبهة الداخلية ، وشدد على سيادة القانون ليأمن جميع المواطنين على حرياتهم وحرماتهم ، وركز على قيام سلطة قضائية حرة مستقلة يؤكد الدستور استقلالها وضمان عدم عزل القضاة ، وأشار إلى أن النيابة العامة جزء لا يتجزأ من السلطة القضائية .

وقد حاول « السيد شعراوى جمعة » وقف اصدار هذا البيان ولكن دون جدوى وصدرت الأوامر للصحف « القومية دائما » بعدم نشر البيان ، فقام النادى بطبع البيان وتوزيعه على رجال القضاء جميعا ، ولم يكن أمام التنظيم السرى ، والتنظيم السياسى ، والقيادة السياسية إلا القارعة في ٣١ أغسطس ١٩٦٩ .

رجعة إلى الوراء

هذا الوطنى النادر والقاضى النزيه والمحامى الصلب والنائب المحترم عظيم الاحترام ، (وهى كلها عبارات الزميل الكبير كامل زهيرى) هو نبت بيت وطنى وبيئة مناضلة .

ولد « ممتاز محمد نصار » في البدارى محافظة أسيوط في ٩ نوفمبر ١٩١٢ ، والذين يقترئون من السياسة يعرفون أن أسيوط كمحافظة تتميز بالعصبيات وبالأمر الكبير في العمل السياسى . . ومن هذه الأسرة (النواصر) التى ينتمى إليها الراحل الكبير وهى أسرة معروفة بانتائها للوفد ، ولظروف مختلفة ، فإن محافظة أسيوط كان يغلب عليها طابع الميل إلى الوفد حتى نازع حزب الأحرار الدستوريين الوفد هناك وذلك لأن أحد كبار رجال مصر منذ أيام حزب الأمة و (الجريدة)

هو « محمود باشا سليمان » والد رئيس حزب الأحرار ورئيس وزراء مصر في فترة معينة . « محمد باشا محمود » له أسرة معروفة في المحافظة . . ولد « ممتاز نصار » في بيئة حزبية وفي مناخ سياسي ، وبالنسبة للبدارى بالذات فهي معروفة بأحداث التعذيب التي وقعت فيها أيام « إسماعيل صدقي » والتي دفع ثمنها « مأمور البدارى » ، نشأ « ممتاز نصار » إذن في بيئة يغلب عليها الصراع الحزبي العنيف .

تلقي تعليمه الابتدائي في مدرسة البدارى ، وحصل على شهادتى الكفاءة والبكالوريا من مدرسة أسيوط الثانوية في فترة كانت تعد فيها مدينة أسيوط معقلا من معازل الوفد ، من الصعب على أى حزب آخر اختراقه . . ووالده « محمد نصار » عمدة البدارى كان عضوا بالهيئة الوفدية ومرشح الوفد في انتخابات ١٩٣٨ ، ١٩٤٢ عن دائرة البدارى بأسيوط .

وقد قدر لممتاز نصار أن يقترب بطريقة ما من أحداث البدارى ، حيث تركت هذه الأحداث بصماتها على تفكيره وعلى وجدانه . كيف ؟

أحداث البدارى

في غضون سنة ١٩٣١ كان وقتها في السنة الأخيرة بمدرسة أسيوط الثانوية وهي مدرسة كبيرة ضخمة بالقرب من خزان أسيوط وحدث أن قتل مأمور مركز البدارى « المرحوم يوسف الشافعى » واتهم في قتله « أحمد جعيدى حسين » وكان زميلا لممتاز بالمدرسة الابتدائية بالبدارى والتحق بمدرسة الفنون والصناعات القديمة ولم يكمل دراسته فيها وعاد إلى بلدته البدارى ، وقاومت البدارى طغيان « إسماعيل صدقي » وبشرت الإدارة تعذيب الأهالى ومنهم أسرة « أحمد جعيدى » ، وأحمد نفسه قتل المأمور مع سبق الأصرار والترصد . وهاجت السلطات وماجت ، وأشار المرحوم « زيان حسنى » بأصابع الاتهام إلى العمدة « المرحوم محمد نصار » وإلى أسرته على زعم انهم قتلوا المأمور ردا على إيقاف العمدة ، وكانت حكومة « صدقي » قد أوقفت عمدة البدارى ، وعددا آخر من العمدة بمديرية أسيوط ، وغيرها من البلاد لعدم تعاونهم مع الحكومة التى اعتدت على دستور ١٩٢٣ ، وفرضت دستورا عرف « بدستور صدقي » ، وامتد التحقيق مع أسرة العمدة « محمد نصار » من الغروب حتى منتصف الليل دون أن يظهر دليل واحد على احد من أسرة العمدة الموقوف ، وحضر وقتها رئيس النيابة « المرحوم عبد اللطيف محمود » الذى وصل إلى منصب الوزير ، وبرفقته مدير المديرية « المرحوم أحمد فهمى حسين » وادركا ان التحقيق يسير في طريق مسدود ، وادركا ان القاتل بالضرورة شخص آخر وان الموقف هو في يد العمدة الموقوف عن

العمل ، فأرسلا لاستدعاء العمدة « محمد نصار » وطلبا منه المعاونة فى القضية فطلب العمدة اخلاء سبيل كل من قبض عليه ولم يثبت عليه أى دليل . وبالفعل تم اخلاء سبيل جميع الذين القى القبض عليهم ، وبعد ساعتين استطاع العمدة اقناع أهل « أحمد جعيدى » بتسليم نفسه وتسليم السلاح الذى استخدمه فى قتل المأمور والدفاع عن نفسه بالتعذيب الوحشى الذى وقع عليه والذى أهدر آدميته وكرامته ، وبعد جولات قضائية مختلفة انتهت القضية بالحكم على « أحمد جعيدى » بالأشغال الشاقة المؤبدة بدلا من عقوبة الاعدام .

وهذه الوقائع كلها تركت أثاراها على نفس « ممتاز نصار » فقد نشأ فى بيئة قاومت اهراب « صدقى باشا » ونشأ فى أسرة تدافع عن دستور ١٩٢٣ ، ورأى والده يفقد وظيفته الهامة ولا يتعاون مع حكومة تعادى حزب الأغلبية الذى ينتمى إليه ، وكما يقول هو فى كتابه (وهذه الصورة أثرت فى تفكيرى وقوت إيمانى بأن الاعتداء على حرية أى مواطن جريمة لا تغتفر وهى توازى تماما جريمة القتل . .) .

محاميا ووكيلا للنائب العام

ويتخرج فى كلية الحقوق سنة ١٩٣٦ ، ويعمل محاميا فى مكتب « المرحوم الأستاذ مكرم عبيد » الذى عرف ببلاغته وبراعته الخطابية وتمكنه من القانون وأسلوبه المتميز فى المحاكم وأمام القضاء ، وبالطبع فان هذه المميزات كلها انعكست على المحامى الشاب « ممتاز نصار » فضلا عن أن « مكرم باشا » كان فى ذلك الوقت السكرتير العام للوفد ، ومنفذ سياسته ، ودافع حركته ، وبالقسط كان مكتبه ملتقى لفعاليات الوفد من كل مكان .

وفى ٤ مايو سنة ١٩٤٢ يلتحق « ممتاز » بالنيابة العامة وكيلا وكان النائب العام وقتها « المستشار عبد الرحمن الطوير » الذى عرف بحرصه على كرامة معاونيه . . التحق بالنيابة العامة إذن وخلفه ميراث لمقاومة الظلم فى القرية ، وانتهاء وفدى فى الأسرة ، واستعداد للتضحية من والده العمدة ، وممارسة للعمل فى مكتب السكرتير العام للوفد . . وأمامه شخصية النائب العام الذى يعتز بكرامته وكرامة معاونيه .

وتتوالى أمامه الصور التى تزيده تمسكا بالنزاهة والكرامة . . فى غضون سنة ١٩٤٢ قام أحد السادة وكلاء النيابة وهو المستشار « صدقى البشيشى » بتحقيق فى مستشفى قصر العبنى ، وحدث ان وجه إليه أحد الأطباء عبارة اعتبرها اهانة له ، وحقق معه وأمر بالقبض عليه ، وتدخل وزير الصحة وقتها وهو « المرحوم الدكتور عبد الواحد الوكيل » وتمسك النائب العام بتنفيذ القانون ، وانتصر « المرحوم مصطفى النحاس » لكرامة النيابة ، ويقول هو فى ذلك الشأن (وهذه

الصورة قد أثرت في نفسى وجعلتنى دائما اتصرف فى عملى بما اقتنع انه الحق والعدل . . .
 وصورة أخرى حدثت فى غضون ١٩٤٣ ، وفى إحدى نيابات المنيا وكان وقتها « الأستاذ فخرى عبد النبى » وزير العدل الأسبق معاونا للنيابة وحدث ان وجه إليه حكمدار البوليس عبارة اعتبرها ماسة بكرامته ، وتدخل « الوزير المرحوم صبرى أبو علم » لدى رئيس الوزراء « المرحوم مصطفى النحاس » وكان وزيرا للداخلية فأمر بنقل الحكمدار فورا لثبوت خطئه ، ويقول هو تعليقا على هذا . . . (وهذه أجماد النيابة العامة القديمة وعلى الجيل الحالى أن يحافظ على هذه الأجماد وأن يتمثل بها . . .)

ليس غريبا إذن ، وهو وكيل النائب العام أن يرفض توجيه تهمة العيب فى الذات الملكية للأساتذة فتحى رضوان وأحمد حسين وإبراهيم شكرى ، وليس غريبا ان يرفض وزير العدل فى حكومة الوفد وقتها تدخل السراى ضد وكيل النيابة الشاب .

فى محراب القضاء

لقد أمضى أغلب حياته فى منصب القاضى حتى وصل إلى أعلى مناصب القضاء . وكسب بنزاهته القانونية والفكرية هبة كبيرة جعلت كل مستمعيه ينصتون إليه باحترام ليعرفوا رأيه الذى لم يعرف الهوى أو المصلحة الشخصية .

ويسجل التاريخ لهذا الوطنى العظيم — حتى لو اختلفا معه فى الموقف — نزاهة واستقلالا وثباتا فى مواقفه الواضحة من تطبيق مبادئ الدستور ومواد القانون ونصوص لائحة مجلس الشعب ، ومن هبة الأهرام ، وقانون الطوارئ ، وقانون العيب ، وقانون الانتخاب ، والقوانين الاستثنائية وسائر القوانين سيئة السمعة .

وفى الساعة الثامنة من صباح الثلاثاء ١٤ أبريل ١٩٨٧ ميلادية لى نداء ربه المحامى القدير ووكيل النيابة الوطنى ، والقاضى النزيه ، ورئيس مجلس ادارة نادى القضاة المنتخب ، والذى رفض انضمام القضاة إلى الاتحاد الاشتراكى ، ونائب الشعب الذى تمسك بالدستور والقانون واللائحة « المستشار ممتاز محمد نصار » ففقدت مصر ابنا بارا ووطنيا محترما عظيم الاحترام

الأسانيد :

- ١- د . إسماعيل صبرى عبد الله . . الأهل ٢٢ أبريل ١٩٨٧ .
- ٢- كامل زميرى . . الجمهورية ١٧ أبريل ١٩٨٧ .
- ٣- لمى الطيلى . . الأخبار ٢٧ يوليو ١٩٧٨ (التنظيم الطليعى) .
- ٤- ممتاز نصار . . معركة العدالة فى مصر نوفمبر ١٩٧٤ .

مصطفى كامل



في الأربعينات أو الأربعينيات ، ونحن طلبة في جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) كنا نفاجأ في الصباح بعبارات على الجدران لانفهم لها معنى . ولا نعرف لها مناسبة ، ولا نقف لها على مصدر مثل عبارة (شرم برم) . وتتناقل الأفواه هذه العبارات مجهولة المعنى والنسب والمصدر . . وكل يفسرها على هواه .

وفي الشهر الماضي ، كنا نستيقظ لنقرأ على الصفحة الأولى من جرائدنا القومية عبارة موحدة الصيغة ، مرة بالبنط الأحمر ومرة بالبنط الأسود تقول أن جمعية للثقافة سوف تقيم احتفالا بذكرى «الزعيم مصطفى كامل» ولم يعرف أحد هذه الجمعية ، ولا أين مقرها ، ولا موعد الاحتفال ولا ما المناسبة . ولا نعرف حتى الآن هل الاحتفال أقيم أم لا ؟

وعلى الرغم من ان زعيما مثل « مصطفى كامل » ليس في حاجة إلى مناسبة معينة للاحتفال بذكراه أو للحديث عنه ، إلا أن الناس حتى تاريخ نشر السطور الحالية تسأل ما الحكاية ؟ وعدنا إلى التواريخ في حياة « مصطفى كامل » لم نجد تاريخا واحدا يتفق مع موعد الاحتفال به حسب الإعلان المجهول في الصفحات الأولى من جرائدنا القومية ، أو الاتصال المرئية والمسموعة . فتاريخ ميلاده (٤ أغسطس ١٨٧٤) وتاريخ وفاته (فبراير ١٩٠٨) وبينهما تواريخ كثيرة ، وتاريخ حصوله على الشهادة الابتدائية في يونيو ١٨٨٧ ، وتاريخ حصوله على التوجيهية (الثانوية العامة) في يونيو ١٨٩١ وتاريخ حصوله على شهادة الحقوق في نوفمبر ١٨٩٤ من جامعة تولوز الفرنسية . وحتى تاريخ إصداره العدد الأول من مجلة (المدرسة) كان في ١٨ فبراير ١٨٩٣ . وعندما سافر قاصدا إلى فرنسا للدعاية للقضية الوطنية على نفقات « الخديو عباس الثاني » كان هذا السفر في ١٣ أبريل ١٨٩٥ . وفي النهاية أعلن رسميا عن الحزب الوطني في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ .

وحتى لا أطيل فأننى لم أجد تاريخاً واحداً لا فى مولده ، أو وفاته أو دراسته أو فى سفره أو فى اصدار جريدة اللواء مثلاً (٢ يناير ١٩٠٠) يفسر لنا هذه الاعلانات الغامضة عن الاحتفال بذكرى لمصطفى كامل ، ولم يصدر بعدها بيان فى سطور قليلة يفسر لنا لماذا لم يقيم مثل هذا الاحتفال .

ومهما يكن من أمر فان « مصطفى كامل » قد توفى فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ، أى إنه مرت على وفاته ثمانون عاماً ، وهما نحن نكتب عنه فى هذه المناسبة التاريخية .

وإذا ما تحدثنا عن « مصطفى كامل » فسوف يكون الحديث بالمقارنة ضرورة عن « محمد فريد » ، وإذا تحدثنا عن « محمد فريد » فسوف يكون الحديث بالضرورة عن « مصطفى كامل » . كما ان الحديث سوف يكون أكثر ضرورة عن الحزب الوطنى وأزمته .

الخديو هو الأزمة

وفى تقديرنا ان أزمة الحزب الوطنى ولدت معه وهو جنين منذ علاقة « مصطفى كامل » بالخديو عباس الثانى الذى تولى السلطة فى ١٦ يناير ١٨٩٢ عقب وفاة الخديو توفيق (٧ يناير ١٨٩٢) وكان عمر (عباس) ١٧ عاماً وعمر « مصطفى » ١٨ سنة وظهر الشاب « عباس » عاطفة مصرية وطنية وإن كان « اللورد كرومر » يعتقد انه (مناور بالفطرة) .

واتصل « عباس » سنة ١٨٩٦ بأحمد لطفى السيد الذى كان قد شكل جمعية سرية (لتحرير مصر) مع زميله وصديقه « عبد العزيز فهمى » وفى السنة نفسها رتب « مصطفى كامل » اجتماعاً بين « الخديو عباس » وأحمد لطفى السيد . ثم تألفت جمعية سرية برياسة « الخديو عباس » تحت اسم (الحزب الوطنى) ضمت « أحمد لطفى السيد ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وإسماعيل الشيمى (« ياور الخديو ») ومحمد عثمان (والد أمين عثمان) وليبيب محرم (شقيق عثمان محرم) . وكان لأعضاء الجمعية السرية اسماء حركية مستعارة فكان (الشيخ) اسماً للخديو ، و (أبو الفداء) اسماً لمصطفى كامل . و (أبو مسلم) اسماً لأحمد لطفى السيد .

وإن كانت هذه الجمعية السرية التى سميت بالحزب الوطنى ليست هى بدايتها الحزب الوطنى الذى أعلنه « مصطفى كامل » رسمياً فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ ، إلا أن هذا الأمر يوضح أن نشاط مصطفى كامل الحزبى بدأ تحت ولاية (الخديو) وبمعونته المالية ، وأن (الحزب الوطنى) بدأ برياسة الخديو . وإن تيار الحزب الوطنى بدأ منذ ١٨٩٦ ودخلت عليه بطبيعة الحال تغيرات كثيرة إلى أن أعلن رسمياً كحزب علنى له لائحة وله برنامج وله لجنة إدارية وقيادة .

والصلة قديمة بين « عباس » و « مصطفى » وكان واسطتها « عبد الرحيم أحمد » ، وسافر « مصطفى كامل » في ١٣ أبريل ١٨٩٥ للدعاية للقضية الوطنية في فرنسا على نفقة « الخديو » كما كان « عباس » ينسق أيضا بحذر مع فرنسا ضد الانجليز ويبدو أن « الخديو » طلب أن يعود « مصطفى » إلى مصر في تلك السنة ، ويتضح من خطاب أرسله « مصطفى » إلى صديقه « محمد فؤاد سليم » في ١٦ أكتوبر ١٨٩٥ أن « الخديو » لم يرسل له قدرا كافيا من المال ، وأنه صمم على عدم رجوعه إلى مصر ويطلب من اصدقائه باسم الوطن أن يمدوه بالمال . ومن خطابات « مصطفى » إلى « عبد الرحيم أحمد » وكيل الشؤون العربية بالقصر الخديوي يتحدث عن نفاذ المال الذي سلمه إليه وعن حاجته إلى مبالغ جديدة .

ويبدو ان سلطات الاحتلال نهت « الخديو عباس » إلى الدعاية المصرية في فرنسا ضد الانجليز سواء تلك التي يقوم بها مصطفى كامل أو أصدقاء الخديو من الفرنسيين فيكيف الخديو عن ارسال المال إلى مصطفى ، واضطر « مصطفى كامل » إلى العودة في ٩ يناير ١٨٩٦ ولم يقابله الخديو بعد عودته بل تجاهل التماسات مصطفى بطلب المقابلة .

وعادت العلاقات ودية مرة أخرى إلى ان تشكلت الجمعية السرية التي أشرنا إليها ونريد أن نقول أن علاقة « مصطفى كامل » بالخديو عباس حلمي الثاني والتي كان يتولى فيها « عباس » الانفاق على جهود مصطفى كامل للدعاية في مصر كانت تتعرض منذ البداية للتقدم وللتراجع حسب ظروف الخديو نفسه أو حسب مصالحه فإذا كان « الخديو » على ود مع سلطات الاحتلال منع المال عن « مصطفى كامل » وامتنع عن مقابلته . وسجل « محمد فريد » في مذكراته انه اكتشف في مرات كثيرة ان « مصطفى كامل » كان يخفي عنه الأموال التي يأخذها من الخديو . وأشار أيضا إلى أن عددا من أعضاء الحزب كان على اتصال بالخديو لصالحهم الشخصي .

سنة الحسم

وظلت العلاقة بين مصطفى كامل والخديو عباس بين شد وجذب تحكمها مواقف الخديو ومصالحه كما قلنا إلى أن أعلن « مصطفى كامل » في رسالة له إلى « عباس الثاني » مؤرخة في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤ (رفعت إلى مقامكم السامي أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على أن أكون بعيدا عن فخامتكم وإن اتحمل وحدي مسئولية الخطأ التي اتبعتها نحو الاحتلال والمحتلين . .) . وهذه السنة ١٩٠٤ سوف يكون لها شأن في تاريخ الحزب الوطني فهي السنة التي بدأ فيها « محمد فريد » نشاطه السياسى من الناحية الفعلية ، وهى سنة الوفاق الانجليزى الفرنسى . وليس معنى هذا ان « عباس الثاني » قد كف يده داخل الحزب الوطنى ، وإنما كانت له كما أشرنا علاقات

خاصة بعدد من قيادات الحزب الوطنى امتدت إلى عهد رئاسة « محمد فريد » للحزب كما أن عباس لجأ إلى تكثيف علاقاته هذه لتشديد قبضته على الحزب وعلى صحافة الحزب . وهناك قرائن كثيرة على أن « على فهمى كامل » شقيق « مصطفى كامل » كان فى مقدمة عناصر الحزب الوطنى التى لها علاقات خاصة بالخدوي ، وتردد انه « أى على فهمى » سلم الخديو عقب وفاة (مصطفى كامل) الأوراق التى تثبت الصلات الخاصة بين الخديو ومصطفى كامل . ويبدو من مراسلات مصطفى كامل انه كان حريصا بدوره على اخفاء طبيعة تلك العلاقة فيقول فى رسالته إلى الخديو المؤرخة فى ١٦ يناير ١٨٩٦ (وقبل الختام . . أسأل سموكم ارسال أمين من اتباعكم أسلم إليهم كل المراسلات التى أرسلها إلى رجال المعية مدة اقامتى فى أوروبا إذ انى اخاف ضياعها أو استيلاء البوليس عليها إذا فتش عندى مما يكون وراءه كدر سموكم . .)

لم تكن العلاقة بين مصطفى كامل وعباس حلمى خيرا كلها على الحزب الوطنى ، وتستطيع ان تقول ان « مصطفى كامل » بسبب هذه العلاقة كان يجارى فى عدد من المواقف كموقف « مصطفى كامل » من الثورة العربيه ، ومواقف مصطفى كامل من الدولة العثمانية ، وموقفه من فرنسا ، بل ان موقفه من حركة تحرير المرأة المصرية ، وهجوم مصطفى كامل على قاسم أمين كان حسب تعبير سعد زغلول فى مذكراته (تقريبا إلى الباب العالى ونفاقا لذوى الأفكار المتأخرة) .

تركيا وفرنسا

واقترب « الخديو عباس حلمى » من تركيا بحذر وحرص شديدتين تاركا لمصطفى كامل التعبير العلنى عن الارتباط بين مصر والدولة العثمانية ، وكان الخديو أيضا من دعاة التنسيق مع فرنسا عن طريق اصدقاء له فى فرنسا ووجدت هذه السياسة قبولا عند « مصطفى كامل » .

وان كان « مصطفى كامل » فى فترات باكرة نادى بالولاء لتركيا إلا انه فى السنوات المتأخرة أعلن ان افكاره لم تكن سوى الصداقة بين تركيا ومصر وان (من الأمور الطبيعية المحضة ان يساعد المصريون دولة الخلافة) . وفى خطبة الوداع التى ألقاها فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وهى الخطبة التى أعلن فيها قيام (الحزب الوطنى) رسميا قال صراحة (رمانا الطاعنون باننا نريد ان نخرج الانجليز من مصر لنعطيهما لتركيا كولاية عادية . . وليعلم اعداء مصر أننا نطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها) ولكن الزمن كان قد فات . . فالخديو قرب اليه « الشيخ على يوسف » وأمدّه بالأموال ودعم جريدته (المؤيد) . . . بل ودفعه لتأسيس (حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية) الذى وضع فى برنامجه نصا صريحا للدفاع عن الخديو . . والولاء لتركيا أصبح شعارا لقسم هام داخل الحزب الوطنى على رأسه « الشيخ عبد

العزیز جاویش « الذى تولى رئاسة تحرير اللواء بعد وفاة مصطفى كامل ، وظهر حزب الأمة وصحيفته (الجريدة) تنادى بشعار الثورة العربية (مصر للمصريين) ومات «مصطفى كامل» فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ ويحاول الخديو الاستيلاء على الحزب من الداخل . . وينقسم الحزب الوطنى إلى مجموعات مختلفة . . مجموعة عبد العزيز جاویش تعمل لحساب تركيا ، ومجموعة على فهمى كامل وتعمل لحساب الخديو مجموعة محمد فريد يمزقها التردد وعدم وضوح الخط الفكرى .

أما العلاقة مع فرنسا فشرحها يطول تبدأ فى يوم ٢٣ يونيه ١٨٩٣ حين سافر للالتحاق بكلية الحقوق وعلى نفقة الخديو، وعباس الثانى . ثم سافر مرة أخرى سنة ١٨٩٤ ، وادى الامتحان النهائى فى الحقوق بجامعة تولوز حيث حصل على ليسانس الحقوق فى نوفمبر ١٨٩٤ وعنده من العمر عشرون عاما ، وسافر برغبة من الخديو إلى فرنسا فى ١٣ أبريل ١٨٩٥ كما أسلفنا وبعدها عاد إلى مصر ووقعت جفوة خفيفة بينه وبين الخديو على اثر عودته فى ٩ يناير ١٨٩٦ ويتسابق مع الخديو وعلى نفقته أيضا سافر فى أول أغسطس ١٨٩٦ وادلى بأحاديث كثيرة للمصحف فى باريس وبرلين وفيينا وفى الأستانة حيث أعلن صراحة (أن الراية العثمانية هى الراية التى يجب أن يجمع حولها المصريون) وبعد ان عاد إلى مصر سافر إلى أوروبا مرتين فى سنة ١٨٩٧ ، ومرة سنة ١٨٩٨ .

فرنسا ومصالحها

وفرنسا كدولة شأنها شأن أى دولة أخرى تراعى دائما مصالحها ، وهكذا كان أيضا موقف الدولة العثمانية من الخديو عباس ومن مصطفى كامل ومن سائر قادة الحزب الوطنى . فرنسا الدولة حتى عام ١٩٠٤ كانت تستخدم (المسألة المصرية) فى الصراع بينها وبين انجلترا ، ومن هنا فتحت ذراعيها لمصطفى كامل وللخديو عباس ، وبدأ « مصطفى كامل » يفتق على الموقف الحقيقى لفرنسا بعد الاتفاق الودى الذى عقد بين انجلترا وفرنسا فى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ ، وهو الاتفاق الذى تم بمقتضاه اطلاق يد فرنسا فى (المغرب) واطلاق يد انجلترا فى (مصر) وضعف الأمر فى فرنسا لدى مصطفى كامل وراوده الأمل فى (ألمانيا) وفى (مدام جوليت ادم) فى فرنسا وتلك قصة أخرى .

كما ان « مصطفى كامل » تبدد الأمل عنده فى « الخديو عباس » الذى أخذ فى تلك السنة يتحول صراحة إلى مهادنة الانجليز . . ويكتب « مصطفى كامل » خطابا إلى شقيقه « على فهمى كامل » فى ١٣ سبتمبر ١٩٠٤ (إنى يا أخى كرفت من خدمة هذا الرجل . . ولذلك ترانى مصمما قطعيا على الانفصال عنه نهائيا ولو صرت مكبلا فى الديون) .

وفى تقديرنا ان سنة ١٩٠٤ كانت تحولا أساسيا فى حركة مصطفى كامل إذ انه أدرك أنه لا أمل فى تركيا أو فرنسا أو الخديو ، وشهدت تلك الفترة حتى رحيله أعظم مقالاته وخطبه ومصاولته

للاحتلال الانجليزى واشادته بمصر والمصريين ، وبجبه مصر وللمصريين مما ألهب الشعور الوطنى ورفع حماسه .

وإذا كانت ثقة مصطفى كامل قد اهتزت في فرنسا ، فإن ثقته في « مدام جوليت ادم » بقيت متينة إلى آخر عمره . وقد بدأت علاقته بـ « جوليت ادم » منذ عام ١٨٩٥ وهو في الواحد والعشرين من عمره ، وأما هي فكانت في التاسعة والخمسين من عمرها (١٨٣٦ - ١٩٣٦) اهتمت بتقديمه إلى الصحفيين وإلى الساسة في فرنسا وفي المقابل زارت « جوليت ادم » مصر في ١٩ يناير ١٩٠٤ واحتفى بها الخديو ومصطفى كامل وعدد من الساسة المصريين ونزلت ضيفة على الخديو وعلى عمر سلطان نجل « محمد سلطان » بالمينا وزارات اثار تل العمارنة وإسنا وأسوان والفيوم وبور سعيد وكان لهذه الزيارة اثرها على العلاقة بين الخديو والانجليز .

صحوة الموت

يتناقل الناس ما يسمونه بصحوة الموت ، وكيف أن المرء المقبل على الرحيل تصفو نفسه ، وترق تصرفاته ، ويسمو سلوكه . . وعندنا أن « مصطفى كامل » قد دخل منذ سنة ١٩٠٤ مرحلة صحوة الموت فاتضح مواقفه ، وتحددت خطوطه السياسية ، وزاد اقترابا من الجماهير ، والتهبت كلماته بالوطن والوطنية .

وقد بدأ هذه الصحوة بخطبة حماسية في ٧ يونية ١٩٠٤ بالإسكندرية ، وسافر إلى انجلترا ليثير الرأى العام ضد سياسة حكومته الانجليزية ، ودعا إلى إنشاء الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٥ وصال وجمال سنة ١٩٠٦ بمناسبة حادث دنشواى ، وفي اخريات ١٩٠٦ أعد عدته لاصدار جريدتين يوميتين باللغة الفرنسية وباللغة الانجليزية وتحمل كل منهما اسم (اللواء) على غرار (اللواء) العربية التى صدرت يوم الثلاثاء ٢ يناير ١٩٠٠ . وفي ٤ أكتوبر سنة ١٩٠٧ قال « جوليت ادم » ستكون هذه السنة أهم سنة في حياتى وفي ٢٢ أكتوبر أعلن الحزب الوطنى . وكان « مصطفى كامل » وراء فكرة (نادى المدارس العليا) الذى اجتمعت أول جمعية عمومية له يوم الجمعة ٨ ديسمبر ١٩٠٦ وردا على اتهامه بالتعصب الدينى ، وقف خلف اختيار « ويصا واصف المحامى » عضوا فى اللجنة الإدارية للحزب الوطنى التى انتخبها الجمعية العمومية الأولى فى ١٧ من ديسمبر ١٩٠٧ وحصل على أصوات أكثر من التى حصل عليها « على فهمى كامل » شقيق مصطفى كامل .

وعندما كان « مصطفى كامل » مستندا إلى الخديو ومتعاوناً مع الباب العالى ومنسقا مع فرنسا . . ورأى أن النتيجة لاشئ وقع فريسة الاحباط فكتب من باريس فى ٢٩ أغسطس ١٨٩٥ إلى صديقه العزيز « فؤاد سليم الحجازى بالحرف الواحد - (دعنى بالله عليك من هذه الأمة التى

بلانى الله بأن أكون واحدا من أبنائها) وفى سنواته الأخيرة لم يبق له سوى الشعب المصرى الذكى وصاح « مصطفى بقوله المأثور : « لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » .

وفى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ رحل الزعيم « مصطفى كامل » .

الأسانيد :

- ١- د . شوقى الجمل ، مراسلات مصطفى كامل (تحقيق) .
- ٢- صلاح عبد الصبور ، قصة الضمير المصرى الحديث .
- ٣- عبد الرحمن الرافعى ، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية .
- ٤- د . عبد العظيم رمضان . . مصطفى كامل فى محكمة التاريخ .
- ٥- فتحى رضوان . . مصطفى كامل .
- ٦- د . لويس عوض . . تاريخ الفكر المصرى الحديث .

مكرم عبيد



هانحن أمام حلقة عن «مكرم عبيد» ابن سعد، والمجاهد الكبير، سكرتير الوفد، ووحدة الأمة وامتزاج القبط والمسلمين كانت أهم أهداف الوفد واعزها عليه، وهي كذلك عند «مكرم عبيد». الأستاذ «أحمد حسين» زعيم (مصر الفتاة) يتحدث إلى المستشار «طارق البشري» في ديسمبر ١٩٧٣.. (مكرم حافظ القرآن.. استعمله في خطبه.. شيخ عرب.. كان المسلمون يتعاركون في قنا، وكان مكرم حكما بينهم..) والأستاذ «محمد شلبى» في كتابه (حسن البناء.. إمام وقائد) ينقل عن الأستاذ عمر التلمسانى قوله.. (مساء ١٣ فبراير ١٩٤٩، نقل جثمان الإمام حسن البناء إلى مسجد قيسون القريب من المنزل، ولم يسمح لأحد بتشيعه ولم يستطع أحد تقديم العزاء سوى مكرم عبيد) واعرف من كتاب صديقى «الدكتور محمد عمارة» الإسلام والوحدة الوطنية أنه.. أى مكرم.. قال في مجلة الهلال عدد أبريل «رابطة اللغة والثقافة العربية، والتسامح الدينى، هى الوشائج التى لم تنل منها الاطماع السياسية منالا..».

وثمة وقائع قديمة معروفة عرضت لها فى كتابات سابقة لا بأس أن نمرن الذاكرة ونستعيد ما سبق أن قلناه...

* قلت وكان مرجعى (مذكرات فخرى عبد النور) ان سعد باشا عاد من أوروبا إلى الإسكندرية فى ٤ أبريل ١٩٢١، وكانت البيعة الكبرى، وفى ٥ أبريل استقل القطار إلى القاهرة.. وفى القطار قدم له «ويصا واصف» عضو الوفد الشاب «وليم مكرم عبيد» وكان وقتئذ مدرسا بمدرسة الحقوق فحياه «سعد باشا» واثنى عليه وأعرب له عن إعجابه الكبير بمذكراته القيمة التى كتبها باللغة الانجليزية ردا على مشروع المستشار القضائى الانجليزى، هذا ماقلته وأقول اليوم أن سعد زغلول ضم مكرم عبيد إلى الوفد فى ٦ مايو ١٩٢١.

* قلت وكان مراجعى (سنوات ماقبل الثورة) لصبرى أبو المجد . . إن « عدلى يكن » عاد من لندن في ٦ ديسمبر ، بعد فشل مفاوضاته مع الانجليز ، وقدم استقالته في ٨ ديسمبر وقامت السلطات الانجليزية في ٢٢ ديسمبر باعتقال « سعد زغلول » وسينوت حنا ، وفتح الله بركات ، ومصطفى النحاس « ونفتهم إلى جزيرة سيشل ، هذا ما قلته وأقول اليوم أن « مكرم عبيد » اقترب في ذلك المنفى إلى الزعيم سعد زغلول .

* قلت وكان مرجعى (حوار وراء الأسوار لجلال الحماصى ، ومذكرات حسن يوسف ، واسرار الساسة والسياسة لمحمد التابعى) . . قلت ان جلال الدين الحماصى فى ليلة من ليالى أغسطس ١٩٤٢ ذهب إلى أحمد حسنين واتفقا على تسجيل ما اسمياه الاستثناءات والانحرافات فى عريضة ترفع إلى الملك فاروق ، ثم سافر « الحماصى » إلى رأس البر وعرض الفكرة على مكرم الذى وافق وشرع فى كتابة المقدمة ، ثم اقترح الحماصى تأليف العريضة فى كتاب ، وذكر الحماصى ان أحمد حسنين كان يتابع تأليف الكتاب ووافق على أن يتسلم العريضة لحفظها فى خزانة القصر حتى لاتقع فى أيدي حكومة الوفد ، وفى ٣١ مارس ١٩٤٣ توجه إلى القصر وتسلم العريضة المحفوظة فى خزانة القصر وقدمها إلى الملك فاروق ، واجمعت المصادر على أن أحمد حسنين اجاد الواقعة بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد وذلك بتحديد موعد يقابل فيه « مكرم » الملك فاروق فى ٣١ مارس ١٩٤٢ ثم اوعز حسنين لندوب الأهرام بأن يطلب من سكرتير الوفد تصريحاً عن المقابلة ، ووقع مكرم فى الشباك وادلى بتصريح نشرته الأهرام اشاد فيه بعطف الملك وخبرته وباطلاعه الواسع ، وقلت وكان مرجعى (الوفد والكتاب الأسود) للدكتور يونان لبيب رزق ان السلطات البريطانية عرفت بأمر الكتاب الأسود ولم تبلغ حكومة النحاس ، هذا ماقلته وأقول اليوم أن دهاء أحمد حسنين تغلب على عبقرية مكرم عبيد الذى سار فى الشوط إلى آخره .

* قلت وكان مرجعى (مذكرات حسن يوسف) أن « مكرم عبيد » وعدد من الشخصيات السياسية رفعوا عريضة إلى الملك فاروق فى ١٧ أكتوبر ١٩٥٠ يحتجون فيها على بعض المراسيم التى استصدرتها حكومة الوفد ، ويتحدثون فيها عما اسمته الصحافة (بقضية الأسلحة الفاسدة) وقد ثبت بعد ذلك وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبشهادة الشهود انه لم تكن هناك أسلحة فاسدة ،

مكرم بعيون الانجليز

خصصت السفارة البريطانية الملف رقم ٢٧ لسكرتير الوفد تحت اسم « وليم مكرم عبيد » وجاء فيه : قبطى من مواليد عام ١٨٨٩ . ونال الشهادة الابتدائية وعمره ١١ سنة التحق بالكلية الأمريكية بأسبوط ثم استكمل تعليمه فى اكسفورد بين عامى ١٩٠٥ ، ١٩٠٨ حيث نال اجازته فى القانون ، حصل عام ١٩١٢ على درجة الدكتوراه فى القانون وعاد إلى مصر ، التحق عام

١٩١٣ بوظيفة سكرتير الجريدة الرسمية بوزارة الحفانية ، وضع مذكرة في أعقاب اضراب الموظفين عام ١٩١٩ قدمها إلى المستشار القضائي الانجليزي يقترح فيها تحالفا بين انجلترا ومصر ، عين عام ١٩١٩ استاذا بمدرسة الحقوق ، غير انه فصل من هذه الوظيفة في أغسطس عام ١٩٢١ بعد حالته إلى مجلس تأديب بتهمة الاشتراك في إقامة مأدبة لزغلول باشا ، ارسله زغلول إلى لندن للدعاية أثناء مفاوضات عدلى ، استقبل استقبلا شعبيا لدى عودته ، وكان زغلول نفسه على رأس مستقبله لدى وصوله إلى محطة مصر ، نفى مع زغلول إلى جزيرة سيشل وعاد إلى مصر في يونيو ١٩٢٣ وفاز في الانتخابات التي جرت في السنة نفسها عن دائرة قنا بالتزكية ، اصطحبه زغلول في رحلته إلى لندن عام ١٩٢٤ أثناء المفاوضات مع ماكدونالد ، واعتقل في ٢٧ نوفمبر ١٩٢٤ بتهمة التحريض على اغتيال السردار ، نجح في دائرتين في انتخابات عام ١٩٢٦ ، انتخب سكرتيرا للوفد في أكتوبر ١٩٢٧ ، تزوج في نوفمبر ١٩٢٣ من السيدة عايدة ابنة مرقص حنا باشا ، عنيف ومتطرف في عدااته للبريطانيين ، ويعرف بين الزغلولين باسم (ابن سعد) حركاته المسرحية وفصاحته اللغوية تعطيه تأثيرا كبيرا على الطلاب والجمهير ، تولى وزارة المواصلات في وزارة النحاس في مارس ١٩٢٨ ، قام بحملة ناجحة ضد « محمد محمود » في انجلترا واستقبل استقبالا حافلا بعد عودته في سبتمبر ١٩٢٩ ، تولى وزارة المالية في وزارة النحاس التي تألفت في يناير ١٩٣٠ ، وفي يوليو وسبتمبر من السنة نفسها سافر إلى لندن للدعاية ضد وزارة صدقي ، أصبح وزيرا للمالية في وزارة النحاس في مايو ١٩٣٦ وحصل على لقب الباشوية ، كان عضوا في وفد المفاوضات المصرية للمعاهدة ، كان صديقا لصيقا للنحاس مما اكسبه تأييدا كبيرا في الوزارة وفي الوفد . . . وإلى هنا نتوقف في الملف رقم ٢٧ ملف « وليم مكرم عبيد » في السفارة البريطانية ونواصل نحن الكلام .

الوزارة والانقسام

في ٩ مايو ١٩٣٦ شكل مصطفى النحاس وزارته الثالثة وتولى مكرم وزارة المالية وفي أغسطس ١٩٣٦ عقدت المعاهدة ، وحاول الوفد دعم مركزه ازاء القصر وخاصة ان الملك فؤاد كان قد توفي في ٢٨ أبريل ، وفي يوليو ١٩٣٧ تولى فاروق سلطاته الدستورية وقدم النحاس استقالته وشكل وزارته الرابعة في أول أغسطس ١٩٣٧ التي بقى فيها مكرم عبيد وخرج منها « صفوت والنقراشى وغالب » وقد سبق هذا صراع بين مكرم عبيد وعثمان محرم من جهة يسانداهما مصطفى النحاس وبين النقراشى وصفوت وغالب من جهة أخرى يسانداهم أحمد ماهر رئيس مجلس النواب ، ويدعمهم على ماهر رئيس الديوان الملكي والشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر في محاولة

للاستيلاء على الوفد من الداخل وإن يشكل « أحمد ماهر » الوزارة بدلا من النحاس باشا ، والمحليون السياسيون الذين يرصدون التحولات الجديدة بعد المعاهدة ، ونمو الاتجاه الرأسمالي ونهاية بريق الصراع الوطنى ، لا يغفلون الصراع القديم بين أحمد ماهر والنقراشى من جهة وبين « مكرم عبيد » من جهة أخرى حول منصب سكرتير الوفد بعد وفاة « سعد ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، واحساس ماهر والنقراشى بأن كليهما أحق بهذا المنصب ، وخاصة انهما اسبق فى النضال فى صفوف الوفد من مكرم ، ولكن النحاس باشا ساند اختيار « مكرم عبيد » سكرتيرا عاما للوفد .

على اية حال اقيمت وزارة الانقسام فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ وبعدها تشكل حزب الهيئة السعدية بزعامة ماهر ومعه النقراشى وصفوت وغالب وعبد الهادى وحامد محمود ومجموعة هامة من أعضاء الهيئة الوفدية ومن الشباب .

وإذا كانت وزارة النحاس باشا الرابعة أول أغسطس ٢٧ - ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ قد وقع فيها من الناحية الفعلية انقسام ماهر والنقراشى وكان مكرم هذه المرة هو الذى قال (لو بدا لمكرم أن يفصل عن النحاس فليذهب مكرم ويبقى النحاس) جاءت وزارة مصطفى النحاس الخامسة (٤ فبراير - ٢٦ مايو سنة ١٩٤٢) ويخرج مكرم ويبقى النحاس أيضا ، ويشكل مكرم حزب الكتلة الوفدية المستقلة ، ويصدر جريدة الكتلة وكما استقالت وزارة النحاس الثالثة فى ٢٩ يوليو ١٩٣٧ ليؤلف النحاس الوزارة الرابعة فى أول أغسطس ١٩٣٧ ليخرج منها النقراشى ، استقالت وزارة النحاس الخامسة فى ٢٦ مايو ١٩٤٢ ليؤلف النحاس وزارته السادسة ويخرج منها مكرم عبيد .

الوزارة المأساة

فى ١٢ يوليو ١٩٤٢ اصدرت الهيئة الوفدية قرارها بفصل مكرم عبيد من عضويتها وبعد ذلك فصل من موقعه كسكرتير للوفد ، وفى ٣١ مارس ١٩٤٣ قدم العريضة للملك وفى اليوم نفسه تم توزيع الكتاب الأسود وصدر قرار باعتقال مكرم عبيد وعدد من أعوانه ووقع الملك فى ١٧ أبريل ١٩٤٤ قرارا بأن يشكل أحمد حسنين الوزارة ولكن هذا القرار لم يتمكن القصر من تنفيذه ووضع فى الإدراج إلى أن اقال الملك وزارة النحاس باشا فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، واسند رئاسة الوزارة إلى أحمد ماهر الصديق للدود لمكرم عبيد واسرع على أمين بقرار الافراج عن مكرم عبيد وقرار توليه وزارة المالية ، واذا كنا اطلقنا على وزارة (٤ فبراير ١٩٤٢) وزارة الانقسام ، فان وزارة ٨ أكتوبر ١٩٤٤ هى وزارة المأساة ، لأن الرجل ظن أنه صاحب الدور الأكبر فى اقالة وزارة النحاس باشا ، وهاهو يجد نفسه مجرد وزير فى وزارة يرأسها (عدوه) أحمد ماهر ويقوم بدور كبير فيها (عدوه)

عمود فهمى النقراشى ، وهنا أغرق « الرجل » فى انحيازه للقصر ، وبالغ فى مديحه للملك ، واصر القصر على تخصيص عدد من المقاعد لحزب الكتلة يساوى عدد المقاعد المخصصة لكل حزب آخر مشارك فى الوزارة إلا أن الكتلة فى الانتخابات حصلت على ٢٩ مقعدا فقط من مقاعد مجلس النواب وهى ٢٦٤ مقعدا فى انتخابات عام ١٩٤٥ ، وطلب مكرم أن تحقق الوزارة فى وقائع الكتاب الأسود وامر أحمد ماهر بالتحقيق فى بعض الوقائع الهامة وثبتت براءة الذين وجهت ضدهم الاتهامات ، ثم اهتمت الوزارة الكتاب الأسود برمته ، وفى تقديرى أن مكرم باشا أدرك فى تلك الفترة ان الكتلة الوفدية لم تصبح بديلا عن الوفد ، وأنه كان كبيرا بالحزب العتيق الذى شارك فى بنائه وتصدى لأعدائه ولكل المنشقين عليه ، وأنه عندما كان سكرتيرا للحزب التاريخى تصدى لحمد الباسل والغرابى والسبعة ونصف وتصدى لأحمد ماهر وها هو الآن مرعوس لأحمد ماهر ، وتصدى للعقاد ، وها هو الآن يطلب من العقاد ان يكتب مقدمة (المكرميات) لأحمد قاسم جوده ، أو أن يتطوع العقاد بكتابة المقدمة ويمتدح مكرم باشا بعد ان هاجمه .

وبعد الانتخابات التى حصل فيها السعديون على ١٢٥ نائبا والدستوريون ٧٤ نائبا والكتلة الوفدية ٢٩ نائبا والحزب الوطنى سبعة نواب ، والمستقلون ٢٩ نائبا . . قدم « أحمد ماهر » استقالته ليشكل وزارة جديدة وهو منتفخ الأوداج على شركائه ، وانتهت الوزارة الجديدة باغتيال «أحمد ماهر» مساء السبت ٢٤ فبراير ١٩٤٥ ليشكل محمود فهمى النقراشى وزارته الأولى فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ - ١٥ فبراير ١٩٤٦ ، وكان الصراع القديم هو فى الأساس بين مكرم والنقراشى وانفجر الخلاف داخل الوزارة وفى ١٤ فبراير ١٩٤٦ استقال مكرم عبيد ووزراء الكتلة الوفدية فأناهار الانقلاب الوزارى ، وقدم النقراشى استقالة الوزارة فى ١٥ فبراير ليشكل إسماعيل صدقى وزارة جديدة فى ١٦ فبراير ١٩٤٦ وكانت وزارة النقراشى (فبراير ١٩٤٥ - فبراير ١٩٤٦) هى آخر عهد « مكرم عبيد » بالاشتراك فى اية وزارة حتى توفى فى (٥ يونيو ١٩٦١) عن ٧٢ عاما قضى منها أربعين سنة كاملة يحقق قلبه بحب سعد زغلول ويخلصا لمبادئ الوفد .

وفدى حتى النهاية

فى ٢٣ أغسطس ١٩٥٣ كان « مكرم عبيد » يحتفل بذكرى وفاة سعد زغلول بميدان باب الحديد ، وأثناء حديث مكرم عن سعد والوفد هتف أحد الضباط. «كلنا هيئة التحرير» وكانت الاحزاب قد حلت ، والقيادة تحاول أن ينضم الجميع إلى (التنظيم الواحد) وهنا ادرك « مكرم عبيد » بخبرته الكامنة أن تاريخه هو سلاحه أمام النظام الجديد فعاد إلى تاريخه المجيد وقال

بحسب . . (اسمع يا بنى . . أنا مكرم عبيد . . ولدت وفديا . . وعشت وفديا . . وسأموت وفديا . .)

ويلاحظ انه بعد ١٤ فبراير ١٩٤٦ ، يوم خروج مكرم والكتلة الوفدية من وزارة النقراشى الأولى بدأت حدة التوتر تخف بين أعضاء الكتلة الوفدية ، وبين زملائهم السابقين في الوفد ، وحدث نوع من التنسيق بين شباب الكتلة والوفد لأنهم في الأصل أبناء حزب واحد ، ويخلصون لمبادئ سياسة واحدة وبدأنا نقرأ في عمود الرئيس الجليل وخاصة منذ يناير ١٩٤٨ ان مصطفى النحاس بعث بمندوب أو برسالة للسؤال عن صحة مكرم عبيد إذا ألم به أى مرض .

والحزب الذى شكله الانقسام الرابع ونعنى به الكتلة الوفدية المستقلة حرص مكرم على كلمة الوفدية على غير رغبة عدد من معاونيه .

وهكذا دخل حياتنا الحزبية اسم (حزب الكتلة الوفدية) وجريدة (الكتلة) التى دامت قرابة الخمس سنوات من ١٩٤٤ - ١٩٤٩ ، وان كان الحزب قد بدأ مغاليا في الانحياز للملك فقد عدل مساره بعد ذلك . . وبدأنا نسمع عبارات مكرم عبيد حسب أسلوبه الخاص به . . الميث الحى في قبره مشيرا لسعد زغلول ، والحى الميث في قصره - مشيرا للملك فاروق - ووضعت الكتلة البرنامج الأول سنة ١٩٤٥ وأدخلت عليه بعض التعديلات سنتى ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ . وفى منتصف ليلة ٣١ يوليو ١٩٥٢ اذاع محمد نجيب بيانا دعا فيه الأحزاب والهيئات إلى تطهير نفسها وان تعلن برامجها ، وفى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ صدر قانون تنظيم الأحزاب ، الذى أثبتت الأحداث فيما بعد أن المقصود به هو ضرب (الوفد) أساسا وعدم الرغبة في قيام احزاب ، وللتاريخ فقد وقعت أقسام كثيرة من الأحزاب في المصيدة وفى مقدمتها العناصر اليسارية في شباب الوفد ، وهذه قصة أخرى يمكن أن نعالجها في بحث مستقل ، وكذلك مكرم عبيد الذى ظن أنها فرصة لتواجد الكتلة على الساحة فكتب مقدمة بلاغية لبرنامج الكتلة تحدث فيها عن التطهير والتحرير ، وانتهت هذه اللعبة كلها في ١٦ يناير ١٩٥٣ بقرار حل الأحزاب ومصادرة أموالها (باستثناء الإخوان المسلمين) .

أما جريدة (الكتلة) فبعيدا عن المقالات الاستعراضية والحزبية ، فقد فتحت أبوابها لعدد من الشباب المثقف الذى عرف بفكره التقدمى ، وشاركت الكتلة صحف الوفد في المطالبة بالجللاء والحريات والعدل الاجتماعى ، والهجوم على مفاوضات صدقى - بيفن ، وشددت الحملة ضد بريطانيا بعد رفع دعوى مصر أمام مجلس الأمن في ١٧ يونيو ١٩٤٧ .

وتمضى الأيام ، وفى ٥ يونيو ١٩٦١ يرحل ابن سعد المجاهد الكبير ، سكرتير الوفد ، « مكرم

عبيد ، مودعا ببرقية حزينة باكية من صديق عمره ، رفيق جهاده ، زعيمه الطيب مصطفى النحاس الذى اراد له « عبد الناصر » ألا يغادر بيته ، والذى أرسل « أنور السادات » نيابة عنه ، ورحم الله الجميع . .

الأسانيد :

- ١ - جلال الدين الحمامسى . . حوار وزراء الأسوار .
- ٢ - طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .
- ٣ - د . عبد العظيم رمضان . . تطور الحركة الوطنية في مصر .
- ٤ - فخرى عبد النور . . مذكرات .
- ٥ - د . لطيفة سالم . . الصحافة والحركة الوطنية .
- ٦ - د . محمود متولى . . الحياة الحزبية قبل ١٩٥٢ .
- ٧ - د . يونان لبيب رزق . . الوفد والكتاب الأسود .

الدكتور نجيب محفوظ



في الفترة الأخيرة كنت مستغرقا في القراءة عن كاتب مصر العظيم « نجيب محفوظ » بمناسبة حصوله على جائزة نوبل في ١٣ أكتوبر ١٩٨٨ . وكان أمامي كم هائل من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات والأخبار ، وذلك لأعد (بانوراما ثقافية) عن هذا الكاتب الكبير . واستوقفتني عبارة حول مولده يوم ١١ ديسمبر من سنة ١٩١١ بالقاهرة . الولادة تعسرت وأشار الأهل والجيران باستدعاء طبيب النساء والولادة « الدكتور نجيب محفوظ » . وتمت الولادة بفضل الله على خير . وفي الصباح توجه « إبراهيم عبد العزيز الباشا » إلى مكتب الصحة ، وفي خانة اسم المولود كتب « نجيب محفوظ » وهكذا أصبح اسم أدينا الكبير « نجيب محفوظ إبراهيم عبد العزيز الباشا » .

وأسرعت إلى السيرة الذاتية التي كتبها « الدكتور نجيب محفوظ باشا » وأعطائها عنوان (حياة طبيب) وأسرعت أيضا إلى كتاب الصديق العزيز « الدكتور محمد الجوادى » الذى توفر في السنوات الأخيرة على تسجيل حياة وأعمال عدد من أشهر أطبائنا وعلمائنا أمثال « الدكتور محمد كامل حسين ، والدكتور على مصطفى مشرفة ، والدكتور على إبراهيم ، والدكتور سليمان عزمى » ثم كتابه عن « الدكتور نجيب محفوظ - رائد أطباء النساء والولادة » .

عدت إذن إلى قراءة جديدة في كتاب (حياة طبيب) ، وكتاب « الدكتور نجيب محفوظ - رائد أطباء النساء والولادة » . وفي هذه المرة اكتشفت شخصية مصرية لها أعلامها الجليلة على المستوى القومى ، من منطلق قومى ، وبسلوك قومى .

وأطيب كلمات الوفاء والتقدير التي قالها عنه « الدكتور إبراهيم شوفى باشا ، والدكتور إبراهيم المنياوى باشا ، والدكتور مجدى باشا ، والدكتور رشدى إسماعيل ، والدكتور مصطفى بك فهمى

سرور ، والدكتور محمود فاضل سليم ، والدكتور محمود إسماعيل ، والدكتور سليمان عزمى باشا . وقد حفظت هذه الكلمات الطيبات فى كتاب (الدكتور نجيب محفوظ كما نعرفه) . وأشاد بقدره « الأستاذ أحمد الصاوى محمد » فى زاويته المشهورة (مائل ودل) . وكتب عنه أدينا الكبير « يحيى حقى » . أما « الأستاذ صلاح جلال » فقد كتب عنه بعنوان (نجيب محفوظ يساوى ونستون تشرشل وفلمنج مكتشف البنسلين) . وكتب عنه « على أمين » فى عموده (فكرة) ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم سنة ١٩٦٠ .

أعماله العلمية

باللغة العربية والانجليزية والفرنسية أصدر كتباً ودراسات ومحاضرات وتخرج على يديه تلاميذ نوابغ . باللغة العربية صدر له فن الولادة ، وأمراض النساء ، ومبادئ أمراض النساء ، والثقافة الطبية والطب النسوى عند العرب .

وبلغات أجنبية صدر له أكثر من ٣٠ كتاباً وبحثاً قد لايم القارئ العادى معرفتها تفصيلاً لأنها شديدة التخصص ويعرفها من لديهم ثقافة طبية عامة أو خاصة . ويكفى هنا أن نشير إلى أهمها تسجيلاً لها وإتماماً للفائدة . . كتب عن : (النزف قبل الولادة ، والجراحات التى ابتكرها لعلاج النوايسر البولية ، وطريقة محفوظ فى وصل المثانة بقناة مجرى البول ، والنوايسر البولية عند النساء ، والحمل خارج الرحم ، وأسلوب محفوظ الجراحى فى علاج النوايسر بين العنق والرحم ، وأسباب سقوط الأعضاء التناسلية عند النساء ، وعلاج تمزق الرحم أثناء الولادة ، والأورام الخبيثة للأعضاء الحوضية ، وعلاج الحمى النفاسية ، والأورام والأكياس المبيضية ، وتاريخ الولادة وأمراض النساء من أقدم العصور إلى اليوم ، والتخدير النصفى فى الولادة وأمراض النساء والعملية القيصرية . .) وغيرها دراسات وبحوث كثيرة تكشف عن ريادة هذا الطبيب المصرى فى مجال أمراض النساء وفى الولادة .

وبالاشتراك مع « الدكتور أنيس أنسى » كتب (أمراض الرحم الخبيثة) . وبالاشتراك مع « الدكتور محمود إسماعيل » كتب عن (السرطان السلائى) . وبالاشتراك مع « الدكتور مجدى » كتب عن (أورام الرحم الليفية) .

وهكذا عديد من البحوث والدراسات والكتب وضعت هذا الطبيب العالم فى مصاف الأطباء العالمين . أما عمله الكبير فهو (الأطلس) الذى بلغت صفحاته ١٥٠٠ صفحة قال عنه « كومنز باركلى » أستاذ أمراض النساء والولادة فى العالم (لم يظهر فى كتب الولادة وأمراض النساء مثيل

يعادله) . وقام « الدكتور نجيب محفوظ » بطبع هذا العمل الكبير بسبع لغات هي : العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والإيطالية والأسبانية . . وأمراض النساء في العالم واعتبروه مرجعا عالميا فريدا في هذا المجال . والعمل الذى يضارع أطلس محفوظ هو (متحف محفوظ) والذى بدأ العمل فيه بتحضير نماذج أو عينات بعيادته الخاصة ، واشترى (البرطمانات) الزجاجية الخاصة له من فرنسا . ثم نقل هذه (البرطمانات) بالعينات الموجودة بها إلى مدرسة الطب ليدرس عليها الطلاب . وبمناسبة مرور مائة سنة على تأسيس مدرسة الطب ، أقيم مؤتمر طبي بالقاهرة سنة ١٩٢٩ قرر مدير مدرسة الطب تخصيص مكان لحفظ هذه النماذج ويكون نواة لمتحف خاص بأمراض النساء والولادة . وسنة ١٩٣٠ عند انشاء كلية الطب بجامعة فؤاد الأول قدم « الدكتور نجيب محفوظ » هذا المتحف هدية للكلية الجديدة . وفي الأربعينات قامت كلية الطب باعداد تصميم خاص بهذا المتحف العلمى الهام .

هذا الطبيب المصرى الذى طبقت شهرته الآفاق والذى كان واحدا من جيل الأطباء العظام الذين أعطوا مصر وأعطتهم مصر . ما حكايته ؟ وما قصة حياته ؟

البداية

والده من تجار القطن بمدينة المنصورة ، الحال ميسور والحمد لله ، وأقام الوالد مع زوجته في بيت يطل على النيل أجمل بقاع تلك المدينة الجميلة . وقبل عيد الميلاد بيومين ، يوم ٥ يناير ١٨٨٢ والأسرة الصغيرة السعيدة تتأهب للاحتفال بالعيد ، وسبعة أطفال صغار يلهون ويلعبون . . كانت الأم في المخاض . وجاء الطبيب والمولدة وخرج من بطن الأم مولود ضعيف لا حركة له ولا تنفس . وفي هذا البرد القارس تركوا هذا المولود وانصرفوا إلى الأم . . اعتقد الجميع أن المولود قد مات . ولكن الله قدر له الحياة لأنه كان يدخره لعمل عظيم . وقدر له أن يتجاوز التسعين إذ أنه توفي عام ١٩٧٢ .

التحق بمدرسة الأمريكان بالمنصورة ، وانتقل منها إلى (المدرسة الأميرية الابتدائية) وكان ناظرها « أحمد بك نجيب » ومدرس اللغة العربية « الشيخ محمد المهدي » وتوسعا في الصبى نبوغا باكرا فتعهداه بالعناية والرعاية حتى حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٨٩٥ . وتأتى الرياح بما لا تشتهي السفن ، فقد توفي الوالد ولحقت به الأم وتولى شئون الأولاد نفر من الأقارب أكلوا أموال اليتامى فقطع الابن الأكبر دراسته وعمل بمرتب صغير في وزارة الأشغال ليعول اخوته . وأحضر هذا الموظف الشاب أخاه «نجيب» ليقم معه في شارع الفجالة ويلتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية، وكان «نجيب» يجيد اللغات الانجليزية والفرنسية والعربية فعنى به اساتذة اللغة

الانجليزية والفرنسية و « الشيخ حامد موسى » مدرس اللغة العربية . وتقدم « نجيب » إلى امتحان البكالوريا قبل موعدها بستين ، وحصل عليها (عام ١٨٩٨) وجاء ترتيبه التاسع عشر على مستوى القطر . . ولكن مفاجأة لم تكن في الحسبان . . أمر ناظر المعارف بعرض أوراق الأوائل على الجمهور في احتفال لتكريمهم . . وتقع المفاجأة ، ويكتشف المستولون أن خطأ غير مقصود حدث في جمع درجات الطالب « نجيب محفوظ » ويعاد جمع الدرجات فلإذ به الأول على القطر !

وعام ١٨٩٨ يلتحق بمدرسة الطب وكان التعليم باللغة الانجليزية وقد التحق معه عشرون آخرون . وكان ناظر المدرسة هو « الدكتور إبراهيم باشا حسن » .

رواد الطب

سنة ١٨٩٨ دخل « نجيب » مدرسة الطب ، وكان « على إبراهيم » الدكتور على باشا إبراهيم الطبيب العظيم فيما بعد ، كان سابقا عليه بسنة دراسية ، أما زملاء « نجيب » فمنهم « أحمد حلمى » الدكتور أحمد حلمى باشا فيما بعد ، و « حافظ زكى » الدكتور حافظ زكى بك فيما بعد ، و « محمد زكى » الدكتور محمد زكى بك فيما بعد . كانت الدراسة أربع سنوات وحدث عام ١٩٠٢ وهم في السنة النهائية ، ويتأهبون للامتحان أن ظهر وباء الكوليرا في بلدة (موشا) . وبلدة موشا كما يعرف القارئ إحدى قرى « مركز أسيوط بمديرية أسيوط ، وهى بلدة « سيد قطب » أحد قادة الإخوان المسلمين في الستينات . وحدث أن توفى طبيب بلدة موشا لاصابته بالكوليرا وفورا تطوع « نجيب محفوظ » للعمل في بلدة موشا لمكافحة الكوليرا في موقعها ، وكان قد تخرج منذ شهر واحد . ثم نقل إلى مستشفى السويس لفحص القادمين إلى مصر من الهند والحجاز ، وبعدها تقرر نقله إلى كلية الطب وحل محله بالسويس « الدكتور سليمان عزمى » الذى تخرج بعد « محفوظ » بأربع سنوات .

ويروى « محفوظ » من ذكرياته أنه حدث عندما كان يكافح الكوليرا عام ١٩٠٢ أن طلبه وكيل المستشفى الأميرى ليصاحبه في حالة ولادة متعسرة ، وكانت مهمته أن يقوم بتخدير المريضة ، وأن يقوم وكيل المستشفى وأحد مساعديه بتوليد السيدة . . وحدثت كارثة فقد انفصل رأس المولود داخل الرحم وبقي جسد الطفل في أيدي الوكيل ومساعدته . وتركت هذه الحادثة أثرها على نفسية « محفوظ » ولم ينم ليلتين . . وعند ذاك قرر محفوظ أن ينذر نفسه لدراسة الولادة والعناية بالولادة المتعسرة . وبعد أن قضى سنة الامتياز في مستشفى السويس كما جرت العادة وقت ذاك أن تكون سنة الامتياز خارج قصر العيني ، قام الطبيب الأجنبى المشرف على المستشفى باهداء « دكتور

محفوظ « عددًا من الكتب الخاصة بأمراض النساء والولادة . ثم أخذ طريقه كطبيب للتخدير في مستشفى قصر العيني . واقترح انشاء عيادة خارجية بمستشفى القصر في الصباح لمريضات النساء والولادة وتولى هو أمر هذه العيادة . وبعد نجاح الفكرة تم تأسيس قسم داخلي به عشرة أسرة للولادة وأمراض النساء يتولاه طبيبان أجنبيان وتقرر أن يساعدهما « دكتور نجيب محفوظ » إلى جانب عمله كطبيب تخدير . وفي تقرير علمي عن العمل بهذا القسم خلال سنتين من ٣ - ١٩٠٥ تم اجراء ٣٢٠ عملية ، قام « دكتور محفوظ » باجراء ٢٠٠ منها كلها انتهت بنجاح . توفيق من الله لا شك في هذا . وظل يعمل هكذا مساعدا لرؤساء القسم الأجانب إلى أن نشبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ وانشغل الأطباء الأجانب في العمليات الحربية فتولى هو الإشراف على القسم .

وعام ١٩١٩ عاد من (دبلن) طبيب شاب هو « حافظ عفيفي » - الدكتور حافظ عفيفي باشا رئيس الديوان الملكي فيما بعد ، وكان تخصصه في أمراض النساء والولادة ، وأنشأ (جمعية رعاية الأطفال) و(مستشفى للولادة) بالدرب الأحمر ، بها قسم للتوليد الخارجى . وساعد هذا العمل في أن تنشئ (لادى كرومر) قسما للتوليد الخارجى أشرف عليه الدكتور محفوظ . ووضع أساس مدرسة الموليدات والممرضات ، واهتم بوضع البرامج الدراسية لها ، وقام بالتدريس فيها ، وهى المدرسة التى قامت بتخريج فئة ممتازة من الموليدات . ووضع هذه المدرسة كتابين في (فن التمريض) .

وسادت الروح القومية المؤسسات الطبية فاختر « الدكتور نجيب محفوظ » عضوا في المجلس الأعلى لجمعية الهلال الأحمر ، وتولى رئاستها في إحدى الفترات ، وكان عضوا في مجلس إدارة (جمعية رعاية الأطفال) وعضوا في (مجلس إدارة مستشفى شبرا الخيرية) أما دوره في انشاء المستشفى القبطى فهو دور قومى ونموذج ينبغى أن يحتذى . وقد شاركه هذه الروح وهذه الجهود «الدكتور إبراهيم فهمى المنياوى باشا ، والدكتور اسكندر فهمى جرجاوى » ، وقد قامت الجمعية الخيرية القبطية برياسة «جرجس انطون باشا » بدور كبير في انشاء هذا المستشفى على أن تكون له الصفة القومية . وقد ظل هذا الصرح الكبير هكذا منذ افتتاحه سنة ١٩٢٦ حتى اليوم ، وهو الآن أحد مستشفيات المؤسسة العلاجية بالقاهرة .

تقدير الوطن

ولم يخل الوطن على أحد ابنائه المخلصين الذين يبذلون في صمت . حصل « نجيب محفوظ » على الأستاذية عام ١٩٢٩ ، ورقى إلى درجة مدير عام سنة ١٩٣٩ . وعندما أحيل إلى التقاعد

عام ١٩٤٢ (مواليد ١٨٨٢) صدر قرار بمد خدمته خمس سنوات . ونال نيشان النيل عام ١٩١٩ ، والبكوية سنة ١٩٣٠ والباشوية سنة ١٩٣٧ . وأصدر عنه زملاؤه وتلاميذه كتابا كما أشرنا بعنوان (الدكتور نجيب محفوظ كما نعرفه) . ورشحته ثلاث هيئات علمية هي الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، والاتحاد العلمى المصرى ، وكلية طب قصر العينى رشحته لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم التى حصل عليها عام ١٩٦٠ ، ويومها ألقى كلمة الفائزين أمام الرئيس الراحل « جمال عبد الناصر » . وعام ١٩٧٩ وفى احتفال نقابة الأطباء بيوم الطبيب المصرى أهدى الرئيس الراحل « محمد أنور السادات » قلادة الجمهورية لاسمى المرحومين . . الدكتور على إبراهيم باشا والدكتور نجيب محفوظ باشا . . وسلام على هذا الجيل العظيم من الرواد الأطباء . . الدكتور على إبراهيم باشا . . وعلى جيل رواد أطباء الولادة وأمراض النساء . . الدكتور نجيب محفوظ باشا ، والدكتور أحمد شفيق باشا ، والدكتور مجدى باشا ، والدكتور محمود إسماعيل بك . . وسلام على كل العاملين المخلصين لرفعة هذا البلد الأمين .

الأسانيد :

- ١ - د . إبراهيم شوقى باشا وآخرون . . الدكتور نجيب محفوظ كما نعرفه .
- ٢ - د . محمد محمد الجوادى . . الدكتور نجيب محفوظ رائد أطباء النساء والولادة .
- ٣ - د . نجيب محفوظ . . حياة طبيب .
- ٤ - د . مهندس يوسف سمكة . . الدكتور نجيب محفوظ طبيب امراض النساء والولادة .

واصف بطرس غالى



سيادة المفضل إسماعيل صبرى باشا .

قيل إن الشعراء انبياء اذ هم ساسة الأفكار ، وقادة الشعوب ، فعسى ان يتبعك شعب مصر فتسلك به مسلك الحق والشرف ، والآن يجب على كل عضو من أعضاء العائلة المصرية ، ان يعمل لما فيه التوفيق بين جميع العناصر ، وقد رفعت صوتى الضعيف مناديا بالاتحاد والوثام ، على انى لست ذلك الرجل الذى فى استطاعته ان يبذر السكينة والوفاق لتثبت شجرة المجد والصفاء ، فتثمر ثمار العز والمجد للبلاد ، ولعمرى ان صوتك هو المسموع المجاب .

وتنشيطا للذاكرة ، ننظر قليلا داخل رسالة « واصف بطرس غالى » إلى « المفضل إسماعيل باشا » شيخ الشعراء (١٨٥٤ - ١٩٢٣) وتعلم فى مدرسة الإدارة والألسن ، ونال شهادة اللسانس فى الحقوق من فرنسا ١٨٧٨ وكان أول مصرى يتولى منصب النائب العام لدى المحاكم الأهلية سنة ١٨٩٥ ثم عين محافظا للإسكندرية ١٨٩٦ فوكيلا لنظارة الحقانية ١٨٩٩ وكان على علاقة طيبة بالزعيم « مصطفى كامل » . وتوفى على اثر ذبحة صدرية سنة ١٩٢٣ .

ورثاه حافظ إبراهيم ، وأحمد شوقى و خليل مطران ، وكان من دعاة الاستقلال والوحدة الوطنية .

وكان شيخ الشعراء « إسماعيل صبرى ، صديقا لبطرس غالى » فى ٢٠ فبراير ١٩١٠ رثاه « إسماعيل صبرى » بقصيدة دلت على سماحة وروح وطنية عالية ، وفى محاولة لتطويق اثار الحادث كان لواصل بطرس غالى موقف يدل على وعى وطنى وأعلن ان اغتيال والده حادث فردى ولأسباب سياسية وليس لأسباب طائفية

ولكن اغتيال « بطرس غالى » القى بظلاله الكثيفة السوداء على العلاقة بين المسلمين والأقباط ، وبدأت نيران الفتنة تشتعل ، وسعى أهل الشر فيها سعيهم . . ودعا بعض الأقباط إلى عقد المؤتمر القبطى ، ودعا بعض المسلمين إلى عقد المؤتمر المصرى (الإسلامى) فى إبريل ١٩١١ ، ويقول « طارق البشرى » فى كتابه (المسلمون والأقباط ص ٦٩) . . بدأ الأمر بفكرة عقد المؤتمر القبطى قبل اغتيال « بطرس غالى » وكان « وهو رئيس للوزراء » ممن وقفوا ضد تحقيقها فجاء مقتله محرّضا الدعاة على عقد المؤتمر ، أى ان « بطرس غالى » عندما كان رئيسا للوزراء كان ضد فكرة عقد (المؤتمر القبطى) ولكن اغتياله اثار الفكرة من جديد ، وهكذا فان « واصف غالى » استنادا إلى موقف والده فى رفض فكرة المؤتمر ، لم يجد انعقاد المؤتمر ، كما عارض المؤتمر وقاطعه « ويصا واصف » بتأثيرهما على العناصر المعتدلة أمثال « بشرى حنا وسينوت حنا ونصيف جندى المتقبادى ، وزكى خير الابوتيجى » أمكن احتواء الاتجاهات المتطرفة التى تمثلت فى « اخنوخ فانوس » الذى حاول ان يرأس المؤتمر فاعترض الأقباط كما اعترضوا على (الحزب المصرى) الذى دعا إليه اخنوخ من قبل سنة ١٩٠٨ .

على اية حال فقد اثبتت (الجماعة الوطنية المصرية) مدى قدرتها على احتواء هذا النوع من الخلاف رغم حساسيته بفضل العناصر بعيدة النظر واضحة الرؤية من الجانبين .

لذلك نراه لايجذب فكرة مؤتمر أسيوط ويلجأ إلى صديقه وصديق والده « شيخ الشعراء » إسماعيل صبرى ليبدّر بذور السكينة والوفاق لتثبت شجرة المجد والصفاء ، وكان من أثر ذلك أن وجه « إسماعيل صبرى » قصيدة عصماء داعيا إلى التخفيف من حدة العواطف ، مستنكرا جريمة الاغتيال ، ومناشدا الجميع التمسك بعروة المحبة والأخاء والوحدة .

هذا هو واصف غالى

وهذا هو « واصف بطرس غالى » ابن بطرس غالى باشا رئيس النظار (١٩٠٨ - ١٩١٠) و«بطرس باشا غالى» ولد فى إحدى قرى مديرية بنى سويف ١٨٤٦ - واغتيل فى القاهرة ١٩١٠ ، والأسرة من مديرية بنى سويف . . وواصف هو الابن الثانى لـ «بطرس باشا غالى» وهو عم الوزير الدكتور « بطرس غالى حفيد بطرس باشا غالى » الأمين العام للأمم المتحدة حالياً .

واصف بطرس غالى ولد فى القاهرة ، فى ١٤ أبريل ١٨٧٨ فى الفجالة ، وبعد ان انهى مرحلة الدراسة الثانوية سافر إلى فرنسا لينجز دراساته فى القانون ، وبعد عودته من باريس عمل بالمحاماة ، وعينه الخديو « عباس حلمى الثانى » محررا فى (الخاصة الخديوية) عام ١٩٠٦ دون علم والده « بطرس غالى » ، وتعرف وهو فى فرنسا إلى « لويز ماجوريل » وبعد عامين من الخطبة

اصبحت زوجة له وعاونته على ان يقدم روائحه فى الأدب والنقد بالفرنسية .

وسنة ١٩١١ ترك « واصف غالى » العمل فى الخاصة الخديوية وظهرت له أعمال أدبية اشار لها « الأستاذ رءوف كامل » فى كتابه « واصف غالى - الكاتب » وهو كتاب باللغة الفرنسية لم يترجم بعد ، وبالكتاب نماذج لقصص قصيرة ، وقد قام « واصف غالى » بترجمة بعض الشعر العربى إلى اللغة الفرنسية فى كتاب بعنوان (روض الأزهار) ، ونشر هذا الكتاب فى باريس وألقى محاضرات للاشادة بفضل العرب على الثقافة الأوروبية فاقم له حفل تكريم فى فندق شبرد سنة ١٩١٤ القى فيه « إسماعيل صبرى » قصيدة يشيد فيها بما قام به « واصف بطرس غالى » من عمل ادبى فى فرنسا ومن القاء المحاضرات الأدبية باللغة الفرنسية عن التراث العربى ، وما اغدقه العرب على الثقافة والأدب ، وترجمته لديوان البحرى إلى اللغة الفرنسية بأسلوب ممتاز .

وإذا كان نشاطه الأدبى قد بدأ وانتشر فى فرنسا فان الصحافة المصرية قد عرفتة كاتباً بمقالاته خاصة بين عامى ١٩٠٨ - ١٩١٢ . وكان يحب قراءة الشعر العربى ، كما ان رسالته التى يحتفظ بها الأقارب والأصدقاء سواء باللغة العربية أو باللغة الفرنسية تعد من القطع الأدبية .

ارتفع « واصف غالى » على جراحه الشخصية فى مقتل والده « بطرس غالى » ودعا إلى وحدة الأمة وحاول جاهداً أن يسير (مؤتمراً أسيوط) فى اتجاه يخدم هذه الوحدة ، وفى أعماله الأدبية ومحاضراته باللغة العربية عمل على تعريف الفرنسيين بالشعر العربى ، وبالثقافة العربية ، وعرفته الصحافة المصرية بمقالاته ذات الاتجاه القومى . . فكان من الطبيعى ان يكون « واصف بطرس غالى » هو أول قبطى ينضم إلى الوفد المصرى .

ويسجل « فخرى عبد النور » فى مذكراته ان المجالس فى القاهرة كانت تتحدث عن اجتماعات سعد زغلول وعلى فهمى مع المعتمد البريطانى « السير ريجنلد ونجت » يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ١٩١٣ .

ولاحظ الأقباط ان أسماء أعضاء الوفد التى ذكرت بعروض التوكيلات ليس بينها اسم أحد من الأقباط ، وقرروا انتداب ثلاثة من الأقباط للذهاب إلى سعد باشا وعرض هذا الموضوع عليه ، واختير « وىسا واصف المحامى ، وتوفيق اندراوس من أعيان الأقصر ، وفخرى عبد النور من أعيان جرجا » ، ذهب الثلاثة إلى بيت الأمة وكان فى استقبالهم « محمد على علوبة بك » عضو الجمعية التشريعية ، وكان هناك « إبراهيم سعيد باشا ومحمد علوى الجزار بك » وكان « سعد باشا » فى اجتماع خارج الدار لمجلس إدارة الجامعة المصرية ، ثم حضر « سعد باشا » وقابل المندوبين الأقباط الثلاثة وحضر المقابلة « على شعراوى ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد ومحمد على علوبة ومحمود أبو النصر » من أعضاء الوفد .

وظن « سعد باشا » انهم جاءوا لترشيح « ويصا واصف » فاعرب عن اغتباطه بهذا الترشيح ، إلا أن الأستاذ « ويصا » اعتذر ، وابلغوا « سعد باشا » ان المثقفين والوجهاء من الأقباط يرون ان الشخص (الحائز للصفات الكاملة المؤهلة) لعضوية الوفد هو « واصف بطرس غالى » ثانى ابناء « بطرس غالى باشا » فاغتبط « سعد باشا » لهذا الاختيار واعرب عن ثقته وتقديره لعلمه من مجلة فرنسية بها مقال لواصف غالى نشره بباريس سنة ١٩١٧ تحت عنوان (الشرق جدير بالاستقلال) .

واستقر رأى على ترشيح « واصف غالى » ، ولما كان موجودا إذ ذاك فى باريس حيث كان يقيم منذ قيام الحرب سنة ١٩١٤ ارسل له « ويصا واصف » تلغرافا بترشيحه منعه الرقابة العسكرية ثم بعث به الرقابة إلى السفارة الانجليزية بباريس التى قامت بتسليمه إليه ، وهكذا كان « واصف غالى » أول قبضى ينضم إلى الوفد المصرى .

ويوم الجمعة ١١ أبريل سنة ١٩١٩ سافر اعضاء الوفد فى مصر من ميناء بورسعيد قاصدين إلى فرنسا وهم « على شعراوى ، وعبد العزيز فهمى ، وأحمد لطفى السيد ، ومحمد على علوية ، وعبد اللطيف المكباتى ، وسينوت حنا ، وجورج خياط ، ومصطفى النحاس ، والدكتور حافظ عفيفى ، ومحمود أبو النصر ، وحسين واصف » ، وسافر مع الوفد « ويصا واصف » ، وعزيز منسى ، وجورج دومانى ، ومحمد بدر « مترجمين لتفوقهم فى اللغة الفرنسية ، وسافر أيضا « محمود أبو الفتح » مندوبا عن الأهرام ووادى النيل ، وصبيحة الثلاثاء ١٥ أبريل وصلت الباخرة مالطة حيث انضم إلى الوفد المسافر من مصر « سعد زغلول » والزعماء الذين اعتقلهم الانجليز يوم ٨ مارس وافرج عنهم ٨ أبريل ، ووصل الجميع إلى فرنسا يوم الجمعة ١٨ أبريل فانضم إلى الوفد هناك « واصف بطرس غالى » ومحمد الباسل وإسماعيل صدقى ومحمد محمود » .

صفحة مشرفة لواصف غالى مع الوفد فى أوروبا وقف مع رئيس الوفد « سعد زغلول » ضد المهادنة وضد دعاة الاعتدال ، هكذا كان فى جلسات الوفد كلها ، وهكذا كان فى المفاوضات بين الوفد وبين ملتر ، وعندما قدم « ملتر » مشروعه اتجه « سعد » إلى قطع المفاوضات والعودة إلى مصر . . ولكن الجناح المعتدل رأى أن يقابل « عدلى » المفاوضات الانجليزية لعله يصل إلى حد معقول ، وفى يوليو ١٩٢٠ عقد الوفد جلسة فى المساء ولم يحضر الجلسة « عدلى » لأول مرة ، واختار الوفد لجنة لدراسة مشروع ملتر ووضع ملاحظات عليه وتكونت هذه اللجنة من « عبد العزيز فهمى ، ولطفى السيد ، وعلى ماهر ، ومحمد علوية » .

ويعت (الوفد) بالمشروع النهائى إلى « ملتر » الذى كان قد وضعه فى ١٧ يوليو ١٩٢٠ . . وقال « سعد » لأعضاء الوفد : انتظرون بعد هذا نذيرا أو انذارا بقطع المفاوضات اصرخ من هذا واصرح ؟

وفي ٢٨ أكتوبر يسجل « محمد كامل سليم » إنه دخل عند الرئيس سعد وكان معه « واصف غالى » وسمع « سعد زغلول » يردد « انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء » .

والأعضاء الذين حرصوا على زيارة « سعد زغلول » يوميا هم « واصف غالى ، ومصطفى النحاس ، وعلى ماهر ، وويصا واصف ، والدكتور حافظ عفيفى » .

وفي يوم ٢٥ نوفمبر قال « محمد كامل سليم » للرئيس سعد زغلول رأيه فى أعضاء الوفد . . وعن « واصف غالى » قال . . (واصف غالى عندى - أقل الناس طمعا وأكثر الناس تواضعا ، ولا أعرف أكثر منه وداعة ورقة وأدبا وإخلاصا ، وهو إلى الفيلسوف أقرب منه إلى الرجل العادى) . . فسكت « سعد » وأطرق كعادته ، ثم قال : (واصف غالى متواضع فى كبرياء ، ساكن فى حركة ، شديد الحساسية ، قوى فى عاجز ، ماهر فى بساطة ، قليل الكلام كثير التفكير ، واسع الخيال ، بليغ القلم والبيان ، وعنده فى نفسه احسن رأى) .

ولقد وقف « واصف غالى » إلى جانب سعد حتى يوم العودة إلى أرض الوطن ، رحلة العودة التى بدأت من باريس ٢٩ مارس ١٩٢١ ، ووصلوا إلى تريسنا ٣٠ مارس وإلى الإسكندرية ٤ أبريل والقاهرة ٥ أبريل ١٩٢١ .

وزيرا للخارجية

قليلون هم الوزراء الذين انحصر نشاطهم فى وزارة معينة ، ومن هؤلاء « واصف بطرس غالى » الذى بدأ نشاطه الوزارى وزيرا للخارجية فى الوزارة الشعبية برئاسة « سعد زغلول » ٢٨ يناير - ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ ، وكان فى تلك الوزارة اثنان من (الأفندية) . . واصف بطرس غالى أفندى وزيرا للخارجية ، ومحمد نجيب الغربالى أفندى وزيرا للحقانية .

وفى الوزارة الائتلافية (١٦ مارس - ٢٥ يونيو ١٩٢٨) وهى الوزارة الأولى لمصطفى النحاس نجد أن « واصف بطرس غالى » قد حصل على لقب (باشا) وتولى وزارة الخارجية أيضا وكان « محمد محمود » وزيرا للمالية واستقال بتحريض من على ماهر حتى تستقيل وزارة النحاس ولكن القصر لم يصبر على الاستقالة فاقال الوزارة النحاسية الأولى .

وللمرة الثالثة يصبح وزيرا للخارجية فى وزارة « مصطفى النحاس » الثانية من أول يناير ١٩٣٠ - ١٩ يونيو ١٩٣٠ ، واهتمت تلك الوزارة بمواصلة المفاوضات بسبب الخلاف حول السودان وهى القضية التى فشلت بسببها المفاوضات المصرية الإنجليزية كلها قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فاستقالت الوزارة وجاء إسماعيل صدقى « ليؤجل اجتماعات البرلمان لمدة شهر ، ثم يحل البرلمان ويلغى دستور ١٩٢٣ ، ويضع دستورا جديدا .

أما المرة الرابعة التى تولى فيها « واصف غالى » وزارة الخارجية فقد كانت فى وزارة « مصطفى

النحاس « الثالثة من ٩ مايو ١٩٣٦ - ٣١ يوليو ١٩٣٧ وهى أول وزارة للنحاس باشا بعد وفاة « الملك فؤاد » وفى أواخر عهد هذه الوزارة تولى « الملك فاروق » فى ٢٩ يوليو ١٩٣٧ سلطانه الدستورية ، وكانت المعاهدة قد عقدت فى أغسطس وشكل مصطفى النحاس وزارته الرابعة فى أول أغسطس ١٩٣٧ وتولى فيها « واصف بطرس غالى » وزارة الخارجية للمرة الخامسة والأخيرة ، وبفعل مناورات « على ماهر » أيضا أقيمت وزارة النحاس باشا ، ويقرر « حسن يوسف » فى عهد تلك الوزارة ظهرت ملامح سياسية خارجية مستقلة ، (كان أهم مظاهرها مايمكن أن نسميه سياسة الانفتاح على الشرق ، تمثل ذلك فى اهتمام مصر بقضية فلسطين سنة ١٩٣٧ عندما أثار « واصف غالى » وزير الخارجية قضية فلسطين أمام عصبة الأمم) ، وكان هو ممثلا لمصر فى تلك العصبة ، وكان هذا آخر عهده بالمنصب الوزارى .

المرحلة الأخيرة

وسافر هو وزوجته إلى فرنسا سنة ١٩٣٩ وفجأتها أحداث الحرب العالمية الثانية ، والمقاومة الفرنسية الباسلة لاحتلال النازى فلجأ إلى « فيشى » سنة ١٩٤٠ وبقيا فيها سنتين ، ثم سافرا إلى جنيف حتى عام ١٩٤٤ ، وبعد انتهاء الحرب عاد « واصف غالى » إلى مصر سنة ١٩٤٥ ، وظل بعيدا عن العمل السياسى والحزبى تقريبا حتى عينته حكومة الوفد (يناير ١٩٥٠) عضوا بمجلس الشيوخ ، ثم عين أثناء عضويته بمجلس الشيوخ عضوا بمجلس إدارة شركة قناة السويس وهو منصب له قيمته المادية ويدر على صاحبه دخلا ماليا كبيرا .

وبعد حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ قدم استقالته من عضوية مجلس الشيوخ ولم تعد به رغبة فى العمل السياسى بأسره ، وعندما عرض عليه « على ماهر » منصب وزارة الخارجية فى وزارة ما بعد الحريق . . اعتذر بقول مشهور : (أصبحت البلاد مريضة بدرجة كافية . . وعلاجها ليس عند عجوز مثل) ثم استقال كذلك من عضويته فى مجلس إدارة قناة السويس فى يونية ١٩٥٦ قبل شهر واحد من تأميم القناة .

ثم وقع فريسة المرض لسنتين كاملتين تنقل فيهما للعلاج بين مصر وفرنسا حتى توفى فى ١٠ يناير ١٩٥٨ ، والذين اقتربوا منه يلخصون سلوكه وحياته فى عنصريين : الكرامة والوفاء .

الأسانيد :

- ١- حسن يوسف . . مذكرات .
- ٢- رموف كامل . . الكاتب واصف غالى . (بالفرنسية) .
- ٣- طارق البشرى . . المسلمون والأقباط .
- ٤- فخرى عبد النور . . مذكرات .
- ٥- محمد كامل سليم . . أزمة الوفد الكبرى .
- ٦- نجيب توفيق . . إسماعيل صبرى شيخ الشعراء .

الدكتور وحيد رأفت



تلقى الرئيس « محمد حسنى مبارك » بالحزن والأسى نبأ وفاة المغفور له « الدكتور وحيد رأفت » الذى كان مصريا عظيما فى ولائه وانتباهه وعطائه وفى خلقه الرفيع وتمسكه بالقيم السامية والمثل العليا طوال حياته الحافلة .

وجاء فى البيان كذلك . . (لقد وهب الفقيه نفسه لخدمة بلاده والدفاع عن قضاياهم فلم يتوان يوما عن اداء واجبه الوطنى بموضوعية نادرة والتزام تام بالأمانة العلمية وتمسك شجاع بالحق والمبدأ وتنزه عن الهوى والغرض وحرصه على وضع المصالح العليا للوطن فوق كل اعتبار . . وقد كانت حياة الدكتور وحيد رأفت كلها سلسلة متصلة من العمل المهادف والعطاء المستمر وسوف تظل سيرته العطرة علامة مضيئة فى تاريخ الوطنية المصرية ونموذجا مشرفا أمام الأجيال المقبلة من أبناء مصر . .) .

كان هذا ما أذاعه مصدر رسمى فى أعقاب إعلان نبأ وفاة « الدكتور وحيد رأفت » الذى وافاه الأجل المحتوم فى الصباح الباكر من يوم الثلاثاء ١٢ مايو ١٩٨٧ .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يتحدث فيها الرئيس « محمد حسنى مبارك » عن فقيه الوطن . . فى خطاب عام فى نوفمبر ١٩٨٦ قال « الرئيس » : إنه قرأ مقالا للدكتور وحيد رأفت أستاذ الفقه الدستورى الذى يمارس العمل السياسى من موقع المعارضة المضيئة . . وأضاف الرئيس ان المقال قد تضمن تفسيراً عن التجاوزات فى السلوك بأنها تمثل أزمة اخلاقية . . وانه قال عن حرية الصحافة انها يجب أن تكون لها حدود ككل حرية . . وأن الديمقراطية قادرة على التعايش فى كل الظروف . . وأن الديمقراطية تعالج نفسها بنفسها .

الخبرة القومية

وقد أشاد الرئيس مبارك بهذه الخبرة القومية في الوقت الذي كان فيه « الدكتور وحيد رأفت » في موقع نائب رئيس حزب الوفد المعارض .

وعندما كان الوفد في الحكم سنة ١٩٥٠ ، ولم يكن « الدكتور وحيد رأفت » عضوا في الوفد ، اختارته الحكومة المصرية لتمثيلها في هيئة التحكيم المصرية السعودية لفض النزاع بين سوريا ولبنان حول المشكلات الحدودية والقانونية التي نشبت بين البلدين وقت ذلك .

بل أن « مصطفى النحاس باشا » رئيس الحكومة قد طلب منه بصفة سرية ان يشارك في دراسة الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، المبرمة بين مصر وبريطانيا ، هذا الالغاء الذي أعلنه « النحاس باشا » في ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ .

وقد رشحته الحكومة المصرية في عام ١٩٨٢ ليكون العضو المصري في هيئة التحكيم بين مصر وإسرائيل حول نزاعهما على الحدود الشرقية وخاصة في منطقة طابا . وله في تلك المسألة بحث باللغة الانجليزية .

وحول مشكلة طابا يقول الدكتور وحيد رأفت إن علامات ١٩٠٦ هي الحدود الحقيقية وهي الحدود الدولية لمصر ، وطالما ان الجانبين المصري والإسرائيلي يعترفان بأنها الحدود الدولية فان المسألة تتعلق بالكشف عن علامات لا أكثر ولا أقل . وإسرائيل تعلم تماما أن طابا مصرية مائة في المائة ولكنها تنظر إلى هذه المنطقة على أنها مسار جحا حتى يمكنها دائما المساومة وهذا ثابت من الشروط التي تقدمت بها للموافقة على قبول مبدأ التحكيم . . وإسرائيل يسيل لعبها إلى مياه الآبار الموجودة في المنطقة ، وكلنا نعلم مدى حاجة إسرائيل للمياه ، ثم أن وجود طابا على خليج العقبة يزيد من مساحة الشرفة البحرية الإسرائيلية ، بالإضافة إلى أن طابا صمام أمن في مفترق الطرق إلى السويس والعريش . . ويضيف الدكتور وحيد رأفت إذا كنا لم نتنازل عن طابا لتركيا وقد كانت مصر جزءا من الدولة العثمانية فهل نتنازل عنها لإسرائيل ؟

وقد بذلت هيئة الدفاع المصرية وفي مقدمتها « الدكتور وحيد رأفت » جهدا كبيرا لاعداد المذكرة على أفضل وجه وتدعيمها بالوثائق والمستندات . وتقع المذكرة المصرية في ٤٥٠ صفحة مرفقا بها ملحق يضم الوثائق والمستندات ويزيد عدد صفحات المرفق على ١٠٠٠ صفحة . كما تقدم مصر ايضا اطلسا خاصا يضم عددا هائلا من الخرائط وجميعها تؤكد حق مصر . هذا وقد أشرف «الدكتور وحيد رأفت » وأسهم في إعداد مذكرة الدفاع المصرية عن طابا ، كما تولى المتابعة والإشراف ، وأسهم في إعداد مشاركة التحكيم .

على النطاق العربى

ولم تكن جهوده وخبراته مقصورة على بلده مصر ، وإنما تعدتها إلى البلاد العربية ، ففى عام ١٩٦٤ طلبته حكومة الكويت ليكون رئيسا لإدارة الفتوى والتشريع بها ، ثم خبيرا قانونيا لسمو أمير الكويت حتى تاريخ عودته إلى مصر فى أبريل عام ١٩٧٢ بناء على رغبته .

وخلال تلك الفترة ، اختارته دولة اتحاد الإمارات العربية بالخليج لإعداد دستور للاتحاد . وقد طاف يصحبه وقد برئاسة وزير خارجية الكويت الشيخ صباح الأحمد الجابر بهذه الإمارات فى سنتى ١٩٦٨ ، ١٩٤٩ لهذا الغرض واعد الدستور الاتحادى لهذه الإمارات .

ثم اختارته دولة الكويت مندوبا عنها فى اللجنة القانونية التى انعقدت فى جنيف (سويسرا) فى عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ لإعداد مشروع اتفاقية عربية لضمان الاستثمارات تنفيذا لقرارات مجلس الجامعة العربية .

ونعود بالذاكرة إلى عام ١٩٥١ حين حصل « الدكتور وحيد رافت » على وسام الرافدين العراقى ، ووسام أمية السورى ، وذلك تقديرا لاسهامه فى مناقشة وصياغة مشروع معاهدة الضمان الجماعى والتعاونى الاقتصادى بين دول الجامعة العربية .

أكثر من هذا فقد اجتاز بكفاءته العلمية حدود مصر وحدود البلاد العربية إلى النطاق الدولى ، فقد اختارته كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) سنة ١٩٣١ للمشاركة فى مسابقات الأجرسيون لاختيار الأساتذة بكميات الحقوق الفرنسية .

وحصل على وسام من مركز (السلام من خلال القانون) بمناسبة انعقاد مؤتمر هذا المركز فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٨١ .

النشاط العلمى

وأمامى المذكرة التى تقدمت بها (الجمعية المصرية للقانون الدولى) لترشيح « الأستاذ الدكتور وحيد فكرى رافت » لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية والقانونية ، والتى حصل عليها عام ١٩٨٤ ، مجهودات يفخر بها كل مصرى ، وتؤكد قيمة الثقافة والعلم فى بناء مصر ، وتدعو للزهر بمشاركة هذا المثقف فى الحياة السياسية والحزبية .

تسعة مؤلفات الأول بالفرنسية سنة ١٩٣٠ عن قضية السلام الدولى ، والأخير بالانجليزية سنة ١٩٨٢ عن (مشكلة طابا بين مصر وإسرائيل) . وفيما بين هذين العاملين سبعة أعمال أخرى

عن . . مبادئ القانون الدستوري ، ومبادئ القانون الإداري ، ورقابة القضاء على أعمال الدولة ، واتحاد الإمارات العربية المتحدة ، والعالم العربي والاستراتيجية السوفيتية ، وفصول من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ودراسة في القوانين المنظمة للحريات .

ثم مقالات باللغة الفرنسية نشرت في مجلات تصدر في باريس ومقالات عديدة باللغة العربية نشرت بالمجلة المصرية للقانون الدولي .

هذا إضافة إلى مناقشة رسائل عديدة للدكتوراه ولاسيما بكلية الحقوق ، وإضافة إلى فتاويه العديدة المحفوظة بسجلات وزارة الخارجية المصرية عندما كان مستشارا للرأي بمجلس الدولة لهذه الوزارة .

وقد حصل على شهادة الليسانس من كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) في عام ١٩٢٦ . وسافر إلى باريس وحصل على الدكتوراه في القانون العام سنة ١٩٣٠ ، وبعد دخوله في مسابقات الاجر جسيون التي أشرنا إليها من قبل عاد في فبراير ١٩٣٥ إلى مصر للتدريس بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأولى في قسمي الليسانس والدكتوراه حتى رقى إلى درجة أستاذ لكرسي القانون العام سنة ١٩٤٠ ، وعين قاضيا بمحكمة الإسكندرية المختلطة في فبراير ١٩٤٢ ، وبقي في هذا المنصب حتى عام ١٩٤٦ ، وفي سبتمبر ١٩٤٦ عين مستشارا بمجلس الدولة بالقاهرة عند انشائه ، وذلك بقسم التشريع ثم قسم الرأي كمستشار لوزارتي الخارجية والعدل حتى عام ١٩٥٢ . واستقال في سبتمبر ١٩٥٢ وعمل بالمحاماة حيث ترافع في قضايا عديدة أمام القضاء العادي والقضاء الإداري وأمام محكمة الغدر ومحكمة الثورة ومحاكم أمن الدولة العليا .

وحيد في شجاعته

واستعير هنا عنوان المقال الذي كتبه غداة رحيله الزميل « جمال بدوي » عن موقف يتسم بالشجاعة الأدبية . والصلابة الفكرية ، والانتصار للحق حتى لو كلفه ذلك ان يقف وحيدا في جانب المثل العليا . . بعد أسبوع واحد من استيلاء الضباط على السلطة كان « وحيد رأفت » يسبح وحده ضد التيار حفاظا على مبادئ الدستور ، وتمسكا باحكام القانون ، ويحكي «الدكتور وحيد رأفت » تفاصيل هذه الجلسة التاريخية في مجلس الدولة .

دعيت أنا وزملائي رؤساء إدارات الفتوى والتشريع بمجلس الدولة في ٣١ يوليو ١٩٥٢ إلى جلسة طارئة ، ولم يتخلف عن الاجتماع أحد من مستشاري قسم الرأي وكنت وقتها رئيسا لإدارة الرأي بمجلس الدولة لوزارتي الخارجية والعدل وفوجئنا بحضور رئيس مجلس الدولة الدكتور عبد

الرزاق السنهورى ليرأس الاجتماع بنفسه ، بينما كان يرأس اجتماعاتنا عادة الأستاذ سليمان حافظ بحكم منصبه كوكيل مجلس الدولة لقسمى التشريع والرأى . وأخذ الدكتور السنهورى يعرض علينا الموضوع المطلوب أخذ رأينا فيه والذي دعينا من أجله للجلسة الطارئة .

وعبنا حاولت اقناع زملائي المستشارين فى ذلك الاجتماع التاريخى الذى استغرق حوالى الساعتين والنصف بأن الدساتير الملكية لاتحدث عادة عن خلع الملوك أو تنازلهم عن عروشهم بل تتناول الحالة الغالبة التى لامفر منها فى حياة الملوك كسائر البشر وهى حالة وفاة الملك . وان هذا ما انصرف إليه ذهن واضعى دستورنا الملكى الصادر سنة ١٩٢٣ . . غير ان الدكتور السنهورى اصر رحمه الله على أننا بصدد ثغرة فى تشريعنا الدستورى لم يرد موضوعها على ذهن واضعى هذا الدستور . وان ملء هذه الثغرة لا يكون بطريق التوسع فى تفسير النص القائم بل استكماله بتشريع جديد . ولما كان تعديل الدستور نفسه يستدعى اجراءات مطولة واشراك البرلمان فيها وهو غير قائم فلا بأس من تعديل الأمر الملكى الصادر فى ١٣ أبريل ١٩٢٢ بشأن توارث العرش . وعند اخذ الأصوات بعد هذه المناقشة التى شارك فيها عدد من المستشارين الحاضرين كنت وحدى صاحب الرأى القائل بأن يجرى على تنازل الملك عن العرش ما يجرى على حالة وفاته وانه يتعين بالتالى أعمالا لاحكام دستور سنة ١٩٢٣ والأمر الصادر فى ١٣ أبريل ١٩٢٢ بشأن توارث العرش دعوة مجلس النواب المنحل ومجلس الشيوخ إلى الانعقاد فوراً لاختيار هيئة الوصاية على العرش ولكى يؤدى الأوصياء اليمين الدستورية أمامها بينما انقاد زملائي الآخرون إلى جانب رأى الدكتور السنهورى ووكيله سليمان حافظ وصدرت الفتوى من قسم الرأى بهذا المعنى ، بل وذهب المرحوم سليمان حافظ إلى حد اقتراح أن تتضمن الفتوى الصادرة منا دعوة الحكومة إلى استخدام القوة إذا ما حاول مجلس النواب الوفدى المنحل الانعقاد من تلقاء نفسه تمسكا بظاهر نص الدستور . وهنا ثرت فى وجه الزميل سليمان حافظ مذكرا بأنه لايليق بسدنة القانون أن يستعدوا الحكومة على نواب انتخابهم الشعب لتمثيله واضفت وهو ما اثبتته هنا للذكرى التى قد تنفع المؤمنين اننا بصدد انقلاب عسكرى لايعلم إلا الله أين سيقود البلاد وان واجبنا ان نتصافر لمواجهة ما يصاحب هذه الانقلابات من خطر على الحريات .

وفى أوائل سبتمبر سنة ١٩٥٢ قدم « الوحيد فى شجاعته » استقالته من مجلس الدولة وتفرغ للعمل فى المحاماة . .

الفرسان الثلاثة

وأصبحنا منذ ذلك الحين أمام ثلاثة من رجال القانون والفقه الدستوري . . الدكتور عبد الرازق السنهوري رئيس مجلس الدولة والأستاذ سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة والدكتور وحيد رأفت رئيس قسم الرأى والتشريع . . الأول الدكتور عبد الرازق السنهوري كان من الوفديين القدامى الذين خرجوا فى انقسام أحمد ماهر والنقراشى وإبراهيم عبد الهادى . . ونراه هنا فى الأسبوع الأول من استيلاء الضباط . الأحرار على السلطة ، وبعد تنازل الملك فاروق عن العرش بناء على إنذار من السلطة الجديدة . . واختارت تلك السلطة هيئة للوصاية على العرش . . تراه هنا لايعمل أحكام القانون ولايحرص على تطبيق الدستور بدعوة مجلس النواب الوفدى يلتقى السنهوري هنا مع رغبة « على ماهر » الخصم العنيد للوفد ، ورجل الديوان الملكى من قبل ، ورئيس الوزراء باختيار السلطة الجديدة . . وهو الذى استصدر مرسوم تعطيل البرلمان غداة حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ . والتقى السنهوري أيضا مع الرغبة الخفية لقادة الحركة وفى مقدمتهم جمال عبد الناصر فى فرض حكم دكتاتورى وإن تظاهروا وصرخوا بعبارات حول الديمقراطية والحياة النيابية . . أما وقد حقق السنهوري بمهارته وبثقافته القانونية أولى رغبات السلطة الجديدة فى الدوران حول الدستور المعمول به ذلك الحين . . فلا بأس ان تستمر الحركة فى الغاء الدستور ذاته! وفى تشكيل لجنة وهمية لاعداد دستور جديد لا يوضع موضع التنفيذ . . واخيرا حين حاول «الدكتور السنهوري» ان يسترد هيئته أرسلوا إليه فى مجلس الدولة بعض الصبية المأجورين من عمال النقل ، وبعض العاملين فى مديرية التحرير ، وبعض رجال الحرس الوطنى فى ملابس مدنية ليضربوه فى مقر مجلس الدولة نفسه ، وهو على أعلى كرسى للقانون فى مصر ، وليسمع بأذنيه هتافات بسقوط الحرية وبسقوط الحياة النيابية . . ويدرك ان أول خطوة ضد الدستور وضد القانون اتخذها فى ٣١ يوليو ١٩٥٢ جعلت من رجال ٢٣ يوليو لايقبلون منه سوى السير معهم على طول الخط فى هذا المشوار المعاكس للدستور وللنظام وللحرية .

والثانى . . الأستاذ سليمان حافظ من رجال الحزب الوطنى الذين سحب (الوفد) الأرضية الشعبية من تحت أقدامهم ، وحولهم من حزب له افكار ومواقف إلى مجموعة لايفعلون سوى زيارة اضرحة الزعماء فى المناسبات . التقت احقاده القديمة مع الرغبة الحقيقية لرجال ٢٣ يوليو فى ضرب الوفد وفى تمزيق أغلبيته الشعبية وفى محاصرة زعامة « مصطفى النحاس » أصبح سليمان حافظ وزيرا للداخلية ثم نائبا لرئيس الوزراء وتعهد بتفصيل القوانين والفتاوى حسب الطلب وحسب المقاس . . المهم حل الأحزاب . . المهم هو الغاء رئاسة النحاس للوفد . . المهم هو ضرب القادة التقليديين للوفد . . أخذ القادة الجدد منه كل شئ . . ولم يبق منه شئ للتاريخ

فاطيج به في أزمة مارس ١٩٥٤ وعاد لمزاولة المحاماة ثم اعتقله « جمال عبد الناصر » أبان العدوان الثلاثي على مصر في نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

أما الفارس الثالث . . وهو الدكتور وحيد رأفت فهو فارس الرأي الشجاع . . الذي قال كلمته دون ان يهاب الحراب المشرعة أيامها .

فارس الرأي الشجاع

. . ومنذ الأيام الأولى لاستيلاء الجيش على السلطة كان « وحيد رأفت » ثابت الخطى واضح الرؤية حريصا على أعمال أحكام القانون والدستور حتى وقف « وحيدا » داخل مجلس الدولة . . وكان ذلك كما رأينا في ٣١ يوليو ١٩٥٢ .

ونلقاه على صفحات جريدة الأهرام في ٢٤ أغسطس و ٥ و ١٣ سبتمبر ١٩٥٢ يكتب ويرد في شجاعة منقطعة النظير غير حاسب لعواقب ما تأتي به الأيام وغير ناظر لرضاء السلاطين الجدد . . ويرد على مانشره أحد أساتذة القانون الدستوري المشهورين « الدكتور سيد صبرى » الذى كان قد كتب عدة مقالات في جريدة الأهرام ابتداء من ٣١ يوليو تحت عنوان (الفقه الدستوري) ويدعو إلى سقوط الدساتير القائمة وانتهى إلى أن ما حدث يوم ٢٣ يوليو هو ثورة ، وبالتالي فان دستور ١٩٢٣ قد سقط تلقائيا بنجاح ثورة يوليو ١٩٥٢ . ويرد « الدكتور وحيد رأفت » بأنه من العسير ان يعقد الاجتماع على وصف ما تم خلال الأيام الأربع الأولى من حركة الجيش بأنه ثورة ، لان مفهوم الثورة في نظر - د وحيد رأفت - يتمثل في انتفاضة جماهيرية آتية من القاعدة الشعبية .

ونراه بعد ذلك في مجلس الدولة ، وفي محاكم الغدر والثورة محاميا شجاعا عن حق الوفد كحزب ، ومفندا في جسارة ما يذهب إليه زميله السابق في مجلس الدولة « سليمان حافظ » من حق السلطة في تقييد حريات الأحزاب . وفي اختيارها لزعماء الأحزاب وشخصياتها القيادية . . ومؤكدا رأيه الثابت لنا أمام انقلاب وليس ثورة . .

وفي أزمة فبراير ومارس ١٩٥٤ . نراه ينحاز صراحة إلى حق الشعب في حكومة مدنية ، وفي حكم نيابى . . فيرشحه بعض قادة الجيش رئيسا لحكومة نيابية تنفذ قرارات ١٥ و ٢٠ مارس ١٩٥٤ . ولكن المناورات والرغبة في السلطة كانت أقوى من النوايا الطيبة . . واطيح بكل هذه القرارات التى أعلنوها على الشعب .

ويعتقلونه عام ١٩٥٧ بسبب وجهة نظر ابداءها ولم تنشر . . وينتهى به المطاف نائبا لرئيس

حزب الوفد الجديد . . يبدى الرأى فى شجاعة ، ويتخذ الموقف فى موضوعية ، ويسلك طريقه فى نزاهة فكرية .

مسيرة طبية

وفارسنا الشجاع . . داهمته أزمة قلبية فجر يوم الثلاثاء ١٢ مايو ١٩٨٧ واجمعت الأمة احزابا وافرادا ، حكومة وشعبا ، إننا فقدنا رجلا عظيما نزيها مستقيما شجاعا عمل من أجل مصر فى حدود ما كان يرى . .

والدكتور « وحيد فكرى رأفت » ولد بالقاهرة فى ١٨ مارس ١٩٠٦ وكان والده طبيبا فى الحرس الملكى أيام الملك فؤاد . وهو من قرية (باسوس) محافظة القليوبية . وأمه من عائلة (الشمسى) . . درس المرحلة الابتدائية فى مدرسة الناصرية ، وحصل على البكالوريا فى المدرسة السعيدية ، وحصل على ليسانس الحقوق عام ١٩٢٦ ، وعلى الدكتوراه فى القانون العام من باريس ١٩٣٠ م . ويعدها كانت مسيرة طبية حاولنا ايجازها فى السطور السابقة . .

الأسانيد :

- ١- الجمعية المصرية للقانون الدولى . . مذكرة ترشيح الدكتور وحيد رأفت لجائزة الدولة التقديرية ١٩٨٤ .
- ٢- الأهرام (جريدة) : ١٣ / ٥ / ١٩٨٧ .
- ٣- جمال بدوى . . مقال بجريدة الوفد ١٣ / ٥ / ١٩٨٧ .
- ٤- د . وحيد رأفت . . فصول من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ويصا واصف



في مديرية جرجا ، وحاليا محافظة سوهاج ، وعلى وجه التحديد في مدينة صغيرة بالصعيد ، مدينة طهطا التي أنجبت رائد النهضة الفكرية الحديثة « رفاعه رافع الطهطاوى » وفي حى متواضع من هذه المدينة الصغيرة تجاورت عائلة « الببلاوى » وهى تعمل بالتجارة ، وعائلة (رافع) التي يعمل أفرادها في فلاحه الأرض وزراعتها وكان بين هاتين الأسرتين ود وعلاقة طيبة .

وأنجبت أسرة (بدوى رافع) ابنها « رفاعه » الذى أثار وجدان وعقول المثقفين في مصر وكان ذلك سنة ١٨٠١ ، أما أسرة (الببلاوى) فكان عميدها على شىء من اليسر إذا كان يعمل بالتجارة بين مصر والسودان ، وفي ١٢ مايو ١٨٧٣ ولد « ويصا واصف ميخائيل » . . وتعلم في مدارس طهطا حتى نال شهادة الابتدائية ، وجاء مع والده إلى القاهرة وتعلم في مدارس أهلية مختلفة ثم نال شهادة البكالوريا (أو الثانوية العامة حاليا) من المدرسة التوفيقية العتيدة بشبرا ، والتحق بعدها بمدرسة لأعداد المعلمين ، وكان ناظرها فرنسيا ، وقد أنس في الفتى نبوغا فأرسله لإتمام دراسته بفرنسا ، ووصل باريس سنة ١٨٨٩ ليتعلم العلوم هناك ويعود إلى مصر سنة ١٨٩٤ بعد أن قضى ثلاثة أعوام بمدرسة المعلمين الابتدائية بفرنسا وعامين في المعلمين العليا بباريس .

وعادات الصعيد هى عادات الصعيد . . فقد ربط له والده مبلغا هاما في حزام حول وسط «واصف » وتأفف الشاب ، فوضع مبلغا آخر في جيوبه ، وفي مرسيلا اكتشف واصف أن ماوضعه في جيوبه قد سرق . . وبقي له المبلغ الذى وضعه له والده في الحزام حول وسطه . .

بعد العودة

عاد إلى مصر ، وعين مدرسا للعلوم بمدرسة رأس التين الثانوية بمدينة الإسكندرية . . وكان يهيم على التعليم في ذلك الزمان المستشار الانجليزى « دانلوب » لنظارة المعارف وكان يحارب التعليم الفرنسى واللغة العربية على السواء مما دفع « الشاب ويصا واصف » إلى ان يشن حملة ضد الانجليز وضد سياسة دانلوب وضد الأسلوب السائد في التعليم وكانت تلك المقالات يرسلها إلى (جريدة اللواء) التى يصدرها « الزعيم مصطفى كامل » فأرسل المشرفون على الجريدة في طلب هذا الشاب المتعلم والمتحمس وبدأت علاقته بالحزب الوطنى أو بما عرف بعد ذلك بالحزب الوطنى .

ولكن الفتى يتردد بين فرنسا ومصر لدراسة القانون إذ كانت المحاماه والعمل السياسى صنوان في ذلك الزمان ، ويحصل على ليسانسية الحقوق من جامعة (اكس) في فرنسا سنة ١٩٠٢ فيستقيل من عمله بالتدريس ، ويلتحق بمكتب المحامى « انطون سلامة » بالإسكندرية ثم مكتب « مرقص حنا باشا » بشارع الفجالة بالقاهرة .

ويقترِب « ويصا » من الزعيمين « مصطفى كامل » ومحمد فريد « نقرأ في كتاب المؤرخ « عبد الرحمن الرافعى » عن (محمد فريد) . . وفي جريدة اللواء في ٢٨ ديسمبر ١٩٠٧ ان « ويصا واصف » اختير في اللجنة الإدارية للحزب الوطنى ضمن ثلاثين عضوا لهذه اللجنة . . وهكذا أصبح من قادة الحزب الوطنى إلى جانب الأعضاء البارزين أمثال « محمد بك فهمى وعلى حشمت ، واسماعيل ليب ، ومحمد حافظ رمضان ، وفؤاد سليم حجازى » وآخرين كثيرين . . ويبدو أن الحال داخل (الحزب الوطنى) بدأ يتغير بعد رحيل مؤسسه « مصطفى كامل » وفتور بريقه على الحزب ، وضعف قبضة الزعيم الجديد « محمد فريد » وظهور أجنحة متضاربة داخل الحزب . . وبرزها جناح « عبد العزيز جاویش » الذى كان يدعو بحماسة وبقدر كبير من التطرف إلى الارتباط بالدولة العلية (يقصد الدولة العثمانية) . . وبدأ شعار (مصر للمصريين) الذى كان يردده « محمد فريد » نفسه يتوارى ، فيخرج على الحزب عدد من عناصره الهامة ، ومنهم « ويصا واصف » الذى استقال من الحزب الوطنى في ٦ أغسطس ١٩٠٨ أى بعد ستة أشهر من رحيل مصطفى كامل .

واحس الاحتلال بخطر دعوة الحزب الوطنى إلى الاستقلال ، ودعوة حزب الأمة وخاصة صفوفه المستنيرة إلى (مصر للمصريين) وليست للانجليز أو الدولة العثمانية . . فتجمعت عناصر كثيرة لتبث الفرقة داخل الوطن بين المسلمين والأقباط . . الاحتلال بأساليب مكررة ، والدولة العثمانية بأساليب متخلفة ، والخطيوى عباس الثانى بأساليبه الملتوية ، وعناصر من بين الأقلية

والأغلبية على السواء . . . ولسنا بصدد أن نذكر هذه الأسماء أو تلك ، وإنما نسوق الوضع العام لنلقى الأضواء على رجل وقف بصدق وحزم ضد الاتجاهات الانقسامية ، فعارض (مجتمع الإصلاح القبطى) وعارض قيام (الحزب المصرى) وكلاهما من عناصر واحدة كانت تنشر دعايتها تحت شعار (النظر فى الأمور الداخلية للأقباط) .

وعندما عقد المؤتمر القبطى فى أسيوط سنة ١٩١١ وعقد المؤتمر الإسلامى فى مصر الجديدة فى السنة نفسها . . . كان موقف « ويصا واصف » واضحا وحازما ومحدرا من دسائس عناصر الأرساليات الأجنبية وعناصر التبشير البروتستانتية ورافضا لكل دعوة طائفية ، وصارخا بشعار الوحدة الوطنية أيا كانت الجزئيات التى يسوقها المؤتمرون . وفى المقابل كان موقف « أحمد لطفى السيد » فى المؤتمر المصرى (الإسلامى) رافضا لأية اتجاهات طائفية وداعيا للأخاء الوطنى ، وخرجت جريدة (الوطن) التى كانت تصدر فى ذلك الحين ، ووقفت خلف مؤتمر أسيوط ووجهت حملة قاسية ضد « ويصا » وهى ترهب العناصر الأخرى التى ترفض الاتجاه الطائفى أطلقت عليه لقب « يهوذا الاسخريوطى » . . . ويهوذا هذا (حسب رواية الانجيل) هو الذى خان السيد المسيح وأسلمه لليهود بثمن بخس هو (ثلاثين من الفضة) .

وجدير بالذكر أن « واصف غالى » كان له موقف مماثل لموقف « ويصا واصف » وكتب « عبد القادر حمزة » الذى حضر المؤتمر فى جريدة (الأهالى) أن موقف الأقباط من خارج المؤتمر وموقف العناصر المستنيرة داخل المؤتمر أدت بالمجتمعين إلى الحفاظ على هذه الجماعة الوطنية ونبذ الطائفية ، وإن أشارت إلى بعض المطالب الخاصة .

الوفد والثورة

وظل الحال على هذا المنوال . . . مد وجزر . . . تطرف واعتدال . . . شد وجذب . . . هدوء وتوتر . . . حتى قام (الوفد) كمؤسسة سياسية ، وتكونت قيادته على (الوطنية المصرية) دون النظر إلى العقيدة الدينية . . . وكان لسعد زغلول الذى نشأ على أفكار « الشيخ محمد عبده » . . . وكان لقادة الوفد وتكوينهم الفكرى . . . الأثر الكبير فى أن تقوم هذه المؤسسة وتستمر على مبدأ (الوطنية) دون النظر إلى العقيدة الدينية للمواطنين . . .

وهكذا ، فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ يذهب ثلاثة لمقابلة المعتمد البريطانى هم « سعد زغلول ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيز فهمى » وبعد المقابلة يذهب ثلاثة من الأقباط هم « فخرى عبد النور ، وويصا واصف ، وتوفيق اندرواس » لمقابلة « سعد زغلول » ويتحدثون حول اشتراك الأقباط فى الوفد . . . ويختار « سعد » ويصا واصف لما عرف عنه من مواقف سابقة . . . فيستأذن

«ويصا واصف» في أن يرشح « واصف غالى » . وكان « المرحوم واصف غالى » في باريس فاتصل به « ويصا واصف » حتى انه كتب عنه دراسة باللغة الفرنسية سنة ١٩٣٥ بعنوان «المجاهد ويصا واصف» ، وكان هناك وعد من أسرة المرحوم « ويصا واصف» بأن تصلنى هذه الدراسة ، ولكنها لم تكن في متناول اليد حتى كتابة هذه السطور .

وقامت الثورة الكبرى ، وسعد العظيم على موعد معها أو هى على موعد معه ، ويعود سعد وصحبه بعد الاعتقال ، وفي أبريل ١٩١٩ يسافر الوفد إلى باريس ، ويسافر معه كواحد من المستشارين للوفد « ويصا واصف » وهنا يقرر الوفد ضم «ويصا» إلى عضويته رسميا .

صراع في أوروبا

ونجحت الثورة باجماع المصريين على مقاطعة لجنة ملنر التى جاءت إلى مصر بحجة إجراء تحقيق في أسباب قيام هذه الثورة القومية ، وتقديم الاقتراحات المناسبة ، لتسوية بين بريطانيا ومصر .

وعادت اللجنة إلى لندن وتبعث بريطانيا إلى « سعد زغلول » في باريس للحضور إلى لندن لأجراء المفاوضات . . واتجه «سعد» إلى رفض هذا الطلب إلا أن الجناح الذى يؤيد « عدلى يكن » أو يؤيده « عدلى يكن » ظل يضغط على « سعد » حتى وافق على السفر إلى لندن في ٥ يونيه ١٩٢٠ ، وفي لندن وفي باريس يدور صراع هائل بين الوفد من جهة وبين المفاوض الإنجليزى من جهة أخرى ، وبين سعد من جهة وعدلى ومؤيديه من جهة أخرى . . وكان سعد يميل دائما إلى قطع المفاوضات والعودة إلى مصر ، وكان يعود من لندن أحيانا إلى باريس يأسا من المفاوضات ومن مراوغة الانجليز . . وفي الفترة التى كان فيها «ويصا واصف» في أوروبا كان دائما مع المجموعة التى وقفت بصلافة إلى جانب سعد . . ولم يستمر « ويصا » كثيرا في أوروبا لأننا نجده بعد ذلك في مصر مع « مصطفى النحاس وحافظ عفيفى » ، ويرد ذكر اسمه دائما في البرقيات الشفوية التى كانت تصل من مصر إلى « سعد » في أوروبا سواء في لندن أو في باريس ، وتحمل توقيعات « مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى » إلى « سعد » لتنقل له أخبار الحركة الوطنية في مصر ، وأخبار التحركات الشعبية ، وموقف الاحتلال الإنجليزى ، وموقف العناصر السياسية الأخرى ، وكان « محمد كامل سليم ، السكرتير الخاص لرئيس الوفد يقوم بحل هذه البرقيات الشفوية .

ووصل الوفد في أوروبا إلى مرحلة خطيرة . . غالبية الوفد « عبد العزيز فهمى ، وأحمد لطفى

السيد ، وحمد الباسل ، وعبد اللطيف المكباتي ، ومحمد محمود ، ومحمد على علوية « أصبحوا يضيفون بتطرف « الرئيس سعد » وبتشدده في المفاوضات ، وأصبحوا يميلون إلى (حكمة عدلى وحسن تدبيره) على حد تعبيرهم .

وأصبح « الرئيس سعد » يضيف بهذا الفريق ولا يثق بهم ولم يكن من رأيه سوى « على ماهر وواصف غالى وسينوت حنا » .

ووصل « عدلى يكن » مع الانجليز إلى صيغة معينة من الاتفاق لم يرض عنها « سعد » وقرر قطع المفاوضات إلا أن الأغلبية قررت إيفاد (أربعة) إلى مصر لعرض الاتفاق على الشعب . . على غير رغبة من « سعد » الذى عاد إلى باريس في ١٦ أغسطس ١٩٢٠ ومعه ووصف غالى وسينوت حنا .

وقد لا حظ الثلاثة « مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى » أن المندوبين الأربعة يعرضون الاتفاق بطريقة تجعل الناس يميلون إلى قبوله وليس بأسلوب محايد . . فيسافرون إلى باريس في ٤ أكتوبر ويضعون الموقف على حقيقته أمام « الرئيس سعد » . ويصل الأمر داخل الوفد إلى ما يشبه الانقسام ، وكان الوفد قد عاد إلى لندن في ٢٠ أكتوبر ووصل « سعد » إلى اقتناع بقطع المفاوضات . . وهو في هذه الحالة من الضيق نقرأ لمحمد كامل سليم : -

في هذه اللحظة دخل الحجرة مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى وعلى ماهر وواصف غالى ، وهم من رأى الرئيس وعاطفته واتجاهه حضروا لتبادل الرأى والحديث بين الزملاء المستشارين في النظرة والمسلك والمشرب ، ولقد اغتبط بمقدمهم أشد الاغتباط ، واحتفى بهم الرئيس احتفاء فيه حرارة ومعه ابتسام . .

وعاد الوفد من لندن إلى باريس في ١١ نوفمبر على دفعات . . ولتأمل هذه الدفعات لنرى النظرة المتشابهة والمشرب الواحد الذى تحدث عنه سكرتير « سعد باشا » . .

الدفعة الأولى : الرئيس سعد وعلى ماهر وواصف غالى ، وسينوت حنا معهم (مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى) .

الدفعة الثانية : عبد العزيز فهمى ، لطفى السيد ، محمد محمود ، محمد على علوية ، حمد الباسل ، عبد اللطيف المكباتي .

أما « عدلى باشا يكن » فقد تخلف في لندن ولم يعلم أحد سبب تخلفه وفي باريس كان الثلاثة « مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى » يزورون سعد باشا يوميا .

الانقسام الكبير

اتسعت شقة الخلاف بين « سعد زغلول » و« عدلى يكن » وبين الأقلية في الوفد برئاسة سعد . . وبين الأغلبية في الوفد برئاسة « عبد العزيز فهمى » أو لصالح « عدلى يكن » الذى قرر العودة إلى مصر فى ٢٠ نوفمبر ١٩٢٠ .

وفى ٢٧ نوفمبر ١٩٢٠ قرر « مصطفى النحاس ، وويصا واصف ، وحافظ عفيفى العودة إلى مصر . . ولأنهم من رأى « سعد لم يكن أحد من أعضاء الوفد فى وداعهم . .

وفى ٢٩ مارس ١٩٢١ اعطى « سعد » أوامره إلى معاونيه بترتيب اجراءات العودة إلى مصر حيث وصل الإسكندرية فى ٥ أبريل ١٩٢١ . . وبعدها يقع الانشقاق من « عبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى ، ومحمد محمود ، وحمد الباسل ، وعبد اللطيف المكباتى ، ومحمد على علوبة ، وأحمد لطفى السيد ، وعبد الخالق مدكور » وينضم اليهم « حافظ عفيفى ، وجورج خياط » وكان قد ابعد عن الوفد من قبل « اسماعيل صدقى ، ومحمود أبو النصر » وبدأت فترة قاسية فى حياة الوفد .

وكان « عدلى يكن » قد شكل وزارته الأولى من ١٦ مارس ١٩٢١ إلى ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ . . وكان قد أجرى مفاوضات مع الانجليز على أمل أن يحقق بعض المكاسب ينتصر بها على « سعد » وانضم إليه فريق الاعتدال على أمل القضاء على « سعد » وعلى « الوفد » ونزل الانجليز بسلطانهم لأرهاب « سعد زغلول » فوجهوا انذارا فى ٢٠ ديسمبر ١٩٢١ إلى كل من « سعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، وسينوت حنا ، ومكرم عبيد ، وجعفر فخرى ، وأمين عز العرب ، وصادق حنين » ان يتعدوا عن القاهرة وان يلزموا الإقامة فى الريف . . فأطاع أمين عز العرب وصادق حنين الأوامر وطواهم النسيان « ورفض سعد » والأربعة الآخرون فتم نفيهم . .

وبقى من الوفد فى مصر بعد الانشقاق الكبير ، وبعد نفى « سعد » والقادة الأربعة . . بقى ثلاثة « على ماهر وواصف غالى ، وويصا واصف » .

وظهر التردد على خطى « على ماهر » فأعد « واصف غالى » بيانا إلى الأمة ضد قرار الانجليز باعتقال « سعد » وزملائه . وأصر « ويصا واصف على أن يكون موقعا عليه من « واصف غالى ، وويصا واصف » يعلن تصميم الأمة على المضى فى الكفاح ضد الانجليز ، وتلقت الجماهير الواعية بيان الوفد على إنه بيان « سعد زغلول » وبيان الهيئة التى تثق فيها . . أكثر من هذا . . فى ظروف التحدى هذه عاد إلى الوفد « حمد الباسل وجورج خياط » . . وانضم إليه « على الشمس وعلوى الجزار ، ومراد الشريعى ، وعبد القادر الجمال ، ومرقص حنا » فعاد الانجليز واعتقلوا

«حمد الباسل ، ومحمد نجيب الغرابلى ، وعبد الرحمن القاياتى ، ومراد الشريعى ، وعلوى الجزائر، وأرسل الانجليز قوة إلى العتبة الخضراء حيث كانت المحكمة المختلطة ، وحيث كان « ويصا واصف » محاميا بها يترافع فى إحدى القضايا وانتهك الانجليز حرمة القضاء فنار رئيس المحكمة وكان سويسريا ، وثار المحامون وأسرعت القوة الانجليزية بويصا واصف إلى مقر المطافئ حيث كانت سيارة فى انتظارهم لتتنقل « ويصا » إلى قشلاق قصر النيل فى ميدان التحرير (حاليا) .

دستور ١٩٢٣

قاطع الوفد والحزب الوطنى بلجنة الدستور أو (لجنة الاشقياء) حسب تعبير « سعد زغلول » ، وطرح بعض الأعضاء (المسلمين) فى اللجنة ضرورة النص على تمثيل إخوانهم (الأقباط) رغبة فى طمأنة إخوانهم فى الوطن . . ولكن أعضاء الوفد الذين كانوا فى مصر وقت ذاك طرحوا الموضوع طرحا سياسيا ، ورفضوا فكرة التمثيل الطائفى . . وعارضوا تقسيم التمثيل لأقلية وأغلبية . . وكان « سعد زغلول » يرفض دائما فكرة التمثيل الطائفى . . وهكذا كان موقف « ويصا واصف » فأدلى بحديث للمصحف - مع مقاطعة الوفد للاشتراك فى اللجنة - قال فيه :

إن مصر لا تعرف أكثرية وأقلية ، والقول بأن القبط أقلية حكم عليهم بأنهم أجنب ، ولن يكون فى البرلمان إلا أحزاب سياسية بمعناها العصرى يكون القبط مبعثرين فى هذه الأحزاب ، ولم يكن القبط فى أى وقت موضعا لتشريع استثنائى ، بل عوملوا دائما كمصريين يتمتعون بكافة الحقوق وليس فى مصر إلا جنس واحد تكون على مر القرون المتعاقبة ، وامتزجت الدماء بفعل التوارث بما يقوى على أى فارق دينى ، وإذا تكون البرلمان من أحزاب سياسية فقط فلا ضير إلا يكون فيه قبطى واحد) .

ونجحت هذه الأفكار الواعية التى طرحها الوفد ، وطرحها الحزب الوطنى ، وطرحتها عناصر داخل لجنة الدستور فصدر دستور ١٩٢٣ خاليا من أى نص يتصل بالتمثيل النسبى .

تخطيط السلاسل

فى حياة « سعد زغلول » كان « ويصا » وكيلا لمجلس النواب (مجلس الشعب حاليا) وفى حياة « مصطفى النحاس » كان رئيسا لمجلس النواب . . وجلس على المقعد الذى جلس عليه « أحمد مظلوم باشا ، وسعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، ومحمد توفيق باشا ، وأحمد ماهر باشا ، ومحمد بهى الدين بركات ، وعبد السلام فهمى جمعة ، ومحمد حامد جودة » . .

ورفض « ويصا واصف » باصرار محاولات « أحمد زيور باشا » لضمه إلى وزارته التي شكلها في ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ على أثر استقالة وزارة سعد باشا عقب مقتل « السير لي ستاك » .

وفي عهد وزارة « مصطفى النحاس » الثانية من أول يناير ١٩٣٠ - إلى ١٩ يونيو ١٩٣٠ كان « ويصا واصف » رئيسا لمجلس النواب . . وحدث خلاف دستوري بين الملك فؤاد والنحاس باشا . . وفي مجلس النواب طرح هذا الخلاف للمناقشة فوقف « عباس محمود العقاد » يقول بصوته الجمهوري (تسحق أنجر رأس تعتدى على الدستور . .) ولم يحاول رئيس المجلس أن يمنع المناقشة أو يؤجلها أو ينتقل إلى جدول الأعمال أو أن يخفف من وقع عبارات « العقاد » فاقال الملك فؤاد حكومة النحاس باشا ، وكلف « إسماعيل صدقي » بتشكيل حكومة جديدة ، والذي حاول ضم « ويصا واصف » إلى الوزارة الجديدة دون جدوى . . فطلب منه ان يمنع المناقشات التي أدت إلى اقالة الوزارة فرفض باصرار فأصدر الملك قرارا بتأجيل انعقاد البرلمان لمدة شهر يبدأ من ٢١ يونية . . وانفجرت المظاهرات ونزلت قوات صدقي تطلق الرصاص على المتظاهرين وأرسلت بريطانيا بارجتين إلى الإسكندرية ، وأمر صدقي بإغلاق أبواب البرلمان بالسلاسل ، وحاصر الشوارع المؤدية إلى البرلمان بقواته . . وتقدم « مصطفى النحاس » واخترق الحصار بسيارته ، ومن خلفه النواب ليصلوا إلى مقر البرلمان بالقوة .

وقرر النواب أن يدخلوا البرلمان خلف مصطفى النحاس بالقوة ، ولكن « الزعيم » حارس التقاليد البرلمانية قال في حزم . . ان رئيس مجلس النواب هو وحده صاحب الحق في ان يأمر الحراس بفتح الأبواب . . وتقدم رئيس مجلس النواب « ويصا واصف » وأمر الحرس بتحطيم السلاسل ، وفتح الأبواب . . وتقدم الصفوف إلى الداخل ، وكانت مظاهرة رائعة . . تحدث فيها « مصطفى النحاس » باعتباره نائبا عن دائرة سمنود .

الغذاء المسموم

وفي ليلة اليوم نفسه استصدر « إسماعيل صدقي » مرسوما بحل مجلس النواب ليجرى انتخابات لا يكون للوفد فيها أغلبية ، ولتستمر حكومة صدقي حتى ٤ يناير ١٩٣٣ ، وليعود « ويصا واصف » إلى المحاماه . . إذ كان محاميا أمام المحاكم المختلطة أيضا ، وكان المصري الوحيد الذي ينتخب نقيبا عدة مرات لنقابة المحامين المختلطة وذلك بفضل تمكنه من القانون ، واجادته للغة الفرنسية .

وفي الأسبوع الأخير من مايو ، الشهر الذي ولد فيه ، كان في الإسكندرية للمرافعة في قضية لأحد موكلية . . وقبل ان يتأهب للعودة إلى القاهرة ، ألح عليه أحد معارفه إلى وجبة غذاء من

الأسماك . . هكذا كانت الشائعات المتوارثة تقول بعد تناول وجبة السمك شعر بتعب شديد في المعدة ، وعاد إلى القاهرة ، وقرر الأطباء انه تعرض لحالة تسمم خطيرة . .

وفي ٢٧ مايو ١٩٣١ ، كانت القاهرة تودع جثمان « ويصا واصف » من منزله بالجيزة ، إلى مقره الأخير بمدافن الجبل الأحمر . . وهتافات هادرة (لن ننساك يا ويصا . . لن ننساك يا محطم السلاسل) وتعود الوفود المشيعة في منتصف الليل والشائعات كلها ان الملك فؤاد وراء الوجبة المسمومة . . ويرحل ويصا واصف تاركا تراثا مجيدا لوحدة الوطن ، ولوحدة مصر ، ونموذجا للوفاء والصلابة . . وتاركا ذرية تخدم مصر في مجالات مختلفة . . المهندس رمسيس ، والدكتور أوزيريس ، والدكتور أوريس ، والسيدتان ايزيس وسيروس . .

الأسانيد :

- ١- ايزيس ويصا واصف . . دراسة باللغة الفرنسية في ١٨ صفحة تفضلت بها وذكرت لنا أن كاتبها هو « الأستاذ ميشيل جرجس » .
- ٢- د . حسين مؤنس . . مجلة آخر ساعة مايو ١٩٧٣ (مقالات بعنوان دور الأقباط في ثورة ١٩١٩) .
- ٣- عبد الرحمن الرافعي - محمد فريد .
- ٤- محمد كامل سليم . . صراع سعد في أوروبا .

البكباشى يوسف صديق



قدمه إلى الناس قلم « الأستاذ محمد حسنين هيكل » بعبارة الرشيقة في ٢٧ أغسطس ١٩٥٢م على صفحات مجلة (آخر ساعة) وفي مقاله (من هم ضباط محمد نجيب) .. رسمته عدسة القلم الذكى هكذا .

العملاق الأسمر ذو العينين الحمراوين .. عملاق طويل عريض .. لفحته الشمس في معسكرات الجيش فجعلته أشبه ما يكون بتمثال من البرونز لقارس محارب مدرع من القرون الوسطى .. دبت فيه الحياة بمعجزة فخرج إلى عالم المغامرات هناك لازمتان تميزانه دائما .. شعر منكوش مهوش ، وعينان حمراوان من قلة النوم وكثرة ما يبذل من جهد ، قدمه لى لأول مرة اللواء محمد نجيب وكان ذلك قبل حركة القوات المسلحة ببضعة أيام ، كنت جالسا مع اللواء محمد نجيب وكان ساخطا على كل ما يحدث وقال لى بين ما قال : لقد فكرت فى أن استقبل من الجيش ! وفجأة ظهر العملاق الطويل القامة الذى يشبه تمثال البرونز السمراء ، ظهر على باب الشرفة واشترك فى المناقشة وهو فى مكانه قائلا :

لا .. يجب ألا تستقيل .. كلنا نرى أن تبقى معنا .. ويمضى قلم الأستاذ هيكل التصويرى .

وكان شكله فجر يوم حركة القوات المسلحة رائعا كان هو الذى قاد جزءا هاما فى عملية القبض على قواد الأسلحة من لواءات الجيش القدامى ، لقد قام بهذه العملية الخطيرة بمتهى الثبات والجرأة والسرعة .

وبعد الحركة بثلاثة أيام وعلى وجه التحديد فى يوم السبت ٢٦ يوليو ، اليوم الذى خلع فيه الملك عن العرش لقيته جالسا فى إحدى الشرفات فى مركز رئاسة قوات الجيش وكان قد خلق ذقنه

وخلع عنه البدلة التى ظلت على جسده خمسة أيام متواصلة ليل نهار وكان يحتسى فنجانا من القهوة ، وفى عينيه صفاء غريب ، أشبه ما يكون بأحلام الشعراء وهو الذى كان ليلة الحركة أعصارا هائجا ، لا يبقى ولا يذر (انتهى كلام الأستاذ هيكل) .

والآن هل أدعه يحدثنا عن دوره التاريخى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من واقع مذكراته ؟ أم أننى أدخر المذكرات إلى مجال آخر أنانية واثرة . . فى حين أنها وصلتنى فى يسر وسهولة . . وتفضل بها الزميل والصدى المناضل القديم « الشاعر محمود توفيق » والسيدة الفاضلة حرمة كريمة البطل الجسور « يوسف صديق » تفضلا بها عن طيب خاطر . . وبعد تفصيلات كثيرة نتجاوزها هنا نصلى إلى صفحة ٢٧ من المذكرات . . ويوسف صديق على رأس قواته أمام مقر قيادة الجيش . . (أسرعت بقوتى نحو مبنى القيادة ففوجئت بنيرانه توجه إلينا . . لم يكن فى أرض المعركة . . ما نحتمى به من هذه النيران سوى سور من الأشجار لا يكاد ارتفاعه يبلغ المتر - وهو يحمى من النظر ولكن لا يحمى من النيران - ولما ردت قواتنا على نيران الحرس بنيران حامية عرف الحرس أنه أمام قوة تفوقه عددا فبدأ يتراجع وبعد لحظات توقفت نيرانه تماما فعرفت أن ذخيرته قد نفذت فأمرت بإيقاف النيران - ثم أصدرت أمرى إلى قوة الحرس بأن تلقى أسلحتها على الأرض ففعلت دون تردد ثم أمرتها بالاتجاه للخلف ففعلت ثم أمرتها بالسير بعيدا عن الأسلحة فنفذت الأمر - وتركت حراسة عليها وعلى المدخل ولم يبق أمامى سوى الصعود إلى الطابق العلوى لمهاجمة الاجتماع (يقصد اجتماع اللواء أركان حرب حسين فريد وقادة الوحدات الذى كان منعقدا لاجهاض حركة الضباط الأحرار) .

وتفصيلات أكثر يقدمها لنا يوسف صديق فى ذكريات له على صفحات مجلة (روز اليوسف) رواها أثناء أزمة فبراير ومارس ١٩٥٤ :

(أقول لك باختصار اننى تحركت على رأس هذه القوة الصغيرة فى منتصف ليل ٢٣ يوليو فقابلت فى طريقى من معسكر هاكستب إلى إدارة الحرس قائد فرقة المشاة العسكرية فاعتقلته وأخذته أسيرا ، ثم قابلت القائد الثانى المساعد فى الطريق فاعتقلته كذلك) .

وقد صادفت البكباشى جمال عبد الناصر والصاغ عبد الحكيم عامر فى مصر الجديدة حيث علمت منهما أن أمر الضباط الأحرار قد كشف وأن رئيس أركان حرب الجيش يعقد اجتماعا فى رئاسة الجيش لاصدار أوامره لمقاومة الحركة فأسرعت إلى مقر الاجتماع على الفور وهاجمت القيادة وقبضت على رئيس أركان حرب الجيش وعلى معظم القواد الذين كانوا فى طريقهم إليه ، وكذلك قبضت على القوات التى أرسلت لتعزيز الحراسة على رئاسة الجيش فقضيت بذلك على المقاومة وأصبح للضباط الأحرار الأمر فى البلاد .

الجيش في السلطة

وهذا الدور الذى قام به « البكباشى يوسف صديق » أكدته « اللواء محمد نجيب » و « عبد اللطيف البغدادى » و « جمال حماد » و « أحمد حمروش » و « الصحفى حمدى لطفى » . . ولكن الرئيس الراحل « محمد أنور السادات » عندما كتب قصة الثورة ، وكتب « البحث عن الذات » أسند هذا الدور « للسيد عبد الحميد شديد » وهو مساعد ليوسف صديق فى هذه الملحمة التاريخية ، ومرة أخرى أسند الدور لعبد الحكيم عامر ويوسف صديق . . ولكن الدور مؤكد على أية حال تقر به كل الوثائق التاريخية التى لها احترامها .

والمؤكد أيضا . . أن « محمد أنور السادات » نفسه كان فى السبيل هو والسيدة زوجته ، وأن الضباط « محمد أحمد على غنيم » - وهذا هو اسمه بالكامل كما ورد فى مذكرات يوسف صديق - قبض على « جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر » وهما بالملابس المدنية وكانا يستكشفان مجريات الأمور وقد تأكدا من أن أمر الحركة قد انكشف وبفدائية نادرة اندفع يوسف صديق ليحتل القيادة ويعتقل من فيها ويتغير وجه التاريخ المصرى الحديث .

والمؤكد كذلك أن اللواء محمد نجيب كان وثيق الصلة بالبكباشى يوسف صديق بشهادة محمد حسنين هيكل التى جاءت فى مقاله فى مجلة آخر ساعة مما يجهز تماما على كل الدعاوى التى روجها عبد الناصر ودعاة عبد الناصر من أن « اللواء محمد نجيب » لم يكن على صلة بالضباط الأحرار وأنه لم يعرف بالحركة إلا بعد استيلاء الضباط على السلطة وهذا لاغير من الحقيقة التاريخية وهى أن « جمال عبد الناصر » هو القائد والمنظم لحركة الضباط الأحرار .

الظلال الأولى

وعمل كبير كالى قام به « يوسف صديق » ولم يكن فى المخطط الأصل أن يقوم به ، وإنما هو حسب كلام البغدادى والسادات كان من المقرر أن يقوم به « جمال عبد الناصر » ، وعبد الحكيم عامر ، وعبد اللطيف البغدادى ، وحسن إبراهيم » ولكن أمر الحركة عرفته السراى وأصدرت تعليماتها لضرب الحركة ، وذهب « عبد الناصر وعبد الحكيم » يجمعان حول مسرح المعركة المقرر لها واذا بيوسف صديق ، يعاونه « عبد المجيد شديد » ومعهما ضباط حرس « يوسف صديق » وقد حرص على أن يشيد بأدوارهم فى مذكراته ، هؤلاء كانوا طليعة تنفيذ المرحلة الأولى من الخطة . وهنا يأتى الحديث عما أسماه الكثيرون بالخطأ الذى أنقذ الثورة وهو تحرك « البكباشى يوسف صديق » قبل ساعة الصفر بساعة . . وهل أخطأ « زغلول عبد الرحمن » فى تبليغ « عبد المجيد

شديد بالموعد ؟ وهل سمع « يوسف » بالموعد بطريقة خاطئة ؟ وتقديرى الخاص أن الموعد الذى عرفه زغلول وشديد ويوسف هو الموعد الذى تحرك فيه يوسف وقواته وقبل موعد الصفر بساعة كاملة . وهذا الموعد أبلغه « جمال عبد الناصر » مباشرة إلى معاونه المخلص « زغلول » ليصل إلى « يوسف » أما لماذا حدد عبد الناصر هذا الموعد المبكر ليوسف وقواته ؟ ربما يكون لنا فيه حديث أكثر شمولاً .

وعلى المستوى الفردى نستطيع أن نفهم أثر هذا العمل الكبير الذى قام به « يوسف صديق » ، وعبد المجيد شديد ، ومحمود حسنى عبد القادر ، ومحمد أحمد على غنيم ، ومحمود عباس عبد الهادى « على نفسية قائد جسور مثل يوسف صديق .

وقد عبر عن اعتزازه بهذا الدور فى حديث له لجريدة المصرى فى ٢٤ مارس ١٩٥٤ خلال أزمة مارس الشهيرة بقوله : (إن صبح لى أن أتحدث عن نفسى فانى أقول هؤلاء انى ضابط مصرى قمت على رأس الضباط الأحرار يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بالدور الرئيسى الذى مكن الضباط الأحرار من تنفيذ سياستهم . .) .

وفى تقديرنا أن « جمال عبد الناصر » قائد الضباط الأحرار لم يغيب عنه منذ الليلة الأولى للحركة هذا الدور الذى قام به « يوسف صديق » ولعل هذا كان له أثره أيضا فى الصدام المبكر بين جمال عبد الناصر ويوسف صديق ، هذا بالطبع إلى جانب عوامل أساسية تعود إلى الاتجاه الديمقراطى الأصيل لدى « يوسف صديق » والاتجاه الدكتاتورى الأصيل لدى عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة . هذا وإن كان « يوسف صديق » قد تميز دائما بقدرته على النظر إلى الأمور نظرة شاملة بايجابياتها وسلبياتها ويرتفع فوق الجراح فى اللحظة المناسبة كما يتضح من موقفه أثناء العدوان الثلاثى .

أعلنت حركة القوات المسلحة أن الانتخابات النيابية سوف تجرى بعد ستة أشهر أى فى أوائل أبريل عام ١٩٥٣ ولم يكن هذا اتجاها أصيلا لدى عبد الناصر أو الغالبية الساحقة من مجلس قيادة الثورة . فعلى مستوى الخبرات المدنية السياسية التى استعانوا بها كان « على ماهر وسليمان حافظ » وكلاهما عدو شرس للديمقراطية وللوفد . . وعلى مستوى المواقف صدر فى ٧ سبتمبر قانون إعادة تنظيم الأحزاب وهم فى حقيقة الأمر لا يريدون أية أحزاب وفى ١٠ ديسمبر تقرر إلغاء العمل بدستور ١٩٢٣ وفى ١٦ يناير ١٩٥٣ صدر قرار بحل الأحزاب كافة مع الإبقاء على جماعة الإخوان المسلمين . ومنذ اليوم الأول لحركة القوات المسلحة حتى فبراير ١٩٥٣ وهو موعد اجراء الانتخابات الذى سبق الإعلان عنه . نستطيع أن نقول أن موقف « يوسف صديق » كان منحازا بشكل مباشر ومحدد للديمقراطية وللحياة النيابية إلى حد الصدام فى المناقشات داخل مجلس قيادة

الثورة وكان موقف « خالد محيي الدين » أكبر خبرة بالعمل السياسى وإن كان منحازا أيضا للديمقراطية وكان موقف محمد نجيب فى أساسه ديمقراطيا ولكنه يتسم بالتردد وعدم الحسم .

ويقول « يوسف صديق » كان طبيعيا أن أكون عضوا فى مجلس الثورة وبقيت كذلك حتى أعلنت الثورة أنها ستجرى الانتخابات فى شهر فبراير سنة ١٩٥٣ . غير أن مجلس قيادة الثورة بدأ بعد ذلك يتجاهل هذه الأهداف فحاولت أكثر من مرة أن أترك المجلس وأعود الى صفوف الجيش فلم يسمح لى بذلك حتى ثار فريق من الضباط الأحرار على مجلس قيادة الثورة يتزعمه اليوزباشى محسن عبد الخالق فأيدت الثائرين فأبعدت إلى أسوان سنة ١٩٥٣ وكان مجلس الثورة قد خدعه مستشاروه المضللون فما حل شهر فبراير ١٩٥٣ الذى كان محمدا لعودة الحياة النيابية إلا وكان مجلس قيادة الثورة قد اعتقل الضباط الثائرين وحاكمهم وسجنهم ، وأصبح واضحا أن الثورة قد انحرفت واتصلت بالبكباشى جمال عبد الناصر تليفونيا من أسوان وأخبرته أنني لايمكن أن أبقي عضوا فى مجلس الثورة وطلبت منه أن يعتبرنى مستقيلا ، فاستدعانى للقاهرة ونصحت بأن أسافر للعلاج فى سويسره على أن أعود بعد ثلاثة أشهر للعمل فى صفوف الجيش .

الاستقالة

وفى فبراير ١٩٥٣ قدم « يوسف صديق » استقالته وضمنها كل هذه الخلافات وتم ابعاده إلى سويسره فى مارس ١٩٥٣ وهناك أدرك أنه فى المنفى تحت ستار العلاج وتهدة الأمور فنطق شيطان شعره بقصيدة (حسناء ليسان) تقع فى ٢٩ بيتا من الشعر العمودى نختار منها الأبيات التالية :

حسناء ليسان ترعانى على الجبل

جاءت تداوى فكانت علة العلل

(ايفون) انى غريب فى دياركمو

وللغريب نوال القصد والأمل

أنا من بلاد رواها النيل فى كرم

وفى وفاء كساها أجمل الحلل

الحق فى جانبى والظالمون همو

والله ينصر أهل الحق فى الجلل

ورحت أجمع شمل الناس فى حذر

وفى وفاء وأدعوهم إلى العمل

فقال قوم كفانا الله شرهمو
 هذا مريب وقد يدعو إلى خطل
 فأرسلوه بعيدا لا يهددنا
 وشتتوا صحبه في كل معتقل
 فأبعدوني إليكم ألف مغفرة
 لأهل مصر وإن هم شوهاوا عملي
 يا أخت انى شهيد جئت جنتكم
 هل في الجنان يداوى الداء بالشعل
 أنا الورفى الذى لم يشته دمه
 ينساب من صدره عن يومك الحفل
 لم يكفى شرفا أن كنت شاهده
 بل كنت فيه فتى فتياه الأول

ونترك سويسره ونترك مصحة ليسان ونترك الجبل وسحره ونترك « ايفون » هناك فالشهور الثلاثة المقررة لراحته أو لعلاجها هناك قد انتهت وعودته غير مرغوب فيها ويعود سرا إلى بلدته (زاوية المصلوب - مركز الواسطى - محافظة بنى سويف) في أغسطس ١٩٥٣ ، وأرسل برقية من هناك إلى اللواء محمد نجيب يبلغه فيها بعودته وباستقالته من الجيش ومن مجلس قيادة الثورة فأسرع عناصر « عبد الناصر » تحدد اقامته هناك ثم عاد إلى القاهرة وحددوا اقامته هنا في القاهرة أيضا وبعبارة أدبية بليغة يصف يوسف صديق حاله وحال محمد نجيب (ومن طريق مايمكن أن أذكره أن منزلى بحلمية الزيتون حيث اقامتى محدة لايفصله عن منزل الزميل (ولاحظ عبارة الزميل) محمد نجيب إلا شارع واحد هو الممر الذى يفصل بين الحر المعتقل وبين المعتقل الحر) .

صحيح أنه استقال من الجيش ومن مجلس قيادة الثورة ولكن منذ متى كان الثوار يقدمون استقالة من الثورة ؟ انه يعد نفسه منذ الليلة الأولى مسئولاً أمام التاريخ . . يقول لمندوب روز اليوسف أثناء أزمة مارس (لا تظن أنه مدامت اقامتى محدة فنشاطى السياسى ينتهى هذا حال فأنا كما قلت مسئول أمام التاريخ ومادام قد أبيع للعسكريين الاشتغال بالسياسة فسيبقى نشاطى السياسى مستمرا حتى يتمكن الشعب من حقوقه وسيادته وقبل هذا ، وقبل أن يعود العسكريون جميعا إلى ثكناتهم وتصبح كما كنا رجال حرب وضد العدو فحسب لايمكن أن يتوقف نشاطى السياسى) .

لقد كان « يوسف صديق » إلى جانب الديمقراطية وعودة الحياة النيابية ، والتعددية الحزبية بشكل مباشر كما قلنا لايعرف التردد ولايجيد السير في دهاليز السياسة يعبر عن رأيه في شجاعة حتى ولو وقف وحيدا .

ونراه هناك عندما وقعت البلاد فى أزمة فبراير ومارس ١٩٥٤ وطوائف من الشعب كالمحاميين والطلاب ينادون بحل مجلس قيادة الثورة ، وبالحياة النيابية وفريق من الجيش يتمثل فى سلاح الفرسان يؤكد هذا الاتجاه ، وخالد محيى الدين من مجلس قيادة الثورة يدافع عن الديمقراطية . . وفى مواجهة هؤلاء جميعا يقف « جمال عبد الناصر » بكل دهائه السياسى ومرونته وإجادته للتقدم والتراجع ومعه باقى أعضاء مجلس قيادة الثورة وعناصر كثيرة من الضباط الأحرار وقادة وحدات الجيش الذين يرغبون فى السلطة . . هناك نرى يوسف صديق يؤكد موقفه الثابت منذ الأيام الأولى إلى جانب حق الشعب فى الحياة الديمقراطية .

ولأهمية هذا الموقف الذى لاتردد فيه أشير إلى الرسالة التاريخية التى أرسلها البكباشى يوسف صديق إلى « اللواء محمد نجيب » لتبقى وثيقة تاريخية .

السيد رئيس الجمهورية ورئيس قيادة الثورة ورئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكرى العام - جمهورية مصر « البرلمانية » .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فلاشك أنكم تقدرتون مدى المسئولية التى أتحملها معكم أمام التاريخ عن مصير هذه البلاد نتيجة للعمل الإيجابى العنيف الذى قمت به فى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، والذى لا أستطيع أن أفلت من مسئوليته حتى بعد استقالتي من مجلس قيادة الثورة فى فبراير سنة ١٩٥٣ .

بالرجوع إلى التاريخ الذى عملناه من يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى أن وصلنا لهذه الحالة نلمس الآتى :

(أ) بعد طرد فاروق من البلاد فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ بدأ مجلس قيادة الثورة مناقشة الخطوة التالية التى كانت تتلخص فى هذا السؤال (لمن الحكم ؟) وكان هناك رأيان فى الجواب على هذا السؤال أما أحدهما فكان يرى دعوة البرلمان المنحل لىباشر سلطته الشرعية وأما الآخر فقال بعدم دستورية هذا الحل ورأى أن نذهب مذهبا آخر ، استقر رأى على استفتاء قسم رأى بمجلس الدولة مجتمعاً لهدايتنا إلى التصرف الدستورى السليم فأفتى بأغلبية تسعة أصوات ضد صوت واحد بعدم دستورية دعوة البرلمان الصوت الواحد للدكتور وحيد رأفت .

(ب) سرنا على هدى هذه الفتوى ووصلنا إلى الحالة السيئة الراهنة وتبين لنا أننا ضللنا الطريق .

(ج) بعد أن تبين لنا بوضوح أننا قد ضللنا الطريق فلا يكون هناك تصحيح للوضع سوى أن نعود إلى حيث أشكل عليه الأمر فلنصنح طريقنا .

وعلى ضوء هذه الحقائق نجد أن علاج الموقف ينحصر فى أحد حلين لا ثالث لهما .

(أ) دعوة البرلمان المنحل ليتولى حقوقه الشرعية .

(ب) تأليف وزارة ائتلافية تمثل القيادات السياسية المختلفة القائمة فعلا في البلاد وهي الوفد والإخوان المسلمون والاشتراكيون والشيوعيون تشرف على اجراء انتخابات للبرلمان في أسرع فرصة حتى تختار البلاد حكامها الشرعيين ويعود الجيش إلى ثكناته . . وأقترح أن يكون رئيس الوزارة المقترحة هو الدكتور وحيد رأفت الذي أكسبته الحوادث التاريخية هذا الحق فلا تكون الرئاسة محلا للخلاف .

القاهرة في ١٧ مارس سنة ١٩٥٤ .

القائم مقام أركان الحرب يوسف منصور صديق عضو مجلس قيادة الثورة سابقا .
وأعتقد أن هذه الرسالة هي (جهيزة) التي قطعت قول كل خطيب حول موقف يوسف صديق من الديمقراطية ولم يكن أمام الجناح الآخر المعادى للديمقراطية منذ اليوم الأول لحركة القوات المسلحة إلا الحل التقليدي وهو الاعتقال .

وفي أبريل ١٩٥٤م اعتقل القائم مقام يوسف صديق في السجن الحربي ١ واعتقلت السيدة زوجته وأبنائه وأقاربه وكل من سار على دربه ، وأفرج عنه في مايو ١٩٥٥ . وظلت اقامته محددة حتى أكتوبر ١٩٥٦ عندما وقعت مؤامرة العدوان الثلاثي من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فعاد البطل الجسور إلى ملابس الميدان وخرج يدافع عن تراب مصر . . ورأينا العملاق الأسمر ذا العينين الحمراوين في سجن مصر يزور الشاعر محمود توفيق زوج كريمته . . وكنت هناك . وكانت هذه المرة الأولى والأخيرة التي قدر لي أن أرى فيها المقاتل الجسور من أجل الديمقراطية كنا ثلاثة طلبنا منه أن يبلغ جمال عبد الناصر أن يفرج عنا نحن المسجونين السياسيين للدفاع عن أرض الأباء والأجداد ونعود بعدها إلى الزنازين . . وجاء رد عبد الناصر . . لا . . متشكرين !!

في صباح ٣١ مارس ١٩٧٥ م كان رحيل ابن مصر القائم مقام يوسف منصور صديق الذي ولد في ٣ يناير ١٩١٠ في قرية صغيرة من صعيد مصر وتخرج في الكلية الحربية سنة ١٩٣٣ وتخصص في التاريخ العسكري وحصل على شهادة أركان حرب ١٩٤٥ وتقدم ليلة ٢٣ يوليو يحتل مقر قيادة الجيش ويعتقل من فيها . . ومحمد أنور السادات في سينما الروضة . . وجمال وعبد الحكيم يرقبان الموقف من بعيد . . وتلك قصة أخرى .

الأسانيد:

- ١- المصري . . (جريدة) أعداد ٢٣-٢٥ مارس ١٩٥٤ .
- ٢- روز اليوسف . . (مجلة) ذكريات يوسف صديق العدد ١٣٤٦ .
- ٣- محمد حسنين هيكل . . آخر ساعة ٢٧ أغسطس ١٩٥٢ .
- ٤- الوادى . . (مجلة) العدد ٤٠ أغسطس ١٩٨٢ .
- ٥- يوسف صديق . . مذكرات لم تنشر بعد

فهرس

٥	الإهداء
٧	تقديم
٩	الدكتور / أحمد أمين
١٦	الشيخ / أحمد حسن الباقوري
٢٣	أحمد حسن الزيات
٣٠	أحمد حسنين
٣٧	أحمد حسين
٤٤	أحمد حلمي
٥٢	المهندس / أحمد عبده الشرباصي
٥٩	أحمد فتحي زغلول
٦٨	أحمد لطفى السيد
٧٥	أحمد ماهر
٨٢	أحمد نجيب الهاللى
٨٩	إسماعيل صدقى
٩٩	الدسوقي أباطه
١٢٦	أنور السادات
١١٣	توفيق الحكيم
١٢١	جمال عبد الناصر
١٢٨	حافظ عفيفى
١٣٥	الشيخ / حسن البنا
١٤٢	الدكتور / حسين فوزى
١٥٠	حمد الباسل
١٥٧	رفاعة الطهطاوى
١٦٤	الدكاترة/ زكى مبارك
١٧١	سعد زغلول
١٧٨	سلامة موسى

١٨٥	سينوت حنا
١٩٢	شريف باشا (أبو الدستور)
١٩٩	شهدى عطية الشافعى
٢٠٦	الدكتور / صبرى السربونى
٢١٣	الصاغ / صلاح سالم
٢٢٠	الدكتور / طه حسين
٢٢٨	عبد الرحمن الرافعى
٢٣٦	عبد الرحمن الشرفاوى
٢٤٣	عبد الرحمن فهمى
٢٥٤	الدكتور / عبد الرزاق السنهورى
٢٦١	عبد العزيز الشورى
٢٦٨	الشيخ / عبد العزيز جاويش
٢٧٥	عبد العزيز فهمى
٢٨٢	عبد السلام فهمى جمعة
٢٨٨	عبد الفتاح الطويل
٢٩٤	عبد اللطيف المكباتى
٣٠١	عبد المنعم عبد الرؤوف
٣١٠	الدكتور / عبد الوهاب عزام
٣١٧	عدلى يكن
٣٢٤	الدكتور / عزيز سوريال
٣٣١	الدكتور / عزيز فهمى
٣٤٠	الفريق / عزيز على المصرى
٣٤٩	عزيز ميرهم
٣٥٥	على زكى العربى
٣٦١	على شعراوى
٣٦٨	على ماهر
٣٧٦	الدكتور / على مصطفى مشرفة
٣٨٢	عمر لطفى
٣٩١	فتحي رضوان

٣٩٨	فتح الله بركات
٤٠٤	فخري عبد النور
٤١١	فكري أباطة
٤١٨	قاسم أمين
٤٢٥	البابا / كيرلس الخامس
٤٣٢	الدكتور / محمد بلال
٤٣٩	محمد حافظ رمضان
٤٤٦	محمد صبري أبو علم
٤٥٢	محمد طلعت حرب
٤٦١	الشيخ / محمد عبده
٤٧١	محمد عبد الله عنان
٤٧٨	محمد علي علوبة
٤٨٥	الشيخ / محمد أبو زهرة
٤٩١	الشيخ / محمد عبد اللطيف دراز
٤٩٧	محمد فريد
٥٠٤	الدكتور / محمد حسين هيكل
٥١٣	محمد فهمي عبد المجيد
٥٢٠	الدكتور / محمد كامل حسين
٥٢٦	الشيخ / محمد مصطفى المراغي
٥٣٣	محمد محمود
٥٤٠	اللواء / محمد نجيب
٥٤٩	الدكتور / محمد مندور
٥٥٧	محمود حمدي الفلكي
٥٦٤	محمود أبو الفتاح
٥٧٢	محمود سليمان غنام
٥٧٩	محمد زكي عبد القادر
٥٨٦	الشيخ / مصطفى عبد الرازق
٥٩٣	مصطفى النحاس
٦٠٣	مصطفى مرعي

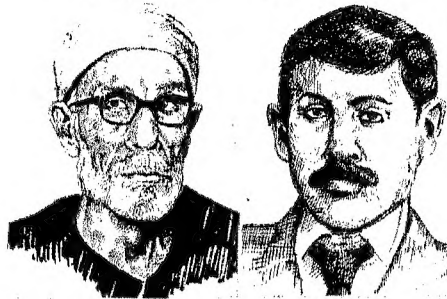
٦١٠	المستشار/ ممتاز نصار
٦١٨	مصطفى كامل
٦٢٥	مكرم عبيد
٦٣٢	الدكتور / نجيب محفوظ
٦٣٨	واصف بطرس غالى
٦٤٤	الدكتور / وحيد رافت
٦٥٢	ويصا واصف
٦٦١	البكباشى / يوسف صديق

رقم الإيداع : ١٩٩٥/٤٢٠٤

I.S.B.N. 977 - 09 - 0291 - 8

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



هذه الموسوعة

هذه موسوعة جديدة في شكل جديد ومضمون جديد تضم تسعين رجلاً من مصر أنشروا الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية خلال فترة يمكن أن نطلق عليها سنوات النكسين بالنسبة لمصر الحديثة. وهي جزء من الإثراء الحقيقي لذاكرة الأمة وعقل المجتمع ووعي المواطن بما تضمه من دراسات تحليلية. ولم يكن غريباً أن أعرف من أصدقاء مفترين خسارح مصر أن أولادهم الذين يقرأون حتى الآن باللغة العربية أنبهروا وكان سؤالهم الدائم: هل كان في مصرنا مثل هذه الشخصيات الرائدة؟

لقد لمعت هذه النجوم الزاهرة في سماء مصر واختلفت درجات الاضاءة التي تبعث بها، ولكنها أعطت بقدر ما أتيسح لها من رؤية في حدود زمانها وموقعها.



هذه الموسوعة

هذه موسوعة جديدة في
شكل جديد ومضمون جديد
تضم تسعين رجلاً من مصر
أثروا الحياة السياسية
والاجتماعية والفكرية والثقافية
خلال فترة يمكن أن نطلق
عليها سنوات التكوين
بالنسبة لمصر الحديثة. وهي
جزء من الإثراء الحقيقي
لذاكرة الأمة وعقل المجتمع
ووعى المواطن بما تضمه من
دراسات تحليلية. ولم يكن
غريباً أن أعرف من أصدقاء
مغترين خارج مصر أن
أولادهم الذين يقرأون حتى
الآن باللغة العربية أنبهروا
وكان سؤالهم الدائم: هل
كان في مصرنا مثل هذه
الشخصيات الرائدة؟

لقد لمعت هذه النجوم
الزاهرة في سماء مصر واختلفت
درجات الاضاءة التي تبعث
بها، ولكنها أعطت بقدر ما
أتيح لها من رؤية في حدود
زمانها وموقعها.

